

المواخط والأعني في ذكر الخط والاشكال

لنهي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقدسي

٧٦٦ - ٨٤٥ هـ
١٣٦٥ - ١٤٤١ م

حَقَّقَهَا وَكَتَبَ مُقَدِّمَهَا وَوَصَّيَ قَهَّارَهَا
الدكتور أمهرن فؤاد سيد



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
لندن ١٤١٦ / ١٩٩٥

فهرست الموضوعات

صفحة

تصدير لمعالي الشيخ أحمد زكي يمالي س - ع

مقدمة الحق

- لماذا هذه الثمرة ؟ ١ - ٤
- المقريزي وكنائنه «الموايعظ والاختيار» ٥ - ٦٨
- الكتاب ومؤلفه ٨ - ٣٠
- ١ - موضوع الكتاب وما ألفت فيه من قبل ٨ - ٣٠
- كُتِبَ الحِطُّ قَبْلَ الْمُقْرِيزِي ٩ - ٢١
- القاهرة في عصر الناصر محمد بن قلاوون ١٦ - ١٧
- القاهرة المقريزي ١٩ - ٢١
- كُتِبَ الحِطُّ بَعْدَ الْمُقْرِيزِي ٢١ - ٢٧
- غرائب القاهرة ٢٤ - ٢٥
- كُتِبَ الزَّيَارَات ٢٧ - ٣٠
- ٢ - مُؤَلَّفُ الْكِتَاب - فَرْجَمَةٌ جَدِيدَةٌ لِلْمُقْرِيزِي ٣٠ - ٣٩
- حياته ٣١ - ٣٦
- نسبه ٣٦ - ٣٧
- دار المقريزي وقبره ٣٧ - ٣٩
- مؤلفاته ٤٠ - ٥٣
- التاريخية (تاريخ مصر - التاريخ الإسلامي - سيرة النبي ﷺ) ٤٠ - ٤٧
- المؤلفات الصغيرة ٤٨ - ٥٠
- المختصرات ٥٠ - ٥٢

صفحة

..... كتاب منسوب للمقرئزي	٥٢-٥٣
..... ٣ - المواعظ والاختيار في ذكر الخطط والآثار	٥٣-٦٦
..... - ترتيب الكتاب ومنهجه	٥٣-٥٦
..... - مشكلة تحريره	٥٦-٦٦
..... - الخطط بين المقرئزي والأوخدي وابن دثماق	٥٧-٦٦
..... متى ألف المقرئزي كتابه ؟	٦٦-٦٨
..... مصادير الكتاب	٦٩-٩٨
..... - مصادير المجلد الأول	٧١-٩٨
..... نشرات الخطط والدراسات المعتمدة عليها	٩٩-١٠٦
..... - النشرات الجزئية	٩٩-١٠٠
..... - نشره بولاق	١٠٠-١٠٢
..... - نشره فييت	١٠٢-١٠٣
..... - ترجمات الخطط	١٠٣
..... - فهرس الخطط (الكشافات)	١٠٣-١٠٤
..... - الدراسات المعتمدة على الخطط	١٠٤-١٠٦
..... مخطوطات الكتاب	١٠٧-١٢٢
..... طريقتي في إخراج النص	١٢٣-١٢٥
..... عروض مستودة المواعظ	١٢٧-١٣٨
..... الرموز والاختصارات	١٣٩-١٤٠
..... اللوحات	

المواعظ والاختيار في ذكر الخطط والآثار

..... حطبة الكتاب	٣-١٠
..... ذكر الرؤوس الثمانية	٦-٩
..... فضل أول من رتب خط مصر	٩-١٠
..... ذكر طرف من هيئة الأفلاك	١١-١٩

ذِكْرُ صُورَةِ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِ الْأَقَالِيمِ مِنْهَا

بِحَمَلٍ مِنْ أَعْيَارِ مِصْرَ وَأَحْوالِ نِيلِهَا وَخَرَاجِهَا وَجِبَالِهَا

- ذِكْرُ مَحَلِّ مِصْرَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْأَقْسامِ السبعة ٤٦-٣٤
- ذِكْرُ مَحْذُودِ مِصْرَ وَجِهَاتِهَا ٤١-٣٦
- ذِكْرُ بَحْرِ الْقَلْزُومِ ٤٢-٤٠
- ذِكْرُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ٤٦-٤٣
- ذِكْرُ اسْتِيفَاقِ مِصْرَ وَمَعْنَاهَا وَتَقْدَادُ أَسْمَائِهَا ٥٩-٤٦
- ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ فَضَائِلِ مِصْرَ ٨١-٥٩
- ذِكْرُ الْعَجَائِبِ الَّتِي كَانَتْ بِمِصْرَ مِنَ الطَّلُشْمَاتِ وَالْبَرَايِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ١٠٥-٨١
- ذِكْرُ الدَّفَائِنِ وَالْكُنُوزِ الَّتِي يُسَمِّيها أَهْلُ مِصْرَ الْمَطَالِبِ ١٠٩-١٠٦
- ذِكْرُ مَلَاكِ أَشْوالِ أَهْلِ مِصْرَ ١١١-١١٠
- ذِكْرُ أَخْلاقِ أَهْلِ مِصْرَ وَطَبَائِعِهِمْ وَأَخْرَاجَتِهِمْ ١٣٢-١١٢
- ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ فَضَائِلِ النَّيْلِ ١٣٣-١٣٢
- ذِكْرُ مَخْرَجِ النَّيْلِ وَأَنْبِعَاثِهِ ١٤٤-١٣٤
- فَضْلٌ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ اخْتَقَدَ أَنَّ النَّيْلَ مِنْ سَبِيلٍ يَغْمِضُ ١٥٠-١٤٤
- ذِكْرُ مَقاييسِ النَّيْلِ وَزِيادَتِهِ ١٦٣-١٥٠
- ذِكْرُ الْجَيْشِ الَّذِي كَانَ يُقْبَرُ عَلَيْهِ فِي النَّيْلِ ١٦٣
- ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مَاءِ النَّيْلِ مِنْ مَذْحٍ وَذَمٍّ ١٧٣-١٦٤
- ذِكْرُ عَجَائِبِ النَّيْلِ ١٧٩-١٧٣
- ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ تَقْدِيمَةِ الْمَقْرِفَةِ بِحَالِ النَّيْلِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ١٨٢-١٨٠
- ذِكْرُ عِيدِ الشَّهِيدِ ١٨٥-١٨٣
- ذِكْرُ الْخَلْجَانِ الَّتِي شَقَّتْ مِنَ النَّيْلِ ١٩٢-١٨٦
- تَحْلِيحُ سَحَا ١٨٧
- تَحْلِيحُ سَرْدُوس ١٨٩-١٨٨

صفحة	
١٨٩-١٩٠	تخليج الإسكندرية
١٩٠	تخليج الفيوم والمنهى
١٩٠-١٩١	تخليج القاهرة
١٩١	بحر أبي المتبحر
١٩٢-١٩٢	الخليج الناصري
١٩٢-١٩٣	ذكر ما كانت عليه أرض مصر في الزمن الأول
١٩٣-١٩٨	ذكر أعمال الديار المصرية وتطورها
	ذكر ما كان يمثل في أراضي مصر من حفر الترع وعمارة المنشآت ونحو ذلك من أجل
١٩٩-٢٠١	ضبط ماء النيل وتصريفه في أوقاته
٢٠١-٢٠٣	ذكر مقدار خراج مصر في الزمن الأول
٢٠٤-٢١٢	ذكر ما عيَّله المسلمون عند فتح مصر في الخراج وما كان من أثر مصر في ذلك مع القبط
٢١٢-٢١٤	ذكر انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك
٢١٤-٢١٨	ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشاً وما كان في نزولهم من الأحداث
	ذكر قبالات أراضي مصر بعد ما فتح الإسلام في القبط ونزول العرب في القرى وما كان
٢١٨-٢٣٥	من ذلك إلى الروك الأخير الناصري
٢٣٥-٢٤٤	ذكر الروك الأخير الناصري
٢٤٤-٢٦٥	ذكر الديوان
٢٤٦-٢٥٧	ذكر ديوان القساكر والجيش
٢٥٧-٢٦٤	ذكر القطاعات والإقطاعات
٢٦٤-٢٦٥	ذكر ديوان الخراج والأموال
٢٦٥-٢٧٠	ذكر خراج مصر في الإسلام
٢٧٠-٢٧٨	ذكر أصناف أراضي مصر وأقسام زراعتها
٢٧٨-٢٩٩	ذكر أقسام مال مصر
٣٠٠-٣٣١	ذكر الأملاك
٣٣١-٣٣٤	ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول

٣٣٩-٣٣٤	ذِكْرُ الجبال
٣٣٨-٣٣٥	ذِكْرُ الجبلِ المُقَطَّم
٣٣٩-٣٣٨	الجبلُ الأَحمَر
٣٣٩	جبلُ بِشْكَر
٣٤٠	الكنش
٣٤٠	الشرف
٣٤٦-٣٤٠	ذِكْرُ الوُضد

ذِكْرُ قَدَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ

٣٦٣-٣٥٠	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ وَعِجَائِبِهَا وَمُلُوكِهَا
٣٩١-٣٦٤	ذِكْرُ مَدِينَةِ مَئِفَ وَمُلُوكِهَا
٤٧٤-٣٩٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ
٤١١-٤٠٧	ذِكْرُ الإسْكَندَرِ
٤١٤-٤١١	ذِكْرُ تَارِيخِ الإسْكَندَرِ
٤١٧-٤١٤	ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ الإسْكَندَرِ وَذِي القَرْنَيْنِ وَأَنَّهُمَا رَجُلَانِ
٤٢٢-٤١٨	ذِكْرُ مَنْ وَلَّى الْمَلِكُ بالإسْكَندَرِيَّةِ بَعْدَ الإسْكَندَرِ
٤٢٩-٤٢٢	ذِكْرُ مَنَارِ الإسْكَندَرِيَّةِ
٤٣٢-٤٢٩	ذِكْرُ الْمَلْعَبِ الَّذِي كَانَ بالإسْكَندَرِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنَ العِجَائِبِ
٤٣٨-٤٣٢	ذِكْرُ عَمُودِ السُّوَارِي
٤٤١-٤٣٨	ذِكْرُ طَرَفٍ مِمَّا قَبْلَ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ
٤٥١-٤٤١	ذِكْرُ قَضِ الإسْكَندَرِيَّةِ
٤٥٨-٤٥١	ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْمُسْلِمِينَ بالإسْكَندَرِيَّةِ وَانْتِقَاضِ الرُّومِ
٤٥٩-٤٥٨	ذِكْرُ بُحَيْرَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ
٤٦٦-٤٥٩	ذِكْرُ خَلِيجِ الإسْكَندَرِيَّةِ
٤٧٤-٤٦٦	ذِكْرُ مَجْمَعِ حَوَادِثِ الإسْكَندَرِيَّةِ

صفحة

٤٧٦-٤٧٤	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَتْرِب
٤٩١-٤٧٦	ذِكْرُ مَدِينَةِ بَيْتِيس
٤٩٢	مَعْنَاي
٤٩٢	سور
٤٩٣-٤٩٢	القَس
٤٩٤-٤٩٣	ذِكْرُ مَدِينَةِ صَا
٣٩٦-٣٩٤	رَقْلُ الْقَرَاي
٤٩٦	مراقبه
٤٩٧-٤٩٦	كوم شريك
٤٩٧	غيفا
٤٩٧	سَعْنُود
٤٩٩-٤٩٨	ذِكْرُ مَدِينَةِ بَيْتِيس
٥٠٠-٤٩٩	ذِكْرُ بَلَدِ الْوَرَاةَةِ
٥٠٠	الصَّالِحِيَّة
٥٠٥-٥٠١	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَيْلَةَ
٥٠٦-٥٠٥	مَرْبُوط
٥٠٧-٥٠٦	وادي حبيب
٥١٢-٥٠٧	ذِكْرُ مَدِينَةِ مَذْنَن
٥١٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ فَرَاان
٥١٣	ذِكْرُ أَرْضِ الْحِفَار
٥١٧-٥١٣	ذِكْرُ صَعِيدِ مِصْر
٥٢١-٥١٧	ذِكْرُ الْحَنَادِلِ وَلَمَعٍ مِنْ أَخْبَارِ أَرْضِ الثَّوْبَةِ
٥٢٦-٥٢١	ذِكْرُ تَشْعُبِ الثَّيْلِ مِنْ بِلَادِ غَلَوَةِ وَمَنْ يَتَسَكَّنُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ
٥٣٦-٥٢٧	ذِكْرُ الْهَبْجَةِ
٥٤٠-٥٣٦	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَسْوَان

صفحة

٥٤١-٥٤٠	ذِكْرُ بِلَاق
٥٤٢-٥٤١	ذِكْرُ حَالِطِ الْعَجُوزِ
٥٤٩-٥٤٢	ذِكْرُ الْبَقِطِ
٥٥٢-٥٤٩	ذِكْرُ صَخْرَاءِ عَيْنَاب
٥٥٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَقْصَرِ
٥٥٣-٥٥٢	ذِكْرُ الْبَلْبِئَا
٥٥٣	ذِكْرُ سَعْدُود
٥٥٣	ذِكْرُ إِزْجَنْزُس
٥٥٣	ذِكْرُ أَرْوِط
٥٥٤	ذِكْرُ مَلُوي
٥٥٥-٥٥٤	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَنْصَا
٥٥٧-٥٥٥	ذِكْرُ الْقَيْسِ
٥٥٧	ذِكْرُ تَرْوِطِ بِلَهَاتِ
٥٥٨	ذِكْرُ أَشْكُر
٥٥٨	ذِكْرُ مَنِيَةِ الْحَصِيبِ
٥٥٩	ذِكْرُ مَنِيَةِ الْبَاسَاكِ
٥٦٢-٥٥٩	ذِكْرُ الْحَيْزَةِ
٥٦٥-٥٦٢	ذِكْرُ بِيْعَنِ يَوْشَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٥٦٥	ذِكْرُ قَرْبَةِ يَزْمَا
٥٦٥	ذِكْرُ مَنِيَةِ أُنْدُوَّة
٥٦٦-٥٦٥	ذِكْرُ وَسِيمِ
٥٦٧-٥٦٦	ذِكْرُ مَنِيَةِ عَفْبَةِ
٥٦٩-٥٦٨	ذِكْرُ مَحْلُوانِ
٥٧٢-٥٦٩	عبد العزيز بن مَرْوان
٥٧٤-٥٧٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْعَرِيشِ

صفحة	
٥٧٨-٥٧٥	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَرَسَا
٥٧٩-٥٧٨	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقَلْزَمِ
٥٨٠-٥٧٩	الْبَيْه
٦١١-٥٨٠	ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمَاطِ
٦١٢-٦١١	ذِكْرُ سَطَا
٦١٣-٦١٢	ذَبِيق
٦١٣	التَّحْصِيرِيَّة
٦١٣	جَزِيرَةُ بَنِي نَصْر
٦١٦-٦١٤	ذِكْرُ الطَّرِيقِ فِيمَا بَيْنَ مَدِينَةِ مِصْرَ وَدِمَشْقَ
٦١٦	ذِكْرُ مَدِينَةِ جِطُّسَينَ
٦١٧	ذِكْرُ مَدِينَةِ الرَّقَّةِ
٦٢٦-٦١٧	ذِكْرُ عَيْنِ مَعْسَ
٦٢٨-٦٢٦	الْمَنْصُورَةُ
٦٢٩-٦٢٨	الْعَمَّاسَةُ
٦٣٣-٦٢٩	ذِكْرُ مَدِينَةِ يَفْقُطَ بِصَعِيدِ مِصْرَ
٦٣٣	ذِكْرُ مَدِينَةِ ذَنْدَرَةَ
٦٣٧-٦٣٤	ذِكْرُ الْوَاهِحَاتِ الدَّاخِلَةِ
٦٣٨-٦٣٧	ذِكْرُ مَدِينَةِ سَنْتَرِيَه
٦٣٩-٦٣٨	ذِكْرُ الْوَاهِحَاتِ الْخَارِجَةِ
٦٤٢-٦٤٠	ذِكْرُ مَدِينَةِ قُوصَ
٦٤٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ إِسْنَا
٦٤٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ أَذْفُو
٦٤٣	إِفْنَاسَ
٦٤٧-٦٤٣	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْبَهْتَسَا
٦٤٩-٦٤٧	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ

صفحة

٦٥١-٦٤٩	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْحَمِيمِ
٦٥٥-٦٥٢	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقَقَابِ
٦٧٤-٦٥٥	ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقَيُومِ
٦٦٨-٦٦٧	يُوشَفُ بْنُ يَمْقُوبَ
٦٧٤-٦٦٨	ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْقَيُومِ وَخُلْجَانِهَا وَضِياعِهَا
٦٧٥-٦٧٤	ذِكْرُ قَتَحِ الْقَيُومِ وَمَبْلَغِ خَرَايجِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَرَاقِ
٦٧٦	مَدِينَةُ التَّخْشِيرَةِ

ذِكْرُ تَارِيخِ الْخَلِيقَةِ

٦٩٩-٦٧٨	ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مُدَّةِ أَيَّامِ الدُّنْيَا بَاقِيهَا وَمَاضِيهَا
٧٠٦-٧٠٠	ذِكْرُ التَّوَارِيخِ الَّتِي كَانَتْ لِلْأُمَمِ قَبْلَ تَارِيخِ الْقَيْطِ
٧٠٤-٧٠١	تَارِيخُ الْخَلِيقَةِ
٧٠٥-٧٠٤	تَارِيخُ الطُّوفَانِ
٧٠٦-٧٠٥	تَارِيخُ بُحْتَنَصْرَ
٧٠٦	تَارِيخُ الْإِسْكَندَرِ
٧٠٦	تَارِيخُ أَعَشْطُسَ
٧٠٦	تَارِيخُ أَنْطَنِيَسَ
٧١٠-٧٠٦	ذِكْرُ تَارِيخِ الْقَيْطِ
٧١٢-٧١٠	ذِكْرُ دَقْلِيلِيَانُوسَ الَّذِي يُقَرَفُ تَارِيخُ الْقَيْطِ بِهِ
٧١٢	أَسْمَاءُ شُهُورِ الْقَيْطِ
٧١٤-٧١٢	ذِكْرُ أَسَابِيغِ الْأَيَّامِ
٧٢٩-٧١٤	ذِكْرُ أَعْيَادِ الْقَيْطِ مِنَ النَّصَارَى بِدِيَارِ مِصْرَ
٧١٩-٧١٥	الْأَعْيَادُ الْكِبَارُ

صفحة	
٧١٥	عيدُ البشارة
٧١٥	عيدُ الزَّيْتُونَةِ
٧١٦-٧١٥	عيدُ الفِضْح
٧١٦	عيدُ الأَرَبَعِينَ
٧١٧-٧١٦	عيدُ الحَقْسِين
٧١٨-٧١٧	الميلاد
٧١٩-٧١٨	الغِطَّاس
٧٢٤-٧١٩	الأعياد الصُّغَار
٧١٩	الحِيتَان
٧١٩	الأَرَبَعُونَ
٧٢٠-٧١٩	تَحْمِيسُ القَهْد
٧٢٠	سَبْتُ الثَّوَر
٧٢٠	حَدُّ الحُدُود
٧٢٠	عيدُ التَّجَلِّي
٧٢٤-٧٢١	عيدُ الصُّلَيْب
٧٢٤-٧٢٠	ذِكْرُ قُسَطَنْطِين
٧٢٩-٧٢٤	النُّوروز
	ذِكْرُ ما يُوافِقُ أيامَ الشُّهُور القِيْطِيَّة من الأعمال في الزَّراعات وزيادة الثَّيْل وغير ذلك ممَّا نَقَلَهُ
٧٣٩-٧٣٠	أهل مصر عن قُدَمَائِهِم واعتمدوا عليه في أمورهم
	ذِكْرُ مَحْويلِ السَّنَةِ الحِجَازِيَّة القِيْطِيَّة إلى السَّنَةِ الهِلَالِيَّة العربيَّة وَكَيْفَ عُمِلَ ذلك
٧٦٣-٧٤٠	في الإسلام
٧٧٢-٧٦٤	تأريخُ القَرَب
٧٦٩-٧٦٧	التَّسْوِيءُ والتَّسَاءَةُ
٧٧٢	تأريخُ القُرْس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

تُعَدُّ المخطوطات الإسلامية السَّجِلُ الحافل الذي يَجْنَعُ مُخْلِصَةً ما أُنْتِجَ الفِكرُ العربي والإسلامي على امتداد أربعة عشر قَرْنًا . وكان إحياء هذه المخطوطات في عَصرِ الطَّباعة بَنَشْرَها نَشْرًا علميًا وتوفيرها لجمهور أكبر من العُلَماء والباحثين والقُرَّاء ، عَمَلًا بذاه المُتَشَرِّقون ثم قام بعبء العُلَماء العرب والمسلمون .

ورأت مُؤَسَّسَةُ الفُرْقان للتراث الإسلامي أن تُساهِمَ في هذا المجال الهام بَنَشْرِ بعض المخطوطات القديمة في تحقيقات جديدة تُواكِبُ ما وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُ المخطوطات الحديث ، وتَدْفَعُ بالقديم من تراثنا إلى طريق حضارة إنسانية شاملة .

والكتاب الذي تُقدِّمُهُ المُؤَسَّسَةُ اليوم «المواعظ والاعتبار في ذِكرِ الخِطَط والآثار» لشيخ مؤرِّخي مصر الإسلامية تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م ، يُعَدُّ أَحَدَ مَفَاخِرِ التُّراثِ العربي وأهمِّ مَصَادِرِ تاريخ مصر الإسلامية ، فهو مُصَدَّرٌ لا غنى عنه لدارسي تاريخ مصر الإسلامية وآثارها فقد حَفِظَ لنا المقرئ في هذا الكتاب - إضافةً إلى ملاحظاته الشَّخصِيَّة - نُقُولًا مهمَّةً للمؤلفين القدماء الذين قَيَّدَتِ مؤلفاتهم اليوم .

وكان الدكتور أيمن فؤاد سيِّد قد قام بتحقيق مُسَوِّدَةِ هذا الكتاب المحفوظة في متحف طوبقبوسراي باستانبول ونَشَرَتْها له مُؤَسَّسَةُ الفُرْقان سنة ١٩٩٥ ، وكان للاستقبال الطَّيِّب الذي قوبلت به هذه النُشْرَةُ من جانب المُتَخَصِّصِينَ والمُعِينِينَ بتاريخ وجغرافية وآثار مصر ، دافِعًا قويًّا له للإقدام على تحقيق وإخراج نُصْلِ الكتاب كاملاً بعد أن تُعرَفَ على نُسخِهِ الأَصْلِيَّةِ ، سواء مُسَوِّدَاتِ المقرئ أو النُسخِ الكاملة المنسوخة عن أصوله المكتوبة بخطِّه والمحفوظة على الأَخْصَصِ في مكنتات استانبول .

وقد عَهَدَتِ المُؤَسَّسَةُ مِمَثْلَةً في مجلس الخِبراء إلى الدكتور أيمن فؤاد بالقيام بعبء إخراج هذا الكتاب ، فهو من المُتَخَصِّصِينَ في دراسة تاريخ القاهرة حيث كَتَبَ أطروحةً

تضدير

عن «عاصمة مصر حتى نهاية عصر الفاطميين»، ونَشَرَ العديد من مصادر التاريخ المصري في العصر الفاطمي، وكَتَبَ تَقْيِيمًا جَدِيدًا لِلدَّوْلَةِ الفاطمية في مصر، كما أَنَّهُ من خُبراءِ عِلْمِ المخطوطات وَأَضَمَّ فِيهِ كُتَابَهُ «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات».

وقام الدكتور أمين فؤاد بتحقيق الكتاب اعتمادًا على أَقْدَمِ نُسخِ الكتاب وأَهْلُهَا المنقولة عن خَطِّ المؤلَّف، وأضافَ إِلَيْهِ شُرُوحًا وتَقْلِيقاتَ غِنَى اعتمادًا على ما ظَهَرَ من نُصوصٍ جديدة ودراسات. متخصصة حَديثة، كما قامَ بِرَبْطِ أجزاء الكتاب بعضها ببعض وخَرَّجَ معلوماته من مصابِرِها الأصلية. وسيقوم في الأجزاء الخاصَّة بوصف المَدِينَةِ ومَساجِدِها ومدارسها وخَوَانِقِها بِإضافة صُورٍ ومُخَطَّطاتٍ لهذه المعالم الأثرية مع خَرَائِطٍ تُوضِّحُ تَطَوُّرَ ثَمَرِ المَدِينَةِ وأَحْيائها المختلفة منذ إنشائها وحتى عصر المَقْرِيزِي في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

ومؤَسَّسَةُ الفُرْقَانِ إِذْ تُسَهِّمُ بِنَشْرِ هَذَا الكِتَابِ، تَأْمَلُ أَنْ تُؤَدِّيَ جِزْمًا من وَاجِبٍ كَبِيرٍ يُلقَى على عاتقها وعائِقِ المؤسسات العلمية التي تُشاركُها أَهْدَاقُهَا.

والله من وَرَاءِ الْقَضْدِ وهو الهادي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

تَحْمِلُ ذِكْرِي بِمَسَائِلِي

رئيس مؤسسة الفُرْقَانِ لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّحْقِيقِ

لندن يناير ٢٠٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَرَفَ وَفَهَّم وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، وَأَسْبَغَ عَلَى عِبَادِهِ نِعْمًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً^(a) ، وَوَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ مَزِيدِ آيَاتِهِ مِتًّا مُتَظَافِرَةً مُتَوَاتِرَةً ، وَبَثَّمَهُمْ فِي أَرْضِهِ حَيًّا بِتَقْلُبِهِمْ ، وَاشْتَخَلَفَهُمْ فِي مَالِهِ فَهَمَّ بِهِ يَتَنَقَّبُونَ . وَهَدَى قَوْمًا إِلَى اقْتِنَاصِ سُورِدِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَشَوَّقَهُمْ لِلتَّفَقُّهِ فِي مَسَارِحِ التَّدْبِيرِ وَالرُّخَصِ بِمَيَادِينِ الْفُهْمِ ، وَأَرْشَدَ قَوْمًا إِلَى الْإِنْقِطَاعِ مِنْ دُونَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ ، وَوَقَّفَهُمْ لِلْاعْتِمَادِ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَلَيْهِ . وَصَرَّفَ آخَرِينَ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ وَفَضِيلَةٍ ، وَقَيَّضَ لَهُمْ قُرْنَاءَ قَادُوهُمْ إِلَى كُلِّ ذَمِيمَةٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَرَذِيلَةٍ . وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِ آخَرِينَ فَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ، وَيُبْطِلُهُمْ عَنْ سُبُلِ الْخَيْرَاتِ فَمَا اسْتَطَاعُوا قُوَّةً وَلَا حَوْلًا . ثُمَّ حَكَّمَ عَلَى الْكُلِّ بِالْفَتَاءِ ، وَنَقَلَهِمْ جَمِيعًا مِنْ دَارِ التَّمْهِيصِ وَالْإِتْيَاءِ ، إِلَى تَرْزُخِ الْبُيُودِ وَالبَلَاءِ ، وَسَيَحْشُرُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ ، لِيُؤْفِيَ كُلَّ عَامِلٍ مِنْهُمْ عَمَلَهُ ، وَيَسْأَلَهُ عَمَّا أَعْطَاهُ وَخَوَّلَهُ ، وَعَنْ مَوْقِفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ شُبْحَانَهُ وَمَا أَعَدَّ لَهُ ، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣ سورة الأنبياء] .

أُحْمَدُهُ شُبْحَانَهُ حَمْدًا مَنْ عِلِمَ أَنَّهُ إِلَهٌ لَا يُعْبَدُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا خَالِقٌ لِلْخَلْقِ سِوَاهُ ، حَمْدًا يَقْتَضِي الْمَزِيدَ مِنَ النُّعْمَاءِ ، وَتُوَالِي الْمَيِّتَ بِتَجَدُّدِ الْآلَاءِ .

- ١٥ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدَهُ وَرَسُولِهِ ، وَنَبِيِّهِ وَخَلِيلِهِ ، سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَأَفْضَلِ مِنْ مَضَى وَغَبَرِ ، الْجَامِعِ لِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّيْرِ ، وَالْمُسْتَحِقِّ لِاسْمِ الْكَمَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنَ الْبَشَرِ ، الَّذِي كَانَ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَرُقِمَ اسْمُهُ مِنَ الْأَزَلِ فِي عِلْمَيْنِ ، ثُمَّ تَنَقَّلَ مِنَ الْأَصْلَابِ الْفَاحِشَةِ الزَّكِيَّةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ ، وَخَتَمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُحِطُ مِنَ الْفَضْلِ^(b) أَخْذًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِهِ وَالتَّابِعِينَ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد، فإن عِلْمَ التاريخ من أَجْلِ الغُلُوم قَدَرًا، وأشرفها عند الغفلاء مكانةً وخطراً، لما يخويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واشتغالهم مدام الفِعال لِوَعْب عنها أُولُو النَهْي؛ لا تجزم أن كانت الأنفس الفاضلة به وإمعة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة، وقد صُنِفَ فيه الأيمّةُ كثيرًا، وَصُنِيَ الجِلَّةُ^(a) كُتِبَ مِنْهُ شَيْءٌ كبيرًا.

وكانت مصرُ هي مَسْقَطُ رأسي، وملقَبُ أترابي ومَجْمَعُ ناسي، ومَعْنَى عَشيرتي وحائتي، ومَوْطَنُ خاصّتي وعامّتي، وجوِّي^(b) الذي رُئِيَ جَنَاحِي فِي وَكْرِهِ، وعِشٌّ مَأْرِي فَلَ تَهْوَى الْأَنْفُسُ غيرَ ذكره. لا زِلْتُ مُذْ شَذَوْتُ الْعِلْمَ، وَأَتَانِي رُؤْيُ الْفُطَانَةِ وَالْفَهْمِ، أَرَعْبُ فِي مَعْرِفَةِ أَخْبَارِهَا، وَأُحِبُّ الإِشْرَافَ عَلَى الْإِعْتِرَافِ مِنْ آبَارِهَا، وَأَهْوَى مُسَاءَلَةَ الرُّشْبَانِ مِنْ سُكَّانِ دِيَارِهَا.

١٠ /فَقَيِّدْتُ بِخَطِي فِي الْأَغْوَامِ الْكَثِيرَةِ، وَجَمَعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَوَائِدَ قَلَّ مَا يَجْمَعُهَا كِتَابٌ، أَوْ يَخْوِيهَا لِعَزَّتْهَا وَغَرَّتْهَا إِهَابٌ. إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَرْجِيَّةٍ عَلَى مِثَالِ، وَلَا مُهْدَبَةٌ بِطَرِيقَةِ مَا تُسَيِّجُ عَلَى مِثَالِ. فَأَزِدْتُ أَنْ أُلْخِصَ مِنْهَا أَنْبَاءَ مَا بِدِيَارِ مِصْرَ مِنَ الْأَثَارِ الْبَاقِيَةِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَمَا بَقِيَ بِقُسْطَاطِ مِصْرَ مِنَ الْمَعَاهِدِ غَيْرِ مَا كَادَ يُغْنِيهِ الْبَلَى وَالْقَدَمُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَنْحَوَ رَسْمُهَا الْفَنَاءَ وَالْقَدَمُ.

١٥ وَأَذْكُرُ مَا بِمَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ آثَارِ الْقُصُورِ الزَّاهِرَةِ، وَمَا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْخِطَاطِ وَالْأَصْفَاعِ، وَخَوْنِهِ مِنَ الْمَبَانِي الْبَدِيعَةِ الْأَوْضَاعِ، مَعَ التَّعْرِيفِ بِحَالِ مَنْ أَسَسَ ذَلِكَ مِنْ أَعْيَانِ الْأُمَمِ، وَالتَّثْوِيهِ بِدُخْرِ الَّذِي شَادَهَا مِنْ سُرَاةِ الْأَعَاظِمِ وَالْأَفَاضِلِ؛ وَأَثَّرَ بِخِلَالِ ذَلِكَ نُكْتًا لَطِيفَةً وَجَمًّا بَدِيعَةً شَرِيفَةً، مِنْ غَيْرِ إِطَالَةٍ وَلَا إِكْتَارِ، وَلَا إِجْحَافٍ مُخِلٍ بِالْقَرَضِ وَلَا اخْتِصَارِ، بَلْ وَسَطُ بَيْنِ الطَّرَفَيْنِ، وَطَرِيقُ بَيْنَ بَيْنٍ؛ فَهَذَا سَمَّيْتُهُ كِتَابَ «الْمَوَاعِظِ وَالْإِعْتِبَارِ فِي ذِكْرِ الْخِطَاطِ وَالْآثَارِ».

٢٠ وَأَتَى لِأَرْجُو أَنْ يَخْطِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عِنْدَ الْمُلُوكِ، وَلَا يَتَّبِعُوهُ عَنْ طِبَاعِ الْعَامِيِّ وَالصُّغُلُوكِ، وَيُجِلُّهُ الْعَالِمُ الْمُتَنَهِّي، وَيُعْجِبُ بِهِ الطَّالِبُ الْمُتَبَدِّي، وَتَرْضَاهُ خَلَائِقُ الْعَابِدِ النَّاسِكِ، وَلَا يَجْهَرُ سَمْعُ الْخَلِيعِ الْفَاتِكِ، وَيَتَّخِذُهُ أَهْلُ الرِّفَاقَةِ وَالْبَطَالَةِ^(c) سَمَرًا، وَيَتْلُوهُ أُولُو الرَّأْيِ وَالتَّدِيرِ مَوْعِظَةً وَعِزًّا، يَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ - جَلُّ جَلَالُهُ^(d) - فِي تَبْدِيلِ الْأَبْدَالِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ عَجَائِبَ صُنْعِ رَبِّنَا شَبَّاحَانِهِ مِنْ تَنْقُلِ الْأُمُورِ إِلَى حَالٍ بَعْدَ حَالٍ.

فَإِنْ كُنْتُ أَحْسَنْتُ فِيمَا جَمَعْتُ ، وَأَصَبْتُ فِي الَّذِي صَنَعْتُ^(a) وَوَضَعْتُ ، فَذَلِكَ مِنْ غَمِيمٍ
بَيْنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ^(b) - وَجَزِيلِ فَضْلِهِ ، وَعَظِيمِ أَنْعَمِهِ عَلَيَّ وَجَلِيلِ طَوْلِهِ . وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فِيمَا
فَعَلْتُ ، وَأَخْطَأْتُ إِذْ صَنَعْتُ^(c) ، فَمَا أَجْدَرُ الْإِنْسَانَ بِالسَّاعَةِ وَالْغُيُوبِ ، إِنْ لَمْ يَنْصَحْهُ أَوْ يَحْفَظْهُ^(d)
غَلَامُ الْغُيُوبِ :

[الكامل]

- وما أَهْوَى نَفْسِي أَنِّي بَشَرٌ أَشْهُو وَأُخْطِئُ مَا لَمْ يَحْمِنِي قَدَرٌ
وَلَا تَرَى عُذْرًا أَوْلى بَدِي زَلَلٍ مِنْ أَنْ يَقُولَ مُقِرًّا : إِنِّي بَشَرٌ
- فَلْيُمَثِّلِ التَّائِيظُ فِي هَذَا التَّالِيفِ عَلَى مُؤَلِّفِهِ ذَنْلَ مَثَرِهِ إِنْ مَرَّتْ بِهِ هَفْوَةٌ ، وَلْيَنْفُضْ تَجَاوُزًا
وَصَفْحًا إِنْ وَقَفَتْ مِنْهُ عَلَى كَبُورَةٍ أَوْ تَبَوُّةٍ ، فَأَيُّ جَوَادٍ - وَإِنْ عَتَقَ - مَا يَكْبُورُ ؟ وَأَيُّ عَضْبٍ
مُتَعَدٍّ لَا يَكَلُّ وَلَا يَتَبَوَّرُ ؟ لَا يَبِيسُ وَالْحَاظِرُ بِالْأَفْكَارِ مَشْغُولٌ ، وَالْعَزْمُ لِلْأَنْوَاءِ الْأُمُورِ وَتَعَسَّرُهَا
فَاتِرٌ مَحْلُولٌ ، وَالذُّهْنُ مِنْ حُطُوبِ هَذَا الزَّمَنِ الْقَطُوبِ كَلِيلٌ ، وَالْقَلْبُ لَتَوَالِي الْحَيْنِ وَتَوَاتُرِ
الْإِحْنِ غَلِيلٌ :

[الطويل]

- يُعَايِنِدُنِي دَهْرِي كَأَنِّي عَدُوُّهُ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بِالْكَرِيهَةِ يَلْقَانِي
فَإِنْ رُمْتُ شَيْعًا جَاءَنِي مِنْهُ ضِدُّهُ وَإِنْ رَاقَ لِي يَوْمًا تَكَلَّزَ فِي الثَّانِي
- اللَّهُمَّ عَفِّرْنَا مَا هَذَا مِنَ التَّبَرُّمِ بِالْقَضَاءِ ، وَلَا التَّصَبُّرِ بِالْمَقْدُورِ ، بَلْ إِنَّهُ سَقِيمٌ وَتَفْتَةٌ مَضْدُورٌ ،
يَسْتَرْزُحُ إِنْ أَهْدَى التَّوَجُّعُ وَالْأَنِينُ ، وَيَجِدُ خَفًّا مِنْ ثِقَلِهِ ، إِذَا بَاعَ بِالشُّكُوى وَالْحَنِينِ :

[الطويل]

- وَلَوْ نَظَرُوا بَيْنَ الْحَوَائِجِ وَالْحَسَا رَأَوْا مِنْ كِتَابِ الْحُبِّ فِي كَيْدِي سَطْرًا
وَلَوْ جَرَّبُوا مَا قَدْ لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى إِذَنْ عَذَّرُونِي أَوْ جَعَلْتُ لَهُمْ عُذْرًا
- وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُخَلِّيَ هَذَا الْكِتَابَ بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْجَلَّةِ وَالْعُلَمَاءِ ، كَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ تَطَرُّقِ أَيْدِي
الْحَسَادِ إِلَيْهِ وَالْجَهْلَاءِ ، وَأَنْ يَهْدِيَنِي فِيهِ وَفِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ ، إِنَّهُ
حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَفِيهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لِي سِلْوًا مِنْ كُلِّ حَادِثٍ ، وَعَلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَتَوَكَّلُ فِي
جَمِيعِ الْحَوَادِثِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ^(e) .

(a) بولاق: صنعت. (b) بولاق: تعالى. (c) بولاق: وضعت. (d) بولاق: إذا ... ويحفظه. (e) بعد ذلك في بولاق: ولا معبود سواه.

ذِكْرُ الرُّؤُوسِ الثَّمَانِيَةِ

اعْلَمْ أَنَّ عَادَةَ الْقُدَمَاءِ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ قَدْ جَرَتْ أَنْ يَأْتُوا بِالرُّؤُوسِ الثَّمَانِيَةِ قَبْلَ افْتِتَاحِ كُلِّ كِتَابٍ ، وهي : الْقَرَضُ ، وَالْعُتْوَانُ ، وَالْمَنْفَعَةُ ، وَالْمَرْثَبَةُ ، وَصِحْحَةُ الْكِتَابِ ، وَمِنْ أَيْ صِنَاعَةٍ هِيَ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ أَجْزَاءٍ ، وَأَيُّ أُنْحَاءِ الثَّمَالِيمِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهِ ، فَنَقُولُ :

أَمَّا «الْقَرَضُ» فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، فَإِنَّهُ جُمِعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَخْبَارِ أَرْضِ مِصْرَ وَأَحْوَالِ سُكَّانِهَا كَيْ يُلَيِّمَ مِنْ مَجْمُوعِهَا مَعْرِفَةً جَمَلَتْ أَخْبَارَ إِفْلِيمِ مِصْرَ ، وَهِيَ الَّتِي إِذَا حَصَلَتْ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ ، اقْتَدَرَ عَلَى أَنْ يُخْبِرَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ وَالْبَائِدَةِ ، وَيَقْصُرَ أَحْوَالُ مِنْ ابْتِدَائِهَا وَمِنْ خُلُهَا ، وَكَيْفَ كَانَتْ مَصَائِرُ أُمُورِهِمْ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِتِّبَاعِ لَهَا بِحَسَبِ مَا تَحْصُلُ بِهِ الْفَائِدَةُ الْكُلِّيَّةُ بِذَلِكَ الْأَثَرِ .

وَأَمَّا «عُتْوَانُ» هَذَا الْكِتَابِ - أَغْنَى الَّذِي وَسَّعَتْ بِهِ - فَإِنِّي لَمَّا فَحَصَّضْتُ عَنْ أَخْبَارِ مِصْرَ وَجَدْتُهَا مَخْتَلِطَةً مَتَفَرِّقَةً ، فَلَمْ يَتِمَّ لِي إِذْ جَمَعْتُهَا أَنْ أَجْعَلَ وَضْعَهَا مَرْتَّبًا عَلَى السَّنِينَ ، لَعَدَمَ ضَبْطِ وَقْتِ كُلِّ حَادِثَةٍ ، لَا سِيَّمَا فِي الْأَغْصُرِ الْخَالِيَةِ ، وَلَا أَنْ أَضَعَهَا عَلَى أَشْوَائِ النَّاسِ / لِغَلَلِ أَمْرِ تَطَهُّرِ عِنْدَ تَصَفُّحِ هَذَا التَّأْلِيفِ .

فلهذا فَرَّقْتُهَا فِي ذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْآثَارِ ، فَاخْتَوَى كُلُّ فَضْلٍ مِنْهَا عَلَى مَا يَلَامُهُ وَيُشَاكِلُهُ ، وَصَارَ بِهَذَا الْاِغْتِيَارِ قَدْ جُمِعَ مَا تَفَرَّقَ وَتَبَدَّدَ مِنْ أَخْبَارِ مِصْرَ . وَلَمْ أَتَحَاشَ مِنْ تَكَرُّرِ الْخَبَرِ إِذَا اخْتَلَجَتْ إِلَيْهِ ، بِطَرِيقَةٍ يَسْتَحْسِنُهَا الْأَرَبُ وَلَا يَسْتَهْجِنُهَا الْفَعْلَنُ الْأَدِيبُ ، كَيْ يَسْتَفْنِيَ مُطَالِغَ كُلِّ فَضْلٍ بِمَا فِيهِ عَمَّا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْفُضُولِ ، فَلِذَلِكَ سَمَّيْتُهُ بِكِتَابِ «الْمَوَاطِظِ وَالْاِغْتِيَارِ فِي ذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْآثَارِ» .

وَأَمَّا «مَنْفَعَةُ» هَذَا الْكِتَابِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِيهَا بِتَبْيِيْنٍ مِنَ الْقَرَضِ فِي وَضْعِهِ وَمِنْ عُتْوَانِهِ ، أَغْنَى أَنْ مَنْفَعَتُهُ هِيَ أَنْ يُشْرِفَ الْمَرْءُ فِي زَمَنِ قَصِيرٍ عَلَى مَا كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ الْخَوَادِثِ وَالتَّغْيِيرَاتِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُتَطَاوِلَةِ وَالْأَعْوَامِ الْكَثِيرَةِ ، فَتَهْدُبُ بِذِكْرِ ذَلِكَ نَفْسَهُ وَتَوْتِئُضُ أَخْلَاقَهُ ، فَيُحِبُّ الْخَيْرَ وَيَقْتُلِيهِ ، وَيَكْرَهُ الشَّرَّ وَيَجْتَنِبُهُ^(٦) ، وَيَعْرِفُ فَنَاءَ الدُّنْيَا فَيَخْطِي بِالْغُرُوفِ^(٧) عَنْهَا وَالْإِقْبَالَ عَلَى مَا يَنْفَعِي .

وأما «مَرْتَبَةُ» هذا الكتاب ، فإنه من جُمْلَةِ أَحَدِ قِسْمَيْ الْعِلْمِ اللَّذَيْنِ هُمَا : الْعَقْلِي وَالنَّعْلِي ،
 فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَفَرَّغَ لِمُطَالَعَتِهِ وَيَتَذَكَّرُ^(a) مَوَاعِظُهُ بَعْدَ إِثْقَانِ مَا تَجِبُتْ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الْعُلُومِ النَّعْلِيَّةِ وَالْعُلُومِ^(b)
 الْعَقْلِيَّةِ . فَإِنَّهُ يَحْصُلُ بِتَذَكُّرِهِ ، لَمَّا أزالَ اللهُ أَكْثَرَ قَلْبِهِ وَغِشَاوَةَ بَصَرِهِ ، نَتِيجَةَ الْعِلْمِ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ أَتْبَاءُ
 جَنْسِهِ ، بَعْدَ التَّحَوُّلِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ ، مِنَ الْفَقَاءِ وَالْيُودِ . فإِذَنْ مَرْتَبَتُهُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَقْسَامِ الْعُلُومِ
 الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّعْلِيَّةِ ، لِيَعْرِفَ مِنْهُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ .

وأما «وَاضِعُ» هذا الكتاب ومُرْتَبِهِ ، فَاسْمُهُ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَيُعْرَفُ
 بِأَبْنِ^(c) الْمَقْرِيْزِيِّ^١ ، وَلِدَ بِالْقَاهِرَةِ الْمُعَرِّفَةَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ بَعْدَ سَنَةِ سِتِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ مِنْ سَنَةِ الْهِجْرَةِ
 الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَرَتَّبَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ^(d) مَا يَهْدُلُ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَغَيْرُهُ مِمَّا أَلْفَهُ وَجَمَعَهُ .

وأما «مِنْ أَيْ عِلْمِ» هَذَا الْكِتَابِ ، فَإِنَّهُ مِنْ عِلْمِ الْأَخْبَارِ ، وَبِهَا عُرِفَتْ شَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي
 شَرَعَهَا ، وَحَفِظَتْ سُنَنُ أَنْبِيَائِهِ^(e) وَرُسُلُهُ ، وَذُودُنْ هَدْيِهِمْ^(f) الَّذِي يَقْتَضِي بِهِ مِنْ رَفَقَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(g)
 إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَهَدَاهُ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَحَفِظَهُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ . وَبِهَا نُقِلَتْ أَخْبَارُ مَنْ مَضَى مِنَ الْمُلُوكِ
 وَالْفَرَاغَةِ ، وَكَيْفَ حَلَّ بِهِمْ شُحْطُ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا أَتَوْا مَا نُهِوا عَنْهُ . وَبِهَا اقْتَدَرَ الْخَلِيقَةُ مِنْ أَتْبَاءِ الْبَشَرِ
 عَلَى مَعْرِفَةِ مَا ذُودُوا مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ ، وَتَأْتَى لَهُمْ عِلْمٌ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ
 وَالْأَمْصَارِ الْمُتَنَائِيَةِ^(h) ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، عَلَى
 تَبَائِنِ آرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِ عَقَائِدِهِمْ ، أَخْبَارٌ مَعْرُوفَةٌ عَنْهُمْ مَشْهُورَةٌ ذَائِعَةٌ بَيْنَهُمْ . وَلِكُلِّ مِصْرٍ مِنْ
 الْأَمْصَارِ الْمَعْمُورَةِ حَوَادِثٌ قَدْ مَرَّتْ بِهِ ، يُعْرِفُهَا عُلَمَاءُ ذَلِكَ الْمِصْرِ فِي كُلِّ عَصْرِ . وَلَوْ
 اسْتَشْفَصِيَتْ مَا صَنَّفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فِي ذَلِكَ لَتَجَاوَزَ حَدَّ الْكَثْرَةِ ، وَعَجَبَتْ الْقُدْرَةُ
 الْبَشَرِيَّةُ⁽ⁱ⁾ عَنْ حَصْرِهِ .

وأما «أَجْزَاءُ» هَذَا الْكِتَابِ فَإِنَّهَا سَبْعَةٌ :

(a) بولاق: تدبر. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: العلوم. (d) بولاق: هداهم. (e) ساقطة من الأصل. (f) بولاق:

الناحية. (g) ساقطة من بولاق.

^١ واضح مما جاء في نسخة الأصل - وهي نقلا عن خط
 المقرئ - أن المقرئ لقب لجده مؤلفنا أحمد بن علي
 المقرئ ، يؤكد ذلك ما كتبه بخطه علي ظهيرة الجزء الأول
 من كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» المحفوظة في مكتبة بني
 جامع باستانبول ، فبعد أن ذكر نسبه قال: الشهير جده
 بالمقرئ .

أَوَّلُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى مَجْمَلِ أَخْبَارٍ^(a) أَوْضَ مِصْرَ وَأَحْزَالَ نَيْلِهَا وَغَرَاجِهَا وَجِبَالِهَا .

وِثَائِيهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُدْنِيهَا وَأَجْناسِ أَهْلِهَا .

وِثَائِلُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى أَخْبَارِ مُسْتَطَاطِ مِصْرَ وَمَنْ مَلَكَهَا .

وَرَايَعُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى أَخْبَارِ الْقَاهِرَةِ وَخِلَائِقِهَا ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْآثَارِ .

وَخَامِئُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ مَا أَذْرَكْتُ عَلَيْهِ الْقَاهِرَةَ وَظَوَاهِرَها مِنَ الْأَحْوَالِ .

وَسَادِئُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ وَمُلُوكِهَا .

وَسَائِقُهَا : يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَشَأَ عَنْهَا خَرَابُ إِقْلِيمِ مِصْرَ .

وَقَدْ تَصَمَّنَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ السَّبْعَةِ عِدَّةً أَقْسَامٍ .

وَأَمَّا «أَيُّ أُنْجَاءِ الْعَالَمِينَ» فَصَدَّتْ^(b) فِي هَذَا الْكِتَابِ ، فَإِنِّي سَلَكْتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ أُنْجَاءَ ، وَهِيَ :

«التَّغْلُّلُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي الْعُلُومِ» ، وَ«الزَّوَايَةُ عَنْ أَذْرَكْتُ مِنْ مَشَيْخَةِ الْعِلْمِ وَجِلَّةِ النَّاسِ» ، وَ«الْمُشَاهَدَةُ لِمَا عَائِثُهُ وَرَأَيْتُهُ» .

فَأَمَّا «التَّغْلُّلُ» مِنْ ذَوَابِينِ الْعُلَمَاءِ الَّتِي صَنَّفُوهَا فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ ، فَإِنِّي أَغْرَوْتُ كُلَّ نَقْلِ إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي تَقَلَّتْ مِنْهُ ، لِأَخْلَصَ مِنْ عَهْدِيهِ وَأَثَرًا مِنْ جَرِيرَتِهِ ، فَكَثِيرٌ مِمَّنْ صُمِنِي وَإِيَّاهُ الْقَضَرُ وَاشْتَمَلَ عَلَيْنَا الْمِصْرُ ، صَارَ لِقَلَّةٍ إِيْرَافِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَقُصُورِ بَايَعِهِ فِي مَعْرِفَةِ^(c) «عُلُومِ التَّارِيخِ وَجَهْلِ»^(d) مَقَالَاتِ النَّاسِ ، تَهَجُّمٌ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَا لَا يَعْرِفُهُ ، وَلَوْ أَنْصَفَ لَعَلِمَ أَنَّ الْعَجْزَ مِنْ قَبِيلِهِ . وَلَيْسَ مَا تَصَنَّنَتْهُ هَذَا الْكِتَابُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي يَقْطَعُ عَلَيْهِ وَلَا يُحْتَاجُ فِي الشَّرِيعَةِ إِلَيْهِ ، وَحَسَبْتُ الْعَالِمَ أَنْ يَعْلَمَ مَا قَبِلَ فِي ذَلِكَ وَيَقِفَ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا «الزَّوَايَةُ» عَنْ أَذْرَكْتُ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْجِلَّةِ^(d) ، فَإِنِّي - فِي الْأَكْثَرِ وَالْغَالِبِ^(e) - أَصْرَحُ بِاسْمِ مَنْ خَذَنِي ، إِلَّا أَلَّا يُحْتَاجُ إِلَى تَغْيِينِهِ ، أَوْ أَكُونَ قَدْ أُنْسِيَتْهُ ، وَقُلُّ مَا يَتَّقِي مِثْلَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا «مَا شَاهَدْتُهُ» ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - غَيْرَ مُثَمِّمٍ وَلَا ظَنِينٍ^(f) .

وَقَدْ قُلْتُ فِي هَذِهِ الزَّوَايَةِ الثَّمَانِيَةِ مَا فِيهِ مَقْنَعٌ^(g) وَكَفَايَةٌ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أَشْرَعَ فِيمَا قَصَدْتُ . وَعَزَمِي أَنْ أَجْعَلَ الْكَلَامَ فِي كُلِّ خُطٍّ مِنَ الْأَخْطَاطِ ، وَفِي كُلِّ أَثَرٍ مِنَ الْآثَارِ عَلَى جِدَّةٍ ، لِيَكُونَ

(a) بولاق: جمل من أخبار. (b) بولاق: التي قصدت. (c-c) ساقطة من الأصل. (d) بولاق: من الجلة

والمشايخ. (e) بولاق: في الغالب والأكثر. (f) الأصل: ضنين. (g) بولاق: معاج.

الْعِلْمُ بِمَا يَشْتَمِل عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ أَجْمَعِ وَأَكْثَرُ فَائِدَةٍ وَأَسْهَلُ تَنَاوُلًا ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فصل

وَأَوَّلُ^(a) مَنْ رَتَّبَ حِطَّاطَ مِصْرَ وَأَنَازَهَا^(b) ، وَذَكَرَ أَسْبَابَهَا فِي دِيَوَانِ جَمْعَتِهِ ، أَبُو عُثْمَرِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْكِندِي . ثُمَّ كَتَبَ / بَعْدَهُ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامَةَ الْقُضَائِي كِتَابَهُ الْمُنْعَوَاتِ بِـ «الْمُخْتَارِ فِي مَعْرِفَةِ^(c) الْحِطَّاطِ وَالْآثَارِ» ، وَمَاتَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ^(d) وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ قَبْلَ سِنِي الشُّدَّةِ . فَذَكَرَ أَكْثَرَ مَا ذَكَرَاهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَمَعٌ وَمَوْضِعٌ بَلَقَعُ ، بِمَا خَلَّ بِمِصْرَ مِنْ سِنِي الشُّدَّةِ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ مِنَ الْقَلَاءِ وَالزُّبَاءِ : فَمَاتَ أَهْلُهَا ، وَخَرِبَتْ دِيَارُهَا ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهَا ، وَاسْتَوَلَى الْخَرَابُ عَلَى عَمَلٍ فَوْقَ^١ مِنَ الطَّرَفَيْنِ بِجَانِبِ^(e) الْقَنْطَطِ الْقَرْيَةِ وَالشَّرْقِيِّ .

فَأَمَّا الْقَرْيَةُ فَمِنْ قَنْطَرَةِ بَنِي وَائِلَ ، حَيْثُ الزَّوَارِقَاتُ الْآنَ قَرِيبًا مِنْ بَابِ الْقَنْطَرَةِ خَارِجَ مَدِينَةِ مِصْرَ ، إِلَى الشَّرَفِ الْمَعْرُوفِ الْيَوْمَ^(f) بِالرُّضْدِ وَأَنْتَ مَارَ إِلَى الْقَرَاةِ الْكُبْرَى . وَأَمَّا الشَّرْقِيُّ فَمِنْ طَرَفٍ يَزُكَّةِ الْحَبَشِ الَّتِي تَلِي الْقَرَاةَ إِلَى نَحْوِ جَامِعِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ .

ثُمَّ دَخَلَ أَمِيرُ الْجِيُوشِ بَذَرَ الْجَمَالِيِّ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ ، وَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ خَاوِيَةٌ عَلَى غُرُوشِهَا ، خَالِيَةٌ مِنْ سُكَّانِهَا وَأَنْبِيَاسِهَا ، قَدْ أَبَادَهُمُ الزُّبَاءُ وَالْجِبَابُ ، وَشَتَّتَهُمُ الْمَوْتُ وَالْخَرَابُ . وَلَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ إِلَّا بَقَايَا مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ أَصْوَاتٌ قَدْ اضْفَرَّتْ وَجُوهُهُمْ ، وَتَغَيَّرَتْ سِخْنُهُمْ مِنْ غَلَاءِ الْأَشْعَارِ وَكَثْرَةِ الْخَوْفِ مِنَ الْعَشْكَرِيَّةِ ، وَقَسَادِ طَوَائِفِ الْقَبِيدِ وَالْمِلْحِيَّةِ ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ تَزْرَعِ الْأَرْضِ^٢ .

هَذَا ، وَالطَّرَقَاتُ قَدْ انْقَطَعَتْ^(g) وَتَحَزَّزَتْ^(h) إِلَّا بِخِفَازَةٍ وَكُلْفَةٍ كَبِيرَةٍ وَصَارَتْ الْقَاهِرَةُ أَيْضًا يَابِتًا دَائِرَةً ، فَأَبَاحَ لِلنَّاسِ مِنَ الْعَشْكَرِيَّةِ وَالْمِلْحِيَّةِ وَالْأَزْمَنِ ، وَكُلٌّ مِنْ وَصَلَتْ قُدْرَتُهُ إِلَى عِمَارَةٍ ، أَنْ يُعَمَّرَ

(a) بولاق: أول. (b) ساقطة من الأصل. (c) بولاق: في ذكر. (d) بولاق: سبع. (e) بولاق: بهجاني.

(f) بولاق: الآن. (g-g) بولاق: بحرا وبر. (h)

ما شاء في القاهرة، ثم خلا من دور الفسطاط بموت أهلها. فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر، وعمرها بها في القاهرة، فكان^(a) هذا أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة^١.

ثم كان المنية بعد القضاء على الخطط والتعريف بها، تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي، في تأليف لطيف نبه فيه الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بئر الجمالي، على مواضع قد اغتصبت وتملكت بعد ما كانت أخصابا.

ثم كتب الشريف محمد بن أشعد الجواني كتاب «التقط لعجم^(b) ما أشكل من الخطط»^(c) فيه على معالم قد جُهِلَتْ، وآثار قد دُفِنَتْ.

وأخر من كتب في ذلك القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب «اتعاط المتأمل وإيقاظ المتغفل في الخطط»^(d) يبين فيه مجمل أحوال مصر وخططها، إلى أغوام بضع وعشرين وسبع مائة. فذكر بعده معظم ذلك في وباء سنة تسع وأربعين وسبع مائة، ثم في وباء سنة إحدى وستين، ثم في غلاء سنة ست وسبعين وسبع مائة.

وكتب القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب «الروضة البهية الزاهرة في خطط الميزة القاهرة»^(e) ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية له^٢.

ثم تزايدت العمارات من بعده، في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة وظواهرها، إلى أن كادت تضيق عن^(f) أهلها، حتى حل بها وباء سنة تسع وأربعين، وسنة إحدى وستين، ثم غلاء سنة ست وسبعين، فخربت بها عدة أماكن.

فلما كانت الحوادث والحج من سنة ست وثمان مائة، شمل الخراب القاهرة ومصر وعامة الإقليم. وسأورد من ذكر الخطط ما تصل إليه قدرتي إن شاء الله.

(a) بولاق: وكان. (b) بولاق: بعجم. (c) بولاق: نبه. (d) بولاق: جملاً من أحوال. (e) بولاق: إليه. (f) بولاق: على.

1 انظر فيما يلي ١: ٣٦٤. *Khitat en Égypte musulmane» dans The Historiography of Islamic Egypt (C. 950-1800), Leiden-Brill 2001, pp. 77-92، ودراسة مصادر المقرئ في مقدمة الكتاب.*

2 انظر عن هذه الكتب وعن تاريخ التأليف في الخطط المصرية قبل المقرئ وبعمه Fu'ad Sayyid, A., «L'évolution de la composition du genre de

ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ هَيْئَةِ الْأَفْلَاقِ

اعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ مِصْرُ قِطْعَةً مِنَ الْأَرْضِ ، تَقَبُّ - قَبْلَ التَّحْرِيفِ بِمَوْقِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَتَبَيَّنَ مَوْقِعُهَا^(a) مِنَ الْفَلَكَ - أَنْ أَدْكُرَ طَرَفًا مِنْ هَيْئَةِ الْأَفْلَاقِ ، ثُمَّ أَدْكُرُ صُورَةَ^(b) الْأَرْضِ وَمَوْقِعَ^(c) الْأَقَالِيمِ مِنْهَا ، وَأَدْكُرُ مَحَلَّ مِصْرَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْأَقَالِيمِ ، وَأَدْكُرُ لِحْدُودَهَا وَاشْتِقَاقَهَا وَقَضَائِلَهَا وَعَجَائِبَهَا وَكُنُوزَهَا وَأَخْلَاقَ أَهْلِهَا ، وَأَدْكُرُ نِيْلَهَا وَخُلُجَانَهَا وَكُنُوزَهَا وَمَبْلَغَ خَرَاجِهَا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي ذِكْرِ خِطِّطِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ ، فَأَقُولُ :

عِلْمُ النُّجُومِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ :

الْأَوَّلُ : مَعْرِفَةُ تَرْكِيبِ الْأَفْلَاقِ ، وَكَمِّيَّةِ الْكَوَاكِبِ ، وَأَقْسَامِ الْبُرُوجِ ، وَأَتْعَادِهَا ، وَعِظَمِهَا ، وَخَرَائِجِهَا ، وَيُقَالُ لِهَذَا الْقِسْمِ «عِلْمُ الْهَيْئَةِ» .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : عِلْمُ حَلِّ^(d) الزَّيْجِ وَعِلْمُ التَّقْوِيمِ .

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ الْاسْتِدْلَالِ بِذَوْرَانِ الْفَلَكَ وَطَوَالِجِ الْبُرُوجِ عَلَى الْحَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَيُسَمَّى هَذَا الْقِسْمُ «عِلْمُ الْأَحْكَامِ» .

وَالْفَرَضُ هُنَا إِبْرَادُ نُبْذٍ مِنْ «عِلْمِ الْهَيْئَةِ» تَكُونُ تَوْطِيقًا لِمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ .

اعْلَمْ أَنَّ الْكَوَاكِبَ أَجْسَامَ كُرِّيَّاتٍ ، وَالَّذِي أَدْرَكَ مِنْهَا الْحُكَمَاءُ بِالرَّضْدِ أَلْفَ كَوْكَبٍ وَتِسْعَةَ عَشْرُونَ كَوْكَبًا . وَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : سَيَّارَةٌ ، وَثَابِتَةٌ . فَالسَّيَّارَةُ سَبْعَةٌ ، وَهِيَ زُحَلُ وَالْمُشْتَرِي وَالْمَرْبُوحُ وَالشَّمْسُ وَالزُّهْرَةُ وَغُطَارِدُ وَالْقَمَرُ . وَقَدْ نُظِّمْتُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَهُوَ :

[الكمال]

زُحَلُ مُشْتَرِي مَرْبُوحٌ مِنْ شَمْسِيهِ فَعَزَّاهُ رَتَ بِمُحَطَّارِدِ أَقْمَارِهِ

وَيُقَالُ لِهَذِهِ السَّبْعَةِ : الْخُمْسُ ، وَقِيلَ إِنَّهَا الَّتِي عَنَّاها اللهُ سُبْحَانَهُ^(e) بِقَوْلِهِ : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُمْسِ * الْخَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ [الْإِيمَانُ ١٥ ، ١٦ سُوْرَةُ النُّكُوْلِ] ، وَالَّتِي عَنَّاها اللهُ بِقَوْلِهِ : ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْزَاجُ﴾ [الْآيَةُ سُوْرَةُ النَّازِعَاتِ] ، وَقِيلَ لَهَا الْخُمْسُ ، لِاسْتِقْرَافِهَا فِي سَبْعِهَا وَرُجُوعِهَا . وَقِيلَ لَهَا الْكُنُوسُ ، لِأَنَّهَا تُخْرَجُ فِي الْبُرُوجِ ثُمَّ تُكْنَسُ ، أَيْ تَسْتَرُ ، كَمَا يَكْنَسُ الظَّنِّي .

(a) بولاق: موضع. (b) الأصل: صوب. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: الأقاليم. (e) بولاق:

وقيل : الكُنُسُ والحُنُسُ منها خمسة ، وهي ما سَوَى الشَّمْسِ / والقَمَرِ ، سُمِّيَتْ بذلك من الانْحِنَاسِ ، وهو الانْقِياض . وفي الحديث : « الشَّيْطَانُ يُوسِسُ لِلْعَبْدِ ، فإذا ذَكَرَ اللهَ حَنَسَ » ، أي انْقَبَضَ وَرَجَعَ ، فيكون الحُنُسُ على هذا في الكَوَاكِبِ بمعنى الرُّجُوع ، وسُمِّيَتْ بالكُنُسِ من قَوْلِهِمْ : كَنَسَ الظُّبْيُ إِذَا دَخَلَ الْكِنَاسَ ، وهو مَقَرُّهُ . فالكُنُسُ على هذا في الكَوَاكِبِ بمعنى انْحِنَافِئَهَا تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ .

وَيُقَالُ لهذه الكَوَاكِبِ : الْمُتَحَبِّرَةُ ، لأنها تَرْجِعُ أحيانًا عن سَمَتِ مَسِيرِهَا بِالْحَرَكَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَتَتَبِعُ الْغَرِبِيَّةَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، فيكون هذا الازْتِدَادُ لها شَبَهَ التَّحَبُّيرِ .

وهذه الأَسْمَاءُ الَّتِي لهذه الكَوَاكِبِ يُقَالُ : إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتِهَا . فَرُحْلٌ مُشْتَقٌّ مِنْ رَحَلَ فَلَانَ إِذَا أَبْطَأَ ، سُمِّيَ بذلك لِبُطْءِ سَيْرِهِ ، وَقِيلَ الرُّحْلُ (a) ، والرُّحِيلُ (b) الحِقْدُ ، وهو بَرَزْغِيهِمْ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ * الثَّجَمُ الثَّاقِبُ ﴿ [الآيَات ١ - ٣ سورة الطارق] .

وَالْمُشْتَرِي سُمِّيَ بذلك لِحُسْنِهِ ، كَأَنَّهُ اشْتَرَى الْحُسْنَ لِنَفْسِهِ ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ نَجَمُ الشَّرَاءِ وَالتَّبَيُّعِ ، وَدَلِيلُ الرِّيحِ وَالْمَالِ فِي قَوْلِهِمْ .

وَالْمَرِيخُ مأخوذٌ مِنَ الْمَرْخِ ، وهو شَجَرٌ يَحْتَكُ بعضُ أَغْصَانِهِ بَعْضَ فَيُورِي نَارًا ، سُمِّيَ بذلك لِاحْمِرَارِهِ . وَقِيلَ الْمَرِيخُ سَهْمٌ لَا رِيشَ لَهُ ، إِذَا رُمِيَ بِهِ لَا يَسْتَوِي فِي تَمَرُّهِ ، وَكَذَا الْمَرِيخُ فِيهِ الْيَوَاءُ كَثِيرٌ فِي سَيْرِهِ ، وَدَلَالَتُهُ بِرُغْمِهِمْ تُشَبِّهُ ذَلِكَ .

وَالشَّمْسُ لَمَّا كَانَتْ وَاسِطَةً بَيْنَ ثَلَاثَةِ كَوَاكِبِ غَلُوبِيَّةٍ ، لِأَنَّهُمْ مِنْ فَوْقِهَا ، وَثَلَاثَةُ كَوَاكِبِ (c) سُغْلِيَّةٍ لِأَنَّهُمْ مِنْ تَحْتِهَا ، سُمِّيَتْ بذلك لِأَنَّ الْوَاسِطَةَ الَّتِي فِي الْخَتْمَةِ تُسَمَّى شَمْسَةً .

وَالزُّهْرَةُ مِنَ الزَّاهِرِ ، وهو الأَبْيَضُ النَّجْمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَغَطَارِدُ هو الثَّاقِذُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْكَاتِبُ ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ التَّصَرُّفِ مَعَ مَا يُقَارِنُهُ وَيُلَاحِظُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ .

وَالْقَمَرُ مأخوذٌ مِنَ الْقُسْرَةِ ، وهي الْبَيَاضُ ، وَالْأَقَمَرُ : الأَبْيَضُ .

وَيُقَالُ لِرُحْلِ كَيَوَانٍ، وَلِلْمُشْتَرِيِّ يَبْرًا^١ وَالتَّبَزْجِيسِ أَيْضًا، وَلِلتَّرْيِخِ بَهْرَامٍ، وَلِلشَّمْسِ مِهْرٌ،
وَلِلزُّهْرَةِ أَنَاهِيدٌ وَيَبْدُخْتُ أَيْضًا، وَلِلْعَطَارِدِ هِرْمِسٌ، وَلِلْقَمَرِ مَاهٌ. وَقَدْ جُمِعَتْ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ
وَهُوَ (a):

[اليسيط]

٥ لَا زِلْتُ تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْفَلَا أَهْبَا مَا دَامَ لِلشَّبَعَةِ الْأَفْلَاقُ إِحْكَامُ
مِهْرٌ وَمَاهٌ وَكَيَوَانٌ وَيَبْرٌ مَعَا وَهَرْمِسٌ وَأَنَاهِيدٌ وَبَهْرَامُ

وَيُقَالُ لَمَّا عَدَا هَذِهِ الْكَوَاكِبُ الشَّبَعَةَ مِنْ بَقِيَّةِ نُجُومِ السَّمَاءِ: الْكَوَاكِبُ الثَّابِتَةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ
لثَبَاتِهَا فِي الْفَلَكِ بِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَقِيلَ لِطُءِ حَرَكَتِهَا، فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِزَغَمِهِمْ بَعْدَ كُلِّ سِتَّةِ
وِثْلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً. وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ الشَّبَعَةِ السَّيَّارَةِ فَلَكٌ مِنَ
الأَفْلَاقِ يَخْصُهُ.

١٠

وَالْأَفْلَاقُ أَجْسَامٌ كَوْكَبَاتٌ مُشَقَّاتٌ، بَعْضُهَا فِي بَحْوَفٍ بَعْضٌ، وَهِيَ تَسْعَةُ: أَقْرَبُهَا إِلَيْنَا فَلَكُ
الْقَمَرِ، وَبَعْدَهُ فَلَكُ عَطَارِدٍ، ثُمَّ بَعْدَهُ فَلَكُ الزُّهْرَةِ، وَبَعْدَهُ فَلَكُ الشَّمْسِ، وَفَوْقَهُ فَلَكُ الْمَرْيَخِ، ثُمَّ
فَلَكُ الْمُشْتَرِيِّ، وَفَوْقَهُ فَلَكُ زُحَلٍ، ثُمَّ فَلَكُ الثَّوَابِتِ وَفِيهِ كُلُّ كَوْكَبٍ يُرَى فِي السَّمَاءِ سِوَى
الشَّبَعَةِ السَّيَّارَةِ، وَمِنْ فَوْقِ فَلَكِ الثَّوَابِتِ الْفَلَكُ الْحَمِيطُ، وَهُوَ الْفَلَكُ التَّاسِعُ وَيُسَمَّى الْأَطْلَسُ،
وَفَلَكُ الْأَفْلَاقِ، وَفَلَكُ الْكُلِّ.

١٥

وَقَدْ اخْتَلِفَ فِي الْأَفْلَاقِ: فَقِيلَ هِيَ السَّمَنَاتُ، وَقِيلَ بَلِ السَّمَنَاتُ غَيْرُهَا، وَقِيلَ هِيَ
كَوْكَبَةٌ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَقِيلَ الْفَلَكُ الثَّامِنُ هُوَ الْكُزْسِيُّ، وَالْفَلَكُ التَّاسِعُ هُوَ الْعَرْشُ، وَقِيلَ
غَيْرَ ذَلِكَ.

وَهَذَا الْفَلَكُ التَّاسِعُ دَائِمُ الدَّوْرَانِ كَالدُّوْلَابِ، وَيَدُورُ فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً مُسْتَوِيَةً
دَوْرَةً وَاحِدَةً. وَدَوْرَانُهُ يَكُونُ أَبَدًا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَيَدُورُ بِدَوْرَانِهِ جَمِيعُ الْأَفْلَاقِ الثَّمَانِيَةِ،
وَمَا خَوْنَتْهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ، دَوْرَانًا حَرَكَتَهُ قَسْرِيَةً لِإِدَارَةِ التَّاسِعِ لَهَا. وَعَنْ حَرَكَةِ التَّاسِعِ الْمَذْكُورِ
يَكُونُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَالْنَّهَارُ مُدَّةُ بَقَاءِ الشَّمْسِ فَوْقَ أَفْقِ الْأَرْضِ، وَاللَّيْلُ مُدَّةُ غَيْبُوتِ الشَّمْسِ تَحْتَ
أَفْقِ الْأَرْضِ.

٢٠

(a) بولاق: وهو هذا.

^١ ورد الاسم هكذا في سائر النسخ، وفضل Wiet قراءتها «بيل» وهو الاسم السرياني للمشتري.

وَقُلْتُ الكواكب الثابتة مقسومة بانني عشر قِسْمًا كحُجْزِ البُطِيخَةِ ، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ بُرْجٌ ، وهي : الحَمَلُ ، والثَّوْرُ ، والجُوزَاءُ ، والسرطان ، والأَسَدُ ، والسِّنْبَلَةُ ، والمِيزَانُ ، والعَقْرَبُ ، والقَوْسُ ، والجَدِّي ، والدَّلُو ، والحُوتُ . وكلُّ بُرْجٍ مِنْ هَذِهِ الْبُرُوجِ الْاِثْنِي عَشَرَ يَنْقَسِمُ ثَلَاثِينَ قِسْمًا ، يُقَالُ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ ، وكلُّ دَرَجَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِينَ مَقْسُومَةٌ سِتِينَ قِسْمًا ، يُقَالُ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا دَقِيقَةٌ ، وكلُّ دَقِيقَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّتِينَ مَقْسُومَةٌ سِتِينَ قِسْمًا ، يُقَالُ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا ثَانِيَةٌ ، وهكذا إِلَى الثَّوَالِثِ وَالرُّوَابِعِ وَالْخَوَاسِ إِلَى الثَّنَائِي عَشَرَ وَمَا قُوَّتُهَا مِنَ الْأَجْزَاءِ .

وَكُلُّ ثَلَاثَةِ بُرُوجٍ تُسَمَّى فَصْلًا ، فَالزَّمَانُ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَةُ فُصُولٍ ، وهي : الرَّبِيعُ ، وَالصَّيْفُ ، وَالخَرِيفُ ، وَالشِّتَاءُ .

وَجِهَاتُ الْأَقْطَارِ أَرْبَعَةٌ : الشَّرْقُ ، وَالْغَرْبُ ، وَالشَّمَالُ ، وَالْجَنُوبُ .

وَالْأَرْكَانُ أَرْبَعَةٌ : النَّارُ ، وَالْهَوَاءُ ، وَالْمَاءُ ، وَالتُّرَابُ .

وَالطَّبَائِعُ أَرْبَعَةٌ : الْحَرَارَةُ ، وَالْبَرُودَةُ ، وَالرُّطُوبَةُ ، وَالْيَبُوسَةُ .

وَالْأَخْلَاطُ أَرْبَعَةٌ : الصُّفْرَاءُ ، وَالسَّوْدَاءُ ، وَالْبَلْعَمُ ، وَالذَّمُّ .

وَالرِّيَاحُ أَرْبَعَةٌ : الصَّبَا ، وَالذَّبُورُ ، وَالشَّمَالُ ، وَالْجَنُوبُ .

فَالْبُرُوجُ : مِنْهَا ثَلَاثَةٌ رَبِيعِيَّةٌ ، صَاعِدَةٌ فِي الشَّمَالِ ، زَائِدَةٌ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وهي الحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجُوزَاءُ . وَثَلَاثَةٌ صَيْفِيَّةٌ ، هَابِطَةٌ فِي الشَّمَالِ ، آخِذَةٌ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ ، وهي السَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ / وَالسِّنْبَلَةُ . وَثَلَاثَةٌ خَرِيفِيَّةٌ ، هَابِطَةٌ فِي الْجَنُوبِ زَائِدَةٌ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، وهي : المِيزَانُ وَالْعَقْرَبُ وَالقَوْسُ . وَثَلَاثَةٌ شَتَوِيَّةٌ ، صَاعِدَةٌ فِي الْجَنُوبِ آخِذَةٌ النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ ، وهي الجَدِّي وَالدَّلُو وَالحُوتُ .

وَالْفَلَكَ الْحَمِيطُ - كَمَا تَقَدَّمَ - دَائِمُ الدَّوْرَانِ كالدُّوَلَابِ ، يَدُورُ أَبَدًا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَمِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ تَحْتَهَا . فَيَكُونُ دَائِمًا نِصْفُ الْفَلَكَ - وَهُوَ سِتَّةُ بُرُوجٍ بِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ دَرَجَةٍ - فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَنِصْفُهُ الْآخَرُ - وَهُوَ سِتَّةُ بُرُوجٍ بِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ دَرَجَةٍ - تَحْتَ الْأَرْضِ .

وَكُلَّمَا طَلَعَتْ مِنْ أَفْقِ الْمَشْرِقِ دَرَجَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الْفَلَكَ الَّتِي عِدَّتُهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ دَرَجَةٍ ، غَرَبَ نَظِيرُهَا فِي أَفْقِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْبُرْجِ السَّابِعِ ، فَلَا يَزَالُ دَائِمًا سِتَّةُ بُرُوجٍ طُلُوعُهَا بِالنَّهَارِ ، وَسِتَّةُ بُرُوجٍ طُلُوعُهَا بِاللَّيْلِ .

وَالْأَقْلَاقُ عبارة عن الحدِّ الفاصِل من الأرض بين المَرْفَعِ والخَفِيّ من السَّمَاءِ .
وَالْفَلَكَ يدور على قُطْبَيْنِ : شمالي وجنوبي ، كما يدور الحَقُّ على قُطْبَيْي المَحْرُوطَةِ ، وَيَقْسَمُ
الْفَلَكَ حَظًّا من دائرة يُقَسِّمُهُ يَصْغِينَ مُتساويين ، يُغْذِيهَا من كلا القُطْبَيْنِ سَوَاءً ، وَتُسَمَّى هذه
الدَّائِرَةُ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ الثَّهَارِ ، فَهِيَ تُقَاطِعُ فَلْكَ البُرُوجِ . ودَائِرَةُ فَلْكَ البُرُوجِ تُقَاطِعُ دَائِرَةَ مُعَدِّلِ
الثَّهَارِ . ويميل نصفُهَا إلى الجَانِبِ الشَّمَالِيِّ بِقَدَرِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ دَرَجَةً تَقْرِيْبًا ، وَفِي هَذَا النِّصْفِ (أ)
قُسِمَتِ البُرُوجُ السَّتَةُ الشَّمَالِيَّةُ ، وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السَّيْبِلَةِ . ويميل نصفُهَا الثَّانِي عَنْهَا
إِلَى الْجَنُوبِ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَفِيهِ قُسِمَتِ البُرُوجُ السَّتَةُ الْجَنُوبِيَّةُ ، وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ بُرْجِ المِيزَانِ إِلَى آخِرِ بُرْجِ
الْحُوتِ .

وَمَوْضِعُ تَقَاطُعِ هَاتَيْنِ الدَّائِرَتَيْنِ - أعني دَائِرَةُ مُعَدِّلِ الثَّهَارِ ودَائِرَةُ فَلْكَ البُرُوجِ - من الجَانِبَيْنِ ،
هُمَا نَقْطَتَا الاعتدالَيْنِ ، أعني رَأْسَ الْحَمَلِ ورَأْسَ المِيزَانِ .

وَمَدَارُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَسَائِرِ النُّجُومِ عَلَى مُحَاطَاةِ دَائِرَةِ فَلْكَ البُرُوجِ دُونَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ الثَّهَارِ ؛
وَقَرَّبَ الشَّمْسُ عَلَى دَائِرَةِ مُعَدِّلِ الثَّهَارِ عِنْدَ حُلُولِهَا بِنُقْطَتَيْ الاعتدالَيْنِ فَقَطْ ، لِأَنَّهَا مَوْضِعُ تَقَاطُعِ
الدَّائِرَتَيْنِ ، وَهَذَا هُوَ حَظُّ الاسْتِواءِ الَّذِي لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ الزَّمَانُ بِزِيَادَةِ اللَّيْلِ عَلَى الثَّهَارِ ، وَلَا الثَّهَارُ
عَلَى اللَّيْلِ ، لِأَنَّ مِثْلَ الشَّمْسِ عَنْهُ إِلَى كِلَا الْجَانِبَيْنِ ، الشَّمَالِيِّ وَالْجَنُوبِيِّ ، سَوَاءً .

فَالشَّمْسُ تَدُورُ الْفَلَكَ ، وَتَقْطَعُ الْاِثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا ، فِي مُدَّةِ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَسْتِينَ يَوْمًا
وَرُبْعٍ يَوْمٍ بِالتَّقْرِيبِ ، وَهَذِهِ هِيَ مُدَّةُ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ ، وَتُقِيمُ فِي كُلِّ بُرْجٍ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَكَثَرًا مِنْ
يَوْمٍ ، وَتَكُونُ أَبَدًا بِالثَّهَارِ ظَاهِرَةً فَوْقَ الْأَرْضِ وَبِاللَّيْلِ بِخِلَافِ ذَلِكَ .

وَإِذَا حَلَّتْ فِي البُرُوجِ السَّتَةِ الشَّمَالِيَّةِ - الَّتِي هِيَ الْحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجُوزَاءُ وَالسَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ
وَالسَّيْبِلَةُ - فَإِنَّهَا تَكُونُ مُرْتَبِعَةً فِي الْهَوَاءِ ، قَرِيبَةً مِنْ سَعَتِ زُووسِنَا ، وَذَلِكَ زَمَنُ فَضْلِ الرِّبْعِ
وَفَضْلِ الصَّيْفِ .

وَإِذَا حَلَّتْ فِي البُرُوجِ الْجَنُوبِيَّةِ - وَهِيَ المِيزَانُ وَالْعَقْرَبُ وَالْقَوْسُ وَالْجَدْيُ وَالدَّلْوُ وَالْحُوتُ - كَانَ
فَضْلُ الْخَرِيفِ وَفَضْلُ الشِّتَاءِ ، وَانْحَطَّتِ الشَّمْسُ وَبَعْدَتْ عَنْ سَعَتِ الرُّؤُوسِ .
وَزَعَمَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَزْمِنَةِ الْأَرْبَعَةِ الشِّتَاءَ ، فَجَعَلَهُ بَارِدًا
رَطْبًا ، وَخَلَقَ الرِّبْعَ فَجَعَلَهُ حَارًّا رَطْبًا ، وَخَلَقَ الصَّيْفَ حَارًّا يَابِسًا ، وَخَلَقَ الْخَرِيفَ بَارِدًا
يَابِسًا .

(أ) بولاق: وهذا النصف فيه.

وأَوَّلُ الفُصول ، عند أهل زَمَاننا ، الربيع ؛ ويكون فَصلُ الربيع عندما تنتقل الشَّمْسُ من بُرج الحُوت .

وقد اختلف القَدَماءُ في البداية من الفُصول : فمنهم من اختار فَصل الربيع وَصِيَرِهِ أَوَّلَ السَّنَةِ ، ومنهم من اختار تَقْدِيم الانقلاب الصَّيفي ، ومنهم من اختار تَقْدِيم الاغْتِدال الخَرِيفي ، ومنهم من اختار تَقْدِيم الانقلاب الشِّتوي .

فإذا حَلَّتْ أَوَّلَ جزء من بُرج الحَمَل ، استوى اللَّيْلُ والنَّهَارُ ، واغْتَدَل الزَّمانُ ، وانصَرَمَ^(a) الشَّتاءُ ، وحلَّ^(b) الربيعُ ، وطابَ الهَوَاءُ ، وهبَ النِّسيمُ ، وذابَ الثَّلْجُ ، وسالتَ الأودِيَّةُ ، ومَدَّتْ الأنهارُ - فيما عدا مصر - ونبتَ العُشبُ ، وطالَ الزُّرْعُ ، ونما الحَشِيشُ ، وتَلَأَّ الزُّهُرُ ، وأزرقَ الشَّجَرُ ، وتَفَتَّحَ الثَّوَرُ ، وانخَصَرَ وَجْهُ الأرضِ ، وتَنَجَّتْ البهائمُ ، ودَرَّتْ الصُّرُوعُ ، وأُخْرِجَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وزَيَّنَّتْ ، وصارت كَصَيِّبَةٍ شَابَّةٍ قد تَزَيَّنَّتْ لِلنَّاظِرِينَ^١ .

ولله دَرُ القائل ، وهو الحافظ جمالُ الدين يوسف بن أحمد اليَغمُوري^(c) ،^٢ رحمه الله تعالى :

[الكامل]

واشْتَشَبُوا لِهَوا الربيع فِرائِه
يَعْمُ الصَّدِيقُ^(d) وعنده أَلطافُ
يُعَذِّي الجَسومَ نَسيمُه فكأنَّه^(e)
روحُ حواها بجَوْهَرٍ شَفافُ

وقال ابنُ قُتيبة^٣ : ومن ذلك الربيع يَذْهَبُ الناسُ إلى أَنَّهُ الفَصلُ الذي يَتَّبِعُ الشَّتاءَ ، ويأتي فيه

(a) بولاق: انصرف. (b) بولاق: ودخل. (c) بولاق: اليعمري. (d-d) بولاق: النسيم. (e) بولاق: وكانه.

^١ عن ذكر الفصول وأزمنتها وطوائعها راجع، القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٠٣-٤١٦.

^٢ الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليَغمُوري الدمشقي المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، عرف باليَغمُوري لمصاحبه للأمير شهاب الدين بن تغلقور وملازمته له (ابن شاكِر: فوات الوفيات ٤: ٣٣٨-٣٣٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٤٧).

^٣ أبو محمد عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدينوري أحد أئمة الأدب والمصنفين الكثيرين توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ/

٨٨٩م. احمد المقرئ علي كتابين من مصنفاته : «أدب الكاتب» و«غرب الحديث» . (راجع، ابن النديم: الفهرست ٨٥-٨٦؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠: ١٧٠-١٧١؛ القفطي: إنباء الرواه ٢: ١٤٣-١٤٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٢-٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣: ٢٩٦-٣٠٢؛ الصغدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٦٠٧-٦٠٩ Le comte, G; Ibn Qutayba (mort en 276/ ١٦٠٩ 889), l'homme, son œuvre, ses idées, Damas IFD (1965; id., El² art. Ibn Qutayba III, pp. 868-71.

التَّوَرُّ (وَالْوَرْدُ)^(a)، وَلَا يَتَغَرَّفُونَ الرِّيحَ غَيْرَهُ . وَالْعَرَبُ تَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الرِّيحَ الْفَضْلَ الَّذِي تُذْرِكُ فِيهِ الثَّمَارَ - وَهُوَ الْخَرِيفُ - وَقَضْلُ الشَّتَاءِ بَعْدَهُ ؛ ثُمَّ قَضْلُ الصَّيْفِ بَعْدَ الشَّتَاءِ - وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي تَدْعُوهُ الْعَامَّةُ الرِّيحَ - ثُمَّ قَضْلُ الْقَيْظِ [بَعْدَهُ]^(b)، وَهُوَ [الْوَقْتُ]^(b) الَّذِي تَدْعُوهُ الْعَامَّةُ الصَّيْفَ ؛ وَمَنْ الْعَرَبُ مِنْ يُسَمِّي الْقَضْلَ الَّذِي تُذْرِكُ فِيهِ الثَّمَارَ - وَهُوَ الْخَرِيفُ - الرِّيحَ الْأَوَّلَ، وَيُسَمِّي الْقَضْلَ الَّذِي يَتْلُوهُ الشَّتَاءُ، وَيَأْتِي فِيهِ الْكَمَاءُ^(c) وَالتَّوَرُّ، الرِّيحَ الثَّانِي، وَكُلَّهُمْ مُجْمِعُونَ^(d) عَلَى أَنَّ الْخَرِيفَ هُوَ الرِّيحُ^(e).

فَإِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ آخِرَ بُرْجِ الْجُوزَاءِ وَأَوَّلَ بُرْجِ السَّرْطَانِ، تَنَاهَى طَوْلُ النَّهَارِ وَقَصُرَ اللَّيْلُ، وَابْتَدَأَ تَقْصُّ النَّهَارِ وَزِيَادَةُ اللَّيْلِ، وَانْصَرَمَ قَضْلُ الرِّيحِ، وَدَخَلَ قَضْلُ الصَّيْفِ، فَاشْتَدَّ الْحَرُّ، وَحَمِيَ الْهَوَاءُ، وَهَبَّتِ السَّحَابُ، وَتَقَصَّتِ الْمِيَاهُ إِلَّا بِمَصْرَ، وَيَسَّ الثَّغْبُ، وَاسْتَعْجَلَ الْحَبُّ، وَأَذْرَكَ حَصَادُ الْغِلَالِ، وَنَضِجَتِ الثَّمَارُ، وَسَمِئَتِ الْبَهَائِمُ، وَاسْتَدَّتْ قُوَّةُ الْأَبْدَانِ، وَذَرَّتْ

أَخْلَافُ النِّعَمِ، وَصَارَتِ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا غَرُوسٌ .

فَإِذَا بَلَغَتْ آخِرَ بُرْجِ الشُّبُّلَةِ وَأَوَّلَ بُرْجِ الْمِيزَانِ، تَسَاوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَأَخَذَ اللَّيْلُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّهَارُ فِي التَّقْصَانِ، وَانْصَرَمَ قَضْلُ الصَّيْفِ وَدَخَلَ قَضْلُ الْخَرِيفِ، فَبَرَدَ الْهَوَاءُ، وَهَبَّتِ الرِّيحُ، وَتَغَيَّرَ الزَّمَانُ، وَجَفَّتِ الْأَنْهَارُ، وَغَارَتِ الْقِيُونُ، وَاضْفَرَّتْ وَرَقُ الشَّجَرِ، وَصَرَمَتِ الثَّمَارُ، وَذَرَسَتِ الْبَيَادِرُ، وَاسْتَحْزَنَ الْحَبُّ، وَفَنِيَ^(f) الثَّغْبُ، وَاعْبَرَتْ وَجْهَ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَصْرَ، وَهَزَلَتِ الْبَهَائِمُ، وَمَاتَتِ الْهَوَامُّ، وَانْجَحَرَتِ الْحَشَرَاتُ، وَانْصَرَفَ الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ يُرِيدُ الْبِلَادَ الدَّافِئَةَ، وَأَخَذَ النَّاسُ يَحْزِنُونَ الْقُوَّةَ لِلشَّتَاءِ، وَصَارَتِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا امْرَأَةٌ كَهْلَةٌ قَدْ أَذْبَرَتْ وَأَخَذَتْ شَبَابَهَا بُولِي .

وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَاتِلِ - وَهُوَ الْإِمَامُ عَزَّ الدِّينَ أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مَعْقِلٍ الْأَزْدِيُّ الْمُهَلَّبِيُّ الْحِمْصِيُّ^(g) - حَيْثُ يَقُولُ :

(a) عند ابن قتيبة: الورد والكماء والنور. (b) زيادة من ابن قتيبة. (c) بولاق: الكماء. (d) بولاق: مجمعون. (e) بولاق: الرِّيح هو الخريف. (f) بولاق: اقتضى.

¹ ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٥٥هـ، ٢٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٤١٥:٢ .

^٢ توفي سنة ٦٤٤هـ (الذهبي: المير في غير من غير ٥: ١٨٢-١٨٣، سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٢٢-٢٢٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٣٩-٢٤٠).

[البسيط]

لله فضل الحريف المشتل به
أهدى إلى الأرض من أوراقه ذهباً
وقال أيضاً :

[المرح]

لله فضل الحريف فضلاً
فالملك يجري من قلب سال
فبرد هذا ولون هذا
وقال أيضاً :

[الوافر]

أنى فضل الحريف بكل طيب
أزانا الدوخ مضافاً نضاراً
فأحسن كل إحسان إلينا
وقال آخر يذم الحريف :

[الكامل]

تخذ في التذثر في الحريف فأنه
يجري مع الأجسام مجرى حياتها
وقال آخر :

[الكامل]

يا عابثاً فضل الحريف وغائباً
لا شيء ألفت منه عندي موقفاً
وتراه يفسر تحته أغواته
والذ ساعات الوصال إذا دنا
عن فضله في دمه لزمانه
أبداً يعزى الغصن من فقصانه
فاعجب لرافته وقوط خنائه
وقث الرحيل وحان حين أوائه

فإذا حلت الشمس آخر بزج القوس وأول بزج الجدي ، تناهى طول الليل وقصر النهار ، وأخذ
النهار في الزيادة والليل في النقصان ، وانصرم فضل الحريف وحل فضل الشتاء ، واشتد البرد
وخش الحوائط ، وتساقط ورق الشجر ومات أكثر الثبات ، وغارت الحيوانات في بجوف الأرض ،
وضعف قوى الأبدان ، وعزى وجه الأرض من الزينة ، ونشأت الغيوم وكثرت الأنداء ، وأظلم
الجو ، وكلح وجه الأرض إلا بمصر ، وامتنع الناس من التصرف ، وصارت الدنيا كأنها عجوز
هرمة قد دنا منها الموت .

فَإِذَا بَلَغَتْ آخِرَ بُرُوجِ الْحَوْتِ وَأَوَّلَ بُرُوجِ الْحَمَلِ ، عَادَ الزَّمَانُ كَمَا كَانَ عَامَ أَوَّلِ وَهَذَا ذَأْبُهُ ؛ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، وَتَقْدِيرُ الْخَبِيرِ الْحَكِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَدْ شَبَّهَ بَطْلَانِيُوسَ فَضْلَ الرَّبِّيعِ بِزَمَانِ الطُّفُولِيَّةِ ، وَفَضْلَ الصَّيْفِ بِالشَّبَابِ ، وَالْخَرِيفِ
بِالْكُهُولَةِ ، وَالشِّتَاءَ بِالشَّيْخُوخَةِ .

• وَعَنْ حَرَكَةِ الشَّمْسِ ، وَتَقَالُهَا فِي الْبُرُوجِ الْإِثْنِي عَشَرَ الْمَذْكُورَةِ ، تَكُونُ أَزْمَانُ السَّنَةِ وَأَوْقَاتُ
الْيَوْمِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَسَاعَاتُهُمَا .

وَعَنْ حَرَكَةِ الْقَمَرِ فِي الْبُرُوجِ الْإِثْنِي عَشَرَ تَكُونُ الشُّهُورُ الْقَمَرِيَّةُ وَالسَّنَةُ الْقَمَرِيَّةُ .

فَالْقَمَرُ يَدُورُ الْبُرُوجِ الْإِثْنِي عَشَرَ ، وَيَقْطَعُ الْفَلَكَ كُلَّهُ ، فِي مُدَّةٍ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا وَبَعْضُ
يَوْمٍ ، وَيُقِيمُ فِي كُلِّ بُرْجٍ يَوْمَيْنِ وَثَلَاثَ يَوْمٍ بِالتَّقَرُّبِ ، وَيُقِيمُ فِي كُلِّ مَثْرَلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الْقَمَرِ الثَّمَانِيَةِ
وَالْعِشْرِينَ مَثْرَلَةً يَوْمًا وَلَيْلَةً ، فَيُظْهِرُ عِنْدَ إِهْلَالِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرَبِ بَعْدَ غُرُوبِ جُزْمِ الشَّمْسِ ، وَيَزِيدُ
نُورَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدْرَ نِصْفِ شَبْعٍ حَتَّى يَكْمُلَ نُورُهُ ، وَيَمْتَلِئُ فِي لَيْلَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ إِهْلَالِهِ ، ثُمَّ
يَأْخُذُ مِنَ اللَّيْلِ الْخَامِسَةِ عَشَرَ / فِي النُّقْصَانِ ، فَيَنْقُصُ مِنْ نُورِهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نِصْفَ شَبْعٍ كَمَا بَدَأَ ،
إِلَى أَنْ يُنْتَحِقَ نُورُهُ فِي آخِرِ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ إِهْلَالِهِ .

وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ - مِنْذُ يُفَارِقُ الشَّمْسُ ، وَيَتَدَوُّ فِي نَاحِيَةِ الْمَغْرَبِ ، وَإِلَى ^(أ) أَنْ يُجَامِعَهَا -

بِشَمَانٍ ^(ب) وَعِشْرِينَ مَثْرَلَةً ، وَهِيَ : السَّرَطَانُ وَالْبُطَيْنُ وَالْتَّرِيَّا وَالذَّبْرَانُ وَالْهَقْعَةُ وَالْهَنْعَةُ وَالذَّرَاعُ وَالنَّثْرَةُ
وَالطَّرُوفُ وَالْجَبْهَةُ وَالزُّنْبُرَةُ وَالصَّرْفَةُ وَالْقَوَاءُ وَالسَّمَكَ وَالْعَفْرُ وَالزُّبَانَا وَالْإِكْلِيلُ وَالْقَلْبُ وَالشُّوْلَةُ
وَالثَّعَائِمُ وَالْبُلْدَةُ وَسَعْدُ الدَّابَّحِ وَسَعْدُ بُلْعٍ وَسَعْدُ الشَّعُودِ وَسَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ وَالْفَرْعُ الْمَقْدَمُ وَالْفَرْعُ الْمُوَخَّرُ
وَبَطْنُ الْحَوْتِ .

وَلِحِسَابِ ذَلِكَ كُتِبَ مَوْضُوعَةٌ ، وَفِيمَا ذُكِرَ كِفَايَةً ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الْآيَةُ ١٩

سُورَةُ النُّورِ] .

ذِكْرُ مَوْزَةِ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِ الْأَقَالِيمِ مِنْهَا

وَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْأَفْلاكِ مَا يَتَّبِعُهُ بِهِ ، لَمَنِ اللَّهُمَّ اللهُ تَعَالَى ، كَيْفَ تَكُونُ الْحَرَكَةُ الَّتِي بِهَا
الْأَجَلُ وَالنَّهَارُ وَتَرْكِبُ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ مِنْهُمَا ، جَازَ حَيْثُ عَلِمَ الْكَلَامُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَقُولُ : الْجِهَاتُ
مِنْ حَيْثُ هِيَ سِتٌّ : الشَّرْقُ ، وَهُوَ حَيْثُ تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَسَائِرُ الْكَوَاكِبِ فِي كُلِّ قُطْرٍ مِنْ
الْأَفْقِ . وَالْمَرْبُ ، وَهُوَ حَيْثُ تَغْرُبُ . وَالشَّمَالُ ، وَهُوَ حَيْثُ مَدَارُ الْجُذْيِ وَالْفَرْقَدَيْنِ . وَالْجَنُوبُ ،
وَهُوَ حَيْثُ مَدَارُ شَهِيل . وَالْقَوْزُ ، وَهُوَ يَمَّا يَلِي السَّمَاءَ . وَالثَّغْتُ ، وَهُوَ يَمَّا يَلِي مَوْزَكَ الْأَرْضِ .
ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْأَرْضَ كَالْكُرَةِ ، مَوْضُوعَةٌ فِي بَحْوَفِ الْفَلَكَ كَالْمُخِّ فِي الْبَيْضَةِ ، وَأَنَّهَا
فِي الْوَسْطِ ، وَيُقَدِّمُهَا فِي الْفَلَكَ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ^(أ) عَلَى التَّسَاوِي .

وَزَعَمَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ^١ أَنَّ تَحْتَ الْأَرْضِ جِسْمًا مِنْ شَأْنِهِ الِازْتِفَاعُ ، وَهُوَ الْمَانِعُ لِلْأَرْضِ مِنَ
الِانْتِحَادِ ، وَهُوَ لَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى مَا بَعْدَهُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَطْلُبُ الْإِنْتِحَادَ بَلِ الْإِزْتِفَاعُ . وَقَالَ آخَرُ^(ب) :
إِنَّ اللَّهَ وَقَفَهَا بِلا عِمَادَ .

وَقَالَ دِيمَقْرَاطِيْسُ : إِنَّهَا تَقُومُ عَلَى الْمَاءِ ، وَقَدْ حُصِرَ الْمَاءُ تَحْتَهَا حَتَّى لَا يَجِدَ مَخْرَجًا فَيُضْطَرُّ إِلَى
الِانْتِقَالِ^٢ .

وَقَالَ آخَرُ : هِيَ وَاقِفَةٌ عَلَى الْوَسْطِ عَلَى مِقْدَارٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَالْفَلَكَ يَجْذِبُهَا مِنْ كُلِّ
وَجْهِ ، فَلِذَلِكَ لَا تَمِيلُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْفَلَكَ دُونَ أُخْرَى^(ج) ، لِأَنَّ قُوَّةَ الْأَجْزَاءِ مُتَكَافِئَةٌ ، وَذَلِكَ
كَحَبْرِ الْمَغْنَاطِيْسِ فِي جَذْبِهِ الْحَدِيدَ ، فَإِنَّ الْفَلَكَ بِالطَّبِيعِ مُغْنَاطِيْسُ الْأَرْضِ ، فَهُوَ يَجْذِبُهَا فَهِيَ
وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ ، وَسَبَبُ وَقُوفِهَا فِي الْوَسْطِ شُرُوعُهُ تَدْوِيرَ الْفَلَكَ وَدَفْعُهُ إِثَابَهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِلَى

(أ) يولاق : الجهات . (ب) ساقطة من يولاق . (ج) يولاق : ناحية .

^١ أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في

وقته ، وكان منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان ينزل

١٢٢٤ المسعودي : مروج الذهب ٤ : ٢٣٨ ، وانظر فيما يلي

بالكرخ في الجانب الغربي من بغداد ، توفي بعد نكبة البرامكة

^٢ انظر ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٦ .

بفترة قصيرة وهو مستر . (ابن النديم : الفهرست ٢٢٣ -

الْوَسْطُ ، كما إِذَا وَصَّغَتْ ثُرَابًا فِي قَارُورَةٍ وَأَذَرَتْهَا بِقُوَّةٍ فَإِنَّ الثَّرَابَ يَقُومُ فِي الْوَسْطِ ^١ .

وقال محمد بن موسى الخوارزمي ^٢ : الْأَرْضُ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ ، وَالْوَسْطُ هُوَ الشَّقْلُ بِالْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ مُدَوَّرَةٌ مُصَبَّرَةٌ مِنْ جِهَةِ الْجِبَالِ الْبَارِزَةِ وَالْوُهَادِ الْغَائِثَةِ ، وَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهَا عَنِ الْكُرَّةِ إِذَا اغْتَبِرَتْ مَجْمَلَتَهَا ، لِأَنَّ مَقَادِيرَ الْجِبَالِ - وَإِنْ شَمَخَتْ - بِسِيرَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى كُرَّةٍ ^٣ الْأَرْضِ ، فَإِنَّ الْكُرَّةَ الَّتِي قُطْرُهَا ذِرَاعٌ أَوْ ذِرَاعَانِ مِثْلًا إِذَا تَنَا مِنْهَا شَيْءٌ أَوْ غَارَ فِيهَا لَا يُخْرِجُهَا عَنِ الْكُرَّةِ ، وَلَا هَذِهِ التُّضَارِيسُ لِاحْطَاةِ الْمَاءِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جَوَائِهَا ^٤ وَغَمَرَهَا بِحَيْثُ لَا يَظْهَرُ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَحَيْثُ تَبْطُلُ الْحِكْمَةُ الْمُوَدَّعَةُ فِي الْمَعَادِنِ وَالثِّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ^٥ ، فَتُصْبِحَانِ مِنْ لَا يَعْلَمُ أَسْرَارَ مُحْكَمِهِ إِلَّا هُوَ .

وَالْأَرْضُ جَنْبُهُ مُسْتَدِيرٌ كَالْكُرَّةِ ، وَقِيلَ لَيْسَتْ بِكُرَّةٍ الشَّكْلُ ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ فِي الْهَوَاءِ بِجَمِيعِ جِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَغَايِرِهَا وَغَايِرِهَا ، وَالْهَوَاءُ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا كَالْمُعْ فِي جَوْفِ الْبَيْضَةِ . وَتُقَدَّمُ مِنَ السَّمَاءِ مُتَسَاوٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَأَشْفَلُ الْأَرْضِ مَا تَحْقِيقُهُ هُوَ عُمُقُ بَاطِنِهَا مَا يَلِي مَرْكَزَهَا مِنْ أَيِّ جَانِبٍ كَانَ .

وَأَمَّا سَطْحُهَا الظَّاهِرُ ، الْمُنَاسُ لِلْهَوَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، فَإِنَّهُ فَوْقَ ، وَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ يُحِيطُ بِهَا وَيَجْذِبُهَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ . وَفَوْقَ الْهَوَاءِ الْأَفْلاكُ الْمَذْكُورَةُ فِيمَا تَقْدُمُ ، وَاجِدًا فَوْقَ آخَرٍ ، إِلَى الْفَلَكَ التَّاسِعِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْأَفْلاكِ وَنَهَايَةِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ : فَقِيلَ خَلَائِفٌ ، وَقِيلَ مَلَأَةٌ ، وَقِيلَ لَا خَلَائِفَ وَلَا مَلَأَةَ .

(a) فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : كُلٌ . (b) فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : وَلَوْلَا هَذَا التَّضَرُّيسُ لِأَحْاطَ بِهَا لِلْمَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ .

رمضان سنة ١٤٢٨هـ / ١٠٣٧م موجودة الآن في مكتبة
ستراسبورج Strasburg بفرنسا، نشرها هانس فون مزيك
Mzik في فيينا سنة ١٩٢٦، وهو على هيئة زيج، أي جدول فلكية
(راجع، Nallino, C., «al, Khwarizmi et son remaniement de la Géographie de Ptolémée»,
BSKG IV série n° 8 (1896), pp. 525-43
كراتشكونسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٠٦-١١٣، فؤاد
سركين : مساهمة الجغرافيين العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم،
فرانكفورت ١٩٨٧، ٢١-٢٢. أما محمد بن أحمد الخوارزمي فهو
مؤلف كتاب «مفاتيح العلوم». انظر فيما يلي ٢٥٨:١ .

^٣ ياقوت : معجم البلدان ١: ١٧.

^١ قارن ياقوت : معجم البلدان ١: ١٦-١٧.
^٢ في جميع النسخ : محمد بن أحمد الخوارزمي وهو
سبق قلم من المقرئ تابع فيه ياقوت مصطلحه في هذه
المعلومات، فالمقصود هو أبو عبد الله (جعفر) محمد بن
موسى الخوارزمي صاحب كتاب «الجبر والمقابلة»، كان ينتمي
إلى الفلكيين الذين عملوا في بيت الحكمة في بغداد في أيام
المأمون العباسي وتوفي بعد سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٧م. والكتاب
الذي يقصده المقرئ هنا هو كتابه المعروف بصورة
الأرض الذي استخرجه من كتاب جغرافيا الذي ألفه
بطليموس القلوزي والذي توجد منه نسخة وحيدة كتبت في

وكل موضع يقف فيه الإنسان من سطح الأرض ، فإن رأسه أبداً يكون ممّا يلي السماء إلى فوق ، ويرجلاه أبداً تكون أسفل ممّا يلي مركز الأرض ، وهو دائماً يرى من السماء نصفها ، وينشر عنه النصف الآخر محدبة الأرض . وكلما انتقل من موضع إلى آخر ، ظهر له من السماء بقدر ما خفي عنه .

• والأرض غامرة بالماء كعينة طافية فوق الماء قد انحسرت عنها نحو النصف وانعمر النصف الآخر في الأرض ، وصار المكتشف من الأرض نصفين ، كأنما قُسم بخطّ مسايت لخط مُعدل النهار يؤ تحت دائرته .

وجميع البلاد التي على هذا الخط لا عرض لها ألبّة ، والقُطبان غير مُرتبين فيها ، ويكونان هناك على دائرة الأفق من الجانبين . وكلّما بُعدَ موضعٌ بلدٍ عن هذا الخط إلى ناحية الشمال قلّ درجته^١ ، ارتفع القطب الشمالي الذي هو الجدي على أهل ذلك البلد درجته ، وانخفض القطب الجنوبي الذي هو سهيل درجته ، وهكذا ما زاد .

ويكون الأمرُ فيما بعد ، من البلاد الواقعة في ناحية الجنوب كذلك ، من ارتفاع القطب الجنوبي وانحطاط القطب الشمالي . وبهذا عُرِفَ عرض^٢ البلدان ، وصارَ عرضُ البلد عبارة عن متيل دائرة مُعدل النهار عن سمت رؤوس أمله وارتفاع القطب عليهم ، وهو أيضاً بُعد ما بين سمت رؤوس أهل ذلك البلد وسمت رؤوس أهل بلدٍ لا عرض له .

فأما ما انكشف من الأرض ، ممّا يلي الجنوب من خطّ الاستواء ، فإنه خراب . والنصف الآخر ، الذي يلي الشمال من خطّ الاستواء ، فهو الربع العاير ، وهو المشكون من الأرض .

وخطّ الاستواء لا وجود له في الخارج ، وأما هو قَوْضُ تَوْضُنَا أَنَّهُ خط ، ابتداءه من المشرق إلى المغرب تحت مدار رأس الحمل ، وسُمّي بذلك من أجل أنّ النهار واللّيل هناك أبداً سواء ، لا يزيد أحدهما عن الآخر شيئاً ألبّة في سائر أوقات السنة كلّها . ونقطتا هذا الخطّ ملازمتان للأفق : إحداهما على مدار سهيل في ناحية الجنوب ، والأخرى ممّا يلي الجدي في ناحية الشمال^٣ .

^١ الدرّجة . قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من عرض البلد مقابل لطوله ، ومعناه عند المنجمين هو الفلك ، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً بقدره الأقصى عن خط الاستواء نحو الشمال (نفسه ٣٩:١) .

^٢ قارن مع ياقوت : معجم البلدان ١: ١٨ .

^٣ ياقوت : معجم البلدان ١: ٣٩ .

وَالْعِمَارَةُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً ، مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِ مِنْ خَطِّ أَرِين^٨ إِلَى بَنَاتِ نَعَشِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ دَرَجَةً ، وَهُوَ بِمِقْدَارِ مِثْلِ الشَّمْسِ مَرَّتَيْنِ ، وَخَلْفَ خَطِّ أَرِين^٩ وَهُوَ بِمِقْدَارِ سِتَّةِ عَشَرَ دَرَجَةً . وَجُمْلَةُ مَقْمُورِ الْأَرْضِ نَحْوَ مِنْ سَبْعِينَ دَرَجَةً ، لِإِعْتِدَالِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي هَذَا الْوَسْطِ ، وَمُرُورِهَا عَلَى مَا وَرَاءَ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ . وَأَمَّا الشَّامُ وَالْجَنُوبُ فَالْشَّمْسُ لَا تُحَاطِهُمَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَلَئِنْ أَوَّجَ الشَّمْسُ فِي جِهَةِ الشَّامِ ، كَانَتْ الْعِمَارَةُ فِيهِ ، لِإِزْتِفَاعِهَا وَإِثْقَاءِ ضَرَرِ قُرْبِهَا عَنْ سَاكِنِيهِ ، وَلَئِنْ حَضَبَضَهَا فِي الْجَنُوبِ عُذِمَتْ الْعِمَارَةُ هُنَاكَ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَسَاقَةِ الْأَرْضِ ، فَقِيلَ مَسَاقَتُهَا خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ : ثَلَاثُ عُمْرَانَ ، وَثَلَاثُ خَرَابٍ ، وَثَلَاثُ بَحَارٍ .

وَقِيلَ الْمَقْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً : تِسْعُونَ لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَاثْنَا عَشَرَ لِلشُّودَانَ ، وَثَمَانِيَةً لِلرُّومِ ، وَثَلَاثَةً لِلْمَغْرِبِ ، وَسَبْعَةً لِسَائِرِ الْأُمَمِ .

وَقِيلَ الدُّنْيَا سَبْعَةُ أَجْزَاءَ : سِتَّةٌ لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَوَاحِدٌ لِسَائِرِ النَّاسِ .

وَقِيلَ الْأَرْضُ خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ : الْبَحَارُ ثَلَاثُ مِائَةٍ ، وَمِائَةُ خَرَابٍ ، وَمِائَةُ عُمْرَانَ .

وَقِيلَ الْأَرْضُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ فَرْسَخٍ^١ : لِلشُّودَانَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ، وَلِلرُّومِ ثَمَانِيَةَ أَلْفِ ، وَلِفَارِسَ ثَلَاثَةَ أَلْفِ ، وَلِلْمَغْرِبِ أَلْفٌ^٢ .

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُثَنَّبٍ : مَا الْعِمَارَةُ مِنَ الدُّنْيَا فِي الْخَرَابِ إِلَّا كَقُشْطَاطٍ فِي الصُّخْرَاءِ .

وَقَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَتِكَ^٣ : الْأَرْضُ أَرْبَعَةُ أَجْزَاءَ : حِزْبٌ مِنْهَا لِلتُّرُكِ ، وَحِزْبٌ لِلْمَغْرِبِ ، وَحِزْبٌ لِلْفُزُسِ ، وَحِزْبٌ لِلشُّودَانَ^٤ .

وَقِيلَ الْأَقَالِيمُ سَبْعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ أَرْبَعَةٌ ، وَالتَّوَاحِي خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ ، وَالْمَدَائِنُ عَشْرَةُ أَلْفِ ، وَالرَّسَائِقُ^٥ مِائَتَا أَلْفٍ وَسِتَّةَ وَخَمْسُونَ أَلْفًا .

(٨) بُولاق : أَرِين . (ب) بُولاق : تَابَك .

^١ ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٠ .

^٢ نفسه ١ : ١٨ .

^٣ الرسائيق جمع ، مفردة : الرشتاق ، وهو مشتق من رُودَه فستا .

^٤ الْفَرْسَخ . فارسي مغرب وأصله فَرْسَتُك ، وهو ثلاثة أميال ، والميل ألفا خطوة وثلاث مائة وثلاث وثلاثون خطوة . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٥-٣٦) .

وقيل المَدُنُ والحُصُونُ أٌحَدُ وعِشْرُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِائَةَ مَدِينَةٍ وَحِصْنٌ . ففي الإقليم الأول ثلاثة آلاف ومائة مدينة كبيرة ، وفي الثاني ألفان وسبع مائة وثلاثة عشر مدينة وقوية كبيرة ، وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مدينة وقوية كبيرة^(٥) ، وفي الرابع - وهو بابل - ألفان وتسع مائة وأربع وسبعون مدينة ، وفي الخامس ثلاثة آلاف مدينة وست مئة^(٦) ، وفي السادس ثلاثة آلاف وأربع مائة وثمان مئة ، وفي السابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مدينة في الجزائر .

وقال^(٧) الخوارزمي : قَطْرُ الْأَرْضِ سَبْعَةٌ^(٨) آلاف فَوْتَخ ، وهو نصف شُدُسِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْمَعَاوِزِ وَالْبَحَارِ ، وَالْبَاقِي خَرَابٌ يَبَاقُ لَا نَبَاتَ فِيهِ وَلَا حَيَوَانَ^(٩) .

وقيل المَعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلُ طَائِرٍ : رَأْسُهُ الصِّينُ ، وَالْجَنَاحُ الْأَيْمَنُ الْهِنْدُ وَالسُّنْدُ ، وَالْجَنَاحُ الْأَيْسَرُ الْخَزَرُ ، وَصُدْرُهُ مَكَّةُ وَالْعِرَاقُ وَالشَّامُ وَمِصْرُ ، وَذَنَبُهُ الْمَغْرِبُ^(١٠) .

وقيل قُطْرُ الْأَرْضِ سَبْعَةٌ آلاف وأربع مائة وأربعة عشر ميلًا ، ودورها عشرون ألف ميل وأربع مائة ميل ، وذلك بجميع ما أحاطت به من برٍّ وبحر .

وقال أَبُو زَيْدٍ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْبَلْخِي^(١١) : طُولُ الْأَرْضِ ، مِنْ أَقْصَى الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ ، نَحْوُ أَرْبَعٍ مِائَةِ مَرْحَلَةٍ ؛ وَعَرْضُهَا مِنْ حَيْثُ الْعُثْرَانِ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الشَّامِ ، وَهُوَ مَسَاكِينُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، إِلَى حَيْثُ الْعُثْرَانِ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الْجَنْوِبِ ، وَهُوَ مَسَاكِينُ الشُّودَانَ ، مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ مَرْحَلَةً . وَمَا بَيْنَ^(١٢) بَرَارِي يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الشَّامِ ، وَمَا بَيْنَ^(١٣) بَرَارِي الشُّودَانَ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مدائن . (c) بولاق : قال . (d) ياقوت : تسعة . (e) بولاق : الغرب . (f)

في الأصل : مائتين .

= زُوْدَهُ اسم للسطر والعُفُفِ والسماط ، وفستا اسم للحال ، ومعناه أنه على التسطير والنظام . ويعني الفرس بالرساق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، وهو عند الفرس بمنزلة الشواد عند أهل بغداد . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٧-٣٨) .

^١ ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٨ .
^٢ أَبُو زَيْدٍ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْبَلْخِي التُّوفِيُّ نحو سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م ، عالم من أهل بلخ شغل لفترة من الزمن وظيفة كاتب لأمر بلخ أحمد بن سهل (حوالي عام ٣٠٧هـ/٩٢٠م) ، ارتبط اسمه بما يقرب من سبعين مصنفاً لا تعرف منها إلا أسماءها . ووضع التلخي نحو سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م - أي وهو في شيخوخته حيث ولد سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م - مصنفاً في الجغرافيا ذكرته المصادر بأسماء مختلفة ، فهو مرة «صُور الأقاليم» وحيث «أشكال البلاد» وقارة «تقوم البلدان» ، مما يدل على أنه لم يكن معروفاً في صورته الأصلية حتى في العهد القريب من زمن المؤلف . وهو يمثل شيقاً أشبه بالأطلس =

والبحر المحيط في الجنوب، خراب ليس فيه عِمَارَةٌ، ويُقالُ إِنَّ مَسَافَةَ ذَلِكَ خَمْسَةَ آلَافٍ فَوْسَخَ .
وهذه أقوالٌ لا دَلِيلَ عَلَى صِدْقِهَا .

وَالطَّرِيقُ فِي مَعْرِفَةِ مِسَاحَةِ الْأَرْضِ، أَنَّا لَوْ سَيَّرْنَا عَلَى خَطِّ نِصْفِ النَّهَارِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ بِقَدَرِ مِيلٍ دَائِرَةً مُعَدَّلَ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ رُؤُوسِنَا إِلَى الْجَنُوبِ دَرَجَةً مِنْ دَرَجِ الْفَلَكَ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِينَ جُزْءًا، وَارْتَفَعَ الْقُطْبُ عَلَيْنَا دَرَجَةً نَظِيرَ تِلْكَ الدَّرَجَةِ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّا قَدْ قَطَعْنَا مِنْ مُحِيطِ جُزْمِ الْأَرْضِ جُزْءًا مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِينَ جُزْءًا، وَهُوَ نَظِيرُ ذَلِكَ الْجُزْءِ مِنَ الْفَلَكَ .
فَلَوْ قَسَمْنَا مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْبَيْتِ مَكَانِنَا الَّذِي وَصَلْنَا إِلَيْهِ، حَيْثُ ارْتَفَعَ الْقُطْبُ عَلَيْنَا دَرَجَةً، فَإِنَّا نَجِدُ حَقِيقَةَ الدَّرَجَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَلَكَ قَدْ قَطَعَتْ مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةَ وَخَمْسِينَ مِيلًا وَثُلُثِي مِيلَ، عَنْهَا خَمْسَةُ وَعِشْرُونَ فَوْسَخًا .

١٠ فَإِذَا صَرَّرْنَا حِصَّةَ الدَّرَجَةِ الْوَاحِدَةِ - وَهُوَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَقْيَالِ - فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِينَ، خَرَجَ مِنَ الصُّرْبِ عِشْرُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِائَةِ مِيلَ، وَذَلِكَ مِسَاحَةُ دَوَّرِ الْأَرْضِ .

فَإِذَا قَسَمْنَا هَذِهِ الْأَقْيَالِ - الَّتِي هِيَ مِسَاحَةُ دَوَّرِ الْأَرْضِ / - عَلَى ثَلَاثَةِ وَسْبَعٍ، خَرَجَ مِنَ الْقِسْمَةِ سِتَّةَ آلَافٍ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ مِيلًا، وَهِيَ مِسَاحَةُ قُطْرِ الْأَرْضِ .

١٥ فَلَوْ صَرَّرْنَا هَذَا الْقُطْرَ فِي مَبْلَغِ دَوَّرِ الْأَرْضِ، لَبَلَّغَتْ مِسَاحَةُ بَسِيطِ الْأَرْضِ بِالتَّكْسِيرِ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفٍ وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ أَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفِ مِيلَ بِالتَّقْرِيبِ .

فَقُلِّي هَذَا مِسَاحَةَ رُبْعِ الْأَرْضِ الْمَشْكُونِ بِالتَّكْسِيرِ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ أَلْفِ أَلْفِ مِيلَ وَمِائَةَ (أ) أَلْفِ مِيلَ (ب) وَخَمْسُونَ أَلْفِ مِيلَ . وَعَرُضُ الْمَشْكُونِ مِنْ هَذَا الرُّبْعِ بِقَدَرِ بُعْدِ مَدَارِ الشَّرْطَانِ عَنِ الْقُطْبِ، وَهُوَ سِتَّةُ (ب) وَخَمْسُونَ جُزْءًا وَشُدُسُ جُزْءٍ، وَهَذَا هُوَ شُدُسُ الْأَرْضِ، وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى بَحْرِ تُولِي فِي

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : خمسة .

الأدب الجغرافي العربي ٢١٣-٢١٤)، ويُسبب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي أيضًا كتاب «البدء والتاريخ» الذي تبين أن مؤلفه هو مُطَهَّرُ بْنُ طَاهِرِ الْمُقَدِّسِيِّ التُّوفِيِّ بعد سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م كما أوضح ناشر الكتاب Clement Huart .

= المصحوب ببعض التوضيحات . وكان الكتاب نادرًا حتى في العصور المبكرة، وربما كان نقل المقرئ عنه ليس نقلًا مباشرًا وإنما عن طريق مصادر سابقة عليه . (انظر حول أبي زَيْدِ الْبَلْخِيِّ وكتابه في الجغرافيا، كراتشكوفسكي : تاريخ

برطانية، وهي آخر المعمور من الشمال، وهو من الأميال ثلاثة آلاف وسبع مائة وأربعة وستون ميلاً^١.

فإذا صرنا هذا الشدس الذي هو مساحة العرض^(a) في النصف وهو قدر^(b) الطول، كان المعمور من الشمال قدر نصف شدس الأرض^٢. وأما الطول فإنه يقل لتضايق أقسام كرة الأرض، ومقداره مثل حُثس الدور، وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلاً.

وفي الربع المسكون من الأرض سبعة أبخر كبار، وفي كل بخر منها عدّة جزائر، وفيه خمسة عشر بُحيرة منها مِلْعٌ وعَذْبٌ، وفيه مائتا جبَل طوال، ومائتا نَهْر وأربعون نَهْرًا طوالاً، ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوي على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة.

وقال في كتاب هُروشيوش^٣: لما اشتغلت طاعة يوليس الملّقب «قَيْصر» الملك، في عاتبة الدنيا، تَحَيَّر أربعة من الفلايصة سَمَاهم، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا لَهُ وَصَفَ مَحْدُودِ الدُّنْيَا وَعِدَّةَ بِحَارِهَا وَكُورِهَا أَرْبَاعًا. فَوَلَّى أَحَدَهُمْ أَخَذَ وَصَفَ جُزْءِ المَشْرِقِ، وَوَلَّى آخَرَ أَخَذَ وَصَفَ جُزْءِ المَغْرِبِ، وَوَلَّى آخَرَ^(c) أَخَذَ وَصَفَ جُزْءِ الشَّمَالِ، وَوَلَّى الرَّابِعَ أَخَذَ وَصَفَ جُزْءِ الجَنُوبِ، فَتَمَّتْ كِتَابَةُ الجَمِيعِ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً. فَكَانَتْ جُمْلَةُ البِحَارِ المَسْقَاةِ فِي الدُّنْيَا تِسْعَةً وَعَشْرِينَ قَدْ سَمَّوْهَا^٤: مِنْهَا لُجْزٌ^(e) الشَّرْقِ ثَمَانِيَةٌ، وَلُجْزٌ^(e) الغَرْبِ ثَمَانِيَةٌ، وَلُجْزٌ^(e) الشَّمَالِ أَخَذَ عَشْرَ، وَلُجْزٌ^(e) الجَنُوبِ اثْنَانِ. وَعِدَّةُ الجزائر المعروفة الأسماء إِحْدَى وَسَبْعُونَ جَزِيرَةً: مِنْهَا فِي الشَّرْقِ ثَمَانٌ، وَفِي الغَرْبِ سِتٌّ عَشْرَةٌ، وَفِي جِهَةِ الشَّمَالِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ، وَفِي جِهَةِ الجَنُوبِ سِتٌّ عَشْرَةٌ.

(a) بولاق: مساحة عرض الأرض. (b) بولاق والمسعودي: مقدار. (c) بولاق: الثالث. (d) ساقطة من الأصل. (e) في الأصل وبولاق: بجزء والتصويب من الترجمة العربية لكتاب أروسيوس.

الأندلس من الأصل اللاتيني في زمن الخليفة الأموي الحَكَم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م). وورد اسم المؤلف في الكتب العربية على صور مختلفة: هروسيوس، هروشيوش، هرويس (انظر دراسة مصادر المقرئ في المقدمة).

^٤ في ترجمة كتاب هروشيوش: «وقد سموها في مواضعها وتركنا ذكرها إذ كانت أسماءها غير معروفة في اللسان العربي». (أروسيوس: تاريخ العالم ٧٣).

^١ قارن المسعودي: مروج الذهب ٩٩:١.

^٢ المسعودي: مروج الذهب ٩٩:١-١٠٠.

^٣ هو المؤلف الأسباني باولوس أروسيوس Paulus Orosius الذي عاش في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، كلفه القديس أوغسطين St. Augustin بكتابة مختصر للتاريخ العام للإنسانية منذ البداية وحتى سنة ٤١٦ ميلادية أي سنة ٤١٨م، وعنوانه باللاتينية *Historica Adversus Paganos*. وعرف المؤرخون العرب هذا الكتاب عن طريق ترجمة عربية تمت في

وَعِدَّةُ الْجِبَالِ الْكِبَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ ، وَهِيَ أُمُّهَاتُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ سَمَّوْهَا
فِيمَا فَتَرَوْهُ : مِنْهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ سَبْعَةٌ ، وَفِي جِهَةِ الْغَرْبِ خَمْسَةٌ عَشَرَ ، وَفِي الشَّمَالِ اثْنَا عَشَرَ ،
وَفِي الْجَنْبِ اثْنَانِ .

وَالْبُلْدَانُ الْكِبَارُ ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ : مِنْهَا فِي الْمَشْرِقِ سَبْعَةٌ ، وَفِي الْمَغْرِبِ خَمْسَةٌ وَعَشْرُونَ ، وَفِي
الشَّمَالِ تِسْعَةٌ عَشَرَ ، وَفِي الْجَنْبِ اثْنَا عَشَرَ ، وَقَدْ سَمَّوْهَا .

وَالْكُؤُزُ الْكِبَارُ الْمَعْرُوفَةُ تِسْعٌ وَمِائَتَانِ : مِنْهَا فِي الْمَشْرِقِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ ، وَفِي الْمَغْرِبِ سِتُّ
وَسِتُونَ ، وَفِي الشَّمَالِ سِتُّ ، وَفِي الْجَنْبِ اثْنَانِ وَسِتُونَ .

وَالْأَنْهَارُ الْكِبَارُ الْمَعْرُوفَةُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا سِتَّةٌ وَخَمْسُونَ : مِنْهَا لُجُءُ الشَّرْقِ سَبْعَةٌ عَشَرَ ، وَلُجُءُ
الْغَرْبِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ ، وَلُجُءُ الشَّمَالِ تِسْعَةٌ عَشَرَ ، وَلُجُءُ الْجَنْبِ سَبْعَةٌ ^١ .

وَالْأَقَالِيمُ السَّبْعَةُ ، كُلُّ إِقْلِيمٍ مِنْهَا كَأَنَّهُ بِسَاطٍ مَقْرُوشٍ قَدْ مَدُّ ، طَوْلُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ ،
وَعَرْضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنْبِ .

وَهَذِهِ الْأَقَالِيمُ مُخْتَلِفَةٌ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ؛ فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ مِنْهَا يَمُرُّ وَسَطُهُ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي طَوْلُ
نَهَارِهَا الْأَطْوَلُ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ سَاعَةً ، وَالسَّابِعُ مِنْهَا يَمُرُّ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي طَوْلُ نَهَارِهَا الْأَطْوَلُ سِتُّ عَشَرَ
سَاعَةً ، لِأَنَّ مَا حَازَى حَدَّ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى نَحْوِ الْجَنْبِ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْبَحْرُ وَلَا عِمَارَةٌ فِيهِ ، وَمَا
حَازَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعَ إِلَى الشَّمَالِ لَا يُغْرِفُ ^٢ فِيهِ عِمَارَةٌ .

فَنَجْعَلُ طَوْلَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مَسَافَةً اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً مِنْ دَوْرِ الْفَلَكَ ،
وَصَارَتْ غُرُوضُهَا تَتَفَاضَّلُ نِصْفَ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ الْأَطْوَلِ . فَأَطْوَلُهَا وَأَعَرْضُهَا الْإِقْلِيمُ
الْأَوَّلُ ، وَطَوْلُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافِ فَرْسَخٍ ، وَعَرْضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنْبِ
مِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَرْسَخًا . وَأَقْصَرُهَا طَوْلًا وَعَرْضًا الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ ، وَطَوْلُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ أَلْفٌ
وَخَمْسٌ مِائَةٌ فَرْسَخٍ ، وَعَرْضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنْبِ نَحْوُ مِنْ سَبْعِينَ فَرْسَخًا ؛ وَبَقِيَّةُ الْأَقَالِيمِ
الْخَمْسَةِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ .

(١) بُولَاقُ : لَا يَعْلَمُ .

وهذه الأقاليمُ حُطوطٌ مُتَوَهِّمَةٌ لا وُجُودَ لها في الخارجِ ، وَضَعُها القَدَماءُ الذين جالُوا في الأرضِ لِيَقِفُوا على حَقِيقَةِ مَحْدُودِها ، وَيَتَقَنَّنُوا مَوَاضِعَ البُلدانِ منها ، وَيَعْرِفُوا طُرُقَ مَسالِكِها . هذا حالُ الرُّبُعِ المَشْكُونِ .

وأما الثلاثةُ الأرباعُ الباقيةُ فإنَّها خرابٌ ؛ فِجْهَةُ الشَّمالِ واقِعةٌ تحتَ مَدَارِ الجَدِّي ، قد أَفْرَطَ هناكَ البَرْدُ ، وصارَتِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ لَيْلاً مُستَمِرَّةً ، وهي مُدَّةُ الشَّتاءِ عندهم لا يُعْرِفُ فيها نهارٌ ، وَيُظْلِمُ الهَواءُ ظُلُمَةً شَدِيدَةً ، وَتُجْمَدُ المِياهُ لِقُوَّةِ البَرْدِ فلا يَكُونُ هناكَ نَبَاتٌ ولا حَيَوانٌ .

وَيُقَابِلُ هذهَ الجِهةَ الشَّمالِيَّةَ ناحِيَةُ الجَنُوبِ حيثَ مَدَارُ شَهْزِلٍ ، فيَكُونُ النَّهارُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ بَغِيرِ لَيْلٍ ، وهي مُدَّةُ الصَّيْفِ عندهم ، فيَنحَمِي الهَواءُ وَيَصِيرُ سَمُومًا مُخْرِقًا يُهْلِكُ بِشِدَّةِ عَرْوِهِ^(a) الحَيَوانَ وَالتَّيْبَاتَ ، فلا يَمَكُنُ سُلُوكُهُ ولا السَّكُنَى فيه .

وأما ناحِيَةُ الغربِ فيَمْنَعُ البَحْرُ المُحِيطُ مِنَ السُّلُوكِ فيه ، لِتَلَاطُمِ أَمْواجِهِ وَشِدَّةِ ظُلُماتِهِ . وَناحِيَةُ الشَّرْقِ تَمْنَعُ مِنَ سُلُوكِها الجِبَالُ الشَّامِخَةُ .

وصارَ النَّاسُ أَجْمَعُهُم قَدْ انْتَحَصَرُوا في الرُّبُعِ المَشْكُونِ مِنَ الأرضِ/، ولا عِلْمٌ لأَحَدٍ مِنْهُمْ بِالثَّلَاثَةِ الأرباعِ الباقِيَةِ .

والأَرْضُ كُلُّها ، بِجَمِيعِ ما عَلَيْها مِنَ الجِبَالِ وَالْبَحارِ ، يَشَبِّهُها إلى القَلَمِ كَنُقْطَةٍ في دائِرَةٍ .

وقد اغْتَبِرَتِ مَحْدُودُ الأقاليمِ السَّبعةُ بِساعاتِ النَّهارِ ؛ وَذلكَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا حَلَّتْ بِرَأْسِ الحَمَلِ ، تَساوَى طَوْلُ النَّهارِ وَاللَّيْلِ في سائِرِ الأقاليمِ كُلِّها . فَإِذَا انْتَقَلَتْ في دَرَجَاتِ بُرْجِ الحَمَلِ وَالثَّوَرِ وَالْجُوزَاءِ ، اختلفتْ سَاعَاتُ نَهارِ كُلِّ إِقْلِيمٍ . فَإِذَا بَلَغَتْ آخِرَ الْجُوزَاءِ وَأَوَّلَ بُرْجِ الشَّرْطانِ ، بَلَغَ طَوْلُ النَّهارِ في وَسْطِ الإقْلِيمِ الأوَّلِ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَاعَةً سَوَاءً ، وَصَارَتِ في وَسْطِ الإقْلِيمِ الثَّانِي ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ ، وَفي وَسْطِ الإقْلِيمِ الثَّالِثِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً ، وَفي وَسْطِ الإقْلِيمِ الرَّابِعِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ ، وَفي وَسْطِ الإقْلِيمِ الخَامِسِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً ، وَفي وَسْطِ الإقْلِيمِ السَّادِسِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ ، وَفي وَسْطِ الإقْلِيمِ السَّابِعِ سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً سَوَاءً ، وما زادَ على ذلكَ إلى عَرَضِ تَسْعِينَ دَرَجَةً يَصِيرُ نَهارًا كَلَّهُ .

وَمَعْنَى طَوْلُ الْبَلَدِ ، هُوَ بُعْدُهَا مِنْ أَقْصَى الْعِمَارَةِ فِي الْغَرْبِ ، وَعَرَضُهَا هُوَ بُعْدُهَا عَنْ خَطِّ
الْاِسْتِواءِ . وَخَطُّ الْاِسْتِواءِ - كَمَا تَقَدَّمَ - هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ طَوْلَ الزَّمَانِ
سَوَاءً . فَكُلُّ بَلَدٍ عَلَى هَذَا الْخَطِّ لَا عَرَضَ لَهُ . وَكُلُّ بَلَدٍ فِي أَقْصَى الْغَرْبِ لَا طَوْلَ لَهُ . وَمِنْ أَقْصَى
الْغَرْبِ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً . وَكُلُّ بَلَدٍ يَكُونُ طَوْلُهُ تَسْعِينَ دَرَجَةً ، فَإِنَّهُ فِي وَسْطِ
مَا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ . وَكُلُّ بَلَدٍ كَانَ طَوْلُهُ أَقَلَّ مِنْ تَسْعِينَ دَرَجَةً ، فَإِنَّهُ أَقْرَبَ إِلَى الْغَرْبِ وَأَبْعَدَ
مِنَ الشَّرْقِ . وَمَا كَانَ طَوْلُهُ مِنَ الْبِلَادِ أَكْثَرَ مِنْ تَسْعِينَ دَرَجَةً ، فَإِنَّهُ أَبْعَدَ عَنِ الْغَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى
الشَّرْقِ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْقَدَمَاءُ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُشْغَلِي مَفْسُومٌ سَبْعَةَ أَقْسَامٍ ، وَكُلُّ قِسْمٍ يُقَالُ لَهُ إِقْلِيمٌ : فَإِقْلِيمُ الْهِنْدِ
لِزَحَلٍ ، وَإِقْلِيمُ بَابِلَ لِلْمُشْتَرِيِّ ، وَإِقْلِيمُ الثُّرُكُ لِلْمَرْيَخِ ، وَإِقْلِيمُ الزُّوْمِ لِلشَّمْسِ ، وَإِقْلِيمُ مِصْرَ لِعُطَارِدِ ،
وَإِقْلِيمُ الصِّينَ لِلْقَمَرِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : الْحَمَلُ وَالْمُشْتَرِيُّ لِبَابِلَ ، وَالْجَذْيُ وَعُطَارِدُ لِلْهِنْدِ ، وَالْأَسَدُ وَالْمَرْيَخُ لِلثُّرُكِ ، وَالْمِيزَانُ
وَالشَّمْسُ لِلزُّوْمِ ؛ ثُمَّ صَارَتِ الْقِسْمَةُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا : فَالْحَمَلُ وَمُتَلَّثُهُ^(١) لِلْمُشْرِقِ ، وَالنُّوْرُ
وَمُتَلَّثُهُ^(٢) لِلْجَنُوبِ ، وَالْجُوزَاءُ وَمُتَلَّثُهُ^(٣) لِلْمَغْرِبِ ، وَالشَّرْطَانُ وَمُتَلَّثُهُ^(٤) لِلشَّمَالِ . قَالُوا : وَفِي كُلِّ
إِقْلِيمٍ مَدِينَتَانِ عَظِيمَتَانِ بِحَسَبِ بَيْتِي كُلِّ كَوْكَبٍ ، إِلَّا إِقْلِيمَ الشَّمْسِ وَإِقْلِيمَ الْقَمَرِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي
كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنْهُمَا سِوَى مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ عَظِيمَةٍ . وَجَمِيعُ مَدَائِنِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَحُصُونُهَا أَحَدُ
وَعِشْرُونَ أَلْفَ مَدِينَةٍ وَسِتِّ مِائَةِ مَدِينَةٍ وَحِصْنٍ بِقَدْرِ دَقَائِقِ دَرَجِ الْفَلَكَ .

وَقَالَ هِوْمَسٌ^١ : إِذَا جُمِعَتِ هَذِهِ الدَّقَائِقُ زَوَاعِي كَانَتْ بِعَدَدِ^(٢) أَنَاسِ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ ، وَإِذَا مَاتَ
أَحَدٌ وُلِدَ نَظِيرُهُ .

وَيُقَالُ إِنَّ عَدَدَ مُدُنِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَقُرَاهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَمِائَةِ مَدِينَةٍ وَقَرْنَةٍ
كَبِيرَةٍ ، وَإِنَّ فِي الثَّانِي أَلْفَانِ وَسَبْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِينَةً وَقَرْنَةً كَبِيرَةً ، وَفِي الثَّالِثِ ثَلَاثَةَ
آلَافٍ وَتِسْعَ وَسَبْعُونَ ، وَفِي الرَّابِعِ - وَهُوَ بَابِلَ - أَلْفَانِ وَتِسْعَ مِائَةٍ وَأَرْبَعَ وَسَبْعُونَ ،
وَفِي الْخَامِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَسِتِّ مُدُنَ ، وَفِي السَّادِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَأَرْبَعَ مِائَةٍ وَثَمَانِ

(١) بَرَلَاقُ : وَمِثْلَاهُ . (ب) سَاقِطَةٌ مِنْ بَرَلَاقِ .

^١ عَنْ هِوْمَسِ الْمَعْرُوفِ بِهَرْمَسِ الثَّلَاثِ الْحِكْمَةِ (انْظُرْ فِيمَا يَلِي ٣١٩-٣٢٠) .

مُدُن، وفي السَّابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مدينة وقَرْية كبيرة في الجزائر.

فهذا الإقليم الأول؛ يمرُّ وَسَطُهُ بالمواضع التي طُولُ نهارها الأطول ثلاث عشرة ساعة، ويرتفع القُطْبُ الشَّمالي فيها عن الأُفق ست عشرة دَرَجَة وثُلثا دَرَجَة وهو العَرَض. وانتهاء عَرَض هذا الإقليم من حيث يكون طُولُ النَّهار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعة ورُبُع ساعة، وارتفاعُ القُطْبُ الشَّمالي، وهو العَرَض، عشرون دَرَجَة ونصف دَرَجَة؛ وهو مَسَافَةٌ أربع مائة وأربعين ميلاً، وابتدأه من أَقصى بلاد الصِّين، فيمرُّ فيها إلى ما يلي الجُتُوب، ويمرُّ بسواحل الهند ثم ببلاد السُّند، ويمرُّ في البحر على جزيرة العَرَب وأرض اليَمَن، ويقطع بَحْرُ القُلْزُوم فيمُرُّ ببلاد الحَبَشَة، ويقطع نيل مصر إلى بلاد الحَبَشَة ومَدِينَة دُمُقْلَة^(a) من أرض الثُّوبَة، ويمرُّ في أرض المغرب على جنوب بلاد التَّبَرْزِي إلى بَحْرِ المغرب المُحِيط^(b).

وفي هذا الإقليم عشرون بَجَلًا، فيها ما طُولُه من عشرين قَرْسَخًا إلى ألف قَرْسَخ. وفيه ثلاثون نَهْرًا طويلاً، منها ما طُولُه ألف قَرْسَخ إلى عشرين قَرْسَخًا. وفيه خمسون مدينة كبيرة. وعامةُ أَهْلِ هذا الإقليم سُود الألوان.

ولهذا الإقليم من البُرُوج الحَمَل والقَوْس، وله من الكواكب^(c) المُشْتَرِي؛ وهو - مع قَرْط حَرَازته - كَثِيرُ المِياه كثير المُرُوج، وَزَرَعَ أَهْلُه الدُّرَّة والأَزْز، لِأَنَّ الاِعتِدالَ عندهم مُغْدُوم، فلا يُثْمَر عندهم كَرْم ولا جِنَّة، والبَقَرُ عندهم كثير لكثرة المُرُوج، وفي مَشْرِقه البَحْرُ الخارج وراء حَظَّ الاستواء بثلاث عشرة درجة، وفي مَغْرِبِه النُّيل وبَحْرُ العَرَب. ومن هذا الإقليم يأتي نيلُ مصر، وشرقه مَغْمُورُ بالبَحْرِ الشَّرْقي الذي هو بَحْرُ الهند واليَمَن.

وهذا الإقليم الثاني؛ حيث يكون طُولُ النَّهار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصف، ويرتفع القُطْبُ الشَّمالي، وهو العَرَض^(d)، أربعة وعشرين جزءًا وعَشْرَ جزء؛ وعَرَضُه، من حُدِّ الإقليم الأول إلى حيث يكون النَّهار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصف ورُبُع ساعة. وارتفاعُ القُطْبُ الشَّمالي، وهو العَرَض، سبعة وعشرون دَرَجَة ونصف درجة.

ومِسَاحَةُ هذا الإقليم أربع مائة ميل/، ويَتَدَيُّ من الشَّرْق مازًا ببلاد الصِّين إلى بلاد الهند والسُّند، ثم يَلْتَقِي البحر الأَخْضَر وبَحْرُ البَصْرَة، ويقطع بجزيرة العَرَب في أرض نَجْد وتِهَامَة،

(a) بولاق : دنقلة . (b) بولاق : إلى نحو البحر المحيط . (c) بولاق : الكواكب السيارة . (d) بولاق : فيه قدر .

فِيَدْخُلُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْيَمَامَةُ وَالتَّبَحْرِينَ وَهَجَرَ وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَأَرْضَ الْحِجَازِ ، وَيَقْطَعُ بَحْرَ الْقُلْزُومِ فَيَمُرُّ بِصَعِيدِ مِصْرَ الْأَعْلَى ، وَيَقْطَعُ النَّيْلَ فَيَصِيرُ فِيهِ مَدِينَةَ قُوصَ وَإِخْمِيمَ وَإِسْنًا وَأَنْصِينَا وَأَشُونًا ، وَيَمُرُّ فِي أَرْضِ الْمَغْرِبِ عَلَى وَسْطِ بِلَادِ إِفْرِيْقِيَّةٍ فَيَمُرُّ عَلَى بِلَادِ الْبَزْزَرِ إِلَى الْبَحْرِ فِي الْمَغْرِبِ .

وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ سَبْعَةُ عَشَرَ جَبَلًا ، وَسَبْعَةُ عَشَرَ نَهْرًا طَوَالًا ، وَأَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ مَدِينَةً كَبِيرَةً . وَالرَّوَانُ أَهْلُ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَا بَيْنَ الشُّفْرَةِ وَالشَّوَادِ ، وَلَهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْجَدِّي ، وَالشِّتَارَةُ زُحَلٌ .

وَيَسْكُنُ هَذَا الْإِقْلِيمَ الرُّحَالَةُ : فَفِي الْمَغْرِبِ مِنْهُمْ جَدَالَةٌ وَصِنْهَاجَةٌ وَلُثُونَةٌ وَمَسُوفَةٌ ، وَيَتَّصِلُ بِهِمْ رُحَالَةُ مِصْرَ مِنَ الْأَوَاجِ . وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ يَكُونُ النَّحْلُ^٥ ، وَفِيهِ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ ، وَمِنْهُ السَّمَاءُ مِنَ أَهْلِ الْبِرَاقِ إِلَى رُحَالَةِ الثُّرُكِ .

وَالْإِقْلِيمُ الثَّلَاثُ ، وَسَطُهُ حَيْثُ يَكُونُ طُولُ النَّهَارِ الْأَطْوَلُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً . وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ ، وَهُوَ الْغَرَضُ ، ثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَنِصْفَ وَخُمْسَ دَرَجَةٍ . وَعَرَضُ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ حُدِّ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي إِلَى حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً وَرُبْعَ سَاعَةٍ . وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ وَهُوَ الْغَرَضُ ثَلَاثُ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . وَمَسَافَتُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ مِيلًا ، وَيَتَدَيُّ مِنَ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِشَمَالِ الصُّينِ وَبِلَادِ الْهِنْدِ وَفِيهِ مَدِينَةُ الْقَنْدَهَارِ^٦ ، ثُمَّ بِشَمَالِ السُّنْدِ وَبِلَادِ كَابِيلَ وَكِرْمَانَ وَسِيَجِسْتَانَ إِلَى سَوَاحِلِ بَحْرِ الْبَصْرَةِ ، وَفِيهِ إِصْطَخَرُ وَسَابُورُ وَشِيرَازُ وَسِيرَافُ ، وَيَمُرُّ بِالْأَهْوَازِ وَالْعِرَاقِ وَالْبَصْرَةِ وَوَابِطِ وَتَغْدَادَ وَالْكُوفَةَ وَالْأَنْبَارَ وَهَيْتَ ، وَيَمُرُّ بِلَادِ الشَّامِ إِلَى سَلْجِيَّةٍ وَضُورَ وَعَكَا وَدِمَشْقَ وَطَبْرِقَةَ وَقَيْسَارِيَّةَ وَيَتُّ الْمَقْدِسَ وَعَشَقْلَانَ وَغَزَّةَ وَمَذِينَ وَالْقُلْزُومَ ، وَيَقْطَعُ أَشْفَلَ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ شَمَالٍ أَنْصِينَا إِلَى قُسْطَاطٍ مِصْرَ وَسَوَاحِلِ الْبَحْرِ وَفِيهِ الْقَيُْومُ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَالْقَرَمَا وَتَبَّيسَ وَدِمِيَاطَ ، وَيَمُرُّ بِلَادَ بَرْقَةَ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةٍ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَيَْزَوَانَ ، وَيَنْتَهِي إِلَى الْبَحْرِ فِي الْمَغْرِبِ .

وَبِهَذَا الْإِقْلِيمِ ثَلَاثُ وَثَلَاثُونَ جَبَلًا كِبَارًا ، وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ نَهْرًا طَوَالًا ، وَمِائَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَدِينَةً . وَأَهْلُهُ سُحْرُ الْأَلْوَانِ . وَلَهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْقَرْقَرُ ، وَمِنْ الشِّتَارَةِ الزُّهْرَةُ . وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْعَمَائِرُ الْفَاضِلَةُ^٧ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ . اهـ .

وَالْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ ، وَسَطُهُ حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ ، وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ، وَهُوَ الْغَرَضُ ، سِتُّ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَخُمْسَ دَرَجَةٍ . وَحُدُّ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، مِنْ حُدِّ

الإقليم الثالث إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة ونصف ورُبْع ساعة، والعَرَضُ تسعاً وعشرين دَرَجَةً وثَلَاثَ دَرَجَةٍ .

ومَسَافَةُ هذا الإقليم ثلاث مائة ميل، ويتدنى من الشرق فيمُرُّ ببلاد التَّيْتِ وخراسان وخُجَنْدَنَة وفَرَوغَانَة وسَمَرْقَنْد وبُخَارَى وهرّاء ومَزَوَالُود وسَرْخُس وطُوس ونِهَسَابُور وجزجان وقُومِس وطَبْرِسْتان وقَزْوِين والدَّهْلَم والريّ وَأَصْفَهَان وَهَمْدَان ونَهَاوند وديبَور والمُؤَصِّل ونَصِييْن وآبَد ورَأْس العَيْنِ وسَمِيسَاط والرَّقَّة، ويمُرُّ ببلاد الشَّام فيدخل فيه بالِس ومَنْبُج ومَلْعِيَّة وحَلَب وأنطاكية وطَرَابُلُس والمِصْبِيَّة وحماة وصَيْدا وطَرَسُوس وعمُورِيَّة واللَّاذِيَّة، ويقطع بَعْدَ الشَّام على جزيرة قُيُوس ورُودس، ويمُرُّ ببلاد طَنْجَة فينتهي إلى بحر المغرب .

وفي هذا الإقليم خمسة وعشرون جَبَلًا كِبَارًا، وخمسة وعشرون نَهْرًا طَوَالًا، ومائتا مَدِينَة وأتنتا عشرة مَدِينَة . وألوانُ أَهْلِهِ بين السَّعْرَة والبياض . وله من البُرُوج الحُوزَاء، ومن الشَّيْطَانَةِ عَطَارِد، وفيه البَحْر الرُّومِي من مَغْرِبِهِ إلى القُسْطَنْطِينِيَّة .

ومن هذا الإقليم ظَهَرَت الأنبياء والرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ أَجْمَعِينَ - ومنهُ انْتَشَرَ الحُكَمَاءُ والفُلاَمَاءُ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الْأَقَالِيمِ ثَلَاثَةَ بَجْنَوِيَّةٍ وَثَلَاثَةَ شَمَالِيَّةٍ، وَهُوَ فِي قِسْمِ الشَّمْسِ، وبعده في القُضِيَّةِ الإقليم الثالث والخامس، فَإِنَّهُمَا عَلَى جَنْبَيْهِ، وَبَقِيَّةُ الْأَقَالِيمِ أَهْلُهَا نَاقِصُونَ وَمُنْحَطُونَ عَنِ الْقُضِيَّةِ لِسَمَاجَةِ صُورِهِمْ وَتَوَحُّشِ أَخْلَاقِهِمْ، كَالرُّبُحِ وَالْحَبَشَةِ، وَأَكْثَرُ أُمَمِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَالتُّغْرُغُرُ وَالصَّقَالِيَّةُ وَنَحْوِهِمْ .

وَالْإِقْلِيمُ الْخَامِسُ وَسَطُهُ حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلُ خَمْسَ عَشْرَ سَاعَةً . وَازْتِفَاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَهُوَ الْقَرَضُ، إِحْدَى وَأَرْبَعُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ دَرَجَةٍ . وَابْتِدَاؤُهُ مِنْ نِهَازَةِ عَرَضِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفَ سَاعَةٍ، وَالْعَرَضُ ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ دَرَجَةً .

وَمَسَافَتُهُ خَمْسُونَ وَمِائَتًا مِيلًا، وَيَتَدَنَّى مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَيَمُرُّ بِشَمَالِ خُرَاسَانَ وَفِيهِ خُوزْمُ وَإِسْبِيْجَابُ وَأَذَرَبَيْجَانُ وَبَزْدَجَةُ وَسِيْجِسْتَانُ وَأَرْدَنُ وَخَلَاطُ، وَيَمُرُّ عَلَى بِلَادِ الرُّومِ إِلَى رُومِيَّةِ الْكِبْرَى وَالْأَنْدَلُسِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ .

وفي هذا الإقليم من الجبال الطُّوال ثلاثون جبلاً ، ومن الأنهار الكبار خمسة عشر نَهْراً ، ومن المدائن الكبار مائتا مَدِينَةٍ . وأكثر أهلُه يبيض الأَلوان ، وله من البُرُوج الدُّلُو ، ومن السَّيَّارَةِ الْقَمَرُ .
وهذا الإقليم السَّادِسُ ، وَسَطُهُ حيث يكون الثَّهَّاءُ الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة . وارتفاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِي ، وهو الْقَرْصُ ، خمساً/ وأربعين دَرَجَةً وَخُمُسِي دَرَجَةً . وابتدأوه من حَدِّ نِهَايَةِ الْقَرْصِ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ إِلَى حيث يكون الثَّهَّاءُ الأطول خمس عشرة ساعة ونصف وَرُبْع ساعة . وَالْقَرْصُ سَبْعاً وَأربعين دَرَجَةً وَرُبْع دَرَجَةٍ .

ومسافةُ هذا الإقليم مائتا ميل وعشرة أَفْيَال ، ويتدنى من المَشْرِقِ ، فيمُرُّ بِسَاكِنِ التُّرُكِ من الْخَرْخِيزِ^(أ) وَالتُّغْرُزِ ، إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِ من شَمَالِ تُخُومِهِمْ^(ب) عَلَى اللَّانِ وَالشَّرِيرِ وَأَرْضِ بُرْجَانِ وَالْقُسْمَنْطِينِيَّةِ وَشَمَالِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ الْغَرْبِيِّ^١ .

وفي هذا الإقليم من الجبال الطُّوال اثنان وعشرون جبلاً ، ومن الأنهار الطُّوال اثنان وثلاثون نَهْراً ، ومن المَدُنِ الْكِبَارِ تِسْعُونَ مَدِينَةً . وأكثر أَهْلِ هذا الإقليم أَلْوَانُهُمْ مَا بَيْنَ الشُّقْرَةِ وَالْبَيَاضِ . وله من البُرُوجِ الشَّرْطَانِ ، ومن السَّيَّارَةِ الْمَرْيَخُ .
وهذا الإقليم السَّابِعُ وَسَطُهُ حيث يكون الثَّهَّاءُ الأطول سِتَّ عشرة ساعة سواء . وارتفاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِي ، وهو الْقَرْصُ ، ثَمَانِيَا وَأربعين دَرَجَةً وَثُلُثِي دَرَجَةٍ .

وابتدأوا هذا الإقليم من حَدِّ نِهَايَةِ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى حيث يكون الثَّهَّاءُ الأطول سِتَّ عشرة ساعة وَرُبْع ساعة ، وَالْقَرْصُ خَمْسِينَ دَرَجَةً وَنِصْفَ دَرَجَةٍ . ومسافةُ مائة وخمسة وثمانون مِيلاً .
فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا بَيْنَ أَوَّلِ حَدِّ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَآخِرِ حَدِّ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ ، ثَلَاثُ سَاعَاتٍ وَنِصْفَ ، وَأَنَّ لِرَفْعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ثَمَانِيَةً وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً ، تَكُونُ مِنَ الْأَمْثَالِ أَلْفَيْنِ وَمِائَةٍ وَأربعين مِيلاً .
ويتدنى الإقليم السَّابِعُ من المَشْرِقِ عَلَى بِلَادِ بَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ ، وَيَمُرُّ بِبِلَادِ التُّرُكِ عَلَى سَوَاحِلِ بَحْرِ مَجْرُجَانِ مِمَّا يَلِي الشَّمَالَ ، وَيَقْطَعُ بَحْرَ الرُّومِ عَلَى بِلَادِ مَجْرُجَانِ وَالصُّقَايَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ فِي الْقَرْبِ .

(أ) بولاق : أبخرسير . (ب) بولاق : مجومهم .

^١ انظر للسعودي : التنبه والإشراف ٨٣ ؛ باقوت : معجم البلدان ١ : ٣١ .

وبهذا الإقليم عشرة جبال طوال ، وأربعون نهرًا طوالاً ، واثنان وعشرون مدينة كبيرة . وأهله شقرو الألوان ؛ وله من البروج الميزان ، ومن الشجيرة الشمس .

وفي كل إقليم من هذه الأقاليم الشجيرة أتم مختلفة الألوان والألسن ، وغير ذلك من الطبايع والأخلاق والآراء والديانات والمذاهب والعقائد والأعمال والصنائع والعادات والعبادات ، لا يشبه بعضهم بعضاً ، وكذلك الحيوانات والمعادن والثبات مختلفة في الشكل والطعم واللون .

والرياح بحسب اختلاف أهوية البلدان ، وتربة البقاع وغدوبة المياه وملوحتها على ما اقتضته طوابع كل بلد من البروج على أفعه ، وممر الكواكب على مسامحة البقاع من الأرض ، ومطاريح شعاعاتها على المواضع ، كما هو معروف^٥ في مواضعه من كتب الحكمة ، ليتدبر أولو النهى ، ويعتبر ذوو الحجة بتدبير الله في خلقه ، وتقديره لما يشاء وفعله لما يريد ، لا إله إلا هو .

ومع ذلك فإن الرتبة المسكون من الأرض - على تفاوت أقطارها - مقسوم بين سبع أتم كبار ، وهم الصين والهند والسودان والبربر والروم والترك والفرس . فجنوب مشرق الأرض في يد الصين ، وشماله في يد الترك ، ووسط جنوب الأرض في يد الهند ، وفي وسط شمال الأرض الروم ، وفي جنوب مغرب الأرض السودان ، وفي شمال مغرب الأرض البربر ، وكانت الفرس في وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأتم الست .

ذكر محل مصر من الأرض

وموضعها من الأقاليم السبعة

وإذ بشر الله سبحانه بذكر مجمل أحوال الأرض ومعرفة ما في كل إقليم من أقاليم الأرض ، فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول :

ديار مصر بعضها واقع في الإقليم الثاني ، وبعضها واقع في الإقليم الثالث : فما كان منها في الصعيد الأعلى ، كقوص وإخميم وإسنا وأصنا وأسوان ، فإن ذلك واقع في أقسام الإقليم الثاني . وما كان من ديار مصر في جهة الشمال من أنصنا ، وهو الصعيد الأدنى من شيوخ إلى قسطنط مصر والقاهرة والإسكندرية والفرما وثيس ودمياط ، فإن ذلك من أقسام الإقليم الثالث .

وَطُولُ مَدِينَةِ مِصْرَ الْقُسْطَاطِ وَالْقَاهِرَةِ - وهو يُغْذُّهُمَا مِنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ -
خَمْسَ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَالْعَرُوضُ - وهو الْبُعْدُ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِواءِ - ثَلَاثُونَ دَرَجَةً ، وَطُولُ النَّهَارِ
الْأَوَّلِ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً ، وَغَايَةُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ فِي الْفَلَكَ بِهَا ثَلَاثَ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ وَرُبْعَ
دَرَجَةٍ .

- وَفُسْطَاطُ مِصْرَ مَعَ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَكَّةَ - شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى - وَاقِعَانِ فِي الرُّبْعِ الْجَنُوبِيِّ الشَّرْقِيِّ ،
وَالضُّعَيْدُ الْأَعْلَى أَشَدَّ تَشْرِيقًا لِمَقْعَدِهِ عَنْ مَدِينَةِ الْقُسْطَاطِ بِأَيَّامِ عِدْبَدَةٍ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ ، فَيَكُونُ
عَلَى ذَلِكَ مُقَابِلًا لِمَكَّةَ مِنْ غَرْبِهَا .

- وَمِصْرُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ مَفَازَةٍ : فَفِي شَرْقِهَا يَخْرُ الْقُلْزُومُ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ ، وَفِي
غَرْبِهَا صَخْرَاءُ الْمَغْرِبِ ، وَفِي جَنْبِهَا مَفَازَةُ الثَّوْبَةِ وَالْحَبَشَةِ ، وَفِي شِمَالِهَا الْبَحْرُ الشَّامِيُّ ،
وَالرُّمَالُ الَّتِي فِيمَا بَيْنَ بَحْرِ الرُّومِ وَبَحْرِ الْقُلْزُومِ . وَبَيْنَ مِصْرَ وَبَنْدَادَ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ
خُرْدَاذْه^١ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَحَالِكِ» - أَلْفٌ وَسَبْعُ مِائَةٍ وَعِشْرَةَ أَشْيَالٍ ، يَكُونُ خَمْسُ مِائَةٍ
وَسَبْعِينَ فَوْسَخًا وَمِائَةً وَبَعْضًا وَأَرْبَعِينَ بَرِيدًا^٢ .

وَبَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ - أَعْنَى دِمَشْقَ - ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةُ وَسِتُونَ مِيلًا ، تَكُونُ مِنَ الْفَرَاسِخِ مِائَةً
وَاحِدَةً وَعِشْرِينَ فَوْسَخًا وَثَلَاثِي فَوْسَخَ ، عَنْهَا ثَلَاثُونَ بَرِيدًا^٣ وَكَثِيرٌ .

- وَقَالَ ابْنُ خُرْدَاذْهَ : أَرْضُ الْحَبَشَةِ/ وَالشُّودَانِ مَسِيرَةُ سَبْعِ سَنِينَ ، وَأَرْضُ مِصْرَ مُجْزَأٌ وَاحِدٌ مِنْ
سَتِينَ مُجْزَأًا مِنْ أَرْضِ الشُّودَانِ ، وَأَرْضُ الشُّودَانِ جِزْءٌ وَاحِدٌ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا^٤ .

^١ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُرْدَاذْهَ (أَوْ خُرْدَاذْهَ) مُؤَلِّفُ فَارْسِي الْأَصْلِ ، اتَّصَلَ بِبِلَاطِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمُتَمَدِّدِ عَلَى اللَّهِ بِسَامُرَا ، وَشَغَلَ وَظِيفَةً «صَاحِبَ الْبَرِيدِ» بِنَوَاحِي الْجِبَالِ بِأِيرَانَ ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ هُوَ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِهِ الْجُغْرَافِيِّ اسْتِجَابَةً لَطَلَبِ أَحَدِ الْعَبَّاسِيِّينَ . وَغَدَّ كِرَاتَشْكُونَسْكِي كِتَابَهُ «الْمَسَالِكُ وَالْمَحَالِكُ» أَوَّلَ مَصْنُوفٍ يَصِلُ إِلَيْنَا فِي الْجُغْرَافِيَا الْوَصْفِيَّةِ ، وَيَرَى دِي نَحْوَهُ De Goeje أَنَّ لِلْكِتَابِ مَسُودَتَيْنِ الْأُولَى كَتَبَهَا نَحْوَ سَنَةِ ٨٤٦/هـ ٨٤٦/هـ الثَّانِيَةِ قَبْلَ سَنَةِ ٨٨٥/هـ ٨٨٥/هـ ، أَمَّا مَا نُشَرُّ مِنْ الْكِتَابِ فَلَا يَمِثِلُ سِوَى مَوْجُودٍ مَعَاخِرَ ، وَتَوَفَّى ابْنُ خُرْدَاذْهَ حَوَالِي عَامِ ٩١٢/هـ ٩١٢/هـ وَشَمِلَ الْقِسْمَ الرَّئِيسِي مِنَ الْكِتَابِ وَصَفَ الطَّرِيقَ بِدَرَجَاتٍ عَفَاوَتٍ بِالتَّفْصِيلِ . وَتَرَجَعَ أَغْلَبُ نَقُولِ الْقُرَيْبِيِّ مِنْ كِتَابِهِ إِلَى هَذَا الْقِسْمِ . (كِرَاتَشْكُونَسْكِي : تَارِيخُ الْأَدَبِ الْجُغْرَافِيِّ الْعَرَبِيِّ ١٦٧-١٧١ Hady-Sadok, M., EI² art. Ibn Khurdaadhibih III, p. 863 .)

^٢ ابْنُ خُرْدَاذْهَ : الْمَسَالِكُ وَالْمَحَالِكُ ٨٣ .

^٣ الْبَرِيدُ . ذَكَرَ يَاقُوتُ أَنَّ فِيهِ خِلَاقًا ، وَأَنَّهُ فِي الْبَادِيَةِ اثْنَا عَشَرَ مِيلًا وَبِالشَّامِ وَغَرَاسَانَ سِتَّةَ أَمْيَالٍ (يَاقُوتُ : مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ ١: ٣٥٠) .

^٤ ابْنُ خُرْدَاذْهَ : الْمَسَالِكُ وَالْمَحَالِكُ ٩٣ .

وفي كتاب هروشيوش: بَلَدُ مِصْرَ الْأَذْنَى شَرْقَهُ فِلَسْطِينَ^(أ)، وَغَرْبَهُ أَرْضُ لِيثِيَّةَ، وَأَرْضُ مِصْرَ الْأَعْلَى تَمْتَدُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ، وَحَدَّهُ فِي الشُّمَالِ^(ب) خَلِيجُ الْغَرْبِ، وَفِي الْجَنُوبِ^(ج) الْبَحْرُ الْمُحِيطُ، وَفِي الْغَرْبِ مِصْرُ^(د) الْأَذْنَى، وَفِي الشَّرْقِ بَحْرُ الْقُلُزْمِ، وَفِيهِ مِنَ الْأَجْنَاسِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ جِنْسًا^١.

ذِكْرُ حُدُودِ مِصْرَ وَجِهَاتِهَا

٥. اعْلَمْ أَنَّ التَّحْدِيدَ هُوَ صِفَةُ الْمُتَحَدِّدِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالْحَدُّ هُوَ نِهَائَةُ الشَّيْءِ، وَالْحُدُودُ تَكْثُرُ وَتَقِلُّ بِحَسَبِ الْمُتَحَدِّدِ. وَالْجِهَاتُ الَّتِي تُحَدُّ بِهَا الْمَسَاكِينُ وَالْبِقَاعُ أَزْنَعُ جِهَاتٍ، وَهِيَ: جِهَةُ الشُّمَالِ الَّتِي هِيَ إِمَارَةُ إِلَى مَوْضِعِ قُطْبِ الْفَلَكَ الشَّمَالِيِّ، الْمَعْرُوفِ مِنْ كَوَاكِبِهِ الْجَدِيِّ وَالْقُرْقَدَانِ.

١٠. وَتَقَابِلُ جِهَةُ الشُّمَالِ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ؛ وَالْجَنُوبُ عِبَارَةٌ عَنْ مَوْضِعِ قُطْبِ الْفَلَكَ الْجَنُوبِيِّ، الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ شَهْلٌ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنْ كَوَاكِبِ الشَّفِيقَةِ.

وَالْجِهَةُ الثَّلَاثَةُ جِهَةُ الْمَشْرِقِ، وَهِيَ مَشْرِقُ الشَّمْسِ فِي الْاِغْتِدَالَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا رَأْسُ الْحَمَلِ أَوَّلُ فَصْلِ الرَّبِيعِ، وَرَأْسُ الْمِيزَانِ أَوَّلُ فَصْلِ الْخَرِيفِ.

وَالْجِهَةُ الرَّابِعَةُ جِهَةُ الْمَغْرِبِ، وَهِيَ مَغْرِبُ الشَّمْسِ فِي الْاِغْتِدَالَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

١٥. فَهَذِهِ الْجِهَاتُ الْأَرْبَعُ ثَابِتَةٌ بِثُبُوتِ الْفَلَكَ، غَيْرُ مُتَغَيِّرَةٍ بِتَغْيِيرِ الْأَوْقَاتِ، وَبِهَا تُحَدُّ الْأَرْضُ وَنَحْوُهَا مِنَ الْمَسَاكِينِ، وَبِهَا يَهْتَدِي النَّاسُ فِي أَشْفَارِهِمْ، وَبِهَا يَسْتَخْرِجُونَ سَمْتَ مَحَارِبِهِمْ. فَالْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ مَعْرُوفَانِ. وَالشُّمَالُ وَالْجَنُوبُ جِهَتَانِ مُقَاطَعَتَانِ بِجِهَتَيْ^(هـ) الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عَلَى تَرِيعِ الْفَلَكَ.

فَالْخَطُّ الْمَارُّ بِنُقْطَتَيْ الشُّمَالِ وَالْجَنُوبِ يُسَمَّى خَطُّ نِصْفِ النَّهَارِ، وَهُوَ مُقَاطِعُ الْخَطِّ الْمَارِّ بِنُقْطَتَيْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ الْمُسَمَّى بِخَطِّ الْاِسْتِواءِ، عَلَى زَوَايَا قَائِمَةٍ وَأَعْدَادٍ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْخَطَّيْنِ

(أ) فِي كِتَابِ أَوْرُوسْيُوسَ: فَإِنْ شَرَقَهُ بِلَدُ سُورِيَةِ فِلَسْطِينَ. (ب) فِي كِتَابِ أَوْرُوسْيُوسَ: وَحَدَّهُ فِي الْجَنُوبِ. (ج) فِي كِتَابِ أَوْرُوسْيُوسَ: وَفِي الْقِبْلَةِ. (د) فِي كِتَابِ أَوْرُوسْيُوسَ: مُبْتَدَأُ مِنْ مِصْرَ. (هـ) بُولَاقُ: الْجِهَتَيْنِ.

مُتساوية . فالمُستَقْبَلُ لِلْجَنُوبِ يَكُونُ أَتَدًا مُسْتَقْدِرًا لِلشَّمَالِ ، وَبَصِيرُ الْمَغْرِبِ عَنْ يَمِينِهِ وَالْمَشْرِقُ عَنْ يَسَارِهِ .

وهذه الجهات الأربع هي التي يُنسَبُ إليها ما يُحَدُّ من البلاد والأراضي والدور ؛ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ
مِصْرَ يَسْتَعْمِلُونَ فِي تَحْدِيدِهِمْ بَدَلًا مِنَ الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ لَقِطَّةَ الْقِبْلَةِ ، فيقولون الحَدَّ الْقِبْلِيَّ يَنْتَهِي إِلَى
كَذَا وَلَا يَقُولُونَ الحَدَّ الْجَنُوبِيَّ ، وكذلك يقولون الحَدَّ الْبَحْرِيَّ يَنْتَهِي إِلَى كَذَا ، ويريدون بِالْبَحْرِيَّ
الحَدَّ الشَّمَالِيَّ^١ .

وقد تَقَعُ فِي هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ الْعَلَطُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْبِلَادَ الَّتِي تُوَافِقُ عَرُوضَهَا عَرَضَ
مَكَّةَ ، إِذَا كَانَتْ أَطْوَلَهَا أَقْلَ مِنْ طُولِ مَكَّةَ ، فَإِنَّ الْقِبْلَةَ فِيهَا تَكُونُ^(٥) نَفْسَ الْمَشْرِقِ ، بِخِلَافِ
الْبِلَادِ^(٥) الَّتِي تُوَافِقُ عَرُوضَهَا عَرَضَ مَكَّةَ إِلَّا أَنَّ أَطْوَلَهَا أَكْثَرُ^(٥) مِنْ طُولِ مَكَّةَ ، فَإِنَّ الْقِبْلَةَ فِي هَذِهِ
الْبِلَادِ تَكُونُ نَفْسَ الْمَغْرِبِ . فَمَنْ حَدَّدَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ أَرْضًا أَوْ مَشْكَنًا بِحُدُودِ أَرْبَعَةٍ ، فَإِنَّهُ
يَصِيرُ مِنْهَا حَدَّانِ^(٥) حَدًّا وَاحِدًا . وَكَذَلِكَ جِهَةُ الْبَحْرِ لَمَّا جَعَلُوهَا قِبَالَةَ جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَحَدَّدُوا مَا
بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَرْضِ وَالذُّورِ بِمَا يُسَايِتُهُمَا مِنْهُ ، فَإِنَّهُمْ أَيْضًا رُبَّمَا غَلِطُوا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقِبْلَةَ وَالْبَحْرَ
يَكُونَانِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ .

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ ، فَاغْلَمْ أَنَّ أَرْضَ مِصْرَ لَهَا حَدٌّ يَأْخُذُ مِنْ بَحْرِ الرُّومِ مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ - وَيَزْعُمُ
قَوْمٌ مِنْ بَزَقَةَ فِي الْبَرِّ - حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ظَهْرِ الْوَاخَاتِ ، وَيَمْتَدُّ إِلَى بَلَدِ الثُّوبَةِ ، ثُمَّ يَقْطِفُ عَلَى حُدُودِ
الثُّوبَةِ فِي حَدِّ أَشْوَانَ - عَلَى حَدِّ أَرْضِ الْبُجَّةِ^(٥) فِي قِبْلِي أَشْوَانَ - حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، ثُمَّ
يَمْتَدُّ عَلَى بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وَيُجَاوِزُ الْقُلْزُمَ إِلَى طُورِ سَيْتَاءَ ، وَيَقْطِفُ عَلَى يَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَارًّا إِلَى بَحْرِ
الرُّومِ فِي الْخِفَارِ خَلْفَ الْعَرِيشِ وَرَفَعَ^(٥) ، وَيَرْجِعُ إِلَى الشَّاحِلِ مَارًّا عَلَى بَحْرِ الرُّومِ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ،
وَيُتَّصِلُ بِالْحَدِّ الَّذِي قَدْ ذُكِرَ مِنْ نَوَاحِي بَزَقَةَ .

وَقَالَ أَبُو الصَّلْتِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْدَلُسِيِّ^(٥) ، فِي «رِسَالَتِهِ الْمِصْرِيَّةِ» : أَرْضُ مِصْرَ بِأَسْرَها
وَاقِعَةً فِي الْمَمُورَةِ فِي قِسْمِ^(٥) الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَالْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ، وَمَعْظَمُهَا فِي الثَّالِثِ .

(٥) بولاق : فإن القبلة تكون في هذه البلاد . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : أطول . (d) بولاق : حدان
منها . (e) بولاق : السبخة . (f) بولاق : رمح . (g) ساقطة من بولاق . (h) بولاق : قسي .

^١ انظر أيضًا فيما يلي ١ : ٣٤٣ .
^٢ أبو الصلّت أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْدَلُسِيِّ التُّونِيُّ نَحْو =

وَحَكَّى الْمَقْنُونُونَ^٥ بِأَخْبَارِهَا وَتَوَارِيخِهَا : أَنَّ حَدُّهَا فِي الطُّولِ مِنْ مَدِينَةِ بَرْقَةِ الَّتِي فِي جَنُوبِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، إِلَى أَيْلَةَ مِنْ سَاحِلِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنْ بَحْرِ الْحَبَشَةِ وَالزُّنْجِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ ، وَمَسَافَةُ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . وَحَدُّهَا فِي الْعَرْضِ مِنْ مَدِينَةِ أَشْوَانَ وَمَا سَامَتْهَا مِنَ الصَّعِيدِ الْأَعْلَى الْمُتَاجِمِ لِأَرْضِ الثُّوبَةِ إِلَى رَشِيدٍ وَمَا حَاذَاهَا مِنْ مَسَاقِطِ الثَّلِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَمَسَافَةُ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا^١ .

وَيَكْتَنُفُهَا فِي الْعَرْضِ إِلَى مُتْنِهَاهَا جَبَلَانِ : أَحَدُهُمَا فِي الصُّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الثَّلِ وَهُوَ الْمُقَطَّمُ ، وَالْآخَرُ فِي الصُّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ ، وَالثَّلِ مُتَشَرَّبٌ فِيمَا بَيْنَهُمَا . وَهُمَا جَبَلَانِ أَعْمَرَدَانِ غَيْرِ شَامِكَيْنِ ، يَتَقَارِبَانِ جَدًّا فِي وَضْعِهِمَا مِنْ لَدُنْ أَشْوَانَ إِلَى أَنْ يَتَّهِمَا إِلَى الْقُسْطَاطِ ، ثُمَّ يَتَّسِعُ مَا بَيْنَهُمَا وَيَتَفَرِّجُ قَلِيلًا ، وَيَأْخُذُ الْمُقَطَّمُ مِنْهُمَا مَشْرِقًا وَالْآخَرُ مَغْرِبًا ، عَلَى وَرَابٍ فِي مَأْخُذِهِمَا وَتَفَرِّجٍ فِي مَشْلُكِهِمَا ، فَتَتَّسِعُ أَرْضُ مِصْرَ مِنَ الْقُسْطَاطِ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الَّذِي عَلَيْهِ الْقَرَمَا وَتَنْبَسُ وَدِمْيَاطُ وَرَشِيدُ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةُ ، فَهُنَاكَ تَنْقَطِعُ فِي غَرْضِهَا الَّذِي هُوَ مَسَافَةُ مَا بَيْنَ أَوْغَلِهَا فِي الْجَنُوبِ وَأَوْغَلِهَا فِي [الْغَرْبِ] وَ^(b) الشَّمَالِ .

وَإِذَا نَظَرْنَا بِالطَّرِيقِ الْبُزْهَانِيَّةِ فِي مِقْدَارِ / هَذِهِ الْمَسَافَةِ مِنَ الْأَمْيَالِ ، لَمْ تَبْلُغْ ثَلَاثِينَ مِيلًا بَلْ تَنْقُصُ

(a) بولاق : المقتون . (b) زيادة من الرسالة المصرية .

العماد الكاتب : خريطة القصر (قسم للغرب) ١٨٩:١ - ٢٧٠ ، ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ٥٢:٢ - ١٦٢ ، الصفيدي : الوافي بالوفيات ٩: ٤٠٢ - ٤٠٦ ؛ محمد كامل حسن : في أدب مصر الفاطمية ١٧٩ - ١٨٧ Brockelmann, C., GAL I, 641; SI 889; Millos, (J.M., El² art. *Abd-Allah* I, p. 153 . ونشر الرسالة المصرية عبد السلام هارون أولاً في مجلة الكتاب المصرية سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م ثم في المجموعة الأولى من «نواذر المخطوطات» ، القاهرة ١٩٥١ ، ٣ - ٥٦ .

^١ أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ١١٥ أو الخامس : النجوم الزاهرة ١: ٣٦ ؛ ابن لهاس : بدائع الزهور ١٢: ١/١ .

= سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م ، عالم أندلسي زار مصر وأقام بها في الفترة بين سنتي ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م و ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م وسجل ملاحظاته وما شاهده فيها في رسالة سماها «الرسالة المصرية» ، وأشار فيها إلى أنه لم يجد من علماء مصر في الطب من يستفيد منه أو يستزيد بمناكرته ، وأن أكثر أطبائها المميزين هم النصارى واليهود . كما ذكر أن لمصريين هم أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها . وذكر في نهايتها بعض من لقيه من أدبائها وظرفائها وفضلاتها وعلمائها وشعرائها ، وبعضهم غير مذكور في كتب التراجم . ونقل عن «الرسالة المصرية» ، إضافة إلى المقرئ ، ياقوت الحموي والعماد الأصفهاني الكاتب (ياقوت : معجم الأدباء ٥٢: ٧ - ٢٧٠ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٢٤٣ - ٢٤٧

عنها نُقْصَانًا مَا لَهُ قَدْرٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ عَرُوضِ مَدِينَةِ أَشْوَانَ - الَّتِي هِيَ أَوْغْلَهَا فِي الْجَنُوبِ - وَعَرُوضِ مَدِينَةِ ثَيْسٍ - الَّتِي هِيَ أَوْغْلَهَا فِي الشَّمَالِ - تَسْعَةُ أَجْزَاءٍ وَنَحْوُ سُدُسٍ مُجْزَأً ، وَلَيْسَ بَيْنَ طَوَلَيْهَا فَضْلٌ لَهُ قَلْبَرٌ يُعْتَدُّ بِهِ ، وَيَتَوَبَّ^(٥) ذَلِكَ نَحْوَ خَمْسٍ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ مِيلًا بِالتَّقْرِيبِ ، وَذَلِكَ مَسَافَةٌ عِشْرِينَ يَوْمًا أَوْ قَرِيبَ مِثْلِهَا .

وَفِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مِنَ الزَّمَانِ تَقْطَعُ الشُّقَارُ [أَبْدًا]^(٥) مَا بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ بِالسَّيْرِ الْمَعْتَدِلِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ [قَلِيلًا]^(٥) ، لَمَّا فِي الطَّرِيقِ مِنَ التَّغْرِيجِ وَعَدَمِ الْاسْتِيقَامَةِ^(١) .

وَقَالَ الْقَضَائِيُّ^٢ : الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ مِصْرَ مِنَ الْقَرِيشِ إِلَى آخِرِ لُؤَيَّةَ وَمَرَاتِيَّةَ ، وَفِي آخِرِ أَرْضِ مَرَاتِيَّةَ تَلْقَى أَرْضَ أَنْطَابُلُسَ وَهِيَ بَرْقَةٌ . وَمِنَ الْقَرِيشِ فِصَاعِدًا يَكُونُ ذَلِكَ مَسِيرَةً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَهُوَ سَاحِلٌ كُلُّهُ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَهُوَ يَخْرِي أَرْضَ مِصْرَ ، كَذَلِكَ مَهَبُ الشَّمَالِ مِنْهَا إِلَى الْقِبْلَةِ شَيْقًا مَا .

فَإِذَا بَلَغْتَ آخِرَ أَرْضِ مَرَاتِيَّةَ ، غُذَّتْ ذَاتُ الشَّمَالِ وَاسْتَقْبَلَتْ الْجَنُوبَ ، وَتَسِيرُ فِي الرُّومِلِ - وَأَنْتَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْقِبْلَةِ - يَكُونُ الرُّومِلُ مِنْ مَصْبِهِ عَنْ يَمِينِكَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ ، وَعَنْ يَسَارِكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْقَيُومِ مِنْهَا ، وَأَرْضُ الْوَاخَاتِ الْأَرْبَعِ ، فَذَلِكَ عَزَبِيَّةُ مِصْرَ وَهُوَ مَا اسْتَقْبَلَتْهُ مِنْهُ . ثُمَّ تَعْرِجُ مِنْ آخِرِ أَرْضِ الْوَاخَاتِ ، وَتَسْتَقْبِلُ الشُّرُوقَ سَائِرًا إِلَى النَّيْلِ تَسِيرُ ثَمَانِي مَرَاجِلَ إِلَى النَّيْلِ ، ثُمَّ عَلَى النَّيْلِ فِصَاعِدًا ، وَهِيَ آخِرُ أَرْضِ الْإِسْلَامِ هُنَاكَ ، وَيَلِيهَا بِلَادُ الثُّوَبَةِ . ثُمَّ تَقْطَعُ^(٥) النَّيْلَ ، فَتَأْخُذُ مِنْ أَشْوَانَ فِي الشُّرُوقِ مُنْكَبًا عَنْ بَلَدِ أَشْوَانَ إِلَى غَيْثَابِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْحِجَازِيِّ ، فَمِنْ أَشْوَانَ إِلَى غَيْثَابِ خَمْسٍ عَشْرَةَ مَرَّخَلَةً ، وَذَلِكَ كُلُّهُ قِبْلَتِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَمَهَبُ الْجَنُوبِ مِنْهَا . ثُمَّ تَقْطَعُ^(٥) الْبَحْرَ الْمِلْحَ مِنْ غَيْثَابِ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ ، فَتَنْزِلُ الْحَوَازِ أَوَّلَ أَرْضِ مِصْرَ ، وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِأَغْرَاضِ مَدِينَةِ الرُّسُولِ ﷺ .

(٥) الْأَصْلُ : وَيَتَرَفَّ . (ب) زِيَادَةٌ مِنَ الرِّسَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ . (ج) يُولَاقُ : يَنْقَطِعُ .

^١ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الرِّسَالَةُ الْمِصْرِيَّةُ ١٥-١٦ .
^٢ الْقَضَائِيُّ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ
 الْمَوْفِيُّ سَنَةِ ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م مَوْخَرَجٌ مِصْرِيٌّ وَأَحَدُ رَوَادِ
 التَّأْلِيفِ فِي الْخَطِّ ، اشتهر بكتابه «عيون المعارف» ، وهو المختار
 فِي مَعْرِفَةِ الْخَطِّ وَالْأَنَارِ ، وَهَذَا الْكِتَابُ الْأَخِيرُ هُوَ الْكِتَابُ
 الَّذِي يَنْقُلُ عَنْهُ لِلْقُرَيْشِيِّ فِي الْخَطِّ (انظر المقدمة) .

وهذا البحر المحدود هو بحر القلزم، وهو داخِل في أرض مصر بشَرْقيه وغَرْبيه وبخْريه : فالشَرْقي منه أرض الحوَّاء وطنسه والثُّبْك وأَرْض مَدَنَيْن وأَرْض أَثْلَة فصاعِدًا إلى المَقْطَم بمصر، والغَرْبي منه ساجِل عَيْذاب إلى بحر النِّعام إلى المَقْطَم، والبخْري منه مَدِينَة القُلْزُم وجبل الطُّور. ومن القُلْزُم إلى القَرَمَا مَسِيرَة يوم و ليلة، وهو الحاجز فيما بين البَحْرَيْن، بَحْرُ الحِجَاز وبَحْرُ الرُّوم، وهذا كُلُّهُ شَرْقي أرض مصر من الحوَّاء إلى القَرِيش وهو مَهَبُ الصَّهْبَا منها^١. فهذا المحدود من أرض مصر. وما كان بعد هذا من الحدِّ الغربي، فمن قُتُوح أهل مصر وثُقُورهم من بَرَقَة إلى الأَنْدَلُس.

ذِكْرُ بَحْرِ الْقُلْزُم

^(١) القَلَاوِم : الدَّوَاهِي والمُضَايِقَة، ومنه بَحْرُ القُلْزُم^٢، لَأَنَّهُ مَضِيقٌ بَيْنَ جِبَالٍ^(٣)، وَلَمَّا كَانَتْ أَرْضُ مِصْرَ مُنْخَصِرَةً بَيْنَ بَحْرَيْنِ، هُمَا بَحْرُ القُلْزُم من شَرْقيها وبَحْرُ الرُّوم من شَمَالِهَا، وَكَانَ بَحْرُ القُلْزُم دَاخِلًا فِي أَرْضِ مِصْرَ كَمَا تَقَدَّمَ، صَارَ مِنْ شُرُوطِ هَذَا الْكِتَابِ التَّعْرِيفُ بِهِ، فَنَقُولُ :

هَذَا الْبَحْرُ إِذَا عُرِفَ فِي نَاحِيَةِ دِيَارِ مِصْرَ بِالْقُلْزُمِ، لَأَنَّهُ كَانَ بِسَاحِلِهِ الْغَرْبِيِّ فِي شَرْقي أَرْضِ مِصْرَ مَدِينَة تُسَمَّى الْقُلْزُم، وَقَدْ عَرِيتْ - كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ^٣ عِنْدَ ذِكْرِي قُرَى مِصْرَ وَمَدَنَهَا - فَسَمَّيْتُ هَذَا الْبَحْرَ بِاسْمِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَقِيلَ لَهُ «بَحْرُ الْقُلْزُم» عَلَى الْإِضَافَةِ، وَتَقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَةِ : يَمَّ سَوفَ^(٤).

وهذا الْبَحْرُ إِذَا هُوَ خَلِيجٌ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ الْمُحِيطِ بِالْأَرْضِ الَّتِي يُقَالُ لَهُ بَحْرُ أَفْقَانِسَ، وَيُتَرَفُّ أَيْضًا بِبِحَرِ الظُّلُمَاتِ، لِتَكَاثُفِ الْبُخَارِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْهُ وَضَعْفِ الشَّمْسِ عَنْ حُلَّتِهِ، فَيَنْفَلِظُ وَتَشْتَدُّ الظُّلْمَةُ، وَيَغْطُمُ مَوْجُ هَذَا الْبَحْرِ وَتَكْثُرُ أَهْوَالُهُ، وَلَمْ يَوْقِفْ مِنْ خَبْرِهِ إِلَّا عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ بَعْضِ سَوَاحِلِهِ وَمَا قَرُبَ مِنْ جَزَائِرِهِ.

(a-a) ساقطة من الأصل . (b) بولاق : لم ينسب .

Beckingham, C.H., *El² art. Bahr al-Kulzum I*, pp. 960-61.

^٣ فما يلي ٢١٣.

^١ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٩-١٠ .
^٢ انظر عن بحر القُلْزُم وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر، ياقوت : معجم البلدان ٤: ٣٨٧-٣٨٨ .

وفي جانب هذا البحر الغربي - الذي يخرج منه البحر الرومي الآتي ذكره إن شاء الله - الجزائر الخالدات^١، وهي فيما يقال بست جزائر يسكنها قوم مُتَوَحِّشُونَ. وفي جانب هذا البحر الشرقي، مما يلي الصين، بست جزائر أيضاً تُعرف بجزائر السبلي، نزلها بعض العلويين في أول الإسلام خوفاً على أنفسهم من القتل.

- ويخرج من هذا المحيط ستة أبهر: أعظمها اثنان، وهما اللذان عناهما الله تعالى بقوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ نَلْتَقِيَانِ﴾ [الآية ١٩ سورة الرحمن]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآية ٦١ سورة النمل]. فأخذهما من جهة الشرق، والآخر من جهة الغرب.

فالحارج من جهة الشرق يُقال له «البحر الصيني»، و«البحر الهندي»، و«البحر الفارسي»، و«البحر اليمني»، و«البحر الحبشي»، بحسب ما يمر عليه من البلدان. وأما الحارج من الغرب، فيقال له «البحر الرومي».

١٠

فأما البحر الهندي الحارج من جهة الشرق، فإن مبدأ خروجه من مَشرق الصين، ورَّاء حَظَّ الاشتواء بثلاثة عشر درجة، ويجري إلى ناحية الغرب، فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كُتباية وإلى التبر من بلاد مُكران. فإذا صار إلى بلاد مُكران ينقسم هناك قسمين: أحدهما يسمى بحر فارس، والآخر يسمى بحر اليمن، فيخرج بحر اليمن من رُكن جبَل خارج في البحر يسمى هذا الركن رأس الجُمُجَمَة، فيمتد من هناك إلى مدينة ظَفَّار، ويسير إلى الشَّحْرِ وساحل بلاد حَضْرَمَوْت إلى عَدَن وإلى باب المَندَب. وطولُ هذا البحر الهندي ثمانية / آلاف ميل، في عرض ألف وسبع مائة ميل عند بعض المواضع، وربما ضاقَ عن هذا القَدْر من القُرْص.

١٥

فإذا انتهى إلى باب المَندَب يخرج إلى بحر القُلُوم؛ والمَندَب جبَل طوله اثنا عشر ميلاً، وسعة قُوَّته قَدْر ما يَرَى الرجل الآخر من البرِّ تجاهه.

٢٠

فإذا فارق باب المَندَب، مرَّ في جهة الشمال بساحلي زَيْد والحِزَّة إلى عَثْر - وكانت عَثْر مَقَرَّ الْمَلِك في القَدِيم - ويمر من هناك على حَلِي إلى عُسْفان والحار، وهي قَرْصَة المدينة النبوية - على الحال بها أَفْضَل الصَّلَاة والسلام والتَّجِيعَة والإكرام - ومنها على ما يُقابل الجُمُجَمَة - حيث يُسَمَّى اليوم رايغ - إلى الحَوْرَاء ومَدَيْن وأَبْلَة والطَّور وفاران ومدينة القُلُوم. فإذا وَصَلَ إلى القُلُوم انْتَعَطَفَ

^١ الجزائر الخالدات. جزائر في المحيط الأطلسي كانت تعرف بـ Iles Fortunée ومنها Canaries كانت مبدأ الأطوال عند فرين من العلماء (السعودي: مروج الذهب ١: ٩٩).

من جهة الجنوب، ومُرَّ إلى القصير وهي فُوضَة قُوص، ومن القصير إلى عَيْنَاب وهي فُوضَة البُحَة، ويمتدُّ من عَيْنَاب إلى بَلَد الزُّبْلَع - وهو ساحل بلاد الحَبَشَة - ويتصل بِبَزْرَا.

وطولُ هذا البحر ألف وخمس مائة ميل، وعَرْضُهُ من أربع مائة ميل إلى ما دونها. وهو تَحْرُ كَرِيه المُنْظَر والرَّايحة.

وفي هذا البحر مَصَبُّ دِجْلَة والفُرات، وعلى أطرافه بلاد السُّنْد وبلاد اليَمَن كأنها جَزَائِرُ أحاطَ بها الماء من جهاتها الثلاث، وهو يَزْدَح نَهْر مَهْرَان كَرْدَع البحر الرُّومي ليل مصر.

وفيه - فيما بين مَدِينَة القُلْزُم ومَدِينَة أَيْلَة - مكانٌ يُعرف بِمَدِينَة فاران، وعندها جَبَلٌ لا يكاد يُنْجُو منه مَرَكَبٌ لِشِدَّةِ اخْتِلَافِ الرِّيح وقُوَّةِ تَوَرُّها من بين شعبتي جَبَلَيْنِ^١، وهي بِرُكَّة سعتها ستة أُميال تُعرف بِرُكَّة القُرُونْدَل، يُقَالُ إِنَّ فِرْعَوْنَ غَرِقَ فيها. فإذا هَبَّت رِيحُ الجَنُوب لا يُمْكِنُ سُلوْكُ هذه البِرُكَّة.

ويُقَالُ إِنَّ القُرُونْدَل اسم صَنَمٍ كان في القَدِيمِ هناك، قد وُضِعَ لِتَحْبِيسِ من خَرَجَ من أَرْضِ مصر مُغاضِبًا لِلْمَلِكِ أَوْ فَارًّا مِنْهُ، وَإِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَصَارَ بِهِمْ مُشْرِقًا، أَمَرَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْ يَنْزِلَ تَجَاهَ هَذَا الصَّنَمِ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ ظَنُّهُ أَنَّ الصَّنَمَ قد حَبَسَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَمَنْعَهُمْ مِنَ الْمَسِيرِ، كَمَا يَفْهَمُونَهُ مِنْهُ، فَخَرَجَ بِجُنُودِهِ فِي طَلَبِ مُوسَى وَقَوْمِهِ لِأَخْذِهِمْ بِزَعْمِهِ، فَكَانَ مِنْ عَزِيقِهِ مَا قَصَّه اللَّهُ سَبْحَانَهُ.

وسيردُ خَبَرُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - عِنْدَ ذِكْرِ كَنِيسَةِ دَمُوهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي ذِكْرِ كَنَائِسِ الْيَهُودِ^٢.

وفي بَحرِ القُلْزُم هذا خَمْسَ عَشْرَةَ جَزِيرَةً. مِنْهَا أَرْبَعٌ عَامِرَاتٌ، وَهِيَ: جَزِيرَةُ دَهْلَك، وَجَزِيرَةُ سَوَاكِين، وَجَزِيرَةُ الثُّعْمَان، وَجَزِيرَةُ الشَّامِرِي.

ويَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ خَلِيجَانِ: خَلِيجٌ لَطِيفٌ بِلَادِ الْهِنْدِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْبَحْرِ الْأَعْظَمِ، وَخَلِيجٌ يَحُولُ بَيْنَ بِلَادِ السُّودَانِ وَبِلَادِ الْيَمَنِ عَرَضُ رُقَاقِهِ نَحْوَ مِنْ قَوْسَئَيْنِ.

وَيَقْرُبُ هَذَا الْبَحْرُ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومي فِي أَعَالِي بِلَادِ الشَّامِ وَدِيَارِ مِصْرَ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُمَا نَحْوُ ٢٠٠ يَوْمٍ.

^٢ انظر فيما يلي ٢: ٤٦٥.

^١ انظر فيما يلي ٥١٢.

ذِكْرُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ

ولما كانت عِدَّةُ بلادٍ من أرض مصر مُطلَّةٌ على البحر الرُّومِي^١ كَمَدِينَةِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ وِدْمِيَاطِ وَيُثِيَسَ وَالْقَرْمَ وَالْقَرِيَشَ وغير ذلك ، وكان حَدُّ أرض مصر ينتهي في الجهة الشَّمَالِيَّةِ إلى هذا الْبَحْرِ وهو نهاية مَضَبِّ الثَّيْلِ ، حَسُنَ التَّعْرِيفُ بشيءٍ من أخبارِهِ :

وقد تَقَدَّمَ أَنَّ مَخْرَجَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ هذا من جِهَةِ الْغَرْبِ ، وهو يخرج في الإقليم الرابع بين الأَنْدَلُسِ وَالْغَرْبِ سَائِرًا إلى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

وَيُقَالُ إِنَّ هِرْكَلَشَ^(a) الْجَبَّارَ حَفَرَهُ وَأَجْرَاهُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ ، وَأَنَّ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَبِلَادَ الْبِزْزَرِ كَانَتْ أَرْضًا وَاحِدَةً يَسْكُنُهَا الْأَشْبَانُ وَالْبِزْزَرُ^(b) ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يُغَيِّرُ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَى أَنْ مَلَكَ هِرْكَلَشَ^(a) الْجَبَّارُ بْنُ مَلِكَا بْنِ^(c) يِيدِيَعُوسَ^(d) بْنِ إِغْرِيقَشَ بْنِ يُونَانَ ، فَرَعَّبَ إِلَيْهِ الْأَشْبَانَ فِي أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبِزْزَرِ خَلِيجًا مِنَ الْبَحْرِ يُمْكِنُ بِهِ اخْتِرَازُ كُلِّ طَائِفَةٍ عَنِ الْأُخْرَى ، فَحَفَرَ زُقَاقًا طَوْلُهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا ، وَبَنَى بِجَانِبَيْهِ سِكْرِينَ وَعَقَدَ بَيْنَهُمَا قَنْطَرَةً يُجَاوِزُ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَ عِنْدَهَا خَرَسًا يَمْنَعُونَ الْبِزْزَرَ مِنَ الْجَوَازِ عَلَيْهَا إِلَّا يَأْذَنُ . وَكَانَ قَامُوسُ الْبَحْرِ أَغْلًا مِنْ أَرْضِ هَذَا الزُّقَاقِ ، فَطَمَعَى الْمَاءَ حَتَّى غَطَى السِّكْرَيْنِ مَعَ الْقَنْطَرَةِ وَسَاقَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِلَادًا كَثِيرَةً ، وَطَفَى عَلَى عِدَّةِ بِلَادٍ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْمُسَافِرِينَ فِي هَذَا الزُّقَاقِ بِالْبَحْرِ يُخْبِرُونَ أَنَّ الْمَرَاكِبَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ يَتَوَقَّفُ سَيْرُهَا مَعَ وُجُودِ الرِّيحِ فَيَجِدُونَ الْمَانِعَ لَهَا كَرَنَهَا قَدْ سَلَكَتْ بَيْنَ سُرَافَاتِ الشُّورِ وَبَيْنَ حَائِطَيْنِ . ثُمَّ عَظُمَ هَذَا الزُّقَاقُ فِي الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ حَتَّى صَارَ يَخْرُجُ عَرْضُهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ الْبَحْرَ إِذَا جَزَرَ تَرَى الْقَنْطَرَةَ حَيْثُ .

وهَذَا الْحَبِيرُ أَظُنُّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ ، فَإِنَّ أَخْبَارَ هَذَا الْبَحْرِ وَكَوْنَهُ بِسَوَاحِلِ مِصْرَ ، لَمْ يَزَلْ ذَكَرَهُ فِي النَّهْرِ الْأَوَّلِ قَبْلَ هِرْكَلَشَ^(a) بَزْمَانَ طَوِيلٍ ، فَلَمَّا أَنْ يَكُونُ ذَلِكَ قَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ النَّهْرِ ثَمَّ عَمَلُهُ

(a) بولاق : إسكندر . (b) بولاق : البربر والأشبان . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : سلقوس .

^١ عن بحر الروم المعروف الآن بالبحر المتوسط La Méditerranée ، انظر مقال Dunlop, D.M., El² art. Bahr al- Rûm I, pp. 963-65.

بعض الأوائل، وإما أن يكون خبراً وإهياً، ولأ فزمان هر كلش^٥ حادث بعد كؤن هذا البحر، والله أعلم.

وهذا الرقاق صعب الشلوك، شديد الهزل، متلاطم الأمواج. وإذا خرج البحر من هذا الرقاق، مر مشرقاً في بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفرقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين والشواجل من بلاد الشام، ثم يعطف / من هناك إلى العللايا وأنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية، حتى ينتهي إلى البحر المحيط الذي خرج منه.

وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل، وقيل ستة آلاف ميل، وعرضه من سبع مائة ميل إلى ثلاث مائة ميل، وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أتم كثيرة معروفة، إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب، منها صقلية وميوزة وإقريطش.

وقباله البحر الهندي من جهة المغرب بحر خارج من المحيط في مغرب بلاد الرنج، ينتهي إلى قريب من جبل القمر، وفيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة، وفي أسفلها جزائر الخاليدات التي هي منتهى الطول في المغرب.

ويقابل البحر الشامي من ناحية المشرق بحر جرجان، وقيل إنه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة.

وبحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الإقليم السادس والإقليم السابع، وهو متسع، وفيه جزائر كثيرة، ومنها جزيرة الأندلس إلا أنها تتصل بالبر الكبير، وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البر عند بزشلونة، ولهم بحر - يعرف بـ: بأجوج ومأجوج - غزير وفيه عجائب، إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها. ويقال إن مسافة هذا البحر الرومي نحو أربعة أشهر.

وقال أبو الرئحان محمد بن أحمد البيروني^١ في كتاب «تحدد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكين»: وقد كان جرض^٦ بعض ملوك الفرس في بعض استيلائهم على مصر، على

(٥) بولاق : إسكندر . (٦) بولاق : حمض .

^١ أبو الرئحان محمد بن أحمد البيروني، أحد أكبر كبار العلماء المسلمين، وأكثرهم أصالة وعمقاً، وتخصص في العلوم الرياضية والفلك والطبيعة، كما اشتهر أيضاً كجغرافي ومؤرخ، وأطلقت عبه المصادر لقب «الأستاذ»، وتوفي في -

أَنْ يَخْفُرُوا مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ : الْقُلْزُوم ، وَالرُّومِي ، وَيَرْفَعُوا الْبَرْزَخ^(a) مِنْ بَيْنَهُمَا ، وَكَانَ أَوَّلُهُمْ سَاسِيس طَرَاطِس^(b) الْمَلِك ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ دَارِيُوش الْمَلِك ، فَلَمْ يَتِمَّ كُنْ لَهُمْ ذَلِكَ لارتفاع ماء الْقُلْزُوم عَلَى أَرْضِ مِصْر . فَلَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الْيُونَانِيِّينَ جَاءَ بَطْلَمَيْوس الثَّالِثُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ أَرْشَمِيدَس ، بِحَيْثُ يَحْصُلُ الْفَرْصُ بِلَا ضَرْرٍ . فَلَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الرُّومِ الْقِيَاصِرَةِ طَعَمُوهُ مَنَعًا لِمَنْ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَغْدَائِهِمْ^١ .

وَذَكَرَ بَعْضُ أَصْحَابِ السِّيَرِ مِنَ الْفَلَايِصَةِ أَنَّ مَا بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَبِلَادِهَا وَبَيْنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ أَرْضًا تُنْبِتُ الْجَمِيزَ ، وَكَانَتْ مَشْكُونَةً وَخِيَمَةً ، وَكَانَ أَهْلُهَا مِنَ الْيُونَانِيَّةِ ، وَأَنَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ خَرَقَ إِلَيْهَا الْبَحْرُ فَغَلَبَتْ أُمُوَاهُ^(c) عَلَى تِلْكَ الْأَرْضِ .

وَكَانَ بِهَا - فِيمَا يَزْعُمُونَ - الطَّائِرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ قِقْتُسُ ، وَهُوَ طَائِرٌ حَسَنُ الصَّوْتِ ، وَإِذَا حَانَ مَوْتُهُ زَادَ حُسْنَ صَوْتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَبْعَةِ أَيَّامٍ حَتَّى لَا يُتِمَّ أَنْ أَخَذَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ لِأَنَّهُ يَغْلُبُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ مَا يُبَيِّتُ السَّامِعَ ، وَأَنَّهُ يُدْرِكُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ طَرَبَتْ عَظِيمٌ وَسُرُورٌ فَلَا يَهْدَأُ مِنَ الصَّيَاحِ .

وَزَعَمُوا أَنَّ عَامِلَ الْمَوْسِقَى مِنَ الْفَلَايِصَةِ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ قِقْتُسِ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، فَحَشِيصِي إِنْ هَجَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ حُسْنَ صَوْتِهِ ، فَسَدَّ أُذُنَيْهِ سَدًّا مُتَعَكِّمًا ، ثُمَّ قَرَّبَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَفْتَحُ مِنْ أُذُنَيْهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى اسْتَكْمَلَ فَتَحَ الْأُذُنَيْنِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى سَمَاعِهِ رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ ، فَلَا يَتَغَنَّى حُسْنُهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ فَيَأْتِي عَلَيْهِ .

وَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ الطَّائِرَ هَلَكَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ وَلَا مِنْ فِرَاحِهِ شَيْءٌ بِسَبَبِ هُلُجُومِ مَاءِ الْبَحْرِ عَلَيْهِ وَعَلَى رَهْطِهِ بِاللَّيْلِ فِي الْأَوْكَارِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ بَقِيَّةٌ .

(a) بولاق : ورفعوا من بينهما البرزخ ، البيروني : ويرفعوا البرزخ عما بين البحرين . (b) بولاق : فاسيس بن طراطس ، البيروني : سبس طراطس . (c) ساقطة من بولاق .

فقد اعتمد عليه المقرئ في مواضع كثيرة ، وخاصة عند حديثه عن «تاريخ الخليقة» وتواريخ الأمم السابقة على الإسلام ، أحياناً دون الإشارة إليه ، ولكن في أغلب الأحيان كان يسند إليه ما نقله عنه (انظر المقدمة) .

^١ البيروني : تحديد نهايات الأماكن وتصحيح =

= غزوة بعد سنة ١٠٥٠/هـ . كتب البيروني سلسلة من المؤلفات المهمة اعتمد المقرئ في الخطوط على ثلاثة منها . حيث نقل مرة واحدة عن كتاب «تحديد نهايات الأماكن» وعن كتاب «القانون السعدي» (فيما يلي ٢٥١:١) . أما كتابه الثالث «الآثار الباقية عن القرون الخالية»

ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله ، فأعطاه قَدْحًا فيه سُم ليشربه فأعلمه بذلك ، فظهر منه مسرّة وفرح ، فقال له ما هذا أيها الحكم ؟ فقال : هل أعجز أن أكون مثل قَيْقُوس ؟

زَكَرِيَّا شَيْفَانٌ بِمِصْرَ وَمَعْنَاهَا وَتَقْدَارُ^(١) أَسْمَاءُ نَحْوًا

- يُقَالُ كَانَ اسْمُهَا فِي الذُّهْرِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الطُّوفَانِ «جَزَلَةٌ»^١ ، ثُمَّ سُمِّيَتْ «مِصْرَ» .
وقد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سُمِّيَتْ هذه الأرض بِمِصْرَ ، فقال قومٌ : سُمِّيَتْ بِمِصْرَ بْنِ مَرْكَائِيلَ بْنِ دَوَائِيلَ بْنِ عَرِيَابَ بْنِ آدَمَ ، وَهُوَ مِصْرُ الْأَوَّلِ^٢ . وقيل : بل سُمِّيَتْ بِمِصْرَ الثَّانِي ، وَهُوَ مِصْرَامُ بْنُ تَقْرَاوُسَ الْجَبَّارِ ابْنِ مِصْرَيمَ الْأَوَّلِ ، وَهوَ سُمِّيَ مِصْرَ بْنَ يَتَصَّرَ بْنِ حَامَ بَعْدَ الطُّوفَانِ^٣ . وقيل : بل سُمِّيَتْ بِمِصْرَ الثَّالِثِ ، وَهُوَ مِصْرَ بْنَ يَتَصَّرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ ، وَهُوَ اسْمُ أَعْجَمِي لَا يَنْصَرَفُ ؛ وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ اسْمٌ عَرَبِيٌّ مُشْتَقٌّ .
فَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ مِصْرَ اسْمُ أَعْجَمِيٍّ ، فَإِنَّهُ اسْتَدْلَّ بِمَا رَوَاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَخْبَارِ مِنْ نُزُولِ مِصْرَ بْنِ يَتَصَّرَ بِهذه الأرض ، وَقِسْمَتِهَا بَيْنَ أَوْلَادِهِ فَفَرَّقَتْ بِهِ^٤ .
وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيُّ^٥ أَنَّ مِصْرَ بْنَ حَامَ هُوَ^(ب) مِصْرَامُ . وقيل : إِنَّمَا سُمِّيَ بِمِصْرَ

(a) بولاق : تعدد . (b) بولاق والإكليل : وهو . (c) بولاق : وقيل إن مصر والمثبت من الإكليل .

= مسافات المساكن ، حققه ب. بولجاكوف ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثامن ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٤٩ .
^١ في النجوم الزاهرة . زجلة من الزجلة .
^٢ انظر فيما يلي ٣٥٠ .
^٣ قارن مع ابن خردادبة : للمالك والممالك ٨٠ ، الفلقشندي : صحيح ٢ : ٣١٤ ، وكذلك الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٤٣٠ (ربما نقلا عن المقرئ أو ابن إياس) .
^٤ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٩٩ ، وقارن ابن عبد الحكم : فوح مصر ٩ ، وفيما يلي ٤٢ : ١ .
^٥ أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

الهمداني المعروف بلسان اليمن وبابن الخالط ، أحد كبار علماء اليمن كان فقيهاً ونشابة ومؤرخاً وطبيباً ، وكان عارفاً بكتابة المَشْنَد وضمن كتابه «الإكليل في أنساب اليمن وملوكها» - وهو في عشرة مجلدات - جميع تاريخ اليمن القديم ، لذلك اعتبره اليمنيون كتاب مجدها وحضارتها وتاريخها وسجل أنسابها وقبائلها وشعوبها . ويقف مصنفه هذا دليلاً ساطعاً على سعة معارفه حيث أفرغ فيه جماع معارفه بالأنساب والتاريخ والآثار ، ولم يكتف برض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي قبل الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية ، واستطاع في كثير من =

ابن هؤيس بن هردس جد الإشكندر^١. قال ونكح فوط^٢ بن حام بخت^٣ بنت تباويل بن ترس^٤ ابن يافث بن نوح، فولدت له بوقير وقبط - أبا القبط قبط مصر - ومن ههنا [وهم الذين قالوا]^٥ إن مصر بن حام، وإنما هو مصر بن هؤيس بن هردس بن ميطون بن رومي^٦ بن ليطي بن ثونان، وبه سُميت مصر فهي مقدونية^٧.

وذكر أبو الحسن المشغودي^٨ في كتاب «أخبار الزمان» أن بني آدم لما تحاسدوا وبقي^٩ عليهم بنو قاييل بن آدم، ركب ثقراوس الجبار ابن مصرم بن مراكثيل بن دوايل بن غرياب^{١٠} بن آدم عليه السلام، في ثيف وسبعين راكباً من بني غرياب^{١١} بجابزة، كلهم يطلبون موضعاً من الأرض يقطعون فيه فرازاً من بني أبيهم. فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى الثيل فأطالوا المشي عليه، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبته وقالوا: هذه بلد زرع وحرارة، فاقطنوا فيه واشتغلوا؛ وبثوا فيه الأبنية / المحكمات والصنائع العجيبة، وبني ثقراوس مصر وسماها باسم أبيه مصرم^{١٢}.

وكان ثقراوس بجباراً له قوة، وكان مع ذلك عالماً، وله الثمر الحين في هلاك بني أبيه، ولم يزل مطاعاً. وقد كان وقع إليه من العلوم، التي كان دوايل علمتها لآدم عليه السلام، ما فخر به الجبابرة الذين كانوا قبله وملوكهم.

ثم أتم، حين ملك، بناء مدينة في موضع خيتمته، فقطعوا له الصخور من الجبال، وأثاروا معاون الرصاص، وبنوا مدينة سماها أمسوس^{١٣}، وأقاموا فيها أغلاماً [طوالاً]^{١٤} طول كل علم منها

(a) يولاق : لو ما . (b) ساقطة من يولاق . (c) إضافة من الإكليل . (d) يولاق : يبطون بن روي .
(e) المسعودي : فغلب . (f) كذا في الأصل وعند ثبيت والمسعودي : عراق . (g) زيادة من المسعودي .

^١ الهمداني : الإكليل ١ : ٦٣ .

^٢ نفسه ٦٤ - ٦٥ .

^٣ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي أكثر الكتب الجغرافيين العرب أصالة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وهو مؤلف العديد من المصادر الموسوعة اعتمد المقرئ على ثلاثة منها هي : مروج الذهب ، والتبعية والإشراف بالإضافة إلى «أخبار الزمان» المنسوب إليه ، وتوفي سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م (انظر المقدمة) .

^٤ انظر فيما يلي ١٣٦ .

^٥ انظر فيما يلي ٣٥٠ .

= مواضع كتابه أن يوازن بين ما ورد في القرآن الكريم وبين ما جاء في الكتابات المسيحية، فجاءت استنتاجاته مطابقة لكثير من الاكتشاف الحديثة. توفي بعد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م (صاعد الأندلسي : التبريد بطبقات الأمم ٢٢٩-٢٣١ ، ياقوت : معجم الأدياء ٢٣٠:٧-٢٣١ ، القفطي : إنباء الرواة ٢٧٩:١-٢٨٥) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٨٧-١٨٩ ، Låfgrén, O., *El² art. al-Hamdāni III*, pp. 126-28 ; أمين فؤاد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٤ ، ٦٨-٧٦ .

مائة ذراع، وزرعوا وعَمَرُوا الأرض. ثم أَمَرَهُم ببناء المَدَائِن والقُرَى، وَأَسْكَنَ كُلَّ نَاجِيَةٍ مِنَ
الأَرْض مَنْ رَأَى؛ ثُمَّ حَفَرُوا النَّيْلَ حَتَّى أَجْعَلُوا مَاءَهُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتَعَدِّلَ الْحَزَى، إِمَّا
كَانَ يَنْبَطِحُ وَيَتَفَرَّقُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى وَجَّهَ إِلَى الثَّوْبَةِ [جَمَاعَةً حَتَّى] ^(a) هُنْدَسُوهُ وَسَاقُوا مِنْهُ أَنْهَارًا
إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ مُدُنِهِمْ الَّتِي بَنَوْهَا، وَسَاقُوا مِنْهُ نَهْرًا إِلَى مَدِينَتِهِمْ أَمْسُوسَ يَجْرِي فِي
وَسَطِهَا ^٥.

ثُمَّ سَمَّيَتْ مِصْرَ، بَعْدَ الطُّوفَانِ، بِمِصْرٍ ^(b) بَنَ يَحْصَرَ بَنَ حَامَ بْنِ نُوحَ. وَذَلِكَ أَنَّ فُلَيْمُونَ الْكَاهِنَ
خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَلَحِقَ بِنُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَتَمَّنَ بِهِ هُوَ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَتَلَامِيذُهُ، وَرَكِبَ مَعَهُ فِي
السَّفِينَةِ، وَزَوَّجَ ابْنَتَهُ مِنْ يَحْصَرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ. فَلَمَّا خَرَجَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ وَقَسَمَ الْأَرْضَ بَيْنَ
أَوْلَادِهِ - وَكَانَتْ ابْنَةُ فُلَيْمُونَ قَدْ وَلَدَتْ لِيَحْصَرَ وَلَدًا سَمَّاهُ بِمِصْرَ - فَقَالَ فُلَيْمُونَ لِنُوحَ: أَتَيْتُ مَعِيَ
يَا نَبِيَّ اللَّهِ ابْنِي حَتَّى أَمْضِيَ بِهِ إِلَى ^(c) بِلَدِي، وَأُظْهِرَهُ عَلَى كُنُوزِي، وَأُوقِفَهُ عَلَى عُلُومِهِ وَزُمُوزِهِ؛
فَأَتَقَفَّهُ مَعَهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ - وَكَانَ غُلَامًا مُرَفَّهًا - فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ مِصْرَ بَنَى لَهُ عَرِيشًا مِنْ
أَغْصَانِ الشَّجَرِ، وَسَتَرَهُ بِخَشِيشِ الْأَرْضِ، ثُمَّ بَنَى لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَدِينَةً وَسَمَّاهَا
دُزْسَانَ أَيْ بَابَ الْحَيَّةِ. فَزَرَعُوا وَغَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَالْأَجْنَةَ مِنْ دُزْسَانَ إِلَى الْبَحْرِ، فَصَارَتْ هُنَاكَ
زُرُوعٌ وَأَجْنَةٌ وَعِمَارَةٌ. وَكَانَ الَّذِي مَعَ مِصْرَامَ بِجَابِزَةٍ، فَقَطَعُوا الصُّخُورَ، وَبَنَوْا الْمَعَالِمَ وَالْمَصَانِعَ،
وَأَقَامُوا فِي أَرْغَدٍ عَيْشٍ ^{١٠}.

وَيُقَالُ إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ أَقَامُوا عَلَيْهِمْ بِمِصْرَامَ مَلِكًا فِي أَيَّامِ تَالِيٍّ بَنَ عَابِرَ بْنِ شَالِيخَ بْنِ
أَوْفَحْشِيذَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ، فَملَكَ مِصْرَ وَبَنَى مَدِينَةً مَنَفَ ^(d) عَلَى النَّيْلِ وَسَمَّاهَا بِاسْمِهِ.
وَيُقَالُ إِنَّ بِمِصْرَامَ غَرَسَ الْأَشْجَارَ بِيَدِهِ، وَكَانَتْ إِيمَارُهَا عَظِيمَةً بِحَيْثُ تُشَقَّقُ الْأُتْرُجَةُ نِصْفَيْنِ
فَيُحْمَلُ عَلَى الْبَعِيرِ نِصْفُهَا ١ وَكَانَ الْقَتَاءُ فِي طُولِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ شَبْرًا. وَيُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَ الشُّغْنُ
بِالنَّيْلِ، وَإِنَّ أَوَّلَ سَفِينَةٍ كَانَتْ ثَلَاثَ مِائَةِ ذِرَاعٍ طَوْلًا فِي عَرْضِ مِائَةِ ذِرَاعٍ ^{٢٠}.

(a) إضافة من المسعودي. (b) المسعودي: مصرام (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: وهي مدينة نعمة.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١١٠-١١١، النوري: نهاية الأرب ١: ١٠٥-٢ (نقلًا عن ابن وصيف شاه)؛ أبو
الحسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٨-٤٩ (نقلًا عن المسعودي)؛ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩.
^٢ المسعودي: أخبار الزمان ١٠٢-١٠٣، وفيما يلي
٢٢٧.
^٣ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩.
وفيما يلي ١٣٦.

وَيَقَالُ إِنَّ مِصْرِيمَ نَكَّحَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي الْكَهْنَةِ فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدًا فَاسْمَاهُ قُتَيْطِيمٌ، وَنَكَّحَ قُتَيْطِيمَ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ عَمَرِهِ امْرَأَةً وَلَدَتْ لَهُ أَرْبَعَةَ تَفَرَّ: قُتَيْطِيمٌ وَأَشْمُونُ وَأَثْرِبُ وَصَا، فَكَثُرُوا وَعَمَرُوا الْأَرْضَ وَتَوَرَّكَ لَهُمْ فِيهَا.

- وقيل إنه كان عَدَدُ مَنْ وَصَلَ مَعَهُمْ ثَلَاثُونَ رَجُلًا، فَبَنُوا مَدِينَةً سَمَّوْهَا نَافَّةً، وَمَعْنَى نَافَّةٌ ثَلَاثُونَ بَلْعَتَهُمْ، وَهِيَ مَثْفٌ. وَكَشَفَ أَصْحَابُ قَلِيمُونَ الْكَاهِنَ عَنْ كُتُوزِ مِصْرَ وَغُلُومِهِمْ، وَأَثَارُوا الْمَعَادِنَ، وَعَلَّمُوهُمْ عِلْمَ الطَّلُشْمَاتِ، وَوَصَفُوا لَهُمْ عَمَلُ^(أ) الصَّنِيعَةِ، وَبَنَوْا عَلَى غَيْرِ الْبَحْرِ مَدُنًا مِنْهَا رُقُودَةُ مَكَانِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَلَمَّا حَضَرَ مِصْرِيمَ الرَّفَاةَ عَهْدَ إِلَى ابْنِهِ قُتَيْطِيمَ، وَكَانَ قَدْ قَسَمَ أَرْضَ مِصْرَ بَيْنَ بَنِيهِ، فَجَعَلَ لِقُتَيْطِيمَ مِنْ قِفْطٍ إِلَى أَشْوَانَ، وَلِأَشْمُونِ مِنْ أَشْمُونِ إِلَى مَثْفٍ، وَلِأَثْرِبِ الْحَوْفَ كُلَّهُ، وَلِصَا مِنْ نَاحِيَةِ صَا الْبَحْرِيَّةِ إِلَى قُوبِ بَرْقَةِ، وَقَالَ لِأَخِيهِ فَارِقَ: لَكَ مِنْ بَرْقَةِ إِلَى الْقَرْبِ، فَهُوَ صَاحِبُ لِفْرِيقِيَّةٍ وَوَالِدُ الْأَفَارِقِ، وَأَمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ أَنْ يَتَنِي لِنَفْسِهِ مَدِينَةً فِي مَوْضِعِهِ^١.

- وَأَمَرَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَحْفَرُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ سَرَبًا، وَأَنْ يَغْرِشُوهُ بِالْمَرْمَرِ الْأَبْيَضِ وَيَجْعَلُوا فِيهِ جَسَدَهُ، وَيَدْفِنُوا مَعَهُ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ وَيَزَيَّرُوا عَلَيْهِ أَشْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَانِعَةِ مِنْ أَخْذِهِ؛ فَحَفَرُوا لَهُ سَرَبًا طَوَّلُهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا، وَجَعَلُوا فِي وَسْطِهِ مَجْلِسًا مُصَفَّحًا بِصَفَائِحِ الذَّهَبِ، وَجَعَلُوا لَهُ أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا تِمْنَالٌ مِنْ ذَهَبٍ، عَلَيْهِ تَاجٌ مُرَصَّعٌ بِالْجَوْهَرِ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ قَوَائِمُهُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَزَيَّرُوا فِي صَدْرِ كُلِّ تِمْنَالٍ آيَاتَ مَانِعَةٍ، وَجَعَلُوا جَسَدَهُ فِي الْجُونِ^(ب) مَرْمَرٍ مُصَفَّحٍ بِالذَّهَبِ؛ وَزَيَّرُوا عَلَى مَجْلِسِهِ:

- «مَاتَ مِصْرِيمُ بْنُ يَتَصَّرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحٍ بَعْدَ سَبْعِ مِائَةٍ عَامٍ مَضَتْ مِنْ أَيَّامِ الطُّوفَانِ، وَلَمْ يَتَّبِعْ الْأَصْنَامَ، إِذْ لَا هَرَمَ وَلَا سِقَامَ وَلَا حُزْنَ وَلَا اِهْتِمَامَ، وَحَصَّنَهُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْعِظَامِ، لَا يَحِصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا تَمْلِكٌ وَلَدَتْهُ سَبْعَةٌ مُلُوكٌ تَدِينُ بِدِينِ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَجْبُوتِ بِالْقُرْآنِ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ».

(أ) بولاق : ووضعوها لهم عمل - (ب) بولاق : جسد -

^١ انظر كذلك فيما يلي ٣٧٠ ، ٥١٤ .

وَجَعَلُوا مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَلْفَ قِطْعَةٍ مِنَ الزَّبَرَجَدِ الْمَخْرُوطِ، وَأَلْفَ تِمْتَالٍ مِنَ الْجَوْهَرِ الثَّقِيفِ،
وَأَلْفَ بَرْنِيَّةٍ مَمْلُوءَةٍ مِنَ الذَّرِّ الْفَاخِرِ وَالصَّنْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْعَقَاقِيرِ وَالطَّلَسَمَاتِ الْعَجِيبَةِ، وَسَبَائِكَ
الذَّهَبِ، وَسَقَفُوا ذَلِكَ بِالصُّخُورِ، وَهَالُوا قَوْعَهَا الزَّمَالِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَوَلَّى ابْنَهُ قُبْطِيمَ الْمَلِكِ^١.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام^٢ في كتاب «التيجان»^٣: أَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ بَنَ يَشْجَبَ بْنَ
يَعْرُبَ بْنَ قَحْطَانَ بْنَ هُودٍ أَخِي عَادِ بْنِ عَابِرَ بْنِ شَالِيحَ بْنِ أَرْفَخْشَيْدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَأَسْمَ عَبْدَ شَمْسٍ هَذَا عَابِرٌ، وَغُرِفَ بِعَبْدِ شَمْسٍ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبْدَ/ الشَّمْسِ^٤، وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا سَبَأُ
لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَبَى، وَهُوَ سَبَأُ الْأَكْبَرِ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَهْلَانَ، مَلَكَ بَعْدَ أَبِيهِ يَشْجَبَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ^٥،
جَمَعَ بَنِي قَحْطَانَ وَبَنِي هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَخُتُّهُمْ عَلَى الْعَزْوِ، ثُمَّ سَارَ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ
فَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الثُّوَارِ حَتَّى بَلَغَ أَرْضَ أَرْمِينِيَّةٍ، وَمَلَكَ أَرْضَ بَنِي يَافِثَ بْنِ نُوحٍ،
وَأَرَادَ أَنْ يَغْتَبِرَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الشَّامِ وَأَرْضِ الْحَزِيرَةِ، فَقِيلَ لَهُ لَيْسَ لَكَ مَجَازٌ غَيْرَ الرُّجُوعِ فِي
طَرِيقِكَ، فَبَنَى قَنْطَرَةً عَلَى الْبَحْرِ بِنَاحِيَةِ^٦.... وَجَازَ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ، فَأَخَذَ تِلْكَ الْأَرْضِيَّ إِلَى
الذَّوْبِ، وَلَمْ يَكُنْ خَلْفَ الذَّوْبِ إِذْ ذَاكَ أَخَذَ.

ثُمَّ نَهَضَ يُرِيدُ بِلَادَ الْمَغْرِبِ^٧، فَتَزَلَّ عَلَى الثَّلِجِ، وَجَمَعَ أَهْلَ مَشُورَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي رَأَيْتُ أَنْ
أُبْنِيَ مِصْرًا - أَيْ حَدًّا^٨ - بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ - يَعْنِي بَحْرَ الرُّومِ وَبَحْرَ الْقَزْمِ - فَيَكُونُ فَاصِلًا بَيْنَ
الْمَشْرِقِ^٩ وَالْمَغْرِبِ^{١٠}، فَقَالُوا: نِعَمَ الرَّأْيِ أَهْيَا الْمَلِكِ.

(a) بولاق: الصحائف. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: الغرب. (d) بولاق: إلى حد. (e) بولاق: الشرق.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١٥٣-١٥٥: التنويري: ينقل عنه المقرئ هنا (ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١٧٧: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٢٨-٤٢٩: الصفيدي: الوافي بالوفيات ١٩: ١٢١٤: Montgomery المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩-٥٠).

^٢ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي عالم يحمي إلى أسرة من أصل حميري انتقلت من البصرة إلى مصر حيث استقرت بها، وبها ولد عبد الملك وأمضى بها حياته حتى وفاته سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م. اشتهر بكتابه في «السيرة النبوية» الذي اختصر فيه سيرة محمد بن إسحاق، والذي أصبح المصدر الرئيسي لدراسة السيرة النبوية، وكذلك بكتابه حول تاريخ اليمن القديم «التيجان» في ملوك حمير وهو الذي

^٣ قارن ابن هشام: التيجان في ملوك حمير ٢٥-٤٧: (حيث نقل المقرئ النسب فقط دون سائر التفاصيل التي أوردها ابن هشام رواية عن وهب بن منبه مؤلف الكتاب الأصلي). وانظر كذلك أخبار عبيد بن شربة الجرهمي ٣٩٧، ٣٩٩.

^٤ نفسه ٤٩، ٥٠، وأخبار عبيد بن شربة ٣٩٧، ٣٩٩.

فَبَنَى مَدِينَةً سَمَّاهَا مِصْرَ وَوَلَّى عَلَيْهَا ابْنَهُ بَابِلْيُونَ ، وَمَضَى إِلَى بَنِي حَامِ بْنِ نُوحٍ - وَهُمْ نُزُولُ فِي الْبَرَارِيِّ إِلَى قَمُونِيَّةٍ وَتَقْمُونِيَّةٍ^(a) الْقَبِيضَ - فَأَوْقَعَ بِجَمِيعِ تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، وَسَيَّى ذُرَارِيَهُمْ كَمَا قَتَلَ بِلَادَ الشَّرْقِ ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «سَبَأٌ» . ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ وَمَضَى فِيهَا إِلَى الشَّامِ يُرِيدُ الْحِجَازَ ، وَأَوْصَى ابْنَهُ بَابِلْيُونَ عِنْدَ رَحِيلَةَ فَقَالَ :

[الطويل]

- أَلَا قُلْ لِبَابِلْيُونَ وَالْقَوْلُ بِحِكْمَةٍ مَلَكَتْ زِمَامَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَاجْعِلْ
وَتُخَذَ لِبَنِي حَامٍ مِنَ الْأَمْرِ وَسَطُهُ فَإِنْ صَدَفُوا يَوْمًا عَنِ الْحَقِّ فَاقْبَلْ
وَإِنْ جَنَحُوا بِالْقَوْلِ لِلرَّفَقِ طَاعَةً يُرِيدُونَ وَجْهَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَاعْبِلْ
وَلَا تُظْهِرْ الرُّأْيَ فِي النَّاسِ يُجْتَرَا عَلَيْكَ بِهِ وَاجْعَلْهُ ضَرْبَةً فَيَصِلْ
وَلَا تَأْخُذْكَ الْمَالُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فَإِنَّكَ إِنْ تَأَخَّذَهُ بِالرَّفَقِ يَسْهَلْ
وَلَا تُنْفِقَنَّ الْمَالَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَإِنْ جَاءَ مَا لَا يَبْدُ مِنْهُ فَابْذُلْ
وَدَاوِ دَوِي الْأَحْقَادِ بِالسَّيْفِ إِنَّهُ مَتَى يَلْقَ مِنْكَ الْقَرْمُ ذُو الْحَقْدِ يُجْعِلْ
وَتُخَذَ لِلدَّوِي الْأَحْسَابِ لِيُنَا وَشِدَّةُ وَلَا تَكُ جَبَّارًا عَلَيْهِمْ وَأَعْجِلْ
وَكُنْ لِسُؤَالِ النَّاسِ غَوْنًا وَرَحْمَةً وَمَنْ يَكُ ذَا غُرُوفٍ مِنَ النَّاسِ يُسْأَلْ
وَإِنَّكَ وَالسَّفَرُ الْقَرِيبَ فَإِنَّهُ سَيُغْنِي بِمَا يُؤْلِيهِ فِي كُلِّ مَنَهِلْ

ثُمَّ عَادَ إِلَى الْيَمَنِ وَبَنَى سَدًّا مَأْرِبَ ، وَهُوَ سَدٌّ فِيهِ سَبْعُونَ نَهْرًا ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ الشَّيْلُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فِي يَمَلِّهَا ، ثُمَّ مَاتَ عَنْ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ^١ .

وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ سَبَأَ ، فَتَقَاتَا بَنُو حَامٍ عَلَى بَابِلْيُونَ وَأَرَادُوا تَخْرِيبَ مِصْرَ ، فَاسْتَدْعَى أَخَاهُ جَعْفَرَ لِيُنْجِدَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ مِصْرَ ، وَمَضَى إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، فَأَقَامَ بِهَا مِائَةَ عَامٍ يَمِينِي الْمَدَائِنِ وَيُخِذُ الْمَصَانِعَ ، فَمَاتَ [بَعْدَهُ أَخُوهُ]^(b) بَابِلْيُونَ بْنُ سَبَأَ بِمِصْرَ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ اِمْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ بَابِلْيُونَ^٢ .

ثُمَّ مَاتَ جَعْفَرُ بْنُ سَبَأَ عَنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ وَخَمْسِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، مِنْهَا فِي الْمَلِكِ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ ؛ وَأَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ وَائِلُ بْنُ جَعْفَرَ ثُمَّ مَاتَ^٣ .

(a) يولاق : بمونوية . (b) زيادة من التيجان .

^١ ابن هشام : التيجان ٤٨ - ٥٠ ، وفيما يلي ٢٨٧ . ^٢ نفسه ٥١ - ٥٥ .

^٣ نفسه ٥٣ .

فقام من بعده ابنه المشكك بن وائل الذي يُقال له مُقَفِّعُ الْمَلِكِ^(أ) - وقد اُتُرقَ مُلْكُ جَعْفَرٍ - فحازِبَ الثَّوَارَ، وسارَ إلى الشَّامِ، فلقبه عمرو بن اُمَيَّةُ الْقَيْسِ بن بَابِلْيُون بن سَبَأَ بِالزَّمَلَةِ - وقد مَلَكَ بعد أبيه - وقَدَّمْ له هَدِيَّةً، فَأَقْرَبَهُ على مصر حتى قَدِمَ عليه إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ - عليه السَّلامُ - وَوَهَبَهُ هَاجِرًا^١.

٥. وقال أَبُو الْقَاسِمِ عبد الرَّحْمَنِ بن عَبْدِ اللَّهِ بن عَبْدِ الْحَكَمِ^٢ في كتاب «فُتُوحِ مِصْرٍ وَأَخْبَارِهَا»، عن عبد الله بن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما / قال : كان نُوحٌ - عليه السَّلامُ - أربعةً من الوُلْدِ : سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ وَيَحْطَلُونُ، وَأَنْ نُوحًا رَغِبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ الْإِجَابَةَ فِي وَلَدِهِ وَذُرِّيَّتِهِ حِينَ تَكَامَلُوا بِالنَّمَاءِ وَالتَّبَرُّكِ، فَوَعَدَهُ ذَلِكَ. فَهَدَى نُوحٌ وَهُوَ يَمُومٌ عِنْدَ السَّحَرِ، فَهَدَى سَامًا فَأَجَابَهُ يَسْعَى، وَصَاحَ سَامٌ فِي وَلَدِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، إِلَّا ابْنَهُ أَرْفَخْشَيْدَ، فَانْطَلَقَ بِهِ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْاهُ، فَوَضَعَ نُوحٌ يَمِينَهُ عَلَى سَامٍ وَشِمَالَهُ عَلَى أَرْفَخْشَيْدَ بْنِ سَامٍ، وَسَأَلَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُبَارِكَ فِي سَامٍ أَفْضَلَ التَّبَرُّكِ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْمُلْكَ وَالثَّبُوتَ فِي وَلَدِ أَرْفَخْشَيْدَ.

ثم نادى حَامًا وَتَلَفَّتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَمْ يُجِبْهُ وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ، فَدَعَا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نُوحٌ أَنْ يَجْعَلَ وَلَدَهُ أَذْلًا، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ عِيْدًا لَوْلَدِ سَامٍ.

١٥. وكان يصُرُّ بن يَمِصَّر بن حَامٍ نَائِمًا إِلَى جَنْبِ جَدِّهِ، فَلَمَّا سَمِعَ دُعَاءَ نُوحٍ عَلَى جَدِّهِ وَوَلَدِهِ، قَامَ يَسْعَى إِلَى نُوحٍ وَقَالَ : يَا جَدِّي قَدْ أَجَبْتُكَ إِذْ لَمْ يُجِبْكَ أَحَدٌ^(ب) وَلَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ، فَاجْعَلْ لِي دَعْوَةً مِنْ دُعَائِكَ، فَفَرَّخَ نُوحٌ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : «اللَّهُمَّ إِنَّهُ قَدْ أَجَابَ دَعْوَتِي فَبَارِكْ فِيهِ وَفِي ذُرِّيَّتِهِ، وَأَسْكِنَهُ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ وَعَزْوَثُ الْعِبَادِ، الَّتِي نَهَرُهَا أَفْضَلُ أَنْهَارِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِيهَا أَفْضَلَ التَّبَرُّكِاتِ، وَسَخَّرْ لَهُ وَلَوْلَدِهِ الْأَرْضَ وَذَلَّلْهَا لَهُمْ وَقَوَّهُمْ عَلَيْهَا». ثُمَّ دَعَا ابْنَهُ يَافِثَ، فَلَمْ يُجِبْهُ [هُوَ]^(ج) وَلَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ، فَدَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ شِرَارَ الْخَلْقِ^٣.

(أ) بولاق : الحمد ، والتيجان : العمدة . (ب) بولاق : جدي . (ج) زيادة من ابن عبد الحكم .

^١ ابن هشام : القيجان ٥٧-٥٨ .
^٢ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم
 تُخَدِّثُ ومؤرخ مصري المولود والوفاء ، توفي بمصر سنة ٨٧٧هـ / ٤٨٧م . بعد أول مؤرخ لمصر الإسلامية ، كما بعد كتابه الذي وصل إلينا «فُتُوحِ مِصْرٍ وَأَخْبَارِهَا» ، المصدر
 الوحيد الذي سجل أحداث الفتح العربي الإسلامي لمصر
 وكان عليه اعتماد كل الذين تناولوا هذا الموضوع (انظر المقدمة) .
^٣ ابن عبد الحكم : فُتُوحِ مِصْرٍ وَأَخْبَارِهَا ٧-٨ ابن
 إبّاس : بدائع الزهور ١/٩-١٠ .

وعاشَ سامٌ مُبَارَكًا إِلَى أَنْ مَاتَ ؛ وعاشَ ابنه أَرْفَحُشِيدُ بنَ سامٍ مُبَارَكًا حَتَّى مَاتَ . وكانَ الْمَلِكُ الَّذِي يَهْبَهُ^(٨) اللهَ وَالْجَبُّوتَ وَالْبَرَكَةَ فِي وَلَدِ أَرْفَحُشِيدِ بنِ سامٍ .

وكانَ أَكْبَرُ وَلَدِ حامٍ / كَنْعَانُ بنِ حامٍ - وهو الَّذي حَبِلَ بِهِ فِي الرِّجْزِ فِي الْقُلُوكِ - فَدَعَا عَلَيْهِ نُوحٌ فَخَرَجَ أَشُودُ ، وكانَ فِي وَلَدِهِ الْحَفَاءُ وَالْمَلِكُ وَالْحَبِيزُوتُ ، وهو أَبُو السُّودَانِ وَالْحَبَشِ كُلِّهِمْ .
وابنه الثَّانِي كُوشُ بنِ حامٍ ، وهو أَبُو السُّنْدِ وَالْهِنْدِ . وابنه الثَّالِثُ قُوطُ بنِ حامٍ ، وهو أَبُو الْبَرْبَرِ ،
وابنه الْأَصْغَرُ الرَّابِعُ يَصْصَرُ بنِ حامٍ ، وهو أَبُو الْقَبْطِ كُلِّهِمْ^(٩) .

فَوَلَدَ يَصْصَرُ بنِ حامٍ أَرْبَعَةَ : مِصْرَ بنِ يَصْصَرٍ وهو أَكْبَرُهُمْ وَالَّذِي دَعَا لَهُ نُوحٌ بِمَا دَعَا لَهُ ، وَفَارِقَ ابْنَ يَصْصَرِ ، وَمَاحَ بنِ يَصْصَرِ [وَيَاحَ بنِ يَصْصَرِ]^(١٠) . وَقَبِيلُ وَلَدِ مِصْرَ أَرْبَعَةٌ : قِبْطُ بنِ مِصْرَ ، وَأَشْمُنُ بنِ مِصْرَ ، وَأَثْرِبُ بنِ مِصْرَ ، وَصَا بنِ مِصْرَ^(١١) .

وَعَنْ ابْنِ لَهْيَعَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ خَالِدٍ : أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ مِصْرَ يَصْصَرُ بنِ حامٍ بنِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
بَعْدَ أَنْ أَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمَهُ ، وَأَوَّلُ مَدِينَةٍ عُمِّرَتْ بِمِصْرَ مَنَفُ : فَسَكَنَتْهَا يَصْصَرُ بَوْلَدِهِ وَهُمْ ثَلَاثُونَ
نَفْسًا ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ أَوْلَادٍ لَهُ قَدْ بَلَغُوا وَتَزَوَّجُوا ، وَهُمْ مِصْرُ وَفَارِقُ وَيَاحُ وَمَاحُ - وَكَانَ مِصْرُ أَكْبَرَهُمْ
- فَبَنَوْا مِصْرَ ، وَكَانَ إِقَامَتُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ ، وَتَقَرَّوْا هُنَاكَ تَنَازُلَ كَثِيرَةٍ^(١٢) .

وكانَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ دَعَا لِمِصْرَ أَنْ يُسَكِنَهُ اللَّهُ الْأَرْضَ الطَّيِّبَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ
وَعُثُوثُ الْعِبَادِ ، وَتَهْرَبُهَا أَفْضَلُ الْأَنْهَارِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ فِيهَا أَفْضَلَ الْبَرَكَاتِ ، وَيُسَخِّرُ لَهُ الْأَرْضَ وَلَوْلَدِهِ
وَلِذَلِكَ لَهُمْ وَيُقَوِّمُهُمْ عَلَيْهَا ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَوَصَفَهَا لَهُ وَأَخْبَرَهُ بِهَا .

قَالُوا : وَكَانَ مِصْرُ بنِ يَصْصَرِ مَعَ نُوحٍ فِي الشَّفِيعَةِ لَمَّا دَعَا لَهُ ، وَكَانَ يَصْصَرُ بنِ حامٍ قَدْ كَثُرَ
وَضُغُفَ ، فَسَاقَ وَلَدَهُ مِصْرَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَتَزَلَّوْهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ^(١٣) .

فَلَمَّا قَرَأَ قَرَارُ يَصْصَرِ وَبَنِيهِ بِمِصْرَ ، قَالَ لِمِصْرَ إِخْوَتَهُ فَارِقُ وَمَاحُ وَيَاحُ بَنُو يَصْصَرِ : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ
أَكْبَرُنَا وَأَفْضَلُنَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي أَشْكَنُكَ لِإِثَابَا جَلَّتْكَ نُوحٌ ، وَنَحْنُ نُصَيِّقُ عَلَيْكَ أَرْضَكَ -

(٨) بولاق : يحيه . (ب) زيادة من ابن عبد الحكم . (ج) في الفضائل الباهرة : نبط .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨ . يلي ٣٦٤ .

^٢ نفسه ٨ .

^٤ نفسه ٩٩ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٦ .

^٣ نفسه ٩٩ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣١٣ وفيما

وذلك حين كثر ولده وأولادهم - ونحن نطلب إليك البركة التي جعلها فيك جدنا نوح أن تبارك لنا في أرض تلحق بها ونسكنها وتكون لنا وأولادنا .

فقال : نعم ، عليكم بأقرب البلاد إلي ولا تباعدوا بي ، فإن لي في بلاد مسيرة شهر من أربعة وبنحوه أحوزها لنفسي ، فكون لي ولولدي وأولادهم .

فحاز مصر بن يتصر لنفسه ما بين الشجرتين التي بالعريش إلى أشوان طولاً ، ومن بركة إلى أيلة عرضاً . وحاز فاروق لنفسه ما بين بركة إلى إفريقية ، وكان ولده الأفارقة ، ولذلك سُميت إفريقية ، وذلك مسيرة شهر . وحاز مالح ما بين الشجرتين من مثنى حد مصر إلى الجزيرة مسيرة شهر ، وهو أبو قبط الشام . وحاز ياح ما وراء الجزيرة كلها ما بين البحر إلى الشرق مسيرة شهر ، وهو أبو قبط العراق . ثم توفي يتصر بن حام ، وذفين في موضع دير أبي هزيميس غربي الأهرام ، فهي أول مقبرة قبر فيها بأرض مصر ^١ .

وكثر أولاد مصر ، وكان الأكابر منهم قبط وأثريب وأشنن وصا ، والقبط من ولد مصر هذا ويُقال إن قبطاً أخو قبط ، وهو بلسانهم ققطيم وقبطيم وميضرام ^٢ .

قال : ثم إن يتصر بن حام توفي ، واشتخلف ابنه مصر ، وحاز كل واحد من إخوة مصر قطعة من الأرض لنفسه سوى أرض مصر التي حازها لنفسه ولولده . فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم ، قطع مصر لكل واحد من ولده قطعة يحوزها لنفسه ولولده ، وقسم لهم هذا النيل . فقطع لابنه قبط موضع قبط فسكنها ، وبه سُميت قبط قبطاً ، وما فوقها إلى أشوان وما دونها إلى أشمون في الشرق والغرب . وقطع لأشنن من أشمون فما دونها إلى منف في الشرق والغرب ، فسكن أشنن أشمون فسُميت به . وقطع لأثريب ما بين منف إلى صا ، فسكن أثريب فسُميت به . وقطع لصا ما بين صا إلى البحر ، فسكن صا فسُميت به . فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء : مجزئين بالصعيد ، ومجزئين بأشقل الأرض ^٣ .

قال البكري ^٤ : ومصر مؤنثة . قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ ، وقال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ . وقال عامر بن وإثلة الكناني لمعاوية : أما عمرو بن العاص فأنطقته مصر . وأما قوله سبحانه :

^١ ابن عبد الحكم : فروع ٩٩ ، وفيها يلى ٣٦٨ . ودير أبي هزيميس هو الموضع المعروف الآن باسم شقارة حيث يوجد الهرم المنزج المعروف بهرم زوسر (فيها يلى ٣١٧) .

^٢ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٧ .
^٣ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري وأكبر جغرافي أهرجته الأندلس قاطبة ، وكانت اهتماماته الجغرافية =

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فَإِنَّهُ أَرَادَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ . وَقَرَأَ سَلِيمَانُ الْأَعْمَشُ : (اهْبِطُوا مِصْرَ) . وَقَالَ : هِيَ مِصْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَلَمْ يُجَرِّهَا^١ .

وَقَالَ الْقُضَائِيُّ : وَكَانَ يَنْصَرُّ بِنِ حَامٍ قَدْ كَثُرَ وَضَعُفٌ ، فَسَاقَهُ وَلَدَهُ مِصْرَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَتَزَلُّوْهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ . وَهُوَ اسْمٌ لَا يَنْصَرَفُ فِي الْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ اسْمٌ مُذَكَّرٌ ، سُمِّيَتْ بِهِ هَذِهِ الْمَدِينَةُ ، فَاجْتَمَعَ فِيهَا التَّأْنِيثُ وَالتَّغْرِيفُ فَمَنْعَاهَا الضَّرْفُ ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ يَطَّرِقُهَا الشُّقَّارُ مِصْرٌ ، فَإِذَا أُريدَ مِصْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ ضَرِيفٌ لِزَوَالِ إِحْدَى الْعِلَتَيْنِ وَهِيَ التَّغْرِيفُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ﴾ [الْآيَةُ ٦١ سُوْرَةُ الْبَقَرَةِ] . فَإِنَّهُ مَضْرُوفٌ فِي قِرَاءَةِ سَائِرِ الْقُرْآنِ ، وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ وَالْأَعْمَشِ غَيْرَ مَضْرُوفٍ . فَمَنْ ضَرَّفَهَا فَلَهُ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ اهْبِطُوا مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمَعِدَةٍ فِي النَّبِيِّ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ أَرَادَ مِصْرَ هَذِهِ بَعْدَهَا ، وَضَرَّفَهَا لِأَنَّهُ يَجْعَلُ مِصْرًا اسْمًا لِلْبَلَدِ ، وَهُوَ اسْمٌ مُذَكَّرٌ سُمِّيَ بِهِ مُذَكَّرٌ فَلَمْ يَتَنَعَّ الضَّرْفُ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَضَرِّفْهُ فَإِنَّهُ أَرَادَ يَمُصِّرُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿وَاذْكُلُوا مِصْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [الْآيَةُ ١٠٠ سُوْرَةُ يُوسُفَ] ، وَقَوْلُ فِرْعَوْنَ : ﴿يَا أَيُّهَا لِي مِثْلُكَ مِصْرَ﴾ [الْآيَةُ ٥١ سُوْرَةُ الزُّمَرِ] إِمَّا يُرَادُ بِهِ مِصْرُ هَذِهِ^٢ .

فَأَمَّا الْمِصْرُ فِي كَلَامِ الْقُرْآنِ فَهُوَ الْحَدُّ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ . وَيُقَالُ إِنَّ أَهْلَ هَجَرَ يَقُولُونَ : اسْتَرَيْتُ الدَّارَ بِمِصْرُهَا ، أَيْ بِمُحْدُودِهَا^٣ . وَقَالَ الْجَاهِظُ/ فِي كِتَابِ «مَذْحِ مِصْرَ»^٤ : إِمَّا سُمِّيَتْ مِصْرَ بِمِصْرَ لِمِصْرِهَا^(a)

(a) ساقطة من الأصل .

١٦: ٢٩٠-٢٩٢ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٩٦-٣٠٢ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ١٠٨-١١٤٨ عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، الكويت ١٩٩٦ ، Lévi-Prevençal, E., *El² art. Abu^c Ubayd* ، ١٩٩٦ ، *al-Bakrī* I, pp. 159-61 .

^١ البكري : معجم ما استعجم ١٤٠٦ .

^٢ القلقشندي : صبح الأهرى ٣: ٢٧٩ .

^٣ ابن قتيبة : غريب الحديث ١: ٤٧٧ وفيما يلي ٥٩ .

^٤ لم أقف في تراجم الجاهظ على كتاب «مذح مصر» .

= تلخص إلى حد كبير لموله الأدبية واللغوية ، وتوفي بقرطبة بالأندلس سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . وضع البكري مصنفين في الجغرافيا أحدهما وهو «معجم ما استعجم» يمثل نمط الكتب الجغرافية التي وضعها اللغويون ، واعتمد عليه المقرئ كثيرا في ضبط أسماء المواضع المصرية ، فتماما مثلما اعتمد على لغوي أندلسي آخر هو ابن سيده لنفس الغرض . أما الكتاب الثاني وهو «المسالك والممالك» الذي أتم تأليفه سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م ونحا فيه منحى كتب المسالك والممالك المشرقية في وصف الطرق والمراحل مع بيان بلدان العالم الإسلامي المختلفة ، فلم يعتمد عليه للمقرئ كثيرا (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩: ٣٥-٣٦ الصفدي : الوافي بالوفيات

الناس إليها واجتماعهم بها ، كما سُمِّيَ مَصِيرُ الْخَوْفِ مَصِيرًا وَمُضْرَانًا لِمَصِيرِ الطَّعَامِ إِلَيْهِ^١.

قَالَ : وَجَمَعَ الْمِضْرَ مِنَ الْبُلْدَانِ أَفْصَارًا ، وَجَمَعَ مَصِيرَ الطَّعَامِ مُضْرَانًا ، وَلَيْسَ لِمِضْرٍ هَذِهِ جَمْعٌ لِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ .

قَالَ : وَقَالَ الْأَخْطَلُ : هَمَمْتُ بِالْإِسْلَامِ ثُمَّ تَوَقَّضْتُ عَنْهُ ، قِيلَ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَتَيْتُ امْرَأَةً لِي وَأَنَا جَائِعٌ فَقُلْتُ : أَطْعِمْنِي شَيْئًا ، فَقَالَتْ : يَا جَارِيَّةُ ، ضَعِي لَأَبِي مَا لَيْكَ مَصِيرًا فِي النَّارِ ، فَقُلْتُ : فَاسْتَعْجَلْتُهَا بِالطَّعَامِ فَقَالَتْ : يَا جَارِيَّةُ ، أَيْنَ مَصِيرِ أَبِي مَا لَيْكَ ؟ قَالَتْ : فِي النَّارِ . قَالَ : فَتَطَوَّيْتُ ، وَهَمَمْتُ بِأَنْ أُسْلِمَ فَتَوَقَّضْتُ .

وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِ «الصُّحُوحِ» : مِضْرٌ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ ، عَنْ ابْنِ السَّوَّاجِ : وَالْمِضْرَانُ : الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ^٢.

وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ «لَيْسَ»^٣ : لَيْسَ أَحَدٌ فَسَّرَ لَنَا لِمَ سُمِّيَتْ مِصْرٌ مَقْدُونِيَّةً قَدِيمًا إِلَّا فِي اللِّسَانِ الْعِزْرَانِيِّ ، قَالَ : مَقْدُونِيَّةٌ مَغِيثٌ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ مِصْرَ لِمَا سَكَنَهَا يَمِصُّ ابْنُ حَامٍ .

وَتَزَعُمُ الْيَوْمَ أَنَّ بِلَادَ مَقْدُونِيَّةٍ جَمِيعًا وَقَفَتْ عَلَى الْكَنِيسَةِ الْعَظْمَى الَّتِي بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَيُسَمُّونَ بِلَادَ مَقْدُونِيَّةِ الْأَرْمِينِيَّةِ ، وَهِيَ عِنْدَهُمُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهَا ، وَهِيَ مِصْرُ كُلِّهَا بِأَسْرَافِهَا إِلَّا الصَّعِيدَ الْأَعْلَى .

وَيُقَالُ لِمِصْرَ : أَمْ خَنْزُورٌ ، وَتَفْسِيرُهُ التُّغْمَةُ . وَالْمِضْرُ : الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ اللَّهَ تَعَالَى :

[البسيط]

وَجَعَلَ^٤ الشَّمْسُ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَّلَا

(٤) بولاق : جاعل .

^١ القلشندي : صبح الأعشى ٣/ ١٣١٤ ابن ظهيرة : العرب ٧ : ٢٤٤ الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٥٤٣ .
^٢ لا يوجد هذا النص في القسم الذي وصل إلينا من الفضائل الباهرة ٧ .
^٣ الجوهرى : الصحاح ٢ : ٨١٧ ابن منظور : لسان كتاب «ليس» في كلام العرب لابن خالويه .

هذا البيتُ قائلُهُ عِدِيُّ بن زَيْدِ العِبَادِي^١، وَيُزَوَّى لِأُمَيَّةَ بن أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِي^٢، وهو من أبيات أولها :

[البسيط]

- اشمَعُ نَحْدِيثًا كَمَا يَوْمًا تَحْدُثُهُ ٥
كَيْفَ بَدَا لِمَ رَبَّنَا اللهُ يَغْمِثُهُ
كَانَتْ رِيحٌ وَسَيْلٌ ذُو كِرَانِيَةٍ ١٠
فَأَمَرُ الظُّلُمَةِ السُّودَاءِ فَانْكَشَفَتْ
وَبَسَطَ الْأَرْضَ بَسْطًا ثُمَّ قَدَّرَهَا
وَجَاعِلُ الشَّمْسِ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ ١٥
وَفِي السَّمَاءِ مَصَابِيخُ تُضِيءُ لَنَا
قَضَى، لِسِتَّةِ أَيَّامٍ، خَلِيقَتَهُ
فَأَخَذَ اللهُ مِنْ طِينٍ فَصَوَّرَهُ
دَعَاءَ آدَمَ صَوْنًا فَاسْتَجَابَ لَهُ
ثُمَّ أَوْرَثَهُ الْفِرْدَوْسَ يَشْكُتُهَا ٢٠
لَمْ يَنْتَهَ رَبُّهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدَةٍ
وَكَانَتْ الْحَيَّةُ الرَّقْشَاءُ إِذْ خُلِقَتْ
فَلَامَهَا اللهُ إِذْ أَطْفَأَتْ خَلِيقَتَهُ
تَمِشِّي عَلَى بَطْنِهَا فِي الْأَرْضِ مَا عَمُرَتْ
وقال الحافظ أبو الخطاب مجيد الدين عثر بن دحية^٣ : ومِصْرٌ أَخَصَصَ بِلَادَ اللهِ، وَسَمَّاهَا اللهُ
مِصْرَ، وَهِيَ هَذِهِ دُونَ غَيْرِهَا بِاجْتِمَاعِ الْقُرَاءِ عَلَى تَرْكِ صَرْفِهَا. وَهِيَ اسْمٌ لَا يَنْتَصِرِفُ فِي مَعْرِفَةٍ

الثَّقَفِي : أشهر شعراء ثقف ، طمع في النبوة ، وتوفي بعد فتح
مِصْرَ (أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ١٢٠٠ : ٤ - ١١٣٣ ابن
سلام : طبقات فحول الشعراء ٢٦٢ - ٢٦٨ الصنفدي :
الوافي بالوفيات ٣٩٥ : ٩ - ٤٠٠).

^٣ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد ينتهي
نسبه إلى دحية الكلبي الصحابي المعروف بشبه جبريل عليه
السلام ، الأندلسي البلنسي الداني ، من أعيان العلماء متقنا
لعلم الحديث وشيخ بطلبه في أكثر بلاد الأندلس . ثم =

^١ عِدِيُّ بن زَيْدِ العِبَادِي السَّجَمِي ، شاعر جاهلي نصراني
من فحول الشعراء ، لا يعرف تاريخ وفاته ، قيل إنه توفي قبل
الإسلام وقيل إنه توفي في زمن الخلفاء الراشدين (ابن سلام :
طبقات فحول الشعراء ١٤٠ - ١٤٢ ابن قتيبة : الشعر
والشعراء ٢٢٥ : ١ - ٢٣٣ أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني
٩٧/٢ - ١٥٤ الذمعي : سير أعلام النبلاء ١١٠ : ٥ -
١١١ الصنفدي : الوافي بالوفيات ١٩ : ٥٣٠ - ٥٣١).

^٢ أُمَيَّةُ بن أَبِي الصَّلْتِ عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف

لأنه اسمٌ مُذَكَّرٌ شَمَّيتٌ به هذه المَدِينَةُ، واجتمع فيه التَّأْنِيثُ والتَّعْرِيفُ فَمَنْعَاهُ الصَّرْفُ . وهي عندنا مُشْتَقَّةٌ من : مَضَرَتِ الشَّاةُ إِذَا أَخَذَتْ مِنْ صَرْعِهَا اللَّبَنَ ، فَشَمَّيتُ بِضَرٍّ لِكثرة ما فيها من الخَيْرِ ممَّا ليس في غيرها ، فلا يَخْلُو ساكنُها من خَيْرٍ يُدْرِكُ عليه منها كالشَّاةِ التي يُتَنَفَّعُ بِلَبَنِها وَصُوفِها وولادَتِها^١ .

وقال ابنُ الأَعرابي^٢ : المِضْرُ الوُعَاءُ ، ويُقالُ لِلْمِصْرِ : المَصِيرُ ، وجمعه مِضْرَانٌ وَمِصَارِينُ .

وكذلك هي خَزَائِنُ الأَرْضِ ، قال أبو بَصْرَةَ الْيَفَارِيُّ من أَصْحَابِ رِشُولِ اللَّهِ ﷺ : مِضْرُ خَزَائِنِ الأَرْضِ كُلِّها ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ يُوسُفَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿اجْعَلْ لِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [آيَة ٥٥ سورة يوسف] . فَأَغَاثُ اللَّهِ بِمِصْرَ يَوْمَئِذٍ وَخَزَائِنُها كُلُّ حَاضِرٍ وَبَادٍ ؛ ذَكَرَهُ عَنْ^٣ الْحَوْفِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ .

وقال الْبَكْرِيُّ : أُمُّ خَنْزُورٍ - بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ ثَانِيهِ وَبِالرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ - اسمٌ لِمِصْرٍ ؛ وقال أَوْطَاءُ بنُ شُهَيْبَةَ :

[البيط]

يَا آلَ دُثَيَّانَ ذُودُوا عَنْ دِمَائِكُمُ وَلَا تَكُونُوا لِقَوْمٍ أُمُّ خَنْزُورٍ
يقول : لَا تَكُونُوا أَذِلَّةً ، يَنَالِكُمُ مِنْ أَرَادَ ، وَيَأْخُذُ مِنْكُمُ مِنْ أَحَبَّ ، كَمَا تُنْتَارُ بِمِصْرٍ وَهِيَ أُمُّ خَنْزُورٍ .

(a) ساقطة من بولاق .

النبله ٣٨٩:٢٢-٣٩٥؛ تذكرة الحفاظ ٤: ١٤٢٠-
١٤٢٢؛ المقرئ: نفع الطيب ٢: ٩٩-١٠٤، مقدمة
عباس العزاوي لكتاب التبراس ومقدمة إبراهيم الإبراري
لكتاب المطرب؛ *de la Granja, F., El² art. Ibn*
(Dihya, III, p. 770) .

^١ قارن ابن عباس: بدائع الزهور ١/١: ٩؛ الزبيدي: تلج
العروس ٣: ٥٤٣ .

^٢ محمد بن زياد الأعرابي من أئمة علم اللغة توفي سنة
٢٣١هـ/٨٤٦م (راجع ابن النديم: الفهرست ٧٥-١٧٦؛
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥: ٢٨٧-٢٨٥؛ القفطي:
إنباه الرواة ٣: ١٢٨-١٣٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات
٧٩: ٨٠-١٢٧؛ *Sezgin, F., GAS VII, pp. 127-129* .

= رحل منها إلى يَزِيدَ الْقُدْوَةَ ودخل فُرَاكُشَ وارتمل منها إلى
إفريقية ومنها إلى الديار المصرية ثم إلى الشام والشرق
والعراق ، كما دخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها
ومازندران ، كل ذلك في طلب الحديث . وفي زيارته الثانية
لمصر ولَّاهُ السلطان الكامل محمد رئاسة دار الحديث الكاملة
التي أنشأها سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٧م - وهي ثاني مدرسة
عملت للحديث - (انظر فيما يلي ٣٧٥:٢) وظل بمصر إلى
أن توفي بها سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عن سبع وثمانين سنة
ودفن في سفح المقطم . من مؤلفاته: التبراس في تاريخ خلفاء
بني العباس ، والمطرب من أشعار أهل المغرب (راجع ، ابن
خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٤٨-٤٥٠ ؛ أباشامة ، تراجم
رجال القرنين السادس والسابع ١٦٣ ؛ الذهبي : سير أعلام

وقال كراع^١ : أم خثور الثعنة ، ولذلك سُميت مِضرُ أم خثور لكثرة خيرها .
وقال علي بن حفزة^٢ : سُميت أم خثور ، لأنها يساق إليها / القصار الأعمار . ويقال للصنيع :
خثور وخثوز ، بالراء والزاوي^٣ .

وقال ابن قتيبة في «غريب الحديث» : ومصر الحد ، وأهل هجر يكتشون في شروطهم : اشتري
فلان الدار بمصورها كلها ، أي بمحدودها ، وقال غدي بن زيد^٤ :

[البيط]

وجعل^٥ الشمس مِضرًا لا خفاء به بين الثمار وبين الليل قد فصلا
أي : حدًا^٦ .

ذكر طرف من فضائل مضر

- ١٠ ولمصر فضائل كثيرة ، منها أن الله - عز وجل - ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة ، تارة
بضمير الذكور وتارة إيماء ؛ قال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ ﴾ [آية ٦١ سورة البقرة] . قال
أبو محمد عبد الحق بن عطية في «تفسيره للقرآن»^٧ : ومجدهور الناس يقرأون مِضرًا بالتونين ، وهو
خط المصاحف ، إلا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان بن عفان^٨ رضي الله عنه .
وقال مجاهد وغيره : من صرقها أراد مِضرًا من الأمتصار غير مُعين ، واستدلوا بما اقتضاه القرآن
من أمرهم بدخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سَكَنُوا الشَّامَ بعد التَّيَّة .
١٥ وقالت طائفة من صرقها : أراد مصر فزعون بعينها ، واستدلوا بما في القرآن أن الله تعالى أَوْرَثَ
بني إسرائيل ديارَ فِرْعَوْنَ وآثاره ، وأجازوا صرقها . قال الأخفش : لحفيتها وشَبَّهها بهند ودعد .
وسببونه لا يُجيز هذا . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرِف .

(٥) يولاق : وجاعل . (٦) ساقطة من يولاق .

^١ وفيما يلي ٢٤:١ ، وانظر كذلك المسمودي : مروج الذهب

٢٤:٢-٦٨ ، ابن الكندي : فضائل مصر المهروسة ٥-١١١

ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ٣-١٥
القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٧٩ ، أبا الحسن :

النجوم الزاهرة ١: ٢٧-٢٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة

١: ٥-٩ .

^١ أي علي بن حمزة الكسائي .

^٢ البكري : معجم ما استعجم ٥١٤ .

^٣ ديوان هدي بن زيد ، نشره محمد جبار المعيد ، بغداد
١٩٦٥ ، ١٥٩ .

^٤ ابن خثبة : غريب الحديث ١: ٤٧٧ ، وفيما تقدم ٥٦ .

^٥ ابن لهاس : بدائع الزهور ١: ٤٠١ نقلًا عن ابن زولاق ،

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وغيرهما : ﴿اٰمِطُوا مِصْرَ﴾ ، بترك الصُرف ، وكذلك هي في مُصحف
أُتِي بن كعب ، وقال : هي مِصْر فِرْعَوْن ؛ قال الأعشى : هي مِصْر التي عليها صالح بن علي^١ .

وقال أشهب : قال لي مالك : هي عندي مِصْر قريتك مسكن فِرْعَوْن ؛ قال تعالى : ﴿اَدْخُلُوا
مِصْرَ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ اٰمِيْن﴾ [الآة ٩٩ سورة يوسف] .

٥ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «تفسيره» ، عن فرقد السبخي^٢ ، قال : خرج يوسف
- عليه السلام - يلقى يعقوب - عليه السلام - وزكبت أهل مصر مع يوسف وكانوا يُعْطَمُونَهُ ؛
فلما دنا أحدهما من صاحبه ، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا ؛
فَنَظَرَ يعقوب إلى الخيل وإلى الناس فقال : يا يهوذا ، هذا فِرْعَوْنُ مصر ؟ قال : لا ، هذا ابنك ا
فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب - عليه السلام - : السلام عليك يا ذاهب
الأخزان عني ؛ هكذا قال : يا ذاهب الأخزان عني^٣ . ١٠

وقال تعالى : ﴿وَاَوْحَيْنَا اِلٰى مُوسٰى وَاَخِيهِ اَنْ تَبَوَّعَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ﴾ [الآة ٨٧ سورة يوسف] . قال الطبري عن ابن عباس وغيره : كانت بنو إسرائيل
تخاف فِرْعَوْنَ ، فَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ مَسَاجِدَ يُصَلُّونَ فِيهَا . قال قتادة : وذلك حين منعهم
فِرْعَوْنُ الصلاة ، فَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا مَسَاجِدَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ ، وَأَنْ يُؤَجِّهُوا نَحْوَ الْقِبْلَةِ .
وعن مجاهد : (بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) ، قال : نحو الكعبة حين خاف موسى ومن معه من فِرْعَوْنَ أَنْ
يُصَلُّوا فِي الْكَنَائِسِ الجامعة ، فَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا فِي بُيُوتِهِمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الْكَعْبَةِ ، يُصَلُّونَ فِيهَا
سيرا^٤ . ١٥

وعن مجاهد في قوله : ﴿اَنْ تَبَوَّعَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ قال : مِصْر الإسكندرية .
وقال تعالى مُخْبِرًا عن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ قَالَ : ﴿اَلَيْسَ لِيْ مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِيْ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآة ٥١ سورة الزمر] . ٢٠

(٥) بولاق : الشيعي .

^٣ ابن الكندي : فضائل مصر ٧ .

^١ انظر فيما تقدم ٥٥ .

^٤ الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨١ - ٢٨٢ .

^٢ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن (نشرة محمود

قال ابنُ عبدِ الحكم، وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس^١ وغيرهما، عن أبي رَهم الشماحي، أَنَّهُ قال في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَمَلِكُ الْأَنْهَارِ يُجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ قال: ولم يكن يومئذٍ في الأرض مُلْكٌ أَكْظَمُ من مُلْكِ مصر، وكان جميعُ أَهْلِ الْأَرْضِينَ يَخْتاجُونَ إلى مِصر. وأما الْأَنْهَارُ فكانت قَنَاظِرَ وَجُسُورًا بِتَقْدِيرٍ وَتَذِيرٍ، حتى إن الماءَ يَجْرِي من تحت منازلها وَأَقْنِينِها فيُخَبِّسُونَهُ كيف شاءُوا^٢.

فهذا ما ذَكَرَهُ اللهُ سبحانه في مصر من آيِ الْكِتَابِ الْغَرِيزِ بِصَرِيحِ الذِّكْرِ.
وَأَمَّا ما وَقَّعت إِلَيْها الإِشارةُ فيه من الآياتِ فَعِدَّةٌ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَافِيلَ مِثْرًا صِدْقٍ﴾ [الْأَبَةِ ٩٣ سورة يونس]؛ وقال تعالى: ﴿وَأَوْثَقْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَتَعِينٍ﴾ [الْأَبَةِ ٥٠ سورة المؤمنون]، قال ابنُ عَبَّاسٍ وسعيد بن المُسَيَّبِ وَوَهْب بن مُثَنَّبٍ: هي مِصر، وقال عبدُ الرَّحْمَنِ بن زَيْد بن أَسْلَمَ، عن أبيه: هي الإسْكَندَرِيَّةُ.
وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الْأَبَاتِ ٥٧، ٥٨ سورة النمر]؛ وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَافِثِينَ﴾ [الْأَبَاتِ ٢٥ - ٢٧ سورة الدخان]. قال ابنُ يُونُسَ: وفي قَوْلِ اللهِ سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال أبو رَهم: كانت الْجَنَّاتُ بِحَافَتِي النَّيْلِ من أَوَّلِهِ إلى آخرِهِ من الجانبين، ما بين أَشْوانَ إلى رَشِيدَ، وَسَبْعَةُ خُلُجٍ: خَلِيجُ الإسْكَندَرِيَّةِ، وَخَلِيجُ سَعَا، وَخَلِيجُ دِيصِاطَ، وَخَلِيجُ سَرْدُوسَ، وَخَلِيجُ مَنَفَ، وَخَلِيجُ الْفَيُومِ وَخَلِيجُ الْمَنْهَى [جَنَّاتٍ]^٣ مُتَّصِلَةٌ لَا يَنْقَطِعُ مِنْهَا شَيْءٌ عن شَيْءٍ، وَزُرُوعُ ما بين الْجَبَلَيْنِ كُلَّهُ من أَوَّلِ مِصرَ إلى آخرِها بما

(٣) زيادة من ابن عبد الحكم.

^١ كتاب الغرائب وهو صغير يشتمل على ذكر الغرائب الواردة عليها. ويثير ابن حجر العسقلاني بين الكتابين وذكر أنه إذا قيل «تاريخ ابن يونس» فالقصد «تاريخ مصر». (انظر المقدمة).

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٦ ابن الزيات: الكواكب السيارة ١٦ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٥: ٦-٦.

^١ أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الطَّنَافِي المَروُوفِي سنة ٩٣٤٧/٩٥٨م محدث حافظ ثبت، قال الصَّفْدِي: «كان إمامًا في فن التاريخ، روى عن ابن ثَنَلَه وأبي محمد بن النخاس وعبد الواحد بن محمد البلخي وجماعة من الرحالة والمغاربة، وله كلام في الجرح والتعديل يدل على بصره بالرجال ومعرفة بالعلل» (الصَّفْدِي الوافي بالوفيات ١٨: ١٠٨-١٠٩). أُلِّفَ في تاريخ مصر كتابين أحدهما «تاريخ مصر» وهو الأكبر يختص بالمصريين؛ والآخر

يبلغه الماء. وكان جميع أرض مصر كلها تُروى يومئذٍ من ستة عشر ذراعاً، لما قد ذُبروا من قناطرِها ومجسورها^١. قال : والمقام الكريم : المنابر. كان بها ألف منبر.

وقال مُجاهد وسعيد بن جبّير : المقام الكريم : المتابر. وقال قتادة : (ومقام كريم) ، أي حسن. (ورغمة كانوا فيها فاكهين) / ، ناصمين ؛ قال : أي والله أخرجهم الله من بجائته وعيوبه وزروعه حتى ورطه في البحر.

وقال سعيد بن كثير بن عُفَيْر : كُنَّا بِقِيَةِ الْهَوَاءِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ لَمَّا قَدِمَ مِصْرَ ، فَقَالَ لَنَا : مَا أَذْرِي مَا أَعْجَبَ فِرْعَوْنَ مِنْ مِصْرَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿أَتَيْسَ لِي مِثْلُكَ مِصْرُ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] ؟ فقلت : أَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : قُلْ يَا سَعِيدَ ، فَقُلْتُ : إِنَّ الَّذِي تَرَى بَقِيَّةَ مُدَمَّرٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿وَذَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَصْرُسُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف] ؛ قَالَ : صَدَقْتُ ، ثُمَّ أَتَشَكُّ^٢.

وقال تعالى : ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۚ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [الآيات ٥٥ ، ٦٠ سورة القصص].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَلَمِيرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٢٩ سورة طه].

وقال تعالى : ﴿وَوَيْتَ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَذَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَصْرُسُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف].

وقال تعالى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ﴿أَتَلَذُّ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٢٧ سورة الأعراف] ، يعني أرض مصر.

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] ؛ رَوَى ابْنُ يُوْنُسَ عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : مِصْرَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، وَشُلْطَانُهَا سُلْطَانُ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْمَلِكِ مِصْرَ : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] ،

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦ ، نفسه ٩٦ السيوطي : ١ : ٣٥٤ - ٣٥٥ ابن الزيات : الكواكب السيارة ٩٦ حسن المحاضرة ١ : ١٩٠.

^٢ ابن زولاقي : فضائل مصر ٥٤ ، النويري : نهاية الأرب الفضائل الباهرة ١١١.

فَفَعَلَ ، فَأُغِيثَ بِمِصْرَ وَخَزَائِنُهَا يَوْمَئِذٍ كُلُّ حَاضِرٍ وَبَادٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ^١ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [الأنعام ٥٦ سورة يوسف] ، فَكَانَ لِيُوسُفَ بِسُلْطَانِهِ بِمِصْرَ جَمِيعِ سُلْطَانِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَإِلَى مَا تَحْتَ يَدَيْهِ .

- وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الأنعام ٨٨ سورة يوسف] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَتَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام ١٢٩ سورة الأعراف] .

- ١٠ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [الأنعام ٢٦ سورة غافر] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام ٤ سورة القصص] يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .
وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَعْضِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قُلْنَا أَتَبْرَحُ الْأَرْضُ ﴾ [الأنعام ٨٠ سورة يوسف] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

- ١٥ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام ١٩ سورة القصص] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمَّيْتُ مِصْرَ بِالْأَرْضِ كُلِّهَا فِي عَشْرَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ .
فَهَذَا مَا يُخَضِّرُنِي مِمَّا ذُكِرَتْ فِيهِ مِصْرُ مِنْ آيِ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ .
وَقَدْ جَاءَ فِي فَصْلِ مِصْرَ أَحَادِيثُ :

- ٢٠ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهْيَعَةَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بَقْدِي مِصْرَ فَأَتَّخِذُوا فِيهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ الْجُنْدُ خَيْرُ أَجْنَادِ الْأَرْضِ » ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : وَلَيْمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لِأَنَّهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^٢ .

^١ انظر فيما تقدم ٥٨ . الزيات : الكواكب السيارة ٤٦ : القلقشندي : صبح الأعشى

^٢ انظر كذلك ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١١٤١ : ابن ٢٧٩ : أبا الحسن : النجوم الزاهرة ١ : ٢٩ : السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٤٠ - ٤١٥ : ابن إياس : بدائع الزهور = الكندي : فضائل مصر ١١١ : ابن زولاقي : فضائل مصر ١٦ : ابن

وعن عمرو بن الحقيق أن رسول الله ﷺ قال : «تكون فتنة أشد الناس فيها (أو خير الناس فيها) الجند الغربي» قال : «فلذلك قُدمت عليكم مصر» .

وعن ثيب بن عامر الكلاعي قال : أَقْبَلْتُ من الصائفة فلقيت أبا موسى الأشعري - رضي الله عنه - فقال لي : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل مصر ؛ قال : من الجند الغربي ؛ فقلت : نعم ؛ قال : الجند الضعيف ؛ قلت : أهو الضعيف ؟ قال : نعم ؛ قال : أمّا أنه ما كادهم أحدٌ إلّا كفاهم الله مؤنته ، اذهب إلى معاذ بن جبل حتى يُحدثك .

قال : فذهبتُ إلى معاذ بن جبل فقال لي : ما قال لك الشيخ ؟ فأخبرته ، فقال لي : وأيّ شيء تذهب به إلى بلادك أحسن من هذا الحديث في^(١) أسفل الواحك : فلما رجعتُ إلى معاذ أخبرني أن بذلك أخبره رسول الله ﷺ .

١٠ ورَوَى ابنُ وهبٍ من حديث صفوان بن عسال قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : «فتح الله بابًا للتوبة في الغرب غرضه سبعون عامًا ، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من نحره» .
ورَوَى ابنُ لهيعة من حديث عمرو بن العاص : حَدَّثَنِي عُمَرُ أمير المؤمنين - رضي الله عنه - أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : «إن الله - عز وجل - سيفتح عليكم بغدي مصر ، فاستَوْصُوا بِقَبْلِهَا خَيْرًا ، فإن لهم منكم صِهرًا وذمة»^٢ .

١٥ ورَوَى ابنُ وهبٍ قال : أَخْبَرَنِي حَزْمَلَةُ بن عِفْران التَّجِيبِي ، عن عبد الرحمن بن شماس المَهْرِي ، قال : سَمِعْتُ أبا ذَرٍّ - رضي الله عنه - يقول : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : «إنكم ستفتحون أرضًا يُدْكَرُ فيها القيراطُ ، فاستَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فإن لهم ذمةً ورجما ، فإذا رأيتم رجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ في موضع لَبَنَةٍ فَاخْرُجْ^(٣) منها» ؛ قال : فمَرُّ بَرِيعةَ وعبد الرحمن ابني شُرَيْبِيلِ يَتَنَازَعانِ في موضع لَبَنَةٍ ، فخرج منها . وفي رواية : « ستفتحون مصر ، وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراطُ ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمةً ورجما (أو قال : ذمةً وصِهرًا) ... » الحديث . ورَوَاهُ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ وَزَادَ « فاستَوْصُوا بِالْقَبْلِ خَيْرًا » .

(١) الأصل : أحسن من هذا كنت ، بولاق : الحديث أكتب في . (ب) بولاق : فاعبروا .

= ٧: ١/١ ، ولها ملي ٢: ٢٦٠ .^٢ ابن عبد الحكم : فتح مصر ١٣ ، السيوطي : حسن

^٣ قارن مع السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٦ ، ٢٢ . المحاضرة ١: ١٢ .

أَخْرَجَهُ مُشْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي الطَّاهِرِ عَنْ ابْنِ وَهْبٍ^١.

قال ابنُ شهاب^٢، وكان يُقالُ إِنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ. قال اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ : / قُلْتُ لابنِ شِهَابٍ : ما رَجِمَهُمْ ؟

قال : إِنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ بنِ إِبراهيمَ ، صلواتُ اللهِ عليهم ، منهم . وقال محمد بنُ إِسحاق : قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ : ما الرَّجْمُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ قال : كانت هاجِزُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ^٣.

ورَوَى ابنُ لَهيعةَ ، من حَدِيثِ أَبِي سَالِمٍ الجَيْشَانِي ، أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ سَمِيعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّكُمْ سَتَكُونُونَ أَجْنَادًا ، وَإِنْ خَيْرٌ أَجْنَادِكُمْ أَهْلُ الْقَرْبِ مِنْكُمْ ، فَاتَّقُوا اللهَ فِي الْقَبْطِ : لَا تَأْكُلُوهُمْ أَكْلَ الْخَضِرِ»^٤. وعن مُشْلِمٍ بنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : «اسْتَوْصُوا بِالْقَبْطِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَهُمْ يَغْمِ الْأَغْوَانَ عَلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ»^٥.

وعن يزيد بنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوْصَى عِنْدَ وَفَاتِهِ أَنْ تَخْرُجَ الْيَهُودُ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وقال : «اللهُ اللهُ فِي قَبْطِ مِصْرَ ؛ فَإِنَّكُمْ سَتَنْظَهُرُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَكُونُونَ لَكُمْ غَدَةً وَأَغْوَائًا فِي سَبِيلِ اللهِ»^٦.

ورَوَى ابنُ وَهْبٍ ، عن مُوسَى بنِ أَبِي الْيُؤُوبِ الْغَافِقِيِّ ، عن رَجُلٍ مِنَ الزُّبَيدَةِ^٧ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَضَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : «اسْتَوْصُوا بِالْأَدَمِ الْجُعْدِ» ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ الثَّانِيَةَ ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ الْقَوْمُ : لو سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَدَمِ الْجُعْدِ ؟ فَأَفَاقَ فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : «قَبْطُ مِصْرَ ، فَإِنَّهُمْ أَخْوَالُ وَأَصْهَارُ ، وَهُمْ أَغْوَائِكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ،

(٥) بولاق : الرند .

١ : مسلم : صحيح مسلم ، القاهرة - عيسى الحلبي . ٣٧٦:٥ - ٣٥٠.

٢ : ابن عبد الحكم : فروع مصر ٢-١٣ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٣ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١١.

٣ : نفسه ٣، ابن الكندي : فضائل مصر ١٠: ١١ ابن زولاق : فضائل مصر ١٧ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٢.

٤ : السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٣.

٥ : ابن عبد الحكم : فروع مصر ٣ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٢.

١ : مسلم : صحيح مسلم ، القاهرة - عيسى الحلبي . ١٩٧٠: ٤ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٣، ابن زولاق : فضائل مصر ١٦ القلقشندي : صحيح ٣: ٢٧٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٣ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١١٢ ابن لياس : بدائع الزهور ١/١: ٦.

٢ : أي ابن شهاب الزُّهْرِيُّ ، الحافظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الطوفاني سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م (الذهبي : تذكرة الحفاظ ١: ١٠٨-١١٣، سير أعلام النبلاء

وأَعْوَانُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ» : قالوا : كيف يكونون أَهْوَانًا عَلَى دِينِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : «يَكْفُونَكُمْ أَعْمَالَ الدُّنْيَا ، وَتَقَرَّغُونَ لِلْعِبَادَةِ : فَالزَّامِي بِمَا يُؤْتِي إِلَيْهِمْ كَالْفَاعِلِ بِهِمْ ، وَالكَارِهَ لِمَا يُؤْتِي إِلَيْهِمْ مِنَ الظُّلْمِ كَالْمُتَزَرِّهِ عَنْهُمْ»^١.

وعن عَفْرُو بْنِ خُرَيْثٍ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيلِيِّ^٢ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَجْعِدُونَ رُؤُوسَهُمْ ، فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ قُوَّةٌ لَكُمْ ، وَيَبْلَغُ إِلَى عَدُوِّكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ، يَعْنِي يَقْبِطُ مِصْرَ»^٣.

وعن ابنِ لَهَيْعَةَ ، حَدَّثَنِي مَوْلَى عُفْرَةَ^٤ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ السُّودَاءِ ، السُّخْمِ الْجِيْعَادِ ، فَإِنَّ لَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا» ؛ قَالَ عَفْرُو مَوْلَى عُفْرَةَ^٥ : صِهْرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْرَى فِيهِمْ ، وَنَسَبُهُمْ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْهُمْ ؛ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : فَأَخْبَرَنِي ابْنُ لَهَيْعَةَ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ هَاجِرَ أُمِّ الْعَرَبِ مِنْ قَرِيَةٍ^٦ كَانَتْ أَمَامَ الْفَرَسَاتِ مِنْ مِصْرَ^٧.

قال مَرْوَانُ الْقُصَّاصُ : صَاحَرْتُ إِلَى الْقَبِيطِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ثَلَاثَةً : إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَسْرَرُ^٨ هَاجِرَ ، وَيُوشَعَ تَزَوَّجَ بِنْتَ صَاحِبِ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْرَرُ^٩ مَارِيَةَ ؛ وَقَالَ تَرْيَدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : قَرِيَّةُ هَاجِرَ يَأْتِي الَّتِي عِنْدَ^{١٠} أُمِّ دُثَيْنَ^{١١}.

وقال هِشَامُ : الْقَرْبُ تَقُولُ : هَاجِرَ وَأَجَرَ ، فَيَبْدُلُونَ مِنَ الْهَاءِ الْأَلْفَ ، كَمَا قَالُوا : هَرَّاقُ الْمَاءِ وَأَرَّاقُ الْمَاءِ وَنَحْوَهُ^{١٢}.

وعن عُثْمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : الْأَمْصَارُ سَبْعَةٌ : فَالْمَدِينَةُ مِصْرَ ، وَالشَّامُ مِصْرَ ، وَمِصْرَ ، وَالْجَزِيرَةُ ، وَالْبَحْرَيْنِ ، وَالبَصْرَةُ ، وَالْكُوفَةُ .
وقال مَكْحُولٌ : أَوَّلُ الْأَرْضِ خَرَاتِمًا أُرْمِينِيَّةً ، ثُمَّ مِصْرَ^{١٣}.

(a) بولاق : الخليلي . (b) بولاق : عفرة . (c) الأصل وبولاق : هاجر من أم العرب قرية ... والتصويب من ابن سعد وابن عبد الحكم وابن الكندي . (d) بولاق : تسري . (e) بولاق : عندها .

^١ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٣ .
^٢ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٣- ٤ .
^٣ نفسه ٥٥ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٣ .
^٤ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٤٤ ، ابن الكندي : فضائل مصر ١٠ : ابن زولاق : فضائل مصر ٨ : التويري : نهاية
الأرب ١: ٣٥٠ أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ١: ١٣٣
السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٤ .
^٥ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٤ .
^٦ انظر فيما يلي ٨١ ، ١: ٣٣٤ .

وقال عبدُ الله بن عمرو: قَبِطُ مِصْرَ أَكْرَمُ الْأَعَاجِمِ كُلِّهَا، وَأَسَمَحُهُمْ يَدًا، وَأَفْضَلُهُمْ عُضْرًا، وَأَقْرَبُهُمْ رَجْمًا بِالْعَرَبِ عَامَّةً وَبِقُرَيْشٍ خَاصَّةً، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ الْفِرْدَوْسَ أَوْ يَنْظُرَ إِلَى مِثْلِهَا فِي الدُّنْيَا، فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ حِينَ تَخْضَرُ زُرُوعُهَا^١، وَتُتَوَّرُ بِمَارِهَا.

وقال كَتُفُّ الْأَحْبَارِ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَبِّهِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مِصْرَ إِذَا أَخْرَقَتْ، (وَفِي رِوَايَةٍ إِذَا أَزْهَرَتْ)^١.

وَمِنْ فَصَائِلِ مِصْرَ

أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا الشَّجَرَةُ وَقَدْ آمَنُوا جَمِيعًا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يُغْلَمُ جَمَاعَةٌ أَشْلَمَتْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَكْثَرَ مِنْ جَمَاعَةِ الْقَبِطِ؛ وَكَانُوا - فِي قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ وَغَيْرِهِ - اثْنِي عَشَرَ سَاحِرًا رُؤَسَاءَ، تَحْتَ يَدِ كُلِّ سَاحِرٍ مِنْهُمْ عَشْرُونَ غَرِيفًا، تَحْتَ يَدِ كُلِّ غَرِيفٍ مِنْهُمْ أَلْفٌ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ جَمِيعُ الشَّجَرَةِ مِائَتِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ إِنْسَانًا بِالرُّؤَسَاءِ وَالْغُرَفَاءِ. فَلَمَّا عَاشُوا مَا عَاشُوا أَتَقَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّ الشَّجَرَ لَا يَقُومُ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَخَرُّ الرُّؤَسَاءِ الْإِثْنَا عَشَرَ عِنْدَ ذَلِكَ سُجْدًا، فَاتَّبَعَهُمُ الْغُرَفَاءُ، وَاتَّبَعَ الْغُرَفَاءُ مِنْ بَقِي، ﴿وَقَالُوا عَاشُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الْأَيَّانَ ١٢١، ١٢٢ سُرَةُ الْأَمْرَاءِ﴾ قَالَ يُتَّبِعُ: كَانُوا مِنْ أَصْحَابِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَمْ يَفْتَنَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ مَعَ مَنْ أَفْتَنَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجَلِ. قَالَ يُتَّبِعُ: مَا آمَنَ جَمَاعَةٌ قَطُّ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ جَمَاعَةِ الْقَبِطِ^٢.

وقال كَتُفُّ الْأَحْبَارِ: مِثْلُ قَبِطِ مِصْرَ كَالنَّيْضَةِ كُلَّمَا قُطِيعَتْ نَبَتَتْ، حَتَّى يُخْرِبَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِمْ وَيَصْنَعَتْهُمْ جَزَائِرَ الرُّومِ^٣.

وقال عبدُ الله بن عمرو: خُلِقَتِ الدُّنْيَا عَلَى خَمْسِ صُورٍ، عَلَى صُورَةِ الطَّيْرِ بِرَأْسِهِ وَصَدْرِهِ وَجَنَاحِيهِ وَذَنَبِهِ؛ فَالرَّأْسُ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْيَمَنُ، وَالصُّدْرُ الشَّامُ وَمِصْرُ، وَالْجَنَاحُ الْأَيْمَنُ الْإِiraq، وَخَلْفُ الْإِiraq أُمَّةٌ يُقَالُ لَهَا وَاقٍ، وَخَلْفُ وَاقٍ أُمَّةٌ يُقَالُ لَهَا وَاقٍ وَاقٍ، وَخَلْفُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ مَا لَا يُقَالُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَالْجَنَاحُ الْأَيْمَنُ السُّنْدُ، وَخَلْفُ السُّنْدِ الْهِنْدُ، وَخَلْفُ أُمَّةِ الْهِنْدِ أُمَّةٌ يُقَالُ

(١) بولاق: يُحضر زرعها.

^٢ التويري: نهاية الأرب ١: ٣٤٩.

^١ ابن عبد الحكم: فروع مصر ١٥ أبو المحاسن: النجوم

^٣ ابن عبد الحكم: فروع مصر ٥.

الزاهرة ١: ٣١.

لها نايك ، وخلف نايك أمة يقال لها منسك ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يقله إلا الله عز وجل ؛ والذئب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس ، وشرو ما في الطير الذئب ^١ .

وقال الجاحظ : الأمصار عشرة : الصناعات بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة / ، والتخنيث ببغداد ، والعي بالري ، والجفاء بئسابور ، والحسن بهرة ، والطرمدة بسمرقند ، والمروعة ببلخ ، والتجارة بمصر ، والبخل بمزو . (الطرمدة الدولة ، كلام^٢) ليس له فعل ^٣ .

وعن مجير^٤ بن داخر العافري أنه سمع عمرو بن القاص يقول في خطبته : واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكث الأعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم مغدين الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

وعن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنه قديم من الشام إلى عبد الله بن عمرو بن القاص ، فقال : ما أقدمك إلى بلادنا ؟ قال : كنت تحدثني أن مصر أسرع الأرض خراباً ، ثم أراك قد اتخذت منها وبنتت فيها القصور واطمأنت فيها ، قال : إن مصر قد أوقت خرابها ، حطمتها البخت نصر فلم يدع فيها إلا السباع والضباع ، فهي اليوم أطيب الأرضين ثراباً ، وأبعدها خراباً ، ولا يزال فيها بركة ما دام في شيء من الأرض بركة ^٥ .

ويقال : مصر متوسطة الدنيا ، قد سلبت من حرّ الإقليم الأول والثاني ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، ووقعت في الإقليم الثالث فطابت هوائها ، وضعفت حرّها ، وخفت بردها . وسلبت أهلها من مشاتي الأهواز ، ومصايف عُمان ، وصواعق يهامة ، ودمامل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، ويزسام العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وطحال البخرين ، وحلى خيبر وأمنوا من غارات الترك ، ومجيوش الروم ، وهجوم القرب ، ومتكايد الديلم ، وسرايا القرامطة ، ونزف الأنهار ، وقحط الأمطار .

(أ) بولاق : الطرملة كلام . (ب) بولاق : يحيى .

^١ ابن عبد الحكم : فوح مصر ١ ، وهذا النص موجود رواية عن ابن عبد الحكم عند المسعودي : أخبار الزمان ١٨٨ وانظر أيضاً : أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣١٦ - ٣٢٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١ : ١/٨ ؛ وهذا النص نقلناه كتاب «البلدان» للجاحظ وهو من مؤلفاته المفقودة ، وانظر فيما يلي ٨١ - ٨٢ .

^٢ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٣٢ .

^٣ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٣٢ .

^٤ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٣٢ .

وبها ثمانون كُورَة ، ما فيها كُورَة إِلَّا وبها طرائف وعجائب من أنواع البر والأبنية والطعام والشراب والفاكهة ، وسائر ما تنتفع به الناس وتذخره الملوك ، يُعرف بكل كُورَة وجهاتها ، ويُنسب كل لَوْن إلى كُورَة :

فصعيدها أرض ججازية ، حرّه حرّ العراق ، وثبت الثخل والأراك والقُوظ والدُوم والعشر .
وأشقل أرضها شامي يُطرّ مطر الشام ، وثبت ثمار الشام من الكُروم والزيتون واللوز والتين والجوز وسائر الفواكه والبُقول والرباحين ، ويُقع به الثلج والبرد .
وكُورَة الإسكندرية ولُوية ومِراقية يراي وجبال وغياض تثبت الزيتون والأغصان ، وهي بلاد ليل وماشية وعسل ولبن .

وفي كل كُورَة من كُور مصر مدينة ، في كل مدينة منها آثار ، كريمة من الأبنية والصخور والزخام والعجائب .

وفي نيلها السفن التي تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمس مائة بعير .
وكل قَرْنة من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة ، يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :
﴿وَابْتَغِ فِي الْمَذَاقِ حَلَائِينَ﴾ [آية ٣٦ سورة الشعراء] ^١ .

ويُقتل بمصر معاميل كالتنانير ، يُقتل بها البيض بصنعة ، يُوقد عليه فيحاكي نار الطبيعة في حضانة الدجاجة لبيضها ، ويخرج من تلك المعاميل الفراريح ، وهي مُعظّم دجاج مصر ، ولا يتم عمل هذا بغير مصر ^٢ .

وقال عمرو^٣ بن ميمون : خرج موسى - عليه السلام - ببني إسرائيل ، فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتى بها ، فأمر بها أن تُذبح ثم قال : لا يُفرغ من سُلخها حتى يجتمع عندي خمس مائة ألف من القبط ؛ فاجتمعوا إليه فقال لهم فرعون : إن هؤلاء لشِرذمة قليلون . وكان أصحاب موسى - عليه السلام - ست مائة ألف وسبعين ألفا .

(٨) بولاق : عمر .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١٠٢ . مسالك الأبصار (مالك مصر والشام) ١٨ : السيوطي :

^٢ انظر عن معاميل الفراريح بمصر ، عبد اللطيف حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٣ .

الهدلدي : الإفادة والاعتبار ٢٥ : ابن فضل الله العمري :

وَتُزَيِّنُكَ مِشْكَةً، يُذَفَّنُ فِيهَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ، أَرْضٌ حَافِظَةٌ مُطَبَّقَةٌ^(a) رَحِيمةٌ، لَا تَخْلُقُكَ بِهَا مِصْرُ بَرَكَةٍ، وَلَا زَالَ مِنْكَ حِفْظٌ^(b)، وَلَا زَالَ مِنْكَ ثَمْلُكَ وَعِزٌّ. يَا أَرْضَ مِصْرَ، فَيَا الْخَبَاءِ وَالْكُثُوزَ، وَلَكَ الْبِرُّ وَالثَّرْوَةُ، وَسَالَ نَهْرُكَ عَسَلًا. كَثُرَ اللَّهُ زَرْعُكَ، وَدَوَّ ضَرْعُكَ، وَزَكَّى نَبَاتُكَ، وَعَظُمَتِ بَرَكَتُكَ، وَخَصَّبَتْ، وَلَا زَالَ فِيكَ خَيْرٌ مَا لَمْ تَتَجَبَّرِ وَتَتَكَبَّرِ أَوْ تُخُونِي، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَدَاكَ سَرًّا، ثُمَّ يُغَوِّرُ خَيْرُكَ. فَكَانَ آدَمُ أَوَّلَ مَنْ دَعَا لَهَا بِالرَّحْمَةِ وَالْحُسْبِ وَالرَّأْفَةِ وَالْبَرَكََةِ^١.

وعن ابن عباس أن نوحًا - عليه السلام - دعا لمصر بن يعصّر بن حام فقال: «اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، التي نهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض، وذللها لهم، وقوهم عليها».

- ١٠ وقال كعب الأختار: لولا رغبتي في بيت المقدس، لما سكنت إلا مصر؛ فقل له: لم؟ فقال: لأنها بلدٌ مُعَافَاةٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَنْ أَرَادَهَا بِشَوْءٍ كَبِهَ اللَّهُ^(c) عَلَى وَجْهِهِ، وَهُوَ بَلَدٌ مُبَارَكٌ لِأَهْلِهِ فِيهِ^٢. وقال ابن وهب: أخبرني يحيى بن أيوب، عن خالد بن يزيد، عن ابن أبي هلال، أن كعب الأختار كان يقول: إني لأحب مصر وأهلها، لأن مصرَ بَلَدٌ مُعَافَاةٌ، وَأَهْلُهَا أَصْحَابُ عَافِيَةٍ، وَهُمْ بِذَلِكَ مُصَانُونَ^(d).

- ١٥ ويُقال إن في بعض الكتب الإلهية: «مِصْرُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، فَتَنْ أَرَادَهَا بِشَوْءٍ قَصَصَهُ اللَّهُ تَعَالَى»^٣.

وقال عمرو بن العاص: وَلِإِيَّةِ مِصْرَ جَامِعَةٌ تَقْدِيلُ الْخِلَافَةِ، يَغْنِي إِذَا جُمِعَ الْخَرَاجُ مَعَ الْإِمَارَةِ^٤.

(a) بولاق: مطبعة. (b) بولاق: بك حفظه. (c) الأصل وبولاق: أكره الله بالهمز، والمشهور: كتب بدون همز وهو الخسدي (النجوم الزاهرة ١: ٣١١هـ). (d) بولاق: مغارقون.

^١ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٤٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣١. ^٢ الزاهرة ١: ٣٠. ^٣ نفسه ١: ٣٤٨؛ نفسه ١: ٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٧٩؛ أبو الأعرشي ٣: ٢٨٠؛ ابن أبياس: بدائع الزهور ١/١: ٩. ^٤ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣١، وفيما يلي ٤٥٥.

وقال أحمد بن محمد بن مَدْبَر: تَخَاجَ مصر إلى ثمانية وعشرين ألف ألف قَدَان، وَنَمَا يُعَمَّرُ مِنْهَا أَلْفُ أَلْفِ قَدَانٍ. وقد كَشَفَتْ أَرْضُ مصر فَوَجَدَتْ غَايِرَهَا أَضْعَافَ عَايِرِهَا، وَلَوْ اسْتَقْبَلَ السُّلْطَانُ بِعِمَارَتِهَا لَوَقَّتْ لَهُ بِخَرَاكِ الدُّنْيَا^١.

وقال بعضهم: إِنَّ خَرَاكِ الْعِرَاقِ لَمْ يَكُنْ قَطُّ أَوْفَرَّ مِنْهُ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَإِنَّهُ بَلَغَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. وَلَمْ تَكُنْ مِصْرُ قَطُّ أَقْلَ مِنْ خَرَاكِهَا فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ. وَكَانَتِ الشَّامَاتُ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ سَوَى الثُّغُورِ.

وَمِنْ فَضَائِلِ مِصْرَ أَنَّهُ وُلِدَ بِهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُوسَى وَهَارُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَيُقَالُ إِنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - أَخَذَ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى الشَّامِ، فَالْتَقَتْ إِلَى أُمِّهِ وَقَالَ: يَا أُمَّاهُ، هَذِهِ مَقْبِرَةُ أُمِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ^٢.

وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ وُلِدَ فِي قَرْيَةِ أَفْنَسَ مِنْ نَوَاحِي صَعِيدِ مِصْرَ، وَأَنَّهُ كَانَتْ بِهِ نَخْلَةٌ يُقَالُ إِنَّهَا النُّخْلَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُزْزِ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [الآية ٢٥ سورة مريم]. وَهَذَا الْقَوْلُ وَهُمْ، فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَخْبَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ يُفْتَتِدُ عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ عِيسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وُلِدَ بِقَرْيَةِ يَتَّى لَحْمٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ^٣.

وَدَخَلَ مِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَقَدْ ذُكِرَ خَبَرُ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ خَلِيجِ الْقَاهِرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ^٤. وَدَخَلَهَا أَيْضًا يَعْقُوبُ وَيُوشَعَ وَالْأَسْبَاطُ، وَقَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ فِي خَبَرِ الْفَيْثُومِ. وَدَخَلَهَا أَرْمِيَا، وَكَانَ مِنْ أَهْلِهَا مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ ابْنُ فِرْعَوْنَ لَصْلِيهِ، وَأُظْهِرَ أَنَّهُ غَيْرُ صَاحِبِهِ^٥.

وَكَانَ مِنْهَا مَجْلِسَاءُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ أَبَانَ اللَّهُ فَضِيلَةَ عَقْلِهِمْ بِمُحَسِّنِ مَشُورَتِهِمْ فِي أَمْرِ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - لَمَّا اسْتَشَارَهُمْ فِرْعَوْنَ فِي أَثَرِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوَّلْهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ • يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ • قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ، وَإِنِّي فِي الْمَلَائِكَةِ خَلِيشِينَ • يَا قَوْمُ كُلُّ سَحَابٍ عَلِيمٌ﴾ [الآيات ٣٤-٣٧ سورة الشعراء].

^١ النوري: نهاية الأرب ١: ٤٣٤٨ أبو الحسن: النجوم
^٢ انظر فيما يلي ١٩١، ٢: ١٢٤١ وقارن الكلبي:
 فضائل مصر ٢٠، السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٥٢-٥٧

^٣ نفسه: ٣٤٩. ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٢٩-٣١.

^٤ انظر فيما يلي ٢٩٦. النوري: نهاية الأرب ١: ١٣٤٩ وفيما يلي ٣١١.

وَأَتَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الثُّغُرِ فِي إِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - حَيْثُ أَشَارُوا بِقَتْلِهِ ، قَالَ
تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ : ﴿ قَالُوا خَرِّقُوهُ وَانصُرُوا غَالِبَهُكُمْ إِنَّ كُتُومَكُمْ فَنَعِلَيْنَ ﴾ [آية ٦٨ سورة الأنبياء] .
وَمِنْ أَهْلِ مِصْرِ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ الَّتِي مَدَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [آية ١١ سورة النور] .

وَمِنْ أَهْلِهَا مَاشِطَةُ بَيْتِ فِرْعَوْنَ ، وَاتَّخَذَتْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَمَشَطَهَا فِرْعَوْنَ بِأَمْسَاطِ
الْحَدِيدِ كَمَا يَمْشِطُ الْكُتَّانُ ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ عَلَى إِيْمَانِهَا بِاللَّهِ ^١ .

وَقَالَ صَاعِدُ اللَّغْوِيِّ ^٢ فِي كِتَابِ «طَبَقَاتِ الْأُمَمِ» : إِنَّ جَمِيعَ الْعُلُومِ الَّتِي ظَهَرَتْ قَبْلَ الْعُوفَانِ إِثْمًا
صَدَّرَتْ عَنْ هِزْمِيسِ الْأَوَّلِ السَّاكِنِ بِصَعِيدِ مِصْرِ الْأَعْلَى ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْجَوَاهِرِ السُّلُوبَةِ ،
وَالْحَرَكَاتِ التَّجْوِيمِيَّةِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ ابْتَنَى الْهَيَاكِلَ وَمَجَّدَ اللَّهَ فِيهَا ، وَأَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِي عِلْمِ الطَّبِّ ،
وَأَلَّفَ لِأَهْلِ زَمَانِهِ قَصَائِدَ مَزُورَنَةَ فِي الْأَشْيَاءِ الْأَرْضِيَّةِ وَالسَّمَاءِيَّةِ . وَقَالُوا : إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَنْذَرَ
بِالْعُوفَانِ ، وَرَأَى أَنَّ أَقَّةَ سَمَاوِيَّةٍ تُصِيبُ الْأَرْضَ مِنَ الْمَاءِ أَوْ النَّارِ ، فَخَافَ ذَهَابَ الْعِلْمِ وَدُرُوسِ ^٣
الصَّنَائِعِ ، فَبَنَى الْأَهْرَامَ وَالتَّوْبَاطِيَّ الَّتِي فِي صَعِيدِ مِصْرِ الْأَعْلَى ، وَصَوَّرَ فِيهَا جَمِيعَ الصَّنَائِعِ
وَالْآلَاتِ ، وَرَسَمَ فِيهَا صِفَاتِ الْعُلُومِ ، جِزْصًا عَلَى تَخْلِيدِهَا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَخِيفَةً أَنْ يَذْهَبَ رَسْمُهَا
مِنَ الْعَالَمِ ^٤ ، وَهِزْمِيسُ هَذَا هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ / بْنِ الصُّرَّابِ ^(b) فِي «أَخْبَارِ مِصْرَ» : إِنَّ الْخِصْرَ جَاَزَ الْبَحْرَ
مَعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ مُقَدِّمًا عِنْدَهُ ، وَكَانَ يَمْضُرُ مِنَ الْحُكَمَاءِ جَمَاعَةً مِمَّنْ غَمَرَتْ الدُّنْيَا

(a) بولاق : اندراس . (b) بولاق : ابن الفرات .

(c) النوري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٠ .

^٢ صاعد الأندلسي : الصريف بطبقات الأمم ١٩٦ -
١١٩٧ وانظر هنرمس فيما يلي ١ : ١١٨ .

^٣ الصُّرَّابِ أَوْ ابْنِ الصُّرَّابِ ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ
إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمِصْرِيِّ ، مُؤَرِّخٌ وَمُحَدِّثٌ وَلَدَ فِي مِصْرَ
سَنَةِ ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةَ ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ، وَهَمَدَ
الدَّارِقُطْنِي مِنْ رَوَاتِهِ أَنَّكَ كَانَ أَشْرَقَ مِنْهُ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى كِتَابِهِ
فِي التَّارِيخِ - الَّذِي يُنْقَلُ عَنْهُ الْمُقْرِئِي - الشَّرِيفُ الْإِدْرِيسِيُّ =

^٤ أَبُو الْقَاسِمِ صَاعِدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ صَاعِدِ التَّنَاطِلِيِّ قَاضِي طَلِيظَلَةَ وَبِهَا تَوَفَّى سَنَةَ ٤٦٢ هـ /
١٠٧٢ م ، اشتهر بكتابه «طَبَقَاتِ الْأُمَمِ» أَوْ «التَّحْرِيفِ بِطَبَقَاتِ
الْأُمَمِ» وَهُوَ مِنَ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لَوْصَفِ
الْعُلُومِ عِنْدَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ابْنُ بَشْكُوَال : كِتَابُ الصَّلَةِ فِي
تَارِيخِ أُمَّةِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنِي بَنْشَرُهُ عَزَّتِ الْعَطَارُ الْحُسَيْنِي ،
الْقَاهِرَةُ ١٩٥٥ ، ٢٣٢ art. El² ، Martinez-Gros, G.)

بكلابهم وحكمهم وتذيرهم ، وكان من علومهم علم الطب ، وعلم النجوم ، وعلم المساحة ، وعلم الهندسة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطلسمات . ويقال : كانت مصر في الزمن الأول يسير إليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم وتجوّد أذهانهم ، ويتّمسّح عندهم الدّكاء ، وتذقّ الفطنة .

ومن فضائل مصر أنّها تميّز أهل الحرّمين ، وتوسّع عليهم .

• ويمضّر فُرُضة الدّنيا ، يُخَمَل خَيْرُها إلى ما سواها : فساجِلُها بِدِينَةِ القُلُوم يُحَمَل منه إلى الحرّمين واليمن والهند والصّين وعمّان والسّند والسّحر ، وساجِلُها من جِهَة يَنيس وِدْمياط والقُرما فُرُضة بلاد الرّوم والإفريق وسواجل الشّام والثّقور إلى حدود العراق ، وتُغزّ إشكَنْدرية فُرُضة أَقْرِيطش وصِقِلِيّة وبلاد المغرب ، ومن جِهَة الصّعيد يُحَمَل إلى بلاد العرب والثّوبة والبجّة والحَبشة والحِجاز واليمن .

١٠ ويمضّر عِدّة من الثّقور المُعلّة للرّباط في سبيل الله تعالى ، وهي البُرُثس ورَشيد والإشكَنْدرية وذات الحَمَام والبيحيرة وإخنا وِدْمياط وسَطّا ويَنيس والأشثوم والفَرما والوَزادة والعريش وأشوان وقوص والوَاحات ؛ فيغزى من هذه الثّقور الرّوم والفِرْعَج واليَزير والثّوبة والحَبشة والسودان .

١٥ ويمضّر عِدّة مَشاهد وكثير من المساجد ، وبها الثّيل والأهرام واليزابي والأديار والكنائس . وأهلُها يَشْتَعِنون بها عن كلّ بلد ، حتّى إنّهُ لو ضُربَ بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاشتغلت أهلُها بما فيها عن جميع البلاد ^١ .

ويمضّر دُهرُ البَلْسان الذي عَظُمَت مَنَفَعَتُهُ ، وصارت مُلوكُ الأرض تَطْلُبُه من مصر وتَعْتَنِي به ، ومُلوكُ النّصْرانية تَتَرَامِي على طَلْبِهِ ، والنّصارى كافّة تَعْتَقِد تَعظيمه ، وتَرى أنّه لا يَمُت تَصْغير نَصْراني إلّا يَوْضَع شيء من دُهرِ البَلْسان في ماءِ المَغْشودية عند تَغْطِيسه فيها ^٢ .

٢٠ وبها السَّمَقُور ومَنافعُه لا تُنْكَر ، وبها الثّمس والعِزس ولهما في أَكُل الثّعابين فَضِيلَة لا تُنْكَر ، فقد قيل : لولا العِزس والثّمس لما سَكِنَت مصر من كَثْرَةِ الثّعابين ، وبها السَّمَكَة الرّعاذَة ونَفْعُها في البُرء من الحُمى إذا غُلِقَت على المَحْموم عَجِيب ^٣ .

= صاحب «تاريخ الأهرام» ونقل عنه في مواضع متعدّدة (أسرار

علوي الأهرام ١٣، ٩٠، ٩٨) . (انظر أخباره عند المقرئ : والشام) ١٣، القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٣ ولهما

المقفى الكبير ٥ : ٢٠٨ ، ٤٥٢ ابن حجر العسقلاني : لسان

الميزان ٢ : ١٩٦٧ (Sezgin, F., GASI, p. 213) .

١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٤ .

٢ ابن فضل الله العمري : ممالك الأبصار (ممالك مصر

والشام) ١٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٣ ولهما

بلي ١ : ٢٣٠ .

٣ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٥ ، أبو الحسن : النجوم

الزاهرة ١ : ٤٣ ، وفيما بلي ١ : ٦٦ .

وَيَمِصُّرُ حَطَبُ الشَّنْطِ ، وَلَا تَنْظِيرَ لَهُ فِي مَعْنَاهُ ، فَلَوْ وَقَدَ مِنْهُ تَحْتَ قَدْرِ يَوْمًا كَامِلًا لَمَا بَقِيَ مِنْهُ زَمَانٌ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ضَلَبُ الْكَثْرِ ، سَرِيعُ الْاشْتِعَالِ ، بَطِيءُ الْخُمُودِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ أَتَشْوَسُ غَيِّتُهُ بُقْعَةً مِصْرَ فَصَارَ أَحْمَرٌ^١ .

وَبِهَا الْأَقْيُونُ عُصَاةُ الْخُسْحَاشِ ، وَلَا يَجْهَلُ مَنَافِعَهُ إِلَّا جَاهِلٌ . وَبِهَا اللَّبْنُ ، وَهُوَ تَمَرٌ قَدَّرَ اللَّوْزُ الْأَخْضَرَ ، كَانَ مِنْ مُحَابِسِينَ مِصْرَ إِلَّا أَنَّهُ انْقَطَعَ قَبْلَ سَنَةِ سَبْعِ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ^٢ .

وَبِهَا الْأَنْزُجُ ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ صَاحِبُ «السَّنَنِ»^٣ فِي كِتَابِ الزَّكَاةِ : شَبْرَتْ ثِقَاةٌ بِمِصْرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَبْرًا ، وَرَأَيْتُ أَنْزُجَةً عَلَى تَعْمِرَ بِقَطْعَتَيْنِ [قُطِعَتِ] ^(ب) وَصُبْرَتْ مِثْلَ عَذْلَيْنِ^٤ .

قَالَ الْمَشْعُودِيُّ فِي «التَّارِيخِ» : وَالْأَنْزُجُ الْمُدَوَّرُ مُحْمِلٌ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ بَعْدَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ مِنْ سَنِي الْهَجْرَةِ ، وَزُرِعَ بِشَمَانَ ، ثُمَّ يُقَالُ مِنْهَا إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْإِرَاقِ وَالشَّامِ ، حَتَّى كَثُرَ فِي دُورِ النَّاسِ بِطَرَشُوسٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الثُّغُورِ الشَّامِيَةِ وَفِي أَنْطَاكِيَةِ وَسَوَاجِلِ الشَّامِ وَفِلَسْطِينَ وَمِصْرَ ، وَمَا كَانَ يُفْقَهُدُ وَلَا يُعْرِفُ ، فَتَقَدِّمَتْ مِنْهُ الْأَرَاهِجُ الْخَمْرَاءُ الطُّيْبَةُ ، وَاللُّوْنُ الْحَسَنُ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِأَرْضِ الْهِنْدِ لَعَدَمُ ذَلِكَ الْهَوَاءِ وَالثَّرْوَةُ وَخَاصِيَّةُ الْبَلَدِ^٥ .

وَفِي مِصْرَ مَعْدِنُ الزُّمُرُدِ ، وَمَعْدِنُ الثَّقَطِ ، وَالشَّيْبِ ، وَالْبِرَامِ ، وَمَقَاطِعُ الرُّخَامِ . وَيُقَالُ كَانَ بِمِصْرَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثَلَاثُونَ مَعْدِنًا^٦ .

وَأَهْلُ مِصْرَ يَأْكُلُونَ صَيْدَ بَحْرِ الرُّومِ وَصَيْدَ بَحْرِ الْيَمَنِ طَرِيًّا ؛ لِأَنَّ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ وَالْقَرَمَا ، وَذَلِكَ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ ، وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [آلَةُ ٦١ سُورَةُ النَّمْلِ] ، وَقِيلَ هُمَا بَحْرُ الرُّومِ وَبَحْرُ الْقُلْزُومِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الْأَنْجَامُ ١٩ وَ ٢٠ سُورَةُ الرَّحْمَنِ] ، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الْقُلْزُومِ وَالْقَرَمَا^٧ .

(٥) بولاق : السير . (ب) زيارة من سنن أبي داود .

^١ التويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٥ .
^٢ الغازية ١٣٤٨ هـ ، ١ : ٢٥٣ وفيها يلي ١ : ٣٣٤ .

^٣ غير موجود في مروج الذهب أو التنبيه أو أخبار الزمان .

^٤ التويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم

الزاهرة ١ : ٤٣ .

^٥ فارق مع أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ .

^٦ يؤكد ذلك ما ذكره التويري قال : المأكول منه الطاهر ، ورأيت أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وست مائة (نهاية الأرب ١ : ٣٥٦) .

^٧ أبو داود : صحيح سنن للمصطفى ، القاهرة - المطبعة

ومن محاسن مضر أنه يوجد بها في كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول [والمشروب]^٩ والمشوم دون ما غداه من بقية الشهور، فيقال: رُطِب ثوت، ورُثَان بابه، وعَوُزُ هاتور، وسَمَكُ كَيْتَهك، وماء طوبة، وخروف أمشير، ولَبَنُ بَرَمْهات، ووَزْدُ بَرَمودة، وتَبَقُ تَشَس، وتَيْنُ بُوَوْنَة، وعَسَلُ أَيْب، وعِنَبُ مِشْرِى.

ومنها أن صيفها خريف لكثرة فواكهها، وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حيثلي من القروظ والكثان.

ومن محاسنها أن الذي يتقطع من الفواكه في سائر البلدان أيام الشتاء، يوجد حيثلي بمصر. ومنها أن أهل مضر لا يحتاجون في حر الصيف إلى استعمال الخيش، والدخول في جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد، ولا يحتاجون في برد الشتاء إلى لبس القزو والاضطلاء بالنار الذي لا يشتغني عنه أهل الشام. كما أنهم أيضا في الصيف غير محتاجين إلى استعمال الثلج^{١٠}.

ويقال: رَزَبَجْدُ مصر، وقَبَاطِي مصر، وخَمِيرُ مصر، وتَعَايِنُ مصر، وَمَنَافِعُهَا في الدُّرْيَاق جَلِيلَة.

ومن فضائل مضر أن الرخامة التي في الحجر من الكعبة من مصر، بَعَثَ بها محمد بن طريف مؤلّي العباس بن محمد في سنة إحدى وأربعين ومائتين مع رُخامة أخرى خَضِرَاءَ هدية للحجر. فجُعِلَتْ إحدى الرخامتين على سطح جذر الكعبة، وهما من أحسن الرخام في المسجد خَضِرَة، وكان الْمُتَوَلَّى/ عليها عبد الله بن محمد بن داود، فَرَزَعَهَا ذِرَاعَ وَثَلَاثَ أَصَابِعَ، قاله الْفَاكِهِي^{١١} في «أخبار مكة»^٣.

ومن فضائل مضر أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسْرَى من أهلها، وولَدَ له ﷺ من نساء مصر، ولم يُولَدْ له وَلَدٌ من غير نساء العرب إلا من نساء مصر.

(٩) زيادة من النوري.

الشمين في تاريخ البلد الأمين ١: ٤١٠-٤١١، Rosenthal،

(F., El² art. al-Fākihī II, p. 775).

^٣ انظر الأزرقي: كتاب أخبار مكة (نشرة وستفلد) ٢٢٤؛ ابن فهد: إتحاف الوري ٢: ٣٢١؛ حسين بن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، جدة ١٩٨٢، ١٧٠-١٧٢.

^١ النوري: نهاية الأرب ١: ٣٥٦.

^٢ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي مؤلف «أخبار مكة»، أهل أصحاب التراجم والطبقات الترجمة له هو وسلفه الأزرقي، وتعجب الفاسي من ذلك، وتوفي بعد سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م (الفاسي: العقد

قال ابن عبد الحكم : لما كانت سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ ، ورجع رسول الله ﷺ من الحديبية ، بعث إلى الملوك . فمضى حاطب بن أبي بلتعة بكتاب رسول الله ﷺ ، فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين أصبعيه ، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض ، وأمر به فأوصل إليه .

فلما قرأ الكتاب قال : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علي فيسلط علي ؟ فقال له حاطب : ما منع عيسى بن مريم أن يدعو علي من أي عليه أن يفعل به ويفعل . فوجد ساعته ثم استعاضها ، فأعادها عليه حاطب ، فسكت . فقال له حاطب : إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا تعتبر بك ، وإن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي الله به فقد ما سواه ، وما يشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاونا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل الثوراة إلى الإنجيل ، ولستنا نتهاك عن دين المسيح ، وليكن تأمرك به .

ثم قرأ الكتاب فإذا فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم

القيبط ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، يؤتيك الله أجرك مرتين . ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا

اشهدوا بأننا مسلمون﴾ [آية ٦٤ سورة آل عمران] .

فلما قرأه أخذه فجعله في حقي من عاج وختم عليه .

عن أبيان بن صالح قال : أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة وليس عنده أحد إلا التويمان فقال له : ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها فإني أعلم أن صاحبك قد تخبرك حين بعثك ؟ قلت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك . قال : إلام يدعو محمد ؟ قال : إلى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتخلص ما سواه ، ويأمر بالصلاة ، قال : فكم تصلون ؟ قال : خمس صلوات في اليوم والليلة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينتهي عن أكل الميتة والدم ، قال : من أتباعه ؟ قال : الفتيان من قومه وغيرهم ، قال : وهل يقبل قوله ؟ قال : نعم ، قال : صفة لي ؛

قال : فوصفته بصفة من صفته ولم أت عليها . قال : قد بقيت أشياء لم أذكر ذكرتها : في عينيه حمرة قل ما تفرقه ، وبين كَيْفِيَّةِ خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشعلة ، ويجتري بالثمرات والكسر ، لا يبالى من لافى من عم ولا ابن عم ؛ قلت : هذه صفته ، قال : قد كنت أعظم أن نبيًا بقي ، وقد كنت أظن أن مخرج الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج في أرض العرب ، في أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ، ولا أحب أن تعلم بمحاوري إياك ، وسيظهر على البلاد ، ويثرل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هلنا ، وأنا لا أذكر للقبط من هذا خوفًا ، فازجع إلى صاجيك .

قال : ثم دعا كاتبنا يكتب بالعربية فكتب :

«محمد بن عبد الله من المؤمنين عظيم القبط ، سلام .

أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًا قد بقي ، وقد كنت أظن أن نبيًا يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبغيت إليك بجاريين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتزكيتها ، والسلام .

وعن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : لما مضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ ، قبل الموقس الكتاب ، وأكرم حاطبًا ، وأحسن نزل ، ثم سرعه إلى رسول الله ﷺ ، وأهدى له كسوة وبغلة بسروجها ، وجاريين : إحداهما أم إبراهيم ، وهب الأخرى لهم بن قيس العنبري ، فهي أم زكرياء ابن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ، ويقال : بل وهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن مسلمة الأنصاري ، ويقال : بل ليدحية بن خليفة الكلبي ، وقيل : بل لحسان بن ثابت .^١

وعن يزيد بن أبي حبيب أن الموقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضمه إلى صدره وقال : هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نفعه وصفته في كتاب الله تعالى ، وإننا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح ، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وأن مجلسه المساكين ، وأن خاتم النبوة بين كَيْفِيَّةِ .

ثم دعا رجلًا عاقلاً ، ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها ، وهما من أهل جفن بفتح أوله وشكون ثانية ثم نون بعده من كورة أنصنا ، فبعث بهما إلى رسول الله ﷺ ،

^١ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٤٥-٤٧ ؛ وانظر أيضًا ، القلقشندي : صبح الأعشى ٦ : ٣٧٨ ، محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية في العصر النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ ، ٥٧-٦٣ .

وأَهْدَى له بَقْلَةً شَهَبَاءَ، وَجِمَارًا أَشْهَبَ، وَثِيَابًا مِنْ قَبَاطِي مِصْرَ، وَعَسَلًا مِنْ عَسَلِ بَثْنَا، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمَالٍ صَدَقَهُ^١.

وَيُقَالُ: إِنَّ الْمُقَوْقِسَ أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ خَوَارِي، وَقِيلَ: جَارِيَتَيْنِ، وَبَقْلَةً اسْمُهَا الدُّلْدُلُ، وَجِمَارًا اسْمُهُ يَغْفُورُ، وَقَبَاءٌ، وَأَلْفٌ يُثْقَالُ / ذَهَبًا، وَعِشْرِينَ ثَوْبًا مِنْ قَبَاطِي^٢ مِصْرَ، وَخَصِيصًا يُسَمَّى مَأْبُورَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ عَمِّ مَارِيَةَ، وَقَرَسًا يُقَالُ لَهَا: الْكَوَارِ، وَقَدَحًا مِنْ رُجَاجٍ، وَعَسَلًا مِنْ عَسَلِ بَثْنَا، فَأَعْجَبَ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَعَا فِيهِ بِالْبَرَكَةِ، وَقَالَ: «صَنَّ الْخَبِيثُ بُلْكَهَ، وَلَا يَبْقَاءُ لِمُلْكِهِ». فَإِنَّ الْمُقَوْقِسَ قَالَ خَيْرًا، وَأَكْرَمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَقَارَبَ الْأَمْرَ وَلَمْ يُسْلِمِ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ^٣: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غُثَرِ الْوَاقِدِيِّ، أَنَاثَانَا يُقَفُّونَ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي صَفْصَعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَفْصَعَةَ قَالَ: أَهْدَى^٤ الْمُقَوْقِسُ صَاحِبَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ مَارِيَةَ وَأَخْتَهَا بَيْرِينَ، وَأَلْفٌ يُثْقَالُ ذَهَبًا، وَعِشْرِينَ ثَوْبًا، وَبَقْلَةً الدُّلْدُلَ، وَجِمَارَهُ غَفِيرًا، وَخَصِيصًا يُقَالُ لَهُ مَأْبُورٌ. فَعَرَضَ حَاطِبٌ عَلَى مَارِيَةَ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ هِيَ وَأَخْتَهَا، ثُمَّ أَسْلَمَ الْخَصِيصُ بَعْدَ^٥. وَكَانَ الَّذِي بَعَثَهُ الْمُقَوْقِسُ مَعَ مَارِيَةَ اسْمُهُ جَبْرِ^٦ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَيْطِيُّ، مَوْلَى بَنِي غِفَارٍ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: وَأَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يَنْظُرَ مَنْ جُلُوسَاؤُهُ، وَيَنْظُرَ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ يَرَى شَأْمَةً كَبِيرَةً ذَاتَ شَعْرٍ، فَقَعَلَ ذَلِكَ الرَّسُولُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَدَّمَ إِلَيْهِ الْأَخْتَيْنِ وَالذَّائِبَتَيْنِ وَالْعَسَلَ وَالْثِيَابَ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ هَدِيَّةٌ. فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدِيَّةَ، وَكَانَ لَا يَزِدُّهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

(a) ابن سعد: بعث. (b) بولاق: جبر.

^١ ابن عبد الحكم: فطوح مصر ٤٨.

^٢ القباطي. نسبة إلى أقباط مصر، نوع من النسيج يمتاز بأن زخارفه تتكون من لحمتين غير متصلة في عرض للنسج وغير متصلة ويعرف أيضًا بالتستري Tapestry، (أهن فولد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٧٣).

^٣ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الهاشمي، كاتب الواقدي. محدث مشهور ولد في البصرة نحو سنة ٧٨٤هـ/٧٨٤م وتوفي ببغداد سنة ٨٤٥هـ/٨٤٥م. ويدين ابن سعد بشهرته إلى كتابه «الطبقات الكبرى» الذي ترجم فيه

لطبقات العلماء والمحدثين من الصحابة والتابعين حتى عصره وجعلهم «طبقات»، وهو بذلك من أوائل المؤلفات العربية التي أثبتت نظام الترتيب على الطبقات (ابن التميمي: الفهرست ١١١-١١٢، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣٢١-٣٢٢، ابن خلكان: وفیات الأعيان ٣٥١:٤-٣٥٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠: ٦٦٤-٦٦٧؛ الصفي: الوافي بالوفيات ٣: ١٨٨، Fück, J. W., *El art. Ibn Sa'd* III pp. 946-47.

^٤ ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨: ٢١٢.

قَالَ: فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى مَارِيَّةَ وَأَخْتِهَا أَعْجَبَتْهُمَا وَكَرِهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، وَكَانَتْ إِخْدَاهُمَا تُشْبِهُ الْأُخْرَى، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْتَرْ لِنَبِيِّكَ». فَأَخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَارِيَّةَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». فَبَادَرَتْ مَارِيَّةُ فَشَهِدَتْ وَأَمَّتْ قَبْلَ أُخْتِهَا، وَمَكَثَتْ أُخْتُهَا سَاعَةً ثُمَّ تَشَهِدَتْ وَأَمَّتْ، فَوَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُخْتَهَا لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ وَهَبَهَا لِيُخَيِّتَ بِنَ خَلِيفَةِ الْكَلْبِيِّ^١.

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمُهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّ إِبْرَاهِيمَ أُمِّ وَلَدِهِ الْقَيْطِيَّةِ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا نَسِيئًا لَهَا كَانَ قَدِيمَ مَعَهَا مِنْ مِصْرَ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ فَزَجَعَ، فَلَقِيَهِ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَفَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، فَأَخَذَ عُثْمَرُ السَّيْفَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى مَارِيَّةَ وَقَرَّبَهَا عِنْدَهَا، فَأَهْوَى إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ وَكَانَ مَعْجُوبًا لَيْسَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا رَأَى عُثْمَرُ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ جَبْرِيلَ أَنْبَأَنِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ بَرَّأَهَا وَقَرَّبَهَا، وَأَنَّ فِي بَطْنِهَا عَلَاقًا مَيِّئًا، وَأَنَّهُ أَشْبَهُ الْخَلْقَ بِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أُسَمِّيَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَكَتَنَانِي بِأُمِّي إِبْرَاهِيمَ».

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ أَنَسٍ: لَمَّا وَلَدَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْهُ وَقَعَ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ، حَتَّى جَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ»؛ وَيُقَالُ: إِنَّ الْمُقَوِّسَ بَعَثَ مَعَهَا بِخَصِيٍّ كَانَ يَأْوِي إِلَيْهَا^٢. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُقَوِّسَ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَوَارِيًا^٣ مِنْهُنَّ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ، وَوَاجِدَةً وَهَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأُمِّي جَهْمَ بْنِ حَذَافَةَ الْعَبْدَرِيِّ^٤، وَوَاجِدَةً وَهَبَهَا لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ. فَوَلَدَتْ مَارِيَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ حَتَّى مَاتَ فَوُجِدَ بِهِ، وَكَانَ بَيْنَهُ يَوْمَ مَاتَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا^٥.

وَكَانَتِ الْجَلَّةُ وَالْحِمَارُ أَحَبَّ دَوَائِهِ إِلَيْهِ، وَسَمَّى الْبَخْلَةَ الدُّنْدُلَ، وَسَمَّى الْحِمَارَ يَغْفُورًا، وَأَعْجَبَهُ الْقَسْلُ، فَذَعَا فِي غَسْلِ بَنَتِهَا بِالْبَرْكََةِ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الثِّيَابُ حَتَّى كُفِّنَ فِي بَغْضِهَا ﷺ^٦.

(a) بولاق: جوارى. (b) إضافة من فروع مصر.

^١ ابن عبد الحكم: فروع مصر ٤٨-٤٩. ^٢ نفسه ٥٠.

^٣ نفسه ٤٩. ^٤ نفسه ٥٢.

وكان اسمُ أُنْتِ مَارِيَّةَ قَيْصَرَ ، وقيل : بل كان اسمُها شهرين ، وقيل : حَنَّةٌ ^(أ).

وَكَلَّمَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ فِي أَنْ يَضَعَ الْجَزِيرَةَ عَنْ جَمِيعِ قَرِيَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ لِحُرَّتِيهَا ، فَفَعَلَ وَوَضَعَ الْخَرَجَ عَنْهُمْ . فَلَمْ يَكُنْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ خَرَجٌ ، وَكَانَ جَمِيعُ أَهْلِ الْقَرِيَةِ مِنْ أَهْلِهَا وَأَقْرِبَائِهَا فَانْقَطَعُوا .

وَيُزَيُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «لَوْ بَقِيَ إِبْرَاهِيمُ مَا تَرَكْتُ قَبِيلًا إِلَّا وَضَعْتُ عَنْهُ الْجَزِيرَةَ» .
وَمَاتَتْ مَارِيَّةُ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ بِالْمَدِينَةِ ^١.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ أَنُوبٍ وَابْنُ لَهْبَعَةَ ، عَنْ عَقِيلٍ ، عَنْ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْفَشِ ، عَنْ ابْنِ عُفَرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «دَخَلَ إِبْلِيسُ الْعِرَاقَ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ فَطَرَدُوهُ حَتَّى دَخَلَ جَبَلِ شَافٍ ، ثُمَّ دَخَلَ مِصْرَ فَبَاضَ فِيهَا وَفَرَّخَ وَبَسَطَ عِيقِيهِ» ؛ حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

وَقَدْ عَابَ بَعْضُهُمْ مِصْرَ فَقَالَ : مُحَاسِنُهَا مَجْلُوبَةٌ إِلَيْهَا ، حَتَّى الْقَنَاصِرُ الْأَرْبَعَةُ : الْمَاءُ ، وَهُوَ فِي الثِّيلِ مَجْلُوبٌ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَالثَّرَابُ مَجْلُوبٌ فِي حَتْلِ الْمَاءِ ، وَالْأُفْهَى زَمْلٌ مَخْضٌ لَا تُثْبِتُ الزُّرْعَ ، وَالثَّأْرُ لَا يُوجَدُ بِهَا شَجَرُهَا ، وَالْهَوَاءُ لَا يَهَبُ بِهَا إِلَّا مِنْ أَحَدِ الْبَحْرَيْنِ ؛ إِمَّا مِنَ الرُّومِيِّ وَإِمَّا مِنَ الْقَلْزَمِ ؛ وَقَدْ زَادَ هَذَا فِي تَحَامُلِهِ .

وَقَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ : الْجَزِيرَةُ أَمْنَةٌ مِنَ الْخَرَابِ حَتَّى تُخْرَبَ أَرْمِينِيَّةٌ ، وَمِصْرُ أَمْنَةٌ مِنَ الْخَرَابِ حَتَّى تُخْرَبَ الْجَزِيرَةُ ، وَالْكُوفَةُ أَمْنَةٌ مِنَ الْخَرَابِ حَتَّى تَكُونَ الْمَلْحَمَةُ ^٢.

ذِكْرُ الْعَجَائِبِ الَّتِي كَانَتْ بِمَصْرَ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالْبَرَامِي وَنَحْوِ ذَلِكَ

ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الْحَرَكَاتِ» ^(ب) وَغَرَائِبِ الْمَاجِرِيَّاتِ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ حَجَرٌ مِنْ جَمْعِ كَفَيْهِ عَلَيْهِ تَقْيًا جَمِيعُ مَا فِي جَوْفِهِ .

/ قَالَ الْقَضَائِعِيُّ : ذَكَرَ الْجَمَاحِظُ ^٣ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَجَائِبَ الدُّنْيَا ثَلَاثُونَ أَعْجُوبَةً : مِنْهَا بِسَائِرُ الدُّنْيَا عَشْرُ أَعْجُوبَاتٍ ، وَهِيَ : مَشْجِدُ دِمَشْقَ ، وَكَنْسِيَةُ الرُّومِ ، وَقَنْطَرَةُ سِيْنَجَرِ ^(ج) ، وَقَضْرُ غَمْدَانَ ،

(أ) بولاق : حسنة . (ب) بولاق : الحكايات . (ج) الإدريسي : طنجة .

^١ ابن عبد الحكم : فزع مصر ٥٢ - ٥٣ .
^٢ أورد الإدريسي في كتاب «أنوار علوي الأجرام» ١٦

هذا النص ونص على النقل من كتاب البلدان للجاحظ .
^٣ فيما يلي ١ : ٣٣٤ .

وَكَيْسَةُ رُومِيَّةٌ، وَصَنَمُ الزُّبَيْنِ، وَابْنُ كَيْسَرٍ بِالسَّدَائِنِ، وَيَتُّ الرِّيحِ بِتَذْمُرٍ، وَالْحَوَزِيُّ
وَالشَّدِيدُ بِالْحَيْرَةِ، وَالثَّلَاثَةُ الْأَحْجَارُ يَغْلِبُكَ، وَذَكَرَ أَنَّهَا يَتُّ الْمُشْتَرِي وَالزُّهْرَةَ، وَأَنَّهُ كَانَ لَكُلِّ
كَوْكَبٍ مِنَ السَّبْعَةِ يَتُّ فِيهَا فَتَهْدَمَتْ^١.

ومنها بمصر عشرون أعجوبة: فمن ذلك «الهرمان»، وهما أطول بناء وأعجبه، ليس على وجه
الدُّنْيَا بِنَاءٌ باليد حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ أَطْوَلُ مِنْهُمَا، وَإِذَا رَأَيْتَهُمَا ظَنَنْتَ أَنَّهُمَا جَبَلَانِ مَوْضِعَانِ،
ولذلك قال بعض من رآهما: لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَأَنَا أَرْوِحُهُ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا الْهَرَمَيْنِ، فَإِنِّي لِأَرْحَمَ
الدَّهْرَ مِنْهُمَا^٢.

ومن ذلك «صَنَمُ الْهَرَمَيْنِ»، وهو «بَلْهَوِيَّةٌ»، ويُقال: «بَلْهَيْبٌ»، ويُقال: إِنَّهُ طَلَسَمَ لِلزَّمَلِ لَعَلَّ
يَغْلِبُ عَلَى إِبْلِيزَ الْجِيْزَةِ^٣.

ومن ذلك «بُزْبَا سَمْتُودٌ»، وهو من أعاجيبها. وَذَكَرَ عَنْ أَبِي عُمَرَ الْيَكْنَدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُهُ وَقَدْ
خَرَزَ فِيهِ بَعْضُ عُمَّالِهَا قُرْطًا، فَرَأَيْتُ الْجَمَلَ إِذَا دَنَا مِنْ بَابِهِ بِحَمْلِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهُ سَقَطَ كُلُّ دَيْبٍ
فِي الْقُرْطِ لَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى الْبُزْبَا، ثُمَّ خَرِبَ عِنْدَ الْخَمْسِينَ وَالثَّلَاثِ مِائَةٍ.

ومن ذلك «بُزْبَا إِيْخِمِيمٍ» عَجَبٌ مِنَ الْعَجَبِ بِمَا فِيهِ مِنَ الصُّوَرِ وَالْعَجَائِبِ وَصُورِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ
يَمْلِكُونَ مِصْرَ، وَكَانَ ذُو الثُّونِ الْإِيْخِمِيمِي يَقْرَأُ الْبَرَابِي، فَرَأَى فِيهَا حِكْمًا عَظِيمَةً فَأَقْنَعَدَ
أَكْثَرَهَا^٤.

ومن ذلك «بُزْبَا دَنْدَرَةٍ» وَهُوَ بُزْبَا عَجِيبٌ فِيهِ ثَمَانُونَ وَمِائَةٌ كَوْزَةٌ تَدْخُلُ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ
كَوْزَةٍ مِنْهَا، ثُمَّ الثَّانِيَّةُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ تُكْوَرُ رَاجِعَةً إِلَى مَوْضِعِ بَدَائِهَا.

ومن ذلك «حَائِطُ الْعَجُوزَةِ» مِنَ الْقَرِيشِ إِلَى أَشْوَانَ، يُحِيطُ بِأَرْضِ مِصْرَ شَرْقًا وَغَرْبًا^٥.

ومن ذلك «الْإِسْكَكَلَرِيَّةُ» وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، فَمِنْ عَجَائِبِهَا السَّنَارَةُ وَالسُّوَارِي وَالْمَلْعَبُ
الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّتَاءِ ثُمَّ يَزْمُونَ بِكَرَةِ فَلَا تَقَعُ فِي جَنْبِ أَحَدٍ إِلَّا مَلِكُ مِصْرَ.
وَحَضَرَ عِيْدًا مِنْ أَغْهَادِهِمْ عَشْرُونَ بِنَاصِ، فَوَقَّعَتِ الْكُرَةَ فِي جَنْبِهِ، فَتَلَّكَ الْبَلَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
الْإِسْلَامِ. ثُمَّ يَحْضُرُ هَذَا الْمَلْعَبُ أَلْفٌ مِنَ النَّاسِ، فَلَا يَكُونُ فِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ

^١ انظر أيضًا فيما تقدم ٦٨.

^٢ انظر فيما يلي ٣٢١.

^٣ انظر فيما يلي ٣٣١.

^٤ الإفريسي: أنوار علوي الأجرام ١٦-١٧ ومصدره
كتاب البلدان للملاحظ؛ وانظر فيما يلي ٥٤١.

صاحبه . ثم إن قرئ كتاب سمعوه جميعاً أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم ، لا يتناولون فيه بأكثر من المراتب العلية والسفلية ^١ .

ومن عجائبا «المستلтан» ، وهما جبلان قائمان على سرطانات نحاس في أركانها ، كل ركن على سرطان . فلو أراد ثريد أن يذبل تحتها شيقاً حتى يُعبره من جانبه الآخر لقل ^٢ .

- ومن عجائبا «عمودا الإغياء» ، وهما عمودان ثلقيان ، وراء كل عمود منهما جبل حصب كصبر الجمار ينى ، يقبل الملقى الثيب النصب بفتح حصيات حتى يلتقي على أحدهما ، ثم يرمي وراءه الشيع ، ويقوم ولا يلتفت ، ويضيضي لطيفه ، فكأنما يحمل حثلاً لا يحس بشيء من ثقبه .

ومن عجائبا «القبة الخضراء» ، وهي أعجب قبة مثبته نحاساً كأنه الذهب الإنريز ، لا يثليه القيدم ، ولا يُخلقه الدهر ^٣ .

ومن عجائبا «مئنة عفتة» ، و«قصر فارس» ، و«كنيسة أشقلى الأرض» ، ثم هي مدينة على مدينة ، ليس على وجه الأرض مدينة بهذه الصفة سواها . ويقال : لأنها إزم ذات الصمد ، سُميت بذلك ، لأن عفتها ورخامتها من البذنجنا والأصطفييندس المخطط طولاً وعرضاً .

- ومن عجائب مصر أيضاً «الجبال التي هي بصعيدها على نيلها» ، وهي ثلاثة أجبل : فمنها جبل الكهف ، ويقال : الكف ، ومنها الطيلفون ، ومنها جبل زماخير ^٤ الشاحرة ، يقال : إن فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل ، لا يصل إليها أحد ، يلوح فيها خط مخلوق باشميك اللهم .

- ومن عجائبا «شعب البوقيرات» بناحية أشمون من أرض الصعيد ، وهو شعب ^٥ في جبل فيه صدع ، تأتيه البوقيرات في يوم من السنة كان معروفاً ، فتفرض أنفسها على الصدع ، فكلما أدخل بوقير منها يتقارزه في الصدع مضى لسبيله ، فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقي الصدع على بوقير منها فيتغيبه ، وتضمضي كلها ولا يزال ذلك الذي يحبسها متعلقاً حتى يتساقط ويتلاشى ^٦ .

(٥) يولاي : زماجير .

^١ انظر فيما يلي ٤٢٩ - ٤٣٢ .
(باقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٩٦) .

^٢ انظر فيما يلي ٦٢١ .
^٣ انظر ابن رسته : الأعلام النفسية ٨٢ .

^٤ الشعب الوادي الصغير أو الطريق يحرق الجبال

ومن عجائبها «عَيْنُ شَمْسٍ»، وهي هَيْكَلُ الشَّمْسِ، وبها العمودان اللذان لم يُزْ أَعْجَبَ منهما ولا من شأنهما، طولُهما في السماء نحو من خمسين ذراعاً، وهما محمولان على وَجْهِ الأرض، وفيهما صورة إنسان على دَائَةِ، وعلى رأسهما شَيْبَةُ الصُّومَعَتَيْنِ من نُحَاسٍ، فإذا جَاءَ الثَّيْلُ قَطَرٌ من رأسهما ماءً، وتستبينه وتراه منهما واضِحاً يَتَّبِعُ حتى يجري في أسفلهما فَيُنْبِتُ في أسفلهما العُوسَجَ وغيره. وإذا حَلَّتْ الشَّمْسُ دَقِيقَةً من الجَدِّي، وهو أَقْصَرُ يَوْمٍ في السنة، انتهت إلى الجنوبي منهما فَطَلَعَتْ عليه قِمَّةُ رَأْسِهِ، وهي مُتَنَهَى المِليْنِ، وَخَطُّ الاسْتِواءِ في الواسِطَةِ منهما، ثم حَطَرَتْ بينهما ذَاهِبَةٌ وَجَائِيَةٌ سَائِرُ الشَّئَةِ؛ كَذَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِذَلِكَ^١.

ومن عجائبها «مَتَفٌ» وعجائبها وأصنامها وأَبْنِيئُهَا وَذَفَائِبُهَا وَكُنُوزُهَا، وما يُذَكَّرُ فيها أَكْثَرُ من أَنْ يُخَصَّصَ من آثار الملوك والحُكَمَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ، لا يَدْفَعُ ذَلِكَ^٢.
ومن عجائبها «الْفَرَمَا»، وهي أَكْثَرُ عَجَائِبٍ وَأَكْثَرُ آثَارًا^٣.

ومن عجائبها «الْفَيُومُ»^٤. ومن عجائبها «نَيْلُهَا». ومن عجائبها الْحَجَرُ الْمَعْرُوفُ بِحَجَرِ الْحَلِّ، يَطْفُو عَلَى الْحَلِّ وَيَسْبِغُ فِيهِ كَأَنَّهُ سَمَكَةٌ.

/وكان يُوجد بها حَجَرٌ إذا أَشْتَكَّهُ الْإِنْسَانُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ تَقَايَا كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ^٥. وكان بها حَزْرَةٌ تَجْعَلُهَا الْمَرْأَةُ عَلَى خَفِّهَا فَلَا تَحْتَلِ. وكان بها حَجَرٌ يَوْضَعُ عَلَى حَرْفِ التَّثْوِيرِ فَيَتَسَاوَقُ حُبْرُهُ. وكان يُوجد بِصَعِيدِهَا حِجَارَةٌ رَخْوَةٌ تُكْثَرُ فَتُقَدُّ كَالْمَصَابِيحِ.

ومن عجائبها حَوْضٌ كَانَ بِدَوْلَابٍ مُدَوَّرٍ^٦ من حِجَارَةٍ، يَزْكَبُ فِيهَا الْوَاحِدُ وَالْأَرْبَعَةُ وَيُخْرَجُ الْمَاءُ بِشَيْءٍ، فَيُخْبِرُونَ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، لَا يُعْلَمُ مِنْ عَمَلِهِ، فَأَخَذَهُ كَالْفُورِ الْإِنْخَشِيدِي إِلَى مِصْرَ، فَتَطَرَّزَ إِلَيْهِ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنَ الْمَاءِ فَأَلْقَى فِي الْبَرِّ، وَكَانَ فِي أَشْفَلِهِ كِتَابَةٌ لَا يُلْزَمُ مَا هِيَ، ثُمَّ بَطَلَ.

ومن عجائبها أَنَّ بِصَعِيدِهَا مَنِيْقَةٌ تُغْرِفُ بِدِشْتَا، فِيهَا سَنَطَلَةٌ إِذَا تَهَدَّدَتْ بِالْقَطْعِ تَذْبُلُ وَتُجْمَعُ وَتُصْمَرُ، فَيُقَالُ لَهَا: قَدْ عَفَوْنَا عَنْكَ وَتَرَكْنَاكَ فَتَرَجِعِ، وَالْمَشْهُورُ وَهُوَ الْمَوْجُودُ الْآنَ سَنَطَلَةٌ فِي

(B) يولاي: بدلالات لَنُور.

^١ انظر فيما يلي ٦٢٢ ومصدره فيه القضاهي.

^٤ فيما يلي ٣٠٨-٣١٧.

^٢ فيما يلي ٣٦٤-٣٩١.

^٥ فيما تقدم ٨١.

^٣ فيما يلي ٥٢٩.

الصعيد، إذا نزلت اليد عليها ذبلت، وإذا رفعت عنها تراجعت، وقد حُمِلت إلى مصر وشوهدت. وبها نوع من الخشب يزسب في الماء كالأنثوس، وبها الخشب الشنط الذي يُوقَد منه القُدُرُ الكثير في الزمن الطويل فلا يُوجد له رماد.

وذكر ابن نضر المصري أنه كان على باب القصر الكبير، الذي يُقال له: باب الرُّيحان عند الكنيسة المعلقة، صنم من نحاس على خِلْقَةِ الجمل، وعليه رجلٌ راكبٌ عليه عِمَامَةٌ، منتكب قَوْسًا عربية، وفي رجليه نعلان، كانت الزُّومُ والقِبْطُ وغيرهم إذا تظالموا بينهم، واعتدى بعضهم على بعض، تجاروا إليه حتى يقفوا بين يدي ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم: «أنصِفني قبل أن تُخرج هذا الراكب الجمل فأخذ الحق لي منك شِفْتُ أم أبيت؟» - يعنون بالراكب الثبي محمدًا عليه السلام - فلما قَدِمَ عمرو بن العاص، غَيَّبَت الزُّومُ ذلك الجمل لئلا يكون شاهدًا عليهم.

قال ابن لهيعة: بَلَّغْنِي أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَدِ اتَّيَ الْآنَ عَلَيْهَا سِنٌ لَا يُنْزَى مِنْ عَمَلِهَا. قال القاضي: فهذه عشرون أعجوبة من جُمْلَتِهَا ما يتضمن عدة عجائب، فلو بسطت لجاء منها عَدَدٌ كثير^١.

ويقال: ليس من بلدٍ فيه شيء غريب إلا وفي مصر مثله أو شبيه به. ثم تَفَضَّلَ مصر على البلدان بعجائبيها التي لَيْسَتْ فِي بِلَدٍ سِوَاهَا.

وفي كتاب «تحفة الألباب» أنه كان بمصر بيتٌ تحت الأرض فيه زُهَبَانٌ مِنَ النَّصَارَى، وفي البيت سريرٌ صغيرٌ من خشب، تحته صَبِيٌّ مَيِّتٌ مَلْفُوفٌ فِي نَطْعٍ قَدِيمٍ^(أ) مَشْدُودٌ بِخَبْلٍ، وَعَلَى السَّرِيرِ مِثْلُ الْبَاطِيَةِ فِيهَا أَنْثُوبٌ مِنْ نَحَاسٍ فِيهِ قَتِيلٌ، إِذَا اشْتَعَلَ الْقَتِيلُ بِالنَّارِ وَصَارَ سِرَاجًا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْأَنْثُوبِ الزُّيْتُ الصَّافِي الْحَسَنُ الْفَاقِقُ^(ب)، حَتَّى تَمْتَلِئُ تِلْكَ الْبَاطِيَةُ وَيَنْطَفِئُ السَّرَاجُ بِكَثْرَةِ الزُّيْتِ، فَإِذَا انْطَفَأَ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّهْنِ شَيْءٌ، فَإِذَا خَرَجَ الصَّبِيُّ الْمَيِّتُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الزُّيْتِ شَيْءٌ، وَالْبَاطِيَةُ يَرْفَعُهَا^(ج) الْإِنْسَانُ فَلَا يَرَى تَحْتَهَا شَيْئًا وَلَا مَوْضِعًا فِيهِ ثَقْبٌ؛ وَأَوَّلِيكَ الزُّهَبَانُ يَعْتِيشُونَ مِنْ ذَلِكَ الزُّيْتِ يَشْتَرِيهِ النَّاسُ مِنْهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ^٢.

(أ) بولاق: آدم. (ب) في تحفة الألباب: الرائق. (ج) بولاق: يرقها.

^١ ينتهي هنا نص القاضي المنقول عن كتاب «البلدان» مصر مثله أو أعجب منه.
 ^٢ أبو حامد الغزنائي: تحفة الألباب ١٣٣، وانظر عن ١٧ وبقية ولا يحصى وليس في بلد شيء عجيب إلا وفي

وقال الأشتاذ إبراهيم بن وصيف شاه^١: عديم الملك ابن قفطريم كان بجبازا لا يطاق، عظيم الخلق، فأمر بقطع الصخور لعمل هَرَمًا كما عمل الأولون، وكان في وقته الملكان اللذان أُهبطا من السماء، وكانا في بئر يقال له: أفتاوه، وكانا يُتَلَمَّان أهل مصر الشجر. ويُقال: إنَّ الملك عديم بن البودسير اشتكَّر من علمهما، ثم انتقلا إلى بابل.

وأهل مصر من القبط يقولون: إنَّهما شيطانان يُقال لهما «مُهَلَّة» و«مَهَالَّة»، وليس هما الملكَيْن، والملكان ببابل في بئر هناك يُغشاهما الشجرة إلى أن تقوم الساعة، ومن ذلك الوقت عُيِدَت الأضنام^٢.

وقال قوم: كان الشيطان يُظْهَر ويُصْبِها لهم.

وقال قوم: أول من نصبها تدويرة، وأول صتم أقامه صتم الشمس.

وقال آخرون: بل الثورود الأول أمر الملوك بنصبها وعبادتها.

وعديم أول من صلب، وذلك أنَّ امرأة زنت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحاب الملك، فأمر بضليهما على منازنين، وجعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر، وزبر على المنازنين اسمهما، وما فعلاه، وتاريخ الوقت الذي عُيِّل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنا^٣.

وبني^٤ أُنِيعَ مدائن، وأودعها صنوفًا كثيرة من عجائب الأعمال والطلّسمات، وكثر فيها كنوزًا كثيرة، وعمل في الشرق^٥ منازرا، وأقام على رأسه صنمًا موجهًا إلى الشرق، ماذا يديه، يمتنع دوابّ البعير والزّمال أن تتجاوز حده، وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه؛ ويُقال: إنَّ هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا، ولولا هذا لقلب الماء الملح من البحر الشرقي على أرض مصر.

(a) الأصل: وهي. (b) عند المسعودي: على البحر الشرقي.

^١ إبراهيم بن وصيف شاه مؤلف لا تعرف على وجه الدقة الفترة التي عاش فيها، ويعرف أحيانًا عند المؤلفين الأندلسيين بالوصيفي، اشتهر بكتابه في المعجائب الذي تناول فيه تاريخ مصر القديم، ويتفق ما ينسب إلى ابن وصيف شاه مع كتاب أخبار الزمان المنسوب إلى المسعودي. واعتمد على كتاب ابن وصيف شاه، والذي تحتفظ مكتبة سان بطرسبرج تحت رقم ٩٥٩٤ بأقدم نسخة منه بعنوان «كتاب المعجائب الكبير» وهي نسخة كتبت في القاهرة سنة ٦٠٧هـ، كل من النوري في «نهاية الأرب» والمفريزي في «المخطوط» (انظر المقدمة).

^٢ المسعودي: أخبار الزمان ١٦١، النوري: نهاية الأرب ٥١:١٥-٥٢ نقلًا عن ابن وصيف شاه.

^٣ انظر أيضًا فيما يلي ٣٧٣.

وعَمِلَ على الثَّيْلِ قَنْطَرَةٌ فِي أَوَّلِ بَلَدِ الثُّوبَةِ ، وَنَصَبَ عَلَيْهَا أَرْبَعَةَ أَضْغَامٍ مُوَجَّهَةً إِلَى أَرْبَعِ جِهَاتِ الدُّنْيَا ، فِي يَدَيِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَضْغَامِ خَرِيْتَانِ يَضْرِبُ بِهِمَا إِذَا أَتَاهُمَا آتٍ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِحَالِهَا إِلَى أَنْ هَدَمَهَا فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَعَمِلَ الْيَزْبَا عَلَى بَابِ الثُّوبَةِ ، وَهُوَ هُنَاكَ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا .

- وَعَمِلَ فِي إِحْدَى الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا حَوْضًا مِنْ صَوَانٍ أَسْوَدَ مَمْلُوءًا مَاءً ، لَا يَنْقُصُ طُولُ الدَّهْرِ وَلَا يَتَغَيَّرُ مَائُهُ ، لِأَنَّهُ اجْتَنَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ رُطُوبَةِ الْهَوَاءِ . وَكَانَ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَأَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَشْرَبُونَ مِنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مَائُهُ وَعَمِلَ ذَلِكَ [لَهُمْ]^(٥) لِيُعْطِيَهُمْ مِنَ الثَّيْلِ .

وَذَكَرَ بَعْضُ كَهَنَةِ الْقَيْطِ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا تَمَّ^(٥) لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ الْمِلْحِ ، فَإِنَّ الشَّمْسَ تَرْفَعُ بِحَرِّهَا بُخَارَ الْبَحْرِ فَيُتَخَصَّرُ/ مِنْ ذَلِكَ الْبُخَارِ جُزْءٌ بِالْهَنْدَسَةِ أَوْ بِالسَّخَرِ^(١) ، وَتَجْعَلُهُ يَنْحَطُّ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بِالْجَوْهَرِ مِثْلِ الظَّلِّ ، وَتَمُدُّهُ بِالْهَوَاءِ فَلَا يَنْقُصُ بِذَلِكَ مَائُهُ عَلَى الدَّهْرِ ، وَلَوْ شَرِبَ مِنْهُ الْعَالَمُ .

- ١٠ • وَعَمِلَ قَدْحًا لَطِيفًا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ ، وَأَهْدَاهُ حَوْمل^(٢) الْمَلِكُ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِ الْيُونَانِيِّ .

وَمَلَكَهُمْ عَدِيمٌ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَدُفِنَ فِي إِحْدَى الْمَدَائِنِ ذَاتِ الْعَجَائِبِ^(٣) ، وَقِيلَ : فِي صَخْرَاءٍ قَفْطٍ^(٣) .

وَذَكَرَ بَعْضُ الْقَيْطِ أَنَّ نَاوُوسَ عَدِيمٍ عَمِلَ فِي صَخْرَاءٍ قَفْطٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، تَحْتَ قُبَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ رُجَاجٍ أَحْضَرَ بَرَّاقٍ ، مَغْقُودٍ عَلَى رَأْسِهَا كُرَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَيْهَا طَائِرٌ مِنْ ذَهَبٍ مُوشَّحٌ بِجَوْهَرٍ مُنْشُورٍ الْجَنَاحِينَ يَمْتَنِعُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الْقُبَّةِ ، وَكَانَ قُطْرُهَا مِائَةُ ذِرَاعٍ فِي مِثْلِهَا ، وَجُعِلَ بِجَسَدِهِ فِي وَسْطِهَا عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُشَبَّكٍ ، وَهُوَ مَكْشُوفُ الْوَجْهِ ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مُنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ الْمَقْرُورِ بِالْجَوْهَرِ الْمَنْظُومِ ، وَطُولُ الْقُبَّةِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا .

وَجُعِلَ [مَعَهُ]^(٤) فِي الْقُبَّةِ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ مُصْحَفًا مِنْ مَصَاحِفِ الْحِكْمَةِ ، وَسَبْعُ مَوَائِدَ بِأَوَانِيهَا ، مِنْهَا مَائِدَةٌ مِنْ دُرٍّ رُمَانِيٍّ أَحْمَرٍ ، وَأَوَانِيهَا مِنْهَا ، وَمَائِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ فَلَمُونِيٍّ أَوَانِيهَا مِنْهَا ، وَمَائِدَةٌ مِنْ

٢٠

(٥) زيادة من السعدي . (b) بولاق : المائتم ، والتصويب كذلك من السعدي . (c) في الأصل وعند السعدي : حويل .

^١ النوري : نهاية الأرب ٥٧: ١٥-٥٨ (نقلًا عن ابن
وصيف شاه) .
كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للسعدي ١٦١-١٦٣ ،

وكذلك النص التالي .

^٢ نفسه ٥٨: ١٥ .

حجر الشمس المضيء بأنيتها ، وهو الزُّبرجد الذي إذا نظَرْت إليه الأفاعي سالت أعينها ، ومائدة من كبريت أحمر مُدَبَّر بأنيتها ، ومائدة من ملح أبيض مُدَبَّر براق بأنيتها ، ومائدة من زَبْج معقود . وجعل في القُبَّة جواهر كثيرة وبرابي صَنَعَة مُدَبَّرَة ، وحوله سبعة أشياف وأطراس من حديد أبيض مدبر وتماثيل أفراس من ذهب ، عليها سُروج من ذهب ، وسبعة توابيت من دنانير عليها صُورته . وجعل معه من أصناف العقاقير والشحومات والأدوية في برابي من حجارة .

وقد ذُكر من رأى هذه القُبَّة أنهم أقاموا أياما فما قَدَرُوا على الوصول إليها ، وأنهم إذا قَصَدُوا وكانوا منها على ثمانية أذرع دارت القُبَّة عن أيمانهم أو عن شمائلهم [من أَرَج] ^٩ . ومن أعجب ما ذَكَرُوهُ أنهم كانوا يُحَادِّثُونَ أَرَجَهَا أَرَجًا أَرَجًا ، فلا يَرَوْنَ [من أَرَج] ^٩ غير الصُورَة التي يرونها من الأَرَج الآخر على معنى واحد . وذَكَرُوا أنهم رَأَوْا وَجْهَ الْمَلِك قَدْر ذِرَاع ونصف بالكبير ، ولَحْيَتُهُ كبيرة مكشوفة ، وقدرُوا طُول بَدَنِهِ عشرة أذرع وزيادة ^{١٠} .

وذَكَر هؤلاء الذين رَأَوْهَا أنهم خَرَجُوا لِحَاجَةِ فَوَجَدُوا اتِّفَاقًا ، وأنهم سألُوا أَهْل قِطْع عنها فلم يَجِدُوا أَحَدًا يعرفها سوى شَيْخٍ منهم ^٢ .

وأوصى عَدِيمُ الْمَلِك ابنه شَدَات بن عَدِيم أن يَنْصَبَ في كُلِّ حَيِّزٍ من أحياز ولايته مَنَارًا وَيُزَيِّرَ عليه اسمه ، فالتَحَدَّرَ إلى الأَشْمُونِيِّنَ وَعَمِلَ مَنَارَاتِهَا ، وَزَيَّرَ عليها اسمه ، وعمل بها مَلَاعِبَ ، وعمل في صَحْرَائِهَا مَنَارًا أَقَامَ عليه صَنَمًا برأسين ، على اسم كَوَكَبَيْنِ كانا مُفْتَرَيْنِ في الْوَقْتُ الذي خَرَجَ فيه إلى أَثَرِيبَ ، وَبَنَى فيها قُبَّةً عَظِيمَةً مرتفعة على عُمْدٍ وَأَسَاطِينٍ بعضها فَوْقَ بعض ، وعلى رَاسِهَا صَنَمًا صَغِيرًا من ذهب ، وعمل هَيْكَلًا لِلْكَوَائِبِ . وَمَضَى إلى حَيِّزِ صَا ، فَعَمِلَ فيه مَنَارًا على رأسه مَرَأة من أَخْلَاطِ تَوْرِي الأقاليم ، وَرَجَعَ ^٣ .

وعَمِلَ شَدَات بن عَدِيم هَيْكَلًا أَرْمَنِيًا ، وَأَقَامَ فيه أَصْنَامًا بِأَسْمَاءِ الْكَوَائِبِ من جَمِيعِ الْمَعَادِنِ ، وَزَيَّنَهُ بِأَحْسَنِ الزَّيْنَةِ ، وَنَقَشَهُ بِالْجَوَاهِرِ وَالزُّجَاجِ الْمَلُونِ ، وَكَتَبَهُ الْوَشْيَ وَالذُّبَابَ ، وَعَمِلَ في الْمَدَائِنِ ^{٢٠} .

(٩) زيادة من المسعودي .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١٦٣-١٦٤ ؛ النويري : ^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥:٦١ وقارن المسعودي : نهاية الأرب ١٥:٥٩-٦٠ (عن ابن وصيف شاه) . أخبار الزمان ١٦٥ .

^٢ نفسه ١٦٤ .

الداخلية من أنصبتا هيكلًا ، وأقام فيه بأثريب ، وهيكلًا شرقي الإسكندرية .

وأقام صنمًا من صوان أسود باسم زحل على عبزة الثيل من الجانب الغربي ، وبني في الجانب الشرقي مئذنين في إحداهما صورة صنم قائم وله إخليل ، إذا أتاه المفقود والمسخور ومن لا يتشعر ذكره فمسحه^١ بكلمات يديه ، انتشر ذكره وقوي على البقاء . وفي إحداهما بقرة لها ضرعان كبيران ، إذا انعقد لبن امرأة أكلتها ومسحتها بيديها ، فإنه يدير لبنها^٢ .

وجمع الثماسيح بطلمس عمله بناحية أشيوط ، فكانت تنصب من الثيل إلى إخميم أنصباها ، فحفظها ويستعملها جلودًا في السفن وغيرها^٣ .

وعمل متقاوس الملك بيتًا تدور به تماثيل لجميع العِلل ، وكُتب على رأس كل تمثال فصلح [له]^٤ من العلاج ، فاتفق الناس بها زمانًا إلى أن أقسدها بعض الملوك .

وعمل صورة امرأة مكسمة ، لا يراها مَهْمُومٌ إلا زال همه ونسيته ، فكان الناس يتناوبونها ويطلون حوالها ، ثم عبدوها من مجفلة ما عبدوه بعد ذلك .

وعمل تماثلاً من صفر مذهب بجناحين ، لا يمر به زان ولا زانية إلا كشف عورته بيده . وكان الناس يمتحنون به الزناة ، فامتنعوا من الزنا فرقا منه . فلما ملك كلكن عيشة عنده رجلاً من خديمه ، وخافت أن تمتحن بذلك الصنم ، فأخذت في ذكر الزواني مع الملك وأكثرت من سجنهم وذمتهم ، فذكر كلكن ذلك الصنم وما فيه من المنافع ، فقالت : صدق الملك ، غير أن متقاوش لم يصب في أمره ؛ لأنه اتعب نفسه وحكماءه فيما يجعله لإصلاح العائمة دون نفسه ، وكان محكم هذا أن ينصب في دار الملك حيث يكون نساؤه وجواريه ، فإن افتقرت إحداهن ذنباً علم بها فيكون رادعاً لهن متى عرض بقلوبهن شيء من الشهوة . فقال كلكن : صدقت ، وظن أن هذا منها نضح ، فأمر بترع الصنم من موضعه ونقله إلى داره فبطل عمله ، وعملت المرأة ما كانت همت به .

وبني هيكلًا على جبل القصير للسحرة ، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلقة إلا بقرينة يأخذونها منهم للملك^٥ .

(١) في النويري : نفسه . (٢) زيادة من النويري .

^٢ نفسه ١٥ : ٦٣ ؛ نفسه ١٦٧ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦١ - ٦٢ وقارن

^٣ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦٥ - ٦٦ (عن ابن -

المسعودي : أخبار الزمان ١٦٦ - ١٦٧ .

وبنى متناوش بن متقاوش في صحراء العرب مدينة بالقرب من مدينة الشجرة تعرف بيمطراً^(أ) ذات عجائب، وجعل بوسطها قبة عليها كالشحابة تمطر شتاءً وصيفاً مطراً خفيفاً، وتحت القبة مظهر فيهما ماء أخضر يتداوى^(ب) به من كل داء فيئوته، وعمل في شرقها برباً لطيفاً له أربعة أبواب، لكل باب عضادتان، في كل عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث في يومه. فمن دخل الباب على غير طهارة تفخا في وجهه فأصابه رعدة فظيمة لا تقاربه حتى يموت.

وكانوا يقولون: إن في وسطه مهبط الثور في صورة العنود، من اعتنقه لم يحتاج عن نظره عن شيء من الرؤحانية، وسمع كلامهم، ورأى ما يفتنون.

وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة رايب في يده مضمخف فيه علم من العلوم، فمن أحب معرفة ذلك العلم، أتى تلك الصورة فمسحها يديه وأمرؤهما على صدره، فيثبت ذلك العلم في صدره. ويقال: إن هاتين المدينتين نبيتا على اسم هزمس وهو غطارد، وأتتهما بحالهما. وحكي عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو أمير مصر، فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق^(ج)، فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة، وأنه أكل منها وتزود؛ فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتي هزمس، وفيها كنوز كثيرة؛ فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد، فأقاموا يطوفون تلك الصحاري شهراً فلم ينفقوا لها على أثر.

وعملت أم بلاطس^(د) الملك يوكة عظيمة في صحراء الغرب، وجعلت في وسطها عموداً طوله ثلاثون ذراعاً، وفي أعلاه قصعة من حجارة يفر منها الماء فلا ينقص أبداً. وجعلت حول البركة أضناماً من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم، فكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها، فيؤخذ باليد وينتفع به.

وعملت لابنها مئترتها لأنه كان يحب الصيد، فجعلت فيه مجالس مربعة على أساطين من مزمر مصفح بالذهب مرمع بالجواهر والزجاج الملون، وزخرفته بالتصاوير المعجبة والتشوش،

(أ) بولاق: بطنطرة. (ب) الأصل وبولاق: بدلاوي والتصويب من النوري. (ج) عند المسعودي: الغرب. (د) الأصل وبولاق: ميلاطس.

= وصيف شاه وقرن المسعودي: أخبار الزمان ١٦٩-١٧١. وقرن المسعودي: أخبار الزمان ١٧٥-١٧٦.

^١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٧٠ (عن ابن وصيف شاه)

فَكَانَ الْمَاءُ يَطْلُعُ مِنْ فَوَارَاتٍ ، وَيَنْصَبُ إِلَى أَنْهَارٍ قَدْ صُفِّحَتْ بِالْفِضَّةِ ، تَجْرِي إِلَى خُدَائِقٍ فِيهَا تَدْبِعُ
الْفُروشاتِ ، وَقَدْ أُقِيمَ حَوْلُهَا تَمَاثِيلُ تُصَفِّرُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ . وَأَزْنَحَتْ عَلَى الْمَجْلِسِ شَتُورًا مِنْ دِيبَاجٍ ،
وَاخْتَارَتْ لَابِنَهَا مِنْ حِسَانِ بَنَاتِ عَمِّهِ وَبَنَاتِ الْمُلُوكِ وَأَزْوَاجَتِهِ ، وَخَوَّلَتْهُ إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ ، وَبَنَتْ
حَوْلَ الْجَنَّةِ مَجَالِسَ لِلْوُزَرَاءِ وَالْكَهَنَةِ وَأَشْرَافِ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ ، فَكَانُوا يَزْفَعُونَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا
يَعْمَلُونَهُ ، فَإِذَا فَرَّغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، حُمِلَ إِلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ^١ .

وَكَانَ بِلَاطُسُ ^(أ) تَقْلُدُ الْمَلِكَ بَعْدَ أَبِيهِ مَرْقُورَةُ وَهُوَ صَبِيٌّ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مُدَبِّرَةُ الْمَلِكِ وَهِيَ حَازِمَةٌ
مُجَرَّبَةٌ فَأَجَزَتْ الْأُمُورَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ ، وَأَحْسَنْتْ وَعَدَلَتْ فِي الرِّعِيَّةِ ، وَوَضَعَتْ
عَنْهُمْ بَعْضَ الْخَرَاجِ ^٢ .

وَكَانَتْ أَبَاهُ سَعِيدَةً كُلَّهَا فِي الْخِيَصْبِ الْكَثِيرِ وَالشَّمْعَةِ لِلنَّاسِ وَالْعَدْلِ . وَكَانَ لَهُ يَوْمٌ يَخْرُجُ فِيهِ
إِلَى الصَّيْدِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ فَيَأْتِرُ لِكُلِّ مَنْ مَعَهُ بِالْجَوَائِزِ وَالْأَطْيَعَةِ ، وَيَجْلِسُ لِلنَّظَرِ يَوْمًا فِي
مَصَالِحِ النَّاسِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، وَيَخْلُو يَوْمًا بِنِسَائِهِ ^٣ .
وَكَانَ مُلْكُهُ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةٍ وَمَجْدِيرَ فَمَاتَ .

وَعَمِلَ قَرْسُونُ بْنُ فُلَيْمُونِ بْنِ أَقْرِبَ قَنَارًا عَلَى بَغْرِ الْقُلُزْمِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ مِرْوَاةٌ [مِنْ أَخْلَاطِ] ^(ب)
تَحْتَذِبُ بِهَا الْمَرَائِبَ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَلَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَبْرَحَ إِلَّا أَنْ تُقَشَّرَ ، فَإِذَا عَشُرَتْ شَتِيرَتْ الْمِرْوَاةُ
حَتَّى تَجُوزَ الْمَرَائِبَ .

وَأَقَامَ قَرْسُونُ مِائَتِي سَنَةٍ وَسِتِينَ سَنَةً ، وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ نَاوُوسًا خَلْفَ الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الشَّرْقِيِّ ، فِي
وَسْطِهِ مَجَّةٌ حَوْلَهَا اثْنَا عَشَرَ بَيْتًا ، فِي كُلِّ بَيْتٍ أَعْجُوبَةٌ لَا تُشَبِّهُ الْأُخْرَى ، وَزَيَّرَ عَلَيْهَا اسْمَهُ وَمُئِدَّهُ
مُلْكُهُ ^٤ .

وَكَانَ مَرْقُورُسُ الْمَلِكُ حَكِيمًا مُجَبِّيًا لِلنُّجُومِ وَالْعُلُومِ وَالْحِكْمَةِ ، فَعَمِلَ فِي أَيَّامِهِ دِرْهَمًا إِذَا اتَّجَعَ بِهِ
صَاحِبُهُ شَيْقًا اشْتَرَطَ أَنْ يُوزَنَ ^(ج) لَهُ مَا يَتَنَاعَهُ مِنْهُ بِوَزْنِ الدَّرْهَمِ وَلَا يَطْلُبُ عَلَيْهِ زِيَادَةً ، فَيَفْتَرِ الْبَائِعُ
بِذَلِكَ ، وَيَقْبَلُ الشَّرْطَ ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا وَقَعَ فِي وَزْنِ الدَّرْهَمِ أَرْطَالٌ كَثِيرَةٌ تُسَاوِي عَشْرَةَ

(أ) الْأَصْلُ وَبُولَاقُ : مِيلَاطُسُ . (ب) إِضَافَةٌ مِنَ النُّوْبَرِيِّ . (ج) فِي النُّسَخِ : يَزَنُ .

^١ النُّوْبَرِيُّ : نِهَاجَةُ الْأَرْبِ ٧٤ : ٧٥ - ٧٥ .

^٢ نَفْسُهُ ٧٤ : ١٥ .

^٣ نَفْسُهُ ٧٥ : ١٥ .

^٤ نَفْسُهُ ٨٠ : ١٥ .

أضعافه . وكان إذا أَحَبَّ أن يدخل في وزنه أضعاف تلك الأبطال دَخَلَ . وقد وَجَدَ هذا الدَّرْهَمَ في كَنُوزِهِم ثم في خَزَائِنِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وكان الناسُ يَتَعَجَّبُونَ منه .

وَوَجَدُوا دَرَاهِمَ أُخَرِ قِيلَ : إِنَّهَا عُمِلَتْ فِي وَقْتِهِ أَيْضًا ، فيكون الدَّرْهَمُ منها في ميزان الرُّجُلِ ، فإذا أَرَادَ أن يَبْسُجَ حَاجَةً أَخَذَ ذَلِكَ الدَّرْهَمَ وَقَبْلَهُ وقال : اذْكُرِ الْعَهْدَ ، وَاثْبَاتِ بِهِ مَا أَرَادَ . فإذا أَخَذَ السِّلْعَةَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ ، وَجَدَ الدَّرْهَمَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، ويجد البائِعُ مَوْضِعَ ذَلِكَ الدَّرْهَمِ وَرَقَّةَ آسٍ أَوْ قِوْطَاسًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ بِدَوْرِ الدَّرْهَمِ .

وفي وَقْتِهِ عُمِلَتْ الْآبِيَةُ الرُّجَاجُ الَّتِي تُوزَنُ ، فإذا مُلِئَتْ مَاءً أَوْ غَيْرِهِ ثُمَّ وُزِنَتْ لَمْ تَزِدْ وَزْنُهَا الْأَوَّلَ شَيْقًا . وَعُمِلَ فِي وَقْتِهِ الْآبِيَةُ الَّتِي إِذَا جُعِلَ الْمَاءُ فِيهَا صَارَ خَفَرًا فِي لَوْنِهِ وَرَائِحَتِهِ وَفِعْلِهِ .

وقد وَجَدَ مِنْ هَذِهِ الْآبِيَةِ بِطَافِيحٍ فِي إِمَارَةِ هَارُونَ بْنِ خُحْمَارَوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ، شَرْبَةً جَزَعُ بِمَرْوَةٍ زَرْقَاءَ بِيضًا . وكان الذي وَجَدَهَا أَبُو الْحَسَنِ الصَّبَّاحِيُّ الْخُرَاسَانِيُّ هُوَ وَنَفَرٌ مَعَهُ ، فَأَكَلُوا عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ وَشَرَبُوا بِهَا الْمَاءَ فَوَجَدُوهُ خَفَرًا سَكِرُوا مِنْهُ ، وَقَامُوا لِيَتَقُصُّوا فَوَقَعَتِ الشَّرْبَةُ فَانْكَسَرَتْ عِندَهُ قِطْعٌ ، فَأَعْتَمَ الرَّجُلُ وَجَاءَ بِهَا إِلَى هَارُونَ فَأَيَّفَ عَلَيْهَا وَقَالَ : لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَأَشْتَرَيْتَهَا/ بِبَعْضِ مُلْكِي^١ .

وَأَمَّا الْآبِيَةُ الثُّحَاسِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْمَاءَ خَفَرًا ، فَإِنَّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى قَلْبِطَرَةِ بِنْتِ بَطْلَمَيْئُوسَ مَلِكَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَكَثِيرَةٌ .

وفي وَقْتِهِ عُمِلَتِ الصُّوَرُ الْحَيَوِيَّةُ مِنَ الصُّفَايِدِ وَالْخَنَافِيسِ وَالذُّبَابِ وَالْعَقَارِبِ وَسَائِرِ الْحَشَرَاتِ ، وَكَانَتْ إِذَا جُعِلَتْ فِي مَوْضِعٍ اجْتَمَعَ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْجِنْسُ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى مُفَارَقَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ حَتَّى يُقْتَلَ^٢ ؛ وَكَأَنَّهُ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا بِصُورِ دَرَجِ الْفَلَكِ وَأَشْعَائِهَا وَطَوَالِعِهَا ، فَيَتِمُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُرِيدُهُ ..

وعُمِلَ فِي صَحَرَاءِ الْغَرْبِ مَلَقَبًا مِنْ رُجَاجٍ مُلَوَّنٍ فِي وَسْطِهِ قُبَّةٌ مِنْ رُجَاجٍ أَخْضَرَ صَافِي اللَّوْنِ ، فَإِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ أَلْقَتْ شُعَاعَهَا عَلَى مَوَاضِعَ بَعِيدَةٍ ، وَعُمِلَ فِي بَجَوَانِيهِ الْأَرْبَعَةِ أَرْبَعَةَ مَجَالِسٍ عَالِيَةٍ مِنْ رُجَاجٍ ، كُلُّ مَجْلِسٍ لَوْنٌ ، وَنَقَشٌ عَلَيْهَا بَغِيرَ لَوْنِهَا طَلْسَمَاتٌ عَجَبِيَّةٌ ، وَنُقُوشَاتٌ غَرِيبَةٌ وَصُورًا بَدِيقَةً ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ رُجَاجٍ مُطْلَقٍ يَشِفُّ . وَكَانَ يَقِيمُ فِي هَذَا الْمَلْعَبِ الْأَيَّامَ ، وَعُمِلَ

^٢ نفسه ١٥ : ٨٣ .^١ التوبري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٢ - ٨٣ .

له ثلاثة أعياد في كل سنة ، فكان الناس يَحْجُونَ إليه في كل عيد ، وَيَذْبَحُونَ له وَيُقِيمُونَ فيه سبعة أيام . ولم يزل هذا الملعبُ تَقْصِده الأُممُ ، فَإِنَّه لم يَكُنْ له نظير ، ولا عَمِلَ في العالم مثله ، إلى أن قَدَمَهُ بعضُ الملوك لَعَجْزَهُ عن عَمَلِ مثله ^١ .

وكانت أُمُ مَرْقُونَس ابنة ملك الثوبة ، وكان أبوها يعبد الكَوْكَب الذي يُقال له الشها ، ويسميه إلهاً ، سألت ابنها أن يعمل لها هَيْكَلًا يُعْردها به ، فَعَمِلَهُ وَصَفَّحَهُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَقَامَ فيه صَنَمًا ، وَأَرْخَى عليه الستور الحرير ، فكانت تَدْخُلُ إليه بجواربها وخَشَمِها ، وَتَسْجُدُ له في كل يوم ثلاث مَرَّات ، وَعَمِلَتْ لِكُلِّ شَهْرٍ عيدًا تُقَرِّبُ له قرايين وَتُبَخِّرُهُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَنَصَبَتْ له كَاهِنًا من الثوبة يَقُومُ به وَيُقَرِّبُ له وَيُبَخِّرُهُ ، ولم تَزَلْ يَأْتِيها حتى سَجَدَ له وَدَعَا الناس ^٢ إلى عِبَادَتِهِ .

- ١٠ فلما رأى الكاهنُ الأُمُرَ في عِبَادَةِ الكَوَاكِبِ قد تَمَّ وَأُحْكِمَ من جهة الملك ، أَحَبَّ أن يكون لَكَوْكَبِ الشها مِثَالٌ في الأرض على صُورَةِ حَيَوَانٍ يُتَعَبَّدُ له ، فَأَقَامَ يَعْمَلُ الحيلةَ في ذلك ، إلى أن اتَّفَقَ أَنَّ الْعُقْبَانَ كَثُرَتْ بِمِصْرَ وَأَصْرَتْ بالناس ، فَأَحْضَرَ الملكَ هذا الكاهنَ وسأله عن سَبَبِ كَثُرَتِهَا ، فقال : إِنَّ إِلَهَكَ أَرْسَلَهَا لتعملَ لها نظيرًا لِيُسْجَدَ له . فقال مَرْقُونَس : إِنْ كَانَ يُرْضِيهِ ذَلِكَ فَأَنَا فاعِلُهُ . فقال : إِنْ ذَلِكَ رِضاهُ . فَأَمَرَ بِعَمَلِ عُقَابٍ طُولُهُ ذِرَاعَانِ فِي عَرْضِ ذِرَاعٍ مِنْ ذَهَبٍ مَسْبُوكٍ ، وَعَمَلَ عَيْنَيْهِ من ياقوتتين ، وَعَمِلَ له وَشَاحِينَ مِنْ لُؤْلُؤٍ مَنْظُومٍ عَلَى أَنْيَابِ جَوْهَرٍ أَخْضَرَ ،
- ١٥ وَفِي مِثْقَالِهِ دُرَّةٌ مُعَلَّقَةٌ ، وَسَرَّوَلُهُ بِالذَّرِّ الْأَحْمَرِ ، وَأَقَامَهُ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشَةٍ ، قَدْ رُكِبَتْ عَلَى قَائِمَةٍ رُجَاجٍ أَرْزَقَ ، وَجَعَلَهُ فِي أَرْجٍ عَنْ يَمِينِ الْهَيْكَلِ ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ سِتُورَ الْحَرِيرِ ، وَجَعَلَ له دُخْنَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاوِيهِ وَالصُّمُوغِ ، وَقَرَّبَ له عِجْلًا أَسْوَدَ وَبَكَارَةً الْقَرَارِيجِ وَبَاكُورَةَ الْفَوَاكِهِ وَالزَّيْلَاحِينَ . فَلَمَّا تَمَّتْ له سبعة أيامَ دَعَاهُمْ إِلَى السُّجُودِ إِلَيْهِ فَأَجَابَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلِ الْكَاهِنُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ فِي عِبَادَةِ الْعُقَابِ وَعَمِلَ له عيدًا . فَلَمَّا تَمَّ لِدُنْكَ أُرْمَعُونَ يَوْمًا نَطَقَ الشَّيْطَانُ مِنْ جَوْفِهِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَحْرَ لَه فِي أَنْصَافِ الشُّهُورِ بِالْمَقْدَلِ ، وَيُورِشَ الْهَيْكَلُ بِالْحُمْرِ الْعَتِيقَةِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ زُهْرَسِ الْخَوَارِيزِيِّ ، وَغَرَفَهُمْ أَنَّهُ قَدْ أزالَ عَنْهُمْ الْعُقْبَانَ وَصَرَّرَهَا ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ فِي غَيْرِهَا مِمَّا

(٢) ساقطة من يولاتي .

يَخَافُونَ . فَسَرَّ الْكَاهِنُ بِذَلِكَ وَتَوَجَّهَ إِلَى أُمِّ الْمَلِكِ يُعَرِّفُهَا ذَلِكَ ، فَسَارَتْ إِلَى الْهَيْكَلِ وَسَمِعَتْ
كَلَامَ الْعُقَاب ، فَسَرَّهَا ذَلِكَ وَأَعْظَمْتَهُ . وَبَلَغَ الْمَلِكُ فَرَكِبَ إِلَى الْهَيْكَلِ حَتَّى خَاطَبَهُ وَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ .
فَسَجَدَ لَهُ ، وَأَقَامَ لَهُ سِدَنَةً ، وَأَمَرَ أَنْ يُزَيَّنَ بِأَصْنَافِ الزُّيْنَةِ . وَكَانَ مَرْقُونَسَ يَقُومُ بِهَذَا الْهَيْكَلِ ،
وَيَسْجُدُ لِتِلْكَ الصُّورَةِ ، وَيَسْأَلُهَا عَمَّا يُرِيدُ فَتُخْبِرُهُ .

وَعَمِلَ مِنَ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَتَحَذَّرْ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ دَفَنَ فِي صَخْرَاءِ الْقَرْبِ خَمْسَ
مِائَةِ ذَفِين . وَيُقَالُ : إِنَّهُ عَمِلَ عَلَى بَابِ مَدِينَةِ صَا عَمُودًا عَلَيْهِ صَنْمٌ فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ جَالِسَةٍ وَفِي
يَدَيَّهَا مِرْآةٌ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ، وَكَانَ الْقَلِيلُ يَأْتِي إِلَى هَذِهِ الْمِرْآةِ وَيَنْظُرُ فِيهَا أَوْ يَنْظُرُ لَهُ أَحَدٌ فِيهَا فَإِنْ كَانَ
يَمُوتُ مِنْ عِلَّتِهِ تَلِكَ زَيْي مَيِّتًا ، وَإِنْ كَانَ يَحْيَا يَرَاهُ حَيًّا ، وَيَنْظُرُ فِيهَا أَيْضًا لِلْمُسَافِرِ فَإِنْ رَأَاهُ مُقْبِلًا
يُوجِّهُهُ عَلِيمُوا أَنَّهُ رَاجِعٌ ، وَإِنْ رَأَاهُ مُؤَلِّيًّا عَلِيمُوا أَنَّهُ يَتِمَادِي فِي سَفَرِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ مَيِّتًا رَأَاهُ
كَذَلِكَ فِي الْمِرْآةِ .

وَعَمِلَ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ صُورَةَ رَاهِبٍ جَالِسٍ عَلَى قَاعِدَةٍ ، وَعَلَى رَأْسِهِ كَالْبِزُّئُسَ وَفِي يَدِهِ
كَالْمُكَازَ ، فَإِذَا مَرَّ بِهِ تَاجِرٌ جَعَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ عَلَى قَلْبِ بَضَاعَتِهِ ، فَإِنْ تَجَاوَزَهُ وَلَوْ عَنْ بُعْدٍ
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَالِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجَوَازِ وَتَبَّتْ قَائِمًا مَكَانَهُ ، فَكَانَ يَجْتَمِعُ مِنْ ذَلِكَ مَالٌ
عَظِيمٌ يُفَرَّقُ فِي الزُّمْنَى وَالصُّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ .

وَعَمِلَ فِي زَمَنِهِ كُلُّ أُعْجُوبَةٍ ظَرِيفَةٍ ، وَأَمَرَ أَنْ يُزَيَّرَ اسْمُهُ عَلَيْهَا وَعَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَكُلِّ طِلْسَمٍ
وَكُلِّ صَنْمٍ . وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ نَاقُوسًا فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ ، عِنْدَ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ : سُدَامَ ، وَعَمِلَ تَحْتَهُ أَرْجَا
يُقَالُ : إِنَّ طَوْلَهُ مِائَةُ ذِرَاعٍ ، وَارْتِفَاعُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا ، وَصَفْحَةُ بِالْمَرْمَرِ
وَالزُّجَاجِ الْمَلُونِ ، وَسَقْفُهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَعَمِلَ فِيهَا دَائِرَةٌ مَسَاطِبُ مُبْلَطَةٌ بِزُجَاجٍ عَلَى كُلِّ مَسْطَبَةٍ
أُعْجُوبَةٌ ، وَفِي وَسَطِ الْأَرْجِ دَكَّةٌ مِنْ زُجَاجٍ ، عَلَى كُلِّ رُحْنٍ مِنْ أَرْكَانِهَا صُورَةٌ تَمْنَعُ الدُّنُوَّ إِلَيْهَا ،
وَبَيْنَ كُلِّ صُورَتَيْنِ مَنَارَةٌ عَلَيْهَا حَجَرٌ مُضِيءٌ ، وَفِي وَسَطِ الدَّكَّةِ حَوْضٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ جَسَدُهُ بَعْدَ
مَا حُشِدَ بِالْأَدْوِيَةِ الْمَاسِيكَةِ ، وَنُقِلَ إِلَيْهِ دَخَائِرُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ وَغَيْرِهِ ، وَسَدَّ بَابَ الْأَرْجِ/
بِالصُّخُورِ وَالرِّصَاصِ ، وَهَبِلَ عَلَيْهَا الرِّمَالُ .

وَكَانَ ثَمَلُكُهُ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ سَنَةً ، وَخُمْرُهُ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَكَانَ بِجَمِيلًا ، ذَا وَفَرَةٍ حَسَنَةٍ ،
فَتَشَكَّتْ نِسَاؤُهُ وَلَزِمْنَ الْهَيْكَلُ مِنْ بَعْدِهِ ¹ .

¹ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٤ - ٨٦ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنَهُ أَنْسَاد^٨، ثُمَّ صَا بْنِ أَنْسَاد^٩، وَقِيلَ: صَا بْنُ مَرْقُونَسٍ أَخُو أَنْسَادٍ، فَعَمِلَ مِرَاةً فِي مَدِينَةٍ مَثَلِ تَرَى الْأَوْقَاتِ الَّتِي تُخَصِّصُ فِيهَا مِصْرَ وَتُجَذِّبُ، وَبَنَى بِدَاخِلِ الْوَاحَاتِ مَدِينَةً، وَنَصَبَ قُرْبَ الْبَحْرِ أَعْلَامًا كَثِيرَةً.

وَعَمِلَ خَلْفَ الْمُقَطَّمِ صَنْمًا يُقَالُ لَهُ: صَنْمُ الْحَيْلَةِ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِأَتِيهِ وَيُسَخَّرُهُ فَيَسْخَرُ ذَلِكَ الْأَمْرَ لَهُ. وَجَعَلَ بِحَافَةِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ مَنَارًا يَقْلَمُ مِنْهُ أَمْرَ الْبَحْرِ وَمَا يَخْدُثُ فِيهِ مِنْ أَقْصَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْبَصَرُ عَلَى مَسِيرَةِ أَيَّامٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا. وَيُقَالُ: إِنَّهُ بَنَى أَكْثَرَ مَدِينَةٍ مَثَلِ، وَكُلَّ ثِيَابٍ عَظِيمٍ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ^١.

وَلَمَّا مَلَكَ ثُنَادَرَسُ بْنُ صَا الْأَخْيَازَ كُلَّهَا بَعْدَ أَبِيهِ، وَصَفَا لَهُ ثَمْلُكَ مِصْرَ، بَنَى فِي غَرْبِ مَدِينَةٍ مَثَلِ بَيْتًا عَظِيمًا لِكُتُوبِ الزُّهْرَةِ، وَأَقَامَ فِيهِ صَنْمًا عَظِيمًا مِنْ لَازُورْدٍ مَذْهَبٍ، وَتَوَجَّهَ بِذَهَبٍ بِلُوحٍ يُرْوَقُهُ، سَوْرَهُ بِشَوَارِئِنِ مِنْ زَبَرْجَدٍ أَخْضَرَ. وَكَانَ الصَّنَمُ فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ لَهَا صَفِيرَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَشْوَدَ مَذْبَرٍ، وَفِي رِجْلَيْهَا خُلْخُلَانِ مِنْ حَجَرٍ أَحْمَرَ شَقَّافٍ، وَتَقْلَانِ مِنْ ذَهَبٍ، وَبِيَدَيْهَا قَضِيْبُ مُوْجَانِ، وَهِيَ تُشِيرُ بِسَبَائِيهَا كَأَنَّهَا مُسَلِّمَةٌ عَلَى مَنْ فِي الْهَيْكَلِ؛ وَجَعَلَ بِجِذَائِهَا ثَمَالًا بِقَرَّةِ ذَاتِ قَوْنَيْنِ وَضَرْعَتَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ أَحْمَرَ ثَمُوهُ بِذَهَبٍ، مُوشِحَةٌ بِحَجَرِ اللَّازُورْدِ، وَوَجْهَ الْبَقَرَةِ تَجَاهَ وَجْهَ الزُّهْرَةِ، وَبَيْنَهُمَا مَطْهَرَةٌ مِنْ أَخْلَاطِ الْأَجْسَادِ، عَلَى عَمُودٍ رُخَامٍ مَجْزُوعٍ، وَفِي الْمَطْهَرَةِ مَاءٌ مَذْبَرٍ يُسْتَشْفَى بِهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَفَرَشَ الْهَيْكَلُ بِحَشِيْشَةِ الزُّهْرَةِ يُبَدِّلُونَهَا فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ؛ وَجَعَلَ فِي الْهَيْكَلِ كِرَاسِيٍّ لِلْكَهَنَةِ قَدْ صُفِّحَتْ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَرَّبَ لِهَذَا الصَّنَمِ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الطَّيْرِ وَالْمَرْ وَالْوَحْشِ وَالطُّيْرِ، وَكَانَ يَحْضُرُ يَوْمَ الزُّهْرَةِ وَيَطْلُوفُ بِهِ. وَفَرَشَ الْهَيْكَلُ وَسْتَرَهُ، وَجَعَلَ فِيهِ تَحْتَ قَبْتِهِ صُورَةَ رَجُلٍ رَاكِبٍ عَلَى فَرَسٍ، لَهُ جَنَاحَانِ، وَمَعَهُ خَوْزَنَةٌ فِي سِنَانِهَا رَأْسُ إِنْسَانٍ مُعْلَقٌ. وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْهَيْكَلُ إِلَى أَنْ هَدَمَهُ بُخْت نَصْرُ فِي أَيَّامِ مَالِيْقِ بْنِ ثُنَادَرَسٍ^٢.

وَكَانَ مُوَحَّدًا عَلَى دِينِ قُبْطِيْمٍ وَمِصْرَامٍ، خَرَجَ فِي جَنْبِشٍ عَظِيمٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَفَرَّقَا الْبَزِيرَ وَأَرْضَ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادَ الْأَنْدَلُسِ وَأَرْضَ الْإِفْرَاجِ إِلَى الْبَحْرِ، وَعَمِلَ فِي الْبَحْرِ أَعْلَامًا زَبَرَ عَلَيْهَا اسْمُهُ

(٨) الْأَصْلُ وَبِلَايَ: إِسَاد.

١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٨٨. الهياكل والطلسمات المصرية فيما تقدم ٦٨.

٢ نفسه ١٥: ٩٣-٩٤، وانظر عن تحطيم بخت نصر

ومسيره ، وزجج فهايته ملوك الأرض^١.

وكان في غربي مصر مدينة يقال لها : قزميدة بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساجرة^٢ فعزاهم فلم يزل منهم قسدا وزجج ، فأرادت ملكتهم إفساد مصر ، فعملت من سحرها وأمرت فألقي في النيل ، ففاض الماء على المزاريح حتى أقصدتها ، وكثرت التماسيح والضفادع ، وفشت الأمراض في الناس ، واثبتت فيهم الثعابين والعقارب . فأحضر مالىق الكهنة والحكماء في دار حكمتهم ، وألزمهم بالنظر لذلك ؛ فنظروا في نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب ، وأن امرأة عيلته وألقته في النيل ، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الشاجرة ، واجتهدوا في دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة . وجئوا قائلدا في جيش إلى المدينة ، فلم يجدوا بها غير رجل واحد ، فأخذوا من الأموال والجواهر والأضنام ما لا يحصى ؛ فمن ذلك صورة كاهن من زيزجد أخضر ، على قائمة من حاجر الأسبازشم^٣ ، وصورة زوحاني من ذهب رأسه من مجوهر أحمر ، وله جناحان من دُر ، وفي يده مضخف فيه كثير من علومهم في دفتين مرصعتين بجوهر ، ومطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر ، فيها ماء لدفع الأسقام ، وقرس من فضة ، إذا غرِم عليه بعزائمه ودخن بدخنته وركبه أخذ طار به . فأحضر ذلك وغيره من عجائب الشجرة وأضنامهم ، والأموال والجواهر إلى مصر ، ومعهم الرجل ، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم ، قال : قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كيف وتخايل هائلة ، فأعلق أهل مدينتنا جصنهم ولجأوا إلى الأضنام ، فأتى الكاهن إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشرّبون منها فجلس على حافتها ، وأحاط رؤساء الكهنة بها ، وأخذ يرمي على الماء حتى فاز ، وخرج من وسطه نار ، في وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء ، فحز الجماعة لها سجودا ، وتلك الصورة تفضم حتى صعدت وخرقت القبة وسمع منها : « قد كفيتم شرّ عدوكم » . فقاموا وإذا بقدوهم قد هلك وسائر من معه ، وذلك أن صورة الشمس التي ظهرت من الماء مرّت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها^٤.

(a) بولاق : الأسياديم .

^١ النويري : نهاية الأرب ٩٥: ٩٥-٩٩ ، ونص للمقري

^٢ عند النويري : يقال لها : سطفا .

^٣ مختصر عن نص النويري الذي نقل نص ابن وصيف شاه كاملا .

ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خِرْمَتًا^(٨)، كان الثُغروُد في وَقْتِهِ، فأتَصَلَ بَنُغُروُد خَبَرُ حِكْمَتِهِ
وسِغَرِه فاستَرَّاه، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ أَنْ يَلْقَاهُ، وَكَانَ الثُغروُدُ يَسْكُنُ سَوَادَ الْعِرَاقِ، وَغَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ
الْأَنْثَم. فَأَقْبَلَ كُلْكَنَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَفْرَاسٍ تَحْمِلُهُ، لَهَا أُنْجِيحَةُ، قَدْ أَحَامَلَتْ بِهِ كَالنَّارِ، وَحَوْلَهُ صُورُ
هَائِلَةٍ، فَدَخَلَ بِهَا، وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ بِثِقْبَانٍ، وَمُخَرِّمٌ بِيَعْضِهِ، وَذَلِكَ الثَّانِيْنَ فَاغِرَ فَاهُ، وَمَعَهُ قَضِيبُ
أَسٍ أَحْضَرٍ، كُلَّمَا حَزَكَ الثَّانِيْنَ رَأْسُهُ ضَرَبَتْهُ بِالْقَضِيبِ. فَلَمَّا رَأَى الثُغروُدُ ذَلِكَ هَالَهُ، وَاعْتَرَفَ لَهُ
بِجَلِيلِ الْحِكْمِ.

وَتَقُولُ الْقَيْطُ: إِنَّ كُلْكَنَ كَانَ يُزْتَفَعُ فَيَجْلِسُ عَلَى الْهَرَمِ الْغَرِيبِ فِي قُبَّةٍ تَلُوحُ عَلَى رَأْسِهِ، وَكَانَ
أَهْلُ الْبَلَدِ إِذَا دَعَمَهُمْ أَقْرَبُ اجْتَمَعُوا حَوْلَ الْهَرَمِ. / وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ رُبَّمَا قَامَ عَلَى رَأْسِ الْهَرَمِ أَيَّامًا لَا
يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ. ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَتَرَ مُدَّةً حَتَّى تَوَهَّمُوا أَنَّهُ هَلَكَ، فَطَلَعَ الْمُلُوكُ فِي مِصْرَ، وَقَصَّدَهَا
مَلِكٌ مِنَ الْمَغْرِبِ يُقَالُ لَهُ: «سَادُوم» فِي بَجِيْشٍ عَظِيمٍ، إِلَى أَنْ بَلَغَ وَادِي هَبِيبٍ. فَأَقْبَلَ كُلْكَنَ
وَجَلَّلَهُمْ مِنْ سِجْرَةٍ بِشِيءٍ كَالْغَمَامِ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، وَهُمْ تَحْتَهُ أَيَّامًا لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَتَوَجَّهُونَ، ثُمَّ
ازْتَفَعُوا وَصَارَ يَمْضِرُ بِعَرَفِهِمْ مَا عَمِلَ، وَأَمَرَهُمْ فَخَرَجُوا، فإِذَا بِالْقَوْمِ وَدَوَائِبِهِمْ قَدْ مَاتُوا، فَهَاتِهِ جَمِيعُ
الْكُهْنَةِ، وَصُورِهِ فِي سَائِرِ النَّهْيَاكِلِ. وَبَنَى هَيْكَلًا لِرُحْلِ مَنْ صَوَّانَ أَسْوَدَ فِي نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، وَجَعَلَ
لَهُ عِيْدًا^١.

وَفِي أَيَّامِ دَارِمِ بْنِ الرَّهْطَانِ، وَهُوَ الْفِرْعَوْنُ الرَّابِعُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ عِنْدَ الْقَيْطِ دَرِيمُوسَ، ظَهَرَ مُقَدُّنُ
فِضَّةٍ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ النَّيْلِ، أَثَارُوا^(٩) مِنْهُ شَيْئًا عَظِيمًا. وَغَمِلَ صَنَمًا عَلَى اسْمِ الْقَمَرِ، لِأَنَّ طَالِيعَهُ
كَانَ يُزْجُ السَّرْطَانَ، وَنَصَبَهُ عَلَى الْقَصْرِ الزُّنْعَامِ الَّذِي بَنَاهُ أَبُوهُ فِي شَرْقِيِّ النَّيْلِ، وَنَصَبَ حَوْلَهُ
أَصْنَانًا كُلَّهَا مِنَ الْفِضَّةِ، وَاللَّهْسِ الْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ، وَغَمِلَ لِلصَّنَمِ عِيْدًا، كُلَّمَا دَخَلَ يُزْجُ
السَّرْطَانَ^٢.

وَلَمَّا وَلَّى أَسْكَاسُ الْمَلِكِ بَعْدَ أَبِيهِ مَعْدَانٍ - أَيْ^(١٠) مَعَادِيُوسَ - بَنَ دَارِمَ - أَيْ^(١١) دَرِيمُوسَ - وَهُوَ
الْفِرْعَوْنُ السَّادِسُ أَقَامَ أَغْلَامًا كَثِيرَةً حَوْلَ مَنَفٍ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا أَسَاطِينَ يُنْشَى مِنْ بَعْضِهَا إِلَى
بَعْضٍ، وَغَمِلَ بِرُقُودَةٍ وَصَا وَمَدَائِنَ الصَّعِيدِ وَأَسْفَلَ الْأَرْضِ [مُتَدَّنًا كَثِيرَةً وَ] ^(١٢) أَغْلَامًا وَمَيَّائِرَ لِلرُّقُودِ

(٨) عِنْدَ الْقُرَيْشِيِّ: حَرَمًا. (ب) الْبُورِي: فَلْبَان. (ج) فِي جَمِيعِ النُّسخِ ابْن. (د) زِيَادَةُ مِنَ التَّوْبَرِيِّ.

وطلسمات كثيرة، وعَمِلَ كُرَّةً^(a) من فِضَّة، ونَقَشَ عليها صورة الكواكب، وزدَّتها بالدُّهن الصُّبْنِي، وأقامها على منار في وَسَطِ مَنْف، وعَمِلَ فِي هَيْكَلِ أَبِيهِ رُوحَانِي زُحَلٍ مِنْ ذَهَبٍ أَسْوَدَ مُدَبَّر. وعَمِلَ فِي وَثْقِهِ مِيزَانًا يَغْتَبِرُ بِهِ النَّاسُ، كَفَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَعَلَاقَتُهُ مِنْ فِضَّةٍ، وَسَلَابِلُهُ مِنْ ذَهَبٍ، فَكَانَ مُعْلَقًا فِي هَيْكَلِ الشَّمْسِ، وَكُتِبَ عَلَى إِحْدَى كَفَّتَيْهِ «حَقٌّ»، وَالْأُخْرَى «بَاطِلٌ»، وَتَحْتَهُ فُصُوصٌ قَدْ نُقِشَ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ الْكَوَاكِبِ، فَيَتَذَكَّرُ الظَّالِمُ وَالْمُظْلَمُ بِأَخْذِ كُلِّ مَنِهَا فُصًّا مِنْ تِلْكَ الْفُصُوصِ، وَيُسَمِّي عَلَيْهِ مَا يُرِيدُهُ، وَيَجْعَلُ أَخْذَ الْفَضِيِّ فِي كَفَّةٍ، وَالْآخَرِ فِي كَفَّةٍ، فَتُثْقَلُ كَفَّةُ الظَّالِمِ، وَتَرْتَفِعُ كَفَّةُ الْمُظْلَمِ، وَمَنْ أَرَادَ سَفَرًا أَخَذَ فَضِيًّا، وَذَكَرَ عَلَى أَحَدِهِمَا اسْمَ الشَّفَرِ، وَعَلَى الْآخَرِ الْإِقَامَةَ، وَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ فِي كَفَّةٍ، فَإِنْ ثَقُلَا جَمِيعًا وَلَمْ يَرْتَفِعْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ لَمْ يُسَافِرْ، وَإِنْ اِرْتَفَعَا سَافَرَ، وَإِنْ اِرْتَفَعَ أَحَدُهُمَا أَثَرُ الشَّفَرِ ثُمَّ سَافَرَ. وَكَذَا مَنْ عَلَيْهِ ذَنْبٌ، وَمَنْ لَهُ غَائِبٌ، أَوْ يَنْظُرُ فِي صَلَاحِ أَمْرِهِ وَقَسَادِهِ.

وَيُقَالُ: إِنْ بُخِتَ نَصْرٌ لَمَّْا دَخَلَ إِلَى مَصْرٍ حَمَلَ هَذَا الْمِيزَانَ مَعَهُ فِيمَا حَمَلَ إِلَى بَابِلَ، وَجَعَلَهُ فِي يَمِينٍ مِنْ بُيُوتِ النَّارِ.

وَعَمِلَ فِي أَيَّامِهِ أَيْضًا تَنْوَرٌ، يُشَوَّى فِيهِ مِنْ غَيْرِ نَارٍ، وَقُدْرٌ^(b) يُطْبَخُ فِيهِ بِغَيْرِ نَارٍ، وَيَكُونُ تَنْصَبُ فَإِذَا رَأَاهَا شَيْءٌ مِنَ الْبِهَائِمِ أَقْبَلَ حَتَّى يَذْبَحَ نَفْسَهُ بِهَا، وَعَمِلَ مَاءً يَسْتَحِيلُ نَارًا، وَزُجَاجًا يَسْتَحِيلُ هَوَاءً، وَأَشْيَاءَ مِنَ التَّيْرِ نَجِيَّاتٍ وَالتَّوَامِسِ^(c).

وَأَمَّا «الْبَرَابِي»^(d) فَذَكَرَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهَ أَنَّ سُورِيْدَ الَّذِي بَنَى الْأَهْرَامَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْبَرَابِي كُلَّهَا، وَعَمِلَ فِيهَا الْكُثُوزَ، وَزَبَرَ عَلَيْهَا غُلُومًا، وَوَكَّلَ بِهَا رُوحَانِيَّةً تَحْفَظُهَا مِمَّنْ يَقْصِدُهَا.

وَقَالَ فِي كِتَابِ «الْفَهْرِيسْت»: وَبَصَرَ أَهْنِيَّةً يُقَالُ لَهَا: الْبَرَابِي مِنْ الْحِجَازَةِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرِ^(e)، وَهِيَ عَلَى أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَفِيهَا مَوَاضِعٌ لِلصُّخْنِ وَالشَّحْقِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالتَّقْطِيرِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا عُمِلَتْ لِعِصْنَاعَةِ الْكَيْمِيَاءِ، وَفِي هَذِهِ الْأَهْنِيَّةِ نُقُوشٌ^(f) وَكُتَابَاتٌ لَا يُدْرَى مَا هِيَ، وَقَدْ أُصِيبَتْ [خِزَائِنٌ]^(g) تَحْتَ الْأَرْضِ فِيهَا هَذِهِ الْغُلُومُ مَكْتُوبَةٌ فِي التَّوَزِ، وَهِيَ صَفَائِحُ الذَّهَبِ وَالتُّحَاسِ، وَفِي الْحِجَازَةِ^(h).

(a) بولاق: كورة. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: الكبرة وابن النديم: المقرطة في الكبر. (d) بعد ذلك عند

ابن النديم: بالكلدانية والقبطية. (e) إضافة من ابن النديم.

Barba I, p. 1070.

^١ التومري: نهاية الأرب ١٥: ١٣٢-١٣٣.

^٢ ابن النديم: الفهرست ٤١٨.

^٣ انظر عن البرابي ومفردها بربا. Wiet, G., *Et*² art.

وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيُّ أَنَّ بَرَايَ مَصْرَ تُنْسَبُ إِلَى بَرَابِ بْنِ الْكُرْمَشِيلِ^(٥) (بِـ) بِمَحْوِيلِ^(٦) ابْنِ خُثُوحَ بْنِ قَائِنَ^(٧) مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٨).

وَذَكَرَ أَبُو الزُّنْجَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْبَيْرُونِيُّ فِي كِتَابِ «الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ عَنْ الْقُرُونِ الْحَالِيَةِ» أَنَّ كَنِيسَةً فِي بَعْضِ قُرَى مِصْرَ قَدْ شَاهَدَهَا الْمُؤْتَوَّقُ بِقَوْلِهِمُ الْمَأْخُودُ بِرَأْيِهِمْ، الْمَأْمُورُ مِنْ جِهَتِهِمُ التَّمُونَةِ عَلَيْهِمْ^(٩)، فِيهَا سِزْدَابٌ يُنْزَلُ إِلَيْهِ بَنِيْفٌ وَعِشْرِينَ مَرَّةً، وَفِيهِ سَرِيرٌ تَحْتَهُ رَجُلٌ وَصَبِيٌّ مُشْدُودَيْنِ فِي نَطْعٍ، وَفَوْقَهُ ثَوْرٌ رُخَامٍ فِي جُوفِهِ بَاطِيَةٌ رُجَاجٌ^(١٠)، بِدَاخِلِهَا قَيْئَةٌ مِنْ نُحَاسٍ، فِي جُوفِهَا قَيْئَةٌ كَثَّانٌ، ثَوَلَدٌ يَفْضُصُ فِيهَا زَيْتٌ، فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا أَنْ تَمْتَلِئَ الْبَاطِيَةُ الرُّجَاجَ زَيْتًا، وَتَفْضِضَ إِلَى الثَّوْرِ الرُّخَامِ، فَيَنْفَقَ عَلَى تِلْكَ الْكَنِيسَةِ وَقَنَادِيلِهَا.

وَذَكَرَ الْجَيْهَانِيُّ^(١١) أَنَّهُ صَارَ إِلَيْهِ مِنْ وَثَقٍ بِهِ، وَرَفَعَ الْبَاطِيَةَ عَنْ الثَّوْرِ، وَأَفْرَغَ الزَّيْتَ مِنَ الْبَاطِيَةِ وَالثَّوْرِ جَمِيعًا، وَأَطْفَأَ النَّارَ، وَأَعَادَهَا جَمِيعًا إِلَّا الزَّيْتَ، فَإِنَّهُ صَبَّ زَيْتًا مِنْ عِنْدِهِ، وَأَبْدَلَهُ قَيْئَةً أُخْرَى وَأَشْعَلَهَا، فَمَا لَبِثَ الزَّيْتُ أَنْ فَاضَ إِلَى الْبَاطِيَةِ الرُّجَاجِ، ثُمَّ فَاضَ إِلَى الثَّوْرِ الرُّخَامِ مِنْ غَيْرِ مَدَدٍ وَلَا غُضْرٍ.

وَذَكَرَ الْجَيْهَانِيُّ^(١٢) أَنَّهُ إِذَا أُخْرِجَ الْمَيْتُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ، انْطَفَأَتِ النَّارُ وَلَمْ يَفْضِ الزَّيْتُ^(١٣).
وَذَكَرَ عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُتَوَهَّمَةَ فِي نَفْسِهَا حَمَلًا، تَحْمِلُ ذَلِكَ الْعَصْبِي وَتَضَعُهُ فِي جَبْرِهَا، فَيَتَحَرَّكُ وَلَدُهَا فِي الْبَطْنِ إِنْ كَانَ الْحَمْلُ حَقِيقَةً، أَوْ تَيَاسُ إِنْ لَمْ تَحْمَسْ بِحَرَكَةٍ.
قَالَ مُؤَلِّفُهُ وَجَامِعُهُ^(١٤) - أَخْبَرَنِي دَاوُدُ بْنُ رِزْقِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَتْ لَهُ مِيبَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ بِأَرْضِي مِصْرَ وَمَعْرِفَةٌ أَسْوَالُهَا^(١٥) - أَنَّهُ عَبَّرَ فِي مَغَارَةٍ كَبِيرَةٍ يُقَالُ لَهَا: مَغَارَةُ شَقْلَقِيلَ بِالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ، إِذَا فِيهَا كَوْثٌ عَظِيمٌ مِنْ سَنْدَرُوسٍ، وَأَنَّهُ تَخَطَّاهُ وَمَضَى، فَإِذَا شَيْءٌ كَثِيرٌ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الشَّمَكِ

(٥) فِي الْإِكْلِيلِ: الدَّرْمَشِيكُ. (ب) الْأَصْلُ: فُحْوِيلُ وَبَوْلَاقُ: نَحْوِيلُ. (ج) بَوْلَاقُ: قَارُ. وَالْأَصْلُ: قَائِنُ. (د) بَوْلَاقُ:

الرَّوَايَةُ عَنْهُمْ. (ه) الْأَصْلُ: زُجَاجٌ. (ز) بَوْلَاقُ: الْجَيْهَانِيُّ. (ح) بَوْلَاقُ: الْمُؤَلِّفُ.

العالم وأعجازه وما فيه من المعجائب والمدن والأمصار والبحار والأمم وسلكهم... (المسعودي: التبيين والإشراف ٧٥، وكذلك كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٣٦-٢٤٢).

^٣ انظر أيضًا فيما يلي ١١١.

^١ الهمداني: الإكليل ٤١: ٤١.
^٢ لم أجد هذا النص في كتاب «الآثار الباقية» للبهراني، ولكن لجد نفس النص عند ابن رُشقة في الأخلاق النفيسة ٨١-٨٢، والجيهاني هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني، أحد وزراء السامانيين، ألف كتابا في صفة

وجميعها ملفوفة بتياب كأنها قد كُفَّت بعد الموت . وأنه أَخَذَ منها سَمَكَةً وَفَشَّهَا/ فإذا في
فَمَها دينارٌ عليه كِتَابَةٌ لَا يُحْسِنُ قِرَاءَتَهَا ، وأنه صارَ بِأَخْذِهَا سَمَكَةً سَمَكَةً وَيُخْرِجُ مِنْ قَمِّ كُلِّ
واحدة دينارًا ، حتى اجْتَمَعَ له من ذلك عِدَّةُ دنانير ، وأنه أَخَذَ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى
جاء إلى الكَوْمِ الشَّنْدَرُوسِ وإذا به ارتفع حتى سَدَّ عليه المَوْضِع . فعادَ إلى السَّمَكِ وأعادَ الدنانير
إلى مواضعها وخرَجَ ، فإذا الشَّنْدَرُوسُ كما كان أولًا بحيث يَتَجَاوَزُهُ وَيُخْرِجُ . فعادَ وأخذَ الدنانير
ومَشَى يخرج بها ، فإذا الشَّنْدَرُوسُ قد اِزْتَفَعَ حتى سَدَّ عليه المَوْضِع . فعادَ إلى السَّمَكِ وأعادَ
الدنانير إلى مَوْضِعِهَا وخرَجَ ، فإذا الشَّنْدَرُوسُ على حاله كما كان أولًا بحيث يتجاوزُهُ ويخرج .
وأنه كَثُرَ أَخْذُ الدنانير وإعادتها مرارًا ، والحال على ما ذَكَرَ ، حتى خَشِيَ الهلاك فَتَرَكَهَا وخرَجَ .
فلما كان مُدَّةً سَكَنَ مَوْضِعِهَا فرأى حَجَرًا في جِدَارٍ وقد قُور ، ووُضِعَ حَجَرٌ آخر ، فحاول
الحَجَرِ الآخر حتى رَفَعَهُ ، فإذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التي وَجَدَهَا في أَفْوَاهِ السَّمَكِ ،
فَأَخَذَ منها واحدًا وَتَرَكَ البقية في مَوْضِعِهَا ، وأعادَ الحَجَرِ على الحَجَرِ .

وقَدَّرَ الله بعد ذلك أَنَّهُ رَكِبَ الثَّيْلَ لِيَعْدِي مِنَ الْبَرِّ الشَّرْقِيَّ إِلَى الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ؛ قال : فلما تَوَسَّطَ
البحر ، وإذا بالأَسْمَاكِ تَتَبُّبٌ مِنَ الْمَاءِ وَتُلْقِي أَنْفُسَهَا فِي الْمَرْكَبِ حَتَّى كِدْنَا نَفْرُقُ مِنْ كَثَرَتِهَا ،
فصاحَ الْوُكَّابُ خَوْفًا مِنَ الْهَلَاكِ . قال : فتذَكَّرْتُ الدِّينَارَ الَّذِي مَعِيَ ، وَأَنَّ هَذَا رُبَّمَا كَانَ بِسَبَبِهِ ،
فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ جَيْبِي وَأَلْقَيْتُهُ فِي الْمَاءِ ، فتَوَاتَبَتِ الْأَسْمَاكُ مِنَ الْمَرْكَبِ وَأَلْقَتْ نَفْسَهَا فِي الْمَاءِ حَتَّى لَمْ
يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ .

قُلْتُ : وَأَخْبَرَنِي قَدِيمًا بَعْضُ مَنْ لَا أَتَّبِعُهُ أَنَّهُ ظَفَرُ بَطْلَنَسَمٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ، وأنه عنده ، وأراد أن
يُرِينِي السَّمَكِ يَتَبُّبٌ مِنَ الْمَاءِ فَلَمْ يَقْدِرْ لِي أَنْ أَرَى ذَلِكَ .

قال ابنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ آلَ فِرْعَوْنَ ، بَقِيَتْ مَصْرٌ بَعْدَ غَرْقِهِمْ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَشْرَافِ
أَهْلِهَا أَحَدٌ ، وَلَمْ يَبْقَ بِهَا إِلَّا الْعَبِيدُ وَالْأَجْرَاءُ وَالنِّسَاءُ . فَاتَّفَقَ مِنْ مَصْرٍ مِنَ النِّسَاءِ أَنْ يُؤَلِّينَ مِنْهُمْ
أَحَدًا ، وَأَجْمَعَ رَأْيُهُنَّ أَنْ يُؤَلِّينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ يُقَالُ لَهَا : ذُلُوكَةُ بِنْتُ زَبَاءٍ ، وَكَانَ لَهَا عَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ
وَتَجَارِبٌ ، وَكَانَتْ فِي شَرَفٍ مِنْهُنَّ وَمَوْضِعٍ ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ مِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً ، فَتَلَكَّوْهَا ؛
فَخَافَتْ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا الْمُلُوكُ ، فَجَمَعَتِ نِسَاءَ الْأَشْرَافِ وَقَالَتْ لَهُنَّ : إِنَّ بِلَادَنَا لَمْ يَكُنْ يَطْلَمَعُ فِيهَا
أَحَدٌ ، وَلَا يَمْدُ عَيْنَهُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ هَلَكَ أَكَابِرُنَا وَأَشْرَافُنَا ، وَذَهَبَ الشَّجَرَةُ الَّذِينَ كُنَّا نَقْوَى بِهِمْ . وَقَدْ
رَأَيْتُ أَنْ أَبْنِي جِصًّا أُحْدِقُ بِهِ جَمِيعَ بِلَادِنَا ، فَأَصْغَعَ عَلَيْهِ الْخَارِيسَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُ أَنْ
يَطْلَمَعَ فِيْنَا النَّاسُ .

فَبَنَتْ جِدَارًا أَحَاطَتْ بِهِ عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا : الْمَزَارِعَ ، وَالْمَدَائِنَ ، وَالْقُرَى . وَجَعَلَتْ دُونَهُ خَلِيجًا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ ، وَأَقَامَتْ الْقَنَاظِرَ وَالتَّرْعَ . وَجَعَلَتْ فِيهِ مَحَارِسَ وَمَسَالِيحَ عَلَى كُلِّ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مَخْرَسَ وَمَسْلَحَةٍ ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مَحَارِسَ صَغَارَ عَلَى كُلِّ مِيلٍ ، وَجَعَلَتْ فِي كُلِّ مَخْرَسَ رَجُلًا ، وَأَجْعَرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يَخْرُسُوا بِالْأَجْرَاسِ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ آبُ يَخَافُونَهُ ضَرَبَتْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ الْأَجْرَاسِ فَأَتَاهُمُ الْخَبَرُ مِنْ أَيِّ وَجْهِ كَانَ فِي سَاعَةِ وَاحِدَةٍ فَنَظَرُوا فِي ذَلِكَ فَمَنَعَتْ بِذَلِكَ مِصْرَ مِمَّنْ أَرَادَهَا . وَفَزَعَتْ مِنْ بِنَائِهِ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ . وَهُوَ الْجِدَارُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «جِدَارُ الْعَجُوزِ» بِمِصْرَ ، وَقَدْ بَقِيَ بِالصُّعِيدِ مِنْهَ بَقَايَا كَثِيرَةٌ ^١ .

قَالَ الْمُسْتَعْدِي : وَقِيلَ : إِنَّمَا بَنَتْهُ خَوْفًا عَلَى وَلَدِهَا ، وَكَانَ كَثِيرَ الْقُلُصِّ ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ سِبَاغَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَاعْتِيَالِ مَنْ جَاوَزَ أَرْضَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالتُّوَادِي ، فَخَوَّطَتْ الْحَائِطَ مِنَ التَّمَاسِيحِ وَغَيْرِهَا . وَقَدْ قِيلَ [فِي ذَلِكَ مِنَ الْوَجْهِ] ^(أ) غَيْرَ مَا وَصَفْنَا ، فَمَلَكْتَهُمْ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي قَوْلٍ ^٢ .

قَالَ كَاتِبُهُ ^(ب) : قَدْ بَقِيَ مِنْ حَائِطِ الْعَجُوزِ هَذَا فِي بِلَادِ الصُّعِيدِ بَقَايَا ، أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ مُحَمَّدُ بْنُ السُّعُودِيِّ أَنَّهُ سَازَ فِي بِلَادِ الصُّعِيدِ عَلَى حَائِطِ الْعَجُوزِ وَمَعَهُ رِفْقَةٌ ، فَأَقْتَلَعَ أَحَدُهُمْ مِنْهَا لَبَنَةً ، فَإِذَا هِيَ كَبِيرَةٌ جَدًّا تُخَالِفُ الْمُعْهُودَ الْآنَ مِنَ اللَّبَنِ فِي الْمَقْدَارِ . فَتَنَاولَهَا الْقَوْمُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَتَأَمَّلُونَهَا ، وَيُنَاقِشُونَهَا ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي رُؤْيَيْهَا إِذْ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ ، فَأَنْقَلَبَتْ عَنْ حَبَّةِ فَوَلٍ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ الَّذِي يَتَعَجَّبُ مِنْهُ لَعَدَمِ مِثْلِهِ فِي زَمَانِنَا ، فَقَشَرُوا مَا عَلَيْهَا فَوَجَدُوا سَائِلَةً مِنَ الشُّوسِ وَالْعَيْبِ ، كَانَتْهَا قَرْيَةٌ عَهْدَ بَحْصَادِيهَا ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيهَا شَيْءٌ أَلْبَنَةً ، فَأَكَلَهَا الْجَمَاعَةُ قِطْعَةً قِطْعَةً ، وَكَانَتْهَا إِذَا تَحَبَّتْ لَهُمْ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ وَالْأَغْصُرِ الْخَالِيَةِ ، إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ تَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِي رِزْقَهَا .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَكَانَ ثَمَّ عَجُوزٌ سَاحِرَةٌ يُقَالُ لَهَا : تَدُورَةُ ^(ج) ، وَكَانَتْ السَّحَرَةُ تُعْظَمُهَا وَتُقَدِّمُهَا فِي عِلْمِهِمْ وَسِحْرِهِمْ ، فَتَعَثَّتْ إِلَيْهَا دُلُوكَةُ ابْنَةِ زَبَاءَ : إِنَّا قَدْ اخْتَجْنَا إِلَى سِحْرِكَ ، وَفَرِغْنَا إِلَيْكَ ، وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يَطْلُعَ فِينَا الْمُلُوكُ ، فَاغْمَلِي لَنَا شَيْقًا نَغْلِبُ بِهِ مَنْ حَوَّلْنَا ، فَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَحْتَاجُ إِلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَ أَكَايَرُنَا - يَعْنِي فِي الْعَرَقِ مَعَ فِرْعَوْنَ مُوسَى - وَبَقِيَ أَقْلُنَا .

(أ) إضافة من السعودي . (ب) بولاق : المؤلف ، وعلى هامش الأصل : في الأصل كتابه . (ج) بولاق : بدور .

^١ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١: ٢٦٦-٢٦٧ وفيما يلي ^٢ السعودي : مروج الذهب ٢: ٨٧ .

فَعَمِلَتْ بِرَبِّهَا مِنْ جِجَارَةٍ فِي وَسْطِ مَدِينَةٍ مَنُفٍّ وَجَعَلَتْ لَهَا أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ وَالْبَحْرِ وَالْعَرَبِ وَالشَّرْقِ ، وَصُوِّرَتْ فِيهِ صُورَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ وَالشُّقْنِ وَالرَّجَالِ ، وَقَالَتْ لَهُمْ : قَدْ عَمِلْتُ لَكُمْ عَمَلًا يَهْلِكُ بِهِ كُلُّ مَنْ أَرَادَكُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ تَوْتُونَ مِنْهَا يَوْمًا أَوْ بَحْرًا ، وَهَذَا مَا يُغْنِيكُمْ عَنِ الْحِصْنِ ، وَيَقْطَعُ عَنْكُمْ مَوْئِدًا مِنْ أَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا فِي الْبِرِّ عَلَى خَيْلٍ أَوْ بِغَالٍ أَوْ إِبِلٍ أَوْ فِي شَقْنٍ أَوْ رَجَالَةٍ تَحْرَكْتَ هَذِهِ الصُّورُ مِنْ جِهَتِهِمْ الَّتِي يَأْتُونَ/ مِنْهَا ، فَمَا فَعَلْتُمْ بِالصُّورِ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَ بِهِمْ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَلُوكُ حَوْلَهُمْ أَنَّ أَمْرَهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى وَلَايَةِ النِّسَاءِ ، طَمِعُوا فِيهِمْ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ عَمَلِ مِصْرَ ، تَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصُّورُ الَّتِي فِي الْبِرِّ ، فَطَفِقُوا لَا يَهْتَمُّونَ تِلْكَ الصُّورَ بِشَيْءٍ وَلَا يَفْعَلُونَ بِهَا شَيْئًا ، إِلَّا أَصَابَ ذَلِكَ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ مِثْلَهُ : إِنْ كَانَ خَيْلًا ، فَمَا فَعَلُوا بِتِلْكَ الْخَيْلِ الْمَصُورَةِ فِي الْبِرِّ مِنْ قَطْعِ رُغُوسِهَا أَوْ مَوْقِهَا أَوْ فِقْءِ غُبُوزِهَا أَوْ بَقْرِ بَطُونِهَا ، أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ الَّتِي أَرَادَتْهُمْ ، وَإِنْ كَانَتْ شُقْنًا أَوْ رَجَالَةً فَمِثْلَ ذَلِكَ . وَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسَ بِالسَّخَرِ وَأَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ ، وَانْتَشَرَ ذَلِكَ فَتَنَادَرَهُمْ^١ النَّاسُ .

وَكَانَ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ حِينَ غَرِقَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَبِيدُ وَالْأَجْرَاءُ ، لَمْ يَضْرِبْنَ عَنِ الرِّجَالِ ، فَطَفِقَتِ الْمَرْأَةُ تُغْنِي عِبْدَهَا وَتَتَزَوَّجُهُ ، وَتَتَزَوَّجُ الْآخَرَى أَجِيرَهَا . وَشَرَطْنَ عَلَى الرِّجَالِ أَلَّا يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِنَّ ، فَأَجَابُوهُنَّ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ أَمْرُ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ . قَالَ تَرْيَدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : إِنْ الْقَيْطُ^٢ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ أَتْبَاعًا لِمَنْ مَضَى مِنْهُمْ ، لَا يَبِيعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا قَالَ : أَشْتَأْمُ امْرَأَتِي^١ !

فَمَلَكْتُهُمْ ذَلِكَ بِنْتِ زَبَاءَ عَشْرِينَ سَنَةً تُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ بِمِصْرَ ، حَتَّى بَلَغَ صَبِيٍّ مِنْ أَبْنَاءِ أَكَابِرِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ ، يُقَالُ لَهُ دَرْكُونُ بْنُ بَلُوطِسَ ، فَمَلَكُوهُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا تَوَلَّى مِصْرَ مِمَّنْ تَعْنِي تِلْكَ الْعَجُوزُ نَحْنًا مِنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَلَّمَا انْهَدَمَ مِنْ ذَلِكَ الْبِرِّ الَّذِي صُوِّرَ فِيهِ الصُّورُ ، لَمْ يَشْرَ أَحَدٌ عَلَى إِصْلَاحِهِ إِلَّا تِلْكَ الْعَجُوزُ وَوَلَدُهَا وَوَلَدُهَا ، وَكَانُوا أَهْلٌ يَتُّ لَا يَغْرِفُ ذَلِكَ غَيْرَهُمْ . فَانْقَطَعَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ ، وَانْهَدَمَ مِنَ الْبِرِّ مَوْضِعٌ فِي زَمَانِ

(١) بولاق : فيبادرهم . (٢) في الأصل وبولاق : نساء القبط . والثبت من ابن عبد الحكم .

لقاس بن مرنوس ، فلم يقدر أحد على إضلاله ومعرفة علمه ، وبقي على حاله ، وانقطع ما كان يقهرون به الناس ، وبثوا كغيرهم . إلا أن الجمع كثير ، والمال عندهم ^١ .

فلما قديم بُحِتْ نصر بيت المقدس ، وظهر على بني إسرائيل وسبائهم ، وخرج بهم إلى أرض بابل ، فصَدَّ مصر ، وغرَبَ مدائنها وقراها ، وسبى جميع أهلها ، ولم يترك بها شيئا ، حتى بقيت مصر أربعين سنة غرابا ليس فيها ساكن ، يجري نيلها ويذهب لا يفتتح به . ثم رَدَّ أهل مصر إليها بعد أربعين سنة ، فعثروها ، ولم تزل مشهورة من يومئذ ^٢ .

وقال بعض الحكماء : رأيت البرابي وأخذت أناملها ، فوجدتها مُشْتَمِلَةً على جميع أشكال الفلك . والذي ظهر لي أنه لم يعملها حكيم واحد ، (ب) ولا ملك واحد ^٣ ، بل تولَّى عملها قوم بعد قوم ، حتى تكاملت في دور كامل ، وهو ستة وثلاثون ألف سنة شمسية ، لأن مثل هذه الأعمال لا تُعْمَلُ إلا بالأرصَاد ، ولا يتكامل رصْدُ المجموع في أقل من هذه المدة المذكورة .

وكانوا يجعلون الكتاب حفرًا ونقرا في الصخور ، ونقشًا في الحجارة ، وحلقة مركبة في البنيان . وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان مُتَضَمِّناً لأمر جسيم ، أو عهدًا لأمر عظيم ، أو مؤظفة يُرَجَى نفعها ، أو إحياء شرف يُريدون تخليد ذكره .

وقد كَتَبَ غير المصريين كذلك كما كتبتوا على قبة عُمدان ، وعلى باب القبروان ، وعلى باب مَمْرُوقَد ، وعلى عمود مَآرِب ، وعلى رُكن المَشْتَقَر ، وعلى الأبلق المَقْرَد ، وعلى باب الزها . وكانوا يعتمدون إلى الأماكن الشريفة والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط في أبعاد المواضع من الدُّور ، وأقمتها من الدُّورس ، وأجدر أن تراها من مَرَبِّها ، ولا ينسى على طول الدهر .

وقال المشفودي : وأخذت ذلوكه بمصر البرابي والصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت في البرابي صور من يرد من كل ناحية وذوابهم إبلًا كانت أو خيلًا ، وصورت فيها من يرد من البحر في المراكب من بحر القرب والشام ، وجمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة ، وخواص الأحيار والنباتات والحيوانات ، وجعلت ذلك في أوقات فلكية ، واتصالها بالموثرات العلوية ، فكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز واليمن ، عورت تلك الصور التي

(a) بولاق : مستحكمة . (b-b) ساقطة من بولاق .

في البرها من الإبل وغيرها ، فيتغور ما في ذلك الجيش ، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه . وإذا كان الجيش من نحو الشام ، قيل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما قيل بما وصفتنا ، فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع في تلك الصور التي من تلك الجهة ؛ وكذلك من وزد من جيوش الغرب ، ومن وزد في البحر من زوية والشام ، وغير ذلك من الممالك ؛ فهاتهم الملوك والأئم ، وتمتعوا ناحيتهم من عدوهم ، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإثاقها لزم أقطار المملكة وإحكامها السياسة . وقد تكلم من سلف وخلف في هذه الخواص ، وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر . وهذا الخبر من فقل العجوز مستفيض [عند المصريين]^٥ لا يشكون فيه .

والبرابي بمصر ، من صعيدها وغيره ، باقية إلى هذا الوقت ، وفيها أنواع الصور مما إذا صورت في بعض الأشياء أخذت أفعالا على حسب ما رُسمت له وصنعت من أجله ، على حسب قولهم في الطبائع ، والله أعلم بكيفية ذلك^١ .

قال : « وأخبرني غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر ، عن أبي الفيض ذي الثون بن إبراهيم المصري الإخميمي الزاهد وكان حكيما ، وكانت له طريقة يأتيها وينخله يقصدها ، وكان ممن يُقَسَّر^٥ أخبار هذه البرابي ، [وزارها]^٥ وامتحن كثيرا مما صور فيها/ ورسم عليها من الكتابة والصور . قال : رأيت في بعض البرابي كتابا تدبرته ، فإذا هو : « اخذ العبيد المعتقين ، والأحداث [المغترين]^٥ والجند المتعبدين ، والقبط^٥ المستعربين . ورأيت في بعضها كتابا تدبرته ، فإذا فيه : « يُقدَّر المقدر والقضاء بضحك » ، وفي آخره كتابة تبينها^٥ في ذلك القلم فوجدتها^٥ : »

[الوافر]

تدبر بالثجوم ولست تنزي وزب الثجم بفعل ما تريد
قال : وكانت هذه الأئمة ، التي اتخذت هذه البرابي ، لهجة بالنظر في أحكام الثجوم ، من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة . وكان عندها مما دلت عليه أحكام الثجوم أن طوفانا سيكون

(٥) زيادة من مروج الذهب . (b) الأصل وبولاق : بمن يقر على ، والتصويب من مروج الذهب . (c) بولاق :

النبط . (d) بولاق : تبينها . (e) الأصل وبولاق : العلم فوجدتها .

في الأرض ، ولم تقطع على ذلك الطوفان ما هو : أنار تأتي على الأرض فتَحْرِق ما عليها ، أو ماءً يُغْرِقُها ، أو سَيْفٌ يُبِيدُ أَهْلَهَا .

فَحَافَّت [على]^٨ دُثُورُ القُلُومِ وفنائها بَقْنَاءِ أَهْلِهَا ، فَاتَّخَذَتْ هذه البرابي ، وَرَسَمَتْ فيها عُلُومَهَا من الصُّوَرِ والثَّمائيل والكَتَابَةِ ، وَجَعَلَتْ بُنْيَانَهَا نَوْعَيْنِ : طَيْبًا ، وَجِجَارَةً ، وَفَرَزَتْ ما بني بالطِّينِ مِمَّا بُنِيَ بالحِجَارَةِ ، وَقَالَتْ : إِنْ كَانَ هَذَا الطُّوفَانُ نَارًا اسْتَحْجَرَ مَا بُنِيَ بالطِّينِ ، وَإِنْ كَانَ الطُّوفَانُ الْوَارِدُ مَاءً أَذْهَبَ مَا بُنِيَ بالطِّينِ وَيَبْقَى مَا بُنِيَ بالحِجَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ الطُّوفَانُ سَيْفًا بَقِيَ كُلُّ مِنَ التَّوَعَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مِنَ الطِّينِ ، وَمَا هُوَ مِنَ الْحَجَرِ .

وهذا ما قيل والله أعلم إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ ، وَإِنَّ الطُّوفَانَ الَّذِي كَانُوا يَرْجُونَهُ ، وَلَمْ يُعَيِّنُوهُ أَنَارٌ هُوَ أَمْ مَاءٌ أَمْ سَيْفٌ ، كَانَ سَيْفًا أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ مِصْرَ مِنْ أُمَّةٍ غَشِيَتْهَا ، وَمَلَكَ نَزَلَ عَلَيْهَا فَأَبَادَ أَهْلَهَا .

ومِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ ذَلِكَ الطُّوفَانَ كَانَ وَبَاءً غَمًّا أَهْلَهَا . وَمَصْدَاقُ ذَلِكَ مَا يُوجَدُ بِيَلَادِ تَيْئِسَ مِنَ الثَّلَالِ الْمُتَضَدَّةِ^٩ مِنَ النَّاسِ ، مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ وَذَكَرٍ وَأُنْثَى ، كَالْجِبَالِ الْعِظَامِ ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِيَلَادِ تَيْئِسَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِذَاتِ الْكُومِ ، وَمَا يُوجَدُ بِيَلَادِ مِصْرَ وَصَعِيدِهَا مِنَ النَّاسِ الْمُدْرَسِينَ^{١٠} بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْكُثُوفِ وَالْغَيْرَانِ وَالتَّرَاوِيسِ ، وَمَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، لَا يُدْرَى مِنْ أَيِّ الْأُمَمِ هُمْ ، فَلَا التَّصَارُفَ تُخْبِرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَسْلَافِهِمْ ، وَلَا الْيَهُودُ يَقُولُ إِنَّهُمْ مِنْ أَوَائِلِهِمْ ، وَلَا الْمُسْلِمُونَ يَذَرُونَ مَنْ هَؤُلَاءِ ، وَلَا تَارِيخٌ يُتَنَبَّأُ عَنْ حَالِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ أَثْوَابُهُمْ ، وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي تِلْكَ الرُّوَايِ^{١١} وَالْجِبَالِ مِنْ حَلِيَّتِهِمْ .

وَالْبَرَابِي بِيَلَادِ مِصْرَ بُنْيَانٌ قَائِمٌ عَجِيبٌ كَالْبُرُوبَا الَّتِي [بِيَلَادِ أَنْصِينَا مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ ، وَالْبُرُوبَا الَّتِي]^{١٢} يُلَاحِظُهُمْ ، وَالتِّي بِسَكْنُودَ وَغَيْرِ ذَلِكَ^١ .

(٨) زيادة من مروج الذهب . (ب) بولاق : المتقلدة . (ج) الأصل وبولاق : المنكسين . (د) بولاق : البرابي .
(٩) زيادة من مروج الذهب .

ذِكْرُ الدَّفَائِنِ وَالْكُنُوزِ الَّتِي تَسْمَحُ بِهَا أَهْلُ مِصْرَ الطَّائِفِ

الأصل في مجواز تنجيع الدفائن ما رواه أبو عمر بن عبد البر^(٥) والبيهقي في «الدلائل»^(٦) من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف، مر بقبر أبي رغال فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، كان إذا هلك قوم صاخ في الحرم فمتعه الله، فلما خرج من الحرم رماه بقارعة، وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب»، فابتدز المسلمون قبره فنبشوه واشتخرجوا القمود منه.

ومن حديث عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف فمرزنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته الثقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك دفن معه عصا من ذهب، إن نبشتم عليه أصبتموه معه»، فابتدزه الناس فأخرجوا العصا الذي كان معه^١.

وبمصر كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده، لأنه كان يكثر ما يفضل عن الثقات والمؤمن لتوايب الدهر، وهو قول الله عز وجل: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَغَيْرِهَا * وَكُنُوزٍ» [آية ٥٧ سورة الشعراء].

ويقال: إن علم الكنوز في كنيسة القسطنطينية نقلت إليها من طليطلة. ويقال: إن الروم لما خرجت من الشام ومصر، اكتنزت كثيرا من أموالها في مواضع أعدها لذلك، وكتبت كتبا بإعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك.

وقيل: إن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط. فلما خرجوا من مصر والشام، حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة.

وقيل: إنه لا يعطى من ذلك أحد حتى يهديم الكنيسة ثم يدفع إليه ورقة تكون خطه.

(٥ - ٥) ساقطة من الأصل.

^١ البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، خروج أحاديثه وعلق عليه عبد المعطي قلعجي، القاهرة ١٩٨٨، ٦: ٢٩٧.

قال للمَشْغُودِي^١ : ولمصر أخبَارٌ عجيبةٌ من الذِّفَّائِنِ والبُنيانِ ، وما يُوجد في الذِّفَّائِنِ من دِخَائِرِ
الْمُلُوكِ الَّتِي اسْتَوْدَعُوهَا الْأَرْضُ ، وغيرهم من الْأُمَمِ مِمَّنْ سَكَنَ تِلْكَ الْأَرْضَ ، وتَدْعَى بِالْمَطَالِبِ إِلَى
هَذِهِ الْغَايَةِ . وقد أَتَيْنَا عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ مِنْ كُتُبِنَا .

فَمَنْ أَخْبَارُهَا مَا ذَكَرَهُ يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ : كَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ عَامِلًا عَلَى مِصْرَ لِأَخِيهِ
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مُتَضَخِّعٌ فَسَأَلَهُ عَنْ نُصْحِهِ ، فَقَالَ : بِالْقَبَةِ الْفُلَانِيَةِ كَثُرَ عَظِيمٌ .
قال عبدُ العزیز : وما مضدُّاقُ ذلك ؟ قال : هو أن يَظْهَرَ لَنَا بِلَاطٌ مِنَ الْمَرْمَرِ وَالرَّوْحَامِ عِنْدَ يَمِينٍ مِنَ
الْحَفَرِ ، ثُمَّ يَنْتَهِي بِهَا الْحَقَرُ إِلَى بَابٍ مِنَ الصُّفْرِ ، تَحْتَهُ عَمُودٌ مِنَ الذَّهَبِ ، عَلَى أَغْلَاهُ دِهْلُكٌ غَيْتَاهُ
بِالْقَوْتِ تَسَاوِيَانِ مُلْكُ الدُّنْيَا ، وَجَنَاحَاهُ مُضَرَّجَانِ بِالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُودِ ، وَرَأْسُهُ^٢ عَلَى صِفَائِحٍ مِنَ
الذَّهَبِ عَلَى أَعْلَى ذَلِكَ الْعَمُودِ . فَأَمَرَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بِتَفَقُّعِ الْأَجْزَةِ مِنْ يَحْفَرُ مِنَ الرِّجَالِ / فِي ذَلِكَ
وَيَعْمَلُ فِيهِ .

وَكَانَ هُنَاكَ تَلٌّ عَظِيمٌ ، فَاسْتَقَرُّوا حَفِيرَةً عَظِيمَةً فِي الْأَرْضِ ، وَالذَّلَائِلُ الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهَا مِنَ الرَّوْحَامِ
وَالْمَرْمَرِ تَظْهَرُ . فَأَزْدَادَ عَبْدُ الْعَزِيزِ جِرْصًا عَلَى ذَلِكَ ، وَأَوْسَعَ فِي التَّفَقُّعِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ . ثُمَّ
انْتَهَوْا فِي حَفْرِهِمْ إِلَى ظَهْرِ رَأْسِ الدَّيْكَ ، فَبَرَقَ عِنْدَ ظُهُورِهِ لَمَعَانٌ عَظِيمٌ لَمَّا فِي عَيْنَيْهِ مِنْ
الْيَاقُوتِ ، ثُمَّ بَانَ جَنَاحُهُ ثُمَّ بَانَتْ قَوَائِمُهُ ، وَظَهَرَ حَوْلَ الْعَمُودِ عَمُودٌ مِنَ الْبُنيانِ . بِأَنْوَاعِ الْحِجَارَةِ
وَالرَّوْحَامِ ، وَقَنَاطِيرُ مُقَنْطَرَةٍ وَطَاقَاتٍ عَلَى أَبْوَابٍ مَقْفُودَةٍ ، وَلاَحَتْ مِنْهَا تَمَائِيلٌ وَصُورُ أَشْخَاصٍ مِنْ
أَنْوَاعِ الصُّورِ الذَّهَبِ ، وَأَجْرَنَهُ مِنَ الْأَحْجَارِ قَدْ أَطْبَقَ عَلَيْهَا أَغْطِيَتُهَا وَشُبُكَتِ ، فَزَيَّنَ عَبْدُ الْعَزِيزِ
ابْنَ مَرْوَانَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْضِعِ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَشْرَعَ بَعْضُهُمْ وَوَضَعَ قَدَمَهُ
عَلَى فَرْجَةٍ مِنْ نَحَاسٍ يَنْتَهِي إِلَى مَا هُنَاكَ . فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ عَلَى الْمِزْقَةِ ، ظَهَرَ مَنِيْفَانِ عَادِيَانِ
هِنَّ يَمِينِ الدَّرَجَةِ وَشِمَالِهَا ، فَالْتَمَيَا عَلَى الرَّجُلِ فَلَمْ يُدْرِكْ حَتَّى جَزَّاهُ قِطْعًا وَهَوَى جِسْمَهُ سَفْلًا .
فَلَمَّا اسْتَقَرَّ جِسْمُهُ عَلَى بَعْضِ الدَّرَجِ ، اهْتَزَّ الْعَمُودُ ، وَصَفَّرَ الدَّيْكَ صَفِيرًا عَجِيبًا أَسْمَعَ مَنْ كَانَ
بِالْبَغْدَادِ مِنْ هُنَاكَ ، وَخَرَّكَ جَنَاحَيْهِ وَظَهَرَتْ مِنْ تَحْتِهِ أَصْوَاتٌ عَجِيبَةٌ قَدْ غُمِلَتْ بِالْكَوَاكِبِ
وَالْحَزَكَاتِ ، إِذَا مَالَ وَقَعَ عَلَى بَعْضِ تِلْكَ الدَّرَجِ شَيْءٌ أَوْ مَاسَهَا شَيْءٌ انْقَلَبَتْ ، فَتَهَاوَى مَنْ هُنَاكَ

(٢) مروج الذهب : وبراثنه .

من الرجال إلى أشفل تلك الحفرة ، وكان فيها من يخفر ويعمل ويتقل التراب وينظر ويحول ويأمر ويثبى نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعا .

فخرج عبد العزيز وقال : هذا رذم عجب الأمر ممنوع الثيل ، نفوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس ، فكان الموضع قبراً لهم ^١ .

قال المشعوي ^٢ : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد اعتنى وأغري بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأثم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، قد وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أدرع بسيرة من بعض الأهرام ، بأن فيه مطلباً عجيبا . فأخبروا الإنشيد محمد بن طنج بذلك ، فأمرهم بحفره ،

وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجها ، فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أريج وأقباء وجحارة مجوفة في صخرة ، منقوش فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب ، قد طلي بالأطليّة المانعة من

سرعة البلاء وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أغنيهم من أنواع الجواهر كالباقوت والزمرد والزبرجد والفيروزج ، ومنها ما وجهها ذهب وفضة ، فكبر بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها ربما بالية وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية ^٣ كالبراني ^٤ وغيرها [من الآلات] ^٥ من المزمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذي قد

طلي منه ذلك الميت الموضوع في التمثال ^٦ الخشب ^٧ ، والطلاء ذواة متشوق وأحلاط معمولة لا رائحة لها ، فتجعل منه على النار شيء ، ففاح منه ريح طيبة مختلفة لا تعرف في نوع من أنواع الطيب .

وقد مجعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أثنائهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم ، وإزاء كل تمثال تمثال من الحجر المزمر أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل . وزعم قوم من أهل الدرية أن لذلك القلم ، منذ فوّد من أرض مصر ، أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا يهود ولا نصارى ، ولم يؤدّهم

(a) بولاق : الأبنية . (b) بولاق : البراني . (c) زيادة من مروج الذهب . (d) بولاق : التماثيل . (e) بعد ذلك في مروج الذهب : وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء .

الْحَفَرُ إِلَّا لما ذكرناه من هذه التَّمائِيلِ ، وكان ذلك في سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مائة .
وقد كان مَنْ سَلَفَ وَخَلَفَ من وُلاةِ مصر ، من أَحْمَدَ بنِ طُولُونٍ وغيره ، إلى هذا الوقت وهو
سنة اثنين وثلاثين وثلاث مائة^١ - لهم أَعْجَازٌ عَجِيبَةٌ فيما اسْتُخْرِجَ في أَيَّامِهِم من الدَّفَائِنِ والأَمْوَالِ
والْجَوَاهِرِ ، وما أَصِيبَ في هذه الْقُبُورِ من الْمَطَالِبِ والخِزَائِنِ^٢ ، وقد أَتَيْتُنَا على ذِكْرِها فيما تَقَدَّمَ من
تَصْنِيفِنَا^٣ .

وَرَكِبَ أَحْمَدُ بنُ طُولُونٍ يوماً إلى الأهرام ، فَأَتَاهُ الْحُجَابُ بِقَوْمٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ صُوفٌ ، ومعهم
الْمَسَاحِي والمَعَاوِلُ ، فسألهم عَمَّا يُعَانُونَهُ^٤ ، فقالوا : نحن قَوْمٌ نَطْلُبُ الْمَطَالِبَ . فقال لهم : لا
تَخْرُجُوا بعدها إِلَّا بِمَشُورٍ^٥ أو رَجُلٍ من عِيَالِي . وأخبروه أَنَّ في سَمْتِ الأهرامِ مَطْلَبًا قد عَجَزُوا
عنه ، فَضَمَّ إِلَيْهِمُ الزَّافِقِي ، وتقدَّم إلى عَامِلِ [عقونة]^٦ الجِيزَةِ في إعانتهم بِالرَّجَالِ والثَّقَقَاتِ ،
وأنْصَرَفَ . فَأَقَامُوا مُدَّةً يَمْتَلُونَ حتى ظَهَرَ لَهُمُ .

فَرَكِبَ أَحْمَدُ بنُ طُولُونٍ إِلَيْهِمُ وهم يَحْفَرُونَ ، فَكَشَفُوا عن حَوْضٍ مَمْلُوءٍ دَنَانِيرَ ، وعليه غِطَاءٌ
مَكْتُوبٌ عليه بِالْبَرْبُطِيَّةِ ، فَأَحْضَرَ مَنْ قَرَأَهُ فإذا فيه :

«أنا فُلانُ بنُ فُلانٍ ، الملكُ الَّذِي مَيَّزَ الذَّهَبَ من غِشِّهِ ودَنَسَهُ ، فمن أَرَادَ
أَنْ يَتَعَلَّمَ فَضْلَ مُلْكِي على مُلْكِهِ ، فَلْيَنْظُرْ إلى فَضْلِ عِيَارِ دِينَارِي على عِيَارِ
دِينَارِهِ ، فَإِنَّ مُخْلَصَ الذَّهَبِ من الغِشِّ مُخْلِصٌ في حَيَاتِهِ وبعدَ وَفَاتِهِ» .

فَقَالَ أَحْمَدُ بنُ طُولُونٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِنَّ ما بَيَّهْتَنِي عليه هذه الْكِتَابَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ من الْمَالِ .
ثم أَمَرَ نَكْلًا من الْقَوْمِ الْمَطَالِبِيَةِ بِمَائَتِي دِينَارٍ مِنْهُ ، وَلِكُلِّ من الصُّنَّاعِ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ بعد تَوْفِيَةِ
أَجْرَةِ عَمَلِهِ ، وَلِلزَّافِقِيِّ ثَلَاثَ مِائَةِ دِينَارٍ ، وَلِتَسِيمِ الْخَادِمِ بِأَلْفٍ دِينَارٍ ، وَحَمَلَ باقِي الدَنَانِيرِ
فَوَجَدَهَا أَجُودَ من كُلِّ عِيَارٍ . وَشَدَّدَ من حِمَّتِي في الْعِيَارِ بِمِصْرٍ حتى صَارَ عِيَارُ دِينَارِهِ ، الَّذِي تُحَرِّفُ
بِالْأَحْمَدِي ، أَجُودَ عِيَارٍ وَكانَ لا يُطْلَى إِلَّا بِهِ^٣ .

(a) بولاق : وما أَصِيبَ في هذه الْمَطَالِبِ من الْقُبُورِ ، واخْتِثَ من مَرُوجِ الذَّهَبِ . (b) بولاق : يَمْلُونَ ، والمُثَبِّت من
ابن الدَّيَاةِ . (c) بولاق : بِمَشُورَتِي . (d) زيادة من ابن الدَّيَاةِ .

^١ هذا التاريخ الَّذِي دَوَّنَ فِيهِ الْمَسْعُودِي كِتَابَهُ وَهُوَ
النَّسْخَةُ الْأُولَى (التَّبْيِيهِ والإِشْرَافُ ٩٧) .
سعيد : المغرب في حُلِيِّ الْمَغْرِبِ ٩٨-٩٩ (تَقْلًا عن سيرة ابن

طُولُونٍ لابن الدَّيَاةِ) .

^٢ لِمَسْعُودِي : مَرُوجِ الذَّهَبِ ٩٧:٢-٩٨ .

ذِكْرُ هَلَاكِ أَمْوَالِ أَهْلِ مَصْرَ

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ بَعَثْتَ فِيهِمْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُمَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [الأنعام ٨٨، ٨٩ سورة يونس]. هذا دُعَاءُ مِنْ مُوسَى - عليه السلام - على فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ لِكُفْرِهِمْ ، أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ أَمْوَالَهُمْ . قال الزُّجْجَاجُ : طَمَسَ الشَّيْءُ إِذَا هَابَهُ عَنْ صُورَتِهِ .

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وعن محمد بن كعب القرظي ، أنهما قالا : صارت أموال أهل مصر ودرَاهِمُهُمْ حِجَارَةً مَنْقُوشَةً كَهَيْئَتِهَا ، صِحَاحًا وَأَثْلَاثًا وَأَنْصَافًا ، فلم يبق مَعْدِنٌ إِلَّا طَمَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فلم يَتَّبِعْ بِهِ أَحَدٌ بَعْدَهُمْ .

وقال قتادة : بَلَغْنَا أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ صَارَتْ حِجَارَةً .

وقال مُجَاهِدٌ وَعَطِيَّةٌ : أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى لَا تُرَى ، يُقَالُ : عَيْنٌ مَطْمُوسَةٌ أَيْ ذَاهِبَةٌ ، وَطَمَسَ الْمَوْضِعَ إِذَا غَقَا وَذَرَسَ .

وقال ابن زَيْدٍ : صَارَتْ دَنَانِيرُهُمْ وَدَرَاهِمُهُمْ وَقَوْسُهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُمْ حِجَارَةً .

وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَكُونُ مَعَ أَهْلِهِ وَفِرَاشِهِ وَقَدْ صَارَا حَجَرَيْنِ . قال : وقد سألتني عمر بن عبد العزيز ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ ، فَذَعَا بِخَرِيطَةٍ أُصِيبَتْ بِمِصْرَ ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا الْفَوَاحِيكَ وَالْدَنَانِيرَ وَإِنَّهَا لِحِجَارَةٌ .

وقال مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ : دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ : يَا غُلَامَ ، أَتَبْنِي بِالْخَرِيطَةِ ؟ فَجَاءَ بِخَرِيطَةٍ تَقَرَّرَ مَا فِيهَا ، فَإِذَا فِيهِمْ دَرَاهِمٌ وَدَنَانِيرٌ وَتَمْرٌ وَجُوزٌ وَعَدَسٌ وَقُورٌ ، فَقَالَ : كُلُّ يَا ابْنَ شِهَابٍ ؟ فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهِ ٥ ، فَإِذَا هُوَ حِجَارَةٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : هَذَا مِمَّا أَصَابَ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ فِي مِصْرَ إِذْ كَانَ عَلَيْهَا وَالِيًا ، وَهُوَ مِمَّا طَمَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وقال الْمُضَارِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِيُّ : أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى التُّخْلَةَ بِمِصْرَ مَضْرُوعَةً وَإِنَّهَا لِحَجَرٍ وَلَقَدْ رَأَيْتُ نَاسًا كَثِيرًا قِيَامًا وَقُفُودًا فِي أَعْمَالِهِمْ ، لَوْ رَأَيْتَهُمْ مَا شَكَكْتُ فِيهِمْ قَبْلَ أَنْ تَذْنُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ أَنْاسٌ ، وَإِنَّهُمْ لِحِجَارَةٌ . وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنْ رَفِيقِهِمْ وَإِنَّهُ لَخَارِثٌ عَلَى ثَوَرَيْنِ وَإِنَّهُ وَثُورُهُ لِحِجَارَةٌ .

وَنَقَلَ وَثِيعةً بَنَ مُوسَى فِي «قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ»^١ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا هَلَكَ وَقَوْمُهُ ، وَأَيَّمَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَائِلَتَهُ ، نَذَبَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ نَقَبَائِهِ الْاِثْنَى عَشَرَ نَقَبِيَّةً : أَحَدُهُمَا كَالِيبُ بْنُ يُوْقْنَا^(b) ، وَالْآخَرُ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مِيبِطِهِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ، وَأَرْسَلَهُمَا إِلَى مِصْرَ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ حَامِيَةٍ^(c) لَفَرَّقَ أَهْلِيهَا مَعَ فِرْعَوْنَ فَأَخَذُوا دَخَائِرَ فِرْعَوْنَ وَكُنُوزَهُ ، وَعَادُوا إِلَى مُوسَى .

- فَذَلِكَ تَوْرِيثُهُمْ أَرْضَ مِصْرَ ، بِعَنِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ^(d) - عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَاطٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء الآية ٥٦ ، ٥٧] ، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ»^(e) [الدخان الآية ٢٨] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [آل عمران الآية ١٣٧] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ ، أَوْرَثْنَاهَا^(f) بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآيات ٤ ، ٥ سورة القصص] .

- ١٠ قَالَ جَامِعُهُ وَمَوْلَاهُ : أَخْبَرَنِي دَاوُدُ بْنُ رِزْقٍ اللَّهِ^(g) بَنَ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَتْ لَهُ سِيَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ بِأَرْضِ مِصْرَ^(h) - أَنَّهُ عَبَّرَ إِلَى وَادٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْقَلَمُونِ بِالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ ، فَرَأَى فِيهِ مَقَاتَ كَثِيرَةٍ ، مَا يَبِينُ بِطَيْخٍ وَقَاءٍ وَتَفَاحٍ ، وَكُلُّهَا حِجَارَةٌ .

- وَكَانَ قَدْ أَخْبَرَنِي قَدِيمًا بَعْضُ أَعْيَانِ النَّاسِ⁽ⁱ⁾ أَنَّهُ شَاهَدَ ، فِي سَفَرِهِ إِلَى بَعْضِ^(j) الْبِلَادِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، بِطَيْخًا كَثِيرًا كُلَّهُ حِجَارَةٌ ، وَذَلِكَ الْبَطِيخُ مِنَ الصَّنْفِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «عَبْدَلِي» .

(a) بولاق : وسمه . (b) بولاق : موقها . (c) بولاق : حاميها . (d) الأصل : تعالى . (e) بولاق : أورشائها . (f) بولاق : بن . (g) بولاق : الأعيان . (h) ساقطة من بولاق .

^١ أبو يزيد وَثِيعة بن موسى بن الفرات الفارسي الوشاء ، مؤرخ ومحدث ولد في فسا - مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل - كان يكثر في الوشي (نوع من الثياب) فصار إلى البصرة ثم إلى مصر ومنها إلى الأندلس ثم عاد إلى مصر وعاش بها حتى توفي سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م ، ألف كتابًا في قصص الأنبياء في مجلدين (باقوت : معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٧-٢٤٨ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ : ١٢-١٣ ٢١ : روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ٣٩ : ٢٣١) (Sezgin, F., GASL, p. 315) .
^٢ تَخَلَّطَ الْمُقْرِيزِيُّ هَذَا بَيْنَ سُورَتَيْنِ ، الْآيَاتِ ٢٥-٢٨ سُورَةِ الدَّخَانِ وَالْآيَاتِ ٥٧-٥٩ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ .
^٣ انظر فيما تقدم ٩٩ .

ذكر أخلاق أهل مصر وطبائهم وأمزجهم

قال أبو الحسن علي بن رضوان الطيب^١: مصر اسم فيما نقلت الرواة يدل على أحد بني^٢ أولاد نوح النبي - عليه السلام - فإنهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الأرض فألسل فيها وعمرها فشئت باسمه^٣.

والذي يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التي يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود أربعة، وهي أن الشمس تشرق على أقصى العمازة بالشرق قبل^٤ شروقها على هذه الأرض بثمان ساعات وثلاث وتغيب عنها قبل^٥ أن تغيب عن آخر العمازة بالمغرب بثلاث ساعات وثلاث ساعة، فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض في النصف الغربي من الربع العاير.

والنصف الغربي من الربع العاير على ما قال أبفرط ويطلمعيوس أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقي، لأنه [في]^٦ قسم كوكب القتر، والنصف الشرقي في قسم كوكب الشمس. وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقي قبل شروقها على النصف الغربي، والقمر يهل على النصف الغربي قبل النصف الشرقي.

وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر في وسط الربع المعمور من الأرض بالطبع، فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها في النصف الغربي.

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) زيادة من ابن رضوان.

١٠٦-١١٠: سلمان قطاية: الطيب العربي علي بن رضوان رئيس أطباء مصر، تونس - الأيكسو ١٩٨٤ دراسة ماكس مايرهوف عن كتاب دفع مضار الأبدان Meyerhof, M., «Limate and Health in Old Cairo according to Ali Ibn Ridwān (XI century A. D.)» in *Congrès International de médecine tropicale et Hygiène-Comptes reudues, Historie de la medecine*, Le Caire 1929, pp. 211-35; Schacht, J., *El² art. Ibn Ridwan III*, p. 930-31.

^٢ انظر فيما تقدم ٤٦.

^١ هنا ينقل المقرئ نصاً مطوّلاً عن كتاب «دفع مضار الأبدان» لعلي بن رضوان الطيب يمتد حتى صفحة ١٢٥ فيما يلي؛ وهو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر رئيس أطباء مصر المقرئ سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م، من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض الخوطنة وعلى الأخص في كتاب «دفع مضار الأبدان بأرض مصر» الذي نقله المقرئ كاملاً موزعاً على صفحات كتاب المواظظ والاعتبار (القنطري: تاريخ الحكماء ٤٤٣-٤٤٤ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٩٩:٢-١٠٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨: ١٠٥-١٠٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١:

والحدّ الثالث هو أنّ أوّل بُعْد هذه الأرض عن خطّ الاستواء/ في جهة الجنوب أشوان ، ويُعَدُّها عن خطّ الاستواء اثنان وعشرون ذَرَجَةً ونصف . فالشَّمْسُ تُسَامِكُ رُؤُوسَ أَهْلِهَا مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ : عِنْدَ كَوْنِهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ ، وَفِي أَوَّلِ السَّرَطَانِ ، وَفِي هَذَيْنِ الرَّقَّتَيْنِ لَا يَكُونُ لِلْقَائِمِ بِأَشْوَانَ نَصْفُ النَّهَارِ ظِلًّا أَضَلًّا ، فَالْحَرَارَةُ وَالْيَبْسُ وَالْإِحْتِرَاقُ غَالِبٌ عَلَى مِزَاجِهَا لِأَنَّ الشَّمْسَ تُنَشِّفُ رُطُوبَاتِهَا ، وَلِلذَلِكَ صَارَتْ أَلْوَانُهُمْ سَوْدَاءَ وَشُعُورُهُمْ بِجَفَنَةِ لَاحْتِرَاقِ أَرْضِهِمْ .

- والحدّ الرابع هو أنّ آخر بُعْد أرض مصر عن خطّ الاستواء في جهة الشمال طَرَفُ بَحْرِ الرُّومِ ، وَهَلِيه مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بُلْدَانٌ كَثِيرَةٌ كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدٍ وَدِمْيَاطٍ وَتَنْيْسٍ وَالْقَرَمَآ . وَبُعْدُ دِمْيَاطٍ عَنْ خَطِّ السَّيْءِ فِي الشَّمَالِ أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ جُزْءًا^(١) ، وَثَلَاثُ ، وَهَذَا الْبُعْدُ هُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَأَوَّلُ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، فَالشَّمْسُ لَا تَبْعُدُ عَنْهُمْ كُلَّ الْبُعْدِ وَلَا تَقْرُبُ مِنْهُمْ كُلَّ الْقُرْبِ ، فَالْغَالِبُ عَلَيْهِمُ الْإِغْتِدَالُ مَعَ مَيْلٍ يَسِيرُ إِلَى الْحَرَارَةِ ، فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الْمُقْتَدِلَ عَلَى الصَّحَّةِ مِنَ الْبُلْدَانِ الْعَامِرَةِ ، هُوَ وَسَطُ^(٢) الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَأَيْضًا فَتُجَاوِزُهُ دِمْيَاطُ اللَّيْلِ وَإِحَاطَتُهُ بِهَا ، تَجْمَعُهَا مُتَعَدِّلَةٌ بَيْنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ ، خَارِجَةً عَنِ الْإِغْتِدَالِ إِلَى الرُّطُوبَةِ ، فَيَكُونُ الْغَالِبُ عَلَيْهَا الْمِزَاجُ الرُّطْبِيُّ الَّذِي لَيْسَ بِحَارٍ وَلَا بَارِدٍ ، وَلِلذَلِكَ صَارَتْ أَلْوَانُهُمْ سَعْرًا وَأَخْلَاقُهُمْ سَهْلَةً^(٣) ، وَشُعُورُهُمْ سَبْطَةً .

- وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْإِحْتِرَاقُ ، وَآخِرُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الْغَالِبُ عَلَيْهَا الْإِغْتِدَالُ مَعَ مَيْلٍ يَسِيرُ نَحْوَ الْحَرَارَةِ ، فَمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ ، وَتَكُونُ قُوَّةُ حَرَارَتِهِ بِقَدْرِ بُعْدِهِ عَنْ أَشْوَانَ وَقُرْبِهِ مِنْ بَحْرِ الرُّومِ . وَمَنْ أَجَلَ هَذَا قَالَ أَبُوتَرَاطُ وَجَالِيئُوسُ : إِنَّ الْمِزَاجَ الْغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ الْحَرَارَةُ^(٤) .

- قَالَ : وَجَبَلَ لَوْفًا^(٥) فِي مَشْرِقِ هَذِهِ الْأَرْضِ^(٦) يُعَوِّقُ عَنْهَا رِيحَ الصَّبَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرَأْ أَحَدٌ^(٧) يَسْتَعِطِطُ مِصْرَ صَبَا خَالِصَةً ، لَكِنْ مَتَى هَبَّتِ الصَّبَا عَنْدهُمْ ، هَبَّتْ تَكْبًا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ أَوْ الْمَشْرِقِ وَالْجَنُوبِ . وَهَذِهِ الرِّيحُ يَابِسَةٌ مَائِقَةٌ مِنَ الْقَفْنِ ، فَقَدْ عَدِمَتْ أَرْضُ^(٨) مِصْرَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ صَارَتْ الْمَوَاضِعُ الَّتِي تَهْبُ فِيهَا رِيحُ الصَّبَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِهَا ، كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَتَنْيْسٍ [وَدِمْيَاطُ]^(٩) .

(١) عند ابن رضوان : درجة . (٢) بولاق : وهو أول وسط . (٣) عند ابن رضوان : وأحداقهم شملة . (٤) في إحدى نسخ دفع مضار الأبدان : وجبل المقطم . وانظر فيما يلي ١ : ١٢٣ . (٥) بولاق : يوجد . (٦) بولاق : أهل . (٧) زيادة من ابن رضوان .

وَيُعَوَّقُ أَيْضًا هَذَا الْجَبَلُ إِشْرَاقَ الشَّمْسِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، إِذَا كَانَتْ عَلَى الْأَفْقِ فَيَكُونُ زَمَانُ لَبَثِ الشُّعَاعِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ أَقَلُّ مِنَ الطَّبِيعِيِّ ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْحَالِ سَبَبٌ لَوُكُودِ الْهَوَاءِ وَغَلْظِهِ . وَأَرْضُ مِصْرَ أَرْضٌ كَثِيرَةُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ جَدًّا ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا مَوْضِعًا خَلُوهَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَهِيَ أَرْضٌ مَتَحَلِّلَةٌ ، فَإِنَّكَ تَرَاهَا عِنْدَ انْصِرَافِ الثَّلِجِ بِمَنْزِلَةِ الْحَمَاءِ ، فَإِذَا حَلَلَّتِ الْحَرَارَةُ مَا فِيهَا مِنَ الرُّطُوبَةِ تَشَقَّقَتْ شَقُوقًا عِظَامًا ، وَالْمَوَاضِعُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ أَرْضٌ كَثِيرَةُ الْغَفُورَةِ .

وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ حَرَارَةٌ مِزَاجُهَا وَسَخَافَتُهَا^٥ ، وَكَثْرَةُ مَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ اخْتِرَاقَهَا وَسَوَادَ طِينِهَا ، وَصَارَتْ أَرْضًا سَوْدَاءَ ، وَمَا قُرُبَ مِنْهَا مِنَ الْجَبَلِ سَبَبٌ إِمَّا بُورْقِيٍّ أَوْ مَالِحٍ ، وَيُظْهِرُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِالْقَشِيَّاتِ بُخَارًا أَسْوَدَ أَوْ أَعْبَرُ ، وَخَاصَّةً فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ . وَأَرْضُ مِصْرَ ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَخْتَصُّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ دُونَ غَيْرِهِ . وَعِلَّةُ ذَلِكَ ضَبَقُ عَرَضِهَا ، وَاسْتِئْمالَ طَوْلِهَا عَلَى عَرَضِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ ، فَإِنَّ الصَّعِيدَ فِيهِ مِنَ الثَّخَلِ وَالشَّنَطِ وَأَجَامِ الْقَصَبِ وَالبُرْدِيِّ ، وَمَوَاضِعُ إِخْرَاقِ الْقَحْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَالْقِيُومُ فِيهِ مِنَ النَّقَائِعِ وَأَجَامِ الْقَصَبِ وَمَوَاضِعُ تَغْطِينَ الْكُثَّانِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَأَسْفَلُ أَرْضِ مِصْرَ فِيهِ مِنَ النَّبَاتِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ كَالْقَلْقَاسِ وَالْمُوزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ بَقْعَةٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لَهَا أَشْيَاءٌ تَخْتَصُّ بِهَا وَتَقْضِلُ عَنْ غَيْرِهَا^١ .

قَالَ : وَالثَّلِجُ يُرْطَبُ بِمِيسِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ ، فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ الْمِزَاجَ الْغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ الْقَضَلِيَّةُ ، وَأَنَّهَا ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ ، وَأَنَّ هَوَاءَهَا وَمَاءَهَا زَدِيحَانِ ، وَقَدْ يَسَّرَ الْأَوَّلُ أَنَّ الْمَوَاضِعَ الْكَثِيرَةَ الْعَفْنُ يَتَحَلَّلُ مِنْهَا فِي الْهَوَاءِ فَضُولًا كَثِيرَةً لَا تَدَعِيهِ يَسْتَقَرُّ عَلَى حَالٍ لِاخْتِلَافِ تَصَعُّدِهَا .

وَقَدْ كَانَ اسْتَبَانَ أَنَّ هَوَاءَ أَرْضِ مِصْرَ يُشْرَعُ إِلَيْهِ التَّغَيُّرُ ، لِأَنَّ الشَّمْسَ لَا يَثْبُتُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ شُعَاعُهَا الْمُدَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ ، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَثُرَ اخْتِلَافُ هَوَاءِ أَرْضِ مِصْرَ ، فَصَارَ يُوجَدُ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ عَلَى حَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ : مَرَّةً حَرٌّ ، وَمَرَّةً بَرْدٌ ، وَمَرَّةً يَابِسٌ ، وَأُخْرَى رَطْبٌ ، وَمَرَّةً مَتَحَرِّكٌ ،

(٥) ساقطة من بولاق .

وأخرى ساكن، ومَرَّةُ الشَّمْسِ صَاحِيَّةٌ، ومَرَّةٌ قد سَتَرَهَا الغَيْمُ. وبالجملة هواءُ مصر كثيرُ الاختلاف، غير لازم لطريقة واحدة، فيصير من أجل ذلك ما في الأوعية والفروق من أخلط البدن، لا يلزم حدًّا واحدًا.

وأيضًا فإنَّ ما يتحلَّل كلَّ يوم من البخار الرطب بأرض مصر، يُعَوِّقُه اختلافُ الهواءِ وقِلَّةُ سُكْنِ الجبال وكثرة حرازة الأرض عن الاجتماع في الجوّ، فإذا بَرَدَ الهواءُ بِزَيْدِ الليل انْتَحَدَرَ هذا البخار على وجه الأرض، فيتولَّد عنه الضباب الذي يَخْضُبُ عنه الطلُّ والندى، وربما تحلَّل هذا البخار بالتحلُّل الخفِيّ، فإذا يتحلَّل كلَّ يوم ما كان اجتمع من البخار في اليوم الذي قَبْلَه، فمن أجل هذا لا يَجْتَمِعُ الغَيْمُ المُطِيرُ بأرض مصر/ إلَّا في الثَّندرة، وظاهرُ أيضًا أن أرض مصر يترطب هوائُها في كلَّ يوم بما يترقَّى إليه من البخار الرطب وما يتحلَّل.

وقد قال بعضُ الناس: إنَّ الضبابَ يتكوَّن من استِحالةِ الهواءِ إلى طبيعةِ الماء، فإذا انضافَ هذا إلى ما قلناه، كان أَرَبُّد في بَيانِ سُرْعَةِ تَغْيِيرِ الهواءِ بأرض مصر وكثرةِ القُوَّةِ فيها، وقد اشْتَبَاهُ أَنَّ أرضَ مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يُشرع إليها العَفَنُ.

والعلةُ القُصوى في جميع ذلك، هو أنَّ أخصَّ الأوقات بالحفاف في الأرض كلها تكثر فيه بمصر الرطوبة، لأنَّها تَتَرَطَّبُ في الصَّيفِ والخريفِ بمَدِّ النيلِ وقِيضِهِ، وهذا خلاف ما عليه البلدان الأخر.

وقد أَعْلَمْنَا^(a) أن رطوبة الصيف والخريف فضليَّة أعني خارجة عن المجزئ الطبيعي ١٥ كَرُطوبةِ المطر الحادث في الصيف. ومن أجل هذا قلنا إنَّ رطوبة [أرض]^(b) مصر فضليَّة، وذلك أنَّ الحرارة والنَّيْسَ هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعي، وأنَّما عَرَضُ له ما أخرجَه عن النَّيْسِ إلى الرطوبة الفضليَّة مدَّ النَّيْلِ في الصيف والخريف، ولذلك كَثُرَتِ القُوَّات بهذه الأرض.

فهذا هو السَّبَبُ الأوَّلُ^(c) الأعظم في أن صارت أرض مصر على ما هي عليه من سخافة الأرض وكثرة العَفَنِ وَرَدَاةِ الماء والهواء؛ إلَّا أنَّ هذه الأشياء لا تُحْدِثُ في أَبدانِ المصريين استِحالةً مَحْسُوسَةً إذا جَزَتْ على عاداتها، من أجل إلف المصريين لهذه الحال ومُشاكَلَه أُنْدَانِهِمْ لها، فإنَّ كُلَّ ما يَتَوَلَّدُ بأرض مصر من الحَيَوَانِ والثَّباتِ مُشَابِهٌ لما عليه مصر في سخافة الأبدان^(d) وَضَعْفِ القُوَّةِ وكثرةِ التَّغْيِيرِ وسُرْعَةِ الوُقُوعِ في الأمراض وقصر المَدَّةِ، كالحَيْطَلَةِ بمصر فإنَّها وشيكة الزوال، سَرِيعٌ إليها العَفَنُ في المَدَّةِ اليسيرة.

ولا تظن^(a) أن أئبدان الناس وغيرهم تُخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستيحالة؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك وأئبدانهم متبينة من هذه الأشياء. فحال ما يتولد بأرض مصر من الثبات والحيوان، في السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع في الأمراض، كحال سخافة أرضها وعنفها وقسوتها وسرعة استيحالتها، لأن النسبة واجدة، ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها وثبات الثبات بها، فإن هذه الأشياء من حيث ناسبتها ولم تتعد عن مشاكستها أشكن حياتها. فأما الأشياء الغريبة فإنها إذا دخلت إلى مصر تغيرت في أول لقاءها لهذا الهواء، حتى إذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه، صحت صحتها^(b) مشاكلة لأرض مصر^(c).

قال: وأما جنس ما يؤكل ويشرب بأرض مصر، فإن الغلات سريعة التغير، سخيصة متخلخلة، تنسد في الزمان اليسير، كالحنطة والشعير والقدس والحبص والبقلاء والجلبان، فإن هذه تسوس في المدة القليلة، ليس لشيء من الأغذية التي تغفل منها لذادة ما لتظيره في البلدان الأخر، وذلك أن الخبر المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوماً واحداً ببلته لا يؤكل، وإن أكل لم يوجد له لذادة ولا تماشك لبغضه يتغض، ولا يوجد فيه غلوة، ولكنه يتكوج في الزمان اليسير، وكذلك الدقيق، وهذا خلاف أخبار البلدان الأخر.

وكذلك الحال في جميع غلات مصر وقواكها وما يغفل منها^(d)، فإنها وشبكة الزوال، سريعة الاستيحالة والتغير. فأما ما يغفل من هذه إلى مصر، فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها، ويستحيل عما كانت عليه إلى مشاكلة أرض مصر، إلا أن ما كان حديثاً قريب العهد بالسفر، فقد بقيت فيه من بجودته بقايا صالحة؛ فهذا حال الغلات.

وأما الحيوان الذي يأكله الناس، فالبليدي منه مزاجه مشاكلي لمزاج الناس بهذه الأراضي في السخافة وسرعة الاستيحالة، فهو على هذا ملائم لطبائعهم، والمجلوب كالكنباش البزقة فالسفر يُحدث في أئدائها قحلاً وييساً وأخلطاً لا تُشاكل مزاج^(e) المصريين، ولهذا إذا دخلت مصر مريض أكثرها، فإذا استقرت زماناً صالحاً تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين.

(a) بولاق: ولا مطعن. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: فيها. (d) بولاق: أسلاط.

وأهل مصر يَشْرَبُ المَشْهُورَ منهم من ماءِ النَّيْلِ ، وقد قُلْنَا في ماءِ النَّيْلِ ما فيه كِفَايَةٌ ، وبعضُهم يشرب مياه الآبار ، وهي قَرِيبةٌ من مُشَاكَلَتِهِمْ ، والمياهُ المَخْزُونَةُ فَقَلٌّ من يَشْرَبُهَا بأَرْضِ مصر . وأَجْوَدُ الْأَشْرَبَةِ عندهم الشَّمْسِيُّ ، لأنَّ العَصَلَ الذي فيه يَحْفَظُ قُوَّتَهُ ولا يَذْهَبُ بِتَغْيِيرِ بِسْرَعَةٍ ، والزَّيْتَانُ الذي يعمل فيه خالص الحَرِّ فهو يُنْضِجُهُ ، والزَّيْبُ الذي يُعْمَلُ منه مَجْلُوبٌ من بِلَادِ أَجْوَدِ هَوَاءٍ .

- وأما الخَمْرُ فَقَلٌّ من يَغْتَصِرُهَا إِلَّا وَيَلْقَى معها غَسَلًا ، وهي مُغْتَصَرَةٌ من كُرُومِهِمْ فتكون مُشَاكِلَةً لَهُمْ ، ولهذا صاروا يَخْتَارُونَ الشَّمْسِيَّ عليها ، وما عَدَا الشَّمْسِيَّ والخَمْرُ من الشَّرَابِ بأَرْضِ مصر ، فردِيءٌ لا خَيْرَ فيه لَشَوْعَةِ اسْتِحَالَتِهِ من فَسَادِ مَادَّتِهِ كَالثَّيْبِذِ العَمْرِيِّ والمَطْبُوخِ والمَزْجُ المعمول من الحِنْطَةِ .

- وأغذيةُ أهل مصر مختلفة : فإنَّ أَهْلَ الصَّعِيدِ يَتَقَنَّدُونَ كثيرًا بِتَمَرِ النَّخْلِ والحَلَاوَةِ المعمولة من قَصَبِ السَّكَّرِ ، وَيَحْمِلُونَهَا إِلَى الفُسْطَاطِ وغيرها ، فَبِئَاصٍ هناك وتُؤْكَلُ . وأهلُ أَشْقَلِ الأَرْضِ يَتَقَنَّدُونَ كثيرًا بِالْقُلُقَاسِ والجَلْبَانِ ، ويحملون ذلك إلى مَدِينَةِ الفُسْطَاطِ وغيرها ، فَبِئَاصٍ هناك وتُؤْكَلُ ، وكثيرٌ من أهل مصر يُكْتَرُونَ أَكْلَ / السَّمَكِ طَرِيًّا ومَالِحًا . وكثيرٌ يَكْتَرُونَ أَكْلَ الأَلْبَانِ وما يُعْمَلُ منها ، وعند فَلَاحِيهِمْ نَوْعٌ من الخَمْرِ يُدْعَى كَمَكًا ، يُعْمَلُ من جَرِيشِ الحِنْطَةِ وَيُجَفَّفُ ، وهو أَكْثَرُ أَكْلِهِمُ السَّنَةَ كُلَّهَا .

- وبالجُمْلَةِ فكلُّ قَوْمٍ منهم قد نَبَتَ^(٨) أَهْدَانُهُمْ من أَشْيَاءِ بَاعِيَانِهَا وَأَلْفَتْهَا ونَشَأَتْ عليها ، إِلَّا أَنَّ الغَالِبَ على أهل مصر الأغذيةُ الرُّدِيْقَةُ ، وليست تُغَيِّرُ مِزَاجَهُمْ ما دَامَتْ جَارِيَةً على العَادَةِ ، وهذا أَيْضًا مِمَّا يُوَكِّدُ أَفْرَهُمْ في السَّخَافَةِ وَسُرْعَةِ الْوُقُوعِ في الْأَمْرَاضِ .

وأهل الرِّيفِ أَكْثَرُ حَرَكَةٍ وَرِيَاضَةٍ من أهل المَدَنِ ، ولذلك هم أَصَحُّ أَهْدَانًا ؛ لِأَنَّ الرِّيَاضَةَ تُصَلِّبُ أَعْضَاءَهُمْ وتَقْوِيهَا .

- وأهل الصَّعِيدِ أَخْلَاطُهُمْ أَزَقٌّ وَأَكْثَرُ دُخَانِيَّةً وَتَخْلُخَلًا وَسَخَافَةً ، لِسِدَّةِ حَرَارَةِ أَرْضِهِمْ من أهل^(٩) أَشْقَلِ الأَرْضِ . وأهلُ أَشْقَلِ الأَرْضِ بِمِصْرٍ أَكْثَرُ اسْتِيفْرَاجِ قُصُولِهِمْ بِالْبَرَارِزِ وَالتَّهْوِيلِ ، لِقُتُورِ حَرَارَةِ أَرْضِهِمْ ، واسْتِيفْعَالِهِمْ للأَشْيَاءِ البَارِدَةِ والغَلِيظَةِ كَالْقُلُقَاسِ .

وأما أخلاقُ^(١٠) المِصْرِيِّينَ فبعضُها شَبِيهُ بَعْضِ ، لِأَنَّ قُوَّةَ النَّفْسِ تَابِعَةٌ لِمِزَاجِ البَدَنِ ، وَأَهْدَانُهُمْ سَخِيفَةٌ سَرِيعَةُ التَّغْيِيرِ قَلِيلَةُ الصَّبْرِ والجَلَدِ ، وكذلك أَخْلَاقُهُمْ يَغْلُبُ عَلَيْهَا الاسْتِحَالَةُ ، والتَّثَقُّلُ من

شيء إلى شيء، والدُّعَة والجُبْن والقُتُوط والشُّح وقِلَّة الصَّبْر، والرَّغْبَة في العِلْم، وشَوْعَة الخَوْف،
والْحَسَد والثَّمِينَة والكَذِب والسَّغْي إلى السُّلْطَان وذَمَّ الناس.

وبالحُمْلَة فيغلب عليهم الشُّرُورُ الذَّنْبِيَّة التي تكون من ذَنَاءَة النَّفْس^(a)، وليس هذه الشُّرُور عاتية
فيهم، ولكنها مَوْجُودَة في أَكْثَرِهِمْ، ومنهم من خَصَّه الله بِالْفَضْلِ وَحَسَنَ الْخَلْق، وبَرَّاه من
الشُّرُور.

ومن أَجْلِ تَوَلِيدِ أَرْضِ مِصْرَ الْجُبْنِ والشُّرُورِ الذَّنْبِيَّة في النَّفْس لم يَشْكُهَا الْأَسَد، وإذا دَخَلَتْ ذَلَّتْ
ولم تَتَنَاسَل، وَكِلَابُهَا أَقَلُّ جِرَاءَة^(b) من كِلَابِ غَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَان، وكذلك سَائِرُ مَا فِيهَا أَضْعَفُ مِنْ
نَظِيرِهِ فِي الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى، مَا خِلَا مَا كَانَ مِنْهَا فِي طَبْعِهِ مُلَامَةً لِهَذِهِ الْحَالِ كَالْحِمَارِ وَالْأَزْوَاجِ^(c).

قَالَ: إِنَّ جَالِيئُوسَ يَزِي أَنْ فَضَّلَ الرِّبْعَ طَبِيعَتَهُ الْاِغْتِدَالَ، وَيُنَاقِضُ [فِي كِتَابِهِ فِي الْمَزَاجِ]^(d) مِنْ
ظَنَّ أَنَّهُ حَارٌّ رَطْبٌ. وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الْفَضْلِ أَنْ تَصْبَحَ فِيهِ الْأَبْدَانُ وَيَجُودُ هَضْمُهَا، وَتَنْتَشِرَ الْحَرَارَةُ
الْفَرِيزِيَّة فِيهِ، وَيَضْفُو الرُّوحَ الْحَيَوَانِي، لَاِغْتِدَالَ الْهَوَاءِ وَصَفَائِهِ، وَمُساوَاةَ لَيْلِهِ لِنَهَارِهِ، وَغَلَبَةَ الدَّمِ.
وَالْهَوَاءُ الْمُغْتَدِلُ هُوَ الَّذِي لَا يُحْسُ فِيهِ يَبْرَدُ ظَاهِرٌ وَلَا حَرٌّ وَلَا رُطُوبَةٌ وَلَا يَبْسُ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ
نَقِيًّا صَافِيًّا، فَيَقْوَى فِيهِ الرُّوحُ الْحَيَوَانِي لِهَذَا السَّبَبِ، وَتَصْبَحُ الْأَبْدَانُ وَيَكْثُرُ نَشَاطُ الْحَيَوَانِ، وَتَقْوَى
الْأَشْيَاءُ وَتَزِيدُ وَتَتَوَلَّدُ^(d).

وإذا طَلَبْنَا بِأَرْضِ مِصْرَ مِثْلَ هَذَا الْهَوَاءِ لَمْ نَجِدْهُ فِي وَقْتٍ مِنَ السَّنَةِ، إِلَّا فِي أَمْشِيرٍ وَبَرْمَهَاتٍ
وَبَرْمُودَة وَبَشَنَسٍ، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي النِّصْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الدَّلْوِ وَالْحَوْتِ وَالْحَمَلِ وَالثَّوَرِ، فَإِنَّمَا
نَجِدُ بِمِصْرَ فِي هَذَا الزَّمَانِ إِنَّمَا مُغْتَدِلَةً نَقِيَّةً صَافِيَّةً، لَا يُحْسُ فِيهَا بِحَرٍّ ظَاهِرٍ وَلَا يَبْرَدٍ وَلَا رُطُوبَةٍ وَلَا
يَبْسُ، وَتَكُونُ الشَّمْسُ فِيهَا نَقِيَّةً مِنَ الْغَيْومِ، وَالْهَوَاءُ سَاكِتًا لَا يَنْجِرُوكَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي
بَرْمُودَة وَبَشَنَسٍ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ لِيَقْتَدِلَ يَبْرِدُهَا حَرُّ الشَّمْسِ.

وَفِي هَذَا الزَّمَانِ تَكْثُرُ حَرَكََةُ الْحَيَوَانِ وَتَفَادُهُ، وَتَحْسُنُ أَصْوَاتُهُ، وَتُورِقُ الْأَشْجَارُ، وَيَقْدُ
الزُّهْرُ، وَتَقْوَى الْقُوَّةُ الْمَوْلُودَة، وَيَغْلِبُ كَيْمُوسُ الدَّمِ^(e). وَفِي هَذَا الْفَضْلِ فِي أَرْضِ مِصْرَ يَتَقَدَّمُ زَمَانُهُ

(a) يولاق: الأنفس. (b) ابن رضوان: أقل جدّة. (c) إضافة من ابن رضوان. (d) يولاق: تتوالد.

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٢٦-١٣١.

^٢ نفسه ١٣٥.

^٣ لفظ سرياني معرب بمعنى الخلاصة الغدالية.

الطَّبِيعِي بِمِقْدَارِ مَا يَنْتَقِصُ عَنْ آخِرِهِ . وَعِلَّةُ ذَلِكَ قُوَّةُ حَرَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ . وَقَدْ بَعَضَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ أَيَّامَ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ ، وَذَلِكَ فِي أَمَشِيرَ ، إِذَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ غَيْرَ تَيَّيَّةٍ مِنَ الْغُيُومِ . وَعِلَّةُ ذَلِكَ دُخُولُ فَضْلِ الرِّيحِ فِي فَضْلِ الشِّتَاءِ ، فَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ بَرْدٌ يَبْزِدُهَا الْهَوَاءُ ، فَأَعَادَتْهُ بَعْدَ الْإِعْتِدَالِ إِلَى الْبَرْدِ .

٥ وَلَكَثَرَةُ مَا يَصْنَعُ مِنَ الْأَرْضِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنَ الْبُخَارِ الرُّطْبِ ، يَرْطَبُ الْهَوَاءَ وَيُعَوِّدُ إِلَى حَالِهِ فِي فَضْلِ الشِّتَاءِ ، وَرُبَّمَا بَرْدُ الْهَوَاءِ مِنْ هُبُوبِ رِيحِ أُخْرَ ، فَإِنَّ رِيحَ الْجَنُوبِ ، الَّتِي هِيَ أَشَدُّ الرِّيحِ حَرَارَةً ، إِذَا هَبَّتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ اكْتَسَبَتْ بُرُودَةً مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ اللَّذَيْنِ قَدْ بَرَّدَتْهُمَا هَوَاءُ الشِّتَاءِ ، فَإِذَا مَرَّتْ بِشَيْءٍ بَرَّدَتْهُ بِبُرُودَتِهَا الْعَرَضِيَّةِ ، حَتَّى إِذَا دَامَ هُبُوبُهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً مُتَوَالِيَةً عَادَتْ إِلَى حَرَارَتِهَا ، وَأَسْخَنَتْ الْهَوَاءَ وَأَخَذَتْ فِيهِ يُمَسًّا .

١٠ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ بَرْدَ رِيحِ الْجَنُوبِ ، الَّتِي تَعْرِفُهَا الْمِصْرِيُّونَ بِالْمَرْيَسِيِّ ، يَتَوَلَّدُ مِنْ بَرْدِ مِيَاهِ مِصْرَ وَأَرْضِهَا لَا مِنْ شَيْءٍ طَبِيعِيٍّ لَهَا ، أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ فِي الْحَرِّ ، فِي أَيَّامِ هُبُوبِهَا ، الضَّبَابُ الَّذِي يَجْتَمِعُ مِنْ تَحْلِيلِ الْحَرَارَةِ لِلْبُخَارِ الرُّطْبِ بِالنَّهَارِ وَجَمْعِ الْبُرُودَةِ لَهُ بِاللَّيْلِ ، فَحَرَارَةُ رِيحِ الْجَنُوبِ تَتَوَقَّى^(أ) الْبُرُودَةَ عَنْ جَمْعِهِ وَتُبَدِّلُهُ فِي الْهَوَاءِ ، وَإِذَا دَامَ هُبُوبُ هَذِهِ الرِّيحِ أَسْخَنَتْ الْمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَعَادَتْ إِلَى طَبِيعَتِهَا فِي الْحَرَارَةِ .

١٥ وَإِذَا كَانَ فَضْلُ الرِّيحِ يَتَقَدَّمُ زَمَانُهُ الطَّبِيعِي ، وَيَخْتَلِفُ هَذَا الْإِخْتِلَافُ وَالْهَوَاءُ بِمِصْرَ فِي الْأَضَلِّ يَخْتَلِفُ بِكَثْرَةِ اسْتِحَالَتهِ وَمَا يَزَقِّي إِلَيْهِ مِنَ الْبُخَارِ فَمَا طَلَّتْ بِهِ مِنْ الْفُضُولِ ؟ وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ فِيهِ الرِّيحَاتُ ، وَأَخَّرَ الْأَطِبَّاءُ فِيهِ سَقْيَ الْأَدْوِيَةِ الْمُشْعِلَةِ إِلَى أَنْ يَسْتَقَرَّ أَفْرَجُهُ فِي شَمْسِ الْحَمَلِ مَعَ الثَّوَرِ . ثُمَّ يَدْخُلُ فَضْلُ الصَّيْفِ مِنْ^(ب) آخِرِ تَشْنُّسٍ وَبَقُوَّةٍ وَأَيِّبٍ وَبَعْضُ يَمْشُرِي ، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْجُوزَاءِ وَالشَّرْطَانِ وَالْأَسَدِ وَبَعْضُ السَّيْلَةِ ، فَيَشْتَدُّ الْحَرُّ وَالْيَسَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَتَجْفُ الْعَلَّاتُ وَتَقْشَعُ الشَّعَائِرُ ، وَيَجْتَمِعُ مِنْ أَكْلِهَا فِي الْأَبْدَانِ كِيمُوسَاتُ كَثِيرَةٌ^(ج) زَدِيدَةٌ .

٢٠ وَإِذَا تَزَلَّتِ الشَّمْسُ الشَّرْطَانَ / أَخَذَ الثَّيْلُ فِي الزِّيَادَةِ وَالْقَيْصُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، فَيَتَغَيَّرُ مَزَاجُ الصَّيْفِ الطَّبِيعِي بِكَثْرَةِ مَا يَتَرَاقَى إِلَى^(د) الْهَوَاءِ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ .

وَلَوْجَدَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْجُوزَاءِ أَيَّامَ يُشَاكِلُ هَوَائُهَا هَوَاءَ الرِّيحِ ، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ مَسْتَوْرَةً بِالْغُيُومِ ، أَوْ تَكُونُ رِيحُ الشَّمَالِ هَائِبَةً . وَلِهَذَا يَغْلُطُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَطِبَّاءِ

(أ) بولاق : تفرق . (ب) بولاق : في . (ج) ساقطة من بولاق . (د) بولاق : يترقى إلى ، ابن رضوان : ما يتولد في .

وَيُسْقَى الْأَذْوِيَّةُ الْمُشْتَهَلَةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، لَظَنَهُ أَنَّ فَضْلَ الرِّبْعِ لَمْ يَخْرُجْ ؛ إِلَّا أَنَّ^(a) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَخَذَقَ ، فَهُوَ يَخْتَارُ مَا كَانَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ أَسْكَنَ حَرَارَةً ، وَالْأَكْثَرُ لَا يَشْعُرُونَ أَلْبَنَةً بِهَذِهِ الْحَالِ .
وَفِي آخِرِ الصَّيْفِ يَكُونُ^(b) قَيْصُ الثَّيْلِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا الْفَضْلَ يَتَقَدَّمُ دُخُولُهُ الزَّمَانَ الطَّبِيعِيَّ بِقَدَرٍ مَا يَتَقَدَّمُ آخِرُهُ ، وَأَنَّهُ كَثِيرُ الاضطراب بكثرة ما يَرَوَى إِلَيْهِ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ^(c) . فَلَوْلَا اسْتِثْنَاءُ أَهْلَانِهِمْ عَلَى هَذَا الْاِخْتِلَافِ ، وَمُشَاكَلَتُهُمْ لِهَذِهِ الْحَالِ ، لَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الْأَمْرَاضُ الَّتِي ذَكَرَ الْمُفْرَطُ أَنَّهُا تَحْدُثُ إِذَا كَانَ الصَّيْفُ رَطْبًا .

ثُمَّ يَدْخُلُ فَضْلُ الْحَرِيفِ وَطَبِيعَتُهُ يَابِسَةٌ ، مِنْ النِّصْفِ الْآخِرِ مِنْ مِشْرَى ثُمَّ ثَوَتْ وَبَاهَتْ وَبَعْضُ أَيَّامِ هَاطُورٍ ، وَتَكُونُ الشَّمْسُ فِي آخِرِ الشَّجَلَةِ وَالْجِيزَانِ وَالْعُقْرَبِ ، فَتَكْمُلُ زِيَادَةُ الثَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَضْلِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْأَرْضِينَ^(d) ، فَيُطْبِقُ أَرْضَ مِصْرَ ، وَيَرْتَفِعُ مِنْهُ فِي الْجَوِّ بُخَارٌ كَثِيرٌ ، فَيَنْتَقِلُ مِزَاجُ الْحَرِيفِ عَنِ الْيَبَسِ إِلَى الرُّطُوبَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا وَقَعَ فِيهِ الْأَمْطَارُ وَكَثُرَ الْغَيْمُ فِي الْجَوِّ .

وَيُوجَدُ فِي هَذَا الْفَضْلِ أَيَّامٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ لَأَنَّهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ صَبْفِيَّةٌ ، فَإِذَا نَقِيَ الْجَوُّ مِنَ الْبُخَارِ الرُّطْبِ عَادَتْ إِلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ الْحَرَارَةِ . وَفِيهِ أَيْضًا أَيَّامٌ شَدِيدَةُ الشَّبهِ بِأَيَّامِ الرِّبْعِ ، تَكُونُ عِنْدَمَا يُسَاوِي اللَّيْلُ النَّهَارَ وَيُرْتَبِ الْمَاءُ يَحْسُ النَّهَارَ . وَيَشْتَدُّ فِي هَذَا الْفَضْلِ اضطرابُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ مَا يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنَ الْبُخَارِ الرُّطْبِ ، فَيَكُونُ مَرَّةً حَارًّا ، وَأُخْرَى بَارِدًا ، وَمَرَّةً يَابِسًا ، وَأَكْثَرُ أَوْقَاتِهِ يَغْلُبُ^(e) عَلَيْهِ الرُّطُوبَةُ ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ يَتَمَرَّجُ حَتَّى يَغْلُبَ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ الْمَاءِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ .

وَيُصَادُّ فِي أَيَّامِ الْحَرِيفِ مِنَ الثَّيْلِ أَشْمَاكٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، يُؤَلَّدُ أَكْثَلُهَا فِي الْأَبْدَانِ أَخْلَاطًا لَرِجَّةٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَمْتَسَّحِلُ إِلَى الصُّفْرَاءِ إِذَا صَادَقَتْ فِي الْبَدَنِ خَلْطًا صَفْرَاوِيًّا ، فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ تَضَطَّرَبَ مَا فِي الْأَبْدَانِ مِنَ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ ، وَتَهَيَّجَ الْأَخْلَاطُ ، وَيَتَشَدَّدُ الْهَضْمُ فِي الْبُطُونِ وَالْأَوْعِيَةِ وَالْعُرُوقِ ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ كِيمُوسَاتٌ رَذِيئَةٌ كَثِيرَةٌ الْاِخْتِلَافِ^(f) . بَعْضُهَا مِرَّةٌ صَفْرَاءُ ، وَبَعْضُهَا مِرَّةٌ سَوْدَاءُ ، وَبَعْضُهَا يَلْتَمُّ لَرِجَ ، وَبَعْضُهَا خَلْطٌ خَامٌ ، وَبَعْضُهَا مِرَّةٌ مُعْتَرِفَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا يَتَرَكَّبُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَتَشِيرُ الْأَمْرَاضُ ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الثَّيْلُ فِي آخِرِ الْحَرِيفِ ، وَانْكَشَفَتِ الْأَرْضُ ، وَزَادَ الْهَوَاءُ ، وَكَثُرَتِ الْأَشْمَاكُ ، وَاخْتَفَنَ الْبُخَارُ ، وَكَثُرَ مَا يَرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْعُقُونَةِ ، وَاسْتَحْكَمَ عِنْدَ ذَلِكَ وَجُودُ الْعَقَنِ ، تَزَايَدَتِ الْأَمْرَاضُ . وَلَوْلَا إِنْفَاقُ أَهْلِ أَرْضِ^(g) مِصْرَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، لَكَانَ مَا يَخْدُثُ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرَاضِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) ابن رضوان : بكسر . (c) بولاق : الأرض . (d) بولاق : الأرض . (e) الأصل : بكسر . (f) بولاق : الأخلاط .

ثم يَدْخُلُ قَصْلُ الشَّتَاءِ وَطَبِيعَتُهُ بَارِدَةٌ رَطْبَةٌ، مِنَ النُّصَفِ الْآخِرِ مِنْ هَاطُورٍ ثُمَّ كَيْهَكَ وَطُوبَةُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْقَوْسِ وَالْجَدْيِ وَبَعْضُ الدَّلْوِ، وَذَلِكَ أَقَلُّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ قُوَّةُ حَرَارَةِ أَرْضِ مِصْرَ، وَكَوْنُ الْأَبْدَانِ مُضْطَرَّةً. وَتَنْكَشِفُ الْأَرْضُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْقَصْلِ، وَتُحَرِّثُ وَتُعْتَنُ بِالْجَمَلَةِ، لَكثْرَةِ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنَ الْبُزُورِ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَزْبَالِ الْحَيَوَانِ وَنُفُوسِهَا، وَلِأَنَّهَا سَخِيفَةٌ، وَهِيَ كَالْحَشَاءِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَيَتَوَلَّدُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْفَأْرِ وَالذُّودِ وَالثَّيَابِ وَالْعُشْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً، وَيَتَخَلَّلُ مِنْهَا فِي الْجَوِّ أَبْخَرَةٌ كَثِيرَةٌ، حَتَّى يَصِيرَ الضَّبَابُ بِالْفُتُودَاتِ سَائِرًا لِلْأَبْصَارِ عَنِ الْأَلْوَانِ الْقَرِينَةِ.

وَيَصَادُ أَيْضًا مِنَ الْأَسْمَاكِ الْمَحْبُوسَةِ فِي الْمِيَاهِ الْمُخْزَوْنَةِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ دَاخَلَهَا الْعَقَرُ لِقِلَّةِ حَرَكَتِهَا، فَيُولَدُ أَكْلُهَا فِي الْأَبْدَانِ فَضُولًا كَثِيرَةً لَرَجَّةِ شَدِيدَةِ الْاسْتِغْدَادِ لِلْعَقَنِ، فَتَقْوَى الْأَمْرَاضُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْقَصْلِ. حَتَّى إِذَا اسْتَدَّ الْبُزْدُ، وَقَوِيَ الْهَضْمُ فِي الْأَبْدَانِ، وَاسْتَقَرَّ الْهَوَاءُ عَلَى شَيْءٍ وَاجِدٍ، وَعَادَتِ الْحَرَارَةُ الْقَرِيزِيَّةُ إِلَى دَاخِلِ، وَتَطَلَّعَتِ الْأَرْضُ بِالثَّيَابِ، وَسَكَنَتِ غُفُونَتُهَا، صَحَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَبْدَانُ، وَهَذَا يَكُونُ فِي آخِرِ كَيْهَكَ أَوْ فِي طُوبَةِ.

فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ الْقُصُولَ بِأَرْضِ مِصْرَ كَثِيرَةُ الْاِخْتِلَافِ، وَأَنَّ أَرْذَا أَوْقَاتِ السَّنَةِ عِنْدَهُمْ وَأَكْثَرُهَا أَمْرَاضًا، هِيَ^(١) الْحَرِيفُ وَأَوَّلُ الشَّتَاءِ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِي هَاطُورٍ وَكَيْهَكَ، فَإِذَا اِخْتَلَفَ الْقُصُولُ مُشَاكِلٌ لِمَا عَلَيْهِ أَرْضُهُمْ مِنَ الرَّدَاةِ، فَمَضْرُوءَةُ الْقُصُولِ إِذَا بِالْأَبْدَانِ فِي أَرْضِ مِصْرَ أَقَلَّ مِنْهَا فِي الْبُلْدَانِ الْآخَرِ إِذَا اِخْتَلَفَتْ هَذَا الْاِخْتِلَافُ.

وَاسْتَبَانَ أَيْضًا أَنَّ السَّبَبَ الْأَوَّلَ فِي ذَلِكَ، هُوَ مَدُّ النَّيْلِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ، وَتَطْلِيْقُهُ الْأَرْضَ فِي أَيَّامِ الْحَرِيفِ، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مِيَاةُ الْأَنْهَارِ فِي الْعِمَارَةِ كُلِّهَا، فَإِنَّهَا إِذَا تَمَثَّلَتْ فِي أَحْصَى الْأَوْقَاتِ بِالرُّطُوبَةِ، وَهُوَ الشَّتَاءُ وَالرَّبِيعُ^١.

قَالَ: وَقَدْ اسْتَبَانَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الرُّطُوبَةَ الْقُصُولِيَّةَ بِأَرْضِ مِصْرَ كَثِيرَةٌ. وَظَاهِرٌ أَنَّ أَمْرَاضَهُمُ الْبَلَدِيَّةَ تَكُونُ مِنْ نَوْعِ هَذِهِ الرُّطُوبَةِ، فَإِنِّي أَنَا قَلَمًا رَأَيْتُ أَمْرَاضَهُمُ الْبَلَدِيَّةَ تَكُونُ نَوْعَ هَذِهِ كُلِّهَا، لَا تَشُوبُهَا فِي أَوَّلِ أَثَرِهَا الْبَلَقَمُ وَالْخَلْطُ الْحَامُ، وَالْأَمْرَاضُ كُلُّهَا تَحْدُثُ عِنْدَهُمْ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا كَمَا

(١) يولاي: هو.

قال أبقرط ، وأكثر أمراضهم هي الفضلية ، أغني العنة من أخلاط صفراوية وبلغمية ، على ما يُشاكل يراج / أريضهم ^١ .

قال ^٢ : وما ذكرناه فيما تقدم يُوجب لحدوث الأمراض كثيرا ، إلا أن مُشاكلة هذه بعضها بعضا ، واتفاقها في سنة واحدة ، تمنع من أن تكون في أنفسها مُمرضة حتى لَوِمَت العادة ، فأما إذا خَرَجَتْ عن عاداتها ، فهي تُحدث مَرَضًا ، وخروجها عن عاداتها بمصر هو الذي أعده اختلافًا مَرَضًا ، لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم .

والثبيل ليس يُحدث في الأبدان كل سنة مَرَضًا ، ولكنه إذا أَقْرَطَتْ زيادته ، ودائم مُدة تزيد على العادة ، كان ذلك سببًا لحدوث المرض الواقد .

فإن قيل : إذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة - على ما ذكرت - فلعلها في مَرَضٍ دائم ، فالجواب : لستنا بُالي في هذا ^٣ كيف كان ، لأن المَرَضَ هو ما يَضُرُّ بالِفعل ضَرَرًا مَحْسُوسًا من غير تَوَسُّط ، فمن أجل ذلك ليست ^٤ أبدان المصريين في مَرَضٍ دائم ، ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض ^٥ .

قال ^٦ : أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أقرها ما فيه كفاية ، وظَهَرَ أن أكثرها الأمراض الفضلية التي يشوبها صفراء وخام ، على أن باقي الأمراض تحدث عندهم بسرعة وقرب ، وخاصة في آخر الخريف وأول الشتاء .

وأما الأمراض الوافدة ومعنى المرض الواقد هنا ^٧ ، هو ما يَعمُ خَلْقًا كثيرًا في بَلَدٍ واحد وزمانٍ واحد ، ومنه تَوُجُّ يقال له : المَوْتان ، وهو الذي يَكْثُرُ معه المَوْتُ . وحدوث الأمراض الوافدة يكون عن أسباب كثيرة تجمع في أجناس أربعة ، وهي : تَغْيِيرُ كَيْفِيَّةِ الهَوَاءِ ، وَتَغْيِيرُ كَيْفِيَّةِ المَاءِ ، وَتَغْيِيرُ كَيْفِيَّةِ الأغذية ، وَتَغْيِيرُ كَيْفِيَّةِ الأَحْدَاثِ النَّفْسَانِيَةِ .

والهواء ^٨ تَتَغَيَّرُ كَيْفِيَّتُهُ على صَرِيحَيْنِ : أَحَدُهُمَا تَغْيِيرُهُ الذي جَزَتْ به العادة ، وهذا لا يُحدث مَرَضًا وافيًا ، وليس تَغْيِيرًا مَرَضًا . والثاني التَغْيِيرُ الخارج عن مجرى العادة ، وهذا هو الذي يُحدث

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بهذا . (c) الأصل وبولاق : ليس والتصريب من ابن رضوان .

(d) بولاق : فالهواء .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٤٧ .

^٢ نفسه ١٧١ .

^٣ نفسه ١٥٠ - ١٥١ .

الْمَرَضُ الْوَائِدُ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الْأَجْنَاسِ الْبَاقِيَةِ - وَخُرُوجُ تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ عَنْ عَادَتِهِ يَكُونُ إِثْمًا بِأَنْ يَنْشَعْنَ أَكْثَرُ أَوْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ أَوْ يُخَالِطُهُ حَالٌ غَفِيفَةٌ^(a). وَالْحَالَةُ الْغَفِيفَةُ^(b) إِثْمًا أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً أَوْ بَعِيدَةً، فَإِنَّ أَتَقَرَّاطَ وَجَالِينُوسَ يَقُولَانِ: إِنَّهُ لَيْسَ يُمْكِنُ مَانِعٌ مِنْ أَنْ يَخْدُثَ يِلْدُ الْيُونَانِيِّينَ مَرَضٌ وَائِدٌ عَنْ غَفْوَةِ اجْتَمَعَتْ فِي بِلَادِ الْحَبَشَةِ، وَتَرَأَتْ إِلَى الْجَوِّ وَانْحَدَرَتْ عَلَى الْيُونَانِيِّينَ، فَأَخْدَثَتْ فِيهِمُ الْمَرَضُ الْوَائِدَ.

وَقَدْ يَتَغَيَّرُ أَيْضًا مِزَاجُ الْهَوَاءِ عَنْ الْعَادَةِ، بِأَنْ يَهْضِلَ وَقَدْ كَثِيرٌ قَدْ أَتَاهُكَ أَبْدَانُهُمْ طَوْلُ الشَّفَرِ وَسَاءَتْ أَحْضَالُهُمْ، فَيُخَالِطُ الْهَوَاءَ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَيَقَعُ الْإِعْدَاءُ فِي النَّاسِ، وَيُظْهِرُ الْمَرَضُ الْوَائِدَ.

وَالْمَاءُ أَيْضًا قَدْ يَخْدُثُ الْمَرَضُ الْوَائِدَ، إِثْمًا بِأَنْ يُفْرِطَ مِقْدَارُهُ فِي الزِّيَادَةِ أَوْ النُّقْصَانِ، أَوْ يُخَالِطُهُ حَالٌ غَفِيفَةٌ، وَيُضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى شُرْبِهِ، وَيَقَعْنَ بِهِ أَيْضًا الْهَوَاءُ الْحَيْطُ بِأَبْدَانِهِمْ، وَهَذِهِ الْحَالُ تُخَالِطُهُ إِثْمًا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا، بِمَنْزِلَةِ مَا يَمُوتُ فِي جَزِيرَانِهِ بِمَوْضِعٍ جَزْبٍ^(c) قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ جَيْفِ الْمَوْتَى شَيْءٌ كَثِيرٌ، أَوْ بِمَاءٍ تَقَائِعٍ^(d) غَفِيفَةٍ فَيَخْدُرُهَا مَعَهُ وَيُخَالِطُ جِسْمَهُ.

وَالْأَعْدَةُ تَخْدُثُ الْمَرَضُ الْوَائِدَ، إِثْمًا إِذَا لَحِقَهَا الْبَرَقَانُ وَارْتَفَعَتْ أَسْعَارُهَا وَاضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى أَكْلِهَا، وَإِثْمًا إِذَا أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ كَالَّذِي يَكُونُ فِي الْأَعْيَادِ فَيَكْثُرُ فِيهِمُ الثَّخَمُ، وَيَمْرُضُونَ مَرَضًا مُتَشَابِهًا، وَإِثْمًا مِنْ قِبَلِ قَسَادِ مَرْغَى الْحَيَوَانِ الَّذِي يُؤْكَلُ، أَوْ قَسَادِ الْمَاءِ الَّذِي يُشْرَبُ. ١٥

وَالْأَحْدَاثُ النَّفْسَانِيَّةُ تَخْدُثُ الْمَرَضُ الْوَائِدَ مَتَى حَدَثَ فِي النَّاسِ خَوْفٌ عَامٌ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ، فَيَطُولُ صَبْرُهُمْ^(e) وَتَقْهَرُهُمْ فِي الْخِلَاصِ مِنْهُ وَفِي وَقُوعِ الْبَلَاءِ، فَيَسُوءُ هَضْمُ أَجْوَانِهِمْ^(f) وَتَتَغَيَّرُ خَرَائِطُهُمُ الْفَرِيزِيَّةُ، وَدُمًّا اضْطَرُّوا إِلَى حَرَكَةِ غَفِيفَةٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ، أَوْ يَتَوَقَّعُونَ قَحْطَ بَعْضِ الشَّيْءِ، فَيَكْثُرُونَ الْحَرَكَةَ وَالْاجْتِهَادَ فِي ادِّخَارِ الْأَشْيَاءِ، وَيَشْتَدُّ عَمَلُهُمْ بِمَا سَيَحْدُثُ.

٢٠ فَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَخْدُثُ فِي أَبْدَانِ النَّاسِ الْمَرَضُ الْوَائِدَ، مَتَى كَانَ الْمَتَعَرِّضُ لَهَا خَلَقَ كَثِيرٌ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ وَوَقْتٍ وَاحِدٍ. وَظَاهِرٌ أَنَّهُ إِذَا كَثُرَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ الْمَرَضُ بِمَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، ارْتَفَعَ مِنْ أَبْدَانِهِمْ بُخَارٌ كَثِيرٌ فَيَتَغَيَّرُ مِزَاجُ الْهَوَاءِ، فَإِذَا صَادَفَ بَدَنًا مُسْتَعِدًّا لِمَرَضِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ النَّاسُ.

فالأفراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يقرض للهواء سواء كان مادة فسايد من أرض مصر، أو من البلاد التي تجاورها كالشودان والحيجاز والشام ويزقة، أو يقرض للنيل أن^٥ تفرط زيادته فكثر زيادة الرطوبة والعفن، أو تقل زيادته جدًا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة، أو يخالطه غفوة تحدث عن حزن يكون بأرض مصر أو ببلاد الشودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويترفع بخار جيتهم في الهواء فيصقه ويتصل غفته إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يخلو السحر، أو يخلق الغلات آفة، أو يتدخل على الكباش وتخرها مضرّة أو يخلق الناس خوف عام أو قنوط، وكل واحد من هذه الأسباب يحدث في أرض مصر مضرًا وإذا يكون قوته بمقدار قوة السبب الحديث له، وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأضرع في القتل^١.

قال: فيمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية. وما قارب من الجنوب بأرض مصر كان أشحن وأقل غفوة^٢ في ماء النيل/ بما كان منها في الشمال، ولا سيما من كان في شمال القشطات مثل أهل البشور^٣، فإن طباعهم أغلظ، والبله عليهم أغلب، وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدًا، ويشربون من الماء الرديء. وأما الإسكندرية^٤ وتيس وأمثال هذه، فقربها من البحر وشكون الحرارة والبرد عندهم^٥ وظهور الصبا فيهم، مما يصلح أمرهم^٥ ويوق طباعهم ويرفع همهم، ولا يقرض لهم ما يقرض لأهل البشور من غلظ الطبع والحماية. وإحاطة البحر بمدينة تيس، يوجب غلبة الرطوبة عليها، وتأسيس أخلاق أهلها^٢.

قال: إنه لما كانت أرض مصر وجميع ما فيها، سخيصة الأجسام سريعا إليها التغير والتعفن، وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية والأدوية ما كان قريب العهد حديثا، لأن قوته بعد باقية

(a) بولاق : بأن . (b) بولاق : حفا . (c) الأصل وبولاق : سكندرية . (d) بولاق : عنهم . (e) بولاق : أمورهم .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٧١-١٧٥ .
^٢ البشور، من البلاد المدرسة، وهو اسم كان يطلق قديما على إقليم من أحصأ أقاليم شرقي الدنيا، ذكر ياقوت أنها كورة قرب دمياط (معجم البلدان ١: ٤٢٨) بينما ذكر ابن دقماق (الانحصار ٥: ٦٩)، والريدي (تاج العروس، مادة: ب ش م ر) أنها من نواحي الدقهلية. وحدد محمد
 رمزي موقع إقليم البشور بأنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع دمياط والبحر الصغير بمحافظة الدقهلية: وقد أضيف زمام هذه المنطقة إلى أراضي ناحية ديكزيس بمحافظة الدقهلية (محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ١: ٣١١-٣٢٢).
^٣ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٧٩-١٨٠.

عليه لم تَتَغَيَّرْ كُلُّ التَّغَيَّرِ، وأن يجعل عِلاجَه ملائِماً لما عليه الأبدان بأرض مصر، ويجتهد في أن يجعل ذلك إلى الجهة المضادة أمثل قليلاً، ويتجنب الأدوية القويّة الإسهال وكل ما له قوّة مُفْرِطَة. فإنّ يَكَايَة هذه الأبدان سريعة، سهُلاً وأبدان المصريين سريعة الوقوع في الثكالبات.

ويختار ما يكون من الأدوية المُسهّلة وغيرها ألين قوّة، حتى لا يكون على طليعة المصريين منها كلفة، ولا يُلحق أبدانهم مَضَرَة، ولا يُقَدِّم على الأدوية الموجودة في كُتُب أطباء اليونانيين والغُرس، فإنّ أَكْثَرَهَا عَمِلَتْ لأبدان قوّة البنية عظيمة الأخلاط، وهذه الأشياء قلما تُوجد بمصر، فلذلك يجب على الطَّبيب أن يتوقّف في إعطاء هذه الأدوية للمَرْضَى، ويختار ألينها، ويُتَنَصّر من مقدار شَرِبَاتِهَا، ويُتَدَل كثيرًا منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه، فيَتَخَذ السَّكَنَجِين السُّكْرِي في مقام القَسَلِي، والجَلَّاب بَدَلًا من ماء القَسَل.

واعْلَم أنّ هَوَاءَ مِصْر يُغْمِل في المَعْجُونَات وسائر الأدوية صَغَفًا في قُوَّتِهَا، فأَعْمَارُ الأدوية المُفَرَّدَة والمُرَكَّبَة المَعْجُون منها وغير المَعْجُون بمِصْر أَقْصَر من أَعْمَارِهَا في غير مِصْر، فيُحْتَاج الطَّبيب بمِصْر إلى تَقْدِير ذلك وتَمْيِيزه حتى لا يَشْتَبِه عليه شيءٌ ممَّا يَحْتَاج إليه. وإذا لم يَكْتَفِ في تَقْيِيم التَّيَدن بالدواء المُسهِّل دَفْعَة واجِدَة، فلا بأس بإِعَادَتِهِ بعد أَيَّام، فإنّ ذلك أَخْصَد من إِبْرَاد الدواء الشَّدِيد القوّة في دَفْعَة واجِدَة^١.

قَالَ: وَلَكُون أَرْض مِصْر تُؤَلَّد في الأَجْسَام سَخَافَة وَشَرَعَة قَبُولٍ لِلْمَرْضَى، وَجَبَّ أَنْ تَكُون الأبدان على الهَيْجَة الفَاضِلَة بأَرْض مِصْر قَلِيلَة جَدًّا، فأَمَّا الأبدان الباقية فَكَثِيرَة، وَأَنْ تَكُون الصُّحَّة التَّامَّة عندهم على الأَمْر الأكثر في القَرِيبَة من الهَيْجَة الفَاضِلَة.

والطَّرِيقُ الأوَّلِي التي تُدَبِّرُ بِهَا الأبدان في الهَيْجَة الفَاضِلَة يُحْتَاج فِيهَا بِأَرْض مِصْر إلى أَنْ يُدَبِّرَ الهَوَاءَ وَالغِذَاءَ وَالْمَاءَ وَسَائِرَ الْأَشْيَاءِ تَدْبِيرًا يَصِيرُ بِهِ فِي غَايَةِ الْإِعْتِدَالِ، وَلأنَّ الْهَضْمَ كَثِيرًا مَا يَشْوَء بِأَرْض مِصْر وَكَذَلِكَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِي، فَيَجِبُ صَرُوفُ الْعِنَايَة إِلَى مُرَاعَاةِ أَمْرِ الْقَلْبِ وَالْذِّمَاغِ وَالْكَبِدِ وَالْمَعِدَة وَالْفُرُوقِ وَالْأَوْرَادِ^٢ وَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ الْبَاطِنَة، فِي تَجْوِيدِ الْهَضْمِ وَإِصْلَاحِ أَمْرِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِي وَتَنْظِيفِ الْأَوْسَاحِ اللَّاحِجَة^٣.

(١) ساقطة من بولاق.

^٢ نفسه ٢٠٣-٢٠٤.

^٣ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٩٩-٢٠٠.

وقال في «شرح كتاب الأربع لبطلميوس»^١: وأما سائر أجزاء الربع الذي يميل^(a) وسط جميع الأرض المسكونة أعني بلاد بَرْقَة، وسواجل البحر من مزبوط إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط وتيس والقرما، وأسفل الأرض بمصر، ونواحي مدينة منف ومدينة القسطنطاط، وما يلي شرقي النيل من صعيد مصر والقُيُوم إلى أعلى الصعيد مما في غرب النيل، وأرض الواحات وأرض الثوبة والبيجة، والأرض التي على البحر في شرقي بلاد الثوبة والحيشة فإن هذه البلاد موضوعة في الزاوية التي تؤثر في جميع الربع الموضوع فيما بين الدُّبُور والجنوب. وهي من جملة النصف الغربي من الربع المعمور، والكواكب الخمسة المتخيرة تشترك في تدبيرها. فصار أهلها محبين لله، ويُعْظَمُونَ الجِنَّ، ويُحِبُّونَ النَّوْحَ، وَيَذْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ في الأرض وَيُخَفُّونَهُمْ، ويستعملون شتتا مختلفة وعادات وآراء شتى ليلهم إلى الأسرار التي تدعو كل طائفة منهم إلى أقر من الأمور الخفية فيعتقده ويوافق عليه^(b) جماعة.

ومن أجل هذه الأسرار، كان المُسْتَخْرِج للعلوم الدقيقة كالهندسة والنجوم وغيرها في الزمان الأول، أهل مصر ومنهم تفرقت في العالم. وإذا ساسهم غيرهم كانوا أذلاء، والغالب عليهم الجِنُّ والاستيحاء في الكلام. وإذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة وهمتهم كثيرة. ورجالهم يتخذون نساء كثيرة، وكذلك نساؤهم يتخذن عِدَّة رجال، وهم منهمكون في الجماع، ورجالهم كثيرو النسل، ونساؤهم سريعات الحمل، وكثير من ذُراريهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة.

قال أبو الصلت: وأما سكان أرض مصر فأخلاقاً من الناس مختلفو الأصناف والأجناس، من قبط وروم وعرب وأكثراد وذلهم وحبشان [وأزمن]^(c) وغير ذلك من الأصناف، إلا أن جمهورهم قبط. قالوا: والسبب في اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها، من العماليقة واليونانيين والروم وغيرهم، فلهذا اختلطت أنسابهم، واقتصرُوا من التعريف بأنفسهم على الإشارة إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم فيها.

(a) بولاقي: يميل إلى. (b) ساقطة من بولاقي. (c) زيادة من الرسالة المصرية.

١ هو شرح على كتاب *Quadripartitum de* نشر بعد ذلك أكثر من مرة. (Schacht, J., *El* ١ art.).
 (Ibn Ridwān III, p. 931).

Ptolémée، أو «المقاتلات الأربع لبطلميوس» الذي وصل إلينا في ترجمة لاتينية نشرت في البندقة ضمن أوائل المطبوعات العربية

وَحَكَمِي أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الزَّمَنِ السَّالِفِ عِبَادَ أَصْنَامٍ وَمُذَبِّرِي هَيَاكِلٍ /، إِلَى أَنْ ظَهَرَ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ وَغَلَبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، فَتَنَصَّرُوا وَبَقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ، فَأَسْلَمَ بَعْضُهُمْ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ^(٥).

- وَأَمَّا أَخْلَاقُهُمْ فَالغَالِبُ عَلَيْهَا اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ وَالإِنْهِيكَاءِ فِي اللَّذَاتِ، وَالإشْتِغَالُ بِالشُّرُهَاتِ، وَالتَّضَدُّيقُ بِالْحَالَاتِ، وَضَعْفُ الْمَرَاتِرِ وَالْعَزَمَاتِ^١. وَلَهُمْ خِيَرَةٌ بِالْكَيْدِ وَالْمَكْرِ، وَفِيهِمْ بِالْفِعْطَةِ قُوَّةٌ عَلَيْهِ وَتَلَطُّفٌ فِيهِ وَهِدَايَةٌ إِلَيْهِ، لَمَّا فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْمَلَقِ وَالبَشَاشَةِ الَّتِي أَزْبَا فِيهَا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ، وَخُصُّوا بِالْإِفْرَاطِ فِيهَا دُونَ جَمِيعِ الْأُمَمِ، حَتَّى صَارَ أَقْرَبُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورًا، وَالْمَثَلُ بِهِمْ مَضْرُوبًا.

وَفِي خُجَّتِهِمْ وَمَكْرِهِمْ يَقُولُ أَبُو نُؤَاسٍ^٢:

١٠. [الطويل]

مَنْخُكُمُ^(٥) يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَّا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِتَنْصِيبِ
رِمَاكُمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحِكْمَةٍ أَكُولِ لِحْيَاتِ الْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ فَيَكُمُ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَصِيْبِ

قَالَ مُؤَلِّفُهُ: وَقَدْ تَرَى^(٥) قَدِيمًا أَنَّ مَنَاطِقَ الْجُوزَاءِ تُسَامِتُ رُؤُوسَ أَهْلِ مِصْرَ، فَلِذَلِكَ يَتَحَدَّثُونَ

- بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَيُخَيِّرُونَ بِمَا يَكُونُ، وَيُنْذِرُونَ بِالْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَلَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ أَخْبَارٌ^{١٥} مَشْهُورَةٌ.

قَالَ ابْنُ الطُّوَيْرِ^٣، وَقَدْ ذَكَرَ اسْتِيلَاءَ الْفَرَنْجِ عَلَى مَدِينَةِ صُورَ، فَعَادَ الْحَيْقُظُ وَالْحِرَاسَةُ عَلَى مَدِينَةِ عَشَقْلَانَ، فَمَا زَالَتْ مُحَصِيَةٌ بِالْأَبْهَدَالِ الْمَجْرُودَةِ إِلَيْهَا مِنَ الْعَسَاكِرِ وَالْأَسَاطِيلِ، وَالدَّوْلَةُ تَضَعُفُ أَوَّلًا

(٥) بعد ذلك في الرسالة المصرية: ومذهبهم ملهيب اليعاقبة. (b) الأصل وبولاق: محضتكم والتصويب من الديوان.

(٥) بولاق: لي.

١ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٣-٢٤.

٢ نفسه ٣٠-٣١، والأبيات في ديوان أبي نؤاس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة ١٩٥٣، ٤٨٤ ممدح بها الخصب أمير مصر.

المقريزي وتوفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م (انظر دراسة المصادر

في مقدمة الكتاب).

٣ القاضي المرتضى أبو محمد عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام بن علي بن أحمد الفهري القيسراني الأصل

فأولاً باختلاف الآراء، فثقلت على الأجناد، وكثير أمرها عندهم، واشتغلوا عنها، فضائقها الفرج حتى أخذوها في سنة ثمان وأربعين وخمسة مائة. ولقد سمعت رجلاً قبل ذلك بسنين يتحدث بهذه الأمور، ويقول: «في سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان»^١.

ومن هذا الباب واقعة الكنائس التي للنصارى، وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبع مائة، والناس في صلاة الجمعة، كأنما نودى في إقليم مصر كله من قوس إلى الإسكندرية بهدم الكنائس، فهلم في تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كثير من الكنائس، كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى^٢.

ومن هذا الباب واقعة الدمر، وذلك أنه خرج الأمير الدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاثين وسبع مائة، وكانت فتنة بمكة قتل فيها الدمر يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة، فأشيع في هذا اليوم بقتله في القاهرة ومصر وقلعة الجبل، بأن وقعة كانت بمكة قتل فيها الدمر، فطار هذا الخبر في ريف مصر واشتهر، فلم يكثر الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر. فلما قديم المبشرون على العادة، أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين الدمر في ذلك اليوم الذي كانت الإشاعة فيه بالقاهرة^٣.

قال جامع السيرة الناصرية^٤: كنت مع الأمير علم الدين الخازن في الغربية وقد خرج إليها كاشفاً فلما صليت أنا وهو صلاة الجمعة وغدنا إلى البيت، قديم بعض غلمان من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الأجناد، وقيل فيها الأمير الدمر أمير جندار. فقال له الأمير علم الدين: هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر؟ قال: لا. فقال: ويحك، الناس ما تحضر من مئة بمكة إلا ثالث يوم بعد عيد النحر، فكيف سمعتم هذا الخبر الذي لا يسمعه عاقل؟ فقال: قد استقصى ذلك. وكان الأمر كما أشيع.

سيرة الملك الناصر لموسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المتوفى سنة ١٣٥٨/٥٧٥٩م، والذي اكتشفه بن أجزاء نسخة أباصوليا من كتاب «مسالك الأبحار» لابن فضل الله العمري دونالد ليتل انظر، Little, D., «The Recovery of a Lost Source for Bahri Mamluk History: al-Yusufi's *Nuzhat al-Nāzir fī Sirat al-Malik al-Nāsim*», *JAOS* 94 (1974), pp. 42-54 ثم نشره أحمد حطوط في بيروت وصدر من عالم الكتب سنة ١٩٨٦ =

^١ ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ٥، وقارن ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١٧ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٨٨ ابن ميسر: أخبار مصر ١٤٦ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٢ القريري: امطاط الحنفا ٣: ٢٠٤.

^٢ فيما يلي ١٢: ٥١٣-٥١٢.

^٣ فيما يلي ٢: ٣٨-٣٩.

^٤ يقصد للقريري بهذا العنوان كتاب «نزهة الناظر في

وَوَقَّعَ لي في شهر رمضان من شهور سنة إحدى وتسعين وسبع مائة ، أَنِّي مَرَّوْتُ فِي الشَّارِعِ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ بِالْقَاهِرَةِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ ، فَإِذَا الْعَامَّةُ تَتَحَدَّثُ بِأَنَّ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ بَرَقُوقَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ بِالْكُرْكِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَضَبَّطْتُ ذَلِكَ ، فَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ مِنَ السِّجْنِ . وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ .

- وَمِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ مِصْرَ قِلَّةُ الْغَيْزَةِ ؛ وَكَفَّاكَ مَا قِصَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَبَرِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمُرَاوَدَةِ امْرَأَةِ الْغَزِيرِ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَشَهَادَةِ شَاهِدٍ مِنْ أَهْلِهَا عَلَيْهَا بِمَا يَتَّبِعُ لَزُوجِهَا مِنْهَا الشُّوْءَ ، فَلَمْ يُعَاقِبْهَا عَلَى ذَلِكَ بِيَسْوَى قَوْلِهِ لَهَا (٥) : «اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» (الآية ٢٩ سورة يوسف) .

- (٦) قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَكَانَ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ حِينَ غَرِقَ مِنْ غَرِقٍ مِنْهُمْ مَعَ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا الْعَبِيدَ وَالْأَجْرَاءَ لَمْ يَضْمُرْنَ عَنِ الرِّجَالِ ، فَطَلَفَتِ الْمَرْأَةُ تُغْنِي عِبْدَهَا وَتَتَزَوَّجُهُ ، وَتَتَزَوَّجُ الْأُخْرَى أَجِيرَهَا . وَتَسْرُطُنَ عَلَى الرِّجَالِ أَلَّا يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهَا ، فَأَجَابُوهُنَّ إِلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ أَمْرُ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ . فَخَدَّثَنِي ابْنُ لَهْيَعَةَ ، عَنْ تَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ ، أَنَّ نِسَاءَ الْقِبْطِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ أَتْبَاعًا لِمَنْ مَضَى مِنْهُمْ ، لَا يَبِيعُ أَحَدُهُمْ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا قَالَ : أَشْتَأِيرُ امْرَأَتِي ^١ .
- وَقَالَ : إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا غَرِقَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ مِصْرَ ، لَمْ يَتَّقِ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَضْلُحُ لِلْمَمْلَكَةِ ، قَعَدَ النَّاسُ فِي مَرَاتِبِهِمْ : بَنَتْ الْمَلِكُ مَلِكَةً ، وَبَنَتْ الْوَزِيرُ وَزِيرَةً ، وَبَنَتْ الْوَالِي وَبَنَتْ الْحَاكِمَ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ ، وَكَذَلِكَ بَنَاتُ الْقَوَادِ وَالْأَجْنَادِ . فَاسْتَوَلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الْمَمْلَكَةِ مُدَّةَ سَنِينَ ، وَتَزَوَّجْنَ بِالْعَبِيدِ ، وَاسْتَرْطَنَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالنَّصْرَ لَهُنَّ ، فَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ . وَلِهَذَا صَارَتْ أَلْوَانُ أَهْلِ مِصْرَ سُفْرًا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ الْعَبِيدِ السُّودِ الَّذِينَ تَكْحَوْنَ نِسَاءَ الْقِبْطِ بَعْدَ الْغَرَقِ وَاسْتَوَلَدُوهُنَّ (ب) ^٢ .

(٥) ساقطة من بولاق . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من كثير من مخطوطات المخطوط ومن بينها الأصل .

• والجزء المكتشف يشمل قط على حوادث السنوات من ٧٣٣ إلى ٧٣٨ هـ .

^١ ابن عبد الحكم : فخر مصر ٢٨ وفيما تقدم ١٠٢ . أول هذا الخبر فيما تقدم ١٠٢ .

^٢ لم أجد هذه الرواية في فخر مصر ، وكل النص المنقول

/وأخبرني الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن العراييلي الكزكي^١ - رحمه الله تعالى - أنه منذ سكّن مصر يجد من نفسه رياضة في أخلاقه ، وترخصاً لأهله ، ولينا ورقة طبع من قلة العيرة .

ومما لم نزل نسمعه داعياً بين الناس أن شرب ماء النيل يُنسي العريب وطنه .

ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب ، فلا يجذهم يدخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سُكّان البلدان ، بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشياً . ومن أخلاقيهم الانهماك في الشهوات ، والإمعان في الملاذ ، وكثرة الاستهتار ، وعدم المبالاة . قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب^٢ .

وقد روي عن عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سأل كعب الأخبار عن طبائع البلدان وأخلاق سُكّانها ، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء ؛ فقال العقل : أنا لاجئ بالشام ، فقالت الفطنة : وأنا معك ! وقال الخيضب : أنا لاجئ بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الشقاء : أنا لاجئ بالبادية ، فقالت الصُّحّة : وأنا معك ! ويُقال : لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق : الإيمان والحياة والتجدة والفطنة والكبر والتفاق والغنى والفقر والذل والشقاء . فقال الإيمان : أنا لاجئ باليمن ، فقال الحياة : وأنا معك ! وقالت التجدة : أنا لاجئة بالشام ، فقالت الفطنة : وأنا معك ! وقال الكبر : أنا لاجئ بالعراق ، فقال التفاق : وأنا معك ! وقال الغنى : أنا لاجئ بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الفقر : أنا لاجئ بالبادية ، فقال الشقاء : وأنا معك^٣ !

(هـ) بولاق : داتكا .

(ابن حجر : إنباء الغمر ٣: ٤٨٨ - ٤٨٩ السخاوي : الضوء اللامع ٦: ٩٠٩ - ٣٠٨) .

^٢ هذه أحد المرات القليلة التي يروي فيها المقرئ عن شيخه وأستاذه ابن خلدون .

^٣ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢: ١٨٣ - ١٨٤ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٥١ .

^١ المحافظ تاج الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد بن محمد بن شمس الكزكي المعروف بابن العراييلي المقرئ في جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م . ودفن في تربة سعيد السعداء ، كانت جنازته مشهودة حضرها ابن الدمري والخب بن نصر الله والمقرئ ، وهو من تلاميذ ابن حجر الصقلاني . قال السخاوي : وهو في عقود المقرئ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المكْرُ عشرة أجزاء : تسعة منها في القَيْطِ ، وواحد في سائر الناس^١ .

ويقال : أربعة لا تُعْرَفُ في أربعة : الشَّحَاءُ في الرُّومِ ، والوَفَاءُ في التُّوكِ ، والشَّجَاعَةُ في القَيْطِ ، والعَمَّةُ في الرُّنَجِ .

- ووصف ابن القزويني^(١) أهل مصر فقال : عبيد لمن غلب ، أكنس الناس صغاراً ، وأجهلهم كباراً .
وقال المشعوي^(٢) : لما فتح عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - البلادَ على المسلمين من العراق والشَّام ومصر وغير ذلك ، كتب إلى حكيم من حكماء القصر : «إنا أناش عَزَبٌ قد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن تَبْرَأَ الأرضَ وتُسْكِنَ البلادَ والأَمْصارَ ، فيصف لي المَدَنَ وأهويتها ومسكنها ، وما تؤثره التربة والأهوية في سُكَّانها» ؛ فكتب إليه : «... وأما أَرْضُ مصر فأَرْضُ قُرَظٍ غُرَظاء ، ديارُ القَرَاعَةِ ومسكن الجبَّارَةِ ، دُمُّها أكثر من مَدْحِها ، هَوَاؤُها كَثير ، وحَرُّها زائد ، وبيروها بائِد^(٣) ، تُكَلِّرُ الأَلْوَانُ والْفِطَنُ ، وتركب الإِخْنُ . وهي مَعْدَنُ الذَّهَبِ والجَوْهَرِ ومَغَارِسُ الغَلَّاتِ ، غير أنها تُسَكِّنُ الأَبْدَانِ وتُسَوِّدُ الأَبْشَارَ^(٤) ، وتَنُمُو فيها الأَعْمَارُ . وفي أهلها مَكْرٌ ورياء وخُبثٌ وذُهاءٌ وخديعة . وهي بَلَدَةٌ مَكْتَسِبٌ ليست بَلَدَةٌ مَسْكَنٌ ، لتراذُفِ بَيتِها واتِّصالِ شُرُورها^(٥) .
وقال عُمر بن شَيْبَةَ^(٦) بن عُبَيْدَةَ^(٧) في كتاب «أخبار البصرة» عن كَعْبِ الأَحْبَارِ : خَيْرُ نِسَاءٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ نِسَاءُ أَهْلِ البَصْرَةِ ، إلَّا ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ من نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَشَرُّ نِسَاءٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ .

وقال عبدُ الله بن عُمر : ولما أَهْبَطَ إبليس ، وَضَعَ قَدَمَهُ بالبَصْرَةِ ، وفَرَّخَ بِمِصْرَ .
وقال كَعْبُ الأَحْبَارِ : ومِصْرُ أَرْضٌ نَجِسَةٌ كالمِرَّةِ العاذِلِ ، يُطَهِّرُهَا الثَّيْلُ كُلُّ عامٍ .

(١) بولاق : العمر . (b) بولاق : العربية . (c) بولاق : وشربها مائد . (d) بولاق : الإنسان . (e) بولاق : وذكر ابن حنبل .

^١ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥١ . روايات أوردها الطبري في تاريخه (انظر ابن التميمي : الفهرست ١٢٥ : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد

^٢ للمشعوي : مروج الذهب ٢ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

^٣ أبو زيد عمر بن شبة النعمري مؤرخ ومحدث من أهل العراق توفي في سامرة سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م . وكتابه «أخبار أهل البصرة» الذي يشير إليه المقرئ لم يصل إلينا إلَّا في

ابن خلكان : وفیات الأعيان ٣ : ٤٤٠ ، الصفدي : الوافي ٢٢ : ٤٨٨ - ٤٨٩ ، (Sezgin, F., GASI, 345

وقال معاوية بن أبي سفيان : وَجَدْتُ أَهْلَ مِصْرَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ : ثَلَاثُ نَاسٍ ، وَثَلَاثُ أَشْهُبِ النَّاسِ بِالنَّاسِ^١ ، وَثَلَاثُ لَا نَاسٍ . فَأَمَّا الثَّلَاثُ الَّذِينَ هُمُ النَّاسُ فَالْعَرَبُ ، وَالثَّلَاثُ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ النَّاسَ فَلَمَّوَالِي ، وَالثَّلَاثُ الَّذِينَ لَا نَاسَ الْمَسَالِمَةَ ، يَعْنِي الْقَبِيطَ .

ذكر شبي من قصص النيل^١

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَدِيثِ الْمِغْرَاجِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُتَنَهَّى ، فَإِذَا تَبَقَّهَا مِثْلُ قِلَالٍ قَمَجَرٍ ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ أَذَانِ الْفَيْلَةِ . قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُتَنَهَّى . وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ . فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَتَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ»^٢ .

وَفِي التَّوْرَةِ : وَخَلَقَ فِرْعَوْنُ فِي عَدْنٍ ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ فِيهِ ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ نَهْرَانِ فَقَسَمَهُمَا أَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ : جِيحُونَ الْمُحِيطُ بِأَرْضِ حَوِيلَا ، وَسِيحُونَ الْمُحِيطُ بِأَرْضِ كُوشَ وَهُوَ نَيْلُ مِصْرَ ، وَدِجَلَةُ الْآخِذُ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَالْفُرَاتُ^٣ .

(a) بولاق : شبه الناس .

BFA-Cairo University III (May 1935), pp. 8-18; Youssouf Kemal, *Monuments Cartographiques de l'Afrique et de l'Égypte* (إبراهيم أحمد وزقانة : «نهر النيل كما ورد في مخطوط معزى إلى ابن سراجون» ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٢ (مايو ١٩٥٠) ، ١٨٧-١٢٠٤) Abdul-^c Aziz Kamil, «Al-Maqrizi and the Nile Flood, an Analytic and Comparative Study», *BSEG* 39 (1966), pp. 5-24 (يشير فيه إلى ما ذكره للمقريزي عن النيل في المخطوط مقارنا بما أورده عنه في «إغالة الأمة» ؛ وانظر كذلك قاسم عبده قاسم : النيل والجميع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨ ؛ عبد الله يوسف الغنيم : المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ، الكويت ١٩٩٩ ، ٧٥- Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 215; Kramers, J.H., *El¹ art. al-Nil* VIII, pp. 38-43

^٢ مسلم : الجامع الصحيح .

^٣ في جميع النسخ وردت جيحون ... وسيحون .

^١ احتل نهر النيل مكانة كبيرة في المكتبة العربية ، وشجّل الجغرافيون العرب بمعرفة منابعه ومسلكه حتى مصبه في البحر المتوسط ، وأوردوا له مؤلفات خاصة . ولكن الاكتشاف الحقيقي لأعالي النيل وابعاد منابعه تمّ في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي على أيدي الرحالة الأوربيين الذين اكتشفوا البحيرات العظمى وحدّدوا سلسلة جبال Ruwenzori مع جبل القنّ ، كما يرجع الفضل في اكتشاف جزء كبير من النيل الشرقي إلى الحملة العسكرية المصرية سنة ١٨٢٠-١٨٢٢م حيث أسست مدينة الخرطوم (راجع ، محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٥) محمد حبيدي الطاوي : نهر النيل في المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، استقصى فيه ما ورد في المصادر الجغرافية والتاريخية ؛ Kramers, J.H., *El¹ art. al-Nil* VIII, pp. 38-43; Omar Tousoun, *Mémoire sur l'histoire du Nil*, I-III, *MSAA* le Caire 1925; Guest, R., «The Delta in the Middle Ages», *JRAS* (1912), 941- ; Mazuel, J., «A la recherche des sources du Nil»,

وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ: نَيْلٌ مِصْرَ سَيْدُ الْأَنْهَارِ، مَحْزُ اللَّهُ لَهُ كُلُّ نَهْرٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُجْعَلَ نَيْلٌ مِصْرَ أَمَرَ كُلَّ نَهْرٍ أَنْ يُجِدَّهُ، فَجَمَعَهُ الْأَنْهَارُ بِجَائِهَا، وَفَجَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَرْضَ عُيُونًا فَأَجْرَتْهُ إِلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا انْتَهَتْ جَزِيرَتُهُ أَوْحَى إِلَى كُلِّ مَاءٍ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عُثْصُرِهِ.

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ كَتَبَ الْأَخْبَارِ: هَلْ تَجِدُ لِهَذَا الثَّيْلِ فِي كِتَابِ اللَّهِ خَبِيرًا؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى، إِنِّي لَأَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ يُوحِي إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ: يُوحِي إِلَيْهِ عِنْدَ جَزِيرَتِهِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْعَلَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ يُوحِي إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا نَيْلُ، عُذِّ حَمِيدًا.

وَعَنْ كَتَبَ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَضَعَهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا: الثَّيْلُ نَهْرُ الْعَسَلِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْفُرَاتُ نَهْرُ الْحَمْرِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَيْحَانُ نَهْرُ الْمَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَجَيْحَانُ نَهْرُ اللَّبَنِ فِي الْجَنَّةِ^١.
وَقَالَ الْمُسْعُودِيُّ: نَهْرُ الثَّيْلِ مِنْ سَادَاتِ الْأَنْهَارِ وَأَشْرَافِ الْبِحَارِ، لِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَى مَا وَرَدَ بِهِ خَبِيرُ الشَّرِيعَةِ.

وَقَدْ قَالَتْ: إِنَّ الثَّيْلَ إِذَا زَادَ غَاضَتْ لَهُ الْأَنْهَارُ وَالْأَعْيُنُ وَالْآبَارُ، وَإِذَا غَاضَ زَادَتْ؛ فزِيَادَتُهُ مِنْ غِيْظِهَا، وَغِيْظُهُ مِنْ زِيَادَتِهَا وَلَيْسَ فِي أَنْهَارِ الدُّنْيَا نَهْرٌ يُسَمَّى بَخْرًا [وَيْمًا]^٢ غَيْرَ نَيْلِ مِصْرَ لِكِبَرِهِ وَاسْتَبْحَارِهِ^٣.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ»: وَفِي حَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَهْرَانِ مُؤْمِنَانِ وَنَهْرَانِ كَافِرَانِ، أَمَّا الْمُؤْمِنَانِ فَالثَّيْلُ وَالْفُرَاتُ، وَأَمَّا الْكَافِرَانِ فِدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ»، أَمَّا جَعْلُ الثَّيْلِ وَالْفُرَاتِ مُؤْمِنَيْنِ عَلَى التَّشْبِيهِ لَأَنَّهُمَا يَفِيضَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَسْقِيَانِ الْحَزْتَ وَالشَّجَرَ، بَلَا تَعَبٍ فِي ذَلِكَ وَلَا مَقْوَنَةً، وَجَعْلُ دِجْلَةَ وَنَهْرُ بَلْخِ كَافِرَيْنِ لَأَنَّهُمَا لَا يَفِيضَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَسْقِيَانِ إِلَّا شَيْئًا قَلِيلًا، وَذَلِكَ الْقَلِيلُ يَتَعَبُ وَعَقْوَنَةً، فَهَذَانِ فِي الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ كَالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَانِ فِي قِلَّةِ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ كَالْكَافِرِينَ^٤.

(٤) زيادة من المسعودي.

= وَأَثْبَتَ Wiet إحصاءًا على سفر التكوين أن النهرين هما: ٢: ٣٤٠.

فيسون وجيخون (نشرة نبيت ٢١٦: ١ هـ ٤٦٨).

^٢ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٦٦، ٦٧.

^٣ لم أجد هذا الخبر في نشرة غريب الحديث لابن قتيبة؛

المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة وقارن للمسعودي، مروج الذهب ١: ١١٢.

ذِكْرُ مَخْرَجِ الشَّيْلِ وَأَنْبَعَاثِهِ

اعْلَمْ أَنَّ الْبَحْرَ الْحِطِطَ بِالْمَقْمُورِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ نَهْرُ الْهِنْدِ ، افْتَرَقَ قِطْعًا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَكَانَ مِنْهُ قِطْعَةٌ تُسَمَّى بَحْرُ الزَّرْنَجِ ، وَهِيَ تَمَّا يَلِي بِلَادَ الْيَتْنِ وَبَحْرُ بَرْزَرِ . وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِدَّةُ جَزَائِرٍ مِنْهَا جَزِيرَةُ الْقَمَرِ (بَضَمُ الْقَافِ وَإِسْكَانُ الْمِيمِ وَرَاءَ مَهْمَلَةٍ) ^١ . وَيُقَالُ لِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَيْضًا جَزِيرَةُ مَلَايَ ، وَطُولُهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، فِي غَرَضٍ عَشْرِينَ يَوْمًا إِلَى أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُحَازِي جَزِيرَةَ سَرَنْدِيبَ ، وَفِيهَا عِدَّةُ بِلَادٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا قَمَرِيَّةٌ ، وَآلِهَا يُنْسَبُ الطَّائِرُ الْقَمَرِيُّ .

وَيُقَالُ : إِنَّ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ خَشَبًا يُنْتَحَتُ مِنَ الْخَشَبَةِ سَاقٌ طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا يَخْدَفُ عَلَى ظَهْرِهِ مِائَةٌ وَسِتُونَ رَجُلًا ، وَإِنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ ضَاقَتْ بِأَهْلِهَا ، فَهَنُوا عَلَى السَّاحِلِ مُحَلَّاتٍ يَسْكُنُونَهَا فِي سَفْحِ جَبَلٍ يُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهُ جَبَلُ الْقَمَرِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجِبَالَ كُلَّهَا مَتَشَعِّبَةٌ مِنَ الْجَبَلِ الْمُشْتَدِيرِ بِغَالِبِ مَقْمُورِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِـ «جَبَلِ قَافِ» ، وَهُوَ أَمُّ الْجِبَالِ كُلِّهَا ، تَتَشَعَّبُ مِنْهُ فَيُفْصَلُ فِي مَوْضِعٍ وَيَقْطِيعُ فِي آخَرٍ ، وَهُوَ كَالدَّائِرَةِ لَا يُعْرَفُ لَهُ أَوَّلٌ إِذْ كَانَ كَالْحَلَقَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ لَا يُعْرَفُ طَرَفُهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ اسْتِدَارَةٌ كُوثِيَّةٌ وَلَكِنَّهَا اسْتِدَارَةٌ إِحَاطَةً .

وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ أُمَّهُاتِ الْجِبَالِ جَبَلَانِ : خَرَجَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْبَحْرِ الْحِطِطِ فِي الْمَغْرِبِ آخِذًا جَنُوبًا ، وَخَرَجَ الْآخَرُ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ آخِذًا شَمَالًا ، حَتَّى تَلَاقَا عِنْدَ الشَّدِّ ، وَسَمُّوا الْجَنُوبِيَّ «قَافَ» ، وَسَمُّوا الشَّمَالِيَّ «قَاقُونًا» . وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ جَبَلٌ وَاحِدٌ وَمُحِيطٌ بِغَالِبِ بَسِيطِ الْمَقْمُورِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْمَى بِجَبَلِ قَافٍ ، فَيُعْرَفُ بِذَلِكَ فِي الْجَنُوبِ وَيَعْرِفُ فِي الشَّمَالِ بِجَبَلِ قَاقُونَا .

وَمَبْدَأُ هَذَا الْجَبَلِ الْحِطِطِ فِي كَيْفِ الشَّدِّ آخِذًا مِنْ وَرَاءِ صَنْمِ الْخَطَا الْمُحَجَّجِ ^٢ إِلَى شُعْبَتِهِ الْخَارِجَةِ مِنْهُ الْمَعْمُولُ بِهَا بَابُ الصَّيْنِ آخِذًا عَلَى غَرْبِي صَيْنِ الصَّيْنِ ، ثُمَّ يَنْقَطِفُ عَلَى جَنُوبِهِ مُسْتَقِيمًا فِي نَهَايَةِ الشَّرْقِ عَلَى جَانِبِ الْبَحْرِ الْحِطِطِ مَعَ الْفُرْجَةِ الْمُتَفَرِّجَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الدَّاخِلَةِ ، ثُمَّ

(١) بولاق : الخط المشجرج .

^١ ضبطت بعض المصادر جبل القمر حيث منابع النيل فقط بهذا الضبط وأبقيت على ذكر الجبل باسم القمر وضبطه أيضًا بضم القاف وإسكان الميم ، ولكتني آثرت ضبط الجزيرة المعروف .

يَنْقَطِعُ عِنْدَ مَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْحَيْطُ مَعَ خَطِّ الْاِسْتِواءِ ، حَيْثُ الطُّولُ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً ، ثُمَّ يَصِلُ مِنْ شُعْبَةِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْمَلَايِّ لِشُعْبَةِ الْحَيْطِ الْخَارِجَةِ إِلَى بَحْرِ الظُّلُمَاتِ مِنَ الشَّرْقِ بِجَنُوبِ كَثِيرٍ مِنْ وَرَاءِ مَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ . وَتَبْقَى الظُّلُمَاتُ مِنْ هَاتَيْنِ الشُّعْبَتَيْنِ : شُعْبَةُ الْحَيْطِ الْجَانِبِيَّةِ عَلَى جَنُوبِ الظُّلُمَاتِ شَرْقًا بِغَرْبٍ ^(٥) ، وَمَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْجَانِبِيَّةِ عَلَى الظُّلُمَاتِ ، حَتَّى تَلْقَى الشُّعْبَتَانِ عِنْدَ مَخْرَجِ هَذَا الْجَبَلِ كَتَفَصِيلِ الشَّرَاوِيلِ ، ثُمَّ يَنْفَرِجُ بِرَأْسِ الْبَحْرَيْنِ شُعْبَتَانِ عَلَى مَبْدَأِ هَذَا الْجَبَلِ ، وَيَقِى الْجَبَلُ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ نَفْسِ الْمَاءِ .

وَمَبْدَأُ هَذَا الْجَبَلِ هُنَا وَرَاءَ قُبَّةِ أَرْنَيْنَ عَنْ شَرْقِيَّهَا ، وَبُعْدُهُ مِنْهَا خَمْسُ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ . وَيُقَالُ لِهَذَا الْجَبَلِ فِي أَوَّلِهِ الْمَجْرَدُ ، ثُمَّ يَمْتَدُّ حَتَّى يَنْتَهِيَ فِي الْقِسْمِ الْغَرْبِيِّ إِلَى طَوْلِهِ إِلَى خَمْسِ وَسِتِّينَ دَرَجَةٍ مِنْ أَوَّلِ الْمَغْرِبِ . وَهَنَّاكَ يَنْشَعِبُ مِنَ الْجَبَلِ الْمَذْكُورِ جَبَلُ الْقَمَرِ ، وَيَنْصَبُ مِنْهُ النَّيْلُ . وَبِهِ أَحْجَارٌ بِرَافِقَةٍ كَالْقِصَّةِ تَتَلَأَلُ تُسَمَّى صَنْجَةَ الْبَاهِبِ ^(٦) ، كُلُّ مَنْ نَظَرَهَا ضَحِكَ وَالتَّصَقَّ بِهَا حَتَّى يَمُوتَ ، وَيَسْعَى مَغْنَاطِيسُ النَّاسِ ، وَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ شَيْعَتٌ يُسَمَّى أَسِيفِي ، أَهْلُهُ كَالْوُحُوشِ ، ثُمَّ يَنْفَرِجُ مِنْهُ فُرُجَةٌ ، وَيَمُرُّ مِنْهُ شَيْعَتٌ إِلَى نَهَايَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْبَحْرِ الْحَيْطُ يُسَمَّى جَبَلِ وَخْشِيَّةِ ، بِهِ سِبَاغٌ لَهَا قُرُونٌ طَوَالُهَا تُطَاقُ ، وَيَنْعَطِفُ دُونَ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ جَبَلٍ قَافٍ شِعَابٌ ، مِنْهَا شُعْبَتَانِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِواءِ يَكْتَفِيَانِ مَجْزَى النَّيْلِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَالشَّرْقِيُّ يُعْرَفُ بِجَبَلِ فَاقُولَا ^(٧) ، وَيَنْقَطِعُ عِنْدَ خَطِّ الْاِسْتِواءِ ، وَالْمَغْرِبِيُّ يُعْرَفُ بِأَدَمَدَمَةَ ^(٨) يَجْرِي عَلَيْهِ نَيْلُ الشُّودَانِ الْمُسَمَّى بِيحْرِ الدَّمَادِمِ ، وَيَنْقَطِعُ بِتَلْقَاءِ مَجَالَاتِ الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ سَقَرَةَ وَجِيْمِي وَرَاءَ هَذِهِ الشُّعْبَةِ ، يَمْتَدُّ مِنْهُ شُعْبَةٌ هِيَ الْأُمُّ مِنَ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ فِيهِ الْجَبَلُ بِأَسِيفِي الْمَذْكُورِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِواءِ ، حَيْثُ الطُّولُ هَنَّاكَ عِشْرُونَ دَرَجَةً ، وَيُعْرَفُ هَنَّاكَ بِجَبَلِ كُوسْقَانَةَ ^(٩) ، وَبِهِ وَحُوشٌ ضَارِبَةٌ .

ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى الْبَحْرِ الْحَيْطُ وَيَنْقَطِعُ دُونَهُ بِفُرْجَةٍ ، وَذَلِكَ وَرَاءَ التُّكُرُورِ عِنْدَ مَدِينَةِ قَلْتَبُو ^(١٠) . وَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ شُودَانٌ يُقَالُ لَهُمْ نَمْتَمُ بِأَكْلُونِ النَّاسِ . ثُمَّ تَتَّصِلُ الْأُمُّ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ الشَّامِيِّ فِي شِمَالِهِ شَرْقِيَّ رُومَةِ الْكِبْرَى مُسَامِتًا لِلشُّعْبَةِ الْمَسْمَاةِ أَدَمَدَمَةَ الْمُنْقَطِعَةِ بَيْنَ سَقَرَةَ وَجِيْمِي ، لَا يَكَادُ يَخْطُوهَا حَيْثُ الطُّولُ خَمْسُ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . وَيَقَعُ مَنشَأُ اتِّصَالِ هَذِهِ الْأُمِّ عَلَى عَرْضِ خَمْسِينَ دَرَجَةً ، وَكَذَلِكَ تَقَعُ شُعْبَتَا الْآخِلَذَةِ فِي الْجَنُوبِ عَلَى عَرْضِ خَمْسِينَ دَرَجَةً عِنْدَ آخِرِهَا ، مَا بَيْنَ سِرْدَانِيَّةٍ ^(١١) وَتَلْسِيْبِيَّةٍ .

(٥) بولاق : مغربا . (٦) ضحكة الباهت . (٧) بولاق : قاقول . (٨) بولاق : بأدمريه . (٩) بولاق : كرسفانية . (١٠) بولاق :

للمتبروا . (١١) بولاق : سردانة .

وتتناهى وَضَلَّة هذه الأم إلى البحر المحيط في نهاية الشمال قُبَالَةَ جزيرة برطانية^(a)، وتبقى سوسية داخل الجبل. ثم تمُد هذه الأم بعد انقطاع لطيف، وتنعطف مع انعطاف خُرُوجَة البحر المحيط في الغرب بشمال على الصُّقْلِب المسنَّاة يتخر الأنقليشين ممثداً إلى غاية المشرق، ويسمى هناك بجبل قاقونا، ويبقى ورائه بالبحر الجايده^(b) لشدة البرد، ثم ينعطف من الشمال إلى المشرق مجنوباً بتقريب إلى كَيْف السد الشمالي، فيتلاقى هناك الطرفان، وبينهما في الفُرْجَة المنفرجة ساوى^(c) ذو القرنين بين الصُنْفَيْن.

وفي جزيرة القمر ثلاثة أنهار: أحدها في شَرْقيها من قُتْعُورَا ومُقْلَا، وثانيها في غربيها ينصب من جبل قَدَم آدَم على مَدِينَة سَبَا، ويأخذ ماءً على مَدِينَة فودرا، وينجر هناك بُحْرَة في جنوبها مَدِينَة كيماما^(d) حيث محلّ السودان الذين يأكلون الناس، وثالثها في غربيها أيضاً. ويخرج من الجبل المُشْتَبِه بِهَاء مَحْدُوف^(e) الذيل، يطوف بمَدِينَة دَهْمِي، فتبقى مَدِينَة دَهْمِي^(f) بينه وبين البحر الهندي^(g) في جزيرة بينهما يكون هو مُحِيطاً بها شرقاً وجنوباً وغرباً، وتصير لذلك كالجزيرة، ويتصل شمالها بالبحر الهندي، وتقع مَدِينَة فورانة^(h) في غُوبِيَة حيث يصب في البحر الهندي. ومن جبل القَمَر يَخْرُج نَهْرُ التِّل، وقد كان يَتَبَدَّد على وَجْه الأرض. فلما قَدِمَ نَقْرَاوس الجبلار ابن مصرام الأول بن مراكثيل بن دوايل بن غرياب بن آدم - عليه السلام - إلى أرض مصر ومعه عِدَّة من بني غرياب، واستوطنوها، وبنا بها مَدِينَة أَمْسُوس وغيرها من المدائن، حَفَرُوا التِّل حتى أَجْزَوْا مائِه إلىهم؛ ولم يكن قَبْل ذلك مُقْتَدِل الجُزْي، بل يَنْتَبِطِح وَيَنْفَرِّق في الأرض، حتى وَجَّه إلى الثَّوْبَة الملك نقراوش [جماعة]⁽ⁱ⁾ فَهَنَدَسُوهُ، وسافوا منه أَنَهَاراً إلى مواضع كثيرة من مُدُنِهِم التي بنوها، وسافوا منه نَهراً إلى مَدِينَة أَمْسُوس^١.

ثم لما خَرِبَتْ أَرْض مصر بالطوفان كانت أَيَّام البودسير بن قُفْط بن مصر بن يَصْر بن حام بن نوح - عليه السلام - عَدَلْ جانبي التِّل تَعْدِيلاً ثانياً بعد ما أَتْلَفَهُ الطوفان. قال الأُسْتَاذُ إبراهيم بن وَصِيف شَاه: فَعَلَّكَ البودسير وَتَجَمَّر، وهو أَوَّل من تَكَلَّم وَعَمِلَ بالسَّحَر واختجب عن الغيُون. وقد كانت أَعْمَامُهُ أَشْمَن وَأَثَرِب وصا مَلُوكاً على أُخْيَارِهِم، إلَّا

(a) بولاق: بركانية. (b) بولاق: البحر حامداً. (c) بولاق: سوى. (d) بولاق: كيماما. (e) بولاق: ماء

محدود. (f-f) ماقطة من بولاق. (g) بولاق: غواره. (h) إضافة مما تقدم ١٩:١.

أَنَّهُ قَهَرَهُمْ بِجَبْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ فَكَانَ الذُّكْرُ لَهُ ، كَمَا تَجَبَّرَ عَلَيْهِمْ^(a) أَبْوَهُ مِنْ قَبِيلِهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَهُمْ ، وَلِذَلِكَ أَعْصَوْا عَنْهُ .

يُقَالُ إِنَّهُ أَرْسَلَ هِرْمِسَ الْكَاهِنَ الْمِصْرِي إِلَى جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي يَخْرُجُ النَّيْلُ مِنْ تَحْتِهِ حَتَّى غَمِلَ هُنَاكَ هَيْكَلٌ^(b) التَّمَائِيلِ الثَّحَاسِ ، وَعَدَلَ الْبَطِيخَةَ الَّتِي يَنْصَبُ إِلَيْهَا مَاءُ النَّيْلِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي عَدَلَ جَانِبِي النَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ يَفِيضُ ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي مَوَاضِعٍ^١ .

وَهَذَا الْقَصْرُ الَّذِي فِيهِ تَمَائِيلُ الثَّحَاسِ يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسٍ وَثَمَانِينَ صُورَةً ، يَجْعَلُهَا هِرْمِسُ جَامِعَةً لَمَّا يَخْرُجُ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ بِمَعَايِدٍ وَمَصَابٍ مُدَوَّرَةٍ^(b) ، وَقَتَوَاتٍ يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ ، وَيَنْصَبُ إِلَيْهَا إِذَا خَرَجَ مِنْ تَحْتِ جَبَلِ الْقَمَرِ ، حَتَّى يَدْخُلَ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَيَخْرُجَ مِنْ مَحْلُوقِهَا وَجَعَلَ لَهَا قِيَاسًا^(c) مَقْلُومًا بِمَقَاطِعِ وَأَذْرُوعٍ مُدَوَّرَةٍ ، وَجَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الصُّورِ مِنَ الْمَاءِ يَنْصَبُ إِلَى الْأَنْهَارِ ، ثُمَّ يَصِيرُ مِنْهَا إِلَى بَطِيخَتَيْنِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُمَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطِيخَةِ الْجَامِعَةِ لِلْمَاءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ تَحْتَ الْجَبَلِ .

وَعَمِلَ لِتِلْكَ الصُّورِ مَقَادِيرَ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ الصَّلَاحُ بِأَرْضِ مِصْرَ وَيَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُهَا دُونَ الْفَسَادِ ، وَذَلِكَ الْإِنْتِهَاءُ الْمُصْلِحُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا بِالْفُرَاحِ الَّذِي مَقْدَارُهُ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ أَصْبُعًا ، وَمَا قُضِلَ عَنْ ذَلِكَ عُذِلَ [بِهِ]^(d) عَنْ يَمِينِ تِلْكَ الصُّورِ وَشِمَالِهَا إِلَى مَسَارِبٍ يَخْرُجُ وَيَنْصَبُ فِي رِمَالٍ وَغِيَاظٍ لَا يُمْتَنِعُ بِهَا مِنْ خَلْفِ حُطِّ الْأَشْيَاءِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَرَّقَ مَاءُ النَّيْلِ الْبُلْدَانَ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا^٢ .

قَالَ : وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَغِ الْعَمَلِيْقِي قَدْ خَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبُلْدَانِ وَيَقْهَرُ مَلُوكَهَا لِيَسْكُنَ مَا يُؤَافِقُهُ مِنْهَا ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى الشَّامِ انْتَهَى إِلَيْهِ خَبَرٌ بِمُضَرٍّ وَعِظَمَ قُدْرَتُهَا ، وَأَنَّ أَمْرَهَا قَدْ صَارَ إِلَى النِّسَاءِ وَبَادَ مَلُوكُهَا ، فَوَجَّهَ غُلَامًا لَهُ يُقَالُ لَهُ عَزُونُ إِلَى مِصْرَ ، وَسَارَ إِلَيْهَا بَعْدَهُ وَاسْتَبَاحَ أَهْلَهَا ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ ، وَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنْ كَهَنَتِهَا .

ثُمَّ سَمَّحَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ لِيَقِفَ عَلَى مَصَبِّ النَّيْلِ فَيَعْرِفَ مَا بِنَاحِيَتِهِ^(e) مِنَ الْأُثْمِ ، فَأَقَامَ ثَلَاثَ سَنِينَ يَسْتَعِدُّ لِحُرُوجِهِ ، وَخَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ^(f) ، فَلَمْ يَمُرَّ بِأُمَّةٍ إِلَّا أَبَاذَهَا ، وَمَرَّ عَلَى أُثْمِ السُّودَانِ

(a) سائلة من بولاق . (b) بولاق : مدورة . (c) بولاق : قماش . (d) إضافة من المسعودي . (e) بولاق : بحافيه . (f) بولاق : عظيم .

^١ التوربي: نهاية الأرب ٤٩:١٥ ؛ وقارن مع ^٢ هذا النص موجود عند المسعودي: أخبار الزمان المسعودي: أخبار الزمان ١٠٦-١٠٧ . ٢١٣-٢١٤ .

وجاوزهم ، ومَرَّ على أرض الذهب فرأى فيها قُضبانًا نابتة من ذهب .

ولم يَزَلْ يسير حتى بَلَغَ البطيخة التي يَنْصَبُ ماءُ النَّيلِ فيها من الأنهار التي تَخْرُجُ من تحت جَبَلِ القَمَرِ ، وسارَ حتى بَلَغَ هَيْكَلَ الشَّسِ وتجاوزَه حتى بَلَغَ جَبَلِ القَمَرِ ، وهو جَبَلٌ عالٍ ، وأما شَمِيُّ جَبَلِ القَمَرِ لأنَّ القَمَرَ لا يَطْلُعُ عليه لأنَّه خارجٌ من تحت حُطَّ الاستواء^١ .

٥ ونَظَرَ إلى النَّيلِ يَخْرُجُ من تحته فيَمُرُّ في طَرَائِقَ كأنَّها رِفاق^٢ حتى يَنْتَهِي إلى حَظِيرَتَيْنِ ، ثم يَخْرُجُ منهما في نَهْرَيْنِ حتى يَنْتَهِي إلى حَظِيرَةٍ أُخْرَى ، فإذا جازَ^٣ حُطَّ الاستواءِ أَمَدَّهُ/ غَيْرُ تَخْرُجُ من ناحية نَهَرِ مَهْران^٤ بالهند ، وتلك العينُ أيضًا تَخْرُجُ من تحت جَبَلِ القَمَرِ إلى ذلك الوجه . ويُقَالُ إِنَّ نَهَرَ مَهْران^٥ مثل النَّيلِ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، وفيه التماسيح والأَسماكُ التي مثلُ أَسماكِ النَّيلِ . وَوَجَدَ الْوَلِيدُ بنَ دُوْنَمِغِ القَصْرِ الَّذِي فِيهِ الثَّمائِلُ الثَّحَاسُ التي عَمِلَهَا هِرْمِسُ الْأَوَّلُ فِي رَفَّتِ الْبُودَسِيرِ بنِ قُطْرِيمِ بنِ قُطَيْمِ بنِ مِصْرَامِ^٦ . ١٠

وقد ذَكَرَ قَوْمٌ من أَهْلِ الْأَثَرِ أَنَّ الْأَنْهَارَ الْأَرْبَعَةَ تَخْرُجُ من أَصْلٍ وَاحِدٍ من قُبَّةٍ فِي أَرْضِ الذَّهَبِ التي من وَرَاءِ الْبَحْرِ الْمُظْلِمِ ، وهي سَيِّحُونَ وَجَيْحُونَ والفُرَاتُ والنَّيْلُ ، وَأَنَّ تِلْكَ الْأَرْضَ من أَرْضِ الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الْقُبَّةَ من زَيْجَدَ ، وَأَنَّهَا قَبْلُ أَنْ تَسْلُكَ الْبَحْرَ الْمُظْلِمَ أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبَ رَائِحَةً مِنَ الْكَافُورِ ؛ وَمَنْ جَاءَ بِهَذَا رَجُلٌ من وَلَدِ الْعِيصِ بنِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْقُبَّةِ ، وَقَطَعَ الْبَحْرَ الْمُظْلِمَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ حَائِدٌ^٧ . ١٥

وقال آخَرُونَ : تَنْقَسِمُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ قِسْمًا جِذَاءِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لِسَانًا لِلْأُمِّ ؛ وقال آخَرُونَ : هَذِهِ الْأَنْهَارُ من ثُلُوجٍ تَكَاثَفَ ، وَلِذِيهَا الْحَرُّ فَتَسِيلُ إِلَى هَذِهِ الْأَنْهَارِ ، وَتَشْفِي مِنْ عَلَيْهَا ، لَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تَذِيرِ خَلْقِهِ ؛ قَالُوا : وَلَمَّا بَلَغَ الْوَلِيدُ جَبَلِ القَمَرِ ، رَأَى جَبَلًا عَالِيًا فَقِيلَ حِيلَةٌ إِلَى أَنْ صَعِدَ إِلَيْهِ لِيَرَى مَا خَلَقَهُ ، فَأَشْرَفَ عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ الرَّفَّتِيِّ الْمُنَيْنِ ، وَنَظَرَ إِلَى النَّيْلِ يَخْرُجِي عَلَيْهِ كَالْأَنْهَارِ الرَّقَاقِ ، فَأَتَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الْبَحْرِ زَوَائِجٌ مُثَيَّنَةٌ هَلَكَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ ٢٠

(a) بولاق : وأنهار دقاق . (b) بولاق : جاوز . (c) في جميع النسخ مكران وصربها ثبت إلى مهران .

^١ يتفق النص مع ما نقله النويري عن ابن وصيف شاه في نهاية الأرب ١٥ : ١١٤ ، وقارن كذلك مع المسعودي : أخبار نهاية الأرب ١٥ : ١١٥ .
^٢ للمسعودي : أخبار الزمان ١١٣ وقارن مع النويري : الزمان ١١٢ - ١١٣ .
^٣ يوجد هذا النص عند المسعودي : أخبار الزمان ٢١٤ .

أجلها ، فأُسرِعَ التَّزُولُ بعد أن كادَ يَهْلِكُ . وَذَكَرَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا هُنَاكَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا ، إِلَّا نُورًا أَحْمَرَ كَثُورَ الشَّمْسِ عِنْدَ غِيَابِهَا ^١ .

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ عَنْ حَايِدٍ وَقَطْعِهِ الْبَحْرَ الْمُظْلِمَ مَا يَبِينُ عَلَيْهِ لَا يَلْصُقُ بِقَدَمِهِ مِنْ شَيْءٍ وَكَانَ فِيمَا يُذَكِّرُ نَبِيًّا ، وَأُوتِيَتْ حِكْمَةً ، وَأَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ مُتَهَيِّئًا لِلثَّلِثِ فَأَعْطَاهُ قُوَّةً عَلَى ذَلِكَ فَيَقَالُ إِنَّهُ أَقَامَ يَتَمَشَّى عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي عُثْرَانَ ، وَعَشْرِينَ سَنَةً فِي خَرَابٍ ^٢ .

قَالُوا : وَأَقَامَ الْوَلِيدُ فِي غَيْبَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ^٣ ، وَعَادَ وَدَخَلَ مَثْفٌ ، فَأَقَامَ بِمَصْرَ فَاسْتَقْبَدَ أَهْلَهَا ، وَاشْتَبَاخَ خَرِيْمَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَمَلَكَهُمْ مِائَةَ وَعَشْرِينَ سَنَةً فَأَبْغَضُوهُ وَسَيَّمُوهُ ، إِلَى أَنْ رَكِبَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ مُتَصَيِّدًا ، فَأَلْقَاهُ فَرَسُهُ فِي وَهْدَةٍ فَقَتَلَهُ ، وَاشْتَرَاخَ النَّاسُ مِنْهُ ^٤ .

وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي كِتَابِ «الْخَرَجِ» : انْبَعَثَ الثَّلِثُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ وَرَاءَ حُطَّ الْاِسْتَوَاءِ مِنْ عَيْنٍ تَجْرِي مِنْهَا عَشْرَةُ أَثْنَاءَ ، كُلِّ خَمْسَةِ مِائَةٍ نَضَبٍ إِلَى بَطِيخَةٍ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ كُلِّ بَطِيخَةٍ نَهْرَانِ ، وَتَجْرِي الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ إِلَى بَطِيخَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْبَطِيخَةِ يُخْرَجُ نَهْرُ الثَّلِثِ .

وَقَالَ فِي كِتَابِ «نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ فِي اخْتِرَاقِ الْأَفَاقِ» ^٥ : إِنَّ هَذِهِ الْبَحِيرَةَ تُسَمَّى بِبَحِيرَةِ كُورِي مَنَسُوبَةٍ لِطَائِفَةٍ مِنَ السُّودَانِ يَسْكُنُونَ حَوْلَهَا مُتَوَحِّشِينَ يَأْكُلُونَ مَنْ وَقَعَ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ . وَمِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ يُخْرَجُ لَهُمْ نَهْرٌ عَائِنٌ وَبَحْرٌ الْحَبَشَةِ ، فَإِذَا خَرَجَ الثَّلِثُ مِنْهَا يَشُقُّ بِلَادَ كُورِي وَبِلَادَ بَنِي ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ السُّودَانِ بَيْنَ كَامِ وَالثُّوبَةِ . فَإِذَا بَلَغَ دُمُقْلَةَ مَدِينَةِ الثُّوبَةِ عَطَفَ مِنْ غَوِيَّهَا وَانْحَدَرَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّانِي ، فَيَكُونُ عَلَى سَطْحِهِ عِمَارَةُ الثُّوبَةِ ، وَفِيهِ هُنَاكَ جَزَائِرٌ مُتَبَعَةٌ عَامِرَةٌ بِالْمَدَنِ وَالْقُرَى ، ثُمَّ يَشْرِقُ إِلَى الْجَنَائِلِ ^٦ .

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : رَأَيْتُ فِي كِتَابِ «جُغْرَافِيَا الثَّلِثِ» مَصُورًا ظَاهِرًا مِنْ تَحْتِ جَبَلِ الْقَمَرِ ، وَمَنْعَبَهُ وَمَبْدَأَ ظُهُورِهِ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا ، فَضُبَّ تِلْكَ الْمِيَاهِ إِلَى بُحَيْرَتَيْنِ هُنَاكَ

(٥) الأصل : إلى اختراع ، بولاق : إلى اختراق .

^١ يفتق النص مع المسعودي : أخبار الزمان ٢١٨ وقارن مع النوري : نهاية الأرب ١١٥:١٠ ومصدره فيه ابن وصيف شاه ، مجهول المؤلف : الاستيعاب ٤٥ ، ٧٣ .

^٢ تلخيص لما ورد عند المسعودي : أخبار الزمان ٢١٤-٢١٧ .

^٣ المسعودي : أخبار الزمان ٢١٨ .

^٤ المسعودي : أخبار الزمان ٢٢٣ ، النوري : نهاية

الأرب ١١٩:١٠ نقلًا عن ابن وصيف شاه .

^٥ من هنا يفتق المقرئ مع النوري : نهاية الأرب

١: ٢٦٢ ، وكتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي

المتوفى سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م نشر قسم منه نشره دي خويه De

Goege في القسم السادس من المكتبة الجغرافية ليدن ١٨٩٢ .

^٦ النوري : نهاية الأرب ١: ٢٦٢ ، ولا يوجد هذا =

كالبطائح ، ثم يجتمع الماء منها جارياً فيمر برمال هنالك وجبال ، ويخرق أرض السودان فيما يلي بلاد الزنج ، فيتشعب منه خليج يصب في بحر الزنج ويخري على وجه الأرض تسع مائة فرسخ وقيل ألف فرسخ في عامر وغامير من عمران وخراب ، حتى يأتي أسوان من صعيد مصر^١ .

وقال في كتاب هرودوتوس : نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل إلى ناحية الغرب ، فيصير في وسطه جزيرة ، وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيشقي أرض مصر . وقيل إن مخرجه من عيني فيما يجاوز الجبل ، ثم يذهب في الزمالة ، ثم يخرج غير بعيد فيصير له مخبئ عظيم ، ثم يسائر البحر المحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل على اليسار إلى أرض مصر ، فيحق ما يُظن بهذا النهر أنه عظيم ، إذ كان مجراه على ما حكيتاه .

قال : ونهر النيل وهو الذي يُسمى بأون^٢ مخرجه خفي ، ولكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة ، ويصير له هناك مخبئ عظيم مجراه إليه مائتا ميل . وذكر مخرجه حتى ينتهي إلى البحر .

قال : وكثيراً ما يُوجد في نهر النيل التماسيح ، وإقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد ، وعدة أنياله من مخرجه المعروف إلى موقفه مائة ألف وتسعون ألفاً وتسع مائة وثلاثون ميلاً . وماء النيل عكز مرثل عذب دفي^٣ . انتهى .

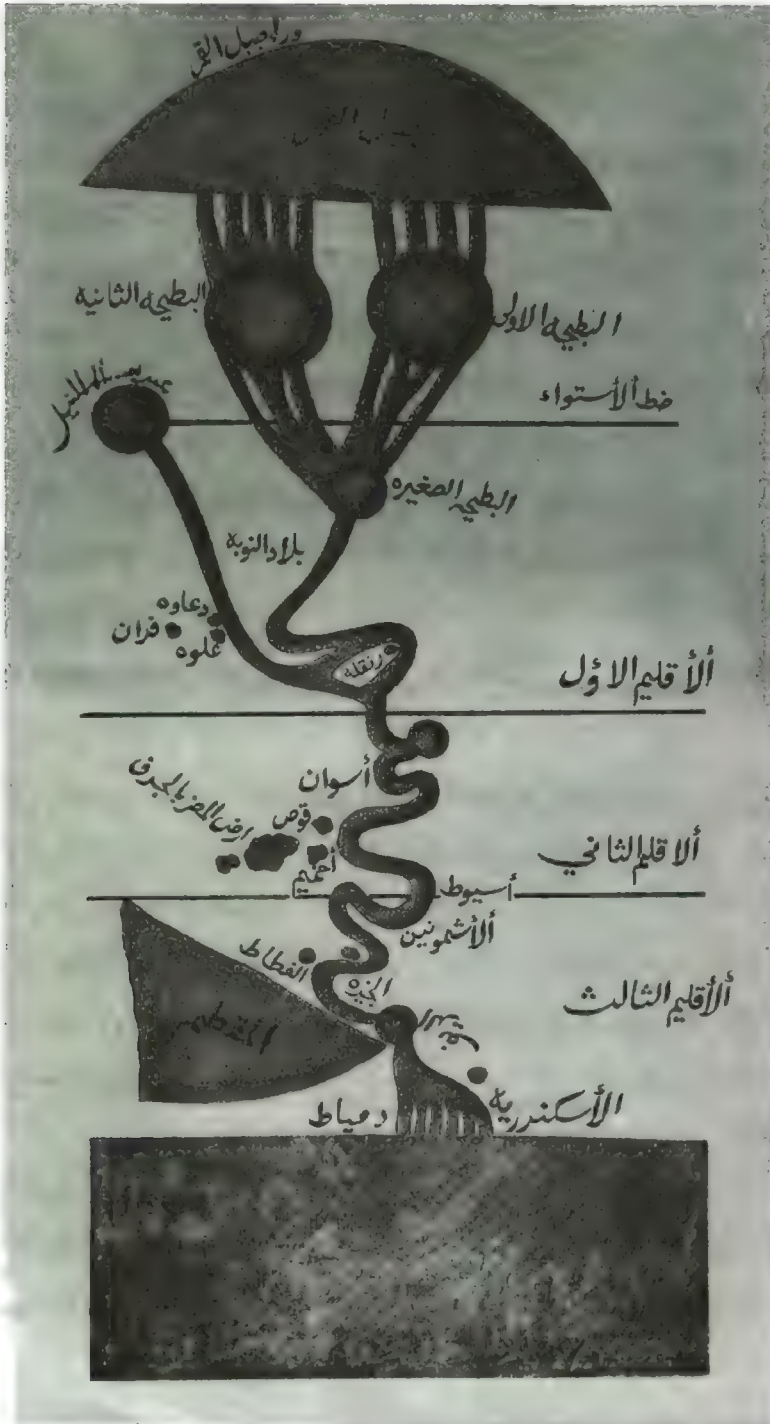
والنيل إذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب الثوبة أنحداراً ، ومراكب الصعيد إقلاعاً . وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها إلا في أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرفيه أسوان من الصعيد الأعلى ، ويمر بين جبلتين يكتنفان أعمال مصر : أحدهما شرقي ، والآخر غربي ، حتى يأتي مدينة فسطاط مصر فيكون في يده الشرقي . فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم ، صار فرقتين : فرقة تمر حتى تقب في بحر الروم عند دقياط ، وتسمى هذه

(a) الأصل : بارون .

^١ المسعودي : مروج الذهب ١ : ١١٢ ، ١١٤ .

^٢ أروسيوس : تاريخ العالم ٦١ - ٦٢ ، ٧٩ - ٨١ .
ومقدمة عبد الرحمن بدوي ٢٨ - ٢٩ حيث لارن بين نص للمقريزي والأصل اللاتيني لبيان دقة الترجمة وصح النقل .

= النص فيما وصل إلينا من كتاب «نزهة المشتاق» للإمامي ، فلم يرجع المقريزي مباشرة إلى كتاب «نزهة المشتاق» وإنما اقتبس ما نقله النويري في نهاية الأرب ، وانظر كذلك نفس النص عند السيوطي : حسن المحاضرة ٣٤٦ : ٢ - ٣٤٧ (نقلًا عن مباحث الفكر للوطاط الكتي) .



الفُرقة ببحر الشرق، والفُرقة الأخرى هي عمود الثيل ومعظمه، يُقال لها ببحر القُروب، تَمُرُّ حتى تُصَبُّ في بحر الروم أيضًا عند رَشيد، وكانت مَدِينَة كَبِيرَة في قَدِيم الزَّمان.

وَيُقَالُ: إِنَّ مَسَافَة الثَّيْل من مَثْبَعِه إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ عِنْد رَشِيد سَبْع مَائَة وَلِثْمَانِيَة وَأَرْبَعُون قَوْسًا، وَإِنَّهُ يَجْرِي فِي الْخَرَاب أَرْبَعَة أَشْهُر، وَفِي بِلَاد الشُّودَان شَهْرَيْن، وَفِي بِلَاد الْإِسْلَام مَسَافَة شَهْر.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ زِيَادَة مَاءِ الثَّيْل إِنَّمَا تَكُون بِسَبَبِ الْمَدِّ الَّذِي يَكُون فِي الْبَحْرِ، فَإِذَا فَاضَ مَاوُهُ تَرَجَعَ الثَّيْلُ وَفَاضَ عَلَى الْأَرْضِ، وَوُضِعَ فِي ذَلِكَ كِتَابٌ حَاصِلُهُ أَنَّ حَرَكَةَ الْبَحْرِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْمَدُّ وَالْجَزُّ تُوجَدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَرَّتَيْنِ، وَفِي كُلِّ شَهْرٍ قَمَرِيٍّ مَرَّتَيْنِ، وَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّتَيْنِ. فَالْمَدُّ وَالْجَزُّ الْيَوْمِيَّ تَابِعٌ لِقَرَصِ الْقَمَرِ، وَمَخْرَجُ الشَّمَاعِي^(أ) عَنْهُ مِنْ جَنَّتَيْ جَزْمِ الْمَاءِ، فَإِذَا كَانَ الْقَمَرُ وَسَطَ السَّمَاءِ كَانَ الْبَحْرُ فِي غَايَةِ الْمَدِّ، وَكَذَا إِذَا كَانَ الْقَمَرُ فِي وَتَدِ الْأَرْضِ، فَإِذَا تَرَعَّ الْقَمَرُ طَالِقًا مِنَ الشَّرْقِ أَوْ غَرَبَ، كَانَ الْجَزُّ.

وَالْمَدُّ الشَّهْرِيَّ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِقْبَالِ الْقَمَرِ لِلشَّمْسِ فِي نِصْفِ الشَّهْرِ، وَيُقَالُ لَهُ الْإِمْتِلَاءُ وَيَكُونُ^(ب) أَيْضًا عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ، وَيُقَالُ لَهُ السَّرَارُ.

وَالْجَزُّ يَكُونُ أَيْضًا فِي وَفَّتَيْنِ: عِنْدَ تَرْيِجِ الْقَمَرِ لِلشَّمْسِ فِي سَابِعِ الشَّهْرِ، وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ. وَالْمَدُّ السَّنَوِيُّ يَكُونُ أَيْضًا فِي وَفَّتَيْنِ: أَحَدُهُمَا عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ آخِرَ بُرْجِ الشُّبْلَةِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بَآخِرِ بُرْجِ الْحُوتِ.

فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ الْإِمْتِلَاءِ أَوْ الْاجْتِمَاعِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَجْتَمِعُ الْإِمْتِلَاءُ وَالشَّهْرِيَّ وَالسَّنَوِيُّ، وَيَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَحْرُ فِي غَايَةِ الْفَيْضِ، لَا يَبْقَى إِنْ وَقَعَ الْاجْتِمَاعُ أَوْ الْإِمْتِلَاءُ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ، وَوَقَعَ مَعَ الثَّيْرَيْنِ أَوْ مَعَ أَحَدِهِمَا أَحَدُ الْكَوَاكِبِ الدَّيَّازَةِ، فَإِنَّهُ يَنْظُمُ الْفَيْضَ. فَإِنْ وَقَعَ كَوْنًا فَصَاعِدًا مَعَ أَحَدِ الثَّيْرَيْنِ تَرَادَّدَ عِظَمُ الْفَيْضِ، وَكَانَتْ زِيَادَةُ الثَّيْلِ تِلْكَ السَّنَةِ عَظِيمَةً جَدًّا، وَزَادَ أَيْضًا نَهْرُ مَهْرَانِ.

فَإِنْ كَانَ الْاجْتِمَاعُ أَوْ الْإِمْتِلَاءُ زَائِلًا عَنِ وَسَطِ السَّمَاءِ، وَلَيْسَ مَعَ أَحَدِ الثَّيْرَيْنِ كَوْنًا، فَإِنَّ الثَّيْلَ وَنَهْرَ مَهْرَانِ لَا يَتَلَعَّانِ غَايَةَ زِيَادَتِهِمَا لَعَدَمِ الْأَوَارِ الَّتِي تُثِيرُ الْمِيَاهَ، وَيَكُونُ بِمَصْرِ فِي تِلْكَ^(ب) السَّنَةِ الْغَلَاءُ.

(أ) بولاق: ويخرج الشماع. (ب) ساقط من بولاق.

والجزر السنوي يكون عند^(هـ) حلول الشمس برأسي الجدي والسرطان .

فإنما المدّ اليومي الدافع من البحر المحيط ، فإنه لا ينتهي في البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية ، ويمسحها من الأرض نحو من ستين ميلاً ثم يتصرف ، وانصرافه هو الجزر . وكذلك الأودية إذا كانت الأرض وهذه .

- والمدّ الشهري ينتهي إلى أقاصي البحار ، وهو يُجسِّسها حتى لا تنصب في البحر المحيط ، وحيث ينتهي المدّ الشهري فهناك مُتَّهَى ذلك البحر وطرفه .

وأما المدّ السنوي فإنه يريد في البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة يئنة ، ومن هذه الزيادة تكون زيادة الثيل وامتلاؤه وامتلاء نهر مهران والديلو الذي يبلاد السند .

- قال : ولما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر ، ورأى مصب الثيل ، وعلم أنه^(ب) من المحال أن يكون الثيل في أسوان وإد من الأودية ، وما^(ج) أشعل اتسع حتى إنَّ عَرْضَه في أشفل ديار مصر ليشفي إلى مائة ميل عند غاية الفيض ، وله أفواه كثيرة شارعة في البحر تسع كل ما يهبط من الميزان في ذلك الصنع ، فرأى مُحالاً أن يكون الوادي بحيث يضيق أسفله عن حقل ما يأتي به أغلاه ، مع ضيق أغلاه وسقه أسفله . فلما رأى ذلك قال : إنَّ رياحا^(د) تستقبل جزية الماء وتردعه فيفيض لذلك .

- ١٥ وقال الإسكندر الأفروديسي^(هـ) : إنَّ من المحال أن يكون الريح يودع الماء السائل في الوادي حتى يفيض أكثر من مائة ميل ، ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينقل من أشفل الوادي ويسيل إلى البحر ، لأنَّ البحر لا يمسك إلا أغلاه ، ولكن الرياح تذف الزمّل في أفواه تلك الشوارع التي تُفضي إلى البحر ، فيغتربها شبه الزم ، فيفيض .

- قال : وأغفل أن الزمّل جسمٌ متخلخل فالماء يتخلله ويثبذه سائلاً إلى البحر ، مع أن الزمّل لم يثقل اغتلاءً بظهر للجسم ، والماء سائلٌ في كل حين على خلق يئس وديمياط وخلق رشيد وخلق الإسكندرية ، ففعلوا لاستيحالة كونه سائلاً عن سبيل حائل ، ونسبوا توقفه إلى الريح والزمّل . وهم اشتقصوا الهواء واشتقصوا الأرض ، وأغفلوا الاشتقصاء الثالث الذي هو الماء ، لأنهم لم يقرئوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية إلا في ثلاثة أشهر ، فلا يظهر مقدار صعودها في كل يوم للجسم ، ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر .

قَالَ: وَالْمَدُّ كُلُّهُ وَاجِدٌ، وَهُوَ أَنَّ الْقَمَرَ يُقَابِلُ الْمَاءَ كَمَا تُقَابِلُ الشَّمْسُ الْأَرْضَ. فَتُورُ الْقَمَرُ إِذَا قَابَلَ كُرَّةَ الْأَرْضِ سَخْنَهَا، كَمَا تُسَخِّنُ الشَّمْسُ الْهَوَاءَ الْمُحِيطَ، فَيَغْتَرِي الْهَوَاءُ الْمُحِيطُ بِالْمَاءِ بَعْضُ تَسَخِينِ يُذِيبُ الْمَاءَ، فَيَفِيضُ وَيَنْمَى بِخَاصَّتِهِ، كَالْمِرَاةِ الْمُحَرَّقَةِ الْمُلْهَبَةِ لِلجَوْ حَتَّى تَحْرَقَ الْقُطْعَةُ الْمَوْضُوعَةُ بَيْنَ الْمِرَاةِ وَالشَّمْسِ؛ فِهَذَا مِثَالُهُ فِي الْمَقَابِلَةِ.

وَمِثَالُهُ فِي الْمَسَرَارِ كَوْنُ الرُّجَاجَةِ الْمَقْلُوعَةِ مَاءً يُلْقَى الشُّعَاعُ إِلَى خَلْقِهَا فَتَحْرَقُ الْقُطْعَةُ أَيْضًا، فَالْقَمَرُ جِسْمٌ يُورِي بِاكتِسَابِهِ ذَلِكَ مِنَ الشَّمْسِ، فَإِذَا حَالَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْأَرْضِ خَرَجَ عَنْ جَانِبِي الْمَاءِ شُعَاعٌ نَافِلٌ يَمُوجُ مَعَ جَنْبِي الْمَاءِ فَيُسَخِّنُ مَا قَابَلَهُ فَيَنْمُو، وَالْمَاءُ جِسْمٌ شَفَافٌ عَنْ جَانِبِيهِ/ يَخْرُجُ الشُّعَاعُ كَمَا يَخْرُجُ عَنْ جَانِبِي الرُّجَاجَةِ، فَيَخْذُلُ لَهَا نُورًا يُسَخِّنُ الْهَوَاءَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرُّجَاجَةِ أَوْ بِالْأَرْضِ، فَيَغْتَرِي الْمَاءُ شَيْبَةً تَسْخِينٌ يَنْمَى بِهِ وَيَزِيدُ، وَذَلِكَ قُبَالَةَ الْقُرْصِ، وَقُبَالَةَ مَخْرَجِ الشُّعَاعِ مِنْ قُبَالَةِ وَتَدِ الْقَمَرِ. فِهَذَا هُوَ الْمَدُّ دَائِمًا، وَيَسْتَدِيرُ بِاسْتِدَارَةِ الْفَلَكَ وَتَدْوِيرِهِ لِفَلَكَ الْقَمَرِ، وَتَدْوِيرِ فَلَكَ الْقَمَرِ لِلْقَمَرِ.

وَالْمَدُّ الشَّهْرِيُّ هُوَ أَنْ يُقَابِلَ الْقَمَرُ الشَّمْسَ أَوْ يَشْتَرِ تَحْتَهَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا كَوْنُ الْقَمَرِ قُبَالَةَ الشَّمْسِ، لِكَوْنِهِ فِي تَرْبِيعِ الشَّمْسِ أَوْ ضَعْفِ، وَفِي الْمَقَابِلَةِ أَقْوَى. وَكَذَلِكَ إِذَا قَابَلَهَا عَلَى وَسْطِ كُرَّةِ الْأَرْضِ، بَحِثْ تَكُونُ الْحَرَكَةُ أَشَدَّ، وَالِاكتِنَافُ لِلْمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعْمَ، فَذَلِكَ هُوَ الْمَدُّ الشَّهْرِيُّ.

فَصْلٌ فِي الرَّعْلِ عَلَى مَنْ اغْتَفَقَ أَنَّ السَّيْلَ مِنْ سَيْلٍ يَفِيضُ

أَمَّا الْعَامَّةُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَجِيءُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنَّهُ سَيْلٌ، وَمَنْ تَفَعَّلَ إِلَى عِظَمِهِ وَأَتَسَاعِهِ فِي أَشْفَلِهِ وَضِيقِهِ فِي أَغْلَاهِ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَاءٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَا هَوَاءٍ، نَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الْخَيَالِ الْمُخَضِّ، كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ»^١ الَّذِي رَعَى أَنَّ الْمَاءَ يُسَافِرُ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ وَمَوْطِنٍ إِلَى الثَّيْلِ تَحْتَ الْأَرْضِ فِيمَدَّهُ، لِأَنَّ الثَّيْلَ إِذَا يَفِيضُ فِي الْخَرِيفِ، وَالْمُهُونِ وَالْأَبَارِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَقِلُّ مَازُهَا، وَالثَّيْلُ يَكْثُرُ، فَرَأَوْا كَثْرَةَ وَقِلَّةَ فَأَضَافُوا أَحَدَهُمَا إِلَى الْآخَرِ بِالْخَيَالِ.

^١ لم يحدد المقرئ هنا مؤلف كتاب «المسالك» بعد ذلك في كتب المسالك والممالك التي وصلت إلينا، سواء للممالك وللمقصود، ولم أجد بدوري هذا النص وما ينقله منه للإصطخري أو ابن عرداذية أو ابن حوقل أو البكري

(٩) وقال آخر: إِنَّمَا ذَلِكَ مَلَكٌ يَضَعُ رَجُلَهُ فِي الْمَاءِ فَيَكْثُرُ وَيَزِيلُهُ مِنَ الْمَاءِ فَيَقْلُ^(٩).

وَمَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ عَنْ سَيْلٍ يَفِيضُ أَنَّ السَّيْلَ يَكُونُ فِي غَيْرِ وَقْتٍ فَيَفِيضُ الْبَحْرُ، وَلَا يَفِيضُ الثَّلِيلُ لَكَوْنِ الْبَحْرِ فِي الْحَزَرِ، فَيَصِلُ السَّيْلُ وَيَمُرُّ نَحْوَ الْبَحْرِ فَلَا يَزِدُّهُ رَادْعٌ.

وَمِنْهَا أَنَّ فَيْضَ الثَّلِيلِ عَلَى تَدْرِيجِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مَحَلِّ السُّنْسَنِ رَأْسِ الشَّرْطَانِ إِلَى مَحَلِّهَا

بِأَخْرِ تَوَاجُجِ الشُّبُلَةِ، وَالنَّاسُ يَحْسِبُونَ بِهِ قَبْلَ فَيْضِهِ بِمُدَّةِ شَهْرَيْنِ. وَلِعَامِلٍ مِصْرَ فِي وَسْطِ الثَّلِيلِ يَفْهَمُ تَوَاضُعَهُ، وَهُوَ سَارِبَةٌ فِيهَا مَحْطُوطٌ يُسَمُّونَهَا أَذْرَعًا يُقْلَمُ بِهَا بِمِقْدَارِ صُعودِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَمِنْهَا أَنَّ فَيْضَهُ أَهْدَأُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَلَوْ كَانَ بِالسَّيْلِ لاختَلَفَ بِعَظْمِ الاختِلَافِ.

وَمِنْهَا أَنَّهُ قَدْ يَجِيءُ السَّيْلُ فِي غَيْرِ هَذَا الْوَقْتِ فَلَا يَفِيضُ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْحَذَّاقَ بِمِصْرَ إِذَا رَأَى الْحَرَّ يَرِيدُ، عَلِمُوا أَنَّ الثَّلِيلَ يَرِيدُ^(١٠)، لِأَنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ تُذَيِّبُ الْهَوَاءَ

فَيَلْدُوبُ الْمَاءَ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ زِيَادَةِ كَوْنِ كَبْ وَدَثْوِ تَوَرٍّ.

وَمِنْهَا أَنَّ مَوْضِعَ مَصَبِّهِ مِنْ أَشْوَانَ إِنَّمَا هُوَ وَادٍ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَمَا أَشْخَلَ اتَّسَعَ حَتَّى يَكُونَ غَرَضُ

اتِّسَاعِهِ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ مِيلٍ، وَأَشْوَانَ هُوَ مَتَهَى بُلُوغِ الرَّدْعِ، فَمَا ظَنُّكَ بِسَيْلٍ مَسِيرُهُ نِصْفَ شَهْرٍ،

لَا يَنْشِبُ بَيْنَ مَصَبِّ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ، كَيْفَ كَانَ يَكُونُ أَعْلَاهُ لَوْ كَانَ امْتِلَاءً أَشْفَلَهُ عَنِ السَّيْلِ؟

وَمِنْهَا أَنَّ أَهْلَ أَشْوَانَ إِنَّمَا يَوَقِّعُونَ بُلُوغَ الرَّدْعِ إِلَيْهِمْ مُرَاقِبَةً، وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِالنَّهَارِ مُحَافَظَةً،

فَإِذَا جَرَّ اللَّيْلُ أَخَذُوا مُحَقَّةً حَزَفَ فَوْضَعُوا فِيهَا مِضْبَاحًا، ثُمَّ وَضَعُوهُ^(١١) عَلَى حَجَرٍ مُقَدَّدٍ عِنْدَهُمْ

لِلذِّكِّ وَجَعَلُوا يَوَقِّعُونَهُ، فَإِذَا طَفَى^(١٢) حَجَرِ الْمِضْبَاحِ بَطَفَوْا الْمَاءَ عَلَيْهِ، عَلِمُوا أَنَّ الرَّدْعَ قَدْ وَصَلَ

غَايَتَهُ الْمَعْهُودَةَ عِنْدَهُمْ بِأَخْذِهِ فِي الْحَزَرِ، فَكَبِتُوا^(١٣) بِذَلِكَ إِلَى أَمِيرِ مِصْرَ يُغْلِمُونَهُ أَنَّ الرَّدْعَ قَدْ وَصَلَ

غَايَتَهُ الْمَعْهُودَةَ عِنْدَهُمْ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا بِقِسْطِهِمْ مِنَ الشَّرْبِ. فَحَيْثُ يَأْمُرُ بِكَثْرِ الْأَشْدَادِ الَّتِي

عَلَى أَفْوَاهِ قُرُصِ^(١٤) الْمَشَارِبِ، فَيَفِيضُ الْمَاءُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

وَمِنْهَا أَنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الْمَشَارِبِ تُشَدُّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ صُعودِ^(١٥) الثَّلِيلِ بِالْخَشَبِ وَالْثَّرَابِ، لِيَجْتَمِعَ مَا

يَسِيلُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ فِي الثَّلِيلِ، وَيَكْثُرَ فَيْضُهُ^(١٦) جَمِيعَ أَرْضِهِمْ، وَيَتِمَّ بِجَمَلَتِهِ دُخُولُ الْمَاءِ الْمَلْحِ

عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ سَيْلًا مَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَفُتِحَتْ لَهُ أَفْوَاهُ قُرُصِ^(١٧) الْمَشَارِبِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ

ظُهُورِهِ.

(٩-١٠) هذه العبارة ساقطة من بولاق. (b) بولاق: سمزيد. (c) بولاق: يضعونه. (d) بولاق: أطفئ. (e) بولاق:

فيكثرون. (f) بولاق: قرص. (g) ساقطة من بولاق. (h) بولاق: ويعم. (i) بولاق: قرص.

ومنها أن الخُلجانَ إذا سُدتْ ولم يكن لها وادِعٌ من البحر، كان السَّيْلُ يُدَّ^(a) من بجته إلى البحر، إذ أَشْفَلَ الثَّلِيلَ أَوْسَعُ وَأَخْفَضُ من أعلاه .

ومنها أن ماء البحر يَضَعْدُ أكثر من عشرين ميلاً في حَلْقٍ رَشِيدٍ وَثِيَسٍ وَدِيَاطٍ ، كما يَقْلُ في سائر الأدوية التي يَدْخُلُهَا^(b) المَدُّ والجَزَرُ ، فلو كان الثَّلِيلُ خَالِياً من الماء الْعَذْبِ ، وَصَلَ البحرُ من أَشْوانَ إلى مُنْتَهَى مُلُوحِ الرُّذَعِ ، لأنَّ الماءَ يَطْلُبُ بِطَبِيعِهِ ما انْخَفَضَ من الأرض ، وأن تكون صَفْحَتُهُ^(c) كُرَّةً مستوية الخُطُوطِ الخارجَةِ من الثَّقَلَةِ إلى المحيط مُتساوية .

ومنها أنها إذا فُتِحَتْ تلك الأشداد ، وكُسِرَتْ الخُلُجُ ، وفاضَ الثَّلِيلُ على بطائِحِ أرض مصر ، شَقَرَ بذلك أَهْلُ أَشْوانَ للبحر ، وقالوا : في هذه السَّاعَةِ كُسِرَتْ الخُلُجُ وفاضَ ماءُ الثَّلِيلِ على أرض مصر ، لأنَّ ذلك يَبَيِّنُ لهم بِتَحَوُّلِ الماءِ دَفْعَةً . فلو كان سَيِّلاً ، وهم على أَعْلَى المَصَّبِ ، لقالوا : قد اِرْتَفَعَ المَطَرُ عن الأرض التي يَسِيلُ منها السَّيْلُ .

ومنها أن قَسِيمَةَ الذي يُمِرُّ بِلادِ الحَبَشَةِ ، المُتَّبِعَةُ لِإِبَاهِ من جَبَلِ القَمَرِ ، لا يفيضُ كَثَلَةُ قَيْضِ الثَّلِيلِ ثلاثة أشهر ، ولا يُقِيمُ على وَجْهِ الأرضِ مُدَّةً مقامه ، لكِنَّهُ إذا كَثُرَ فِيهِ السَّيْلُ غَمَرَ جَوَانِيهِ على قَدَرِ انْبِساطِهَا ، فإذا انْصَبَتْ^(d) مَادَّتُهُ أُزْرِعَ^(e) عليه ، فلو كان قَيْضُ الثَّلِيلِ عن السَّيْلِ ، وهما من شِغْبٍ واحدٍ ، لكان شأنهما واحداً .

ولا نقول إن قَيْضَ الثَّلِيلِ بسبب قَيْضِ البَحْرِ فقط ، إذ لولا كَوْنُهُ سَيِّلاً ماءً لما دَخَلَ رِذْعُ البحرِ إليه ، ولكان شاطئُ دِيارِ مصر كسائر السَّواجِلِ المُجاوِرَةِ له ، ولولا السَّيْلُ السَّائِلُ فِيهِ لَرَدَّتْهُ البَحْرُ ، إذ عَادَةُ البَحْرِ رِذْمُ السَّواجِلِ . وأما دَخَلُ/ الشُّكُّ على أَهْلِ مصر في أَيَّامِ الثَّلِيلِ لأنَّهم لم يُشَاهِدُوا مُنْشَأَهُ ، ولا عَائِثُوا مَبْدَأَهُ من جَبَلِ القَمَرِ ، لأنَّهُ في مَوْضِعٍ لا سَاكِنٍ عَلَيْهِ ، ولم يَحْقُقُوا^(f) المَدَّ السَّنَوِيَّ الرَّادِعَ له ، فلم يَتَحَقَّقُوا شَيْقاً من أَمْرِهِ لأنَّهُ بعيدٌ من أَذْهَانِ الْعَامَّةِ أن يَعْلَمُوا أَنَّ ماءَ البحرِ يَغْطِمْ في أَيَّامِ الصَّيْفِ ، لأنَّ المَعْهُودَ عِنْدَهُمْ في البحرِ أن يَغْطِمْ في أَيَّامِ الشِّتَاءِ . وَطَعْنُوا البحرَ في الشِّتَاءِ إِنْماها يكونُ عن الرِّيحِ الهابِئَةِ عَلَيْهِ من أَحَدِ جَانِبَيْهِ ، فيفيضُ ويَخْرُجُ إلى الجَانِبِ الآخرِ ، إلا ما كان من البَحْرِ المُحِيطِ فَإِنَّهُ يَتَحَرَّكُ أَهْداً من دَاخِلِ البحرِ إلى البَرِّ ، وهو أَنَّ المحيطَ يَطْلُبُ بِطَبِيعِهِ أن يكونَ على وَجْهِ الأرضِ ، والأَرْضُ لَيْسَتْ بِسَطْحَةٍ فِيهِ تُمَانِيئُهُ بما فِيهَا من التَّرْكِيبِ ، فهو يَطْلُبُ أَهْداً أن يَغْلُوها وترْكِيبُها يَرِزُها^(g) .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : تدخل . (c) بولاق : يكون في صفحة . (d) بولاق : وإذا انضبت .
(e) بولاق : أَرَدَع . (f) بولاق : ولا تحقَّقوا . (g) بولاق : إِنَّا . (h) بولاق : ويركبها يردّها .

قَالَ: وَالسَّبَبُ فِي عِظَمِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ كَثْرَةُ الْأَشْجَةِ، فَإِذَا زَاخَمَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ، عَظُمَ فَيْضُ الْبَحْرِ، وَإِذَا عَظُمَ فَيْضُ الْبَحْرِ فَاضَتْ الْأَنْهَارُ، وَكَذَلِكَ إِذَا تَهَضَّ الْقَمَرُ لِمَقَابِلَةِ أَحَدِ السَّيَّارَةِ ارْتَفَعَ الْبَخَارُ، وَصَعِدَ إِلَى كُرَّةِ^(a) الزُّمَّهَرِ، وَنَزَلَ الْمَطَرُ. فَإِذَا فَارَقَ الْقَمَرُ الْكَوَاكِبَ ارْتَفَعَ الْمَطَرُ لِكثرة التحليل، كما يكون في نصف النهار عند تَوَسُّطِ الشَّمْسِ لِرُؤُوسِ الْخَلْقِ، وَكَمَا يَكُونُ عِنْدَ لِحُولِ الْكَوَاكِبِ الْكَثِيرَةِ^(b) عَلَى وَسَطِ خَطِّ أَرِينِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قَالَ كَاتِبُهُ^(c): الَّذِي يَخْصُلُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الثَّيْلَ مَخْرُجُهُ مِنْ جِبِلِّ الْقَمَرِ، وَأَنَّ زِيَادَتَهُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ فَيْضِ الْبَحْرِ عِنْدَ الْمَدِّ. فَأَمَّا كَوْنُ مَخْرَجِهِ مِنْ جِبِلِّ الْقَمَرِ فَمُسْتَلَمٌ إِذْ لَا يُزَاعُ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا أَنَّ^(d) زِيَادَتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ رَذَعِ الْبَحْرِ لَهُ بِمَا حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْمَدِّ، فَلَيْسَ كَذَلِكَ. نَعَمْ تَوَالِي هُبُوبِ الرِّيحِ الشَّمَالِيَةِ مَعِينَةً^(e) عَلَى وَفُورِ الزِّيَادَةِ وَرَذَعِ الْبَحْرِ لَهُ إِعَانَةً عَلَى الزِّيَادَةِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ الثَّيْلَ عَلِمَ أَنَّ سَيْلًا سَالَ فِيهِ وَلَا بُدَّ، لِإِنَّهُ لَا يَزَالُ أَيَّامَ الشِّتَاءِ وَأَوَائِلَ فَضْلِ الرَّبِيعِ مَآوُهُ صَافِيًا مِنَ الْكَدْرَةِ، فَإِذَا فَرَّغَتْ أَيَّامُ زِيَادَتِهِ وَكَانَ فِي غَايَةِ نَقْصِهِ تَغْيِيرُ طَعْمِهِ، وَمَالَ لَوْنُهُ إِلَى الْخَضِرَةِ، وَصَارَ بِحَيْثُ إِذَا وُضِعَ فِي إِنَاءٍ يَرُشِبُ مِنْهُ شَبَّهَ أَجْزَاءَ صَغِيرَةٍ مِنْ طَحْلَبٍ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْبَطْلِيخَةَ الَّتِي فِي أَعَالِي الْجَنْوِبِ تَرُدُّهَا الْفَيْلَةُ وَتَخَوُّهَا مِنَ الْوُحُوشِ حَتَّى يَتَغَيَّرَ مَآوُهَا، فَإِذَا كَثُرَتْ أَنْطَارُ الْجَنْوِبِ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ، وَعَظُمَتِ الشَّيُولُ الْهَابِطَةُ فِي هَذِهِ الْبَطْلِيخَةِ، فَاضَ مِنْهَا مَا تَتَغَيَّرُ مِنَ الْمَاءِ، وَجَزَى إِلَى أَرْضِ مِصْرَ، فَيُقَالُ عِنْدَ ذَلِكَ تَوَحُّمُ الثَّيْلِ^١.

وَلَا يَزَالُ الْمَاءُ كَذَلِكَ حَتَّى يَفْقَهُ مَاءً مُتَغَيَّرًا، وَيُرَادُ عَكْرُهُ بِزِيَادَةِ الْمَاءِ، فَإِذَا وُضِعَ مِنْهُ أَيَّامَ الزِّيَادَةِ شَيْءٌ فِي إِنَاءٍ رَسَبَ بِأَسْفَلِهِ طِينٌ لَمْ يُعْهَدَ فِيهِ قَبْلَ أَيَّامِ الزِّيَادَةِ، وَهَذَا الطِّينُ هُوَ الَّذِي تَحْمِلُهُ الشَّيُولُ الَّتِي تَنْصَبُّ فِي الثَّيْلِ حَتَّى تَكُونَ زِيَادَتُهُ مِنْهَا، وَفِيهِ يَكُونُ الرُّزْخُ بَعْدَ هُبُوطِ الثَّيْلِ، وَإِلَّا فَأَرْضُ مِصْرَ سَبْحَةٌ لَا تُثَبَّتُ وَلَا يَثْبُتُ مِنْهَا إِلَّا مَا مَرَّ عَلَيْهِ مَاءُ الثَّيْلِ، وَرَكَدَ مِنْهُ هَذَا الطِّينُ.

وَقَوْلُهُ^٢: «إِنَّ الشَّيْلَ يَكُونُ فِي غَيْرِ وَقْتِ فَيْضِ الْبَحْرِ، وَلَا يَفِيضُ الثَّيْلُ لَكَوْنِ الْبَحْرِ فِي الْجَزْرِ، فَيَصِلُ الشَّيْلُ وَيَمُرُّ نَحْوَ الْبَحْرِ فَلَا يَزِدُّهُ رَادِعٌ» غَيْرُ مُسَلَّمٍ، وَإِنِ الْعَادَةُ أَنَّ الشَّيُولَ الَّتِي عَلَيْهَا زِيَادَةُ

(a) بولاق: كورة. (b) بولاق: الكبيرة. (c) بهامش نسخة الأصل: في الأصل كتابه واستعاض عنها في النص بكلمة مؤلفه. (d) بولاق: كون. (e) ساقطة من بولاق.

^١ انظر فيما يلي ١٦٢. والمسالك والممالك الذي لم ينتهه.

^٢ واضح أن المقرئ يستمر في النقل عن صاحب كتاب

ماء الثيل لا تكون إلا من غزارة الأمطار ببلاد الجنوب، وأمطار الجنوب لا تكون إلا في الصيف^(٩)، ولم يتفهد قط زيادة الثيل في الشتاء.

وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل تسيل فيه إنما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول.

وأما اشتدلاله بضيق مصب^(١٠) الثيل في أشوان وأتاسجه أسفل الأرض، فإما ذلك لأنه يصب من علو في مشقوق بين جبلين، يقال لهما الجنادل، ويتطبع في الأرض حتى تصب في البحر، فأتساعه حيث لا يجد حاجزًا يحجزه عن الانبساط.

وأما قوله: «إن الأشداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة» فليس كذلك، بل يصير الماء عند كسر كل سد من الأشداد في خليج، ثم تفتح ثرع من الخليج إلى الخليج إلى ما على جانيه من الأراضي حتى يروى. فمن تلك الأراضي ما يروى سريعًا، ومنها ما يروى بعد أيام، ومنها ما لا يروى لعلوه.

وأما قوله: «إن جميع تلك المشارب تسد» عند ابتداء صعود الثيل، ليجتمع ما تسيل من الماء في الثيل ويكثر، فيعم جميع أروضهم، ويتمتع بهملته دخول الماء الملح عليه فتغير مسلم أن تكون السدود^(١١) كما ذكر، بل أراضي مصر أقسام كثيرة: منها عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كثيرة، ومنها منخفض يروى من تسير الزيادة^(١٢). والأراضي متفاوتة في الارتفاع والانخفاض تفاوتًا كثيرًا، ولذلك احتيج في بلاد الصعيد إلى حفر الثرع، وفي أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يخبس الماء ليتصرف فيه^(١٣) أهل النواحي على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج، وإلا فهو يزيد أولًا في غير وقت^(١٤) سقى الأراضي، حتى إذا اجتمع من زيادته المقدار الذي هو كفاية الأراضي في وقت خلل الأراضي من الغلال وذلك غالبًا في أثناء شهر يشرى، فتح حينئذ^(١٥) الخليج حتى يجري فيه الماء إلى حد معلوم، ووقف حتى يروى ما تحت ذلك الحد الذي وقف عنده الماء من الأرض، ثم فتح ذلك الحد في يوم الثوروز^(١٦) حتى يجري الماء^(١٧) إلى حد آخر، ويتوقف عنده حتى يروى ما

(٩) بولاق: أيام الصيف. (ب) بولاق: استدلالة بصب. (ج) بولاق: تسد. (د) بولاق: السداد. (ه) بولاق: لروى. (ز) ساقطة من بولاق. (ح) بولاق: سد. (ط) بولاق: الثوروز.

تحت هذا الحد الثاني من الأراضي ، ثم يُفْتَح هذا الحد في يوم عيد الصليب^١ بعد الثوروز بتسعة^٢ عشر يوماً حتى يجري الماء ويقف على حد ثالث حتى يزوي ما تحت هذا الحد من الأراضي /، ثم يُفْتَح هذا الحد فيجري الماء ويزوي ما هنالك من الأراضي ، ويصُب في البحر الملح ؛ هذا هو الحال في شدد أراضي مصر .

- وقوله : «إِنَّ ماءَ البحرِ يَصْعَدُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ مِثْلاً فِي خَلْقٍ رَشِيدٍ وَثِيصٍ وَدُمِيَّاطٍ ، فَلَوْ كَانَ الثَّيْلُ^٣ خَالِئاً مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ لَوَصَلَ الْبَحْرُ مِنْ أَشْوَانَ إِلَى مُتَهَيِّ بُلُوغِ الرُّوَّةِ» ، فنقول : هذا قول من لم يعرف أرض مصر ، فَإِنَّ الثَّيْلَ عِنْدَ مَصْبِهِ بِأَعَالِي أَشْوَانَ يَكُونُ أَغْلَى مِنْهُ عِنْدَ كَوْنِهِ أَثْقَلُ الْأَرْضِ بِقَامَاتٍ عَدِيدَةٍ ، فَإِذَا فَاضَ ماءُ الْبَحْرِ حَتَّى يَنْدَاقَ هُوَ وَمَاءُ الثَّيْلِ . وَبِمَا غَلَبَ ماءُ الْبَحْرِ ماءَ الثَّيْلِ فِي أَيَّامِ تَقْصَانِ الثَّيْلِ حَتَّى يَمْلُحَ ماءُ الثَّيْلِ فِيهَا بَيْنَ دُمِيَّاطٍ وَفَارَشُكُورَ . وَأَمَّا فِي أَيَّامِ زِيَادَةِ الثَّيْلِ فَإِنِّي شَاهَدْتُ مَصَبَ الثَّيْلِ فِي الْبَحْرِ مِنْ دُمِيَّاطٍ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُدَافِعُ الْآخَرَ فَلَا يُطِيقُهُ ، حَتَّى صَارَا مُتَمَانِقَيْنِ^٤ (وفي منظرهما حينئذٍ^٥) حَيْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ

- قوله : «إِنَّ الْأَشْدَادَ إِذَا قُبِحتْ عَلِمَ أَهْلُ أَشْوَانَ بِذَلِكَ فِي الْحَالِ» غير مُسَلَّم ، بَلْ لَمْ نَزَلْ نُشَاهِدْ الثَّيْلَ فِي الْأَعْرَامِ الْكَثِيرَةِ إِذَا قُبِحتْ مِنْهُ خَلِيجٌ أَوْ انْقَطَعَ مَقْطَعٌ فَأَغْرَقَ مَاءُهُ أَرْضِي كَثِيرَةً ، لَا يَظْهَرُ التَّقْصُ فِيهِ إِلَّا فِيمَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، وَمَا تَرَحَّ الْمَقْرَدُ يَخْرُجُ مِنْ قَوْصٍ بِبِشَارَةِ وَفَاءِ الثَّيْلِ ، وَقَدْ أَوْفَى عَنْهُمْ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعاً ، فَلَا يُوفِي ذَلِكَ الْمِقْيَاسَ بِمِصْرَ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَنَحْوِهَا .

- وَأَمَّا قَوْلُهُ : «إِنَّ مَا كَانَ مِنَ الثَّيْلِ يَمُزُّ بِبِلَادِ الْحَبَشَةِ يُخَالِفُهُ» فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ الزِّيَادَةُ فِي الثَّيْلِ أَيَّامَ زِيَادَتِهِ تَكُونُ بِبِلَادِ الثُّوبَةِ وَمَا وَرَاءَهَا فِي الْجَنُوبِ كَمَا تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَلَا قَوْصٌ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ يَجْرِي فِي مُحْدُودٍ ، وَهَنَّاكَ يَجْبُدُّ عَلَى الْأَرْضِ . وَالثَّانِي أَنَّ زِيَادَتَهُ تُعْتَبَرُ بِالْقِيَاسِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَهَنَّاكَ لَا يُمَكِّنُ قِيَاسَهُ لَتَجْدُّهُ . وَمَنْ عَرَفَ اخْتِلَافَ مِصْرَ عَلِمَ أَنَّ زِيَادَةَ ماءِ الثَّيْلِ تَكُونُ مِنْ أَشْطَارِ الْجَنُوبِ .

- وَيُقَالُ : إِنَّ الثَّيْلَ يَنْصَبُّ مِنْ عَشْرَةِ أَثْهَارٍ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ ، كُلُّ خَمْسَةِ أَثْهَارٍ مِنْ شُعْبَةٍ ، ثُمَّ تَجْبُرُ تِلْكَ الْأَثْهَارُ الْعَشْرَةُ فِي بُحَيْرَتَيْنِ^٦ كُلُّ خَمْسَةِ أَثْهَارٍ تَجْبُرُ بُحَيْرَةً بِذَاتِهَا ، ثُمَّ

(a) بولاق : بسمة . (b) ساقطة من بولاق . (c-c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : بحرین .

^١ عن عيد الصليب انظر فيما يلي ٣٧٤ .

يُخْرَج من البحيرة الشرقية بَحْرٌ لَطِيف يأخذ شَرْقًا على جَبَل قَاقُول ، ويمتد إلى مُدَيْنٍ هناك ، ثم يَصُبُّ في البحر الهندي ، ويَخْرُج من البحيرتين ستة أَنْهَر ، عن كُلِّ بُحيرة ثلاثة أَنْهَار . وَتَجْمَع الأنهار الستة في بُحيرة مُتَّسِعة تُسَمَّى البَطِيخَة ، وفيها تَضْرِبُ سَفِينَةُ^(٩) جَبَل يَفْرُق الماءَ يُصْفَيْنِ : يخرجُ أَحَدُهُما من غَرْبِ البَطِيخَة وهو نَيْلُ السُّودَان ويَصِير نَهْرًا يُسَمَّى بَحْر الدَّمَامِ ، ويأخذ مُقَرَّبًا ما بين سَقَرَة وَغَانَة على جَنُوبِي سَقَرَة وَشَمَالِي غَانَة ، ثم يَتَغَطَّفُ هناك مِنْهُ فَوْقَة تَرْجِع جُنُوبًا إلى غَانَة ، ثم تَمُرُّ على مَدِينَةِ بَرَسَة ، وتأخذ تحت جَبَل في جَنُوبِهَا خَارِجَ خَطِّ الاسْتِواءِ إلى دُقْلَة ، ثم تَبْهَرُ في بُحيرة هناك ، وتستمرُّ الْفَوْقَة الثَّانِيَة مُقَرَّبَة إلى بِلَاد مَالِي وَالتَّكُرُّورِ حَتَّى تَنْصَبَّ في الْبَحْرَ الْمُحِيطَ شَمَالِي مَدِينَةِ قَلْتَبُو .

وَيَخْرُجُ النُّصْفُ الْآخَرُ مُتَشَابِلًا آخِذًا على الشَّمَالِ إلى شَرْقِي مَدِينَةِ جِمْي^(١٠) . ثم يَتَشَقَّبُ مِنْهُ هُنَاكَ شُعْبَةٌ تَأْخُذُ شَرْقًا إلى مَدِينَةِ سَحْرَت ، ثم تَرْجِعُ جَنُوبًا ، ثم تَغَطَّفُ شَرْقًا بِجَنُوبِ إلى مَدِينَةِ سَحْرَت ، ثم إلى مَدِينَةِ مَرْكَة ، وينتهي إلى خَطِّ الاسْتِواءِ حَيْثُ الطُّولُ خَمْسُ وَسْتُونَ دَرَجَة ، وَيَتَبَحَّرُ هُنَاكَ بُحِيرَة ، وَيُسَمَّى عُمُودُ النَّيْلِ ، مِنْ قِبَالَةِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ شَرْقِي مَدِينَةِ شِمْي مُتَشَابِلًا آخِذًا على أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَة ، ثم يَتَشَامَلُ على بِلَادِ السُّودَانِ إلى مَدِينَةِ دُقْلَة حَتَّى يَرْمِي على الْجَنَادِلِ إلى أُشُون ، وَيَتَخَدَّرُ وهو يَشُقُّ بِلَادَ الصُّعِيدِ إلى مَدِينَةِ قُشَطَاطِ مِصْرَ ، وَيَمُرُّ حَتَّى يَصُبَّ في الْبَحْرَ الشَّامِي .

وَقَدْ اسْتَفِيضَ بِبِلَادِ السُّودَانِ أَنَّ النَّيْلَ فِي أَصْلِهِ^(١١) يَتَخَدَّرُ مِنْ جِبَالِ سُود تَبِينَ على بُعْدِ كَأَنَّ عَلَيْهَا الْعَمَامَ ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُ نَهْرَيْنِ : يَصُبُّ أَحَدُهُمَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى جِهَةِ بَحْرِ الظُّلْمَةِ الْجَنُوبِي ، وَالْآخَرُ يَصِلُ إِلَى مِصْرَ حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الشَّامِي . وَيُقَالُ : إِنَّهُ فِي الْجَنُوبِ يَتَفَرَّقُ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ تَدْخُلُ فِي صَخْرَاءٍ مُتَقَلِّعَةٍ ، ثُمَّ تَجْمَعُ الْأَنْهَارُ السَّبْعَةُ وَتَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الصَّخْرَاءِ نَهْرًا وَاحِدًا فِي بِلَادِ السُّودَانِ .

ذِكْرُ مَقَامِيسِ الشَّيْلِ وَزِيَارَتِهِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : أَوَّلُ مَنْ قَامَ النَّيْلَ بِمِصْرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَنَعَ مِقْيَاسًا بِمَثَلِ ، ثُمَّ وَصَّغَتِ الْعَجُوزُ ذُلُوكَةَ ابْنَةِ زَبَاءَ وَهِيَ صَاحِبَةُ حَائِطِ الْعَجُوزِ بِأَنْصِنَا وَهُوَ صَغِيرُ الذَّرْعِ ، وَمِقْيَاسًا

ياخميم، ووضع عبد العزيز ابن مزوان مقياساً بحلوان، وهو صغير، ووضع أسامة بن زبد التثوخي في خلافة الوليد مقياساً بالجزيرة، وهو أكبرها. قال يحيى بن بكير: أذكرت القياس بقيس في مقياس منف، ويتدخل بزباده إلى الفسطاط^١.

وقال القاضي: كان أول من قاس النيل بمصر يوسف الثاني^٢ - عليه السلام - وبني مقياساً بمنف، وهو أول مقياس وضعه عليه السلام.

وقيل: إن النيل كان يقاس^٣ بأرض علوة إلى أن بني مقياس منف، وإن القبط كانت تقيس عليه إلى أن يطل.

ومن بعده ذلوك العجوز بنت مقياساً بأفصنا، وهو صغير الذرع، ومقياساً^٤ آخر ياخميم وهي التي بنت الحائط المحيط بمصر.

وقيل إنهم كانوا يقيسون الماء - قبل أن يوضع المقياس - بالرصاصة، فلم يزل القياس فيما مضى قبل الفتح بقياسية الأكسية/، وعالمه هناك، إلى أن اجتمع المسلمون بين الحصن والبحر أقيمتهم الباقية الآن.

وكان للروم أيضاً مقياس بالقصر خلف الباب بمكة من دخل منه في داخل الرقاق، أثره قائم إلى اليوم، وقد بُني عليه وحواله.

ثم بُني عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياساً بأشوان، ثم بني بموضع يقال له دندرة. ثم بُني في أيام معاوية مقياساً بأفصنا، فلم يزل يقاس عليه إلى أن بني عبد العزيز بن مزوان مقياساً بحلوان - وكانت مثله - وكان هذا المقياس صغير الذراع.

فأما المقياس القديم الذي بُني في الجزيرة، فالذي وضعه أسامة بن زبد، وقيل إنه كسر فيه ألفي أوقية^٥، وهو الذي بني بيت المال بمصر. وبني «أبو فتحة»^٦. ثم كتب أسامة بن زبد التثوخي عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك بطلانه، فكتب إليه سليمان بأن يبنى مقياساً في الجزيرة، فبناه في سنة سبع وتسعين^٧.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: كان يقاس بمصر. (c) الأصل: القراطين (d) ساقطة من بولاق، والكلمة غير واضحة في الأصل.

^١ ابن عبد الحكم: فخر مصر ١١٦ السيوطي: حسن
Van Berchem, M., *CIA* ١١٦: ٣ وفيات
Egypte I, pp. 18-19; Wiet, G. *RCEA* I, n°22

الماضرة ٢: ٣٧٤.

^٢ نفسه ١١٦ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٧١ ابن

ثم بنى المتوكّل فيها مقياسًا في أوّل سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، وأقر بأن يُعزّل النصارى عن قياسه. فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس أبا الرّؤاد المَعْلَم، واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الرّؤاد المؤدّن^١، كان يقول القصي: أضله من^٢ البصرة، قديم مصر، وحدث بها، وجعل على قياس النيل، وأجرى عليه سليمان^٣ بن وهب - صاحب خراج مصر يومئذ - سبعة دنانير في كلّ شهر. فلم يزل المقياس من ذلك الوقت في يد أبي الرّؤاد ووَلَّه إلى اليوم. وتوفي أبو الرّؤاد سنة ست وستين ومائتين^٤.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين، ومعه أبو أيوب صاحب خراجه، وبكار بن قتيبة القاضي، فنظّر إلى المقياس وأمر بإصلاحه، وقدر له ألف دينار، فغمر^٥. وبنى الخازن^٦ في الصناعة مقياسًا، وأثره باقي لا يعتمد عليه.

وقال ابن عبد الحكم: فلما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو، حين دخل بؤونة من أشهر العجم^٧، فقالوا له: أيها الأمير، إنّ لبينا هذا سنة لا يجري إلّا بها؛ فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمّدنا إلى جارية بكر من أبوتها،

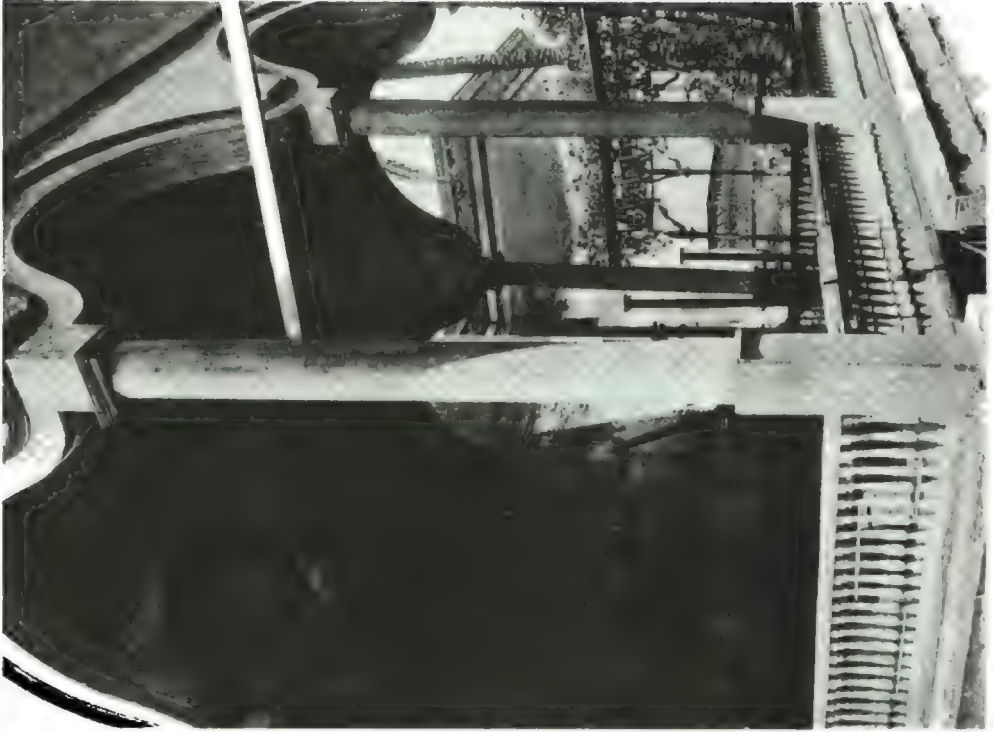
(a) ساقطة من بولاق. (b) الأصل: سليم. (c) بولاق: الحارث. (d) في النجوم الزاهرة: أشهر القبط.

Wiet, G., «Une restauration de Nilomètre de l'île de Rawda sous Mutawakkil (247/861)», *CR. de l'Académie des inscriptions et belles-lettres* (1924), pp. 202-203; id., *RCEA* II, n°460, 61, 72, 76. ١٨٥:٢، ٤٧١:١.

٣ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣١١، وعن تاريخ المقياس راجع Meqyās Marcel, J.I., «Mémoire sur le Meqyās de l'île de Roudah», *Description de l'Égypte, Etat Moderne*, XV Paris 1826; Creswell, K.A.C., *EMA* II, pp. 290-307; Ghaleb, K.O., *Le Mikyās ou Nilomètre de l'île de Rodah*, MIE t. LIV, Le Caire 1951; Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Égypte jusqu'à l'époque fatimide*, pp. 80-82.

١ الفلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٩٣-٢٩٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣٠٩-٣١١؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤-٣٧٦.

٢ انظر ترجمة ابن أبي الرّؤاد جند، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١١٢-١١٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٢٥٦-٢٥٧، ويقدم لنا ابن خلكان في نهاية ترجمة ابن أبي الرّؤاد نصّ الكتابات الأربعة المنقوشة على الرعام في جوانب المقياس وقت بنائه الذي أمر به المتوكّل على الله العباسي، وكلها مازال موجودًا حتى الآن ونص أحدها...: أمر ببنائه عبد الله جعفر الإمام المتوكّل على الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده، على يدي أحمد بن محمد الحاسب سنة سبع وأربعين ومائتين (وفايات الأعيان).



شكل ٢ - مقياس الثيل بالروضة (عن Creswell)

فأَوْضَيْتُمَا أَبْوَنَهُمَا ، وَجَعَلْنَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُلِيِّ وَالثِّيَابِ أَفْضَلَ مَا يَكُونُ ، ثُمَّ أَلْفَيْتُمَا فِي هَذَا^(٥) الثِّلِ ، فَقَالَ لَهُمْ عَمْرُو : إِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِيهِمْ مَا قَبْلَهُ . فَأَقَامُوا بَوُؤَةَ وَأَيْبَ وَمِشْرَى ، وَهُوَ لَا يَجْرِي قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، حَتَّى هَمُّوا بِالْجَلَاءِ . فَلَمَّا رَأَى عَمْرُو ذَلِكَ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ قَدْ أَصَبْتَ ، إِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِيهِمْ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبَطَاقَةٍ فَأَلْفَيْهَا فِي دَاخِلِ الثِّلِ إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي .

فَلَمَّا قَدِمَ الْكِتَابُ إِلَى عَمْرُو فَتَخَّ بِطَاقَةَ لَمَّاذَا فِيهَا :

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى نِيلِ مِصْرَ . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ كُنْتُ إِذَا^(٥) تَجَرَّي مِنْ يَدِكَ فَلَا تَجَرَّ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ هُوَ الَّذِي يُجْعِلُكَ ، فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ أَنْ يُجْعِلُكَ .»

فَالْتَقَى عَمْرُو الْبَطَاقَةَ فِي الثِّلِ قَبْلَ يَوْمِ الصَّلَيبِ يَوْمَ ، وَقَدْ نَهَّيَ أَهْلَ مِصْرَ لِلْجَلَاءِ وَالْخُرُوجِ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ لَا يَقُومُ بِمَضْلَحَتِهِمْ فِيهَا إِلَّا الثِّلِ ، وَأَصْبَحُوا يَوْمَ الصَّلَيبِ وَقَدْ أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي لَيْلَةٍ ، وَقَطَعَ تِلْكَ السِّتَّةَ الشَّوْءَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ^١ .

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ جَاجِلًا الصَّنَدَفِي هُوَ الَّذِي قَرَأَ بِبَطَاقَةِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الثِّلِ عَلَى الثِّلِ^(٥) حِينَ تَوَقَّفَ ، فَجَرَى بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ تَرْيُذُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَعَا عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ فَخَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الثِّلِ حَتَّى أَرَادُوا الْجَلَاءَ ، فَطَلَبُوا إِلَى مُوسَى أَنْ يَدْعُو اللَّهَ ، فَدَعَا اللَّهَ رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا - وَذَلِكَ لَيْلَةُ الصَّلَيبِ - فَأَصْبَحُوا وَقَدْ أَجْرَاهُ اللَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا . فَاسْتَجَابَ اللَّهُ بِتَطَوُّلِهِ لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ كَمَا اسْتَجَابَ لَنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^٢ .

قَالَ الْقَضَائِيُّ : وَوُجِدَتْ فِي رِسَالَةٍ مَنَسُوبَةٍ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْمُنْعَمِ قَالَ : لَمَّا فَتَحَتْ الْقَرْبُ مِصْرَ ، عَرَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَا يَلْقَى أَهْلُهَا مِنَ الْقَلَاءِ عِنْدَ وَقُوفِ الثِّلِ عَنْ خَدِّهِ فِي مِقْيَاسٍ لَهُمْ ، فَضَلَّ عَنْ تَقَاضِرِهِ ، وَأَنْ قَوَّطَ الْاسْتِشْعَارَ بِدَعْوِهِمْ إِلَى

(٥) ساقطة من بولاق .

^١ ابن عبد الحكم : فتح مصر ١٥٠-١٥١ أبو المحاضرة ٢: ٣٥٣-٣٥٤ .

الحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٥١-٣٦ ؛ السيوطي : حسن^٢ نفسه ١٥١ .

الاحتِكَارَ، وَيَدْعُو الْاِحْتِكَارَ إِلَى تَصَاعُدِ الْأَشْعَارِ بِغَيْرِ قَحْطٍ. فَكَتَبَ عُثْرٌ إِلَى عُثْرٍ بِسَالِهِ عَنْ شَرْحِ الْحَالِ فَأَجَابَهُ: لَيْتِي وَجَدْتُ مَا تُزَوِّي بِهِ مِصْرَ حَتَّى لَا يَفْقُطَ أَهْلُهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَالْحَدُّ الَّذِي يُزَوِّي مِنْهُ سَائِرُهَا حَتَّى يَفْقُطَ عَنْ حَاجَتِهِمْ وَيَبْقَى عِنْدَهُمْ قُوَّةٌ سَنَةِ أُخْرَى بَيْتَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَالنَّهَائِيَّانِ الْخُفُوفَتَانِ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، وَهُمَا الظُّلْمُ وَالِاسْتِيعَارُ، اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا فِي النَّقْصَانِ، وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي الزِّيَادَةِ.

هَذَا، وَالتَّلَدُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مَحْفُورُ الْأَنْهَارِ، مَقْشُورُ الْجُسُورِ، عِنْدَمَا تُسَلِّمُوهُ مِنَ الْقَيْطِ، وَخَمِيرَةُ الْعِمَارَةِ فِيهِ.

فَاسْتَشَارَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي ذَلِكَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْتَدِئَ بِمَقْيَاسَاتِهِ، وَأَنْ يُنْقِصَ ذِرَاعَيْنِ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَأَنْ يُقَرِّرَ مَا يَتَقَدَّمُ عَلَى الْأَصْلِ، وَأَنْ يُنْقِصَ مِنْ كُلِّ ذِرَاعٍ بَعْدَ السَّتَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا أَصْبُعَيْنِ. فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَبَنَاهُ بِحُلُوفَانِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ بِذَلِكَ كُلُّ مَا أَرَادَ مِنْ حَلِّ الْإِزْجَافِ وَزَوَالِ مَا مِنْهُ كَانَ يَخَافُ، بِأَنْ يَجْعَلَ الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ ذِرَاعًا أَرْبَعَ عَشْرَةَ، لِأَنَّ كُلَّ ذِرَاعٍ أَرْبَعَ وَعَشْرُونَ أَصْبُعًا، فَجَعَلَهَا ثَمَانِيًا وَعَشْرِينَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ / ذِرَاعًا يَكُونُ مَبْلَغُ الزِّيَادَةِ عَلَى الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ ثَمَانِيًا وَأَرْبَعِينَ أَصْبُعًا، وَهِيَ الثُّلَاثَانِ، وَجَعَلَ الْأَرْبَعَ عَشْرَةَ سِتِّ عَشْرَةَ وَالسَّتَّ عَشْرَةَ ثَمَانِيَةَ عَشْرَةَ وَالثَّمَانِيَةَ عَشْرَةَ عَشْرِينَ^١.

قَالَ الْقَضَائِيُّ: وَفِي هَذَا الْبَابِ^(أ) نَظَرْنَا فِي وَقْتِنَا لَزِيَادَةِ فَتْسَادِ الْأَنْهَارِ وَانْتِقَاضِ الْأَحْوَالِ. وَشَاهِدُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَقَاسِ الْقَدِيمَةَ^(ب) الصَّعِيدِيَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا أَرْبَعٌ وَعَشْرُونَ أَصْبُعًا كُلُّ ذِرَاعٍ، وَالْمَقَاسِ الْإِسْلَامِيَّةَ عَلَى مَا ذُكِرَ، مِنْهَا الْمِقْيَاسُ الَّذِي بَنَاهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ التَّنُوخِيُّ بِالْجَزِيرَةِ، وَهُوَ الَّذِي هَدَّمَهُ الْمَاءُ. وَبَنَى الْمَأْمُونُ آخَرَ بِأَسْفَلِ الْأَرْضِ بِالْبِشْرُودَاتِ، وَبَنَى الْمُتَوَكِّلُ آخَرَ بِالْجَزِيرَةِ، وَهُوَ الَّذِي لَمَّاسَ عَلَيْهِ الْمَاءُ الْآنَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

قَالَ ابْنُ عُثَيْرٍ عَنِ الْقَيْطِ الْمُتَقَدِّمِينَ: إِذَا كَانَ الْمَاءُ فِي اثْنَيْنِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ مِشْرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، فَهِيَ سَنَةٌ مَاءٍ، وَإِلَّا فَلَا مَاءَ نَاقِصٍ، وَإِذَا تَمَّ سِتُّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا قَبْلَ التَّوَرُّوزِ فَلَا مَاءَ يَتَمُّ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ.

(أ) يُولَاي: الْحِسَابُ. (ب) فِي الْأَصْلِ: الْقَالِمَةُ.

هازون الرشيد، قَدَّرَهَا بِذِرَاعِ خَادِمِ أَسْوَدَ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ قَائِمًا، وَهِيَ الَّتِي تَتَعَامَلُ النَّاسُ بِهَا فِي ذُرْعِ النَّيِّ وَالتَّجَارَةِ وَالْأَنْبِيَةِ وَقِيَاسِ نِيلِ مِصْرٍ^١.

وَأَكْثَرُ مَا وَجِدَ فِي الْقِيَاسِ مِنَ التَّنْقِصَانِ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ وَمِائَةً، وَجِدَ فِي الْقِيَاسِ تِسْعَةُ أَذْرُعٍ وَأَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا. وَأَقْلُ مَا وَجِدَ مِنْهُ سِتَّةٌ خَمْسٌ وَسِتِّينَ وَمِائَةً، فَإِنَّهُ وَجِدَ فِيهِ ذِرَاعٌ وَاحِدٌ وَعِشْرَ أَصَابِعٍ. وَأَكْثَرُ مَا بَلَغَ فِي الزِّيَادَةِ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ وَمِائَةً، فَإِنَّهُ بَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ ذِرَاعًا وَتِسْعَةَ عَشَرَ أَصْبُعًا. وَأَقْلُ مَا كَانَ فِي سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةِ الْهَلَالِيَةِ، فَإِنَّهُ بَلَغَ اثْنِي عَشَرَ ذِرَاعًا وَتِسْعَ عَشْرَةَ أَصْبُعًا، وَهِيَ أَيَّامُ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ.

وَالْقِيَاسُ عَمُودٌ رُخَامٌ أَيْضٌ مُثَنَّنٌ، فِي مَوْضِعٍ يَتَحَصَّرُ فِيهِ الْمَاءُ عِنْدَ انْسِيَابِهِ إِلَيْهِ، وَهَذَا الْعَمُودُ مُفْصَّلٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا كُلُّ ذِرَاعٍ مُفْصَّلٌ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ قِسْمًا مُتَسَاوِيَةً تُعْرَفُ بِالْأَصَابِعِ، مَا عَدَا الْإِثْنَيْنِ عَشَرَ ذِرَاعًا الْأَوَّلَى فَإِنَّهَا مُفْصَّلَةٌ عَلَى ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ أَصْبُعًا كُلُّ ذِرَاعٍ.

وَقَالَ الْمَشْعُودِيُّ: قَالَتِ الْهِنْدُ: زِيَادَةُ الثَّيْلِ وَتَنْقِصَانُهُ بِالشَّيُولِ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ ذَلِكَ بِتَوَالِي الْأَنْوَاءِ وَكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ [وَرُكُودِ السَّحَابِ]^٢؛ وَقَالَتِ الرُّومُ: لَمْ يَزِدْ قَطُّ وَلَمْ يَنْقُصْ، وَإِنَّمَا زِيَادَتُهُ وَتَنْقِصَانُهُ مِنْ عَيُونِ كَثُرَتْ وَانْقَصَلَتْ. وَقَالَتِ الْقَيْطُ: زِيَادَتُهُ وَتَنْقِصَانُهُ مِنْ غُيُوبٍ فِي شَاطِئِهِ يَرَاهَا مِنْ سَافَرٍ وَلَحِقَ بِأَعَالِيهِ. وَقِيلَ لَمْ يَزِدْ قَطُّ، وَإِنَّمَا زِيَادَتُهُ بِرِيحِ الشَّمَالِ، إِذَا كَثُرَتْ وَانْقَصَلَتْ تَحْتِيسُهُ، فَيَفِيضُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ^٣.

وَقَالَ قَزَمٌ: سَبَبُ زِيَادَتِهِ هُبُوبُ رِيحِ تُسَمَّى رِيحَ الْمَلِّينِ^٤، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَحْمِلُ السَّحَابَ الْمَاطِرَ مِنْ خَلْفِ حَظِّ الْاسْتِواءِ، فَيُعْطِرُ بِلَادَ الشُّوْدَانِ وَالْحَبَشَةَ وَالثُّوْبَةَ، فَيَأْتِي مَعْلَكُهُ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ بِزِيَادَةِ الثَّيْلِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْبَحْرَ الْمِلْحَ يَقِفُ مَأْوُهُ عَلَى وَجْهِ الثَّيْلِ، فَيَتَوَقَّفُ حَتَّى تَزُورِيَ الْبِلَادُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:

فَاشْفَعْ فَلِلشَّافِعِ^٥ أَغْلَى نَدَا
عِنْدِي وَأَشْتَى مِنْ نَدَى الْحَسَنِ

(١) زِيَادَةُ مِنْ مَرْجِ الذَّهَبِ. (ب) بُولَاقُ: لِلتَّنَنِ. (ج) بُولَاقُ وَمَا فِيهِ الْخَطُوطَاتُ: فَاسِعٌ فَالْسَامِعُ وَالتَّصَوُّبُ مِنْ حَسَنِ الْمَحَاضِرَةِ.

^٢ الْمَسْمُودِيُّ: مَرْجِ الذَّهَبِ ٢: ٦٧.

^١ الْمَلَارُودِيُّ: الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ ١٣٧.

فالتَّيْلُ ذو قَضْبٍ وَلَكِنَّهُ الشُّكْرُ فِي ذَلِكَ لِلْمُتَيْنِ^(a)

ويبتدئ التَّيْلُ بالتنقيس والزيادة بقية بثوثة - وهو خَزِيرَان - وأَيْب - وهو تَمُوز - ومِشْرَى - وهو آب - فإذا كان الماء زائداً زاد شهر ثوث كله - وهو أَثْلُول - إلى انقضاءه ، فإذا انتهت الزيادة إلى الدَّرَاع الثامن عشر ففيه تمام الخراج ، ويخضب الأرض ، وهو ضَارٌّ بالبهايم لعَدَم الرُّغْمِي والكَلَا .

وَأَتَمَّ الزِّيَادَات كُلُّهَا ، الْعَامَّةُ النَّفْعُ^(b) للبلد كله سبعة عشر ذِرَاعًا ، وفي ذلك كفايتها ورَيَّ جميع أَرْضِهَا . وإذا زاد على ذلك وَبَلَغَ ثمانية عشر ذِرَاعًا وَغَلَقَهَا ، اسْتَبَحَرَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ الرُّبْع ، وفي ذلك ضَرَرٌ لِبَعْضِ الصُّبَاغِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْاسْتَبْحَارِ . وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذِرَاعًا ، كانت الْعَاقِبَةُ فِي انْصِرَافِهِ مُحْدُوْثٌ وَبَاءَ . وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذِرَاعًا .

وَقَدْ بَلَغَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ / تسع عشرة^(c) ذِرَاعًا ، وَمِسَاحَةُ الدَّرَاعِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ اثْنِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، وَمِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ يَكُونُ الدَّرَاعُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ أَصْبُعًا . وَأَقْلُ مَا يَبْقَى فِي قَاعِ الْمِقْيَاسِ مِنَ الْمَاءِ ثَلَاثَةُ أَذْرُعَ ، وفي تلك السنة يكون الماء قليلًا . وَالْأَذْرُعُ الَّتِي يُنْتَشَقَّى عَلَيْهَا بِمِصْرَ هِيَ ذِرَاعَانِ تَسْمَيَانِ مُنْكَرًا وَتَكْنِيًا ، وَهِيَ الدَّرَاعُ الثَّلَاثُ عَشَرَ وَالدَّرَاعُ الرَّابِعُ عَشَرَ ؛ فَإِذَا انْصَرَفَ الْمَاءُ عَنْ هَذَيْنِ الدَّرَاعَيْنِ وَزِيَادَةُ نِصْفِ ذِرَاعٍ مِنَ الْخَمْسِ عَشْرَةِ ، اسْتَشَقَّى النَّاسُ بِمِصْرَ ، فَكَانَ الضَّرَرُ الشَّامِلُ لِكُلِّ الْبُلْدَانِ ، وَإِذَا تَمَّ خَمْسُ عَشْرَةِ وَدَخَلَ فِي سِتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا كَانَ فِيهِ ضَلَاخٌ لِبَعْضِ النَّاسِ ، وَلَا يُنْتَشَقَّى فِيهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ نَقْصًا مِنْ خُرَاجِ السُّلْطَانِ^(d) .

وَالْتَّيْدُ يُتَّخَذُ بِمِصْرَ مِنْ مَاءِ طُوبَةِ - وَهُوَ كَانُونُ الثَّانِي - بَعْدَ الْغِطَاسِ ، وَهُوَ لِعَشْرَةِ تَمْضِي مِنْ طُوبَةِ ، وَأَصْفَى مَا يَكُونُ مَاءُ التَّيْلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَأَقْلُ مِصْرَ يَنْتَجِرُونَ بِصَفَاءِ مَاءِ التَّيْلِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، وَفِيهِ يُخَزَّنُ الْمَاءُ أَهْلُ بَيْتِيسَ وَدِقْيَاطَ وَثُوْتَةُ وَسَائِرُ قَرَايَا^(e) الْبَحِيرَةِ .

وَقَدْ كَانَتْ مِصْرُ كُلُّهَا تُزَوَّى مِنْ سِتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، غَايِرَهَا وَعَايِرَهَا ، يَأْخُذُهَا مِنْ مَجْسُورِهَا ، وَبِنَاءِ قَطَاطِيرِهَا ، وَتَنْجِيَةِ حُلَجَايِهَا . وَكَانَ الْمَاءُ إِذَا بَلَغَ فِي زِيَادَتِهِ تِسْعَ أَذْرُعَ دَخَلَ

(a) بولاق : المتن . (b) في المروج : النافعة . (c) بولاق : اثنتي عشر . (d) بولاق : قرى .

خَلِيجِ الْمَنْهَى وَخَلِيجِ الْفَيْيُومِ وَخَلِيجِ سَرْدُوسٍ وَخَلِيجِ سَحَا^١.

قَالَ: وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي وَفْتِنَا هَذَا - وَهُوَ سَنَةٌ خَمْسٌ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - أَنَّهُ إِنْ زَادَ عَلَى السَّتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا أَوْ نَقَصَ عَنْهَا، نَقَصَ مِنْ خَرَاكِ السُّلْطَانِ^٢.

وَقَدْ تَغَيَّرَ فِي زَمَانِنَا هَذَا عَامَّةً مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، لِفَسَادِ حَالِ الْجُسُورِ وَالتَّرْعِ وَالخَلْجَانِ، وَقَانُونُهُ الْيَوْمَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي الْقَيْظِ إِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ بُرْجَ السَّرْطَانِ وَالْأَسَدِ وَالشُّبْلَةَ حِينَ تَنْقُصُ عَامَّةُ الْأَنْهَارِ الَّتِي فِي الْمَعْمُورِ، وَلِذَلِكَ قَبْلَ إِنْ الْأَنْهَارِ تَمَدَّدَتْ بِمَائِهَا عِنْدَ غَيْضِهَا فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ.

وَتَبْدَأُ الزِّيَادَةُ مِنْ خَامِيسَ بَكْوَنَةٍ، وَتَظْهَرُ فِي ثَانِي عَشْرِهِ، وَأَوَّلُ دَفْعِهِ فِي الثَّانِي مِنْ أَيْبٍ، وَتَنْتَهِي زِيَادَتُهُ فِي ثَالِثِ بَابَةٍ، وَيَأْخُذُ فِي التَّقْصَانِ مِنَ الْعَشْرِينَ مِنْهُ، فَتَكُونُ مِثْلُ زِيَادَتِهِ - مِنْ ابْتِدَائِهَا إِلَى أَنْ يَنْقُصَ - ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا، وَهِيَ أَيْبٌ وَمِشْرَى وَثُوثٌ وَعَشْرُونَ يَوْمًا مِنْ بَابَةٍ، وَمِثْلُ مَكْنَتِهِ بَعْدَ انْتِهَاءِ زِيَادَتِهِ اثْنَا عَشَرَ يَوْمًا، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي التَّقْصَانِ.

وَمِنَ الْعَادَةِ أَنْ يُنَادَى عَلَيْهِ دَائِمًا فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ بَكْوَنَةٍ بَعْدَمَا يُؤْخَذُ قَاعُهُ، وَهُوَ مَا بَقِيَ مِنَ الْمَاءِ الْقَدِيمِ، فِي ثَالِثِ عَشْرِ بَكْوَنَةٍ، وَيُفْتَحُ الْخَلِيجُ الْكَبِيرُ إِذَا اكْتَمَلَ الْمَاءُ سِتَّةَ عَشْرِ ذِرَاعًا. وَأَذْرَكْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ: نَعْمُودُ بِاللَّهِ مِنْ أَصْبَحَ مِنْ عَشْرِينَ. وَكُنَّا نَقْعِدُ الْمَاءَ إِذَا بَلَغَ أَصَابِعَ مِنْ عَشْرِينَ ذِرَاعًا، فَاصَّ مَاءُ الثَّلِيلِ، وَغَرَّقَ الصُّيَاغَ وَالبَسَاتِينَ، وَفَارَتْ الْبَلَالِيعُ. وَهَذَا نَحْنُ فِي زَمَنِ، مِنْذُ كَانَتْ الْحَوَادِثُ بَعْدَ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِ مِائَةٍ، إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ فِي سَنَةِ أَصْبَحًا مِنْ عَشْرِينَ لَا يَعْمُ الْأَرْضُ كُلُّهَا لَمَّا قَدْ فَتَسَدَ مِنَ الْجُسُورِ، وَكَانَ إِلَى مَا بَعْدَ الْخَمْسِ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ قَانُونُ الثَّلِيلِ سِتَّةَ عَشْرِ ذِرَاعًا فِي مِقْيَاسِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ ذِرَاعًا.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ ذِرَاعًا وَاحِدَةً زَادَ خَرَاكِ مِصْرَ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ لَمَّا يَزُودُ مِنَ الْأَرْضِ الْعَالِيَةِ، فَإِنْ بَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ ذِرَاعًا كَانَتْ الْغَايَةُ الْقُضْوَى، فَإِنَّ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي مِقْيَاسِ الْجَزِيرَةِ اثْنَانِ وَعَشْرُونَ ذِرَاعًا فِي الصُّعِيدِ الْأَعْلَى، فَإِنْ زَادَ عَلَى الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَاحِدًا، نَقَصَ مِنَ الْخَرَاكِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، لَمَّا يُسْتَبْخَرُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَةِ.

قَالَ ابْنُ مُثَنَّى^٣ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: وَفِيهَا بَلَغَتْ زِيَادَةُ مَاءِ الثَّلِيلِ تِسْعَةَ عَشْرِ ذِرَاعًا وَأَرْبَعَةَ أَصَابِعَ، وَبَلَغَ الْمَاءُ الْبَابَ الْجَدِيدَ أَوَّلَ الشَّارِعِ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ، وَكَانَ النَّاسُ

^٣ تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن

جلب راغب المعروف بابن مثنى، مؤرخ مصري عاش =

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧١.

^٢ المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٢.

يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر . فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل إلى الباب الجديد ، أظهر الحزن والانتقطاع . فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب ، فأخرج له كتاباً فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال : هذا الكتاب الذي تعلم منه أحوالنا وأحوال ذوي بيتنا وما يأتي بعدها . فمريض الحافظ في آخر هذه السنة ، ومات في ^(a) سنة أربع وأربعين وخمس مائة ^١ .

وقال القاضي الفاضل ^٢ في «متجددات» سنة ست وسبعين وخمس مائة : وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول ، وهو السادس عشر من مشرى ، وفي الثيل ^(b) على ستة

(a) بولاق : في أول . (b) الأصل : صار النيل .

= في صدر الدولة المملوكية وتوفي سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م ، ومعلوماتنا عنه قليلة ، وترجع شهرته إلى كتابه في التاريخ الذي ذُيل به على كتاب «أخبار مصر» للمسيحي والذي يعد أهم مصادر تاريخ الفاطميين المتأخرين . وصل إلينا في شكل انتقاء قام به مؤرخنا المقرئ سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م . كما استفاد منه - قبل المقرئ - شهاب الدين النويري صاحب «نهاية الأرب» . ووضع ابن ميسر كتاباً آخر في «قضاة مصر» اعتمد عليه كثيرون ابن حجر الصقلي في كتابه «زُجج الإصر» (النويري : نهاية الأرب ٣٠ : ٣٩١ ، الصفيدي : الوافي بالوفيات ٤ : ١٨٨ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ٧ : ١٢٧ ، المقرئ : المقفى الكبير ٦ : ٣٩٥ ، Cahen, Cl., *Ibn Muyassar* III, p. 918 art. ² El³ ، مقدمة أمين فؤاد للمتنقى من أخبار مصر ، القاهرة ١٩٨١) .

^١ ابن ميسر : أخبار مصر ١٣٩ - ١٤٠ ، المقرئ : المعايظ الحفا ٣ : ١٨٦ - ١٨٧ .

^٢ القاضي الفاضل محي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن التيساني ، كاتب صلاح الدين ورئيس ديوان الإنشاء في عهده ، كان قد التحق بديوان الإنشاء الفاطمي في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، واشتهر بطريقة مميزة في الكتابة الإنشائية ، وإليه نسبت . صحب السلطان صلاح الدين في

حملاته في الشام ، وأقام في مصر بين سنتي ٥٨٥ - ٥٨٦هـ / ١١٨٩ - ١١٩٠م ليشراف على الديوان وإعادة تنظيم الجيش والأسطول . وفي أعقاب وفاة صلاح الدين والخلاف بين أخيه العادل وأولاده ، استقر القاضي الفاضل في مصر حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م . كتب القاضي الفاضل العديد من الرسائل الديوانية وصلت إلينا مجاميع منها سواء في نسخ مستقلة أو مُضمنة في مصادر عصر صلاح الدين . أما كتابه الذي ينقل عنه المقرئ وسماه «المتجددات» أو «المياومات» وسماه ابن القدم «الماجريات» فلا نعرفه إلا من خلال النقول المطولة التي حفظها منه المؤرخون المتأخرون (أخباره كثيرة في مصادر عصر صلاح الدين وانظر كذلك ، العماد الكاتب : خريدة القصر (قسم مصر) ١ : ٣٥ - ٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات ٣ : ١٥٨ - ١٦٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١ : ٣٣٨ - ٣٤٤ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٧ : ١٦٦ - ١٦٧ ، الصفيدي : الوافي بالوفيات ١٨ : ٣٣٥ - ٣٧٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ١٥٦ - ١٥٨ ، ولأحمد أحمد بدوي : القاضي الفاضل - دراسة ونماذج ، القاهرة د.ت ، Cahen, Cl., *El³ art. al-Kādi al-Fādil* IV, pp. 392-99 ، وانظر فيما يلي ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٧) .

عشر ذراعاً ، وهو الْوَفَاءُ ، ولا يُعْرَفُ وَفَاؤُهُ بهذا التاريخ في زمنٍ مُتَقَدِّمٍ^١ . وهذا أيضاً مما تَعَيَّرَ فِيهِ قَانُونُ الثَّيْلِ فِي زَمَانِنَا ، فَإِنَّهُ صَارَ يُؤْفَى فِي أَوَائِلِ مِشْرِى ، ولقد كَانَ الْوَفَاءُ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَثَمَانِ مِائَةٍ فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَيْسَبِ قَبْلِ مِشْرِى يَوْمٍ / وهذا مِنْ أَعْجَبِ مَا يُؤْرَخُ فِي زِيَادَاتِ الثَّيْلِ .

• وَاتَّفَقَ وَفَاءُ الثَّيْلِ^(٢) أَنَّ حَادِي عَشَرَ مِنْ جَمَادَى الْأُولَى سَنَةِ تَمَعِ وَسَبْعِ مِائَةٍ ، وَفَى الثَّيْلُ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ بَاقَةِ بَعْدِ الثَّوْرُوزِ بِتِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا^٣ .

قَالَ : وَفِي تَاسِعِ عَشْرَةٍ - يَعْنِي شَوَّالِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ - كُسِرَ بَعْرُ أَبِي الْمُتَّجَا ، وَبَاشَرَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمَانَ كَشْرَهُ ، وَزَادَ الثَّيْلُ فِيهِ أَصْبَحًا ، وَهِيَ الْأَصْبَحُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ مِنْ ثَمَانِ عَشْرَةِ ذِرَاعًا ، وَهَذَا الْحَدُّ يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ / مِصْرَ الْمَلْجَةِ الْكُبْرَى^٤ .

١٠ فَانْظُرْ كَيْفَ يُسَمَّى الْقَاضِي الْفَاضِلُ هَذَا الْقَدْرَ الدُّجَّةَ الْكَبْرَى ، وَإِنَّهُ - وَالْبَيْدُ بِاللَّهِ - لَوْ بَلَغَ مَاءُ الثَّيْلِ فِي سَنَةِ هَذَا الْقَدْرِ فَقَطْ لَحُلَّ بِالْبِلَادِ غَلَاءٌ يُخَافُ مِنْهُ أَنْ يَهْلِكَ فِيهِ النَّاسُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا أَهْقِلَ مِنْ عَمَلِ الْجُسُورِ .

وَيَحْصُلُ لِأَهْلِ مِصْرَ بَوَفَاءُ الثَّيْلِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَرَحٌ عَظِيمٌ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ قَانُونُ الرِّبَى فِي الْقَدِيمِ وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا . وَيَتَّخِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يَرْكَبُ فِيهِ السُّلْطَانُ بَعْسَاكِرَهُ ، وَيَنْزِلُ فِي الْمَرَاكِبِ لِتَخْلِيقِ الْمِقْيَاسِ .

١٥ وَقَدْ ذَكَّرْنَا مَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، مِنْ الْإِهْتِمَامِ بِفَتْحِ الْحَلِيجِ ، عِنْدَ ذِكْرِ مَنَاظِرِ اللُّؤْلُؤَةِ^٥ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ يَوْمَ الْوَفَاءِ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي وَعَدَ فِرْعَوْنُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْاجْتِمَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [الْآيَةُ ٥٩ سُورَةُ طه] ، وَقَدْ جَزَتْ الْعَادَةُ أَنَّ اجْتِمَاعَ النَّاسِ لِلتَّخْلِيقِ يَكُونُ فِي هَذَا الْوَقْتُ .

٢٠ وَمِنْ أَحْسَنِ السِّيَاسَاتِ فِي أَفْرِ الثَّدَاءِ عَلَى الثَّيْلِ مَا حَكَاهُ الْفَقِيهُ ابْنُ زُوَلَّاقٍ^٦ ، فِي «سِيرَةِ الْمُعِزِّ لِدَيْنِ اللَّهِ» ، قَالَ : وَفِي هَذَا الشَّهْرِ - يَعْنِي شَوَّالِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - مَتَّعَ الْمُعِزُّ لِدَيْنِ اللَّهِ

(٢) ساقطة من بولاق .

^٣ نفسه ١ : ١٣٨ ، وفيما يلي ١ : ٤٨٨ .

^١ المقرئ : السلوك ١ : ٧١ .

^٤ انظر فيما يلي ١ : ٤٧٠ - ٤٧٩ .

^٢ نفسه ٢ : ٥٥ وانظر كذلك أبا المحاسن : النجوم

^٥ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسن الألبني -

الزاهرة ٨ : ٢٤٤ .

من النداء بزيادة النيل، وألا يُكْتَبَ بذلك إلا إليه وإلى القائِد جَوْهَر، فلما تمَّ أباح النداء - يعني لما تمَّ ست عشرة ذراعاً - وكُسِرَ الحليج^١.

فتأمل ما أبدع هذه السياسة، فإنَّ الناس دائماً إذا تَوَقَّفَ النيلُ في أيام زيادته أو زاد قليلاً يَتَلَقَّون وتحدث^٢ أنفسهم بقدَم طُلُوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر، ويحتجده من عنده مالٌ في احتزان الغلال^٣، إما لطلبِ السعر، أو لطلبِ إخراج قوت عياله، فيحدث بهذا القلاء، فإن زاد الماء انحَلَّ السعر، وألا كان الجذب والقسط. ففي كتمان الزيادة عن العائنة أعظم فائدة وأجل عائدة.

وقال المسبحي^٤ في «تاريخ مصر»: وخَرَجَ أَمْرُ صَاحِبِ القَصْرِ إلى ابن خَيْرَانَ بِتَخْرِيرِ مَا يَسْتَنْتِجُ بِهِ الْقِيَّاسُونَ كَلَامَهُمْ إِذَا نَادَوْا عَلَى النَّيْلِ، فَقَالَ: «يَتَمَّ لَا تُحْصَى، مِنْ خَزَائِنِ اللَّهِ لَا تَفْتَى، زَادَ اللَّهُ فِي النَّيْلِ الْمُبَارَكِ كَذَا».

ومن عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه، فتقول عائمة أهل مصر: قد تَوَحَّمِ النَّيْلُ. وَيَزُونَ أَنَّ الشَّرْبَ مِنْهُ حَيْثُ مَضَى. ويُقال في سبب اخضراره أَنَّ الْوُحُوشَ - سِوَا الْفِيلَةِ - تَرِدُ الْبَطِيحَاتِ الَّتِي فِي أَعَالِي النَّيْلِ، وَتَسْتَنْتِجُ فِيهَا مَعَ كَثَرَةِ عَدَدِهَا لَشِدَّةَ الْحَرِّ هُنَاكَ، فَيَتَغَيَّرُ مَاءُ تِلْكَ الْبَطِيحَاتِ. فَإِذَا وَقَعَ الْمَطَرُ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ فِي أَوْقَاتِهِ عِنْدَهُمْ، تَكَاثَّرَتِ الشَّيُولُ حَيْثُ فِي

(a) بولاق: يحدثون. (b) بولاق: يحزن الغلة.

Hasan ibn Ibrāhīm ibn Zūlāq, JAOS 38 (1907), pp. 254-70; *Et*² art. *Ibn Zūlāq* III, p. 1003.

^١ المخزومي: المنهاج في أحكام الخراج - ج ٤٧ ط ١، ابن مسير: أخبار مصر ١٦٠، المقرئ: تماط الحنف ١: ١١٣٨. أمين فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٧.

^٢ الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المُنْتَحَبِي، مؤرخ مصري توفي سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، اشتهر بكتابه «أخبار مصر» الذي اشتمل على حوليات للخمسين عامًا الأولى من حكم الفاطميين في مصر. وهي مذكرات يومية للفترة التي عاصرها، لم يصل =

= المعروف بابن زولاق، مؤرخ مصري عاصر فتح الفاطميين لمصر وتوفي سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. بعد خبر من تكلم عن فترة حكم الفاطميين الأوائل في مصر، وألف عدة كتب في تاريخ مصر وخطوطها وسير حكامها، منها «تتممة كتاب أمراء مصر للكندي»، و«سيرة جوهر القائده» و«تاريخ أسرة الماذرائين» و«سيرة محمد بن طغج الإخشيد» و«سيرة للمز لدين الله» التي وقف عليها المقرئ بخطه ونقل عنها نقولاً مطولة في «الخطوط» و«تماط الحنف» (راجع، ياقوت: معجم الأدياء ٢٥٥: ٢٣٠ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ٩١ - ٩٢ الصندي: الوافي بالوفيات ١١: ٣٧٠، المقرئ: المغلف الكبير ٣: ٢٨٤ - ٢٨٦: A1- Gottheil, R.,

البطليحات ، فخرَج ما كان فيها من الماء الذي قد تَغَيَّرَ ومَرَّ إلى مصر ، وجاء عَقِيْبَه الماءُ الجَدِيدُ ، وهو الزيادةُ بمصر ، وحينئذٍ يكون الماءُ مُحْمَرًا لما يُخَالِطُهُ من الطُّينِ الحَرِّ الذي تأتي به السيولُ^١ .
فإذا تَنَاهَتْ زِيَادَتُهُ غَشِيَ أرضَ مصر ، قَتَصِرَ القُرَى التي في الأقاليم فوق التلال^٢ والزواحي وقد أحاطَ بها الماءُ ، فلا يُتَوَصَّلُ إليها إلَّا في المراكب ، أو من فَوْقِ الجُسُورِ الممتدة التي يُصَرَّفُ عليها -
إذا غُمِلَتْ كما يُبْنَى - رُبُعُ الحَرَّاج ، ليَحْفَظَ عند ذلك ماءَ الثيل حتى ينتهي رَيُّ كُلِّ مكانٍ إلى
الحدِّ المحتاج إليه .

فإذا تكامل رَيُّ ناحية من التواحي ، قَطَعَ أهلُها الجُسُورَ المحيطة بها من أَشْكِنَةِ مَرْوَفَةٍ عند خَوَلَةِ
البلاد ومشايعها في أوقاتٍ محدودة لا تَتَقَدَّمُ ولا تَتَأَخَّرُ عن أوقَاتِهَا المعتادة ، على حَسَبِ ما
يشهد به قَوَانِينُ كُلِّ ناحية من التواحي ، فتزوى كُلُّ جِهَةٍ مُأْمِلِيهَا ، مع ما يَجْتَمِعُ فيها من الماء
الْمُخْتَصَصِ . ولَوْلَا إِنْقَانُ ما هنالك من الجُسُورِ وخَفَرُ التَّرْعِ والمُلْجَاجِ ، لَقَلَّ الارتفاعُ بماءِ الثيل ، كما
قد جَزَى في زَمَانِنَا هذا .

وقد حَكِيكَ أَنَّهُ كان يُرَصَّدُ لِعِمَارَةِ جُسُورِ أَرْضِي مصر في كُلِّ سَنَةٍ ثُلُثُ الحَرَّاج ، لعنايتهم في
القَدِيمِ بها من أَجْلِ أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ على عَمَلِهَا رَيُّ البلاد الذي به مَصَالِحُ العِبَادِ . وستقف - إن شاء الله
تعالى - عن قَرِيبٍ على ما كان من أَعْمَالِ القُدَمَاءِ وَمَنْ بعدهم في ذلك .
وكان لِلْمِقْيَاسِ في الدُّولِ المُعَاصِرَةِ^٣ رُسُومٌ لِكُنْصِ مَجَارِي الماءِ ، خمسون دينارًا في كُلِّ سَنَةٍ ،
تُطْلَقُ لابن أبي الرِّوَادِ .

ذِكْرُ الجِسر الذي كان يُقْبَرُ عليه في الثيل

اعْلَمْ أَنَّهُ كان في الثيل جِسرٌ من سُقُنٍ فيما بين القُسْطَاطِ والجزيرة التي تُعرَفُ اليومَ بالزَوْضَةِ ،
وكان فيما بين الجزيرة والجزيرة أيضًا جِسرٌ ، في كُلِّ جِسرٍ منهما ثلاثون سَفِينَةً^٤ .

(١) الأصل : البلاد . (٢) بولاق : الدولة الفاطمية .

^١ انظر فيما تقدم ١٤٧ .

^٢ Fu'ad Sayyid A., La capitale de l'Égypte,

pp. 75-77 وفيما يلي ٣٤٢:١ و ١٧٠:٢ .

= إلينا منها سوى الجزء الأربعين من الكتاب بالإضافة إلى
قول مطولة أوردها المقرئ والمقرئ وعدد آخر من المؤرخين (انظر
للقدماء) .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مَاءِ النَّيْلِ مِنْ مَذَحٍ وَذَمٍّ

قال الرئيس أبو علي بن سينا^١ عفا الله عنه : وَقَوْمٌ يُغْرِطُونَ فِي مَذَحِ النَّيْلِ إِفْرَاطًا شَدِيدًا ، وَيَجْتَمِعُونَ مَحَامِدَهُ فِي أَرْبَعَةِ : بُعْدَ مَنَبَعِهِ ، وَطِيبَ مَسَلِكِهِ ، وَغُمْورَتِهِ ، وَأَخْذِهِ إِلَى الشَّمَالِ عَنْ الْجَنُوبِ ؛ فَأَخْذَهُ إِلَى الشَّمَالِ عَنْ الْجَنُوبِ مُلْطَفٌ لِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَمَّا غُمْورَتُهُ فَيُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ^٢.

قَالَ : فَأَفْضَلُ الْمِيَاهِ مِيَاهُ الْقِيُونَ ، وَلَا كُلُّ الْقِيُونَ ، وَلَكِنْ مِيَاهُ الْقِيُونَ الْحُرَّةُ الْأَرْضِ ، الَّتِي لَا يَغْلِبُ عَلَى تَرْبَتِهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْكَيفِيَّاتِ الْغَرِيبَةِ ، أَوْ تَكُونُ حَجَرِيَّةً / فَتَكُونُ أَوْلَى بِالْأَتَقْنِ الْعُقُوتَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، لَكِنْ الَّتِي هِيَ مِنْ طَبَقَةِ حُرَّةٍ خَيْرٌ مِنَ الْحَجَرِيَّةِ وَلَا كُلُّ عَيْنٍ حُرَّةٌ ، بَلِ الَّتِي هِيَ مَعَ ذَلِكَ جَارِيَّةٌ ، وَلَا كُلُّ جَارِيَّةٍ ، بَلِ الْجَارِيَّةُ الْمَكْشُوفَةُ لِلشَّمْسِ وَالرِّيَّاحِ ، وَأَنَّ هَذَا مِمَّا يُكْسِبُ الْجَارِيَّةَ فَضِيلَةً ، وَأَمَّا الرَّابِئَةُ فَوَجِبَ اكْتِسَابُهَا بِالْكَشْفِ زِدَادَةً لَا تَكْسِبُهَا بِالْقُورِ وَالْمَشْرِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمِيَاهَ الَّتِي تَكُونُ طَبَقَةً الْمَسِيلِ خَيْرٌ مِنَ الَّتِي تَجْرِي عَلَى الْأَشْجَارِ ، فَإِنَّ الطَّيْنَ يُتَقَيُّ الْمَاءَ وَيَأْخُذُ مِنْهُ الْمَغْزُوجَاتِ الْغَرِيبَةِ وَيُزَوِّقُهُ ، وَالْحِجَارَةُ لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ ، لَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ طَيْنٌ مَسِيلُهُ حُرًّا ، لَا حَصَاةً وَلَا سَبْعَةً ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ . فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ كَانَ هَذَا الْمَاءُ غَمْرًا شَدِيدَ الْجَرِيَّةِ ، تَحْمِلُ بِكَثْرَةٍ مَا يُخَالِطُهُ إِلَى طَبَقَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ يَأْخُذُ إِلَى الشَّمْسِ فِي جَزِيرَانِهِ فَيَجْرِي إِلَى الْمَشْرِقِ وَخُصُوصًا إِلَى الصُّبْحِيِّ مِنْهُ ، فَهُوَ أَفْضَلُ ، لِأَسْبَابٍ إِذَا بُعِدَ جَدًّا مِنْ مَبْدَأِهِ^٣ . ثُمَّ مَاءٌ يَتَوَجَّهُ إِلَى الشَّمَالِ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَى الْمَغْرِبِ وَالْجَنُوبِ رَدِيءٌ ، خُصُوصًا عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ الْجَنُوبِ . وَالَّذِي

(a) بولاق : مبداه .

الصفدي : الرازي ٣٩١:١٢ - ٤١٢ ، وبمناسبة الاحتفال بألفية ابن سينا ظهرت العديد من الدراسات عن حياته ومؤلفاته ، انظر على الأخص جورج شحاتة قناتي : مؤلفات ابن سينا ، القاهرة ١٩٥٠ ومقال جواشون . Goichon, A., M., *El art. Ibn Sina* (III), pp. 965-72.

^٢ ابن سينا : القانون في الطب ، تحقيق إدوارد المقش ، بيروت ، مؤسسة عز الدين ١٣٤٤:١.

^١ الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن سينا ، من أكبر علماء العرب والإسلام . كان طبيباً وفيلسوفاً ومنطقياً ، عرفه الأوروبيون باسم Avicenne . وكانت مؤلفاته - وعلى الأخص القانون في الطب - من أوائل الكتب التي طبعت في أوروبا ، وتوفي سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م . (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢:٢ - ٢٠ : ابن خلكان : وفيات ١٥٧:٢ - ١٦٢ : الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٧:١٧ - ٥٣٧)

يَنَحْدَرُ مِنْ مَوَاضِعَ عَالِيَةٍ مَعَ سَائِرِ الْفَضْلِ أَفْضَلُ ، وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الصُّفَةِ كَانَ عَذْبًا يُخَيَّلُ أَنَّهُ حُلْوٌ ، وَلَا يَحْتَمِلُ الْحَمَرُ إِذَا فُزِجَ بِهِ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكَانَ خَفِيفَ الْوِزْنِ سَرِيعَ الْبُرْدِ وَالتَّشْخِيحِ لِقَحْلُخْلِهِ ، بَارِدًا فِي الشَّتَاءِ ، حَارًّا فِي الصَّيْفِ ، لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ طَعْمُ أَلْبَنَةٍ وَلَا رَائِحَةُ ، وَيَكُونُ سَرِيعَ الْإِنْجِدَارِ مِنَ الشَّرَاسِيفِ ^١ ، سَرِيعًا لَهْوِي مَا يُهْرِي فِيهِ ، وَطَيِّخٌ مَا يُطْبَخُ فِيهِ ^٢ .

- قَالَ الرَّئِيسُ عَلَاءُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْحَرَمِ بْنِ تَقِيسٍ ^٣ فِي «شَرْحِ الْقَانُونِ» : هَذِهِ الْحَامِيدُ الَّتِي ذَكَرَهَا لَيْسَتْ غَلَامَاتٌ لِلْحَمْدِ ، بَلْ هِيَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجِبَةِ لَكُونِهِ مَحْمُودًا . وَأَخَذَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ يُعَدُّ مَنَبِعَهُ ، وَقَدْ يَبِينُ أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَطَافَةَ الْمَاءِ بِسَبَبِ كَثَرَةِ حَرَكَتِهِ ^٤ .

- وَالْعَلَمُ أَنَّ مَنَبَعَ الثَّلِيلِ مِنْ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جَبَلُ الْقَمَرِ ، وَهَذَا الْجَبَلُ وَرَاءَ خَطِّ الْاِسْتِواءِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِمَّا بِهِ أَعْظَمُ دَائِرَةٍ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثَ مِائَةِ دَرَجَةٍ وَسِتِينَ . وَابْتِدَاءُ هَذَا الْجَبَلِ مِنَ السَّادِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنْ أَوَّلِ الْيَمَارَةِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَآخِرُهُ عِنْدَ آخِرِ إِحْدَى وَسِتِينَ دَرَجَةً وَخَمْسِينَ دَقِيقَةً ، فَيَكُونُ امْتِدَادُ هَذَا الْجَبَلِ مِقْدَارَ خَمْسِ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً مِمَّا بِهِ أَعْظَمُ دَائِرَةٍ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثَ مِائَةِ وَسِتُونَ دَرَجَةً .
- وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرَةُ أَنْهَارٍ مِنْ أَغْنِي فِيهِ ، تَزْمِي كُلَّ خَمْسَةِ مِنْهَا إِلَى بُحَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ مُدَوَّرَةٍ ؛ وَإِحْدَى هَاتَيْنِ الْبُحَيْرَتَيْنِ مَرْكَزُهَا ، حَيْثُ الْبُقْعُودُ مِنْ ابْتِدَاءِ الْيَمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ ، خَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَالْبُقْعُودُ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِواءِ فِي الْجَنُوبِ سَبْعَ دَرَجٍ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً . وَمَرْكَزُ الثَّانِيَةِ ١٥ حَيْثُ الْبُقْعُودُ عَنْ أَوَّلِ الْيَمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ سَبْعَ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَحَيْثُ الْبُقْعُودُ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِواءِ فِي الْجَنُوبِ سَبْعَ دَرَجٍ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً .

توفى بها سنة ١٢٨٧/هـ ١٢٨٩م (راجع، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٣٠٥-٣٠٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢: ١٢٤٩؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٣٧٧؛ أحمد عيسى: معجم الأطباء ٢٩٢-٢٩٦؛ مقدمات يوسف زيدان لمؤلفات ابن النفيس وعلى الأخص المختصر في علم أصول الحديث ورسالة الأعضاء (القاهرة ١٩٩١)؛ Schacht, J., *El² art. Ibn al-Nafis* III pp. 921-22.

^٤ لم ينشر «شرح القانون» لابن النفيس، وما نشر كتاب «شرح تشریح القانون» بحقيق سليمان قطاية، القاهرة ١٩٨٨.

^١ شرسوف جد شراسيف: غضروف معلق بكل ضلع أو مقل الضلع وهو الطرف المشرف على البطن.

^٢ ابن سينا: القانون في الطب ١: ١٣٣.

^٣ علاء الدين علي بن أبي الحرّم القرشي الدمشقي الشافعي المعروف بابن التقيس رئيس أطباء مصر، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم، مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وصاحب المؤلفات الطبية الهامة ومنها: الشامل في الطب وشرح القانون لابن سينا وشرح فصول أبراط وغيرها، ونظرًا لأنه لم يتزوج فقد وقف داره وأملاكه ومكتبته على الممارستان المنصوري بالقاهرة التي

وهاتان البحيرتان متساويتان، وقطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج، ويخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار، ترمي إلى بحيرة صغيرة مدورة في الإقليم الأول، يُعد مركزها عن أول العمار بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأول، ومقدار قطرها درجتان.

ويصب كل واحد من الأنهار الثمانية في هذه البحيرة نهرًا واحدًا منها^٥ وهو نيل مصر، ويؤيد بلاد النوبة^(ب) ويصب إليه^(ب) نهر آخر، يُتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء كبيرة مستديرة، مقدار قطرها ثلاث درج، ويُعد مركزها من أول العمار بالمغرب إحدى وسبعون درجة. ويلقي نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أول العمار بالمغرب ثلاث وأربعون^(ب) درجة وأربعون^(ب) دقيقة.

وإذا تعدى النيل مدينة مصر إلى بلد يُقال له شطونف^١، يُفروق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح: أحدهما يُعرف ببحر رشيد، ومنه يكون خليج الإسكندرية. وثانيهما يُعرف ببحر دمياط، وهذا البحر إذا وصل إلى المنصورة تفرع منه نهر يُعرف ببحر أشمون يرمي إلى بحيرة هناك، وباقيه يرمي إلى البحر المالح عند دمياط^٢.

وزيادة ماء^٣ النيل هي من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة، والله أعلم.

واعلم أن الوزن من المستورات المتجمعة^٤ من حال الماء، فإن الأخف في أكثر الأحوال أفضل. فهذا ما ذكره الرئيس ابن سينا من صفات المياه الفاضلة، واعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع في ماء النيل.

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: المتخيه.

الهجري/السادس عشر الميلادي وبعد ذلك اتصلت جزيرة درزة بأرض شطونف فأصبح رأس الدلتا عند القناطر الخيرية الواقعة في الجهة الجنوبية من أراضي ناحية درزة، وفي سنة ١٩١٠ اتصلت جزيرة الشعير - الواقعة وسط النيل - من جهتها البحرية بأراضي درزة فأصبح رأس الدلتا واقعًا جنوبي القناطر الخيرية وعلى بعد كيلومترين منها (محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ١٩٦٢: ٢/٢-١٩٦٣).

^٢ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٥٢.

^١ شطونف (أو شطأونف). من القرى القديمة كانت تقع في العصر الإسلامي المبكر على رأس الدلتا، يقول الإدريسي في حديثه عن قرية زليقة: «وهذه القرية تعاقب مدينة شطونف التي على رأس الخليج الذي ينزل إلى نيس ودمياط. وفي أعلى شطونف ينقسم النيل على قسمين ينزلان إلى أسفل ويتصلان بالبحر (نزهة المشتاق ٣٣٠-٣٣١ وانظر كذلك ياقوت: معجم البلدان ٣: ٣٤٤-٣٤٥ وفيما يلي ٢١٥: ١).

وهي الآن إحدى قرى مركز أشمون بمحافظة المنوفية، كانت رأس الدلتا تنتهي عندها إلى منتصف القرن العاشر

فَأَوَّلُهُ أَنَّ مَاءَ النَّيْلِ عَيْنٌ تَمُرُّ عَلَى أَرْضِي حُرَّةٍ ، وَلَا يَغْلِبُ عَلَى ثَرْوَةٍ مَا يَمُرُّ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْكَفَافِيَّاتِ الرَّدِيَّةِ ، كَمَعَادِنِ الثَّقَلِ وَالشَّبِّ وَالْأَمْلاحِ وَالْكَبَارِيَّتِ وَنَحْوِهَا ، بَلْ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ النَّيْلِ الَّتِي تُثَبَّتِ الدَّهَبُ ، بِدَلِيلٍ مَا يَظْهَرُ فِي الشُّطُوطِ مِنْ قُرَاضَاتِ الدَّهَبِ . وَقَدْ عَاتَى جَمَاعَةٌ تَصْوِيلَ الدَّهَبِ مِنَ الزُّقْلِ الْمَأْخُودِ مِنْ شُطُوطِ النَّيْلِ ، فَرَبِحُوا مِنْهُ مَالًا . وَفَضِيلَةُ كَوْنِ الدَّهَبِ فِي الْمَاءِ لَا تُتَكَرَّرُ . الثَّانِي : أَنَّ النَّيْلَ فِي جَرِيَانِهِ أَيْدًا مَكْشُوفٌ لِلشَّمْسِ وَالرِّيحِ . الثَّلَاثُ : أَنَّ طِينَهُ مِنْ طِينِ تَمْسِيلٍ مِنْ مِيَاهِ مَجْتَمِعَةٍ مِنْ أَمْطَارٍ تَمُرُّ عَلَى أَرْضِ حُرَّةٍ ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ عِطْرِيَّةِ زَوَائِحِ الطِّينِ إِذَا نَذَّيْتُهُ بِمَاءِ . الرَّابِعُ : غَمُورَةُ مَاءِ النَّيْلِ وَشِدَّةُ جَرِيَّتِهِ الَّتِي تَكَادُ تَقْصِفُ الْعُمْدَ إِذَا اغْتَرَضَتْهَا ، وَتَذْفَعُ الْأَثْقَالَ الْعَظِيمَةَ إِذَا عَازَضَتْهَا . الْخَامِسُ : يُعْدُّ مَبْدَأُ خُرُوجِهِ مِنْ مَصْبِهِ فِي النَّيْحِ الْمَالِحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ / مِنْ طَوْلِ مَسَافَتِهِ مَا لَا نَجْدُهُ فِي نَهَرٍ غَيْرِهِ مِنْ أَنْهَارِ الْمَعْمُورِ . السَّادِسُ : انْجِدَارُهُ مِنْ غُلُوٍّ ، فَإِنَّ الْجَنُوبَ مُرْتَفِعٌ عَنِ الشَّمَالِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا صَارَ إِلَى الْجَنَادِلِ انْحِطَّ مِنْ أَغْلَى جَبَلٍ مُرْتَفِعٍ إِلَى وَادِي مِصْرَ .

وَذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ ، حِينَ سَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَثَلِهِ بِيَسَّةٍ^(١) ، فَذَكَرَهُ إِلَى أَنْ قَالَ : وَمَاؤُنَا يَجْمَعُ^(٢) ، أَيُّ يَجْرِي مِنْ غُلُوٍّ^(٣) ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «خَيْرُ الْمَاءِ الشَّيْمُ» أَيُّ مَا كَانَ ظَاهِرًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . وَالشَّيْمُ الْمَاءُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَا شَيْئًا فَقَدْ تَسَنَّهَ ، مَاخُودٌ مِنْ سَنَامِ الْبَعِيرِ لَعْلُوهُ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [آيَةُ ٢٧ سُورَةِ الْمُطَفِّينِ] : أَيُّ يُمَزَّجُ بِمَا يَنْزِلُ مِنْ غُلُوٍّ^(٤) .

الشَّابِعُ : أَنَّهُ يَمُرُّ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، فَتَسْتَقْبِلُهُ رِيحُ الشَّمَالِ الطَّيِّبَةِ دَائِمًا . الثَّامِنُ : يَخِفُّهُ فِي الزُّوْنِ ، وَقَدْ اغْتَبَرُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْمِيَاهِ فَخَفَّ عَنْهَا فِي الْوِزْنِ .

التَّاسِعُ : عُذُوبَةُ طَعْمِهِ ، وَحُسْنُ أَثَرِهِ فِي هَضْمِ الْغِذَاءِ ، وَإِخْدَارُهُ عَنِ الْمَعِدَةِ ، بِحَيْثُ إِنَّهُ يُخْدِثُ بَعْدَ شُرْبِهِ مَجْشَاءً .

وهذه صفات ، إن كنت ممن مازس العلم الطبيعي وعرف الطب ، فإنه يعظم عندك قدر ماء النيل ، وتبين لك غرارة نفعه وكثرة محاسنه .

(a) هذه الفقرة وردت في بولاق في غير موضعها بسبب عدم دقة نقل الطيارات التي أضافها المقرئ في مواضعها الصحيحة . (b) بولاق : بيلسية . (c) بولاق : يمتنع . (d) في غريب الحديث : أي يسيل من علو .

^١ يشة قرية باليمن بينها وبين تبالة أربع وعشرون ميلًا معجم البلدان ٥٢٩:١ .

^٢ ابن قتيبة : غريب الحديث ٥٤٢:١ ، ٥٤٣ . وهي في وادي يصب سيله من حجاز الطائف (باقوت :

ويُقال : إِنَّ ذَا الْقَوْنَيْنِ كَتَبَ كِتَابًا فِيهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا ، فَضَعْنَهُ كُلُّ أُعْجُوبَةٍ ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ : «وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ ، بَلِ الْعَجِيبُ نَيْلُ مِصْرٍ» .

وقال بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : لَوْلَا مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي نَيْلِ مِصْرٍ مِنْ حِكْمَةِ الزِّيَادَةِ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ عَلَى التَّذْرِيجِ ، حَتَّى يَتَكَامَلَ رِجِّي الْبِلَادِ وَهُبُوطُ الْمَاءِ عَنْهَا عِنْدَ بَدْءِ الزَّرَاعَةِ ، لَفَسَدَ إِقْلِيمُ مِصْرٍ وَتَقَلَّرَ سُكْنَاهُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَفْطَارٌ كَافِيَةٌ ، وَلَا غُبُونٌ جَارِيَةٌ تَغْمُ أَرْضَهُ ، إِلَّا بَعْضُ إِقْلِيمِ الْقَيُْومِ .
ولله دُرُّ الْقَائِلِ :

[الكامل]

وَاهَا لِهَذَا الثَّيْلِ أَتْيٌ عَجِيبَةٌ يَكُرُّ بِمِثْلِ حَدِيثِهَا لَا يُشْتَمَعُ
يَلْقَى الثَّرَى فِي الْعَامِ وَهُوَ مُسَلَّمٌ حَتَّى إِذَا مَا مَلَّ عَادَ يُؤَدَّغُ
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْهِلَالِ فَذَهْرُهُ أَبَدًا يَزِيدُ كَمَا يُزِيدُ وَيَزْجَعُ

١٠

وقال آخر :

[الولل]

كَأَنَّ الثَّيْلَ ذُو قَهْمٍ وَلُبٍّ لَمَّا يَبْدُو لَعِينُ النَّاسِ مِنْهُ
فَتَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَيَقْضِي حِينَ يَسْتَعْتُونَ عَنْهُ
وقال تميم بن الميزان^١ :

١٥

[الكامل]

يَزُومُ لَنَا بِالْثَّيْلِ مُخْتَصَرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرُةٌ قِصَرُ
وَالشَّفْنُ تَجْرِي كَالْخَبُولِ بِنَا صُغْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْخَدِرُ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَالُجُهُ عَكْرُ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرْرُ
وقال أيضًا^٢ :

٢٠

[الجبث]

أَمَّا تَرَى الرُّغْدَ بَكَى وَاشْتَكَى وَالْبَرِيقُ قَدْ أَوْمَضَ وَاشْتَضَحَا
فَانْشَرَبَ عَلَى غَنَمٍ كَصَبِغِ الدُّجَى أَضْحَكَ وَجْهَ الْأَرْضِ لَمَّا بَكَى
وَانْظُرْ لِمَاءِ الثَّيْلِ فِي مَدَّةٍ كَأَنَّمَا صُنْدِيلٌ أَوْ مُسْكَا
وقال آخر :

٢٥

[الطليل]

والله شجري الثَّيْلُ مِنْهُ إِذَا الصَّبَا أَرْتَنَا بِهِ مِنْ بَرِّهَا عَشْكِرَا بِحِرَا

^١ ديوان تميم بن الميزان ٢٤١ .^٢ نفسه ٣٠٤ .

فَشَطَّ نَهْرُ الشَّهْرِيةِ ذَبَالًا وَمَوْجُ نَهْرِ الْبَيْضِ هندية بِهرا
إِذَا مَرَّ حَاكِي الزُّودِ غَضًّا وَإِنْ صَفَا حَاكِي مَاءِهِ لَوْنًا وَلَوْ بَعْدَهُ مَرًّا
وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزِيرِ فِي تَذْرِيجِ زِيَادَةِ الثَّلِيلِ وَعِظَمِ مَنَفَعَتِهِ :

[الوافر]

أَرَى أَبَدًا كَثِيرًا مِنْ قَلِيلٍ وَبَدْرًا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ هِلَالٍ
فَلَا تَعْجَبْ فَنُكِّلَ خَلِيجَ مَاءٍ بِمَضْرٍ مَسِيبَ بِخَلِيجِ مَالٍ
زِيَادَةُ أَصْبَعٍ فِي كُلِّ نَوْمٍ زِيَادَةُ أَذْرُعٍ فِي مَحْمَنٍ خَالٍ
وَقَالَ الشَّهَابُ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمَرِيُّ^١ :

[الرجز]

لِيَضْرَ قُضْلٌ بِإِهْرٍ لِيَعْبِثَهَا الرُّغْدُ الْخَضِيرُ
فِي سَفْحِ رَوْضٍ يَلْتَقِي مَاءُ الْحَيَاةِ وَالْخَبِيرِ
/وَقَالَ ابْنُ قَلَّاسٍ^٢ :

[البيسط]

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ فَوْقَ الثَّلِيلِ غَارِبَةً وَانْظُرْ^٣ لَمَّا بَعْدَهَا مِنْ مَحْمَرَةِ الشُّفَنِ
غَابَتْ وَأَلْقَتْ شِعَاعًا مِنْهُ يَخْلُقُهَا كَأَنَّمَا^٤ اخْتَرَقَتْ بِالْمَاءِ فِي الْفَرْقِ
وَلِلْهِلَالِ فَهَاهُنَا^٥ وَاقِيَ لِيَتَقَدَّهَا فِي إِثْرِهَا زَوْزُقٌ قَدْ صَبِغَ مِنْ وَرَقِ
وَقَالَ نَشْوُ^٦ الْمَلِكِ ابْنِ الْمُتَنَجِّمِ :

[البيسط]

يَا رَبِّ سَامِيَةٍ فِي الْجَوْ قَعَتْ بِهَا أَمَدٌ طَوْفِي فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَفْقِ
حَيْثُ الْعَشِيَّةُ فِي التَّجْدِيلِ مَمْرُكُ إِذَا رَأَاهَا جَبَانًا مَاتَ لِلْفَرْقِ
لِلشَّمْسِ غَارِبَةً ، لِلْقُرْبِ ذَاهِبَةً ، بِالثَّلِيلِ مُصْفَرَّةً ، مِنْ هَجْمَةِ الْغَسَقِ
وَلِلْهِلَالِ انْخِطَافٌ كَالسَّنَانِ بَدَا مِنْ سُورَةِ الطُّغْيَانِ مَلَقَى فِي دَمِ الشُّفَنِ

قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ : وَأَمَّا الثَّلِيلُ فَقَدْ مَلَأَ الْبِقَاعَ ، وَانْتَقَلَ مِنَ الْأَصْبَعِ إِلَى الذَّرَاعِ ،
فَكَأَنَّمَا غَارَ عَلَى الْأَرْضِ فَقَطَّاهَا ، وَأَعَارَ عَلَيْهَا فَاسْتَقْعَدَهَا وَمَا تَخَطَّاهَا ، فَمَا يُوجَدُ بِمَصْرِ

(a) الديوان والصفدي : واحجب . (b) الديوان والصفدي : كأنها . (c) الديوان : فهل . (d) بولاق : بشر .

^١ ابن فضل الله العمري : مسائل الأبعاد (مالك مصر والشام) ٩٦ ، أبو الهامسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥٢ ،
وفيما يلي ١ : ٣٧٠ .
^٢ ديوان ابن قلايس ٤٤٧٧ : الصفدي : الوافي =

قاطِع طريق سواه ، ولا مَرْغُوب مَرْهُوب إِلَّا إِيَّاه .

ونيل مصر مُخَالِفٌ في جُزْئِهِ لغالب الأنهار ، فَإِنَّهُ يجري من الجَنُوب إلى الشَّمال ، وغيره لَيْسَ كذلك ، إِلَّا نَهْران فَإِنَّهُمَا يَجْرِيان كما يَجْرِي النِّيل ، وهما نَهْر مَهْران بالسُّند ، ونَهْر الأَرَنْط - وهو الذي يُعرف اليوم بنَهْر العاصي - في حِمَاة ؛ إحدى مَدَائِن الشَّام .

وقد عاب ماء النِّيل قومٌ ، قال أبو بكر بن وَحْشِيَّة^١ في كتاب «الفِلاحة النُّبَطِيَّة» : وأما ماء النِّيل ، فَمَخْرَجُهُ من جِبَالٍ وَرَاءَ بلاد السودان يُقال لها جِبَال القَمَر ؛ وخِلَاقَتُهُ وزيادَتُهُ بِدَلَّانٍ على مَوْقِعِهِ من الشَّمْسِ أَنَّهَا أَخْرَقَتْهُ لا كُلَّ الإِخْرَاق ، بل أَشَحَّتْهُ إِسْحَابًا طَوِيلًا لَيْثًا ، لا تُزْعِجُهُ الحَرَارَةُ ولا تَقْوِي عَلَيْهِ ، بحيث تُبْرَدُ أَجْزَاؤُهُ الرُّطْبَةُ وتُتَبَقَّى أَجْزَاؤُهُ الرَّايِسَةُ ، بل يَحْتَدِلُ عَلَيْهِ ؛ فَصَارَ مَأْوُهُ لذلِكَ حُلُولًا جَدًّا ، وصَارَ كَثْرَةُ شُرْبِهِ يُغْفِنُ البَدَنَ ويُخَدِّثُ البُثُورَ والدَّمَامِيلَ والقُرُوحَ ، وصَارَ أَهْلُ مصر الشَّارِبُونَ مِنْهُ دَمَوَتَيْنِ مُحْتَاجِينَ إِلَى اسْتِغْرَاقِ الدَّمِ عَنْ أَبْدَانِهِمْ فِي كُلِّ مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ . فَمَنْ كَانَ عَالِمًا مِنْهُمْ بالطَّبِيعَةِ ، فهو يُحَسِّنُ مُدَاوَاةَ نَفْسِهِ حَتَّى يَذْفَعَ عَنْ جِسْمِهِ ضَرَرَ ماءِ النِّيل ، وَإِلَّا فهو يَقَعُ فيما ذَكَرْنَا مِنَ العُقُومَاتِ وَائْتِشَارِ البُثْرِ والدَّمَامِيلِ [على البَدَنِ]^٢ . وذلك أَنَّ هذا الماءَ نَاقِصُ البَرْدِ عن سائرِ المِياهِ ، قد صَبَّرَ لَهُ الطَّبِيعُ قَوَامًا هو أَثَقَنُ مِنْ قَوَامِ الماءِ ، فَصَارَ إِذَا خَالَطَ الطَّعَامَ فِي الأَبْدَانِ كَثُرَ فِيهَا الفُضُولُ الرُّودِيَّةُ العَفِيتَةُ ، فيُخَدِّثُ مِنْ ذَلِكَ ما ذَكَرْنَاهُ .

وَدَوَاءُ أَهْلِ مصر الذي يَذْفَعُ عَنْهُمْ ضَرَرَ ماءِ النِّيلِ إِذْمانُ شُرْبِ رُبُوبِ الفايكَةِ الحامِضَةِ القابِضَةِ ، وأُخذَ الأدويةُ المُسْتَقْرِغَةُ لِلْفُضُولِ . ولو زادتِ حَرَارَةُ الشَّمْسِ على ماءِ النِّيلِ وطَالَ طَبْحُهَا لَهُ لَصَارَ مَالِحًا بِمَنْزِلَةِ ماءِ البَحْرِ الرَّايِكَةِ التي لا حَرَكَةَ لَهَا إِلَّا وَقْتُ جُزْرِ البَحْرِ وهُبُوبِ الرِّيحِ . وهو أَوقَفُ لِلزُّرُوعِ وَالْمَنَابِتِ مِنَ الحَيَوَانِ^٣ .

(a) زيادة من ابن وحشية .

المعروف المتوفى نحو سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م . وأهم مؤلفات ابن

وحشية كتابه «الفِلاحة النُّبَطِيَّة» الذي ينقل عنه المقرئ هنا وفي مواضع أخرى قادمة (Fahd, T., *El*² art. *Ibn*) (Wahshiyya III, pp. 988-90).

^٢ ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١٠٤-١٠٥ .

= بالوفيات ٢٧ : ٣١ .

^١ أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكندي المعروف بابن وَحْشِيَّة ، ومعلوماتنا عنه قليلة جدًا ، أملى أغلب مؤلفاته على كاتبه أبي طالب أحمد بن الحسين بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الملك الزُّبَيَات أحد أحفاد الوزير العباسي

وقال ابنُ رِضْوَانٍ: والثَّلِثُ يَمُرُّ بِأَتَمِّ كَثِيرَةٍ مِنَ الشُّوْدَانِ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَقَدْ غَسَلَ مَا فِي بِلَادِ الشُّوْدَانِ مِنَ الْعُقُونَاتِ وَالْأَوْسَاحِ، وَيَتَشَقُّ مَازًا بِوَسَطِ أَرْضِ مِصْرَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، إِلَى أَنْ يَصُفَّ فِي بَحْرِ الرُّومِ. وَمَبْدَأُ زِيَادَةِ هَذَا النَّهْرِ^(٥) فِي فَضْلِ الصَّيْفِ، وَتَنْتَهِي زِيَادَتُهُ فِي فَضْلِ الْحَرِيفِ وَيَرْتَقِي فِي الْجَوْ مِنْهُ فِي أَوْقَاتِ مَدَّةِ رُطُوبَاتِ كَثِيرَةٍ بِالتَّحْلِيلِ الْخَفِيِّ، فَيَرْطَبُ ذَلِكَ ثِيَسَ الصَّيْفِ وَالْحَرِيفِ.

وَإِذَا مَدَّ النَّهْرُ فَاصَّ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ فَغَسَلَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَوْسَاحِ - نَحْوِ جَيْفِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَزْيَالِهَا، وَفُضُولِ الْأَجَامِ وَالنَّبَاتِ وَمِيَاهِ النَّقَائِعِ^(٦) - وَأَخَذَرَ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَهُ، وَخَالَطَهُ مِنْ تُرَابِ هَذِهِ الْأَرْضِ وَطِينِهَا مِقْدَارًا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ سَخَاغَتِهَا، وَبَاضَ فِيهِ مِنَ السَّمَكِ الَّذِي تَرْتَبِي فِيهِ وَفِي مِيَاهِ النَّقَائِعِ.

١٠ وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ تَرَاهُ فِي أَوَّلِ مَدَّةِ يَخْضُرُ لَوْنُهُ بِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنْ مِيَاهِ النَّقَائِعِ الْعَفِيفَةِ الَّتِي قَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا الْفَرْطُضُ وَالطُّخْلَبُ، وَاخْضَرَّ لَوْنُهَا مِنْ عَفْفِهَا، ثُمَّ يَتَعَكَّرُ حَتَّى يَصِيرَ آخِرَ أَفْرِهِ مِثْلَ الْحَمَاءِ، وَإِذَا صَفَا اجْتَمَعَ مِنْهُ فِي الْإِنَاءِ طَبَقٌ كَثِيرٌ وَرُطُوبَةٌ لَرِجَةٍ لَهَا شَهْوَةٌ وَرَائِحَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، وَهَذَا مِنْ أَزْكَدِ الْأَشْيَاءِ فِي ظُهُورِ رَدَاةِ هَذَا الْمَاءِ وَعَفْفِهِ. وَقَدْ يَمُنُّ أَفُقْرَاطُ وَجَالِينُوسُ أَنَّ أَسْرَعَ الْمِيَاهِ إِلَى الْعَفْنِ مَا لَطَفَتْهُ الشَّمْسُ بِمِيَاهِ الْأَمْطَارِ.

١٥ وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الْمَاءِ أَنْ يَصِلَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَهُوَ فِي الْغَايَةِ مِنَ اللَّطَافَةِ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ بِلَادِ الشُّوْدَانِ، فَإِذَا اخْتَلَطَ بِهِ عُقُونَاتُ أَرْضِ مِصْرَ زَادَ ذَلِكَ فِي اسْتِحَالَاتِهِ، وَلِذَلِكَ يَتَوَلَّدُ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ السَّمَكِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا، فَإِنَّ فُضُولَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ وَعُقُوتَهُ هَذَا الْمَاءِ وَيَتَضَّ السَّمَكُ بِصِيرِ جَمِيعِهَا مَوَادَّ فِي تَكْوُنِ هَذِهِ الْأَشْمَاكِ كَمَا قَالَ أَرِسْطُاطَالِيسُ فِي كِتَابِ «الْحَيَوَانَ».

وَذَلِكَ شَيْءٌ ظَاهِرٌ لِلْجِسِّ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَعَفَّنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ عُقُوتِهِ الْحَيَوَانَ، وَلِهَذَا صَارَ مَا يَتَوَلَّدُ مِنَ الدُّودِ وَالْفَأْرِ وَالنَّمَلِ وَالْعَقَّارِبِ وَالزَّنَائِيرِ وَالذُّبَابِ وَغَيْرِهَا بِأَرْضِ مِصْرَ كَثِيرًا. فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ الْمَوَاجِ الْغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ الْحَرَارَةُ / وَالرُّطُوبَةُ الْفَضِيلَةُ، وَأَنَّهَا ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ هَوَاءَهَا وَمَاءَهَا رَدِيهَانٌ^١.

(٥) بولاق: زيادته. (٦) الأصل وبولاق: النقاع والتصويب من ابن رِضْوَانٍ.

^١ ابن رِضْوَانٍ: دفع مضار الأبدان ١١٤-١١٦.

وربما انقطع الثيل في آخر الربيع وأول الصيف من جهة المُشطاط، فيغفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يُلغ غفته إلى أن يصير له رائحة منكزة مَحسوسة. وظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحالة غيّر مزاج الناس تَغْيِيرًا مَحسوسًا.

وينبغي أن يُستقى ماء الثيل من الموضع الذي فيه جزؤه أشدّ والغفوة فيه أقلّ^١. ويصفى كلّ إنسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه: أما المحمّورون في أيام الصيف فبالطباشير والطين الأزمنّي والمفزة والثبيق الموضوض والزفرور الموضوض والحلل، وأما الميزودون في أيام الشتاء فباللوز المر وداعيل نوى المشمش والصغتر والشب.

وينبغي أن يُقطّف^٢ ما يروق ويُشرب، وإن شئت أن تُصفّيه بأن تجعله في آنية الخزف والفخار والجلود [تأخذ]^٣ ما تمّصل من ذلك بالرشح، وإن شئت طبخته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق، ثم قَطَطْت^٤ منه ما يروق واشتغلت به. وإذا ظهرت فيه كَيَفِيّات رَدِيّات فاطبخه بالنار، ثم يَزِدْه تحت السماء في برودة الليل، وصفّه بأخلاط الأدوية التي ذَكَرْتَهَا.

وأجود ما اتّخذ هذا الماء أن يُصفّى مرارًا، وذلك بأن تُسَخِّنْهُ أو تُطَبِّخْهُ، ثم تُبَرِّدْهُ في هواء الليل، وتقطّف ما يروق منه، تُصَفِّيه أيضًا ببعض الأدوية، ثم تأخذ ما يروق فتجعله في آنية تمّصل في برد الليل، وتأخذ الرشح فتشربه.

واجعل آنية هذا الماء في الصيف الخزف والفخار المعمولين في طوبة، والظروف الحجرية والقرب ونحوها ممّا يبرّد، وفي الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يُغتمل في الصيف من الفخار والخزف. ويكون موضعه في الصيف تحت الأشراب وفي مخاريق ريح الشمال، وفي الشتاء بالمواضع الحارة.

ويُزِدْ في الصيف بأن يُخلط معه ماء الورد، وتؤخذ خِرْقَة نظيفة، وتشدّ فيها طباشير أو بزر^٥ رجلة أو حشخاش أبيض أو طين أزمنّي أو مفزة، ويلقى فيه كيما يأخذ من بردها ولا يُخالطه جسمها، وتُغَسَّلْ ظروقه^٦ في الصيف بالخزف المذقوق وبذيق الشعير والباقلاء والصندل، وفي الشتاء بالأشنان والسند، ويُسَخَّر بالمُصْطَكِي والغود.

(a) الأصل وبولاق: ينطف، والثبت من ابن رضوان. (b) زيادة من ابن رضوان. (c) بولاق: نطفت. (d) الأصل وبولاق: وبزر والتصويب من ابن رضوان. (e) ابن رضوان: أوجيته.

وأزدا ما يكون ماء الثَّيْلِ بمصر عند قَيْضِهِ ، وعند وَقُوفِ حَرَكَته ، فعند ذلك يُتَّبَعِي أَنْ يُطْبَخَ وَيُأَلَّغَ فِي تَضْفِيفَتِهِ بَقْلُوبَ نَوَى المَشْمَشِ ، وسَائِرِ مَا يَقْطَعُ لَزُوجَتِهِ .

وأَجُودُ ما يكون في طُوبَةِ عند تَكَامُلِ البُودِ ، ومن أَجْلِ هذا عَرَفَ^(أ) المَصْرِيُّونَ بِالشَّجَرَةِ أَنَّ ماءَ طُوبَةِ أَجُودَ المِاءِ ، حتى صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْزِنُهُ فِي القَوَارِيرِ الزُّجَاجِ والصُّيْنِيِّ ، وَيُشْرِبُهُ الشَّتَةَ كُلَّهَا ، وَيُزَعِّمُ أَنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ ، وصَارُوا أَيْضًا لَا يُصَفُّونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَطَنُومِهِ أَنَّهُ عَلَى غَايَةِ الخَلَّاصِ . وَأَمَّا أَنْتَ فَلَا تَسْكُنْ إِلَى ذَلِكَ ، وَصَفِّهِ عَلَى أَيْ حَالَةٍ كَانَ ، فإِذَا خُزِنَ لَا بَدَّ أَنْ يَتَغَيَّرَ^١ .

فهَذَا ما عِنْدِي مِنْ دَمِّ ماءِ الثَّيْلِ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ المَاءَ تَتَغَيَّرُ كَيْفِيَّتُهُ بِمَا يَمُورُ عَلَيْهِ لَا أَنَّ ذَاتَهُ زَيْدِيَّةٌ . فَلَا يَهْوُلُكَ مَا تَسْمَعُ ، فَمَا الْأَمْرُ إِلَّا مَا قُلْتُ لَكَ . وَإِذَا كَانَ الضَّرَرُ بِحَسَبِ مَا تَتَغَيَّرُ مِنْ كَيْفِيَّتِهِ لَا مِنْ كَمِيَّتِهِ ، فَقَدْ عَرَفْتَ مَا تُعَالِجُهُ بِهِ كَيْ يَزُولَ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الكَيْفِيَّاتِ الزَّيْدِيَّةِ . وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

ذِكْرُ عَجَائِبِ النَّحْلِ

(ب) قَالَ المَسْعُودِيُّ : فِي نَيْلِ مِصْرٍ وَأَرْضِهَا عَجَائِبُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، فَمِنْ ذَلِكَ السَّمَكِ المعروف بِالرَّغَاذِ ، وَالوَاجِدَةِ نَحْوِ الدَّرَاعِ ، إِذَا وَقَعَتْ فِي شَبَكَةِ الصَّيَّادِ ارْتَعَدَتْ يَدُهُ وَعَضْدُهُ فَيَقْلَمُ بِوَقْعِهَا ، فَيَأْخُذُهَا إِلَى أَخْذِهَا وَإِخْرَاجِهَا مِنْ شَبَكَتِهِ ، وَلَوْ أَمْسَكَهَا بِخَشَبٍ أَوْ قَصَبٍ فَقَلَّتْ ذَلِكَ ؛ وَقَدْ ذَكَرَهَا جَالِينُوسُ ، وَأَنَّهَا إِنْ جُعِلَتْ عَلَى رَأْسِ مَنْ بِهِ صُدَاعٌ شَدِيدٌ أَوْ شَقِيقَةٌ - وَهِيَ فِي الْحَيَاةِ - هَذَا مِنْ سَاعَتِهِ^٢ .

قَالَ ابْنُ البَيْطَارِ^٣ عَنْ جَالِينُوسَ : هُوَ الْحَيَوَانُ الْبَحْرِيُّ الَّذِي يُخْذِثُ الْخَدَرَ ؛ وَزَعَمَ^(ج) قَوْمٌ أَنَّهُ إِذَا أُذْنِي مِنْ رَأْسِ مَنْ يَشْتَكِي الصَّدَاعَ سَكَنَ صُدَاعُهُ ، وَإِنْ أُذْنِي مِنْ مَقْعَدَةٍ مِنْ انْقِلَبَتْ مَقْعَدَتُهُ

(أ) بولاق: عرفت . (ب) انظر فيما يلي ٧٦ . (ج) ابن البيطار: وقد ذكر .

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ٢١٤-٢١٧ . قراميط .

^٢ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٨٤ وقارن الاصطخري: مسالك الممالك ٥٠. ابن حوقل: صورة الأرض ١٤٨، وهو السمك المعروف الآن بالقرموط جد . ابن محمد القنبري المالقي النجاشي القشّاب المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م. عالم في النبات من خلال رحلاته =

أصلحتها . ولكني أنا جرت الأثرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما ، ففكرت أني أذنيه من رأس صاحب الصداع^(a) والحيوان^(b) هو حي ، لأنني ظننت أنه على هذه الحال يكون ذواء يمكن أن يُشكّن الصداع بمنزلة الأدوية الأخرى^(c) [التي تحدر الحصى]^(d) ، فوجدته يتفّع ما دام حياً . قال ديشقوريدس^١ : هو سمكة بحرية مخدرة إذا وضعت على الرأس الذي عرّض له الصداع المزمّن سكّن شدة وجعه ، وإذا احتمله ذو المقعدة التي تبرز إلى خارج أصلحها . وقال يونس^(e) : الزيث الذي يطبخ فيه يُشكّن أوجاع المفاصل الحريفة إذا دُهنت به . قال ابن البيطار : رأيت بساجل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة غريضة ، لَوْن ظاهرها لون رَعَاد مصر سَوَاء ، وباطنها أبيض ، وبقولها في تخدير مايكها كيفعل رَعَاد مصر أو أشد ، لِأَنَّهَا لَا تُؤْكَل أَلْبَنَةً^٢ .

(a) بولاق : المصدوع . (b) بولاق : ما . (c) ساقطة من بولاق . (d) إضافة من ابن البيطار . (e) ابن البيطار : بولس .

^١ ديشقوريدس العين زَرْي طيب يوناني أعلم من تكلم في أصل علاج الطب ، وهو العلم في العقاقير المفردة ، صاحب كتاب «الحشائش» أو «الأدوية المفردة» ، تُرجم هذا الكتاب في بغداد في أيام الخليفة المتوكل ، نقله إصطقن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي ، وتصفح هذه الترجمة حنين بن إسحاق فصحيحها وأجزأها . (ابن النديم : الفهرست ٣٥١ ، ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٢١ - ٢٣ ، *Dubler, C.E., El² art.* ٢٣ - ٢٤ ، *Diyaskurides II, p. 359; Sezgin, F., GAS III, (pp. 58-60* .

نشر الكتاب سيزر دبلر وإلياس تليز في برشلونة سنة ١٩٥٧ بعنوان «المقالات السبع من كتاب دياسقوريدس» ، ونشر صلاح الدين المنجد مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصور بن مهران في دمشق - المجمع العلمي العربي سنة ١٩٦٥ ، كما نشره في تونس إبراهيم ابن مراد وصدر عن بيت الحكمة سنة ١٩٩١ .

^٢ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، بولاق

= في الأندلس ودراسته لمؤلفات ديسقوريدس وجالينوس . رحل في طلب العلم في رحلة طويلة زار خلالها كلاً من الشمال الإفريقي واليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس والعراق والشام ومصر حيث حظي بمنزلة عظيمة عند سلطانها الملك الكامل محمد الأيوبي الذي ألقاه بخدمته وجمعه في الديار المصرية رئيساً على سائر العشائين وأصحاب البسطات^(a) (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٣٣) ، كما اتصل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتوفي في دمشق فجأة في شعبان سنة ٦٤٦هـ / نوفمبر ١٢٤٨م . وأهم مؤلفاته كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» والمعني في الأدوية المفردة» و«تفسير كتاب دياسقوريدس في الأدوية المفردة» . (راجع ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٣٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٢٥٦-٢٥٧ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧ : ٥١-٥٢ ، المقرئ : نفع الطب ٢ : ٦٩١-٦٩٢ ، *Brockelmann, C., GAL I, pp. 647-48; S I, pp. 896-97; Vernet, J., El² art. Ibn al-Bâtir III, pp. 60-759* ، ومقدمة إبراهيم بن مراد لكتاب تفسير كتاب دياسقوريدس في الأدوية المفردة لابن البيطار ، تونس - بيت الحكمة ١٩٩٠ ، ١٧-٤١) .

وقال بعضهم : إذا عَلَّقَت المرأة شَيْئًا من الرِّغَاد عليها ، لم يَطُقْ رُؤُوسُهَا البُعْدَ عنها ، وكذلك إن عَلَّقَ منها الرجلُ عليه لم تَكُدِ المرأةُ أنْ تُفَارِقَهُ .

والسَّقَنْقُور وهو صِنْفٌ يَمُوتُ من السَّكِّ والتَّسْحاح ، فلا يُشَاكِلُ السَّكِّ لأنَّ له يَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ ، ولا يُشَاكِلُ التَّسْحاح لأنَّ ذَنْبَهُ أَجْزَدُ أَمْلَسَ عَرِيضَ غيرِ مُضْرَسٍ ، وَذَنْبُ التَّسْحاح مُسَيِّفٌ مُضْرَسٌ ؛ وَيَتَعَالَجُ بِشَحْمِ السَّقَنْقُورِ لِلْجِمَاعِ . ولا يكونُ بِمَكَانٍ إِلَّا في الثَّيْلِ وفي نَهْرٍ مَهْرَانٍ من أَرْضِ الهِنْدِ . ولقد بَلَغَنِي أَنَّ أَقْوَامًا شَوَّهَها وَأَكَلُوا منها فَمَاتُوا كُلُّهم في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ^١ .

والسَّقَنْقُور ، قال ابنُ سِينَا : هو وَزَلٌ مَائِيٌّ^(أ) يُصَادُ من نِيلِ مصرَ ، يقولون إنَّهُ من نَسْلِ التَّسْحاح ، وَأَجْوَدُ ما يُضْطَادُ في الرَّبِيعِ^٢ . وقال آخَرُ : إنَّهُ فَوْخُ التَّسْحاح ، فإذا خَرَجَ من البَيْضِ : فما قَصَدَ الماءَ صَارَ تَحْساحًا ، وما قَصَدَ الرُّمْلَ صَارَ سَقَنْقُورًا .

وقال ابنُ البيطار : هو جِنْسٌ من الحِرَازِينِ^(ب) يُجَفَّفُ في الحَرِيفِ ، إذا شَرِبَ منه وَزَنَ درهمين من المَوْضِعِ الذي يلي كُلاهُ بِشَرَابٍ أَنَهَضَ شَهْوَةً^(ج) الجِمَاعِ ؛ وهو شَدِيدُ الشُّبْهِ بالوَزَلِ يُوجد بالزُّمَالِ التي تلي نِيلَ مصرَ في نَوَاحِي صَعِيدِها ، وهو مِمَّا يَشْتَقِي في البَرِّ وَيَدْخُلُ في الماءِ - يعني الثَّيْلِ - ولهذا قيلَ له الوَزَلُ المَائِيُّ لَشَبْهِه به وَلَدْخُولِهِ في الماءِ . وهو يَمُوتُ من ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، ويوجدُ لِلذَّكَرِ خِصْيَتَانِ كَخِصْيَتَيْ الدُّبِّ في خِلْقَتَيْهِمَا وَمَوْضِعَيْهِمَا ، وإِنَّا نَظَنُّهُ تَبَيُّضَ فوقَ العَشْرِينَ يَبْيَضُ وتَدْفَنُها في الرَّمْلِ ؛ وَلِلذَّكَرِ من السَّقَنْقُورِ إخْلِيلَانِ ، وَلِلْأُنْثَى فَرْجَانِ .

والسَّقَنْقُورُ يَعْضُ الإنسانَ وَيَطْلُبُ الماءَ ، فَإِنْ وَجَدَهُ دَخَلَ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ بِالَ وَتَمَرَّغَ في بَوْلِهِ ، فإذا فَعَلَ ذلكَ مَاتَ المَعْضُوضُ لَوَقْتِهِ وَسَلِمَ السَّقَنْقُورُ ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ سَبَقَ المَعْضُوضُ إلى الماءِ ، فَدَخَلَهُ قَبْلَ دُخُولِ السَّقَنْقُورِ الماءَ وَتَمَرَّغَهُ في بَوْلِهِ ، مَاتَ السَّقَنْقُورُ لَوَقْتِهِ وَسَلِمَ المَعْضُوضُ . والأَفْضَلُ الذَّكَرُ منه ، والأَبْلَغُ في نَفْعِ البَاهِ ، بل هو المَخْصُوصُ بذلكَ دونَ الأُنْثَى . والمَخْطَرُ من أَعْضَائِهِ ما يلي [مَتْنُهُ] ^(د) أَصْلُ ذَنْبِهِ وَمُحَاذِي شَرَّتِهِ .

وَالْوَقْتُ الذي يُصَادُ فيه الرَّبِيعُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فيه هَائِبًا لِلشَّفَادِ فيكونُ في هذا الْوَقْتِ أَتْلَغَ نَفْعًا ، فإذا أُخِذَ ذِكْرِي في يَوْمِ صَيْدِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ حَبًّا زَالَ شَحْمُهُ وَهَزَلَ لَحْمُهُ وَضَعُفَ فَعْلُهُ ، ثم يُقَطَّعُ

(أ) ساقطة من بولاق . (ب) بولاق : الحِرَاد . (ج) زيادة من ابن البيطار .

^١ ابن سينا : القانون في الطب ٤٠٣:٦ .

^٢ انظر كذلك الأدقوي : الطالع السعيد ٢٥ .

رأسه وطرف ذنبه من غير اشتغال، ويشتق جوفه طولاً، ويُلَقَى ما فيه إلا كَلَاهُ ويَكْبِشُهُ. فإذا نُظِفَ حُشِي بِلَحَا، ويحيط الشَّقُّ، وعُلِقَ مَنكُوشًا في ظِلِّ معتدل الهواء حتى يَجِفَّ ويؤْتِنَ قَسَادُهُ، ثم يُرْفَع في إناء مُتَحَرِّقٍ للهواء كالشلال المَظْفُورَةِ من قُضبان شَجَر الصَّفْصَفِ والحَوْصِ ونحوه إلى وَقْتِ الحاجة.

٥ ولَحْمُهُ - طَرِيًّا - حار رَطْب، والجَفَفَ أَشَدَّ حَرَارَةً وَأَقْلَّ رَطوبَةً، ولا يُوافِقُ استعماله مَنْ يَزَاجُهُ حار يابس، وأَمَّا يوافق ذَوِي الأَمْرِجَةِ الباردة الرطبة. وخاصَّةً لَحْمِهِ وشَحْمِهِ إِنْهَاضَ شَهْوَةِ الجِمَاعِ، وَيُجَيِّجُ الشَّبَقَ، وَيَقْوِي الإِنْعَاطَ، وَيَنْقَعُ أَقْرَاضُ القَصَبِ الباردة، وخاصَّةً ما يَلِي شَرَّتَهُ وَيُحَازِي ذَنْبَهُ.

١٠ وَيَنْقَعُ مُفْرَدًا وَمُرَكَّبًا، واستعماله مفردًا أَتْلَعُ؛ والمقدارُ منه بعد تَجْفِيفِهِ من يُمَقَّالِ إلى ثلاثة مَثاقِيلِ - بِحَسَبِ السَّنِّ والمَزَاجِ والبُلَدِ والوَقْتِ الحَاضِرِ - يُشْحَقُ وَيَذَابُ بِشَرَابِ أَوْ مَاءِ العَسَلِ أَوْ نَقِيعِ الزَّيْبِ، أَوْ يُذَرَّ عَلَى صُفْرَةِ بَيْضِ الدَّجَاجِ النِيمِرِشْتِ وَيُخَعَّسَى، وكذلك يُفَعَّلُ بَلْعَمِهِ إِذَا أُجِدَّ مِنْهُ مَنْ يَزَهَمُ إِلَى دِزَهَمَيْنِ وَذُرَّ عَلَى صُفْرَةِ البَيْضِ بِمُفْرَدِهِ أَوْ مَعَ مِثْلِهِ بَزَرِ جَوْجِيرٍ مُشْحَقٍ.

١٥ ولا يوجد السَّقَنْشُورُ إِلَّا فِي بِلَادِ الفُيُومِ خاصَّةً، وأكثر صَيِّدِهِ فِي الأُوبَعِيَّاتِ إِذَا اشْتَدَّ البَرْدُ وَخَرَجَ / مِنَ المَاءِ إِلَى البَرِّ، فحينئذٍ يُصَادُ^١.

٢ ومن عَجَائِبِ النِّيلِ قَرَسُ البَحْرِ^٣، قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَلِيمٍ الأُسْوَانِي فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الثَّوْبَةِ»^٤: وَمَسَافَةٌ مَا بَيْنَ دُمُقْلَةَ إِلَى أَوَّلِ بَلَدِ عِلْوَةٍ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ دُمُقْلَةَ وَأَسْوَانَ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْقُرَى وَالضُّبَاعِ وَالْجَزَائِرِ وَالْمَوَاشِي وَالنُّخْلِ وَالشَّجَرِ وَالْمَقَلِّ وَالزَّرْعِ وَالكَرْمِ أَضْعَافٌ مَا فِي الْجَنَابِ الَّذِي يَلِي أَرْضَ الإِسْلَامِ.

٢٠ وَفِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ جَزَائِرُ عِظَامٍ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ، فِيهَا الْحَيَّاتُ وَالْوُحُوشُ وَالسَّبَاعُ، وَمَقَاوِزُ يُخَافُ فِيهَا الْقَطْشُ. وَمَاءُ النَّيْلِ يَنْعَطِفُ مِنْ هَذِهِ النُّوَاحِي إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَإِلَى مَغْرِبِهَا مَسَافَةٌ أَيَّامٍ،

^١ ابن البطار: الجامع ٣: ٢٠-٢٢.

الصحيح.

^٢ هذه الفقرة وردت في بولاق بعد العنوان وموضعها
^٣ انظر المسيحي: أخبار مصر ١٥٧ عبد اللطيف
 هنا، ونج ذلك عن إساعة نقل النسخ للطيارات التي
 البندادي: الإفادة والاعتبار ٤٠-٤١.
^٤ عن ابن سليم الأسواني. انظر فيما يلي ٥١٧.

كان يضيفها القريري وعدم معرفتهم لموضعها

حتى يصير المضعد^(٥) كالمُخْدِر ، وهي الناحية التي تَبْلُغُ العُطُوف من الليل إلى المَعْدِن المعروف بالشُّكَّة ، وهي بَلَدٌ معروفٌ بِشَتِير ، ومنه يخرج القُفْرِي ، وَفَرْسُ الْبَحْرِ يَكْثُرُ في هذا المَوْضِع .

وحدثني سيمون ، صاحب عهد علوة ، أَنَّهُ أَخَصَصَ في جزيرة سبعين دَائَةً منها ، وهي من دواب الشُّطُوط : في خَلْقِ الْفَرْس ، في غَلْظِ الْجَامُوس ، قَصِيرَةِ الْقَوَائِم ، لها خُفٌّ ، وهي في ألوان الخَيْلِ بأَعْرَافٍ وَأَذَانٍ صِغَارٍ كَأَذَانِ الْخَيْلِ ، وَأَغْنَاقِهَا كَذَلِكَ ، وَأَذْنَابُهَا مِثْلُ أَذْنَابِ الْجَوَامِيس ، ولها خُطْمٌ^(٦) غَرِيضٌ ، يَنْظُرُ النَّاطِرُ إِلَيْهَا أَنَّ عَلَيْهَا مَخْلَاةً لَهَا صَهِيلٌ وَأَنْيَابٌ ، لَا يَقُومُ حَذَائِهَا تَحْسَاحٌ ، وَتَغْتَرِضُ الْمَرَائِبَ عِنْدَ الْعَضْبِ فَتُغْرِقُهَا ، وَرَغِيهَا فِي الْبَرِّ الْعُشْبِ ، وَجِلْدُهَا فِيهِ مَتَانَةٌ عَظِيمَةٌ ، يُتَّخَذُ مِنْهَا دَبَائِسُ . انتهى .

وهو كَفَرْسِ الْبَرِّ إِلَّا أَنَّهُ أَكْبَرُ غُرْفًا وَذَنْبًا ، وَأَحْسَنُ لَوْنًا ، وَحَافِرُهُ مَشْقُوقٌ كَحَافِرِ الْبَقَرِ ، وَجُسْجُسُهُ أَكْبَرُ مِنَ الْحِمَارِ بِقَلِيلٍ ، وَهُوَ يَأْكُلُ التَّمَسَّاحَ أَكْلًا دَرِيئًا ، وَيَقْوَى عَلَيْهِ قُوَّةٌ ظَاهِرَةٌ ، وَرُبَّمَا خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ وَنَزَا عَلَى فَرْسِ الْبَرِّ فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا فَرْسٌ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ .

وَاتَّفَقَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ نَزَلَ عَلَى طَرَفِ اللَّيْلِ وَمَعَهُ حِجْرٌ^(١) ، فَخَرَجَ مِنَ الْمَاءِ فَرْسٌ أَذْهَمَ عَلَيْهِ نُقْطَ بَيْضٍ ، فَتَزَا عَلَى الْحَيْجَرِ^(٢) فَحَمَلَتْ مِنْهُ وَوَلَدَتْ مُهْرًا عَجِيبَ الصُّورَةِ ؛ فَطَمَعَ فِي مُهْرٍ آخَرَ ، فَجَاءَ بِالْحَيْجَرِ وَالْمُهْرَ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، فَخَرَجَ الْفَرْسُ مِنَ الْمَاءِ وَشَمَّ الْمُهْرَ سَاعَةً ، ثُمَّ وَثَبَ إِلَى الْمَاءِ وَمَعَهُ الْمُهْرُ ، فَصَارَ الرَّجُلُ يَتَمَهَّدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ كَثِيرًا ، فَلَمْ يَعُدْ الْفَرْسُ وَلَا الْمُهْرَ إِلَيْهِ .

وقال المشهودي : وَالْفَرْسُ الَّذِي يَكُونُ فِي نَيْلٍ مَصْرًا إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ وَانْتَهَى وَطْؤُهُ إِلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الْأَرْضِ ، عَلِمَ أَهْلُ مَصْرَ أَنَّ اللَّيْلَ يَرِيدُ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بَعِيْنَهُ غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا مُقْصَرٍ عَنْهُ ، لَا يَخْتَلِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ لَطُولُ الْعَادَاتِ وَالتَّجَارِبِ ؛ وَفِي ظُهُورِهِ مِنَ الْمَاءِ ضَرْزٌ بِأَرْبَابِ الْأَرْضِ وَالْعُلَّتْ لِرَغْبَةِ الزُّرْعِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَظْهَرُ مِنَ الْمَاءِ فِي اللَّيْلِ فَيَتَهَيَّ إِلَى مَوْضِعٍ مِنَ الزُّرْعِ ، ثُمَّ يُؤَلِّمِي عَائِدًا إِلَى الْمَاءِ فَيَزْعِي فِي حَالِ رُجُوعِهِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ مَسِيرُهُ ، وَلَا يَرَعِي مِنْ ذَلِكَ الَّذِي قَدْ رَعَاهُ شَيْقًا فِي مَمَرِهِ ، وَإِذَا رَعَى وَرَدَ الْمَاءَ وَشَرِبَ ، ثُمَّ قَدَفَ مَا فِي بَجْوَفِهِ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى ، فَيَنْبُتُ ذَلِكَ مَرَّةً ثَانِيَةً ؛ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ وَاتَّصَلَ ضَرْزُهُ بِأَرْبَابِ الصُّبَاغِ ، طَرَحُوا لَهُ مِنْ

(٥) بولاق : الصمد . (٦) بولاق : خرطوم . (c) بولاق : الحجرة .

^١ الحيجر : الأنثى من الخيل .

التزمس في الموضع الذي يُعرف تحروجه منه ، مكاكي^٥ كثيرة ، مبهراً متبسطاً ، فيأكله ثم يعود إلى الماء ، فإذا شرب منه ربا التزمس في جوفه وانتفع ، فينشق جوفه منه ويموت ، ويطفو على الماء ويقذف به إلى الساحل ، والموضع الذي يُرى فيه لا يُرى به تمساح وهو على صورة الفرس إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك ، وجبهته واسعة^١.

وقال المسبحي : إن المصنف المعروف بالبلطي من أصناف السمك أول ما عُرف بنيل مصر في أيام الخليفة العزيز بالله يزار بن المعز لدين الله ، ولم يكن يُعرف قبله في النيل . وظاهر في أيامه أيضاً سمك يُعرف باللبس ، وإنما سُمي باللبس لأنه يُشبه البوري الذي يالبحر الملح فالتبس به ، وغالب الظن أنها من أسماك البحر الملح دخلت في الحلو^٢.

ومن حيوان البحر التمساح ، قال ابن البيطار : التمساح حيوان معروف يكون في الأنهار والكبار ، وفي النيل كثيراً ، ويُوجد في نهر مهران ، وقد يُوجد في بلاد السودان ، وهو الوزل الثلي . وقال ابن زهر^٣ : إن كل حيوان يحرك فكاه الأشفل إذا أكل ، ما خلا التمساح ، فإنه يحرك فكاه الأعلى دون الأشفل .

وسمخ التمساح إذا عُجن بالسمن وجعل فيه قيلة وأُشرج في نهر أو أجمة ، لم تنق^٤ صفادعها ما دامت تقعد ، وإن طيف بجلد تمساح حول قرية ، ثم عُلق على سطح دهليز لم ينفع البرد في تلك القرية .

وإذا عُصر التمساح إنساناً ، فوضِع على القصة سخم التمساح ، برئ من ساعته ، وإن لُطخ بشحمه جبهة كئيش تطاح ، نقر كل كئيش يُناطحه وهرب منه . ومرازته يُكتمل بها للبياض في العين فتذهب . وكبدته يُسخر بها المجنون فيبرأ .

(٥) المسعودي : مكاكك . (ب) بولاق : تنق وابن البيطار : تصح .

(التفسير في المداواة والتدبير) والأغذية) والجامع) لي

الأشربة والمعجونات (راجع ، ابن أبي أصيبعة : حيوان الأنعام

١١٦٢: ١٩ - ٦٦: ٦٧ ، المصنفدي : الوافي بالوفيات ١١٦٢: ١٩

، (Arnaldez, R., *El² atr. Ibn Zuhri III*, p. 1001

ونص ابن زهر هنا مضمّن في نص ابن البيطار .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٨٤: ٢ - ٨٥ .

^٢ ابن إياس : بلابع الزهر ١/١ : ١٩٥ .

^٣ ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن

زهر (الإبدي المعروف سنة ١١٦٢/٨٥٥٧م طبيب أندلسي من

أهل إشبيلية ، لم يكن في عصره من يماثله في صناعته واتصل

بعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وصنف كتباً منها

وَزَلَّ الثَّمَسَاخُ يُزِيلُ الْبَيَاضَ مِنَ الْعَيْنِ الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ ، وَإِنْ قُلِعَتْ عَيْنَاهُ وَهُوَ حَيٌّ وَغُلِقَتْ عَلَى مَنْ بِهِ مَجْدَامٌ أَوْقَفَهُ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَإِنْ غُلِقَ شَيْءٌ مِنْ [أَسْنَانِهِ]^(أ) الَّتِي بِالْجَانِبِ الْأَيْمَنِ عَلَى رَجُلٍ زَادَ فِي جَمَاعِهِ ، وَعَيْنُهُ الْيُمْنَى لَمْ يَشْتَكَ عَيْنَهُ الْيُمْنَى ، وَعَيْنُهُ الْيُسْرَى لَمْ يَشْتَكَ عَيْنَهُ الْيُسْرَى . وَشَحْمَتُهُ إِذَا أُذِيبَ بِدُهْنٍ وَزِدَ نَفَعَ مِنْ وَجَعِ الْقَلْبِ^(ب) وَالْكُلَيْتَيْنِ ، وَزَادَ فِي الْبَاهِ .

- وَإِذَا أُعِيدَ دَمُ الثَّمَسَاخِ وَخُلِطَ بِهِ هَلِيجٌ وَأُفْلِحَ وَطُلِيَ بِهِ عَلَى الْوَضَحِ^١ أَذْهَبَهُ وَغَيَّرَ لَوْنَهُ ، وَإِذَا طُلِيَ بِهِ عَلَى الْجَبْتَةِ وَالصَّدْعَيْنِ نَفَعَ مِنْ وَجَعِ الشَّقِيقَةِ . وَإِذَا أَكُلَ لَحْمَهُ أَشْفَى دُجَاهَا سَمَنَ الْبَدَنِ الثَّخِيفِ ، وَشَحْمَتُهُ إِذَا قُطِرَ بَعْدَ أَنْ يُدَابَّ فِي الْأُذُنِ الْوَجِيقَةَ نَفَعَهَا ، وَإِنْ أُذِينَ تَقَطَّرَ فِي الْأُذُنِ نَفَعَ مِنَ الصَّمَمِ ، وَإِذَا دُهْنٌ بِهِ صَاحِبٌ حُمَى الرَّبْعِ سَكَنَتْ عَنْهُ ؛ وَلَحْمُهُ رَدِيءُ الْكَيْمُوسِ^٢ .

- وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَكَذَلِكَ الثَّمَسَاخُ آفَتُهُ مِنْ دَوِيَّةٍ تَكُونُ فِي سَوَاجِلِ الثَّيْلِ وَجَزَائِرِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الثَّمَسَاخَ لَا دُبُرَ لَهُ وَمَا يَأْكُلُهُ يَتَكَوَّنُ فِي بَطْنِهِ دُودًا ، فَإِذَا أَذَاهُ ذَلِكَ خَرَجَ إِلَى الْبَرِّ فَاسْتَلْقَى عَلَى قَعَاءِ فَاغْرَا فَاغًا ، فَيَنْقَضُ إِلَيْهِ طَيْرُ الْمَاءِ - وَقَدْ اتَّحَادَ مِنْهُ ذَلِكَ - فَيَأْكُلُ مَا يَظْهَرُ مِنْ جَوْفِهِ مِنْ ذَلِكَ الدُّودِ الْعَظِيمِ ، وَتَكُونُ تِلْكَ الدَّوِيَّةُ قَدْ كَمَلَتْ فِي الرُّمْلِ ، فَتَيْبُ إِلَى حَلْقِهِ وَتَصِيرُ إِلَى جَوْفِهِ ، وَتَخْرُجُ فَيَخْبُطُ بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَيَطْلُبُ قَعْرَ الثَّيْلِ ، حَتَّى تَأْتِيَ الدَّوِيَّةُ عَلَى جِشْوَةِ جَوْفِهِ ثُمَّ تَخْرُقُ بِجَوْفِهِ وَتَخْرُجُ . وَرَبَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ فَتَخْرُجَ بَعْدَ مَوْتِهِ [مِنْ جَوْفِهِ]^(ج) ؛ وَهَذِهِ الدَّوِيَّةُ تَكُونُ نَحْوَ الدَّرَاعِ ، عَلَى صُورَةِ ابْنِ عَرَسٍ ، ذَاتَ قَوَائِمٍ شَتَّى وَمَخَالِبٍ^٣ .

- وَيُقَالُ كَانَ بِبِجَالِ قُسْطَاطٍ مَصْرٍ طُلُسُمٌ مَعْمُولٌ بِهَا ، وَكَانَ الثَّمَسَاخُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِضْرَارَ^(د) حَوْلَهُ ، بَلْ كَانَ إِذَا بَلَغَ مَحْدُودَهُ انْقَلَبَ وَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ فَيَعْبِثُ بِهِ الصَّبِيَّانُ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ نَهَايَةَ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَعُودُ مُشْتَوِيًا وَيَعُودُ إِلَى طِبَاعِهِ ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الطُّلُسُمَ كُتِبَ فَتَطَلَّ قَعْلُهُ .

- وَيُقَالُ إِنَّ الثَّمَسَاخَ يَبْيَضُ كَبَيْضِ الْإِوَرِ ، وَرَبَّمَا تَوَلَّدَ فِيهِ جَرَادِينَ صِغَارٌ ، ثُمَّ تَكْبُرُ حَتَّى يَبْلُغَ طَوْلُهَا عَشْرَةَ أَذْرُعَ ، وَتَزْدَادُ طَوْلًا كُلَّمَا عُمُرَتْ . وَالثَّمَسَاخُ يَجَامِعُ^(هـ) سِتِينَ مَرَّةً فِي حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ وَمَحَلٌّ وَاحِدٌ ، وَبَيْتُهُ الْيُسْرَى نَافِةٌ لِلنَّافِضِ .

(أ) إضافة من ابن البيطار . (ب) الأصل وبولاق : الصلب ، والمثبت من ابن البيطار . (ج) زيادة من المسعودي .

(د) بولاق : القرب . (هـ) بولاق : يرتعش .

^١ الوَضَحُ هُوَ الْبَرَسُ .

عن الكيموس فيما تقدم ١١٨ هـ^٢ .

^٢ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية ١ : ١٤١ ، وانظر المسعودي : مروج الذهب ١ : ١٢٧ .

ذكر نغرض من تقديمه المعقوفة بحال التليل في كل سنة

قال ابن رضوان في شرح الأوزع^١: وقد يحتاج أمم التليل إلى شروط: منها أن تكون الأمطار متوالية في نواحي الجنوب قبل مده وفي وقت مده، ولذلك يجب أن يكون التليل - متى كانت الزهرة وعطارد مقترنين في مدخل الصيف - كثير الزيادة لرطوبة الهواء، ومتى كان المريخ أو بعض المنازل في ناحية الجنوب في مدخل الربيع / أو الصيف، كان قليلاً لقلّة الأمطار في تلك الناحية. ومنها أن تكون الرياح شمالية لتوقف بجزيه، فأما الجنوبية فإنها تسرع انحداره ولا تدعه يلبث. فإذا علمت ما يكون في ناحية الجنوب من كثرة الأمطار أو قلتها، وفي ناحية مصر من هبوب الرياح في فضلي الربيع والصيف، فقد علمت حال التليل كيف يكون، وتعلم من حاله ما يغرض بمصر من الخصب والقحط^(a).

وقال ابن يونس المتجهم^٢ عن بطليموس: إذا أردت أن تعلم مقدار التليل في الزيادة والنقصان، فانظر حين تحل الشمس يزوج الشرطان إلى الزهرة وعطارد والقمر: فإن كانت أحوالها جيدة وهي برية من النحوس، فالتليل يمتد وتبلغ الحاجة به؛ وإن كانت أحوالها بخلاف ذلك وهي ضعيفة، فانكسر القول، فإن ضعف بعضها وصلح البعض، توسط الحال في التليل. والضابط أن قوة الثلاثة تدل على تمام التليل، وضعفها على توسطه، وانتحاسها أو اختراقها أو وقوعها في بعدها الأبعد من الأرض على النقص وأنه قليل جداً، إلا أن احتراق الزهرة في برج الأسد يستترل الماء من الجنوب. وقال أبو مقشّر^٣: يُنظر عند انتقال الشمس إلى يزوج الشرطان للزهرة وعطارد والقمر: فإن كانت في سبيلها الأكبر فإن زيادة التليل عظيمة، وإن كانت في سبيلها الأوسط فاغرف كم أكثر

(a) بولاق: الجذب.

١٤٣١ للهجري: سير أعلام النبلاء ١٠٩: ١١٠-١١١

الصفيدي: الروابي بالوفيات ١٩: ٢٢٦ كراتشكوفسكي:

تاريخ الأدب الجغرافي ١٢٢-١٢٤، Goltstein, B. R.,

El² art. Ibn Yûnus III pp. 969-70

٣ أبو مقشّر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أحد

المتجهمين العرب، عرفه الغربيون في المصور الوسطى باسم =

١ عن هذا الكتاب انظر فيما تقدم ١٢٦.

٢ ابن يونس المنجم، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ابن

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصديقي المصري الخولي سنة

٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م، ألف للمحاكم بأمر الله الفاطمي كتاب

«الزيج الحامكي» الذي اشتهر به (صاعد الأندلسي: التصريف

بطيقات الأم ٢٣١: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٢٩-

تسيرها وكم أقله وأنسيبه بحسب ما تراه ، وإن كانت بطيئة السير فزيادة الثيل قليلة ، وإن اختلفت تسير هذه الثلاثة فكان بعضها في تسيره الأكبر وبعضها بطيء الشهر فقلب أقواها واترج الدلالة ، وقل بحسب ذلك .

وقالت القبط : ينظر أول يوم من شهر برمودة ، ما الذي يوافقه من أيام الشهر العربي ، فما كان من الأيام ، فرد عليه خمسة وثمانين ، فما بلغ أخذ شدته فإنه يكون عدد مبلغ الثيل من الأذرع • في تلك السنة .

قالوا : ومن المعتبر أيضا في أثر الثيل أن تنظر اليوم الذي تظفر فيه الثصارى اليعاقبة بمصر ، وما بقي من الشهر العربي فرد عليها أربعًا وثلاثين ، فما بلغ أشقطه اثني عشر ، فإن بقي بعد ذلك الإشقاط من العدد زيادة على اثني عشر فهو زيادة الثيل من الأذرع في تلك السنة مع الاثني عشر ، وإن بقي اثنا عشر فهي سنة رديئة . قالوا : وإذا كان العاشر من الشهر العربي موافقًا لشهر أيب ، والقمر في بزج العقرب ، فإن كان مقارنًا لقلب العقرب كان الثيل مقصّرًا وإلا فهو جيد . قالوا : وينظر أول يوم من بئونة ، فإن هبت الريح شمالًا في بكرة النهار كان الثيل عاليًا ، وإن هبت وسط النهار فإنه متوسط ، وإن هبت آخر النهار كان نيلًا قاصيرًا ، وإن لم تهب لم يطلع تلك السنة . وقيل يُعتبر هكذا أول خميس من بئونة .

ومن المعتبر الذي جربته أنا سنين ، وأخبرني بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصيح ، أن ينظر أول يوم من يسرى كم مبلغ الثيل ، فرد عليه ثمانية أذرع ، فما بلغ فهو زيادة الثيل في تلك السنة .

ومما اشتهر عند أهل مصر - وجربته أيضًا فصيح - أن يؤخذ قبل عيد ميكايل يوم في وقت الظهور من الطين الذين مرّ عليه ماء الثيل قطعة زنتها ستة عشر ذرهًا سواء ، وتزفع في إناء مغطى

١١٨، ١٨١-١٨٣، ١٨٧-١٨٨، ٢٠١، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩
سيد : مقدمة طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل صفحة ١٠٠-
Brockelmann, C., *GALI*, 221-22, SI, 394-98; كط :
Sezgin F., *GAS* VI, 156-57, VII, 143-51; Millas,
(J.M., *El art. Abu Ma'shar*, pp. 143-44; ونشر
كجحي ياموتو «كتاب الملل والدول» لأبي معشر بعنوان
Yamamoto, K., *Abu Ma'shar on Historical Astrology - The Book of Religions and Dynasties (On the Great Conjunctions)*, Leiden-
Brill 2000

= «البحار» Albumasar. بدأ حياته بدراسة الحديث ولم
يدرس علم النجوم إلا عندما بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وألهمه
مصلو العرب بالتحال مؤلفات غيره ، وتوفي سنة ٢٧٢هـ/٨٨٦م ،
ومن مؤلفاته كتاب «تأويل سني العالم» و«كتاب الألف» أو
«كتاب الألف في هوت العبادات» ، ولم يعدد المقرئ عنوان
الكتاب الذي اعتمد عليه هنا أو فيما يلي من صفحات الكتاب (انظر
ابن النديم : الفهرست ٣٣٥-١٣٣٦ صاعد الأندلسي : طبقات
الأمم ٢٢٧-٢٢٨ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٥٨-١٣٥٩
نليه : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ٨٧-٩٠ ،

إلى بُكْرَة يوم عيد ميكايل ، وتوزن ، فما زاد على وزنها من الخراب كان مبلغ الثيل في تلك السنة بقدر عدد تلك الخراب ، لكل خروبة ذراع ؛ ومع ذلك فلا بد من ^(a) أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء الثيل في إناء فخار ، وقد عُيِّل من طين مر عليه الثيل ، وتركه مُعْطَى طول ليلة عيد ميكايل ، فإذا وُجِدَ بُكْرَة يوم العيد قد اختر بنفسه كان الثيل تاماً وافياً ، وإن وُجِدَ لم يَخْتَمِر دَلٌّ على قصور هذا الثيل .

ثم ينظرون مع ذلك بُكْرَة يوم عيد ميكايل إلى الهواء ، فإن هبت طياتاً فهو نيل كبير ، وإن هبت غير طياب فهو نيل مُقْصَر ، لاسيما إن هبت مريسياً فإنه يكون نيلاً غير كاف . والشأن عندهم إنما هو في دلالة العلامات الثلاث على شيء واحد ، فأما إذا اختلفت فالحكم لا يكاد يصحح .

وقال أبو الرئحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : وذكر أصحاب التجارب أنه إذا تُقَدِّمَ فُعَيْدٌ إلى لَوَحٍ ، وزُرِعَ عليه من كل زرع ونبات ، حتى إذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تموز - أخذ شهور الزوم وهي آخر أيام الباخور - ثم وضع اللوح بارزاً لطلوع الكواكب وغروبها ، [بحيث^(b) لا يحول بينه وبين السماء شيء ، فإن كل ما يَؤْكُو^(c) في تلك السنة من الزروع يُصْبِحُ أَضْفَر ، وما لا يَصْلُح^(d) زَيْعُهُ منها يَبْقَى أَخْضَر ، وكذلك كانت الْقَيْطُ تَفْعَلُ ذلك^١ .

وقد جرت أنا - على ما أفادني بعض الكتاب - أنه إذا حُصِّلَ مَطَرٌ ، ولو قَلٌ ، في شهر باءة ، يُنْظَرُ ما ذلك اليوم من الشهر القَيْطِي ، فإنه يَتَلَوَّنُ سعر الوثية القمح تلك السنة من الدراهم بقدر ما مَضَى من أيام شهر باءة . وأوَّلُ ما جرت هذا أنه وَقَعَ مَطَرٌ في باءة يوم الخميس الخامس عشر منها ، فبيعت الوثية تلك السنة بخمسة عشر درهماً .

(a) بولاق : ومن ذلك . (b) زيادة من البيروني . (c) الأصل وبولاق : ما لا يركو . (d) الأصل وبولاق : وما يصلح والتصويب من البيروني .

ذِكْرُ عِيدِ الشَّهِيدِ

ومَّا كَانَ يُقْتَلُ بِمِصْرَ عِيدُ الشَّهِيدِ ، وَكَانَ مِنْ أَتْرَافِهِ أَهْلُ^(أ) مِصْرَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ مِنْ بَشْتَسْ - أَحَدُ شَهْرِي الْقَيْطِ - ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ النَّيْلَ بِمِصْرَ لَا يَزِيدُ فِي كُلِّ سَنَةٍ حَتَّى يُلْقَى النَّصَارَى فِيهِ تَابُوتًا مِنْ خَشَبٍ ، فِيهِ أَصْبَعٌ مِنْ أَصَابِعِ كُتْرَانِهِمْ^(ب) ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا تَدْخُلُ إِلَيْهِ النَّصَارَى مِنْ جَمِيعِ الْقُرَى ، وَيَرْكَبُونَ فِيهِ الْخَيْلَ وَيَلْعَبُونَ عَلَيْهَا .

وَيُخْرَجُ كَأَنَّهُ^(ج) أَهْلُ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ ، وَيَضُوبُونَ الْحَيْمَ الْكَبِيرَةَ^(د) عَلَى شَطُوطِ النَّيْلِ وَفِي الْجَزَائِرِ ، وَلَا يَبْقَى مُعَنَّ وَلَا مُعْنِيَّةٌ وَلَا صَاحِبُ لَهْوٍ وَلَا رَبٌّ مَلْعُوبٌ وَلَا بَيْعِي وَلَا مُخْتَلٍ وَلَا مَا جَنَ وَلَا خَلِيعٌ وَلَا فَاتِكٌ وَلَا فَايِقٌ ، إِلَّا وَيُخْرَجُ لِهَذَا الْعِيدِ . فَيَجْتَمِعُ عَالَمٌ عَظِيمٌ^(هـ) لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ ، وَتُضْرَفُ أَمْوَالٌ لَا تُحْصَرُ^(و) ، وَيَتَجَاهَرُ النَّاسُ مِنَ الْقَبْحِ^(ز) بِمَا لَا يُحْتَمَلُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ ، وَتَثُورُ فِتَنٌ ، وَيُقْتَلُ أَنْاسٌ ، وَيُبَاعُ نَصْرَانِيٌّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنْ الْخَمْرِ . وَكَانَ اجْتِمَاعُ النَّاسِ لِعِيدِ الشَّهِيدِ دَائِمًا بِنَاحِيَةِ شَبْرَا مِنْ ضَوَاحِي الْقَاهِرَةِ ، وَكَانَ اعْتِمَادُ فَلَاحِي شَبْرَا دَائِمًا فِي وَقَاءِ الْخَرَجِ عَلَى مَا يَبِيعُونَهُ مِنَ الْخَمْرِ فِي عِيدِ الشَّهِيدِ .

وَلَمْ يَزَلْ الْحَالُ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْاجْتِمَاعِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ كَانَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِ مِائَةٍ - وَالسُّلْطَانُ يَوْمَئِذٍ بِدْيَارِ مِصْرَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ ، وَالْقَائِمُ بِتَنْذِيرِ الدَّوْلَةِ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بَيْبُوسَ الْجَاشْنُكِرِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَسْتَاذُ السُّلْطَانِ ، وَالْأَمِيرُ سَيِّفُ الدِّينِ سَلَارُ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ بِدْيَارِ مِصْرَ - فَقَامَ الْأَمِيرُ بَيْبُوسَ فِي إِطْلَالِ ذَلِكَ قِيَامًا عَظِيمًا ، وَكَانَ إِلَيْهِ أُمُورُ دِيَارِ مِصْرَ هُوَ وَالْأَمِيرُ سَلَارُ ، وَالنَّاصِرُ تَحْتَ حَجَرِهِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْعِ بَطْنِهِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمَا . فَتَقَدَّمَ أَمْرُ الْأَمِيرِ بَيْبُوسَ إِلَى يَزْمَى أَصْبَحَ فِي النَّيْلِ ، وَلَا يُقْتَلُ لَهُ عِيدٌ ، وَتَدَبَّ الْحُجُبَابُ وَوَالِي الْقَاهِرَةِ لَمَعَ النَّاسُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ بِشَبْرَا عَلَى عَادَتِهِمْ . وَخَرَجَ الْبَرِيدُ إِلَى سَائِرِ أَعْمَالِ مِصْرَ وَمَعَهُمُ الْكُتُبُ إِلَى الْوَلَاةِ بِاجْتِهَادِ التَّنَادِ وَإِعْلَانِهِ فِي الْأَقَالِيمِ بِالْأَخْرَجِ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى ، وَلَا يَخْضَرُ لَعَمَلِ عِيدِ الشَّهِيدِ . فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَقْبَاطِ مِصْرَ كُلِّهِمْ ، مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَمَنْ هُوَ بَاقٍ عَلَى

(أ) ساقطة من الأصل وبولاق ومبشة من مسودة الخطوط . (ب) الأصل : سلفهم الموتى ، بولاق : أسلافهم الموتى ، والمثبت من مسودة الخطوط . (ج) الأصل وبولاق : عامة . (د) من مسودة الخطوط . (هـ) ساقطة من الأصل . (و) الأصل وبولاق : لا تنحصر . (ز) الأصل : من هنا ، بولاق : هناك .

نصرانيته، ومَشَى بعضهم إلى بعض. وكان منهم رجلٌ يُعرَفُ بالثَّاج بن سعيد الذُّوَلَةُ^١ يُعاني الكِبَاةَ، وهو يومئذٍ في خِدْمَةِ الأمير بَيْتَزس، وقد احتوى على عقله، واستولى على جميع أموره، كما هي عادةُ ملوك مصر وأمرائها من الأتراك في الانقياد لكتابهم من القبط، سواءً منهم من أسرو الكُفْر ومن جَهَرَ به.

وما زال الأقباطُ بالثَّاج إلى أن تحدَّث مع مَخْدومه الأمير بَيْتَزس في ذلك، وخيَّلَ له من تَلَف مال الخراج إذا بَطَلَ هذا العيد، فإنَّ أكثرَ خراج شَبْرًا لَمَّا يَحْصُل من ذلك، وقال له: متى لم يُعْمَل العيد لم يَطْلُع الثَّيْل أبدًا، ويُخْرَب إقليم مصر لقَدَم طُلوع الثَّيْل ونحو ذلك من هَتَف القول، وتَمَيُّق المكر. فثَبَّت الله الأمير بَيْتَزس وقُوَاه حتى أَعْرَض عن جميع ما زَخَرَفَهُ من القول، واشتَمَر على مُنَع عَمَل العيد وقال للثَّاج: إن كان الثَّيْل لا يَطْلُع إلَّا بهذا الأُصْبَح فلا يَطْلُع، وإن كان الله سبحانه هو المُتَصَرِّف فيه، فَتَكْذَّبُ النُّصَارَى. فبَطَلَ العيد من تلك السَّنَةِ، ولم يَزَل مُنْقَطِعًا إلى سنة ثمانٍ وثلاثين وسبع مائة^٢.

وعَمَّر الملك الناصرُ محمد بن قلاوون الجيشر في بحر الثَّيْل، ليرمي قُوَّة الشَّيَار عن بَرِّ القَاهِرَةِ إلى ناحية الجِيْزَةِ^٣، كما ذُكِرَ في مَوْضِعِهِ من هذا الكتاب^٤. فَطَلَبَ الأميرُ يَلْبُغَا البَحْيَاوِي والأمير أَلْعُلْبُغَا الماردِينِي من السُّلْطَان أن يَخْرُجَا إلى الصَّيْد وَيَغِيثَا مُدَّةً، فلم تَطِيبَ نَفْسُهُ بذلك لِثِلَّة غَرَامِهِ بهما وتَهْتِكِهِ في مَخْبَهِمَا، وأَرَادَ صَرْفَهُمَا عن الشَّفَرِ فقال لهما: نحن نُعيد عمل عيد الشَّهِيد فيكون تَقَرُّجُكُما عليه أَتَزَهُ من خُرُوجِكُما إلى الصَّيْد - وكان قد قَرَّبَ أَوَانٌ وَقَتَ عيد الشَّهِيد - فَرَضِيَا مِنْهُ بذلك، وَأُشْبِعَ في الإقْلِيم إعادةَ عَمَلِ عيد الشَّهِيد. فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي كَانَتِ العَادَةُ بِعَمَلِهِ فِيهِ، رَكِبَ الأَمْرَاءُ الثَّيْلَ فِي الشَّخَاتِيرِ^٥ بِغَيْرِ خَرَارِيقٍ، واجتمع الناسُ من كُلِّ

(٥) في مسودة الخطوط: ليحذف قوة الماء، عن ناحية بولاق إلى أنبوية، وبولاق السكرور.

^١ انظر فيما يلي ١٦٥:٢ - ١٧١.

^٢ شَخُور، شَخُورَة ج. شَخَاتِير. من المراكب النيلية التي كانت تستخدم لتعدي الناس في النيل في إبان زيادته من مصر إلى الجيزة ومن الجيزة إليها (النخيلي): السفن الإسلامية. (٧٥-٧٤).

^٣ الوزير التاج أبو الفرج بن محمد الدولة كاتب بدرس الجاشنكير، وفُزِّرَ عند سلطته عشيرًا، توفي في شهر رجب سنة ١٣٠٩/٧٠٩م (بيرس للتصوري: زبدة الفكرة ٣٨٨، ٤٤٠٧ المقرئ: السلوك ٨٥:٢ - ٨٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢٢٩:٨ - ٢٨٠).

^٤ انظر أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٢٠٢:٨ - ٢٠٣.

جهة، وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللّهُو والخلاعة فركبوا الثيل، وتجاهروا بما كانت عاداتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات، وتوسّع الأمراء في تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعًا خرجوا فيه عن الحد في الكثرة البالية، وعمّ الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرة، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام.

- وكانت مدة الإقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير بيبرس إلى أن أعاده الملك الناصر شيئًا وثلاثين سنة. واستمرّ عمله في كل سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبع مائة^١ تحرّك المسلمون على النصارى، وعجلت أوراق بما قد وقف من أراضي مصر على كنائس النصارى ودياراتهم، وألزم كُتّاب الأمراء بتحرير ذلك وحمل الأوراق إلى ديوان الأحباس. فلما تحرّرت الأوراق، اشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس، ففرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة في أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون - وهم الأمير شيخو العمري، والأمير صرغتمش، والأمير طاز - فتقرر الحال على أن يُنعم بذلك على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم، وألزم النصارى بما يُلزمهم من الصغار، وهُدِمت لهم عِدَّة كنائس، كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب / عند ذكر الكنائس^٢.
- فلما كان العشر الأخير من شهر رجب من السنة المذكورة، خرج الحاجب والأمير علاء الدين علي بن الكوراني والي القاهرة إلى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر، فهُدِمت كنيسة النصارى، وأخذ منها أضيق الشهيد في صندوق وأخضر إلى الملك الصالح، وأُحرق بين يديه في الميدان، وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى، فبطل عيد الشهيد من يومئذ إلى هذا الشهر^٣، والله الحَعْدُ^٤.

(a) يولاق : العهد . (b) يولاق : الحمد والمنة .

^١ آخر الموجود في مسودة الخطط ١٧٨ و.

^٢ فيما يلي ٥١٢:٢-٥١٧.

^٣ نشر هذا الفصل عبد المجيد دياب في كتاب تاريخ الأقطاط للمقريزي ٢٥٠-٢٥١.

ذِكْرُ الْخُلُجَانِ الَّتِي شَقَّتْ مِنَ السَّيْلِ

اعْلَمْ أَنَّ الثَّلِيلَ إِذَا انْتَهَتْ زِبَادَتُهُ فُتِخَتْ مِنْهُ خُلُجَانٌ وَتُرِعَ يَتَخَرَّقُ الْمَاءُ فِيهَا نِيْمَتًا وَيَسْمَالًا إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ عَنْ مَجْرَى الثَّلِيلِ . وَأَكْثَرُ الْخُلُجَانِ وَالتُّرَعِ وَالْجُسُورِ وَالْأَخْوَارِ بِالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ ، وَأَمَّا الرَّجْعَةُ الْقَيْلِيَّةُ - وَهُوَ بِلَادُ الصُّعَيْدِ - فَإِنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ فِيهِ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ مَعَالِمُهُ وَدُرِسَتْ رُسُومُهُ مِنْ هُنَاكَ^(١) .

وَالْمَشْهُورُ مِنَ الْخُلُجَانِ : خَلِيْجٌ سَخَا^(٢) ، وَخَلِيْجٌ مَنَفٌ ، وَخَلِيْجٌ الْمَنْهَى ، وَخَلِيْجٌ أَشْمُومٌ طَنَاحٌ ، وَخَلِيْجٌ سَرْدُوسٌ ، وَخَلِيْجٌ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ، وَخَلِيْجٌ دِمْيَاطٌ ، وَخَلِيْجٌ الْقَاهِرَةُ ، وَبَحْرُ أَبِي الْمُنْتَجَا ، وَالْخَلِيْجُ النَّاصِرِيُّ ظَاهِرُ الْقَاهِرَةِ^(٣) .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، عَنْ أَبِي رُحْمٍ الشَّعَامِيِّ ، قَالَ : كَانَتْ مِصْرُ ذَاتَ قَنَاطِرٍ وَجُشُورٍ بِتَقْدِيرٍ وَتَذِيرٍ ، حَتَّى إِذَا الْمَاءُ لِيَجْرِيَ تَحْتَ مَنَازِلِهَا وَأَنْفِئَتِهَا فَيُخَسِّسُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا وَيُزِيلُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَمَّا حَكَى عَنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ : ﴿ أَلَيْسَ لِي مِثْلُكَ بِمِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الْآيَةُ ٥١ سُوْرَةُ الزُّعْرَفِ] . وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ فِي الْأَرْضِ مِثْلُكَ أَعْظَمُ مِنْ مِثْلِكَ مِصْرُ ، وَكَانَتْ الْجَنَاطُ بِحَافَتِي الثَّلِيلِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فِي الْحَافَتَيْنِ مَعًا جَمِيعًا - مَا بَيْنَ أَسْوَانَ إِلَى رَشِيدٍ ، وَسَبْعُ خُلُجٍ : خَلِيْجٌ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ، وَخَلِيْجٌ سَخَا ، وَخَلِيْجٌ دِمْيَاطٌ ، وَخَلِيْجٌ مَنَفٌ ، وَخَلِيْجٌ الْفُيُومِ ، وَخَلِيْجٌ الْمَنْهَى ، وَخَلِيْجٌ سَرْدُوسٌ - جَنَاطٌ مُتَّصِلَةٌ لَا يَتَقَطَّعُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَالزُّرُخُ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ مِنْ أَوَّلِ مِصْرٍ إِلَى آخِرِهَا مِمَّا يَمْلُغُهُ الْمَاءُ .

وَكَانَ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرٍ كُلِّهَا تُزَوَّى مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ ذِرَاعًا ، لَمَّا قَدَّرُوا وَدَبَّرُوا مِنْ قَنَاطِرِهَا وَخُلُجِهَا وَجُشُورِهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاطٍ وَعُيُونٍ • وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الْآيَاتُ ٢٥ ، ٢٦ سُوْرَةُ الدُّخَانِ] . قَالَ : وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ : الْمَنَازِلُ ، كَانَ بِهَا أَلْفٌ يَنْتَبِهُ^(٤) .

(١) بولاق : هنالك . (ب) بولاق : منجا .

^١ اقتباساً من ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٠٦ . ٣٩٧:٢ - ٣٠٢ ابن طهيرة : الفضائل الباهرة ١١١٢ أبا
^٢ قارن ابن زولاق : فضائل مصر ١٥٤ ابن ممتي : قوانين
 الحسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥٦ .
^٣ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٦ .
 الدواوين ٢٠٥ - ٢٠٦ القلقشندي : صبح الأعشى

خَلِيج سَحَا

وخلِيج سَحَا حَفَرَهُ تُدَارُسُ بن صَا بن قُبْطِيم بن مِضْرَايم بن يَصْر بن حَام بن نُوح ، وهو أَخَذَ
مُلُوكَ الْقِبْطِ الْقُدَمَاءَ الَّذِينَ مَلَكَوا مِصْرَ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ . قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاه : تُدَارُسُ الْمَلِكُ أَوَّلُ
مَنْ مَلَكَ الْأَخْيَازَ كُلَّهَا بَعْدَ أَبِيهِ صَا ، وَصَفَا لَهُ مُلْكُ مِصْرَ . وَكَانَ تُدَارُسُ مُحَنِّكًا مُجَرَّبًا ، ذَا أَيْدٍ
وَقُوَّةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْأُمُورِ ، فَأَظْهَرَ الْعَدْلَ ، وَأَقَامَ الْهَيَاكِلَ وَأَهْلَهَا قِيَامًا حَسَنًا ، وَدَثَّرَ جَمِيعَ الْأَخْيَازِ .
وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي حَفَرَ خَلِيجَ سَحَا ، وَارْتَفَعَ مَالُ الْبَلَدِ عَلَى يَدِهِ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ
أَلْفِ دِينَارٍ ^١ . وَقَصَدَهُ بَعْضُ عَمَالِقَةِ الشَّامِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَاسْتَبَاحَهُ ، وَدَخَلَ فِلَسْطِينَ وَقَتَلَ بِهَا خَلْقًا ،
وَسَبَى بَعْضَ مُحْكَمَائِهَا وَأَسَكَنَهُمْ مِصْرَ ، وَهَاتَمَهُ الْمُلُوكُ .

وَعَلَى رَأْسِ ثَلَاثِينَ مِنْ مُلْكِهِ طَمِيعَ السُّودَانِ مِنَ الزُّنُجِ وَالثُّوْبَةِ فِي أَرْضِهِ ، وَعَاثُوا وَأَفْسَدُوا . فَجَمَعَ
الْمُجُوشُ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ وَأَعَدَّ الْمَرَائِبَ ، وَوَجَّهَ قَائِدًا يُقَالُ لَهُ بِلُوطُس ^(أ) فِي ثَلَاثِ مِائَةِ أَلْفٍ ،
وَقَائِدًا آخَرَ فِي مِثْلِهَا ، وَوَجَّهَ فِي الثَّيْلِ ثَلَاثَ مِائَةِ سَفِينَةٍ فِي كُلِّ سَفِينَةٍ كَاهِنٌ يَعْمَلُ أَعْجُوبَةً مِنْ
الْعَجَائِبِ . ثُمَّ خَرَجَ فِي مُجُوشٍ كَثِيرَةٍ فَلَقِيَ جَمْعَ السُّودَانِ - وَكَانُوا فِي زَهَاءِ أَلْفِ أَلْفٍ - فَهَزَمَهُمْ
وَقَتَلَ أَكْثَرَهُمْ أَهْرَحَ قَتَلَ ، وَأَسَرَّ مِنْهُمْ خَلْقًا ، وَتَبِعَتْهُمْ مَجُوشُهُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَرْضِ الْفِيلَةِ مِنْ بِلَادِ
الزُّنُجِ ، فَأَخَذُوا مِنْهَا عِدَّةً وَمِنَ الثُّمُورِ وَالزُّخُوشِ ، وَسَاقَوْهَا إِلَى مِصْرَ فَذَلَّلُهَا . وَغَمِلَ عَلَى حُدُودِ
بَلَدِهِ مَنَازِلًا وَزَيَّرَ عَلَيْهِ مَسِيرَهُ وَظَفَرَهُ وَالْوَقْتَ الَّذِي سَارَ فِيهِ .

وَمَاتَ بِمِصْرَ ، فَلُفِّنَ فِي نَاوُوسٍ نَقَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ أَضْطَامِ الْكَوَاكِبِ ، وَمِنَ الذَّهَبِ
وَالْجَوْهَرِ وَالصُّنْعَةِ ^(ب) وَالثَّمَانِيَلِ ، وَزَيَّرَ عَلَيْهِ اسْمَهُ وَتَارِيخَ هَلَاكِهِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ طِلْقَاسَاتٍ تَمْنَعُ مِنْهُ ،
وَعَهَّدَ إِلَى ابْنِهِ مَالِيقِ بْنِ تُدَارُسٍ ^٢ .

(أ) بِلُوطُس : غُلُوطُس . (ب) بِلُوطُس : الصِّفَّةُ .

^١ فِيمَا بَلَى ٢٠١ . شَاه : الْمُسْعُودِي : أَخْبَارُ الزَّمَانِ ١٨٥-١٨٧ وَبِهِ بَعْضُ

^٢ التَّوْبَرِي : نَهَابَةُ الْأَرْبِ ٩٣:٩٤ عَنْ ابْنِ وَصِيفٍ إِضَافَاتٌ لَمْ تَرُدْ عِنْدَ ابْنِ وَصِيفٍ شَاه .

خَلِيج سَرْدُوس

حَفَرَهُ هَامَان ، قَالَ ابْنُ وَصِيف شَاه : طَلَمَّا بَنَى قَوْمَسُ الْمَلِكُ جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ ، وَحَازَ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي تَذَكَّرُ الْقَيْطُ أَنَّهُ فِرْعَوْنُ مُوسَى ، فَأَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُضْعَبٍ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ الْفَرَاغَةَ سَبْعَةٌ . وَكَانَ طَلَمَّا - فِيمَا لَحِكِي عَنْهُ - قَصِيرًا ، طَوِيلَ اللَّحْيَةِ ، أَشْهَلَ الْعَيْنَيْنِ ، صَغِيرَ الْعَيْنِ الْبُشْرَى ، فِي جَبِينِهِ شَاةٌ ، وَكَانَ أُعْرِجَ . وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ مِنَ الْقَيْطِ ، وَنَسَبُ أَهْلِ بَيْتِهِ مَشْهُورٌ عَنْهُمْ ^١ .

وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ دَخَلَ مَنْفَ عَلَى أَتَانٍ عَلَيْهَا نَظْرُونَ جَاءَ لِيَبِيعَهُ ، وَكَانُوا قَدْ اضْطَرُّوا فِي تَوَلِيَةِ الْمَلِكِ ، فَرَضُوا أَنْ يُتْلَكُوا عَلَيْهِمْ أَوَّلَ مَنْ يَطْرَأُ مِنَ النَّاسِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ مَلَكُوهُ عَلَيْهِمْ ^٢ .
وَلَمَّا جَلَسَ فِي الْمَلِكِ بَذَلَ الْأَمْوَالَ وَقَرَّبَ ^٣ مِنْ أَطَاعِهِ ، وَقَتَلَ مِنْ خَالَفَهُ ، فَاعْتَدَلَ أَتَمُّهُ .
وَاشْتَخَلَفَ هَامَان ، وَكَانَ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي نَسَبِهِ ، وَأَثَارَ بَعْضَ الْكِنُوزِ وَصَرَفَهَا فِي بِنَاءِ الْمَدَائِنِ وَالْعِمَارَاتِ ، وَحَفَرَ خُلُجَانًا كَثِيرَةً ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي حَفَرَ خَلِيجَ سَرْدُوسَ ، وَكَانَ كُلُّمَا عَرَّجَهُ إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْخَوْفِ حَمَلَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا مَالًا ، حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْ ذَلِكَ مَالٌ كَثِيرٌ ، فَأَتَرَ بَرْدَهُ عَلَى أَهْلِهِ ^٣ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ / عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْقَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إِنَّ فِرْعَوْنَ اسْتَعْمَلَ هَامَانَ عَلَى حَفْرِ خَلِيجِ سَرْدُوسَ ، فَلَمَّا ابْتَدَأَ حَفَرَهُ أَتَاهُ أَهْلُ كُلِّ قَرْيَةٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُجَرِّيَ الْخَلِيجَ تَحْتَ قَرْيَتِهِمْ وَيُعْطُوهُ مَالًا .

قَالَ : وَكَانَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِنْ نَحْوِ الْمَشْرِقِ ^(b) ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ نَحْوِ دُورِ الْقَيْطَةِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى قَرْيَةٍ فِي الْغَرْبِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ فِي الْقَيْطَةِ ، وَيَأْخُذُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ قَرْيَةٍ مَالًا حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَأَتَى بِذَلِكَ بِحَمَلِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا

(a) الأصل : أُرْغَب . (b) بولاق : الشرق .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥: ١٣٥-١٣٦ ولم يحدد المقرئ مصدريها .

المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٢-٢٤٣ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥: ١٣٦ عن ابن وصيف

^٣ لم ترد هذه الفقرة سواء عند النويري أو المسعودي ، شاه : المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٣ .

فَعَلَ فِي حَفْرِهِ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : وَنَحَكَ ، إِنَّهُ يَنْتَفِي لِلْسَيْدِ أَنْ يَقْطِفَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُفِيضَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَزْغِبَ فِيهَا بِأَيْدِيهِمْ ، رُدَّ عَلَى أَهْلِ كُلِّ قَوِيَّةٍ مَا أَخَذَتْ مِنْهُمْ ؛ فَرَدَّهُ كُلَّهُ عَلَى أَهْلِهِ .
قَالَ : فَلَا يُغْلَمَ بِمِصْرَ خَلِيْجٍ أَكْثَرَ انْعِطَافًا مِنْهُ ، لِمَا فَعَلَ هَامَانَ فِي حَفْرِهِ ، وَكَانَ هَامَانُ نَبِيْلًا^(١) .

خليج الإسكندرية

- قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى مَنَارَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ قُلُوبَةُ الْمَلِكَةِ ، وَهِيَ الَّتِي سَاقَتْ خَلِيْجَهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُهَا الْمَاءُ ، كَانَ يَغْدُلُ مِنْ يُقَالُ لَهَا كِشَا قُبَالَةَ الْكِزْبُونِ ، فَحَفَرَتْهُ حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي تَلَطَّتْ قَاعَهُ^٢ .
- وَقَالَ الْكِتْدِي^٣ : إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ مِسْكِينَ قَاضِي مِصْرَ حَفَرَ خَلِيْجَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^٤ .
- وَقَالَ الْأَشْعَدُ بْنُ تَمَّامٍ^٥ فِي كِتَابِ «قَوَانِينِ الدَّوَاوِينِ» : خَلِيْجُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ عَلَيْهِ عِدَّةُ ثُرْعَ ، وَطُولُهُ مِنْ قُمْ الْخَلِيْجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَصْبَةٍ وَسِتِّ مِائَةِ قَصْبَةٍ ، وَعَرْضُهُ مِنْ قَصْبَتَيْنِ وَنِصْفٍ إِلَى ثَلَاثِ قَصْبَتَاتٍ وَنِصْفٍ . وَمَقَامُ الْمَاءِ فِيهِ بِالنَّشْبَةِ إِلَى الثَّيْلِ : فَإِنْ كَانَ مَقْصَرًا قَصُرَتْ مُدَّةُ إِقَامَتِهِ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَالِيًا أَقَامَ فِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَى شَهْرَيْنِ .

- وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْخَيْزَةِ وَذَوِي الْمَعْرِفَةِ يَقُولُونَ : إِنَّهُ إِذَا غُمِلَتْ مِنْ قُبَالَةِ مُثْنِيَّةٍ نَتِجَ إِلَى نَتِجِ زَلَّاقَةٍ ، اسْتَقَرَّ الْمَاءُ فِيهِ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَرَوَيْتُ^(ب) الْبَحْيِزَةَ جَمِيعَهَا وَخَوْفَ رَمْسِيْسٍ وَالْكَفُورَ الشَّامِيَّةَ ، وَزُرِّيْعَ^(ج) عَلَيْهِ الْقَصَبُ وَالْقُلُقَاسُ وَالثَّيْلَةُ وَأَنْوَاعُ زِرَاعَةِ الصَّيْفِيِّ ، وَجَرَى مَجْرَى بَحْرِ

(أ) الْأَصْلُ : قُبَالًا وَالتَّبَتُّ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ . (ب) بُولَاق : رَأَيْتُ . (ج) بُولَاق : وَقَدْ زَرَعَتْ .

^١ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : فُتُوحُ مِصْرَ ٦-٧ ؛ وَقَارَنَ الْمُسْعُوْدِي : مَرْجُوحُ الذَّهَبِ ٢٧١:٢-٢٧٢ ؛ أَبَا الْخَمَّاسِ : النُّجُومُ الْوَاهِرَةُ ١: ٥٦ .

^٢ نَفْسُهُ ٤١ .

^٣ الْكِتْدِي : الْوَلَاةُ وَالْقَضَاةُ (نَشْرَةُ جِست) ٤٤٦٩ ؛ ابْنُ حَجَرٍ : رَفْعُ الْأَصْرِ ١١١٩ ؛ وَانْظُرْ عَنِ الْكِتْدِيِّ فِيْمَا هَلِي ٢١٢ .

^٤ الْأَسْعَدُ أَبُو الْمَكَارِمِ أَسْعَدُ بْنُ الْخَطِيرِ أَبِي سَعِيدٍ مُتَهَذَّبٌ

ابْنُ مَهْنَبٍ زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي قِدَامَةَ بْنِ أَبِي مَلِيحٍ ثَمَّامِي الْمِصْرِي الْكَاتِبُ ، التَّوَفَى سَنَةَ ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . كَانَ وَأَبُوهُ مِنْ أَتْقِيَاءِ مِصْرَ وَأَسْلَمَا فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْأُيُوتِيَّةِ ، وَتَوَلَّى الْأَسْعَدُ ابْنُ ثَمَّامِي دِيْوَانَ الْجَيْشِ لِلنَّاصِرِ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَدِيْوَانَ الْإِقْطَاعَاتِ ثُمَّ أَصْبَحَ نَازِلًا لِلدَّوَاوِينِ بِالْأَمِينِ الْمِصْرِيَّةِ . لَهُ مَصْنُوعَاتٌ عَدِيدَةٌ أَهْمُهَا كِتَابُ «قَوَانِينِ الدَّوَاوِينِ» الَّذِي اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْمُقْرِئِيُّ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَطَطِ ، وَالْكِتَابُ فِي أَصْلِهِ فِي أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ وَلَكِنْ الْمَتَدَاوِلُ مِنْهُ نَسْخَةٌ مُخْتَصَرَةٌ -

الشرق والمحلة، وتضاعفت عليه البلاد، وعظم ارتفاعها. وإقامة هذه الزلافة مُمكنة لوجود الحجازة في رهوة، والطوب في البحيرة، وأنهم قدروا ما يحتاج إليه فوجدوه يمايز عشرة آلاف دينار^١. ويُقال إنه كان الماء فيه جاريا طول السنة، وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالحرق، فضجته بعض الولاة بمال، ومنع الناس من صيده، فغدم منه السمك، ولم يُر بعد ذلك فيه سمكة، فصار يخرج بالشباك.

خليج الفيوم والمنهى

يما حفرة نبي الله يوسف الصديق - عليه السلام - عندما حفر الفيوم، كما هو مذكور في خبر الفيوم من هذا الكتاب^٢. وهو مُشتق من النيل، لا ينقطع جريته أبدا، وإذا قابَل النيل ناحية دزوة سريام التي تُعرف اليوم بدزوة الشريف - يعني ابن يغن الثائب في الأيام الظاهرية ببيزس - تشعبت منه في غريبه شعبة تُسمى المنهى، تستقبل^٣ نهرا يصل إلى الفيوم، وهو الآن يُعرف^٤ بنهر يوسف، وهو نهز لا ينقطع جريانه في جميع السنة، فيشقي الفيوم عائمة سقيتا دائما، ثم يحر فاضل مائه في بحيرة هناك. ومن العجب أنه يُنقطع ماؤه من فوخته، ثم يكون له بَلَل دون المكان المتدنى، ثم يجري جزيا ضعيفا دون مكان البَلَل، ثم يستقل نهرا جاريا، لا يُنقطع إلا بالشفن، ويتشعب منه أنهار، ويُقسم قسما يعم الفيوم يشقي قراه ومزارعه وبساتينه وعائمة مساكنه^٥. والله أعلم.

خليج القاهرة

هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبيها الغربي، فيما بينها وبين المنقس، عُرف في أول الإسلام بـخليج أمير المؤمنين، وتُسميه العائمة اليوم الخليج الحاكيمي، وخليج المؤلوة. وهو خليج قديم،

(a) بولاقي : تستقبل . (b) بولاقي : حرف . (c) بولاقي : أمكنه .

^١ = لم يعلم مختصرا (فيما يلي ١٦٠:٢) (راجع، ياقوت :
(A.S., El² art. *Ibn Mammāt* III, pp. 886-87

^٢ ابن شامي : فوائد الدواوين ٢٢١-٢٢٢
القلقشندي : صبح الأعشى ٢٩٧:٣-٢٩٨.

^٣ فيما يلي ١٣٢١ وانظر المسعودي : مروج الذهب

٢: ٧٢.

معجم الأدباء ١٠٠:٦-١٢٦ القفطي : إنباه الرواة
٢٣١:١-٢٣٤ ابن حلكان : وفيات الأعيان ٢١٠:١-
٢١٣ الصندي : الوافي ١٩:٩-٢٧ للقريري : المقنى
الكبير ٨٣:٢-٨٧ وفيما يلي ١٦٠:٢-١٦١، Atiya،

أَوَّلُ مَنْ حَفَرَهُ طوطيس بن ماليا ، أَخَذَ ثُلُوكَ مِصْرَ الَّذِينَ سَكَنُوا مَدِينَةَ مَتَف ، وَهُوَ الَّذِي قَدِمَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - فِي أَيَّامِهِ إِلَى مِصْرَ ، وَأَخَذَ مِنْهُ امْرَأَتَهُ سَارَةَ وَأَخَذَهَا هَاجِرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ؛ فَلَمَّا أَخْرَجَهَا إِبْرَاهِيمَ هِيَ وَابْنُهَا إِسْمَاعِيلَ إِلَى مَكَّةَ ، بَقِيََتْ إِلَى طوطيس تُعْرِفُهُ أَنَّهَا بِمَكَانٍ يَجْذِبُ وَتُسْتَعْفِىهِ ، فَأَمَرَ بِحَفْرِ هَذَا الْخَلِيجِ ، وَبَقِيََتْ إِلَيْهَا فِيهِ بِالسُّنَنِ تَحْمِلُ الْخَيْطَةَ وَغَيْرَهَا إِلَى بَحْدَةَ ، فَأَحْيَا بَلَدَ الْحِجَازِ .

ثُمَّ إِنَّ أُنْدُرُومَانُوسَ الَّذِي يَعْرِفُ بِأَبِلَا ، أَخَذَ ثُلُوكَ الرُّومِ بَعْدَ الْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلِيسِ الْمَجْدُونِيِّ ، جَلَّدَ حَفَرَ هَذَا الْخَلِيجِ ، وَسَارَتْ فِيهِ السُّنُنُ وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِتِسْعٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ . ثُمَّ إِنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَلَّدَ حَفَرَهُ لَمَّا قَتَعَ مِصْرَ ، وَأَقَامَ فِي حَفَرِهِ سِتَّةَ أَشْهُرَ ، وَجَزَتْ فِيهِ السُّنُنُ بِحَفْلِ الْمِيرَةِ إِلَى الْحِجَازِ ، فَسُمِّيَ خَلِيجُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - يَعْنِي عُتْرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَشَارَ بِحَفَرِهِ .

وَلَمْ تَزَلْ تَجْرِي فِيهِ السُّنُنُ مِنْ قُسْطَاطِ مِصْرَ إِلَى مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى حَافَةِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ ، حَيْثُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرَفُ الْيَوْمَ عَلَى الْبَحْرِ بِالسُّوَيْسِ ، وَكَانَ يَصُبُّ مَاءُ الثَّلِجِ فِي الْبَحْرِ مِنْ عِنْدَ مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ ، إِلَى أَنْ أَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمُتَّصِرُ بِطَلْمِهِ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَطَمَ ، وَبَقِيَ مِنْهُ مَا هُوَ مُوجُودٌ الْآنَ . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ مَبْسُوطًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، عِنْدَ ذِكْرِ ظَوَاهِرِ الْقَاهِرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ^١ .

بَحْرُ أَبِي الْمُتَجَا

هَذَا الْخَلِيجُ يُسَمَّى الْعَائِثَةُ بِحَرِّ أَبِي الْمُتَجَا الَّذِي حَفَرَهُ الْأَفْضَلُ بْنُ أَمِيرِ الْجِيُوشِ / فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِ مِائَةٍ . وَكَانَ عَلَى حَفَرِهِ أَبُو الْمُتَجَا بْنُ شَيْعَا الْيَهُودِي ، فَتَرَفَّ بِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ تَحِيَّتُ هَذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ ذِكْرِ مَنَاطِرِ الْخُلَفَاءِ وَمَوَاضِعِ نَزْهِهِمْ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ^٢ .

الْخَلِيجُ النَّاصِرِي

هَذَا الْخَلِيجُ فِي ظَاهِرِ الْمَقَسِ ، حَفَرَهُ الْمَلِكُ ^(أ) النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قِلَاطُونٍ فِي سَنَةِ خَمْسِ

(أ) ساقطة من بولاق .

^١ الفلَقَشَنْدِي : صَبْحُ الْأَعْشَى ٢٩٨:٣ - ٢٩٩ ، وَانْظُرْ ^٢ فِيمَا بَلَى ٤٨٧:١ - ٤٨٨ .

فِيمَا بَلَى ١٣٩:٢ - ١٤٤ .

وعشرين وسبع مائة، وقد دُكر في موضعه من هذا الكتاب^١.

ذِكْرُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَرْضُ مِصْرَ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ

قال المشغودي: وقد كانت أرض مصر - على ما زعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم - يركب أرضها ماء الثيل، ويتبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض، وموضع القسطنطينية في وقتنا هذا. وكان بدء ذلك من موضع يُعرف بالجنادل بين أسوان والثوبة، إلى أن عَرَضَ لذلك موانع من اتِّقال الماء وبحريانه، وما ينقل من البرقة بتياره^(أ) من موضع إلى موضع، فتضُيب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر، وسكنَ الناس بلاد مصر، ولم يزل الماء يتضُيب عن أرضها قليلاً قليلاً، حتى امتلأت أرض مصر من المَدَن والعمائر، وطَرَقُوا للماء وحَقَرُوا له الخُلجان، وعَقَدُوا في وجهه المُسْتَبَات^(ب)، إلى أن خَفِيَ ذلك على ساكنيها، لأنَّ طولَ الزَّمان ذهبَ بِمَعْرِفَةِ أُولِ سُكَّانِهِمْ كيف كان^٢. انتهى.

قُلْتُ: ومَّا ذَكَرَ أَرِسْطَاطَالِيسُ في كتاب «الآثار العلوية» أنَّ أرضَ مصر كان الثيلُ يَبْسِيطُ عليها فيطبِّقها كأنَّها بحر، ولم يزل الماءُ يَنْضُيبُ عنها، وَيَبْسِيسُ ما علا منها أولاً فأوَّلاً وَيَسْكُنُ، إلى أن اقتلأت بالمَدَن والقَرْى والناس.

ويُقال إنَّ النَّاسَ كانوا قَبْلَ سُكْنَى مَدِينَةِ مَنُفٍ يَسْكُنُونَ بِسَفْحِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ فِي مَنَازِلَ كَثِيرَةٍ نَقَرُوهَا، وهي المَغَايِرُ الَّتِي فِي الْجَبَلِ الْمُقَابِلِ لِمَنُفٍ مِنْ قِبَلِي الْمُقَطَّمِ، فِي الْجَبَلِ الْمُتَّصِلِ بِدِيرِ الْقَصْرِ الَّذِي يُعْرَفُ بِدِيرِ الْبَغْلِ، الْمُطَّلَّ عَلَى نَاحِيَةِ طُرَا. وَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ أَهْرَامِ نَهْيَا، رَأَى الْمَغَايِرَ فِي الْجَبَلِ^(ج) الشَّرْقِيِّ وَبَيْنَهُمَا الثَّيْلُ، وَمَنْ صَعِدَ مِنْ طُرَا إِلَى الْجَبَلِ وَسَارَ فِيهِ دَخَلَهَا، وَهِيَ مَغَايِرُ مُتَّبِعَةٌ، وَفِيهَا مَغَايِرُ تُنْقَدُ إِلَى الْقَلْزُومِ تَسْعُ الْمَغَاوِرُ مِنْهَا أَهْلُ مَدِينَةٍ، وَإِذَا دَخَلَهَا أَحَدٌ وَلَمْ يَهْتَدِ عَلَى مَا يَهْدُهُ عَلَى الْخُرْجِ هَلَكَ فِي تَحْوِيرِهِ.

ويُقالُ كانت مصر جَزْوَءًا لَا نَبَاتَ بِهَا، فَأَقْطَعَهَا مُتَوْشِّلُخُ بْنُ لُحْنُوخَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَهْلَإِيلَ بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَنُوشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ لَطَائِفَةٍ مِنْ أَوْلَادِهِ. فَلَمَّا تَرَوْهَا وَجَدُوا نِيلَهَا قَدْ سَدَّ مَا بَيْنَ

(أ) بولاق: وما يحصل من التوبة بتياره. (ب) بولاق: للمسبات. (ج) ساقطة من بولاق.

الْجَبَلَيْنِ، فَتَضَبَّ الْمَاءُ عَنْ أَرْضِ زُرُوعِهَا، فَأُخْرِجَتْ الْأَرْضُ بِرِكَاتِهَا. ثُمَّ بَعْدَ زَمَانٍ أَخَذَهَا عَنْقَامُ الْأَوَّلِ بْنِ غَرِيَابِ بْنِ آدَمَ بِالْقَلْبَةِ، وَنَسَلَ بِهَا خَلْقًا عَظِيمًا، وَجَهَّزَ لِقِتَالِ أَوْلَادِ يَرْدِ سَبْعِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَخَفَّرَ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْجَبَلِ نَهْرًا عَرَضُهُ أَرْبَعُونَ قَصْبَةً لِيَمْنَعَ مِنْ بَأْسِهِ، فَأَتَاهُ بَنُو يَرْدٍ فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَفَزِعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَتَبَتَّ عَلَى أَرْضِ مِصْرٍ نَارًا.

ذِكْرُ أَعْمَالِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَكُتُبِهَا

اعْلَمَ أَنَّ أَرْضَ مِصْرٍ كَانَتْ فِي الزَّمَنِ الْغَايِرِ^١ مِائَةً وَثَلَاثًا وَخَمْسِينَ كُورَةً، فِي كُلِّ كُورَةٍ مَدِينَةٌ وَثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسُ وَسْتُونَ قَرْيَةً. فَلَمَّا عُمِّرَتْ أَرْضُ مِصْرٍ بَعْدَ بُحْتِ نَاصِرٍ، صَارَتْ عَلَى خَمْسٍ وَثَمَانِينَ كُورَةً، ثُمَّ تَنَاقَصَتْ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفِيهَا أَرْبَعُونَ عَامِرَةً بِجَمِيعِ قُرَاهَا لَا تَنْقُصُ شَيْقًا. اسْتَقَرَّتْ مِصْرُ كُلُّهَا فِي الْجُمْلَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ: «الْوَجْهُ الْقِبْلِيُّ»، وَهُوَ مَا كَانَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرٍ، وَ«الْوَجْهُ الْبَحْرِيُّ»، وَهُوَ مَا كَانَ فِي شِمَالِ مَدِينَةِ مِصْرٍ. وَقَدْ قُسِّمَتِ الْأَرْضُ بِجَمِيعِهَا - قِبَلِهَا وَبَحْرِيَّهَا - عَلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ عَمَلًا، وَهِيَ: الشَّرْقِيَّةُ، وَالْمَرْتَاجِيَّةُ، وَالِدَّقَهْلِيَّةُ، وَالْإِبْرَانِيَّةُ، وَتُعْرَفُ بِدِيْمَاطٍ.

(١) بولاق: الأول الغابر.

التوفيقية الجديدة الأجزاء ٨-٢٠، محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، ١-٦، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٨ أمين محمود عبد الله: تطور الوحدات الإدارية في مصر العليا منذ العهد العربي، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٣، عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن الدلتا في العصر العربي، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٧، Maur, R., «Les Kuras d'Egypte dans le Mabâhig de Watwât. Essai de chronologie des listes de Kuras», An. Isl. 22 (1986), pp. 155-73; Halm, H., Agypten nach den mamlukischen Lebensregistern, I-II, Wiesbaden 1979, 82.

^١ حول التقسيم الإداري وأسماء الكُور والمُدن والقُرَى المصرية راجع، أبا عبيد البكري: جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الخنيم، الكويت ١٩٨٠، عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، الكويت ١٩٨١، الطوطاط الكشي: من مباحج الفكر ومناهج العبر - صفحات من جغرافية مصر، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي، الكويت ١٩٨١، ابن عثماني: قوانين النواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٤، ابن فضل الله العمري: مسالك الأنهار (ممالك مصر والشام)، ٧٩-١٠٢، ابن الجيعان: النحلة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة ١٨٩٨، الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٣: ٣٧٥-٤٠٦، علي مبارك: الخطط

الوجه البحري: جزيرة قويسنا، والغربية، والشمودية، والدنجاوية، والثوفية، والنشترابية، وقوة والمزاحميثين، وجزيرة بني نصر، والبحيرة، وإشكندرية وضواحيها، وخوف زمسيس^١.
والوجه القبلي: الجيزة، والإطفيحية، والبوصيرية، والقهيومية، والبهنساوية، والأشموين، والمنفلوطية، والأسبوطية، والإخميمية، والقوصية^٢.

وهي أيضًا ثلاثون كورة، وهي:

كورة الفيوم: وفيها مائة وست وخمسون قرية، ويقال إنها كانت ثلاث مائة وستين قرية.
وكورة منف ووسيم: خمس وخمسون قرية. وكورة الشرقية، وتعرف بالإطفيحية: سبع عشرة قرية، وقري أهناش ومنها قمن ثمان قري. وكورتا دلاص وبوصير ست قري. وكورة أهناش خمس وتسعون قرية، سوى الكفور. وكورة البهنسا مائة وعشرون قرية. وكورة الفشن سبع وثلاثون قرية. وكورة طحا سبع وثلاثون قرية. وخير^٣ شودة ثمان قري. وكورة الأشموين مائة وثلاث وثلاثون قرية. وكورة أشفل أنصنا إحدى عشرة قرية. وكورة سيوط سبع وثلاثون قرية. وكورة شطب ثمان قري. وكورة أغلى أنصنا اثنا عشرة قرية. وكورة قهقوة سبع وثلاثون قرية. وكورة إخميم والدير^٤ ثلاث وستون قرية. وكورة إنبابة^٥ والواحات ثلاث وستون قرية، سوى الكفور. وكورة هو عشرون قرية. وكورة فاو ثمان قري. وكورة قنا سبع قري. وكورة دلدزة عشر قري. وكورة قفط ثنتان وعشرون قرية. وكورة الأقصر خمس قري. وكورة إشنا خمس قري. وكورة أزمئت سبع قري. وكورة / أشوان سبع قري. فجميع قري الصعيد ألف وثلاث وأربعون قرية، سوى المتى والقفور في ثلاثين كورة.

كورة^٦ أشفل الأرض (الحواف الشرقية): خمس وستون قرية. كورة أثريب مائة وثمان قري، سوى المتى والقفور. كورة نتو^٧: سبع وثمانون قرية، سوى المتى والقفور. كورة نمي^٨ مائة وخمسون قرية، سوى المتى والقفور. كورة بتسلطة تسع وثلاثون قرية. كورة طرائية ثمان وعشرون قرية، منها الشدير والهامة وفاقوس. كورة قزيطة^٩ ثمان عشرة قرية، سوى المتى

(a) بولاق: حوز. (b) بولاق: الدوير. (c) بولاق: السباه. (d) بولاق: كورة. (e) بولاق: بنو. (f) بولاق: نمي. (g) بولاق: هريط.

^١ ابن ماتي: قوانين الدواوين ٨٣-٩٩.

كل عمل على حروف المعجم حتى صفحة ٢٠٠.

^٢ نفسه ٩٩-١٠٩ ولم يذكر المنفلوطية ثم ذكر كور

والكُفُور. كُورَتَا صَان وإبليل ست وأربعون قَرْيَةً، منها سَنْتُهور والقَرْمَا والعَرِيش. مجتمع^(a) قَرْيَ الحَوَفِ الشَّرْقِيِّ خمس مائة وتسع وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ في تسع^(b) كُور.

يَطْلُ الرِّيف: كورتَا دَمْسِيس^(c) ومُثُوف مائة وأربع قَرْيَ، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَتَا طَوْرَة ومُثُوف: اثنتان وسبعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة سَخَا مائة وخمسة عشرة قَرْيَةً. كُورَة تَيْدَة والأَفْرَاحُون ثلاث وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة البَشْرُود أربع وعشرون قَرْيَةً. كُورَة نَقِيرَة اثنتا عشرة قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. كُورَتَا نَبَا وبُوصِير ثمان وثمانون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة سَمْنُود مائة وثمان وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. كُورَة نُوسَا إحدى وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. كُورَة الأَوْسِيَّة أربعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. كُورَة البُحُوم أربعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. تَيْس وِدْمِيَاث ثلاث عشرة قرية، سوى المَتْنِ، وهي شيء كثير.

الإِسْكَندَرِيَّة الحَوَفِ الغَرْبِي: كورة صَا ثلاث وسبعون قرية، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة شَبَاس اثنتان وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة البَذْقُون ثلاث وأربعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. خِيَر البَذْقُون تسع وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. الشَّرَاك: تسع قَرْيَ. كُورَة تَزْهُوْط ثمان قَرْيَ. كُورَة خِيَرِيَّاتَا اثنتان وستون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَة قَرْطَسَا اثنتان وعشرون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ والكُفُور. كُورَتَا مَصِيل والمِلْدَس تسع وأربعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ. كُورَتَا إِنْجُو وَرَشِيد سبع عشرة قَرْيَةً. وَمَزْهُوْط ومَدِينَة الإِسْكَندَرِيَّة وَلُؤِيَّة وَمَرَايِيَّة: مائة وأربع وعشرون قرية، سوى المَتْنِ. فَالْحَوَفِ الغَرْبِي أربع مائة وتسع وأربعون قَرْيَةً، سوى المَتْنِ في ثلاث عشرة كُورَة.

قال المَسْبُوحِي فِي «تَارِيخِهِ»: تَصِير قَرْيَ مِصْرَ أَشْقَلِ الأَرْضِ أَلْفًا وَأَرْبَع مِائَةٍ وَتِسْعًا وَثَلَاثِينَ قَرْيَةً، وَيَكُونُ جَمِيعُ ذَلِكَ بِالصَّعِيدِ وَأَشْقَلِ الأَرْضِ أَلْفِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ قَرْيَةً. البَحْثِيَّةُ وَالْحَصَصُ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ، وَالْكُرُومَاتُ وَالبُغْل.

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامَةَ الْقَضَائِي: أَرْضُ مِصْرَ قِسْمَتَيْنِ، فَمِنْ ذَلِكَ صَعِيدُهَا، وَهُوَ مَا يَلِي مَهَبَ الْجَنُوبِ مِنْهَا، وَأَشْقَلُ أَرْضِهَا، وَهُوَ مَا يَلِي مَهَبَ الشَّمَالِ مِنْهَا. فَيَقْسَمُ الصَّعِيدُ عَلَى ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ كُورَةً. فَمِنْ ذَلِكَ: كُورَة الْفَيْيُومِ كُلُّهَا، وَكُورَتَا مَنَفٍ وَوَسِيمٍ، وَكُورَة الشَّرْقِيَّةِ، وَكُورَتَا دِلَاصٍ وَبُوصِيرٍ، وَكُورَة أَهْنَاسٍ، وَكُورَة الْقَيْسِ وَالبَهْنَسَا، وَكُورَة

طَحَا، وَخَيْرَ شُؤْدَةٍ، وَكُورَةُ يُوَيْطُ، وَكُورَتَا الْأَشْمُونَيْنِ وَأَشْفَلُ أَنْصِنَا وَأَغْلَاهَا، وَشَطَبُ وَقُوصِ قَامٍ، وَكُورَةُ سُمُوطٍ، وَكُورَةُ قَهْقَوَةٍ، وَكُورَتَا إِيْحَمِيمَ وَالذَّيْرِ وَأَنْشَابَةٍ، وَكُورَةُ هُوَ وَأَفْنَا وَفَاوٍ وَذَلْدَزَةٍ، وَكُورَةُ قِفْطٍ وَالْأَقْصَرِ، وَكُورَةُ إِيْشْنَا وَأَرْمَنْتِ، وَكُورَةُ أَشْوَانٍ؛ فَهَذِهِ كُورُ الصُّعَيْدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورُ أَشْفَلِ الْأَرْضِ، وَهِيَ خَمْسُ وَعِشْرُونَ كُورَةً (وَفِي نُسْخَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ كُورَةً، وَفِي نُسْخَةٍ ثَمَانٌ وَثَلَاثُونَ كُورَةً). فَسَمَاهَا^(٥) كُورُ الْخَوْفِ الشَّرْقِيِّ: كُورَتَا أَتْرَهَبٍ وَعُيْنِ سَلَسٍ، وَكُورَتَا بَنِي وَتْمِي، وَكُورَتَا بَشْطَلَةٍ وَطَرَانِيَّةٍ، وَكُورَةُ قَرِيْبِطٍ، وَكُورَةُ صَانٍ وَإِلْبَلِ، وَكُورَةُ الْقَرَمَا وَالْعَرِيْشِ وَالْجَيْفَارِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورُ بَطْنِ الرَّيْفِ مِنْ أَشْفَلِ الْأَرْضِ: كُورَةُ بَنَاتِ وَيُوصِيرِ، وَكُورَتَا سَخْنُودٍ وَنُوسَا، وَكُورَتَا الْأُوسِيَّةِ وَالْبُجُومِ، وَكُورَةُ ذَهْلَةٍ، وَكُورَتَا يَتِيْسٍ وَدِمْيَاطٍ. وَمِنْهَا كُورَةُ الْجَزِيرَةِ مِنْ أَشْفَلِ الْأَرْضِ، وَكُورَةُ رَمْسِيْسٍ وَمُثُوفٍ، وَكُورَةُ طُؤُهُ وَمُثُوفٍ، وَكُورَةُ سَخَا وَتِيْدَةٍ وَالْأَفْرَاحُونَ، وَكُورَةُ نَقِيْزَةٍ وَدِيصَا، وَكُورَةُ الْبَشَرُودِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورُ الْخَوْفِ الْغَرْبِيِّ: كُورَةُ صَا وَكُورَةُ شَبَاسٍ، وَكُورَةُ الْبَذْقُونِ وَخَيْزَرَا، وَكُورَةُ الْخَيْسِ وَالشَّرَاكِ، وَكُورَةُ خَيْرِيَّتَا، وَكُورَةُ قَوْطَسَا وَعَصِيْلٍ وَالْمِلْدِيْسِ، وَكُورَتَا إِخْنَا وَالْبَحْخِيْزَةِ وَرَشِيْدٍ، وَكُورَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَكُورَةُ مَرْيُوطٍ، وَكُورَةُ لُؤْيِيَّةٍ وَمَرَاقِيَّةٍ.

وَمِنْ كُورِ الْقَبِيْلَةِ قُرَى الْحِجَازِ، وَهِيَ كُورَةُ الطُّورِ وَفَارَانَ، وَكُورَةُ رَابَةِ وَالْقَلْزُومِ، وَكُورَةُ أَيْلَةَ وَخَيْزَرَا، وَمَذْيَنَ وَخَيْزَرَا، وَالْقَوْنِيْدِ^(٦)، وَالْحَوْرَاءُ وَخَيْزَرَاهُمَا، ثُمَّ كُورَةُ بَدَا وَشَعْبٍ.

وَذَكَرَ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْحَرَاكِ وَأَمْرُ الدِّيَوَانِ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَرِيْدَةٍ عَتِيْقَةٍ بِخَطِّ أَبِي^(٥) عِيْسَى يُقْطِرُ ابْنُ ثَقَالٍ^(٦) - الْكَاتِبُ الْقِبْطِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْبُيُوتُسِ، مُتَوَلِّيَ خَرَاكِ مِصْرَ لِلدَّوْلَةِ الْإِخْشِيْدِيَّةِ - يَسْتَبِيْلُ عَلَى ذِكْرِ كُورِ مِصْرَ وَقَرَأَهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ: أَنَّ قُرَى مِصْرَ بِالصُّعَيْدِيْنَ وَأَشْفَلِ الْأَرْضِ أَلْفَانٌ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسٍ وَتِسْعُونَ قَرْيَةً، مِنْهَا بِالصُّعَيْدِ تِسْعَ مِائَةٍ وَسِتٍّ وَخَمْسُونَ قَرْيَةً، وَبِأَشْفَلِ الْأَرْضِ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ وَتِسْعَ وَثَلَاثُونَ قَرْيَةً، وَهَذَا عَدَدُهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي حُرِّزَتْ^(٥) فِيهِ الْحَرَابِدُ الْمَذْكُورَةُ، وَقَدْ تَغَيَّرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَرَابِ مَا خَرِبَ مِنْهَا.

وَقَالَ /ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا وَلِيَ الْوَلِيدُ بْنُ رِفَاعَةَ مِصْرَ، خَرَجَ لِتَخْصِي عِدَّةِ أَهْلِهَا وَيَنْظُرَ فِي تَغْدِيلِ الْحَرَاكِ عَلَيْهِمْ، فَأَقَامَ فِي ذَلِكَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ بِالصُّعَيْدِ،

حتى بَلَغَ أشوان ومعه جماعة من الكُتَّاب والأَعوان يَكْفُونَهُ ذلك بِجِدٍّ وَتَشْمِيرٍ ، وثلاثة أشهر بِأَشْفَلِ الْأَرْضِ . وَأَخْصَوْا مِنَ الْقُرَى أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ قَرْيَةٍ ، فلم يُخَصَّ^(٨) فِي أَصْغَرِ قَرْيَةٍ مِنْهَا أَقْلٌ مِنْ خَمْسِ مِائَةِ مُجْتَمِعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ تُفَرِّضُ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ ، يَكُونُ مُجْمَلُهُ ذَلِكَ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ رَجُلٍ^١ .

والذي استقرَّ الحالُّ عليه فِي الرَّوْكَ الثَّابِرِيِّ^(٩) مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ أَنَّ الرَّجُلَ الْقِبْلِيَّ تَسَعَةُ أَعْمَالٍ ، وَهِيَ : عَمَلُ قُرُوصٍ - وَهُوَ أَجْلُهَا ، وَمِنْهُ أَشْوان وَعَزُوبُ قَلْمُولَةٍ ، وَعَمَلُ إِيْحَمِيمٍ ، وَعَمَلُ شُيُوطٍ ، وَعَمَلُ مَتْفَلُوطٍ ، وَعَمَلُ الْأَشْمُونِيِّينَ - وَبِهَا الطُّحَاوِيَّةُ - وَعَمَلُ الْبَهْتَنَسَا وَمِنْهُ الْغَرَايِي ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَرْيَةٍ عَلَى غَرْبِي الْمُنْهَى الْمَادِ إِلَى الْقَيُومِ ، وَعَمَلُ الْقَيُومِ ، وَعَمَلُ إِيْفِيحٍ ، وَعَمَلُ الْحِيزَةِ . وَالرَّجُلُ الْبَحْرِيُّ سِتَّةُ أَعْمَالٍ : عَمَلُ الْبَحْرِيزَةِ - وَهُوَ مُتَّصِلُ الْبَحْرِ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ وَبَرْقَةٍ - ، وَعَمَلُ الْغَرْبِيَّةِ جَزِيرَةٍ وَاحِدَةٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ، وَهُمَا : الْبَحْرُ الْمَادِ^(١٠) وَتَشَكُّبُهُ عِنْدَ دُمِيَّاطَ وَيُسَمَّى الشَّرْقِيَّ ، وَالْبَحْرُ الثَّانِي مَشَكُّبُهُ عِنْدَ رَشِيدٍ وَيُسَمَّى الْغَرْبِيَّ ؛ وَالْمُنُوفِيَّةُ ، وَمِنْهَا إِثَارُ ، وَجَزِيرَةُ بَنِي نَصْرٍ . وَعَمَلُ قَلْبُوبٍ ، وَعَمَلُ الشَّرْقِيَّةِ ، وَعَمَلُ أَشْمُومَ طَنَاحٍ ، وَمِنْهَا الدَّقَهْلِيَّةُ وَالْمُؤْتَاجِيَّةُ ، وَهَنَّاكَ مَوْقِعُ قَعْرِ الْبُرْلُسِ وَتَقَرُّ رَشِيدَ وَالْمَنْصُورَةِ ، وَفِي هَذَا الرَّجُلِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَدُمِيَّاطَ ، وَلَا عَمَلٌ لَهَا^٢ .

وَأَمَّا الْوَاخِاتُ فَمُنْقَطِعَةٌ وَرَاءَ الرَّجُلِ الْقِبْلِيِّ ، مَغَارِبَةٌ لَمْ تُقَدِّدْ فِي الْوَلَايَاتِ وَلَا فِي الْأَعْمَالِ ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا وَالِي السُّلْطَانِ ، وَأَمَّا يَحْكُمُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ مُقْطِعِهَا^٣ .

(٨) بولاق : يَحْصُرُ . (ب) بولاق : والذي استقر عليه الحال في دولة الناصر . (ج) ساقطة من بولاق .

المقريزي في نفس السنة وسجل عليه نفس العبارة وهو محفوظ الآن في مكتبة جون ريلاندز John Rylands بماتشر برقم ٣٤٤ - وسجل بخطه على ما يقابل هذه المعلومات في نسخة أباصوليا تصويبات وشرح على ما أورده المصري حول مدينة منف وعلى جزيرة بني نصر؛ وانظر فيما تقدم ١٩٣-١٩٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فروح مصر ١٥٦ .
^٢ نقل المقريزي هذا النص عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبحار (ممالك مصر والشام) ٩٧-١٠٠ ، حيث اطلع على النسخة المحفوظة الآن في مكتبة أباصوليا باستانبول رقم ٣٤١٦ وكتب على ظهرها أجزاءها بخطه وانتقاء داعيا لمحمده أحمد بن علي المقريزي ٨٣١- وأحد أجزاء هذه النسخة وهو الجزء العشرون اطلع عليه أيضًا

ذِكْرُ مَا كَانَ يُفْعَلُ فِي أَرْضِي مِصْرَ مِنْ خَفَرِ الشَّرْعِ

وَعِمَارَةُ الْجُسُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ صَبْطِ مَاءِ الثَّلِيلِ وَتَضْرِيئِهِ فِي أَوْقَاتِهِ

قال ابن عبد الحكم، عن يزيد بن أبي حبيب: وكانت فريضة مصر - بحفر خُلُجِها، وإقامة جسورها، وبناء قناطيرها، وقطع جزائرها - مائة ألف وعشرين ألفاً معهم المساحي والطوريات والأداة، يفتقون ذلك، لا يدعونه شتاءً ولا صيفاً.

وعن أبي قبيل^١ قال: زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذي كان يفعل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقومون القوي في أيدي أهلها، كل قرية بكراة معلوم لا ينقض عنهم إلا في كل أربع سنين من أجل الظلمة وتنقل اليسار. فإذا مضت أربع سنين يُقَضَّ ذلك، وغُدِّلَ تعديلاً جديداً، فيؤقَّق بمن استحقَّ الرفق، ويؤاخذ على من احتمل الزيادة، ولا يُحتمل عليهم من ذلك ما يُشَقُّ عليهم. فإذا جُبي الخراج وجميع، كان للملك من ذلك الرُّبْع خالصاً لنفسه، يُصنَّع به ما يُريد. والرُّبْع الثاني للجنَّة، ومن تقوى به على حوزة وجباية خراجِهِ ودفع عُدُوِّهِ. والرُّبْع الثالث في مصلحة الأرض، وما تحتاج إليه من جسورها وحفر خُلُجِها وبناء قناطيرها، والقوة للمزارعين على زرعهم، وعمارَة أرضهم. والرُّبْع الرابع يخرج منه رُبْع ما يُصيب كل قوَّة من خراجها، فيدفن ذلك لنائية تزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك. والذي يُدْفَن في كل قرية من خراجها هي كُنُوزُ فِرْعَوْنَ التي يتحدث الناس بها أنها ستظهر، فيطلبها الذين يتبعون الكُنُوز^٢.

وذكر أن بغض قراعة مصر يجبي خراج مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار، وأن من عمارته أنه أرسل وثيقة قمع إلى أشفل الأرض وإلى الصعيد في وقت تنظيف الأرض والشرع من العمارَة، فلم يوجد لها أرض فارغة تُزْرَع فيها. وذكر أنه كان عند تنافي العمارَة يُرسَل بأربع وثلاثين بزميم إلى الصعيد وإلى أشفل الأرض، وإلى أي كورة، فإن وجد لها موضعاً خالياً فزُرعت فيه، ضرب عُثْق صاجب الكورة. وكانت مصر يومئذٍ عمارتها مُتصلة أربعين فرسَخاً في مثلها، والفرسَخ ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ، فكانت عشرة بُرْد في مثلها. ولم تزل القراعة تُشَلِّك هذا

المائة (ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٥١٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٢١٥-٢١٥).

^٢ ابن عبد الحكم: فوج مصر ٣٢-٣٣.

^١ أبو قبيل حمي بن هاني بن ناصر المعافري، بماني قدم واستوطن مصر وروى عن عقبه بن عامر وعبد الله بن عمرو وشفي بن مانع، وتوفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٦ عن عمر يناهز

المشلك إلى أهام فوعون موسى ، فإنه عثرها عدلاً وسماحة ، وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين ، وأنفق على نفسه ثم على عساكره^(a) من خزائنه ، ولما كان في السنة الرابعة أضعف الخراج ، واستمر فاعتاض ما أنفق .

قال^(b) : وكتب عثر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عمرو بن العاص - رضي الله عنه : إن أسأل المقوقس عن مصر ، من أين تأتي عمارتها وخراجها ؟ فسأله عمرو ، فقال له المقوقس : عمارتها وخراجها من وجوه خمسة : أن يشتخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من غصن كرومهم ، وتُحفر في كل سنة خلجانها ، وتُسَدُّ ثُرْعُها وجسورها ، ولا يُقبل محل^(c) أهلها ، يريد البقي ؛ فإذا قُبِلَ هذا فيها عثرت ، وإن عُمل فيها بخلافه خربت .

وعن زَيْد بن أَسْلَم عن أبيه قال : لما اشتبَطَ عثر بن الخطاب - رضي الله عنه - عمرو بن العاص - رضي الله عنه - في الخراج ، كتب إليه أن ائتم إلي رجلاً من أهل مصر . فبعث إليه رجلاً قديماً من القبط ، فاستشبره عثر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن / مصر وخراجها قبل الإسلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر إلى العِمارة ، وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدُها إلا لعام واحد ، فعرف عثر - رضي الله عنه - ما قال ، وقيل من عمرو ما كان يعتذر به^١ .

وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - للمقوقس : أنت وليت مصر ، فبم تكون عمارتها ؟ فقال : بخصال : أن تحفر^(d) خلجانها ، وتسد جسورها وتُرْعها ، ولا تأخذ^(e) خراجها إلا من غلتها ، ولا تقبل مظل أهلها ، وتوفى لهم بالشروط ، وتلر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا ، وترتفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون قوة لهم ، فذلك تغمر وتُجى خراجها .

ويقال إن ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام : قسم لخاصة الملك ، وقسم للأرزاق الجند ، وقسم لمصالح الأرض ، وقسم يُدخر لحادثة تحدث فينتفق فيها .

(a) بولاق : وعساكره . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : مظل . (d) بولاق : تحفروا . (e) بولاق : يؤخذ .

ولمَّا وَلِيَ غُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْحَبَّابِ خَرَاكِ مِصْرَ لِهَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، خَرَجَ بِنَفْسِهِ فَمَسَحَ أَرْضَ مِصْرَ كُلَّهَا - عَامِرَهَا وَغَامِرَهَا ، ثُمَّ يَرْكِبُهُ النَّيْلَ - فَوَجَدَ فِيهَا مِائَةَ أَلْفِ أَلْفِ قَدَّانٍ ، ^(٨) وَيُقَالُ إِنْ أَحْمَدُ بْنُ مُدَبِّرٍ اعْتَبَرَ مَا يَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ فَوَجَدَهُ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفِ أَلْفِ فِدَانٍ ^(٩) ، وَالْبَاقِي امْتَنَحَرَ وَتَلَفَ ، وَاعْتَبَرَ مُدَّةَ الْحَوْثِ فَوَجَدَهَا سِتِينَ يَوْمًا ، وَالْحَرَاثُ يَحْرَثُ خَمْسِينَ قَدَّانًا ، فَكَانَتْ ^(١٠) مُحْتَاجَةً إِلَى أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ وَثَمَانِينَ أَلْفِ حَرَاثٍ .

ذِكْرُ بِمَقْدَارِ خَرَاكِ مِضْرٍ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ

قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٌ : وَكَانَ مَتَقَاوِسُ قَسَمِ خَرَاكِ الْبِلَادِ أَرْبَاعًا : فَرُبُّعٌ لِلْمَلِكِ خَاصَّةٌ يَفْعَلُ فِيهِ مَا يُرِيدُ ، وَرُبُّعٌ يُنْفَقُ فِي مَصَالِحِ الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عَمَلِ الْجُشُورِ وَخَفْرِ الْخَلِجِ وَتَقْوِيَةِ أَهْلِهَا عَلَى الْعِمَارَةِ ، وَرُبُّعٌ يُدْفَنُ لِلْحَادِثَةِ تَحْدُثُ أَوْ نَازِلَةٌ تَنْزِلُ ، وَرُبُّعٌ لِلْجُنْدِ . وَكَانَ خَرَاكِ الْبَلَدِ ذَلِكَ الْوَقْتُ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةَ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَقَسَمَهَا عَلَى مِائَةِ وَثَلَاثَ كُورٍ بَعْدَ الْآلَافِ ^١ - وَيُقَالُ إِنَّ كُلَّ دِينَارٍ عَشْرَةَ مَنَاقِيلَ مِنْ مَنَاقِيلِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ - وَهِيَ الْيَوْمَ خَمْسٌ وَثَمَانُونَ كُورَةً : أَشَقَلُ الْأَرْضِ خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ كُورَةً ، وَالصُّعَيْدُ أَرْبَعُونَ كُورَةً . وَفِي كُلِّ كُورَةٍ كَاهِنٌ يُدَبِّرُهَا ، وَصَاحِبُ حَرْبٍ ^٢ .

وَلَزِقَ مَالُ الْبَلَدِ عَلَى يَدِ ثُدَارُسَ بْنِ صَبَا مِائَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسِينَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَفِي أَيَّامِ كَلْكُنَ بْنِ خَيْرِثَا بْنِ مَالِيْقَ بْنِ ثُدَارُسَ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ ^٣ . وَلَمَّا زَالَتْ دَوْلَةُ الْقَيْطِ الْأُولَى مِنْ مِصْرَ ، وَمَلَكَهَا الْعَمَالِقَةُ ، اخْتَلَّتْ أُمُورُهَا . وَكَانَ فِرْعَوْنُ الْأَوَّلُ يَجْبِيهَا تِسْعِينَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ ، يُخْرِجُ مِنْ ذَلِكَ عَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ لِمَصَالِحِ الْبَلَدِ ، وَعَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ لِمَصَالِحِ النَّاسِ - مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ ، وَأَهْلِ التَّعْطُفِ - وَعَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ لِأَوْلِيَاءِ الْأَمْرِ وَالْجُنْدِ وَالْكَتَّابِ ، وَعَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ لِمَصَالِحِ فِرْعَوْنَ ، وَيَكْتَبُونَ لِفِرْعَوْنَ خَمْسِينَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ .

(٨-٩) ساقطة من بولاق . (ب) بولاق : وكانت .

^١ التويري : نهاية الأرب ٦٦:٥ عن ابن وصيف شاه . ^٣ المسعودي : أخبار الزمان ١٨٦ التويري : نهاية

^٢ كل النص المنسوب إلى ابن وصيف شاه موجود عند الأرب ٩٤:١٥ عن ابن وصيف شاه ، وفيما تقدم ١٨٧ . المسعودي : أخبار الزمان ١٧١-١٧٢ .

وَبَلَغَ خَرَّاجُ مِصْرَ فِي أَيَّامِ الرَّيَّانِ بْنِ الْوَلِيدِ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبْعَةً وَتِسْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَحَبُّ أَنْ يُحْمَهُ مِائَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَمَرَ بِوُجُوهِ الْعِمَارَاتِ، وَأَصْلَاحِ جُسُورِ الْبَلَدِ، وَالزِّيَادَةِ فِي اسْتِثْبَاتِ الْأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ وَزَادَ عَلَيْهِ ^١.

وَقَالَ ابْنُ دُحْيَةَ: وَجِيئَتْ مِصْرُ فِي أَيَّامِ الْفَرَاغَةِ فَلَقَّتْ تِسْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ بِالْأَنْدَلُسِ الْفِرْعَوْنِي، وَهُوَ ثَلَاثَةُ مِثْقَالٍ مِنْ مِثْقَالِنَا الْمَعْرُوفِ الْآنَ بِمِصْرَ، الَّذِي هُوَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِيرَاطًا، كُلُّ قِيرَاطٍ ثَلَاثَ حِجَاتٍ مِنْ قَمْحٍ، فَيَكُونُ بِحِسَابِ ذَلِكَ مِائَتِي أَلْفِ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ مِصْرِيَّةً ^٢.

وَذَكَرَ الشَّرِيفُ الْجَوَانِي ^٣ أَنَّهُ وَجَدَ فِي بَعْضِ التِّرَاثِ بِالصُّعَيْدِ مَكْتُوبًا بِاللُّغَةِ الصُّعَيْدِيَّةِ مِمَّا يُقَالُ بِالْعَرَبِيَّةِ: مَبْلَغٌ مَا كَانَ يُسْتَخْرَجُ لِفِرْعَوْنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ - مِنْ أَمْوَالِ مِصْرَ بِحَقِّ الْخَرَاجِ مِمَّا يُوْجِبُهُ الْخَرَاجُ وَسَائِرُ وُجُوهِ الْجَبَايَا لِسَنَةِ وَاجِدَةٍ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالرُّشُومِ الْجَارِيَةِ، مِنْ غَيْرِ ثَأْوِيلٍ وَلَا اضْطِهَادٍ وَلَا مُشَاحَّةٍ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِ كَانَ فِي يَدِ الْمُؤَدِّي لِرِشْمِهِ، وَبَعْدَ وَضْعِهِ مَا يَجِبُ وَضْعُهُ لِحَوَادِثِ الزَّمَانِ نَظَرًا لِلْعَامِلِينَ وَتَقْوِيَةً لِحَالِهِمْ: مِنْ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ^٤. وَذَكَرَ بَاقِيَهُ ^٥ كَمَا فِي خَبَرِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْأَسَدِيِّ.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَسَدِيِّ: أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: وَجَدْتُ فِي كِتَابٍ يَقِطِي بِاللُّغَةِ الصُّعَيْدِيَّةِ - مِمَّا يُقَالُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - أَنَّ مَبْلَغَ مَا كَانَ يُسْتَخْرَجُ لِفِرْعَوْنَ مِصْرَ بِحَقِّ الْخَرَاجِ الَّذِي يُوجَدُ، وَسَائِرُ وُجُوهِ الْجَبَايَا لِسَنَةِ كَامِلَةٍ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالرُّشُومِ الْجَارِيَةِ مِنْ غَيْرِ اضْطِهَادٍ وَلَا مُنَاقَشَةٍ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِ كَانَ فِي يَدِ الْمُؤَدِّي لِرِشْمِهِ، وَبَعْدَ وَضْعِهِ مَا يَجِبُ وَضْعُهُ لِحَوَادِثِ الزَّمَانِ رِقْقًا

(a) بولاق: ما فيه.

^١ قارن مع المسعودي: أخبار الزمان ٢٢٤: النويري: المصنفات وخاصة في النسب. والكتاب الذي ينقل منه المقرئ هنا هو كتاب والثقل لعجم ما أشكل من الخطط وهو أحد أهم مصادر المقرئ فيما يخص خطط الفسطاط في العصر الفاطمي المتأخر (انظر دراسة المصادر في المقدمة).

^٢ لم ألق على هذا النص فيما وصل إلينا من مؤلفات ابن دحية. ^٣ الشريف النسابة أبو عبد الله محمد بن أسعد بن علي ابن الحسين المازندراني المعروف بالشريف الجواني المتوفى سنة ٥٨٨هـ/١٠٩٢م نقيب الأشراف بمصر ومؤلف العديد من المحفوظة في مكتبة Liège. ^٤ يوجد هذا النص في الكراسة التي بخط المقرئ

- بِالْعَامِلِينَ وَتَقْوِيَةً لَهُمْ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ مِنْ جِهَاتِ مِصْرَ ، وَذَلِكَ مَا يُصْرَفُ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ لِحَقْرِ الْحَلْجِ وَاثْقَانِ الْحُشُورِ^(a) وَسَدِّ الثَّرَاعِ وَإِصْلَاحِ الشُّبُلِ وَالسَّانِيَةِ^(b) ، ثُمَّ فِي تَقْوِيَةٍ مِنْ يَحْتَاجُ التَّقْوِيَةَ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ عَلَيْهِ بِهَا ، لِإِقَامَةِ الْقَوَائِلِ ، وَالتَّوْبِيغَةِ فِي الْبِلَادِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمِنَ الْأَلَاتِ ، وَأُجْرَةِ مَنْ يُشْتَعَانُ بِهِ مِنَ الْأَجْرَاءِ لِحَقْلِ الْأَصْنَافِ وَسَائِرِ نَفَقَاتِ تَطْيِيرِ أَرْضِيهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ ثَمَانِ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ . وَلِمَا يُصْرَفُ فِي أَزْزَاقِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُؤَشُّومِينَ بِالْإِصْلَاحِ وَحَقْلَتِهِ ، وَالْعِلْمَانِ وَأَشْيَاعِهِمْ ، مَعَ أَلْفِ كَاتِبِ مُؤَسِّمِينَ / بِالْأَوَاوِينَ ، سِوَى أَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْخُرَّانِ ، وَمَنْ يَجْرِي مَخْرَاهُمْ - وَعِدَّتُهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ - مِنَ الْعَيْنِ ثَمَانِيَةِ أَلْفِ دِينَارٍ . وَلِمَا يُصْرَفُ فِي الْأَرَامِلِ وَالْأَيَّامِ قَرَضًا لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ، حَتَّى لَا تَخْلُو أَمَالُهُمْ مِنْ يَرْ يَصِلُ إِلَيْهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ . وَلِمَا يُصْرَفُ فِي كَهْنَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَيْمُنَتِهِمْ ، وَسَائِرِ ثُبُوتِ صَلَوَاتِهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ مِائَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ . وَلِمَا يُصْرَفُ فِي الصَّدَقَاتِ - وَيُنَادِي فِي النَّاسِ : بَرَكْتَ الذُّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ كَشَفَ وَجْهَهُ لِفَاقَةٍ وَلَمْ يَحْضُرْ^(c) ، فَلَا تُرَدُّ عِنْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ ، وَالْأَمْنَاءُ جُلُوسٌ ، فَإِذَا رُئِيَ رَجُلٌ لَمْ تَجْرْ عَادَتُهُ بِذَلِكَ أَفْرَدَ بَعْدَ قَبْضِ مَا يَقْبِضُهُ ، حَتَّى إِذَا فُرِقَ الْمَالُ وَاجْتَمَعَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عِدَّةٌ ، دَخَلَ أَمْنَاءُ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ وَهَتَّوهُ بِتَفْرِقَةِ الْمَالِ ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَقَاءِ وَالسَّلَامَةِ ، وَأَنْتَهَوْا حَالَ الطَّائِفَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَيَأْمُرُ بِتَغْيِيرِ سَعْيِهَا بِالْحِمَامِ وَاللِّبَاسِ ، وَتُحْمَدُ الْأَشْمِطَةُ ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ ، ثُمَّ يَسْتَقِيلُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ سَبَبَ فَاقَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ آفَةِ الزَّمَانِ رَدٌّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا كَانَ وَأَكْثَرُ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ شَيْءٍ رَأَى وَضَعْفَ تَذْيِيرِ ، ضَمَّهُ إِلَى مَنْ يُشْرَفُ عَلَيْهِ وَيَقُومُ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَمْضِي لَهُ - مِنَ الْعَيْنِ مِائَتَا أَلْفٍ دِينَارٍ .

- فَذَلِكَ مُجْمَلَةٌ مَا تَبَيَّنَ وَفُصِّلَ فِي هَذِهِ الْجِهَاتِ الْمَذْكُورَةِ : مِنَ الْعَيْنِ تِسْعَةُ أَلْفِ أَلْفٍ وَثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَيَحْصُلُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَسْتَلِمُهُ فِرْعَوْنَ فِي ثُبُوتِ أَمْوَالِهِ عِدَّةٌ لِنَوَائِبِ الذُّهْرِ وَحَادِثَاتِ الزَّمَانِ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ^١ .

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى عَقَدْتَ مِصْرَ تَسْعِينَ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ ؟ قَالَ : فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ بِوَيْهَةِ قَمَحٍ إِلَى أَشْقَلِ الْأَرْضِ وَإِلَى الْعَمِيدِ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا يُبَذَّرُ فِيهِ لَشُغْلِ جَمِيعِ الْبِلَادِ بِالْعِمَارَةِ .

(a) فِي سَرَاكِ الْمُلُوكِ : وَالْإِبْقَاءُ عَلَى الْجُسُورِ . (b) بُولَاقُ : السُّبُلِ وَالسِّيَاسَةِ . (c) الْأَصْلُ وَبُولَاقُ : فَلْيَحْضُرْ .

^١ وَرَدَ هَذَا الثَّمَنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الطُّوْطُوشِيِّ فِي كِتَابِ سَرَاكِ الْمُلُوكِ ٥٠٧-٥٠٩ .

ذكر ما عَمِلَهُ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شَيْخِ مِصْرَ

في الخراج وما كان من أمر مِصْرَ في ذلك مع القبط

قال زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ : حَدَّثَنَا شَهِيلٌ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَعِيرَهَا ، وَمَنْعَتِ الشَّامُ مِثْلَهَا وَدِينَارَهَا ، وَمَنْعَتِ مِصْرُ أَرْذَلَهَا ، وَعُذَّتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ » .

قال أَبُو عُثَيْبٍ : قَدْ أَخْبَرَ عليه السلام بِمَا لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَائِنٌ ، فَخَرَجَ لَفْظُهُ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ مَاضٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ . وَفِي إِعْلَامِهِ بِهَذَا قَبْلَ وَقُوعِهِ ، مَا ذُلَّ عَلَى إِبْتَاتِ نُبُوتِهِ ، وَذُلَّ عَلَى رِضَاهُ مِنْ عُمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَا وَظَّفَهُ عَلَى الْكَفَرَةِ مِنَ الْخَرَاجِ فِي الْأَمْصَارِ . وَفِي تَفْسِيرِ الْمَنْعِ وَجْهَانِ : أَخَذَهُمَا أَنَّهُ عِلِمٌ أَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونَ وَيَسْقُطُ عَنْهُمْ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِمْ ، فَصَارُوا مَا يَنْعِينَ بِإِسْلَامِهِمْ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِمْ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ «وَعُذَّتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» . وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لَهَيْعَةَ : لَمَّا فَتَحَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ مِصْرَ ، صُوِّلَ عَلَى جَمِيعٍ مِنْ فِيهَا مِنَ الرِّجَالِ مِنَ الْقِبْطِ - مِمَّنْ رَاقَ الْحَلَمَ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ وَلَا صَبِيٌّ وَلَا شَيْخٌ - عَلَى دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ ، فَأَخْضُوا لِذَلِكَ ^(a) فَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ أَلْفٍ .

وَعَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي رُقَيْةٍ اللَّخْمِيِّ أَنَّ عُمَرُو بْنَ الْعَاصِ لَمَّا فَتَحَ مِصْرَ قَالَ لِقِبْطِ مِصْرَ : إِنَّ مِنْ كَتَمْتَنِي كَتَرًا عِنْدَهُ فَقَدْ رُثَ عَلَيْهِ قَتْلُهُ . وَأَنَّ قِبْطِيًّا مِنْ أَهْلِ ^(b) الصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ بُطْرُسُ ذَكَرَ لِعُمَرُو أَنَّ عِنْدَهُ كَنْزًا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَأَتَكَرَّ وَجَحَدَ ، فَحَبَسَهُ فِي السَّجْنِ وَعَمَرُو يَسْأَلُ عَنْهُ : هَلْ تَشْتَمِقُونَهُ يَسْأَلُ عَنْ أَحَدٍ ؟ فَقَالُوا : لَا ، إِنَّمَا سَمِعْنَاهُ يَسْأَلُ عَنْ رَاهِبٍ فِي الطُّورِ . فَأَرْسَلَ عُمَرُو إِلَى بُطْرُسَ فَتَزَعَّ خَاتَمَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى ذَلِكَ الرَّاهِبِ أَنْ ابْعَثْ إِلَيَّ بِمَا عِنْدَكَ ، وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ . فَجَاءَ الرَّسُولُ بِقُلَّةٍ شَامِيَةٍ مَخْتُومَةٍ بِالرُّصَاصِ ، فَفَتَحَهَا عُمَرُو فَوَجَدَ فِيهَا صَحِيفَةً مَكْتُوبَ فِيهَا «مَا لَكُمْ تَحْتَ الْفَسَقَةِ الْكَبِيرَةِ» . فَأَرْسَلَ عُمَرُو إِلَى الْفَسَقَةِ فَحَبَسَ عَنْهَا الْمَاءَ ، ثُمَّ قَلَعَ الْبِلَاطَ الَّذِي تَحْتَهَا فَوَجَدَ فِيهَا اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ أَرْدَبًا ذَهَبًا مِصْرِيًّا مِصْرُوبَةً . فَضَرَبَ عُمَرُو رَأْسَهُ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَأَخْرَجَ الْقِبْطُ كُنُوزَهُمْ شَفَقًا أَنْ يُعْنَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فَيُقْتَلَ كَمَا قُتِلَ بُطْرُسُ .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر، لأنه اشتقر عنده أنه يظهر الروم على غورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا وخمسين أردبا دنائير^١.

قال ابن عبد الحكم: وكان عمرو بن العاص - رضي الله عنه - يبعث إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بالجزيرة بعد خمس ما كان يحتاج إليه. وكانت قريضة مصر لحفر خلجها، وإقامة مجسورها، وبناء قناطيرها، وقطع جزائرها، مائة ألف وعشرين ألفا، معهم الطور والمساحي والأداة، يفتقون ذلك، لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء.

ثم كتب إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن تخيم في رقاب أهل الذمة بالوصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيتهم، ويركبوا على الأكلف غرضا، ولا يضربوا الجزيرة إلا على من جرت عليه المواسي^٢، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان، ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم.

وعن زيد^٣ بن أسلم أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزيرة إلا على من جرت عليه المواسي^٤. وجزيئهم أربعون درهما على أهل الوري، وأربعة دنائير على أهل الذهب، وعليهم من أزواق المسلمين من الخيطة والزيت مئذنان من حنطة، وثلاثة / أقساط من زيت في كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة، وودك، وعسل لا أدري كم هو: ومن كان من أهل مصر فازدب في كل شهر لكل إنسان، ولا أدري كم الودك والعسل، وعليهم من البرّ والكشوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس، ويضيقون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام، وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل إنسان، ولا أدري كم لهم من الودك. وكان لا يضرب الجزيرة على النساء والصبيان، وكان يخيم في أغناق رجال أهل الجزيرة، وكانت وثبة عمر في ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد^٥.

قال: وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر، أقر قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل: إذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا؛ فيجتمع

(١) بولاق: الموسي. (٢) في النسخ يزيد والصواب ما أثبتته.

عَوَافِرُ كُلِّ قَرْيَةٍ وَأَتْرَافُهَا وَرُؤُوسُ أَهْلِهَا ، فَيَتَنَاطَرُونَ فِي الْعِمَارَةِ وَالْخَرَابِ ، حَتَّى إِذَا أَقْرَبُوا مِنَ الْقَسَمِ بِالزِّيَادَةِ انْصَرَفُوا بِتِلْكَ الْقِسْمَةِ إِلَى الْكُوزِ ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا هُمْ وَرُؤُوسُ الْقَرْيَةِ فَوَزَعُوا ذَلِكَ عَلَى اخْتِمَالِ الْقَرْيَةِ وَسَعَةِ الْمَزَارِعِ .

ثُمَّ تَرُوجِعُ كُلُّ قَرْيَةٍ بِقِسْمَتِهِمْ فَيَجْمَعُونَ قِسْمَهُمْ وَخَرَجَ كُلُّ قَرْيَةٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَرْضِ الْعَايِرَةِ ، فَيَبْتَذِنُونَ وَيُخْرِجُونَ مِنَ الْأَرْضِ قَدَادِينَ لِكُنَائِسِهِمْ وَحُكْمَاتِهِمْ وَمَقْعَدِيَّاتِهِمْ مِنْ جُفْلَةِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عَدَدُ الصِّيَافَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتُزُولُ السُّلْطَانُ . فَإِذَا فَرَعُوا نَظَرُوا لِمَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الصَّنَاعِ وَالْأَجْرَاءِ ، فَقَسَمُوا عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ اخْتِمَالِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ فِيهِمْ جَالِيَةٌ قَسَمُوا عَلَيْهَا بِقَدْرِ اخْتِمَالِهَا ، وَقَلَّمَا كَانَتْ تَكُونُ إِلَّا لِلرَّجُلِ الشَّابِّ أَوْ الْمَتَزَوِّجِ ؛ ثُمَّ يَنْظُرُونَ مَا بَقِيَ مِنَ الْخَرَاجِ فَيَقْسِمُونَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى عَدَدِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَقْسِمُونَ ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ يُرِيدُ الزَّرْعَ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِمْ : فَإِنْ عَجَزَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَشَكَا ضَعْفًا عَنْ زَرْعِ أَرْضِهِ ، وَزَعُوا مَا عَجَزَ عَنْهُ عَلَى ذَوِي الْاِخْتِمَالِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ الزِّيَادَةَ أَعْطَى مَا عَجَزَ عَنْهُ أَهْلُ الضَّعْفِ ، فَإِنْ تَشَاحَوْا قَسَمُوا ذَلِكَ عَلَى عِدَّتِهِمْ .

وَكَانَتْ قِسْمَتُهُمْ عَلَى قَرَارِيطِ الدَّنَانِيرِ أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ قِيرَاطًا ، يَقْسِمُونَ الْأَرْضَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِذَلِكَ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ قَدَانٍ عَلَيْهِمْ نِصْفَ أَرْضٍ قَمَحٍ وَوَيْتَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ ، إِلَّا الْقَرُطَ فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ضَرِيَّةٌ ، وَالْوَيْتَةُ سِتَّةَ أَهْدَادٍ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِأُحْذِ مَنْ صَالَحَهُ مِنَ الْمَعَاهِدِينَ مَا سَمَّى عَلَى نَفْسِهِ ، لَا يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا يُرِيدُ عَلَيْهِ . وَمَنْ نَزَلَ مِنْهُمْ عَلَى الْجَزِيَّةِ وَلَمْ يُسَمَّ شَيْئًا يُؤَدِّهِ ، نَظَرَ غُمَرُ فِي أَمْرِهِ ، فَإِذَا اخْتَلَجُوا خَفَّفَ عَنْهُمْ ، وَإِنْ اسْتَفْتَنُوا زَادَ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ اسْتِفْتَانِهِمْ ^١ .

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ اللَّخْمِي : قَدِمَ صَاحِبُ إِخْتَا عَلَى عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ لَهُ : أَخْبِرْنَا مَا عَلَى أَحَدِنَا مِنَ الْجَزِيَّةِ فَتَضِيرَ لَهَا ؛ فَقَالَ عُمَرُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى رُكْنٍ كَبِيرَةٍ : لَوْ أُعْطِيتِي مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّيْفِ مَا أَخْبَرْتِكَ مَا عَلَيْكَ ، إِنَّمَا أَنْتُمْ خَزَائِنَةٌ لَنَا : إِنْ كَثُرَ عَلَيْنَا تَكَلُّونَا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ خَفَّفَ عَنَّا خَفَّفْنَا عَنْكُمْ ^٢ .

(٥) بولاق : مُجْتَمِع .

ومن ذهب إلى هذا الحديث ، ذهب إلى أن مَضَرَ قُتِحَتْ عَقْوَةُ .

وعن يزيد بن أبي حبيب قال : قال عُثْرُ بْنُ عَبْدِ الْقَزِيزِ : أَيْمًا ذُمِّي أَشْلَمَ فَإِنْ إِشْلَامَتُهُ يُعْخَرُزُ لَهُ نَفْسُهُ وَمَالُهُ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَرْضٍ فَإِنَّهَا مِنْ فِيءِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ وَأَيْمًا قَوْمٌ صَالَحُوا عَلَى جِزْيَةٍ يُغْطَوْنَهَا ، فَمَنْ أَشْلَمَ مِنْهُمْ كَانَتْ دَارُهُ وَأَرْضُهُ لِبَنِيهِمْ .

وقال اللَّيْثُ : كَتَبَ إِلَيَّ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ مَا بَاعَ الْقَبِطُ فِي جِزْيَتِهِمْ ، وَمَا يُؤْخَذُونَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِمْ - مِنْ عَقِيدٍ ، أَوْ وَلِيدَةٍ ، أَوْ بَعِيرٍ ، أَوْ بَقَرَةٍ ، أَوْ دَابَّةٍ - فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهِمْ . فَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ ، فَهُوَ غَيْرُ مُرَدَّدٍ عَلَيْهِمْ إِنْ أَتَسَرَّوْا ، وَمَا أُكْرِزُوا مِنْ أَرْضِهِمْ فَجَائِزٌ كِرَاؤُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَضُرُّ بِالْجِزْيَةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ ، فَلَقُلَّ الْأَرْضُ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ إِنْ أَضْرَّتْ بِجِزْيَتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ قُضِيَ بَعْدَ الْجِزْيَةِ فَإِنَّهُ تَرَى كِرَاءَهَا جَائِزًا لِمَنْ تَكْرَاهَا^(٨) مِنْهُمْ^١ .

قال يحيى : فنحن نقول : الْجِزْيَةُ جِزْيَتَانِ : جِزْيَةٌ عَلَى رُؤُوسِ الرِّجَالِ ، وَجِزْيَةٌ مُجْمَلَةٌ تَكُونُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ يُؤْخَذُ بِهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ . فَمَنْ هَلَكَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ جِزْيَةٌ مُسْتَعَاةٌ عَلَى الْقَرْيَةِ لَيْسَتْ عَلَى رُؤُوسِ الرِّجَالِ ، فَإِنَّهُ تَرَى أَنَّ مَنْ هَلَكَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ مِمَّنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَارِثَ أَنَّ أَرْضَهُ تَرْجِعُ إِلَى قَرِيْبَتِهِ فِي مُجْمَلَةٍ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِزْيَةِ ، وَمَنْ هَلَكَ مِمَّنْ جِزْيَتُهُ عَلَى رُؤُوسِ الرِّجَالِ ، وَلَمْ يَدَعْ وَارِثًا ، فَإِنَّ أَرْضَهُ لِلْمُسْلِمِينَ .

وقال اللَّيْثُ عَنْ عُثْرِ بْنِ عَبْدِ الْقَزِيزِ : الْجِزْيَةُ عَلَى الرُّؤُوسِ وَلَيْسَتْ عَلَى الْأَرْضِينَ ، يُرِيدُ أَهْلَ الذِّمَّةِ .

(٨) بولاق : تَكْرَاهَا .

١٣٥ ابن عماتي : قوانين الدواوين ١٣١٧ النويري : نهاية الأرب ٢٣٤:٨ - ٢٤٥ القلقشندي : صبح الأعيان ٣: ٤٥٨: ١. *El² art. Djawāli II*, p. ٤٥٨: ٣. *El² art. Djizia II*, pp. 573-76. *id.*, 502: *id.* أمين فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٢٢-٥٢٧ وانظر فيما يلي ٢٨٨: ٤٩٢: ٢-٤٩٣ .

وتقبل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب أجلهم عن جزيرة العرب فسكروا جالية ، ولزمهم هذا الاسم أين حلوا ، ثم لزم من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلوا عن أوطانهم (ابن منظور : لسان العرب ١٨: ١٦٢) .

١ الجزية ، ويُطلق عليها في مصر أيضًا الجالية جد- الجوالي ، الضريبة الموضوعة على الرؤوس على الذميين ، تؤخذ طالما ظلَّ الكتابي على عقيدته وتسقط بدخوله الإسلام . وهي واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والمبيد والمجانين ، وكانت تجبى متى بلغ الصبي سن التاسعة . وكانت الجزية في العصر الفاطمي على ثلاث طبقات : من الفنى أربع دنانير وسدس ، ومن المتوسط ديناران وقبراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلاث وربع وحيثان أي دينار و $\frac{3}{4}$. والجزية تجب بحلول الحول ، أي أنها تستأدى مسانحة بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية ، وتستخرج عادة في مصر في شهر المحرم . (راجع ، الخزومي : المنهاج ٣٤ ،

وَكَتَبَ عُثْمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى حَيَّانَ بْنِ شُرَيْحٍ أَنْ يَجْعَلَ جِزْيَةَ مَوْتَى الْقَبِطِ عَلَى أَهْلَائِهِمْ .
وهذا يدلُّ على أنَّ عُثْمَرَ كَانَ يَرَى أَنَّ أَرْضَ مِصْرَ قُبِضَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ الْجِزْيَةَ إِنَّمَا هِيَ عَلَى الْفَرَسِ ،
فَمَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْفَرَسِ كَانَتْ تِلْكَ الْجِزْيَةُ ثَابِتَةً عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ مَوْتَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَضَعُ عَنْهُمْ
مِنَ الْجِزْيَةِ شَيْئًا . قَالَ : وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِصْرُ قُبِضَتْ بِضَلْحٍ ، فَذَلِكَ الضَّلْحُ ثَابِتٌ عَلَى مَنْ بَقِيَ
مِنْهُمْ ، وَأَنَّ مَوْتَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَضَعُ عَنْهُمْ مِمَّا صَلَحُوا عَلَيْهِ شَيْئًا ^١ .

قَالَ اللَّيْثُ : وَضَعَ عُثْمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجِزْيَةَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ،
وَأَلْحَقَ فِي الدِّيَّانِ ضَلْحَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فِي عَشَائِرٍ مِنْ أَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَكَانَتْ تُؤْخَذُ قَبْلَ ذَلِكَ
مِمَّنْ أَسْلَمَ . وَأَوَّلُ مَنْ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ الْحُجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ .

ثُمَّ كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى / عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ أَنْ يَضَعَ الْجِزْيَةَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ
الذَّمَّةِ ، فَكَلَّمَهُ ابْنُ حَجَّيْزَةَ فِي ذَلِكَ قَالَ : أَعِيدُكَ بِاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ سَرَّ ذَلِكَ
بِمِصْرَ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَهْلَ الذَّمَّةِ لَيَتَحَمَّلُونَ جِزْيَةَ مَنْ تَرَهَّبَ مِنْهُمْ ، فَكَيْفَ تَضَعُهَا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ
مِنْهُمْ ؟ فَتَرَكَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ .

وَكَتَبَ عُثْمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى حَيَّانَ بْنِ شُرَيْحٍ : أَنْ تَضَعَ الْجِزْيَةَ عَمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ ،
فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ [الآية ٥ سورة التوبة] ، وَقَالَ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ ﴾ [الآية ٢٩ سورة التوبة] ^٢ .

وَكَتَبَ حَيَّانُ بْنُ شُرَيْحٍ إِلَى عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ :
«أَنَا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَحْضَرَ بِالْجِزْيَةِ حَتَّى سَلَفْتُ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ ثَابِتَةَ
عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ أَتَمَعْتُ بِهَا أَهْلَ الدِّيَّانِ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ
يَأْمُرَ بِقَضَائِهَا فَعَلَّ» .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُثْمَرُ :

«أَنَا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ ، وَقَدْ وَلَيْتُكَ مُجَلَّدَ مِصْرَ ، وَأَنَا عَارِفٌ
بِضَعْفِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ رَسُولِي بِضَرْبِكَ عَلَى رَأْسِكَ عِشْرِينَ سَوْطًا ، فَضَعَّ

^٢ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١٥٥-١٥٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١٥٤-١٥٥ .

الْجَزِيَّةَ عَنْهُنَّ أَسْلَمَ ، فَبَيَّحَ اللَّهُ رَأْيَكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ هَادِيًا وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَائِيًا ، وَلَعَنَ عَرِي لَعْنَةُ أَشَقَى مِنْ أَنْ يَدْخُلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْإِسْلَامَ عَلَى يَدَيْهِ^١ .

قَالَ : وَلَمَّا اسْتَبْعَطَا عُثْرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْخَرَاجَ مِنْ قَبْلِ عُمَرَوِ بْنِ الْقَاصِ ، كَتَبَ إِلَيْهِ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عُمَرَوِ بْنِ الْقَاصِ ، سَلَامٌ اللَّهُ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ وَالَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَرْضُكَ أَرْضٌ وَاسِعَةٌ عَرِيضَةٌ رَفِيعَةٌ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ أَهْلَهَا عُدَدًا وَجَلَدًا وَقُوَّةً فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ ، وَإِنِّهَا قَدْ عَالَجَتْهَا الْفَرَاغَةُ ، وَعَمِلُوا فِيهَا عَمَلًا مُعْكَمًا ، مَعَ شِدَّةِ عُثْوِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، فَتَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعْجَبَ مِمَّا عَجِبْتَ أَنَّهَا لَا تُؤَدِّي نِصْفَ مَا كَانَتْ تُؤَدِّيهِ مِنَ الْخَرَاجِ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى غَيْرِ قُحُوطٍ وَلَا بَجْدُوبٍ^٢ . وَلَقَدْ أَكْثَرْتُ فِي مُكَاتِبَتِكَ فِي الَّذِي عَلَى أَرْضِكَ مِنَ الْخَرَاجِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ سَيَأْتِينَا عَلَى غَيْرِ نَزَرٍ ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَفِيقَ فَتَرْفَعَ إِلَيَّ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ تَأْتِينِي بِمَعَارِضٍ تَغْبِئُ بِهَا لَا تُوافِقُ الَّذِي فِي نَفْسِي ، وَلَسْتُ قَابِلًا مِنْكَ دُونَ الَّذِي كَانَتْ تُؤْخَذُ بِهِ مِنَ الْخَرَاجِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَسْتُ أَذْرِي مَعَ ذَلِكَ مَا الَّذِي تَفْرُكُ مِنْ كِتَابِي وَقَبْضَتِكَ ، فَلَنْ كُنْتُ مُجْزِئًا كَافًا صَحِيحًا ، إِنَّ الْبِرَاةَ لِنَافِةٌ ، وَإِنْ كُنْتُ مُضِيعًا نَظِيمًا ، إِنَّ الْأَمْرَ لَعَلَى غَيْرِ مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ . وَقَدْ تَرَكْتُ أَنْ أَبْتَلِيَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي رَجَاءً أَنْ تَفِيقَ فَتَرْفَعَ إِلَيَّ ذَلِكَ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عُمَالُكَ عُمَّالُ الشَّوْءِ ، وَمَا تَوَالَسَ عَلَيْهِ^٣ وَتَلَقَّفَ ، اتَّخَذُواكَ كَهَفًا ، وَعِنْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ دَوَاءٌ فِيهِ شِفَاءٌ عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ^٤ . فَلَا تَجْزِعْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْكَ الْحَقُّ وَتُعْطَاهُ ، فَإِنَّ التَّهْزِيرَ يُخْرِجُ الدُّرَّ ، وَالْحَقُّ أَتْلَجُ ، وَدَعْنِي وَمَا عَنْهُ تَلْجَلَجُ ، فَإِنَّهُ قَدْ تَبَرَّحَ الْخَفَاءُ . وَالسَّلَامُ^٥ . »

(٥) يولاتى : جذب . (b) يولاتى : عليك . (c) يولاتى : فيه .

^١ قارن مع ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥ : ٣٨٤ . ^٢ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١٥٨ - ١٥٩ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْقَاصِ :

«يَسْمُ اللهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ، لَتَعْبُدَ اللهَ عَمَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَمْرُو بْنِ الْقَاصِ ، سَلَامٌ اللهُ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الَّذِي اسْتَبْطَأَنِي فِيهِ مِنَ الْحَرَاجِ ، وَالَّذِي ذَكَرَ فِيهَا مِنْ عَمَلِ الْقَرَاعَةِ قَبْلِي ، وَإِعْجَابِهِ مِنْ خُرَاجِهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَنَقَصَ ذَلِكَ مِنْهَا مُذْ كَانَ الْإِسْلَامُ . وَلَعَنَرِي لِلْحَرَاجِ يَوْمَئِذٍ أَوْفَرَ وَأَكْثَرَ وَالْأَرْضُ أَغْنَى ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ أَوْغَبَ فِي عِمَارَةِ أَرْضِهِمْ مِمَّا مَذْكَرَ الْإِسْلَامُ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ التَّهَرَّ يُخْرِجُ الذَّرَّ فَحَابَتْهَا حَلَبًا قَطَعَ دُرَّهَا . وَأَكْثَرْتُ فِي كِتَابِكَ وَأَثْبَتَ وَعَرَضْتُ وَثَرْتُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ شَيْءٍ تُخَفِّيه عَلَى غَيْرِ خَبَرٍ ، فَجِئْتُ لَعَنَرِي بِالْمَقْطَعَاتِ الْمُقْذِعَاتِ ، وَلَقَدْ كَانَ لَكَ فِيهِ مِنَ الصُّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ رَصِيحٌ صَارِمٌ بَلِغٌ صَادِقٌ . وَلَقَدْ عَمِلْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ نَقْلِهِ ، فَكُنَّا - بِحَمْدِ اللهِ - مُؤَدِّينَ لِأَمَانَاتِنَا ، حَافِظِينَ لِمَا عَظَّمَ اللهُ مِنْ حَقِّ أَيْمُنِنَا ، نَرَى غَيْرَ ذَلِكَ قَبِيحًا ، وَالْعَمَلُ بِهِ سَيِّئًا . فَيَعْرِفُ ذَلِكَ لَنَا ، وَيُصَدِّقُ فِيهِ قِيلُنَا . مَقَادَ اللهُ مِنْ تِلْكَ الطُّعْمِ ، وَمِنْ شَرِّ السَّيِّمِ ، وَالْإِجْبَاءِ عَلَى كُلِّ مَا نَمُ . فَأَقْبِضْ عَمَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَزَّهَنِي عَنْ تِلْكَ الطُّعْمِ الذِّيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِيهَا بَعْدَ كِتَابِكَ الَّذِي لَمْ تَمْتَقِ فِيهِ عَرْضًا ، وَلَمْ تَكْرَمْ فِيهِ أُنْحَا ، وَاللهُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ لَأَنَا حِينَ يُرَادُ ذَلِكَ مِنِّي أَشَدَّ لِنَفْسِي غَضَبًا ، وَلَهَا إِتْرَاقًا وَإِكْرَامًا ، وَمَا عَمِلْتُ مِنْ عَمَلٍ أَرَى عَلَيَّ فِيهِ مَتَمَلِّقًا ، وَلَكِنِّي حَفِظْتُ مَا لَمْ تَحْفَظْ ، وَلَوْ كُنْتُ مِنْ يَهُودٍ يَتَرَبَّحُ مَا زِدْتُ - يَغْفِرُ اللهُ لَكَ وَلَنَا - وَسَكَتٌ عَنْ أَشْيَاءٍ كُنْتُ بِهَا عَالِمًا ، وَكَانَ اللُّسَانُ بِهَا مِنِّي ذَلُولًا ، وَلَكِنْ اللهُ عَظَّمَ مِنْ حَقِّكَ مَا لَا يُجْهَلُ^١ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

«مِنْ عَمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْقَاصِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ عَجِبتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالْخَرَاجِ ،
وَكِتَابِكَ إِلَى سَيِّاتِ^(أ) الطُّرُقِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
الْبَيِّنِ ، وَلَمْ أَقْدِمَكَ إِلَى مِصْرَ أَعْجَلَهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ ، وَلَكِنِّي
وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَحْتُ مِنْ تَوْفِيرِكَ الْخَرَاجَ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ . فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي
هَذَا ، فَاحْمِلِ الْخَرَاجَ فَإِنَّمَا هُوَ فِيءُ الْمُسْلِمِينَ ، وَعِنْدِي مِنْ قَدْ تَعَلَّمْ قَوْمٌ
مُخَصَّرُونَ . وَالسَّلَامُ .

/فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، لَعُمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، مِنْ عُمَرُو بْنِ الْقَاصِ ،
سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَبِيطُنِي فِي الْخَرَاجِ ، وَيَزْعُمُ أَنِّي
أَعْيَدْتُ^(ب) عَنْ الْحَقِّ ، وَأَتُكِّبُ عَنِ الطُّرُقِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْغَبُ عَنْ صَالِحِ مَا
تَعَلَّمَ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْأَرْضِ اسْتَنْظَرُونِي إِلَى أَنْ تُذَرِكَ غَلَّتْهُمْ ، فَتَنْظَرْتُ
لِلْمُسْلِمِينَ فَكَانَ الرِّفْقُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يُخْرَقَ بِهِمْ فَيُصِيرُوا إِلَى يَبْعَ مَا لَا
غِنَى بِهِمْ عَنْهُ . وَالسَّلَامُ^١ .

وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : جَبَاهَا عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ
أَلْفَ دِينَارٍ ، وَجَبَاهَا الْمُقَوِّقُ قَبْلَهُ بِسَنَةِ عَشْرِينَ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
بِمَا كَتَبَ بِهِ . وَجَبَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي مَرْزُوحٍ ، حِينَ اسْتَعْمَلَهُ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى
مِصْرَ ، أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ عُثْمَانُ لِعُمَرُو بْنِ الْقَاصِ بَعْدَمَا عَزَلَهُ عَنْ مِصْرَ : يَا أَبَا عَبْدِ
اللَّهِ ، ذُرْتُ اللَّفْحَةَ بِأَكْثَرِ مَنْ ذَرَّهَا الْأَوَّلُ . قَالَ : أَضَرَّرْتُمْ بَوْلَدَهَا . فَقَالَ : ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَحِثِ الْفَصِيلُ^٢ .

وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى وَزْدَانَ - وَكَانَ قَدْ وَلِيَ خَرَاجَ مِصْرَ - أَنْ يَزِدَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ
مِنَ الْقَبِيضِ فِيرَاطًا . فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَزْدَانُ : كَيْفَ تَزِيدُ عَلَيْهِمْ وَفِي عَهْدِهِمْ أَلَّا يُزَادَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ ؟ فَعَزَلَهُ
مُعَاوِيَةُ ، وَقِيلَ فِي عَزْلِ وَزْدَانَ غَيْرَ ذَلِكَ .

(أ) بولاق : بينات . (ب) بولاق : أحميد .

وقال ابن لَهَيْعَةَ : كان الدُّيُونُ في زَمَانِ مُعَاوِيَةَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين ، فأعطى مَسْلَعَةَ بن مَخْلَدٍ أهل الدُّيُونِ أَعْطِيَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِ عِيَالِهِمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَتَوَائِبَ الْبِلَادِ مِنَ الْجُسُورِ وَأَرْزَاقَ الْكُتُبَةِ وَمَحْلَلَانَ الْقَمَحِ إِلَى الْحِجَازِ ، ثُمَّ بَقِيَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ فَضَلًا^١ . وقال ابن عُفَيْرٍ : فَلَمَّا نَهَضَتِ الْإِبِلُ لِقِيَّتِهِمْ بَرَحَ بن حُشَكُلٍ^٢ الْمُثَرِّي ، فقال : ما هذا ؟ ما بال مالنا يَخْرُجُ من بلادنا ؟ رُدُّوه ؛ فَرُدُّوه حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ : أَخَذْتُمْ أَعْطِيَاتَكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ وَعَطَاءَ عِيَالِكُمْ وَتَوَائِبَكُمْ ؟ قالوا : نعم ؛ قال : لا بَارَكَ اللهُ لَهُمْ فِيهِ ، خُذُوهُ فَسَارُوا بِهِ^٣ . وقال بعضهم : بجبى عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار ، فكتب إليه عمر بن الخطاب بهجزه ويقول له : جبائة الروم عشرون ألف ألف دينار ؛ فلما كان العام المقبل بجاه عمرو اثني عشر ألف ألف دينار . وقال ابن لَهَيْعَةَ : جبى عمرو بن العاص الإِسْكََنْدَرِيَّةَ الْجَزْيَةَ سِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ ، لَأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ مِنْ أَهْلِ الذُّمَّةِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ^٤ .

ذِكْرُ انْقِصَاصِ الْقَبْضِ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَصْدَاقِ فِي ذَلِكَ

خَرَجَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبَيْهَقِيُّ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تُجْبُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ؟ » قالوا : وَكَيْفَ نَرَى ذَلِكَ كَاتِبًا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ « قَالَ : أَيُّ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ عَنْ قَوْلِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ؛ قالوا : عم ذلك ؟ قال : تُتَشَكُّكُ ذِمَّتُهُ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَيُشَدُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُلُوبَ أَهْلِ الذُّمَّةِ فَيَفْتِنُونَ مَا فِي أَهْدِيهِمْ^٥ . قال أَبُو عُمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْكِتْدِيُّ^٦ فِي كِتَابِ « أَتْرَاءَ مِصْرَ » : وَفِي إِثْرَةِ الْحَرْبِ بْنُ يُوسُفَ أَمِيرَ مِصْرَ كَتَبَ عِبِيدُ اللَّهِ بْنُ الْحَفِصِ ، صَاحِبَ خَرَاجِهَا ، إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِأَنْ أَوْضَعَ مِصْرَ تَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ ، فَرَادَ عَلَى كُلِّ دِينَارٍ قِيرَاطًا ، فَانْتَقَضَتْ كَوْرَةُ نَتَو^٧ وَتَمَّتْ وَفُزِيَتْ وَطَرِيبَةُ

(١) بولاق : كسحل . (ب) بولاق : بنو .

١ فيما يلي ٢٥٢ . التاريخي الكندي مؤرخ مصري توفي بعد سنة ٥٣٥٠هـ

٢ ٩٦٦م ، إقعد - مع ابن عبد الحكم - للمصنف الرئيسي لفترة

الولاية في مصر الإسلامية ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الكثيرة

سوى كتاب «ولاية مصر» - الذي يسميه المقرئ بأمره

مصر» و«كتاب قضاة مصر» . أما سائر مؤلفاته والتي اعتمد -

٢ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١٠٢ .

٣ فيما يلي ٤٥١ .

٤ البخاري : الجامع الصحيح ، باب الجزية ١٧ .

٥ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص

وعائلة الخَوْف الشرقي ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْخُرَّ بِأَهْلِ الدِّيوان ، فحاربوهم فَقَتَلَ مِنْهُمْ بَشَرًا كَثِيرًا ، وذلك أَوَّلُ انْتِقَاضِ الْقَبْطِ بِمِصْرَ . وَكَانَ انْتِقَاضُهُمْ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَمِائَةٍ ، وَرَاقَبَهُ الْخُرُّ بْنُ يُوسُفَ بِدِقِّهَاطٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ انْتَقَضَ أَهْلُ الصُّعَيْدِ ^١ .

وَحَارَبَ الْقَبْطُ عَشَائِلَهُمْ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ حُطَّلَةَ بْنَ صَفْوَانَ أَمِيرَ مِصْرَ ، أَهْلَ الدِّيوانِ فَقَتَلُوا مِنَ الْقَبْطِ نَاسًا كَثِيرًا وَظَلَفَ بِهِمْ ^٢ .

وَخَرَجَ يُحْنَسُ ^(a) - رَجُلٌ مِنَ الْقَبْطِ - فِي سَعْنُودَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ أَمِيرَ مِصْرَ ، فَقَتَلَ يُحْنَسَ ^(a) فِي كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ^٣ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ . وَخَالَفَتِ الْقَبْطُ بِرَشِيدَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْجَعْفَدِي - لَمَّا دَخَلَ مِصْرَ فَارًا مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ - بِقُثْمَانَ بْنِ أَبِي نِشْقَةَ ^(b) ، فَهَزَمَهُمْ ^٤ .

وَخَرَجَ الْقَبْطُ عَلَى يَزِيدَ بْنِ حَاتِمَ بْنِ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ أَمِيرِ مِصْرَ ، بِنَاحِيَةِ سَحَا ، وَنَابَذُوا الْعُمَالِ وَأَخْرَجُوهُمْ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَةٍ ، وَصَارُوا إِلَى شَبْرَا شَنْبَاطَ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمُ أَهْلُ الْبَشْرُودِ وَالْأُوسِيَّةِ وَالْبُجُومِ ، فَأَتَى الْحَبَرُ يَزِيدَ بْنَ حَاتِمَ ، فَقَعَدَ لِنُصْرَةِ حَبِيبِ الْمُهَلَّبِيِّ عَلَى أَهْلِ الدِّيوانِ وَوُجُوهِ مِصْرَ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ ، فَبَيَّعَهُمُ الْقَبْطُ وَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَلْقَى الْمُسْلِمُونَ النَّارَ فِي عَشْكَرِ الْقَبْطِ ، وَانْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مِصْرَ مُنْهَزِمِينَ ^٥ .

وَفِي وِلَايَةِ مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ بْنِ رَبَاحَ عَلَى مِصْرَ ، خَرَجَ الْقَبْطُ يَنْتَهَبِ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ عَشْكَرٌ فَهَزَمَهُمْ ^٦ .

ثُمَّ انْتَقَضُوا مَعَ مَنْ انْتَقَضَ فِي سَنَةِ سِتٍّ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، فَأَوَاقَعَ بِهِمُ الْأَفْشِينَ فِي نَاحِيَةِ الْبَشْرُودِ ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونِ ، فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ الرِّجَالِ وَبَيْعِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، فَبَيْعُوا وَشَبَّيَ أَكْثَرَهُمْ ^٧ .

(a) بولاق : يحنس . (b) بولاق : قسمة .

^١ الكندي : ولاة مصر ١٩٥ وفيما يلي ٢ : ٢٦١ .

^٢ نفسه ١٠٣ .

^٣ نفسه ١١٦ . ^٤ نفسه ١١٨ .

^٥ نفسه ١٣٧-١٣٨ . ^٦ نفسه ١٤١ .

^٧ نفسه ٢١٥ ، ٢١٦ .

= عليها المقرئ ومعاصره ابن دقماق ، فلم تصل إلينا . وقد نقل المقرئ تقريباً نص كتاب « ولاة مصر » للكندي مؤلفاً على صفحات كتاب الخطط ، تماماً مثلما فعل مع مصادر أخرى مثل ابن عبد الحكم وابن رضوان وابن المأمون وابن الطوير وابن عبد الظاهر ... (انظر المقدمة) .

ومن حيثئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم فلم / يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى تكيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من التكاية بوضع أيديهم في كتاب الحراج. وكان للمسلمين فيهم وقائع يأتي خبرها في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ذكر نزول العرب بريف مصر

وانخاذهم الزرع معاشا وما كان في نزولهم من الأخذات

قال الـكنـدي، في ولاية الوليد بن رفاعه القهـمي على مصر: نُقِلَتْ قَيْسٌ إلى مصر في سنة تسع ومائة، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من قهـم وعذوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك، فسأله أن يتنقل إلى مصر منهم أربابا، فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا يتزلهم بالعسـطاط، ففرض^(a) لهم ابن الحبحاب، وقبـم بهم، فأنزلهم الحوف الشرقي وقرقهم فيه.

ويقال إن غيـبـد الله بن الحبحاب، لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر، قال: ما أرى لقيس فيها خطا إلا لناس من مجدلة وهم قهـم وعذوان؛ فكتب إلى هشام: وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحي من قيس، ونقضهم ورفع من ذكرهم، وإني قد كنت مصر ولم أر لهم خطا إلا أربابا من قهـم، وفيها كوز ليس فيها أحد، وليس يضرب بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا، وهي بلبس، فإن رأى أمير المؤمنين أن يئزلهـا هذا الحي من قيس فليقل. فكتب إليه هشام: أنت وذاك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر^(b)، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بلبس، وأمرهم بالزوع. ونظر إلى الصدقة من المشور فصرفها إليهم فاشترؤا إبلأ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر. ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعـل الرجل يشتري المهر فلا يملك إلا شهرا حتى يركب، وليس عليهم متونة في إغلاف^(c) إبلهم ولا خيلهم لجودة مزعاهم.

(a) بولاق: فرض. (b) بولاق: نصر. (c) بولاق: علف.

فلما بَلَغَ ذلكَ عاتمة قومهم تحمّلوا إليهم ، فوصلَ إليهم خمس مائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة ، فأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت ، فصار ببليّيس ألف وخمس مائة أهل بيت من قيس .

حتى إذا كان زمنُ مزوان بن محمد ، وولي الحويزة بن شهيل الباهلي مصر ، مالت إليه قيس ، فمات مزوان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قديم^١ .

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة كشف إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الحراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجمعت بهم ، فخرج عليه أهل الحوف وعشكروا ، فهتأ إليهم الجيوش وحازتهم ، فقتل من الجيش جماعة ، فكتب إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد يخبره بذلك ، فعقد لهزيمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به إلى مصر ، فنزل الحوف ، وتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا بأداء الحراج ، فقبل هزيمة منهم واستخرج خراجهم كله^٢ .

ثم إن أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيروزي أمير مصر ، وذلك أنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم ، فانتقصوا من القصبه أصابع ، فظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فعشكروا وساروا إلى القسطنطاط ؛ فخرج إليهم الليث في أربعة آلاف من مجند مصر ، في شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى معهم في رمتان ، فانهزم عنه الجند في ثاني عشره ، وبقي في نحو المائتين ، فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمتهم حتى بلغ بهم غيظا^٣ ، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة ، وبعث الليث إلى القسطنطاط بثمانين رأسا من رؤوس القيسية ورجع إلى القسطنطاط .

وعاد أهل الحوف إلى منازلهم ومنتقوا الحراج ، فخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة سبع وثمانين ومائة ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الحراج من أهل الأخواف^٤ ، إلا بجيش يبعث به معه . وكان مخفوظ بن سليم^٥ بباب الرشيد ، فرقع مخفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا ، فولاه الحراج ، وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها^٦ .

(a) بولاق : الحوف . (b) الكندي : سليمان .

^١ الكندي : ولاية مصر ٩٨-٩٩ .

^٢ غيظا : ضيقة تغرب بلييس . (انظر فيما يلي ٤٩٧) .

^٣ الكندي : ولاية مصر ١٦٦-١٦٧ .

^٤ نفسه ١٦٠-١٦١ .

وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الخَوْف من أداء الخراج^١، فَبَعَثَ أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن مُعَاذ في أمرهم، فَتَزَلَ بِلَيْثِيس في شَوَّال سنة إحدى وتسعين ومائة. وَصُرِفَ الحسين بن جميل عن إمارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة^٢، وولي مالِك بن دَلْهَم.

وَفَرَّغَ يحيى بن مُعَاذ من أمر الخَوْف، وَقَدِمَ المُشْتَطاط في جمادى الآخرة، فَوَزَدَ عليه كِتَابُ الرُشِيد بِأمره بالخروج إليه. فَكَتَبَ إلى أهل الخَوْف أنْ أَقْدَمُوا حتى أوصي بكم مالِك بن دَلْهَم، وَأَدْخَلَ بينكم وبينه في أمر خراجكم، فَدَخَلَ كُلُّ رَئِيسٍ مِنْهُمْ مِنَ الْيَمَانِيَةِ وَالْقَيْسِيَةِ - وَقَدْ أَعَدَّ لَهُم الْقَبُود - فَأَمَرَ بِالْأَبْوَابِ فَأُخِذَتْ، ثُمَّ دَعَا بِالْحَدِيدِ فَقَبَضَهُمْ، وَتَوَجَّهَ بِهِمْ لِلنَّصَفِ مِنْ رَجَبِ مَنَاهَا^٣.

وفي إمارة عيسى بن يزيد الجلودي على مصر، ظَلَمَ صَالِحُ بْنُ شَيْبَرَزَادَ عَامِلَ الْخَرَّاجِ النَّاسَ وَزَادَ عَلَيْهِمْ فِي خَرَاجِهِمْ، فَانْتَقَضَ أَهْلُ أَشْقَلِ الْأَرْضِ، وَعَشَكُرُوا قَبَضَتْ / عَيْسَى بِابْنِهِ مُحَمَّدٍ فِي جَيْشٍ لِقَاتِلِهِمْ، فَتَزَلَ بِلَيْثِيسَ وَحَارَبَهُمْ، فَتَجَا مِنَ الْمَرَكَةِ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَذَلِكَ فِي صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ^٤.

فَتَزَلَ عَيْسَى عَنْ مِصْرَ وَوَلَّى عُثْمَيْرُ بْنُ الْوَلِيدِ التُّمَيْمِيَّ، فَاسْتَعَدَّ لِحَرْبِ أَهْلِ الْخَوْفِ، وَسَارَ فِي مَجْبُوشِهِ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ، فَزَحَفُوا عَلَيْهِ وَاقْتَتَلُوا، فَقُتِلَ مِنْ أَهْلِ الْخَوْفِ جَمْعٌ وَانْهَزَمُوا، فَتَبِعَهُمْ عُثْمَيْرُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَطَعَفَ عَلَيْهِ كَمِيزٌ لِأَهْلِ الْخَوْفِ فَقَتَلُوهُ لَسَتْ عَشْرَةَ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ^٥.

فَوَلَّى عَيْسَى الْجَلُودِي ثَانِيًا، وَسَارَ إِلَيْهِمْ فَلَقِيَهُمْ بِثَنِيَةِ مَطَرٍ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَقْفَةٌ آلَتْ إِلَى أَنْ انْهَزَمَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُشْتَطاطِ، وَأَحْرَقَ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِ مِنْ رَحْلِهِ، وَخَنَذَقَ عَلَى الْمُشْتَطاطِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبِ [سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ] ^(٦).

وَقَدِمَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ الرَّشِيدِ مِنَ الْعِرَاقِ، فَتَزَلَ الْخَوْفَ وَأَوْسَلَ إِلَى أَهْلِهِ، فَامْتَنَعُوا مِنْ طَاعَتِهِ، فَقَاتَلَهُمْ فِي شُعْبَانَ وَدَخَلَ - وَقَدْ ظَفَرَ بِعِدَّةٍ مِنْ وُجُوهِهِمْ - إِلَى الْمُشْتَطاطِ فِي شَوَّالٍ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْعِرَاقِ فِي الْحَرَمِ سَنَةِ خَمْسِ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ بِجَمْعٍ مِنَ الْأَسَارِيِّ^٧.

(a) زيادة من الكلبي.

^١ الكلبي: ولاية مصر ١٦٩. ^٢ نفسه ١٧٠. ^٣ نفسه ١٧١، ١٧٢. ^٤ نفسه ٢٠٨. ^٥ نفسه ٢٠٩-٢١٠.

^٦ نفسه ٢١١. ^٧ نفسه ٢١٢-٢١٣.

فلما كان في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، انتقض أشفل الأرض بأشره - غرب البلاد وقبطنها - وأخرجوا الشمال ، وخلعوا الطاعة لشوء سيرة عُثَالِ السُّلْطَانِ فِيهِمْ . فكانت بينهم وبين عساكر القسطنطاط محروب امتدت إلى أن قديم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر ، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فسخط على عيسى بن منصور الرافقي - وكان على إمارة مصر - وأمر بحلّ لوائه وأخذ به لباس البياض عقوبة له ، وقال : «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فيلك وفعل عُثَالِك ، حَمَلْتُمُ النَّاسَ مَا لَا يُطِيقُونَ ، وَكَتَفْتَنِي الْخَبَرَ حَتَّى تَفَاقَمَ الْأَمْرُ ، وَاضْطَرَبَ الْبَلَدُ»^١ .

- ثم عقد المأمون^٢ على بجيش بقى به إلى الصعيد ، وارتحل هو إلى سحّا ، وبعث بالأنشين إلى القبط - وقد خلعوا الطاعة - فأوقع بهم في ناحية البشرد ، وحصرهم حتى نزلوا على محكم أمير المؤمنين ، فحكّم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فسبي أكثرهم . وتبع المأمون كل من يؤمّه إليه بخلاف ، فقتل ناسا كثيرا ، ورجع إلى القسطنطاط في صفر ، ومضى إلى خلوان ، وعاد فازتحل لثمان عشرة خلت من صفر . وكان مقامه بالقسطنطاط وسحّا وخلوان تسعة وأربعين يوما^٣ .
- وكان خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون - على حكم الإنصاف في الجباية - أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار . ويقال إن المأمون لما سار في قري مصر ، كان يبتى له بكل قرية دكة يضرب عليها شرادقه والعساكر من حوله . وكان يقيم في القرية يوما وليلة ، فمر بقرية يقال لها «طاء الثعل» فلم يدخلها لحقارتها . فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز - تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية - وهي تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة من ظلمة ، فوقف لها - وكان لا يمشي أبدا إلا والراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية قالت : يا أمير المؤمنين ، نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي ، والقبط تعجزني بذلك ، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يُشرفني بخلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف والغنى ، ولا تشمت بي الأعداء ، وبكت بكاء كثيرا . فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه إليها ونزل . فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفرخ والسمك والثوابل والشكر والقسل والطيب والشع

(هـ) الأصل وبولاق : يومي .

١ الكندي : ولاية مصر ٢١٦ .

٢ الكندي : ولاية مصر ٢١٦ .

٣ لأي مغيث موسى بن إبراهيم .

والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ؟ فأحضرت جميع ذلك إليه بزيادة .
 وكان مع المأمون أخوه المغتصم ، وابنه القباس ، وأولاد أخيه الواثق والمعتزل ، ويحيى بن أئتم
 والقاضي أحمد بن داود ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد ، ولم تكل أحدًا
 منهم ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى إنه
 اشتغف ذلك . فلما أصبح - وقد عزم على الرحيل - حضرت إليه ، ومعهما عشر وصائف مع كل
 وصيفة طين ، فلما عايتها المأمون من بعد قال لمن حضر : قد جاءكم القبطية بهديّة الرّيف :
 الكامخ ، والصحناء ، والصبر .

فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طين كيش من ذهب ، فاشتغمت ذلك وأقرها
 بإعادته ، فقالت : لا ، والله لا أقبل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله ، فقال : هذا
 والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ولا
 تحقر بنا ، فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ، ولا تحب الثقليل عليك ، فزدي مالك بارك الله
 فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا -
 وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض - ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا شيء
 كثير . فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاهما من قريتها «طاء الثعل» مائتي فدان بغير
 خراج ، وأنصرف متعجبين من كبر ثرواتها وسعة حالها .^١

وَرَوَيْتُ أَنَّ أَرْضِي مِصْرَ بَعْدَ مَا فَتَحَ الْإِسْلَامُ فِي الْقِبْطِ

وَنَزَلَتْ ^(٨) الْقَرْبُ فِي الْقَرْيِ ، وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الرَّوْكِ الْأَخْصِرِ النَّاصِرِي

/ وكان من خبّر أراضي مصر - بعد نزول العرب بأرضها واشتيطانهم وأهلهم
 فيها ، وأخذهم الزرع معاشا وكسبا ، وأتت باد جمهور القبط إلى إظهار

(٨) بولاق : نزول .

خراجية ، ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقا راجع ، Cahen,
 Cl., *Et* art. *Iktā* III, p. 1116; id., *Et* art. *Kabāla*
 IV, pp. 337-38، أي نوا : الدولة الفاطمية في مصر ١٠١٨ -
 ٧٢٣ - ٧٢٤ .

^١ إلى هنا ينتهي الجزء الأول من نشرة Gaston Wiet .
^٢ عن القبالة وهو عمل مالي يحث ، الغرض منه تسهيل
 جباية الخراج ، بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفتح أرضا

الإسلام^١، واختِلَاطُ أَنْسَابِهِمْ بِأَنْسَابِ الْمُسْلِمِينَ لِنِكَاحِهِمُ الْمُسْلِمَاتِ - أُنْ مَتَوَلَّى خَرَجَ مِصْرَ كَانَ يَجْلِسُ فِي جَامِعِ عَمْرُو بْنِ الْقَاصِ مِنَ الْقُسْطَاطِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنَهَّأَ فِيهِ قِبَالَةُ الْأَرْضِيِّ، وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ الْقُرَى وَالْمَدَنِ، فَيَقُومُ رَجُلٌ يُنَادِي عَلَى الْبِلَادِ صَفَقَاتَ صَفَقَاتٍ، وَتُكْتَابُ الْخَرَاجُ بَيْنَ يَدَيِ مُتَوَلَّى الْخَرَاجِ يَكْتُبُونَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ تَبَالِغُ الْكُورِ وَالصَّفَقَاتِ عَلَى مَنْ يَتَقَبَّلُهَا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَتْ الْبِلَادُ يَتَقَبَّلُهَا مُتَقَبِّلُهَا لِأَرْبَعِ^(a) سَنِينَ لِأَجْلِ الظَّمَا وَالِاسْتِخَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِذَا انْقَضَى هَذَا الْأَمْرُ، خَرَجَ كُلُّ مَنْ^(b) تَقَبَّلَ أَرْضًا وَضَمِنَهَا إِلَى نَاجِيَتِهِ، فَتَوَلَّى^(c) زِرَاعَتَهَا وَاصْلَاحَ مَجْسُورِهَا وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَنْ يَتَّقِدْبِهِ لِذَلِكَ، وَيَحْمِلُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَرَاجِ فِي إِبَانِهِ عَلَى أَقْسَاطٍ، وَيُخْتَسَبُ لَهُ مِنْ مَبْلَغِ قِبَالَتِهِ وَضَمَانِهِ لِتِلْكَ الْأَرْضِيِّ مَا يُثَبِّتُهُ عَلَى عِمَارَةِ مَجْسُورِهَا وَمَنْدَ ثُرَاعِيهَا وَخَفَرِ حُلُجِهَا، بِضَرَائِبِ مُقَدَّرَةٍ فِي دِيْوَانِ الْخَرَاجِ^٢.

وَبِتَأْخُرَ مِنْ مَبْلَغِ الْخَرَاجِ فِي كُلِّ سَنَةٍ شَيْءٌ^(d) فِي جِهَاتِ الضَّمَانِ وَالْمُتَقَبِّلِينَ، وَيُقَالُ لِمَا تَأْخُرُ مِنْ مَالِ الْخَرَاجِ «الْبَوَاقِي». وَكَانَتْ الزُّلَاةُ تُشَدُّ فِي طَلَبِ ذَلِكَ مَرَّةً وَتُسَابِخُ بِهِ مَرَّةً. فَإِذَا مَضَى مِنَ الزُّمَانِ ثَلَاثُونَ سَنَةً حَوَّلُوا الشَّئْءَ، وَرَأَوْا الْبِلَادَ كُلَّهَا وَعَدَّلُوهَا تَقْدِيرًا جَدِيدًا، فَيَزِيدُ فِيمَا يَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ مِنْ غَيْرِ ضَمَانِ الْبِلَادِ، وَيُقَصِّصُ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّقْصِصِ مِنْهَا.

وَكَانَ^(e) ذَلِكَ يُحْتَمَلُ فِي جَامِعِ عَمْرُو بْنِ الْقَاصِ إِلَى أَنْ عَمَّرَ أَحْمَدُ بْنُ طُغُولُونَ جَامِعَهُ، وَصَارَ الْعَشَكُزُ مَنَزِلًا لِأَمْرَاءِ مِصْرَ، فَتَقِيلَ الدِّيْوَانُ إِلَى جَامِعِ أَحْمَدَ بْنِ طُغُولُونَ. ثُمَّ نُقِلَ

(a) بولاق : بالأربع . (b) بولاق : من كان . (c) بولاق : فبتولى . (d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق : ولم يزل .

^٢ عن خراج الأرض الزراعية راجع ، ضياء الدين الرئیس : الخراج في الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ ، Cahen, Cl., *El art. Kharādj* IV pp. 1062-66; وعن الخراج في مصر بصفة خاصة راجع ، Cooper, R.S., «The Assessment and collection of Kharāj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1976), pp. 365-82; Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 504-741/ A.D. 1169-1341*, pp. 73-79; Franz-Murphy, G., *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, *SAI Cahier n°9* Le Caire 1986.

^١ حول تعريب وأسلمة مصر راجع ، Anawati, G.C., «Factors and Effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria», in Vryonis, In. (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden 1975, pp. 17-41; Décobert, Chr., «Sur l'arabisation et l'islamisation de l'Égypte médiévale», dans Décobert, Chr. (ed.), *Itinéraires d'Égypte*, Le Caire 1992, pp. 273-300 العربية في مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، Gladys ١٩٧-١٩٧٠ Frantz-Murphy, *CE art., Copts under the Umayyads*, 7, pp. 2286-89.

في (a) أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس، فلما مات الوزير نُقِلَ الدَّيْوانُ إلى القصر بالقاهرة، فاستمر (b) به مُدَّة الدولة الفاطمية، ثم نُقِلَ منه بَعْدَهَا. (c) وسأتلو عليك من نَبَأ ذلك ما يُطْبِيعُ به ما ذَكَرْتُ (d).

قال ابن زُولاخ في كتاب «أخبار المادرائين»^١ كُتِّبَ مصر: وحَضَرَ أبو الحسن وهب بن إسماعيل مجلس أبي بكر محمد (e) بن علي المادرائي في المسجد الجامع، وهو يُقَدِّم الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة أُمِرُ بالثناء على صَفْقَةٍ، فحُذِّها سِرْكَةً بيني وبينك. فتودي على صَفْقَةٍ، فقال أبو بكر: اغتدوها على أبي الحسن، فقَدِّت عليه وعَمِلَها (f)، فأفَضَلت له أربعين ألف دينار، فاستنصَّ عشرين ألف دينار ولم يدر ما يَحْتَمِلُ فيها إلى أن اجتمع مع أبي يعقوب - كاتب أبي بكر - ليتَحَدَّثَا، فقال أبو يعقوب: رأيتُ الشَّيْخَ - يعني أبا بكر المادرائي - في اليوم مشغول القلب، أراد جمع مالٍ وقد عَجِزَ عنه، فقال له أبو الحسن: عندي نحو عشرين ألف دينار، فقال: جفني بها، فأَتَيْتُها إليه وجاءه خَطُّه بالبلغ.

فأتفق أن مَضَى أبو الحسن إلى أبي بكر المادرائي، فقال له: تلك الصَّفْقَةُ قد غلقت ما عليها وفَضَّل أربعون ألف دينار، وقد حَصَلَ عندي عَشْرُونَ ألف دينار حَمَلَتْها إلى أبي يعقوب، وأرسلت في استِخْراج الباقي وأَحْمِلْه (g). فقال المادرائي: ما هذا العَجِزُ؟ إنما قلت لك تكون بيني وبينك خَوْفًا من تَفْرِيطِكَ، وإنما أَرَدْتُ حِفْظَ المال عليك. ثم أَمَرَ أبا يعقوب أن يَرُدَّ عليه ما دَفَعَه إليه، وقال لأبي الحسن: رُدَّ عليه خَطُّه. فَقَبِضَ ما دَفَعَه إلى أبي يعقوب.

ويَلْغَ خِراج مصر، في السَّنَةِ التي دَخَلَ فيها بِجَوْهَرُ القَائِد: ثلاثة آلاف ألف دينار وأربع مائة ألف دينار وِثَقًا.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق واستمر. (c-c) ساقطة من الأصل. (d) بولاق: تحملها. (e) بولاق: فاحمله.

١٣٤٥ هـ. توجد هذه الأسرة في الإدارة المصرية (راجع: ابن سعيد: المغرب (قسم مصر) ٣٥٠-٣٥٣؛ المقرئ: القلي الكبير ١: ٣٣، ٣٤٣-٣٤٤؛ ٣: ٤٦٦-٤٦٧؛ ٦: ٢٣٤-٢٣٥).
Gottschalk, A.L., *Die Madarā'ijjūn*, ٢٤٧
Berlin-Leipzig 1931, id., *El² art., Madharā'iy*,
p. 957. سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين
٣٩-٥٥، وانظر فيما يلي ١٥٥:٢-١٥٧.

١ للمادرائيون. نسبة إلى مادرايا - قرية فوق واسط بالعراق من أعمال قم الصلح مقابل نهر سائس (معجم البلدان ٣٤:٥) - اسم لأسرة من أصول عراقية تولى أفرادها مناصب إدارية ومالية هامة في مصر والشام بين سنتي ٢٦٦-٣٣٥ هـ/ ٨٧٩-٩٤٦ م، أشهرهم أبو بكر أحمد بن إبراهيم المادرائي وابنه علي بن أحمد وأبو علي الحسن بن أحمد أبو زبور ثم أبو بكر محمد بن علي بن أحمد والذي انتهت بوفاته سنة

وقال^١ في كِتَابِ «سِيَرَةِ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ مَعَدَّةً»: وَلَسْتُ عَشْرَةَ بَقِيَتْ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةَ ثَلَاثَ وَسِتِّينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ، قُلْتُ الْمُعِزُّ لِدِينِ اللَّهِ الْخَرَاجَ وَوُجُوهَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرَ ذَلِكَ، يَتَقَوَّبُ بْنُ كِلْسٍ وَغُسْلُوحُ ابْنِ الْحَسَنِ، وَجَلَسَا عِنْدَهُ هَذَا الْيَوْمَ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ فِي جَامِعِ ابْنِ طُولُونَ لِلتَّاءِ عَلَى الصُّمَاعِ وَسَائِرِ وَجُوهِ الْأَمْوَالِ، وَخَضَرَ النَّاسُ لِلْقِبَالَاتِ، وَطَلَبُوا الْبَقَايَا مِنَ الْأَمْوَالِ مِمَّا عَلَى الْمَالِكِينَ وَالْمُتَقَبِّلِينَ وَالْعُمَّالِ^٢.

وقال جَامِعُ «سِيَرَةِ الْوَزِيرِ النَّاصِرِ لِلدِّينِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاذُورِيِّ»^٣: وَأَرَادَ أَنْ يَغْرِفَ قَدْرَ ارْتِفَاعِ الدَّوْلَةِ^٤، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الثَّقَفَاتِ، لِيُقَاسَ بَيْنَهُمَا، فَتَقَدَّمَ إِلَى أَصْحَابِ الدَّوَاوِينِ بِأَنْ يَفْتَحِلَ كُلُّ مِنْهُمْ ارْتِفَاعَ مَا يَجْرِي فِي دِيْوَانِهِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الثَّقَفَاتِ، فَغَضِبَ ذَلِكَ وَسَلَّمَهُ إِلَى مُتَوَلِّي دِيْوَانِ الْمَجْلِسِ - وَهُوَ زِمَامُ الدَّوَاوِينِ - فَتَنَظَّمُ عَلَيْهِ عَمَلًا جَامِعًا وَأَخْضَرَهُ إِثَاءَهُ. فَرَأَى ارْتِفَاعَ الدَّوْلَةِ أَلْفِي أَلْفَ دِينَارٍ: مِنْهَا الثَّمَانُ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَ(ب)ثَقَاتِهِ بِإِزَاءِ ارْتِفَاعِهِ، وَمِنْهَا الرَّيْفُ وَبَاقِي الدَّوْلَةِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ (ب)^٥، يَتَقَيَّفُ مِنْهَا عَنْ مَقُولٍ وَمُنْكَسِرٍ عَنْ مَوْتَى وَهَرَابٍ وَمَقْفُودٍ مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ، وَيَتَقَيَّ ثَمَانُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ يُضْرَفُ مِنْهَا لِلرِّجَالِ عَنْ وَاجِبَاتِهِمْ وَكَسَاوِيهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَعَنْ ثَمَنِ

(a) بولاق: في. (b-b) ساقطة من الأصل انتقال نظر.

and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk

Era (edited by Vermulen & De Smet), Peeters-Leuven 1995, II, pp. 15-27، وورد اسم هذا الوزير في كل

المواضع في طبعة بولاق: الباذوري باللهاء وصواب ضبط اسمه

الباذوري نسبة إلى قرية باذور من أعمال الوثلة بفلسطين.

^٤ الارتفاع. هو الضريبة الأساسية (الخراج) فيما يتعلق

بالأراضي الزراعية، وينقسم الارتفاع - في طريقة الدفع -

إلى نوعين: «المستخرج حيثاً» و«المحصّل غللاً». ويسمى

المحصّل غللاً عادة «خراج المناجزة» وأحياناً «خراج

المشاهدة»؛ أمّا ما يُدْفَعُ حيثاً فينقسم إلى ثلاثة أنواع: المال

الهلاكي والمزاعي والمال الخراجي (النابلسي: تاريخ الفيو

وبلاده ١١٦-١١٧، Cahen, Cl., «Le régime des

impôts dans le Fayyum Ayyubide», *Arabica* III

(1956), pp. 13-17، وانظر فيما يلي (٢٧٨).

^٥ فيما يلي ٢٦٨.

^٢ أي ابن زولاق.

^٣ ابن ميسر: أخبار مصر ١١٦٣ المقرئ: انماط الخنفا

١٤٤:١-١٤٥ وفيما يلي ٥:٢، ٦، ٢٦٩.

^٤ انظر دراسة المصادر في المقدمة، وعن الوزير الفاطمي

أي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن الباذوري الذي

تولى رتبة الوزارة وكذلك رتبتي قاضي القضاة وداعي الدعاة

للخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٤٢-٤٥٠ هـ/١٠٥٠-١٠٥٨ م)

راجع، ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة

٧٣-٨١ هـ ابن ميسر: أخبار مصر ١٦-١٨ التويري:

نهاية الأرب ٢٨:٢٢١-٢٢٤ المقرئ: المقفى الكبير

٣٦٦:٣-٤٠٨ (ترجمة مفصلة)، انماط الخنفا ٢:١٩٧

ابن حجر: رفع الإصر ١٢٩-١٣٤ RCEA Wiet, G.,

٢٦١٠-١٢ n° ١: وعن ملاسبات مقتل الوزير الباذوري راجع،

Brett, M. «The Execution of al-Yāzûrî in Egypt»

عَلَّةً للقصور مائة ألف دينار، وعن نَقَعَات القُصور مائتا ألف دينار، وعن عُمَائِر وما يُقَام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار، وَيَتَقَى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصِلَةً بِمَعْمِلِهَا كُلُّ سنة إلى بيت المال المَصُون، فحِطِّي بذلك عند سُلْطَانِهِ وَخَفَّ على قلبه.

قال: وانتهى ارتفاع الأرض السُّفْلَى إلى ما لا يَسْبِقُ له من ارتفاعها الأول - يعني بعد موت اليازوري ومُحدوث الفِتَن - وهو قَبْلَ سِنِي الفِتَن. يعني في أَيَّام اليازوري - ست مائة ألف دينار / كانت تُحْمَلُ في دَفْعَتَيْنِ في السنة: في مستَهْلَ رَجَبِ ثلاث مائة ألف دينار، وفي مستَهْلَ المحرم ثلاث مائة ألف دينار، فَاتَّضَعَ الارتفاعُ وَعَظُمَت الواجبات ^١.

وقال ابنُ مُيَسَّر: وَأَمَرَ الأَفْضَلُ بنَ أمير الجيوش بِعَمَلِ تَقْدِيرِ ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف ألف دينار، وكان مُتَحَصِّلُ الأَمْزَاءِ ألف ألف أَرْدَبٍ ^٢.

وقال الأمير جمالُ الملك مُوسَى بنُ المأمُون البطائحي، في «تاريخه» من حوادث سنة إحدى وخمسة مائة: ثم رَأَى القَائِدُ أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي من ^(a)اِخْتِلَالِ أحوال الرجال العسْكَرِيَّةِ والمَقْطَعِينَ، وَتَضَرُّرِهِمْ من كَوْنِ إقْطَاعَاتِهِمْ قد خَسَّ ارتفاعُها، وساءت أحوالهم لِقِلَّةِ المُتَحَصِّلِ منها، وَأَنَّ إقْطَاعَاتِ الأَمْزَاءِ، قد تَضَاعَفَ ارتفاعُها وَازْدَادَتْ عن عِتْرَها ^(b)، وَأَنَّ في كُلِّ نَاجِيَةٍ من القَوَاضِلِ للديوان مُجْمَلَةٌ نَجِيَّةٌ بالعِشْفِ وَبِزُرْدِ الرُّشْلِ من الديوان بِسَبَبِها ^(a) ^١.

فخاطَبَ الأَفْضَلُ بنَ أمير الجيوش في أن يَجْعَلَ الإقْطَاعَاتِ جَمِيعُها وَيُزَوِّكُها ^(c)، وَعَرَفَهُ أَنَّ المَصْلَحَةَ تَعُودُ في ذلك على المَقْطَعِينَ والديوان، لَأَنَّ الديوان يَتَحَصِّلُ له من هذه القَوَاضِلِ جَمْلَةٌ ^{١٥}.

(a-b) النص في كراسة Liège ١٥٧، وكان قد احتل حال الرجال العسكرية والمقطعين من عساة ارتفاع الإقطاعات وقلة متحصلها وتضاعف ارتفاعات إقطاع الأمراء وزيادتها عن غيرها وتوفر في كل ناحية جملة للديوان صارت نجى بالصف من تردد الرسل من الديوان بسببها. (b) بولاقي: غيرها. (c) كراسة Liège: فأمر الأفضل بن أمير الجيوش بحل جمع الإقطاعات وراكمها.

^١ فيما يلي ٢٦٨. ارتفاع السنة التي هي أقل ريقا والسنة التي هي أكثر ريقا
^٢ ابن ميسر: أخبار مصر ١٨٤ المقريري: اتعاظ الحنفا
٧٢: ٧٢٠ - ٢٦٩. فيما يلي ٢٧٠.

^٣ الوبيزة: كلمة اصطلاحية تعني مقدار المربوط من الضريبة المالية على كل إقطاع من الأرض وما يتحصل من كل قرية من عين وعلة وصنف ويكون حسابها بحيث يعتبر ^٤ انظر فيما يلي ٢٢٨.

لارتفاع السنة التي هي أقل ريقا والسنة التي هي أكثر ريقا
ويجمعان ويؤخذ نصفهما فذلك العبرة بعد أن تعتبر الأسعار
وسائر العوارض الواقعة (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٤٠ ابن
عمار: قرآنين الدواوين ٣٦، Cahen, CL, op. cit. pp.
12-13. وفيما يلي ٢٢٣-٢٢٤).

يَحْصُلُ بِهَا بِلَادٌ مُقَوَّزَةٌ^١. فَأُجَابَتْ إِلَى ذَلِكَ، وَحُلَّ جَمِيعُ الْإِقْطَاعَاتِ وَرَاكَمَهَا^٢. وَأَخَذَ كُلٌّ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالْمُتَحِيرِينَ يَتَضَرَّرُونَ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ لَهُمْ بَسَاتِينَ وَأَثْلَاكًا وَمَعَاصِرَ فِي نَوَاحِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ كَانَ لَهُ مِلْكٌ فَهُوَ بَاقٍ عَلَيْهِ لَا يَدْخُلُ فِي الْإِقْطَاعِ، وَهُوَ مُحْكَمٌ: إِنْ شَاءَ بَاعَهُ وَإِنْ شَاءَ أَجْرَهُ. فَلَمَّا حُلَّتِ الْإِقْطَاعَاتُ أَمَرَ الصُّعْفَاءَ مِنَ الْأَجْنَادِ أَنْ يَمْزَأِدُوا فِيهَا، فَوَقَّعَتْ الزِّيَادَةُ فِي إِقْطَاعَاتِ الْأَقْوِيَاءِ إِلَى أَنْ انْتَهَتْ إِلَى مَبْلَغٍ مَقْلُومٍ، وَكُتِبَتْ السَّجَلَاتُ بِأَنَّهَا بَاقِيَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى مُدَّةِ ثَلَاثِينَ سَنَةٍ لَا يُقْبَلُ عَلَيْهِمْ فِيهَا زَائِدٌ. وَأَخْضَرَ الْأَقْوِيَاءُ وَقَالَ لَهُمْ: مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْإِقْطَاعَاتِ الَّتِي كَانَتْ يَدُ الْأَجْنَادِ؟ قَالُوا: كَثَرَتْ عَيْبَرَتُهَا وَقِلَّةُ مَتَحَصُلِهَا، وَخَرَابُهَا وَقِلَّةُ الشَّاكِنِ بِهَا، فَقَالَ لَهُمْ: ابْذُلُوا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا تَحْمِلُهُ وَتُقَوِّي رَغْبَتَكُمْ فِيهِ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي الْعَيْبَةِ الْأُولَى.

فَعِنْدَ ذَلِكَ طَابَتْ نَفُوسُهُمْ، وَتَرَاثَدُوا فِيهَا إِلَى أَنْ بَلَغَتْ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي رَغِبَ كُلُّ مِنْهُمْ فِيهِ، فَأَقْطَعُوا بِهِ، وَكُتِبَ لَهُمُ السَّجَلَاتُ عَلَى الْحُكْمِ الْمُنْتَقِمِ.

فَنَسِجَلَتِ الْمَضْلُحَةُ الْفَرِيقَيْنِ وَطَابَتْ نَفُوسُهُمْ. وَحَصَلَ لِلدِّيَّانِ بِلَادٌ مُقَوَّزَةٌ، بِمَا كَانَ مُفْرَقًا فِي الْإِقْطَاعَاتِ، بِمَا مَبْلَغُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ^٣.

وَقَالَ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ: وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ أَمْرُ الْأَجَلِ الْمَأْمُونِ بِعَمَلِ حِسَابِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْهِلَالِيِّ وَالْحَرَاجِيِّ، وَجُعِلَ نَقْلُهُ عَلَى جُمْلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا إِلَى سَنَةِ عَشْرِ وَخَمْسٍ مِائَةِ الْهِلَالِيَةِ الْحَرَاجِيَةِ، وَالْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ إِلَى آخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَخَمْسٍ مِائَةِ هِلَالِيٍّ وَمَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْحَرَاجِيَةِ؛ فَانْفَقَدَتْ عَلَى جُمْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَيْنِ وَالْأَصْنَافِ، وَشُرِخَتْ بِأَسْمَاءِ أَزْيَابِهَا وَتَعْيِينَ بِلَادِهَا، فَلَمَّا أُخْضِرَتْ أَمَرَ بِكَتَبِ سِجِلٍّ يَتَضَمَّنُ الْمُسَامَحَةَ بِالْبَقَايِ إِلَى آخِرِ سَنَةِ عَشْرِ وَخَمْسٍ مِائَةٍ، وَنُسَخَتْهُ بَعْدَ التَّصْدِيرِ:

«وَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْنَا حَالُ الْمُعَامِلِينَ وَالصُّبَّانِ وَالْمُتَضَرِّفِينَ وَمَا فِي جِهَاتِهِمْ مِنْ بَقَايَا مُعَامِلَاتِهِمْ، أُنْعَمْنَا بِمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ السَّجَلُ مِنَ الْمُسَامَحَةِ، قَصْدًا فِي اسْتِخْلَاصِ ضَامِنِ طَالَتِ غَفْلَتُهُ وَخَرِبَتْ ذِمَّتُهُ، وَإِنْقَازِ عَامِلٍ أَجْحَفَ بِهِ مِنَ الدِّيَّانِ طَلَبَتِهِ، وَتَوْفِيرِ الرُّغْبَةِ عَلَى عِمَارَتِهَا، وَجَزْيِهَا فِيهَا عَلَى قَدِيمِ عَادَتِهَا.

^٢ عَنْ الرُّوكِ انْظُرْ فِيمَا بَلَى ٢٣٥-٢٣٦.

^٣ ابْنُ الْمَأْمُونِ: أَخْبَارُ مِصْرَ ٩-١٠، الْقُرَيْزِيُّ: انْعَاظِ

الْخِطَابَ ٣: ٤٠.

^١ الْبِلَادُ الْمُقَوَّزَةُ. يَقْصِدُ بِهَا الْأَمَاكِنَ وَالْأَرْضِيَّاتِ الْمُحْصَاةَ الَّتِي لَا تَبَاتُ بِهَا (إِبْرَاهِيمُ عَلِي طَرْحَانُ: النِّظَامُ الْإِقْطَاعِي فِي الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ فِي الْمِصْرِ الْوَسْطَى، الْقَاهِرَةُ ١٩٦٨، الْخِطَابُ ١: ٤٠٥)، وَفِيمَا بَلَى ١: ٤٠١.

ولما كان ذلك من جميل الأخدوة التي لم تُسبَق إليها ولا شاركنا ملك فيها ، اقتضت الحال إيرادها في هذا الكتاب وإيداعها هذا الباب ، لما أطلعنا عليه مما انتهت إليه أحوال الضمائم والمعاملين بالملكية ، من الاختلال وتجمد البقايا في جهاتهم والأموال ، عطفتنا عليهم برأفة ورَحمة ، وطلأنا المقام الأشرف النبوي بالتفصيل من أمورهم والجملة ، واستخرجنا الأمر العالي بوضع ذلك في الحال . وإنشاء السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان وتنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد .

ومتبّع ما انتهت إليه هذه المسامحة ، إلى حين ختم هذا السجل : من
 العين ألفا ألف وسبع مائة ألف وعشرون ألفا وسبع مائة وستون ديناراً
 ونصف وثلث وثلثان ورُبع قيراط ، ومن الفضة الثقرة^١ أربعة دراهم ، ومن
 الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم ونصف وشُدس درهم . ومن الغلّة ثلاثة
 آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أزدباً وثمان
 ونصف وشُدس وثُلثي قيراط . ومن العناب رُبع أزدب ، ومن وَرْق الصباغ ألفان
 وأربع مائة وثلاثة أراذب ونصف ، ومن زريعة الوشمة عشرة أراذب ورُبع ، ومن
 الصباغ ألف وأربع مائة وثمانون قنطاراً ورطل ونصف ، ومن الفؤه أربع مائة
 وسبعون رطلاً ، ومن الشب تسع مائة وثلاثة عشر قنطاراً ونصف ، ومن الحديد
 خمس مائة رطل واحد وثلاثون رطلاً ، ومن الزُفّ ألف وثلث مائة وثلاثة
 أوطال ورُبع وشُدس ، ومن القطران تسعة عشر رطلاً وثلث .

ومن الثياب الحلبي ثلاثة أثواب ، ومن المازر مائة يقرّر صوف ، ومن
 الفرايل مائة وسبعون غزبلاً . ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً
 وثلث مائة وخمسة أروّس . ومن البشر ثلاث مائة وثلاثة عشر قنطاراً
 وثمانية وثلاثون رطلاً ، ومن التحيل ثلاث مائة ألف / وخمسة وسبعون
 ألفاً وخميس مائة وخمسون باعاً ، ومن الجريد أربع مائة ألف وثمانية
 وثلاثون ألفاً وسبع مائة وثلاثة وخمسون بحريّة ، ومن الشلب ألف وأربع
 مائة وثلاثة وعشرون سلّة . ومن الأطراف ستة آلاف وسبع مائة وثلاثة

^١ الفضة الثقرة هي التي عيارها الثقلان من فضة والثلث من نحاس . (القلقشندي : صبح الأعنى ٣ : ١٢٩)

أطراف ، ومن الملح ألفان وسبع مائة وثلاثة وتسعون إزدبًا وثُلث ، ومن
الأشنان أحد عشر إزدبًا ، ومن الرُثمان ألفا حجة . ومن القِصَلِ النُّخل خمس
مائة وأحد وأربعون قِطَازًا وشُدس ، ومن الشَّهْدِ اثنان وثلاثون زِيرًا وقَادُوسًا
واحدًا ، ومن الشُّمُعِ أربع مائة وأربعون رِطَلًا ، ومن الحَلَالِيَا ثلاثة آلاف وأربع
مائة وخَمِيسَان ، ومن غَسَلِ الْقَصَبِ مائة وثمانية وثمانون قِشَطًا^٥ .

ومن الأَثْقَارِ اثنان وعشرون ألفًا ومائة وأربعة وستون رَأْسًا ، ومن الدُّوَابِ
أربعة وسبعون رَأْسًا . ومن الشُّمْنِ ألفان وتسع مائة وستة وتسعون مَطَرًا
وشُدس وثَمْن ، ومن الجُبْنِ ثلاث مائة وعشرون رِطَلًا . ومن الصُّوفِ أربعة
آلاف ومائة وثلاثة وعشرون حِزَّةً ، ومن الشُّغْرِ ستة آلاف وخمسون رِطَلًا
وزَنْع ، ومن بُيُوتِ الشُّعْرِ بَيَّان^٦ .

وفُصِّلَ ذلك بِجِهَاتِهِ وَمُعَامِلِيهِ .

قَالَ^١ : وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْمَأْمُونِ مَا يُعْتَمَدُ فِي الدُّوَابِّ ، مِنْ قَبُولِ الزِّيَادَاتِ وَفَسْخِ عُقُودِ
الضُّمَانَاتِ وَانْتِزَاعِهَا مِمَّنْ كَانَتْ فِيهَا الْمَشَقَّةُ وَالثَّقَبُ ، وَتَسْلِيمِهَا إِلَى بَاذِلِ الزِّيَادَةِ مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا
نَصَبٍ ، أَتَكَرَّ ذَلِكَ وَتَمَتَّعَ مِنْ ارْتِكَائِهِ ، وَنَهَى عَنِ الْوُلُوجِ فِي بَابِهِ ، وَخَرَجَ أَثَرُهُ بِإِعْفَاءِ الْكَافَّةِ
أَجْمَعِينَ وَالضُّمَنَاءِ وَالْمُعَامِلِينَ مِنْ قَبُولِ الزِّيَادَةِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ وَيَسْتَوِلُونَ عَلَيْهِ ، مَا دَامُوا مَغْلَقِينَ
وَبِالْمُسَاطَهَةِ قَائِمِينَ . وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَشْهُورٌ قُرِئَ فِي الْجَمَاعَةِ الْأَزْهَرِ بِالْقَاهِرَةِ وَالْعَتِيقِ بِمِصْرَ وَدِيَوَانِي
الْمَجْلِسِ وَالْخَاصِّ الْأَمِيرَيْنِ السَّعِيدَيْنِ ، وَنُسَخَتْهُ بَعْدَ التَّصْدِيرِ :

«لَمَّا انْتَهَى إِلَى خَضْرَتِنَا مَا يُعْتَمَدُ فِي الدُّوَابِّ ، وَيُقَصِّدُهُ جَمَاعَةٌ مِنْ
الْمُتَصَرِّفِينَ وَالْمُسْتَخْدِمِينَ ، مِنْ تَضَمِينِ الْأَبْوَابِ وَالرِّبَاعِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْحَمَامَاتِ
وَالْقَبَائِرِ وَالْمَسَاكِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الضُّمَانَاتِ ، لِلزَّائِعِينَ فِيهَا مِمَّنْ تَسْتَمِرُّ
مُعَامَلَتُهُ وَلَا تُتَكَرَّرُ طَرِيقَتُهُ . فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَخْضُرَ مِنْ يُزِيدُ عَلَيْهِ فِي ضَمَانِهِ ،
حَتَّى قَدْ تَقَضَّ عَلَيْهِ مُحْكَمُ الضُّمَانِ ، وَقَبْلَ مَا يَحْدُلُ مِنَ الزِّيَادَةِ كَائِنًا مِنْ

^٥ (بولاق : ثمانية وثلاثون قِطَازًا .

^١ أي ابن المأمون .

كان ، وقبضت يد الضامن الأول عن التصرف ، وتمكن الضامن الثاني من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الأول ، ولا تحوز في فسخه الذي لا يبيحه الشرع ولا يماؤل ؛ أنكرنا ذلك على مقتضيه ، ودعنا من غير^٥ قصد فاعليه ومؤتكيه ، إذ كان للحق مجايبا ، وعن مذهب الصواب ذاهبا ، وعرضنا ذلك بالمواقف المقدسة المظهرة - ضاعف الله أنوارها وأعلى أهدا منارها - واشتخرجنا الأوامر المطاعة في كتب هذا المنثور إلى سائر الأعمال ، بأنه أي أحد من الناس ضمين ضمانا من باب أو ربيع أو بشتان أو ناجية أو كافر - وكان لأنساطر ضمانه مؤدبا ، ولما يلزمه من ذلك مبيدات ، وللحق مبيدات - فإن ضمانه باقي في يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المفقود ، عملا بالواجب والنظام المحمود ، وأنبأنا لما أمر الله تعالى في كتابه المجيد ، إذ يقول جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [الآية ١ سورة المائدة] ، إلى أن تنقضي مدة الضمان ويؤول حكمها ويذهب وضعها وزشمتها ، حتملا على قضية الواجب وشنتها ، واغتيادا على لحكم الشريعة التي ما ضل من اهتدى بقرائضها وشنتها .

فأما من ضمن ضمانا ولم يقيم بما يجب عليه فيه ، وأصر على المدافعة والمغالطة التي لا يقتضيها إلا كل ذميم الطباع سفيه ، فذلك الذي فسخ حكم ضمانه بتقصيه الشروط المشروطة عليه ، وحكمه لحكم من إذا زيد عليه في ضمانه ثقل عنه وأخرج من يده ، لأنه الذي بدأ بالفسخ وأوجد السبيل إليه .

فليعتمد كافة أرباب الدواوين ، وجميع المتصرفين والمستخدمين العقل بما تضمنته هذا المنثور ، وامتنال الأمور ، وحمل هؤلاء الضمنا والمعاملين على ما نص فيه ، والحدز من تجاوزه وتعدبه بقدر ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمرين السعيدين ، وبحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى .

قال : ووصلت المكاتبه من الوالي والمشارف ، ومن كان نديب ضعبته لكشف الأراضي

وَالشَّوَاقِي وَمِسَاحَتِهَا ، مَتَضَمِّنَةٌ مَا أَظْهَرَهُ الْكَشْفُ وَأَوْضَحَتْهُ الْمِسَاحَةُ عَلَى مَن يَبْدُو الشَّوَاقِي - وَهُمْ عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ - مِنْ جَمَلَتِهَا سَاقِيَةٌ مِسَاحَتُهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ وَمِائَتَانِ فَدَانًا تَشْتَمِلُ عَلَى التَّخْلِ وَالكَرْمِ وَقَصَبِ الشَّكْرِ بِمَدِينَةِ إِسْنَا خَرَّاجُهَا فِي السَّنَةِ عَشْرَةُ دَنَانِيرَ ، وَمَا يَجْرِي فِي الْأَعْمَالِ هَذَا الْمَجْزَى .
وَأَنَّهُمْ وَضَعُوا يَدَ الدُّيُونِ عَلَى جَمِيعِهَا ، وَطَلَبُوا مِنْ أَزْبَابِ الشَّوَاقِي مَا يَدُلُّ عَلَى مَا بَأَيْدِهِمْ ؛ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُظْهِرُوا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ وَقَدْ سَيَّرُوا ثَمْلًا كَهَا إِلَى الْبَابِ تَحْتَ الْحَوَاطَةِ لِيُخْرِجَ الْأَمْرَ بِمَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ . وَعِنْدَ وَصُولِهِمْ أُوقِعَ التَّزْجِيمُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَقُومُوا بِمَا يَجِبُ مِنَ الْخَرَجِ عَنْ هَذِهِ الشَّوَاقِي ، فَإِنَّ الْأَمْلَاقَ بِجَمَلَتِهَا لَا تَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا . فَوَقَّفَ الْمَذْكُورُونَ لِلتَّامُونَ فِي يَوْمِ مَجْلُوسِهِ لِلْمِظَالِمِ ، فَأَمَرَ بِحُضُورِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي جَلَالُ الْمَلِكِ أَبُو الْحَبَّاجِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ الْمَقْرِي - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ قَاضِي الْقَضَاةِ - لِحَاكَمَتِهِمْ ، فَجَرَى لَهُ مَعَهُمْ / مُفَاوَظَةً أُوجِبَتْ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ ، وَأَلْزَمَهُمُ بِالْقِيَامِ بِمَا يَسْتَعْرِقُ أَحْوَالَهُمْ وَأَمْلَاكَهُمْ .
فَحَصَلَ مِنْ تَضَرُّرِهِمْ ^(أ) مَا أُوجِبَ الْعَاطِفَةُ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَهُمُ بِالْخَرَجِ مِنْ بَعْدِ ، وَأَنْ يَضْرِبَ عُمَّا تَقَدَّمَ صَفْحًا ، وَكُتِبَ مَنشُورٌ تُسَبِّحُهُ .

«قَدْ عَلِمَ كَافَّةً^(ب) مَا تَرَاهُ مِنْ إِفَاضَةِ سُحْبِ الْعَدْلِ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانِ وَالنُّظَرِ فِي مَصَالِحِ كُلِّ قَاصٍ مِنْهُمْ وَدَانِ ، وَأَنَّا لَا نَدَّعِ ضَرَرًا يَتَوَجَّهُ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ إِلَّا حَسَنَانَهُ ، وَلَا نَعْلَمُ ضَلَاخًا يَحُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ إِلَّا قَوَّيْنَا سَبَبَهُ وَوَضَلْنَاهُ ، حَسَبَ مَا يَتَعَيَّنُ عَلَى رِعَاةِ الْأُمَمِ ، وَعَمَلًا بِالْوَاجِبِ فِي الْبَعِيدِ وَالْأَمَمِ ، وَشُلُوكًا لِمَحَبَّةِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهَا - الْقَوِيَّةِ ، وَاسْتِغْرَارًا عَلَى قَضَائِهَا وَسَجَائِهَا الْكَرِيمَةِ .

وَلَمَّا كُنَّا نَرَى النُّظَرَ فِي مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ^(أ) أَمَرْنَا وَاجِبًا ، وَنَضْرَفَ إِلَى

(أ) يُولَاقُ : تَضَرُّرِهِمْ . (ب) يُولَاقُ : الْكَافَّةُ .

سنة ٥٢١هـ (ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ ، ١٠٦ ، ١١٢)
المقريزي : أتعاض الخلفاء ٣ : ٩٣ ، ١١٩ ابن حجر : رفع الإصر
٤٧٣ - ٤٧٤ : السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ١٥٢ .

فعلى ذلك يكون هذا المنشور قد صدر بعد شهر ذي
القعدة سنة ٥١٦هـ .

^١ قرره الوزير المأمون البطاحي في رتبة القضاء في ذي
القعدة سنة ست عشرة وخميس مائة ، عوضًا عن القاضي ثقة
الملك شمس بن علي بن الرضحي ، ولقب «جلال الملك تاج
الأحكام» واشتمل سجله على توليته القضاء والخطابة والصلاة
ودوران الأحباس ودار الضرب ، واستمر إلى أن توفي في شوال

ولما كنا نرى النظر في مصالح الرعية^(١) أمراً واجباً، ونصرف إلى سياستهم عزماً ماضياً ورأياً ثاقباً، كذلك ترى النظر في أمور الدواوين واشتغاف حقوقها المستروقة إلى حماية البيضة، والحماية عن الدين، وجهاد الكفرة والملجدين، ليكون ما نراعيه وننظر فيه جارياً على سنن الواجب، مخروصاً من الخلل - بإذن الله تعالى - من جميع الجوانب .

ومن الله نستعبد مواد التوفيق في الحل والعقد، ونسأله الإرشاد إلى سواء السبيل والقصد، وما توفيقنا إلا بالله، عليه نتوكل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان القاضي الرشيد بن الزبير^١ - أيام مشاركته الصعيد الأعلى - قد طالع المجلس الأفضل بحال أبواب الأملاك هناك، وأنهم قد اشتضافوا إلى أملاكهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها، ومواضع مجاورة لأملاكهم تغدوا عليها وتخلطوها بها وحازوها . ورئيس له كشفها ونظم المشاريع بها وازتجاعها للديوان، وأن يعتمد في ذلك ما يوجهه حكم العدل المثبت^(٢) في كل قطر ومكان؛ وبأنير ذلك :

«سَيِّئاً من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وإنهائه على طبعه، فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف في هذه الأملاك؛ ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية، ما يشهد بصحة ملكه ومبلغ قذنه وذخر حدوده، فلم يُخضِر أحد منهم كتاباً، ولا أوضح جواباً . وأصدروا إلى الديوان المشاريع بما كشفوه وأوضحوه، فوجد^(٣) التعدي فيه ظاهراً، وباب الخيف والظلم غير متعاصير، والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه

(أ) بولاق : الرحاب . (ب) بولاق : المبت . (ج) بولاق : وجدوا .

^١ القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأشوازي المتوفى سنة ١١٦٧/٥٥٦٢م، لم تُشر المصادر إلى مشاركته للصعيد الأعلى، وإنما تشير إلى ولايته نظر الإسكندرية سنة ١١٦٤/٥٥٥٩م بغير اختياره، فتكون إشارة ابن المأمون هنا ذات أهمية كبيرة (راجع، العماد

الأصفهاني : خريدة القصر (قسم مصر) ٢٠٠١-٢٠٠٢ : ١٢٠٢
 ياقوت : معجم الأدباء ٥١:٤-١٦٦ ابن خلكان : وفیات
 ١٦٠:١-١٦٤ ابن مسير : أخبار مصر ١٣٥، ١٥٣
 الصفدي : الوافي ٢٢٠:٧-٢٢٥ الأذوي : الطالع السعيد
 ٩٨-١١٠٢ القرطبي : المفاتيح الكبير ٥٣٣:١-٥٣٦).

بِصِحَّةِ الْمَلِكِ رَأْسًا ، وَلَا يَشْتَدُّ فِي ذَلِكَ إِلَى حُجَّةٍ أَدَّخَرَهَا اخْتِرَازًا مِمَّا هَذِهِ^(a) سَبِيلُهُ وَاخْتِرَاسًا ؛ لَكِنْ بِحُكْمٍ مَا نَرَاهُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ لِلرَّعِيَّةِ وَالْعَدْلِ الَّذِي أَقْنَمْنَا مَنَازَهُ ، وَأَخْبَيْنَا مَعَالِيهِ وَأَثَارَهُ ، مَعَ الرَّغْبَةِ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ وَمَصَالِحِ أَحْوَالِهَا ، وَاسْتِثْبَاطِ الْأَرْضِينَ الدَّائِرَةِ ، وَإِنْشَاءِ الْغُرُوسِ وَإِقَامَةِ الشُّوَاقِي بِهَا ؛ أَمَرْنَا بِكُتُبِ هَذَا الْمَشْهُورِ وَتِلَاوَتِهِ بِأَعْمَالِ الصَّعِيدِ الْأَعْلَى ، بِإِقْرَارِ جَمِيعِ الْأَمْثَلِكِ وَالْأَرْضِينَ وَالشُّوَاقِي بِأَيْدِي أَرْبَابِهَا الْآنَ ، مِنْ غَيْرِ انْتِزَاعِ شَيْءٍ مِنْهَا وَلَا ازْتِجَاعِهِ ، وَأَنْ يُقَرَّرَ عَلَيْهَا مِنَ الْخَرَاجِ مَا يَجِبُ تَقْرِيرُهُ ، وَيَشْهَدُ الدِّيَوَانُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ بِمِثْلِهِ ، إِحْسَانًا لِيَهُمُ لَمْ تَزَلْ تُتَابِعْ مِثْلَهُ وَتَوَالِيهِ ، وَإِنْعَامًا مَا بَرَّخْنَا نُعِيدَهُ عَلَيْهِمْ وَنُبْذِيهِ .

وَقَدْ أَنْعَمْنَا وَتَجَاوَزْنَا عَمَّا سَلَفَ ، وَنَهَيْتُنَا عَنْ يَشْتَأْنَفَ ، وَسَامَحْنَا مِنْ خَرَجٍ إِلَى التَّقْدِي عَنِ الْمَأْلُوفِ^(b) ، وَجَرَيْنَا عَلَى سُبْنِنَا فِي الْعَفْوِ الْمَعْرُوفِ ، وَجَعَلْنَاهَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً مِنَ الْجَمَاعَةِ الْجَانِينَ ، وَمِنْ عَادَةٍ مِنَ الْكَافَّةِ أَجْمَعِينَ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ مِنْهُ ، وَطُولِبَ بِمُشْتَأْنَفِهِ وَأَنْفُسِهِ ، وَبَرَكَتِ الذُّمَّةُ مِنْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ ، وَتَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ الْقَرَامَةُ وَالْعُقُوبَةُ ، وَشُدَّتْ فِي وَجْهِهِ أَبْوَابُ الشُّفَاعَةِ وَالسَّلَامَةِ .

وَقَدْ فَسَخْنَا - مَعَ ذَلِكَ - لِكُلِّ مَنْ يَزْعَبُ فِي عِمَارَةِ أَرْضِ خَلْفَاءِ دَائِرَةِ وَإِدَارَةِ بَرٍّ مَهْجُورَةٍ مُعْطَلَّةٍ ، فِي أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ ذَلِكَ وَيُقَاسَ عَلَيْهِ ، وَلَا يُؤْخَذَ مِنْهُ خَرَاجٌ إِلَّا فِي الْمَنَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ تَسْلِيمِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَقْرَرُ عَلَى كُلِّ قَدَانٍ مَا تُوجِبُهُ زِرَاعَتُهُ لِمِثْلِهِ خَرَاجًا مُؤَبَّدًا وَأَمْرًا مُؤَكَّدًا .

فَلْيَعْتَمِدْ ذَلِكَ الثَّوَابُ وَحُكَاةُ الْبِلَادِ ، وَمَنْ جَزَتْ الْعَادَةُ بِحَضُورِهِ عَقْدَ مَجْلَسٍ ، وَإِخْضَارَ جَمِيعِ أَرْبَابِ الْأَمْثَلِكِ وَالشُّوَاقِي ، وَإِشْعَارِهِمْ مَا سَجَّلَهُمْ مِنْ هَذَا الْإِحْسَانِ الَّذِي تَجَاوَزَ أَمَالَهُمْ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ فِيهِ ، وَتَقْرِيرِ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَمْثَلِكِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْخَرَاجِ عَلَى الْوَضْعِ الَّذِي مَثَّلْنَاهُ ، وَتُجْمِزُ الدِّيَوَانُ تَقْرِيرَهُ وَيَرْضَاهُ ، مَعَ تَضَمُّنِ الْأَرْضِي الدَّائِرَةِ وَالْآبَارِ الْمُعْطَلَةِ لِمَنْ يَزْعَبُ فِي ضَمَانِهَا ، وَتَنْظُمِ الْمَشَارِيحِ بِذَلِكَ وَإِضْدَادِهَا إِلَى الدِّيُونِ ،

(a) بولاق : عن مجاهدة . (b) بولاق : من التعدي إلى المألوف .

لِيَحْتَدَّ فِيهِ عَلَى حُكْمِ أَمْثَالِهَا بَعْدَ ثُبُوتِ هَذَا الْمَنْشُورِ بِحَيْثُ يَنْبَغِي مِثْلُهُ .
قَالَ : وَلَمَّا سَرَتْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، حَصَلَ الْجِتْهَادُ فِي تَحْصِيلِ مَالِ
الدِّيَّانِ وَبِنَاءِ الْبِلَادِ^١ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ بَدِيَارِ مِصْرَ ، وَلَا فِيهَا مَقْصِي قَبْلَهَا مِنْ دُولِ أَمْرَاءِ
مِصْرَ ، لِمَسَاكِرِ الْبِلَادِ إِقْطَاعَاتٍ بِمَقْنَى مَا عَلَيْهِ الْحَالُ الْيَوْمَ فِي أَجْنَادِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ^٢ ، وَلَمَّا
كَانَتِ الْبِلَادُ تُضَمَّنُ بَقِيَّاتٍ مَعْرُوفَةٍ لِمَنْ شَاءَ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ وَالْوُجُوهِ وَأَهْلِ التَّوَاهِي مِنْ
الْمَغْرِبِ وَالْقَيْطِ وَغَيْرِهِمْ^٣ ، لَا تُعْرَفُ هَذِهِ الْآيَدَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْيَوْمَ الْفِيلَاخَةُ ، وَيُسَمَّى الْمَزَارِعُ
الْمُقِيمِ بِالْبَلَدِ «فَلَاخًا قَرَارًا» ، فَيَصِيرُ عَبْدًا يَتَنَا مَنْ أَقْطَعَ تِلْكَ النَّاحِيَّةَ ، لِأَنََّّهُ لَا يَزْجُو قَطُّ أَنْ يُهَاجِرَ
وَلَا يُغْتَنَقَ ، بَلْ هُوَ قَبْلَ مَا يَبْقَى وَمَنْ وُلِدَ لَهُ كَذَلِكَ ، بَلْ كَانَ مِنْ اخْتَارِ زِرَاعَةِ أَرْضٍ يَقْبَلُهَا كَمَا
تَقْدَمُ ، وَحَمَلَ مَا عَلَيْهِ لِبَيْتِ الْمَالِ ؛ فَإِذَا صَارَ مَالٌ / الْخَرَجَ بِالْدِّيَّانِ ، أَنْفَقَ فِي طَوَائِفِ الْعَشْكَرِ
مِنَ الْخَزَائِنِ .

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ إِذَا انْحَطَّ مَاءُ التَّيْلِ عَنِ الْأَرْضِ ، وَتَعَلَّقَتْ تَوَاهِي مِصْرَ بِأَصْنَافِ الزَّرْعَاتِ ،
تُذَيَّبُ مِنَ الْحَضَرَةِ مَنْ فِيهِ تَبَاهَةٌ ، وَخَرَجَ مَعَهُ عُذُولٌ يُوَثَّقُ بِهِمْ وَكَانَتْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِعِلْمِ الْخَرَجِ ،
وَكَثِيرًا مَا كَانَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنَ التَّنَاصُرِ الْأَقْبَاطِ . وَيَخْرُجُ إِلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ دُكُونِنَا ، فَيُخْرِجُونَ
مِسَاحَةً مَا شَمَلَهُ الرَّيُّ مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا لَعَلَهُ بَارٌّ أَوْ شَرٌّ ، وَيُكْتَسَبُ بِذَلِكَ مُكَلَّفَاتٌ^٤ وَاضِحَةٌ بِالْفَقْدَنِ
وَالْقَطَائِعِ عَلَى جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الْمَرْرُوعَةِ ، وَيُخَضَّرُ إِلَى دَوَابِنِ الْبَابِ .

فَإِذَا مَضَى مِنَ السَّنَةِ الْقَيْطِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، تُذَيَّبُ مِنَ الْأَجْنَادِ مَنْ يُعْرَفُ بِالْحِمَاسَةِ وَقُوَّةِ الْبَطْشِ ،
وَعِيَّنَ مَعَهُ مِنَ الْكُتَّابِ الْعُذُولُ مَنْ قَدْ اشْتَهَرَ بِالْأَمَانَةِ ، وَكَاتِبٌ مِنْ تَنَاصُرِ الْقَيْطِ غَيْرِ مَنْ خَرَجَ
عِنْدَ الْمِسَاحَةِ ، وَسَارُوا إِلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ كَذَلِكَ ، فَاسْتَخْرَجَ مُبَاشِرُو كُلِّ بَلَدٍ ثُلُثَ مَا وَجَبَ مِنْ مَالِ
الْخَرَجِ عَلَى مَا شَهِدَتْ بِهِ الْمُكَلَّفَاتُ ، فَإِذَا أَحْضَرَ هَذَا الثُّلُثَ صُيرَفَ فِي وَاجِبَاتِ الْمَسَاكِرِ مَعَهُ ،
وَهَكَذَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ كُلِّ قِسْطٍ طَوِيلِ الزَّمَانِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ^٥ . وَكَانَتْ تَبْقَى فِي جِهَاتِ

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٨-٣٤ .

^٢ انظر أيضًا فيما يلي ٢٦١ .

^٣ المكلفة ج. المكلفات . الأوراق التي تُوضَعُ لِكُلِّ
مزارع ما يجب عليه من خراج . (المخزومي : المنهاج ، ٥٩ ،
٦٠) .

^٤ عن الإقطاع في العصر الفاطمي وإجراءات الوزن
الأفضل شاهنشاه راجع ، أمين فؤاد سيد : «طبيعة الإقطاع
الفاطمي» ، حوليات إسلامية ٣٣ (١٩٩٩) ، ١-١٦ ،
الدولة الفاطمية في مصر ٧٠٥-٧١٧ ، وفيما يلي ٤٠٥:١ .

الصُّمَّانَ وَالْمُتَّجِلِينَ مُجْمَلَةً بَوَاقِي .

وكانت بلاد مصر ، إذ ذاك ، تُعْبَلُ بِتَيْنِ وَغَلَّةٍ وَأَصْنَافٍ ، وقد عُرِفَ ذلك من نُشْحَةِ الْمَسْمُوحِ الَّذِي تَصْنَعُنَ تَوَكُّ التَّوَاقي فِي أَيَّامِ الْحَلِيقَةِ الْآمِرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَوَزَارَةِ الْحَامُونَ الْبَطَالِيحِي .

وَرَأَيْتُ بِحُطِّ الْأَشْعَدِ بْنِ مُهَذَّبٍ بْنِ زَكْرِيَّا بْنِ مُتَمَتِي الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ : سَأَلْتُ الْقَاضِي الْفَاضِلَ عَبْدَ الرَّحِيمِ : كَمْ كَانَتْ جِدَّةُ الْعُسْكَرَةِ^(١) فِي عَرْضِ دِيْوَانِ الْحَيْشِ ، لَمَّا كَانَ سَيِّدُنَا يَتَوَلَّى ذَلِكَ فِي أَيَّامِ زُرِّيكَ بْنِ الصَّالِحِ ؟ فَقَالَ : أَرْبَعُونَ أَلْفَ فَارِسٍ وَنِيفًا ، وَثَلَاثِينَ أَلْفَ رَاجِلٍ مِنَ السُّودَانِ^(٢) .

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ النَّابِلَسِيُّ فِي كِتَابِ «مَحْشَنِ السَّرِيَّةِ فِي اتِّخَاذِ الْحِصْنِ بِالْجَزِيرَةِ»^(٣) : إِنَّ ضِرْغَامًا لَمَّا نَارَ عَلَى شَاوَرٍ ، وَفَرَّ شَاوَرُ إِلَى السُّلْطَانِ ثَوْرِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ بْنِ زَنْكِي بِدِمَشْقَ يَسْتَعِجِدُ بِهِ عَلَى ضِرْغَامٍ وَيَعْلَمُ أَنَّهْ يَكُونُ نَائِبًا عَنْهُ بِمِصْرَ وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ الْخَرَّاجَ ، أَنْشَأَ لِثَوْرِ الدِّينِ عَرْمًا لَمْ يَكُنْ . فَجَهَّزَ أَلْفَ فَارِسٍ ، وَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ أَسَدَ الدِّينِ شَيْخَ كُوهٍ ، وَأَمَرَهُ بِالتَّوَجُّهِ ، فَأَتَى وَقَالَ : لَا أَمْنُضِي أَبَدًا ، فَإِنَّ هَلَكَتِي وَمَنْ مَعِيَ وَسُوءَ سَمْعَةِ^(٤) السُّلْطَانِ مَقْلُومٍ مِنْ هُنَا ، وَكَيْفَ أَمْنُضِي بِأَلْفِ فَارِسٍ إِلَى إِقْلِيمٍ فِيهِ عَشْرَةُ أَلْفِ فَارِسٍ ، وَمِائَةِ شَيْخٍ^(٥) فِيهَا عَشْرَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ عَبْدٍ وَقَوْمٍ مُسْتَوْطِنُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَرِيبَ خَزَائِنِهِمْ^(٦) . وَنَحْنُ نَأْتِيهِمْ مِنْ تَعَبِ السَّفَرِ - بِهَذِهِ الْعُدَّةِ الْقَلِيلَةِ ؟

(a) بولاق : العساكر . (b) بولاق : ما سمعه . (c) بولاق : شهيد .

من مؤلفاته كتاب «محشن السلوك في فضل ملك مصر على سائر الملوك» وكتاب «محشن السرية في اتخاذ الحصن بالجزيرة» - الذي يشرح إليه المقرئ - والمقصود به القلعة التي بناها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في جزيرة مصر المعروفة بالروضة . (لم يترجم أحدًا للنابلسي سوى شرف الدين النبطي في معجم شيوخه ولخص هذه الترجمة اليوناني في ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤ ، وانظر كذلك Cahen, Cl., BEO «Kitāb luma' al-qawānīn al-mudīyya...», 1958-60), pp. 119-23 ورغم أن كتاب «حسن السرية» أشار إليه ابن دقاق والمقرئ فلم يصل إلينا منه أي نسخة ، على العكس تمامًا من كتاب «علم القوانين المضية» الذي وصل إلينا في عدة نسخ رغم أنه لم يثر اهتمام المؤرخين القدماء (١) .

^١ فيما يلي ١ : ٤٠٥ .

^٢ فيما يلي ٢٥٤ .

^٣ علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد القرشي المعروف بالنابلسي المتوفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، شغل وظيفة قاضي لبعض الوقت ، ثم تولى في عهد السلطان الملك الكامل محمد وظائف إدارية عليها مكنته من تأليف مجموعة من الكتب الهامة حول التاريخ الاقتصادي والتنظيم الإداري والزراعي لمصر وأحوال أهل الذمة بها ، هي : «إظهار صنعة الحثي القويوم في ترتيب بلاد الفيوم» المعروف بتاريخ الفيوم وبلادها ، و«ملع القوانين المضية» و«تجريد سيف الهمة لاستخراج ما في ذمة أهل الذمة» ، وقد نشرت جميعها بعناية موريتز ويكر وكاهن ، ولم يصل إلينا

قال : ثم أجاته بعد ذلك .

هذا - أعزك الله - بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ، ما ستراه في ذكر القطائع إن شاء الله تعالى ، ثم ما كان من عساكر الأمير أبي بكر محمد بن طنج الإخشيد ، وهي - على ما يحكاها غير واحد ، منهم ابن خلكان - أنها كانت أربع مائة ألف ^١.

ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر ، تغير الحال في ذلك كله ^٢.

قال القاضي الفاضل في «تجددات» سنة سبع وستين وخمسمائة : في ثامن المحرم خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها ، بعد أن أنذر حاضرها وغائبها ، وتوافى وصولها وتكامل سلاحها وخبولها ، فحضر في هذا اليوم مجموع ، شهد كل من علا سته وقزطس ظنه أن ملكا من ملوك الإسلام لم يخرج مثلها ، وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أزعج أنوف الكفرة .

ولم يتكامل اجتياز العساكر مؤكبها بعد مؤكب ، وطلبتا بعد طلب (والطلب - بلغة الغز - هو الأمير المقدم الذي له علم مفقود وثوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا) إلى أن انقضى النهار ، ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم . وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا ، والغائب منها عشرون طلبا ، وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس ^٣ ، أكثرها طواشية ^٤ - والطواشي من رزقه من سبع مائة إلى الف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك ، وله برك ^٥ من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين قرس ويؤدون وتغل ويحمل ، وله غلام

(a) بولاق : فرأيت حرايتهم . (b) بولاق : بعض التغير لا كله .

^١ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ : ٩٠٥ نقلًا عن التاريخ الصغير المعروف بدميون السيرة محمد بن عبد الملك الهمداني .

^٢ المقرئ : اعطاء الحنفا ٣ : ٣٢٧ ، وانظر Dozy, R., Suppl. Dict. Ar. II, 51.

^٣ يرى جب Gibb, H. أن مصطلح «طواشي» في هذه الفترة كان يدل على الجندي الذي ينتمي إلى الطبقة الأعلى من طبقة المسكر النظامي ، أما الطبقة الأدنى فكانت تعرف

بالقراغلامية (انظر الهامش التالي) . يؤيد ذلك الوصف الذي قدمه غليوم أسقف صور لجيش صلاح الدين في حملة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ويقول فيه : «وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم في لغتهم بالطواشية» أما الثمانية عشرة آلاف الآخرون فكانوا من الفرسان العادين المعروفين باسم «قراغلامية» (الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، ٢١٩ : ٤) ، وقد كان صلاح الدين يخاطب به سقر الخلاطي أحص مماليكه وأخلصهم الذي =

يُحْمِلُ سِلَاحَهُ - وَقَرَأَ عَلَامِيَّةً^١ تَتَمَّةُ الْجُمْلَةِ .

قَالَ : وَفِي هَذِهِ الشُّقْرَةِ عَرَضَ الْعُزْبَانُ الْخَدَّامِينَ ، فَكَانَتْ عِدَّتُهُمْ سَبْعَةَ آلَافٍ فَارِسَ ، وَاسْتَقَرَّتْ عِدَّتُهُمْ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثَ مِائَةِ فَارِسٍ لَا غَيْرَ ، وَأَخَذَ بِهَا الْحُكْمَ عُشْرُ الْوَاجِبِ ، وَكَانَ أَصْلُهُ أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ ، عَلَى حُكْمِ الْإِعْتِدَادِ الَّذِي يَتَأَصَّلُ وَلَا يَتَحَصَّلُ ، وَكُلْفُ التَّغَالِيَةِ ذَلِكَ فَانْتَقَضُوا وَلَوْحُوا بِالْتَّحْزِيزِ إِلَى الْفَرِيحِ .

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ : اسْتَمَرَ انْتِصَابُ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْإِقْطَاعَاتِ وَمُتَقَرِّفَةِ عِبَرِهَا ، وَالتَّنْصُصِ مِنْهَا وَالزِّيَادَةِ فِيهَا ، وَثَبَاتِ الْحُرُومِ وَزِيَادَةِ الْمَشْكُورِ ، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ الْعِدَّةُ عَلَى ثَمَانِيَةِ آلَافٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ فَارِسًا : أُمَرَاءَ مِائَةٍ وَأَخَذَ عَشْرَ أُمَرَاءَ ، طَوَائِيَةِ سَنَةِ آلَافٍ وَتِسْعَ مِائَةٍ وَسِتَّةٍ وَسَبْعُونَ ، قَرَأَ عَلَامِيَّةً أَلْفٍ وَخَمْسَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ وَخَسْمُونَ . وَالْمُسْتَقَرُّ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ أَلْفٍ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ دِينَارٍ ، وَذَلِكَ خَارِجٌ عَنِ الْمُحْلُولِينَ مِنَ الْأَجْنَادِ الْمُؤَسَّسِينَ بِالْحَيَاةِ عَلَى الْعُشْرِ ، وَعَنِ جِدَّةِ الْعُزْبَانِ الْمُقْطَعِينَ بِالشُّرُوقِيَّةِ وَالْبَحْثِيَّةِ ، وَعَنِ الْكَنْتَانِيِّينَ وَالْمُحْضَرِيِّينَ^٢ وَالْفُقَهَاءَ / وَالْقُضَاةَ وَالصُّوفِيَّةَ ، وَعَمَّا يَبْجُرِي بِالْديُونِ وَلَا يَقْصُرُ عَنْ أَلْفٍ أَلْفٍ دِينَارٍ^٣ .

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ : أَوْرَاقٌ بِمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عِبَرُ الْبِلَادِ مِنْ إِسْكَندَرِيَّةٍ إِلَى عَيْذَابَ ، إِلَى آخِرِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ، خَازِنًا عَنِ الثُّغُورِ وَأَبْوَابِ الْأَمْوَالِ الدِّيَوَانِيَةِ وَالْأَحْكَارِ وَالْحَبْسِ وَمَتَقْلُوطٍ وَمَتَقَبَّاطٍ وَعِدَّةٍ نَوَاحٍ

(٨) بُولَاقُ : الْكَنْتَانِيِّينَ وَالْمُحْضَرِيِّينَ .

- = قَدَمَهُ عَلَى مَمَالِيكِهِ (أَبُو الْخَاسَنِ : النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ ٦: ١٢) ،
بِكَلِمَتِي «بَا طَوَاشِي» (جَب ، هـ : «جَبُوشُ صَلَاحِ الدِّينِ» فِي
كِتَابِ دِرَاسَاتِ فِي حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ ، تَرْجُمَةُ إِحْسَانِ عَبَّاسٍ
وَمُحَمَّدِ يُوْسُفِ نَجْمٍ وَمُحَمَّدِ زَايِدٍ ، بِيْرُوتَ - دَارُ الْعِلْمِ
لِلْمِلَالِيَيْنَ ١٩٧٩ ، ١١٥) وَأُطْلِقَ عَلَى بَهَاءِ الدِّينِ قَرَاوُشٍ
كَذَلِكَ لِقَبِّ طَوَاشِي (فِيمَا يَلِي ١ : ٤٩٦ ، ٢ : ٢٠١) . وَانْظُرْ
كَذَلِكَ RICHARD, D.S., «A Report on an Order of
«Qarāqūsh», Arabica XXXVI (1989), pp. 237-41
وَهُوَ نَشْرٌ لِأَمْرِ لِقَرَاوُشٍ وَجَدَ بَيْنَ أَوْرَاقِ الْجُمُودَةِ الْمَحْفُوظَةِ فِي
كَلِمَرْدَجٍ وَرَدَتْ فِيهِ أَلْفَابُهُ : «الْمَوْلَا الطَّوَاشِي الْإِسْفَهْسَلَارُ
- الْكَبِيرُ بِهَاءِ الدِّينِ قَرَاوُشُ الْمُتَصَوُّرِيُّ الْأَفْضَلِيُّ» .
١ انْظُرْ حَوْلَ هَذَا اللَّفْظِ فِيمَا يَلِي ٣٧٥ .
٢ الْقَرَاغِلَامِيَّةُ . مُصْطَلَحٌ كَانَ يُطْلَقُ - فِيمَا يَدُو - إِذَا
عَلَى مَمَالِيكَ مِنْ دَرَجَةِ دُنْيَا أَوْ - كَمَا تَسْتَدِلُّ مِنَ الْأَعْدَادِ
الْمَذْكُورَةِ هُنَا - عَلَى تَحَالُفٍ مِنْ غَيْرِ الْمَمَالِيكِ . وَجِبِبُ أَنْ لَا
يَخْلُطُ بَيْنَ كَلِمَةِ قَرَاغِلَامٍ وَالْأَصْطِلَاحِ لِلْمَغُولِيِّ قَرَاغُولٍ (جَب ،
هـ : الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ١١٥-١١٦) ، وَانْظُرْ مَعْنَى الطَّوَاشِي فِي
الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ فِيمَا يَلِي ٢ : ٣٨٠ .
٣ الْمُقَرِّزِيُّ : السُّلُوكُ ١ : ٧٥ .

أوردت أسماؤها ولم يُعَيَّن لها في الدِّوان عِبرة، من جملة أربعة آلاف ألف وست مائة ألف وثلاثة وخمسين ألفًا وتسعة عشر دينارًا، بعد ما يجري في الدِّوان العادلي الشَّعيد وغيره عن الشَّرِيعَةِ والمُتَاجِيعَةِ والدَّقَلِيَّةِ وبُوش وغير ذلك، وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفًا وتسع مائة وثلاثة وعشرون دينارًا، تَفْصِيلُ ذلك :

• الدِّوانُ العادليّ : سبع مائة ألف وثمانية وعشرون ألفًا ومائتان وثمانية وأربعون دينارًا . الأُمراء والأَجناد المُرْسُوم بِإِتِّعَاءِ لِقْطَاعَاتِهِم بِالْأَعْمَالِ المذكورة : مائة ألف وثمانية وخمسون ألفًا ومائتان وثلاثة دنانير . ديوانُ الشُّور المُبَارَك والأَشْرَاف : ثلاثة عشر ألفًا وثمان مائة وأربعة دنانير . الغُرَبان : مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفًا ومائتان وستة وتسعون دينارًا . الْكِتَابِيَّة : خمسة وعشرون ألفًا وأربع مائة واثنا عشر دينارًا . الْقَضَاةُ وَالشُّيُوخُ : سبعة آلاف وأربع مائة وثلاثة دنانير . الْقِيَمَارِيَّةُ وَالصَّالِحِيَّةُ وَالْأَجْنَادُ الْمُضْرِيُونَ : اثنا عشر ألفًا وخمس مائة وأربعة دنانير . الْغَزَاةُ وَالْعَسَاقِلَةُ الْمُكَتَّزَةُ بِدِيْمَاطٍ وَتَنْيَسٍ وَغَيْرِهِمْ : عشرة آلاف وسبع مائة وخمسة وعشرون دينارًا . الْبَارِز : ثلاثة آلاف ألف وأربع مائة ألف واثنتان وستون ألفًا وخمسة وتسعون دينارًا .

١٠ الرَّجُلُ الْبَحْرِيّ : ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفًا وست مائة وثلاثة وخمسون دينارًا، تَفْصِيلُهُ : صَوَاحِجِي تَقَرُّ الْإِسْكَانِيَّةُ : ثمان مائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارًا . ثَقَرُ رَشِيد : ألفا دينار . الْبَحْرِيَّة : مائة ألف وخمسة عشر ألفًا وخميس مائة وستة وسبعون دينارًا . خَوْفُ رَمْسِيَس : اثنان وتسعون ألفًا وأربع مائة وثلاثة دنانير . قُوَّةُ الْمُزَاجِمَتَان : عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارًا . التَّشْتَرَاوِيَّة : خمسة عشر ألفًا وثلاث مائة وخمسة دنانير . جَزِيرَةُ بَنِي نَصْر : مائة ألف واثنا عشر ألفًا وست مائة وستة وأربعون دينارًا . جَزِيرَةُ قُوسِيْنِيَا : مائة ألف وثلاثون ألفًا وخميس مائة واثنتان وتسعون دينارًا . الْغَزِيَّة : ست مائة ألف وأربعة وسبعون ألفًا وست مائة وخمسة دنانير . الشَّمْتُودِيَّة : مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفًا وأربع مائة وتسعة وسبعون دينارًا . الدُّنْجَاوِيَّة : ستة وأربعون ألفًا ومائتان وأربعة وسبعون دينارًا . الْمُتَوَفِّيَّة : مائة ألف وثمانية وأربعون ألفًا وثلاث مائة وسبعة وأربعون دينارًا .

٢٠ الرَّجُلُ الْقِبْلِيّ : ألف ألف وست مائة ألف وعشرة آلاف وأربع مائة وأحد وأربعون دينارًا، تَفْصِيلُ ذلك : الْحِيزَةُ : مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفًا ومائتان وأربعة دنانير . الْإِطْفِيجِيَّة : تسعة وخمسون ألفًا وسبع مائة وثمانية وعشرون دينارًا . الْبُوصِيرِيَّة : ستون ألفًا وأربع مائة وستة وستون دينارًا . الْفَيُومِيَّة : مائة ألف واثنتان وخمسون ألفًا وست مائة وأربعة وثلاثون دينارًا . الْبَهْنَسَاوِيَّة :

١٠

١٥

٢٠

٢٥

ثلاث مائة ألف واثنتان وخمسون ألفاً وست مائة وأربعة وثلاثون ديناراً. الواحات الدَّاخلَة والخارجيَّتين وواحات البهتَسَا: خمسة وعشرون ألف دينار. الأَشْمُونِيَّين: مائة ألف وسبعة وأربعون ألفاً وسبع مائة واثنتان وثلاثون ديناراً. السيوطية خارجاً عن مَقْلُوط ومَقْبُط: اثنتان وسبعون ألفاً وخمسة مائة وأربعة دنانير. الإخميمية: مائة ألف وثمانية آلاف وثمان مائة واثنان عشر ديناراً. الأَعْمَالُ القُوصِيَّة: ثلاث مائة ألف واثنتان وستون ألفاً وخمسة مائة دينار. ثَقَرُ أَشْوَان: خمسة وعشرون ألف دينار. ثَقَرُ عَيْذاب يَجْرِي فِي غير هذا الدِّيَّوان.

وقال في «مُتَجَدِّدَات» سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة: والذي انْقَعَدَ عليه اِرْتِفَاعُ الدِّيَّوان السُّلْطَانِي ثلاث مائة ألف وأربعة وخمسون ألفاً وأربعة وأربعون ديناراً^١. والذي يُمَيِّزُ رَأْسَ الدِّيَّوان، لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ عَلَى اِرْتِفَاعِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ، اِثْنَانِ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعٌ مِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ دِينَارًا. والذي اِنْتَسَقَ مِنَ الْبُيُوتِ لِلْسَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَسِتِّ مِائَةٍ وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ دِينَارًا. والذي اِسْتَمْتَلَ عَلَيْهِ مُتَخَصِّلُ دِيَّوانِ الْخَاصِّ الْمَلِكِيِّ النَّاصِرِيِّ بِالْديَّارِ الْمِصْرِيَّةِ لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ: ثَلَاثٌ مِائَةٌ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعٌ مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ دِينَارًا وَنِصْفٌ وَثَلَاثٌ وَثَمْنٌ^٢.

ذِكْرُ الرُّؤُكِ^٣ الْأَخِيرِ النَّاصِرِيِّ

وكان الجُنْدِيُّ اِقْطَاعُهُ بِمُفَرَّدِهِ وَلَهُ تَبِعٌ وَاحِدٌ، مِنْ عِشْرِينَ أَلْفٍ دِينَارٍ إِلَى ثَلَاثِينَ، وَفِيهِمْ مَنْ اِقْطَاعُهُ خَمْسَةٌ عَشَرَ أَلْفًا، وَأَقْلَهُمْ عَشْرَةُ أَلْفٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ الصَّيَاقَةِ، وَتَلَعَّ خَمْسَةُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فِي اِلْاِقْطَاعِ الثَّقِيلِ. وَكَانَ الْجُنْدِيُّ يَخْرُجُ إِلَى الْبَيْكَارِ بِطَوَالَةِ خَيْلٍ، وَيَخْرُجُ مُقَدِّمُ الْخَلْقَةِ كَأَمِيرِ عَشْرَةٍ، وَتَكُونُ مُضَافَتُهُ إِذَا نَزَلَ حَوْلَهُ، وَأَكْثَرُهُمْ يَأْكُلُ عَلَى سِمَاطِهِ/. وَلَا يُمَكِّنُ الْأَمِيرُ أَنْ يَأْكُلَ إِلَّا وَجَمِيعِ أَجْنَادِهِ مَعَهُ، وَيَأْخُذُ غِلْمَانُ أَجْنَادِهِ كُلَّ يَوْمٍ الطَّعَامَ مِنْ مَطْبَخِهِ، وَإِذَا رَأَى نَارًا تُوَقَّدُ

الحراجية نتيجة لما بطراً على حال الأرض من تغيير بنقص أو زيادة في مساحتها بين وقت وآخر. ويؤكد المقرئ أنه في بداية الفترة الإسلامية كان الرُّوكُ يتم كل ثلاثين سنة من أجل التوفيق بين السنة الهلالية والسنة الحراجية (فيما تقدم ٢٢٢٣) وواضح أنَّ ما ذكره المقرئ لا يعكس إلا واقفاً نظرياً، ففي واقع الأمر أنه طوال تسعة قرون تفصل الفتح =

^١ المقرئ: السلوك ١: ١١١.

^٢ انظر كذلك فيما يلي ٣٢٨.

^٣ الرُّوكُ، كلمة قبطية اشتُيِدَ منها الفعل العربي رَاكَ - يروك، تعني في مصر إجراء زراعيًا يتم خلاله القيام بعملية لياس الأرض وحصرها في سجلات وتأمينها، والغرض من هذا الإجراء هو تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال

إلا وجميع أجناده معه ، ويُأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه ، وإذا رأى نازا ثوقد سأل عنها فيقال : إن فلانا اشتهى كذا ، فينضّب ممن لا يأكل عنده ؛ ومع ذلك كانت أشكالهم شنيعة ، وملايشهم غير طائفة .

فلما أفضت السلطنة إلى المنصور لاجين ، رآك البلاد ؛ وذلك أن أرض مصر كانت أربعة وعشرين قيراطا : فيختص السلطان منها بأربعة قرايط ، ويختص الأجناد بعشرة قرايط ، ويختص الأمراء بعشرة قرايط . وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء . وبصير ذلك الإقطاع في دواوين الأمراء ، ويحتمي بها قطاع الطريق ، وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الدنيوية ، وتصير مأكلة لأغوان الأمراء ومشتدسهم ومضرة على أهل البلاد التي تجاورها .

فأبطل السلطان ذلك ، وزد تلك الإقطاعات على أربابها ، وأخرجها بأشهرها من دواوين الأمراء ؛ وأول ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة^١ ، فأخرج منه ما كان فيه من هذه الإقطاعات ، وكان يحصل له منها مائة ألف أردب غلة في كل سنة ، واقتدى به جميع الأمراء ، وأخرجوا ما في إقطاعاتهم من ذلك ، فبطلت الحمايات^٢ .

وجعل السلطان في هذا الوؤك للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا ، وأفرد تسعة قرايط ليخدم بها عسكرها ويقطعهم إياها ، ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء والأجناد بعشرة قرايط ، ووفّر قيراطا

ولجد في بداية الكراسة التي بخط المقرزي والمحفوظة في مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٥٢١٢٥ ، وهي تشبه الكراسة المحفوظة في مكتبة Leffg ليبيكا ، ما كتبه المقرزي حول الروك الناصري . وبدأها بقوله : « ... فقد برز الأمر العالي - أعلاه الله تعالى - بكتابة ما كان من خبر الروك الحسامي والروك الناصري ، فنقول : نحتاج قبل ذكر ذلك إلى [بيان] ما كانت عليه الحال قبل الروك ليعرف به كيف كان سبب عمل الروك ، والله أسأل التوفيق والإعانة بجنه وكرمه . فصل مما كان يعمل في أراضي مصر قبل الإسلام ... ونعم الحديث بقوله : وقد ذكرتها في كتابي المسمى كتاب المواظظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

^١ انظر فيما يلي ٣٨٧:٢ .

^٢ عن الروك الحسامي الذي عمله السلطان محتام الدين -

- العربي عن الفتح العثماني لمصر لا تذكر المصادر سوى ست مرات تمت فيها عملية «الوؤك» (Halm, H., *El³ art.*) Rawk VII, pp. 483-84; Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 50-56; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lebensregistern*, I-II, Wiesbaden 1979-82 المقرري : السلوك ٨٤١:١ هـ^٣ أبو المحاسن : النجوم ٨٧:٨) .

واستغل سلاطين المماليك عملية الوؤك - التي تمت مرتين في عصرهما (٦٩٧ ، ٧١٥ هـ) - من أجل إجراء تغيير شامل في توزيع الإقطاعات ، ومن أجل التقليل من نفوذ كبار الأمراء المماليك ، أو توزيع إقطاعات بعض الأمراء في أماكن متباعدة إجماعا لهم ، وليستأثر سلاطين المماليك لأنفسهم ولوؤديهم بأجود الأراضي وأفضل المواقع (فيما يلي ٢٤١-٢٤٢) .

وأفرد للثائب منكوتمر^(a) إقطاعاً جليلاً، فأنهى عمل ذلك في ثامن شهر رجب سنة سبع وتسعين وست مائة وجلس النائب منكوتمر^(b) لتفريقة الميالات^١ في تاسعه^(c). فتكثرت قلوب الأمراء، حتى كان من قتل^(d) المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان.

فلما كانت الأتباع الناصرية محمد^(e)، رآه^(d) البلاد؛ قال جامع^(f) «السيرة الناصرية»^٢: وفي سنة خمس عشرة وسبع مائة، اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية، وأن يتصل منها مكوشا كثيرة، ويفضل لخاص تملكه شيئا كثيرا من أراضي مصر. وكان سبب ذلك أنه اغتبر كثيرا من أخبار^٣ المالِك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر رُحْن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير سلال وسائر المالِك البيروية، فإذا هي ما بين ألف دينار إلى ثمان مائة دينار، وخشي من قطع أخبار المذكورين، فولد له الرأي مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش، أن يروك ديار مصر، ويقرر إقطاعات بما يختار، ويكتب بها ميثاقات سلطانية. فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوزاقا بما عليه غير النواحي ومساحتها. وعين السلطان لكل إقليم من أقاليم ديار مصر أناسا، وكتب مرسوماً للأمير بذر الدين جنكلي بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه أقول الحاجب، ومن الكتاب المكين بن قزوين. وأن يخرج الأمير عز الدين أئندغر الخطيري إلى ناحية الشرقية ومعه الأمير أئيش الخمدي ومن الكتاب أمين الدين قزموط. وأن يخرج الأمير بلبان الصرخندي و[طرطاي]^(g) القلنجقي و[محمد]^(h) بن طرطاي وبيبرس الجمдар إلى ناحية المنوفية والبحيرة. وأن يخرج [أئندغدي]^(a) الثليلي و[مغلطاي]^(b) المرتيني إلى

a-a ساقطة من بولاق. b بولاق: تابعه. c ساقطة من بولاق. d بعد ذلك في بولاق: الناصر محمد.

H., *The Financial System* pp. 52-53; Holt, P.M., «The Sultanate of al-Mansur Lâchin (696-8/1296-9)», *BSOAS* 36 (1973), pp. 521-32; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lebensregistern*, I, pp. 17-24; Tsugitaka, S., *State and Rural Society in Medieval Islam-Sultans, Muqta's and Fāilâhûn*, pp. 124-34.

^١ الميثال ج. ميثالات، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧.

^٢ انظر فيما تقدم ١٢٨.

^٣ خبز ج. أخبار، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧.

= لاجين في جمادى الأولى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م انظر، بيرس المنصورى: زبدة الفكرة ٣٢٠-٣٢١ (وفيه أن المنصور لاجين قام بعمل الروك الحسامي لأن النواحي آلت إلى الخراب وعجز الفلاحون عن الحراج وصارت الأراضي تهو وتغرق لضغط المزارعين مع زيادة الشكوى من المقطعين)؛ النوري: نهاية الأرب ٣١: ٣٤٥-٣٤٨ المقرئى: السلوك ١٨٤٦-٨٤١:١ العيني: عقد الجمان ٣: ٣٩٤-٣٩٧ أبا الحسن: النجوم الزاهرة ٨: ٩٠-٩٥، Poliak, A.N., «Some Notes on the Feudal System of the Mamluks», *JRAS* (1937), pp. 97-107; Rabie,

الوجه القبلي .

ونَدَبَ معهم كُتَّابًا ومُشْتَرَفِينَ وَقِيَّاسِينَ ، فَسَارُوا إِلَى حَيْثُ ذَكَرَ . فَكَانَ كُلُّ مَنْهُمْ إِذَا نَزَلَ بِأَوَّلِ عَمِلِهِ ، طَلَبَ مَشَابِخَ كُلِّ بَلَدٍ وَدُلَّالَهَا وَغُدُولَهَا وَقَضَائِهَا وَسِجِلَّاتِهَا الَّتِي بِأَيْدِي مُقْطَعِيهَا ، وَفَحَصَ عَنْ مُتَحَصِّلِهَا مِنْ عَيْنٍ وَغَلَّةٍ وَأَصْنَافٍ ، وَمِقْدَارَ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْقُذْنِ ، وَمَزْرُوعِهَا وَبُورِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ بَرَايِبٍ وَبَقَايَ وَخَرَسٍ^(b) وَمُشْتَبِحٍ ، وَعِبْرَةِ النَّاحِيَةِ وَمَا عَلَيْهَا لِمُقْطَعِيهَا مِنْ غَلَّةٍ وَدَجَاجٍ وَخِرَافٍ وَبَزْسِيمٍ وَكُشْكٍ وَكُفْكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصُّيَافَةِ . فَإِذَا خَرَزَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، ابْتَدَأَ بِقِيَاسِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَصَبَّطَ بِالْغُدُولِ وَالْقِيَّاسِينَ وَقَاضِيَ الْقَتْلَ مَا يَظْهَرُ بِالْقِيَاسِ الصَّحِيحِ ، وَطَلَبَ مُكَلَّفَاتِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَقُنْدَاقِهَا^(c) وَفَضَّلَ مَا فِيهَا^(d) مِنَ الْخَاصِّ السُّلْطَانِيِّ وَبِلَادِ الْأُمَرَاءِ وَإِقْطَاعَاتِ^(e) الْأَجْنَادِ وَالرُّزْقِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ عَمَلِهِ^(f) . ثُمَّ حَضَرُوا بَعْدَ خَمْسَةِ وَسَبْعِينَ يَوْمًا ، وَقَدْ تَخَرَّرَ فِي الْأَوْرَاقِ الْمُحَضَّرَةِ حَالُ جَمِيعِ ضِيَاعِ أَرْضِ مِصْرَ وَمِسَاحَتِهَا وَعِبْرَةُ أَرْضِيهَا ، وَمَا يُتَحَصَّلُ عَنْ كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ عَيْنٍ وَغَلَّةٍ وَصِنْفٍ .

فَطَلَبَ السُّلْطَانُ الْفَخْرَ نَازِلَ الْجَيْشِ وَالتَّحْقِيَّ الْأَشْعَدَ بْنَ أَمِينِ الْمَلِكِ الْمَعْرُوفِ بِكَاتِبِ بُرْلَانِي^(g) وَسَائِرِ مُشْتَرَفِي الدَّوْلَةِ ، وَأَلَزَمَهُمْ بِعَمَلِ أَوْرَاقٍ تَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْخَاصِّ السُّلْطَانِيِّ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمْ وَعَلَى إِقْطَاعَاتِ الْأُمَرَاءِ ، وَأَضَافَ عَلَى عِبْرَةِ كُلِّ بَلَدٍ مَا كَانَ عَلَى فَلَاحِيهَا مِنْ ضِيَافَةٍ لِمُقْطَعِيهَا ، وَأَضَافَ إِلَى الْعِبْرَةِ مَا فِي الْإِقْطَاعِ مِنَ الْجَوَالِي ، وَكَتَبَ مِثَالَاتٍ لِلْأَجْنَادِ بِإِقْطَاعَاتٍ عَلَى هَذَا

(a) ما بين المعقوفين من السلوك والنجوم الزاهرة . (b) بولاق : ترابيب وبواق وخرس . (c) بولاق : خندقها .

(d-d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق : سرلني .

Rabie, H., *op.cit.*, pp. 52-56; Halm, H., *op.cit.*, I, pp. 24-34; Levanoni, A., *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al-Nāsir Muhammad Ibn Qalāwūn (1310-1341)*, Leiden-Brill 1995, pp. 142-48; Tsugitake, S., *op.cit.*, pp. 135-61; id., «The Proposers and Supervisors of al-Rawḍ al-Nāsirī in Mamluk Egypt», *Mamluk Studies Review* II (1998), pp. 73-92
طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨، ٩١-١١٤.

^١ عن الزوك الناصري الذي عمله السلطان الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م انظر، التويري: نهاية الأرب ٣٢: ٢٠٥-٢٠٦، ٢٢٥-٢٢٧، ابن أبيبك الدواداري: كثر الدرر ٩: ٢٨٦-٢٨٧ القرزي: السلوك ٢: ١٤٦-١٤٧ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٣٢، ١٣: ١٨١-١٨٢ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٤٢-٤٥ ابن لباس: بدائع الزهور ١/١: ٤٤٦، Poliak, A.N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900*, London 1939, pp. 36-39;

الحُكْمُ ، فاعتد منها بما كان يُضْرَفُ في كُلِّ حِفْلٍ الْغِلَالِ مِنَ التَّوَاخِي إِلَى سَاحِلِ الْقَاهِرَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَكْسِ^١ .

وَأَبْطَلَ السُّلْطَانُ عِدَّةً مَكُوسٍ^٢ مِنْهَا «مَكْسُ سَاحِلِ الْغَلَّةِ» ، وَكَانَ لِمَجْلٍ مُتَحَصِّلِ الدِّيَّانِ ، وَعَلَيْهِ إِقْطَاعَاتُ الْأَمْزَاءِ وَالْأَجْنَادِ ، وَيُتَحَصَّلُ مِنْهُ فِي السَّنَةِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، وَعَلَيْهِ أَرْبَعُ مِائَةِ مُقَطَّعٍ لِكُلِّ مِنْهُمْ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَلِكُلِّ مِنَ الْأَمْزَاءِ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ . وَكَانَتْ جِهَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا مُتَحَصِّلٌ كَثِيرٌ جَدًّا ، وَيُنَالُ الْقَيْطُ/ مِنْهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى ، وَيَحُلُّ بِالنَّاسِ مِنْ ذَلِكَ بَلَاءٌ شَدِيدٌ وَتَعَبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَغَارِمِ وَالظُّلْمِ ، فَإِنَّ مَظَالِمَهَا كَانَتْ تَتَعَدَّدُ مَا بَيْنَ ثَوَائِمَةِ تَشْرِيقٍ وَكَيْالِينَ تَبْخَسُ وَشَاذِينَ وَكُتَّابٍ يُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ شَيْقًا ، وَكَانَ مُقَرَّرُ الْأَزْدَبِ دِرْهَمِينَ لِلْسُّلْطَانِ وَيُلْحَقُهُ نِصْفُ دِرْهَمٍ ، غَيْرَ مَا يُنْقَبُ وَيُشْرِقُ . وَكَانَ لَهُذِهِ الْجِهَةِ مَكَانٌ يُقَرَّرُ بِ «خُصِّ الْكَيْالَةِ» فِي سَاحِلِ بُولَاقٍ ، يَجْلِسُ فِيهِ شَاذٌ وَسُتُونٌ مُتَعَمِّقًا مَا بَيْنَ كُتَّابٍ وَمُسْتَوْفِينَ وَنَازِلٍ وَمُغْنَى^٣ وَثَلَاثُونَ جَنْدِيًّا مَبَاشِرُونَ ، وَلَا يُتِمَّكِنُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَبِيعَ قَدْحًا مِنْ غَلَّةٍ فِي سَائِرِ التَّوَاخِي ، بَلْ تُحْمَلُ الْغَلَاتُ حَتَّى تُبَاعَ فِي خُصِّ الْكَيْالَةِ بِبُولَاقٍ .

وَمَا أَبْطَلَ أَيْضًا «نِصْفَ السُّمُسَرَةِ» : وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَنْ مَنْ بَاعَ شَيْقًا مِنَ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ يُعْطَى أُجْرَةً الدَّلَالِ - عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ قَدِيمٍ - عَنْ كُلِّ مِائَةِ دِرْهَمٍ دِرْهَمِينَ ، فَلَمَّا وَلِيَ نَاصِرُ الدِّينِ الشَّيْخِي الْوِزَارَةَ قَرَّرَ عَلَى كُلِّ دَلَالٍ مِنْ ذَلَالَتِهِ دِرْهَمًا مِنْ كُلِّ دِرْهَمِينَ ، فَصَارَ الدَّلَالُ يَعْمَلُ مُقَدَّلَهُ وَيَجْتَهِدُ حَتَّى يِنَالَ عَادَتَهُ وَنَصِيرَ الْغَرَامَةِ عَلَى الْبَائِعِ ، فَتَضَرَّرُ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ وَأَوْذُوا فَلَمْ يُغَاثُوا حَتَّى أَبْطَلَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ .

وَمَا أَبْطَلَ «رُسُومَ الْوِلَايَةِ» وَكَانَتْ جِهَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْوَلَاةِ وَالْمُقَدَّمِينَ فِيحْبِيبِهَا الْمَدْكُورُونَ مِنْ عُرَفَاءِ الْأَشْوَاقِ وَبُيُوتِ الْفَوَاحِشِ ، وَلِهَذِهِ الْجِهَةِ ضَامِرٌ وَتَحْتَ يَدِهِ عِدَّةٌ صَبِيحَانٍ وَعَلَيْهَا لُجْنَةٌ مُسْتَقْطَعُونَ وَأَمْزَاءٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَكَانَتْ تَشْتَمِلُ عَلَى ظُلْمٍ شَنِيعٍ وَفَسَادٍ قَبِيحٍ وَهَئِكَ قَوْمٌ مُسْتَوْرِينَ وَهَجَمَ بُيُوتَ أَكْثَرِ النَّاسِ .

وَمَا أَبْطَلَ «مُقَرَّرَ الْحَوَائِصِ وَالنَّعَالِ»^٤ مِنَ الْمَدِينَةِ وَسَائِرِ أَعْمَالِ مِصْرَ كُلِّهَا مِنَ الْوُجْهِ الْقِبْلِيِّ

(٤) سَاقَطَ مِنْ بُولَاقٍ .

١٢٢٩؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ٦٩؛ المقريزي : السلوك

٢ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٤٣ - ٤٤ .

١٥٠٠ - ١٥٤٠؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٩ : ٤٥ - ٤٨ .

٢ عن المكوس التي أبطلها الملك الناصر محمد بن

تلاوون انظر كذلك النويري : نهاية الأرب ٣٢ : ٢٢٧ -

والبخري ، فكان على كل من الؤلاة والمقْدَمين مُقَرَّر يُحْتَمَل في كل قسْطٍ من أقساط السَنة إلى بيت المال ، عن ثمن جِياصة ثلاث مائة دِرْهَم ، وعن ثمن نَغل^(b) خمس مائة دِرْهَم ، وعلى هذه الجِهة عِدَّة مُقْطَعين ويُفَضَّل منها ما يُحْتَمَل . وكان يُصِيب الناس من هذه الجِهة ما لا يُوصَف ، ويحل بهم من عَشَف الرُقاَصين ما يَهْوَن معه الموت .

ومن ذلك «مُقَرَّر الشجون»^(c) وهو عبارة عَمَّا يُؤْخَذ من كل مَن يُسْجَن ، فللسَّجَناء على مُحْكَم المُقَرَّر ستة دَرَاهِم سوى كُلِّبٍ أُخرى ، وعلى هذه الجِهة عِدَّة مُقْطَعين ، ويرغب فيها الضُّمان ويتزايدون في مَبْلَغ ضَمَانِها لكَثْرَةِ ما يَتَحَصَّل منها ، فإنه لو كان تَخاصُّم رجلٍ مع امرأته أو ابنه رَفَعَه الوالي إلى السَّجَن ، فبمَجْرود ما يَدْخُل السَّجَن - ولو لم يَقُمْ به إِلَّا لِحَظَةٍ واحدة - أُخِذَ منه المُقَرَّر ، وكذلك كان على سِجْن القَضاة أَيْضًا .

ومن ذلك «مُقَرَّر طَرَح القَراريج» ولها ضُمَانٌ عِدَّة ، في سائر نواحي أرض مصر ، يَطْرَحون على الناس القَراريج ، فيمَرُّ بَضْعُها الناس من ذلك بلاءً عَظيم ، وتُقاسى الأرايِلُ من العَشَف والظَلَم شِيقًا تُكْرَأ^(d) . وكان على هذه الجِهة عِدَّة مُقْطَعين ، ولا يُمْكِن أَحَدٌ من الناس في جَميع الأقاليم أن يشتري قَرْوَجًا فما فَوْقَه إِلَّا من الضَّامين ، ومن عَزِزَ عليه أَنَّهُ اشْتَرَى أو باع قَرْوَجًا من سوى الضَّامين جاءه الموت من كل مكان وما هو بِبَيْت .

ومن ذلك «مُقَرَّر الفُرْسان» وهو عبارة عَمَّا يَنْجِيهِ وِلادة الثَّواحي من سائر البلاد ، فلا يُؤْخَذ دِرْهَم مُقَرَّر حتى يَغْرَم عليه صاحِبُه درَهمين ، ويُقاسى الناس فيه أَهْوالًا صَعبة .
ومن ذلك «مُقَرَّر الأَقْصاب والمَعايِر» وهو ما يُجْبَى من مزارعي قَصَب الشُّكْرِ ومن المَعايِر ورجال المَعايِر .

ومن ذلك «مُقَرَّر رُسُوم الأَفْراح» ويُجْبَى من سائر الثَّواحي ، ولهذه الجِهة عِدَّة ضُمَان ، ولا يُعْرَف لهذه الجِهة أَصلٌ أَبْقَى ، وأَمَّا يُجْبَى بِضَرَائِبٍ يَنالُ الناسُ فيها مع المُقَرَّر غَرَاماتٌ وَزُوعاتٌ .
ومن ذلك «جِماةُ المَراكِب» ، وهي عبارة عَمَّا يُؤْخَذ من كلِّ مَرَكَبٍ بِتَقْرِيرٍ مُقَوٍّ يُعْرَف بِـ «مُقَرَّر الحِماية» ، وكانت هذه الجِهة أَشدَّ ما ظَلِمَ به الناسُ ، فيؤْخَذ من كلِّ من رَكِبَ البحرَ للشُّقْرِ ، حتى من السُّؤَال والمَكْدَفين .

ومن ذلك «حَقُوق القَيْتات» ، وهو عبارة عَمَّا يُجْتَمَع من القَواجِش والمُتَكَرات ، فيُجْبِيه مَهْنا

(a) بولاق : البغال . (b) بولاق : بطل . (c) الأَصْل : مقرر الموت ! (d) بولاق : كثيرا .

الطشختاناه السلطانية من أوباش الناس .

ومن ذلك «شد الزعماء» وهي جهة مفرزة ، وحقوق السودان وكشف المراكب ، ومقرر ما على كل جارية أو عبيد حين ثولهم بالخانات لعمل الفاجشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين .
و«مقرر الجراريف» ، وهو ما يجبي من سائر التواحي ، فيحتمل ذلك مهندسو البلاد إلى بيت المال بإعانة الولاة لهم في تحصيل ذلك . وعلى هذه الجهة عدة مقطعين من الجنود .

و«مقرر المشاعلية» وهو عبارة عما يؤخذ عن كسح الأتية وحمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان ، فكان إذا امتلأ سرب^(٨) حطام أو مشط أو^(٩) جامع أو مدرسة أو ثوب أو منزل من منازل سائر الناس ، لا يملكه - ولو بلغ من العظيمة ما عسى أن يبلغ - التعرض لذلك حتى يأتيه ضامين الجهة ويقاؤه على كسح ذلك بما يريد . وكان من عادة الضامين الإشطاط في السوم ، وطلب أضعاف القيمة ، فإن لم يرض رب المنزل بما طلب الضامين ولأ تزكه وانصرف ، فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطر إلى سؤاله ثانيا ، فيعظم تحكمه ويشد بأشه إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح قناته^(ب) ورفع ما هنالك من الأقدار^(١) .

ومن ذلك «إبطال المباشرين من التواحي» وكانت بلاد مصر كلها ، من الوجهين القبلي والبحري ، ما من بلد صغير وكبير إلا وفيه عدة من كتّاب وشاد ونحو ذلك ، فأبطل السلطان المباشرين ، وتقدم بمنعهم من مباشرة التواحي إلا من بلد فيها مال للسلطان فقط ، فأراح الله سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من تلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وضعه^(٢) .

ولما أبطل السلطان هذه الجهات ، وفرغ من تعيين إقطاعات الأمراء وأعباز الأجناد^(٣) ، أقرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدة نواح مما كان في إقطاعات البيروية ، وهي الجزيرة وأعمالها وهو الكوم الأحمر ومنفلوط والمزوج والخصوص ، وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الإقليم ، وصار لإقطاعات الأمراء والأجناد وغيرهم أربعة عشر قيراطا .

ومكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه ، فبدأوا بأن أطعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الإقطاع الواحد

(٨-٩) ساقط من بولاق . (ب) بولاق : قتاله . (ج) بولاق : الإقطاعات للأمراء والأجناد .

^١ المقرزي : مسودة المواظ ٣٢٩ - ٣٣٠ . حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٦٩ المقرزي : السلوك ٢ : ١٥٠ -
^٢ النويري : نهاية الأرب ٣٢ : ٢٢٧ - ٢٢٩ ابن ١٥٤ : أبا الحسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٤٥ - ٤٨ .

في عِدَّة جهات ، فصَارَ بعضُ الجَنِيِّ في الصُّعِيد ، وبعضه في الشَّرْقِيَّة ، وبعضه في الغَرْبِيَّة ، إِنْشَاءً لِلجُنْدِيِّ وَتَكْثِيرًا لِلْكُلْفَةِ . وَأَفْرَدُوا جَوَالِي الذُّمَّة من الخاص ، وفَرَّقُوا في البلاد التي أَقْطَعَت لِلأَمْرَاء والأَجْنَاد ، فَإِنَّ النَّصَارَى كانوا مجتمعين في ديوانٍ واحد - كما ستَقِف عليه إن شاء الله تعالى - فصَارَ نَصَارَى كُلِّ بَلَدٍ يدفعون بِجَالِيَتِهِمْ إلى مُقْطَع تلك الصُّيْفَةِ . فَاتَّسَعَ مَجَالُ النَّصَارَى ، وصاروا يَتَنَقَّلون في القَرْى ولا يدفعون من جِزْيَتِهِمْ إلَّا مَا يُريدون ، فَقَلَّ مُتَحَصِّل هذه بعد كثرته ، وَأَفْرَدُوا مَا بَقِيَ من جهات المَكُوس بِرِشْم الحَوَائِجِ خِذَانِه التي تُصَرَّف لِلشَّمَاط ، لِيَتَنَاوَلُوا ذلك ويُورِدُوا منه ما شَاءُوا ، ثم يتولَّوْا صَرْفَ مَا يُحْصَلُ منه في جهات تُسْتَهْلَك بِالْأَكْل . وصَارَتِ جِهَاتُ المَكُوس مِمَّا يَتَخَدَّث فِيهِ الْوَزِيرُ وشَاءَ الدَّوَابِين .

ثم نَظَرَ السُّلْطَانُ فيما كان بيد الأميرين يَتَبَرَس الجاشنكير وسَلَار نَائِب السُّلْطَنَةِ من البلاد ، فَأَخَذَ مَا كَانَ بِاسْم كُلِّ مِنْهُمَا وَيَاسِمُ حَوَاشِيهِ ، وَلَمْ يَدَّعْ من ذلك شَيْعًا مِمَّا كانوا قد وَقَفُوهُ حَتَّى حُلِّهِ ، وَجَعَلَ الجَمِيعَ إِقْطَاعَات ، وَاعْتَدَّ فِي سَائِرِ الإِقْطَاعَات بما كَانَ يَسْتَهْدِيهِ الْمُقْطَع من فَلَاحِيهِ ، فَحَسَبَ ذلك وَأَقَاتَهُ من جَمَلَةِ عَيْتِ الإِقْطَاع ، وَأَبْعَلَ الْهَدِيَّة ، فلم يَتَهَيَّأْ لَهُ الْقَرَاغُ من ذلك إلى آخِرِ السَّنَةِ . فَلَمَّا أَهْلُ الْحَرَمِ من سَنَةِ سِتٍّ عَشْرَةَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، وَقَدْ نُظِمَتِ الحُشْبَانَات على ثُلُثِ مُبْغِلِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ ، جَلَسَ السُّلْطَانُ فِي الْإِيوَانِ الَّذِي اسْتَجَدَّهُ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ^١ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لِسَائِرِ نَقَبَاءِ الْأَجْنَادِ على لِسَانِ نَقِيبِ الْجَيْشِ بِالْحَضُورِ بِأَجْنَادِهِمْ ، وَجَعَلَ لِلْعُرْضِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَمِيرِينَ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْمُقَدِّمِينَ بِمُضَافِيَتَيْهِمَا . فَكَانَ الْأَمِيرُ مُقَدِّمُ الْأَلْفِ يَقِفُ وَمَعَهُ مُضَافُوهُ ، وَنَازِلُ الْجَيْشِ يَسْتَدْعِيهِمْ من تَقْدِيمَةِ ذَلِكَ الْأَمِيرِ بِأَسْمَائِهِمْ على قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ، فَيُقَدِّمُ نَقِيبُ الْجَيْشِ الْوَاحِدَ من يَدِ تَقْيِيهِ إلى مَا بَيْنَ يَدَيْ السُّلْطَانِ ، فَإِذَا مَثَلَ بِحَضْرَتِهِ سَأَلَهُ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ من غَيْرِ وَاسِطَةٍ عَنْ اسْمِهِ وَأَصْلِهِ وَجِنْسِهِ وَوَقَّتَ حُضُورَهُ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ ، وَمَعَ مَنْ قَدِيمَ ، وَإِلَى مَنْ صَارَ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، وَعَنْ مَشَاهِدِهِ الَّتِي حَضَرَهَا فِي الْغَزْوِ ، وَعَمَّا يَعْرِفُهُ من صِنَاعَةِ الْحَرْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ من الْأَشْيَاءِ . فَإِذَا انْتَهَى اسْتِظْهَامُهُ إِثَاءَ نَازِلِهِ يَدُهُ مِثَالًا من غَيْرِ تَأَمُّلٍ بِحَسَبِ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ ، فلم يَمَرَّ بِهِ فِي مُدَّةِ الْعُرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ غَرَفَهُ ، وَأَشَارَ إِلَى الْأَمْرَاءِ بِذِكْرِ شَيْءٍ من خَبَرِهِ .

هَذَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْرَاءِ بِأَسْمَائِهِمْ بِأَنَ يَحْضُرُوا إِلَى الْإِيوَانِ عِنْدَ الْعُرْضِ ، وَلَا يُعَارِضُ أَحَدٌ مِنْهُمْ السُّلْطَانِ فِي شَيْءٍ يَفْعَلُهُ ، فَكَانُوا يَحْضُرُونَ وَهُمْ سُكُوتٌ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَوْفًا من مُخَالَفَةِ السُّلْطَانِ لِمَا يَقُولُهُ . وَأَخَذَ السُّلْطَانُ فِي مُوَازَنَةِ الْأَمْرَاءِ ، فَمَا أَثْنَوْا على أَحَدٍ فِي مَجْلِسِ

^١ فيما يلي : ٢٠٦:٢ - ٢٠٧.

الفرض إلاً وأعطاه السلطان مثلاً بإقطاع ردىء . فلما علموا ذلك أمتسكوا عن الكلام معه جملة . وانفردوا بالاشتداد بأمره دونهم ، فما عرف منه أنه قدّم إليه أخذ إلا وسأله : إن كان تملوكنا عنن أقدته من الثجار وسائر ما تقدّم ، وإن كان شيئاً فمن أضله وسبّه وكم مصافّ حصّرتها ، حتى أتى على الجميع . وأفرد المشايخ العاجزين فلم يقطعهم إقطاعات ، وجعل لكلّ منهم مزرعاً يقوم به ، فأنتهى الفرض في طول المحرم ، وتوفّر كثير من ميثالات الأجناد فبلّغ عدّة مائتي مئال .

ثم أخذ في عرض أطباق الممالك السلطانية ، ووَفّر من بجوابهم كثيراً ، وقطّع عدّة زوايب من زوايبهم ، وعوّضهم عن ذلك إقطاعات ، وجعل جهة مكس قَطْياً^١ لضغفاء الأجناد ممن قطع خبزه ، فجعل لكلّ منهم في السنة ثلاث آلاف درهم . وكان لبنيّرس وسلار الجوكندار تعلقات كثيرة في في بيت المال ، وفي الأعمال كالخبرة والإسكندرية ، من متاجر وجماعات ، فازتمج ذلك وأبطله وما شابهه ، وأضاف ما لم يقطعه إلى ديوان الخاص .

ومما أمر به في مدة الفرض ألاّ يؤدّ أخذ مثلاً أخذه من السلطان ولو استقله ، ولا يشفع أمير في مجندي ، وأن من خالف ذلك ضرب ومحسّ ونفي وقطع خبزه ، فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمة ، ولم يجسر أحد أن يرد عليه مثلاً أحد من السلطان ، ولا استطاع أمير أن يتكلّم لأحد . وصار كثير ممن كان إقطاعه مثلاً ألف دينار إلى إقطاع مائتي دينار ونحوها ، وكثير ممن كان إقطاعه قليلاً إلى إقطاع مئبتر ، فإنه كان يعطي المثال/ من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه .

وقدّر الله سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجل مضحك يهزل بخبرته ، فيضحك منه ويهتج به ولا يعرض فيما يقول من الشخف . فجلس السلطان في بعض أيام الفرض في البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الأمراء ، فدخل هذا المضحك وأخذ في الشخيرة على عادته ليضحك السلطان ، إلى أن قال : وجدت بعض أجناد الزوك الثاصري وهو راكب الإكديش ونحوه خلفه وزمحه فوق كتفه ، يقصد بهذا الشخيرة والطائر^٢؛ فغضب السلطان غصبا شديداً ، وصاح : تخذوه وعروه ثيابه ؛ فبادره الأعوان ، وجروه برجله ونزعوا

(هـ) يولاق : الطعن .

^١ انظر حول مدينة قَطْيا والمكس المحصل بها مقال المصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ٣٧ (١٩٩٠) ، عادل عبد الحافظ حمزة : نقطة جمر مصر الشرقي في ٧٠ - ٤٥ .

ثيابه، وربطوه في الشاقيّة مع القواديس، وأكثروا من ضرب الأبقار حتى أشرعت بنوران الشاقيّة؛ فصار المسكين يتقلب مع القواديس، ويغطس في الماء تارةً ويوقى أخرى، ثم يتكيس والماء يمرّ عليه بمقدار ساعة، إلى أن انقطع حشّه وأشرف على الهلاك؛ واشتدّ رغب الأُمراء لما رأوه من قوّة غضب السلطان.

ثم تقدّم الأمير طغاي الدوادار في طائفة من الأُمراء الخاصّة، واعتقدوا عن هذا المستكين أنّه لم يُرد إلاّ يضحك السلطان من كلامه، ولم يقصد غيب الأجناد ولا انتقاصهم، ونحو هذا من القول إلى أن أتر بحلّه، فإذا ليس فيه حركة فشحج، ورسم السلطان أنّه إن كان حيّاً لا يبيّث بديار مصر؛ فأخرج من وقته متيقناً. وحمد الله كلّ من الأُمراء على ما وقّعه من الشكوت من الكلام في حال القرض.

وما زال الأُمَرُ بمصر على ما رسمه الملك الناصر في هذا الزّوك، إلى أن زالت دولة بني قلاوون بالملك الظاهر برفوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة، فأبقى الأمر على ذلك إلاّ أنّ أشياء منه أخذت تتلاشى قليلاً قليلاً إلى أن كانت الحوادث والمحن في سنة ست وثمان مائة حيث حدثت من أنواع التّغييرات وتنوّع الظلم ما لم يخطر ببال أحد. وسيتمّ بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب إقليم مصر إن شاء الله تعالى.

وكانت لأراضي مصر تقاوي مُخلّدة في تواجيها وهي على قسمين: تقاوي سلطانيّة، وتقاوي بلديّة، فالتقاوي السلطانيّة وضعتها الملوك في التّواحي؛ وكان الأمير أو الجنديّ عندما يستقرّ على الإقطاع يقبض ما له من التقاوي السلطانيّة، فإذا خرج عنه طوب بها. فلمّا كان الروك الناصريّ خلّدت تقاوي كلّ ناحية بها، وضبطت في الديوان السلطاني، فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف أزدب سوى التقاوي البلديّة.

ذكر الديوان

قال أفضي القضاة أبو الحسن الماوردي: الديوان محفوظ بحفظ ما تعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعُمال. وفي تسميته ديواناً وجّهان: أحدهما أنّ بحسرى أطلع ذات يوم على كُتّاب ديوانه فرأهم

١ عن النواوين في مصر الإسلامية انظر كذلك فيما يلي II, pp. 336-41 واعتمد للمفريزي في هذا الفصل بالإضافة إلى

الماوردي على الجزء الثامن من «نهاية الأرب» للتري.

Gottschalk, H. L., *Et art. Diwan* ٢١٥: ٢، ٣٩٧: ١

يُحْسِبُونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: «ذِئْوَانَهُ»، أَي مَجَانِينَ^١، فَسُمِّيَ مُؤَضِّعُهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ، ثُمَّ لَحِذَتْ الْهَاءُ عِنْدَ كَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا لِلْاسْمِ فَقِيلَ دِيَوَانٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ الدِّبْوَانَ اسْمٌ بِالْفَارْسِيَةِ لِلشَّيَاطِينِ، فَسُمِّيَ الْكِتَابُ بِاسْمِهِمْ لِحِذْقِهِمْ بِالْأُمُورِ، وَوُقُوفِهِمْ عَلَى الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ، وَجَمْعُهُمْ لِأَنَّ شَذَّ وَتَفَرَّقَ، وَأُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا قَوَّبَ وَيَغْدَى. ثُمَّ سُمِّيَ مَكَانُ جُلُوسِهِمْ بِاسْمِهِمْ فَقِيلَ دِيَوَانٌ^٢. انْتَهَى.

وَاعْلَمْ أَنَّ كِتَابَةَ الدِّبْوَانِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: كِتَابَةُ الْجِيُوشِ، وَكِتَابَةُ الْخَرَاجِ، وَكِتَابَةُ الْإِنْشَاءِ وَالْمُكَاتِبَاتِ. وَلَا بُدَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ مِنْ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ. وَقَدْ أَفْرَدَ الْعُلَمَاءُ فِي كِتَابَةِ الْخَرَاجِ وَفِي كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ عِدَّةً مُصَنَّفَاتٍ^٣، وَلَمْ أَرَأْ أَحَدًا جَمَعَ شَيْئًا فِي كِتَابَةِ الْجِيُوشِ وَالْعَسَاكِرِ.

وَكَانَتْ كِتَابَةُ الدِّبْوَانِ فِي صُلْبِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُجْعَلَ مَا يُكْتَبُ فِيهِ صُحُفًا مُدْرَجَةً؛ فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ بَنِي أُمَيَّةٍ، وَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الْعَبَّاسِ الشَّافِعِ، اسْتَوَزَرَ خَالِدَ بْنَ بَزْمَكٍ بَعْدَ أَيِّ سَلَمَةٍ خَفَصَ بِنَ سُلَيْمَانَ الْخَلَّالِ، فَجَعَلَ الدِّفَاتِرَ فِي الدِّبْوَانِ مِنَ الْجُلُودِ، وَكَتَبَ فِيهَا وَتَرَكَ الدُّرُوجَ إِلَى أَنْ تَصَرَّفَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَزْمَكٍ فِي الْأُمُورِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ، فَأَتَّخَذَ الْكَاعْدَ، وَتَدَاوَلَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى الْيَوْمِ^٤.

وَذَكَرَ أَبُو الثَّغَرِ الْوَرَّاقُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ الْقَاضِي قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْمُدَّبِّرِ: لَوْ عُمِّرْتُ مِثْلَ مِصْرَ كُلِّهَا لَوُتَّتْ بِأَعْمَالِ الدُّنْيَا. وَقَالَ: إِنَّ أَرْضَ مِصْرَ مَسَاحَتَهَا لِلزَّرَاعَةِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ فَدَّانٍ، وَإِنَّمَا يُعْمَرُ^٥ مِنْهَا أَلْفُ أَلْفِ فَدَّانٍ. قَالَ: وَقَالَ لِي ابْنُ الْمُدَّبِّرِ: إِنَّهُ كَانَ مُتَعَمِّلًا بِالعِرَاقِ^٦ دِيَوَانَ الْمَشْرِقِ وَدِيَوَانَ الْمَغْرِبِ، قَالَ: وَلَمْ أَبْتَ قَطُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَعَلَيَّ عَمَلٌ أَوْ بَقِيَّةٌ مِنْهُ^٧، وَتَقَلَّدْتُ مِصْرَ فَكُنْتُ رُبَّمَا يَنْتُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ فَأَسْتَجِيعُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ.

(a) بولاق: للممر. (b) بولاق: يتقلد. (c) موضع ذلك في بولاق: حتى أنهيه ولا بقية.

^١ في «المقرب» للجوهري: «ديبان» و«ديوان» أي الشياطين، و«الذِّبْو» هو الشيطان (المغرب ١٥٤).

^٢ الماوردي: الأحكام السلطانية ١١٧٥، التنوير: نهاية الأرب ٨: ١٩٥.

^٣ أهمها مؤلفات ابن الفقيه وقُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ وَعَلِيٌّ بْنُ

^٤ حول استخدام حوامل الكتابة المختلفة حتى ظهور الكاعد الذي دخل إلى سمرقند عن طريق بعض الأسرى الصينيين سباهم زياد بن صالح، ثم نشأ أول معمل =

ذكر ديوان العساكر والمجوشين

يُقال: إنَّ أوَّلَ من وَضَعَ ديوانَ الجُنْد بِحَيْلِهِمْ كَيْلُهُمْ رَاشِفَ أَحَدُ ملوكِ الطبقةِ الثانيةِ مِنَ الفُرسِ، وإنَّ كَيْفَإِذَ قَبْلَهُ/ كانَ قد أَخَذَ العُشْرَ مِنَ العَلَّاتِ وَصَرَفَهُ فِي أَزْزاقِ جُنْدِهِ. وأُثِمَّا فِي الإِسْلامِ فَمَا خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ وَمُشْلِمٌ، منَ حَدِيثِ مُحَمَّدِيَّةٍ - رضي الله عنه - قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكتُبُوا إِلَيَّ مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلامِ مِنَ النَّاسِ»، فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفَ وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ... الحَدِيثُ، ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ فِي بابِ كِتَابَةِ الإِمَامِ النَّاسِ.

وللبُخَارِيِّ من حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي اكْتَتَبْتُ فِي عَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا وَامْرَأَتِي حَاجَةٌ، قال: «ارْجِعْ فَاحْجِجْ مَعَ امْرَأَتِكَ»^١.

وقالَ عُمَرُ بْنُ شَيْبَةَ^(٢) عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قال: آخِرَ مالِ أَتَيْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ثَمَانِ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَمَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى أَتَتْهُ. وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتِّ مَالٍ وَلَا لَأَيِّ بَكَرٍ، وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ يَتِّ مَالٍ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه. فقالَ ابْنُ شِهَابٍ: عُثْرَ أَوَّلُ مَنْ دُونَ الدَّوَّابِينَ^٢.

وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالت: قَسَمَ أَبِي الْقَيْءَ عَامَ أَوَّلٍ، فَأَعْطَى الْخُرُوعِ عَشْرَةَ، وَالْمَمْلُوكِ عَشْرَةَ، وَالْمَرْأَةَ عَشْرَةَ، وَأَتَتْهَا عَشْرَةٌ؛ ثُمَّ قَسَمَ الْعَامَ الثَّانِي، فَأَعْطَاهُمْ عَشْرِينَ عَشْرِينَ.

قِيلَ: إِنَّ سَبَبَهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَدِمَ عَلَى عُثْمَرَ - رضي الله عنه - بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَاذَا جِئْتَ بِهِ؟ فَقَالَ: خَمْسَ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ؛ فَاسْتَكْتَرَهُ عُمَرُ وَقَالَ: أَتَذَرِي مَا تَقُولُ؟ قَالَ: نَعَمْ! مِائَةُ أَلْفٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ؛ فَقَالَ عُمَرُ: أَطِيبٌ هُوَ؟ قَالَ: لَا أَذْري.

(٢) يولاق: عمرو بن مويه.

^١ التويري: نهاية الأرب ٨: ١٩٦.

^٢ انظر عن ديوان عمر بن الخطاب Moosa, M.I., «The Diwān of 'Umar Ibn al-Khattab», Studies in Islam II (1965), pp. 67-71

= لصنع الورق في بغداد بفضل الفضل بن يحيى البرمكي ثم لإحلال أخيه جعفر بن يحيى - الذي أعقبه في دست الوزارة - الورق محل الرق في دواوين الدولة (راجع، أيمن فؤاد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ٢٣-٣١).

فَصَبَدَ عُمَرُ الْمَيْيَّرَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَنَا مَالٌ كَثِيرٌ ، فَإِنْ شِئْتُمْ كُنَّا لَكُمْ كَيْلًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ عَدَدُنَا لَكُمْ عَدَا . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ رَأَيْتَ الْأَعَاجِمَ يَذَوْنُونَ دِيَّانًا لَهُمْ ، فَذَوْنُ أَنْتَ دِيَّانًا ، فَذَوْنُ عُمَرَ^١ .

وقيل : بل سَبَّيْهِ أَنْ عُمَرَ بَقِيَ بَقَاً وَعِنْدَهُ الْهُؤُمُرَانِ ، فَقَالَ لِعُمَرَ : هَذَا بَقِيَ قَدْ أُعْطِيَتْ أَهْلُهُ الْأَمْوَالُ ، فَإِنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَيْنَ يُغْلَمُ صَاحِبُكَ بِهِ ؟ فَأَلْبِثْ لَهُمْ دِيَّانًا ، فَسَأَلَهُ عَنِ الدِّيَّانِ حَتَّى فَسَّرَهُ لَهُ . فَاسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَذْوِينِ الدَّوَارِينَ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : تَقْسِمُ كُلُّ سَنَةٍ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تُنْمِيكَ مِنْهُ شَيْقًا . وَقَالَ عُثْمَانُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَرَى مَالًا كَثِيرًا يَسْعَ النَّاسَ ، فَإِنْ لَمْ يُخَصَّصُوا حَتَّى يُغْرَفَ مِنْ أَخَذَ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ نَحِيشَتِ أَنْ يَنْتَشِرَ الْأَمْوَرُ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ كُنْتُ بِالشَّامِ فَأُرِيتُ مَلُوكَهَا ذَوْنُوا دِيَّانًا وَجُنُودًا وَجُنُودًا ، فَذَوْنُ دِيَّانًا وَجُنُودًا وَجُنُودًا ، فَأَخَذَ بِقَوْلِهِ وَدَعَا عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنَ ثَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ ابْنِ مُطْعِمٍ - وَكَانُوا كُتَّابَ قُرَيْشٍ - فَقَالَ : اكْتُبُوا النَّاسَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ ، فَبَدَعُوا بَنِي هَاشِمٍ وَكَتَبُوهُمْ ، ثُمَّ أَتَبَعُوهُمْ أَوْلَادَ أَبِي بَكْرٍ وَقَوْمَهُ ، ثُمَّ عَمَرَ وَقَوْمَهُ ، وَكَتَبُوا الْقَبَائِلَ وَوَضَعُوهَا عَلَى الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ رَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَلَمَّا نَظَرَ فِيهِ قَالَ : لَا وَلَكِنْ ابْتَذَلُوا بِقَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، الْأَقْرَبَ فَلَا أَقْرَبَ ، حَتَّى تَضَعُوا عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ . فَشَكَرَهُ الْعَبَّاسُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : وَصَلَّتْكَ رَحِمَةُ^٢ .

وقد اِخْتَلَفَ فِي السَّنَةِ الَّتِي قَرَضَ فِيهَا عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْأَعْطِيَّةَ وَذَوْنُ الدَّوَارِينَ ، فَقَالَ الْكَلْبِيُّ : فِي سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ . وَحَكَى ابْنُ سَعْدٍ عَنْ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ أَنَّهُ بَجَلَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ عَشْرِينَ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ عَشْرِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ .

وقيل : لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقَادِسِيَّةَ ، وَقَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْفُتُوحُ مِنَ الشَّامِ ، جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ : مَا يَجْعَلُ لِلْوَالِي مِنْ هَذَا الْمَالِ ؟ فَقَالُوا جَمِيعًا : أَمَّا لِحَاضَتِهِ^٣ فَقُوَّتُهُ وَقُوَّتُ جِهَالِهِ لَا وَكُفْسٌ وَلَا شَطَطٌ ، وَكُفْسُوَّتُهُ وَكُفْسُوَّتُهُمْ لِلشَّعَاءِ وَالضَّيْفِ ، وَدَاهِيَانِ إِلَى جِهَادِهِ وَخَوَائِجِهِ وَمَحْلَانِهِ إِلَى حُجَّهِ^٤ وَغُفْرَتِهِ ، وَالْقَسَمِ بِالسُّيُوفِ ، وَأَنْ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ عَلَى قَدَرِ

(a) يولاق : وصلت رحمك . (b) يولاق : الخاصة . (c) يولاق : حجة .

^١ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ : ٣٠٠ ، التويري : نهاية ٢ التويري : نهاية ٨ : ١٩٧ - ١٩٨ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ١٠٦ - ١٠٧ .
٢ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ : ٣٠٠ ، التويري : نهاية ٢ التويري : نهاية ٨ : ١٩٧ - ١٩٨ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ١٠٦ - ١٠٧ .

بلائهم ، ويَرْمُ أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم في الشدائد والتوازل حتى تَنَكِّشِف ، ويبدأ بأهل النِّمَّة
ثم يجوزهم إلى كل مغلوب ما بَلَغَ النِّمَّةُ^١.

وقال الضُّحَّاك عن ابن عَبَّاس - رضي الله عنهما - : لَمَّا أَقْبَحَتْ الْقَادِيبِيَّةُ وَصَالِحٌ مِنْ صَالِحِ مَنْ
أهل الشَّوَاد ، وَأَقْبَحَتْ دِمَشْقُ وَصَالِحُ أَهْلِ الشَّام ، قَالَ عُثْر - رضي الله عنه - للناس : اجتمعوا
فَأَحْضَرُونِي عِلْمَكُمْ فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْقَادِيبِيَّةِ وَأَهْلِ الشَّام . فَاجْتَمَعَ رَأْيُ عَلِيٍّ وَعُثْر - رضي
الله عنهما أن يأخذوه مِنْ قَبْلِ الْقُرْآن ، فقالوا : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ - يعني
من الخمس - ﴿ قَبْلَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يعني من الله الأَمْرُ وعلى الرُّسُولِ الْقَسْمُ ﴿ وَلِلَّذِي الْقُرْنَيْنِ
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ؛ ثُمَّ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِالْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي تَلِيهَا ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ... ﴾
الآيَةِ ، فَأَخَذُوا الْأَرْبَعَةَ أُخْمَاسَ عَلَى مَا قُسِمَ عَلَيْهِ الْخُمْسُ فِيمَنْ بُدِئَ بِهِ وَثْنِي وَثَلْتِ ، وَأَرْبَعَةَ
أُخْمَاسَ لِمَنْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَقْتَمُ . ثُمَّ اسْتَشْهَدُوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الآيَةُ ٤١ سورة الأنفال] مِنْ تِلْكَ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ ، وَأَرْبَعَةَ أُخْمَاسَ لِمَنْ أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَيْهِ ، فَقَسَمَ الْأُخْمَاسَ عَلَى ذَلِكَ . فَاجْتَمَعَ عَلَى ذَلِكَ عُثْر وَعَلِيٌّ ، وَعَمِلَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ
ذَلِكَ ، فَبَدَأَ بِالْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ بِالْأَنْصَارِ ثُمَّ بِالْثَّابِعِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا مَعَهُمْ وَأَعَانُوهُمْ ، ثُمَّ قَرَضَ الْأَعْطِيَّةَ
مِنْ الْجَزَاءِ عَلَى مَنْ صَالَحَ أَوْ دَعَا إِلَى الصُّلْحِ مِنْ جَزَائِهِ^٢ ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْمَعْرُوفِ . وَلَيْسَ فِي الْجَزَاءِ
أُخْمَاسٌ ، وَالْجَزَاءُ لِمَنْ مَنَعَ الدِّمَّةَ . وَوَقِيَ لَهُمْ مِمَّنْ وَلِيَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَلْحِقْ بِهِمْ / فَأَعَانَهُمْ بِأَسْوَةٍ ،
إِلَّا أَنْ يُؤَاسُوا بِفَضْلِهِ عَنْ طِيبِ أَنْفُسِ مَنْهُمْ مَنْ لَمْ يَتَلَّ مِثْلَ الَّذِي نَالُوا^٣.

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، قَالَ عُثْر - رضي الله عنه - : إِنِّي مُجَنِّدُ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى الْأَعْطِيَّةِ ، وَمُدَوِّنُهُمْ وَمُنْتَحَرِي الْحَقَّ . فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ : ابْدَأْ بِنَفْسِكَ . قَالَ : لَا أَبْدَأُ إِلَّا بِعَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ مِنْهُمْ مِنْ رَسُولِ
اللَّهِ ؛ فَفَرَضَ لِلْعَبَّاسِ وَبَدَأَ بِهِ ، ثُمَّ قَرَضَ لِأَهْلِ بَذْرِ خَمْسَةَ آلَافٍ خَمْسَةَ آلَافٍ ، ثُمَّ قَرَضَ لِمَنْ بَقِيَ
بَذْرَ إِلَى الْحَدِيثِيَّةِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، ثُمَّ قَرَضَ لِمَنْ بَعْدَ الْحَدِيثِيَّةِ إِلَى أَنْ أَقْلَعَ أَبُو بَكْرٍ - رضي

(٢) يولاق : حرايه .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦١٦:٣ وإسناده فيه : والمهلب وطلحة وعمر وسميد ؛ قالوا .
وكتب إلي السري ، عن شعب ، عن سيف عن محمد
^٢ نفسه ٦١٧:٣ - ٦١٨ .

الله عنه - عن أهل الرعدة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ؛ ودخل في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيمان قبل القاديية ، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف . ثم فرض لأهل القاديية وأهل الشام أصحاب اليثومك ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارح^(٥) منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة ؛ فقل له : لو ألحق أهل القاديية بأهل الأيمان فقال : لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يذكر ، لاها الله إذا . وقيل له : قد سؤيتهم - على بغداد دارهم - بمن قد قوت دأره وقائلهم^(٦) عن فوائده ؛ فقال : هم كانوا أحن بالزيادة لأنهم كانوا ردوا للمقوق وشجى للعدو ، وأيم الله ما سؤيتهم حتى استطبتهم ، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سؤينا بين الشافقين من المهاجرين وبين الأنصار ، وقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم ، وهاجر إليهم المهاجرون من بقا .

١٠. وفرض للزوائد - الذين ردوا بعد افتتاح القاديية واليثومك بعد الفتح - [المتن خمسة مائة خمسة مائة ، ثم للزوائد الثلاث بعدهم]^(٧) - ثلاث مائة ثلاث مائة ، سوى كل طبقة في القطاء ليس بينهم تفاضل ، قوتهم وضعيفهم ، غريبهم وأعجوبهم في طبقاتهم سواء . حتى إذا حوى أهل الأنصار من حووا من سبائهم ، وردت المزيح من الزوائد ، فرض لهم على خمسين ومائتين ، وفرض لمن رد من الزوائد الخمس على مائتين . فكان آخر من فرض له عمر - رضي الله عنه - أهل هجر على مائتين . ومات عمر على ذلك ، وأدخل في أهل بدر أربعة من غير أهل بدر ، الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان .

وقال أبو سلمة : فرض عمر للعباس على خمس وعشرين ألفا ، وقال الزهري : على اثني عشر ألفا^١ .

٢٠. وجعل نساء أهل بدر [في خمس مائة خمسة مائة ، ونساء من بعدهم]^(٨) إلى الحديبية على أربع مائة أربع مائة ، ونساء من بعد ذلك إلى الأيمان قبل القاديية على ثلاث مائة ثلاث مائة ، ثم نساء أهل القاديية على مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك . وجعل للصبيان من أهل

(٥) بولاق : النازح . (ب) بولاق : وقاتل . (ج) زيادة من الطبري .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦١٤:٣-٦١٥ (وهو ساقط من مخطوطات تاريخ الطبري وتم استراكة من ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٠٢:٢-٥٠٣) .

بئر وغيرهم مائة مائة، ثم دعا ستين مشكينا فأطعمتهم خبزًا بلح، فأخصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جريئين^٥، ففرض لكل إنسان يقوم بالأمر له ولعِياله جريئين جريئين^٥ في كل شهر، مشلهم وكافهم^١.

وفرَضَ لأزواج النبي ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليه البيع، فقالت أمهات المؤمنين: ما كان رسولُ الله ﷺ يُفضلنا عليهن في القسمة ولكن كان يُسوي بيننا فنسألهن فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف، وقُضِلَ عائشة - رضي الله عنها - بألفين، فأبت، فقال: لفضلٍ منزليكَ عند رسول الله ﷺ، فإذا أخذتها فشاؤك^٢.

وكان الناس أغشارًا، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف، كل عريف على عشرة، ورزق الخليل على أغرافها^٣. فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة، فغيّرت العرفاء والأغشار، وجعلت أشباعًا، وجعل مائة عريف، على كل مائة ألف درهم عريف. وكانت كل عرافة من القادسية خاصة، ثلاثة وأربعين رجلًا وثلاثًا وأربعين امرأة وخمسين من العيال، لهم مائة ألف درهم. وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلًا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، ولكل غل مائة على مائة ألف درهم. وكل عرافة من الواحدة الأولى ستين رجلًا وستين امرأة وأربعين من العيال، ممن كان رجالهم أُلْحِقُوا على ألف وخمسة مائة، على مائة ألف درهم. وكان العطاء يُدْفَع إلى أمراء الأشباع وأصحاب الرايات - والرايات على أبيادي العرب - فيدفعونه إلى العرفاء والتقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهلهم في دورهم^٣. فمات عمر - رضي الله عنه - والأمر على ذلك.

وقد عَزَمَ قَبْلَ موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، وقال: لقد هَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف: ألف يُخَلِّفها الرجل في أهله، وألف يَتَزَوَّدُها معه في سفره، وألف

(٥) بولاق: جريئين.

^١ الطبري: تاريخ ٣: ٦١٥ ابن الأثير: الكامل ٢: ٥٠٤.

^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢: ٥٠٣-٥٠٤.

^٣ الطبري: تاريخ ٤: ٤٩٩ وانظر عن تقسيم الأغشار

والعرفاء بالبصرة والكوفة، صالح أحمد العلي: خطط البصرة ومنطقتها - دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهد

الإسلامية الأولى، بغداد ١٩٨٦، ٥١-٥٢ هشام جعيط: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، الكويت ١٩٨٦، ١٧١-١٨١ وكذلك مادة عريف في دائرة المعارف الإسلامية^٢ El^٢ Salih A. el. Ali & Cl. Cahen, art. 'Arif I, pp. 649-51.

يَتَجَهَّزُ بِهَا ، وَأَلْفَ يَتَرَفَّقُ بِهَا ، فَمَاتَ وَهُوَ فِي اِزْتِيَادِ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ^١ .

وَكَانَ يُقْرِئُ الْبُغُوثَ عَلَى قَدْرِ الْمَسَافَةِ : إِنْ كَانَ بَعِيدًا فَسَنَةً ، وَإِنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَسَنَةً أَشْهُرَ ؛ فَإِذَا أَتَى الرَّجُلُ بَنُوهُ ، تُرِيعَتْ عِمَامَتُهُ وَأُقِيمَ فِي مَنْسَجِدٍ حَيْثُ ، فَقِيلَ : هَذَا قُلَانٌ قَدْ أَتَلَ .
وَقَالَ سَيْفُ بْنُ عُثْمَرَ^٢ : أَوَّلُ عَطَاءٍ أُعْجِدَ سَنَةً خَمْسَ عَشْرَةَ .

وَكَانَ عُثْمَرُ بْنُ الْقَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَتَعَثُّ مِنْ مِصْرَ إِلَى عُثْمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْجَزِيرَةِ بَعْدَ حَبْسٍ مَا كَانَ يَخْتَانِجُ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا اسْتَخْلَفَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لثَلَاثَ مَضِينَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ ، زَادَ النَّاسَ مَائَةً ؛ وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ زَادَ وَرَفَدَ أَهْلَ الْأَمْصَارِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَفَدَهُمْ وَصَنَعَ فِيهِمُ الصَّنَائِعَ ، فَاسْتَقْنَى بِهِ الْخُلَفَاءُ فِي الزِّيَادَةِ .

وَكَانَ عُثْمَرُ قَدْ فَرَضَ لِكُلِّ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ مِنْ أَهْلِ الْقِيَّةِ فِي رَمَضَانَ / دِرْهَمًا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَفَرَضَ لِلْأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ دِرْهَمَيْنِ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ صَنَعْتَ لَهُمْ بِهِ طَعَامًا فَجَمَعْتَهُمْ عَلَيْهِ ؟
فَقَالَ : أَشْبِعُوا النَّاسَ فِي بُيُوتِهِمْ .

فَأَقْرَبَهُ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ذَلِكَ ، وَزَادَ فَوَضَعَ لَهُمْ طَعَامَ رَمَضَانَ ، وَقَالَ : هُوَ لِلْمُسْتَعْبَدِ الَّذِي يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلِابْنِ السَّبِيلِ ، وَلِلْمُعْتَرِينَ بِالنَّاسِ فِي رَمَضَانَ ، فَاقْتَدَى بِهِ الْخَلَفُ^٣ مِنْ بَعْدِهِ .

(٣) بُولاق : الخلفاء .

وفتح الشام والعراق ومصر وفارس ووقعة الجمل وأحبار الخلفاء الراشدين ؛ وما جرى في أيامهم من الأحداث ، ولكن دون أن يذكر أي عنوان لكتب سيف ، فاعتمد من جاء بعده من المؤرخين على رواياته عن سيف بن عمر مطلقا فعل المقرئ هنا (راجع ، الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ٢٥٥ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٦ : ١٦٦ جواد علي : موارد تاريخ الطبري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢ (١٩٥١) ، ١٦٦-١٦٣ (Sezgin, F., GAS I, pp. 311-12) . ونشر قاسم السامرائي قطعة من كتاب الرِّوَاة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي ، لايدن ١٩٩٥ ، وانظر مقدمته .

^١ الطبري : تاريخ ٣ : ٦٦٥ ابن الأثير : الكامل ٢ : ٥٠٤ وانظر عن العطاء فيما يلي ١ : ٩٥ .

^٢ سيف بن عمر الأسدي التميمي المتوفى في خلافة هارون الرشيد ، هكذا أورد اسمه ابن النديم في الترجمة القصيرة التي تخصصها له ، وذكر له من الكتب : «كتاب الفتح الكبير والرِّوَاة» و«كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي» (الفهرست ١٠٦) . واعتمد على مؤلفات سيف كثير من المؤلفين ، سواء كانوا من المؤرخين أو أصحاب الرجال وحتى أصحاب الحديث . واعتمد الطبري اعتمادا كبيرا على مؤلفات سيف بن عمر ، فأورد رواياته في حديثه عن الرِّوَاة

وكان ديوان^(a) مصر، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، أربعون ألفاً، وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين. وكان إنما يُحتمل إلى معاوية ست مائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يُضرف إلى الناس^١.

وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل القرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم، فيُدور على المجالس فيقول: هل وُلِدَ الليلة فيكم مَوْلود؟ وهل نَزَلَ بكم نازِل؟ فيقال: وُلِدَ لفلان غلامٌ ولفلان جارية، فيكتب أسماءهم، ويُقال: نَزَلَ بهم رجلٌ من أهل كذا بعياله، فيستئيه وبياله. فإذا فرغ من القبيل^(b)، أتى الديوان حتى يُثبت ذلك.

وأعطى مَسْلَمَةَ بن مخلد الأنصاري، أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأزواجهم ونواثيهم ونوايب البلاد من الجُشور، وأزراق الكتبة وحملاان القشح إلى الحجاز، وبتت إلى معاوية ست مائة ألف دينار فضلاً.

وأولُ تَدْوِين كان بمصر على يَدِ عَمْرُو بن القاص - رضي الله عنه، ثم دَوَّن عبد العزيز بن مزوان تَدْوِينًا ثانيًا، ودَوَّن قُرَّة بن شريك التَدْوِين الثالث، ثم دَوَّن بِشْر بن صَفْوَان تَدْوِينًا رابعًا، ثم لم يكن بعد تَدْوِين بِشْر شيء له ذِكْر، إلا ما كان من إلحاق قَيْس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك بن مزوان^٢.

فلما انقضت دَوْلَةُ بني أُمَيَّة، وغَلَبَت المُسَوَّدَةُ بنو العباس، أخذتوا أشياء حتى إذا مات عبد الله المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلُون من رجب سنة ثمانٍ عشرة ومائتين، وبُيِعَ أخوه المُعْتَصِم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد^(c)، كَتَبَ إلى كَيْدَر^(d) بن نَصْر الصُّغْدِي^(e) أمير مصر، يأمره بإشقاط من في ديوان مصر من القرب وقَطَعَ العطاء عنهم، فقَعَلَ ذلك.

وكان مزوان بن محمد الجعدي، آخر خلايف بني أُمَيَّة، قَطَعَ عن أهل مصر العطاء سنة، ثم كَتَبَ إليهم كتابًا يعتذر [إليهم]^(f) فيه: «إني إنما خَبَشْتُ عنكم العطاء في السنة الماضية لعلُّو»

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: الفيل. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: كندر. (e) بولاق: الصغدِي.

(f) إضافة من الكندي.

حَضَرَنِي فَأَخْتَجَعْتُ [فيه^٨] إِلَى الْمَالِ ، وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكُمْ بَعْطَاءَ السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ وَعَطَاءَ هَذِهِ السَّنَةِ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُجِيرِي اللَّهُ قَطْعَ الْعَطَاءِ عَلَى يَدَيْهِ .

وَلَمَّا قُطِعَ كَيْدَرُ^٩ عَطَاءِ أَهْلِ مِصْرَ ، خَرَجَ بِحْيَى بْنُ الْوَزِيرِ الْجَزَوِيِّ فِي جَمْعٍ مِنْ لَحْمٍ وَبُجْدَامٍ ، وَقَالَ لَهُ : هَذَا أَثَرُ لَا يَقُومُ فِينَا أَفْضَلُ مِنْهُ لِأَنَّا مُنِغْنَا حَقَّنَا وَقَعَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَحْوُ خَمْسِ مِائَةِ رَجُلٍ .

وَمَاتَ كَيْدَرُ^{١٠} فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةِ وَمِائَتَيْنِ ؛ وَوَلَّى ابْنُهُ الْمُظْفَرُ مِصْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَسَارَ إِلَى بِحْيَى وَقَاتَلَهُ فِي بُحَيْرَةِ بَيْتِيسَ وَأَخَذَهُ أَسِيرًا^١ .

فَانْقَرَضَتْ ذُوْلَةُ الْقَرَبِ مِنْ مِصْرَ ، وَصَارَ مُجَنَّدُهَا الْعَجَمُ وَالْمَوَالِي مِنْ عَهْدِ الْمُغْتَصِمِ إِلَى أَنْ وَلَّى الْأَمِيرُ أَبُو الْقَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ مِصْرَ ، فَاسْتَكْتَرَ مِنَ الْقَبِيدِ ، وَتَلَقَّتْ عِدَّتُهُمْ زِيَادَةً عَلَى أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ غُلَامٍ تَرْكِيٍّ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ أَسْوَدَ وَسَبْعَةَ أَلْفِ حُرٍّ مُؤْتَزَقٍ . ثُمَّ اسْتَجَدَّ ابْنُهُ الْأَمِيرُ أَبُو الْجَيْشِ خُصَامَزَوِيَّهِ بَعْدَهُ عِدَّةً مِنْ شَنَايَزَةِ حُوفِ مِصْرَ .

فَلَمَّا كَانَتْ إِمَارَةُ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ بْنُ طُنُجَجِ الْإِخْشِيدِ عَلَى مِصْرَ ، تَلَقَّتْ عِدَّةُ عَسَاكِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ أَرْبَعَ مِائَةِ أَلْفٍ ، تَشْتَمِلُ عَلَى عِدَّةِ طَوَائِفَ . ثُمَّ إِنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْمَيْشَلِكِ كَافُورًا الْإِخْشِيدِيَّ اسْتَجَدَّ عِدَّةً مِنَ السُّودَانِ فِي أَيَّامِ تَحْكُمِهِ بِمِصْرَ .

فَلَمَّا تَغَلَّبَ الْإِمَامُ الْمُعِزُّ لَدِينِ اللَّهِ أَبُو تَمِيمٍ مَعَدَّ الْفَاطِمِيَّ عَلَى مِصْرَ ، صَارَتْ عَسَاكِرُهَا مَا بَيْنَ بَكَاةٍ وَزَوِيلَةٍ وَنَحْوِهَا مِنْ طَوَائِفِ الْبُزُرِ ، وَفِيهِمُ الرُّومُ الصُّفَالِيَّةُ وَهُمْ فِي الْقَدَدِ كَمَا قِيلَ : « وَمِنْهُمْ مَعَدُّ ، وَلَمْ تَكُنْ جَبُوشُهُ تَعَدُّ ، وَلَا لَمَّا أَوْتِيَهُ كَانَ حَدٌّ ، مِنْ كُلِّ مَا يَشْعُدُ فِيهِ جَدٌّ » . وَحَتَّى قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَطَأِ الْأَرْضَ - جَيْشِ الْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلِبُّشِ الْمَقْدُونِيِّ - أَكْثَرَ عِدَدًا مِنْ جَبُوشِ الْمُعِزِّ .

فَلَمَّا قَامَ فِي الْخِلَافَةِ بِمِصْرَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْقَزِيْرُ بِاللَّهِ أَبُو مُنْصُورٍ نِزَارَ ، اسْتَحْتَمَ الدَّيْلَمُ وَالْأَتْرَاكُ ، وَاخْتَصَّ بِهِمْ^٢ . وَذَكَرَ الْأَمِيرُ الْمُخْتَارُ عِزُّ الْمَلِكِ^٣ الْمُسَبِّحِي فِي «تَارِيخِهِ» : أَنَّ خِزَانَةَ الْخَاصِّ حَمَلَهَا - لَمَّا خَرَجَ الْقَزِيْرُ إِلَى الشَّامِ - عِشْرُونَ أَلْفَ جَمَلٍ ، خَارِجًا عَنْ خَزَائِنِ الْقَوَادِ وَأَكْبَارِ الدَّوْلَةِ .

(٨) إضافة من الكندي . (ب) بولاق : كندر . (ج) بولاق : عبد الملك وفي الأصل يفاض .

^١ الكندي : ولاية مصر ٢١٧-٢١٨ . ٦٦٨ وما ذكر من مراجع .

^٢ راجع أمين قواد : الدولة الفاطمية في مصر ٦٦٢-

وذكر ابن ميسر في «تاريخه»: أن عبيد السيئة أم المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور بن العزيز بالله خاصة، كانت عدتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العشكر^١.

ورأيت بخط الأشعد بن نماتي: أن عدة الجيوش بمصر، في أيام رزك بن الصالح طلائع بن رزك، كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل^٢. وزاد غيره «وعشرة شواني بخرية فيها عشرة آلاف مقاتل»، وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية.

فلما زالت دولتهم علي يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال مجند مصر من العبيد السود والأمراء المضربين والغزبان والأرمن وغيرهم، واستبعد عشكرًا من الأتراك والأتراك خاصة، وبلغت عدة عساكره بمصر إلى^٣ اثني عشر ألف فارس لا غير. فلما مات انقرضت من بعده، ولم يتبق بمصر مع ابنه الملك/العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تقع لرجل واحد من الجند، فكأنوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يريدون على مائتي ألف.

ثم لم يزلوا في افتراق واختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك، فخذوا خذوا مواليتهم بني أيوب، واقتصروا على الأتراك وشيء من الأكراد، واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيئًا كثيرًا، حتى يقال: إن عدة ممالك الملك المنصور قلاوون كانت سبعة آلاف مملوك، ويقال: اثني عشر ألفًا. وكانت عدة ممالك ولده الأشرف خليل بن قلاوون اثني عشر ألف مملوك. ثم لم تبلغ بعد ذلك قريبًا من هذا، إلى أن زالت دولة بني قلاوون، في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة، بالملك الظاهر يرقوق، فأخذ في نحو المماليك الأشرفية، وأثأ لنفسه دولة من المماليك الجزكية بلغت عدتهم - ما بين مئتي ومئتين - أربعة آلاف

(a) ساقطة من بولاق.

^١ انظر فيما يلي ١: ٣٣٥.

٣٤٢ وفيما يلي ٤٠١:١ وأيضًا Cahen, Cl., «L'Administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makbûlî», IESHO XV (1979), pp. 163-82. أمين غزاد: الدولة الفاطمية في مصر ٧٢٠-٧٢٤.

^٢ انظر فيما تقدم ٢٣١ وانظر كذلك من ديوان الجيش الفاطمي الخزومي: المنهاج ٦٤-٧٢ ابن الطوير: نزعة الملقين ٨٢-٨٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٤٨٨:٣-٤٨٩، ٥٢١؛ المقرئ: اعطاء الحنفيا ٣: ٢٣٩-

أو تزيد قليلاً. فلما قام من بعده ابنه^(٥) الناصر فرج أفرقوا واختلّفوا، فلم يُقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل وغيره^١.

وعساكر مصر في الدولة التركية على قسمين: أجناد الحلقة، والمماليك السلطانية^٢. وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاوون، فإنها بلغت - على ما رأيت في جرائد ديوان الجيش بأوراق الرؤك الناصري - أربعة وعشرين ألف فارس؛ ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم - مع قلة عدتها - سواء منها الألف والواحد، فإنها لا تنفع ولا تدفع.

وأما المماليك فإنها اليوم قليل عددها، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية، لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها.

وهي اليوم قسمان: أجناد الحلقة، والمماليك السلطانية. والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهريّة، وناصريّة، ومؤيديّة. والمؤيديّة ما بين حكيمة ونوروزية ومن استجده المؤيد.

(٥) وإن خوفي ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيد أبي التضر شيخ - خلّد الله ملكه^٣ - يتلاشى، إلى أن يؤيد الله الملك بابنه الأمير صارم الدين إبراهيم - شدّ الله به أزره - فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من ملوك مصر في الدولة الإسلامية قبله.

والشبل في الخنزير مثل الأسد.

وابن السري إذا سرى أسرا هما.

ولا غزو أن يخذو الفتى خذو واليه.

بأبه اقتدى عدي في الكرم
إن الأصول عليها يثبت الشجر^(٥)

(٥) زيادة من بولاق. (b-b) ساقط من الأصل ولا توجد إلا في نسختي Paris 1731، Paris 1737 وهما يتفقان مع الأصل الذي اعتمدت عليه نشرة بولاق.

^١ عن دولة المماليك المراكسية (المراكسة) انظر فيما يلي ٢٤١:٢.

^٢ انظر تفصيل ذلك فيما يلي ٢١٥:٢-٢١٩.

^٣ واضح أن المقرئ كتب هذا القسم من الخطط في عهد السلطان الملك المؤيد شيخ الحمودي، ثم أضاف في فترة لاحقة ما ذكره عن طوائف المماليك في عهد السلطان الملك الأشرف برسباني، وعدم وجود هذه الفقرة في بعض نسخ الخطط راجع إلى أن المقرئ كان يكتب في طيارات، فكان النسخ ينسون نقل بعضها أو يضعونه في غير موضعه.

ثم لما مَلَكَ الْأَشْرَفُ بُوسَبَايَ، صَارَتْ الْمَمَالِكُ سَبْعَ طَوَائِفَ: ظَاهِرِيَّةً، وَنَاصِرِيَّةً، وَمُؤَيَّدِيَّةً، وَنُورُوزِيَّةً، وَحَكَمِيَّةً، وَطَطَرِيَّةً، وَأَشْرَفِيَّةً، كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهَا مُبَايَنَةٌ لِحُجْمَعِهَا، فَلِذَلِكَ ائْتَمَحَلَتْ شَوْكَتُهُمْ وَانْكَسَرَتْ جِدَّتُهُمْ، وَأَمِنَتْ عَلَى السُّلْطَانِ غَايِلَتُهُمْ، وَلَمْ يَخَفْ نُورَتُهُمْ لِفَرَقِهِمْ وَإِنْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ، وَتَبَائِنُهُمْ وَإِنْ كَانُوا فِي الظَّاهِرِ مُتَّفِقِينَ.

وَاعْلَمَ أَنَّهُ كَانَتْ عَادَةُ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَالْفَاطِمِيِّينَ، مِنْ لَدُنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ تُجَبِّيَ أَمْوَالُ الْحَرَّاجِ، ثُمَّ تُفَرَّقَ مِنَ الدِّيَّانِ فِي الْأَمْزَاءِ أَوْ الْعَمَالِ وَالْأَجْنَادِ عَلَى قَدَرِ رُتَبِهِمْ وَبَحَسَبِ مَقَادِيرِهِمْ. وَكَانَ يُقَالُ لِلذَلِكَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ «الْعَطَاءُ»^١.

وَمَا زَالَ الْأُمُو عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ كَانَتْ دَوْلَةُ الْقَجْمِ، فَغَيَّرَ هَذَا الرُّشْمَ، وَفُرِّقَتْ الْأَرْضِي إِقْطَاعَاتٍ عَلَى الْجُنْدِ. وَأَوَّلُ مَنْ عَرِفَ أَنَّهُ فَرَّقَ الْإِقْطَاعَاتِ عَلَى الْجُنْدِ، نِظَامُ الْمَلِكِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ الْعَبَّاسِ الطُّوسِيِّ، وَزِيرُ أَلْبِ أَرْسَلَانَ بْنِ دَاوُدَ بْنِ يِيكَالَ بْنِ سَلْجُوقَ، ثُمَّ وَزِيرُ ابْنِهِ مَلِكُشَاهُ بْنُ أَلْبِ أَرْسَلَانَ^٢. وَذَلِكَ أَنَّ مَمْلَكَتَهُ اتَّسَعَتْ فَرَأَى أَنْ يُسَلِّمَ إِلَى كُلِّ مُقَطَّعٍ قُوَّةً أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ عَلَى قَدَرِ إِقْطَاعِهِ، لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ فِي تَسْلِيمِ الْأَرْضِي إِلَى الْمُقَطَّعِينَ عِمَارَتَهَا لِاِغْتِنَاءِ مُقَطَّعِيهَا بِأَمْرٍهَا بِخِلَافِ مَا إِذَا شَمِلَ جَمِيعَ أَعْمَالِ الْمَمْلَكَةِ دِيَّانًا وَاحِدًا، فَإِنَّ الْحَرَقَ يَتَسَيَّعُ وَيَدْخُلُ الْخَلَّلُ فِي الْبِلَادِ^٣ فَقَعَلَ نِظَامُ الْمَلِكِ ذَلِكَ، وَعَمَّرَتْ بِهِ الْبِلَادَ وَكَثُرَتْ الْغَلَّاتُ. وَاقْتَدَى بِفِعْلِهِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ، مِنْ أَعْوَامِ بَضْعَ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

لِلسُّلْطَانِ السَّلْجُوقِيِّ أَلْبِ أَرْسَلَانَ وَوَلَدَهُ مَلِكُشَاهُ، رَاجِعْ أَخْبَارَهُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ الْعَامَةِ وَكَذَلِكَ ابْنُ خُلِكَانَ: وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ١٢٨:٢-١٣١:١ الدَّهْلِي: سِيرُ أَعْلَامِ الْبِلَادِ ٩٤:١٩-٩٦:١ الصَّفْدِي: الْوَلَايُ بِالْوَفَايَاتِ ١٢:١٢٣-١٢٧:١ السَّبْكِ: طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ الْكُبْرَى ٤:٣٠٩-٣٢٨:١ عَبْدِ الْهَادِي رِضَا مَحْبُوبٌ: نِظَامُ الْمَلِكِ كَبِيرِ الْوُزَرَاءِ فِي الْأَمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - دَرَسَةُ تَارِيخِيَّةٍ فِي سِيرَتِهِ وَأَهْمِ أَعْمَالِهِ خِلَالِ اسْتِزْلَامِهِ، الْقَاهِرَةُ - الدَّارُ الْمِصْرِيَّةُ الْبَنِيَانِيَّةُ ١٩٩٨:١ BOUWORTH, C.E., *El² art. Nizâm al-Mulk VIII*, pp. 71-74.

^١ الْعَطَاءُ. الْمَصْطَلَحُ الْأَكْثَرُ شِيعِيًّا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لِلْإِسْلَامِ لِلتَّلْبِيلِ عَلَى أَعْطِيَاتِ الْمُسْلِمِينَ لِلْإِعَاشَةِ، وَفِي خُزْنَةٍ لَاحِقَةٍ لِلتَّلْبِيلِ عَلَى رَوَاتِبِ الْفَرَقِ. فَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِ سِوَى الْخِصُولِ عَلَى نَصِيهِمْ فِي الْغَنَائِمِ النَّاجِيَةِ عَنِ الْغُرُوزَاتِ، وَنَظْمُ الْفُقَهَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ طَرِيقَةُ تَوْزِيْعِ الْفِيءِ. (رَاجِعْ، الطَّبْرِي: تَارِيخُ ٣:٦١٣-٦١٨:١ الْمَوَارِدِي: الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ ١٨٠-١٨١:١ Tritton, «Notes on the Muslim System of Pensions», *BSOAS XVI* (1954), pp. 170-72; CAHEN, CL., *El²* (art. *Atf* I, pp. 751-52).

^٢ نِظَامُ الْمَلِكِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِسْحَاقَ الطُّوسِيِّ (٤٠٨-٤٤٨ هـ / ١٠١٨-١٠٩٢ م) الْوَزِيرُ الشَّهِيرُ الْمُسَوِّعَاتُ ١٩٠٠، ٥٥.

^٣ نِظَامُ الْمَلِكِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِسْحَاقَ الطُّوسِيِّ (٤٠٨-٤٤٨ هـ / ١٠١٨-١٠٩٢ م) الْوَزِيرُ الشَّهِيرُ الْمُسَوِّعَاتُ ١٩٠٠، ٥٥.

وكانت الخلفاء تُرَزَق من بيت المال ، فَذَكَرَ عَطَاءُ بن السَّائِبِ في حديث ، أَنَّ أبا بكر - رضي الله عنه - لما استخلف ، فَرَضَ له كُلُّ يَوْمٍ شَطْرَ شاةٍ وما تكسوه في الرأس والبطْن . وَذَكَرَ عن حميد بن جلال ، أَنَّهُ فَرَضَ له بُودان إذا أَخْلَقَهما وَصَعَّهما وَأَخَذَ مِنْهُما ، وظهره إذا سافر ، وَنَفَقَتَهُ على أهله كما كان يُنْفِقُ قبل أن يُسْتَخْلَفَ .

- وَذَكَرَ ابنُ الأَثير في «تاريخه» أَنَّ الذي فَرَضُوا له ستة آلاف درهم في السَّنة . وفَرَضَ لعمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - لما استخلف ، ما يَصْلُحه وَيُصْلِحُ عِيَالَهُ بالمعروف ، وقاله له علي - رضي الله عنه - : ليس لك غيره ، فقال القَوْمُ : القَوْلُ ما قال علي ، يأخُذُ قُوَّتَهُ . وفَرَضَ عُمر لمعاوية ابن أبي سُفيان ، على عَمَلِهِ في الشَّام ، عشرة آلاف دينار في السَّنة ، وقيل : بل رَزَقَهُ ألف دينار ، وهو أَشَبَّهُه .

١٠ ذِكْرُ الْقَطَائِعِ وَالْإِقْطَاعَاتِ

يُقَالُ : اقْطَعَ طَائِفَةً من الشيء : أَخَذَهَا . وَالْقَطِيعَةُ : ما اقْطَعَهُ منه ، وَأَقْطَعَنِي إِياها : أَدْنَى لي في اقْطِيعِها ، واستَقْطَعَهُ إِياها / : سَأَلَهُ أن يُقْطِعه إِياها ، وَأَقْطَعَهُ نَهْراً وأَرْضاً : أَباحَ له ذلك . وقد أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وتَأَلَّفَ على الإِسْلام قَوْماً ؛ وَأَقْطَعَ الخُلفاء من بعده من رأوا في إقْطاعه صلاحاً .

- ١٥ رَوَى ابنُ أبي نَجِيح ، عن عمرو بن شُعَيْب عن أبيه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْطَعَ أَناساً من مُزَيْنَةِ (أو مَجْهَنَةِ) أَرْضاً فلم يُعْمَرُوها ، فجاء قومٌ فَعَمَرُوها . فخاصَصَهُم الجُهَيْنِيُّونَ (أو المَزِينِيُّونَ) إلى عُمر ابن الخطَّاب - رضي الله عنه - فقال عُمر : لو كانت مِنِّي أو من أبي بكر لَرَدَدْتُها ، ولكنَّها قَطِيعَةٌ من رسولِ اللَّهِ ﷺ . ثم قال : مَنْ كانت له أَرْضٌ ثم تَرَكَها ثلاث سنين لا يُعْمَرُها ، فَعَمَرُها قومٌ آخرون فهم أَحَقُّ بها .

- ٢٠ وقال هشام بن عُرْوَةَ عن أبيه : أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزُّبَيْرَ أَرْضاً فيها نَخْلٌ من أموال بني النضير ، وَذَكَرَ أَنَّها أَرْضٌ يُقَالُ لها : الجُوف . وَذَكَرَ أَنَّ عُمرَ بن الخطَّاب - رضي الله عنه - أَقْطَعَ العَقِيقَ أَجْمَعَ الناسَ حتى جازَتْ قَطِيعَةُ عُرْوَةَ ، فقال ابنُ الزُّبَيْرِ : المُسْتَقْطَعُونَ منذ اليوم ، فإن يَكُ فيه خَيْرٌ فَتَحْت قَدَمِي ، قال خَوَات بن مجبَر : أَقْطِيعِهِ . فَأَقْطَعَهُ إِياه .

- ٢٥ وقال سُفيان بن عُيَيْنَةَ ، عن عمرو بن دينار ، قال : لما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ أَقْطَعَ أبا بكر وَأَقْطَعَ عُمرَ بن الخطَّاب - رضي الله عنهما .

وقال أَشْعَثُ بن سُوَّار ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن صُلَِّت المَكِّي ، عن أبي رافع قال : أعطى

النبي ﷺ قَوْمًا أَرْضًا فَعَجَزُوا عَنْ عِمَارَتِهَا فَبَاعُوهَا فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِشُمَانِيَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، أَوْ بِشُمَانِيَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَوَضَعُوا أَمْوَالَهُمْ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَلَمَّا أَخَذُوهَا وَجَدُوهَا نَاقِصَةً ، فَقَالُوا : هَذَا نَاقِصٌ ، قَالَ : اخْسَبُوا زَكَاتَهُ ، قَالَ : فَحَسَبُوا زَكَاتَهُ ، فَوَجَدُوهُ وَافِيًا ، فَقَالَ : أَخْسِبْتُمْ أَنْ أَتُشِيكَ مَالًا وَلَا أَزْكِيهِ .

وقد سَأَلَ تَمِيمُ الدَّارِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، أَنْ يُقْطِعَهُ عَيْثُونَ^(٩) الْبَلَدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ بِالشَّامِ قَبْلَ فَتْحِهِ ، فَقَعَلَ^١ . وَسَأَلَهُ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُسَنِيُّ ، أَنْ يُقْطِعَهُ أَرْضًا كَانَتْ بِيَدِ الرُّومِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَقَالَ : أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ ؟ فَقَالَ : وَالَّذِي يَتَّقُكَ بِالْحَقِّ لِيُفْتَحَرَ عَلَيْكَ ، فَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ بِكَاثًا^٢ .

وقال ثَابِتُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : إِنَّ الْأَيْضَ بْنَ حَتْمَانَ اسْتَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، مِلْحَ مَأْرَبٍ ، فَأَقْطَعَهُ ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَرَدْتُ هَذَا الْمِلْحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهُوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مِلْحٌ مِنْ وَرَدِهِ أَخَذَهُ ، وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ الْعَدِّ^(١٠) بِالْأَرْضِ ، فَاسْتَقَالَ الْأَيْضَ ، فَقَالَ : قَدْ أَقْلُتُكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مِنِّي صَدَقَةً . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هُوَ مِنْكَ صَدَقَةٌ ، وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ الْعَدِّ^(ب) مَنْ وَرَدَهُ أَخَذَهُ » .

وقال سُكَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرْنِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمَعَادِينَ الْقَبِيلَةَ خَلِيسَهَا وَغُورِيهَا^٤ .

وقال مَالِكُ بْنُ أَبِي دِينَارٍ ، عَنْ زَيْبَةَ ، عَنْ قَوْمٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْطَعَ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُرْنِيِّ مَعَادِينَ بِنَاحِيَةِ الْفُرْعِ .

(٩) بولاق : عيون . (ب) بولاق : العذب .

١ واحد ، والأدب التي هي فيه قد خُلِقَ لَطُولُ الْأَمَدِ .

٢ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠٥: ١٣ وفيما يلي ٩٧: ١ .

٣ جاء على هامش الأصل : الماء العد هو الذي له مواد نمد كالعيون والآبار ، وقيل الماء المجموع .

٤ هنا على هامش الأصل : الخليسي والغوري وأعلها وأسفلها ، وقيل الخليسي بلاد نجد والغوري بلاد تهامة .

١ انظر نص نسخة كتاب النبي ﷺ للداريين الذي وَهَبَهُمْ فِيهِ بَيْتُ عَيْثُونَ وَخَبْرُونَ وَبَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَذَلِكَ تَجْمِيدُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِذَلِكَ لَهُمْ عِنْدَ الْقَلْقَشَنْدِيِّ : صَبْحُ الْأَعْشَى ١١٩: ١٢٠ وَأَضَافَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ : « وَهَذِهِ الرِّقْعَةُ الَّتِي كَتَبَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ [وَهِيَ جِلْدٌ مِنْ أَدَمٍ] مَوْجُودَةٌ بِأَيْدِي التَّمِيمِيِّينَ عِنْدَامِ حَرَمِ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى الْآنِ ، وَكُلُّمَا نَازَعَهُمْ أَخَذُوا بِهَا إِلَى السُّلْطَانِ بِالْمَدِينَةِ الْمَصْرِيَّةِ لِيَقِفَ عَلَيْهَا وَيَكْتَفَ عَنْهُمْ مِنْ يَظْلَمُهُمْ . وَقد أخبرني برؤيتها غيرُ

وعن ربيعة، عن الحارث بن بلال، عن أبيه بلال بن الحارث، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْطَعَهُ الْعَقِيقَ أَجْمَع.

وعن حماد بن سلمة، عن أبي مكين، عن أبي عكرمة مولى بلال بن الحارث، قال: أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَالًا أَرْضًا فِيهَا بَجَلٌ مَغْدِنٌ، فَبَاعَ بَنُو بِلَالٍ عُثْمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَرْضًا مِنْهَا، فَظَهَرَ فِيهَا مَقْدَنٌ (أَوْ قَالَ: مَقْدِنَانِ)، فَقَالُوا: إِنَّمَا بِغْنَاكَ أَرْضٌ خَرُوتٌ وَلَمْ نَبِعْكَ الْمَعَادِنَ، وَجَاءُوا بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ فِي جَرِيدَةٍ. فَتَبَلَّهَا عُثْمَرُ وَفَتَحَ وَمَسَحَ بِهَا عَيْنَيْهِ، وَقَالَ لِقَبِيلِهِ: انْظُرْ مَا خَرَجَ مِنْهَا وَمَا أَنْفَقْتُ، فَقَاضَاهُمْ بِالثَّقَفَةِ، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْفَضْلَ.

وَاضْطَلَمَ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ أَرْضِ السَّوَادِ أَمْوَالَ يَكْشُرَى وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَمَا قَرَّبَ عَنْهُ أَرْبَابُهُ أَوْ هَلَكَوْا، فَكَانَ مَبْلَغُ غَلَّتِهِ تِسْعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، كَانَ يَصْرِفُهَا فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُقْطِعْ شَيْقًا مِنْهَا.

ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْطَعَهَا - لِأَنَّهُ رَأَى إِقْطَاعَهَا أَوْفَرَ لِعَاقِبَتِهَا مِنْ تَعْطِيلِهَا، وَشَرَطَ عَلَى مَنْ أَقْطَعَهَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ حَقَّ الْفَقِيءِ، فَكَانَ مَبْلَغُ غَلَّتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، كَانَ مِنْهَا صِلَاتُهُ وَعَطَايَاهُ؛ ثُمَّ تَنَاقَلَهَا الْخُلَفَاءُ بَعْدَهُ.

فَلَمَّا كَانَ عَامُ الْحَجَاكِمْ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ، فِي فِتْنَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ، أُخْرِقَ الدِّيَّانُ، وَأَخَذَ كُلُّ قَوْمٍ مَا يَلِيهِمْ.

وَأَقْطَعَ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ابْنُ سَنْدَرٍ مِئْتَةَ الْأَصْبَغِ، فَحَازَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ أَلْفَ فَنٍّ.

وَقَالَ وَكِيعٌ، عَنْ شُفْيَانَ، عَنْ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ، عَنْ عَامِرٍ: لَمْ يُقْطِعْ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُثْمَرُ وَلَا عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَأَوَّلُ مَنْ أَقْطَعَ الْقَطَائِعَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَبِعْتَ الْأَرْضُونَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ. قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ: وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّ عُثْمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَقْطَعَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ شَيْقًا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَّا ابْنَ سَنْدَرٍ، فَإِنَّهُ أَقْطَعَهُ أَرْضَ مِئْتَةِ الْأَصْبَغِ، فَلَمْ تَزَلْ لَهُ حَتَّى مَاتَ، فَاشْتَرَاهَا الْأَصْبَغِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ مِنْ وَرَثَتِهِ فَلَيْسَ بِمِصْرَ قَطِيعَةً أَقْدَمَ مِنْهَا وَلَا أَفْضَلَ^١.

^١ ابن عبد الحكم: فوج مصر ١٣٧ وفيما يلي ١٣٦:٢.

وقال الأعمش، عن إبراهيم بن المهاجر، عن موسى بن طلحة، قال: أقطع عثمان - رضي الله عنه - عبد الله بن مشعود في^(a) الثَّهْرَيْنِ، وعُمار بن ياسر استنيا^(b)، وأقطع خبابا صغيبا^(c)، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هُرْمُز^(d)، وكان عبد الله بن مشعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع.

وقال سيف بن عمر، عن عمرو بن محمد، عن عامر/ قال: أقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مشعود وعُمار بن ياسر وابن هِجَارَ أزمان عثمان، فإن يكن عثمان أخطأ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأ^(e)، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا. وأقطع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - طلحة وجبر بن عبد الله والربيع بن عمرو، وأقطع أبا مَرْزُزَ دار النبل في عِدَّةٍ مِّنْ أَخْدَانَا عَنْهُ، ولَمَّا الْقَطَائِعِ عَلَى وَجْهِ الثَّقَلِ مِنْ خُمْسٍ مَا أَفَاءَ اللَّهُ.

وكتب عمر - رضي الله عنه - إلى عثمان بن حنيف، مع جبر بن عبد الله البجلي: «أما بعد، فأقطع جبر بن عبد الله قَدْرَ مَا يُقَوِّتُهُ، لَا وَكُسَ وَلَا شَطَطَ»، فكتب عثمان إلى عمر: «إن جبرًا قديم علي بكتاب منك يُقَطِّعُهُ مَا يُقَوِّتُهُ، فكيفت أن أمضي ذلك حتى أراجعك فيه». فكتب إليه: «[أن قد]^(f) صدق جبر، فأنفذ ذلك، وقد أحسنت في مؤامرتي».

وأقطع أبا موسى الأشعري، وأقطع علي بن أبي طالب رَحْبَةَ كَرْدُوسِ بْنِ هَانِي^(g)، وأقطع سُوَيْدَ بْنَ غَفَلَةَ الْجُعْفِيَّ.

قال سيف، عن ثابت بن هُرْمِز^(h)، عن سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ، قال: استقطعت عليًا، فقال: اكتب «هذا ما أقطع علي سُوَيْدًا: أَرْضًا لِنَاوِذَوَيْهِ⁽ⁱ⁾ ما بين كذا إلى كذا وما شاء الله»^(j).

وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ما أقطع معاوية بن أبي سفيان ومن بعده من الخلفاء، من دور مصر، فأورد شيئا كثيرا.

(a) ساقطة من بولاق وعند البلاذري: أرضًا بالنهرين. (b) الأصل وبولاق: استبنا والتصويب من البلاذري. (c) الأصل وبولاق: خبابا وصهبيا والتصويب من البلاذري. (d) بولاق: أخطأوا. (e) إضافة من الطبري. (f) بعد ذلك عند الطبري: الكرديسية. (g) المخطوطات: حرمة والتصويب من الطبري. (h) المخطوطات: لدوابه والمحب من الطبري.

¹ البلاذري: فخر البلدان ٣٣٥ حيث أورد الخبر بنفسه. ² الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣: ٥٨٩، فالطبري هو الإسناد الذي يروي عن سيف بن عمر.

وقد كانت خلائف^(a) بني أمية، وخلفاء بني العباس، يُقْطِعُونَ الأراضِي من أرض مصر، النَّقَر من خواصهم، لا كما هو الحال اليوم، بل يكون مالُ خراج أرض مصر، يُصْرَفُ منه أُعْطِيَةُ الْجُنْدِ وسائر الكُفْل، ويُحْتَمَلُ ما يُتْعَبَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ. وما أَقْطِعَ من الأراضِي فَإِنَّهُ يَدُ من أَقْطَعَهُ^١.
وَأَمَّا مِنْذُ كَانَتْ أَيْتَامُ السُّلْطَانِ صَلَاحُ الدِّينِ يُوَسِّفُ بَنَ ثُؤَبَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، فَإِنَّ أَرْضِي مِصْرَ كُلَّهَا صَارَتْ تُقْطَعُ لِلْسُّلْطَانِ وَأَمْرَائِهِ وَأَجْنَادِهِ^٢.

وَأَرْضُ مِصْرَ الْيَوْمِ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ:

فَيُقسَّمُ بِجَرِي فِي دِيْوَانِ السُّلْطَانِ، وَهَذَا الْقِسْمُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مِنْهُ مَا يَجْرِي فِي دِيْوَانِ (b) الْوَزَارَةِ وَمِنْهُ مَا يَجْرِي فِي دِيْوَانِ (c) الْخَاصِّ، وَمِنْهُ مَا يَجْرِي فِي الدِّيْوَانِ الْمَقْرَدِ.
وَيُقسَّمُ مِنْ أَرْضِي مِصْرَ قَدْ أَقْطِعَ لِلْأَمْزَاءِ وَالْأَجْنَادِ، وَقَدْ ذُكِرَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ الرُّؤُوكِ النَّاصِرِيِّ^٣.

وَيُقسَّمُ ثَالِثٌ لِمُجَلِّ وَفَقًا مُخْتَصِمًا عَلَى الْجَوَامِعِ وَالْمَدَارِسِ وَالْخَوَانِكِ، وَعَلَى جِهَاتِ الْبَرِّ، وَعَلَى دَوَارِي وَإِقْفِي تِلْكَ الْأَرْضِي وَغَتَائِهِمْ.
وَيُقسَّمُ رَابِعٌ يُقَالُ لَهُ الْأَخْبَاسُ، وَيَجْرِي فِيهِ أَرْضٌ بِأَيْدِي قَوْمٍ يَأْكُلُونَهَا، إِمَّا عَنْ قِيَامِهِمْ بِمَصَالِحِ مَسْجِدٍ أَوْ جَامِعٍ، وَإِمَّا يَكُونُ لَهُمْ لَا فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ.

وَيُقسَّمُ خَامِسٌ قَدْ صَارَ مِلْكًا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى وَيُؤَرَّثُ وَيُوهَبُ، لَكُونَهُ اشْتَرَى مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.
وَيُقسَّمُ سَادِسٌ لَا يُزْرَعُ لِلْعَجَزِ عَنْ زِرَاعَتِهِ، فَتَرْعَاهُ الْمَوَاشِي أَوْ يُنْبِتُ الْحَطَبَ وَنَحْوَهُ.
وَيُقسَّمُ سَابِعٌ لَا يَسْتَحْلَمُهُ مَاءُ الثَّلِيلِ فَهُوَ قَفَرٌ: وَهَذَا الْقِسْمُ مِنْهُ مَا لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ مِنْذُ عَرِفَتْ أَحْوَالُ الْخَلِيقَةِ، وَمِنْذُ^(d) مَا كَانَ عَامِرًا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ثُمَّ خَرِبَ.

(a) بولاق: كان خلفاء. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: منه.

^١ حول الإقطاع المبكر انظر، عبد العزيز الدوري: «نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠ (١٩٧٠)، ٣-٤٢، وعن تطور نظام الإقطاع بعد دخول البويهيين إلى السلطة انظر مقال كاهن، Cahen, Cl., «L'évolution de l'iqta' de IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC* (1953), pp. 52-125 وفيما يلي ٢١٧:٢-٢١٩.

^٢ انظر كذلك فيما تقدم ٢٣٠ Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 26-68.

^٣ انظر فيما تقدم ٢٣٦-٢٣٩.

^١ حول الإقطاع المبكر انظر، عبد العزيز الدوري: «نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠ (١٩٧٠)، ٣-٤٢، وعن تطور نظام الإقطاع بعد دخول البويهيين إلى السلطة انظر مقال كاهن، Cahen, Cl., «L'évolution de l'iqta' de IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une histoire comparée des

وسائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها في هذا الكتاب ، تجدها إن أنت تأملت إن شاء الله تعالى .
وقال أبو عبيد القاسم بن سلام^١ في كتاب «الأموال» ، في الكلام على حديث مقتر عن
عبد الله بن طاووس عن أبيه طاووس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «عادي الأرض لله ولرسوله ،
ثم هي لكم» . فإن^٢ قلت : ما يعني ذلك ؟ قال : «يكون إقطاعا» ، هذا الخبر أضل في الإقطاع .
والعادي : كل أرض كان لها سكان فانقرضوا ، أي فصارت خرابا ، فإن محكمها إلى الإمام .
قال : وأما الأرض التي جعلها النبي ﷺ لبغض الناس - وهي عامرة لها أهل - فأعطاه الإمام
يكون على وجه الثقل .

ومن ذلك ما أعطاه رسول الله ﷺ تميم الداري ، فإنه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن تفتح
الشام وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليهم ، كما فعل
بابنة بقبيلة^٣ لما وهبها الشيباني قبل افتتاح الحيرة ، فأمنضاها له خالد بن الوليد رضي الله عنه .
وكذلك أمضى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لتميم الداري ، لما لفتحت فلسطين ، ما
كان النبي ﷺ نفعه^٤ ، انتهى .

وقد خرج أبو عبيد^٥ هذه العطية المعلقة مخرج الثقل الذي ينقله الإمام بعض المقابلة .
وقال أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب^٦ المازدي في «الأحكام السلطانية» : والإقطاع
ضربان : إقطاع استغلال ، وإقطاع تملك . والثاني ينقسم إلى موات وعامير ، والثاني ضربان :
١٥

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : نائه نفيلة . (c) بولاق : أبو عبد الله . (d) محمد بن حبيب
ساقطة من الأصل .

سير أعلام النبلاء ٣: ٤٩٠-٥٠٩ : الصفدي : الوافي
بالوفيات ١٢٣: ٢٤-١٢٥ : *Et* ١ : Gottschalk, H.L.,
art. *Abū Ubayd al-Qāsim b. Sallām* I, pp. 161-
١62 ومقدمة رمضان عبد التواب لكتاب «الغريب
المصنف» لأبي عبيد ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية
١٩٨٩ ، ٩-٦٤ .

^٢ ابن سلام : كتاب الأموال ، صححه وعلق هوامشه
محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٣٥ هـ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨
وقارن مع القلقشندي : صبح الأعشى ١٣: ١٠٤ .

^١ أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله ، من كبار العلماء
بالحديث والأدب والفقه . ولد بهراء وتعلم بها ، ورحل إلى
بغداد وإلى مصر وخرج ضوفي بمكة سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م . ألف
العديد من الكتب في غريب الحديث واللغة والنحو
والقراءات . وكتاب «الأموال» الذي ينقل عنه المقرئ أحد
الأصول في موضوعه . (ابن النديم : الفهرست ٤٧٨ الخطيب
البخاري : تاريخ بغداد ١٢: ٤٠٣-٤١٦ : ياقوت : معجم
الأدباء ١٦: ٢٥٤-٢٦١ : القفطي : إنباء الرواة ٣: ١٢-
٢٣ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤: ٦٠-٦٣ : الذهبي :

أَحَدُهُمَا مَا يَتَعَيَّنُ مَالُكَهُ وَلَا نَظَرُ لِلسُّلْطَانِ فِيهِ ، إِلَّا مَا يَتَمَلَّقُ بِتِلْكَ الْأَرْضِ فِي حَقِّ لَبِيتِ الْمَالِ إِذَا كَانَتْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ . فَإِنْ كَانَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ ، حَيْثُ لَمْ يَثْبُتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا يَدٌ ، فَأَرَادَ الْإِمَامُ أَنْ يَقْطِعَهَا لِتَحْلِيلِهَا الْمُقْطَعُ عِنْدَ الظُّفَرِ بِهَا ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ . فَقَدْ سَأَلَ تَمِيمَ الدَّارِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْطِعَهُ عَيْشُونَ^(١) الْبَلَدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ الشَّامَ ، فَفَعَلَ . وَسَأَلَهُ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُثَنِيُّ أَنْ يَقْطِعَهُ أَرْضًا كَانَتْ بِيَدِ الرُّومِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : «أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ هَذَا؟»^١ . فَقَالَ :

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِيَفْتَحَنَّ عَلَيْكَ وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًا .

قَالَ الْمَاورِدي : وَهَكَذَا لَوْ اسْتَوْقَبَ أَحَدٌ مِنَ الْإِمَامِ مَالًا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ عَلَى مَلِكِ أَهْلِهَا ، أَوْ اسْتَوْقَبَ شَيْئًا مِنْ سَبِيحِهَا أَوْ دَرَارِهَا لِيَكُونَ أَحَقُّ بِهِ إِذَا فُتِحَتْ ، جَازَ وَصَحَّتِ الْعَقِيَّةُ مِنْهُ - مَعَ الْجَهَالَةِ بِهَا - لِتَعْلِيلِهَا بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ .

وَقَدْ رَوَى الشَّعْبِيُّ أَنَّ خُرَيْمَ^(ب) بْنَ أَوْسِ الطَّائِي قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْحِيرَةَ فَأَعْطِنِي بِنْتَ ثَقِيلَةَ . فَلَمَّا أَرَادَ خَالِدُ صَلُحُ أَهْلَ الْحِيرَةِ ، قَالَ لَهُ خُرَيْمٌ^(ب) : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي بِنْتَ ثَقِيلَةَ ، فَلَا تُدْخِلْهَا فِي صَلُحِكَ ، فَشَهِدَ لَهُ يَشْرُ بْنُ سَعْدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، فَاسْتَنَاهَا مِنَ الصُّلْحِ وَدَفَعَهَا إِلَى خُرَيْمٍ^(ب) ؛ فَاشْتَرَيْتَ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ - وَكَانَتْ عَجِزَتْ وَحَالَتْ عَمَّا عَهِدَ مِنْهَا - فَقِيلَ لَهُ : قَدْ أَرْخَصْتَهَا ، وَكَانَ أَهْلُهَا يَدْفَعُونَ لَكَ أَضْعَافَ مَا سَأَلْتَ بِهَا . فَقَالَ : مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ عَدَدًا يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ^٢ .

قَالَ الْمَاورِدي : وَإِذَا صَحَّ الْإِقْطَاعُ وَالتَّحْلِيلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، يُنْظَرُ حَالُ الْفَتْحِ : فَإِنْ كَانَ صَلُحًا ، خُلِصَتْ الْأَرْضُ لِمُقْطِعِهَا ، وَكَانَتْ خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ الصُّلْحِ بِالْإِقْطَاعِ السَّابِقِ . وَإِنْ كَانَ الْفَتْحُ عَثْوَةً ، كَانَ الْمُقْطِعُ وَالْمُسْتَوْقَبُ أَحَقَّ بِمَا اسْتَقْطَعَهُ وَاسْتَوْقَبَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَنُظِرَ فِي الْغَنَائِمِ : فَإِنْ كَانُوا عَلِمُوا بِالْإِقْطَاعِ أَوْ الْهَبَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ ، فَلَيْسَ لَهُمُ الْمَطَالَبَةُ بِعَوَضٍ [مَا اسْتَقْطَعُوا وَوُهِبَ]^(ج) . وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى فَتَحُوا ، عَاوَضَهُمُ الْإِمَامُ بِمَا يَسْتَطِيبُ بِهِ نَفْسَهُمْ كَمَا يَسْتَطِيبُ نَفْسَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْغَنَائِمِ .

(أ) بولاق : يعطيه عيون . (ب) بولاق : خزيمة . (ج) إضافة من الماوردي .

^١ فيما تقدم ١٢٥٨ والمقرئ : ضوء الساري في خبر أخرجه الإمام أحمد والترمذي .
^٢ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٦٩ - ١٧٠ .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يُلْزَمُ الإمام اشتطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم ، إذا رأى المصلحة في ذلك ^١.

ذكر ديوان الخراج والأموال

يقال لكتابة الخراج : قَلَمُ التَّصْرِيفِ ، وأوَّلُ ما دُوِّنَ هذا الدِّيوَانُ في الإسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قَبْلَ الإسلام .

وكان ديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبيلية ، فتَقَلَّتْ دَوَائِرُ هذه الأمصار إلى العربية .

والذي نَقَلَ ديوان مصر من القبيلية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مزوان أمير مصر ، في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ، ونسخها بالعربية ، وصرف أئناس عن الديوان ، وجعل عليه ^(١) مولى لبني سعد ثم لبني الذيال - بطن منهم عمرو بن خرْمُوز ^(٢) - بن زُبوع القزاري من أهل جنص ^{١٠} .

وأوَّلُ من نَقَلَ الدَّوَاوِينَ من الفارسية إلى العربية الوليد بن هشام بن قُحْزَم ^(٣) بن سليمان بن ذُكْوَان ، وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

والأكثرُونَ على أَنَّ الذي نَقَلَ ديوان العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج ، وكان مَوْلَى لبني سَعْد ، وهو يومئذٍ صاحب دَوَاوِينَ العراق ، وذلك بعد سنة ثمانين . وسَبَبُ ذلك أَنَّ صالح بن عبد الرحمن هذا كان أبوه من سَبْيِ سِجِسْتَان ، ومَهَرُ صالح في الكتابة ، وَكَتَبَ لِزَادَانَ قَرُوحَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ بن يوسف الثقفي ، وَخَطَّ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْفَارِسِيَّةِ والعربية : فَخَفَّ عَلَى قَلْبِ الْحَجَّاجِ ، فَخَافَ مِنْ زَادَانَ وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي رَقِيتَنِي حَتَّى وَصَلْتَ إِلَى الْأَمِيرِ ، وَأَرَاهُ قَدْ اسْتَحَفَّنِي وَلَا آمَنُ أَنْ يُقَدِّمَنِي عَلَيْكَ فَتَشَقُّطَ مَثَرَتُكَ ؛ فَقَالَ زَادَانُ : لَا تَنْظُرَنَّ ذَلِكَ ، هُوَ أَخَوُجُّ إِلَيَّ مِنِّْي إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ يَكْفِيهِ حِسَابَهُ غَيْرِي . فَقَالَ صَالِحٌ : وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخَوِّلَ الْحِسَابَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ لَخَوَّلْتُهِ ، قَالَ : فَخَوِّلْ مِنْهُ أَمْطَرًا حَتَّى

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مخروم .

^١ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٧٠ . الكندي : ولاية مصر ٨٠ (مصدر هذا الخبر) ؛ وانظر كذلك

^٢ ابن عبد الحكم : فتح مصر ١٢٢ س ٧-١٨ النويري : نهاية الأرب ١٩٨:٨ - ٢٠٠ .

أرى، فَقَعَلَ. فقال له: تمارض تمارض، فبعت إليه الحجاج بطييه، فشق ذلك على زادن، وأمره ألا يظهر للحجاج^١.

فاتفق عقيب ذلك أن زادن قيل في فتنه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وهو خارج من موضع كان فيه إلى منزله، فاستكتب الحجاج بعده صالحاً، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادن في نقل الديوان، فأعجبه ذلك وعزم عليه في إرضائه، فنقله من الفارسية إلى العربية. وشق ذلك على الفرس، وبذلوا له مائة ألف درهم على ألا يظهر النقل، فأبى عليهم، فقال له مزوان شاه بن زادن قروخ: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية.

وكان عبد الحميد بن يحيى يقول: لله ذو صالح، ما أعظم مثته على الكتاب.

وأما ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى القرية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل؛ واختلف في وقت نقله، فقيل: قيل في خلافة عبد الملك بن مزوان، وقيل: في خلافة هشام بن عبد الملك^٢.

وكان الذي يكتب على ديوان الشام سرجون بن منصور النضري في أيام معاوية بن أبي سفيان، ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

ذكر خراج مصر في الإسلام

أول من جنى خراج مصر^٣ في الإسلام عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فكانت جبايته اثني عشر ألف دينار، بقرية دينارين دينارين من كل رجل. ثم جنى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر أربعة عشر ألف دينار؛ فقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - لعنوه بن العاص: يا أبا عبد الله، قوت اللقحة بأكثر من ذرها الأول؛ فقال: أضربوهم بولدها.

عند كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال، ربي أن لا تتأثر ضريبة الأرض بتغير اعتقاد مالكيها، أي أن دخول الإسلام كان يعني من الخيرية ولكنه لا يعني من الخراج. وبذلك أصبح الخراج من وجهة نظر الفقه الإسلامي إيجاباً دائماً للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فيقاً، بينما كان من وجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التي كان معمولاً -

^١ الجيهشاري: كتاب الوزراء والكتاب ٣٨.

^٢ البلاذري: فوح البلدان ٢٣٠؛ الجيهشاري: كتاب الوزراء والكتاب ١٤٠. وانظر عن تعريب الدواوين مقال عبد العزيز الدوري *Dārī, A.A., Et art. Dīwān II, p. 333*.

^٣ الخراج هو ضريبة الأرض الزراعية، وكانت تفرض أصلاً على كل أراضي سكان البلاد الأصليين غير المسلمين المفتوحة صلحاً. وعندما خشي مع الوقت أن يؤدي تحول

وهذا الذي جباه عمرو ثم عبد الله ، إنما هو من الجماعيم خاصةً دون الخراج .
وانحطَّ خراج مصر بعدهما ، لثُمُو الفساد مع الزَّمان وسَرَيان الحَرَاب في أكثر الأرض ووقوع
الحروب ، فلم يَجِبها بنو أمية وخلفاء بني العباس إلا دون الثلاثة آلاف ألف ، ما خلا أيام هشام بن
عبد الملك ، فإنه وصَّى عبد الله بن الحبحاب عايل مصر بالجماعة . / فيقال : إنه لم يَظْهَر من خراج
مصر ، بعد تناقصه ، كثرة إلا في وقتين :

أحدهما في خلافة هشام بن عبد الملك ، عندما وَلِيَ الخراج عُبيد الله بن الحبحاب ، فخرج
بنفسه وفتح العاير من أراضي مصر والعاير ممَّا يركبه ماء النيل ، فوجدَ قانون ذلك ثلاثين ألف
ألف فدان سوى ارتفاع الجُزف ووسخ الأرض ، فراكها^١ كلها وعدَّلها غاية التعديل ، فعقدت معه
أربعة آلاف دينار ، هذا والشعر راخ والتلُّد بغير مكس ولا ضريبة .

وفي سنة سبع ومائة لأوَّل أيام هشام بن عبد الملك ، وصَّف ابن الحبحاب بمصر طبقات معلومة
منسوبه في الدواوين ، ولم تزل إلى ما بعد ذهاب بني أمية ، ومبلغها ألف ألف دينار وسبع مائة
ألف دينار وثمان مائة وسبعة وثلاثون دينارًا ، منها على كُور الصعيد ألف ألف وأربع مائة دينار
وعشرون دينارًا ونصف ، والباقي على كُور أشقل الأرض . ويقال : إنَّ أسامة بن زَيْد جباها في
خلافة سُلَيْمان بن عبد الملك مَبْلَغ اثني عشر ألف ألف دينار .

والوقت الثاني في إمارة أحمد بن طولون ، لما تسلَّم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مُدْبِر ،
وقد خرب^٢ أرض مصر حتى بقي خراجها ثمان مائة ألف ألف دينار ، فاشتقَّى أحمد بن

(a) يولاق : محرت .

Fiscal Administration of Egypt in the Early Islamic Period, Kyoto 1981 (Asian Historical Monograph I); Frantz-Murphy, *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, Suppl. An. Isl. Cahier n°10, le Caire-IFAO 1986. وعن المقارنة بين نظام الضرائب في مصر قبل الإسلام وبعده انظر مقال جاسكو Gascou, J., «De Byzance à l'Islam, les impôts en Égypte après la conquête arabe», *JESHO* 26 (1983), pp. 97-109

^١ انظر عن عملية الروك فيما تقدم ٢٣٥-٢٣٩ .

= بها قبل الإسلام . وعلى خلاف السائد في بقية العالم الإسلامي لم توجد في مصر أراضي عشيرة بل كانت كلها أرضًا خراجية (راجع ، الماوردي : الأحكام السلطانية ١٢٧ ، ١٣١-١٣٢ ، ١٣٧ الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ١٣٩ النويري : نهاية الأرب ٢٤٦:٨-٢٤٧ ، محمد ضياء الدين الوائس : الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٩ ، Lambton, A.K.S., *El² art. Kharādj IV*, pp. 1062-85; Cooper, R.S., «The Assessment and Collection of Kharāj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1974), pp. 365-82; Morimoto, K., *The*

طُولون في العِمارة وبالعَ فيها ، فَقَعَدَت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلاث مائة ألف دينار . وجَبَّها ابنه الأمير أبو الجَيْش حُمارَوَيْه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار مع رِخاءِ الأسعار أَيامَئِدْ ، فَإِنَّهُ رُجِّمًا أُبِيعَ في الأَيامِ الطُولونية القَمَحُ : كُلُّ عشرة أَرادِب بدينار .

وَذَكَرَ ابْنُ خُرْداذبَةَ أَنَّ خَراجَ مصر في أَيامِ فِرْعَوْنَ ، كان ستة وتسعين ألف ألف دينار ، وأنَّ ابن الحَبِحاب جَبَّها [في أَيامِ بني أُمَيَّة] ^٩ أَلْفِي ألف وسبع مائة ألف وثلاثة وعشرين أَلْفًا وثمان مائة وتسعة وثلاثين دينارًا ^١ .

وهذا وَهَمٌ منه ، فَإِنَّ هذا القَدر هو ما حَمَلَهُ إلى يَتِّت المال بِدِمَشق بعد أُعْطِيَةِ أَهل مصر وَكُلِّفَها .

قال : وَحَمَلَ منها مُوسَى بن عيسى الهاشِمِي [في دولة بني العبَّاس] ^٩ أَلْفِي ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار ^٢ ، يَغْنِي بعد العَطَاءِ والمُؤْنِ وسائِرِ الكُلْفِ .

قال : وكان خَراجُ مصر ، إِذا بَلَغَ الثَّيْلُ سَبْعَ عشرة ذِراعًا وعشر أَصابع ، أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار ، والمَقْبُوضُ عن القَدانِ دينارين في خِلافةِ الحائِثون وغيره .

وَبَلَغَ خَراجُ مصر ، في أَيامِ الأمير أبي بَكْرٍ محمد بن طُفَّجِ الإخشيد ، أَلْفِي ألف دينار سوى ضِباعه التي كانت مِلْكًا له . والإخشيدُ أَوَّلُ من عَمِلَ الرِّوايِبَ بِمصر .

وكان كَاتبُه ابن كَلا قد عَمِلَ تَقديرًا عَجَزَ فيه المُرُتبُ عن الارتفاعِ مائتي ألف دينار ، فقال له الإخشيدُ : كيف تَعْمَلُ ؟ قال : حَطَّ من الحِجَراتِ والأَزْواقِ ، فَلَيْسَ هَولاءِ أَوَّلَى من الواجِبِ ؛ فقال : غَدًا تَجِيفُنِي وَتَدُفِّرُ هذا . فَلَمَّا أَتاهُ من القَد ، قال له الإخشيدُ : قد فَكَّرْتُ فيما قُلْتَ ، فإذا أَصْحابُ الرِّوايِبِ ضُعْفاءُ وفيهم المُشْتَررون وأَبْناءُ النُّعَمِ ، وَلَسْتُ آخُذُ هذا النُّقْصَ إِلَّا مِنْكَ ؛ فقال ابن كَلا : سُبْحانَ الله ! فقال : تَنسِيحًا ! وما زال به الإخشيدُ حَتَّى أَخَذَ حَظَّةً بالقيامِ بِذلك .

فَقَوَّيْتُ على ما صَنَعَهُ ، فقال : يا قَوْمَ اسْمَعُوا إِيش كان يَعْمَلُ جَاهُ أحمد بن محمد بن الماذرائي ، فقال له : ما بَيْنِي وبين السُّلطانِ مُعامَلَةٌ ، ولا لِلإخشيدِ عَلَيَّ طَرِيقٌ ، وهذه هَدِيَّةٌ عشرة

(٩) زيادة من ابن خرداذبة .

آلاف دينار للإخشيد، وألف دينار لك. فجاءني وقال: لك قبل ابن الماذرائي مطالبة؟ فقلت: لا، فقال: هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء، فأعطني ألفًا وأخذ عشرة آلاف دينار.

وأهذى إلي محمد بن علي الماذرائي في وقت عشرين ألف دينار على يده، فاشتققتها. فلما اجتمعنا عاتبته، فقال لي: أُرْسَلْتُ إليك مائة ألف دينار، ولابن كلاً كاتيك عشرين ألف دينار، فأخذ المائة وأعطاني العشرين ألفًا. قد كُتِرَ قول محمد بن علي له، فقال: ما أُرِدَ هذا! خُفِظَتْ لك المائة ألف لوقت حاجتك، تُريدها؟ خُذْهَا وأنا أعلم أنك تُؤَلِّفُهَا! وَبَلَّغْتَ الرَوَائِبَ فِي أَهْلِ كَافُورِ الإخشيدي خمس مائة ألف دينار في السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس، ليس فيهم أحدٌ من الجيش ولا من الحاشية ولا من المُتَصَرِّفين في الأعمال، فحسَنَ له علي بن صالح الرودباري الكاتب أن يُؤَفَّرَ من مالِ الرَوَائِبِ شيئاً ينتقصه من أوزاق الناس. فساعةً يجلس بعمل ذلك، حَكَّهُ جَبِينُهُ فَحَكَّهُ بِقَلَمِهِ، والحِكَاكُ يزيد به، إلى أن قَطَعَ العَمَلُ وَقَامَ لِمَا بِهِ، فعولج حينئذٍ بالحديد حتى مات في رَمَضَانَ سنة تسع^(a) وأربعين وثلاث مائة.

وهذه مَوْعِظَةٌ من الله لمن تَوَسَّطَ للناس بالشر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [الآية ٤٣ سورة فاطر].

ولما مات كافر، نَزَلَتْ مِحْنٌ شَدِيدَةٌ كَثِيرَةٌ بِمَصْرَ مِنَ الْعَلَاءِ وَالْفَنَاءِ وَالْفِتَنِ، فَاتَّصَعَ خَرَايِجُهَا إِلَى أَنْ قَدِمَ جَوْهَرُ الْقَائِدِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِعَسَاكِرِ مَوْلَاهُ الْمُعِزِّ لَدَيْنَ اللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدَّ، فَجَبَنَى الْخَرَايِجَ لِسَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ: ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ^(b) وَمِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ جَبَاهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ثَلَاثَةَ آلَافِ أَلْفٍ^(c) وَأَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَنِيفًا.

وَأَمَرَ الْوَزِيرُ الثَّائِبُ لِلدِّينِ أَبُو [مُحَمَّدٍ]^(d) الْحَسَنَ [بْنِ عَلِيٍّ بِنِ]^(e) عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْيَازُورِيَّ، وَزِدَ مَصْرَ فِي خِلَافَةِ الْمُشْتَصِرِ بِاللَّهِ بْنِ الظَّاهِرِ، أَنْ يُعْمَلَ قَدْرُ ارْتِفَاعِ الدَّوْلَةِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ النِّفَقَاتِ، فَعَمِلَ أَرْبَابُ كُلِّ دِيْوَانٍ ارْتِفَاعَهُ وَمَا عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ الْجَمِيعَ لِمَتَوَلَّى دِيْوَانَ الْمَجْلِسِ وَهُوَ زِمَامُ الدَّوَالِينِ، فَتَقَطَّمَ عَلَيْهِ عَمَلًا جَامِعًا وَأَتَاهُ بِهِ، فَوُجِدَ ارْتِفَاعُ الدَّوْلَةِ أَلْفِي أَلْفِ دِينَارٍ: مِنْهَا الشَّامُ أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ، وَنِفَقَاتُهُ بِإِزَاءِ ارْتِفَاعِهِ وَالرَّيْفِ وَبَاقِي الدَّوْلَةِ أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ^١.

(a) بولاق: سبع. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) زيادة اقتضاها السياق.

- وقال القاضي أبو الحسن^١ في كتاب «المنهاج في علم الخراج»: وَقَفْتُ عَلَى مُقَابِلَةِ عُمِلَتْ لِأَمِيرِ الْجُيُوشِ بَذَرِ الْجَمَالِي، حِينَ قَدِمَ مِصْرَ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصَرِ وَعَلَبَ عَلَى أَمْرِهَا وَقَهَرَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُفْسِدِينَ، شَرَحَ فِيهَا أَنَّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الِازْتِفَاعُ فِي الْهِلَالِيِّ لِسَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ، وَفِي الْخَرَاجِيِّ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الدِّيُونُ فِيهِ - مِمَّا كَانَ جَارِيًا فِي الْأَعْمَالِ الْمِصْرِيَّةِ مِنَ الْخَرَاجِ وَمَا يَجْرِي مَعَهُ، وَالْمُضْمُونَ وَالْمُقَطَّعَ وَالْمُؤَوَّدَ بغيره، وَالْمَحْلُولَ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَضَوَاحِيهَا وَنَاجِيَتِي الشَّرْقِيَّةِ وَالغَرْبِيَّةِ، مِنْ أَشْفَلِ الْأَرْضِ وَأَعْمَالِهَا وَيَتْلِسَ وَدُمِيَاطٍ وَأَعْمَالِهَا وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْبَحِيرَةَ وَالْأَعْمَالِ الصُّعَيْدِيَّةِ الْعَالِيَةِ وَالذَّانِيَّةِ وَوَاخَاتِ وَعَيْلِدَابَ، لِسَنَةِ ثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ عَلَى الرُّسُومِ الْمِصْرِيَّةِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّامِيَّةِ الَّتِي أَوَّلُهَا مِنْ حَدِّ الشَّجَرَتَيْنِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَعْمَالِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الطَّرَابُلُسِيَّةِ، وَلِسَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ - عَلَى مَا اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ: عَيْنًا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ؛ وَأَنَّ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ جُمْلَةُ مَا كَانَ يُسْتَأْذَى فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْهِلَالِيَّةِ، قَبْلَ نَظَرِ أَمِيرِ الْجُيُوشِ، الْمُوَافِقَةُ لِسَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ، فَكَانَ مَبْلَغُهَا أَلْفِي أَلْفٍ وَثَمَانٍ مِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ، وَكَانَ الزَّائِدُ لِلِسَنَةِ الْجُيُوشِيَّةِ عَيْنًا قَبْلَهَا ثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ، مِمَّا أَعْرَبَ عَنْهُ حُسْنُ الْعِمَارَةِ وَشُمُولُ الْعَدْلِ وَكَانَ نَظْمُ هَذِهِ الْمُقَابِلَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ^٢ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ^٣.
- وَذَكَرَ ابْنُ مُيَسَّرٍ أَنَّ الْأَفْضَلَ بْنَ أَمِيرِ الْجُيُوشِ أَمَرَ بِعَمَلِ تَقْدِيرِ اِزْتِفَاعِ دِيَارِ مِصْرَ، فَجَاءَ خَمْسَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِينَارٍ^٤، ثُمَّ تَقَاعَصَتْ إِلَى أَنْ جَبَاهَا الْقَاضِي الْمُؤَقَّقُ أَبُو الْكَرَمِ [مُحَمَّدٌ]^٥ بِنِ مَقْصُومِ الْعَاصِمِيِّ التَّنِيسِيِّ^٦: عَيْنًا خَالِصًا إِلَى يَمَنِ الْمَالِ، بَعْدَ الْمُؤْنِ وَالْكَلْفِ، أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ

(a) ساقطة من بولاق. (b) زيادة اقتضاها السياق.

^١ القاضي السعيد ثقة الفقات ذو الراسين أبو الحسن علي بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبو عمرو عثمان بن يوسف القرشي الشافعي المصري (٥١٢-٥٨٥هـ/ ١١١٨-١١٨٩م) صاحب النظر في ديوان مصر وصاحب كتاب «المنهاج في علم الخراج» أو «المنهاج في أحكام خراج مصر»، وصفه المقرئ بأنه كتاب جليل الفائدة، وموضوعه وصف النظام المالي في مصر في آخر أيام الفاطميين وبداية الدولة الأيوبية وعلى الأخص المكوس التي كانت تحصل في الموانئ

والخراج. (انظر دراسة المصادر في المقدمة).

^٢ المقرئ: المنهاج في أحكام الخراج - ج ٥٦.

^٣ ابن ميسر: أخبار مصر ١٨٤؛ المقرئ: انعاظ الخفا ٧٢:٣ وفيما تقدم ٢٢٢.

^٤ القاضي المؤقَّق أبو الكرم محمد بن مقصوم التنيسي ناظر الدواوين في نهاية الدولة الفاطمية، تولاها في سنة ٥٤٤هـ، وتوفي مقتولاً في شوال سنة ٥٤٤هـ (ابن ميسر: -).

دينار إلى آخر سنة أربعين وخمس مائة. ثم بعده لم يجبها هذه الحياة أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية^١.

وذكر القاضي الفاضل في «مياوماته»: أن عيّر البلاد من إشكندرية إلى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمس مائة، خارجا عن الثغور وأوابب الأموال الديوانية وعدة نواح، أربعة آلاف وست مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفا وتسعة عشر^٢ دينارًا.

وسبب انقضاء خراج مصر - بعد ما بلغ مع الروم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار - أن الملك لم تسمح نفوسهم بما كان يثق في كلفة عمارة الأرض، فإنها تحتاج أن يثق عليها ما بين ربع متحصلها إلى ثلثه.

وآخر ما اعتبر حال أرض مصر، فوجد مدة حرثها ستين يومًا، ومساحة أرضها ألف ألف وثمانين ألف ألف فدان، يزرع منها في مباشرة ابن مذبّر أربعة وعشرون ألف ألف فدان، وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها أربع مائة ألف وثمانون ألف حرث يلزمون العمل فيها دائمًا. فإذا أقيم بها هذا القدر من الثمّال في الأرض، ثمتّ عمارتها، وكمل خراجها.

وآخر ما كان بها مائة ألف وعشرون ألف مزارع: في الصعيد سبعون ألفًا، وفي أسفل الأرض خمسون ألفًا. وقد تغيّر الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة، واختلت اختلالًا فاضحًا.

ذكر أضاف أراضي مصر وأقسام زراعتها

اعلم أن أراضي مصر عدة أصناف: أغلاها يمتة وأوقاها سقرا وأغلاها قطيعة، «الباق»: وهو أثر القرط [والقطاني]^٣ والمقاني، فإنه يصلح لزراعة القمح.

(a) بولاق: وعشرين. (b) إضافة من ابن مماتي.

- أخبار مصر ١٤٣٣ للمقري: للمقري الكبير ٢٧٦:٧ - كتابه لأحكام الأرضين وتفاوت قيمتها ... وتعين مجيدها من رديها ٢٠١-٢٠٤، واحمد عليه أيضًا القلقشندي في صبح الأعشى ٤٤٦:٣-٤٤٨، وانظر كذلك الخزومي: المنهاج في علم خراج مصر ١-١٦ النوري: نهاية الأرب ٢٤٦:٨-٢٥٣.

^١ هذه الفقرة وردت في بولاق بعد الفقرة التالية.

^٢ المصدر الذي احمد عليه المقري في هذا الفصل هو «قوانين الدواوين» لابن مماتي الذي خصص الباب الرابع من

وبعد الباقي «زَيِّ الشَّرَاقِي»: وهو الأَرْضُ التي طَلِمَتْ في الحَالِيَةِ، فَلَمَّا رُوِيََتْ فِي الْآتِيَةِ وصَارَتْ مُسْتَرِيحَةً مِنَ الزُّرْعِ وَزُرِعَتْ، أُنْجَبَ زَرْعُهَا.

و«الْبَرَايِب»^١: وهو أَثَرُ الْقَلْعِ وَالشَّعِيرِ، وَسَعَرُهَا دُونَ الْبَاقِي لَضَعْفِ الْأَرْضِ بِزِرَاعَةِ هَذَيْنِ الصَّنْعَتَيْنِ، فَتَمَّى زُرِعَتْ عَلَى أَثَرِ أَحَدِهِمَا لَمْ يُشْجَبْ كَتَجَابَةِ الْبَاقِي. وَالْبَرَايِبُ صَالِحٌ لِزِرَاعَةِ الْقُرُوطِ وَالْقَطَانِي وَالْمَقَاتِي، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَسْتَرِيحُ بِزِرَاعَةِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، وَتَصِيرُ فِي الْقَابِلِ أَرْضَ بَاقٍ.

و«الْبُقْمَاة»^٢: أَثَرُ الْكَثَّانِ، فَإِنْ زُرِعَتْ قَمَحًا حَسَنًا.

و«الشُّتُونِيَّة»^٣: أَثَرُ مَا رُوِيَ وَبَارَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، وَهُوَ دُونَ الشَّرَاقِي.

و«السَّلَاحِ»^٤: مَا رُوِيَ وَبَارَ فَحُرِّثَ وَتَغَطَّلَ، وَهُوَ مِثْلُ زَيِّ الشَّرَاقِي، فَإِنَّ زَرْعَهُ يَكُونُ نَاجِيًا.

و«النَّقَا»^٥: كُلُّ أَرْضٍ خَلَّتْ مِنْ أَثَرِ مَا زُرِعَ فِيهَا، وَلَمْ يَبْقَ بِهَا شَاغِلٌ عَنْ قَبُولِ مَا يُزْرَعُ فِيهَا مِنْ

أَصْنَافِ الزُّرَاعَاتِ.

و«الْوُشْخ»^٦: كُلُّ أَرْضٍ اسْتَحْكَمَ وَشَحَّهَا، وَلَمْ يَقْدِرِ الزَّارِعُونَ عَلَى إِزَاحَتِهِ كُلِّهِ مِنْهَا، بَلْ حَزَنُوا وَزَرَعُوا فِيهَا فَجَاءَ زَرْعُهَا مُخْتَلِطًا بِالْخَلْفَاءِ وَنَحْوِهَا.

و«الْغَالِب»^٧: كُلُّ أَرْضٍ حَصَلَ فِيهَا ثَبَاتٌ شَغَلَهَا عَنْ قَبُولِ الزُّرَاعَةِ، وَمَنَعَ كَثْرَتَهُ مِنْ زِرَاعَتِهَا

وَصَارَتْ مَرَاعِي.

و«الْخَرَس»^٨: كُلُّ أَرْضٍ فَسَدَتْ بِمَا اسْتَحْكَمَ فِيهَا مِنْ مَوَانِعِ قَبُولِ الزُّرْعِ وَكَانَتْ بِهَا مَرَايِعٌ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْوُشْخِ الْغَالِبِ، وَإِذَا أُذْمِنَ عَلَى إِزَالَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَوَانِعِ تَهَيَّأَ صِلَاحُهَا.

و«الشَّرَاقِي»^٩: كُلُّ أَرْضٍ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا الْمَاءُ، إِمَّا لِقُصُورِ مَاءِ الثَّلِيلِ أَوْ غُلُوقِ الْأَرْضِ، أَوْ سَدِّ طَرِيقِ

الْمَاءِ عَنْهَا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

^١ عند الخزومي وابن ممتي والقلقشندي: البروية
وأضاف القلقشندي: «وأهل زماننا يقولون البرايِب» وهو

المصطلح الذي استخدمه القريري.

^٢ كذا ضبطها القلقشندي: بضم الباء الموحدة وسكون
القاف.

^٣ أضاف القلقشندي: وأهل زماننا يقولون الشتاني،
وكذا ذكره الخزومي.

^٤ عند الخزومي وابن ممتي والقلقشندي: شق شمس
السلاح.

^٥ عند ابن ممتي والقلقشندي: البرش النقا.

^٦ عند ابن ممتي والقلقشندي: الوسخ المدرع
(للزروع).

^٧ عند ابن ممتي والقلقشندي: الوسخ الغالب.

/«المُسْتَجِر»: كلُّ أرضٍ وطِيقَةٍ حَصَلَ بها الماء ولم يجد مَضْرَفًا ، حتى فأتَ أَرَانُ الزَّرْع وهو باقٍ في الأرض .

و«السَّابَح»: كلُّ أرضٍ غَلَبَ عليها المَلَح حتى صَلَحَتْ ولم يُسْتَفْعَ بها في زِراعة الحُبوب ، وربما زُرِعت - ما لم يَسْتَحْكَمْ السَّابَح فيها - غير الحبوب كَالِهَلْيُون والباذِنَجان ، ويُزْرَع فيها القَصَبُ الفارسي .

ومَّا لَا يَغْنَى لأَرْضِي مصر عنه «الجُسُور» ، وهي على قِسْمَيْن : سُلْطَانِيَّة ، وَبَلَدِيَّة ، فـ «الجُسُور السُلْطَانِيَّة» هي لعامة التُّعَم في جِفظ التِّل على البلاد كافة إلى حين مُسْتَقْنَى عنه ، ولها رُسُومٌ مُوَظَّفَةٌ على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية ، وكانت في القديم تُعَمَّل من أموال الثَّوَّاحِي ، ويتولَّى عملها مُسْتَقْبِلُو الأَرْضِي ، ويُعْتَد لهم بما ضَرِفَ عليها مَّا عليهم من قَبالات الأَرْضِي ، ثم صارَ بعد ذلك يُسْتَخْرَج ، بِرِشْم عملها من هذين العاملين ، مَالٌ بأيدي المُسْتَحْدَمِينَ من الدُّيُون ويُضَرَف عليها ، ويُفَضَّل من المَالِ بَقِيَّةٌ تَحْمَلُ إلى بيت المَالِ^١ . ثم صارَ يتولَّى ذلك أَغْيَانُ أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ إلى أن حَدَثَتِ الحَوَادِثُ في أَيَّامِ النَّاصِرِ فَوَجَّ ، فَصَارَ يُجْعَى من البلاد مَالٌ عَظِيمٌ ولا يُضَرَفُ منه شيءٌ أَبَدًا ، بل يُزْعَق إلى السُّلْطَان ، وَيَتَفَرَّقُ كَثِيرٌ منه بأيدي الأَعْوَان ، وَيُسَخَّرُ أَهْلُ البلاد في عمل الجُسُور ، فيجِيءُ الخَلَلُ كما سَتَقِفُ عليه إن شاء الله تعالى عند ذِكر أسباب الخَرَابِ .

وأما «الجُسُورُ الْبَلَدِيَّة» فَإِنَّهَا عِمَارَةٌ عَمَّا يَخُصُّ نَفْعَهَا نَاحِيَةً دُونَ نَاحِيَةٍ ، ويتولَّى إِقَامَتَهَا الْمُقَطَّعُونَ وَالْفَلَّاحُونَ من أَصْلِ مَالِ النَاحِيَةِ .

ومحلُّ الجُسُور السُلْطَانِيَّة من الشَّوْرِ محلُّ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّذِي يَتَعَمَّن على السُّلْطَانِ الْإِفْتِمَامَ بِعِمَارَتِهِ وَكَفَايَةِ الرِّعِيَةِ أَمْرَهُ . ومحلُّ الجُسُور الْبَلَدِيَّةِ مَحَلُّ الدُّورِ الَّتِي مِنْ دَاخِلِ الشُّورِ ، فَيَلْزِمُ صَاحِبُ كُلِّ دَارٍ أَنْ يُصْلِحَهَا وَيُزِيلَ ضَرَرَهَا .

ومن الْعَادَةِ أَنَّ الْمُقَطَّعَ إِذَا انْفَضَلَ - وَكَانَ قَدْ أَتَّفَقَ شَيْقًا مِنْ مَالِ إِقْطَاعِهِ فِي إِقَامَةِ جِسْرِ لِأَجْلِ عِمَارَةِ السَّنَةِ الَّتِي انْتَقَلَ الْإِقْطَاعُ عَنْهَا فِيهَا - فَإِنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنَ الْمُقَطَّعِ الثَّانِي تَطْيِيرَ مَا أَتَّفَقَ مِنْ مَالِ سَنَتِهِ فِي عِمَارَةِ سَنَةِ غَيْرِهِ^٢ .

وَأَصْلَحَ مَا زُرِعَ «الْقَنْع» فِي آثَرِ الْبَاقِ وَالشَّرَاقِي ، وَكَانَ يُزْرَعُ بِالصُّعِيدِ الْقَنْعُ عَلَى آثَرِ الْقَنْعِ لِكثَرَةِ الطَّرَحِ ، وَرُبَّمَا زُرِعَ هُنَاكَ عَلَى آثَرِ الْكُثَّانِ وَالشُّعِيرِ . وَيُزْرَعُ الْقَنْعُ مِنْ نِصْفِ شَهْرِ بَاهَةِ إِلَى

^٢ نَقْلًا عَنْ ابْنِ مَمَاتِي : قَوَانِينُ الدَّوَابِين ٢٣٢ - ٢٣٣ .

^١ نَقْلًا عَنْ ابْنِ مَمَاتِي : قَوَانِينُ الدَّوَابِين ٢٣٢ .

آخر هاتور، وهذا في العوالي من الأرض التي تَخْرُجُ بَلَرِيًّا، وأما البحائر المتأخّرة فيمتدّ وَقْتُ الزَّرْع فيها إلى آخر شهر^(١) كييهك .

ومِقْدَارُ ما يَحْتَاجُ إليه القَدَانُ الواجد من بَذْرِ القَمْحِ يختلف بحسَبِ قُوَّةِ الأرض وضَعْفِها وِرْقَتِها وتَوَشُّعِها، وما يُزْرَعُ في التَّلْوِيْقِ^(٢) وما يُزْرَعُ في الحَرَاثِ، وأكثر البَذْرِ من أُرْدَبٍ إلى خمس وُنَيَاتٍ وأُزْبَعٍ وُنَيَاتٍ أيضًا، ويوجد في الصَّعِيدِ أَرْضِي تَحْتَمِلُ دُونَ هذا، وفي حَوْفِ رَمْسِيسِ أَرْضِي يَكْفِي القَدَانُ منها نحو الوَيْتَيْنِ .

ويُدْرِكُ الزَّرْعُ بِمِصْرَ في تَشْنَسِ (وهو نيسان) . ويختلف ما يَخْرُجُ عن قَدَانِ القَمْحِ بحسَبِ الأَرْضِي، فيرمي من إِرْدَتَيْنِ إلى عَشْرِينَ إِرْدَبًا^١ .

وقال أبو بكر بن وَحْشِيَّةٍ في كتاب «الفلاحة النبطية» : وَذَكَرَ أَنَّ في مِصْرَ إِذَا زَرَعُوا يَخْرُجُ مِنَ المُدِّ ثَلَاثَ مِائَةِ مُدٍّ . والعِلَّةُ في ذلك حَرَارَةُ هَوَاءِ بِلَادِهِمْ ، مع سَعْنِ أَرْضِهِمْ وَكَثْرَةِ لُدُودَةٍ^(٣) ماء الثَّيْلِ^٢ .

ولمَّا كَانَ في سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، انْحَسَرَ المَاءُ عَنْ قِطْعَةٍ أَرْضِي مِنْ يَزْكَةِ القَيُومِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا اليَوْمَ : بَحْرُ يُوْسُفَ ، فَزُرِعَتْ وَجَاءَ زَرْعُهَا عَجِيئًا رَمَى القَدَانُ مِنْهَا أَحَدًا وَسَبْعِينَ أُرْدَبًا مِنْ شَعِيرِ بَكِيلِ القَيُومِ ، وَأَزْدَتِهَا تِسْعَ وُنَيَاتٍ .

وَكَانَتْ قِطْعَةُ القَدَانِ القَمْحِ بِلَادِ الصَّعِيدِ ، فِي الأَيَّامِ الفَاطِمِيَّةِ ، ثَلَاثَةَ أَرَادِبٍ ، فَلَمَّا مُسِيحَتْ البِلَادُ ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ، تَقَرَّرَ عَلَى كُلِّ قَدَانٍ إِرْدَبَانِ وَنِصْفٍ ، ثُمَّ صَارَ يُؤْخَذُ إِرْدَبَانٌ مِنَ القَدَانِ . وَأَمَّا أَرْضِي أَشْقَلِ الأَرْضِ فَيُؤْخَذُ عَنْهَا عَيْنٌ لَا غَلَّةَ .

وَيُزْرَعُ «الشَّعِيرُ» فِي أَثَرِ القَمْحِ وَغَيْرِهِ فِي الأَرْضِ الَّتِي غُرِقَتْ وَهِيَ رَطْبَةٌ ، وَتَتَقَدَّمُ زِرَاعَتُهُ عَلَى زِرَاعَةِ القَمْحِ بِأَيَّامٍ ، وَكَذَلِكَ حِصَادُهُ فَإِنَّهُ يُحْصَدُ قَبْلَ القَمْحِ . وَيَحْتَاجُ القَدَانُ مِنْهُ أَنْ يُبَذَّرَ فِيهِ بِحَسَبِ الأَرْضِ ، وَيَخْرُجُ أَكْثَرُ مِنَ القَمْحِ ، وَيَكُونُ إِدْرَاكُهُ فِي بَرْمُودَةٍ (وهو آذار ونيسان)^٣ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : اللوق . (c) بولاق : كلورة .

^١ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٥٨-٢٥٩ ، ولارن
^٢ ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١ : ٢١٨ .
^٣ نقلًا عن ابن مماتي : قوانين ١٢٥٩ ، وقارن الخزومي : المنهاج ٢ .

ويُزْرَعُ «القول» في الحَرْث إثر البرايب من أول شهر بابة، ويؤكل وهو أخضر في شهر كيهك. ويحتاج القدان من البذر منه إلى ثلاث وثلاثون ونحوها، ويذكر في برمودة، ويحصل من قدانه ما بين عشرين لإدبًا إلى ما دون ذلك^١.

ويُزْرَعُ «القدس» و«الحمص» من شهر هاتور إلى كيهك. و«الجلبان» لا يُزْرَعُ إلا في أرق الأراضي حرقًا من الأرض العالية، ويُزْرَعُ تلويقًا في الأراضي الخرس. ويُنْثَرُ في كل قدان من الحمص من أودب إلى ثمان وثلاث، ومن الجلبان من أودب إلى أربع وثلاث، ومن القدس من أربعين إلى ما دونهما. وتذكر هذه الأصناف في برمودة. ويحصل من قدان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة، ومن الجلبان من عشرة أرادب إلى ما دونها، والقدس من عشرين لإدبًا إلى ما دونها^٢.

وأنجب ما يكون «الكثان» إذا زرع في البرش^٣، ويحتاج أن يُسَبَّخ بِثَرَابِ سَبَّخ، وهو إذا طال رقد، ويُقْلَعُ قُضْبَانًا وَيُسَمَّى حَيْثُ أَشْلَقًا، وَيُنْثَرُ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى يَجِفَّ، فَإِذَا جَفَّ حُمِلَ وَهُلِبَ وَغَزِلَ جَوْزُهُ، فَيُخْرَجُ مِنْهُ يَزْرُ الكَثان، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الزَيْتُ/الجار. ويُزْرَعُ الكَثان في شهر هاتور، ويحتاج القدان أن يُنْثَرُ فِيهِ مِنَ الْبِزْرِ مَا بَيْنَ أَوْدَبٍ وَثَلْثٍ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ، وَيُذْرَكُ فِي شَهْرِ بَرْمُودَةِ، وَيُخْرَجُ مِنَ الْقَدَانِ مَا بَيْنَ ثَلَاثِينَ شِدَّةً إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ، وَمَنِ الْبِزْرُ مِنْ سِتَّةِ أَرَادَبٍ إِلَى مَا دُونِهَا. وَكَانَتْ قَطِيعَةُ الْقَدَانِ مِنْهُ فِي الْقَدِيمِ: بِأَرْضِ الصَّعِيدِ مِنْ خَمْسَةِ دَنَانِيرَ إِلَى ثَلَاثَةِ، وَفِي دِلَاصٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دِنَارًا، وَفِيهَا عَدَا ذَلِكَ ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ^٤.

ويُزْرَعُ «القرط» عند أخذ ماء الثبل في التَّغَصَّان، وَلَا يَنْبَغِي تَأْخِيرُ زَرْعِهِ إِلَى أَوَانِ هُجُوبِ الرِّيحِ الجنوبيَّةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: الْمَرْيِسِيَّةُ، وَأَوَّلُ مَا يُنْثَرُ فِي شَهْرِ بَابَةِ، وَبِمَا زُرِعَ بَعْدَ الثَّوَرُوزِ. وَالْحَرَاثِي مِنْهُ يُزْرَعُ فِي كَيْهَكَ وَطُوبَةِ، وَيُزْرَعُ أَحْبَانًا فِي هَاتُور، وَيُنْثَرُ فِي كُلِّ قَدَانٍ مِنْ وَثَيْتَيْنِ وَنِصْفٍ إِلَى مَا حَوْلَهَا، وَيُذْرَكُ الْأَخْضَرُ مِنْهُ فِي آخِرِ شَهْرِ كَيْهَكَ، وَيُذْرَكُ الْحَرَاثِي فِي طُوبَةِ وَأَمْشِيرَ، وَيُحْصَلُ مِنَ الْقَدَانِ الْحَرَاثِي مَا بَيْنَ أَوْدَيْتَيْنِ إِلَى أَرْبَعٍ وَثَلَاثٍ^٥.

^١ ابن ممتي: قوانين الدواوين ٢٦٠، وقارن الخزومي: البرش هو أثر المقات والسسم والقطن. (الخرومي: المنهاج ١).

^٢ المنهاج ٢. ابن ممتي: قوانين ٢٦٠-٢٦١، وقارن الخزومي: نفسه ٢٦٢-٢٦٣، وقارن الخزومي: المنهاج ٢-٣.

^٣ ابن ممتي: قوانين ٢٦٠-٢٦١، وقارن الخزومي: المنهاج ٣.

^٤ نفسه ٢٦٢-٢٦٣، وقارن الخزومي: المنهاج ٢-٣.

ويُزْرَع «البَصَل والثوم» من شهر هاتور إلى نصف كيهك . ويُتَلَر في قَدَان البَصَل من نصف ورنع وثمة إلى وثية ، والثوم من مائة جزمة إلى مائة وخمسين جزمة ، ويُتَلَر ذلك في برمودة . والبَصَل الذي يُخْرَج لِيزْرَع زريعة ، فإنه يُزْرَع من أول كيهك إلى العاشر من طوبة ، ويُخْرَج من زريقته عشرة أرايب من القَدَان ، ويُتَلَر في بَشْنَس^١ .

ويُزْرَع «الثومس» في طوبة ، وزريقته لكل قَدَان أَرْدَب ، ويُتَلَر في برمودة ، ويُتَحْصَل من القَدَان ما بين عشرين أَرْدَبًا إلى ما دونها^٢ .

وأما الأصناف الصيفيّة : فإنَّ البَطِيخ واللُّبْيَا يُزْرَعَان من نصف برمهات إلى نصف برمودة ، ويُزْرَع في القَدَان قَدَحَان ، ويُتَلَر في بَشْنَس^٣ .

ويُزْرَع السَّمِيسِم في برمودة ، وزريقته رُبْع وثية للقَدَان ، ويُتَلَر في أيّيب ومشرى ، ويُتَحْصَل من القَدَان ما بين أَرْدَب إلى ستة أرايب^٤ .

ويُزْرَع القُطْن في برمودة ، وزريقته أَرْبَع وثبات حَب للقَدَان ، ويُتَلَر في ثوت ، فيُخْرَج من القَدَان من ثمانية قناطير بالجزوي إلى ما دونها^٥ .

ويُزْرَع قَصَبُ الشُّكْرِ من نصف برمهات في أثر الباق والبرش ، وتُبرَش أرضه سبع ميسك [خوفاً وثنية وتليثاً وتوريتاً وتعديلاً وتخطيطاً وتقطيعاً]^٦ ، وأنجبه ما تكامل له ثلاث عزقات قبل انقضاء شهر بَشْنَس ، ومقدار زريقته ثمن قَدَان وما يحوله لكل قَدَان^٧ . ويحتاج القَصَب إلى أرض جيّدة دميّة ، قد سَمِلها الرّي وعلاها ماء الثيل ، وقُلْع ما بها من الحلفاء ونُظِفَتْ ، ثم بُرِشَتْ بالمقلّقات (وهي محارث كبار) ستة وجوه وتُجَرَف حتى تَتَمَهَّد ، ثم تُبرَش ستة وجوه أخرى وتُجَرَف . ومعنى البرش : الحوْث .

فإذا صَلَحَت الأرض وطابت ونعمت وصارت ثراباً ناعماً وتساوت بالشجرى ، شُقَّت حيثما بالمقلّقات ، ويُزَمَى فيها القَصَب قطعتين : قِطْعَةً مُتَنَاءَةً وقِطْعَةً مُفَرَّدَةً ، بعد أن تُجْعَلَ الأرض

(٥) إضافة من الجزوي وابن عماتي .

^١ ابن عماتي : قوانين الدواوين ٢٦٣ .

^٢ نفسه ٢٦٤ .

^٣ نفسه ٢٦٥ .

^٤ نفسه ٢٦٥ .

^٥ نفسه ٢٦٥-٢٦٦ .

^٦ نفسه ٢٦٦ ؛ وقارن الجزوي : المنهاج ١٤ وانظر فيما

يلي الشهور القبطية ٧٣٠-٧٣٩ .

أخوَصًا وتُفَرِّز لها جداول يصل الماء منها إلى الأخواض ، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوايل وبعض أنبويه من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها ، ويُخْتَار ما قَصُرَتْ أنابيبه وكثُرَتْ كُحُوبه من القصب ، ويُقال لهذا الفعل : النَّصَب .

فإذا كُثِلَ نَصَبُ الْقَصَبِ أُعِيدَ الثَّرَابُ عَلَيْهِ ، ولا بُدَّ في النَّصَب أن تكون القطعة مُلَقَاة لا قَائِمَةً ، ثم يُشَقَّى - من حين نَصَبه في أول فصل الربيع - لكل سبعة أيام مرة .

فإذا نَبَتَ الْقَصَبُ وَصَارَ أُرَاقًا ظَاهِرَةً ، نَبَتَتْ معه الحَلَفَاءُ وَالْبَقْلَةُ الْحَقَقَاءُ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ مِصْرَ الرَّجَلَةَ ، فعند ذلك تُفَرَّقُ أَرْضُهُ (ومعنى العِزَاقُ أَنْ تُنْكَشَ أَرْضُ الْقَصَبِ) وَيُتَطَلَّفُ مَا نَبَتَ مَعَ الْقَصَبِ .

ولا يزال يُتَعَاهَدُ ذَلِكَ حَتَّى يَنْغُزُوا الْقَصَبَ وَيَقْوَى وَيَكْتَاثَفَ ، فيقال عند ذلك : طَرَدَ الْقَصَبَ عِزَاقَهُ ، فإنه لا يمكن عِزَاقُ الْأَرْضِ ولا يكون هذا ، حَتَّى يَبْزُزَ الْأَنْبُوبُ مِنْهُ .

وَمَجْمُوعُ مَا يُشَقَّى بِالْقَادُوسِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَاءً . وَالْعَادَةُ أَنَّ الَّذِي يُنْصَبُ مِنَ الْأَقْصَابِ عَلَى كُلِّ مَجَالٍ بَحْرَانِي ، أَيْ مُجَاوِرٌ لِلْبَحْرِ - إِذَا كَانَتْ مَزَاحَةُ الْعَلَّةِ بِالْإِثْقَارِ الْحِيَادِ مَعَ قُرْبِ رِشَاءِ الْآبَارِ - ثَمَانِيَةٌ أَفْدِيَةٌ ، وَيَخْتِاجُ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَرْؤُسَ بَقَرٍ ، فَإِنْ كَانَتْ الْآبَارُ بَعِيدَةً عَنْ مَجْزَى النَّيْلِ لَا يُمْكِنُ حِينَئِذٍ أَنْ يَقُومَ الْمَجَالُ بِأَكْثَرِ مِنْ سِتَّةِ أَفْدِيَةٍ إِلَى أَرْبَعَةٍ .

فإذا طَلَعَ النَّيْلُ وَارْتَفَعَ ، سَقَى الْقَصَبَ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءَ الرِّوَاخَةِ ؛ وَصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ يُقَطَّعَ عَلَيْهِ مِنْ جَانِبٍ جَنْبٍ يَكُونُ قَدْ أَدِيرَ عَلَيْهِ لِيَقِيَهُ مِنَ الْفَرْقِ عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّيْلِ بِالزِّيَادَةِ ، فَيَدْخُلُ الْمَاءُ مِنْ ثَلَاثَةِ فِي ذَلِكَ الْجَنْبِ حَتَّى يَمْلَأَ عَلَى أَرْضِ الْقَصَبِ نَحْوَ شِبْرِ ، ثُمَّ يُسَدَّدُ عَنْهُ الْمَاءُ حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَيْهِ ، وَيُتْرَكُ الْمَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ قَدْرَ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ إِلَى أَنْ يَسْجَنَ ، ثُمَّ يُصْرَفُ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ حَتَّى يُنْصَبَ كُلُّهُ ، وَيُجَدَّدُ عَلَيْهِ مَاءٌ آخَرُ كَذَلِكَ ، فَيَتَعَاهَدُ مَا ذَكَرْنَا مِرَارًا فِي أَيَّامٍ مُتَفَرِّقَةٍ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ، ثُمَّ يُقَطَّعُ بَعْدَ ذَلِكَ .

فإذا عَمِلَ مَا قُلْنَاهُ وَفَى الْقَصَبُ حَقَّهُ ، فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ حَصَلَ فِيهِ الْخَلَلُ . وَلَا بُدَّ لِلْقَصَبِ مِنَ الْقَطْرَانِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ حَتَّى لَا يُسْوَسَ . وَيُكْسَرُ الْقَصَبُ فِي كَيْفِيَّتِهِ . وَلَا يَدُ مِنْ خَزَقِ آثَارِ الْقَصَبِ بِالْثَّارِ ، ثُمَّ سَقِيَهُ وَعَزَّيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَيُنَبِّتَ قَصَبًا يُقَالُ لَهُ : الْحِلْفَةُ ، وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ الرَّأْسَ ، وَقِنْدُ الْحِلْفَةِ أَجُودٌ غَالِيًا مِنْ قِنْدِ الرَّأْسِ . وَوَقْتُ إِدْرَاكِ الرَّأْسِ فِي طُوبَى ، وَالْحِلْفَةُ فِي نِصْفِ هَاتُورِ . وَغَايَةُ إِدَارَةِ مَعَاصِرِ الْقَصَبِ إِلَى الثَّوَرِوزِ . وَيَحْصُلُ مِنَ الْقِدْدَانِ مَا يَبْنِي / أَرْبَعِينَ أَبْلُوجَةً قَدِ إِلَى ثَمَانِينَ أَبْلُوجَةً ، وَالْأَبْلُوجَةُ تَسْعُ قِنطَارًا فَمَا حَوْلَهُ .

- ويُزْرَع القُلُقاس مع القَصَب ، ولكلِّ فدانٍ عشرة قَنَاطِير قُلُقاس جَزْوِيَّة . ويُدْرَك في هاتور ^١ .
ويُزْرَع الباذِنْجَان في بَرْمَهَات وَيَرْمُودَة وَبَشْنَس وَبُتُونَة ، ويُدْرَك من بُتُونَة إلى مِشْرَى ^٢ . وَيُزْرَع الثَّيْلَة
من بَشْنَس ، والزَّرْبَعَة للفدان وَبَيْتَة ، ويُدْرَك من أَيْب ^٣ . وَيُزْرَع الفِجْلُ طول السَّتَّة ، وزَّرْبَعَة الفدان
من قَدَح واحد إلى قَدَحَيْن ^٤ . وَيُزْرَع اللُّقْث في أَيْب ، وزَّرْبَعَة الفدان قَدَح واحد ، ويُدْرَك بعد
أربعين يوماً ^٥ . وَيُزْرَع الحَلْس في طُوبَة شتلاً ، ويؤْكَل بعد شهرين ^٦ . وَيُزْرَع الكُرْنُب في ثَوْت
شتلاً ، ويُدْرَك في هاتور ^٧ . وَيُغْرَس الكَرْم في أَمَشِير ، ثَقْلًا وَنَحْوِيلاً . وَيُغْرَس الثَّيْن والثَّقَاخ في
أَمَشِير . وَيَقْلَم الثَّوْت في بَرْمَهَات وَيُغْرَس . وَيُيْل اللُّوزُ والحُرُوح والمِشْمِش في ماء طُوبَة ثلاثة أيام -
وهي قُضْبَان - ثم يُغْرَس ، ويُحَوَّل سَجَرُهَا في طُوبَة . وَيُزْرَع نَوَى الثَّمَر ، ثم يُتَحَوَّل وَدَيًا ، فَيُنْقَل .
ويُدْفَن بَصْلُ الثَّرَجِس في مِشْرَى . وَيُزْرَع اليَاسْمِين في أَيَّام النَّسِيء وفي أَمَشِير . وَيُزْرَع المَرْسِين في
طُوبَة وَأَمَشِير ، غَرَسًا . وَيُزْرَع الرِّيحَان في بَرْمُودَة . وَيُزْرَع حَبُّ المَشْوَر في أَيَّام الثَّيْل . وَيُزْرَع المَوْزُ
السَّنَوِي في طُوبَة ، والصَّيْفِي في أَمَشِير . وَيُحَوَّل الحَيَّازُ شَتِير في بَرْمَهَات . وَيَقْلَم الكُرْم [في
أَمَشِير] ^٨ على رِيح الشمال ، إلى لَيَالٍ من بَرْمَهَات ، حتى تَخْرُج العَيْنُ منها . وَيَقْلَم الأشْجَارُ في
طُوبَة وَأَمَشِير ، إِلَّا السَّدْر - وهو شَجَر الثَّبَق - فَإِنَّهُ يُقْلَم في بَرْمُودَة ^٩ .
- وَتُنْقَى الأشْجَارُ في طُوبَة ماءً واحدًا ، وَيُسَمُونَهُ ماءَ الحَيَاة . وَتُنْقَى في أَمَشِير ثَانِيًا عند خُرُوج
الرُّهْرِ . وَتُنْقَى في بَرْمَهَات مَاءَيْنِ آخَرَيْنِ إلى أَنْ يَتَعَقِدَ الثَّمَر . وَتُنْقَى في بَشْنَس ثلاث مِيَاه .
وَتُنْقَى في بُتُونَة وَأَيْب وَمِشْرَى ماءً في كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّام . وَتُنْقَى في ثَوْت وَبَابَة مَرَّةً وَاحِدَةً تَقْرِيقًا
من ماءِ الثَّيْل . وَتُنْقَى في هاتور من ماءِ الثَّيْل بِتَغْرِيقِ المَسَاطِب . وَيُنْقَى البَقْل من الكُرْم في
هاتور من ماءِ الثَّيْل مَرَّةً وَاحِدَةً تَقْرِيقًا ^{١٠} .

- وَجَمِيعُ أَرَاظِي مِصْر تُغَاش بالفدان ، وهو عبارة عن أربع مائة قَصَبَة حَاكِمِيَّة طَوَلًا في غَرَض
قَصَبَة وَاحِدَة ، والقَصَبَة سِتَّة أَذْرُع وَثَلَاثَا ذِرَاع بِذِرَاع القُشَاش ، وخمسة أَذْرُع بِذِرَاع التُّجَار تَقْرِيبًا ^{١١} .

(٨) زيادة من ابن عثيمين .

^١ ابن عثيمين : قوانين الدواوين ٢٦٧ . ^٢ نفسه ٢٦٧-٢٦٨ . ^٣ نفسه ٢٦٨ . ^٤ نفسه ٢٦٩ . ^٥ نفسه

٢٦٩ . ^٦ نفسه ٢٦٩-٢٧٠ . ^٧ نفسه ٢٧١ . ^٨ نفسه ٢٧١-٢٧٣ . ^٩ نفسه ٢٧٣ . ^{١٠} النويري : نهاية

وقال القاضي أبو الحسن في كتاب «المنهاج»: خراج مصر قد ضرب على قصبته في المساحة اضطلح عليها، زرع المزارع على محكيها. وتكسر القدان أربع مائة قصبه، لأنه عشرون قصبه طولاً في عشرين قصبه عرضاً. وقصبه المساحة تعرف بالحكيمة، وهي ثقارب خمسة أذرع بالثجاري^١.

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر في زمننا ينقسم قسمين: أحدهما يقال له: «خراجي»، والآخر يقال له: «إهلاقي». فـ «المال الخراجي» ما يؤخذ مسانهة من الأراضي التي تزرع محبوتها وتخلأ وعينها وفاكهة، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرّف الزيف. و«المال الإهلاقي» عدة أبواب، كلها أخذتها ولاية الشوء شيئاً بعد شيء.

وأصل ذلك في الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بلغه أن تجاراً من المسلمين يأتون بأرض الهند^٢ فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة: أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد - يعني أهل الذمة - من كل عشرين درهماً درهمين، ومن تجار الحروب من كل عشرة دراهم درهمين.

وقيل لابن عمر: كان عمر يأخذ من المسلمين العشر؟ قال: لا. ونهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك، وكتب: صعدوا عن الناس هذه المكوس، فليس بالمكس ولكنه النجش. وروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أتاه ناس من أهل الشام، فقالوا: أصبنا دواباً وأتوالاً فخذ منها صدقة تطهرنا بها؟ فقال: كيف أقبل ما لم يفعل من كان قبلي؟ وشاور؟ فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: لا بأس به إن لم تأخذه من بعدك. فأخذ عن العهد عشرة دراهم وكذلك عن الفرس، وعن الهجين ثمانية، وعن اليهود والنصارى خمسة.

وأول من وضع على الخوانيت الخراج في الإسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور في سنة سبع وستين ومائة، وولي ذلك سعيد الجرمي.

(١) بولاق: أرض الهند.

^١ قارن مع ابن نماتي: قوانين ٢٧٩، وهذه الفقرة موجودة في بولاق وغير موجودة في النسخ التي أطلعت عليها.

وَأَوَّلُ مَنْ أَخَذَتْ مَالاً سِوَى مَالِ الْخَرَاجِ بِمِصْرَ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُدَبِّرٍ - لَمَّا وَلِيَ خَرَاجَ مِصْرَ بَعْدَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ - فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ ذُهَابِ النَّاسِ وَشَيْطَانِ الْكُتَّابِ؛ فَابْتَدَعَ فِي مِصْرَ بِذَلِكَ صَارَتْ مُسْتَمْرَّةً مِنْ بَعْدِهِ لَا تُنْقَضُ، فَأَحَاطَ بِالنُّطْرُونِ وَحَجَرَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا كَانَ مُبَاحًا لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَقَرَّرَ عَلَى الْكَلِّ الَّذِي تَزْعَاهُ الْبَهَائِمُ مَالاً سَمَّاهُ «الْمَرَاغِي»، وَقَرَّرَ عَلَى مَا يُطْعِمُ اللَّهُ مِنَ الْبَحْرِ مَالاً وَسَمَّاهُ «الْمَصَائِدَ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَانْقَسَمَ مِنْ حَيْثُ مَالُ مِصْرَ إِلَى «خَرَاجِي» وَ«هَلَالِي»، وَحُفِرَ الْمَالُ الْهَلَالِي لِقَعْدِيدٍ بِ «الْمَرَاغِي وَالْمَعَاوِن» (١) ١٠

فَلَمَّا وَلِيَ الْأَمِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ طُغْلُوغْ إِمَارَةَ مِصْرَ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُغْتَنِدَ عَلَى اللَّهِ/ الْخَرَاجِ وَالشُّغُورِ الشَّامِيَّةِ، رَغِبَ وَتَنَزَّهَ عَلَى أَذْنَانِ الْمَعَاوِنِ وَالْمَرَاغِي، وَكَتَبَ لِإِسْقَاطِهَا فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ، وَكَانَتْ تَبْلُغُ بِمِصْرَ خَاصَّةً مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ؛ وَلَهُ فِي ذَلِكَ خَبِيرٌ فِيهِ أَكْبَرُ مُعْتَبَرٍ، قَدْ ذَكَرْتُهُ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِ الْجَمَاعَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. ١٠

ثُمَّ أُعِيدَتِ الْأَمْوَالُ الْهَلَالِيَّةُ فِي أُنْثَاءِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ عِنْدَمَا ضَعُفَتْ، وَصَارَتْ تُقْرَفُ بِ «الْمُكُوسِ» وَاحِدُهَا مَكْسٌ.

فَلَمَّا اسْتَبَدَّ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّينِ أَبُو الْمُنْظَرِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ بِمَلِكِ مِصْرَ، أَمَرَ بِإِسْقَاطِ مُكُوسِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ، فَكَتَبَ عَنْهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ مَرْسُومًا بِذَلِكَ؛ وَكَانَ بِجُفْلَةٍ ذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، تَفْصِيلُهَا: مَكْسُ الْبَهَارِ وَعِمَالَتُهُ: ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَسِتِّ مِائَةٍ (٢) وَأَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا. مَكْسُ الْبَضَائِعِ وَالْقَوَافِلِ وَعِمَالَتُهَا: تِسْعَةُ أَلْفٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ دِينَارًا. مُنْقَلَتُ الصَّنَاعَةِ، عَنْ مَكْسِ الْبَزْرِ الْوَارِدِ إِلَيْهَا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ وَالْمَرْجَانِ وَالْمَافِضَاتِ: خَمْسَةُ أَلْفٍ وَمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَتِسْعُونَ دِينَارًا. الصَّائِرِ عَنِ الصَّنَاعَةِ بِمِصْرَ: سِتَّةُ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَسِتَّةَ وَسِتُونَ دِينَارًا. سَمْسَرَةُ الثَّقَرِ: ثَلَاثُ مِائَةِ دِينَارٍ. الْفُنْدُقُ بِالْمِثْنَةِ عَنْ مَكْسِ الْبَضَائِعِ: ثَمَانُ مِائَةِ دِينَارٍ وَسِتَّةَ وَخَمْسُونَ دِينَارًا. رُسُومُ دَارِ الْقُلُودِ: ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَمِائَةٍ وَثَمَانِيَةِ دَنَانِيرٍ. رُسُومُ الْحَشَبِ ٢٠ الطُّوْلِيلِ وَالْمِلْحِ: سِتِّ مِائَةٍ وَسِتَّةَ وَسَبْعُونَ دِينَارًا. رُسُومُ الْفَلْتِ [كَذَا] الْمُنْسُوبَةِ إِلَى يَلْبِيسِ

(١) بولاق: وكان الهلالي يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون. (٢) بولاق: ثلاث مائة.

٢ فيما يلي ٢٦٦:٢-٢٦٧.

١ انظر، البُلُوي: سيرة أحمد بن طولون ٧٤-٧٦؛ ابن

٣ انظر عن دار القند، ابن دقماق: الانتصار ٤: ٦.

سعيد: المغرب في حلى المغرب ٨٥-٨٦؛ وفيما يلي ٢٨٩.

والثوري : مائة دينار . رُسُومُ التَّقْتِيشِ بالصَّنَاعَةِ عن البهار وغيره : مائتان وسبعة عشر دينارًا . خَيْجَةِ
أَزْمَتَتْ عن الوارد إليها : سبعة وستون دينارًا . قُتِّدَقُ القُطْنِ : ألفا دينار . شَوْقُ القَتَمِ بالقاهرة
ومصر والسمنسة وعُجُورُ الأغنام بالحيرة : ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر دينارًا .

عُجُورُ الأغنام والكثبان والأهبار بباب القنطرة : ألف ومائتا دينار . واجب ما يرد^(د) من الكثبان
الحطاب إلى الصناعة : مائتا دينار . رُسُومُ واجب الغلات ، كالحبوب الواردة إلى الصناعة والمقس
والثنية والجيشر والتجانين ومغالت جزيرة الذهب وطعموه وسر السرج : ستة آلاف دينار . مكس ما
يُرد إلى الصناعة من الأغنام : ستة وثلاثون دينارًا . الأغنام البيوتية : اثنا عشر دينارًا . القروضة
والسرسناوي بالحيرة ، ومكس الأغنام : مائة وتسعون دينارًا . مُنْقَلَتُ القِيُومِ عَمَّا يرد من الكثبان
من القِبَلَةِ ومن البضائع الواردة من القِيُومِ وغيره : أربعة آلاف ومائة وستون دينارًا . مكس
الوزف^(ب) المطلوب إلى الصناعة ورسم التقتيش : مائتا دينار . الحِفْنَةُ^(ج) بتاجل القلة والأقوات
والرسائل : سبع مائة وثمانية وستون دينارًا . ^(د)فَلَتُ العريف بالصناعة الصادرة مائتا دينارًا^(د) دار
الثقاح والوطب بمصر والقروضة بالقاهرة : ألف وسبع مائة دينار . رَسْمُ ابن المليجي : مائتا دينار .
دار الجبئ : ألف دينار . مُشَارَفَةُ الجزارين^(هـ) : مائتان وأربعون دينارًا . واجب الحلي الوارد من الوجه
البحري والقطن : ألف وعشرون دينارًا .

رَسْمُ سَمْسَرَةِ الصِّفَا : ألف ومائتا دينار . مُنْقَلَتُ الصَّعِيدِ : مائة وأحد وستون دينارًا . خَاتَمُ
الشُّرْبِ والذِّيقي : ألف وخمس مائة دينار . مكس الصوف : مائتا دينار . نصف الموزدة بتاجل
المقس : أربعة عشر دينارًا دِكَّةُ السَّمْسَارِ : ثلاث مائة وخمسون دينارًا . فلت التعريف^(ف) بالصناعة
وحفلة البهار والبضائع : مائتان وستة عشر دينارًا . الحلفاء الواردة من القِبَلَةِ : مائة وخمسة
وثلاثون دينارًا . الوتد^(ز) والشرقية والطعم بدار الثقاح ومُنْقَلَتُ القِبَلَةِ بالتجانين والجيشر : خمسة
وثلاثون دينارًا . رُسُومُ الصفا والحفراء ورُسُومُ دار الكثبان : ستون دينارًا . جِمَامَةُ الغلات بالمقس
ودار الجبئ : مائة وأربعون دينارًا . الحلفاء الواردة على الجيشر ومَعْدِيَةُ المقياس^(ح) : مائة دينار .
خُمُسُ اليونية بالحيرة : عشرون دينارًا . تَلُّ التعريف بالصناعة : ثمانية وعشرون دينارًا . مُنْقَلَتُ
الغلات بِمَعْدِيَةِ جزيرة الذهب : عشرة دنانير .

(a) بولاق : ما ورد . (b) بولاق : الورق . (c) بولاق : الحصنة . (d-d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق :
الخران . (f) بولاق : نفلت العريف . (g) بولاق : الوقد والشرنين . (h) الأصل : أنفاس .

- رُسُومُ الْحَمَامِ بِسَاجِلِ الْفُلَّةِ : خَمْسُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَاجِبُ الْحَيْئَةِ الْوَارِدِ فِي الْبَرِّ ، ثَمَانُ مِائَةٍ دِينَارٍ . وَاجِبُ الْحَلْفَاءِ وَالْقَضَابِ . ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . مَكْسُ مَا يَدُورُ مِنَ الْبِضَائِعِ إِلَى الْمُنْيَةِ : مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ دِينَارًا . مَسْلَخَةُ شَطْنُوفِ الْبَرْيَانِيَّةِ : مِائَتَا دِينَارٍ . سَوَقُ الشُّكْرِيِّينَ : خَمْسُونَ دِينَارًا . رُسُومُ سِيمة^(a) الْجَمَلِيِّ بِالسَّارِيعِ وَشَوْقُ وَزْدَانٍ : تِسْعَةُ عَشَرَ دِينَارًا .
- وَاجِبُ الْفَخْمِ الْوَارِدِ إِلَى الْقَاهِرَةِ : عَشْرَةُ دَنَانِيرٍ . مَقْدَمَةُ الْجَيْشِ بِالْجَيْزَةِ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا . سِيمة^(b) الْبَقَرِيِّ : أَرْبَعُونَ دِينَارًا السَّنِيمة^(c) بِدَارِ الدَّيْبَاغَةِ : تِسْعَةُ عَشَرَ دِينَارًا . سَمْسَرَةُ الْحَبَسِ الْجَيْشِيِّ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَاثْنَا عَشَرَ دِينَارًا . ذِكَاكُ الدَّهْنِ وَمَقْصَرَةُ السَّيْرِجِ وَالْخَلِّ بِالْقَاهِرَةِ : خَمْسُ مِائَةٍ دِينَارٍ . الْخَلُّ الْحَامِضُ وَمَا مَعَهُ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَمْسَةُ دَنَانِيرٍ . يُيُوثُ الْفَزْلِ وَالْمَضْطَبَةِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ دِينَارًا . ذَبَائِحُ الْأَبْقَارِ : أَلْفُ دِينَارٍ . سَوَقُ الشَّمَكِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ : أَلْفٌ وَمِائَتَا دِينَارٍ . رُسُومُ الدَّلَالَةِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سَمْسَرَةُ الْكَتَّانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . رُسُومُ حِمَايَةِ الصَّنَاعَتَيْنِ : أَرْبَعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مُزْبَعَةُ الْعَسَلِ : مِائَتَانِ وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . مَعَادِي بِجَزِيرَةِ الدَّهَبِ وَغَيْرِهَا : ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . خَاتَمُ الشُّنْعِ بِالْقَاهِرَةِ : ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . زَرْيَةُ الدَّيْبِيحَةِ : سَبْعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مَقْدَمَتَا الْمِقْيَاسِ وَالْمِهَابَةِ : مِائَتَا دِينَارٍ . مَحْمُولَةُ السَّلْجَمِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . مَكْسُ دِكَّةِ الدَّيْبَاغِ : ثَمَانُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سَوَقُ الرَّوَقِ : خَمْسُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مَقْعَلُ الطَّبِيرِيِّ / : مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ دِينَارًا . سَوَقُ مَثْبُوبَةٍ : مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . ذَبَائِحُ الضَّأْنِ بِالْجَيْزَةِ وَرُسُومُ سَاجِلِ السَّنُطَةِ : عَشْرَةُ دَنَانِيرٍ . نَعْجُ الشَّمَكِ . خَمْسَةُ دَنَانِيرٍ . تَنْوَرُ الشُّوَيْ : مِائَةٌ دِينَارٍ . نِصْفُ الرُّطْلِ مِنْ مَطَابِخِ الشُّكْرِ : مِائَةٌ وَخَمْسَةُ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . (b) خَاتَمُ الْحِلْيَةِ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا (c) سَوَقُ الدَّوَابِّ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ : أَرْبَعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سَوَقُ الْجِمَالِ : مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ دِينَارًا . قَبَائِنُ الْحَنَاءِ : ثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَاجِبُ طَاقَاتِ الْأَدَمِ : سِتَّةُ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا .
- ٢٠ مُثَقَّلَتِ الْخَنَامِ بِالْقَشَاشِيِّينَ : ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . أَتَوَلَةُ الْقَصَّارِ : أَرْبَعُونَ دِينَارًا . (b) أَقْشَوَانُ الْمَرَائِكِبِ الْمُنَشَّأَةِ وَالْخَضِرِ وَالْحَلْفَاءِ : سِتَّةُ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا (c) . يُيُوثُ الْقَرْوَجِ : ثَلَاثُونَ دِينَارًا . الشُّغَرُ وَالطَّارَاتُ : أَرْبَعَةُ دَنَانِيرٍ . رُسُومُ الْقَصْبِ وَالْحَرِيرِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَزْنُ الْعُفْلُ : مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ دِينَارًا . مَقْعَلُ الْمِيزِزِ : أَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ دِينَارًا . الْفَاخُورِيَّاتُ (c) بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ : مِائَتَانِ وَسِتَّةُ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا .

وذكر ابن أبي طي^١ أن الذي أشقاه السلطان صلاح الدين والذي ساء به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمس مائة، مبتلعه عن نصف ألف ألف دينار وألفي ألف أزدب، ساء بذلك وأبطله من الدواوين وأشقاه عن المعاملين؛ فلما ولي السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، أعاد المكوس وزاد في شناعيتها.

قال القاضي الفاضل في «متجددات» سنة [أربع و] تسعين وخمس مائة: وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة في إظهار المنكرات وتوك الإكثار لها، وإباحة أهل الأمر والنهي لها^(ب)، وتفاخس الأمر فيها، إلى أن غلا بغير العتب لكثرة من يقصره، وأقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن خشب الميزر وأقردت برشبه.

وحُميت بيوت المزر، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما انتهى أمره في كل يوم إلى ستة عشر دينارًا، ومنع المزر البيوت ليتوفر الشراء من البيوت المحيطة، وحملت أواني الخمر على رؤوس الأتهاد وفي الأسواق من غير منكير، وظهر من عاجل عقوبة الله - عز وجل - وقوف زيادة الثيل عن معتادها، وزيادة بغير القلة في وقت ميسورها^٢.

(a) إضافة مما يلي ٥:٢. (b) بولاق: فعلها.

للعالم الإسلامي، ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مسقط رأسه (الصفدي: الوافي بالوفيات (مع. السلمانية رقم ٨٤٢) ورقة ١٥٣٠ ابن شاعر: فوات الوفيات Cahen, Cl., «Une كذلك» dans *Chronique chi'ite au temps des Croisades* dans *Comptes-Rendus des Séances de l'Académie des Inscriptions*, 1935, pp. 258-69; id., *La Syrie du Nord au temps des Croisades*, Damas 1940, p. 715; id., *El³ art. Ibn Abi Tayyī III*, p. 55; السيد الباز العربي: مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٠، ٢٣٤-٢٣٦ محمد حلمي محمد أحمد: مقدمة الروضتين لأبي شامة ٣٠١-٣١).

^٢ انظر فيما يلي ٥:٢.

^١ يحيى بن حميد بن ظافر بن التجار بن علي بن عبد الله الحلبي المعروف بابن أبي طي، مؤرخ شيعي، كان يتبع من نسخ الكتب، وعلى ذلك فإن كثيرا من الكتب التي تنسب إليه من الصعب تحقيق نسبتها، كما أن عناوينها لا تتفق دائما مع ما ينقله عنه المتأخرون، توفي نحو سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م. كانت مؤلفاته مصدرا هائلا لأبي شامة وابن خلكان وابن الفرات والمقريزي، ولا تفتننا النقول الكثيرة الموجودة عندهم على تحديد عناوين كتبه التي نقلوا عنها، ورغم أن الصفدي نسب إليه كتابا في «تاريخ مصر»، إلا أن النقول التي عند ابن خلكان والمقريزي الخاصة بمصر لا تحدد على الإطلاق عنوان كتابه؛ بينما كان ابن الفرات هو الوحيد الذي سجل عنوان كتابه وهو «معادن الذهب في ذكر الملوك والخلفاء وذوي الثقب»، وهو يوحى بأنه من ناحية تاريخ عام

وقال في «مُتَجَدِّدَات» سنة الثنتين وتسعين وخمسة مائة : وآل الأئمة إلى وقوف وظيفة الدار
الغزيرية من حُجْرٍ ولَحْمٍ إلى أن يَتَحَلَّلَ في بعض الأوقات لا كُلُّهَا لبعض ما يَتَبَلَّغُ به من حُجْرٍ ، وَكَثُرَ
صَجِيحُهُمْ وَشُكُوَاهُمْ فلم يسمع وَوَقَفَ الحالُ فيما يُتَّفَقُ في دار السُلْطَانِ ، وفيما يُضَرَفُ إلى
عِيَالِهِ ، وفيما يَتَنَتَّاتُ به أولادُهُ ، وما يُغْضَبُ من أربابه ، وَأَقْضَى هذا إلى غَلَاءِ الأَسْعَارِ ، فَإِنَّ
الْمُتَقَشِّشِينَ من أَرْبَابِ الذُّكَاكِينِ يَرِيدُونَ في أَسْعَارِ المَأْكُولَاتِ العَامَّةِ بِمِقْدَارِ^(٥) ما يُؤْخَذُ مِنْهُمْ لِلدَّارِ
السُّلْطَانِيَّةِ ، فَأَقْضَى ذَلِكَ إلى التَّنَظُّرِ في المِكْآسَبِ الْحَيَافَةِ .

وَصُمِرَ بَابُ^(٦) الْمَزَرِ وَالْحَمَرِ بِأَثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَفُيِّسَ في إظهار مُتَكَرِّرِهِ والإعلان به والبيع
له في القاعات والحوانيت مع قُرْبِ اسْتِهْلَالِ رَجَبٍ ، وما اسْتَقْطَاعَ أَحَدٌ مِنَ الْعَامَّةِ الْإِنْكَارَ لَا بِالْيَدِ
وَلَا بِاللِّسَانِ ، وصَارَ هذا الشَّعْثُ مِمَّا يَتَفَرَّدُ السُّلْطَانُ به لِنَفَقَتِهِ وَطَعَامِهِ ، وَانْتَقَلَ مَالُ الثُّغُورِ وَمَالُ
الْجَوَالِي الْحُلَّ الطُّيْبِ ، إلى أن يَصِيرَ حُوَالَاتٍ لِمَنْ لَا يُيَالِي مِنْ أَتْنِ أَخَذَ الْمَالَ ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَرَامِ
وَالْحَلَالِ^١ .

وفي شَهْرِ رَمَضَانَ غَلَا سِعْرُ الْأَعْنَابِ لِكَثْرَةِ الْعَصِيرِ مِنْهَا ، وَتَظَاهَرَ به أَرْبَابُهُ لَتَعَكِيرِ تَقْصِيمِهِ
السُّلْطَانِي ، وَاسْتِيفَاءِ رَشْمِهِ بِأَيْدِي مُسْتَعْتَدِمِهِ . وَتَبَلَّغَ ضَمَانُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَحَصَلَ مِنْهُ
شَيْءٌ حُمِلَ إِلَيْهِ . فَبَلَغَنِي أَنَّهُ صَنَعَ به آلاتِ الشَّرَابِ ذَهَبِيَّاتٍ وَفِضِّيَّاتٍ .
وَكَثُرَ اجْتِمَاعُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ في شَهْرِ رَمَضَانَ - لَا سِوَا عَلَى الْخَلِيجِ لِمَا فُتِحَ ، وَعَلَى مِصْرَ لِمَا
زَادَ الْمَاءُ ، وَتَلَقَّى فِيهِ الثَّيْلُ بِمَعَايِشِ نِسَاءِ اللَّهِ أَلَا يُؤَاخِذُنَا بِهَا ، وَأَلَا يُعَاقِبُنَا عَلَيْهَا بِجِرَاعَةِ أَهْلِهَا^٢ .
وقال جَامِعُ «السِّيَرَةِ التُّوَكِّيَّةِ» : وَلَمَّا اسْتَقْبَلَ الْمَلِكُ الْمُعْزِي دِينَ الدِّينِ أَمِيكَ التُّوَكْمَانِي الصَّالِحِي
بِمَمْلَكَةِ مِصْرَ في سنة خَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ - بَعْدَ انْقِرَاضِ دَوْلَةِ بَنِي أَيُّوبَ - اسْتَوَزَرَ شَخْصًا مِنْ نَظَارِ
الدَّوَابِينِ يُعْرِفُ بِشَرَفِ الدِّينِ هَيْبَةَ اللَّهِ بْنِ صَاعِدِ الْفَائِزِيِّ ، أَخَذَ كُتَّابَ الْأَقْبَاطِ - وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ
الْإِسْلَامَ مِنْ أَيَّامِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَتَرَفَّى فِي خِدْمَةِ الْكِتَابَةِ - فَقَرَّرَ في وَزَارَتِهِ أَهْوَالَ عَلَى الثُّجَّارِ وَدَوِي
النِّسَارِ وَأَرْبَابِ الْعَقَارِ ، وَرَتَّبَ مَكُومًا وَضَمَانَاتٍ سَمَّوْهَا «حَقُوقًا وَمُعَامَلَاتٍ»^٣ .

(٥) بولاق : بمقدار . (٦) ساطعة من بولاق .

^٢ جامع «السيرة التركية» هو الأمير ركن الدين بيرس
للمنصوري الدوادار ، والتعريف موجود في كتابه «رَبَّةُ الْفِكْرَةِ» -

^١ المقرئ : السلوك ١ : ١٣٤ .

^٢ نفسه ١ : ١٣٦ .

ولما وَلِيَ الملك المُطَمَّر سِتْفُ الدين قُطُر مملكة مصر، بعد خَلْعِهِ الملك المَنْصُور عَلِيَّ بن المُعْز أَيْتُك، أَخَذَتْ عند سَفَرِهِ الذي قُدِّلَ فِيهِ مَظَالِمٌ كَثِيرَةٌ لِأَجْلِ جَمْعِ المالِ وَصَرْفِهِ فِي الحَرَكَةِ لِقِتَالِ جَمْعِ الشُّر، مِنْهَا «تَصْقِيعُ الأَمْلَاقِ وَتَقْوِيمُهَا وَزَكَاتُهَا»، وَأَخَذَتْ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ دِينَارًا يُؤْخَذُ مِنْهُ، وَأَخَذَتْ ثُلُثَ الثَّرِكَاتِ الأَهْلِيَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سِتَّ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ^١.

فَلَمَّا قُدِّلَ قُطُر، وَجَلَسَ الملكُ الظَّاهِرُ رُئُوسَ الدين بَيْبُوسَ بَعْدَهُ عَلَى سَرِيرِ الملكِ بِقَلْعَةِ الجَبَلِ، أَبْطَلَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَكَتَبَ بِهِ مَسَامِيحَ قُرِئَتْ عَلَى المَنَابِرِ، ثُمَّ أَبْطَلَ ضَمَانَ المِزْرِ وَجِهَاتِهِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَسِتِّ مِائَةٍ، وَكَتَبَ وَهُوَ بِالشَّامِ إِلَى الأميرِ عِزِّ الدين الحِلْيِيِّ - نَائِبِ السُّلْطَنَةِ بِمِصْرَ - أَنَّ يُبْطَلَ بُيُوتُ المِزْرِ، وَيُعْفَى آثَارُهُ، وَيُخْرَبَ بُيُوتُهُ، وَيُكْسَرُ مَوَاجِينُهُ، وَيُسْقَطُ ارْتِفَاعُهُ مِنَ الدُّيُونِ، فَإِنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ تَحَدَّثَ مَعِيَ فِي ذَلِكَ وَقَالَ: الْقَمْعُ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى قُوَّةً لِلْعَالَمِ يُدَاسُّ بِالْأَرْجُلِ، وَقَدْ تَقَرَّبْتُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِإِبْطَالِهِ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْقًا لِلَّهِ عَرَضَهُ/ خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ شَيْءٌ يُتَوَضَّعُ اللهُ مِنَ المَالِ الحَلَالِ. فَأَبْطَلَ الحِلْيِيُّ ذَلِكَ، وَعَوَّضَ الْمُقْطَعِينَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَسِتِّينَ أَبْطَلَ حِرَاسَةَ الثَّهَارِ بِالقَاهِرَةِ وَمِصْرَ - وَكَانَتْ جَمَلَةً مُشْتَكَّةً - وَكُتِبَ بِذَلِكَ تَوْفِيقًا، وَأَبْطَلَ مِنْ أَعْمَالِ الدَّقَّةِيَّةِ وَالمِزْنَانِيَّةِ عَنْ رُشُومِ الْوِلَايَةِ أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ^٢.

وَفِي خَامِسِ عَشْرِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَسِتِّ مِائَةٍ، قُرِئَ بِجَمَاعِ مِصْرَ مَكْتُوبٌ بِإِبْطَالِ مَا قُرِّرَ عَلَى رُشُومِ وِلَايَةِ مِصْرَ مِنَ الرُّشُومِ، وَهِيَ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَرْبَعَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَعْبَرَةٌ، فَبُطِّلَ ذَلِكَ^٣.

وَأَبْطَلَ ضَمَانُ الحَشِيشِ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ كُلِّهَا فِي سَنَةِ خَمْسِ وَسِتِّينَ وَسِتِّ مِائَةٍ، وَأَمَرَ بِإِرَاقَةِ الحُمُورِ، وَإِبْطَالِ الْمُتَكَرَّاتِ، وَتَعْفِيَةِ بُيُوتِ المُشْكِرَاتِ، وَمَنْعِ الحَانَاتِ وَالحَوَاطِي بِجَمِيعِ أَقْطَارِ مَمْلَكَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ، فَعَلِمَتْ مِنْ ذَلِكَ الْبِقَاعِ.

تَقْوِمُ الدِّنَارِ فَيُؤْخَذُ عَنْ كُلِّ دِينَارٍ دِرْهَمٌ وَرَقًا (Rabie, H.,) 107-8 pp. *The Financial System of Egypt*) وَاَنْظُرْ فِيمَا يَلِي ٢: ٩٠.

^٢ نَفْسَهُ ١: ٥٣٧-٥٣٨.

^٣ نَفْسَهُ ١: ٥١٤.

- فِي تَارِيخِ الْهَجْرَةِ، تَحْقِيقُ دُونَالْدِ س. رِيشارْدز، بِيْرُوتِ - الْمَعْدِ الْأَمْنَانِي لِلأَبْحَاحِ الشَّرْقِيَّةِ ١٩٩٨، ٦: الْقُرْئِي: السُّلُوكِ ١: ٣٨٤، أَبُو الْهَاسَنِ: النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ ٧٢: ٧٣-٧٣ وَانْظُرْ فِيمَا يَلِي ٢: ١٢٣، ٢٣٧: الْحَقُوقُ وَلِلْعَامَلَاتِ.

^١ الْقُرْئِي: السُّلُوكِ ١: ٤٣٧-٤٣٨. وَالتَّصْقِيعُ هُوَ أَخْذُ أَجْرَةِ شَهْرَيْنِ مِنَ الْأَمْلَاقِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَالتَّقْوِيمُ هُوَ أَنْ

وَلَمَّا وَرَدَتْ الْمَرَاسِيمُ بِذَلِكَ عَلَى الْقَاضِي نَاصِرِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُتَمِرِ^١ قَالَ :

[منسرح]

لَيْسَ لِإِبْلِيسَ عِنْدَنَا أَرْبٌ غَيْرَ بِلَادِ الْأَمِيرِ مَأْوَاهُ
حَرَمَتْهُ الْحَقَرُ وَالْحَشِيشُ مَقَا حَرَمَتْهُ مَأْوَاهُ وَمَرْغَاهُ

وَقَالَ الْأَدِيبُ الْقَاضِي أَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَلَرُ^٢ :

[منسرح]

قَدْ غَطَّلَ الْكُوثُ مِنْ حُبَابِهِ وَأَخْلَى الثَّقَرُ مِنْ رُضَابِهِ
وَأَضْبَحَ الشُّعْخُ وَهُوَ يَتَكَبَّرُ عَلَى الَّذِي قَاتَ مِنْ شَبَابِهِ^٣

وَفِي تَابِعِ بَحْمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةٌ سِتٌّ وَسِتِينَ وَسِتُّ مِائَةٍ ، أَمَرَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بِيَّزِيدَ بِإِرَاقَةِ الْخُمُورِ ، وَإِبْطَالِ الْقَسَادِ ، وَمَنْعِ النِّسَاءِ الْخَوَاطِئِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْبِقَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمِصْرِيَّةِ . فَتَطَهَّرَتْ أَرْضُ مِصْرَ مِنْ هَذَا الْمُتَكَبَّرِ ، وَنُهِبَتِ الْخَانَاتُ الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لِلذِّكْرِ ، وَثَلِبَتْ أَهْلُهَا جَمِيعٌ مَا كَانَ لَهُمْ ، وَنُفِيَ بَعْضُهُمْ ، وَحُبِسَتْ النِّسَاءُ حَتَّى يَبْزُوجُنَّ . وَكُتِبَ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَحُطَّ الْمَالُ الْمُقَرَّرُ عَلَى الْبَغَايَا مِنَ الدُّيُونِ ، وَغَوَّضَ الْحَاشِيَّةُ مِنْ جِهَاتِ حُلِّ بِنَظِيرِهِ .

وَفِي سَابِعِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ وَسِتُّ مِائَةٍ ، أُرِيْقَتِ الْخُمُورُ ، وَأُبْطِلَ ضَمَانُهَا - وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ - وَكُتِبَ تَوْقِيعُ ذَلِكَ قُرِئَ عَلَى الْمَنَابِرِ^٤ . وَافْتَتَحَ سَنَةَ سَبْعِينَ بِإِرَاقَةِ الْخُمُورِ ، وَالتَّشْدُّدُ فِي إِزَالَةِ الْمُتَكَبَّرَاتِ ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا بِالْقَاهِرَةِ^٥ . وَبَلَغَهُ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ

صفحة من نشرة الكتاب . وهو أحد الشعراء المصريين المهمين في القرن السابع الهجري اشتهر بتقننه في استخدام أركان البديع وخاصة التورية ، ويغلب على شعره الفكاهة والميل إلى المزاح والدعابة (ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب (قسم مصر ١ : ٢٩٦-٣٤٨ ؛ ابن شاذان : فوات الوفيات ٤ : ٢٧٧-٢٩٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ : ٣٤٥) .

^٣ القريزي : السلوك ١ : ٥٥٣-٥٥٤ (في حوادث سنة ٨٦٦هـ) .

^٤ نفسه ١ : ٥٩٥ .

^٥ نفسه ١ : ٥٩٧ .

^١ القاضي ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن قاسم بن مختار بن الخير قاضي الإسكندرية المتوفى سنة ١٢٨٣/١٢٨٤ م (القريري : السلوك ١ : ٥٥٣ ، المقفى الكبير ١ : ٦٥٣-٦٥٤ ؛ الصغدني : الوافي بالوفيات ٨ : ١٢٨-١٣٠) .

^٢ الجمال أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزلر الشاعر المتوفى سنة ٦٧٩/١٢٨٠ م ، كان أبوه وأقاربه جزائريين بالنسقاط ، قال ابن سعيد : « ذكابهم بها إلى الآن قد عابتها وأبصرته معهم بها » واجتمع به غير مرة أثناء زيارته للنسقاط ، وأورد مختارات من شعره بلغت نحو خمسين

عن الطواشي شجاع الدين عثبر المعروف بصذر البار - وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا - أنه يشرب الخمر، فسنقه تحت قلعة الجبل^١.

ولما ولي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي مملكة مصر أبطل «زكاة الدولة»^٢، وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا ولو غديم منه، وإذا مات يؤخذ من ورثته، وأبطل ما كان يُجبي من أهل إقليم مصر كله، إذا حضر مُبشر يقتح حصن أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر وعلى قدر طبقاتهم، ويجمع من ذلك مال كثير. وأبطل ما كان يُجبي من أهل الدقة، وهو دينار سوى الجالية، يرسم نفقة الأجناد في كل سنة. وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة، وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر: من كل تاجر دينار. وأبطل ما كان يُجبي عند وفاة الثيل ثما يُقفل به شوي وخلوى وفاكهة في المقياس، ويجعل مضرب ذلك من بيت المال، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط.

وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون عدة جهات قد ذكرت في الزوك الناصري^٣. وآخر ما أذكر كنا إبطاله ضمان المغاني^٤ وضمان القرايط، في سنة ثمان وسبعين وسبع مائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

فأما «ضمان المغاني»^٥ فكان بلاء عظيم، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة. وكان على النساء إذا انتقسن، أو عرشن امرأة، أو خضبت امرأة يديها بحناء، أو أراد أحد أن يقفل فرحا، لا بد من مال^٦ بتقرير تأخذه الضامنة، ومن قفل فرحا بأغان، أو نقس امرأته من غير إذن الضامنة، حل به بلاء لا يوصف^٧.

(a) بولاق: زكاة الدولة. (b) بولاق: الأغاني. (c) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من الأصل.

^١ المقرئ: السلوك ١: ٦٢٣.

تفرض على كل مستخدم للدواب - أي الآلات أو العجلات

- في الري أو الغزل أو صناعة السكر، وعلى هذا الفرض تكون

هذه الزكاة ضريبة على الآلات المستعملة في الصناعة

(المقرئ: السلوك ١: ٦٦٤ هـ^١، وانظر فيما يلي ١٠٥: ٤).

^٣ فيما تقدم ٢٣٥ - ٢٤١.

^٤ المقرئ: السلوك ٣: ٢٦٦ ابن لياس: بدائع -

^٢ نفسه ١: ٦٦٤ النوري: نهاية الأرب ٣١: ٤٩

بهرس المنصوري: زبدة الفكرة ١٧٨ الصيني: عقد الجمان

٢: ٢٣٠ ابن لياس: بدائع الزهور ١/١: ٣٦٣.

وزكاة الدولة هي مال كان يؤخذ من أصحاب الأموال ولو

غديم المال، وإن مات عن فقر أخذ ذلك من ورثته، وكانت

وأما وَضْعَانُ الْقَرَارِيطِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ مِنْ بَاعَ مِلْكًا عَنْ كُلِّ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا^١. وَكَانَ مُتَخَصِّلٌ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ مَا لَا كَثِيرًا جِدًّا.

وَأَبْطَلَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَرْقُوقَ مَا كَانَ يُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الْبُرْئِيسِ وَشُورَى وَتَلْطِيمِ، نِشْبَةِ الْجَالِيَّةِ، فِي كُلِّ سَنَةٍ سِتِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ. وَأَبْطَلَ مَا كَانَ عَلَى الْقَنْعِ مِنْ مَكْسٍ يُؤْخَذُ مِنَ الْفُقَرَاءِ بِشَفَرِ دِمْيَاطٍ مِمَّنْ يَبْتَاعُ مِنْ إِزْدِئِينَ فَمَا دُونَهُمَا. وَأَبْطَلَ مَا كَانَ يُؤْخَذُ مَكْسًا مِنْ مَقْعَلِ الْفُرُوجِ بِالتَّخْرِيرَةِ وَالْأَعْمَالِ الْغُرْبَةِ. وَأَبْطَلَ مَا كَانَ يُؤْخَذُ تَقْدِيمَةً لِمَنْ يَشْرَحُ إِلَى الْعَبَّاسَةِ مِنَ الْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالنَّعَمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَأَبْطَلَ مَا كَانَ يُؤْخَذُ عَلَى الدَّرْسِ وَالْحَلْفَاءِ بِبَابِ الثَّضَرِّ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ. وَأَبْطَلَ ضَمَانَ الْمَغَانِي^٢ بَنِيَّةِ بَنِي خَصِيبِ^٣ بِأَعْمَالِ الْأَشْمُونِيِّينَ، وَبَرْقُوقًا بِالْأَعْمَالِ الْغُرْبَةِ. / وَأَبْطَلَ الْأَبْقَارَ الَّتِي كَانَتْ تُزَمَّى بِالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ عِنْدَ قَرَاغِ الْجُمُورِ.

وَأَبْطَلَ الْأَمِيرُ يَلْبِغَا السَّالِمِي - لَمَّا وَلِيَ أَسْتَادَارَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ فَرْجَ بْنَ بَرْقُوقَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِ مِائَةٍ - تَعْرِيفَ الْبِلَالِ بَنِيَّةِ بَنِي خَصِيبِ^٤، وَضَمَانَ الْقَرْصَةِ بِهَا، وَأَخْصَاصَ الْقَسَالِينِ وَكَانَتْ مِنَ الْمَطَالِمِ الْقَبِيحَةِ. وَأَبْطَلَ مِنَ الْقَاهِرَةِ ضَمَانَ بُحَيْرَةِ الْبَقَرِ، ثُمَّ أَعَادَهُ الْقَبْطُ مِنْ بَعْدِهِ. وَقَدْ بَقِيَتْ إِلَى الْآنَ مِنَ الْمَكُوسِ بَقَايَا.

أَخْبَرَنِي الْأَمِيرُ الْوَزِيرَ الْمُشِيرَ الْأَسْتَادَارَ يَلْبِغَا السَّالِمِي^٥ - رَحِمَهُ اللَّهُ^٦ - فِي أَيَّامِ وَزَارَتِهِ، أَنَّ جِهَاتِ الْمَكُوسِ بِدِيَارِ مِصْرَ تَبْلُغُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِضْعًا وَسَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَنَّهُ اغْتَبَرَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا تُصَرَّفُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ، بَلْ إِنَّمَا هِيَ مَنَافِعُ لِلْقَبْطِ وَخَوَاشِيهِمْ. وَكَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى إِبْطَالِ الْمَكُوسِ فَلَمْ يُجْزَلْ.

وَالْمَالُ الْإِلَهَالِيُّ عبارة عما يُسْتَأْدَى مُشَاهَرَةً، كَأَجْرِ الْأَمْلَاكِ الْمُسْتَقْفَةِ مِنَ الْأَكْثَرِ، وَالْحَوَانِيتِ، وَالْحَمَامَاتِ، وَالْأَقْرَانِ، وَالطَّوَّاحِينِ، وَعِدَادِ النَّعَمِ، وَالْجِهَةِ الْهَوَاتِيَّةِ الْمَضْمُونَةِ وَالْمَحْلُولَةِ. وَعَدُّ بَعْضِ الْكُتَّابِ أَشْكَارَ الْبُيُوتِ، وَرَبْعَ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ أَجْرُهَا مُشَاهَرَةً، وَمَصَايِدَ الشَّحَكِ، وَمَعَاصِرَ الشُّيْرَجِ وَالزَّيْتِ، فِي الْمَالِ الْإِلَهَالِيِّ^٧.

(a) بولاق: الأغانى. (b) بولاق: ابن خصيب. (c) ساقطة من بولاق.

= الزهور ١٦٦: ٢/١ - ١٦٧.

^١ المقرئ: السلوك ٣: ٢٦٧، نفسه ٢/١: ١٦٧. ٢٩٠: ٢ - ٢٩٢.

^٢ أحمد المقرئ في مواضع كثيرة عما أخبر به يلبغا ^٣ النوري: نهاية الأرب ٨: ٢٢٨.

ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تُورد جزية أهل الذمة من اليهود والنصارى قلنا وإحداً مستقلاً بذاته ، بعد الهلالي وقبل الحراجي ، وذلك أنها تُستأدى مُسانهةً ، وكانوا يزون وجوبها مُشاهرةً . وفائده فيمن أَسْلَمَ أو مات في أثناء الحول ، فإنهم كانوا يُلزمونه بقدر ما مَضَى من السنة قبل إسلامه أو وفاته ، فلذلك أوردت فيما بين الهلالي والحراجي^١ .

وكانوا في الإقطاعات الجبائية ، يُجبرونها متجري مال الهلالي عند خروج إقطاع من يقطع ، ودخول آخر على ذلك الإقطاع ، فإنها كانت تُستخرج على مُحكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تَجَلَّها مُقطع في غرة السنة على العادة في ذلك ، وتخرج الإقطاع عنه في أثناء السنة بوفاة أو نقله إلى غيره ، اشتحق منها نظير ما مَضَى من شهور السنة إلى حين انتقال الإقطاع عنه ، لا على مُحكم ما استحق من المغل . ويستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره ، كعادة العقود والمتخلل بينهما من المدة مُستحق ذلك الديوان ، فيرد من جملة المحلولات من الإقطاعات .

وكان من أبواب الهلالي جهات تُسمى «المعاملات» ، وهي : الزكاة ، والموارث ، والثغور ، والمتجر ، والشب ، والنظرون ، والحبس الجيوشي ، ودار الضرب ، ودار العيار ، والجاموس ، وأتجار الخيس ، والأغنام ، والغروس والبساتين ، والأشكار والزباج ، والمراكب ، وما يُستأدى من الذمة غير الجوالي ، وساجل السنط ، والحراج^٢ ، والقرظ ، ومقرر الجسور ، وموظف الأتبان ، ومقرر القصب ، ومقرر البريد ، ومقرر البسط^٣ ، وعشر العرق ، وغير ذلك من جهات المكوس .

فإنما الجزية - وتُعرف في زمننا بالجوالي - فإنها تُستخرج سلفاً وتفعيلاً في غرة السنة ، وكان يتحصل منها مال كثير فيما مَضَى .

قال القاضي الفاضل في «متجددات الحوادث» : الذي انعقد عليه ارتفاع الجوالي لسنة سبع وثمانين وخمس مائة : مائة ألف وثلاثون ألف دينار . وأما في وقتنا هذا ، فإن الجوالي قلت جداً لكثرة إظهار النصارى للإسلام في الحوادث التي مَرَّت بهم .

ولما استبد السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر ، بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله ، ولَّى رجلاً جباية الجوالي ، فكفر الاستقصاء عن الذمة والكد في الاستخراج منهم ،

(a) الأصل وبولاق : الحراج . (b) الأصل : النبط .

^١ التبري : نهاية الأرب ٨ : ٢٤١ وانظر أيضاً Cahen, Cl., *El² art. Djawālī* II, p. 502 وفيما تقدم ٢٠٧ .

فَبَلَّغْتَ الْجَوَالِي فِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَثَمَانِ مِائَةٍ : أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ وَأَرْبَعَ مِائَةَ دِينَارٍ ، مَبْيُوعٍ مَا غَرِمَ لِلْأَعْوَانِ ، وَهُوَ قَدْرٌ كَثِيرٌ .

وَأَمَّا «الْمَرَاغِي» - وَهُوَ الْكَلَاءُ الْمَطْلُوقُ الْمُبَاحُ الَّذِي أَنْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرُغْبَى ذَوَابِ بَنِي آدَمَ - فَأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَهَا الدِّيَّوَانُ بِمَصْرِ أَحْمَدَ بْنِ مُدَبَّرٍ ، لَمَّا وَلِيَ الْخَرَاجَ ، وَصَيَّرَ لِلذَّكَاءِ دِيَّوَانًا وَعَامِلًا بَجَلْدًا يَحْظَرُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَبَايَعُوا الْمَرَاغِي أَوْ يَشْتَرَوْهَا إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ .

وَأَذَرْنَا الْمَرَاغِي بِبِلَادِ الصُّعِيدِ ثُمَّ يُضَافُ إِلَى الْإِقْطَاعَاتِ ، فَيَأْخُذُ الْأَمِيرُ مِمَّنْ يَزْعَى ذَوَابِهِ فِي أَرْضِ بَلَدِهِ الْكُتَيْبِ^١ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَالًا عَنْ كُلِّ رَأْسٍ ، فَيَجْبِي مِنْ صَاحِبِ الْمَاشِيَةِ بَعْدَ أَتْعَامِهِ ؛ فَلَمَّا اخْتَلَّ أَثَرُ الصُّعِيدِ فِي الْخَوَادِثِ الْكَائِنَةِ مِنْذُ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، تَلَاشَى الْأَثَرُ فِي ذَلِكَ . وَكَانَتْ الْعَادَةُ الْقَدِيمَةُ أَنْ يُنْذَبَ لِلْمَرَاغِي مُشِيدٌ وَشُهُودٌ وَكَاتِبٌ ، فَيَعْمَدُونَ الْمَوَاشِي ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْ أَزْيَابِهَا عَنْ كُلِّ رَأْسٍ شِقًا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ هُبُوطِ الثَّيْلِ وَنَبَاتِ الْكَلَاءِ وَاشْتِهَالِهِ لِلتَّرْعَى .

وَأَمَّا «الْمَصَايِدُ» فَهِيَ مَا أُطْعِمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ ؛ وَأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَهَا الدِّيَّوَانُ أَيْضًا ابْنُ مُدَبَّرٍ ، وَصَيَّرَ لَهَا دِيَّوَانًا ، وَاسْتَحْتَمَ مِنْ ذِكْرِ الْمَصَايِدِ وَشِنَاعَةِ الْقَوْلِ فِيهَا ، فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ فِي الدِّيَّوَانِ خَرَاجُ مَضَارِبِ الْأَوْتَادِ وَمَغَارِسِ الشُّبَاكِ ، فَاسْتَمَرَ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُنْذَبُ لِمُبَاشَرَتِهَا مُشِيدٌ وَشُهُودٌ وَكَاتِبٌ إِلَى عِدَّةِ جِهَاتٍ ، مِثْلَ خَلِيجِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَبُحَيْرَةِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَبُحَيْرَةِ نَشْتَرُو ، وَتَقَرِّ دِمِيَاطَ ، وَجَنَادِلَ تَقَرِّ أَشْوَانَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكِ وَالْبُحَيْرَاتِ ، فَيَخْرُجُونَ عِنْدَ هُبُوطِ الثَّيْلِ وَوُجُوعِ الْمَاءِ مِنَ الْمَزَارِعِ إِلَى بَحْرِ الثَّيْلِ بَعْدَ مَا تَكُونُ أَقْوَاهُ الشَّرْعَ قَدْ شَكُرَتْ ، وَأَبْوَابُ الْقَنَاطِرِ قَدْ سُدَّتْ عِنْدَ انْتِهَاءِ زِيَادَةِ الثَّيْلِ ، كَيْمَا يَتَرَجَعَ/ الْمَاءُ وَيَتَكَثَّفُ ثُمَّ يَلِي الْمَزَارِعَ .

ثُمَّ تُنْصَبُ شُبَاكٌ وَتُصْرَفُ الْمِيَاهُ ، فَيَأْتِي السَّمَكُ وَقَدْ انْدَفَعَ مَعَ الْمَاءِ الْجَارِي ، فَتُصَدِّدُ الشُّبَاكُ عَنْ الْإِتِّجَادِ مَعَ الْمَاءِ وَيَجْتَمِعُ فِيهَا لِيَخْرُجَ إِلَى الْبَرِّ وَيُوضَعَ عَلَى أَنْخَاخٍ ، وَيُمْلَحُ وَيُوضَعُ فِي الْأَمْطَارِ ، فَإِذَا اسْتَوَى أَيْبَعُ وَقِيلَ لَهُ «الْمَلُوحَةُ وَالصَّيْر» ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا كَانَ مِنَ السَّمَكِ فِي قَلْبِ الْأَصْبَحِ فَمَا دُونَهُ ، وَيُسَمُّونَ هَذَا الصَّنْفَ إِذَا كَانَ طَرِيًّا «إِسْطَارِيَّةً» فَتُؤْكَلُ مَشْوِيَّةً وَمَقْلُوءَةً .

وَيُصَادُ مِنْ بُحَيْرَةِ نَشْتَرُو وَبُحَيْرَةِ تَيْسٍ وَبُحَيْرَةِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ أَسْمَاكٌ تُقْرَفُ بِالْبُورِيِّ : وَقِيلَ لَهَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُصَادُ عِنْدَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى تَيْسٍ يُقَالُ لَهَا بُورَةٌ ، وَقَدْ خَرِبَتْ ، وَالتَّشْبِيهُ إِلَيْهَا

^١ نَبَاتٌ تَسْتَعْنِي بِهِ الْخَيْلُ وَالذَّوَابِ وَالْمَاشِيَةُ عَنِ الْبَرَسِيمِ (النُّبُورِيِّ : نَهَايَةُ الْأَرْبِ ٢٤٧: ٨) .

البوري ، ونُسب إليها جماعة من الناس منهم بئر البوري . وقيل لهذا السمك البوري إضافة إلى القرية المذكورة ^١.

وقد تَظَلَّ في زَمَنَّا اليوم أمر هذه المصايد ، إلا من يُحِيزَة نَشْتَرُو بالبزل ، وبُحِيزَة يَتَّيَس بِدُمِيَاظ فقط . وهاتان البَحِيرَتان تجريان في ديوان الخاص ، وهما مُضْمَتَتان ، وما يَخْرُجُ منهما من البوري وغيره من أنواع السمك فللسُلطان ، لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أن يتعرض لصيْد شيء منه إلا أن يكون من صِيَادِيهِمَا الْقَائِمِينَ بِالضَّمَان . وما عَدَا هَاتَيْنِ البَحِيرَتَيْنِ من البرك والأملق والخُلجان فليست للسُلطان . وأما بُحِيزَة إِشْكَنْدَرِيَّة فقد جَفَّت ، وَتَفَرَّ أَشْوَانٌ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ يَدِ السُّلْطَنَة ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ أَوْلَادُ الْكَثْرَةِ ^٢.

وَتَمَّ بِرَكٍ بِأَيْدِي أَقْوَام ، كِبَرَكَة الْفِيلِ يَدُ أَوْلَادِ الْمَلِكِ الطَّاهِرِ يَبْتَرَس ، وَبِرَكَة الرُّطْلِي يَدُ أَوْلَادِ الْأَمِيرِ يَكْتُمِرُ الْحَاجِبُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ أَشْمَاكَهَا مُضْمَنَةٌ لَهُمْ يَبْعُونَهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُتِمَّعُ أَحَدٌ الصَّيْدَ مِنْهُمَا .

وَأَمَّا بَخْرُ الثَّيْلِ فَمَا صِيْدَ مِنْهُ يُعْمَلُ إِلَى دَارِ السَّمَكِ بِالْقَاهِرَةِ ، فَيُبَاعُ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَكْسُ السُّلْطَانِ ، إِلَّا أَنَّ الْأَمِيرَ جَمَالَ الدِّينِ يُوسُفَ الْأُسْتَاذَارَ زَادَ فِيمَا كَانَ يُؤْخَذُ مِنَ الصَّيَادِينَ مَكْسًا ، وَمِنْ حَيْثُ قَلَّ السَّمَكُ بِالْقَاهِرَةِ وَغَلَا سِغْرُهُ .

وَقَالَ أَبُو سَعِيدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ فِي «تَارِيخِ مِصْرَ» : إِنَّ صَنْمًا كَانَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ يُقَالُ لَهُ شُرَاحِيلُ ، عَلَى حَشْفَةٍ مِنْ جِشَافِ الْبَحْرِ ، مُسْتَقْبَلًا بِأَصْبُعٍ مِنْ كَفِّهِ قُسْطَنْطِينِيَّةً ، لَا يُنْزَى أَكَّانٌ مِمَّا عَمِلَهُ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ ، أَمْ عَمِلَهُ الْإِسْكَنْدَرُ ؟ فَكَانَتِ الْحَيَاتَانُ يَدُورُونَ ^٣ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَتُصَادُ عِنْدَهَا فِيمَا زَعَمُوا .

قَالَ زَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ : أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ انْبَطَحَ عَلَى بَطْنِهِ وَمَدَّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، فَكَانَ طُولُهُ طَوْلَ قَدَمِ الصَّنَمِ . فَكَتَبَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، كَانَ عَامِلًا عَلَى مِصْرَ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّ عِنْدَنَا بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ صَنْمًا ، يُقَالُ لَهُ شُرَاحِيلُ ، مِنْ نَحَاسٍ ، وَقَدْ غَلَّتْ عَلَيْنَا الْفُلُوسُ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُنْزِلَهُ وَتَضْرِبَهُ فُلُوسًا فَقُلْ ، وَإِنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ

(٢) بولاق : الكفرة . (ب) بولاق : تدور .

^١ التويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٦٢ - ٢٦٤ وانظر فيما يلي ٤٩٢ .

فَلْيَكْتُبْ إِلَى مَنْ أَمَرَهُ . فَكُتِبَ إِلَيْهِ : لَا تُنْزِلْهُ حَتَّى أَتَيْتَ إِلَيْكَ ضُمْنَاءَ يُخْضِرُونَهُ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا أَمْنَاءً حَتَّى أُنْزِلَ مِنَ الْحَشْفَةِ ، فَوَجَدُوا عَيْنَيْهِ يَأْقُوتَتَيْنِ حُمْرَاوَيْنِ لَيْسَ لِهَمَا قِيَمَةٌ ، فَضَرَبَهُ قُلُوسًا ، فَانْطَلَقَتِ الْحَيَتَانِ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى مَا هُنَالِكَ .

وَأَمَّا «الزُّكَاةُ»^١ فَإِنَّ السُّلْطَانَ صَلَاحَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ الْغُوبِ أَوَّلَ مَنْ جَبَاهَا بِمِصْرَ ، قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : ثَالِثَ عَشَرَ رَبِيعَ الْآخِرِ قُرِئَتْ الزُّكُوتُ ، بَعْدَ مَا جُمِعَتْ ، عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَهْبَاءِ السَّبِيلِ وَالْغَارِمِينَ ، بَعْدَ أَنْ رُفِعَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ السَّهْمُ الْأَرْبَعَةُ ، وَهِيَ : سِهَامُ الْعَامِلِينَ ، وَالْمُؤَلَّفَةِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي الرِّقَابِ ، وَقُرِّرَتْ لَهُمْ قَرِيبَةُ ، وَاسْتَوْدِيَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْبَضَائِعِ ، وَعَلَى مَا يَتَقَرَّرُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَاشِي وَالنَّخْلِ وَالْخَضِرَاوَاتِ .

قَالَ : وَالَّذِي انْتَقَدَ عَلَيْهِ ارْتِفَاعُ الْجَوَالِي لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : [مِائَةُ أَلْفٍ وَ] ١٠ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَالزَّائِدُ فِي مُعَامَلَةِ الزُّكَاةِ وَدَارِ الضَّرْبِ لِسَنَتِي سِتٍّ وَسَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَأَحَدٌ وَسِتُونَ دِينَارًا .

وَقَالَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ : وَاسْتُخْدِمَ ابْنُ حَفْدَانَ فِي دِيْوَانِ الزُّكَاةِ ، وَكُتِبَ خَطُّهُ بِمَا مَبْلَغُهُ اثْنَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ لِسَنَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ مَالِ الزُّكَاةِ ، وَجَعَلَ الطَّوَّاشِيُّ^٢ قَرَاغِشَ الشَّادِ فِي هَذَا الْمَالِ وَالْأَلْفُ يَنْصَرَفُ فِيهِ ، بَلْ يَكُونُ فِي صَنْدُوقِ مُودَعًا لِلْمَهْمَاتِ الَّتِي يُؤَمَّرُ بِهَا . ١٥

(a) زيادة من السلوك .

[التوبة] وليس للأئمة اجتهاد فيه .

وأصدر السلطان صلاح الدين سجلًا في ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بإبطال جميع المكوس من الديار المصرية ، أمر فيه بأن تستأدى الزكاة على الوجه الشرعي للأمور به من الله عز وجل (ساوريس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة ٢/٣: ٦٩) وانظر نص السجل بإسقاط المكوس وتاريخه صفر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م عند أبي شامة : الروضتين ١/ ٢: ٤٤٣ ، ٥٢٢-٥٢٣) .

^٢ عن معنى الطواشي انظر فيما تقدم ٢٣٢ .

^١ الزكاة هي الصدقة التي لا يجب على المسلم في ماله حق سواها ، وهي تجب في الأموال المرصنة للنساء والتي حال عليها الحول . وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفقه الإسلامي إلى : مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشي ، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة ؛ ويختص نظر والي الصدقات فقط بزكاة الأموال الظاهرة ، أما زكاة المال الباطن فأربابه أحق بركاته (الماوردي : الأحكام السلطانية ٩٨-١٠١) . وحُدِّدَ الخُرُومِيُّ وابنُ عُثْمَانِي فِي جَدُولٍ جَامِعٍ مَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ وَمَصَارِفُهَا وَمَا لَا تَجِبُ فِيهِ (المنهاج ٤٢-٤٣ ؛ قوانين الدواوين ٣٠٨-٣١٦) ، مع ملاحظة أن مصرف الزكاة منصوص عليه [الآية ٦٠ سورة

ولمّا قَدِمَ ابنُ عُثَيْنٍ الشَّاعِرُ^١ من عند الملك العزيز سَيِّف الإسلام طُعْتَكَيْنِ بن نَجْم الدين أيُّوب ابن شاذي ملك اليمن إلى مصر - وقد أجزَل صلَّته عندما وَقَدَ عليه وفارَقَه ، وقد أُنْرى ثراءَ كثيرًا - قَبَضَ أربابُ ديوان الزكاة بمصر على ما قَدِمَ به من المتشجر ، وطالَبُوهُ بِزَكَاة ما مَعَه ، وكان ذلك في أَيَّام الملك العزيز عُثْمَان بن صلاح الدين يُوسُف بن أيُّوب بن شاذي ، فقال^٢ :

[البيط]

ما كُلُّ من يَتَسَمَّى بالعزيز لها أَهْلٌ ، ولا كُلُّ يَزُق سُخْبِه غَدِقَةٌ
بين العزيزَيْنِ بَوْنٌ^٣ في فِعالِهِما : هَذَاكَ يَعْطِي ، وهذا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

ثم إنَّ العزيزَ كَشَفَ عَمَّا يُسْتَأْدَى من الزكاة ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ فِيهَا أَقْوَالٌ شَنِيعَةٌ ، منها أَنَّهُ أُجِذَ من رَجُلٍ فقير يَبِيع الجِلْح في قَفَّة على رأسه زكاةً عَمَّا في القَفَّة ، وَأَنَّهُ يَبِيع بِجَمَلٍ بِخَمْسَةِ دنانير ذَهَب فأخَذَ زَكَاتَهَا خَمْسَةَ دراهم . فَأَمَرَ بِتَقْوِضِ / أَثَرِهَا إلى أرباب الأموال ، وَمَنْ وَجِبَ عليه حَقٌّ فيها وَحَمَلَهُ إلى ديوان الزكاة قُبِلَ منه ، وَمَنْ لم يَحْمِلْ لا يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ . فَيَبْخُلُ الْأَغْنِيَاءُ بِزَكَاةِ أَقْوَالِهِمْ حتَّى تَضَرَّرَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، وَأَخَذَ الشُّعَاةُ يَبْذُلُونَ فِي ضَمَانِهَا الأموالَ لِتَعُودَ إلى ما كَانَتْ عليه . فولِّيَ النَّظَرَ في ديوان الزكاة القاضي الْأَشْعَدُ شَرَفُ الدين أبو المكارم أَشْعَدُ بن مُهَذَّب بن ثُمَّاتِي ، فاستَخْرَجَ الزكاة من أربابِها ، ثم ضَمِنَتْ بِمَالٍ كثير ، وعَاذَ الْأَمْرُ فيها إلى ما كانت عليه من العُسْفِ والجَزْرِ .

وكانت أغْوَانُ مُتَوَلِّي الزكاة تَخْرُجُ إلى مُنْيَةِ بني^٤ خَصِيب وإِخْمِيم وقُوص ، لِكَشْفِ أحوال المُسَافِرِينَ من الثُّجَّار والحُجَّاج وغيرهم ، فَيَبْخُلُونَ عن جميع ما مَعَهُمْ ، وَيُذْخِلُونَ أَيْدِيَهُمْ أَوْسَاطَ الرِّجَالِ خَشْيَةً أَن يَكُونَ مَعَهُم مَالٌ ، وَيُحْلِفُونَ الجَمِيعَ بِالْأَيْمَانِ الحَرِجَّةِ على ما يَأْثُرُهُمْ وما عِنْدَهُمْ غير ما وَجَدُوهُ .

(a) بولاق : فرق . (b) بولاق : ابن .

^١ شرف الدين أبو الحسن محمد بن نصر الله بن مكارم

٢٢ : ٣٦٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢-١٢٧ ،

٢٢ : ٣٦٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢-١٢٧ ،

٢٢ : ٣٦٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢-١٢٧ ،

٢٢ : ٣٦٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢-١٢٧ ،

^٢ الأبيات في ديوان ابن عُثَيْن ، تحقيق خليل مردم .

دمشق ١٩٤٦م ، ٢٢٣ .

ابن الحسن الزرعي الحوراني المشهور بابن عُثَيْن الأنصاري
الدمشقي الشاعر ، المتوفى سنة ١٢٣٣/٥٦٣٠م (باقوت :
معجم الأدباء ١٩ : ٨١-٩٢ المنذري : التكملة لوفيات
النقطة ٣ : ٣٣٦-٣٣٧ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء

وتقوم طائفة من مَرَدَّة هذه الأخوان ، وبأيديهم المسأل الطوال ذوات الأنصبة ، فيضعدون إلى المراكب ، وينخسون بمسألهم جميع ما فيها من الأحمال والقرائر ، مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو مال ، فيبالغون في البحث والاستقصاء ، بحيث يفتح ويشتت فعلمهم . ويقف الحجاج بين يدي هؤلاء الأخوان مواقف جزئي ومهانة ، لما يصدرو منهم عند تفشيس أوساطهم وقرائر أروادهم ، ويحل بهم من القشف وشوء المعاملة ما لا يوصف ، وكذلك يفعل في جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين يوسف^(٥) بن أيوب^(٦) .

ثم لما كانت سلطنة الملك الكايل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي^(٧) ، أخرج من زكاة الأموال التي كانت تجني من الناس سهمي الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما في مصارفهما الشرعية ، وزُتِب من جملة هذين السهمتين معلّم للفقهاء والصلحاء وأقل الخير تجرى عليهم ، فاستحسن ذلك من يفعله^(٨) .

وأما الثغور : فهي دمياط ، وتيس ، ورشيد ، وعينذاب ، وأشوان ، والإسكندرية - وهي أعظمها قدرا - فإنه كان فيها عدة جهات منها «الخمس» و«المتجر»^(٩) .

ف «الخمس» ما يُستأدى من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما ضولجوا عليه ، وزُجما ببلغ ما يُستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يُناهِز^(١٠) خمسة وثلاثون دينارا ، وزُجما انخط عن عشرين دينارا . ويُسمى كلاهما «خمسًا» . ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ، ولذلك ضرائب مقررة^(١١) .

(٥) ساطعة من بولاق . (ب) بولاق ماكان .

^(٦) كانت العادة أن يجيى من التجار غير المسلمين الوافدين إلى دلو الإسلام «العشرة» من قيمة بضائعهم ، وأباح الإمام الشافعي للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخمس أو ينقصها إلى نصف العشر أو يزيلها نهائيا (القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٥٩) ، وعن ما يستأدى من تجار الروم أو الخمس الرومي راجع ، المنهاج ٢٢-٢٩ ، ٤٥-٤٦ ، ٤٩ : ابن مئني : قوانين الدواوين ٣٢٦ ، النوري : نهاية

^(٧) هذا وصف ابن جرير لما كان يتم في ميناء الإسكندرية مع الحجاج والتجار على السواء (الرحلة ١٣-١٤ ، ٣٩) .

^(٨) واضح أن هذا الخبر كان في طيارة بين نسخة المقرئ وتقلها بعض النسخ دون أن يعرف مكانها فجاءت في النسخ التي اتمدت عليها نشرة بولاق في وسط الخبر المنسوب إلى الملك العزيز عثمان في الصفحة السابقة سطر ١٠ .

^(٩) ابن مئني : قوانين الدواوين ٣٢٥ .

وقال القاضي الفاضل: والحاصل من «خمس الإسكندرية» في سنة سبع وثمانين وخمس مائة ثمانية وعشرون ألف دينار وست مائة وثلاثة عشر ديناراً.

و«المتجبر» عبارة عما يتباع للديوان من بضائع [التجار الواردين ممّا] ^(٥) تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة. قال جامع «سيرة الوزير التازوري»: وقصر الثيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربع مائة، ولم يكن في مخازن الغلات شيء، فاشتدت المشغبة بمصر، وكان لحلو المخازن سبب أوجب ذلك، وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف إليه القضاة في أيام أبي البركات الوزير كان يتباع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم، وتعمل متجراً ^(٦).

فمثل القاضي بحضرة الخليفة المستنصر ^(٧) بالله، وعرفه أن المتجبر الذي يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين، وربما انحط السعير عن مشتراها فلا يمكن بيعها، فتتغن في المخازن وتكلف، وأنه يقيم متجراً لا كلفة فيه على الناس، وينفذ أضعاف فائدة الغلة، ولا يخشى عليه من تأثيره في المخازن ولا انحطاط سعره، وهو الخشب والصابون والحديد والرمصاص والعسل وما أشبه ذلك؛ فأقصى السلطان له ما رآه.

واستمر ذلك، ودام الرخاء على الناس، فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديواناً للمتجبر، وأجر من عمله الظاهر بزقوق.

وأما «الشب» فإن معادنه بالصعيد، وكانت عادة الديوان الإنفاق في تحصيل القطار منه بالليثي مبلغ ^(٨) ثلاثين دزهماً، وكانت الغزبان تحضره من معادنه إلى ساحل إخميم وشيوط واليهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام الثيل في الخليج، ويشتري بالقطار الليثي، ويتباع بالقطار الجزوي: فيتباع منه على تجار الزوم قدر اثني عشر ألف قطار بالجزوي، بسعر أربعة دنائير كل قطار إلى ستة دنائير، ويتباع منه بمصر على اللبديين والصباغين نحو الثمانين قطاراً بالجزوي،

(٥) زيادة من ابن مماتي مصدر النقل. (٦) بولاق: المستعين. (٧) بولاق: مبلغ.

^١ عن المتجبر انظر الخزومي: المنهاج ٩، ٤٨، ٥٧؛ ابن مماتي: قوانين ٣٢٧ - ٣٢٩؛ المقرئ: إغاثة الأمة ٢٠، اتعاظ الخفا ٢: ٢٢٥؛ أمين فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٤ - ٤٩٥ وفيما يلي ١: ٤٦٥.

= الأرب ٣٣٦-٣٣٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-641/A.D. 1169-1341*, pp. 90-91; Cahen, Cl., *Makhzúmiyyât* pp. 84, 88-89.

فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٥٣١-٥٣٧.

سعر ستة دنانير ونصف القِنْطَار . ولا يُقَدَّر أَحَدٌ عَلَى اتِّبَاعِهِ مِنَ الْغُرَبَانِ وَلَا غَيْرِهِمْ ، فَإِنْ غُيِّرَ عَلَى أَحَدٍ أَنَّهُ اشْتَرَى مِنْهُ شَيْئًا أَوْ بَاعَهُ سِوَى الدُّبُونِ ، تُكَلَّفَ بِهِ ، وَاسْتَهْلَكَ مَا وُجِدَ مَعَهُ مِنْهُ . وَقَدْ بَطَلَ الْيَوْمُ^(٥) هَذَا^١ .

وَأَمَّا «التَّطْرُون» فَيُوجَدُ فِي الْبَرِّ الْغَرِيبِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِنَاحِيَةِ الطَّرَافَةِ^٢ ، وَهُوَ أَحْمَرٌ وَأَخْضَرٌ ، وَيُوجَدُ مِنْهُ بِالْقَاوُسِيَّةِ شَيْءٌ دُونَ مَا يُوجَدُ فِي الطَّرَافَةِ . وَهُوَ أَيْضًا مِمَّا حَظَرَ عَلَيْهِ ابْنُ مُدَبِّرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ مُبَاحَةً ، وَجَعَلَهُ فِي دِيْوَانِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ . وَقَدْ كَانَ الرَّسْمُ فِيهِ بِالْدُّبُونِ أَنْ يُخْمَلَ مِنْهُ فِي كُلِّ سَنَةِ عَشْرَةُ آلَافٍ قِنْطَارًا ، وَيُعْطَى الضُّمَّانُ مِنْهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ قَلِيلٌ ثَلَاثِينَ قِنْطَارًا يَتَسَلَّمُونَهَا مِنَ الطَّرَافَةِ فَيُبَاعُ فِي مِصْرَ بِالْقِنْطَارِ الْمِصْرِيِّ ، وَفِي بَحْرِ الشَّرْقِ وَالصُّعَيْدِ بِالْحَزْرِيِّ ، وَفِي دِمَشْقَ بِاللَّبِّي^٣ .

١٠ قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ : وَبَابُ التَّطْرُونِ كَانَ مَضْمُونًا إِلَى آخِرِ سَنَةٍ / خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ بِمِثْلِ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ ، وَحَصَلَ مِنْهُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ مِثْلُ سَبْعَةِ آلَافٍ وَثَمَانِ مِائَةِ دِينَارٍ . وَأَذْرَكْنَا التَّطْرُونِ إِقْطَاعًا لِعِدَّةِ أَجْنَادٍ . فَلَمَّا تَوَلَّى الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأُسْتَاذَارِيَّةَ وَصَارَ مُدَبِّرَ الدَّوْلَةِ فِي الْأَيَّامِ الظَّاهِرِيَّةِ يَزُوقُ ، حَازَ التَّطْرُونُ ، وَجَعَلَ لَهُ مَكَانًا لَا يُبَاعُ فِيهِ غَيْرُهُ ، وَهُوَ إِلَى الْآنَ عَلَى ذَلِكَ .

١٥ وَأَمَّا «الْحَبْسُ الْجَيُوشِي» فَكَانَ فِي الْبَرِّ الشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ : فِي الشَّرْقِيِّ بَهْتِيتُ وَالْأَمِيرِيَّةُ وَالْمُنْيَةُ ، وَكَانَتْ تُسَجَّلُ هَذِهِ النَّوَاحِي بِعَيْنٍ^(٥) ، وَفِي الْغَرْبِيِّ سَفْطُ وَنَهْيَا وَوُسَيْمٌ . وَهَذِهِ النَّوَاحِي حَبَسَهَا أَمِيرُ الْجَيُوشِ بَذْرُ الْجَمَالِيِّ عَلَى عَقِبِهِ ، هِيَ وَالْبَسَاتِينُ ظَاهِرُ بَابِ الْفَتْوحِ ، فَلَمَّا

(٥) ساقطة من بولاق . (ب) ابن ممتي : مفادنة بالعين .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٢٨-٣٢٩ ، وأضاف باقوت أن بها معاصر للسكر وبساتين ، وأن أكثر فواكه الإسكندرية منها (معجم البلدان ٢: ٢٧) ، ثم ورد

^٢ الطَّرَافَةُ . من القرى القديمة ، وردت في كتب الجغرافية العربية التي كتبت قبل منتصف القرن السادس الهجري باسم «تروطة» وهي تقع على الشاطئ الغربي لقرع النيل الغربي (قرع رشيد) ، ذكر الإدريسي أنها مدينة صغيرة متحضرة يجلب منها التَّطْرُونُ الجَيِّدُ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ (نزعة المشتاق

٣ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٣٤-٣٣٦ .

مات وطال العهد، اشتأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلباً للفائدة، ثم أذجلت في الديوان^١. قال ابن المأمون في «تاريخه»: «وجميع البساتين المختصة بالوزنة الجبوشية^٢، مع البلاد التي لهم، لم تزل في مدة أيام الوزير المأمون البطايحي بأيديهم، لم تخرج عنهم بضمان ولا غيره. فلما توفي الخليفة الأمير بأحكام الله، وجلس أبو علي بن الأفضل بن أمير الجيوش في الوزارة، أعاد الجميع إلى الملك لكون نصيبه في ذلك الأوفر. فلما قيل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله، أتم بالقبض على جميع الأملاك، وحل الأقباس المختصة بأمير الجيوش. فلم يزل يأنس به - لأنه غلام الأفضل والوزير في ذلك الوقت - وعز الملك غلام الأوحى بن أمير الجيوش، بتلطفان ورجاعان الخليفة، مع الكتب التي أظهرها الوزنة وعليها خطوط الحلفاء، إلى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم. ثم ارتفعت الحوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمس مائة للديوان الحافظي.

ولما خدع الخطير والمؤتضى في سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة، في وزارة رضوان بن ولحشي، أعاد البساتين خاصة، دون البلاد، على الوزنة بحكم مآل أمرها إليه من الاختلال ونقص الارتفاع. ولما انقرض عقب أمير الجيوش، ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة، أقتى فقهاء ذلك العصر ببطالان الحبس. فقبضت الثواحي، وصارت من جملة الأموال السلطانية: فمنها ما هو اليوم في الديوان السلطاني، ومنها ما صار وقفاً ورزقاً أجبائية، وغير ذلك^٣.

وأما «دار الضرب»، فكان بالقاهرة دار الضرب، وبالإسكندرية دار الضرب، ويقوص دار الضرب. ولا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضي القضاة أو من يستخلفه^٤، ثم رذلت في زمان حتى صار عليها تمسالة فتنة اليهود المصيرين على الفسق مع أفعالهم الإسلام. وكان يجتهد في خلاص الذهب وتحرير عياره، إلى أن أقسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة^٥.

الدواوين ٣٣٦-٣٣٣.

الدنار الناصري ضربه السلطان الناصر فرج سنة ١١٨١هـ/١٤٠٨م كمحاولة منه للتصدي لمنافسة الدوكات (Ducat) البندقية، وكان التعامل بها يتم بالغد لا بالوزن (Bacharach, J.L., «The Dinar versus the Ducat»), JAMES IV (1973), pp. 86-87، رأفت التيراوي: النقود الإسلامية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٩٦، ٦١-٦٦).

^١ قارن ابن مكي: قوانين الدواوين ٣٣٦-٣٣٩، المقرئ: مسودة المواظ ٣٨٩-٣٩٠، وفيما يلي ٤٨٧:١ وأورد المقرئ في الكراسة المحفوظة في مكتبة Liege ذكر أبواب المال الهلالي ولكن ليس بنفس الصيغة ورقة ٩٦-٩٨.

^٢ انظر فيما يلي ١٢٩:٢-١٣٠.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ١٠٥.

^٤ انظر فيما يلي ٤٤٥:١، وقارن ابن مكي: قوانين

وكانت بمصر المعاملة بالورق، فأُبطِلَها الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب في سنة بضع وعشرين، وصُزِبَ الدَّرْهَمُ المَدْوَر الذي يُقال له الكاميلى، وجُعِلَ فيه من النحاس قَدْرُ الثُلْث، ومن الفِضَّةِ الثُلْثين^١. ولم يَزَلْ يُصْزَبُ بالقاهرة إلى أن أَكْثَرَ الأميرُ محمود الأشتاذار من صُزْبِ الفُلُوسِ بالقاهرة والإشكندرية، فبَطَلَتِ الدَّرَاهِمُ من مصر، وصارت مُعاملة أهلها إلى اليوم بالفُلُوس، وبها يُقَرَّمُ الذهبُ وسائر المبيعات. وسيأتي ذِكْرُ ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر أسباب خراب مصر.

وكانت دارُ الصُزْبِ يُحْصَلُ منها للسلطان مالٌ كثيرٌ، فقلَّ في زَمَانِنَا لِقَلَّةِ الأموال؛ ودارُ الصُزْبِ اليوم جارية في ديوان الخاص.

وأما «دارُ العِيسارة»، فكانت مكانًا يُخْتَاطُ فيه للرعيَّة، وتُضَلَّعُ موازيتُهم ومكاييلُهم به، ويُحْصَلُ منها للسلطان مالٌ^٢. وجعلها السلطان صلاح الدين من جُمْلَةِ أَوْقَافِ شُورِ القاهرة، وقد ذُكِرَتْ في خِطَطِ القاهرة من هذا الكتاب^٣.

وأما «الأَحْكَازُ»، فإنها أُجِرَ مُقَرَّرَةٌ على ساحاتِ بِمِصْرَ والقاهرة، فمنها ما صار دُورًا للشكْنَى، ومنها ما أُنْشِئَ بساتين. وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية. وقد بَطُلَ ذلك من ديوان السلطان، وصارت أَحْكَازُ مصر والقاهرة وما بينهما أَوْقَافًا على جهات مُتَعَدِّدَةٍ^٤.

وأما «الْفُرُوشُ»، فكانت في الغَزِيَّةِ قَفْط، عِدَّةُ أَرْضٍ يُؤْخَذُ منها شِبْهُ الحِكْرِ عن كُلِّ فِدَّانٍ مُقَرَّرٌ مَغْلُومٌ، وقد بَطُلَ ذلك من الدِّيوان^٥.

وأما «مَقَرُّورُ الجُسُورِ»، فكان على كُلِّ ناحية تقريرُ بَعْلَةٍ قِطْعِ معلومة يُجْبَى منها عن كُلِّ قِطْعَةٍ عشرة دنانير، لثُخْرَفٍ في عمل الجُسُورِ، فيفضل منها مالٌ كثيرٌ يُخْمَلُ إلى بيت المال^٦. وقد بَطُلَ هذا أيضًا. وجِدَّةُ الثَّاصِرِ فَرَجَ على الجُسُورِ حوادث قد ذُكِرَتْ في أسباب الخراب.

^١ ابن تيمية: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، ٣٢٣.

تحقيق عبد الرحمن فهمي، القاهرة ١٩٦٦، ٤٩-٥٠.

^٢ ابن ميثاق: قوانين الدواوين ٣٤٢.

^٣ انظر الخزومي: المنهاج ٣١، ابن ميثاق: قوانين الدواوين ٣٣٣-٣٣٤، ابن بكرة: كشف الأسرار العلمية ١٦١، النابلسي: لمع القوانين المضية ٥٢، وانظر كذلك أمين فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٥٤٨-٥٤٩.

^٤ انظر فيما يلي ٤٦٤:١ ومسودة المواظ ٣٢١-٣٤٢-٣٤٤.

^٥ نفسه ٣٤٢-٣٤٤.

^٦ نفسه ٣٤٢-٣٤٤.

وأما «مَوْظَفُ الأَثْبَانِ» ، فكان جميع بَيْنَ أرض مصر على ثلاثة أقسام : قِسم للدِيَّوان ، وقِسم للمَقْطَع ، وقِسم للفلّاحين^(أ) . فيجِبِي الثَّنُّ على هذا الحكم من سائر الأقاليم ، ويؤْخَذُ في الثَّنِّ عن كلِّ مائة حمل أربعة دنانير ومئدس دينار ، فيحصل من ذلك مالٌ كبير^١ . وقد بَطَّلَ هذا أيضًا من الدِّيَّوان .

وأما «الحَرَاجُ»^(ب) ، فإنه كان في البهْنَسَاوية في سَقَطِ رَشِين [ومِثْبَالِ وسطال^(ج)] والأشْمُونَيْنِ والأشْيُوطِيَّةِ والإخْيِيمِيَّةِ والقَوْصِيَّةِ أشْجَارٌ لَا تُخَصَّى من سَنْط ، لها حُرَّاسٌ يَحْمُونَهَا حتى يُعْمَلَ منها

مراكِبُ الأَسْطُولِ ، فلا يُقْطَعُ منها إلَّا ما تَدْعُو الحاجةُ إليه ، وكان بالبهْنَسَا من العيدان ما يساوي القُودَ منها مائة دينار . وكان يُسْتَنْجَرُجُ من هذه النَّواحي مالٌ يُقَالُ له «رَشْمُ / الحَرَاجِ»^(د) ، ويُخْتَجُّ في جِبَائِهِ

بأنَّه نظير ما تَقْطَعُهُ أَهْلُ النَّواحي ، وتَنْتَفِعُ به من أَخْشَابِ السَّنْطِ في عَمَائِرِهَا ، ومَقَرَّرَ آخرُ كان يُجْبَى منهم يُعْرَفُ بـ «مَقَرَّرِ السَّنْطِ» ، فيَصْرَفُ من هذا المَقَرَّرِ أَجْزَةٌ قُطِعَ الخَشَبُ وحِزَّهُ بَضْرِيَّةً عن كلِّ مائة حمل

دينار ، وعلى المُسْتَحْدِمِينَ في ذلك أَلَّا يَقْطَعُوا من السَّنْطِ ما يَصْلُحُ لَعَمَلِ مَرَاكِبِ الأَسْطُولِ ، لكنهم إِنَّمَا يَقْطَعُونَ الأَطْرَافَ التي يُنْتَفَعُ بها في القُودِ فقط . ويُقَالُ لهذا الذي يُقْطَعُ «خَطْبُ النَّارِ» ، فيباع على

التِّجَارِ منه كلُّ مائة حمل بأربعة دنانير ، ويُكْتَبُ على أيديهم زَنَّةٌ ما يَبِيعُ عليهم ، فإذا وَرَدَتِ المَرَاكِبُ بِالخَطْبِ إلى سَاحِلِ مِصْرَ اعْتَبِرَتْ عليهم ، وقُوبِلَ ما فيها بما عُيِّنَ في الرِّسَالَةِ الوَارِدَةِ ، واسْتُخْرِجَ الثَّمَنُ

على ما في الرِّسَالَةِ . وكانت العَادَةُ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ مِمَّا في البهْنَسَا إلَّا ما فَضَّلَ عن احتِياجِ المَصَالِحِ السُّلْطَانِيَّةِ . وقد بَطَّلَ هذا جَمِيعُهُ ، واسْتَوَلَتِ الأَيْدِي على تلك الأشجار فلم يَبْقَ منها شَيْءٌ أَبْقَتْه ، ونُسِيَ هذا من الدِّيَّوان^٢ .

وأما «الْقَرْظُ» ، فإنه تَمَرُ شَجَرِ السَّنْطِ ، وكان لَا يَصْرَفُ فيه إلَّا الدِّيَّوان ، وَمَنَى وَجَدَ منه مع أَخِيذِ شَيْءٍ اشْتَرَاهُ من غَيْرِ الدِّيَّوان نُكِّلَ به ، واسْتَهْلَكَ ما وَجَدَ معه منه . فإذا اجْتَمَعَ مالُ الْقَرْظِ أَقِيمَ منه مَرَاكِبُ ثُبَاعٍ ، ويؤْخَذُ من ثَمَنِهَا الرُّبْعُ عند ما تَصِلُ إلى سَاحِلِ مِصْرَ بَعْدَ ما تُقَوِّمُ أو

يُنَادَى عليها ، وكان فيها خَيْفٌ كبيرٌ ؛ وقد بَطَّلَ ذلك^٣ .

وأما «ما يُسْتَأْذَى من أَهْلِ الذَّمَّةِ» ، فإنه كان يُؤْخَذُ منهم عَمَّا يَرِدُ وَيَصْدُرُ معهم من البَضَائِعِ ، في مِصْرَ والإسْكَنْدَرِيَّةِ وإخْمِيمَ خَاصَّةً دُونَ بَقِيَّةِ البِلَادِ ، ضَرَائِبُ تَنْقَرَّرُ في الدِّيَّوان . وقد بَطَّلَ ذلك أيضًا^٤ .

(أ) بولاق : للفلاح وابن مماتي : للزرايع . (ب) الأصل وبولاق : الحراج . (ج) زيادة من ابن مماتي .

^١ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤ .

^٢ قارن ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤-٣٤٦ .

^٣ نفسه ٣٤٧ .

^٤ نفسه ٣٤٩ .

وأما «مُقَرَّر الجَامُوس» و«مُقَرَّر بَقَر الخَيْس» و«مُقَرَّر الأَعْنَام» ، فإنه كان للسلطان من هذه الأصناف شيء كثير جداً ، فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب في نظير ما يتحصل منه في كل سنة من خمسة دنائير إلى ثلاثة دنائير ، ومن اللاجق بحق النصف من الراتب ، وأقل ما تنتج كل مائة رأس خمسون رأساً^١ إلى غير ذلك من ضرائب مُقَرَّرَة على الجاموس وعلى أبقار الخَيْس وعلى الغنم البياض والغنم الشعاري وعلى الثعل^٢ . وقد بطل ذلك جميعه لِقلة مال السلطان ، وإغراضه عن العِمارة وأشبايها ، وتعاطي أسباب الخراب .

وأما «المَوَارِثُ» ، فإنها في الدَّوْلَة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم ، من أَجْلِ أَنَّ مَذَهَبَهُمْ تَوَرِث ذَوِي الْأَرْحَام ، وَأَنَّ الْبَيْتَ إِذَا انْفَرَدَتْ اسْتَحَقَّتْ الْمَالُ بِأَجْمَعِهِ^٣ . فلما انقضت أيامهم واستولت الدولة^٤ الأيوبية ثم الدَّوْلَة النُّكْبِيَّة ، صارَ من جُمْلَة أَمْوَالِ السُّلْطَان مالُ الْمَوَارِثِ الْحَشَرِيَّة ، وهي التي يَسْتَحِقُّهَا بَيْتُ الْمَالِ عِنْدَ عَدَمِ الْوَارِثِ ، فَتَقْدَلُ فِيهَا الْوُزَرَاءُ مَرَّةً ، وَتَقْلَمُ أُخْرَى^٥ .

وأما «المُكُوسُ» ، فقد تَقَدَّمَ مُحَدِّثُهَا ، وما كان من الملوك فيها ، والذي بقي منها إلى الآن بديار مصر يلي أَمْرَهُ الْوَزِيرُ . وفي الحقيقة إنما هو نَفْعٌ لِلْأَقْبَاطِ يَتَحَوَّلُونَ فِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ . وقد تَضَاعَفَتْ الْمُكُوسُ فِي زَمَانِنَا عَمَّا كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنْذُ عَهْدِ تَحَدُّثِ الْأَمِيرِ بِجَمَالِ الدِّينِ يُوسُفَ الْأَسْتَاذَارِ فِي الْأَمْوَالِ السُّلْطَانِيَّة ، كَمَا ذَكَرَ فِي أَشْبَابِ الْخَرَابِ .

وأما «الْبَرَاطِيلُ» ، وهي الْأَمْوَالُ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ وِلَاةِ الْبِلَادِ وَمُخْتَصِبِهَا وَقَضَاتِهَا وَعُمَلِهَا ، فَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَ ذَلِكَ بِمِصْرَ الصَّالِحُ بْنُ رُزَيْكٍ^٦ فِي وِلَاةِ النُّوَاجِي فَقَط ، ثُمَّ بَطَلُ . وَعَمِلَ فِي أَيَّامِ الْعَزِيزِ بْنِ صَلَاحِ الدِّينِ أَحْيَانًا ، وَعَمِلَهُ الْأَمِيرُ شَيْخُونُ فِي الْوِلَاةِ فَقَط ، ثُمَّ أَفْحَشَ فِيهِ الظَّاهِرُ بِرُقُوقٍ ، كَمَا ذَكَرَ^٧ فِي أَشْبَابِ الْخَرَابِ .

وأما «الْحِمَايَاتُ وَالْمُسْتَأْجَرَاتُ» ، فَشَيْءٌ حَدَثَ فِي أَيَّامِ النَّاصِرِ قَرَجَ ، وَصَارَ لَذَلِكَ دِيْوَانٌ وَمُبَاشِرُونَ ، وَعَمِلَ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَمْرَاءُ . وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ أَشْبَابِ الْخَرَابِ كَمَا يُذَكَّرُ فِي مَوْضِعِهِ .

(a) ساقطة من الأصل . (b) بولاق : يأتي .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٥٠ - ٣٥٢ . ^٢ قارن ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣١٩ - ٣٢٥ .

^٣ انظر حول هذا الموضوع ، أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٣٩ - ٥٤٣ . ^٤ راجع ، ابن طاهر : أخبار الدول المنقطعة ١١١ : ابن خلكان : وفيان ٣ : ١١١ : التويري : نهاية ٢٨ : ٣٢٥ =

ذكر الأهرام

اعلم أنَّ الأهرامات ^(a) بمصر كانت كثيرة ^(b) جدًا، منها بناحية بوصير شيء كثير، وبعضها كيار، وبعضها صغار، وبعضها طين ولين، وأكثرها حجير، وبعضها مدزج، وأكثرها مخروط أقلس. وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر جثة كثيرة كلها صغار، هُدمت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش، وبقي بها قلعة الجبل، والشور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة ^٢.

(a) بلاق: الأهرام. (b) بلاق: كانت بأرض مصر كثيرة.

١٩٦٥؛ مصطفى جواد: «مؤرخ الأهرام وأبي الهول: جمال الدين أبو جعفر الإدرسي»، مجلة الكتاب (أبريل

Fodor, A., «Haram and ٨٥٨-٨٦٨», (١٩٤٧) Hermes: Origin of the Arabic Word *Haram* meaning pyramid», *Studia Aegyptiaca* 2 (1976), pp. 157-67; id., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia Hungarica* 23 (1970), pp. 335-63; Plessner, M., *El*² art. *Haram* III, p. 117; Haarmann, U., *El*² art. *al-Idrisi* Supplement I, pp. 407-408; id., «In Quest of the Spectacular: Noble and Learned Visitors to the Pyramids around 1200 A.D.», in *Islamic Studies Presented to Charles Adams*, Leiden - Brill 1992, pp. 57-67; id., «Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt», *BSOAS* 43 (1980), pp. 57-66.

ونشر إريك جراف الفصل الذي عقده المقرئ عن الأهرام في سنة ١٩١١. Graef, B., *Das Pyramidenkapitel in al-Maqrizi's «Hitat»*, Leipzig Semitistische Studien Y/5, Leipzig 1911 وأعيد نشره أيضًا في ليبسج سنة ١٩٦٨.

^٢ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ١٤٤ =

= المقرئ: اتماظ ٣: ٢٢٢، ٢٤٤؛ أبا المحاسن: النجوم ٣٣٩: ٥.

^١ لفتت أهرام مصر انتباه المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين زاروا مصر في العصور القديمة أو في العصر الإسلامي، واحتل وصفها والحديث عنها مكانة بارزة في مؤلفاتهم. وجمع المقرئ في الفصل الذي خصصه هنا لذكر الأهرام أهم ما جاء في هذه الأوصاف والذي اعتمد فيه على أكثر من عشرين مصدرًا، أهمها مؤلفات المسعودي وابن وصيف شاه وابن النديم وأبي حامد الفراء والقضاعي وعبد اللطيف البغدادي وأمية بن عبد العزيز وابن عبد الحكم والهيثماني وعلي بن رضوان الطيب. ومن الغريب أنَّ المقرئ لم يشر إلى أهم كتاب شخص للحديث عن الأهرام وهو كتاب وأنوار علوي الأهرام في الكشف عن أسرار الأهرام، للشريف أبي جعفر محمد بن عبد العزيز الإدرسي المتوفى سنة ١٢٥١/٥٦٤٩م - رغم أنه ترجم له في الكراسة الموجودة بخطه في مكتبة Liège - وإن ألفت العديد من نصوصه مع ما وُزَّع في كتاب الإدرسي

(راجع حول هذا الموضوع، أحمد أحمد بدوي: الآثار المصرية في الأدب العربي (المكتبة الثقافية ١٢٤)، القاهرة

وأعظم الأهرام الأهرامات^١ الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانها والسبب في بنائها، وقالوا في ذلك أقوالاً متباينة أكثرها غير صحيح. وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفي ويكفي إن شاء الله تعالى^٢.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكايب في «أخبار مصر وعجائبيها» في أخبار شوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال، أخذ ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يشككون في مدينة أمسوس الآتي ذكرها عند ذكرها مدائن مصر من هذا الكتاب^٣: وهو الذي بنى الهرمتين العظيمين بمصر المنسويتين إلى شداد بن عاد، والقيط تذكير أن تكون العادبة دخلت بلادهم لقوة سيخرهم^٤.

وسبب بناء الهرمتين^٥ أنه كان قبل الطوفان ثلاث مائة سنة قد رأى شوريد في منامه / كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكان الناس قد هربوا على وجوههم، وكان الكواكب تتساقط ويضلم بعضها بعضاً بأضواء هائلة، فغم ذلك، ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدث في العالم أمر عظيم. ثم رأى بعد ذلك بأيام كان الكواكب النائية نزلت إلى الأرض في صور طيور بيض، وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلتين عظيمين، وكان الجبلتين قد انطبقتا عليهما، وكان الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة؛ فأنشئ مزعوباً^٦ مدعوراً، ودخل إلى هيكل الشمس، وتضرع ومزعج خذله على الثراب وبكى. فلما أصبح، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر - وكانوا مائة وثلاثين كاهناً - فحلا بهم، وحكى لهم^٧ ما رآه أولاً وأخراً، فأولوه بأمر عظيم

(١) ساقطة من بولاق. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) بولاق: وحدثهم.

التي ترى أن اثنين من الأهرام أحدهما قبر لهرمس والآخر قبر لأخانديمون، ومصدر هذه الرواية أبو معشر البلخي، ثم أسطورة حلم الملك سوريد ومصدرها ابن وصيف شاه والقضاي، وأخيراً رواية المسعودي عن أن شداد بن عاد أحد ملوك العمالة هو الذي بنى الأهرام، وقد أورد المقرئ هنا الروايات الثلاثة. Fodor, A., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia* XXIII (1970), pp. 334-63.

= الإبرسي: أنوار علوي الأهرام ٣٩، وانظر فيما يلي ٣٢٥ (نقلًا عن كتاب عجائب البلدان)، ١٥١:٢، ٢٠٣.

^١ انظر فيما يلي ٣٢٥-٣٢٧.

^٢ فيما يلي ٣٥٠-٣٦٣.

^٣ للمسعودي: أخبار الزمان ١٣٢.

^٤ ناقش الأستاذ فودور A.Fodor أصول الروايات العربية الثلاثة الخاصة ببناء أهرام مصر وهي: أسطورة هرمس

يحدث في العالم. فقال عظيم الكهان، ويقال له فليمنون: إن أخلام الملوك لا تجري على محال
لعظم [أخطارهم وكتب^٨] أقدارهم، وأنا أخبر الملك برؤيا رأيته منذ سنة، ولم أذكرها لأحد من
الناس. رأيته كائني قاعد مع الملك على وسط المنار الذي بأشموس، وكان الفلك قد انحط من
موضعه حتى قارب [سنت] رؤوسنا، وكان علينا كالقبة المحيطة بنا، وكان الملك قد رفع يديه
نحو السماء وكواكبها قد خالطتها في صور شئ مختلفة الأشكال، وكان الناس قد جفلوا إلى
قصر الملك وهم يستغيثون به، وكان الملك قد رفع يديه حتى بلغت رأسه وأمرني أن أفعل كما فعل
ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منها موضعاً قد انفتح وخرج منه نور مضيء، وطلعت علينا منه
الشمس، وكانا استغتنا بالشمس فخطبتنا أن الفلك سيعود^٩ إلى موضعه إذا مضت ثلاث مائة
ذوذة، وكان الفلك لصيق بالأرض ثم عاد^{١٠} إلى موضعه، فانبهت مزعوباً.

١٠. (نم) نمت فرأيت كأن مدينة أشموس قد انقلبت بأهلها، والأضنام تهوي على رؤوسها،
وكان أناساً نزلوا من السماء بأيديهم مقامع من حديد يضربون الناس بها، فقلت لهم: ولم
تفعلون بالناس كذا؟ قالوا: لأنهم كفروا باليهيم؛ فقلت: فما بقي لهم من خلاص؟ قالوا:
نعم، من أراد الخلاص فليخلق بصاحب السفينة. فانبهت مزعوباً^{١١}.

١٥. فقال الملك: أخذوا الارتفاع للكواكب^{١٢}، وانظروا هل من حادث؟ فبلغوا غايتهم في
استقصاء ذلك، وأخبروا بأمر الطوفان وبغده بالنار التي تخرج من بروج الأسد تحرق العالم^{١٣}. فقال
الملك: انظروا، هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟ فقالوا: نعم، تأتي في الطوفان على أكره، ويلحقه
خراب يقيم عدة سنين. قال: فانظروا هل يعود عابراً كما كان، أو يبقى مغموراً بالماء دائماً.
قالوا: بل تعود البلاد كما كانت وتغمر، قال: ثم ماذا؟ قالوا: يقصدها ملك يقتل أهلها ويقتل

(a) زيادة من الإدريسي. (b-b) إضافة من الإدريسي والنويري. (c-c) هذه الفقرة ساقطة من الإدريسي
والنويري. (d) الإدريسي والنويري: ارتفاع الكواكب.

^١ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام لابن دحية ٦٠ هـ^١ أن بحوزته نسخة من كتاب المقصد المرام في
عجائب الأهرام للشيخ عبد القادر بن عمر اليفلادي النحوي
صحيحه وتقمه من أصله الأسعد بن مئتي؛ النويري: نهاية الأرب
٣٨٨: ١، ٢٢: ٢٣ ومصدره إبراهيم بن وصيف شاه وهو
أيضاً مصدر المقرئ؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٠٨-١١٠.
١١٩-١٢١ (تقلاً من ما وجدته بخط الأسعد بن مئتي وهو خال والد
الإدريسي، وله في الأهرام تصنيف لطيف يحوي على عشرين ورقة،
كان ضيقه للملك العزيز عثمان عندما عزم على هدمها) أنوار علوي
الأجرام ٣٠، وأشار عباس المزاري في تعليقه على كتاب التبراس

مَالِهَا . قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالُوا : يَنْقُصُهَا قَوْمٌ مُشَوِّهُونَ مِنْ نَاحِيَةِ جَبَلِ النِّيلِ ، وَيَمْلِكُونَ أَكْثَرَهَا ،
قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالُوا : يَنْقَطِعُ نَيْلُهَا ، وَتَخْلُو مِنْ أَهْلِهَا .

فَأَمَرَ عِنْدَ ذَلِكَ بِعَمَلِ الْأَهْرَامِ ، وَأَنْ يُعْمَلَ لَهَا مَسَارِبٌ تَدْخُلُ مِنْهَا الثِّيلُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ ، ثُمَّ
يُغِيضُ إِلَى مَوَاضِعٍ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ وَأَرْضِ الشَّعِيدِ ، وَمَلَأَهَا طِلْشَمَانَ وَعَجَائِبَ وَأَمْوَالًا وَأَضْغَانًا
وَأَجْسَادَ مَلُوكِهِمْ ، وَأَمَرَ الْكُهَّانَ فَرَزَبُوا عَلَيْهَا بِجَمِيعِ مَا قَالَتْهُ الْحُكَمَاءُ ، وَزَيَّرَ فِيهَا وَفِي شَقُوفِهَا
وَحِيطَانِهَا وَأَشْطَلُونَانِهَا جَمِيعَ الْعُلُومِ الْغَايِضَةِ الَّتِي يَدْعِيهَا أَهْلُ مِصْرَ ، وَصَوَّرَ فِيهَا صُورَ الْكُورَاكِبِ
كُلِّهَا ، وَزَيَّرَ عَلَيْهَا أَشْوَاءَ الْعَفَاقِيرِ وَمَنَافِعَهَا وَمَضَارِهَا ، وَعِلْمَ الطَّلَسْمَاتِ وَعِلْمَ الْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ
وَجَمِيعَ عُلُومِهِمْ مُفَفَّرًا لِمَنْ يَعْرِفُ بِكِتَابَتِهِمْ وَلُغَتِهِمْ .

وَلَمَّا شَرَعَ فِي بِنَائِهَا أَمَرَ بِقَطْعِ الْأَشْطَلُونَانَ الْعَظِيمَةِ ، وَنَشْرِ الْبِلَاطَاتِ الْهَائِلَةِ^٥ ، وَاسْتِخْرَاجِ
الرِّصَاصِ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ ، وَإِخْضَارِ الصُّخُورِ مِنْ نَاحِيَةِ أَشْوَانَ . فَبَنَى بِهَا أُسَاسَ الْأَهْرَامِ الثَّلَاثَةِ
الشَّرْقِيَّ وَالْمَرْكَبِيَّ وَالْمَلُونِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ صَحَائِفُ وَعَلَيْهَا كِتَابَةٌ ، إِذَا قُطِعَ الْحَجَرُ وَتَمَّ إِحْكَامُهُ ،
وَضَعُوا عَلَيْهِ تِلْكَ الصَّحَائِفَ وَضَرَبُوهُ ، فَيَتَعَدُّ بِتِلْكَ الضَّرْبَةِ قَدْرَ مِائَةِ سَهْمٍ ، ثُمَّ يُعَاوَدُونَ ذَلِكَ حَتَّى
يَصِلَ الْحَجَرُ إِلَى الْأَهْرَامِ . وَكَانُوا يُمِدُّونَ الْبِلَاطَةَ وَيَجْعَلُونَ فِي ثَقْبِ بَوَسْطِهَا قُطْبًا مِنْ حَدِيدٍ قَائِمًا ،
ثُمَّ يُرْكَبُونَ عَلَيْهَا بِلَاطَةً أُخْرَى مُثَقَّوَةٌ الْوَسْطُ وَيُدْخِلُونَ الْقُطْبَ فِيهَا ، ثُمَّ يُذَابُ الرِّصَاصُ وَيُصَبَّ
فِي الْقُطْبِ حَوْلَ الْبِلَاطَةِ بِهَيْئَتِهِمْ وَثِقَانِ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ^١ .

وَيَجْعَلُ لَهَا أَبْوَابًا تَحْتَ الْأَرْضِ بِأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا^٢ : فَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الشَّرْقِيِّ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ
الشَّرْقِيَّةِ عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسْطِ حَائِطِ الْهَرَمِ . وَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الْغَرْبِيِّ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسْطِ الْحَائِطِ . وَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الْمَلُونِ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسْطِ الْحَائِطِ . فَإِذَا حَفِزَ بَعْدَ هَذَا الْقِيَاسِ ، وَصِلَ إِلَى بَابِ الْأَرْجِ الْمَبْنِيِّ ،
وَيَدْخُلُ إِلَى بَابِ الْهَرَمِ .

^٥ بولات : البلات الهائل .

^١ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١١٢١ التويري :
^٢ هنا فقرة عن أبواب الأهرام عند الإدريسي والتويري ،
نهاية الأب ٢٤:١٥ وقارن أبا المحاسن : النجوم الزاهرة
نقلها المقرئ في ما يلي ٣١٧ .

وجعلَ ارتفاعَ كلِّ واحدٍ من الأهرام في الهواء مائة ذراع بالذراع الملكي، وهو بذراعهم خمس مائة ذراع بذراعنا الآن، وجعلَ طول كلِّ واحدٍ من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم، ثم هَنَّدَمَهَا^(a) من كلِّ جانب حتى تَحَدَّدَت أعالِها من آخر طُولها على ثمانية أَذْرُعَ بذراعنا^(b).

وكان ابتداء بنائها في طالعٍ سعيد اجتمعوا عليه وتَخَيَّرُوهُ . فلَمَّا قَرَعَتْ ، كَسَّاهَا دِيَاجَا مُلَوَّنًا من فوقها إلى أَشْفَلِهَا ، وعَمِلَ لها عِيْدًا حَضَرَهُ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ بِأَجْمَعِهِمْ^(c) . ثم عَمِلَ في الهرم الغربي ثلاثين مجوَّنًا^(d) من حجارة صَوَّان مُلَوَّن ، ومثلت بالأموال الجَمَّة والآلات والثماثيل المَقْمُولَة من/ الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذي لا يَصُدُّ ، والزجاج الذي يَنْطَوِي ولا يَنْكَسِر ، والطلَّسَمات الغريبة ، وأصناف العقاقير المَفْرَدَة والمؤَلَّفَة ، والشُموم القَاتِلَة .

وَعَمِلَ في الهرم الشَّرْقِي أَصْنَافَ القِيَاب الفَلَكِيَّة والكَوَاكِب ، وما عَمِلَهُ أَجْدَادُهُ من الثماثيل والدُّخَن التي يَتَقَرَّبُ بها إلى الكَوَاكِب ومَصاحِفها ، وَكَوَّنَ الكَوَاكِب الثَّابِتَة وما يَحْدُثُ في أَذْوَارِها وَقَتًا وَقَتًا ، وما عَمِلَ لها من التواريخ والحوادث التي مَضَتْ ، والأوقات التي يُنْتَظَرُ فيها ما يَحْدُثُ ، وكلَّ من يَلِي مصر إلى آخِر الزَّمان ، وجعلَ فيها المَطَاهِر التي فيها المِياه المُدَبَّرَة ، وما أَشَبَه ذلك .

وجعلَ في الهرم المَلَوَّن أَجْسَادًا^(e) الكَهَنَة في تَوَابِت من صَوَّان أَسود ، ومع كلِّ كاهن مُصْحَف فيه عَجَائِب صِنَاعَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ وَسِيرَتِهِ ، وما عَمِلَ في وَقْتِهِ ، وما كان وما يَكُون من أَوَّل الزمان إلى آخره ، وجعلَ في الحيطان من كلِّ جانب أَصْنَافًا تَقَعَلُ بِأَيْدِيهَا جَمِيع الصِّنَاعَات^(f) على مَرَاتِبِها وَأَقْدَارِها ، وَصِفَة كُلِّ صَنْعَة وَعِلَاجِها وما يَضْلُحُّ لها . ولم يَتْرُكْ جِلْعًا من العُلوم حتى زَيَّرَهُ وَرَسَّعَهُ . وجعلَ فيها أَمْوَالَ الكَوَاكِب التي أَهْدَمَتْ إلى الكَوَاكِب ، وأَمْوَالَ الكَهَنَة ، وهو شيء عَظِيم لا يُخَصَى^١ .

(a) بولاق : هندسها . (b) النص عن النويري : نهاية ١٥ : ٢٤ - ٢٥ . وجعل طول كل واحد منها أربع مائة ذراع بالملكي يكون خمس مائة بلراعنا . وجعل تربع كل واحد أربع مائة ذراع ، وبنّاها في الاستواء إلى أربعين ذراعًا ، ثم هَنَّدَمَهَا . (c) بولاق بأجمعها . (d) الأصل وبولاق : مخزنا والتصويب من الإدريسي والنويري . (e) الأصل : أخبار . (f) بولاق : الصنائع .

^١ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٢١ - ١٢٣ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٢٤ - ٢٥ .

وَجَعَلَ لِكُلِّ هَرَمٍ مِنْهَا خَازِنًا^(٥) : فَخَازِنُ^(٦) الْهَرَمِ الْغَرِيبِ صَنَمٌ مِنْ حِجَارَةِ صَوَانٍ مُجْتَرَعٍ ، وَهُوَ وَاقِفٌ وَمَعَهُ بَيْتُهُ حَزْبَةٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ حَيْثُ قَدْ تَطْلُوقُ بِهَا : مَنْ قَرَّبَ مِنْهُ وَتَبَّثَ إِلَيْهِ وَطَلَّقَتْ عَلَى عُنُقِهِ وَقَتَّلَتْهُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مَكَانِهَا . وَجَعَلَ خَازِنُ^(٥) الْهَرَمِ الشَّرَاقِيِّ صَنَمًا مِنْ جِرْعِ أَشْوَدٍ مُجْتَرَعٍ بِأَشْوَدٍ وَأَبْيَضٍ ، لَهُ عَيْنَانِ مَفْتُوحَتَانِ بِرَاقَتَانِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ وَمَعَهُ حَزْبَةٌ : إِذَا نَظَرَ أَخَذَ إِلَيْهِ سَمِيعٌ مِنْ جِهَتِهِ صَوْتًا يَنْفَرُ مِنْهُ فَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَا يَتَرَجَّحُ حَتَّى يَمُوتَ . وَجَعَلَ خَازِنُ^(٥) الْهَرَمِ الْمَلُونِ صَنَمًا مِنْ حَجَرِ الْبَهْتِ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْهُ : مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ ، جَذَبَتْهُ حَتَّى يَلْتَصِقَ بِهِ فَلَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يَمُوتَ^(١) .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ ، حَصَرَ الْأَهْرَامَ بِالْأَرْوَاحِ الرُّوحَانِيَةِ ، وَذَبَحَ لَهَا الذَّبَائِحَ لَتَقْنَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا مِنْ أَرَادَها ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهَا أَهْمَالًا الْوُضُولَ إِلَيْهَا^(٢) .

١٠ وَذَكَرَ الْقَيْطُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ عَلَيْهَا كِتَابًا^(٣) مَقْقُوشًا تَقْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ : وَأَنَا سُورِيدُ الْمَلِكِ ، بَنَيْتُ هَذِهِ الْأَهْرَامَ فِي وَقْتٍ كَذَا وَكَذَا ، وَأَتَمَمْتُ بِنَاؤَها فِي سِتِّ سِنِينَ . فَمَنْ أَتَى بَعْدِي ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مَلِكٌ مِثْلِي ، فَلْيَهْدِمِها فِي سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْهَدْمَ أَهْسَرَ مِنَ الْبُنْيَانِ . وَأَنِّي كَسَوْتُهَا عِنْدَ قَرَاغِها بِالذَّبْيَاجِ ، فَلْيَكْسُها بِالْحَصْرِ^(٤) . فَتَنظَرُوا فَوَجَدُوا أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِهَدْمِها شَيْءٌ فِي^(٥) الْأَرْزَامِ الْعُطُولِ .

١٥ وَحَكَى الْقَيْطُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ رُوحَانِيَةَ الْهَرَمِ الشَّمَالِيِّ عَلَامٌ أَفْرَدَ ، أَصْفَرُ اللَّوْنِ^(٦) ، غُرْبَانٌ ، فِي فِيهِ أُنْيَابٌ كِبَارٌ . وَرُوحَانِيَةُ الْهَرَمِ الْجَنُوبِيِّ ائْرَاءُ غُرْبَانَةٍ ، بَادِيَةُ الْفَرْجِ خَشْنَاءُ ، فِي فِيْهَا أُنْيَابٌ كِبَارٌ ، تَشْتَهِي الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَتْهُ ، وَتَضْحَكُ لَهُ حَتَّى يَذْنُو مِنْهَا فَتَسْلُبُهُ عَقْلَهُ . وَرُوحَانِيَةُ الْهَرَمِ الْمَلُونِ شَيْخٌ فِي يَدِهِ مِجْمَرَةٌ مِنْ مَجَامِيرِ الْكُنَائِسِ يُسَخِّرُ بِهَا . وَقَدْ رَأَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّاتِ يَرَارًا وَهِيَ تَطْلُوفُ حَوْلَ الْأَهْرَامِ وَقَدْ قَامِلَتِ وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ^(٧) .

(٥) بولاق : خادما . (٦) بولاق : ضخام . (٧) ساقطة من بولاق . (د) بولاق : من . (هـ) زيادة من بولاق .

^١ الإدرسي : أنوار علوي ١٢٧ ، المقرئ : نهاية ^٢ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٢٧٧ ، أمية بن عبد العزيز : الأرب ١٥ : ٢٦٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٠ - ٧٢ . الرسالة المصرية ٢٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٢ .

^٢ نفسه ١٢٨ : ٢٦ - ٢٧ . ^٣ الإدرسي : أنوار ١٣٣ ، النوري : نهاية ١٥ : ٣٢ .

قال: ولما مات سوريد، دُفِنَ في الهرم معه أمواله وكنوزُه؛ وقالت القبط: إن سوريد هو الذي بنى البرابي، وأودع فيها كنوزًا، وزَرَعَ عليها غُلُومًا، ووَكَّلَ بها رُوحانيات تحفظها ممن يقصدها.

قال: وأما الأهرام الدهشورية، فيقال إن شذات بن عديم هو الذي بناها من الحجارة التي كانت قد قُطِعَتْ في زمن أبيه. وشذات هذا يزعم بعض الناس أنه شذاد بن عاد. وقال من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر: إنما غلبوا باسم شذات بن عديم، فقالوا شذاد بن عاد، لكثرة ما يجري على ألبستهم شذاد بن عاد، وقلة ما يجري على ألبستهم شذات بن عديم، ولأفما قدر أحد من الملوك يَدْخُلَ مصر ولا قُوِيَ على أهلها، غير بُخْت نَصْر^١. والله أعلم.

وذكر أبو الحسن المشغودي في كتابه «أخبار الرمان ومن أباده الحدان» أن الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، لما قَدِمَ مصر وأتى على الأهرام، أحب أن يهدم أحدها ليَعْلَمَ ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك، فقال: لا بُدَّ من فتح شيء منه^٢. ففتحت له الثلثة المفتوحة الآن بنار ثوقد، ونخل يُرَشُّ، ومعاول وحدادين يعملون فيها، حتى أُنْفِقَ عليها أموالاً عظيمة، فوجدوا غرض الحائط قريباً من عشرين ذراعاً. فلما انتهوا إلى آخر الحائط، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب، وزن كل دينار أوقية، وكان عددها ألف دينار. فحصل المأمون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته، ثم أمر بمجئته ما أتفق على الثلثة فوجدوا الذهب الذي أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص، فعجب من مغرتهم بمقدار ما يُنْفِقَ عليه، ومن تركهم ما يوازيه في الموضع، عجباً عظيماً^٣. وقيل إن المطهرة التي وُجِدَ فيها الذهب كانت من زبجج، فأمر المأمون بحملها إلى خزائنه. وكان آخر ما حُمِلَ^٤ من عجائب مصر^٥.

(a) بولاق: آخر ما عمل، الإدريسي: آخر ما حمله.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٧-١٢٨ ابن فضل الله العمري:

مسالك الأبصار ١: ٢٣٥-٢٣٦ السيوطي: حسن المحاضرة

١: ١٧٢ وفيما يلي ٣٠٨، ٣٢١-٣٢٢ وانظر كذلك Van

Reeth, J., «Caliph al-Ma'mun and the Treasure of

the Pyramids», OLP25 (1994), pp. 221-36

^٢ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦١.

^٣ وذلك في سنة ست عشرة ومائتين (أنوار علوي

الأجرم ٣١: صبح الأعشى ٣: ٣٢٥).

^٤ قارن أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٧٧

الإدريسي: أنوار علوي ٣٥: مجهول الاستبصار ٥٦-٥٧

وأقام الناس سنين يقصِدونه، وينزلون في الزَّلَاقَةِ التي فيه: فمنهم من يَسْلَمُ، ومنهم من يَهْلِكُ.

فَاتَّفَقَ عَشْرُونَ مِنَ الْأَعْدَاثِ عَلَى دُخُولِهِ، وَأَعَدُّوا لَذَلِكَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ^١ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَجِبَالٍ وَشَمْعٍ وَنَحْوِهِ، وَنَزَلُوا فِي الزَّلَاقَةِ، فَرَأَوْا فِيهَا مِنَ الْحَفَاشِ مَا يَكُونُ كَالْفَقْبَانِ تَضْرِبُ وَجُوهَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَذَلُّوا أَحَدَهُمْ بِالْحِيَالِ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِ الْمَكَانَ، وَحَاوَلُوا جَذْبَهُ حَتَّى أَغْيَاهُمْ، فَسَمِعُوا صَوْتًا/ أَرْعَبَهُمْ فَعُشِيَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَامُوا وَخَرَجُوا مِنَ الْهَرَمِ. فَبَيْنَمَا هُمْ لِمَجْلُوسٍ يَتَعَجَّبُونَ مِمَّا وَقَعَ لَهُمْ؛ إِذْ أَخْرَجَتْ الْأَرْضُ صَاحِبَهُمْ سَحَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَمْ يَفْهَمُوهُ، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّثًا، فَحَمَلُوهُ وَمَضَوْا بِهِ. فَأَخَذَهُمُ الْخَفَرَاءُ وَأَتَوْا بِهِمْ إِلَى الْوَالِيِّ فَخَدَّوْهُ خَيْرَهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوا عَنْ الْكَلَامِ الَّذِي قَالَ صَاحِبُهُمْ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَعْنَاهُ، «هَذَا جَزَاءٌ مِنْ طَلَبَ مَا لَيْسَ لَهُ». وَكَانَ الَّذِي فَسَّرَ لَهُمْ مَعْنَاهُ بَعْضُ أَهْلِ الصُّعِيدِ^٢.

وقال علي بن رضوان الطَّيِّبُ: فَكُرِتَ فِي بِنَاءِ الْأَهْرَامِ، فَأَوْجِبَ عِلْمُ الْهَيْئَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَرَفَعَ الثَّقِيلَ إِلَى فَوْقَ، أَنْ يَكُونَ الْقَوْمُ هَنْدَسُوا سَطْحًا مُرَبَّعًا، وَنَحَتُوا الْحِجَارَةَ ذَكْرًا وَأُنْثَى، وَرَضُّوْهَا بِالْجِيسِ الْبَخْرِيِّ إِلَى أَنْ ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ بِقَدَارِ مَا يُمَكِّنُ رَفْعَ الثَّقِيلِ، وَكَانُوا كُلُّمَا صَعِدُوا ضَمُّوا الْبِنَاءَ حَتَّى يَكُونَ السَّطْحُ الْمَوَازِي لِلْمُرْتَبِعِ الْأَسْفَلِ مُرَبَّعًا أَصْغَرَ مِنَ الْمُرْتَبِعِ الشُّفْلَانِيِّ، ثُمَّ عَمِلُوا فِي السَّطْحِ الْمُرْتَبِعِ الْقَوَّانِي مُرَبَّعًا أَصْغَرَ بِقَدَارِ مَا بَقِيَ فِي الْحَاشِيَةِ مَا يُمَكِّنُ رَفْعَ الثَّقِيلِ إِلَيْهِ. وَكُلُّمَا رَفَعُوا خَجَرًا مُهَنْدَمًا رَضُّوهُ إِلَيْهِ ذَكْرًا وَأُنْثَى، إِلَى أَنْ ارْتَفَعَ بِقَدَارِ مِثْلِ الْمَقْدَارِ الْأَوَّلِ. وَلَمْ يَزَالُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ بَلَغُوا غَايَةَ لَا يُمَكِّنُهُمْ بَقَايَا أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، فَقَطَّعُوا الِارْتِفَاعَ وَنَحَتُوا الْجَوَائِبَ الْبَارِزَةَ الَّتِي فَرَضُّوْهَا لِرَفْعِ الثَّقِيلِ، وَنَزَلُوا فِي الثُّخْتِ مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلٍ، وَصَارَ الْجَمِيعُ هَرَمًا وَاجِدًا.

وَيُقَاسُ الْهَرَمُ الْأَوَّلُ بِالذَّرَاعِ الَّتِي تُقَاسُ بِهَا الْيَوْمَ الْأَيْثِيَّةُ بِمَصْرَ، كُلَّ حَاشِيَةٍ مِنْهُ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ، يَكُونُ بِالذَّرَاعِ السُّودَاءِ^٣ - الَّتِي طُولُ كُلِّ ذِرَاعٍ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَصْبُعًا - خَمْسُ مِائَةِ ذِرَاعٍ.

(a) بولاق: يحتاجون من.

^١ المسمودي: أخبار الزمان ١٣٨-١٤٠ وانظر كذلك ٢٨: ١٥-٢٩.

الإدريسي: أنوار علوي ١٢٨-١٣٠ التويري: نهاية ^٢ عن الذراع السوداء انظر فيما تقدم ١٠٦-١٠٧.

وذلك أنَّ قَاعِدَتَهُ مُرْتَبِعٌ مُتَسَاوِي الأَضْلَاعِ والزُّوَايا : ضِلْعَانِ مِنْهُمَا عَلَى خَطِّ نَصْفِ النَّهَارِ ، وَضِلْعَانِ عَلَى خَطِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَكُلُّ ضِلْعٍ بِالذَّرَاعِ السُّوْدَاءِ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ . وَالْخَطُّ الْمُتَحْدِثُ عَلَى اسْتِغْنَاتِهِ مِنْ رَأْسِ الْهَرَمِ إِلَى نِصْفِ ضِلْعِ الْمُرْتَبِعِ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَسَبْعُونَ ذِرَاعًا ، يَكُونُ إِذَا نُتِمَّ أَيْضًا خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ .

• وَأُحِيطَ بِالْهَرَمِ أَرْبَعَةُ مُثَلَّثَاتٍ وَمُرْتَبِعٌ ، كُلُّ مُثَلَّثٍ مِنْهَا مُتَسَاوِي السَّاقَيْنِ ، كُلُّ سَاقٍ مِنْهُ إِذَا نُتِمَّ خَمْسَ مِائَةِ وَسْتُونَ ذِرَاعًا . وَالْمُثَلَّثَاتُ الْأَرْبَعَةُ تَجْمَعُ رُؤُوسَهَا عِنْدَ نَقْطَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ رَأْسُ الْهَرَمِ إِذَا نُتِمَّ ، فَيَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ عَمُودُهُ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا . وَعَلَى هَذَا الْعَمُودِ مَرَاكِزُ أَثْقَالِهِ ، وَيَكُونُ تَنْكِسِيرُ كُلِّ مُثَلَّثٍ مِنْ مُثَلَّثَاتِهِ ^(أ) أَرْبَعُ مِائَةٍ أَلْفٍ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذِرَاعٍ ، إِذَا اجْتَمَعَ تَكَاسِيرُهَا كَانَ مَبْلَغُ تَنْكِسِيرِ سَطْحِ هَذَا الْهَرَمِ خَمْسَ مِائَةِ أَلْفِ ذِرَاعٍ بِالسُّوْدَاءِ . وَمَا أَحْسَبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِنَاءً أَعْظَمَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْسَنَ هَنْدَسَةً ، وَلَا أَطُولَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ١٠

وَقَدْ فَتَحَ الْمَأْمُونُ نَقْبًا مِنْ هَذَا الْهَرَمِ فَوَجَدَ فِيهِ زَلَّاقَةً تَصْعَدُ إِلَى بَيْتِ مُرْتَبِعٍ مُكَعَّبٍ ، وَوَجَدَ فِي وَسْطِهِ ^(ب) قَبْرَ رُحَامٍ ، وَهُوَ بَاقٍ فِيهِ إِلَى الْيَوْمِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ بِخَطِّهِ .

وبذلك أَخْبَرَ جَالِينُوسُ أَنَّهَا قُبُورٌ ، فَقَالَ فِي آخِرِ الْخَامِسَةِ مِنْ «تَذِيرِ الصَّحْهَةِ» ^١ بِهَذَا اللَّفْظِ : «وَهُمْ يُسَمُّونَ مَنْ كَانَ فِي هَذَا السَّنِ الْهَرَمِ ، وَهُوَ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَهْرَامِ الَّتِي هُمْ إِلَيْهَا صَائِرُونَ عَنْ قَرِيبٍ» . ١٠

وَقَالَ الْحَوْقَلِيُّ فِي «صِفَةِ مِصْرَ» : وَبِهَا الْهَرَمَانِ اللَّذَانِ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِهَمَا نَظِيرٌ فِي مِثْلِكَ مُسْلِمٍ وَلَا كَافِرٍ ، وَلَا عَجِلَ وَلَا يُغْمَلُ كُهُمَا ^٢ .

وَقَرَأَ بَعْضُ بَنِي الْعَبَّاسِ عَلَى أَحَدِهِمَا : إِنِّي قَدْ بَنَيْتُهُمَا ، فَمَنْ كَانَ يَدْعِي قُوَّةً فِي مُلْكِهِ فَلْيَهْدِمْنَاهُمَا ، فَالْهَدْمُ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ ^٣ . فَهَمَّ بِذَلِكَ ، وَأَطْلَعَهُ الْمَأْمُونُ أَوْ الْمُقْتَصِمُ ، فإِذَا خَرَجَ مِصْرَ لَا يَقُومُ بِهِ يَوْمَعِدٍ . وَكَانَ خَرَاجُهَا عَلَى عَهْدِهِ ، بِالْإِنْصَافِ فِي الْحَيَاةِ وَتَوْخِيهِ الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ ٢٠

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : سطحه .

^٢ ابن حوقل : صورة الأرض ٨٨ .

^٣ أمية ابن عبد العزيز : الرسالة المصرية ٢٨ .

^١ «تذير الصحفة» ويعرف أيضًا بتذير الأصحاء

لجالينوس ، نقله إلى العربية حنين بن إسحاق (Sezgin, F.), (GASIII, p. 253) .

والمَقْدِلَةُ ، إِذَا بَلَغَ الثِّلُّ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَعَشَرَ أَصَابِعَ : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ وَسَبْعَةِ وَخَمْسِينَ أَلْفٍ دِينَارًا ، وَالْمَقْبُورُ عَلَى الْقَدَانِ دِينَارَانِ . فَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَذَكَّرْ فِيهِ شَيْئًا ^١ .

وَفِي حَدِّ الْقُسْطَاطِ فِي غَرْبِ الثِّلِّ أُنْبِيَةُ عِظَامٍ يَكْثُرُ عَدُّهَا ، مُفْتَرَشَةٌ فِي سَائِرِ الصَّعِيدِ ، تُدْعَى الْأَهْرَامَ ، وَلَيْسَتْ كَالْهَرَمَيْنِ اللَّذَيْنِ تَجَاهُ الْقُسْطَاطِ ، وَعَلَى فَوْصَحَيْنِ مِنْهَا ، اِزْتِفَاعٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهُ كَارْتِفَاعِهِ مَبْنِيٌّ بِحِجَازَةِ الْكَدَانِ الَّتِي شَتَكَ الْحَجَرُ وَطُولُهُ وَعَرْضُهُ مِنْ الْقَشْرِ أَذْرُعٌ إِلَى الثَّمَانِ ، بِحَسَبِ مَا دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى وَضْعِهِ فِي زِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَأَوْجَبَتْهُ الْهَيْئَةُ صَنْدَهُمْ ، لِأَنَّهُمَا كُتُمَا اِزْتِفَعَا فِي الْبِنَاءِ ضَاقَا حَتَّى يَصِيرَ أَغْلَاهُمَا مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِثْلُ مَبْرَكٍ جَحَلٍ ، وَقَدْ مُلِيتَ حِيطَاتُهُمَا بِالْكِتَابَةِ الْيُونَانِيَّةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ قَوْمٌ أَنَّهُمَا قَبْرَانِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَأَمَّا حَدُّهَا ^(أ) صَاحِبَتُهُمَا فِي ^(ب) عَمَلِهَا أَنَّهُ قَضَى بِالطُّوفَانِ أَنَّهُ يَهْلِكُ جَمِيعُ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا مَا حُصِّنَ فِي مِثْلِهِمَا ، فَخَزَنَ ذَخَائِرَهُ وَأَقْوَالَهُ فِيهِمَا ؛ وَأَتَى الطُّوفَانُ ثُمَّ نَضَبَ ، فَصَارَ مَا كَانَ فِيهِمَا إِلَى يَبْصَرِ ^(ج) بَنِي مُصْرَافٍ بْنِ حَامٍ ^(د) بَنِي نُوحٍ . وَقَدْ خَزَنَ فِيهِمَا بَعْضُ الْمُلُوكِ الْمَتَأَخِّرِينَ ، وَجَعَلَهَا أَهْرَاءَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^٢ .

وَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ التَّدِيمِ الْوَزَاقِيُّ فِي كِتَابِ «الْفَهْرِشْتِ» ، وَقَدْ ذَكَرَ هِرْمِسَ الْبَابِلِيَّ : قَدْ اخْتَلَفَ فِي أَثَرِهِ ، فَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ أَحَدَ الشَّبْعَةِ السَّدَنَةِ الَّذِينَ رَتَّبُوا لِحِفْظِ الْبُيُوتِ الشَّبْعَةَ ، وَإِنَّهُ كَانَ لِتَرْتِيبِ ^(د) عَطَارِدَ ، وَبِاسْمِهِ شَيْءٌ ، فَإِنَّ عَطَارِدَ بِاللُّغَةِ الطُّرْزَانِيَّةِ ^(هـ) هِرْمِسَ . وَقِيلَ إِنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ بِأَسْبَابٍ ، وَإِنَّهُ مَلَكَهَا ، وَكَانَ لَهُ أَوْلَادٌ مِنْهُمْ طَا وَصَا وَأَشْمَنُ وَأَتْرِبُ وَقِفْطُ ، وَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا زَمَانِيهِ ، وَإِنَّهُ لَمَّا تَوَفَّى دُفِنَ فِي الْبِنَاءِ الَّذِي يُعْرَفُ بِمَدِينَةِ مِصْرَ بِأَبِي هِرْمِسَ ، وَيُعْرَفُ الْغَائِثُ بِالْهَرَمَيْنِ ، فَإِنَّ أَحَدَهُمَا قَبْرَهُ ، وَالْآخَرَ قَبْرَ زَوْجَتِهِ ، وَقِيلَ قَبْرُ ابْنِهِ الَّذِي خَلَقَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ^٣ .

(أ) بولاق : حمل . (ب) بولاق : على . (ج-د) ساقطة من ابن حوقل . (د) الفهرست : إليه بيت . (هـ) بولاق : الكلديانية .

كتابه «الفهرست» أو «الفهرست في أخبار الأديان» . وترجع

مكانة ابن التديم إلى أنه أول من ألف تاريخًا للتراث العربي -

قد يكون وحيدًا في يابه - سيظل على الدوام المصدر الرئيسي لمعرفة مصادر الأدب والعلم في القرون الأربعة الأولى للإسلام . ولا نعرف على التحقيق السنة التي توفي فيها [ابن] التديم ، ولكن ما ذكره في كتابه يدل على أنه كان موجودًا =

^١ ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٥-١٣٦ .

^٢ نفسه ١٥١-١٥٢ .

^٣ أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق التديم الوزاقي البغدادى المعروف بـ[ابن] التديم وبابن أبي يعقوب الوزاقي ، لا نكاد نعلم عن حياته شيئًا كثيرًا سوى أنه كان وزافيًا يبيع الكتب ببغداد وألّف نحو سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م

/وهذه البقعة - يعني الأهرام - طولها بالنّراع الهاشمي أربع مائة ذراع وثمانون ذراعاً، على مساحة أربع مائة وثمانين ذراعاً؛ ثم يتخرط البناء، فإذا حصل الإنسان في رأسه، كان يقدّر سطحه أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً، هذا بالهندسة.

وفي وسط هذا السطح قبة لطيفة في وسطها شبة بالمقبرة، وعند رأس ذلك القبر صخرتان في نهاية الطافة والحسن وكثرة التلون، وعلى كل واحدة منهما شخص^(٨) من حجارة صورة ذكر وأنتى، وقد تقابلا^(٩) بوجهيهما، ويعد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة، ويعد الأنتى مِرْآة، والرف ذهب نقشه المنقاش^(١٠).

وبين الصخرتين بؤنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب، فلما قُليغ فإذا فيها شبيه بالقار بنير رائحته^(١١) قد يس. وفيها حقة ذهب، فتزع رأسها، فإذا فيها دم عبيط، ساعة قرعة الهواء جمد كما يجمد الدم وجف. وعلى القبر أعطية حجارة، فلما قُليغت إذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصخرة والجفاف، بين الخلفة، ظاهر الشفور، وإلى جنبه امرأة على هيئة^(١٢).

قال: وذلك السطح مقرر نحو قامة، وكما يدور مثل الميشار جانت^(١٣) أزاج من حجارة، فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة، وغير ذلك من الآلة^(١٤) التي لا تُعرف أشكالها^(١٥).

وقال العلامة مؤلف الدين عبد اللطيف بن أبي العز يوسف بن أبي البركات محمد بن علي بن أبي سعيد البغدادي المعروف بابن المطبج^(١٦) في سيرته: وجاء رجل جاهل عجمي، فحُيّل إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب، فأخرج إليه الحجارين

(٨) بولاق: شخصان. (b) بولاق: ثلاثا. (c) بولاق: النقاش. (d) الأصل وبولاق: راحة، والتصويب من ابن التديم. (e) بولاق: المسار ذات وصافطة من ابن التديم. (f) في الفهرست: الآلهة. (g) بولاق: المطحن.

= حتى سنة ١٠٥١/هـ (ياقوت: معجم الأدياء
١٨: ١١٧؛ الصغدي: الوافي بالوفيات ٢: ١٩٧، Sezgin, F., GAS I, pp. 386-87; Fuck, J.W., El² art. Iba
(al-Nadim III, pp. 919-20).

ووصلت إلينا نسخة «الفهرست» التي اعتمد عليها
المقريزي وهو ينقل عن ابن التديم وهي موزعة الآن بين
مكتبي شيرتري بدلين وفيض الله باستانبول، سجل
المقريزي على ظهرتها ترجمة بخطه لابن التديم وإلى

جوارها العبارة التالية «استفاد منه داعيا لمعيره أحمد بن علي
المقريزي ٤٨١٣.

^١ ابن التديم: الفهرست ٤١٧-٤١٨ وقارن الإدريسي:

أنوار علوي الأجرام ٢٢-٢٣.

^٢ ابن التديم: الفهرست ٤٤١٨ الإدريسي: أنوار علوي

١٣٧-١٣٨.

وأكثر العَشْكَرَ، وأخذوا في هدمه، وأقاموا على ذلك شهوْرًا، ثم فَرَكَوه عن عَجْزٍ وخُشْرَانٍ مُبِينٍ في المال والعَقْل. ومن يَرَى حِجَارَةَ الْهَرَمِ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ اسْتَوْصَلَ الْهَرَمَ، ومن يَرَى الْهَرَمَ لَا يَجِدُ بِهِ إِلَّا تَشْعِيقًا يَسِيرًا. وقد أَشْرَفْتُ عَلَى الْحِجَارِينَ فَقُلْتُ لِمُقَدِّمِهِمْ: هل تَقْدِيرُونَ عَلَى إِعَادَتِهِ؟ فقال: لو بَذَلْنَا لَنَا السُّلْطَانُ عَنْ كُلِّ حَجَرٍ أَلْفَ دِينَارٍ لَمْ يُمَكِّنَّا ذَلِكَ^١.

- وقال أبو الحسن المشعودي في كتاب «مروج الذهب»: وأما الأهرام، فطُولُهَا عَظِيمٌ وَبُنْيَانُهَا عَجِيبٌ، عليها أَنْوَاعٌ مِنَ الْكُتَابَاتِ بِأَقْلَامِ الْأُمِّ السَّالِفَةِ وَالْمَحَالِكِ الدَّائِرَةِ، لَا يُدْرَى مَا تِلْكَ الْكِتَابَةُ وَلَا الْمُرَادُ بِهَا. وقد قال من عَنِيَ بِتَقْدِيرِ ذَرْعِهَا: إِنَّ مِقْدَارَ ارْتِفَاعِ الْهَرَمِ الْكَبِيرِ، ذَهَابًا فِي الْجَوِّ، نَحْوُ أَرْبَعِ مِائَةِ ذِرَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَكُلُّمَا غَلَا بِهِ الصُّعْدَاءُ^(a) دَقَّ ذَلِكَ، وَالْعَرَضُ نَحْوَ مَا وَصَفْنَا، وَعَلَيْهَا مِنَ الرُّسُومِ غُلُومٌ وَخَوَاصُّ وَبَسَحَتْ وَأَشْرَأَتْ الطَّبِيعَةُ، وَإِنَّ مِنْ تِلْكَ الْكِتَابَةِ مَكْتُوبٌ^(b): «إِنَّا بَنَيْنَاهَا، فَتَمَّ يَدْعِي مَوَازِنَاتَا فِي الْمَلِكِ وَبَلُوغَنَا فِي الْقُدْرَةِ وَانْتِهَاءُ أَمْرِ السُّلْطَانِ^(c)، فَلْيَهْدِمَهَا وَلْيَرْزُلْ رَسْمَهَا، فَإِنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ، وَالتَّفْرِيقُ أَسْهَلُ^(d) مِنَ التَّالِيفِ». وقد ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ سَرَعَ فِي هَدْمِ بَعْضِهَا، فَإِذَا خَرَّاجُ مِصْرَ [وغيرها من الأرض]^(e) لَا يَفِي بِقَلْعِهَا، وَهِيَ مِنَ الْحَجَرِ وَالرَّخَامِ^٢.

- وَأَمَّا قُبُورُ الْمُلُوكِ، وَكَانَ الْمَلِكُ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ وَضِعَ فِي حَوْضٍ مِنْ حِجَارَةٍ - وَيُسَمَّى بِمِصْرٍ وَالشَّامِ الْجُرُونُ^(f) - وَأُطْبِقَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُنْتَى مِنَ الْهَرَمِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يُرِيدُونَ مِنْ ارْتِفَاعِ الْأَسَاسِ، ثُمَّ يُحْمَلُ الْحَوْضُ وَيُوضَعُ وَسَطَ الْهَرَمِ، ثُمَّ يُقْتَطَرُ عَلَيْهِ الْبُيَّانُ وَالْأَقْيَاءُ^(g)، ثُمَّ يَرْفَعُونَ الْبِنَاءَ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي يَرِوْنَهُ، وَيُجْعَلُ بَابُ الْهَرَمِ تَحْتَ الْهَرَمِ، ثُمَّ يُحْفَرُ لَهُ طَرِيقٌ فِي الْأَرْضِ، وَيُقَعَّدُ أَرْجَ طَوْلِهِ تَحْتَ الْأَرْضِ مِائَةِ ذِرَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ. وَلِكُلِّ هَرَمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ بَابٌ مَدْخَلُهُ عَلَى مَا وَصَفْتُ. قَالَ: وَكَانَ الْقَوْمُ يَتَوْنُ الْهَرَمَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ مُدْرَجًا ذَا تَرَاوِي كَالدَّرَجِ، فَإِذَا قَرَعُوا نَحْتَهُ مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلٍ، فَهَذِهِ كَانَتْ حِيلَتِهِمْ. وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَصَبْرٌ وَطَاعَةٌ^٣.

(a) بولاق: صمد. (b) بولاق: مكتوب. (c) في مروج الذهب: وبلوغنا في... وانتهاءنا من السلطان. (d) مروج: أيسر. (e) زيادة من مروج الذهب. (f) مروج: الجُرُون. (g) ساقطة من بولاق.

^١ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاحتبار ٤٨-٤٩؛
^٢ المشعودي: مروج الذهب ٩٠:٢-٩١؛
^٣ نفسه ٢: ٤٧٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤١.
 البغدادي؛ وفيما يلي ٣٢٧-٣٢٨.

وقال في كتاب «التبیه والإشراف»: والهَرَمَان اللذان في الجانب الغربي من قُسطاط مصرهما من عجائب بُنيان^١ العالم، كل واحد منهما أربع مائة ذراع في شُك مثل ذلك، مَبْنِيَان بالحجر العظيم على الرياح الأربع، كل ركن من أركانها يُقابل رِجُلًا منها، فأعظمتها فيهما تأثيرًا ريح الجنوب، وهي المَرِيسِي.

• وأخذ هذين الهَرَمَين قَبْر أَهْلَانْدِيمُون^٢، والآخر قَبْر هِرْمِس، وبينهما نحو ألف سنة وأهْلَانْدِيمُون^٣ المتقدم^٤.

وكان سُكَّانُ مصر - وهم الأقباط - يعتقدون بُبُوتَهما قبل ظُهور النُصْرانية فيهم، على ما يُوجِبُهُ رَأْيُ الصَّابِين في البُتُوت، لا على طَرِيقِ الرُّوحِي، بل هم عندهم نفوسٌ طاهرة صَفَتْ وَتَهَدَّتْ من أَذْناس هذا العالم، فالتَّحَدَّتْ بهم مواد غُلُوبَة، فَأُخْبِرُوا عن الكائنات قَبْل كَوْنِهَا، وعن سَرَائِرِ العَالَمِ، وغير ذلك.

وفي العَرَب من اليمانية من يرى أَنَّهُمَا قَبْرُ شَدَّاد بن عاد وغيره من مُلُوكِهِم السَّالِفَة الذين غَلَبُوا على بلاد مصر في قَدِيم الدَّهْرِ، وهم العَرَب العارِبَة من القماليق وغيرهم. وهي عند من ذَكَرْنَا من الصَّابِين قُبُورُ أَجْسَادِ طَاهِرَة^٥.

وَذَكَرَ أَبُو زَيْدِ الْبَلْخِي^٦ أَنَّهُ وَجَدَ مَكْتُوبًا على الأهرام بكتابتهم خَطًّا، فَعَرَّبَ فَإِذَا هُوَ «بُني هذان الهَرَمَان والنَّشْر الواقع في الشَّرْطَان». فَحَسَبُوا من ذلك الرَّقْع إلى الهِجْرَة النَّبَوِيَّة، فَإِذَا هُوَ سِتُّ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَعْسِيَّة مَرَّتَيْن، يَكُون اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَعْسِيَّة^٧.

وقال الهَمْدَانِي في كتاب «الإكلیل»: لم يُوجَدْ مِمَّا كَانَ تَحْتَ الْمَاءِ وَفَتْ الْعَرَقِ مِنَ الْقُرَى قَرْيَةً فِيهَا بَقِيَّةٌ سِوَى نَهَاوَنْدَ تَرْجَمَتَهَا^٨ وَجَدَتْ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَأَهْرَامُ الصُّعِيدِ مِنْ أَرْضِ مِصْر^٩.

(a) الأصل: برهان. (b) بولاق: أهادهون. (c) ساقطة من بولاق.

^١ قارن مع المسعودي: التبیه والإشراف ١٩-٢٠ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٨، وفيما يلي ٣٢٧.

^٢ المسعودي: التبیه والإشراف ١٩-٢٠.

^٣ أبو زيد أحمد بن شَهْل الْبَلْخِي (انظر فيما تقدم ٢٤)

^٤ السيرطي: حسن المحاضرة ١: ٧٣.

^٥ لم أنف على هذا النص فيما وصل إلينا من كتاب =

نقل عنه الشريف أبو جعفر الإدريسي صاحب كتاب «أنوار

وَذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَيْسِيُّ^١ فِي كِتَابِ «تَحْقِيقِ الْأَلْبَابِ» أَنَّ الْأَهْرَامَ مُرْتَبَعَةٌ الْجَمْلَةَ، مُثَلَّثَةُ الْوُجُوهِ، وَعَدْدُهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ هَرَمًا، فِي مُقَابَلَةِ مِصْرَ الْقُسْطَاطِ ثَلَاثَةَ أَهْرَامٍ، أَكْبَرُهَا دَوْرُهُ أَلْفَا ذِرَاعًا، فِي كُلِّ وَجْهِ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ، وَغُلُوُّهُ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ، وَكُلُّ حَجَرٍ مِنْ حِجَارَتِهَا ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي غِلْظِ عَشْرَةِ أَذْرُعٍ، قَدْ أُحْكِمَ إِلصَاقُهُ وَتَحْتَهُ^٢.

- وَمِنْهَا عِنْدَ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ أَهْرَامٌ أَكْظَمُ وَأَكْبَرُ، دَوْرُهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ، وَغُلُوُّهُ سَبْعَ مِائَةِ ذِرَاعٍ، مِنْ حِجَارَةِ كُلِّ حَجَرٍ خَمْسُونَ ذِرَاعًا.
- وَعِنْدَ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ مُوسَى أَهْرَامٌ [أَخْر] ^(a) أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ، وَهَرَمٌ آخَرُ يُقَرَّفُ بِهِرَمَ مَهْدُومٍ ^(b) كَأَنَّهُ بِجَبَلٍ، وَهُوَ خَمْسَ طَبَقَاتٍ^٣.

- وَقَتَحَ الْمَأْمُونُ الْكَبِيرَ الَّذِي تَجَاهَ الْقُسْطَاطِ. قَالَ: وَقَدْ دَخَلْتُ فِي دَاخِلِهِ، فَرَأَيْتُ قُبَّةَ مُرْتَبَعَةَ الْأَسْفَلِ، مُدَوَّرَةَ الْأَعْلَى، كَبِيرَةً فِي وَسْطِهَا يَنْتَرِعُهَا عَشْرَةُ أَذْرُعٍ، وَهِيَ مُرْتَبَعَةٌ يَنْزِلُ الْإِنْسَانُ فِيهَا فَيَجِدُ فِي كُلِّ وَجْهِهِ مِنْ تَرْبِيعِ الْبُغْرِ بَابًا يُقْضَى إِلَى دَارٍ كَبِيرَةٍ، فِيهَا مَوْتَى كَثِيرَةٌ^(c) مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمُ أَكْثَانٌ كَثِيرَةٌ، أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ ثَوْبٍ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، قَدْ تَلَيَّتْ بِطُولِ الزَّمَانِ وَاشْتَدَّتْ؛ وَأَجْسَادُهُمْ بِمِثْلِنَا لَيِسُوا طَوَالًا، وَلَمْ يَسْقُطْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ وَلَا مِنْ شُعُورِهِمْ شَيْءٌ، وَلَيْسَ فِيهِمْ شَيْخٌ وَلَا مِنْ شَفَرِهِ أَثِيضٌ، وَأَجْسَادُهُمْ قَوِيَّةٌ لَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُزِيلَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِمُ الْبَيْتَةَ، وَلَكِنَّهُمْ خَفُوا

(a) زيادة من الإدريسي. (b) بولاق: مدون. (c) ساقطة من بولاق.

= الإكليل، وانظر فيما يلي ٣١٩.

^١ أبو حامد الفَرْنَاطِيُّ، وَكَانَ كَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ رَيْعِ الْقَيْسِيِّ. وَلَدَ فِي غُرْنَاتَةَ سَنَةِ ٤٧٣هـ/ ١٠٨١م وَغَادَرَ الْأَنْدَلُسَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ حَوَالِي سَنَةِ ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م. وَطَافَ بِشَمَالِ إِفْرِيقِيَا وَدَخَلَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ سَنَةِ ٥٠٨هـ/ ١١١٥م وَسَمِعَ بِهَا وَبِمِصْرَ سَنَةِ ٥١١هـ/ ١١١٨م، وَحَدَّثَ بِدِمَشْقَ وَسَمِعَ بِهَا أَيْضًا وَبِبَغْدَادَ الَّتِي قَدِمَهَا سَنَةِ ٥١٦هـ/ ١١٢٣م، وَدَخَلَ خِرَاسَانَ وَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الشَّامِ وَأَقَامَ بِحَلَبَ سَنِينَ، وَانْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ فِي دِمَشْقَ حَيْثُ تَوَفَّى سَنَةِ ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م فِي

^٢ أَبُو حَامِدِ الْفَرْنَاطِيِّ: تَحْقِيقُ الْأَلْبَابِ ٧٤-٧٥؛ وَفِيمَا

يَلِي ٣٢٤.

^٣ نَفْسُهُ ٧٥.

الثَّانِيَةِ وَالتَّاسِعِينَ مِنْ عَمَرِهِ. وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ مَوْلَافَاتِهِ إِلَّا كِتَابَانِ «تَحْقِيقُ الْأَلْبَابِ» وَنَخْبَةُ الْإِحْصَابِ - الَّذِي يَنْقُلُ عَنْهُ الْمَقْرِي - وَالْمَعْرُوبُ عَنْ بَعْضِ حِجَالِبِ الْمَغْرِبِ. (رَاجِعْ، الصَّفْدِيُّ: الْوَفَائِي بِالْوَفَايَاتِ ٣: ٢٤٥-٢٤٦؛ الْمَقْرِي: نَفْحُ الطُّيُوبِ ٢: ٢٣٥-٢٣٦؛ كِرَاتَشْكُونْسْكِي: تَارِيخُ الْأَدَبِ الْجُغْرَافِيِّ الْعَرَبِيِّ ٢٢٦-٢٣٠؛ حَسِينُ مَوْسَى: تَارِيخُ الْجُغْرَافِيَةِ وَالْجُغْرَافِيِّينَ فِي الْأَنْدَلُسِ ٣٠٣-٣٠٧).

حتى صاروا كالغناء لطول الزمان ، وفي تلك البقر أربعة من الدور تملوءة بأجساد الموتى ، وفيها خُفَاشٌ كثير ، وكانوا يَدْفَنُونَ أيضًا جميع الحيوان في الزمان .

ولقد وَجَدْتُ يومًا^(٥) ثيابًا مَلْفُوفَةً كثيرًا ، جِزْمَةً^(٦) مقدار أكثر من ذِرَاع ، وقد اخْتَرَقَتْ تلك الثياب من القَدَم ، فَأَزَلْتُ الثَّيَابَ إلى أن ظَهَرَتْ خِرْقَ صِحَاحٍ قَوِيَّةٍ يَبِضُ من كَثَانِ أَمْثَالِ العَصَائِبِ ، فيها أَعْلَامٌ من الحَرِيرِ الأحمر ، وفي دَاجِلِهَا هَذُودٌ مَيَّتٌ لم يَتَأَثَّرْ من ريشه ولا من جَسَدِهِ شَيْءٌ ، كَأَنَّهُ قد مات الآن .

وفي القُبَّةِ التي في الهَرَمِ بابٌ يُفْضِي إلى غُلُوِّ الهَرَمِ ، وليس فيه دَرَجٌ ، غَرَضُهُ نحو خمسة أَشْيَارٍ ، يُقَالُ إِنَّهُ صُجِدَ فيها في زمان السَّامُونِ فَأَفْضُوا إلى قُبَّةٍ صغيرة فيها صُورَةٌ آدَمِيٍّ من حَجَرٍ أَخْضَرَ كالذَّهْنِجِ ، فَأَخْرَجَتْ إلى السَّامُونِ ، فإذا هي مُطَبَقَةٌ [كالذَّوَاةِ]^(٧) ، فَلَمَّا فُتِحَتْ وَجِدَ فيها جَسَدٌ آدَمِيٍّ عليه دِرْعٌ من ذَهَبٍ مُزَيَّنٍ بِأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ ، وعلى صَدْرِهِ نَضَلٌ سَيِّفٌ لا قِيَمَةَ لَهُ ، وعند رَأْسِهِ حَجَرٌ ياقوت أحمر كَيْيُضَةُ الدَّجَاجَةِ ، يُضِيءُ كَلَهَبِ النَّارِ^(٨) ، فَأَخَذَهُ السَّامُونُ .

وقد رَأَيْتُ الصَّنَمَ الذي أُخْرِجَ منه ذلك المَيِّتُ مُلْقًى عند باب دار المَلِكِ بمِصْرَ في سنة إحدى عشرة وخمسة مائة^(٩) .

وقال القاضي الجليل أبو عبد الله محمد بن سلامة القَضَاعِي^(١٠) : رَوَى عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ خَلْفٍ ابْنِ قُدَيْدٍ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ صَخْرٍ التَّمِيمِيِّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ عَجَمِ مِصْرَ ، مِنْ قَرِيبَةٍ مِنْ قُرَاهَا تُدْعَى قِفْطَ^(١١) . وَكَانَ عَالِمًا بِأُمُورِ مِصْرَ وَأَحْوَالِهَا ، وَطَالِبًا لِكُتُبِهَا الْقَدِيمَةِ وَمَعَادِينِهَا . قَالَ : وَجَدْنَا فِي كُتُبِنَا الْقَدِيمَةِ ، قَالَ : وَأَمَّا الْأَهْرَامُ فَإِنَّ قَوْمًا اخْتَفَرُوا قَبْرًا

(٥) ساقطة من بولاق . (٦) زيادة من تحفة الألياب . (٧) التحفة : كالمصباح أو لهب النار .

^(٩) أبو حامد الغزنائي : تحفة الألياب ٧٥-٧٧ وانظر فيما يلي ٣٢٤ .

^(١٠) أورد الإدريسي كذلك رواية القضاعي مسندةً وسندها : «أخبرنا القاضي العدل أمين الدين أبو محمد الحسن ابن محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن مروان القرشي الأموي مُتَاوَلَةً ، قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد المنعم بن موهوب القاري قراءةً عليه وأنا أسمع ، قال : أخبرنا

^(١١) عن مدينة فقط انظر فيما يلي ٦٢٩-٦٣٣ .

في دَهر أبي هُرميس، فَوَجَدُوا فِيهِ مِيتًا فِي أَكْفَانِهِ، وَعَلَى صَدْرِهِ قِوْطَاسٌ مَلْفُوفٌ فِي خِرْقَةٍ^١، فَاسْتَخْرَجُوهُ مِنَ الْخِرْقِ فَرَأَوْا كِتَابًا لَا يَعْرِفُونَهُ، وَكَانَ الْكِتَابُ بِالْقِبْطِيَّةِ الْأُولَى، فَطَلَبُوا مَنْ يَقْرَأُ لَهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ بَدَيرَ الْقَلَمُونَ مِنْ أَرْضِ الْقَيْوَمِ رَاهِبًا يَقْرَأُ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُ فِي الصَّنِيعَةِ، فَقَرَأَهُ لَهُمْ وَكَانَ فِيهِ.

- «كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ فِي أَوَّلِ سَنَةِ مِنْ مُلْكِ دِيْقِلْطِيَانِسِ الْمَلِكِ، وَأَنَا اسْتَنْسَخْتُهُ مِنْ كِتَابِ نُسَيْجٍ فِي أَوَّلِ سَنَةِ مِنْ مُلْكِ فِيلِبْسِ الْمَلِكِ، وَأَنْ فِيلِبْسِ اسْتَنْسَخَهُ مِنْ صَحِيفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ خَرَقَ كِتَابَتَهَا خَوْفًا خَوْفًا، وَكَانَ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ تَرْجُمَتُهُ لَهُ أَخْوَانٌ مِنَ الْقِبْطِ يُقَالُ لَأَحَدِهِمَا أُيْلُو وَالْآخَرُ بَرْتَا. وَإِنَّ الْمَلِكَ فِيلِبْسَ سَأَلَهُمَا عَنْ سَبَبِ مَعْرِفَتِهِمَا بِمَا يَجْهَلُهُ النَّاسُ مِنْ قِرَاءَتِهِ، فَذَكَرَا أَنَّهُمَا مِنْ وَلَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الْأَوَائِلِ، لَمْ يَنْجُ مِنَ الطُّوفَانِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ أَحَدٌ غَيْرِهِ، وَكَانَ سَبَبُ نَجَاتِهِ أَنَّهُ أَتَى نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَام - فَأَمَنَ بِهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ غَيْرِهِ، فَحَمَلَهُ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، فَلَمَّا نَضَبَ مَاءُ الطُّوفَانِ أَتَى مِصْرَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ وَلَدِ حَامِ بْنِ نُوحٍ، وَكَانَ بَهَا حَتَّى هَلَكَ، فَوَزَّتْ وَلَدَهُ عَلِمَ كِتَابَ أَهْلِ مِصْرَ الْأَوَّلِ، فَوَزَّيْنَاهُ عَنْهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرِهِ.
- ١٠ وَكَانَ تَارِيخُهُ الَّذِي مَضَى إِلَى أَنْ اسْتَنْسَخْتُهُ فِيلِبْسَ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَأَنْ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ خَرَقَ كِتَابَتَهَا خَوْفًا خَوْفًا عَلَى مَا وَجَدَهُ فِيلِبْسَ، وَإِنْ تَارِيخُهُ إِلَى أَنْ اسْتَنْسَخْتُهُ أَلْفٌ وَسَبْعٌ مِائَةٌ سَنَةً وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً.
- وَكَانَ الْكِتَابُ الْمُنْسُوخُ:

- ٢٠ «إِنَّا نَظَرْنَا فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ النُّجُومُ فَرَأَيْنَا أَنَّ آفَةً نَازِلَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَخَارِجَةٌ مِنَ الْأَرْضِ. فَلَمَّا بَانَ لَنَا الْكَوْنُ نَظَرْنَا مَا هُوَ، فَوَجَدْنَاهُ مَاءً مُقْسِدًا لِلْأَرْضِ وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا. فَلَمَّا نَمَّ الْيَقِينُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا قُلْنَا يَلْمِكُنَا سُورِيدُ بْنُ سُهْلُوقٍ: مُزٍ بَيْنَاءِ أَفْرُوشَنَاتٍ وَقَبْرِ لَكَ وَقَبْرِ لِأَهْلِ بَيْتِكَ! فَبَنَى لَهُمُ الْهَرَمَ الشَّرْقِيَّ^٢، وَبَنَى لِأَخِيهِ هَرَجِيبِ الْهَرَمَ الْغَرْبِيَّ، وَبَنَى لِابْنِ هَرَجِيبِ الْهَرَمَ

^١ هذا النص أحد الروايات القليلة التي تعتمد على ما جاء

عند (Fodor, A., op. cit., pp. 347-62).

في القراطيس (البيروني Papyrus) القديمة (راجع مناقشة ذلك

^٢ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٠٠-١٠٢.

المُؤَزَّر^٥، ومُيْت أفروشنات في أسفل مصر وأغلاها . فكُنْبتا في حيطانها
عِلْم غامِضِ أمور الشَّجُوم وَعِلَّيْها ، والصَّنْعَة والهِندَسَة والطَّب ، وغير ذلك ممَّا
يَنْفَع وَيَضُرُّ ، مُلَخَّصًا مُفَسَّرًا لِمَنْ عَرَفَ كَلَامَنَا وَكُنْابَتَنَا .

فإنَّ^٥ هذه الآفة نازلة بأقطار العالم ، وذلك عند نُزُول قَلْب الأسد في
أول دقيقة من رأس الشرطان ، وتكون الكواكب عند نُزُوله إليها في هذه
المواضع من القَلَك : الشَّمْسُ والقَمَرُ في أول/ دقيقة من رأس الحُتَل وقُرونس
في دَرَجَة وثمان وعشرين دقيقة ، وزاويس في الحُوت في تسع وعشرين
درجة وثمان وعشرين دقيقة ، وأرين في الحُوت في تسع وعشرين درجة
وثلاث دقائق ، وأفروديبي^٥ في الحُوت في ثمان وعشرين درجة ودقائق ،
وهزمس في الحُوت في سبع وعشرين درجة ودقائق ، والجَوْزَهَر في اليميزان ،
وأَوُج القَمَر في الأسد في خمس درجات ودقائق .

ثم نَظَرْنَا هل يكون بعد هذه الآفة كَوْنٌ مُضِرٌّ بالعالم ، فأَصْبَحْنَا الكواكب
تَدُلُّ على أَنَّ آفة نازلة من السماء إلى الأرض ، وأَنَّها ضِدُّ الآفة الأولى ، وهي
نازِ مخرقة أقطار العالم . ثم نَظَرْنَا متى يكون هذا الكَوْنُ المُضِرُّ ، فَرَأَيْنَاهُ
يكون عند حلول قَلْب الأسد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من
الأسد ، ويكون لإيليس معه في دقيقة واحدة مُتَّصِلَةٌ بقرونس من ثلث
الرَّامِي ، ويكون راويس مُشْتَرِي في أول الأسد في آخر الحُتْرَاقه ومعه . أرين
في دقيقة ، ويكون سليس في الدَّلُو مُقَابِلًا لإيليس ومعه الدَّنْب في اثنتين
وعشرين ، ويكون كُشُوفٌ شديدٌ له مُكْتَبٌ يُوازِي القَمَر ، ويكون هِزْمِس
في بَعْدِ الأَبَدِ أَمَاتَهَا مُقْبِلِينَ ، أَمَّا أفروديبي^٥ فللاشتقامة ، وأَمَّا هِزْمِس
فللرَّجْعَة .

قال الملك : فهل عِنْدَكم من خَبَرٍ تُوقِفُونَا عليه غير هاتين الآفتين ؟ قالوا :
إذا قَطَعَ قَلْب الأسد ثَلَاثِي سُدُسِ أَذْوَاره ، لم يَبْقَ من سَحَيوان الأرض مُتَحَرِّكٌ
إِلَّا تَلَفٌ ، فإذا اسْتَقَمَّ أَذْوَاره تَحَلَّكَتْ عَقْدُ الفلك ، وَسَقَطَ على الأرض . قال

لهم : وأي يوم فيه انجلال الفلك ؟ قالوا : اليوم الثاني من بدو حركة
الفلك .

فهذا ما كان في ^(a) القوطاس .

فلما مات الملك شوريد بن شهلوق ، دُفِنَ في الهرم الشرقي ، ودُفِنَ هزيب في الهرم الغربي ،
ودُفِنَ كرورس في الهرم الذي أشفله من حجارة أشوان وأغلاه كدّان .

ولهذه الأهرام أبواب في أزاج تحت الأرض ، طول كل أزج مائة وخمسون ذراعاً ، فأما باب
الهرم الشرقي فمن الناحية البحرية ، وأما باب أزج الهرم ^(b) الغربي فمن الناحية الغربية ، وأما باب
أزج الهرم ^(c) المؤزر فمن الناحية القبلية . وفي الأهرام من الذهب ووجازة الزئبرد ما لا يحتمله
الوصف .

١٠ وإن مُترجم هذا الكتاب من القبطي إلى العربي ^(d) أجمل الثارنجات إلى أول يوم من ثوت -
وهو يوم الأحد طلوع شمس سنة خمس وعشرين ومائتين من سني العرب - فبُطِئت أربعة آلاف
وثلاث مائة وإحدى وعشرين سنة لستى الشمس .

ثم نظَرَ كم مَضَى للطوفان إلى يومه هذا فوجدَه ألفاً وسبع مائة وإحدى وأربعين سنة وتسعة
 وخمسين يوماً وثلاث عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة وتسعة وخمسين جزءاً من أربع مائة جزء
 من ساعة ، ^(e) فألقاها من الجملة فبقي معه ثلاث مائة وتسع وتسعون سنة ومائتان وخمسة أيام
 وعشر ساعات وأحد وعشرون جزءاً من أربع مائة جزء من ساعة ^(f) . فَعَلِمَ أَنَّ هذا الكتاب المؤرخ
 كُتِبَ قَبْلَ الطوفان بهذه السنين والأيام والساعات والكشُر من الساعة ^١ .

وأما الهرم الذي بدفَر أبي هرميس ، فإنه قَبِرَ قَرباس ، وكان فارس أهل مصر ، وكان يُعَدُّ بألف
 فارس ، فإذا لقيهم لم يَقُومُوا به وانْهَزُوا ، وأنه مات فجَزَع الملك عليه جَزَعاً بَلَغَ منه ، وانْكَأَتْ
 ٢٠ لموته الزعجة ، فدَفَنُوهُ بدَفَر [أبي] هرميس ، وبنوا عليه الهرم مُدَرَّجاً ^٢ . وكان طينُه الذي بُني به مع

(a) ساقطة من بولاق . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) الأصل من القبلي إلى الغربي . (d) بولاق :
التاريخين . (e-e) ساقطة من الإدريسي . نتيجة انتقال نظر .

^١ آخر ما أورده بالقوت الحموي من نص القضاء
المقصود به الهرم المدرج ، ودير هرميس أو أبو هرميس
هو الموضع المعروف الآن بدشتقازة في الجزيرة -
(معجم البلدان ٣٩٩:٥ - ٤٠٠) .

الحجارة من الفئوم ، وهذا معروف إذا نُظِرَ إلى طينه لم يُعرف له مُعَدِنٌ إِلَّا بالفئوم ، وليس بمُتَفٍّ^١ ووسيم له شبهه من الطين .

وَأَمَّا قَبْرُ الْمَلِكِ - صَاحِبِ قِيَّاسِ هَذَا - فَإِنَّهُ الْهَرَمُ الْكَبِيرُ مِنَ الْأَهْرَامِ الَّتِي فِي بَحْرِي ذَنْرِ أَبِي هِرْمِيسَ ، وَعَلَى بَابِهِ نَوْحٌ يَكْدَانُ مَكْتُوبٌ فِيهِ بِاللَّزْزَدِ ، طُولُ اللَّوْحِ ذِرَاعَانِ فِي ذِرَاعٍ ، وَكُلُّهُ مَمْلُوءٌ كِتَابًا مِثْلَ كِتَابَةِ الْبِرَّانِيِّ ، يُصْعَدُ إِلَى بَابِ الْهَرَمِ بِدَرَجٍ بَعْضُهَا صَحِيحٌ لَمْ يَنْخَرَمْ . وَفِي هَذَا الْهَرَمِ دَعَائِرُ صَاحِبِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَحِجَارَةُ الزُّمُرُودِ ، وَأَمَّا سَدُّ بَابِهِ حِجَارَةٌ سَقَطَتْ مِنْ أَعَالِيهِ ، وَمَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ رَأَى بَيْتًا^٢ .

وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمٍ عَنْ أَشْيَاخِهِ : إِنَّ حِيَادَ بَنِ مَيَادَ بَنِ شَعْرَ بَنِ شَدَّادَ بَنِ عَادَ بَنِ عُوصَ بَنِ لَازِمَ بَنِ سَامَ بَنِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَلِكِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَسْمَى إِرَمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ، فَطَالَ مَلُكُهُ وَبَلَغَ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ وَبَنَى الْأَهْرَامَ وَزَكَّرَ فِيهَا :

«أَنَا حِيَادُ بَنِ مَيَادَ بَنِ شَعْرَ بَنِ شَدَّادَ ، الشَّادُ بِزِرَاعَةِ الْوَادِ ، الْمُؤَيَّدُ الْأَوْتَادِ ، الْجَامِعُ الصُّخْرَ فِي الْبِلَادِ ، الْمُجَمَّدُ الْأَجْنَادِ ، النَّاصِبُ الْعِمَادِ ، الْكَتَدُ الْكِنَادِ ، تُخْرِجُهُ أُمَّةٌ أَسْمُ نَبِيِّهَا حَمَادَ ، آيَةُ ذَلِكَ إِذَا عَشَى بِلَدَ الْبِلَادِ ، سَبْعَةُ مَمْلُوكِ أَجْنَاسِ السَّوَادِ . تَارِيخُ هَذَا الزُّمُرُودِ أَلْفُ سَنَةٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ سَنَةٍ عِدَادًا .

وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمٍ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَفِي زَمَانِ شَدَّادَ بَنِ عَادَ بُنِيَتْ الْأَهْرَامُ ، فِيمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ . وَلَمْ يُجَدِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مَعْرِفَةٌ فِي الْأَهْرَامِ وَلَا خَبَرٌ يَثْبُتُ^٣ .
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ : مَا أَحْسَبَ الْأَهْرَامَ بُنِيَتْ إِلَّا قَبْلَ الطُّوفَانِ ، لِأَنَّهَا لَوْ بُنِيَتْ بَعْدَهُ لَكَانَ عِلْمُهَا عِنْدَ النَّاسِ^٤ .

(a) بولاق : ثبت .

(راجع، Haarmann, U., *Et*² art. *Sakkāra* VIII, في الصفحة المترجمة . pp. 925-26)
^١ ياقوت : معجم البلدان ٤٠١ : ٥ .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٤٣ : ياقوت : معجم البلدان ٤٠١ : ٥ . وانظر للمسعودي : التنبيه والإشراف ٢٠ .

ومقال فودور Fodor, A., *op.cit.*, pp. 362-63 .

^٤ ياقوت : معجم البلدان ٤٠١ : ٥ .

^٢ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١١٥-١١٩ وهو آخر ما نقله مما قصه القاضي عن خبر الأهرام على ما وجد

وقال عبيد بن شريم^(٥) الجرمي: لما نزلت السمايق أرض مصر حين أخرجهما جزمهم من مكة، بنت الأهرام، واتخذت لها المصانع، وبنت فيها العجايب، ولم نزل بمصر حتى أخرجهما مالك بن دعر الخزاعي^١.

وقال محمد بن عبد الحكم: كان من وراء الأهرام إلى المغرب أربع مائة مدينة سوى القرى من مصر إلى/ المغرب في غربي الأهرام^٢.

وقال ابن عفر: ولم نزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الأهرام بثأها شداد بن عاد، وهو الذي بنى المغار، وجند الأجناد، فالمغار والأجناد هي الدفائن. وكانوا يقولون بالروضة، وإذا مات أحدكم دفين معه ماله كائنا ما كان، وإن كان صانعا دفين معه آلة صنعته، وكانت الصابغة تبيع إلى الأهرام^٣.

وقال أبو الرئحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»: والفوس وعامة^(٦) الجوس تكثر الطوفان، وأقر به بعض الفوس لكنهم قالوا: كان بالشام والمغرب منه شيء في زمان طهمورث، ولكنه لم يعم العثران كله، ولم يتجاوز عقبة خلوان، ولم يتلغ ممالك المشرق، وإن أهل المغرب لما أئذز به محكماؤهم بتوا أنينة - كالهزمين بمصر - ليذخلوها عند الآفة، وإن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الأمواج كانت بينة على أنصاف الهزمين لم تتجاوزهما^٤. انتهى.

ويقال: إنه لما نضب ماء الطوفان^(٧) لم يوجد تحت الماء قرية سيوى نهاوند - وجدت كما هي - وأهرام مصر وبرايها، وهي التي بثأها هرمس الأول الذي تسميه العرب إذريس^٥. وكان قد

(٥) في جميع النسخ: عبد الله بن شريمة والصواب ما أثبتته. (ب) إضافة من البيروني. (ج) بولاق: إن الطوفان لما نضب ماؤه.

^١ لم ألق على هذا الخبر فيما وصل إلينا من أخبار هيب ابن شريمة الجرهمي.

^٢ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٧.

^٣ باقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠١.

^٤ البيروني: الآثار الباقية ٢٣-٢٤.

^٥ الإذريسي: أنوار علوي الأجرام ٢٢؛ وفيما تقدم ٣١٢ نقلًا عن الهمداني.

وهرمس أو هرمس المثلث الحكمة انتقل إلى الحضارة الإسلامية بحالتين: الحالة الإلهية وهو الاسم اليوناني للإله المصري تحوت Thot، ويظهر في المؤلفات الفلسفية والعلمية والسحرية كبطل من العصور القديمة. وينسب إلى أبي ميمش البلخي في كتاب «الألوف» أن الهرامسة ثلاثة: الأول هرمس الذي كان قبل الطوفان وهو أول من تكلم في الأشياء العلوية، والذي يقرض عند الرومان باسم =

أَلْهَمَهُ اللهُ عِلْمَ الثُّجُومِ ، فَذَلَّلَهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَنْزِلُ بِالْأَرْضِ آفَةً ، وَأَنَّهُ سَيَبْقَى بَقِيَّةً مِنَ الْعَالَمِ يَخْتاجُونَ فِيهَا إِلَى عِلْمٍ ، فَبَنَى هُوَ وَأَهْلُ عَصْرِهِ الْأَهْرَامَ وَالْبُرَابِي ، وَكَتَبَ عِلْمَهُ فِيهَا .

وقال أبو الصلت الأندلسي في «رساليته» ، وقد ذَكَرَ أَخْلَاقَ أَهْلِ مِصْرَ : إِلَّا أَنَّهُ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهِم أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ طَائِفَةٌ مِنْ دَوِي الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَخُصُوصًا عِلْمَ الْهَيْئَةِ وَالثُّجُومِ ، وَبَدُلَ عَلَى ذَلِكَ مَا تَخْلُفُوهُ مِنَ الصَّنَائِعِ الْبَدِيعَةِ الْمُفْجِزَةِ ، كَالْأَهْرَامِ وَالْبُرَابِي ، فَإِنَّهَا مِنَ الْأَتَارِ الَّتِي خَيَّرَتِ الْأُذْهَانَ الثَّقِيَّةَ ، وَاسْتَفْعَزَتِ الْأَفْكَارَ الرَّاجِحَةَ ، وَتَوَكَّتْ لَهَا شُغْلًا بِالتَّعْجِيبِ مِنْهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا ^١ .
وفي مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سُلَيْمَانَ الْقُرْطُبِيُّ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَرْتِي بِهَا أَبَاهُ ^٢ :

[الطويل]

تَضِلُّ الْقَوْلُ الْهَزْبَرِيَّاتُ رُشْدَهَا وَلَا يَسْلُمُ الرَّأْيُ الْقَوِيمُ مِنَ الْأَفْنِ
وَقَدْ كَانَ أَرْوَاحُ الْفَصَاحَةِ كُلَّمَا رَأَوْا حَسَنًا عَدُوهُ مِنْ صَنَعَةِ الْحَيِّ

وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبَ وَأَغْرَبَ ، بَعْدَ مَقْدُورَاتِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَصْنُوعَاتِهِ ، مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى بِنَاءِ جِسْمٍ جَسِيمٍ ، مِنْ أَغْظَمِ الْحِجَازَةِ ، مُرَبِّعِ الْقَاعِدَةِ ، مَخْرُوطِ الشَّكْلِ ، اِرْتِفَاعِ عُمُودِهِ ثَلَاثَ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، يُحِيطُ بِهِ أَرْبَعَةُ سَطُوحٍ مِثْلَثَاتٍ مُتَسَاوِيَاتِ الْأَضْلَاعِ ، طَوْلُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَتِسْعُونَ ، وَهُوَ مَعَ الْعِظَمِ مِنْ إِحْكَامِ الصُّنْعَةِ وَإِتْقَانِ الْهَيْئَةِ وَحُسْنِ التَّقْدِيرِ ، بَحِثٌ لَمْ يَتَأَثَّرْ إِلَى هَلَمٍ جَزَاءً بِقُصْفِ الرِّيحِ وَهَطْلِ السَّحَابِ وَزَعْزَعَةِ الزَّلَازِلِ . وَهَذِهِ صِفَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْهَزْبَرِيِّينَ الْمُحَازِينَ لِلْفُسْطَاطِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ عَلَى مَا شَاهَدْنَاهُ مِنْهُمَا ^٣ .

VII, pp. 50-58; Plessner, M., *El² art. Hirmis III*, pp. 479-81, Vajda, G., *El² art. Idris III*, pp. 1056-57; وحلل بلسنر رواية أبي معشر في مقاله Plessner, M., «Hermes Trismegistus and Arab Fodor, and Sciences», *SHI* (1954), pp. 53 A., *The Origin of the Arabic Legend of the Pyramids*, pp. 335-46.

^١ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٧.

^٢ انظر أبيات أبي العلاء المغربي في سقط الزند ١: ١١٩٦ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٧.

^٣ الإدريسي: أنوار علوي ١٧-١٨؛ باقوت: معجم البلدان ٤٠١: ٤٠٢.

Mercurius = وهو مخطوطة عند العرب ، والذي يزعم المصريون القدماء أنه نفس الإله ثوت Thot ، ويطلق عليه أيضًا «إدريس» و«أخنوخ» أو «خنوخ» . والثاني هرمس البابلي الذي عاش في بابل مع الكلدانيين بعد الطوفان وأنها دراسة العلوم . والثالث سكن في مصر بعد الطوفان أيضًا وكان فيلسوفًا طبيبًا وبرع في علم الكيمياء وكان من أتباع تلاميذه اسقلابيوس (راجع ، ابن النديم : الفهرست ٣٢٧ ، ٤١٧-٤١٨ ابن جليل : طبقات الأطباء والحكماء ٥-١٠ ابن أبي أصيبعة : هيون الأنباء ١٦٠: ٢١١ البشر بن فاتك : مختار الحكم ٧-٢٧ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٩٦-٩٧ ، Sezgin, F., *GASIV*, pp. 31-44.

وَإِذَا ذَكَرْتُ عَجَائِبَ مِصْرَ، وَأَنْ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أَزْنِي لَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِلَّا الْهَرَمَانِ، فَأَنَا أَزْنِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ مِنْهُمَا^٢، وَهَذَانِ الْهَرَمَانِ لَهَا إِشْرَافٌ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ،
وَإِطْلَالٌ عَلَى بَطَائِحِهَا، وَإِضَاعَادٌ فِي جَوْهَا^٣. وَهِيَ اللَّذَانِ أَرَادَ أَبُو الطَّيِّبِ التَّنَبُّيُّ بِقَوْلِهِ^٤:

[الكامل]

- أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ؟ مَا قَوْمُهُ؟ مَا قَوْمُهُ؟ مَا الْمَضْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الْأَنْبَاءُ عَنْ سُكَّانِهَا حِينَ، وَيُذَكِّرُهَا الْغَنَاءُ فَتُشْبِعُ
وَاتَّفَقَ يَوْمًا أَنَا عَزَّجْنَا إِلَيْهَا، فَلَمَّا طَلَقْنَا بَعْدَهَا وَاسْتَدْرَجْنَا حَوْلَهُمَا، كَثُرَ التَّعَجُّبُ مِنْهُمَا، فَقَالَ بَعْضُنَا^٥:

[الطويل]

- بَعَثْتِكَ^٦ هَلْ أَهْمَرْتُ أَهْجَبَ مَنَظَرًا عَلَى طُولِ مَا أَهْمَرْتُ مِنْ هَرَمَيْنِ مِصْرٍ؟
• أَنَا بِأَعْدَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَقَا عَلَى الْحُجُرِ إِشْرَافَ السَّمَاكِ أَوْ الشَّرِ
وَقَدْ وَافَقَا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا كَانَهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ
وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الْأَهْرَامَ قُبُورَ مُلُوكٍ عِظَامِ آثَرُوا أَنْ يَتَمَيَّزُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ السُّلُوكِ بَعْدَ تَمَاتِهِمْ، كَمَا
تَمَيَّزُوا عَنْهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، وَتَوَخَّوْا أَنْ يَمُوتَ ذِكْرُهُمْ بِسَبَبِهَا عَلَى تَطَاوُلِ الدَّهْرِ وَتَرَاخِي الْقُصُورِ^٧.
وَلَمَّا وَصَلَ الْخَلِيفَةُ الشَّامُونَ إِلَى مِصْرَ أَمَرَ بِتَقْبِهَا، فَتَقَبَّ أَحَدُ الْهَرَمَيْنِ الْحَاذِينَ لِلْقُسْطَاطِ بَعْدَ
• مَجْهَدٍ شَدِيدٍ وَعَنَاءٍ طَوِيلٍ، فَوَجَدُوا دَاخِلَهُ مَهَاوِي وَمَرَاقِي يَهْوِلُ أَمْرُهَا وَيَقْشُرُ السُّلُوكَ فِيهَا،
وَوَجَدُوا فِي أَغْلَاهَا بَيْتًا مُكْتَبًا طَوِيلَ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ نَحْوَ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَذْرَعٍ، وَفِي وَسْطِهِ
خَوْضٌ رُخَامٌ مُطْبَقٌ، فَلَمَّا كُثِفَ غِطَاؤُهُ لَمْ يَجِدُوا فِيهِ غَيْرَ رِثْمَةٍ بَالِيَةٍ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهَا الْقُصُورُ

(a) فِي الرِّسَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ: عَلَى ذِرَاهَا، وَبُولَاقٍ: جَوْهَا. (b) بُولَاقٍ: بَعِثَكَ.

^١ مِنْ هُنَا يَنْقُلُ الْقُرَيْشِيُّ عَنْ «الرِّسَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ» لِأَبِي
الْمَصْلُوحِ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ٢٦.

^٢ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: الرِّسَالَةُ الْمِصْرِيَّةُ ٢٦؛ وَانْظُرْ فِيهَا
تَقْدِيمَ ٨٢ وَفِيهَا بَابُ ٣٢٩.

^٣ الْأَهْيَاتُ فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّئِيِّ بِشَرْحِ الْمَكْبَرِيِّ ١: ٤٠٥
أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: الرِّسَالَةُ الْمِصْرِيَّةُ ٢٦؛ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ
الْعَمَرِيُّ: مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ ١: ٢٣٧؛ وَقَارِنْ الْإِدْرِيْسِيِّ: أَنْوَارُ

عُلُوقِي ١١.
الْإِدْرِيْسِيِّ: أَنْوَارُ عُلُوقِي ١١٤٧؛ ياقوت: مَعْجَمُ
الْبُلْدَانِ ٥: ٤٠٢.

الحالية . فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه . ويُقال إن الثقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة^١ .

ومن الناس من زعم أن هزيم الأول المدعو بالمثلث بالثبوة والملك والحكمة ، وهو الذي تسميه الجيرانيون خنوخ بن برد بن مهلائيل بن فتيان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام ، وهو إدريس - عليه السلام - استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض ، فأمر بنيان^٢ الأهرام وإيداعها الأثرال ، وصحائف العلوم ، وما يُشقق عليه من / الذهب والدروس ، حفظا لها واحتياطاً عليها^٣ .

ويقال إن الذي بناها ملك اسمه شوريد بن شهلوق بن سرياق^٣ ، وقال آخرون : إن الذي بنى الهرميتين المحاذيين للقسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها .

والقبط تذكر دخول العماليقة بلد مصر ، وتحقق أن بانيها شوريد لرؤيا رآها وهي أن أنه تنزل من السماء ، وهي الطوفان . وقالوا إنه بناهما في مدة ستة أشهر ، وعشاها بالدياج الملون ، وكتب عليهما : «قد بنيناها في ستة أشهر ، قل لمن يأتي من بعدنا يهدمها في ست مائة سنة ، فالهزم أئسر من البنيان ، وكسوناها بالدياج الملون ، فليكسهما محضرا ، فالحضر أهون من الدياج» . ورأينا شطوح كل واحد من هذين الهرميتين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بشطوح متضابقة متوازية من كتابة بانيها ، لا تُعرف اليوم آخرتها ، ولا تُفهم معانيها .

وبالجملة ، الأمر فيها عجيب ، حتى إن غاية الوصف لها ، والإغراق في العبارة عنها ، وعن حقيقة الموصوف منها ، بخلاف ما قاله علي بن عباس الرومي ، وإن تباعد الموصوفان ، وتباين المقصودان ، إذ يقول^٤ :

[للقارب]

إذا ما وصفت أمرا لا مرئى فلا تثل في وصفه واقصِد

(أ) بولاق : فاكسر من بنيان .

^١ الإدرسي : أنوار علوي ٢٣٤ ياقوت : معجم البلدان أمة بن عبد العزيز .

٤٠٢ : ٥ وانظر فيما تقدم ٣٠٦ .

^٢ الأبيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٦٨٨ الإدرسي :

أنوار علوي ١٤٦ .

^٣ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٩ .

^٤ ياقوت : معجم البلدان ٤٠٢ : ٥ ومصدره أبو الصلت

فَإِنَّكَ إِنْ تَغُلُّ تُجِدَ الظَّنَّ نَ فِيهِ إِلَى الْغَرَضِ الْأَبْعَدِ
فَيَضَعُكَ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ لَقَضِلَ الْمَغِيبُ عَلَى الْمَشْهَدِ^١

وَيُقَالُ : إِنَّ الْمَأْمُونِ أَمَرَ مِنْ صَعِيدِ الْهَرَمِ الْكَبِيرِ أَنْ يُذَلِّي حَبَلًا ، فَكَانَ طُولُهُ أَلْفَ ذِرَاعٍ بِالذِّرَاعِ الْمَلَكِيِّ - وَهُوَ ذِرَاعٌ وَخُمْسَانٌ - وَتَرْبِيعُهُ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ فِي مِقْلَاهَا ، وَكَانَ صُعودُهُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنَ الثَّهَارِ ، وَأَنَّهُ وَجَدَ بِمِقْدَارِ رَأْسِ الْهَرَمِ قَدْرَ مَبْرُكٍ ثَمَانِيَةِ جِمَالٍ^٢ .

وَيُقَالُ : إِنَّهُ وَجَدَ عَلَى الشَّخْصِ^٣ الْمَقْبُورِ فِي الْهَرَمِ حُلَّةً قَدْ بَلَّيَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى سُلوْكَيْهَا مِنَ الذَّهَبِ ، وَأَنَّ لِحَاثَةَ الطَّلَاءِ الَّذِي عَلَيْهِ قَدْرُ شِبِيرٍ مِنْ مَرٍّ وَصَبْرٍ .

وَيُقَالُ : إِنَّهُ وَجَدَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ هَذَا الْهَرَمِ لِمَوَانٍ ، فِي صَنْدَرِهِ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ عَلَى ثَلَاثَةِ مِثْوَتٍ ، طَوْلُ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا عَشْرَةُ أَذْرُعٍ فِي غَرَضٍ خَمْسَةِ أَذْرُعٍ مِنْ رُخَامٍ مَنَحُوتٍ مُخْتَكِمٍ الْهِنْدَامِ ، وَعَلَى صَفْحَاتِهِ خَطٌّ أَرْزُقَ لَمْ يُعْخِشُوا قِرَاءَتَهُ ؛ وَأَنَّهُمْ أَقَامُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَتَمَلَّوْنَ الْحِلَّةَ فِي قَفْحِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ ، إِلَى أَنْ رَأَوْا أَمَامَهَا عَلَى عَشْرَةِ أَذْرُعٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَعْمَدَةٍ مِنْ مَرْمَرٍ ، وَفِي كُلِّ عَمُودٍ خِزْقٌ فِي طُولِهِ ، وَفِي وَسْطِ الْخِزْقِ صُورَةُ طَائِرٍ ؛ فَفِي الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْعُمُدِ صُورَةُ حَتَمٍ مِنْ حَجَرٍ أَخْضَرٍ ، وَفِي الْاَوْسَطِ صُورَةُ بَازِيٍّ مِنْ حَجَرٍ أَصْفَرٍ ، وَفِي الْعَمُودِ الثَّالِثِ صُورَةُ دِيكٍ مِنْ حَجَرٍ أَحْمَرَ . فَخَرَّكُوا الْبَازِيَّ فَتَحَرَّكَ الْبَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي فِي مُقَابَلَتِهِ ، فَرَفَعُوا الْبَازِيَّ قَلِيلًا فَارْتَفَعَ الْبَابُ ، وَكَانَ بِحَيْثُ لَا يَرْفَعُهُ مِائَةُ رَجُلٍ مِنْ عِظَمِهِ ، فَرَفَعُوا الثُّنَائِلَيْنِ الْآخَرَيْنِ ، فَارْتَفَعَ الْبَابَانِ الْآخَرَانِ ؛ فَدَخَلُوا إِلَى الْبَيْتِ الْاَوْسَطِ ، فَوَجَدُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ سُورٍ مِنْ حِجَارَةٍ شَفَّافَةٍ مُضَيَّعَةٍ ، وَعَلَيْهَا ثَلَاثَةُ مِنَ الْأَمْوَاتِ ، عَلَى كُلِّ مَيِّتٍ ثَلَاثُ حُلُلٍ ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ مَضْجَعٌ بِخَطٍّ مَتَجَهُولٍ .

وَوَجَدُوا فِي الْبَيْتِ الْآخَرِ عِدَّةَ رُفُوفٍ مِنْ حِجَارَةٍ ، عَلَيْهَا أَشْفَاطٌ مِنْ حِجَارَةٍ فِيهَا أَوَانٌ مِنَ الذَّهَبِ عَجِيبَةِ الصَّنِيعَةِ ، مَرْصُوعَةٌ بِأَصْنَافٍ^٤ الْجَوَاهِرِ . وَوَجَدُوا فِي الْبَيْتِ الثَّالِثِ عِدَّةَ رُفُوفٍ مِنْ حِجَارَةٍ ، عَلَيْهَا أَشْفَاطٌ مِنْ حِجَارَةٍ فِيهَا آلَاتُ الْحَرْبِ وَغَدَدُ السِّلَاحِ ؛ فَيَقِيسُ مِنْهَا سَمِيفٌ فَكَانَ طُولُهُ سَبْعَةَ أَشْبَارٍ ، وَكُلُّ دِرْعٍ مِنْ تِلْكَ الدُّرُوعِ اثْنَا عَشَرَ شِبِيرًا ،^٥ وَيَدْخُلُ فِي الْبَيْضَةِ رَأْسَانِ مِنْ رُؤُوسِ النَّاسِ^٦ ؛ فَأَمَرَ السَّائِمُونَ بِحُلِّ مَا وَجَدَ فِي الْبَيْتِ ، وَأَمَرَ فَحْطَتِ الْعُمُدَ فَانْطَلَقَتْ الْأَبْوَابُ كَمَا كَانَتْ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بأنواع . (c-c) ساقطة من بولاق .

^١ نهاية النص المنقول عن أمية بن عبد العزيز : الرسالة
^٢ ابن النديم : الفهرست ٤١٨ وهو تامة النص الذي نقله
للمصرية ٢٤-٢٨ . فيما سبق ٣٠٩-٣١٠ .

ويقال كانت عِدَّةُ الأهرام ثمانية عشر هرمًا منها تجاه مَدِينَةِ المُشَطَّاطِ ثلاثة ، أَكْبَرُهَا دَوْرُهُ النِّعَازُ ، وهو مُزْنَعٌ ، فِي كُلِّ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِه الأربعة خمس مائة ذِرَاعٌ ^١ .

ويقال إِنَّ المأمُون لما فَتَحَهُ وَجَدَ فِيهِ حَوْضًا مِنْ حَجَرٍ مُقَطَّى بِلُوحٍ مِنْ رُخَامٍ وَهُوَ تَمْلُوءٌ بِالذَّهَبِ ، وَعَلَى اللُّوحِ مَكْتُوبٌ بِقَلَمٍ غُرَبٌ فَكَانَ : «إِنَّا عَمَرْنَا هَذَا الْهَرَمَ فِي أَلْفِ يَوْمٍ ، وَأَتَيْنَا لِمَنْ يَهْدِيهِ فِي أَلْفِ يَوْمٍ ^٢ ، وَالْهَدْمُ أَشْهَلُ مِنَ الْعِمَارَةِ . وَكَسَوْنَاهُ بِجَمِيعِهِ بِالذَّبْيَاجِ ، وَأَتَيْنَا لِمَنْ يَكْسُوهُ الْحَضِرُ ، وَالْحَضِرُ أَتَمَرٌ مِنَ الذَّبْيَاجِ . وَجَعَلْنَا فِي كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ مَالًا بِقَدَرِ مَا يُحْضَرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ» ^٣ .

فَأَمَرَ المأمُون أَنْ يُحْسَبَ مَا ضَرَفَ عَلَى الثَّقَبِ ، فَبَلَغَ قَدْرًا مَا وَجَدَ فِي الْحَوْضِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ^٤ .

ويقال : إِنَّهُ وَجَدَ فِيهِ صُورَةَ آدَمِيٍّ مِنْ حَجَرٍ أَخْضَرَ كَالدُّهْنِجِ ، مُطْبَقَةً ^٥ كَالدَّوَاةِ ، فَفُتِحَ فَإِذَا فِيهِ جَسَدُ إِنْسَانٍ ^٦ عَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ ذَهَبٍ ^٧ مُزَيَّنٌ بِأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ ، وَعَلَى صَدْرِهِ نَضْلٌ سَيِّفٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ حَجَرٌ ^٨ مِنْ ياقُوتٍ أَحْمَرَ فِي قَدَرِ بَيْضَةِ الدُّجَاجَةِ . فَأَخَذَهُ المأمُونُ وَقَالَ : هَذَا خَيْرٌ مِنْ خِرَاجِ الدُّنْيَا ^٩ .

وَذَكَرَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي مِصْرٍ أَنَّ هَذَا الصَّنَمَ الْأَخْضَرَ الَّذِي وَجَدَتْ الرُّمَّةُ فِيهِ لَمْ يَزَلْ مُشَلَّقًا ^{١٠} عِنْدَ دَارِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ مِصْرٍ إِلَى سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ^{١١} مِنْ سَنِي الْهِجْرَةِ ^{١٢} .

وَكَانَ عِنْدَ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ يَوْسُفَ هَرْمَانٍ ، وَعِنْدَ مَيْدُومِ هَرَمٍ ، وَهَذَا آخِرُهَا . وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ مِنْ سَنِي الْهِجْرَةِ ظَهَرَ بِثَوْبَةٍ بُوصِيرٍ مِنْ نَاجِيَةِ الْحِجْرَةِ يَتُّ هَرِمِيسَ ، فَفَتَحَهُ الْقَاضِي ابْنُ الشُّهْرَزُورِيِّ / وَأَخَذَ مِنْهُ أَشْيَاءَ مِنْ جَمَلَتِهَا كِبَاشٌ وَقُرُودٌ وَضَفَادِعٌ مِنْ حَجَرٍ بَازُورٍ ، وَقَوَارِيرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَأَصْنَامَ مِنْ نُحَاسٍ .

(a) بولاق : سنة . (b) بولاق : فيها طبق . (c) بولاق : آدمي . (d-d) ساقطة من الأصل . (e) بولاق : الذهب . (f) بولاق : معلقا . (g) بولاق : وست مائة ، وانظر فيما تقدم ٣١٤ .

^١ أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٧ وفيما تقدم المحفوظة في مكتبة Liège .

٣١٣ . ^٢ انظر فيما تقدم ٣٠٦ .

^٣ هذا النص موجود في الكراسة التي بخط المقرئ ^٤ انظر فيما تقدم ٣١٤ .

وقال ابنُ خُزْدَاقَةَ^١: من عَجِيبِ الْبَنِيَانِ أَنَّ الْهَرَمَيْنِ بِمِصْرَ شَمَكَ كُلٌّ وَاحِدُهُمَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ، وَكُلُّمَا أَرْتَفَعَ دَقٌّ، وَهُمَا مِنْ رُحَامٍ وَمَزْمَرٍ، وَالطُّوْلُ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ فِي غَوْضِ أَرْبَعِ مِائَةِ ذِرَاعٍ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا بِالْمُسْنَدِ^٢ كُلُّ شَيْءٍ وَكُلُّ عَجِيبٍ مِنَ الطُّبِّ، وَمَكْتُوبٌ عَلَيْهِمَا: إِنِّي بَنَيْتُهُمَا، فَمَنْ يَدْعِي قُوَّةً فِي مُلْكِهِ فَلْيَهْدِمَهُمَا، فَإِنَّ الْهَدْمَ أَهْسَرَ مِنَ الْبِنَاءِ. فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ، فَإِذَا خَرَجَ الدُّنْيَا لَا يَفِي بِهِمَا.

وَقَالَ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الْبَنِيَانِ»^٣ عَنِ الْأَهْرَامِ: قَدْ انْفَرَدَتْ مِصْرُ بِهَذِهِ الْأَشْكَالِ، فَلَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ مِنْ مِثَالِ^٤، يَنْظُرُهَا النَّاطِلُ لِلدِّهَارِ الْمِصْرِيَّةِ تَهْدِئِينَ، وَيَحْسَبُهُمَا الْمُتَأَمِّلُ^٥ أَنَّ مَكَارِمَ أَهْلِهَا قَدْ أُعِدَّتْهَا لِلتَّكْرَمِ أَهْلُوجِينَ، تَرَاهُمَا الْعَيْنُ عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ، وَإِذَا حَدَّثَتْ عَنْ عَجَائِبِهِمَا يُظَنُّ أَنَّ حَدِيثَ خُرَافَةٍ.

وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذِكْرِ الْأَهْرَامِ وَوَضَفِيهَا وَمِصَاحِيهَا، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ جِدًّا، وَكُلُّهَا بَيَّرَ الْحِيزَةَ عَلَى سَعْتِ مِصْرِ الْقَدِيمَةِ، تَمْتَدُّ نَحْوًا مِنْ مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَفِي بُوصِيرِ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَبَعْضُهَا كِبَارٌ وَبَعْضُهَا صِغَارٌ، وَبَعْضُهَا طِينٌ وَبَعْضُهَا لَبَنٌ، وَأَكْثَرُهَا حَجَرٌ، وَبَعْضُهَا مُدْرَجٌ، وَأَكْثَرُهَا مَخْرُوطٌ أَفْلَسَ.

وَقَدْ كَانَ مِنْهَا بِالْحِيزَةِ عَدَدٌ كَثِيرٌ كُلُّهَا صِغَارٌ، هُدِمَتْ فِي زَمَنِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنِ أَيُّوبَ عَلَى يَدِ الطُّوَّاشِيِّ بِهَاءِ الدِّينِ قَرَاقُوشَ، أَخَذَ حِجَارَتَهَا وَبَنَى بِهَا الْقَنَاطِرَ فِي الْحِيزَةِ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ الْمَهْدُومَةِ ثَلَاثُهَا^٦.

وَأَمَّا الْأَهْرَامُ الْمُتَحَدِّثُ عَنْهَا، فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَهْرَامٍ، مَوْضُوعَةٌ عَلَى سَطْحٍ مُسْتَقِيمٍ بِالْحِيزَةِ قُبَالَةَ الْقُسْطَاطِ، وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ كَثِيرَةٌ وَزَوَائِدُ مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ الشَّرْقِ. وَاثْنَانِ عَظِيمَانِ جِدًّا فِي قَلْبِ وَاحِدٍ،

(a) بولاق : باليد . (b) بولاق : بغیرها مثال . (c) بولاق : القابل .

^١ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٥٩ . يوسف البغدادي ، فما يُنسب إليه يوجد نفيًا في كتاب

^٢ هذا الكتاب نسبة المقرئ (فيما يلي ٦٢١ ، الإفادة والاعتبار) .

^٣ انظر فيما تقدم ٣٠٠ وفيما يلي ١٥١ : ٢ .

^٤ من هنا يتفق نص «عجائب البنيان» مع نص «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي .

^٥ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٥٩ . هذا الكتاب نسبة المقرئ (فيما يلي ٦٢١ ، الإفادة والاعتبار) .

^٦ ٢٠٤ : ٢ إلى المورخ فاضل الدين شافع بن علي بن عباس سبط القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ، الذي يبدو أنه احتشد في وصف المنشآت والآثار القديمة على كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف بن

وهما متقاربان ومتبنيان بالحجارة البيض، وأما الثالث فينقص^(a) عنها نحو الربع، لكنه متبني بحجارة الصوان الأحمر المنقطة الشديد القوة والصلابة، ولا تكاد يؤثر فيه الحديد إلا في الزمان الطويل، وتجدد صغيرا بالقياس إلى ذلك، فإذا أتيت إليه وأفرذته بالنظر هالك مرآه، وعجز النظر^(b) في تأمله.

٥. وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيبة من الشكل والإثقان، ولذلك صبرت على تمر الأيام لا، بل على تمرها صبر الزمان. فإنك إذا تأملتها وجدت الأذهان الشريرة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس البهيمة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفيل بئالا في غاية إشكائها، حتى إنها تكاد تحدث عن قومها^(c)، وتخير عن يمينهم، وتعلق عن علومهم وأذهابهم، وتترجم عن بينهم وأخبارهم.

١٠. وذلك أن وضعها على شكل مخروط، ويتدنى من قاعدة مربعة وينتهي إلى نقطة. ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه، يتساند على نفسه، ويتوقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض، وليس له جهة أخرى يتساقط عليها.

ومن عجيبة وضعه أنه شكل مربع قد قوئل بزواياه مهاب الرياح الأزعج، فإن الرياح تنكسر

١٥. سورتها عند مسامتتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح.

وذكر المسامح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربع مائة ذراع بالذراع السوداء^١، ويتقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع في مثلها. وذكر أن بقص الزمام رمتي سهمي في قطر أحدهما وفي سميكة، فتقطع السهم دون نصف المسافة. وذكر أن ذراع سطحها أحد عشر ذراعا بذرار اليد.

٢٠. وفي أحد هذين الهرمين مدخل يلجج الناس، يقضي بهم إلى مسالك ضيقة وأشراب متنافذة وآبار ومهايك، وغير ذلك على ما يحكيه من يلجج. وأن أناسا كثيرين لهم غرام به وتحمل فيه، فيترغولون في أعماقه، ولا بد أن يتنهبوا إلى ما يعجزون عن سلوكه.

(a) بولاق : نصير . (b) الأصل : وحسن الناظر . (c) بولاق : عن قوة قومها .

^١ من اللراع السوداء انظر فيما تقدم ١٥٦-١٥٧.

وأما المسلك المطروق كثيرًا ، فزلاقة تُقضي إلى أعلاه ، فيوجد فيه بيت مُرتَّب فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هو الباب في أصل البناء ، وأما هو متعوتَّب ثَقْبًا صادف اتِّعاقًا ، وَذِكْرُ أَنَّ المأمونَ [هو الذي] ^(٥) قَتَّعَهُ ^١.

وَحَكَّى مَنْ دَخَلَهُ وَصَّيَدَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِي أَعْلَاهُ ، فَلَمَّا نَزَّلُوا حَدَّثُوا بِعَظِيمِ مَا شَاهَدُوهُ ، وَأَنَّهُ تَمْلُوءٌ بِالْخَفَافِشِ وَأَبْوَالِهَا ، وَتَغَطُّمٌ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرُ الْحَمَامِ ، وَفِيهِ طَاقَاتُ وَرَوَازِنُ نَحْوِ أَهْلَاهُ ، كَأَنَّهُا لَجُعَلَتْ مَسَالِكٌ لِلرَّيْحِ وَمَنَاقِذُ لِلصُّوءِ [وهذه الأهرام مُبَيَّنة] ^(٥) بِحِجَارَةٍ جَافِيَةٍ ، طُولُ الْحَجَرِ مِنْهَا مِنْ عَشْرَةِ أَذْرُعَ إِلَى عَشْرِينَ ذِرَاعًا وَسُكَّةٌ مِنْ ذِرَاعَيْنِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَذْرُعَ ، وَعَرْضُهُ نَحْوَ ذَلِكَ . وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ وَضْعِ الْحَجَرِ عَلَى الْحَجَرِ بِهَيْدَامٍ لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَصْعَمُ مِنْهُ ، بِحَيْثُ لَا نَجِدُ بَيْنَهُمَا مَذْخَلَ لِرِزَّةٍ وَلَا خَلَلَ شَجَرَةٍ ، وَبَيْنَهُمَا طَيِّبٌ لَوْنُهُ الزُّرْقَةُ لَا يُدْرَى مَا هُوَ وَلَا صِفَتُهُ ، وَعَلَى تِلْكَ الْحِجَارَةِ كِتَابَاتٌ بِالْقَلَمِ الْقَدِيمِ الْمَجْهُولِ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ بِدِيَارِ مِصْرَ مِنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ يَغْرِفِهِ ، وَهَذِهِ الْكِتَابَاتُ كَثِيرَةٌ جَدًّا حَتَّى لَوْ نُقِلَ مَا عَلَيْهَا إِلَى صُحُفٍ لَكَانَتْ قَدَرُ عَشْرَةِ آلَافِ صَحِيفَةٍ .

وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الصَّابِغَةِ الْقَدِيمَةِ ^٢ أَنَّ أَحَدَ هَذَيْنِ الْهَرَمَيْنِ قَبْرُ أَغَانْدِيمُونَ ، وَالْآخَرُ قَبْرُ هِرْمِسَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمَا بَنَانُ عَظِيمَانِ ، وَأَنَّ أَغَانْدِيمُونَ أَقْدَمُ وَأَعْظَمُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَحْبِجُ إِلَيْهِمَا ، وَيَهْدِي إِلَيْهِمَا مِنْ أَقْطَارِ الْبِلَادِ ^٣.

وَكَانَ/ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمَانُ بْنُ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ لَمَّا اسْتَقْبَلَ بِالْمَلِكِ بَعْدَ أَبِيهِ ، سَوَّلَ لَهُ جَهْلَةً أَصْحَابَهُ أَنْ يَهْدِمَ هَذِهِ الْأَهْرَامَ ، فَبَدَأَ بِالصَّغِيرِ الْأَحْمَرِ ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الثَّقَائِينَ وَالْحَجَّارِينَ وَجَمَاعَةً مِنْ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ وَعُظَمَاءِ تَمَلُكِيهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِهِ ، فَحَكِمُوا عِنْدَهُ ، وَخَشَرُوا الرِّجَالَ وَالصُّنَّاعَ ، وَوَقَفُوا عَلَيْهِمُ الثَّقَقَاتُ ، وَأَقَامُوا نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرَ ، بِحَكْلِهِمْ وَرَخْلِهِمْ ، يَهْدِمُونَ كُلُّ يَوْمٍ - بَعْدَ تَذَلُّ الْجُهْدِ ، وَاسْتِيفَارِ الْوُشَعِ - الْحَجَرِ وَالْحَجَرِيزِ ، فَقَوْمٌ مِنْ فَوْقَ يَذْفَعُونَهُ بِالْأَسَافِينِ وَالْأَنْحَالِ ^(ب) ، وَقَوْمٌ مِنْ أَسْفَلٍ يَجْلِدُونَهُ بِالْقُلُوسِ وَالْأَسْطُطَانِ ، فَإِذَا سَقَطَ سَجَّعَ لَهُ وَجَبَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ

(٥) زيادة مما تقدم . (ب) بولاق : الحجر والحجرين يذفعونه بالأسافين .

^١ انظر فيما تقدم ٣٠٨ وأما المحاسن : النجوم الزاهرة

^٢ هذا قول عبد اللطيف البغدادي .

^٣ انظر فيما تقدم ٣١٢ .

مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ ، حَتَّى تَرْجُفَ الْجِبَالُ وَتُزَلْزَلَ الْأَرْضُ ، وَيَتَوَصَّصَ فِي الرَّمْلِ فَيَتَعَبُونَ تَعَبًا آخَرَ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ، وَيَضْرِبُونَ فِيهِ بِالْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يَتَّقِبُونَ لَهَا مَوْضِعًا وَيَتَبَتُّونَهَا فِيهِ فَيَتَقَطَّعُ قِطْعًا ، وَتُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْعَجَلِ حَتَّى يُلْقَى فِي ذَقْلِ الْجَبَلِ ، وَهِيَ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ . فَلَمَّا طَالَ ثَوَاؤُهُمْ ، وَتَعَدَّتْ نَفَقَاتُهُمْ ، وَتَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ ، وَوَهَتْ غَزَائِمُهُمْ ، [وَحَارَتْ قُوَاهُمُ] ^(٥) كَفُّوا مُحْسُورِينَ لَمْ يَنَالُوا بُغْيَةً ، بَلْ شَوْهُوا الْهَرَمَ ، وَأَبَاهُوا عَنْ عَجْزٍ وَقَسَلٍ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّائِي لِحِجَارَةِ الْهَرَمِ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْصَلَ ، فَإِذَا عَانَى الْهَرَمَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُهْدَمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَأَمَّا سَقَطَ بَعْضُ جَانِبٍ مِنْهُ .

وَحِينَمَا شُوهِدَتْ الْمَشَقَّةُ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي هَذَا كُلِّ حَجَرٍ ، سِيلُ ^١ مُقَدِّمِ الْحَبَّارِينَ فَقِيلَ لَهُ : لَوْ بُدِّلَ لَكُمْ الشَّلْطَانُ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُرَدُّوا حَجَرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ وَهَذَا مِمَّا ، هَلْ كَانَ يُمَكِّنُكُمْ ؟ فَاقْتَسَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيَقْعِزُونَ عَنْهُ وَلَوْ بُدِّلَ لَهُمْ أَضْعَافُ ذَلِكَ .

وِلَازَاءُ الْأَهْرَامِ مِنَ الصُّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مَغَايِرُ كَثِيرَةٌ الْعَدَدُ ، كَبِيرَةُ الْمِقْدَارِ ، غَمِيقَةُ الْأَعْوَارِ ، لَعْلُ الْفَارِسِ يَدْخُلُهَا بِرُوحَةٍ وَيَخْلُغُهَا يَوْمًا أَجْمَعَ وَلَا يُنْهِيهَا لِكِبَرِهَا وَسِعَتَهَا وَتُعْجِدُهَا ، وَيُظْهِرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ . وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ الصُّوَانِ ^(٥) الْأَحْمَرِ ، فَيَقَالُ إِنَّهَا بِالْقَلْزَمِ وَأَبْشَوَانِ . وَعِنْدَ هَذِهِ الْأَهْرَامِ آثَارُ أَتْنِيَّةٍ جَبَّارَةٍ ، وَمَغَايِرُ كَثِيرَةٌ مُتَفَنَّةٌ ^(٥) ، وَقَلَمًا تَرَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا وَتَرَى عَلَيْهِ كِتَابَاتٌ بِهَذَا الْقَلَمِ الْمَجْهُولِ ^٢ .

وَلِلَّهِ دَرُ الْفَقِيهِ عُجَارَةُ الْيَمْنِي حَيْثُ يَقُولُ ^٣ :

[الطويل]

نَحْلِي مَا تَحْتَ السَّمَائِينَ ^(٥) يَنْيَّةُ نَمَائِلُ فِي إِثْقَانِهَا هَرَمَنِي مِضِيرِ
بِنَاءٌ يَخَافُ اللَّغْوُ مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدُّهْرِ

(٥) زيادة من الإفادة والاعتبار . (b) بولاق : حجارة الهرم . (c) بولاق : منقبة . (d) بولاق : السماء .

^١ العبارة عند البغدادي : وحينما شاهدت ... سألت ...
^٢ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٨-٤٩
^٣ الأبيات عند عمارة اليمني : انكبت العصرية ١٢٧٩ الإدرسي : أنوار علوي ١١٤٧ التومري : نهاية الأرب

١٣٩٠ : أبي الحسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٤٢ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨٠ .
الإدرسي : أنوار علوي الأجرام ٤٠-٤١ وفيما تقدم

تَنْتَرَهُ طَرْفِي فِي تَدْيِيعٍ^(أ) بِهَايْهَا وَلَمْ يَنْتَرَهُ فِي الْمُرَادِ بِهَا فِكْرِي
أَخَذَ هَذَا مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: كُلُّ شَيْءٍ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا الْأَهْرَامَ، فَإِنَّهُ يُخْشَى
عَلَى الدَّهْرِ مِنْهَا^١.

وَقَالَ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ حَسَنَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحَاجِبِ، وَمَاتَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ:

[الكامل]

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ إِذْ بَرَزَا لِلْعَيْنِ فِي عُلوِّ وَفِي صُغْدِ
وَكَاثِمَا الْأَرْضَ الْقَرِيبَةَ إِذْ^(ب) ظَلِمَتْ لَطُولُ خِرَازَةِ الْكَعْدِ
عَسَرَتْ عَنْ التُّذَيْنِ بَارِزَةً تَذَعُو الْإِلَهَ لِقُرُوقَةِ الْوَلَدِ
فَأَجَابَهَا بِالنَّيْلِ يُثْبِعُهَا رِيًّا وَتُنْقِذُهَا مِنَ الْكَعْدِ
لِكِرَامَةِ الْمَوْلَى الْمُقِيمِ بِهَا خَيْرَ الْأَنَامِ مُقَوِّمِ الْأَوْدِ
وَقَالَ سَيْفُ الدِّينِ بْنِ مَجْبَازَةَ:

[الكامل]

لِلَّهِ أَيُّ غَرِيبَةٍ وَعَجِيبَةٍ فِي صُنْعَةِ الْأَهْرَامِ لِلْأَلْبَابِ
أَخَفَتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ قِصَّةَ أَهْلِهَا وَنَضَّتْ عَنِ الْإِتْدَاعِ كُلَّ يَقَابِ
فَكَأَنَّهَا هِيَ كَالْحَيَامِ مُقَامَةً مِنْ غَيْرِ مَا عَمَدٍ وَلَا أَطْنَابِ
مِثْلَ الْعُرَائِسِ حُدُودَ أَثْوَابِهَا عَنْهَا وَلَمْ تَنْطِقْ مِنَ الْإِعْجَابِ^(ج)

. وَقَالَ آخَرُ:

[الكامل]

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ وَاشْتَمِعْ مِنْهُمَا مَا يَزُودَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْعَايِرِ
وَأَنْظُرْ إِلَى سِرِّ اللَّيَالِي فِيهِمَا نَظَرُوا بَعِيْنَ الْقُلُوبِ لَا بِالنَّظَرِ
لَوْ يَنْطَلِقَانِ لِحُرَانَا بِالَّذِي قَعَلَ الزَّمَانُ بِأَوَّلِ وَبِآخِرِ
وَإِذَا هُمَا بَدَيَا لِعَفْنِي نَظِيرِ وَصَفَا لَهُ أَذْنِي جَوَادِ عَايِرِ

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَعَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ التُّيْفَاشِيِّ^٢:

(أ) الإدريسي: عجيب . (ب) بولاق: قد . (ج) هذا البيت ساقط من بولاق .

^١ فيما تقدم ٨٢، ٣٢١. أي بكر بن حمدون الفيسي التيفاشي نسبة إلى تيفاش من

^٢ شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن فري قُلُوصَة بإفريقية (تونس الحالية)، عالم جيولوجي =

[الطويل]

أَلَسْتُ تَرَى الْأَهْرَامَ دَلَمَ بِنَاؤُهَا وَيَقْنَى لَدُنْهَا الْعَالَمَ الْإِنْسَ وَالْحَيَّ
كَأَنَّ رَعَى الْأَفْلَاكِ أَكْوَارَهَا عَلَى قَوَاعِيدِهَا الْأَهْرَامَ وَالْعَالَمَ الطُّغْنِ
وقال^١:

[الرجز]

إِذَا كَانَ لِلْمَاضِينَ مِنْ سَكُنَانِ مِصْرَ هِمِّمْ
فَالْفُضْلُ عَنْهُمْ فَضْلَةٌ وَالْعِلْمُ فِيهِمْ عِلْمٌ
ثُمَّ انْقَضَتْ أَغْلَانُهُمْ وَعِلْمُهُمْ وَاحْتَطَطُوا
وَأَنْظُرْ تَرَاهَا ظَاهِرًا بِأَذْ عَلَيْهِمُ الْهَرَمُ

وقال:

١٠

[الطويل]

تَحْلِيلِي لَا بَاقٍ عَلَى الْخَدَثَانِ مِنْ الْأَوَّلِ الْبَاقِي فَيُحَدِّثُ ثَانِي
إِلَى هَرَمِي مِصْرَ تَنَاهَتْ قُوَى الْوَزَى وَقَدْ هَرِمَتْ فِي دَهْرِهَا الْهَرَمَانِ
فَلَا تَعْجَبَا أَنَّ قَدْ هَرِمْتَ فِيمَا زَمَانِي بِفُقْدَانِ الشُّبَابِ زَمَانِي
وَعُوجًا بِقِرطَاجَتِي فَانْظُرَا بِهَا جَنَابَتِي الْعَادِينَ تَنْتَحِبَانِ
وَأَيُّوَانِ كِشْرَى فَانْظُرَاهُ فِيمَا يُخَيِّرُكُمَا بِالصَّدْقِ كُلِّ أَوَانِ
فَلَا تَحَسَبَا أَنَّ الْفَنَاءَ يَحْضُنِي إِلَّا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ فَنَانِ

١٥

وَوَجَدْتُ بِحُطِّ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي حَجَلَةَ التِّلْمِسَانِيِّ^٢: أَنَشَدَنِي
الْقَاضِي فَخْرُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّهْمَنِ الْمِصْرِي لِنَفْسِهِ فِي الْأَهْرَامِ، سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ،
وَأَجَادَ:

٢٠

[الكامل]

أَمْبَانِي الْأَهْرَامَ كَمِّ مِنْ وَاعِظٍ صَدَعَ الْقُلُوبَ وَلَمْ يَقْهَ بِلِسَانِهِ
أَذْكَرَنِي قَوْلًا تَقَادَمَ عَنْهُ وَأَبْنِ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ

^٢ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م (ابن حجر: الدرر الكامنة ١: ٣٥٠، إنباء الفهر ١: ٨١، أبو الحسن: المنهل الصافي ٢: ٢٥٩-٢٦١، النجوم الزاهرة ١: ١٣١).

= اشتهر بكتابه «أزهار الأندكار في جواهر الأحبار» كما له دراية واسعة بالشعر والأدب، أقام بمصر وتوفي بالقاهرة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م (الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٨٨-٢٩١، المقرئ: المقفى الكبير ١: ٧٣٨-٧٤٢).

^١ الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٩٠.

هُنَّ الْحَيَاتُ الشَّامِخَاتُ تَكَاذُ أَنْ
لَوْ أَنَّ يَكْتَرَى جَالِسٌ فِي سَفْحِهَا
تَبَيَّنَتْ عَلَى عَرِّ الزَّمَانِ وَبَزِيدِهِ
وَالشَّمْسُ فِي إِخْرَاقِهَا وَالزَّبْحُ عَنْدهِ
هَلْ عَابِدٌ قَدْ خَصَّهَا بِعِبَادَةٍ
أَوْ قَائِلٌ يَقْضِي بِرُجْعَتِي نَفْسِهِ
فَاخْتَارَهَا لِكُثُورِهِ وَلِحِشْمِهِ
أَوْ أَنَّهَا لِلشَّائِرَاتِ مَرَايِدُ
أَوْ أَنَّهَا وَصَفَتْ شُفُونُ كَوَاكِبِ
أَوْ أَنَّهُمْ نَقَشُوا عَلَى جِيطَانِهَا
فِي قَلْبِ رَائِبِهَا لَتَغْلَمَ نَقْشَهَا

تَمَقَّدَ فَوْقَ الْأَرْضِ عَنْ كَيْمَوَانِهِ
لَأَجْلِ مَجْلِسِهِ عَلَى إِيوَانِهِ
مَنْذًا وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى حَدَثَانِهِ
سَدَّ مَبُوبِهَا وَالشَّيْلُ فِي جِزْمَانِهِ
فَسَبَانِي الْأَهْرَامِ مِنْ أَوْثَانِهِ
مَنْ بَعْدَ فُرْقَتِهِ إِلَى جُثْمَانِهِ
قَبَرًا لِيَأْتِيَنَّ مِنْ أَدَى طُوفَانِهِ
بِمُخْتَارِ رَاصِدِهَا أَعَزَّ مَكَانِهِ
أَحْكَامُ فُزَسِ الذُّهْرِ أَوْ يُونَانِهِ
عِلْمًا بِحَارِّ الْفَيْكُرِ فِي تَبْيَانِهِ
فَكُرَّ يَحْضُ عَلَيْهِ طُوفَانِهِ

ذِكْرُ الصَّنَمِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ أَبُو الْهَوْلِ

هذا الصَّنَمُ^١ بين الهَرَمَيْنِ عُرِفَ أَوَّلًا بِإِلَهَيْبِ، وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول^٢.

قال القَصَاعِمِيُّ: صَنَمُ الهَرَمَيْنِ، وهو «بِلَهْوَيْه»، صَنَمٌ كبيرٌ من حِجَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الهَرَمَيْنِ، لَا يَظْهَرُ مِنْهُ سِوَى رَأْسِهِ فَقَطْ، تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ بِ«أَبِي الْهَوْلِ»، وَيُقَالُ بِإِلَهَيْبِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ طَلَسُمٌ لِلرُّقْلِ لِأَنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى إِبْلَازِ الْحِجَرَةِ.

وَقَالَ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الْبَنِيَانِ»^٣: وَعِنْدَ الْأَهْرَامِ رَأْسٌ وَغُثُّقٌ بَارِزَةٌ مِنَ الْأَرْضِ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ تُسَمِّيهِ النَّاسُ «أَبَا الْهَوْلِ»، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جُثَّتَهُ مَذْقُونَةٌ تَحْتَ الْأَرْضِ. وَيَقْتَضِي الْقِيَاسُ أَنَّ تَكُونَ

^١ كان أبو الهول (Sphinx) طوال العصر الإسلامي لا يظهر منه إلا رأسه وعنقه ولم يكشف عن كامل هيئته إلا في القرن العشرين، هكذا عاينه عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٩ وغيره من الرحالة (راجع، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٨ ومقالتي بيكر وهارمان Becker, C.H., *El² art. Abu al-Hawl* I, p. 129; Haarmann, U., «Die Sphinx Synkretistische Volkareligiosität in Spätmittelalterlichen

Islamischen Agypten», *Saeculum XXIX* (1978), pp. 367-84.
^٢ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤٢:١. وبهيب هو الاسم القبطي لأبي الهول.

^٣ هذا النص المنسوب إلى كتاب «عجائب البنيان» منقول من كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي. (انظر فيما تقدم ٣٠٠، ٣٢٥).

جثته^٥ بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعًا فصاعدًا ، وفي وجهه حفرة ودهان يلمع عليه روثق الطراوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مشخة بهاء وجمال ، كأنه يضحك تبسمًا .

وشيل بغض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال : تناسب وجه أبي الهول ، فإن أعضاء وجهه - كالأنف والعين والأذن - متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فإن أنف الطفل مثلًا مناسبة له ، وهو حسن به ، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهًا . وكذلك أنف الرجل لو كان لصبي لتشوهت صورته . وعلى هذا سائر الأعضاء ، فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى تلك الصورة ، وعلى نسبتها . والعجب من مصوره ، كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عجزها . وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه^١ .

ويقابله في بر مصر ، قريبًا من دار الملك ، صنم عظيم الحلقة والهيئة ، متناسب الأعضاء كما وُصف ، وفي حجره مؤنود وعلى رأسه ماجور ، الجميع صوان مانع . يزعم الناس أنه امرأة ، وأنها سريّة أبي الهول المذكور ، وهي بدوّ منسوب إليها . ويقال لو وُضع على رأس أبي الهول خيط ومُد إلى سريته لكان على رأسها مستقيمًا . ويقال إن أبا الهول طَلَسُم الرمل يتمعه عن النيل ، وإن السريّة طَلَسُم الماء يتمعه عن مصر^٢ .

وقال ابن المتوج : زقاق الصنم هو الزقاق الشارع ، أوله بأول السوق الكبير ، بجوار دُرب عمار ، ويُعرف الصنم بسريّة فيزَعُون . وذكر أنه طَلَسُم النيل لئلا يغلب على البلد . وقيل إن بلهيب الذي عند الأهرام يُقابله ، وإن ظهر بلهيب إلى الرمل ، وظهر هذا إلى النيل ، وكل منهما مُستقيم المشرق .

وقد نزل في سنة إحدى عشرة وسبع مائة أمير يعرف بيلاط ، في نفر من الحجاجين والقطّاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسريّة ، وقطعوه أعتابًا وقواعد ، ظنًا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة ، فحفر تحته إلى الماء فلم يوجد شيء ولجئ من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التي بالحمام المشجّد بظاهر مصر ، المعروف بالحمام الجديد الناصري^٣ ،

(٥) زيادة من الإفادة والاعتبار .

^٢ انظر فيما يلي ١٧٧ : ٢ .

^١ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٩ - ٥٠ .

^٣ انظر فيما يلي ٣٠٤ : ٢ .

الإدرسي : أنوار علوي الأجرام ١٥٠ .

وأزيل حينَ هذا الصنم من مكانه ، والله أعلم .

وفي زمننا كان شخصٌ يُعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من مجلّة صوفيّة الحانقاء الصلّاحيّة سعيد الشّعداء ، قام في نحو من سنة ثمانين وسبع مائة ، لتغيير أشياء من المنكرات ، وسارَ إلى الأهرام ، وشوّه وَجْهَ أبي الهؤل وشَعْنَه ، فهو على ذلك إلى اليوم ^١ . ومن حيثُ غلب الرُملُ على أراضٍ كثيرة من الجزيرة . وأهلُ تلك النواحي يَروُن أنَّ سَبَبَ غَلْبَةِ الرُملِ على الأراضي فسادُ وَجْهِ أبي الهؤل ، والله عاقِبَةُ الأمور .

وما أَحْسَنَ قَوْلَ ظافر الحدّاد ^٢ :

[الوارث]

تَأْمَلْ حِكْمَةَ الْأَهْرَامِ ^٥ وَاعْجَبْ وَبَيْنَهُمَا أَبُو الْهَوْلِ الْعَجِيبُ
كَعَمَارَيْنِ ^٣ عَلَى رَحِيلٍ تَحْبَوْنِ بَيْنَهُمَا رَقِيبُ
وَمَاءُ التَّيْلِ تَحْتَهُمَا ^٤ دُمُوعُ وَصَوْتُ الرِّيحِ عِنْدَهُمَا نَحِيبُ
وظَاهِرُ سِجْنِ يُوسُفَ مِثْلُ صَبٍّ تَخْلَفُ فَهُوَ مَحْزُونٌ كَعِيبُ

وَيُقَالُ إِنَّ أَتْرَبَ بَنِ قَيْطٍ بَنِ مِصْرَ بَنِ يَتَصَّرَ بَنِ حَامٍ بَنِ نُوحٍ أَوْصَى أَخَاهُ صَا عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَحْمِلَهُ فِي سَفِينَةٍ وَيَذْفِنَهُ بِجَزِيرَةِ وَسَطِ الْبَحْرِ ، فَلَمَّا مَاتَ فَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ

(a) بولاق : هيئة الهرمين . (b) عند ابن فضل الله العمري : وفيض البحر عندهما .

٣٧٨؛ وانظر كذلك محمد كامل حسين : في أدب مصر

الفاطمية ٢٢٤-٢٢٨؛ وللدكتور حسين نصار : ظافر الحداد ، شاعر مصري من العهد الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٥ ، ونشر ديوان شعره بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ومعظمه في مدح وزراء الدولتين الأمرية والمحافظية وأحيان مصر .

وانظر الأبيات في الديوان ٤ وعند الإدريسي : أنوار علوي ١٤٩ ، بالقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠٢ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨١ .

^٣ المقارنة هنا اليهودج .

^١ انظر فيما يلي ١٤٧ : ٢ ، ١٧٧ .

^٢ أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الحزامي الإسكندراني المعروف بالحدّاد ، شاعر مُتَلَقٌّ من العصر الفاطمي توفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م (انظر ترجمته ومأذج من شعره عند ، الشلّفي : معجم السفر ١٢٣-١٢٤ ابن ظافر : أخبار الدول المتقطعة ١٩٥ ابن خلّكان : وفيات الأعيان ٢ : ٥٤٠-٥٤٣ ابن مصر : أخبار مصر ١٢٣ العماد الأصفهاني : خريدة القصر (قسم مصر) ١٦٢-١٧٢ بالقوت الحموي : معجم الأدياء ١٢ : ٢٧-٣٣ الصنفدي : الرافي بالوفيات ١٦ : ٥٢١-٥٢٢ المقرئ : للمقنّي الكبير ٤ : ٣٩-٤١ أبي الحسن : النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧٦-

يُعْلِمُ به أهل مصر، فأنهجه الناس بقتل أثرهب وحاربوه تسع سنين. فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أثرهب، فحفره فلم يجدوا به شيئاً، وقد نقلته الشياطين إلى موضع أبي الهول، ودقته هناك بجانب قبر أبيه وجده يصغر.

فأزادوا له نهمته، وعادوا إلى مدينة منف وتمازوا، فأتاهم إبليس فدلهم على قبر أثرهب حيث نقله، فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير، فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى اقتنوا به وسجدوا له، وعبدوه فيما عبدوا من الأصنام.

وقتلوا صا ودقوه على شاطئ النيل، فكان النيل إذا زاد لا يملو قبره فافتن به طائفة وقالوا: قد قتل صا ظلمنا، وصاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لأثرهب. فعمد آخرون إلى حجر فتحثوه على صورة أشموم، وكان يقال له أبو الهول، وتصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له، فصار أهل مصر ثلاث فِرَقٍ.

ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول، وتقرب له الديكة البيض، وتبخره بالصندروس.

ذكر الجبال

اعلم أن أرض مصر بأسرها مخصصة بين جبلين آخذهين من الجنوب إلى الشمال، قليلي الارتفاع، وأحداهما أعظم من الآخر، والأعظم منهما هو الجبل الشرفي المعروف بجبل لوقا، والآخرى جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض، والمسافة بينهما تضيق في بعض المواضع وتتسع في بعضها، وأوسع ما يكون بأشقل أرض مصر.

وهذان الجبلان أقرعان لا يثبت فيهما نبات، كما يكون في جبال الجبلان الآخر؛ وعلة ذلك أنهما بورقيان مالجان، لأن قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة في التكوين، ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب، وكذلك مياه الآبار منهما مالحة.

وهذان الجبلان يجففان ما يذفن فيهما، فإن أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار.

وجبل لوقا في مشرق أرض مصر يفوق عنها ريح الصبا، فغدت مصر هذا الريح، ويعوق أيضاً إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق.

^١ انظر كذلك القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٥-٣٠٧.

وَتَتَعَدَّدُ أَشْأَاءُ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ بِحَسَبِ مَوَاضِعِهِمَا مِنَ الْإِقْلِيمِ ، فَيُطِلُّ عَلَى الْفُشْطَاطِ وَعَلَى الْقَاهِرَةِ الْجَبَلُ الْمُقَطَّمُ .

ذِكْرُ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ

- أَخْلَمَ أَنَّ الْجَبَلَ الْمُقَطَّمُ أَوَّلُهُ مِنَ الشَّرْقِ مِنَ الصَّيْنِ حَيْثُ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ ، وَيَمُرُّ عَلَى بِلَادِ الطُّطَرِ حَتَّى يَأْتِيَ فَرْغَانَةَ إِلَى جِبَالِ الْيَمِّ الْمَمْتَدَّةِ بِهَا نَهْرُ السَّعْدِ إِلَى أَنْ يَصِلَ الْجَبَلَ إِلَى بَجْيَحُونَ ، فَيَقْطَعُهُ وَيَمْضِي فِي وَسْطِهِ بَيْنَ شُعْبَتَيْنِ مِنْهُ وَكَأَنَّهُ قُطِعَ ثُمَّ فِي وَسْطِهِ ، وَيَسْتَمِرُّ الْجَبَلُ إِلَى الْحَوْزِجَانِ ، وَيَأْخُذُ عَلَى الطَّالِقَانِ إِلَى أَعْمَالِ مَزُو الرُّوذِ إِلَى طُوسَ ، فَيَكُونُ جَمِيعُ مَذُنِ طُوسَ فِيهِ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ جِبَالُ أَصْبَهَانَ وَيَشِيرَانِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، وَيَتَعَطَّفُ هَذَا الْجَبَلُ وَيَتَّكِدُ إِلَى شَهْرَزُورِ فَيَمُرُّ عَلَى الدُّجَلَةِ ، وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْجُودِيِّ ، مَوْقِفِ سَفِينَةِ نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الطُّوفَانِ .
- وَلَا يَزَالُ هَذَا الْجَبَلُ مُسْتَمِرًّا مِنْ أَعْمَالِ أَيْدٍ وَمَيَافَارِقِينَ حَتَّى يَمُرَّ بِثَغُورِ حَلَبَ فَيَسْمَى هُنَاكَ جَبَلُ الْكُكَّامِ ، إِلَى أَنْ يُعَدِّي الثُّغُورَ فَيَسْمَى نَهْرًا ، حَتَّى يُجَاوِزَ حِمَصَ فَيَسْمَى لُبْنَانَ ، ثُمَّ يَمْتَدُّ عَلَى الشَّامِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ الْقُلْزُومِ مِنْ جِهَةٍ ، وَيَتَّصِلُ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى وَيُسَمَّى الْمُقَطَّمُ ، ثُمَّ يَتَشَعَّبُ وَيَتَّصِلُ أَوَاخِرُ شُعْبِهِ بِنَهَايَةِ الْغَرْبِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ عُرِفَ بِمُقَطَّمِ بْنِ مِصْرَ بْنِ بَيْضَرِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
- وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ يَمُرُّ عَلَى جَانِبِي الثُّبُلِ إِلَى الثُّوبَةِ ، وَيَقْبُرُ مِنْ فَوْقِ الْقُبُورِ فَيَتَّصِلُ بِالْغَرْبِ إِلَى أَرْضِ مَقْرَاوَةَ ، وَيَمْضِي مُقَرَّبًا إِلَى سِجْلِمَاسَةَ ، وَمِنْهَا إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ تَسِيرَةً خَمْسَةَ أَشْهُرَ .
- وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ وَصِيفِ شَاهٍ ، وَذَكَرَ مَجِيءَ مِصْرَإِمَ بْنِ بَيْضَرِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ : وَكَشَفَ أَصْحَابُ قَلِيمُونَ الْكَاهِنَ عَنْ كُنُوزِ مِصْرَ وَعُلُومِهِمْ ، الَّتِي هِيَ بِحَسَبِ الْبَرَابِيِّ ، وَأَنَّا لَهُمُ الْمَعَادِينُ^(أ) مِنَ الذَّهَبِ وَالزُّنْجَدِ وَالْفُفُورِ وَالْأَسْبَاطِ^(ب) وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَوَصَفُوا لَهُمْ عَمَلَ

(أ) بولاق : وآثارهم والمعادن . (ب) ساقطة من بولاق .

لأنه قيل في هذا الموضع - أي قطع - عن الجبال فليس يحده إلا الفضاء . (ماقوت : معجم البلدان ١٧٦: ٥ - ١٧٧ ، وانظر Behrens - Abouseif, D., *El* ² art. *al-Mukattam* VII, pp. 509-11; Ragib, Y., «Le site de Mukattam», *An. Isl.* 33 (1999), pp. 159-84 .

^١ المقطَّم بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفصحها وميم ، هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة ، وهو جبل يمتد من الجنوب إلى الشمال وله في كل موضع اسم يخص به ، وعرف في هذا الموضع بالمقطَّم

الصَّنْعَةُ - يعني الكَيْفِيَاء - فَجَعَلَ مَضْرَامَ أَمْرَهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ يُقَالُ لَهُ مُقَيِّطَامُ الْحَكِيمِ ، كَانَ يَفْعَلُ فِيهِ الْكَيْفِيَاءَ ، وَاسْتَصْرَ مِنْ اسْمِهِ وَبَقِيَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ «جَبَلُ الْمُقْطَمِ» ، يَعْنِي جَبَلُ مُقَيِّطَامِ الْحَكِيمِ ^١.

وَقَالَ الْبُكْرِيُّ : الْمُقْطَمُ - بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ ثَانِيهِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَقَفَّحَهَا - جَبَلٌ مُتَّصِلٌ بِمِصْرَ يُؤَاوِزُونَ فِيهِ مَوْتَائِهِمْ ^٢.

وَقَالَ الْقَضَائِيُّ : الْمُقْطَمُ ، ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْيَمَنِيُّ أَنَّ هَذَا الْجَبَلَ تُسَبِّبُ إِلَى الْمُقْطَمِ بْنِ مِصْرَ بْنِ تَمِيمٍ بْنِ حَامٍ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَ عَبْدًا صَالِحًا ، فَأَنْفَرَدَ بِبِعَادَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ ، فَسَمَّى الْجَبَلَ بِاسْمِهِ ^٣.

وَلَيْسَ هَذَا بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ لِمِصْرَ وَلَدَ اسْمُهُ الْمُقْطَمُ ؛ وَالَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْمُقْطَمَ مَأْخُودٌ مِنَ الْقَطَمِ ، وَهُوَ الْقَطْعُ ، فَكَانَتْ لَمَّا كَانَ مُنْقَطِعَ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ سُمِّيَ مُقْطَمًا ، ذَكَرَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْهَنْدَاوِيُّ الدُّؤَسِيُّ ، الْمُنْبُذُ بِكَرَاعٍ ، وَغَيْرِهِ ^٤.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكِيمِ ، عَنْ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : سَأَلَ الْمُقَوْقِسُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَبِيعَهُ سَفْعَ الْجَبَلِ الْمُقْطَمِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وَفِي نُسْخَةٍ بِعَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ) ، فَتَعَجَّبَ عُمَرُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : أَكْتُبْ بِذَلِكَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : سَلِّمْ وَلَمْ أُعْطَاكَ بِهِ مَا أُعْطَاكَ ، وَهِيَ لَا تُزْرَعُ وَلَا يُسْتَنْبَطُ بِهَا مَاءٌ [وَلَا يُسْتَفْعَ بِهَا] ^٥ ؟

فَسَأَلَهُ فَقَالَ : إِنَّا لَنَجِدُ صِفَتَهَا فِي الْكُتُبِ أَنَّ فِيهَا غِرَاسَ الْجَنَّةِ . فَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ : «إِنَّا لَا نَعْلَمُ غِرَاسَ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَقْبِرْ فِيهَا مَنْ مَاتَ يَتِلَّكُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَبِعْهُ بِشَيْءٍ» . فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قُبِرَ فِيهَا رَجُلٌ مِنَ الْمَعَافِرِ يُقَالُ لَهُ عَامِرٌ ، فَقِيلَ غُمِرَتْ ؛ فَقَالَ الْمُقَوْقِسُ لِعُمَرَ : وَمَا ذَلِكَ ، وَمَا عَلَى هَذَا عَاهَدْتَنَا . فَقَطَّعَ لَهُمُ الْحَدَّ الَّذِي بَيْنَ الْمُقَبَّرَةِ وَبَيْنَهُمْ ^٦.

(٥) زيادة من فترج مصر.

^٣ التلغيشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٠٦.

^٤ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ١٧٦.

^٥ ابن عبد الحكم : فترج مصر ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ أبو =

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ ؛ المقرئ : للسودة

٣٩.

^٢ أبو عبد البكري : معجم ما استمع ١٢٥١ ، ١٣١١.

وَذَكَرَ عُمَرُ بْنُ أَبِي عُمَرَ الْكِنْدِيِّ فِي «فَضَائِلِ مِصْرَ» أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَارَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ وَمَعَهُ الْمُقَرَّقُسُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا لَجَبَلُكُمْ هَذَا أَقْرَعَ لَيْسَ بِهِ نَبَاتٌ كَجِبَالِ الشَّامِ ؟ فُلُو شَقَقْنَا فِي أَشْغَلِهِ نَهْرًا مِنَ الثَّيْلِ وَغَرَسْنَاهُ تَحْلًا ؟ فَقَالَ الْمُقَرَّقُسُ : وَجَدْنَا فِي الْكُتُبِ أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرُ الْجِبَالِ أَشْجَارًا وَنَبَاتًا وَفَايَكُهُ ، وَكَانَ مَثَرُ الْمُقَطَّمِ بْنِ مِصْرَ بْنِ يَتَصَّرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْجِبَالِ : إِنِّي مُكَلِّمٌ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِي عَلَى جَبَلٍ مِنْكُمْ ، فَصَمَّتِ الْجِبَالُ كُلُّهَا وَتَشَامَخَتْ إِلَّا جَبَلَ يَتِ الْقُدَيْسِ فَإِنَّهُ مَهْطَ وَتَصَاغَرَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ - وَهُوَ بِهِ أَخْبَرٌ - فَقَالَ : إِعْظَامًا وَاجْتِلَالًا لَكَ يَا رَبِّ . قَالَ : فَأَمَرَ اللَّهُ شُهْبَانَهُ الْجِبَالُ أَنْ يَخْبُوهُ كُلُّ جَبَلٍ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الثَّبَتِ ، فَجَادَ لَهُ الْمُقَطَّمُ بِكُلِّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الثَّبَتِ حَتَّى بَقِيَ كَمَا تَرَى ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنِّي مُعَوِّضُكَ عَلَى فَيْلِكَ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ ، أَوْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ .

فَكَتَبَ بِذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ شَجَرَ الْجَنَّةِ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(أ) ، فَاجْعَلْ لَهُمْ مَقْبَرَةً ، فَقَتَلَ . فَقَضِبَ الْمُقَرَّقُسُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ لِعُمَرَ : مَا عَلَى هَذَا صَالِحَتْنِي ؟ فَقَطَعَ لَهُ عُمَرُ قَطِيعًا نَحْوَ بَرْكَةٍ^(ب) الْحَبَشِ تَذْفَنُ فِيهِ النَّصَارَى^(١) .

قَالَ : وَرَوَى أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَجَدَ فَسَجَدَ مَعَهُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنَ الْمُقَطَّمِ إِلَى طَرَا^(٢) .

وَرَوَى أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ^(د) : وَإِذَا تُفِيحَ مَقْدِسِي - يُرِيدُ وَادِي مَسْجِدِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْمُقَطَّمِ عِنْدَ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ . فَإِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يُنَاجِي رَبَّهُ بِذَلِكَ الْوَادِي .

وَرَوَى أَسَدُ بْنُ مُوسَى قَالَ : شَهِدْتُ جَنَازَةً مَعَ ابْنِ لَهَيْعَةَ : فَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ : إِنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَرَّ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ وَعَلَيْهِ بَجِيَّةٌ صُوفٍ وَقَدْ شَدَّ

(أ) عِنْدَ الْبَكْرِى : الْمُسْلِمِينَ . (ب) سَاقِطَةٌ مِنْ بُولَاق . (ج) عِنْدَ الْكِنْدِيِّ : طَوًى . (د) سَاقِطَةٌ مِنْ بُولَاق .

= الْحَاسَنُ : النُّجُومُ الرَّاهِرَةُ ١ : ١٣٦ : السُّيُوطِيُّ : حَسَنُ
الْمَحَاضِرَةِ ١ : ١٣٧ : وَانْظُرْ فِيمَا يَلِي ٢ : ٤٤٣ .
١٢ : التَّلَقُّشْدِيُّ : صَبَحَ الْأَعْمَشُ ٣ : ٣٠٦ : السُّيُوطِيُّ :

١ ابْنُ الْكِنْدِيِّ : فَضَائِلُ مِصْرَ ٤٥ - ٤٦ : أَبُو عَيْبِدٍ
حَسَنُ الْمَحَاضِرَةِ ١ : ١٣٨ .

وَسَطَهُ بِشَرِيطٍ وَأَمَّهُ إِلَى جَانِبِهِ ، فَالْتَقَتْ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمَاه ، هَذِهِ مَقْبَرَةُ أُمِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ^١ .
وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ ، عَنْ عِيَّاشِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ كُثْبَ الْأَخْبَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ
رَجُلًا يُرِيدُ إِلَى^٢ مِصْرَ فَقَالَ لَهُ : أَهْدِنِي ثُرْبَةً مِنْ سَفْحِ مَقْطَعِهَا ، فَأَتَاهُ مِنْهُ بِجَرَابٍ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ
كَتَبْنَا الْوَفَاءَ أَمَرَ بِهِ فَجُعِلَ فِي لَحْدِهِ تَحْتَ بَجْتِهِ^٣ .

وَرَوَى عَنْ كُثْبٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جَبَلٍ مِصْرَ فَقَالَ : إِنَّهُ لِمُقَدَّسٌ مَا بَيْنَ الْقَصِيرِ إِلَى / الْيَحْمُومِ . قَالَ
ابْنُ لَهَيْعَةَ : وَالْمُقَطَّمُ مَا بَيْنَ الْقَصِيرِ إِلَى مَقْطَعِ الْحِجَازَةِ ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَمِنَ الْيَحْمُومِ .
وَفِي هَذَا الْجَبَلِ حَجَرٌ مِنَ الْجَمَاهِرِ^٤ ، وَشَيْءٌ مِنَ الْبَلَارِ^٥ ، وَهُوَ يَمْتَدُّ إِلَى أَقْصَايِ بَلَدِهِ^٥
السُّودَانِ .

الْجَبَلُ الْأَخْضَرُ

هَذَا الْجَبَلُ مُطَّلٌ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ شَرْقِهَا الشَّمَالِي ، وَيُعرف بِالْيَحْمُومِ .
قَالَ الْقَضَائِي : الْيَحَامِيمُ هِيَ الْجِبَالُ الْمَتَفَرِّقَةُ الْمُطْلِقَةُ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ جَانِبِهَا الشَّرْقِيِّ وَجَبَائِثِهَا .
وَتَنْتَهِي هَذِهِ الْجِبَالُ إِلَى بَعْضِ طَرِيقِ الْحَبْ . وَقِيلَ لَهَا الْيَحَامِيمُ لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا . وَالْيَحْمُومُ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ الْأَسْوَدُ الْمُظْلِمُ^٣ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، عَنْ شَقِيٍّ بْنِ عُثَيْدٍ : إِنَّهُ لَمَّا قَدِمَ مِصْرَ وَأَهْلُ مِصْرَ قَدْ اتَّخَذُوا مُصَلًى
بِحِذَاءِ سَاقِيَةِ أَبِي عَوْنٍ الَّتِي فِي الْعَشْكَرِ ، فَقَالَ : مَا لَهُمْ وَضَعُوا مُصَلَّاهُمْ فِي الْجَبَلِ الْمَلْعُونِ ،
وَتَرَكُوا الْجَبَلُ الْمُقَدَّسَ^٤ ، يَعْنِي الْمُقَطَّمُ ؟

(a) ساقطة من يولاقي . (b) يولاقي : جنته . (c) يولاقي : حجر الجواهر . (d) يولاقي : الفولاذ . (e) يولاقي : بلاد .

^١ ابن الكندي : فضائل ٤٤-٤٥ ؛ البكري : جغرافية ١٧٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ١١ .
نص كلام القاضي فخره ابن عبد الظاهر ونسبه إلى نفسه : وهذا النقد الذي وجهه المقرئ إلى ابن عبد الظاهر نستطيع أن نوجهه أيضا إلى المقرئ في أماكن كثيرة من كتابه ؛ الفلقشندي : صبح الأضنى ٣ : ٣٠٧ .

^٢ أبو عبيد البكري : جغرافية مصر ٨٠ .

^٣ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٤١ ومصدره القاضي ولكنّه غير بعض الكلمات ، ثم نقل المقرئ نص

القضاعي في هامش السودة (٢) ١٤٧ وأضاف إليه : وهذا مصر ٣٧ ، وفيما يلي ٤٥٤ : ٤٥٥ .

وقال ابن عبد الظاهر: الجبل الأحمر، ذكر القضاي أن اليعقوم هو الجبل المثل على القاهرة، ولا أرى جبلاً يُطل على القاهرة غيره^١.

وقال البكري: اليعقوم - بفتح أوله وإسكان ثانيه -، قال الحزبي: اليعقوم جبل بمصر. ورؤى من طريق أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو: أنه سأل كفتاً عن المقطم: أتعلمون هو؟ قال: ليس بملعون، ولكنه مقدس من القصير إلى اليعقوم^٢.

وذكر البكري أيضاً أن عابداً، بالباء الموحدة والبدال المهملة على وزن فاعل، جبل بمصر قيل المقطم^٣.

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولوني.

قال القضاي: جبل يشكر، هو يشكر بن مجذلة من لحم، وهو الذي عليه جامع ابن طولون. ويشكر بن مجذلة قبيلة من قبائل العرب اختطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك.

قال ابن عبد الظاهر: وجامع ابن طولون على جبل يشكر، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ومكان مبارك. وقيل إن موسى - عليه السلام - ناجى ربه عليه^٤.

وكان هذا الجبل يُشرف على النيل، وليس بينه وبين النيل شيء، وكان يُشرف على البركتين - أعني البركة التي تُعرف اليوم^٥ ببركة الفيل والبركة التي تُعرف ببركة قارون، وعلى هذا الجبل كانت تُنصب المجانيق التي تُجرب قبل إرسالها إلى الثغور^٦.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: عليه بكلمات. (c-c) ساقطة من بولاق.

^١ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٤١. حمان: مرشد الزوار ٢٠٢، ٢٠٤؛ الفلقشندي: صبح

^٢ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٣٩٠، الأعشى ٣: ٣٤٠؛ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ٣: ١٢.

^٣ ١٣٩١. راجع أيضاً عن جبل يشكر Salmon, G., *Etudes*

^٤ نفسه ٩٠٩، ١٣١١. *sur la topographie du Caire - La Kal'at al-Kabch*

^٥ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٨١؛ الموقع بن .et la birkatul III, Le Caire - IFAO 1902, pp. 12-27

الكَبْشُ

هو جبَلٌ بجوار جبل^(٥) يُشْكِر ، كان قَدِيمًا مُشْرِقًا^(٦) على الثِّل من غَرْبيه ؛ ثم لما اخْتَطَّ المسلمون مَدِينَةَ القُسْطَاط بعد قُتْعِ أَرْضِ مِصْر ، صَارَ الكَبْشُ من جُفْلَةٍ خِطَّةِ الحَفَرَاءِ القُصُورَى ، وَسُمِّيَ الكَبْشُ^١ .

الشَّرَفُ

• اسْمٌ لثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : فَأَوَّلُهَا مِنْهَا فِيمَا بَيْنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ ، وَوَجَدَ فِيمَا بَيْنَ يَزُوكَةَ الْحَبَشِ وَفُسْطَاطِ مِصْرَ .

فَأَمَّا الَّذِي بظَاهِرِ الْقَاهِرَةِ ، فَأَخَذَهُمَا عَلَيْهِ الْآنَ قَلْعَةُ الْجَبَلِ ، وَهُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْجَبَلِ الْمُقْطَمِ ؛ وَالْآخَرُ فِيمَا بَيْنَ الْجَامِيعِ الطُّولُونِيِّ وَمِصْرَ ، فَيُشْرَفُ غَرْبِيهِ عَلَى جِهَةِ الْخَلِيجِ الْكَبِيرِ ، وَيَصِيرُ فِيمَا بَيْنَ كُومِ الْجَارِاحِ وَخِطِّ الْجَامِيعِ الطُّولُونِيِّ ، وَكَانَ مِنْ خِطَّةِ نُجَيْبٍ ، ثُمَّ صَارَ مِنْ جَمَلَةِ الْعَشْكَرِ ؛ وَأَمَّا الشَّرَفُ الثَّلَاثُ فَيُفَرِّقُ الْيَوْمَ بِالرُّضْدِ ، وَهُوَ يُشْرَفُ عَلَى رَاشِدَةٍ .

وكان يُقَالُ لِلشَّرَفِ سَنْدٌ ، وَالسَّنْدُ مَا قَابَلَكَ مِنَ الْجَبَلِ وَعَلَا عَنِ الشَّفْحِ ، وَيُقَالُ فُلَانٌ سَنْدٌ أَيُّ مُعْتَمِدٌ .

زُكْرُ الرُّضْدِ

• هَذَا الْمَكَانُ شَرَفٌ يُطْلَى مِنْ غَرْبِيهِ عَلَى رَاشِدَةٍ ، وَمِنْ قِبَلِهِ عَلَى يَزُوكَةَ الْحَبَشِ ، فَيُخَسِّبُهُ مِنْ رَأَى مِنْ جِهَةِ رَاشِدَةٍ جَبَلًا ، وَهُوَ مِنْ مَشْرِقِيهِ سَهْلٌ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَرَاةِ بِغَيْرِ اِزْتِقَاعٍ وَلَا صُعُودٍ . وَهُوَ مُحَاطٌ لِلشَّرَفِ الَّذِي كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْعَشْكَرِ ، وَالشَّرَفُ الَّذِي يُفَرِّقُ الْيَوْمَ^(٥) بِالْكَبْشِ .

وكان يُقَالُ لَهُ قَدِيمًا الْجَوْفُ ، ثُمَّ عُرِفَ بِالرُّضْدِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْأَفْضَلَ أَبَا الْقَاسِمِ شَاهِنْشَاهَ بْنَ أَمِيرِ الْجَيْوشِ بَذَرَ الْجَمَالِي أَقَامَ قَوْفَهُ كُزَّةً لِرُّضْدِ الْكَوَاكِبِ ، فَفُرِفَ مِنْ حِينَئِذٍ بِالرُّضْدِ .

قَالَ فِي كِتَابِ «عَمَلِ الرُّضْدِ» : وَحُمِلَ إِلَى الْأَفْضَلِ شَاهِنْشَاهَ بْنَ أَمِيرِ الْجَيْوشِ بَذَرَ الْجَمَالِي^(٥) مِنَ الشَّامِ تَقَاوِمَ مَا يُسْتَأْنَفُ مِنَ السَّنِينَ لِاسْتِقْبَالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِائَةٍ مِنْ سَنَةِ الْهَجْرَةِ ؛ قِيلَ مِائَةٌ تَقْوِمُ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : يشرف . (c) ساقطة من الأصل .

أو نحوها . وكان مُتَجَمِّع الحَضْرَة يومئذٍ - ابنُ الحَلْبِيّ وابنُ الهَيْثَمِيّ وسَهْلون وغيرهم - يُطَلِّقُ لهم الجاري في كُلِّ شهر والرَّمْثوم والكُسْنُوَة على عَمَلِ التَّقْوِيم في كُلِّ سَنَة . وكان كُلُّ منهم يَجْتَهِد في جِسا يه وما يُصِل قُدْرَتُه إليه ، فإذا كان في غُرَّة السَّنَة حَمَلَ كُلُّ منهم تَقْوِيَه ، فيقابل بينها وبين التَّقْوِيَمَاتِ الحَضْرَة من الشَّام فيوجد بينها اِخْتِلَافٌ كبير ، فَأَكْبَرُ ذلك .

- فلما كان غُرَّة ثلاث عشرة وخمس مائة - عند إحصار التَّقَاوِيم على العادة - جَمَعَ المُتَجَمِّعِينَ والحُصَّاب وأهل العِلْم ، وسألهم عن السَّبَب في اِخْتِلَافِ بَيْنِ التَّقَاوِيم ، فقالوا : الشَّامِيّ يُحَسِّب ويُعْمَلُ على رَأْيِ الزَّيْجِ المُتَخَنِّ (a) المَأمُونِي ، ونحن نعمل على رَأْيِ الزَّيْجِ الحَاكِمِي لِقُرْبِ عَهْدِهِ ، وبين المُتَقَدِّمِ والمُتَأَخَّرِ تَفَاوُتٌ وَخِلَافٌ ، وقد أَجْمَعَ القَدَمَاءُ أَنَّ القَرِيبَ العَهْدَ أَصَحُّ من المُتَقَدِّمِ لِتَثَلُّ الكَوَاكِبِ وَتَغْيِيرِ الحِسابِ .

- ١٠ وَتَحَدَّثُوا في مَعْنَى ذلك بما هو مَذْكُورٌ في مَوْضِعِهِ ، وأشاروا عليه بِعَمَلِ رَضِيٍّ/ مُسْتَجِدٍّ يَصُحِّحُ به الحِساب ، ويُخْرِجُ المَعْرُوفَ والتَّفَاوُتَ ، وَتَحْصُلُ به المُنْفَعَةُ العَظِيمَةُ ، والفَائِدَةُ الجَلِيلَةُ ، والشَّمْعَةُ الشَّرِيفَةُ ، والذِّكْرُ الباقِي ؟ فقال : مَنْ يَتَوَلَّى ذلك ؟ فقال صَاحِبُ دَشْتِيَه ومُشِيرُهُ ، الشَّيْخُ الأَجَلُّ أَبُو الحَسَنِ بنِ أَبِي أُسَامَةَ : هذا القاضي ابنُ أَبِي العَيْشِ الطَّرَائِئِسيّ المَهَنْدِسُ العَالِمُ الفَاضِلُ . وكان ابنُ أَبِي العَيْشِ صِغَرُهُ زَوْجَ ابْنَتِهِ ، وهو شَيْخٌ كَبِيرُ السَّنِ والقَدَرِ ، كَثِيرُ المَالِ . وساعَدَهُ على ذلك القَائِدُ أَبُو عبد الله الذي تَقَلَّدَ الوِزَارَةَ بعد الأَفْضَلِ ، ودُعِيَ بِـ«المَأمُونِ بنِ البَطَّالِحِي» . فاستَضَوَّبَ الأَفْضَلُ ذلك وقال : مُرُوهُ يَهْتَمُّ بِذلك ، وَتَسْتَدْعِي ما يَحْتَاجُ إليه .

- فكانَ أَوَّلُ ما بَدَأَ به لما حَصَلَ ذلك أن مَدَحَ نَفْسَهُ - وكان الأَفْضَلُ غَیُورًا على كُلِّ شَيْءٍ ، أَشَدَّ ما عليه من يُقْتَبَرُ أو يُبَلِّسُ ثِيَابًا مَذْكُورَةً - ثم قال : هذه الآلا ت عَظِيمَةُ ، وَخَطَرُهَا جَسِيمٌ ، ولا كُلُّ أَحَدٍ يُقَدِّمُ عليها ولا يُحْسِنُهَا . وَأَكْثَرُ الكَلَامِ والتَّوْبِيعَةِ ، وقال : يَحْتَاجُ الذي يَتَوَلَّى ذلك يَتَّصِلُ معه الإِنْعَامُ والإِكْرَامُ ، لِتَطْهَبَ نَفْسُهُ لِلشَّهَادَةِ ، وَيُنْشِرَ صَدْرُهُ ، وَيَقْدَحَ خَاطِرُهُ لما يُعْمَلُ في حَقِّهِ .

- ٢٠ فَصَجَرَ الأَفْضَلُ من ذلك وقال : لقد أَكْثَرُ في مَدْحِ نَفْسِهِ وَلَدَدَهُ ، وما يُعَامِلُنَا بعد لا حَاجَةَ إلى مُعَامَلَتِهِ .

فأشارَ القَائِدُ ابنُ البَطَّالِحِي وقال : هنا من يُبْلِغُ الغَرَضَ بِأَسْهَلِ مَأْخَذٍ ، وَأَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَشْرَعِهِ ، وَأَلْطَفِ مَعْنَى ، أَبُو سَعِيدِ بنِ قِرْقَةِ الطَّبِيبِ ، مُتَوَلَّى خَزَائِنِ السِّلَاحِ والشُّرُوجِ والصَّنَاعَاتِ وغير ذلك .

فَأَخْضَرَهُ لِلوَقْتِ ، فَأَتَفَقَّ لَهُ مِنَ الْحَدِيثِ الْحَسَنِ السَّهْلَ ، وَمَا سَبَّبَ عَمَلِ الآلَاتِ ، وَمَنِ ابْتَدَأَهَا مِنَ الْأَوَّلِ ، وَذَكَرَ الْقَدَمَاءَ فِي ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ ^٥ ، وَمَنْ رَصَدَ مِنْهُمْ وَاجِدًا وَاجِدًا إِلَى آخِرِهِمْ شَرْعًا مُسْتَوْفَى ، كَأَنَّهُ يَحْفَظُهُ ظَاهِرًا ، أَوْ يَفْرَأُهُ مِنْ كِتَابٍ ^١ .

فَأَعْجَبَ الْأَفْضَلَ وَالْحَاضِرِينَ ، وَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ تَحْتَاجُ ؟ فَقَالَ : مَا أَسْتَحْتَاجُ كَبِيرَ أَمْرٍ ، وَالْأُمُورَ سَهْلَةً ، وَكُلَّ مَا أَسْتَحْتَاجُهُ فِي خَزَائِنِ السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - الثُّحَاسَ وَالرِّضَاصَ وَالْآلَاتِ ، وَكُلَّ مَا أَسْتَحْتَاجُ أَسْتَعْذِيهِ أَوَّلًا أَوَّلًا ، وَالتَّفَقَّاتِ وَأُجْرَةَ الصَّنَاعِ فَيَتَوَلَّاهَا غَيْرِي . فَأَعْجَبَ بِهِ وَقَالَ : يُطْلَقُ لَهُ جَارٍ لِنَفْسِهِ ؛ فَقَالَ : أَنَا مُسْتَعْتَدٌّ فِي عِدَّةٍ يَحْدُمُ ، فَجَوَارِي تَكْفِينِي ، فَأَنَا تَمْلُوكُ الدَّوْلَةِ مَا أَسْتَحْتَاجُ إِلَى جَارٍ ، وَإِذَا بَلَغْتَ الْقَرَضَ وَأَنْهَيْتِ الْأَشْغَالَ فَهُوَ الْمَقْصُودُ .

وَكَانَ قِيلَ لِلْأَفْضَلِ : هَذَا الرِّضْدُ يَحْتَاجُ إِلَى أَثْوَالٍ عَظِيمَةٍ ، فَقَالَ : كَمْ تَقُولُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ : مَا يُنْفَقُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمِثْلِ مَا يُنْفَقُ عَلَى مَسْجِدٍ أَوْ مُسْتَنْظَرٍ .

فَرَجَعَ يُكَرِّرُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ ، فَقَالَ : هَاتُوا وَرَقَةً . فَكَتَبَ فِيهَا :

«الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهِي : دَعَتِ الْحَاجَّةُ إِلَى خُرُوجِ الْأَمْرِ الْعَالِيِّ إِلَى دَارِ الْوَكَاةِ بِإِطْلَاقِ مَائِي قِنْطَارٍ مِنَ الثُّحَاسِ الْفَخْرِ ، وَثَمَانِينَ قِنْطَارًا مِنَ الثُّحَاسِ الْقَضِيبِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، وَأَرْبَعِينَ قِنْطَارًا مِنَ الثُّحَاسِ الْأَخْمَرِ ، وَمِنَ الرِّضَاصِ أَلْفَ قِنْطَارٍ ، وَمِنَ الْحَطَبِ وَمِنَ الْحَدِيدِ وَالْفُؤْلَازِ مِنَ الصَّنَاعَةِ مَا لَعَلَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَمِنَ الْأَخْشَابِ وَمِنَ الثَّقَفَةِ مِائَةَ دِينَارٍ عَلَى يَدِ شَاهِدٍ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا فَرَّغْتَ أَسْتَعْذِي غَيْرَهَا ، وَأَسْتَحْتَاجُ مَوْضِعًا يَصْلُحُ الرِّضْدُ فِيهِ ، وَيَكُونُ الْقَتْلُ وَالصَّنَاعَةُ فِيهِ ، وَبَشَارَةَ السُّلْطَانِ فِيمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَسْتَأْمُرُ فِيهِ » .

فَاسْتَضَوَّبَ الْأَفْضَلُ جَمِيعَ ذَلِكَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَخْلَعَ عَلَيْهِ فَقَالَ الْقَائِدُ : هَذَا فِيمَا بَعْدَ إِذَا شُوهِدَتْ أَعْمَالُهُ . فَحَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ الْحَالِ إِلَى آخِرِهَا وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ الدَّرْهَمُ الْفَرْدُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَطْلُبَ وَهُوَ مُسْتَعْتَدٌّ عَنْدهُمْ ، وَكَانُوا بِأَجْمَعِهِمْ يُؤْمَلُونَ طُولَ الْمُدَّةِ وَالْبَقَاءِ ، فَقُتِلَ الْأَفْضَلُ ثَانِي سَنَةً ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ .

(٥) يولاق : القدماء في العلم .

ثم إنهم اختاروا للروض مسجد الثور فوق المقطم، فوجدوه بعيداً عن الحوائج، فأجمعوا على سطح الجوف بالمسجد المعروف بالقبلة الكبير - وكان قد صُرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار - فحفرُوا في مسجد القبلة نَقْرًا في الجبل مكان الصهريج الآن، فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة - وقطرها عشرة أذرع ودورها ثلاثون ذراعاً - وهندموه وحزروه أياماً وعمل حوله عشر هرج، على كل هرجة مئفاحان، وفي كل هرجة أحد عشر قنطاراً نحاساً وأقل وأكثر، والجميع مائة قنطار وكثير، قشموها على الهرج، وطرح فيها النار من القصر، ونفقوا إلى الثانية من الثمار. وحضر الأفضل بكرة، وجلس على كُرسي، فلما تهيأت الهرج ودارت أتمر الأفضل بفتحها - وقد وقف على كل هرجة رجل، وأمرُوا بفتحها في لحظة - ففتحت، وسال الثحاس كالماء إلى القالب، وكان قد بقي فيه بعض الندوة، فلما استقر به الثحاس بحارته، تقفّع المكان الندي فلم تيم الحلقة. ولما بردت وكشِف عنها، إذ هي تامة ما خلا المكان الندي. فضجّر الأفضل ١٠ وضاق صدره، وزنى الصنّاع بكيس فيه ألف ديزهم، وغضبَ وركب. فلاحظه ابن قزقة وقال: مثل هذه الآلة العظيمة التي ما سُمِع قط بمثلها، لو أعيد سبكها عشر مرّات حتى تصبغ ما كان كثيراً، فقال له الأفضل: اهتم في إعادتها.

فشبكت وصحّت، ولم تحضر الأفضل في المرة الثانية ففرح بصحتها، وغملت وزفت إلى سطح مسجد القبلة، وأخضر لها جميع صنّاع الثحاس، وعمل لها بؤكار خشب من السندان - وهو بؤكار عجيب - وبني في وسط الحلقة مشطبة حجارة مثقنة لرجل البؤكار، وهو قائم مثل غروس الطّاحون، وفيه/ ساعد مثل ناف الطّاحون، وقد لبس بالحديد، والجميع سندان جيد، وطرف الساعد مهيأ لعدة فتون: تارة لتصحیح وجه الحلقة، وتارة لتعديل الأجانب، وتارة للخطوط والخزوز.

وأقام في التصحيح فيها وأخذ زوايدها بالمبارد مدة طويلة، وجماعة الصنّاع والمهندسين وأزباب هذا العلم حاضرون، واستدعى لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع، وعقد تحت الحلقة أقباء وثيقة، وأرادوا قيامها على سطح مسجد القبلة فلم يتهيأ لهم، فإنهم وجدوا المشرق لأول بروز الشمس مشدوداً، فاتفقوا على نقلها إلى المسجد الجبوشي مجاور الأنطاكي، المعروف أيضاً بالروض، وكان الأفضل بناءه ألطف من جامع القبلة ولم يكمل، فلما صار يرسم الرّوض كمل^١.

^١ قارن مع ابن ميسر: أخبار مصر ٨٤ - ١٨٥ القريري: اتعاظ الخنفا ٣: ٧٢.

فحَضَرَ الْأَفْضَلُ فِي نَقْلِ الْحَلَقَةِ مِنْ جَامِعِ الْيَبْلَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجُبُوشِيِّ ، وَقَدْ أُخْضِرَتْ الصُّواري الطُّوالُ الْعِظَامُ وَالشَّرَاقِياتُ وَالْمُتَحَنَّنَاتُ مِنَ الْإِسْكَنْذَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَجُمِعَتِ الْأَشْطُولِيَّةُ وَرِجَالُ الشُّودَانِ وَبَعْضُ أَصْحَابِ الرُّكَّابِ وَالْجُنْدِ حَتَّى أَدْلَوْهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى الْقَبْجَلِ إِلَى مَسْجِدِ الرُّضْدِ الْجُبُوشِيِّ .

وِثَانِي يَوْمَ حَضَرُوا بِأَجْمَعِهِمْ حَتَّى رَفَعُوهُ إِلَى السَّطْحِ ، وَكَمَلُوهُ ، وَأَقَامُوا الْحَلَقَةَ ، وَجَقَلُوا تَحْتَ أَكْتَافِهَا عَمُودَيْنِ مِنْ رُخَامٍ سَبَّكُوهُمَا بِالرُّضَاصِ مِنْ أَسْفَلِهَا وَأَعْلَاهَا حَتَّى لَا يَزُولَ خِيَمَتُهُمْ .
الثَّحَاسُ ، وَجُعِلَ فِي الْوَسْطِ عَمُودٌ رُخَامٌ ، وَبِأَعْلَاهُ قُطْبُ الْعِضَادَةِ مَشْبُوكٌ بِالثَّحَاسِ الْكَثِيرِ لَتَدُورَ عَلَيْهِ الْعِضَادَةُ ^١ . وَغُمِلَتْ مِنْ ثُحَاسٍ فَمَا تَمَارَسَتْ وَلَا دَارَتْ ، فَعَمِلُوا مِنْ خَشَبٍ سَاجٍ وَقَطَّبُهَا وَأَطْرَفُهَا مِنْ ثُحَاسٍ صَفَائِحَ لِيَخْفَ الدُّورَانُ ، ثُمَّ رَصَدُوا بِهَا الشَّمْسُ بَعْدَ كُلْفَةٍ .

وَكَانَتِ الْحَلَقَةُ تُزْنِي الدَّرَجَةَ وَالذَّقَاتِ كُلَّ وَثْقَةٍ لِلثَّقَلِ ، فَجُعِلَ عَمُودٌ مِنْ ثُحَاسٍ فَوْقَ عَمُودِ الرُّخَامِ لِيَقْبَلَ رُخْوَاهَا . وَغُلِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَكَانَتْ تَخْتَلِفُ لِشِدَّةِ مَا كَانُوا يُخْرِجُونَهَا بِالشُّوَاوِيلِ وَعِضَادَةِ الْخَشَبِ .
وَتَرَدَّدَ إِلَيْهَا الْأَفْضَلُ مَعَ كَبِيرِ بَيْتِهِ وَهُوَ يَزْتَمِشُ ^٢ ، وَالْقَائِدُ يَحْمِلُهُ إِلَى فَوْقِ ، وَيَقْعُدُ زَمَانًا مِنْ التَّعَبِ لَا يَتَكَلَّمُ وَبِهِ تَزْتَمِشُ ، فَرَصَدُوا قُدَامَهُ . وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ قُبِلَ الْأَفْضَلُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ .

وَقِيلَ لِلْأَفْضَلِ عَنْ ابْنِ فِرْقَةٍ إِنَّهُ أَسْرَفَ فِي كَبْرِ الْحَلَقَةِ وَعِظَمِ مِقْدَارِهَا ، فَقَالَ لَهُ الْأَفْضَلُ : لَوْ اخْتَصَرْتُ مِنْهَا كَانَ أَهْوَنُ ؟ فَقَالَ : وَحَقُّ نِعْمَتِكَ ، لَوْ أَتَيْتَنِي أَنْ أَعْمَلَ حَلَقَةً تَكُونُ رِجْلُهَا الْوَاحِدَةَ عَلَى الْأَهْرَامِ وَالْأُخْرَى عَلَى الشُّورِ فَعَلْتُ ، فَكُلَّمَا كَبُرَتْ آلَةٌ صَخَّرْتُ التَّخْرِيرَ . وَأَيْنَ هَذَا فِي الْعَالَمِ الْغُلُوبِيِّ ؟
ثُمَّ أَكْثَرُوا عَلَيْهِ فَجُعِلَ حَلَقَةً دُونَهَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُهَنْدَمِ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ ، تَحْتَ الْمَسْجِدِ الْجُبُوشِيِّ ، كَانَ قَطْرُهَا أَقَلُّ مِنْ سَبْعَةِ أَذْرَعٍ وَدُورُهَا نَحْوُ أَحَدٍ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا .
فَلَمَّا كَمُلَتْ قُبِلَ الْأَفْضَلُ ، وَلَمْ يُثَبِّقْ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ فِي الْأَشْجَرَةِ وَالْمُؤْنِ وَمَا لَابَدَ مِنْهُ سِوَى نَحْوِ مِائَةِ وَسْتَيْنِ دِينَارًا .

^١ عِضَادَةٌ ج. عِضَادَاتُ . الْكَتِفُ الرَّأْسِيَّةُ لِفَتْحَةِ الْبَابِ أَوْ الشُّبَّانِ (الْحَائِقُ) (عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، بيروت ١٩٨٨ ، ٢٧٥) مُحَمَّدٌ أَمِينٌ وَلِئِيلَى إِبْرَاهِيمَ : الْمَصْطَلَحَاتُ الْأَكْثَرِيَّةُ فِي الْوُثَائِقِ الْمَمْلُوكِيَّةِ ، الْقَاهِرَةُ (١٩٩٠ ، ٨١) .

^٢ ذَكَرَ الْمُفْرِزِيُّ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م أَنَّ يَدَ ٤٥٨ هـ .

فلما نمت الوزارة للمأمون البطائحي، أحب أن يكملها - ويقال له «الروض المأموني المصحح»، كما قيل للأول «الروض المأموني المفتحن» - فأخرج الأمر بنقل الروض إلى باب النصر بالقاهرة، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالين والأسطولية وطوائف الرجال، وكان يدفع لهم كل يوم يرشم الغداء بمجئلة ذراهم.

- فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد إلى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة^١، وتبعوا في دخوله من باب النصر تعباً عظيماً لخوفهم أن يضدم فيتغير، فتصهروا الصواري على عقد باب النصر من داخل الباب، وتكاثر الرجال في جذب المياحين من أشغل ومن فوق حتى وصل إلى السطح الكبير، ثم نقلوه من السطح الكبير إلى السطح القوقاني، وأوقفوا له العمد كما تقدم ذكره، ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجوف، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط.

- ١٠ ثم اختلفوا بعمل ذات حلق يكون قُطرها خمسة أذرع، وشبكت في فئذق بالخطوفية من القاهرة، وكان الأمر فيها سهلاً عندما لحقهم من الغناء العظيم في الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطى. وتجرد المأمون لعتلها والحث فيها، وكان ابن قوقة يحضر كل يوم دفعتين، ويحضر أبو جعفر بن حسداي، وأبو البركات بن أبي الليث صاحب الديوان ويديه الحل والفقء؛ فقال له المأمون: اطلع إليهم كل يوم وأي شيء طلبوه وقّع لهم به من غير مؤامرة^٢.

- ١٥ وكان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال «الروض المأموني المصحح»، فلو أراد الله أن يتقى المأمون قليلاً كان كمل روض جميع الكواكب، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمس مائة، وكان من مجئله ما غلّد من ذنوبه عمل الروض المذكور والاجتهاد فيه، وقيل: أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سناه «الروض المأموني» ونسبه إلى نفسه ولم ينسبه إلى الخليفة الأمير بأحكام الله. وأما المائة والغوغاء فكانوا يقولون: أرادوا أن يخاطبوا رُحل، وأرادوا أن يفلّموا الغيب. وقال

- ٢٠ أغزّون منهم: عجل هذا للسخر ونحو ذلك كم من الشناعات. فلما قبض على المأمون بطل، وأتكر الخليفة على عمله، فلم يجسر أحد أن يذكره. وأمر فكسر وحمل إلى المناجات، وهرب المستخديمون ومن كان فيه من الخاص.

^١ عن الفتح والمشاهد ومسجد الذخيرة انظر فيما يلي الطبع، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك، وقد فعل المأمرة في كل ديوان تجتمع جميع ما يحتاج إليه من استعمار واستدعاء وتوقيع. (الخوازمي: مفاتيح العلوم ٣٨).

٤٣٢:١، ٢٦٤:٢، ٤١١، ٤٣٦-٤٤٢.

^٢ المؤامرة. عمل تجتمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام

- ١٠ وكان فيه من المهندسين / يرسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد : ١
- الشيخ أبو جعفر بن حسداي ، والقاضي بن أبي الغيث ، والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن البواب^١ ، والشيخ أبو المتجاء بن سند الشاعري الإسكندراني المهندس ، وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس ، وغيرهم من الحساب والمتحسين كاهن الحلي وابن الهيثمي وأبي نصر تلميذ سهلون ، وابن دياب ، والقلمي ، وجماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوة النهار ، فيحضر صاحب الذبوان ابن أبي الليث ، وكان ابن حسداي رُجماً تأخر في بعض الأيام ، فإنه كان امرأ عظيمًا صاحب كبرياء وهيبة . وفي كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة ويطلبه بمن كان^٢ منهم ، لأنه كان كثير التفقد للأمور كلها ، وله غمازون وأصحاب أخبار لا تنام ، ولا يكاد يفوته شيء من أحوال الخاصة والعامة بمصر والقاهرة ومن يتحدث ، ويجعل في كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها .
- ١١ وأنا أذكرت هذا الموضع الذي يُعرف اليوم بالروصد - حيث جامع القيلة - عامراً ، فيه عدة مساكن ومساجد ، وبه أناس مقيمون دائماً ، وقد خرب ما هناك وصار لا أنيس به .
- وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأ فيه سواقي لتقل الماء من أماكن قد حفر لها خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية ، فإذا صار الماء في سفح هذا الجرف المسمى بالروصد نُقل يستوي هناك قد أنشئت ، إلى أن يصير إلى القلعة . فمات ولم يكمل ما أراده من ذلك ، كما ذكر في أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب . وما زال موضع هذا الروصد مُتَرَكاً لأهل مصر ، ويقال إن المعز لدين الله متعدياً لما قديم من بلاد المغرب إلى القاهرة ، لم يُعجبه مكانها ، وقال للقائد جوهري : فاتك بناء القاهرة على النيل ، فهلاً كنت بُنيتها على الجرف ، يعني هذا المكان^٢ .
- ١٢ ويقال إن اللحم عُلق بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، وعُلق بقلعة الجبل فتغير بعد يومين وليلتين ، وعُلق في موضع الروصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها ، لطيب هوائه . والله ذو القائل :
- [السرير]

باليلة عاش شروري بها ومات من يخسئنا بالكمد
وبت بالمفسوق في المشتى وبات من يرقبنا بالروصد

(أ) بولاق : غاب .

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٢٠ : ابن دقماق : المقرري : اتعاط الحنفا ١ : ١١٣ : وفيما يلي ١ : ٣٧٧ .
الانصار ٥ : ٣٦ : القلقشندي : صبح ٣ : ٣٥١ ، ١٣٦٧
^٢ إلى هنا ينتهي الجزء الثاني من طبعة فييت Wiet .

ذِكْرُ مَدَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ

قال ابن سيدة^١: مَدَنٌ بِالْمَكَانِ أَقَامَ، وَالْمَدِينَةُ: الْحِصْنُ يُقْبَى فِي أَصْطُلَحِهِ^٢، الْأَرْضُ، مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَالْجَمْعُ مَدَائِنٌ وَمُدُنٌ. وَمِنْ هُنَا حَكَّمَ أَبُو الْحَسَنِ - فِيمَا خَكَى الْفَارِسِيُّ عَنْهُ - أَنَّ مَدِينَةً: «فَعِيلَةٌ»^٣.
وَقَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو الدِّينِ أَبُو حَيَّانَ^٤: الْمَدِينَةُ مَعْرُوفَةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَدَنَ، فَهِيَ «فَعِيلَةٌ»، وَهِيَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا «مَفْعَلَةٌ»، مِنْ دَانَ - فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ لِاجْتِمَاعِ الْعَرَبِ عَلَى الْهَمْزِ فِي جَمْعِهَا، فَإِنَّهُمْ قَالُوا مَدَائِنَ بِالْهَمْزِ، وَلَا يُحْفَظُ مَدَائِنَ بِالْيَاءِ. وَلَا ضَرُورَةٌ تَدْعُو إِلَى أَنَّهَا «مَفْعَلَةٌ» مِنْ دَانَ، وَيَقْطَعُ بِأَنَّهَا «فَعِيلَةٌ» جَمْعُهُمْ لَهَا عَلَى «فُعْلٍ»، فَإِنَّهُمْ قَالُوا مُدُنٌ، كَمَا قَالُوا صُحُفٌ فِي صَحِيفَةٍ.
وَاعْلَمْ أَنَّ مَدَائِنَ مِصْرَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا مَا ذَكَرَ وَجَهِلَ اسْمُهُ وَرَسْمُهُ، وَمِنْهَا مَا غَرِفَ اسْمُهُ وَبَقِيَ رَسْمُهُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَامِرٌ.

- ١٠ وَأَوَّلُ مَدِينَةٍ غَرِفَ اسْمُهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ مَدِينَةُ «أَمْشُوس». وَقَدْ مَحَا الطُّوفَانُ رَسْمَهَا، وَلَهَا أُخْبَارٌ مَعْرُوفَةٌ، وَبِهَا كَانَ تِلْكَ مِصْرَ قَبْلَ الطُّوفَانِ، ثُمَّ صَارَتْ مَدِينَةً مِصْرَ بَعْدَ الطُّوفَانِ مَدِينَةً مَثْفً، وَكَانَ بِهَا تِلْكَ الْقَبِيضُ وَالْفَرَاغَةُ إِلَى أَنْ خَرَّبَهَا بُخْت نَصْرٌ^٥.

١ (a) بولاق: أسطحة.

الهميان ٢٠٤-٢٠٥، Talbi, M., *El² art. Ibn Sids*, (III, pp. 964-65).

٢ ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم ١٠: ٧١.

٣ أبو الدِّينِ أَبُو حَيَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ هَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ الْأَنْدَلُسِيِّ الثَّقَفِيِّ، مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّرَاجِمِ. وَلَدَ بِفَرَنْطَاةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَتَقَرَّرَ بَيْنَ الْعَنِيدِ مِنَ الْبِلَادِ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ بِالْقَاهِرَةِ وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةَ ١٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م (الصَفْدِيِّ: الْوَاثِي بِالْوَقَايَا ٥: ٢٦٧-٢٨٣). وَالْكِتَابُ الَّذِي يُنْقَلُ عَنْهُ الْمُقْرِيزِيُّ رَجْمًا كَانَ «ارْتِشَافَ الصَّرْبِ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ».

٤ انظر فيما يلي ٣٩٢.

١ أبو الحسن علي بن إسماعيل (بن أحمد) بن سيدة المُرْسِي، عَالِمٌ لُغَوِيٌّ أَنْدَلُسِيٌّ ضَرِيرٌ، الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَحِقْهُ عَنِ الْإِنْدِمَاجِ فِي الْحَيَاةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ. وَتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م. عُدَّ صَاحِدُ الْأَنْدَلُسِيِّ وَأَعْلَمُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَاطِبَةً بِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْأَشْعَارِ. وَنَدِنَ لَهُ بِمَجْمُوعَيْنِ لُغَوِيَّيْنِ هَامِيَيْنِ، الْأَوَّلُ: «الْمُخْتَصَرُ» فِي مِثْقَةِ عَشْرِ مَجْلَدًا، وَهُوَ مِنْ أَثْمَنِ مَعَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالثَّانِي «الْمُحْكَمُ وَالْمُحِيطُ الْأَعْظَمُ» فِي اثْنَيْ عَشَرَ مَجْلَدًا. وَاحْتَمَدَ الْمُقْرِيزِيُّ فِي تَقْلِيدِهِ مِنْ ابْنِ سِيدَةَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ الْأَخِيرِ. (صَاحِدُ الْأَنْدَلُسِيِّ: التَّحْرِيفُ بِطَبَقَاتِ الْأُمَمِ ٢٥٩-٢٦٠؛ ابْنُ خُلِكَانَ: وَفَايَاتُ الْأَعْيَانِ ٣: ٣٣٠-٣٣١؛ يَاقُوتُ: مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٢: ٢٣١-٢٣٥؛ الذَّهَبِيُّ: سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١٨: ١٤٤-١٤٦؛ الصَفْدِيُّ: نَكْتِ

فلما قِيمَ الإسكَنْدَرُ بن فيلِيش المَقْدُونِي من مملكة الروم ، عُمِّرَ مَدِينَةُ «الإسكَنْدَرِيَّة» عِمَارَةً جَدِيدَةً ، وصَارَت دَارَ الْمَلِكَةِ بِمِصْرَ ، إِلَى أَنْ قَدِمَ عَمْرُو بن القَاصِ بِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَحَ أَرْضَ مِصْرَ ، فَاحْتَضَ «فُسْطَاطُ مِصْرَ» ، وَصَارَت مَدِينَةُ مِصْرَ إِلَى أَنْ قَدِمَ جَوْهَرُ الْقَائِدِ مِنَ الْمَغْرِبِ^(٥) بِعَسَاكِرِ الْمُعِزِّ لَدِينِ اللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدَّةً ، وَمَلَكَ مِصْرَ وَاحْتَضَ «الْقَاهِرَةَ» ، فَصَارَت دَارَ الْمَلِكَةِ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ زَالَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ عَلَى يَدِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بن أَيُّوبَ ، فَتَبَيَّ «قَلْعَةُ الْجَبَلِ» وَصَارَت الْقَاهِرَةُ مَدِينَةً مِصْرَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا^١.

وَفِي أَرْضِ مِصْرَ عِدَّةٌ مَدَائِنَ لَيْسَتْ دَارَ مُلْكٍ ، وَهِيَ : مَدِينَةُ الْفَيْيُومِ وَمَدِينَةُ دِلَاصَ وَمَدِينَةُ أَهْنَاسَ وَمَدِينَةُ الْبَهْهَنْسَا وَمَدِينَةُ الْقَيْسِ وَمَدِينَةُ طَلْحَا وَمَدِينَةُ الْأَشْمُونِينَ وَمَدِينَةُ أَنْصَنَا وَمَدِينَةُ قُوصَ وَمَدِينَةُ شَبُوطَ وَمَدِينَةُ قَاوَ وَمَدِينَةُ إِحْمِيمَ وَمَدِينَةُ الْبَلْبَلِيَّانَا وَمَدِينَةُ هُوَ وَمَدِينَةُ قَنَا وَمَدِينَةُ ذَنْدَرَةَ وَمَدِينَةُ قِفْطَ وَمَدِينَةُ الْأَقْصَرِ وَمَدِينَةُ إِشْتَا وَمَدِينَةُ أَرْمَنْتَ وَمَدِينَةُ أَذْفُو وَتَغْرُ أَشْوَانِ ، وَأَذْرَكَاهَ مَدِينَةٌ ؛ هَذِهِ مَدَائِنُ الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ . وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يُسَمُّونَ مَنْ سَكَنَ مِنَ الْقِبْطِ بِالصَّعِيدِ «الْمَرِيْسَ» ، وَمَنْ سَكَنَ مِنْهُمْ أَشْفَلُ الْأَرْضِ يُسَمُّونَهُ «الْبِيَمَا» .

وَفِي الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ مَدِينَةُ نُوبَ مِنَ الْخَوَافِ الشَّرْقِيِّ بِأَشْفَلِ الْأَرْضِ ، وَمَدِينَةُ عَيْنِ شَمْسَ وَمَدِينَةُ أَثْرِبَ وَمَدِينَةُ نَنُو^(٥) ، وَمَنْ قَرَاهَا نَاحِيَةُ زَنْكَلُونِ ، وَمَدِينَةُ تَمِيَّ^(٦) ، وَمَدِينَةُ تَبْطَطَةَ وَيُعْرَفُ الْيَوْمَ مَوْضِعُهَا بِتَلٍّ تَبْطَطَةَ ، وَمَدِينَةُ فَرِيْطَ^(d) وَمَدِينَةُ الْبَشْتُونِ وَمَدِينَةُ مَثُوفَ وَمَدِينَةُ طَلُوةَ وَمَدِينَةُ مَثُوفَ / أَيْضًا وَمَدِينَةُ سَخَا وَمَدِينَةُ الْأَوْسِيَّةِ وَهِيَ ذَمِيرَةُ ، وَمَدِينَةُ ثَنْدَةَ وَمَدِينَةُ الْأَفْرَاجُونَ ، وَمَنْ جَمَلَةُ قَرَاهَا نَشَا ، وَمَدِينَةُ نَفِيرَةَ^(٥) وَمَدِينَةُ بَنَا وَمَدِينَةُ شَبْرَاشْطَ^(٤) وَمَدِينَةُ سَمْتُودَ وَمَدِينَةُ نُوسَا وَمَدِينَةُ سَبْتِي (كَذَا) وَمَدِينَةُ الْبُجُومِ^(٥) - وَقَدْ غَلَّتْ عَلَى كُورَةَ^(h) الْبُجُومِ الرُّمَالُ وَالسَّبَاخُ ، وَيُعْرَفُ الْيَوْمَ مِنْهَا قَرْيَةٌ إِذْ كُوَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَيْنَ إِسْكََنْدَرِيَّةَ وَرَشِيدَ - وَمَدِينَةُ تَيْسَ وَمَدِينَةُ دِمِيَاطَ وَمَدِينَةُ الْغَرَمَا وَمَدِينَةُ الْغَرِيشِ وَمَدِينَةُ صَا وَمَدِينَةُ تَزُوطَ⁽ⁱ⁾ وَمَدِينَةُ قَرُطْسَا وَمَدِينَةُ أَخْنُو وَمَدِينَةُ رَشِيدَ وَمَدِينَةُ مَرْيُوطَ وَمَدِينَةُ لُؤَيَّةَ وَمَرَاقِيَّةَ ، وَلَيْسَ بَعْدَ لُؤَيَّةَ وَمَرَاقِيَّةَ إِلَّا أَرْضُ أَنْطَابَلُسَ وَهِيَ بَرْقَةُ^(j).

(٥) بولاق : الغرب . (b) بولاق : تنوا . (c) بولاق : تمي . (d) بولاق : فريبط . (e) بولاق : بقيرة . (f) بولاق : شهراساط . (g) بولاق : النجوم . (h) بولاق : غلب على مدينة . (i) بولاق : برونوط . (j) بولاق : برة .

وفي كُور القِبْلَةِ مَدِينَةُ فَارَانَ وَمَدِينَةُ الْقُلُومِ وَمَدِينَةُ زَايَةِ وَمَدِينَةُ أَثَلَةَ وَمَدِينَةُ مَذْنٍ؛ وأكثر هذه المَدَائِنِ قد حَرِبَ، ومنها ما له أخبارٌ معروفة.

وقد استُجِدِّثَ في الإسلام بعضُ مَدَائِنِ، وسيأتي من أخبار ذلك إن شاء الله ما يكفي.

وَدِهَازُ مِصْرَ اليومَ وَجْهَانُ: قِبْلِيُّ وَبَحْرِيٌّ، جَمَلَتُهُمَا خَمْسُ عَشْرَةَ وِلَايَةً؛ فَالْوَجْهُ الْقِبْلِيُّ أَكْبَرُهُمَا، وَهُوَ تِسْعَةُ أَعْمَالٍ:

عَمَلُ قُوصٍ، وَهُوَ أَجْلُهَا، وَمِنْهُ أَشْوَانُ وَعَرَبٌ^(٥) قَمُولَةٌ، وَأَشْوَانُ [نَهَابَةٌ]^(٦) حُدُ الْمَمْلَكَةِ مِنَ الْجَنُوبِ. وَعَمَلُ إِخْمِيمٍ. وَعَمَلُ شِيُوطٍ. وَعَمَلُ مَنَقْلُوطٍ. وَعَمَلُ الْأَشْمُونِيْنَ، وَبِهَا الطُّحَاوِيَّةُ. وَعَمَلُ الْبَهْتَسَا. وَعَمَلُ الْفَيُومِ. وَعَمَلُ إِطْفِيحٍ. وَعَمَلُ الْحِيزَةِ.

وَالْوَجْهُ الْبَحْرِيُّ سِتَّةُ أَعْمَالٍ:

عَمَلُ الْبَحِيرَةِ، وَهُوَ مُتَّصِلُ الْبَرِّ بِالشَّكَنْدَرِيَّةِ وَبَرْقَةِ. وَعَمَلُ الْعَرِيَّةِ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ وَاحِدَةٌ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ: بَحْرُ دِمْيَاطٍ وَبَحْرُ رَشِيدٍ. وَالمُتَوَفِّيَّةُ، وَمِنْهَا إِيَارُ الَّتِي تُسَمَّى جَزِيرَةَ بَنِي نَصْرِ. وَعَمَلُ قَلْبُوبٍ. وَعَمَلُ الشَّرْقِيَّةِ. وَعَمَلُ أَشْمُومِ طَنَاحٍ، وَمِنْهَا الدَّقْهَلِيَّةُ وَالمُرْتَاجِيَّةُ، وَهنا مَوْقِعُ^(٧) نَقَرِ الْبُزْلُسِ وَنَقَرِ رَشِيدٍ وَالمَنْصُورَةِ^(٨) [الْمَبْنِيَّةُ زَمَانَ حِصَارِ دِمْيَاطِ]^(٩).

وفي هذا الْوَجْهِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ وَدِمْيَاطُ وَهُمَا مَدِينَتَانِ لَا عَمَلٌ لِهَما.

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُسَوْدِيُّ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ الْكُوكَةَ - وَهِيَ أُمَّةٌ مِنْ أَهْلِ أَثَلَةَ - مَلَكَوا الْأَرْضَ وَقَسَمُوا الصَّعِيدَ عَلَى ثَمَانِينَ كُورَةً، وَجَعَلُوا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ^(١٠). وَكَانَ عَدَدُ مَدُنِ مِصْرَ الدَّاجِلَةِ فِي كُورِهَا ثَلَاثِينَ مَدِينَةً، فِيهَا جَمِيعُ الْعَجَائِبِ وَالْكُورِ مِثْلُ إِخْمِيمٍ وَقِفْطٍ وَقُوصٍ وَالْفَيُومِ. وَيُقَالُ إِنَّ مِصْرَ بْنَ تَيْصَرَ قَسَمَ الْأَرْضَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ، فَأَعْطَى وَلَدَهُ أَشْمُونَ مِنْ حُدِّ تَلْدِهِ إِلَى رَأْسِ الْبَحْرِ إِلَى دِمْيَاطٍ، وَأَعْطَى وَلَدَهُ أَثْنَيْنَا مِنْ حُدِّ أَثْنَيْنَا إِلَى الْجَنَادِلِ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ صَا مِنْ صَا أَشْغَلِ الْأَرْضَ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ مَثُوفَ وَسَطِ الْأَرْضِ الشَّغْلَى مَثُوفَ وَمَا حَوْلَهَا، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ قِفْطَ غَرْبِ الصَّعِيدِ إِلَى الْجَنَادِلِ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ أَثْرِبَ شَرْقِيَّ الْأَرْضِ إِلَى الْبَرْقَةِ - بَرْقَةِ فَارَانَ -

(a) بولاق: غرب. (b) زيادة من مسالك الأبحار. (c) بولاق: موضع. (d) بولاق: بالمنصورة.

^١ نقلًا عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبحار. ^٢ للمسودي: أخبار الزمان ٦٧-٦٨؛ وانظر فيما يلي (ممالك مصر والشام) ٩٧-١٠٠، وفيما تقدم ٧٤: ١. ٣٩٣، ٥٠٤.

وأعطى لبناته الثلاث، وهن الفرثا وسريام وبثورة، بقاعا من أرض مصر مُحددة فيما بين إخوتهن.

وَأَمَّا مِصْرُ أُمُّسُوسَ وَغَمَّائِيَا وَمُلُوكِيَا

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه^٥ الكاتب في كتاب «أخبار مصر وعجائبها»: وكانت مصر القديمة اسمها أمسوس، وأول من ملك أرض مصر نقرأوش - ومعنى نقرأوش: ملك قويه - الجبار بن مضرايم الأول بن مركائيل بن دوائيل بن عرياب^٦ بن آدم - عليه السلام - ركب في ثيف وسبعين راكبا من بني عرياب^٦ بجبايرة، كلهم يطلبون موضعا يقطعون فيه، فرازا من بني أبيهم عندما بنى بعضهم على بعض وتحاسدوا، وبني عليهم بنو قاييل بن آدم. فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم فأقاموا فيه، وبَنُوا الأبنية المحكمة. وبَنَى نقرأوش مصر وسماها باسم أبيه مضرايم، ثم تَرَكَهَا وَأَمَرَ بِنَاءَ مَدِينَةٍ سَمَّاها أُمُّسُوسَ^٢.

وقال ابن وصيف شاه: وكان قد وَقَعَ إليه عِلْمُ ذَلِكَ من العلوم التي تَعَلَّمَهَا دَوَائِيلُ من آدم عليه السلام، فَبَنَى الأَعْلَامَ، وَأَقَامَ الأساطين، وَعَمِلَ المَصَانِعَ، وَاسْتَخْرَجَ المعادن، وَوَضَعَ الطَّلُشَّمَاتِ، وَسَقَى الأنهار، وَبَنَى المَدَائِنَ؛ فَكُلُّ عِلْمٍ جَلِيلٍ كَانَ فِي أَيْدِي المَصْرِيِّينَ إِمَّا هُوَ مِنْ فَضْلِ عِلْمِ نَقْرَأُوشَ وَأَصْحَابِهِ، كَانَ ذَلِكَ مَزْمُورًا عَلَى الحِجَارَةِ، فَفَسَّرَهُ فُلَيْمُونُ الكاهِنُ الَّذِي رَكِبَ مع نُوحٍ - عليه السلام - فِي السفينة^٣.

(٥) الأصل: إبراهيم بن وصيف الكاتب. (٦) الأصل: عرياب.

^١ كانت هذه المدينة تقع غربي النيل في المنطقة التي أنشئت فيها فيما بعد مدينة منف بعد الطوفان. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٣١، Maspero & Wiet, Matériaux, p. 25).

^٢ التويري: نهاية الأرب ١٥: ١١ المسعودي: أخبار الزمان ١١٠-١١١ الفلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣١٣، ٣١٥، ١٤٠٨-١٤٠٧ وفيما تقدم ٤٧-٤٨.

^٣ نفسه ١٥: ٢.

ومصدر المعلومات عن ملوك مصر قبل الطوفان وبعده عند المقرئ ومعاصره: كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للمسعودي، وكتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه، وأحمد المقرئ - بناء على نقوله - على المسعودي وابن وصيف شاه مباشرة، بينما نقل التويري أخبار هؤلاء الملوك من كتاب «مختصر كتاب المجاب» الذي اختصره إبراهيم بن القاسم الكاتب من كتاب إبراهيم ابن وصيف شاه. (التويري: نهاية الأرب ١٥: ١٠)، وانظر -

وَنَقَرَاوُشُ هُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ أَمْشُوسَ وَعَمِلَ بِهَا عَجَائِبَ كَثِيرَةً: مِنْهَا طَائِرٌ يُصَفِّرُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مَرَّتَيْنِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا مَرَّتَيْنِ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِصَفِيرِهِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنَ الْحَوَادِثِ حَتَّى يَهَيِّئُوا لَهَا. وَمِنْهَا صَنْتَمٌ مِنْ حَجَرٍ أَسْوَدَ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ، تَجَاهَهُ صَنْتَمٌ مِثْلُهُ، إِذَا دَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَارِقٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَزُولَ حَتَّى يَسْتَلِكَ بَيْنَهُمَا، فَلِذَا دَخَلَ بَيْنَهُمَا أَطْبَقَا عَلَيْهِ فَيُؤْخَذُ.

- وَعَمِلَ صُورَةً مِنْ نُحَاسٍ عَلَى مَنَارٍ عَالٍ، لَا يَزَالُ عَلَيْهَا سِحَابٌ يَطْلُعُ، فَكُلُّ مَنْ اسْتَقَطَرَهَا أَفْطَرَتْ عَلَيْهِ مَا شَاءَ. وَعَمِلَ عَلَى حُدِّ الْبِلَادِ أَصْنَامًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوِّفَةً، وَمَلَأَهَا كَبَرِيَّتًا، وَوَكَّلَ بِهَا رُوحَانِيَةَ النَّارِ، فَكَانَتْ إِذَا قَصَّدَهُمْ قَاصِدٌ أَوْ سَلَتْ تِلْكَ الْأَصْنَامُ مِنْ أَقْوَامِهَا نَارًا أَخْرَقَتْهُ. وَعَمِلَ فَوْقَ جَبَلٍ يُطْرُسُ مَنَارًا يَفُورُ بِالْمَاءِ، وَيَسْقِي مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَزَارِعِ^١، وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْآثَارُ حَتَّى أَزَالَهَا الطُّوفَانُ.
- وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَصْلَحَ مَجْرَى النِّيلِ، وَكَانَ قَبْلَهُ يَتَفَرَّقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَإِنَّهُ وَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الثُّبَةِ جَمَاعَةً هِنْدُسُوهُ/، وَسَقَمُوا نَهْرًا عَظِيمًا مِنْهُ بَنَوْا عَلَيْهِ الْمَدْنَ وَعَرَسُوا الثُّرُوسَ. وَأَحَبُّ أَنْ يَعْرِفَ مَخْرَجَ النِّيلِ فَتَسَارَ حَتَّى يَلْغَ خَلْفَ حَظِّ الْإِسْتَوَاءِ، وَوَقَّفَ عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ الزُّفْيِ، وَرَأَى النِّيلَ يَجْرِي عَلَى الْبَحْرِ مِثْلَ الْخَيْوُطِ حَتَّى يَدْخُلَ تَحْتَ جَبَلِ الْقَمَرِ وَيَخْرُجَ مِنْهُ إِلَى بَطَائِحِ^٢؛ وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَمِلَ الثَّمَانِيلَ الَّتِي هُنَاكَ.

وَعَادَ إِلَى أَمْشُوسَ وَقَسَمَ الْبِلَادَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ: فَجَعَلَ لِابْنِهِ الْأَكْبَرِ - وَاسْمُهُ نِقَارِشُ^٣ - الْجَنَابَ الْغَرْبِيَّ، وَلِابْنِهِ شُورِبَ الْجَنَابِ الشَّرْقِيِّ، وَبَنَى لِابْنِهِ الْأَصْغَرَ - وَاسْمُهُ مِضْرَامُ - مَدِينَةَ بَرَسَانَ وَأَسْكَنَتْهُ فِيهَا^٤.

(a) بولاق: نقاش والأصل والنوري: نقارش.

= دراسة مصادر المقرئ في المقدمة.
ولم تثق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر في طريقة رسمها وكتابتها، خاصة مع فقد المصدر الأصلي لها وتصحيفات النسخ التي تسربت إلى النسخ التي وصلت إلينا، وقد بذلت جهداً كبيراً في توحيدها مقارنة بكافة المصادر والمواضع التي ورد ذكرها فيها. (وانظر فيما يلي ١: ١٣٥).

وقد تبيّن لي ذلك أبو الريحان البيروني حيث يقول:
«ولم يساعد الزمان على تصحيح أسماء الملوك بالشعاع، فليبلغ في تصحيحها وإصلاحها من غشي وقف عليها طائفاً

ما طلبه من تسهيل الأمر على المرتاد وإزالة مؤونة الطلب عنه، ولا ينسختها وما في سائر الجداول إلا من له معرفة بحروف الجمل وعناية صادقة بتصحيحها فإنها تُسند بنقل الواقيين إذا تداولوها ولا يمكن إصلاحها إلا في سنين كثيرة (الآثار الباقية ٨٤).

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١١٢-١١٣.

^٢ النوري: نهاية الأرب ٢: ١٥-١٣؛ وفيما تقدم ١٣٧.

^٣ نفسه ٣: ١٥؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣١٥؛ وأضاف:

«ولم أقف على مكانها».

وأقام ملكاً على مصر مائة وثمانين سنة ؛ ولما مات لَطُخَ جَسَدُهُ بِأَذْوَةِ مَاسِكَةَ ، وجعل في تابوت من ذهب ، وعُجِلَ له ناووس^(a) مُصَنَّفٌ بالذهب ، ووُضِعَ فيه ومعه كُنُوزٌ وإكسِرٌ وأوانٍ من دَهَبٍ لا يُحْصَى ذلك لكثرتِه^(b) ، وزَيَّرُوا على الناووس تاريخ مَوْتِه ، وأقاموا عليه طِلْسَمًا يمنعُه الحَشَرَاتُ المَفسِدة^(c) .

• ومَلَكٌ بعده^(d) ابنُه نَقَارِشُ^(e) بن نَقْرَاوِش ، وكان كَانِيه في عِلْمِ الكَهَانَةِ والطَّلَسَمَاتِ ، وهو أَوَّلُ من عُجِلَ بمصر هَيْكَلًا ، وجعل فيه صُورُ الكَوَاكِبِ السَّبعة ، وكتب على هَيْكَلِ كُلِّ كَوْكَبٍ مَنَافِعُهُ وَمَضَارُّهُ ، وأَلْبَسَهَا كُلُّهَا الثَّيَابَ الفَاخِرَةَ ، وأقام لها خَدَمَةً وَسَدَنَةً . وخرَجَ من أمْشُوس مُعْرُوبًا حَتَّى بَلَغَ البحرَ المَحيط ، وأقامَ عليه أساطين على رُؤُوسِهَا أَصْنَامٌ تُشْرِجُ عُيُوبُهَا [كالمصاييح]^(f) في اللَّيْلِ ؛ وَمَضَى على بلادِ السُّودَانِ إِلَى الثَّيْلِ ، وَأَمَرَ بِبِنَاءِ حَائِطٍ على جَنْبِ الثَّيْلِ ، وعُجِلَ له أَبْوَابُهَا يَخْرُجُ مِنْهَا المَاءُ . وَبَنَى فِي صَحْرَاءِ العَرَبِ خَلْفَ الوَاحَاتِ ثَلَاثَ مِئَاتٍ عَلَى أساطين مُشْرِفَاتٍ من حِجَارَةٍ مَلُونَةٍ شَقَافَةٍ ، وفي كُلِّ مَدِينَةٍ عِدَّةٌ خَزَائِنٍ من الحِكْمَةِ . وفي إِحْدَاهَا صَنْمٌ لِلشَّمْسِ على صورةِ إِنْسَانٍ وَجَسَدٍ طَائِرٍ من دَهَبٍ ، وَعَيْنَاهُ من جَوْهَرٍ أَصْفَرٍ ، وهو جَالِسٌ على سَرِيرٍ من مَغْنَاطِيسٍ ، وفي يَدِهِ مُصْحَفُ العُلُومِ . وفي إِحْدَاهَا صَنْمٌ رَأْسُهُ إِنْسَانٌ بِجَسَدٍ طَائِرٍ ، ومعه صورةُ امْرَأَةٍ جَالِسَةٍ قَدْ عَمَلَتْ من رِثْبَتِي مَعْقُودٍ ، لها ذَوَابْتَانِ ، في يَدَيَا مِرْآةٍ ، وعلى رَأْسِهَا صورةُ كَوْكَبٍ ، وقد رَفَعَتْ المِرْآةُ يَدَيْهَا إِلَى وَجْهِهَا . وفي إِحْدَاهَا مَظْهَرَةٌ فِيهَا سَبْعَةُ أَلْوَانٍ من سَائِلِ يَرُدُّ إِلَيْهَا وَلَا يُغَيِّرُ بَعْضُهَا لَوْنًا بَعْضًا .

وفي بَعْضِهَا صورةُ شَيْخٍ جَالِسٍ قَدْ عُجِلَ من الفَيْزُورَجِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ صِبْيَةٌ مُجْلُوسٌ كُلُّهُمْ من عَقِيقٍ . وفي بَعْضِهَا صورةُ هِرْمِسٍ - بِمَعْنَى عَطَّارِدٍ - وهو يَنْظُرُ إِلَى مَائِدَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ من نُوشَادِرٍ ، على قَوَائِمٍ من كِبْرِيَتٍ أَحْمَرٍ ، وفي وَسْطِهَا صَحْفَةٌ من جَوْهَرٍ ، وَجَعَلَ فِيهَا صورةَ عُقَابٍ من زَيْزَجِدٍ أَخْضَرٍ ، وَعَيْنَاهُ من يَاقُوتٍ أَصْفَرٍ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حَيَّةٌ زَرْقَاءُ من فُصَّةٍ ، قَدْ لَوَتْ ذَنْبَهَا عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَرَفَعَتْ رَأْسَهَا كَأَنَّهَا تَنْفُخُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ فِيهَا صِبْغَةَ المَرِيخِ وهو رَاكِبٌ عَلَى قَوْسٍ ، وفي يَدِهِ سَيْفٌ مَسْلُوكٌ من حَدِيدٍ أَخْضَرٍ ، وَجَعَلَ فِيهَا عَمُودًا من جَوْهَرٍ أَخْضَرٍ^(g) ، وعليه قُبَّةٌ من دَهَبٍ فِيهَا صورةُ

(a) بولاق : تابوت . (b) بولاق : كثرة . (c) ساقطة من الأصل . (d) بولاق : نقاش ، والأصل والنويري : نقارش . (e) زيادة من أخبار الزمان . (f) بولاق : أحمر .

الْمَشْتَرِي ، وَجَعَلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ آتِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ مِنْ جَزَعِ أَرْزَق ، وَفِي سَقْفِهَا صُورَةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مُتَحَادِيَيْنِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَالْمَرْأَةِ بِتَحَادَثَانِ ، وَجَعَلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ كِبَرِيَّتِ أَحْمَرَ فِيهَا صُورَةُ الزُّهْرَةِ عَلَى هَيْئَةِ امْرَأَةٍ مُتَمَسِّكَةٍ بِضَفَائِرِهَا ، وَتَحْتَهَا رَجُلٌ مِنْ زَرْجَدٍ أَخْضَرَ فِي يَدِهِ كِتَابٌ فِيهِ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِهِمْ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَيْهَا .

- وَجَعَلَ فِي بَقِيَّةِ الْخَزَائِنِ مِنْ كُنُوزِ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْحُلِيِّ وَالتَّكْسِيرِ الصَّنِيعَةِ وَصُنُوفِ الْأَذْيَةِ وَالشُّمُومِ الْقَاتِلَةِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً . وَجَعَلَ عَلَى بَابِ كُلِّ مَدِينَةٍ طِلْسُمًا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِهَا ، وَأَنْقَذَ لَهَا مَسَارِبَ تَحْتَ الْأَرْضِ يُنْقِذُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، طُولُ كُلِّ سَرَبٍ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ^١ .

- وَبَنَى أَيْضًا مَدِينَةً بِأَرْضِ مِصْرَ اسْمُهَا خَلْجَةٌ^٢ ، وَعَمِلَ فِيهَا جَنَّةً صَفَحَ حَيْطَانُهَا بِالْجَوَاهِرِ الْمُلَوَّنَةِ بِالذَّهَبِ ، وَغَرَسَ فِيهَا أَصْنَافَ الْأَشْجَارِ ، وَأَجْرَى تَحْتَهَا الْأَنْهَارَ ، وَغَرَسَ فِيهَا شَجَرَةً مُؤَلَّدَةً تُطْعَمُ سَائِرَ الْفَوَاكِهَ ، وَعَمِلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ رُخَامٍ أَحْمَرَ عَلَى رَأْسِهَا صَنْمٌ يَدُورُ مَعَ الشَّمْسِ ، وَوَكَّلَ بِهَا شَيْطَانِينَ إِذَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ فِي اللَّيْلِ هَلَكَ ، وَأَقَامَ بِهَا أَسَاطِيرَ زَرَعَ عَلَيْهَا جَمِيعَ الْعُلُومِ وَصُورَ الْعَقَاقِيرِ وَمَنَافِعِهَا وَمَضَارِّهَا .

- وَجَعَلَ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ مَسَارِبَ تَتَّصِلُ بِمَسَارِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الثَّلَاثِ ، بَيْنَ كُلِّ سَرَبٍ مِنْهَا وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ عَشْرُونَ مِيلًا . فَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْمَدَائِنُ حَتَّى أَفْسَدَهَا الطُّوفَانُ . وَلَمَّا مَاتَ بَعْدَ مِائَةِ وَتِسْعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ عَلَى مِصْرَ ، لَجِعَلُ^٣ فِي نَاوُوسَ مُطْلَسَمَ وَدُفِنَ فِيهِ^٤ .

- وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ مِضْرَامُ^٥ بَنَ تَقْرَاوُشَ الْجَبَّارِ ابْنَ مِضْرَامِ - وَيُقَالُ بِهِ شُمَيْتُ مِصْرَ - وَكَانَ حَكِيمًا ، فَعَمِلَ هَيْكَلًا لِلشَّمْسِ مِنْ مَرْمَرٍ ثَمَوَهُ بِذَهَبٍ أَحْمَرَ ، وَفِي وَسْطِهِ قَرَسٌ مِنْ جَوْهَرِ أَرْزَقَ عَلَيْهِ صُورَةُ الشَّمْسِ مِنْ ذَهَبٍ أَحْمَرَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قِنْدِيلٌ مِنَ الزُّجَاجِ فِيهِ حَجَرٌ مُذَبَّرٌ يُضِيءُ أَكْثَرَ مِنَ السَّرَاجِ .

- ثُمَّ إِنَّهُ ذَلَّلَ الْأَمْسَدَ وَزَكِيَّهَا ، وَسَارَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَجَعَلَ فِي وَسْطِهِ قَلْعَةً يَبْضَاءُ عَلَيْهَا صَنْمٌ لِلشَّمْسِ ، وَزَرَعَ عَلَيْهِ اسْمَهُ وَصِفَتَهُ ، وَعَمِلَ صَنْمًا مِنْ نُحَاسٍ زَرَعَ عَلَيْهِ : «أَنَا مِضْرَامُ الْجَبَّارُ ، كَاشِفُ

(a) بولاق : حلجة Wiet جلجله ، والنوري : خَلْجَةٌ . (b) الأصل : عمل . (c) ساقطة من الأصل .

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥:٥-٦ (عن ابن وصيف .
^٢ نفسه ١٥:٧ وأيضًا المسعودي : أخبار ١١٣-١١٤ .
شاه ، المسعودي : أخبار الزمان ١١٣-١١٥ .

الأشرار، الغالب القهار، وَصَفْتُ^(a) الطَّلْسَمَاتِ الصَادِقَةَ، وَأَقَمْتُ الصُّورَ النَاطِقَةَ، وَنَصَبْتُ
الأعلام الهائلة على البحار السائلة، ليعلم مَنْ يَغْدِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَشَدَّ مِنْ أَيْدِي^(b) ١.

وعادَ إلى أمشوس، واختجب عن الناس ثلاثين سنة، واشتخلف رجلاً يقال له عيقام من ولد
عريب^(c) بن آدم، وكان كاهناً ساجراً؛ فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه، فجمعهم
عنقاص^(d) بعدما أعلم بمصرام، فظهر لهم في أعلى مجلس مُزَيْن بأصناف الرِّبَّة، في صورة هائلة
ملأت قلوبهم رُعباً، فحزوا له ساجدين، ودَعَوْا له. ثم أَخَصَرَ إليهم الطعام فأكلوا وشربوا،
وأمرهم بالرجوع إلى مواضعهم، ولم يروه بعدها ٢.

فتلك بَعْدَهُ خَلِيقَتُهُ عَنْقَام^(d)، وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تُصَدِّقُهَا الْعُقُولُ.
ويقال إن إذريس - عليه السلام - رُفِعَ في آثامه، وأنه رأى في علمه كَوْنُ الطوفان، فَبَنَى خَلْفَ
خَطِّ الاسْتِواءِ في سَفْحِ جَبَلِ الْقَمَرِ قَصْرًا من نُحَاسٍ، ويَجْلُ فيه خمسة وثمانين ثَمَنًا لَا من نُحَاسٍ
يَخْرُجُ ماءُ الثَّلِثِ من مخلوقها ويصُبُّ في بَطْحَاءٍ تنتهي إلى مصر.

وسارَ إليه من أمشوس، فشاهد حِكْمَةَ بُنْيَانِهِ، وَزُخْرَفَةَ جِيطَانِهِ وما فيها من الثُّقُوشِ من صُورِ
الأفلاك وغيرها. وكان قَصْرًا تُشْرِجُ فيه المصاييح، وتُنْصَبُ فيه الموائد وعليها من كُلِّ الْأَطْعَمَةِ
الفاخرة في الأواني الثمينة ما لو أكل منها عَشَكْرٌ لَمَا نَقَصَتْ ذَرَّةً، ولا يُعْرِفُ من عَمَلِهَا ولا من
وَضَعِهَا، وفي وَسْطِ الْقَصْرِ بِوَكَّةٍ من ماءٍ جابِد الظاهر، وترى حَزَكَّتَهُ من وَرَاءِ ما جُمِدَ منه؛
فأعجب بما رأى، وعادَ إلى أمشوس، واشتخلف ابنه عريباق^(e)، وقلده الملك وأوصاه، وعادَ إلى
ذلك القصر وأقامَ به حتى هَلَكَ.

وإلى عنقاص^(d) هذا يُغْرَى مُصْحَفُ الْقَوَاطِطِ الذي فيه توارى بهم، وجميع ما يجري في آخر الدهر^(f) ٣.
فقام من بَعْدِهِ ابنه عريباق^(e) - (وَيُقَالُ أَرِيَاقُ بن عنقاص^(d)، ويُقالُ له الْأَثِيمُ^(g)) - فقيل
أعمالاً عجيبة: منها شَجَرَةٌ صَفْرَاءُ لها أَغْصَانٌ من حَدِيدٍ بِحَطَاطِيفٍ، إذا قَرَّبَ الظَّالِمُ منها

(a) النويري: صنعت. (b) النويري: ملكي. (c) Wiet: عريباق. (d) بولاق: عيقام. (e) في بعض النسخ
عريباق، عريباق ١١. (f) بولاق: الزمان. (g-g) ساقطة من الأصل.

١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧-٨ وقارن المسعودي: نفسه ١٥: ٨؛ وقارن المسعودي: أخبار ١١٧.

٢ أخبار ١١٦، ١١٧. نفسه ١٥: ٨-٩.

أَخَذَتْهُ تِلْكَ الْخَطَاطِيفُ وَلَا تُفَارِقُهُ حَتَّى يُقَرَّ بِظُلْمِهِ ، وَيَخْرُجَ مِنْهُ لِحَصِيهِ .

وَمِنْهَا صَنَمٌ مِنْ كِذَّانِ أَسْوَدَ سَمَاءَ عَبْدَ رُحْلٍ ، كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ : فَتَنَ زَاغٌ عَنِ الْحَقِّ فَبَيَّتَ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ حَتَّى يُنْصِفَ خَصْمَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ أَقَامَ سَنَةً . وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ قَامَ لَيْلًا وَنَظَرَ إِلَى الْكَوْكَبِ^(أ) وَتَضَرَّعَ وَذَكَرَ اسْمَ عِرْيَاقَ ، فَإِذَا أَضْبَحَ وَجَدَ حَاجَتَهُ عَلَى بَابِهِ .

وَعَمِلَ شَجَرَةً مِنْ حَدِيدٍ ذَاتَ أَلْغَصَانٍ ، وَلَطَّخَهَا بِدَوَاءٍ مُدْبِرٍ ، فَكَانَتْ تَجْلِبُ كُلَّ صَيْفٍ مِنَ الدُّوَابِّ وَالسَّبَاحِ وَالْوُحُوشِ إِلَيْهَا حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ صَيْدِهَا .
وَكَانَ إِذَا غَضِبَ عَلَى أَهْلِ إِفْلِيمَ سَلَطَ عَلَيْهِمُ الْوُحُوشَ وَالسَّبَاحَ ، وَتَارَةً يَجْعَلُ مَاءَهُمْ مِنَ الْإِبْدَاقِ .

وَيُقَالُ إِنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ كَانَا فِي زَمَانِهِ ، وَإِنَّهُ بَنَى جَنَّةً عَظِيمَةً ، وَاعْتَصَبَ النِّسَاءَ الْحِسَانَ وَأَسْكَنَهُنَّ فِيهَا ، فَفَعِلَتْ عَلَيْهِ امْتِرَاقَهُ مِنْهُنَّ وَسَعَتُهُ فَهَلَكَ^١ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ لُوجِيمُ بْنُ نِقَارِشَ ، وَيُقَالُ بَلْ هُوَ مِنْ بَنِي نَقْرَاشِ الْجَبَّارِ وَيُغْرَفُ بِلُوجِيمِ الْفَتَى ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ الْمَلِكُ مِنْ عِرْيَاقَ بْنِ عَتَقَامِ الْكَاهِنِ وَرَدَّهُ لِبَنِي نَقْرَاشِ بَعْدَمَا خَرَجَ عَنْهُمْ بِلَا حَزَبٍ وَلَا قَتْلٍ ؛ وَكَانَ عَالِمًا بِالْكَهَانَةِ وَالطَّلَسْمَاتِ فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً مِنْهَا أَنَّ الْغَدَافَ وَالْعُرَابِ^(ب) كَثُرَ فِي أَثَابِهِ وَأَتْلَفَ الزُّرْعَ ، فَعَمِلَ أَرْبَعَ مَنَارَاتٍ فِي جَوَانِبِ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ الْأَرْبَعَةِ ، وَعَلَى كُلِّ مَنَارَةٍ صُورَةُ غُرَابٍ فِي فَمِهِ حَيَّةٌ قَدْ أَلْتَوَتْ عَلَيْهِ ، فَتَقَرَّتْ عَنْهُمْ الطُّيُورُ الْمُضَيَّرَةُ مِنْ حَيْثُيْهِ ، وَلَمْ تَقْرَبْهُمْ حَتَّى زَالَتِ الْمَنَارَاتُ بِالطُّوفَانِ^٢ .

وَكَانَ حَصَنَ السَّيْرَةِ ، مُنْصِيفًا لِلرَّعِيَّةِ ، عَادِلًا ، مُقَرَّبًا لِلْكَهَنَةِ ، وَلَمَّا مَاتَ دُفِنَ فِي نَاوُوسَ وَمَعَهُ كُتُوبُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلَسْمٌ يَمْنَعُهُ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ حَضَلِيمُ^(ج) ، وَكَانَ فَاضِلًا عَالِمًا كَاهِنًا ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ بِمِثَاسًا لَزِيَادَةِ مَاءِ الْبَيْلِ بِأَنْ يَجْمَعَ أَزْبَابَ الْعُلُومِ وَالْهَنْدَسَةِ فَقَدَّرُوا بَيْتًا مِنْ رُخَامٍ عَلَى حَافَةِ

(أ) بولاق : الكواكب . (ب) عند النويري : الفرائق وهي الذكور من الطير ، وعند المسعودي : الغرابان والفرائق .

(ج) بولاق : حصليم .

^١ النويري : نهاية الأرب ٩: ١١٠ - ١١١ وقارن ^٢ نفسه ١٥ : ١٠ المسعودي : أخبار الزمان ١١٨ .

للمسعودي : أخبار ١١٨ .

النَّيْل ، وفي وَسْطِهِ بِزَكَّةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فِيهَا مَاءٌ مَوْزُونٌ ، وعليها من جانبيها عُقَابَانِ مِنْ نُحَاسٍ أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ وَالْآخَرُ أُنْثَى . فإذا كَانَ أَوَّلُ الشَّهْرِ الَّذِي تَزِيدُ فِيهِ النَّيْلُ قُبِحَ هَذَا الْبَيْتُ ، وَجُمِعَ الْكُفَّانُ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَزَمَزَمَ الْكُفَّانُ بِكَلَامِهِمْ حَتَّى يُصَفَّرَ أَحَدُ الْفَقَائِيْنِ : فَإِنْ صَفَّرَ الذَّكَرُ كَانَ الْمَاءُ تَامًا ، وَإِنْ صَفَّرَتِ الْأُنْثَى كَانَ الْمَاءُ نَاقِصًا ، فَيَسْتَعْدُونَ عِنْدَ ذَلِكَ لَعْلَاءَ الْأَشْعَارِ بِمَا يُصْلِحُونَ بِهِ شَأْنَهُمْ . وهو الَّذِي بَنَى الْقَنْطَرَةَ بِبِلَادِ الثُّوبَةِ عَلَى النَّيْلِ ^١ .

وَلَمَّا مَاتَ عَمِلٌ ^٥ فِي نَاوُوسٍ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طِلْسَمٌ .

وَمَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ هُوَصَالٌ ، وَيُقَالُ هِرَصَالٌ وَمَعْنَاهُ خَائِذُ الرُّهْزَةِ ، وَيُقَالُ سَوْصَالٌ بِنِ لُوجِيمِ الْمَلِكِ الثُّقْرَاوَشِيِّ مِنْ بَنِي ثَقْرَاوُشِ الْجَبَّارِ . وَيُقَالُ إِنَّ نُوْحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وُلِدَ فِي أَيَّامِهِ .

وَكَانَ فَاضِلًا كَاهِنًا عَالِمًا بِالسَّحَرِ وَالطَّلْسَمَاتِ فَعَمِلَ عَجَائِبَ ، مِنْهَا أَنَّهُ بَنَى مَدِينَةً عَمِلَ فِي وَسْطِهَا صَنْمًا لِلشَّمْسِ يَدُورُ بِدَوْرَانِهَا ، وَيَبِيتُ مُغْرِبًا ، وَيُصْبِحُ مُشْرِقًا . وَعَمِلَ سَرَاتٍ تَحْتَ النَّيْلِ ، يَشْقُ ^{١٠} (b) الْأَرْضَ وَخَرَجَ مِنْهُ مُتَنَكِّرًا حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ بَابِلَ ، وَكَشَفَ أَعْمَالَ الْمُلُوكِ .

وَكَانَ نُوْحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي زَمَانِهِ ؛ وَوُلِدَ لَهُ عَشْرُونَ وَلَدًا ، فَجَعَلَ مَعَ كُلِّ وَلَدٍ مِنْهُمْ قَاطِرًا ^{١٥} (d) ، وَهُوَ رَأْسُ الْكَهَنَةِ . وَأَقَامَ فِي الْمَلِكِ مِائَةَ وَسَبْعِ عَشْرَةِ سَنَةً ، ثُمَّ لَزِمَ الْهَيَاكِلَ وَأَقَامَ أَوْلَادَهُ عَلَى حَالِهِمْ ، كُلُّ مِنْهُمْ فِي قِسْمِهِ الَّذِي أَعْطَاهُ إِثْنَاهُ أَبَوْهُ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ ^٢ .

ثُمَّ اجْتَمَعُوا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمَلَكُوهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اسْمُهُ بَرْدِشَالُ ، وَقِيلَ تَدْرَسَانِ ^{١٥} (e) ، فَلَمَّا مَلَكَ نَفَى جَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ الدَّخِيلَةِ فِي الْغَرْبِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّهِ ، وَكَانَتْ سَاحِرَةً . وَعَمِلَ لَهُ قَصْرًا مِنْ نَحْشَبٍ مَنقُوشًا فِيهِ صُورَةُ الْكُوَاكِبِ ، وَبَسَطَهُ بِأَحْسَنِ الْفُرَشِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَصَارَ/ يَجْلِسُ فِيهِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ فِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ اضْطَرَبَ مِنْهَا الْمَاءُ ، فَانْقَلَبَ الْقَصْرُ وَتَكَشَّرَ ، فَفَرِقَ هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْقَصْرِ ^٣ .

(a) بولاق : جعل . (b) بولاق : فشق . (c) الأصل : واحد . (d) بولاق : قطرا ، Wiet : ناظرا . (e) بولاق : تدرشان ، النويري : ندسان .

^١ النويري : نهاية الأرب ١١: ١٥ المسعودي : أخبار الزمان ١١٩ - ١٢٠ .
^٢ نفسه ١١: ١٥ - ١٢: ١٢ نفسه ١٢٠ - ١٢١ ، والقاطر له (النويري : نهاية ٤٠: ١٥) .

^٣ نفسه ١٢: ١٥ - ١٣: ١٣ وقرن المسعودي : أخبار ١٢١ . هو الكاهن الذي يصعد للكواكب السبعة المدبرة ، لكل

وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ نَمْرُودَ الْجَبَّارَ، وَيُقَالُ شَمْرُودُ بْنُ هُوَصَالٍ، فَأَحْسَنَ السَّيْرِ وَأَنْصَفَ الرُّعْيَةِ وَبَسَطَ الْعَدْلَ، وَجَمَعَ إِخْوَتَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِمْ كُنُوزَ أَخِيهِمْ، فَشَرَّ النَّاسُ بِهِ؛ وَطَلَبَ امْرَأَةً أُخِيهِ الشَّاحِرَةَ فَفَرَّتْ^(أ) بَابَهَا إِلَى مَدِينَةِ بِلَادِ الصُّعِيدِ، وَافْتَتَحَتْ عَلَيْهِ بَيْسَعَهَا، وَأَقَامَتْ مُدَّةً، فَاجْتَمَعَ^(ب) السَّحَرَةُ إِلَى ابْنِهَا - وَكَانَ اسْمُهُ تُوْمِيدُونَ^١ - وَحَمَلُوهُ عَلَى طَلَبِ الْمَلِكِ، فَسَارَ وَخَرَجَ إِلَيْهِ شَمْرُودُ وَإِخْوَتُهُ، فَأَقْتُلُوا قِتَالًا عَظِيمًا كَانَ فِيهِ الظُّفَرُ لِلتُّومِيدُونَ فَقَتَلَهُ، وَمَلَكَ مِنْ بَعْدِهِ^٢.

فَقَامَ تُوْمِيدُونَ بْنُ تَدْرِيسَانَ بِالْمَلِكِ فِي مَدِينَةِ أَمْشُوسَ، وَكَانَ عَالِمًا فَاضِلًّا، فَتَقَوَّى بِسَيْحَرِ أُمِّهِ، وَعَمِلَتْ لَهُ أَعْمَالًا عَجَبِيَّةً، مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ زُجَاجٍ عَلَى هَيْئَةِ الْكُرَةِ، تَدُورُ بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ، وَصُوِّرَتْ فِيهَا صُورُ الْكُوكِبِ، فَكَانُوا يَتَغَرَّفُونَ بِهَا أَشْرَازَ الطَّبَائِعِ وَغُلُومَ الْعَالَمِ.

فَلَمَّا مَاتَتْ أُمُّهُ الشَّاحِرَةُ بَعْدَ سِتِينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ، طَلَى جَسَدَهَا بِمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الثَّنَّ وَالْحَسَرَاتِ، وَدُفِنَتْ تَحْتَ صَنْمِ الْقَمَرِ. وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا يُسْمَعُ مِنْ عِنْدِهَا صَوْتُ بَعْضِ الْأَزْوَاجِ، وَتُخْبِرُهُمْ بِعَجَائِبِ، وَتُجِيبُ عَمَّا تُسْأَلُ عَنْهُ.

وَلَمَّا مَاتَ تُوْمِيدُونَ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ مُلْكِهِ، عُيِّلَ لَهُ صُورَةٌ مِنْ زُجَاجٍ مَقْسُومَةٌ نِصْفَيْنِ، وَأُدْخِلَ فِيهَا بَعْدَمَا طَلَى بِالْأَدْوِيَةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الثَّنَّ، وَأُطِيقَتْ الصُّورَةُ عَلَيْهِ حَتَّى الَّتَحَمَتْ، وَأَقِيمَ فِي هَيْكَلِ الْأَصْنَامِ، وَدُفِنَتْ كُنُوزُهُ عِنْدَهُ، وَصَارَ يُعْمَلُ لَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عِيدٌ^٣.

وَمَلَكَ بَعْدَ ابْنِهِ شَرِيَاقُ، وَيُقَالُ لَهُ شَرْنَاقُ، وَكَانَ كَأَبِيهِ فِي عِلْمِ الْكَهَانَةِ وَالسَّحَرِ وَالطَّلُّسَمَاتِ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجَبِيَّةً، مِنْهَا عَلَى بَابِ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ هَيْئَةُ بَطَّةٍ مِنْ نُحَاسٍ قَائِمَةٌ عَلَى أَشْطَوَانَةٍ إِذَا دَخَلَ غَرِيبٌ مِنْ نَاحِيَةِ مِنَ التَّوَّاحِي صَفَّقَتْ بِجَنَاحَيْهَا وَصَرَخَتْ، فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ الْغَرِيبُ وَيُكْشَفُ أَمْرُهُ حَتَّى يُعْرَفَ فِيمَا قَدِمَ. وَشَقَّ مِنَ الثَّلِيلِ نَهْرًا يَمُرُّ إِلَى مَدَائِنِ الْغَرْبِ، وَبَنَى عَلَيْهِ أَغْلَامًا وَمُدُنًا وَمُنْتَزَهَاتٍ^٤.

وَسَارَ مَلِكٌ مِنْ بَنِي مَرَّاشِي^(ج) بَنَ آدَمَ، وَيُقَالُ مِنْ بَنِي صَوَّاثِنِيِّ بْنِ آدَمَ، خَرَجَ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِرَاقِ فِي أَيَّامِهِ، وَغَلَبَ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَقَصَّدَ مِصْرَ لِيَأْخُذَ مُلْكَهَا فَقِيلَ لَهُ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا لِسَيْحَرِ

(أ) بولاق : ففرت منه . (ب) بولاق : واجتمع . (ج) بولاق : فراشي .

^١ اقترح ثبت أن صحة اسمه : توميدون . ^٢ نفسه ١٥ : ١٣ - ١٤ وقارن المسعودي : أخبار

^٣ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣ المسعودي : أخبار ١٢٢ - ١٢٣ .

الزمان ١٢٢ : القلقشندي : صبح ٣ : ٤٠٧ . ^٤ نفسه ١٥ : ١٥ ، ١٦ المسعودي : أخبار ١٢٣ ، ١٢٥ .

أهلها . فتتكر ودخل في جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر ، فلما وصل إلى أول حد مصر حبسه المؤكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره ، ويتنوا إليه بصفتهم ؛ وكان قد رأى في منامه كأنه على منار عالٍ ، وكأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه فحاذ عنه حتى كاذ يشق من المنار ، فجاوزه الطائر وسلم منه ؛ فانتبه مذعورا وقص رؤياه على كبير الكهنة ، قال : يطلبك ملك ولا تقدر عليك . ونظر في نجومه فرأى الملك الذي يطلب ملكه قد دخل إلى مصر ، وكان ذلك هو الوقت الذي قديم عليه فيه الرسل بصفات الدين وصلوا إلى حد مصر ، فأمر بإحضارهم إليه بعدما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليرؤوها ؛ فأوقفهم وسأروا بهم ، وأوقفهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات ، حتى بلغوا إلى الإشكندرية ، ثم إلى أفسسوس ، ثم إلى الجنة التي عملها مضرام - وكان الملك شريكا مقيما بها - فعندما وصلوا إليها أظهرت الشجرة الثمانيات العجيبة ، فدخلوا عليه وخول الكهنة وبين يديه نار ، لا يصل إليه أحد حتى يخوضها ، فمن كان بريئا لم تضره ، ومن كان يريد بالملك شوعا أو أضمر له مكروها أخذته النار .

فشق القوم في وسط النار واجدا بعد واحد من غير أن تضرهم ، حتى انتهى الأمر إلى ملك العراق ، فعندما دنا من النار أخذته بحررها فولى هاربا ، فاتبه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدي شريك ، فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر بصلبه ، فضلب على الحيطان الذي أخذ منه ، ونودي عليه : « هذا جزاء من طلب ما لا يصل إليه » ، وعفا عن الباقي فسأروا من مضر وتحدثوا بما رأوه من العجائب ، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر^١ .

ومات شريك بعدما ملك مصر مائة سنة وثلاث سنين^٢ ، فجعل في ناؤوس ومعه أمواله وطلسم يحفظه من يقيضه .

وملك بعده ابنه شهلوق ، فكان عالما بالكهانة والطلسمات ، فقسم ماء النيل موزونا ينصرف إلى كل ناحية يسقطها ، ورثب الدولة ، وعمل بيت نار ، وهو أول من عبد النار ، وعمل

(١) بولاق : مائة وثلثين سنة .

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٥٠ - ١٦ .

بَأَمْشُوسَ عَجَائِبَ ، مِنْهَا شَجَرَةٌ عَلَى أَعْلَى الْجِبَالِ تُقَسِّمُ بِهَا الرِّيحَ الَّتِي تَمْنَعُ مَنْ أَرَادَ مَصْرَ بَأْدَى أَوْ
فَسَادٍ مِنْ جَنِيِّ أَوْ إِنْسِي أَوْ سَبْعٍ أَوْ طَائِرٍ .

وَعَمِلَ بِالْمَدِينَةِ قُبَّةٌ مَرْكُوبَةٌ عَلَى سَبْعَةِ أَرْكَانٍ ، وَلَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ رُكْنٍ بَابٌ ، وَفِي وَسْطِ
الْقُبَّةِ قُبَّةٌ مِنْ صُفْرٍ ، وَفِي أَغْلَاهَا صُورُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، وَتَحْتَ الْقُبَّةِ قُبَّةٌ أُخْرَى مُعَلَّقَةٌ عَلَى سَبْعِ
أَسَاطِينٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُبَّةِ [صُورَةٌ] ^(١) أَسَدٌ وَلَبْوَةٌ مِنْ صُفْرٍ وَهَمَا رَابِضَانِ ، كَانَ يَذْبَحُ
لَهُمَا جِزْوًا أَسْوَدَ وَيُخْرِهُمَا بِشْغَرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ الثَّانِي ثَوْرٌ وَتَقَرَّةٌ يَذْبَحُ لَهُمَا عِجْلًا وَيُخْرِهُمَا
بِشْغَرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ الثَّالِثِ خَيْزُرٌ وَخَيْزِرَةٌ يَذْبَحُ لَهُمَا خَيْثُوصًا وَيُخْرِهُمَا بِشْغَرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ
الرَّابِعِ كَيْشٌ وَشَاةٌ يَذْبَحُ لَهُمَا سَحْلَةً وَيُخْرِهُمَا بِشْغَرِهَا . وَعَلَى الْبَابِ الْخَامِسِ ثَغْلَبٌ وَثَغْلَبَةٌ يَذْبَحُ
لَهُمَا فَرْخٌ/ ثَغْلَبٌ وَيُخْرِهُمَا بِشْغَرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ السَّادِسِ عَقَابٌ وَأُنْثَاهُ يَذْبَحُ لَهُمَا فَرْخٌ عَقَابٌ
وَيُخْرِهُمَا بِرِيشِهِ . وَعَلَى الْبَابِ السَّابِعِ نَشْرٌ وَأُنْثَاهُ يَذْبَحُ لَهُمَا فَرْخٌ نَشْرٌ وَيُخْرِهُمَا بِرِيشِهِ وَيُلْطَخُ
كُلًّا مِنْهُمَا بِدَمٍ مَا ذُبِحَ لَهُ ، وَتَحْرُقُ سَائِرُ الْقَرَابِينِ ، وَيُوضَعُ رَمَادُهَا تَحْتَ عَقَبَاتِ أَبْوَابِ الْقُبَّةِ ،
وَيَجْعَلُ لَهُذَا الْقُبَّةِ سِدْنَةً يُشْعِلُونَ الْمَصَابِيحَ لَيْلًا وَنَهَارًا ^١ .

وَقَسَّمِ النَّاسَ بِمَصْرِ سَبْعَ مَرَاتِبٍ ، لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْهُمْ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ تِلْكَ الْقُبَّةِ ، فَكَانَ الْخَصْمُ إِذَا
تَقَدَّمَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ ، وَكَانَ ظَالِمًا ، فَإِنَّهُ يُلْتَصِقُ بِهَا وَلَا يَتَخَلَّصُ مِنْهَا حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ
الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ : الذِّكْرُ لِلذِّكْرِ ، وَالْأُنْثَى لِلْأُنْثَى ، فَيَعْرِفُونَ بِذَلِكَ الظَّالِمَ مِنَ الْمَظْلُومِ . وَلَمْ تَزَلْ
هَذِهِ الْقُبَّةُ بِأَمْشُوسَ حَتَّى أَرَاهَا الطُّوفَانَ ^٢ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ رَأَى أَبَاهُ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى جَبَلٍ وَصَفَهُ لَهُ مِنْ جِبَالِ مَصْرِ ، فَإِنَّ فِيهِ
كُوَّةٌ صِفَتُهَا كَلْدًا ، عَلَى بَابِهَا أَقْعَى لَهَا رَأْسَانِ ، إِذَا أُقْبِلَ إِلَيْهَا كَثُرَتْ فِي وَجْهِهِ . فَخَلَدَ مَعَكَ
طَائِرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى فَادْبَحَهُمَا لَهَا ، وَأَلْقَمَهَا إِيَّاهُمَا ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ بِرَأْسَيْهِمَا وَتَنْتَحِي بِهِمَا
إِلَى سَرَبٍ . فَإِذَا غَابَتْ ادْخُلَ الْكُوَّةُ تَجِدُ فِيهَا اثْرَةً عَظِيمَةً مِنْ نُورٍ حَارٍّ يَاسِسٍ ، فَإِنَّهَا تَسْتَطِيعُ لَكَ
وَتَحْسُ بِحَرَارَتِهَا فَلَا تَذُنْ مِنْهَا تَحْرِيقَ ، وَلَكِنْ اقْعُدْ جِدَاءَهَا ، وَسَلِّمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهَا تُخَاطِبُكَ فَافْهَمْ مَا
تَقُولُ لَكَ وَاعْمَلْ بِهِ ، فَإِنَّكَ تَشْرُفُ بِذَلِكَ ، وَتَدُلُّكَ عَلَى كُنُوزٍ جَدِّكَ مِضْرَامٍ ، فَإِنَّهَا حَافِظَةٌ لَهَا .

(٨) زيادة من النويري .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩٩ ، وقارن المسعودي : ^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

أخبار الزمان ١٢٦ - ١٣٠ .

فلما انتبه عَمِلَ ما أمَره أبوه ، فلما قَعَدَ بجانب المرأة وسَلِمَ ، قالت له : أَتَعْرِفُنِي ؟ قال : لا ؛ قالت : أنا صُورَةُ النارِ المَغْبُودَةِ في الأُتَمِ الخالِيةِ ، وقد أَرَدْتُ أَنْ تُحْيِيَ ذِكْرِي ، وتُجَدِّدَ لِي يَتًا تَقِدُ لِي فيه نَارًا دائِمَةً بِقَدَرٍ واحدٍ ، وتَتَّخِذَ لَهَا عَيْدًا في كُلِّ سَنَةٍ تُحَضِّرُهُ أَنْتِ وَقَوْمُكَ ، فَإِنَّكَ تَتَّخِذُ بِذلِكَ عِنْدِي يَدًا أَنِيْلَكَ بها شَرَفًا إلى شَرَفِكَ^١ ، ومُلْكًا إلى مُلْكِكَ ، وأَمْتَعَ عَنْكَ مِنْ يَطْلُبُكَ بِسُوءٍ ، وأَذْلَكَ على كُنُوزِ جَدِّكَ بِضَرَامٍ .

فَضَمِنَ لَهَا أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ ما أمَرته به ، فَذَلَّلَهُ على الكُنُوزِ التي تحتِ المَدَائِنِ المُتَعَلِّقَةِ ، وَعَلَّمَتْهُ كَيْفَ يَصِيرُ إِلَيْهَا وَكَيْفَ يَخْتَرِسُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْمُوَكَّلَةِ بها وما يُنْجِيهِ مِنْهَا . ثم قال لها : كَيْفَ لِي بِأَنْ أَرَكَ فِي وَقْتٍ آخَرَ ؟ قالت : لا تُعَدِّ ، فَإِنَّ الْأَفْعَى لَا تُمَكِّنُكَ ، وَلَكِنْ بَعْرِ فِي يَتِّكَ بِكَذَا فَإِنِّي آتِيكَ ؛ فَسَرُّ بِذلِكَ ، وَغَابَتْ عَنْهُ ، وَخَرَجَ ، فَفَعَلَ ما أمَرته به مِنْ عَمَلِ بَيْتِ النارِ ، وَأَخَذَ كُنُوزَ بِضَرَامٍ^١ .

ولما مات جُعِلَ في نَافُوسٍ وَمَعَهُ سَائِرُ أَمْوَالِهِ^٢ وَكُنُوزِهِ ، وَجُعِلَ عَلَيْهِ طَلْسَمٌ يَحْفَظُهُ مِمَّنْ يَقْضِيهِ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ سُورِيدٌ ، وَكَانَ حَكِيمًا فَاضِلًا ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَبَى الْخَرَجَ بِمِصْرَ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَرْصُوعِ وَالزُّمْتَى مِنْ خَزَائِنِهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَنَّ رُقْعَةَ الصَّبَاحِ ؛ وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، مِنْهَا مِرْآةٌ مِنْ أَخْلاطٍ كَانَ يَنْظُرُ فِيهَا إِلَى الْأَقَالِيمِ فَيَعْرِفُ فِيهَا ما حَدَثَ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَمَا يَخْصُبُ مِنْهَا وَمَا يَجْجُدُ . وَأَقَامَ هَذِهِ الْمِرْآةَ فِي وَسْطِ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ ، وَكَانَتْ مِنْ نُحَاسٍ^٢ .

وَعَمِلَ فِي أَمْشُوسَ صُورَةَ امْرَأَةٍ جَالِسَةٍ فِي جِجْرِهَا صَبِيحٍ تُزِيغُهُ ، وَكَانَتْ الْمِرْآةُ مِنْ نِساءِ بِضَرٍ إِذَا أَصَابَتْهَا عِلَّةٌ فِي مَوْضِعٍ مِنْ جِسمِهَا أَتَتْ هَذِهِ الصُّورَةَ وَمَسَحَتْ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنْ جِسمِهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ مِنَ الصُّورَةِ فَتَزُولُ عَنْهَا الْعِلَّةُ ، وَإِنْ قَلَّ لَبِثُهَا مَسَحَتْ نَذْيَهَا بِنَذْيِ الصُّورَةِ فَيَنْزُرُ لَبِثُهَا ، وَإِنْ قَلَّ حَيْضُهَا مَسَحَتْ فَرْجَهَا بِفَرْجِ الصُّورَةِ فَيَكْثُرُ حَيْضُهَا ، وَإِنْ كَثُرَ دَمُهَا مَسَحَتْ أَشْفَلَ رُكْبَتَيْهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الصُّورَةِ ، وَإِنْ عَشُرَتْ وَلَادَةُ امْرَأَةٍ مَسَحَتْ رَأْسَ الصَّبِيِّ الَّذِي فِي جِجْرِ الصُّورَةِ فَتَضَعُ حَمْلَهَا ، وَإِنْ أَرَادَتْ التَّحْيِيَّ إِلَى زَوْجِهَا مَسَحَتْ وَجْهَهَا وَتَقُولُ أَفْعَلِي كَذَا وَكَذَا ،

(a) ساقطة من الأصل .

فَإِذَا وَصَّعَتِ الزَّائِنَةُ يَدَهَا عَلَيْهَا ارْتَعَدَتْ حَتَّى تَتُوبَ . وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الصُّورَةُ إِلَى أَنْ أزالَهَا الطُّوفَانُ ،
وَفِي كُتُبِ الْقَبْطِ أَنَّهَا وُجِدَتْ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، وَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَبَدُوهَا ^١ .

وَعَمِلَ سُورِيدُ صَنْمًا مِنْ أَخْلاطٍ كَثِيرَةٍ ، فَكَانَ مِنْ أَصَابَتِهِ عِلَّةٌ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بَجْسِيدهُ غَسَلَ
ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنَ الصَّنَمِ بِمَاءٍ وَشَرِبَ الْمَاءَ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ .

- ٥ وسوريدُ هذا هو الذي بنى الهرمَيْنِ العَظِيمَيْنِ بِمِصْرَ الْمَسُوتَيْنِ إِلَى شَدَّادِ بْنِ عَادَ ، وَالْقَبْطُ تُذَكِّرُ
أَنْ تَكُونَ الْعَادِيَّةُ دَخَلَتْ بِلَادَهُمْ لِقُوَّةِ سِخْرِهِمْ ^٢ . وَلَمَّا مَاتَ سُورِيدُ دُفِنَ فِي الْهَرَمِ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ ؛
وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنَّهُ مَلَكَ مِائَةَ سَنَةٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً .

- فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ هَرْجِيبُ ، وَكَانَ كَأَيِّهِ حَكِيمًا قَاضِيًا فِي عِلْمِ السَّحَرِ وَالطَّلْسَمَاتِ ،
فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَاسْتَخْرَجَ مَعَادِنَ كَثِيرَةً ، وَأَظْهَرَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ ، وَبَنَى أَهْرَامَ دَهْشُورَ ^٣ ؛
وَحَمَلَ إِلَيْهَا أَمْوَالًا عَظِيمَةً وَجَوَاهِرَ نَفِيسَةً وَعِقَاقِيرَ وَشُمُومَاتَ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا رُوحَانِيَاتَ
١٠ تَحْفَظُهَا .

وَسَجَّ رَجُلٌ رَجُلًا فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَصَابِعِهِ ، وَسَرَقَ رَجُلٌ مَالًا فَمَلَكَ الْمَسْرُوقَ لَهُ رِقَّ الشَّارِقِ . وَلَمَّا
مَاتَ دُفِنَ فِي الْهَرَمِ وَمَعَهُ جَمِيعُ أَمْوَالِهِ وَدَخَائِرِهِ ^٤ .

- وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَنَاوَسُ ، وَيُقَالُ مَنَاوَسُ ، وَكَانَ كَأَيِّهِ فِي الْحِكْمَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ جَبَّارًا
١٥ فَاسِقًا سَفَاكًا لِلدَّمَاءِ ، يَنْتَرِعُ النِّسَاءَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ وَيُبِيعُ ذَلِكَ الْخَوَاصَّهَ .
وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَاسْتَخْرَجَ كُنُوزًا ، وَبَنَى قُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةَ ، وَأَجَزَى فِيهَا الْأَنْهَارَ ،
وَجَعَلَ خَصْبَاءَهَا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَسَلَّطَ رَجُلًا جَبَّارًا اسْمُهُ قِرْنَاسٌ عَلَى النَّاسِ ،
وَرَجَّهَهُ لِمُحَارَبَةِ الْأُمَمِ الْغَرِيبَةِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلَائِقَ ^٥ .

- وَلَمَّا مَاتَ دُفِنَ فِي بَعْضِ قُصُورِهِ وَمَعَهُ أَمْوَالُهُ ، وَغَمِلَ عَلَيْهِ طَلْسَمٌ يَحْفَظُهُ وَيَمْتَنِعُهُ مِنْ كُلِّ طَالِبٍ .
٢٠ /وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَفْرُوسُ ، وَكَانَ كَأَيِّهِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَمَّا مَلَكَ أَظْهَرَ الْعَدْلَ وَأَحْسَنَ
السِّيَرَةَ ، وَرَدَّ النِّسَاءَ اللَّاتِي غُصِبْنَ فِي أَيَّامِ أَبِيهِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ .

(أ) الْأَصْلُ : دَهْشُون .

^٣ التُّورِي : نَهَايَةُ الْأَرْبِ ١٥ : ٣٤ .

^١ التُّورِي : نَهَايَةُ الْأَرْبِ ١٥ : ٢٠ - ٢١ .

^٤ نَفَسُهُ ١٥ : ٣٤ - ٣٥ .

^٢ فِيمَا تَقْدِمُ ١ : ١١١ .

وعَمِلَ قُبَّةً^(٨) طُولُهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ مِائَةِ ذِرَاعٍ، وَرَكَّبَ فِي جَوَانِبِهَا طُيُورًا مِنْ صُفْرِ
تُصَفِّرُ بِأَصْوَاتٍ مُطَرِبَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لَا تَقْطُرُ سَاعَةً. وَعَمِلَ فِي وَسْطِ مَدِينَةِ أَمْسُوسٍ مَنَارًا عَلَيْهِ رَأْسُ
إِنْسَانٍ مِنْ صُفْرِ، كُلَّمَا قَضَى مِنَ النَّهَارِ أَوْ اللَّيْلِ سَاعَةً صَاحَ صَوِيحَةً يَقْلَمُ مِنْ سَمِعِهَا بِمُضِيِّ سَاعَةٍ.
وَعَمِلَ مَنَارًا عَلَيْهِ قُبَّةٌ مِنْ صُفْرِ مُذْهَبٍ وَلَطَّخَهَا بِلَطُوحَاتٍ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ^(ب) فِي كُلِّ لَيْلَةٍ^(ب)
اشْتَعَلَتِ الْقُبَّةُ نُورًا تُضِيءُ لَهُ مَدِينَةُ أَمْسُوسٍ طَوْلَ اللَّيْلِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ النَّهَارِ، لَا تُطْفِئُهَا الرِّيحُ وَلَا
الْأَمْطَارُ، فَإِذَا طَلَعَ النَّهَارُ خُجِدَ ضَوْؤُهَا.

وَأَهْدَى لِبَعْضِ مُلُوكِ بَابِلَ مَذْهَبًا مِنْ زَبَرْجَدٍ قَطْرُهُ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ، وَيُقَالُ إِنَّهُ وَجِدَ بَعْدَ الطُّوفَانِ.
وَعَمِلَ فِي الْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ صَنْعًا عَظِيمًا قَائِمًا عَلَى قَاعِدَةٍ، وَهُوَ مَصْبُوعٌ مُصَفَّرٌ بِالذَّهَبِ،
وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّمْسِ يَدُورُ مَعَهَا حَتَّى تَغْرُبَ، ثُمَّ يَدُورُ لَيْلًا حَتَّى يُحَاضِيَ الْمَشْرِقَ مَعَ الْفَجْرِ، فَإِذَا
أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ اشْتَعَلَتْهَا بِوَجَّهِهِ.

وَبَنَى بِصَخْرَاءِ الْقَرْبِ مَذْنَبًا كَثِيرًا، وَأَوْدَعَهَا كُنُوزًا عَظِيمَةً، وَنَكَّحَ ثَلَاثَ مِائَةِ امْرَأَةٍ، وَلَمْ يُودِدْ
لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ أَعْقَمَ الْأَرْحَامَ لِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْعَالَمِ بِالطُّوفَانِ، وَوَقَعَ الْمَوْتُ فِي
النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ^١.

وَلَمَّا مَاتَ وَضِعَ فِي نَاوُوسٍ بِالْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ وَمَعَهُ أَمْوَالُهُ، وَطَلَسَتْ عَلَيْهِ.
وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَرْمَالِينُوسُ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً، وَبَنَى مَذْنَبًا وَمَصَانِعَ، وَجَدَّدَ الطَّلُشْمَاتِ.
وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَمٌّ يَسْمَى فِرْعَانَ، وَكَانَ جَبَّارًا، فَأَتَقَدَّهَ وَجَعَلَهُ عَلَى جَيْشٍ سَارَ بِهِ عَنْهُ، فَفَقَهَرَ مُلُوكًا
وَقَتَلَ أُمَّمًا عَظِيمَةً، وَعَيَّمَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً وَعَادَ، فَشَغِفَتْ بِهِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْمَلِكِ، وَمَا زَالَتْ بِهِ حَتَّى
اجْتَمَعَ بَهَا وَتَأَلَّفَا وَأَقَامَا عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً، فَخَافَا الْمَلِكَ أَنْ يَفْطِنَ بِهِمَا، فَعَمِلَتِ الْمَرْأَةُ لِأَرْمَالِينُوسَ
شُرًّا فِي شَرِّهِ هَلَكَ مِنْهُ^٢.

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُ عَمِّهِ فِرْعَانَ بْنِ مَسُورٍ، فَلَمْ يُبَازِعْهُ أَخَذًا لَشَجَاعَتِهِ وَسِيَاسَتِهِ، وَلَمْ تُطُلْ
أَعْوَامُهُ حَتَّى رَأَى فُلَيْمُونُ الْكَاهِنُ كَأَنَّ طُيُورًا يَيْضًا قَدْ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ: «مَنْ أَرَادَ
النَّجَاةَ فَلْيَلْحَقْ بِصَاحِبِ الشَّفِيعَةِ».

(٨) النوري: فوارة. (b-b) ساقط من الأصل.

وكان عندهم عِلْمٌ بِمُحْدُوثِ الطُّوفَانِ مِنْ أَيَّامِ سُورِيدَ وَبَنَائِهِ الْأَهْرَامَ لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَاتَّخَذَ النَّاسُ سَرَادِيبَ تَحْتَ الْأَرْضِ مُصَفَّحَةً بِالزُّجَاجِ قَدْ حُبِسَتْ الرِّيحُ فِيهَا بِتَدْيِيرِ ، وَغَمِلَ مِنْهَا فِرْعَوْنُ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ عِدَّةً^١ . فَمَا كَذَّبَ أَنْ جَمَعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَتِلَامِيذَهُ ، وَلَحِقَ بَنُوْح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَآمَنَ بِهِ ، وَأَقَامَ مَعَهُ حَتَّى رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ .

- وَجَاءَ الطُّوفَانُ فِي أَيَّامِ فِرْعَوْنَ فَأَغْرَقَ أَرْضَ مِصْرَ كُلَّهَا ، وَخَرَّبَ عَمَائِرَهَا ، وَأَزَالَ تِلْكَ الْمَعَالِمَ كُلَّهَا ، وَأَقَامَ الْمَاءَ عَلَيْهَا سِتَّةَ أَشْهُرَ ، وَوَصَلَ إِلَى أَنْصَافِ الْهَرَمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ . وَسَيَّأَتِي خَبِيرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِ مِصْرَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

- وَيُقَالُ إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ عَاتِيًا مُتَجَرِّعًا^(٢) يَغْصِبُ الْأَمْوَالَ وَالنِّسَاءَ ، وَإِنَّهُ كَتَبَ إِلَى الدَّرْمَسْتِيلِ بْنِ مَحْوِيلِ يَبِإِلْ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِ نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِنَّهُ اسْتَحَفَّ بِالْكَهَنَةِ وَالْهَيَاكِلِ . فَفَسَدَتْ فِي أَيَّامِهِ أَرْضُ مِصْرَ ، وَنَقَصَ الزُّرْعُ ، وَأَجْدَبَتِ التَّوَاحِي ، لِأَنَّهُمَا كِهَ فِي ضَلَالِهِ وَظُلْمِهِ ، وَإِقْبَالِهِ عَلَى لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ . وَأَنَّ النَّاسَ اقْتَدَوْا بِهِ فَفُشَا ظُلْمُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ . وَإِنَّهُ لَمَّا أَقْبَلَ الطُّوفَانُ وَسَحَتِ الْأَمْطَارُ ، قَامَ سَكْرَانٌ يُرِيدُ الْهَرَبَ إِلَى الْهَرَمِ ، فَتَخَلَّلَتْ الْأَرْضُ بِهِ ، وَطَلَبَ الْأَبْوَابَ فَخَاتَتْهُ رِجْلَاهُ ، وَسَقَطَ يَخُورٌ حَتَّى هَلَكَ ، وَهَلَكَ مَنْ دَخَلَ الْأَسْرَابَ بِالْعَمِّ^٣ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(a) بولاق : منجورًا .

وَقَصْرُهُ لِلْمُلُوكِ بِيَزْنَةَ ، وَعَرَفَ الْعَرَبُ هَذَا اللَّقَبَ مِنَ الْإِسْتِخْدَامِ الْقُرْآنِيِّ لَهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى (رَاجِعْ ، Vajda, G., *El² art. Firawn II*, pp. 938-39) . أَمَّا أَصْلُ كَلِمَةِ فِرْعَوْنَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهَا كَشْفُ اللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ (الْهِيرُوغْلِيفِيَّةِ) فَهُوَ «فِرْعَا» per-â بمعنى «الْبَيْتُ الْكَبِيرُ» وَالَّذِي كَانَ يَعْنِي فِي الْأَصْلِ الْقَصْرَ كَمُؤَسَّسَةٍ ، ثُمَّ أَصْبَحَ يُطْلَقُ عَلَى شَخْصٍ لِلْمَلِكِ اعْتِبَارًا مِنَ الدَّوْلَةِ الْحَدِيثَةِ Vernus, P., & Yoyotte, J., *Dictionnaire de Pharaons*, Editions Noesis 1996, pp. 116-20 .

^١ التَّوْبَرِي : نِهَآيَةُ الْأَرْبِ ٣٩:١٥ - ٤٠ ، وَفِيهِ أَنَّهُ أَوَّلُ فِرْعَوْنَ تَسْمَى بِهَذَا الْإِسْمِ وَمِنْ شُعْبِي بَعْدَهُ سَعْيِي تَشْبِيْهًُا بِهِ (نَفْسُهُ ٣٨:١٥) ؛ وَفَارُونُ الْمَسْعُودِي : مَرْجُوحُ الذَّهَبِ ٩٥:٢ وَفِيهِ : «سَأَلْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَقْبَاطِ مِصْرَ بِالصَّمِيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ مِنْ أَهْلِ الْخَبِيرَةِ عَنْ تَفْسِيرِ فِرْعَوْنَ ، فَلَمْ يَخْبِرُونِي عَنْ مَعْنَى ذَلِكَ وَلَا تَحْمِيلَ فِي لُغَتِهِمْ ؛ فِيمَكُنْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا الْإِسْمَ كَانَ سَمًّا لِلْمُلُوكِ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَأَنَّ تِلْكَ اللُّغَةَ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا الْفَهْلُوبَةِ - وَهِيَ الْفَارَسِيَّةُ الْأُولَى - إِلَى الْفَارَسِيَّةِ الثَّانِيَةِ ... ؛ وَانْظُرْ أَيْضًا فِيمَا يَلِي ٣٨٢ .

^٢ التَّوْبَرِي : نِهَآيَةُ الْأَرْبِ ٣٩:١٥ .

وَاسْتِخْدَمَ لِقَبَ «فِرْعَوْنَ» فِي الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى مُلُوكِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ فِي مُقَابِلِ لِقَبِ «بَكْتَرِي» لِلْمُلُوكِ فَارِسَ

ذِكْرُ مَدِينَةِ مَثَفَ وَمُلُوكِهَا

هذه المدينة كانت في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلاً من مدينة قُسطاط مصر ، وهي أول مدينة عُثِرَتْ بأرض مصر بعد الطوفان ، وصارت دارَ المملكة بعد مدينة أَمْشُوس التي تقدّم ذكرها ، إلى أن أخربتها بُحْت نَصْر^١ .

وقد ذكّرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [الآية ١٥ سورة القصص] ، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب «جامع البيان في تفسير القرآن» : عن الشَّديّ أنّه قال : كان موسى عليه السلام - حين كَبُرَ ركب كتراب فيزعون ويلبس مثل ما يلبس ، وكان [أما يُدعى [موسى]]^٢ بن فيزعون . ثم إن فيزعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام - قيل له إن فيزعون قد ركب ، فركب في أثره ، فأدركه المقيّل في أرض يقال لها مثف ، فدخلها نصف النهار وقد تغلّقت أسواقها وليس في طُرُقها أحدٌ ، وهي التي يقول الله جلّ ذكره : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾^٣ .

وقال ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن لهيعة : أوّل من سكّن بمصر بعد أن أغرق^٤ الله قوم نوح - عليه السلام - يتصر بن حام بن نوح فسكّن مثف - وهي أوّل مدينة عُثِرَتْ بعد الغرق^٥ - هو وولده ، وهم ثلاثون نفساً ، منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوّجوا ، وهم : مصر وفارق وماج وياج بنو يتصر ، وكان مصر أكبرهم ، فبذلك سُمّيَت مافه (ومافه بلسان القبط : ثلاثون) . وكانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ، ونَقَرُوا هناك منازل كثيرة^٦ .

(a) زيادة من الطبري . (b) فتوح مصر : غرق . (c) بولاق : الطوفان .

Zivie, C., M., *Lexikon des Agyptologie* ١٤٢٢ : ١
art. *Memphis* IV, pp. 23-44; Haarmann, U., *El*²
(art. *Manf* VI, pp. 395-99 .

^٢ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن (المطبعة الميمنية ١٩٠٣) ، ٢٨ : ٢٠ .

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٩ المسعودي : مروج الذهب ٨٥ : ٢ وأخبار الزمان ١٥٣ .

^١ كانت مدينة مثف تقع في أوّل الصعيد غربي النيل ، وهي تعادل الآن قرية ميت زهينة التابعة للبدشين في سفح هضبة سقارة ، (راجع ، البكري : جغرافية مصر ٦٩ - ٧٠ ، مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٣ ، ياقوت : معجم البلدان ٢١٣ : ٢١٤ ، ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٩٢ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣١٦ ، علي مبارك : الخطط التوفيقية ٢ : ١٦ - ٤٧ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

وقال ابنُ خُرْدَاذِيَه في كتاب «المَسَالِكِ والمَمَالِكِ»: ومَدِيْنَةُ مَنَفٍ هِيَ مَدِيْنَةُ فِرْعَوْنَ الَّتِي كَانَ يَنْزِلُهَا، وَاتَّخَذَ لَهَا/سَبْعِينَ بَابًا مِنْ حَدِيدٍ، وَجَعَلَ حَيْطَانِ الْمَدِيْنَةِ مِنَ الْحَدِيدِ وَالصُّفْرِ. وَفِيهَا كَانَتِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ سَرِيرِهِ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ^١.

وَيُرْوَى أَنَّ مَدِيْنَةَ مَنَفٍ كَانَتْ قَنَايِزَ وَمَجْسُورًا بِتَذْيِيرٍ وَتَقْدِيرٍ، حَتَّى إِنْ الْمَاءَ لِيَجْرِي تَحْتَ مَنَازِلِهَا وَأَقْنَبَتِهَا فَيُخْبِسُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا وَيُؤَسِّلُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ بِمِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الْآيَةُ ٥١ سُورَةُ الزَّخْرَفِ].

وَكَانَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَصْنَامِ لَمْ تَزَلْ قَائِمَةً إِلَى أَنْ سَقَطَتْ فِيمَا سَقَطَ مِنَ الْأَصْنَامِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَشَارَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْأَصْنَامِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، بِفَضِيحٍ فِي يَدِهِ، وَهُوَ يَطْلُوفُ حَوْلَهَا وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنْ الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا»، فَمَا أَشَارَ إِلَى صَنْمٍ مِنْهَا فِي وَجْهِهِ إِلَّا وَقَعَ لِقْفَاهُ، وَلَا أَشَارَ لِقْفَاهُ إِلَّا وَقَعَ لَوَجْهِهِ، حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهَا صَنْمٌ إِلَّا وَقَعَ.

وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ سَقَطَتْ أَصْنَامُ الْأَرْضِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ، وَبَقِيَ أَصْحَابُهَا مُتَفَجِّجِينَ لَا يَفْلَمُونَ لَهَا سَبَبًا أَوْجَبَ سُقُوطَهَا، وَبَقِيَتْ أَصْنَامُ مَدِيْنَةِ مَنَفٍ سَاقِطَةً مِنْ سَاعَتِهِ، وَفِيهَا الصَّنَمَانِ الْكَبِيرَانِ الْمَجَاوِرَانِ لِلْبَيْتِ الْأَخْضَرِ الَّذِي كَانَ بِهِ صَنْمُ الْعَزِيزِ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ وَعِثَاهُ بِأَقْوَتَانِ لَا يُقَدَّرُ عَلَى مِثْلِهِمَا. ثُمَّ قُطِعَتْ الْأَصْنَامُ وَالْبَيْتُ الْأَخْضَرُ مِنْ بَعْدِ سَنَةِ سِتِّ مِائَةٍ.

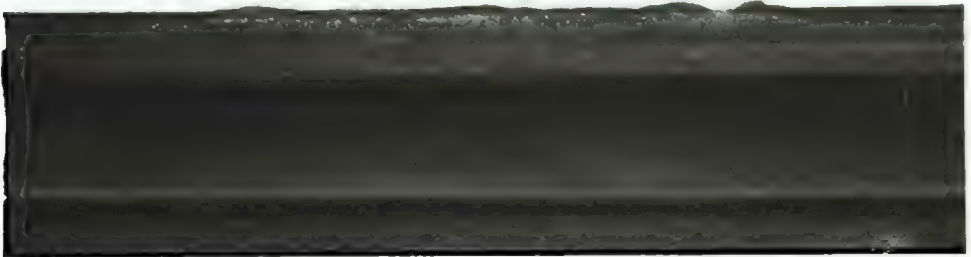
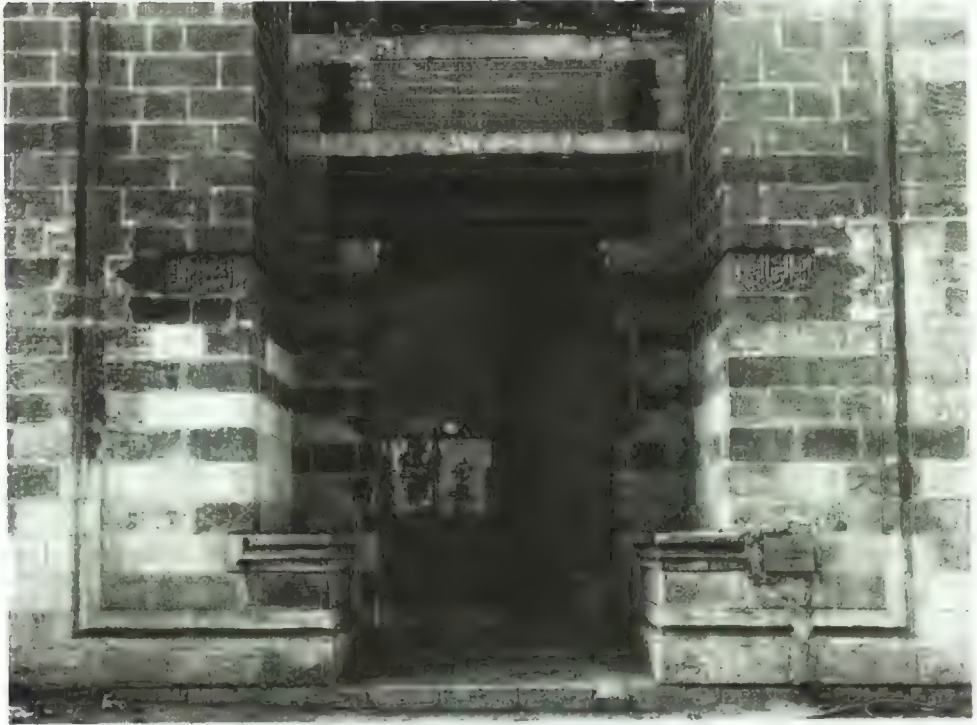
وَيُقَالُ كَانَتِ مَدِيْنَةُ^(a) مَنَفٍ ثَلَاثِينَ مِيلًا طَوْلًا فِي عِشْرِينَ مِيلًا عَرْضًا، وَإِنْ بَعْضُ بَنِي يَافِثَ بْنِ فُوحٍ غَمِلَ فِي أَيَّامِ مِصْرَإِيمَ آلَةَ تَحْمِيلِ الْمَاءِ حَتَّى ثَلَاثِينَ مِيلًا عَلَى أَعْلَى سُورِ مَدِيْنَةِ مَنَفٍ. وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهَا دَرَجًا مُجَوَّرَةً كُلَّمَا وَصَلَ الْمَاءُ إِلَى دَرَجَةِ امْتَلَأَتِ الْأُخْرَى، حَتَّى يَصْغَدَ الْمَاءُ إِلَى أَعْلَى الشُّورِ، ثُمَّ يَنْحَطُّ فَيَدْخُلُ جَمِيعَ بُيُوتِ الْمَدِيْنَةِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى خَارِجِ الْمَدِيْنَةِ.

وَكَانَ بِمَنَفٍ بَيْتٌ مِنَ الصُّوَانِ الْأَخْضَرِ الْمَانِعِ الَّذِي لَا يَغْمَلُ فِيهِ الْحَدِيدُ قِطْعَةً وَاحِدَةً، وَفِيهِ صُورٌ مَنْقُوشَةٌ وَكِتَابَةٌ، وَعَلَى وَجْهِهِ بَابُهُ صُورٌ حَيَاتٍ نَاشِئَةٍ صُدُّوْرَهَا لَوْ اجْتَمَعَ أُلُوفٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى تَحْرِيكِهِ مَا قَلَّدُوْا لِعَظْمِهِ وَثِقَلِهِ. وَالصَّابِقَةُ تَقُولُ إِنَّهُ بَيْتُ الْقَمَرِ؛ وَكَانَ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ جُمَّلَةِ سَبْعَةِ بُيُوتٍ كَانَتْ بِمَنَفٍ لِلْكُوَاكِبِ السَّابِقَةِ.

(a) ساقطة من بولاق.

^١ ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١١٦١ وقرن ابن عبد الحكم: فوح مصر ٦، وأورد المقرئ هذا النص فيما تقدم

وهذا البيت الأخصر هدمه الأمير سيف الدين شيخو^(a) العمرى بعد سنة خمسين وسبع مائة،
ومنه شية في خانقاهه وجامعه الذي بخط الصليبة خارج القاهرة^١.



لوحة ١ - المدخل الرئيس لجامع شيخو وبأشكفته الحجر الفرعوني المستخدم

(a) بولاق : شيخون .

^١ انظر فيما يلي ٣: ٣١٣، ٤٢١ واللوحة رقم ١

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي في كتابه «تحفة الألباب»: ورأيت في قصر فوعون موسى بيتاً كبيراً من صخرة واجدة، أحضر كالآس، فيه صورة الأفلاك والنجوم، لم تر عجباً أحسن منه^١.

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي: وكانت دار الملك بمصر في قديم الدهر مدينة منف، وهي في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلاً من القسطنطاط. فلما بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية رغب الناس في عمارتها، فكانت دار العلم ومقر الحكمة إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالقسطنطاط، فانتشر أهل مصر وغيرهم من القرب والعجم إلى سكناها، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا^٢.

وقال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكايب، وقد ذكر أخبار مدينة أمشوس وخراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح - عليه السلام -: ولما نزل الماء كان أول من ملك مصر^٣ بعد الطوفان يتصر بن حام بن نوح، وكان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله وولديه، فاجتمعوا وبنوا مدينة منف ونزلوا بها. وكان فليمون الكاهن الذي تقدم ذكره في خبر مدينة أمشوس من جملتهم، وكان قد زوج ابنته ببيتصر المذكور، وجاءت معه إلى مصر،

التأخرين - هو كتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه (انظر فيما تقدم ٣٥٠). وقد حاول العالم المصري أحمد كمال باشا تصويب هذه الأسماء في مقال قديم Ahmad Kamal, «Notes sur la rectification des noms arabes des anciens rois d'Égypte», *BIE* 4° série-n°4 (1903), pp. 89-424 وعن المصادر المختلفة لهذه المعلومات انظر مقدمة جاستون فيث لكتاب Wiet, *L'Égypte de Murtadi fils de Gaphiph* Introduction, traduction et notes, Paris 1953, pp. 1-47 ودراسة مايكل كوك, Cook, M., «Pharaonic History in Medieval Egypt», *SI* 57 (1983), pp. 67-103.

^١ أبو حامد الغزنائي: تحفة الألباب ٧٨.

^٢ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٩.

^٣ لا تعرف على وجه الدقة المصادر الحقيقية التي استمد منها المؤلفون العرب المواد التي اعتمدوا عليها في ذكر أسماء الملوك المصريين القدماء - فيما عدا أسماء ملوك الأسرات السبعة الأخيرة (انظر فيما يلي ٣٨٩-٣٩١) - وجميع هذه الأسماء معروفة ولا تتفق بالطبع مع ما ورد على الآثار وكشفت عنه الدراسات الحديثة. ووصلت هذه الأسماء إلى المؤلفين العرب عن طريق مؤلفات وسيطة، سواء مؤلفات يونانية روت التاريخ الأسطوري لمصر، أو ترجمات سريانية وقبطية لكتب يونانية مليئة بأخبار العجائب والمعجزات. والمصدر الرئيسي لهذه المعلومات - كما وردت عند المؤرخين

وَوَلَدَتْ مِنْهُ وَلَدًا سَمَاهُ مِصْرَايِمُ^١.

فلما ماتَ يَتَصَرَّ دُفِينٌ فِي مَوْضِعِ ذَنْرِ أَبِي هِرْمِيسَ، وَيُقَالُ ذَنْرُ أَبِي هِرْمِيسَ عَزَبِي الْأَهْرَامِ^٢، وَيُقَالُ إِنَّهَا أَوَّلُ مَقْبِرَةِ دُفِينٍ بِهَا بِأَرْضِ مِصْرَ. وَكَانَ مَوْتُهُ بَعْدَ أَلْفٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَسِتِّ سِنِينَ مَضَتْ مِنْ وَقْتِ الطُّوفَانِ^٣.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ثُمَّ بَنَى مِصْرَايِمُ مَدِينَةً سَمَّاها بِاسْمِهِ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي يَافِثَ فَقِيلَ لَهُ شَوْرًا فَايَمَا، وَصَنَعَ لَهُ دَرَجًا، وَأَجْرَى الْمَاءَ إِلَى أَنْ بَقِيَ يَصْعَدُ إِلَى أَعْلَى الشُّورِ بِحِكْمَةٍ أَتَقْنَهَا، ثُمَّ يُنْزِلُ ذَلِكَ الْمَاءَ مِنْ أَعْلَى الشُّورِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَيَتَّقِعُ بِهِ فِيهَا بَغِيرَ مَشَقَّةٍ وَلَا كُلْفَةٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى؛ وَكَتَبَ عَلَى الشُّورِ: هَذِهِ صَنْعَةٌ مِنْ تِيْمُوتَ لَا صَنْعَةٌ مِنْ يَدُومَ.

وَمَلَكَ بَعْدَ يَتَصَرِّ ابْنُهُ مِصْرَايِمُ بْنُ يَتَصَرِّ، فَأَظْهَرَهُ فُلَيْمُونُ الْكَاهِنُ عَلَى كُنُوزِ مِصْرَ وَعَلَّمَهُ قِرَاءَةَ حُطُّهُمْ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى حِكْمِهِمْ. وَبَنَى مِصْرَايِمُ الْمَدْنَ، وَشَقَّ الْأَنْهَارَ، وَعَرَسَ الْأَشْجَارَ، وَبَنَى مَدِينَةً عَظِيمَةً سَمَّاها دَرْسَانَ، وَهِيَ الْعَرِيشُ، وَنَكَحَ امْرَأَةً مِنْ أَوْلَادِ الْكَهَنَةِ فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدًا^٤ سَمَّاها قُطُومَ، وَبَنَى مَدِينَةً رَفُودَةَ مَكَانَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ^٥.

وَلَمَّا مَاتَ مِصْرَايِمُ جُعِلَ لَهُ سَرَبٌ طَوْلُهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا وَبُسْطٌ بِالْمَرمرِ الْأَبْيَضِ، وَغُمِلَ فِي وَسْطِهِ مَجْلِسٌ مُصَفَّحٌ بِصَفَائِحِ الذَّهَبِ، وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ تِمْنَالٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ قَوَائِمُهُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَتَقَعُ فِي صَدْرِ كُلِّ تِمْنَالٍ آيَاتٌ مَائِعَةٌ. وَحَبَسُوا جَسَدَهُ فِي جَسَدٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ أَخْضَرَ، شَبَّهَ تَائِبُوتَ، طَوْلُهُ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، دُفِنَ فِيهِ وَمَعَهُ جَمِيعُ مَا كَانَ فِي خَزَائِنِهِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَجَوْهَرٍ، مِنْهَا أَلْفُ قِطْعَةٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ مَخْرُوطٍ، وَأَلْفُ تِمْنَالٍ مِنْ جَوْهَرِ نَفِيسٍ، وَأَلْفُ هَرِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ دُرًّا نَفِيسًا، وَأَلْفُ

(a) يولاق: ابنا.

^٣ ابن عبد الحكم: فوح مصر ٤٨، وفيما تقدم ٥٤.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٣، ٤٤.

^٤ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٥-٤٦، وفيما يلي

^٢ دبر أبي هرميس هو الموضع المعروف الآن بشقارة (انظر

آيَةً مِنْ ذَهَبٍ ، وَعِدَّةٌ شَبَالِكٍ مِنْ فِضَّةٍ^١ . وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلَسَمٌ مَانِعٌ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَزَيَّوْا عَلَيْهِ :

« مَاتَ مِصْرَايِمُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَامٍ بَعْدَ أَلْفَيْنِ وَسِتِّ مِائَةِ عَامٍ - وَقِيلَ بَعْدَ سَبْعِ مِائَةِ سَنَةٍ - مَضَتْ مِنَ الطُّوفَانِ ، وَلَمْ يَقْبَدْ الْأَصْنَامُ ، فَصَارَ إِلَى جَنَّةٍ لَا يَزِمُ فِيهَا وَلَا يَنْقَمُ ، وَلَا هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ . وَكُتِبَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا مَلَكٌ يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، يَدِينُ بَيْنَ الْمَلِكِ الدُّنْيَانِ ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَيْتِ وَالْفُرْقَانِ ، وَالتَّيْبِ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ » .

وَسَقَفُوا فَوْقَ الشَّرْبِ بِالصُّخُورِ الْعِظَامِ ، وَهَالُوا عَلَيْهِ الزَّمَالَ حَتَّى سَدُّوا بَيْنَ جَبَلَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ - وَيُقَالُ كَانَ مِصْرُ بْنُ يَحْيَى مَعَ جَدِّ أَبِيهِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الشَّفِيعَةِ ، فَدَعَا لَهُ أَنْ يُشَكِّتَهُ اللَّهُ الْأَرْضَ الطَّيِّبَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ وَغَوْثُ الْعِبَادِ وَنَهْرُهَا أَفْضَلُ الْأَنْهَارِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ فِيهَا أَفْضَلَ الْبَرَكَاتِ ، وَيُسَخِّرَ لَهُ الْأَرْضَ وَلَوْلِيَهُ وَيَذَلِّلَهَا وَيُقَوِّمَهُمْ عَلَيْهَا ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَوَصَفَهَا لَهُ وَأَخْبَرَهُ بِهَا^٢ .

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ حَامٍ قَدْ كَبُرَ وَضَعُفٌ ، فَسَاقَهُ وَلَدُهُ مِصْرَايِمُ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَنَزَلُوهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ^٣ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ قَبْطِيمٌ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْعَجَائِبَ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْمَعَادِينَ ، وَشَقَّ الْأَنْهَارَ ، وَنَصَبَ الْأَعْلَامَ وَالْمَنَازِلَ ، وَعَمِلَ الطُّلُوعَاتِ^٤ .

وَيُقَالُ إِنَّ مِصْرَايِمَ لَمَّا مَاتَ اخْتَلَفَ أَوْلَادُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَ قَبْطُ^٥ أَصْغَرَهُمْ ، فَاجْتَمَعُوا عِنْدَ الْأَقْرَامِ وَزَضُّوا بِأَنْ مِنْ غَلَبَ مِنْهُمْ أَخَاهُ أَخَذَ الْمَلِكُ . فَحَارَبَ أَشْمُومَ وَأَتْرَبَ فَغَلَبَ أَتْرَبَ ، ثُمَّ تَحَارَبَ صَنَا هُوَ وَأَشْمُومُ فَغَلَبَ أَشْمُومُ ، ثُمَّ تَحَارَبَ قَبْطُ^٦ وَصَنَا فَغَلَبَ قَبْطُ^٧ . فَأَخَذَ قَبْطُ^٨ الْمَلِكُ بَعْدَ أَبِيهِ ، وَأَطَاعَهُ إِخْوَتُهُ ، وَسَكَنَ مَدِينَةَ مَثْنٍ دَارَ مَمْلَكَةِ أَبِيهِ ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَدَتْ لَهُ

(٥) يُولَاقُ : قَلْبُ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ - ٤٥ .

^٢ نفسه ٩ .

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨ .

^٤ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٦ .

أربعة أولاد هم : قُطَطْرِيم وَأَشْمُون وَأَتْرِب وَصَا ، فَنَاسَلُوا وَكَثُرُوا وَعَمَرُوا الْبِلَاد .
ثم إنه قَسَمَ الْأَرْضَ بين أولاده الأربعة عند وفاته : فجَعَلَ لَوْلَدِهِ قُطَطْرِيم من أَشْوان إلى قِفْط ،
وجَعَلَ لَوْلَدِهِ أَشْمُون من مَدِينَةِ قِفْط إلى مَدِينَةِ مَثَف ، وجَعَلَ لَوْلَدِهِ أَتْرِب الْخَوْف^١ كُلَّهُ ، وجَعَلَ
لَوْلَدِهِ صَا من نَاحِيَةِ الْبَحِيرَةِ إلى الْعَرَب . وجَعَلَ أَمْرَهُمْ إلى قُطَطْرِيم وَأَمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعَ
لِنَفْسِهِ مَدِينَةً فِي حَيِّزِهِ^٢ .

وجَعَلَ لِنَفْسِهِ سَرْتًا تَحْتَ الْجَبَلِ الْكَبِيرِ وَصَفَّحَهُ بِالْمَرْمَرِ ، وَعَمِلَ فِيهِ مَنَافِدَ لِلرَّيْحِ ، فَصَارَتْ
تَتَخَرَّقُ فِيهِ بِدَوِيِّ عَظِيمٍ ، وَأَقَامَ فِي الشَّرْبِ رُؤُوسًا مِنْ نُحَاسٍ مُطْلِيَةً تُضِيءُ كَالشَّرِجِ لَيْلًا وَنَهَارًا .
ولَمَّا مَاتَ وَضِعَ جَسَدُهُ بِهَذَا الشَّرْبِ فِي مَجْرَنٍ مِنْ ذَهَبٍ ، بَعْدَمَا أَلَيْسَ ثِيَابًا مَشْجُوجَةً بِالْدَرِّ
وَالْمَرْجَانِ ، وَأَقِيمَ عِنْدَ رَأْسِهِ عَمُودٌ مِنْ مَرْمَرٍ عَلَيْهِ مَجُورَةٌ تُضِيءُ ، وَعَمِلَ حَوْلَ الْجُرْنِ قَوَائِمَ مِنْ
حِجَارَةٍ مَلُوءَةً خَوْلَهَا مَصَاحِفُ الْحِكْمَةِ ، وَعَمِلَتْ^٣ عِنْدَهُ أَمْوَالُهُ وَكُنُوزُهُ وَذَخَائِرُهُ ، وَزَيَّنُوا عَلَيْهِ
كَمَا زَيَّنُوا عَلَى أَبِيهِ . وَانْتَقَلَ كُلُّ مِنْ أَوْلَادِهِ إِلَى حَيِّزِهِ ، فَانْتَقَلَ صَا بِأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَسَكَنَ مَدِينَةَ صَا
الْآتِي ذِكْرُهَا^٤ .

وَيُقَالُ كَانَتْ الْبَلْبَلَةُ فِي أَيَّامِ قَيْط^٥ ، وَأَنَّهُ أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى اللُّغَةَ الْقَيْطِيَّةَ ، وَأَنَّهُ أَقَامَ مَلِكًا أَرْبَعَ مِائَةِ
وِثْمَانِينَ سَنَةً وَمَاتَ ، فَذُفِنَ بِأَرْضِ الْوَاحَاتِ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ أَشْمُونُ بْنُ مِصْر^٦ . وَقِيلَ بَلْ أَشْكَنُ فِي حَيَاتِهِ ابْنَهُ قُطَطْرِيمَ فِي حَيِّزِهِ ،
فَشَرَعَ فِي الْعِمَارَةِ ، وَكَانَ جِبَارًا عَظِيمَ الْخَلِيقَةِ ، فَأَنَارَ مِنَ الْمَعَادِنِ مَا لَمْ يَبْزُوهَ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَبَنَى
مَدِينَةً دَنْدَرَةَ ، وَعَمِلَ فِي جَبَلِ قِفْطِ مَنَارًا عَالِيًا يُرَى مِنْهُ الْبَحْرُ الشَّرْقِيُّ ، وَوَجَدَ هُنَاكَ مَعَادِنَ
مِنَ الزُّبَيْقِ ، وَعَمِلَ الْبِرْكَةَ الَّتِي سَمَّاهَا صَيَادَةُ الطَّيْرِ^٧ .

وَأَقَامَ مَلِكًا أَرْبَعَ مِائَةِ وَثْمَانِينَ سَنَةً وَمَاتَ^٨ . وَهَلَكَ عَادُ بِالرَّيْحِ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ ؛ وَفِي أَيَّامِهِ أَثَارَتِ
الشَّيَاطِينُ الْأَضْنَامَ الَّتِي أَغْرَقَهَا الطُّوفَانُ فَجَبَدَتْ .

(a) بولاق : الحرف . (b) بولاق : وضعت . (c) بولاق : قفط .

^١ انظر فيما تقدم ٤٩ وفيما يلي ٥١٤ .

^٢ التويري : نهاية الأرب ٤٦:١٥ وفيما يلي ٥١٤ .

^٣ التويري : نهاية الأرب ٤٦:٥-٤٨-٤٩ بتصرف .

^٤ نفسه ٤٦:١٥ .

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : بَعْدَ مِصْرَ بْنِ يَحْيَى قُفُطَ بْنِ مِصْرَ ، وَأَنَّ الَّذِي مَلَكَ بَعْدَ قُفُطَ أَخُوهُ أَشْشَنَ ، ثُمَّ أَثْرِبَ بْنِ مِصْرَ ، ثُمَّ صَا بْنِ مِصْرَ ، ثُمَّ ابْنَهُ يَدَارِسَ بْنِ صَا ، ثُمَّ ابْنَهُ مَالِيْقَ بْنِ يَدَارِسَ ، ثُمَّ ابْنَهُ خَزَيْمَةَ^(a) بْنِ مَالِيْقَ ، ثُمَّ ابْنَهُ كَلْكَنَ^(b) بْنِ خَزَيْمَةَ^(a) .

وَيَقَالُ إِنَّ أَشْشَنَ لَمَّا مَلَكَ بَعْدَ أَخِيهِ ، سَارَ إِلَيْهِ شَدَّادُ بْنُ هَدَّادٍ بْنِ شَدَّادِ بْنِ عَادٍ وَمَلَكَ أَرْضَ مِصْرَ وَهَدَمَ مَبَانِيهَا ، وَبَنَى أَهْرَامًا^(c) ، وَمَضَى إِلَى مَوْضِعِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فَبَنَاهَا ، وَأَقَامَ ذَهْرًا ثُمَّ خَرَجَتْ الْعَادِيَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، فَعَادَ أَشْشَنَ إِلَى مُلْكِهِ ، وَأَلَّهَ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ صَا ، ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَ صَا ابْنَهُ يَدَارِسَ^(c) ، وَفِي أَهَامِهِ بَقِيَ اللَّهُ صَالِحًا إِلَى قُسُودٍ^(d) .

وَمَاتَ ، فَتَمَلَكَ ابْنَهُ مَالِيْقَ الْبُودَسِيرَ ، وَكَانَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الْعِظَامِ ، عَمِلَ أَكْثَرًا عَظِيمَةً ، مِنْهَا مَنَارٌ فَوْقَهُ قُبَّةٌ لَهَا أَرْبَعَةُ أَزْكَانَ ، فِي كُلِّ رُكْنٍ كُفَّةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ عِنْدَهُمْ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ دُخَانٌ مُلْتَفٍ فِي أَلْوَانٍ سَتَى ، يَسْتَدْلُونَ بِكُلِّ لَوْنٍ عَلَى شَيْءٍ : فَإِنْ خَرَجَ الدُّخَانُ أَخْضَرَ دَلَّ عَلَى الْإِمَارَةِ وَالْحَيْصُوبِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَيْضَ دَلَّ عَلَى الْجَذْبِ وَقِلَّةِ الْحَيْرِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَحْمَرَ دَلَّ عَلَى الْحُرُوبِ وَقَسَدِ الْأَعْدَاءِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَصْفَرَ دَلَّ عَلَى الثَّيْرَانِ وَأَفَاتِ تَحْدُثُ مِنَ الْمَلِكِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسْوَدَ دَلَّ عَلَى الْأَمْطَارِ وَالشَّيُولِ وَقَسَادِ بَعْضِ الْأَرْضِ ، وَإِنْ خَرَجَ مُخْتَلِطًا دَلَّ عَلَى كَثَرَةِ الظُّلَمِ وَبَقِيَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَمِلَ شَجَرَةً مِنْ نُحَاسٍ تَجْذِبُ سَائِرَ الْوُحُوشِ حَتَّى تَصِلَ إِلَيْهَا ، فَلَا تَسْتَطِيعُ الْحَرَكَةَ إِلَى أَنْ تُوْخَذَ ، فَشَبَّحَ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ لُحُومِ الْوُحُوشِ .
وَاتَّفَقَ أَنَّ غُرَابًا نَفَرَ عَنْ صَبْيٍ / مِنْ أَوْلَادِ الْكَهَنَةِ فَقَلَعَهَا ، فَعَمِلَ شَجَرَةً مِنْ نُحَاسٍ عَلَيْهَا غُرَابٌ مَشْشُورٌ الْجَنَاحَيْنِ ، وَفِي بَيْتَارِهِ حَبَّةٌ ، وَعَلَى ظَهْرِهِ أَشْطَرٌ ، فَكَانَتِ الْفِرْيَانُ تَقَعُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَلَا تَبْرَحُ حَتَّى تَمُوتَ .

وَكَانَتِ الرَّمَالُ قَدْ كَثُرَتْ فِي أَهَامِهِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقَرْبِ ، فَعَمِلَ صَنْعًا مِنْ صَوَانٍ أَسْوَدَ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْهُ ، وَفَوْقَ كَيْفِهِ قُبَّةٌ فِيهَا مَسْحَاةٌ ، وَنَقَشَ عَلَى وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ وَفِرْعَانِيَّةَ كِتَابَةٍ ،

(a) بولاق : خرابا . (b) كلكي . (c) بولاق : تدارس .

^٣ انظر فيما يلي ٣٧٩ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩ - ١٠ .

^٢ قارن مع ابن عبد الحكم : فروع ٤٣ .

وَجَعَلَ وَجْهَهُ إِلَى الْغَرْبِ ، فَأُنْكَشَفَتِ الرُّمَالُ ، وَرَجَعَتْ بِهَا الرِّيحُ إِلَى وَزَائِهَا وَصَارَتْ تَلَالًا عَالِيَةً^١.

وَبَقِيَ بِهَؤُلَاءِ الْحَكِيمِ إِلَى جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ النَّيْلُ ، فَعَمِلَ تَمَائِيلُ الثُّعَاسَ ، وَعَدَلَ جَانِبَيْ النَّيْلِ - وَكَانَ قَبْلَهُ يَفِيضُ فِي مَوَاضِعَ وَيَتَقَطَّعُ فِي مَوَاضِعَ - وَسَارَ مُعْرِتًا لِيَنْظُرَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَوَقَعَ عَلَى أَرْضٍ وَاسِعَةٍ يَنْحَرِقُ فِيهَا الْمَاءُ وَالْأَشْجَارُ ، فَبَنَى فِيهَا مَنَازِلًا وَأَقَامَ بِهَا وَحُولَ إِلَيْهَا عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فَعَمَرُوا تِلْكَ التَّوَاحِي حَتَّى صَارَتْ أَرْضُ الْغَرْبِ كُلُّهَا مَقْمُورَةً . ثُمَّ خَالَطَهُمُ الْبُيُوتُزُ ، وَجَزَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرٌ أَقْتَنَّهُمْ ، فَخَرِبَتْ تِلْكَ الْبِلَادُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْوَحَاثُ^٢ .

ثُمَّ إِنَّ الْبُودَسِيرَ اخْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ ، وَصَارَ يُتَرِّزُ وَجْهَهُ مِنْ مَقْعِدِهِ فِي النَّادِرِ ، وَرُبَّمَا خَاطَبَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ^٣ .

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَشْعُودِي فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَحَقَّقَ بِالْكَهَانَةِ وَغَيْرِ الدِّينِ وَغَبَدَ الْكُوَاكِبِ : الْبُودَسِيرُ . وَتَزَعَّمُ الْقِبْطُ أَنَّ الْكُوَاكِبَ كَانَتْ تُخَاطَبُهُ ، وَأَنَّ لَهُ عَجَائِبَ كَثِيرَةً ، مِنْهَا أَنَّهُ اسْتَتَرَ عَنِ النَّاسِ عِدَّةَ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ ، وَكَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ وَقْتُاً بَعْدَ وَقْتٍ مَرَّةً فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَهُوَ وَقْتُ (أ) لِحُلُولِ الشَّمْسِ بُرْجِ الْحَمَلِ ، وَيَدْخُلِ النَّاسُ إِلَيْهِ فَيُخَاطِبُهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَهُ ، فَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَيُحَذِّرُهُمْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، (ب) وَكَانَ يَجْلِسُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِ الشِّتَاءِ فَيُخَاطِبُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ (ج) ثُمَّ يُبَيِّنُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ قُبَّةٍ مَطْلُوبَةٍ بِذَهَبٍ ، فَصَارَ يَجْلِسُ فِي أَغْلَاهَا وَلَهُ وَجْهٌ عَظِيمٌ ، فَيُخَاطِبُهُمْ . (د) وَكَانَ يَجْلِسُ فِي الشُّحَابِ بِوَجْهِهِ آخِرُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ فَأَقَامَ كَذَلِكَ مُدَّةً ثُمَّ غَابَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَرَوْهُ ، وَأَقَامُوا بِرَهَةً بِغَيْرِ مُلْكٍ ، ثُمَّ رَأَوْا صُورَتَهُ فِي هَيْكَلِ الشَّمْسِ عِنْدَ حُلُولِهَا بِرَجِ الْحَمَلِ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقْلِدُوا الْمَلِكَ عَدِيمَ بْنِ قُفْطِيمَ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَمُودُ إِلَيْهِمْ فَفَعَلُوا ذَلِكَ (هـ) .

فَلَمَّا مَاتَ مَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَرْقَلِيمُونُ ، وَكَانَ كَاهِنًا سَاحِرًا ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً (و) مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ فِي الشُّحَابِ فَيَرُونَهُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ عَظِيمٍ ، وَأَقَامَ مُدَّةً عَلَى ذَلِكَ .

(أ) ساقطة من بولاق . (ب-b) ساقطة من بولاق . (ج-c) بولاق : عظيمة

^٣ نفسه ١٥ : ٥١ .

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٩ - ٥١ .

^٢ نفسه ١٥ : ٤٩ .

ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ، ثم رَأَوْا صُورَةَ بِيحْدَاءِ جَزَمِ الشَّمْسِ عند حُلُولِهَا
أَوَّلَ بُرْجِ الحَمَلِ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقْلِدُوا الملكَ عَدِيمَ بنَ قُفْطِيمِ ، وَأَغْلَعَهُمْ أَنَّهُ مَا بَقِيَ يَعودُ إِلَيْهِمْ ^١ .
فَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ ^(هـ) مُلْكُ مِصرَ ^(هـ) عَدِيمَ بنَ قُفْطِيمِ ، وَكَانَ بَجَارًا عَظِيمًا ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَبَ
بِمِصرَ ، وَذَلِكَ أَنَّ امْرَأَةً وَرَجُلًا زَنِيَا فَصَلَبَتْهُمَا ، وَبَجَعَلَ ظَهْرُ كُلِّ مِنْهُمَا لَظْهَرِ الْآخَرِ ^٢ .

وَبَنَى أَرْبَعَ مَدَائِنَ أَوْدَعَهَا كُنُوزًا عَظِيمَةً ، وَبَجَعَلَ عَلَيْهَا طِلْئِمَاتٍ وَعِدَّةَ عَجَائِبَ ، وَعَمِلَ مَنَارًا
عَلَى الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَعَلَيْهِ صَنَمٌ إِلَى الْمَشْرِقِ حَتَّى لَا يَغْلِبَ الْبَحْرُ عَلَى أَرْضِ مِصرَ ، وَعَمِلَ قُنْطَرَةً
عَلَى النَّيْلِ فِي أَرْضِ الثَّوْبَةِ ^٣ . وَأَقَامَ مَلِكًا مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ وَعِمرُهُ سَبْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثُونَ سَنَةً .
وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ شَدَّادُ بنِ عَدِيمٍ - وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ شَدَّادَ بنِ عَادٍ - وَكَانَ عَالِمًا كَاهِنًا
سَاحِرًا ، وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي بَنَى الْأَهْرَامَ الدَّهْشُورِيَّةَ ، وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَظِيمَةً وَطِلْئِمَاتٍ عَجِيبَةً ، وَبَنَى
فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مَدَائِنَ ، وَفِي أَيَّامِهِ بَنِيَتْ قُرُوصٌ ، وَغَزَا الْحَبَشَةَ وَسَبَّاهُمْ ، وَأَقَامَ مَلِكًا تِسْعِينَ سَنَةً ^٤ .
وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْجَوَارِحَ وَصَادَ بِهَا ، وَوُلِدَ الْكِلاَبُ الشَّلُوقِيَّةُ ، وَعَمِلَ فِي بَرْكَةِ شَبُوطَ
تَمَاسِيحَ مَنصُوبَةً تَنصَبُ إِلَيْهَا التَّمَاسِيخُ مِنَ النَّيْلِ انصِبَاتًا فَيَقْتُلُهَا وَيُعَلِّقُ مَجْلُودَهَا فِي الشُّغْنِ ^٥ . وَاتَّفَقَ
أَنَّهُ طَرَدَ صَيْدًا فَكَبَا بِهِ فَرْسُهُ فِي وَهْدَةٍ فَهَلَكَ . وَكَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى بَعْضِ خَدَمِهِ فَرَمَاهُ مِنْ جَبَلٍ
عَالٍ فَتَقَطَّعَ ، فَرَأَى أَنَّهُ يُصِيهِ مِثْلَ ذَلِكَ .

وَلَمَّا هَلَكَ وَضِعَ فِي نَاورُوسَ وَدُفِنَتْ مَعَهُ أَمْوَالُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طِلْئِمٌ يَمْنَعُهُ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ ، وَكُتِبَ
عَلَيْهِ : « لَا يَبْنِي لَدِي الْقُدْرَةَ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْوَاجِبِ ، وَلَا يَفْعَلُ مَا لَا يَجُوزُ لَهُ فِعْلُهُ ، فَيُجَازَى
بِعَمَلِهِ ، هَذَا نَاورُوسُ ابْنُ شَدَّادِ بنِ عَدِيمٍ ، قَتَلَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ فِعْلُهُ ، فَكَوْفِي عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ » ^٦ .
وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَنَقَاوُشُ ، وَكَانَ حَكِيمًا فَاضِلًا كَاهِنًا ، عَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَبَنَى أَشْيَاءَ
مُعْجِبَةً ، مِنْهَا أَنَّهُ عَمِلَ هَيْكَلًا لَصُورِ الْكَوَاكِبِ عَلَى ثَمَانِيَةِ قَرَابِيعَ مِنْ مَثَلٍ ، وَكَثَّرَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا
لَا يُحْصَى ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَادِنِ مَا لَمْ يُفْتَحَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ .

(a-a) سائطة من بولاق .

^١ المسعودي : أخبار الرومان ١٣١-١٣٢ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ٥٧:١٥ وفيما تقدم ٨٦ .

^٣ نفسه ٥٨:١٥ .

^٤ فيما يلي ٦٤٠ .

^٥ النويري : نهاية الأرب ٦١:١٥ ، ٦٢-٦٣ .

^٦ نفسه ٦٣:١٥ .

وسار في الجُتوب يوماً، ثم سار مُقَرَّباً يوماً وبعض آخر، فأنهى في اليوم الثالث إلى جبلٍ أسود، فعجل تحته أسراتها ومغائير، ودَفَنَ فيها أمواله، ووزَرَ عليها حتى إِنَّهُ من كَثُرَتْهَا يُقَالُ إِنَّهُ دَفَنَ حِثْلَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ عَجَلَةٍ ذَهَبًا وِجْوَهر. وأقام أربع سنين يُوسِل في كُلِّ سنة عَجَلًا كثيرة يَدْفنها. وبقيت آثارُ العَجَلِ تُرى في ما بين مَنَف والمُغَرِّب زَمَانًا طويلاً^١.

وَبَنَى مَعِيكَلاَ لِلْقَمَر، ويُقالُ إِنَّهُ هو الذي بَنَى مَدِينَةَ مَنَف لِبَنَاتِهِ، وَكُنَّ ثَلَاثِينَ بَنَاتًا، وَإِنَّهُ أَلَزَمَ النَّاسَ بِعَمَلِ الْكِيمَاء فَكَانُوا لَا يَفْتَرُونَ عَنْ عَمَلِهَا لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، حَتَّى اجْتَمَعَ عِنْدَهُ مَالٌ عَظِيمٌ وَجَوْهَرٌ كَثِيرٌ^٢.

وهو الذي بَنَى مَدِينَةَ عَيْنِ شَفَس، وَقَسَمَ خَرَايجَ مِصرَ أَرْبَاعًا: جَعَلَ الرَّبْعَ لِلْمَلِكِ، وَالرَّابِعَ لِلْجُنْدِ، وَالرَّابِعَ يُنْفَقُ فِي مَصَالِحِ الْأَرْضِ، وَالرَّابِعَ الْوَابِعَ يُدْفَنُ لِحَادِثَةٍ تَحْدُثُ.

وهو الذي قَسَمَ أَرْضَ مِصرَ عَلَى مِائَةِ وَثَلَاثِينَ كُورَةً. وَأَقَامَ مَلِكًا إِحْدَى وَتِسْعِينَ^٣ سَنَةً وَمَاتَ^٤.

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ عَدِيمُ بْنُ مَتَقَاوُش، وَكَانَ جَبَّارًا لَا يُطَاقُ، وَفِي أَيَّامِهِ كَانَ نُزُولُ الْمَلِكِينَ الَّذِينَ يُتَعَلَّمَانِ النَّاسَ الشَّجَرِ، وَالْقَبِيطُ تَزْعُمُ أَنَّهُمَا نَزَلَا بِأَرْضِ مِصرَ ثُمَّ نُقِلَا إِلَى بَابِلَ^٥.

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ مَنَاوُشُ بْنُ مَتَقَاوُش، وَكَانَ عَلِيمًا كَاهِنًا/ فَاضِلًا كَأَيِّهِ^٦، بَنَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةً فِي الْجِبَالِ وَالصَّحَارِي، وَكَثُرَ فِيهَا كُنُوزًا عَظِيمَةً، وَأَقَامَ عَلَيْهَا أَغْلَامًا، وَبَنَى فِي صَخْرَاءِ الْغَرْبِ مَدِينَةً [يُقَالُ لَهَا دِيمَاس]^٧، وَأَقَامَ لَهَا مَنَارَةً، وَكَثُرَ حَوْلُهَا كُنُوزًا عَظِيمَةً، وَجَعَلَ فِيهَا شَجَرَةً تُطْلَعُ كُلُّ لَوْنٍ مِنَ الْفَاكِهَةِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَجَدَ الْبَقَرِ بِمِصرَ.

وَكَانَ يُطْلَبُ الْحِكْمَةُ وَيَسْتَخْرِجُ كُتُبَهَا، وَكَذَا كَانَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ يَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَعْمَلَ لَهُ غَرِيبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ لَمْ تُقْمَلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَتَثَبَّتْ فِي كُتُبِهِمْ، وَتُرِزَتْ عَلَى الْحِجَارَةِ^٨.

وَلَمَّا مَاتَ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ هِرْمِيسُ، وَكَانَ قَلِيلَ الْحِكْمَةِ فَلَمْ يَقْمَلْ شَيْئًا مِمَّا عَمَلَهُ آبَاؤُهُ، وَمَاتَ وَقَدْ أَقَامَ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً^٩.

(a) عند النوري: سبعين. (b) ساقطة من بولاق. (c) إضافة من النوري.

^٤ لم يذكره النوري.

^١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٦٤.

^٥ النوري: نهاية الأرب ٦٧: ١٥ وفيما يلي ٦٤٥.

^٢ نفسه ١٥: ٦٤.

^٦ نفسه ١٥: ٦٩.

^٣ نفسه ١٥: ٦٦ وفيما يلي ٦٦٩.

فَمَلَكَ بَعْدَهُ أَشْمُونُ بْنُ قُطَيْمِ بْنِ مِصْرَ بْنِ يَصْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَ حَيَّرَهُ مِنْ أَشْمُونِ إِلَى مَنَفٍ فِي الْغَرْبِ ، وَحَيَّرَهُ فِي الشَّرْقِ إِلَى حُدِّ الْبَحْرِ الْمِلْحِ مِمَّا يُحَادِثُ بَرْقَةَ ، وَهُوَ آخِرُ حَدِّ مِصْرَ ، وَمِنْ بِلَادِ الصُّعَيْدِ إِلَى مَجْدُودِ إِيْحَمِيمَ ، وَكَانَتْ مَنَزَلُهُ مَدِينَةُ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وَكَانَ طَوْلُهَا اثْنِي عَشَرَ مِيلًا فِي مِثْلِهَا ^١ . وَبَنَى فِي شَرْقِيِّ الثَّلِيلِ مَدِينَةَ أَنْصِينَا ، وَبَنَى بِهَا قَصْرًا عَظِيمًا ، وَاتَّخَذَ بِهَا أُنْبِيَّةً وَمَلَايِبَ وَعَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَبَنَى مَدِينَةَ طَلْهَوَاطِيسَ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لَعِبَ بِالْكُرَةِ وَالصُّوْلَجَانِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ بَنَى مَدِينًا كَثِيرَةً عَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ ، مِنْهَا مَدِينَةٌ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بَابٌ : فَقَالَى الْبَابُ الشَّرْقِيُّ صُورَةُ عُقَابٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الْغَرْبِيِّ صُورَةُ ثُورٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الشَّمَالِيِّ صُورَةُ أَسَدٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الْجَنُوبِيِّ صُورَةُ كَلْبٍ ، وَفِي هَذِهِ الصُّورَةِ رُوحَانِيَاتٌ تَنْطَلِقُ ، فَإِذَا قَدِمَ غَرِيبٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِذْنِ الْمُؤَكِّلِينَ بِهَا ، وَدَقَّقَ تَحْتَ كُلِّ شَكْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْكَالِ الْأَرْبَعَةِ صِنْفًا مِنَ الْكُنُوزِ .

وَعَرَّسَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ شَجَرَةً مُؤَلَّدَةً تُثْمِرُ كُلُّ لَوْحٍ مِنَ الْفَاكِهَةِ ، وَتَصْبُ مَنَارًا طَوْلُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا ، فَوْقَهُ قُبَّةٌ تَكُونُ كُلُّ يَوْمٍ لَوْنًا ، حَتَّى تَمُضِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى اللَّوْنِ الْأَوَّلِ ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْمَدِينَةُ تُكْسَى مِنْ تِلْكَ الْأَلْوَانِ شُعَاعًا مِثْلَ لَوْنِهَا .

وَأَجَزَى حَوْلَ الْمَنَارِ مَاءَ شَقِّهِ مِنَ الثَّلِيلِ ، وَجَعَلَ فِيهِ سَمَكًا مِنْ كُلِّ لَوْحٍ ، وَأَقَامَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ طِلْسُمَاتٍ فِي هَيْئَةِ أَنْاسٍ رُؤُوسَهَا كَالْقِرَدَةِ ، وَأَسْكَنَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الشَّجَرَةَ ^(٢) فَغَرِفَتْ بِمَدِينَةِ الشَّجَرَةِ ^(٣) ، وَكَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهَا أَصْنَافَ الشَّخَرِ .

وَبَنَى بِالْقُرْبِ مِنْهَا مَدِينَةً غَرِفَتْ بِـ [قِمْنَطَر] ^(٤) ذَاتِ الْعَجَائِبِ ^(٥) ، وَبَنَى مَجَالِسَ مُصَفَّحَةً بِرُجَاجٍ مُلَوَّنٍ فِي وَسْطِ الثَّلِيلِ ، وَبَنَى سَرَبًا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ إِلَى أَنْصِينَا .

وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَإِنَّهُ مَلَكَ ثَمَانِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنْ قَوْمٌ عَادَ انْتَزَعُوا مِنْهُ الْمُلْكَ بَعْدَ سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَأَقَامُوا بِمِصْرَ تِسْعِينَ سَنَةً ، فَأَصَابَتْهُمْ وَبَاءٌ خَرَجُوا مِنْهُ إِلَى الدِّيْنَةِ ^(٦) بِطَرِيقِ الْحِجَازِ إِلَى وَادِي الْقَرْيِ ، فَعَادَ أَشْمُونُ بَعْدَ خُرُوجِ الْعَادِيَةِ إِلَى مُلْكِ مِصْرَ ^(٧) .

(٢-٢) ساقطة من بولاق . (ب) زيادة من التويري . (ج) بولاق : المدينة .

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦٩ - ٧٠ . ^٢ نفسه ١٥ : ٧١ وفيما يلي ٦٤٨ .

^٣ نفسه ١٥ : ٧٠ .

وهو أول من عَمِلَ التَّوَرُوزَ بمصر، وفي زَمَانِهِ بُنِيَتْ مَدِينَةُ الْبَهْتَسَا^١.
ولَمَّا مَاتَ جُعِلَ لَهُ نَاوُوسٌ فِي آخِرِ حُدِّ الْأَشْشُورِيِّينَ، وَذُفِنَ فِيهِ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ الْعَظِيمَةُ وَعَجَائِبُهُ
الْكَثِيرَةُ، مِنْهَا أَلْفُ بَرْزِيَّةٍ مِنَ الْعَقَاقِيرِ الْمُدَّرَةِ لِقُتُونِ الْأَعْمَالِ، وَزَيَّرُوا عَلَى نَاوُوسِهِ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ،
وَجُعِلَ عَلَيْهِ طِلْسَمٌ يَمْنَعُهُ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ^٢.

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ صَا، ثُمَّ بَعْدَ صَا ابْنُهُ تَدَارَسَ.
وَقِيلَ مَلَكَ مَسَاقِيوَش، وَكَانَ شَجَاعًا فَاضِلًا، فَاسْتَأْنَفَ الْعِمَارَةَ، وَبَنَى الْقَرْيَ وَنَصَبَ
الْأَعْلَامَ، وَعَمِلَ الْعَجَائِبَ الْهَائِلَةَ، وَبَنَى مَدَائِنَ مِنْهَا مَدِينَةَ إِخْمِيمَ، وَخَوَّلَ الْكَهَنَةَ إِلَيْهَا.
وَأَقَامَ مَلِكًا نَيْفًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فَذُفِنَ فِي الْهَرَمِ الشَّرْقِيِّ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ^٣.

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ^٤، وَكَانَ فَاضِلًا حَازِمًا مُتَعَطِّلًا عِنْدَ أَهْلِ مِصْرَ. وَهُوَ
أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْمَارِشْتَانَ، وَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْمِيدَانَ لِلرِّيَاضَةِ، وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ مَدِينَةُ سَنْتَرِيَّةٍ فِي صَخْرَاءِ
الْوَاهَاتِ^٥. ثُمَّ إِنَّ نِسَاءَهُ تَغَايَرْنَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَتْهُ إِخْدَاهُنَّ بَيْسَكِينَ، فَذُفِنَ فِي نَاوُوسٍ وَمَعَهُ أَمْوَالُهُ،
وَعُمِلَ عَلَيْهِ طِلْسَمٌ يَحْفَظُهُ^٦.

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَرْقُورَةُ، وَكَانَ خَكِيمًا كَاهِنًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ ذَلَّلَ السَّبَاعَ وَزَكَّيَهَا، وَبَنَى
الْمَدْنَ، وَعَمَّرَ الْهَيَاكِلَ، وَأَقَامَ الْأَصْنَامَ.

وَلَمَّا مَاتَ جُعِلَ لَهُ نَاوُوسٌ فِي صَخْرَاءِ الْقَرْبِ، وَذُفِنَ مَعَهُ مَالُهُ^٧.
وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ بِلَاطِسُ، وَكَانَ صَبِيحًا، فَذَبَّحَتْ أُمُّهُ أَفْرَ الْمَلِكِ، وَكَانَتْ حَازِمَةً فَأَجْرَتْ
الْأُمُورَ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، وَأَظْهَرَتْ الْعَدْلَ، وَوَضَعَتْ عَنِ النَّاسِ الْخَرَاجَ فَأَحْبَبُوهَا. وَلَمَّا كَثُرَ
إِبْنُهَا أَحَبُّ الصُّيُدِ، فَقِيلَتْ لَهُ أُمُّهُ أَعْمَالًا عَجِيبَةً، وَأَقَامَ مَلِكًا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَجُدُرَ فَمَاتَ،
وَاتَّقَلَ الْمَلِكُ إِلَى أَعْمَامِهِ^٨.

^١ النويري: نهاية الأرب ٧١:١٥ وفيما يلي ٦٤٥. مصدر هذه المعلومات.

^٢ قارن عبر أشمون عند النويري، نهاية الأرب ٦٣٧. فيما يلي ٦٣٧.

^٣ النويري: نهاية الأرب ٧٢-٦٩:١٥ ومصدره مختصر تاريخ ابن وصيف شاه.

^٤ النويري: نهاية الأرب ٧٢:١٥. نفسه ٧٤:١٥.

^٥ عند النويري (نهاية ٧٢:١٥): ولم يستطع إبراهيم. أي

إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب ابن وصيف شاه -

^٦ نفسه ٧٤:١٥-٧٥.

فَمَلَكَ بَعْدَهُ أَثْرِبَ بْنِ قُطَيْمِ بْنِ مِضْرَامٍ ، وَهُوَ الثَّالِثُ عَشَرَ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ بَعْدَ الطُّلُوفَانِ ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ أَثْرِبَ ^١ ، وَعَاشَ خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ ، مِنْهَا مِئَةٌ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ سَنَةً . وَيُقَالُ إِنَّ الثَّيْلَ وَقَفَ فِي أَيَّامِ أَثْرِبَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، حَتَّى أَكَلَتِ الْبَهَائِمُ بِأَرْضِ مِصْرَ وَلَمْ يَبْقَ بِهَا بَهِيمَةٌ ، وَرُئِيَ أَثْرِبَ مَاشِيًا وَهُوَ يَتَسَطَّ بِذَنِّهِ وَيَقْبِضُهَا مِنَ الْجُوعِ ، وَمَاتَ عَامَّةُ أَهْلِ مِصْرَ جُوعًا ، ثُمَّ أُغِيثُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَكَثُرَ الرُّوحَاءُ ، وَدَامَ مِئَةٌ مِائَتِي سَنَةٍ ، وَيَبِيعُ كُلُّ أَرْدَبٍ بِدَانِقٍ وَأَقْلٍ . وَلَمَّا مَاتَ أَثَرُهُمْ أَخُوهُ صَا بِقَلْبِهِ ، وَحَازَ بِهِ أَهْلُ مِصْرَ تِسْعَ سِنِينَ وَقَتَلُوهُ ^٢ .

فَعَلَكْتَ بَعْدَهُ ابْنَتُهُ ثُدُورَةُ ، وَكَانَتْ كَاهِنَةً سَاحِرَةً ، فَسَاسَتْ الْمَلِكُ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ وَذُبِّرَتْ الْمَمْلَكَةُ ^٣ أَمْجُودَ تَذِيرٍ ، وَعَمِلَتْ طِلْسَمَاتٌ عَجِيبَةٌ ، مِنْهَا يُلْغَمُ مَنَعُ الْوَعْشِ وَالطَّيْرِ أَنْ يَشْرَبَ مِنَ الثَّيْلِ حَتَّى مَاتَ أَكْثَرُهَا غَطْسًا/، وَوَقَعَتْ فِي زَمَانِهَا صَبِيحَةٌ اِزْتَجَمَتْ لَهَا الْأَرْضُ فَهَلَكَتْ ^٤ .

وَمَلَكَ بَعْدَهَا أَخُوهَا فُلَيْمُونَ بْنُ أَثْرِبَ ، وَكَانَ حَكِيمًا فَاضِلًا ، فَبَنَى الْبَيْتَانَ وَعَمِلَ الطِّلْسَمَاتِ . وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ مَدِينَةُ تَيْسِ الْأُولَى ، وَبُنِيَتْ مَدِينَةُ دُمِيَاطَ . وَأَقَامَ مَلِكًا تِسْعِينَ سَنَةً وَمَاتَ فَذُفِنَ فِي نَاؤُوسٍ ^٥ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ فَرْشُونُ ، وَكَانَ فَاضِلًا كَاهِنًا ، بَنَى الْمَدَائِنَ ، وَجَدَّدَ الْهَيَاكِلَ ؛ وَكَانَ حَدَثًا ، فَقَصَّصَهُ بَعْضُ مُلُوكِ حَمِيرَ فِي مَجْمُوعٍ عَظِيمَةٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ^٦ ، وَلَقِيَهُ بِمَدِينَةِ إِيْلَهَ ^٧ وَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى تَفَانَى مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُغْطَمُهُمَا ، وَأَظْهَرَ الْمِضْرِيُّونَ أَشْيَاءَ مِنْ سِخْرِهِمْ فَانْهَزَمَ الْحَمِيرِيُّ فِي طَائِفَةٍ بِسِيرَةٍ ، وَقَتَلَ فَرْشُونُ عَامَّةَ أَصْحَابِهِ وَأَخَذَ مَا كَانَ مَعَهُمْ ، وَعَادَ مُظْفِرًا إِلَى مَدِينَةِ مَنَفٍ . وَعَمِلَ مَنَارًا عَلَى بَحْرِ الْقُلْزُومِ فِي رَأْسِهِ مِرَاةً تَجْذِبُ الْمَرَائِبَ إِلَى الشَّاحِلِ حَتَّى يُؤْخَذَ مِنْهَا مَا هُوَ مُقَرَّرٌ عَلَيْهَا مِنَ الْمَالِ .

وَأَقَامَ مَلِكًا مِائَتِي سَنَةٍ وَسِتِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ فَذُفِنَ فِي نَاؤُوسٍ خَلْفَ الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الشَّرْقِيِّ ، وَعَمِلَ فِيهِ نُجْمَةٌ تَحْتَوِي عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ يَتًّا ، فِي كُلِّ يَتٍّ أَعْمُجُوتَةٌ ، وَذُفِنَ مَعَهُ مَالُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طِلْسَمٌ يَحْفَظُهُ ^٨ .

(a) بولاق : الملك . (b) بولاق : إليهم . (c) بولاق : إليها .

^١ فيما يلي ٤٧٤ .

^٢ نفسه ٧٧: ١٥ - ٧٨ : ١٧٨ وفيما يلي ٤٧٦ .

^٣ نفسه ٧٨: ١٥ - ٧٩ : ٨٠ .

^٤ النويري : نهاية الأرب ٧٥: ١٥ - ٧٧ .

^٥ نفسه ٧٧: ١٥ .

وملك بعده نحو أربعة، وصار الملك إلى صا بن قبطيم، وكان أصغر ولد أبيه وأحبهم إليه^١.

ولما مات ملك بعده ثونية الكاهنة، وكانت ساجرة، فكانت تجلس على سرير من نار، فإذا تحاكم إليها أخذ وكان صادقاً شق تلك النار من غير أن تضره، وإن كان كاذباً أخذته تلك النار، وكانت تتصور كل يوم في صور كثيرة الأشكال.

ثم بنت قصراً واحتجبت فيه، وجعلت في شوره أنابيب من نحاس مجهزة، وكنت على كل أنبوب فتاً من الفتون التي يتحاكم الناس بها إليها، فكان من أتاها في محاسنة وقف عند الأنبوب الذي فيه محاسنته، وتكلم بما يريد، وسأل عنه بصوت خفي، فإذا فرغ جعل أذنه في الأنبوب فيأتيه منه جواب ما سأل. ولم يزل هذا القصر والأنابيب حتى أثلفه بُحث نصر.

وملك بعدها مرقونس، وكان فاضلاً حكيماً، وكانت أمه بنت ملك الثوبة، فعملت عجائب، وصنع في أيامه كل غريبة. وملك ثلاثاً وسبعين سنة، ومات وعمره مائتان وأربعون سنة.

فملك بعده ابنه أنساد^٢، وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكان بجازاً طمّاح العزم، فانتزى امرأة أبيه، وانكشف أمره معها، وكان أكبر همه اللهو واللعب، فجمع كل ملة في مملكته، ورفض العلوم، وأهمل أمر الهياكل والكهنة، وترك النظر في أحوال الناس، وبني قصوراً على النيل لينتزه فيها، وأثلف أكثر الأموال في اللعب؛ فكرهه الناس وكرههم، إلى أن سقوه فمات عن مائة وعشرين سنة^٣.

وملك بعده ابنه صا، ويقال إن صا هو بن مرقونس، وهو أخو أنساد. ولما ملك سكن منف، ووعد الناس بخير، وملك الأحياز كلها، وعمل بها عجائب وطلسمات، ورد الكهنة إلى مراتبهم، ونفى الملهم وأهل الشر، ونصب العقاب الذي عمله أبوه وشرف هيكله ودعا إليه، وبني بداخل الواحات مدينة، ونصب قوس البحر أعلاماً كثيرة، وجعل على الأطراف أصحاب أخبار يوقعون إليه ما يجري في حدودهم، وعمل على حافتي النيل منابر يوقد عليهم إذا حزّتهم

(١) الأصل ويولاق: إيسار والليت من النوري وليت.

أَفْرُو أَوْ قَصَدَهُمْ أَحَدًا، وَجَعَلَ بِحَافَتِي بَحْرَ الْمِلْحِ مَنَازِلًا يُقَلِّمُ بِهِ أَفْرُو الْبَحْرِ. وَيُقَالُ إِنَّهُ بَنَى أَكْثَرَ مَدِينَةِ مِثْنَفٍ وَكُلَّ بُيُوتَانِ عَظِيمٍ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ.

وَكَانَ لَمَّا مَلَكَ الْبَلَدَ بِأَسْرِهِ جَمَعَ الْحُكَمَاءَ وَنَظَرَ فِي الشُّجُومِ، وَكَانَ بِهَا حَاضِرًا، فَرَأَى أَنَّ مِصْرَ لَا بُدَّ أَنْ تَفْرُقَ مِنْ نِيلِهَا، وَأَنَّهَا تَخُوبُ عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ، فَجَمَعَ كُلَّ فَاعِلٍ بِمِصْرَ، وَبَنَى مَدِينَةً فِي الْوَادِحِ الْأَقْصَى.

وَقَصَدَهُ مِلْكُ الْإِفْرِيخَةِ وَمَلَكَ مِنْهُ مَدِينَةَ مِثْنَفٍ، وَقَدِمَ مَعَهُ أَلْفُ مَرْكَبٍ، وَهَدَمَ أَكْثَرَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَدَخَلَ إِلَى الثَّيْلِ مِنْ رَشِيدٍ حَتَّى أَخَذَ مِثْنَفَ، وَفَرَّ مِنْهُ صَا إِلَى الْمَدَائِنِ الدَّخِيلَةِ، وَتَحَصَّنَ بِهَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَانْتَقَتِ بِالطُّلُوسَاتِ أَهْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ، وَعَادَ عَدُوُّهُ مُلْهَزِمًا، وَرَجَعَ إِلَى مِثْنَفٍ فَتَتَبَعَ الْكَهَنَةَ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ كَثِيرًا. وَأَقَامَ مَلِكًا سَبْعًا وَسِتِينَ سَنَةً، وَعَاشَ مِائَةً وَسَبْعِينَ سَنَةً.^١

وَمَلَكَ ابْنُهُ تُدَارِسُ^(a)، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْأَخْيَازِ كُلِّهَا، وَصَفَا لَهُ مِثْلُكَ مِصْرَ، وَكَانَ مُخْتَكِمًا^(b) مُجَرَّبًا ذَا أَثْبَدٍ وَقُوَّةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْأُمُورِ، فَأَظْهَرَ الْعَدْلَ، وَأَقَامَ الْهَيَاكِلَ وَأَهْلَهَا قِيَامًا حَسَنًا، وَبَنَى بَيْتًا لِلزُّهْرَةِ، وَخَفَرَ خَلِيجَ سَخَا. وَحَارَبَ بَعْضَ عَمَالِقَةِ الشَّامِ، وَدَخَلَ إِلَى فِلَسْطِينَ، وَقَتَلَ بِهَا خَلْقًا وَسَبَى بَعْضَ أَهْلِهَا إِلَى مِصْرَ، وَغَزَا الشُّودَانَ مِنَ الرُّنَجِ وَالْحَبَشَةِ، وَوَجَّهَ فِي الثَّيْلِ بِلَاثَ مِائَةِ سَفِينَةٍ فَلَقِيَ الشُّودَانَ - وَكَانُوا زُهَاءً أَلْفَ أَلْفٍ - فَهَزَمَهُمْ وَقَتَلَ أَكْثَرَهُمْ، وَأَسَرَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَسَاقَ الْبَيْتَةَ وَالشُّمُورَ إِلَى مِصْرَ. وَغِيلَ عَلَى مُحَدُودٍ بَلَدِهِ مَنَازِلَ زَبَرَ عَلَيْهَا اسْمُهُ وَمَسِيرَهُ وَطَفَرَهُ. وَفِي أَهْلَامِهِ بَنَتْ إِلَهُ نَبِيَّهُ صَالِحًا إِلَى ثَمُودَ.^٢

وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الثُّوبَةَ حَيْثُ هِيَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَوْغَلَ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَقَتَلَ أُمَّةَ الشُّودَانَ، وَجَدَ فِيهِمْ أُمَّةً تَقْرَأُ صُحُفَ آدَمَ وَشَيْثَ وَإِذْرِيسَ، فَمَرَّ عَلَيْهَا وَأَنْزَلَهَا عَلَى نَحْوِ مِنْ شَهْرٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَشَبَّوْا الثُّوبَةَ، وَمَاتَ بِمِثْنَفَ.^٣

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَالِيْقُ، وَكَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا حَسَنَ الْوُجْهِ^(c) مُجَرَّبًا، مُخَالِفًا لِأَبِيهِ وَأَهْلِ مِصْرَ فِي عِبَادَةِ الْكُؤَاكِبِ وَالْبُتُورِ.

(a) بولاق : لدراس . (b) بولاق : محتكما . (c) بولاق : الصورة .

^١ التوري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٨ - ٩٣ . ^٢ التوري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٣ - ٩٤ ، وانظر عن

^٣ فيما تقدم ٣٧١ . ^٤ النوبة فيما يلي ٥١٧ - ٥٢٦ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا عَلَى دِينِ أَجْدَادِهِ / فُطَيْمٍ وَمِضْرَامٍ ، وَكَانَتِ الْقَيْطُ تَدْعُهُ لذلِكَ . وَأَمَرَ
النَّاسَ بِاتِّخَاذِ كُلِّ فَاوِهِ مِنَ الْخَيْلِ ، وَاقْتَنَى السَّلَاحَ ، وَآلَةً^(٥) الْأَسْفَارِ ، وَأَنْشَأَ فِي بَحْرِ الْمَغْرِبِ مَائِي
سَفِينَةً ، وَخَرَجَ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَلَقِيَ^(٦) الْبَرْزَ فَهَزَمَهُمْ وَاسْتَأْصَلَ أَكْثَرَهُمْ . وَبَلَغَ
إِفْرِيقِيَّةً ، وَسَارَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ يُرِيدُ الْإِفْرِيقِيَّةَ ، فَلَمْ يَمُزْ بِأُمَّةٍ إِلَّا أَبَاذَهَا ، فَحَشَدَ لَهُ مَلِكُ الْإِفْرِيقِيَّةِ وَحَارَبَهُ
شَهْرًا ، ثُمَّ طَلَبَ صَلَاحَهُ وَأَهْدَى إِلَيْهِ ، فَسَارَ عَنْهُ وَدَوَّخَ الْأُمَمَ الْمُتَّصِلَةَ بِالْبَحْرِ الْأَخْضَرِ .

وَالْقَيْطُ تَذْكُرُ أَنَّهُ رَأَى سَبْعِينَ أَعْجُوبَةً ، وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَلَى الْبَحْرِ وَزَيَّرَ عَلَيْهَا اسْمَهُ وَمَسِيرَهُ ،
وَعَرَّوَتْ مُدَنَ الْبَرْزِ ، وَرَجَعَ فَتَلَقَّاهُ أَهْلُ مِصْرَ بِأَصْنَافِ الرِّمَاحِينَ وَأَنْوَاعِ اللَّهْوِ ، وَفَرِشَتْ لَهُ
الطَّرِيقَاتِ . فَهَاتَهُ الْمُلُوكُ وَحَمَلُوا إِلَيْهِ الْهَدَايَا . وَمَا زَالَ مُوَحِّدًا حَتَّى مَاتَ^(٧) .

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ خَرْبِثًا^(٨) ، وَكَانَ لَيْثًا سَهْلَ الْخَلْقِ ، قَدْ عَرَفَهُ أَبُوهُ التَّوْحِيدَ وَنَهَاهُ عَنْ عِبَادَةِ
الْأَصْنَامِ ، فَوَجَعَ عَنْ ذلِكَ بَعْدَهُ إِلَى دِينِ قَوْمِهِ .

وَعَزَا الْهِنْدَ وَالشُّوْدَانَ بَعْدَ مَا عَمِلَ مَائَةً سَفِينَةً عَلَى عَمَلِ^(٩) شُغْنِ الْهِنْدِ ، وَتَجَهَّزَ وَحَمِلَ مَعَهُ
امْرَأَتَهُ وَوُجُوهَ أَصْحَابِهِ ، وَاسْتَخْلَفَ ابْنَهُ كَلْكَنَ^(١٠) عَلَى مِصْرَ - وَكَانَ صَبِيًّا - وَجَعَلَ مَعَهُ وَزِيرًا
كَاهِنًا . فَمَرَّ عَلَى سَاحِلِ الْيَمَنِ وَعَاتَ فِي مَدَائِنِهِ ، وَبَلَغَ سَرَنْدِيبَ وَأَوْقَعَ بِأَهْلِهَا ، وَبَلَغَ جَزِيرَةَ بَيْنَ
الْهِنْدِ وَالصِّينِ فَأَذْعَنَ لَهُ أَهْلُهَا ، وَتَنَقَّلَ فِي تِلْكَ الْجَزَائِرِ سَنِينَ .

فَيُقَالُ إِنَّهُ أَقَامَ فِي سَفَرِهِ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَرَجَعَ غَائِمًا ، فَهَاتَهُ الْمُلُوكُ . وَبَنَى عِدَّةَ حَيَاكِلَ وَأَقَامَ بِهَا
الْأَصْنَامَ لِلْكَوَائِبِ . ثُمَّ عَزَا نَوَاحِي الشَّامِ فَأَطَاعَهُ أَهْلُهُ ، وَرَجَعَ فَعَزَا الثُّوْبَةَ وَالشُّوْدَانَ ، وَضَرَبَ
عَلَيْهِمْ خَرَابًا يَحْمِلُونَهُ إِلَيْهِ ، وَزَفَعَ أَقْدَارَ الْكَهَنَةِ وَمَصَاحِفِهِمْ . وَكَانَ يَرَى أَنَّ هَذَا الطَّرْفَ بِمَعُونَةِ
الْكَوَائِبِ لَهُ ؛ وَمَاتَ وَقَدْ مَلَكَ خَمْسًا وَسَبْعِينَ سَنَةً^(١١) .

فَقَامَ ابْنُهُ كَلْكَنَ^(١٢) ، وَعَقِدَ لَهُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ فَأَقَامَ بِهَا شَهْرًا ، ثُمَّ قَدِمَ إِلَى مَثَفَ . وَكَانَ
أَصْنَامِيًّا ، فَشَرُّهُ بِه أَهْلُ مِصْرَ ، وَكَانَ يُحِبُّ الْحِكْمَةَ وَإِظْهَارَ الْعَجَائِبِ ، وَيُقَرِّبُ أَهْلَهَا وَيُجِيرُهُمْ ،
وَعَمِلَ الْكِيمِيَاءَ ، وَخَزَنَ أَثْوَالًا عَظِيمَةً بِصَحَارَى الْمَغْرِبِ .

(a) يولاي : وأكبر . (b) يولاي : وأبي . (c) يولاي : خرابا . (d) يولاي : شكل . (e) يولاي : كلكلي .

وهو أَوَّلُ من أَظْهَرَ عِلْمَ الكِيمِيَاءِ بِمِصْرَ، وَكَانَ عِلْمُهَا مَكْتُومًا، وَكَانَ مِنْ تَقَدُّمِهِ مِنَ الْمُلُوكِ أَمَرُوا بِتَرْكِ صَنَعَتِهَا، فَعَمِلَهَا كُلُّكُنْ وَمَلَأَ دُورَ الْحِكْمَةِ مِنْهَا حَتَّى لَمْ يَكُنِ الذَّهَبُ فِي زَمَنِ بِمِصْرَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي وَفْقِهِ، وَلَا الْخِرَاجَ، لِأَنَّهُ كَانَ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ مِثْقَالًا، فَاسْتَعْتَمُوا عَنْ إِثَارَةِ الْمَعَادِنِ.

- وَعَمِلَ أَيْضًا مِنَ الْحِجَارَةِ الْمُلَوَّنَةِ الَّتِي تَشِبُّ شَيْئًا كَثِيرًا، وَعَمِلَ مِنَ الْفَيُوزِ وَجِ غَيْرِهِ أَشْيَاءَ وَاخْتَرَعَ أُمُورًا تَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْعَقْلِ حَتَّى سَمَّى حَكِيمَ الْمُلُوكِ، وَغَلَبَ جَمِيعَ الْكَهَنَةِ فِي غُلُوبِهِمْ، وَكَانَ يُخَيِّرُهُمْ بِمَا يَنْفِي عَنْهُمْ.

- وَكَانَ تَمْرُودُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي وَفْقِهِ، فَاتَّصَلَ بِتَمْرُودَ خَبِيرَ حِكْمَتِهِ وَسِخْرِيهِ فَاسْتَرْازَهُ. وَكَانَ الثَّعْرُودُ جَبَّارًا مُشَوِّهَ الْخَلْقِ، يَسْكُنُ السَّوَادَ مِنَ الْعِرَاقِ، وَأَنَاءَهُ اللَّهُ قُوَّةً وَقُدْرَةً وَبَطْشًا فَغَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ. فَتَقُولُ الْقَيْطُ إِنَّ الثَّعْرُودَ لَمَّا اسْتَرْازَ كُلُّكُنْ^(أ)، وَجَّهَ إِلَيْهِ أَنْ يُلْقَاهُ بِمَوْضِعٍ كَذَا، فَسَارَ إِلَى الْمَوْضِعِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَفْرَاسٍ تَحْمِلُهُ ذَوَاتُ أُجْنِيحَةٍ، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ نَوْرٌ كَالنَّارِ، وَخَوَّلَهُ صُورَةَ هَائِلَةٍ وَقَدْ خُيِّلَ بِهَا، وَهُوَ مُتَوَسِّحٌ بِثُغْيَانٍ مُتَحَرِّمٍ يَبْغِضُهُ، وَقَدْ فَعَّرَ فَاهُ، وَهُوَ يَضْرِبُهُ بِقَضِيبِ آسٍ أَحْضَرَ^(ب)، فَلَمَّا رَأَى الثَّعْرُودُ هَالَهُ، وَأَقْرَأَ لَهُ بِجَلِيلِ الْحِكْمَةِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا لَهُ.

- وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَزِفُّعُ وَيَجْلِسُ عَلَى الْهَرَمِ الْقَرْيَبِ فِي قُبَّةٍ تَلُوحُ عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ الْبَلَدِ أَقْرَأَ اجْتَمَعُوا حَوْلَ الْهَرَمِ، فَيَقِيمُ أَثَامًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ.

- ثُمَّ اسْتَرْتِ مِلَّةً حَتَّى تَوَهَّمُوا أَنَّهُ هَلَكَ، فَطَمِعَ فِيهِ الْمُلُوكُ وَقَصَدَهُ مَلِكٌ مِنَ الْقُرْبِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ حَتَّى قَدِمَ وَادِي هَبِيبَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى جَلَّلَهُمْ مِنْ سِخْرِيهِ بِشَيْءٍ كَالْعِمَامِ شَدِيدِ الْحَرِّ، فَأَقَامُوا تَحْتَهُ أَثَامًا مُتَحَرِّينَ، ثُمَّ طَارَ إِلَى مِصْرَ وَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ إِلَى الْجَيْشِ، فَوَجَدُوهُمْ قَدْ مَاتُوا هَمَّ وَذَوَاهُمُ، فَهَابَهُ الْكَهَنَةُ مَهَابَةً لَمْ يَهَابُوهَا أَحَدًا قَبْلَهُ.

- وَعُمِّرَ طَوِيلًا، وَغَابَ فَلَمْ يُقَالَمْ خَبَرُهُ^١.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: إِنَّ كُلُّكُنْ^(أ) بَنُ خُرَيْقًا^(ب) مَلِكُهُمْ نَحْوَ مِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ مَاتَ وَلَا وَلَدَ لَهُ، فَتَمَلَّكَ أَخُوهُ مَالِيَا بَنُ خُرَيْقًا^(ب)^٢.

(أ) بولاق : كلكلي . (ب) ساقطة من بولاق . (ج) بولاق : خرابا .

^٢ ابن عبد الحكم : فوج مصر ١٠.

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠١ - ١٠٣.

قال ابن وصيف شاه : وقام أخوه ماليا ، وكان شريها كثير الأكل والشرب ، مُنْقَرِدا بالرفاهية ، غير ناظر في شيء من الحكمة ، ويجعل أمر البلد إلى وزيره ، واشتغل بالنساء ، وكان له من النساء ثمانون امرأة ، فهجم عليه ابنه طوطيس ، وهو سكران ، فقتله ، وقتل امرأة كانت عنده ^١.

ومتلك بعده ابنه طوطيس - ويقال إنه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن جحثير بن سبتا بن يثسجب بن يقرب بن قحطان - ويقال الوليد بن الرثان - وأنه أخذ فرائعة مصر من ولد دان بن فهلوج بن إتراز بن أشود بن سام بن نوح ، وقيل فرائعة مصر من ولد عتلاق الأول ابن لاود بن سام بن نوح - وكان بجازا جريقا شديد التأس مهيبا . والقيبط تزعم أنه أول الفرائعة بمصر ، وهو فزوعون إبراهيم - عليه السلام - ويقال إن الفرائعة سبعة هو أولهم ^٢.

وحفر نهرًا في شرقي مصر بسفح الجبل ، حتى ينتهي إلى مرفأ الشفن في البحر الملح ، وكان يحمل إلى هاجر - أم إسماعيل التي أعطاها إبراهيم عليه السلام - الحنطة وأصناف الغلات ، فتصل إلى مجدة ، فأحیی بلد الحجاز مدة . ويقال إن كل ما حليت به الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر ، ولكثرة ما حمل إلى الحجاز سحنته القرب من جزهم / الصادوق ^٣.

وفي كتاب مروشوش أن سلطان المصريين في زمن إبراهيم الخليل - عليه السلام - كان بأيدي قوم يدعون بيني فاليق بن دارش ^٤، ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة ^٥.

وقال ابن إسحاق عن بعضهم : إن فرائعة مصر من ولد دان بن فهلوج بن إتراز بن أشود بن سام بن نوح . قال : والمشهور إنهم من العماليق ، منهم الرثان بن الوليد - ويقال الوليد بن الرثان - فزوعون يوسف ، والوليد بن مضعب فزوعون موسى ، ومنهم سنان بن علوان ^٦.

قال ابن وصيف شاه : وإنما قيل له فزوعون لأنه أكثر القتل ، ولم يُرزق غير ابنة ، وكانت عاقلة ، فصاغت لكثرة قتله الناس ، فقتلته بسهم ، وله في الملك مائة وسبعون سنة ^٧.

(٨) في ترجمة هروشوش : مالي بن دارش .

^٣ انظر فيما يلي ١٤٠:٢ .

^٤ أوريوس : تاريخ العالم ٩٢ .

^٥ انظر فيما يلي ٦٥٥ .

^٦ النوري : نهاية الأرب ١٠٦:١٥ ، وانظر فيما تقدم

^١ النوري : نهاية الأرب ١٠٣:١٥ ، وينص المقرئ على اجلاء من هذا الخبر على النقل عن ابن وصيف شاه ، رغم أن كل المعلومات المتقدمة - فيما عدا الخبر القصير المنقول عن ابن عبد الحكم - مصدره ابن وصيف شاه .

وَمَلَكَتْ بَعْدَهُ حُورِيَا^(a)، فَوَعَدَتْ النَّاسَ بِالْإِحْسَانِ، وَجَمَعَتِ الْأَمْوَالَ، وَقَدَّمَتِ الْكَهَنَةَ وَأَهْلَ الْحِكْمَةِ وَرُؤَسَاءَ الشَّجَرَةِ، وَزَفَعَتْ أَقْدَارَهُمْ، وَجَدَّدَتِ الْهَيْكَلَ؛ وَصَارَ مِنْ لَمْ يَرْضَها إِلَى مَدِينَةِ أَثْرِبَ، وَمَلَكَوا رَجُلًا مِنْ وَلَدِ أَثْرِبَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُهُ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^١.

وَحُورِيَا^(a) أَوَّلُ امْرَأَةٍ مَلَكَتْ مِصْرَ مِنْ وَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَاتَتْ^٢. فَمَلَكَتْ بَعْدَهَا ابْنَةُ عَمِّهَا ذُلَيْفَةُ^(b) بِنْتُ مَأْمُومٍ، وَكَانَتْ عَفْرَاءَ عَاقِلَةٍ، فَوَعَدَتْ النَّاسَ بِالْجَمِيلِ. وَقَامَ عَلَيْهَا أَيْمَنُ^(c) الْأَثْرِبِيِّ، وَاسْتَنْصَرَ بِمَلِكِ الْعَمَالِقَةِ، فَسَيَّرَ مَعَهُ قَائِدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيْهِ جَيْشًا فَالْتَقَوْا بِالْعَرِيشِ وَاقْتَتَلُوا حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ انْهَزَمَ أَصْحَابُ ذُلَيْفَةَ^(b) إِلَى مِثْثٍ، وَهُمْ فِي أَقْفَيْتِهِمْ.

فَخَرَجَتْ ذُلَيْفَةُ^(b) إِلَى الصُّعِيدِ، وَنَزَلَتْ الْأَشْمُونِيِّينَ، فَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَسَاكِرِ الْعَمَالِقَةِ حُرُوبٌ انْهَزَمُوا فِيهَا، وَخَرَجُوا عَنْ مِثْثٍ بَعْدَ مَا عَاشُوا فِيهَا، وَعَدُّوا إِلَى الْخَوْفِ فَاثْتَنَعُوا بِهِ، وَصَارَتْ مِصْرَ بَيْنَهُمْ يَضْفَيْنَ.

ثُمَّ إِنَّ ذُلَيْفَةَ^(b) عَاوَدَتْ الْحَرْبَ، فَاسْتَعْمَرَتْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى انْهَزَمَتْ إِلَى قُوصٍ وَأَيْمَنُ خَلَفَهَا، فَلَمَّا أَتَيْتَتْ أَنَّهَا تُؤْخَذُ سَمَتْ نَفْسَهَا فَهَلَكَتْ^٣.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: ثُمَّ تَوَفَّى طُوطِيسُ بْنُ مَالِيَا، فَاسْتُخْلِفَتْ ابْنَتُهُ حُورِيَا^(a) ابْنَةُ طُوطِيسٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ غَيْرُهَا، ثُمَّ تَوَفَّيَتْ حُورِيَا^(a)، فَاسْتُخْلِفَتْ ابْنَةُ عَمِّهَا ذُلَيْفَةُ^(b) ابْنَةُ مَأْمُومٍ بْنُ مَالِيَا، فَفُتِمَتْ دَفْرًا طَوِيلًا. وَكَثُرُوا وَنَمَوْا، وَمَلَأُوا أَرْضَ مِصْرَ كُلِّهَا، فَطَبِعَتْ فِيهِمُ الْعَمَالِقَةُ، فَغَزَاهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَعٍ فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا عَظِيمًا، ثُمَّ رَضُوا أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَمَلَكَهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، فَطَغَى وَتَكَبَّرَ وَأَظْهَرَ الْفَاجِشَةَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَيْبًا فَافْتَرَسَهُ وَأَكَلَ لَحْمَهُ^٤.

وَالَّذِي مَلَكَ مِصْرَ مِنَ الْفَرَايَةِ خَمْسَةَ.

وَمَلَكَ أَيْمَنُ^(d) وَتَجَبَّرَ، وَقَتَلَ خَلْقًا مِمَّنْ حَازَرَهُ. وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَعٍ الْعَقْلِي فِي قَدْرِ خُرَجٍ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَبَعَثَ غُلَامًا يُقَالُ لَهُ يُزْعُونُ إِلَى مِصْرَ فَفَتَحَهَا، ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَهُ وَاسْتَبَاحَ أَهْلَ مِصْرَ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ لِيَقِفَ عَلَى مَصَبِّ النِّيلِ فَرَأَى بِجَبَلِ الْقَمَرِ، وَأَقَامَ فِي غَيْبَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً

(a) بولاق : جوريا . (b) بولاق : زلفي . (c) بولاق : مأوم . (d) بولاق : أيمَن .

^١ سيأتي هذا الخبر فيما يلي ٣٩٦-٣٩٧.

^٢ بعد ذلك عند النوري : يطلب بأمر خاله انطاحس .

^٣ النوري : نهاية ١٠٧ : ١١٣ .

^٤ النوري : نهاية ١٠٧ : ١١٣ .

إن حوريا هذه يقصد بها الملكة المصرية حتشبست ١

ورجع إلى مصر ، وقد خالفه فزغون وقومه ، فاشتقيد أهل مصر وملكتهم مائة وعشرين سنة حتى هلك^١.

وملك ابنه الوثان بن الوليد بن دؤمغ ؛ أخذ العماليقة ، وكان أقوى أهل الأرض في زمانه وأعظمهم ملكاً . والعماليقة ولد ععليق بن لاود بن سام بن نوح ، وهو فزغون يوسف - عليه السلام - والقبط تسميه نهراوش^٢.

وقيل فزغون يوسف اسمه الوثان بن الوليد بن ليث بن فاران بن عمرو بن ععليق بن بلقع بن عابر بن أشليخا بن لود بن سام بن نوح^٣. وقيل فزغون يوسف هو جد فزغون موسى أبو أبيه ، واسمه يهوخو^٤ ، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلاً ، فوعد الناس الجميل ، وأشقط عنهم الخراج ثلاث سنين ، وفوق المال فيهم .

وملك رجلاً من أهل بيته يقال له أطفين^٥ ، وهو الذي يقال له العزيز ، وكان عاقلاً أدبياً مستقيماً للعدل والعمارة ، فأمر أن ينصب له سرير من فضة في قصر الملك يجلس عليه ، ويخرج وجميع الكتاب والوزراء بين يديه ، فكفى نهراوش ما خلف ستره ، وقام بجميع أموره ، وخلاه للذاته . فأقام على قصفه مدة - والبلد عابر - فقصدته رجل من العماليقة ، وسار إلى مصر في مجبوشه ، فخرج إليه وقاتله وهزموه وسار خلفه ، ودخل الشام وعاث هنالك ، فهابته الملوك ولاطفته .

وقيل إنه بلغ المؤصل ، وضرب على أهل الشام خراجاً . وخرج لغزو بلاد المغرب في تسع مائة ألف ، ومز بأرض البزور وجلاً كثيراً منهم ، ومز إلى البحر الأخضر ، وسار إلى الجنوب فقديم الثوبة ، وعاد إلى مدينة منف^٦ . وكان من خبث يوسف معه ما ذكر عند ذكر الفيرم^٧.

^١ ابن عبد الحكم : فروع مصر ١٢ .

^٢ أضاف النوري : وقيل في اسمه قطفير وقيل : قوطيفر ، وانظر فيما يلي ٦٥٥ .

^٣ فاران النوري : نهاية ١١٣ : ١١٥ - ١١٥ .

^٤ فيما يلي ٦٥٥ .

^٥ النوري : نهاية ١٢٠ : ١٢١ .

^٦ عند النوري : والقبط تسميه نهراوش ، وفيما يلي ٦٦٠ - ٦٥٥ .

وملك بعده ابنه دريموس ، ويُقال له دارم بن الرمان ، وهو الفروعون الرابع ، فخالف سنة أبيه ، وكان يوسف خليفته فيقبل منه تارة ويخالفه تارة ، وظهر في أيامه معدن فضة فأنار^١ منه شيئا عظيما^٢ .

وفي أيامه مات يوسف - عليه السلام - فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس وأخذ أموالهم^٣ ، فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما . ثم زاد في العجوى حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة عنف من أهلها ، فكان لا يستمع بأمرأة حشنة في موضع إلا وجه إليها فحملت إليه ، فاضطرب الناس ، وشغبوا عليه ، وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق ، فعدا عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعهم ، فبرز لهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين وأنفق فيهم مالا ، فسكنوا^٤ .

وفي أيامه ثار القبط على بني إسرائيل ، وطلبوا/ من الوزير أن يخرجهم من مصر ، فما زال بهم حتى أمسكوا .

وبلغ الملك ذلك ، وكان قد خرج إلى الصعيد ، فتروعد أهل مصر ، فشغبوا عليه وحشدوا له ، فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا ، وظفر بمن بقي فقتلهم وصلبهم على حافتي النيل ، وعاد إلى أعظم ما كان عليه من أخذ الأموال والنساء واستخدام أشراف القبط وبني إسرائيل ، فأجمع الكل على دمه ، فركب النيل للثرمة وثار به ريح عاصف ففرق ، فلم يوجد إلا ناحية شطوف ، وقيل فيما بين طرا وحلوان^٥ .

فقدّم الوزير ابنه معاديوس^٦ - وكان صبيا ، ويقال له معدان - فأسقط عن الناس ما أسقطه أبوه من الخراج ، ووعد بالإحسان فاستقام له الأمر ، وردّ نساء الناس ، وهو خامس القراعة . وحادث في زمانه طوفان مصر ، وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام ، فأوردوا ناحية عن البلد بحيث لا يختلط بهم غيرهم ، وأقطعوا موطعا في قبلي عنف فاجتمعوا فيه وبنوا فيه مقبلا . وغلب بعض الكنعانيين على الشام ، ومنع من الضريبة التي كانت على أهل الشام ملك مصر ،

(a) النوري : فأبان . (b) بلاق : معاويوس .

^١ النوري : نهاية ١٧٢:١٥ وفيما يلي ٦٦٢ .

^٢ النوري : نهاية ١٢٨:١٥ - ١٢٩ .

^٣ هو بلاطس بن منسا الكاهن (النوري : نهاية

^٤ النوري : نهاية الأرب ١٢٩:١٥ - ١٣٠ .

فاجتمع الناس إلى مغدان ، وحثوه على المسير لحربه ، فامتنع عن المسير ولزم الهيكَل - فزعَموا أنه قام في هَيْكَل زُحَل للعبادة ، فتجلى له زُحَل وعاطبه وقال له : قد جعلتك زُباً على أهل بَلَدِكَ ، وحبوتك بالقُدرة عليهم وعلى غيرهم ، وسأرفَعُكَ إلى فلا تُخَلَّ من ذِكْرِي .
فقطم عند نفسه وتَجَبَّر ، وأمر الناس أن يُسموه زُباً ، وترفع عن أن يُنظر في شيء من أمر الملك ، ويجعل عليه ابنه أُنَسَامُس^١ .

فقام ابنه أُنَسَامُس في الملك - ويقال كاسيم بن مغدان - فرتب الناس مراتب ، وقسم الكور والأعمال ، وأمر باستنباط العمارات وإظهار الصناعات ، ووسع على الناس في أرزاقهم ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد في القرايين ؛ وهو الذي يقال له كاسيم بن يمدان ابن دارم بن الزقان بن الوليد بن دؤمَع العمليقي ، وهو سادس الفرائعة ، وشئوا فرائعة بقرعان الأول ، فصار اسماً لكل من تجبر وعلا أمره^٢ .

فطال ملكه ، وأقام أعلاماً كثيرة حول منف ، وعمل مدناً كثيرة ومتنايز للوفودات وطلسمات ، وأقام سبع سنين بأجمل أفر .

فلما مات وزير أبيه استخلف رجلاً من أهل بيت المملكة يقال له طُلَمَّا بن قُومَس . وكان شجاعاً ساجراً كاهناً كاتباً حكيماً متصرفاً في كل فن ، وكانت نفسه تنازعهُ الملك ، فأصلح أمر الملك ، وبني مدناً من الجانبين ، ورأى في نومه أنه سيكون حدث ، فبنى بناحية رُقودة والصعيد ملاعب ومصانع .

وشكاً إليه القبط من الإسرائيليين ، فقال : هم غبيدكم ، فأذلّوهم من حينئذ ؛ وخرج إلى ناحية البربر فعات وقَتَلَ وسبى . وفي أيامه بُنيت منارة الإسكندرية ، وهاج البحر الملح فغرق كثيراً من القرى والجنان والمصانع .

ومات أُنَسَامُس ، وكان ملكه إحدى وثلاثين سنة ، منها إحدى عشرة سنة يُدبّر أمره طُلَمَّا^٣ . فلما مات اضطرب الناس واتهموا طُلَمَّا^٤ أنه سمّه ؛ فقام وولي لاطيس بن أُنَسَامُس ، وكان جريفاً مُعجباً صلّفاً ، فأمر ونهى ، وألزم الناس أعمالهم ، وقال : أنا مُستقيم ما استقيمتم ،

(a) بولاق : ظلما .

^٣ التويعي : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٢ - ١٣٣ .

^١ التويعي : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٠ - ١٣٢ .

^٢ انظر فيما تقدم ٣٦٣ .

وإن ملئتم عن الواجب ملئ عنيكم . وخط جماعة عن مراتبهم ، وصرف طلما^٥ عن خيالاته ، واستخلف غيره ، وأنفذ طلما^٥ إلى الصعيد في جماعة من الإسرائيليين ، وجدّد بناء الهيكل ، وبني القرى ، وأثار معابد كثيرة ، وكثّر في صحراء الشرق عدّة كنوز ، وكان يحب الحكمة . ثم تجرّ وعلا أمره وأمر ألا يجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك لا كاهن ولا غيره ، بل يقومون على أرجلهم حتى يتخطوا . وزاد في أذى الناس والعنف بهم ، ومنع فصول ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم ، وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن ، وفعل أكثر مما فعله من تقدّم قبله ، واستغنى بني إسرائيل ، وقتل جماعة من الكهنة ، فأبغضه الخاص والعام . وثار طلما^٥ بالصعيد وكاتب وجوه الناس ، فكتب لاطيس بصرفه عن العمل ، فامتنع وحارب عساكره ، وزحف حتى دخل منف^١ .

١٠ طلما^٥ بن قومس فوعون موسى ، يقال إن اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت بن فاران بن عمرو بن عثليق بن تلقع بن عابر بن أشليخا بن لود بن سام بن نوح ، وأنه من العماليقة . وكان قصيرا ، طويل اللحية ، سهل العين الثقي ، صغير العين اليسرى ، أعرج . وزعم قوم أنه من القبط ، وأن نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم ، وقيل غير ذلك^٢ . وكان من خبره ما ذكرنا في كتيبة دموه^٣ .

١٥ وقال ابن عبد الحكم : ولما أفرق الله فوعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق إلا العبيد والأجزاء والنساء ، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يؤلن منهم أحدا ، وأجمع رأيهم أن يؤلن امرأة يقال لها دلوكة . فعلكت دلوكة ابنة زباء ، ويقال دلوكة بنت زفان^٤ . وكان لها عقل وتجارب ومعرفة ، وكانت في شرف منهن ، وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة . فبنت جدرا حصنت به مصر من الأعداء ، وكان من حد زنج إلى إفريقية إلى الواحات إلى بلد الثوبة ، على كل موضع منه حرس قيام ليلاهم ونهارهم ، يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا ، أحاطت به على جميع أرض مصر كلها في ستة أشهر ، وهو حائط العجوز^٥ .

(٥) بولاق : ظلما . (ب) بولاق : فاران .

^٤ ابن عبد الحكم : فوج مصر ٢٦-٢٧ ، وقارن

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥: ١٣٣-١٣٥ .

المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨٧-٨٨ النوري : نهاية

^٢ نفسه ١٥: ١٣٥-١٣٦ .

الأرب ١٥: ١٣٨-١٣٩ وانظر فيما يلي ٥٤١-٥٤٢ .

^٣ فيما يلي ٤٦٤ .

وفي أيامها بَنَتْ تَدْوَرَةَ السَّاحِرَةِ البرابي في وَسْطِ مَنَفٍّ^١.

فَمَلَكَتْهُمْ دُلُوكَةُ عَشْرِينَ سَنَةً ، حَتَّى بَلَغَ صَبِيٌّ مِنْ أَبْنَاءِ أَكَابِرِهِمْ يُقَالُ لَهُ دَزْكَونَ بْنِ بِلَاطِسَ . ثُمَّ مَاتَ وَاسْتَخْلَفَ ابْنُهُ تودست ، ثُمَّ تُوْفِيَ تودست بْنُ دَزْكَونَ ، فَاسْتَخْلَفَ أَدَقَاشَ ، فَلَمْ يَمُتْ إِلَّا ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى مَاتَ ، فَاسْتَخْلَفَ أَخُوهُ مَرِينَا بْنُ مَرِينُوسَ . ثُمَّ تُوْفِيَ فَاسْتَخْلَفَ اسْتادس بْنُ مَرِينَا ، فَطَلَعَى وَتَكَبَّرَ وَسَفَكَ الدَّمَ وَأَظْهَرَ الْفَاجِشَةَ ، فَحَلَقُوهُ وَقَتَلُوهُ ، وَبَايَعُوا رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُقَالُ لَهُ بِلوطس بْنُ ميناكيل ، فَمَلَكَهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً . ثُمَّ تُوْفِيَ فقام ابنه مألوس . ثُمَّ تُوْفِيَ مألوس فَاسْتَخْلَفَ أَخُوهُ ميناكيل بْنُ بِلوطس بْنِ ميناكيل ، فَمَلَكَهُمْ زَمَانًا . ثُمَّ تُوْفِيَ وَاسْتَخْلَفَ ابْنُهُ نَزُولَةُ بْنُ ميناكيل ، فَمَلَكَهُمْ مِائَةً وَعَشْرِينَ سَنَةً ، وَهُوَ الْأَعْرَجُ الَّذِي سَمِيَّ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَقَدِيمُ بِهِ إِلَى مِصْرَ ، وَكَانَ قَدْ تَمَكَّنَ وَطَعَى وَبَلَغَ مَبْلَغًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ بَعْدَ فِرْعَوْنَ ، فَصَرَعَتْهُ دَائِبُهُ فَمَاتَ^٢ . وَقِيلَ لَهُ الْأَعْرَجُ لِأَنَّهُ لَمَّا غَزَا أَهْلَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَنَهَبَتْهُمُ وَسَبَى مَلِكَهُمْ يُوشيا بْنُ آمونَ بْنِ مَنُشَا بْنِ جَزْقيا ، هَمَّ أَنْ يَضَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ . وَكَانَ بِلُولَبُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَضَعَدَ عَلَيْهِ إِلَّا بِرَجْلَيْهِ جَمِيعًا - فَصَمِدَ بِرَجْلٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ الْيُمْنَى ، فَدَارَ اللَّوْلُبُ عَلَى سَاقِهِ الْأُخْرَى فَانْدَقَتْ ، فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَمِعُ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْأَعْرَجُ .

فَاسْتَخْلَفَ مَرِينُوسُ بْنُ بُولَهِ ، فَمَلَكَهُمْ زَمَانًا ثُمَّ تُوْفِيَ ، وَاسْتَخْلَفَ ابْنُهُ قَزْقُورَةُ فَمَلَكَهُمْ سِتِينَ سَنَةً ثُمَّ تُوْفِيَ ، وَاسْتَخْلَفَ أَخُوهُ لُقَاسُ بْنُ مَرِينُوسَ ، وَاتَّهَمَ الْبِرْزَبَا فِي زَمَنِهِ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى إِصْلَاحِهِ ثُمَّ تُوْفِيَ لُقَاسُ وَاسْتَخْلَفَ ابْنُهُ فوميس بْنُ نَقَاسَ فَمَلَكَهُمْ دَهْرًا وَخَارَبَتْهُ بُخْتُ نَصْرَ وَقَتَلَهُ ، وَخَرَبَتْ مَدِينَةُ مَنَفٍّ وَغَيْرُهَا مِنَ الْمَدَائِنِ ، وَسَبَى أَهْلَ مِصْرَ وَلَمْ يَتْرُكْ بِهَا أَحَدًا حَتَّى بَقِيَتْ أَرْضُ مِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ .

وَذُكِرَ فِي تَرْجُمَةِ كِتَابِ هُورُوشِيوشِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، فِي وَصْفِ الدُّوَلِ وَالْحُرُوبِ ، أَنَّ فِيمَا بَيْنَ عَزْرِي فِرْعَوْنَ مُوسَى إِلَى مِائَةٍ وَسَبْعِ سِنِينَ^٣ كَانَ بِمِصْرَ مَلِكٌ يَسْمَى بُوْشَرْدَشَ [Busiridis] ، كَانَ يُقَالُ لِلْعُرَبَاءِ وَالْأَصْيَافِ ، وَيَذُبُّعُهُمْ لِأَوْنَانِهِ ، وَيَجْعَلُ دِمَاءَهُمْ قُرْبَانًا لَهَا^٤ .

^١ ابن عبد الحكم : فخر مصر ٢٧ . عبد الرحمن بدوي - ناشر الترجمة العربية - أن المقرئ

حاول أن يحل تقويمًا دينيًا محل التقويم المستند إلى بناء مدينة

روما (مقدمة تاريخ العالم لأوروسوس ٣٢) .

^٤ أوروسوس : تاريخ العالم ١١٥ .

^٢ نفسه ٢٨ - ٢٩ .

^٣ في الأصل اللاتيني في الموضع الأول : قبل بناء مدينة

رومة بسبع مائة سنة وخمس وسبعين سنة ، وفي الموضع

الثاني : قبل بيان مدينة رومة بأربع مائة وثمانين سنة ، ولاحظ

وَأَنْ بَعْدَ عَرَقٍ فِرْعَوْنَ إِلَى ثَلَاثِ مِائَةٍ وَثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً كَانَ بِمِصْرَ مَلِكٌ يَسْمَى بِزُوبَةِ [Vesozes] ، وَكَانَ عَظِيمَ الْمَمْلَكَةِ قُوَى السُّلْطَانِ أَخَذَ بِالْحَرْبِ أَكْثَرَ نَوَاحِي الْجَنُوبِ [والجوف] ^(a) بَرًّا وَبَحْرًا ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ الشَّمْسِيِّينَ ^(b) [Scythis] الَّذِينَ قَبْلَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفُوطُ ^(c) ، وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَيُخَوِّفُهُمْ حَرْبَهُ ، فَأَجَابُوهُ : لَيْسَ مِنَ الرَّأْيِ الْحَمْدُ لِلْمَلِكِ الْعَنِيِّ مُحَارَبَةَ قَوْمٍ فَقَرَاءَ لِكثْرَةِ تَوَارِلِ الْحُرُوبِ وَاخْتِلَافِ خَوَائِثِهَا بِالظُّفَرِ وَالْهَلَاكِ ، وَإِنَّا لَا نَنْتَظِرُ مَجِيئَكَ ، بَلْ نُسْرِعُ لِفَارْتِكَ ؛ وَأَتَيْتُهَا قَوْلَهُمْ عَمَلًا ، وَخَرَجَ فِرْعَوْنُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ ، وَهَزَمُوا جَيْوشَهُ وَنَهَبُوا عَسَاكِرَهُ وَأَمْوَالَهُ وَغَدَدَهُ وَجَمِيعَ ذَخَائِرِهِ ، وَمَضُوا فَتَهَبُوا أَرْضَ مِصْرَ حَتَّى كَادُوا يُغْلِبُونَ عَلَيْهَا لَوْلَا وَجْهُهُ ^(d) عَرَضَتْ لَهُمْ مَتَعَتُهُمْ مِمَّا خَلَقَهَا ^(e) ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ^(f) بِحُرُوبٍ مُتَّصِلَةٍ حَتَّى أَذَلُّوا أَهْلَهَا وَجَعَلُوهُمْ يُوَدُّونَ إِلَيْهِمُ الْمَغَارِمَ ، وَأَقَامُوا مُحَارِبِينَ لِمَنْ خَلَقَهُمْ ^(g) فِي عَزْوَتِهِمْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَلَمْ يَنْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ حَتَّى أَتَتْهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَنْ يَقْتُلْنَ لَهُمْ : إِذَا أَنْ تَنْصَرَفُوا ، وَإِنَّا أَنْ تَتَخَذَ الْأَزْوَاجَ وَتَطْلُبَ النِّسْلَ مِنْ عِنْدِ الْمُجَاوِرِينَ لَنَا . فَعِنْدَ ذَلِكَ انْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَدْ امْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ أَمْوَالًا وَأَوْقَارًا جَمَّةً ، وَقَدْ خَلَقُوا وَزَاعَهُمْ ذِكْرًا مُفْرِعًا ^١ .

وَيُقَالُ إِنَّ مُلُوكَ مَدْيَنَ مَلَكُوا مِصْرَ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ بَعْدَ عَرَقِ فِرْعَوْنَ وَهَلَاكَ دَلُوكَ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ، فَقَادَ الْمَلِكُ بَعْدَهُمْ إِلَى الْقَيْبِطِ ، وَإِنْ جَالُوتُ بْنُ مَالُودٍ ^(h) لَمَّا قَتَلَهُ دَاوُدُ سَارَ ابْنُهُ جَالُوتُ بْنُ جَالُوتَ إِلَى مِصْرَ وَبِهَا مُلُوكُ مَدْيَنَ ، فَأَنْزَلَهُ مَلِكُ مِصْرَ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ، فَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً ثُمَّ سَارَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ^٢ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْقَيْبِطَ مَلَكُوا مِصْرَ بَعْدَ دَلُوكَ وَابْنَهَا مُدَّةً سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَعِدَّتُهُمْ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكًا ، هُمْ ^٣ :

(a) زيادة من أورو سيوس . (b) الأصل ويولاق : الروم والمثبت من ترجمة أورو سيوس . (c) بولاق : الفوط . (d) أورو سيوس : مروج دجلة . (e) بولاق : خلفهم . (f) أورو سيوس : بلد أسية . (g) بولاق : خالفهم . (h) بولاق : مالوت .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١١٧-١١٨ .
^٢ انظر فيما يلي ٥١٢ .
^٣ اعتمد المقرئ في ابتداء من هذا الموضع على قائمة مانيتون Manetho كما نقلها يوسيبوس القيصري Busebius of Caesarea (٢٦٠-٣٤٠م) ، وتشتمل مانيتون الذي يبدأ بالأسرة العشرين . ويتفق نص المقرئ =

[الأُسرة ٢٠] ديوسفوليطا [Diospolis] ، ومُدَّتْهُ ثمان وسبعون سنة ، وقيل ثمان وثمانون سنة .

[الأُسرة ٢١] ثم مَلَكَ بعده سَمَانَادُوس [Smendis] ستًا وعشرين سنة . وقام بَعْدَهُ

سوساناس [Psusennês] مُدَّة مائة وسنة . ثم مَلَكَ نفخراس [Nephercherês] أَرْبَع سنين . ثم مَلَكَ

أمانافوتاس [Amenôphthis] تِسْع سنين . ثم أَسْخُوريس [Osochôr] بَيت سنين . ثم

فسيناخس [Psinnachês] تِسْع سنين . ثم فسوسانُس [Psusennês] خَمْسًا وثلاثين

سنة .

[الأُسرة ٢٢] ثم مَلَكَ سسوناخوسيس [Sesônchôsis] إحدى وعشرين سنة . ثم مَلَكَ

أَسَاراثُون [Osorthôn] خَمْس عشرة سنة . ثم طاقالوتيس [Taclôthis] ثلاث عشرة

سنة .

[الأُسرة ٢٣] ثم فطافاباسطاس [Petubastis] خمسًا وعشرين سنة . ثم أَسَاراثُون [Osorthôn]

تِسْع سنين . ثم مَلَكَ فساموس [Psammus] عَشْر سنين .

[الأُسرة ٢٤] ثم أوفانقورس [Bocchoris of Sais] أَرْبَعًا وأربعين سنة .

[الأُسرة ٢٥] ثم ساباقون [Sabacon] اثنتي عشرة سنة . ثم سببخس الحبشي

[Sebichos] اثنتي عشرة سنة . ثم طراخوس الحبشي [Saracus (Taracus)] عشرين

سنة .

[الأُسرة ٢٦] ثم أَمْرَاس الحبشي [Amers the Ethiopian] اثنتي عشرة سنة . ثم اسطافينيتاس

ملوك القبط الذين كانوا بمصر وعددهم أربعة وثلاثون سوى
الفرس وغدَّتْهم مع الفرس ثمان مائة وأربع وتسعون سنة .
وربما كان هو المصدر الذي أخذ عنه المقرئ ؛ فقد اعتمد
عليه اعتمادًا كبيرًا في مواضع كثيرة من كتابه . وانظر نص
الترجمة الأرمنية كما نقله يوسيبوس القيصري عن مانثون
في كتاب Waddell, W. G., *Manetho with an english Translation*, Harvard University Press
1971, pp. 149-87؛ وراجع عن يوسيبوس القيصري
Atiya, A.S., *CE art. Eusebius of Caesaria*, pp.
1070-71 ؛ وانظر فيما يلي ١ : ٢٦٧ .

= تمامًا مع نص يوسيبوس - الذي وصل إلينا الآن في ترجمة
أرمنية - ابتداءً من ذكر ملوك الأسرة الحادية والعشرين التي
تبدأ بالملك سمانادوس Smendes ، فيما عدا ملوك الأسرة
٢٧ . ولاشك أن كتاب يوسيبوس نُقِلَ إلى اللغة السريانية ،
وبما أن أغلب الترجمات العربية للنصوص اليونانية تمت عن
طريق السريانية ، فمن الممكن أن يكون المؤلفون العرب -
الذين اعتمد عليهم المقرئ في نقل هذه الأسماء - قد
أخذوها عن نصٍّ سرياني ، وعرفوا قائمة مانثون وعلى
الأخص البيروني الذي أورد نفس القائمة في كتابه «الأتار
الباقية عن القرون الحالية» ٩٠-٩١ وبناها بهارة : «تسمية

[Stephinathes] سَبْعَ سِنِينَ . ثم نَاحِفَاسُوس [Nechepsos] سِتُّ سِنِينَ . ثم نَاحُو [Nechao] ثَمَانِ سِنِينَ . ثم فَسَامَامَطِيَقُوس [Psameticus] أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً . ثم نَخُوثَان [Nechao II] سِتُّ سِنِينَ . ثم فَسَامُوتَاس [Psamuthes II] سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً . ثم وَافِرُس [Uaphres] خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً . ثم أَمَاسِيَس [Amosis] اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً^١ .

وَمَلَكَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ/ مِصْرَ خَمْسَةَ مُلُوكٍ مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ ، وَهَم :

[الأشْرَةُ ٢٨] أَمَرَطِيُوس [Amyrtaeus of Sais] سِتُّ سِنِينَ .

[الأشْرَةُ ٢٩] ثَم نَافِرَطَاس [Nepheritès] سَبْعَ سِنِينَ ، ثَم أَوخَرَس [Achôris] اثْنَتَيْنِ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثَم فَسَامُوت [Psammuthis] ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثَم مَلَكَ مَوَتَاطُوس [Muthes] سَبْعَ سِنِينَ^٢ .

ثَم مَلَكَ ثَلَاثَةَ مُلُوكٍ مِنْ أَثُورَ ، وَهَم الْجَرَامِقَةُ الَّذِينَ مَلَكَوْا الْمَوْصِلَ وَنِيَتَوَا وَالْجَزِيرَةَ ، وَهَم :

[الأشْرَةُ ٣٠] نَاقَاطَانِبُوس [Nectanebès] ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثَم طُوس [Teos] سَبْعَ سِنِينَ ، ثَم نَاقَاطَانِبِيَّاس [Nectanebus] ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً^٣ .

ثَم انْتَقَلَ مَلَكَ مِصْرَ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلِيَشِ الْيُونَانِيِّ . وَهَذِهِ أَشْمَاءُ رُومِيَّةَ ، وَلَعَلَّهَا أَوْ بَعْضُهَا مُتَدَاخِلٌ فِيمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ مَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَبَيْنَ بُخْتِ نَصْرَ وَبَيْنَ الطُّوفَانِ أَلْفَا سَنَةً وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتٍّ وَخَمْسُونَ سَنَةً وَأَشْهُرَ ، وَتَجْتَمِعُ مِنْ جِسَابٍ مَا وَقَعَ فِي الثُّورَةِ أَنَّ بَيْنَ الطُّوفَانِ وَبَيْنَ خَرَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى يَدِ بُخْتِ نَصْرَ مِنَ السِّنِينَ أَلْفَا وَسِتَ مِائَةٍ وَأَرْبَعًا وَثَمَانِينَ سَنَةً . وَهَذَا خِلَافُ مَا نَقَلَهُ الْمَشْهُودِي .

^١ لم يذكر المقريزي الأسرة ٢٧ وهي أسرة فارسية مكوّنة

^٢ الأسرة ٣١ مثل الأسرة ٢٧ مكوّنة من ملوك فارسيين ويتهي بها كتاب مانيتون .

^٣ ثمانية ملوك حكمت ١٢٠ سنة وأربعة أشهر ، وهي معروفة لكل من البيروني والقلقشندي .

^٤ أضاف نص يوسيبوس عن مانيتون بعد ذلك

ذفر مءءنه الله سكندرفه

هذه المءءنه من أظظم مءافن الءنفا وأقءمها وضمًا^١. وقء بوءف فر مرءة : فأؤل ما بوءف بعء كؤن الطوفان فف زمان مضرام بن بفصر بن نوح؁ وكان فقال لها إء ذاك مءءنه رءوءة؁ ثم بوءف بعء ذلك مرءفن. فلما كان فف أفام الفوناففن بملءها الإسكئئر بن ففلففش المقلونف؁ الءف قهر دارا وملك ممالك الفرس بعء تخرفب بفئت نصر مءءنه مئف بمائة وعشرفن سنة شمسة؁ ففرفت به .

١١٨؁ ٤ (١٩٤٨)؁ ١٢١-١٤٠؁ جمال الءفن الشفال : «الإسكندرة - طبوغرافية المءنه وءطورها من أقءم المعصور إلى الوقت الءاضر؁ المءلة الأارفةفة المصرية ٢ (أكئور ١٩٤٩)؁ ١٩١-٢٧١؁ وله أفضًا «أارفخ مءنه الإسكندرة فف العصر الإسلامف؁ الإسكندرة ١٩٦٧؁ حسن عبء الوهاب : «الإسكندرة فف العصر الإسلامف؁ مءلة الكئاب (بنافر ١٩٤٧) : السبب عبء المفرز سالم : «أارفخ الإسكندرة وءضارفها فف العصر الإسلامف؁ الإسكندرة ١٩٦٩؁ ١١٩٨٢؁ Jondet, G., *Atlas historique de la ville et des ports d'Alexandrie*, Le Caire, MSSG 1921; Combe, E., «Alexandrie musulmane: Notes de topographie et d'histoire de la ville depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours», *BSRGE* XV (1927), pp. 201-238, XVI (1928), pp. 111-171, 269-292; Haas, Chr., *Alexandria in Late Antiquity. Topography and Social Conflict*, London 1997; *Alexandrie entre deux monde*, ROMM, n°46, Aix-en-Provence 1984; Ilbert, R., *Alexandrie 1830-1930*, 2 vols, Le Caire - IFAO 1996; Bernard, A., *Alexandrie de Ptolémées*, Paris CNRS 1995; Labib, S.Y., *Et art. al-Iskandariyya* IV, pp. 137-43

أعطى المقرفف للإسكندرة المركز الثالث فف الأهمفة فف كئابه؁ بعء القامرة ومصر الفسطاط وخصص لها القسم الأكبر فف الفصل الءف عقءه لءكر مءافن أرض مصر؁ قء كائف ولأكئر من ألف عام عاصمة مصر قبل الفئف العربف الإسلامف (راجع كئب المسالك والممالك؁ المسعودف : مروج الذهب ١١٤:١-١١٥ ٧٣:٢؁ ٩٩-١٠٩؁ وذكرف فف المروج ٧٣:٢ أنه لم فعرض فف هءا الكئاب لكئفر من أعبار الإسكندرة لأنه أنف على ذلك فف الكئاب الأوسط؁ فاقوت : معجم البلدان ١٨٢:١-١٨٩؁ ابن جفر : الرءلة ١٤-١٩؁ ابن فضل الله العربف : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٨-٩٣؁ ابن بطوطة : تءفة النظار ١٢:١-١٢٢؁ الفلقشنف : صبح الأعشى ٤٠٣:٣-٤٠٤ السبوطف : حسن المءاضرة ٨٤:١-٨٨؁ عف مبارك : الءطط التوفففة المءلء السابع.

وانظر كءلك؁ «أارفخ الإسكندرة من أقءم المعصور؁ مءموعة بفوف نشرئها مءافظة الإسكندرة سنة ١٩٦٣؁ زكف عف : «الإسكندرة؁ أسسها وبعض مظاهر الءضارة ففها فف عصر البطالمة؁ مءلة كلفة الآءاب - جامعة الإسكندرة ٢ (١٩٤٤)؁ ١١٧-

ومنذ جَدَّدَهَا الْإِسْكََنْدَرُ الْمَذْكُورُ، انْتَقَلَ تَحْتَ الْمَمْلَكَةِ مِنْ مَدِينَةِ مَنُفٍ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَصَارَتْ دَارَ الْمَمْلَكَةِ بِدِيَارِ مِصْرَ. وَلَمْ تَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى ظَهَرَ دِينُ الْإِسْلَامِ، وَقَدِمَ عَمْرُو ابْنُ الْقَاصِ بِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَحَ الْحِصْنَ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةَ، وَصَارَتْ دِيَارَ مِصْرَ أَرْضَ إِسْلَامٍ، فَانْتَقَلَ تَحْتَ الْمَلِكِ حَمِيْدٍ مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ إِلَى فُسْطَاطِ مِصْرَ، وَصَارَ الْفُسْطَاطُ مِنْ بَعْدِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ دَارَ مَمْلَكَةِ دِيَارِ مِصْرَ. وَسَأَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَخْبَارِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ مَا وَضَلَ إِلَيْهِ عِلْمِي .

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَسْعُودِي فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ الْكُوكَبَةَ - وَهِيَ أُمَّةٌ فِي غَايَةِ الدُّغْرِ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ - مَلَكَوا الْأَرْضَ وَقَسَّمُوهَا عَلَى ثَلَاثِينَ كُورَةً وَأَرْبَعَةَ أَقْسَامَ، كُلٌّ قِسْمٌ عَمَلٍ، وَتَوَّأَ فِي كُلِّ عَمَلٍ مَدِينَةً بِهَا مَلِكٌ يَجْلِسُ عَلَى مِثَرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَهُ بَرْتَا وَهِيَ بَيْتُ الْحِكْمَةِ، وَلَهُ هَيْكَلٌ عَلَى اسْمِ كَزُكَبٍ فِيهِ أَضْنَامٌ مِنْ ذَهَبٍ . وَجَعَلُوا الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ، وَاسْمُهَا رَقُودَةُ، خَمْسَ عَشْرَةَ كُورَةً، وَجَعَلُوا فِيهَا كِبَارَ الْكَهَنَةِ، وَنَصَبُوا فِي هَيَاكِلِهَا مِنْ أَضْنَامِ الذَّهَبِ أَكْثَرَ مِمَّا نَصَبُوا فِي غَيْرِهَا، فَكَانَ مَا بِهَا مِائَتًا صَنْمٌ مِنْ ذَهَبٍ . وَقَسَّمُوا الصُّعِيدَ ثَمَانِينَ كُورَةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ وَثَلَاثِينَ مَدِينَةً فِيهَا جَمِيعُ الْعَجَائِبِ ^١.

وَذَكَرَ بَطْلَمَيْوسُ فِي كِتَابِ «الْأَقَالِيمِ» وَوَصَفَ الْجَزَائِرَ وَالْبَحَارَ وَالْمَدَنَ أَنَّ مَدِينَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ لِبَرْجِ الْأَسَدِ، وَذَلِيلُهَا الْمَرْيَخُ، وَسَاعَاتُهَا أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً، وَطَوْلُهَا سِتُونَ دَرَجَةً وَنِصْفَ دَرَجَةٍ،

يَكُونُ ذَلِكَ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ مُشْتَرِئَةً وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً .

وَقَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ فِي ذِكْرِ أَخْبَارِ مِصْرَائِيمَ بْنِ يَتَصَرِّ بْنِ نُوحٍ: وَعَلَّمَتْهُمْ أَيْضًا عَمَلَ الطَّلَسْمَاتِ، وَكَانَتْ تَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ دَوَابٌّ تُفْسِدُ زَرْعَهُمْ وَجَنَانَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ، فَعَمِلُوا لَهَا الطَّلَسْمَاتِ، فَغَابَتْ وَلَمْ تُعَدَّ . وَتَوَّأَ عَلَى غَيْرِهَا^٢ الْبَحْرَ مُدُنًا، مِنْهَا مَدِينَةُ رَقُودَةُ مَكَانَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَجَعَلُوا فِي وَسْطِهَا قُبَّةً عَلَى أَسَاطِينٍ مِنْ نُحَاسٍ مُذْهَبٍ، وَالْقُبَّةُ مُذْهَبَةٌ، وَنَصَبُوا فَوْقَهَا بَرَاةً مِنْ أَخْلَاطٍ سَتَّى قَطَرُهَا خَمْسَةُ أَشْبَارٍ وَارْتِفَاعُ الْقُبَّةِ مِائَةُ ذِرَاعٍ؛ فَكَانُوا إِذَا قَصَدَهُمْ

(١) بولاق : غير .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ٦٧-٦٨ ؛ وانظر فيما تقدم ٣٤٩ وفيما يلي ٥٠٤ .

قاصدٌ من الأثم التي حوّلهم ، فإن كان ثَمًّا بهمهم وكان من البحر غَمِلُوا لتلك المرأة غَمَلًا فَالْقَت شُعاعها على ذلك الشيء فَأَحْرَقَتْهُ ، فلم تَزَلْ إلى أن غَلَبَ البحرُ عليها ؛ ويُقالُ إِنَّ الإِسْكَنْدَرَ إِنَّمَا عمل المنارة تَشْبِيْهَا بها ^١ .

وكان عليها أيضًا مِرْآةٌ يُرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم ، فاختال عليهم بعضُ ثُلوكهم ووجّه إليها ما أزالها ، وكانت من زُجاج مُدَبَّر .

قال : وَذَكَرَ بعضُ القِبْطِ أَنَّ رجُلًا من بني الكَهَنَةِ الذين قَتَلَهُم أَتَشَاد^٢ ملك مصر صار إلى ملك كان في بلاد الإِفْرِجِيَّة فَذَكَرَ له كثرة كُنُوز مصر وعجائِبها ، وَضَمِنَ له أن يُؤْصِلَه إلى مُلْكها وأموالها ، ويرفع عنه أذى طَلْسَمَاتِها حتى يُلْغَ جميع ما يُريد . فلَمَّا اتَّصَلَ بِصَا بن مَرْقُونِس أَخِي أَتَشَاد^٣ - وهو ملك مصر يومئذٍ - أَنَّ صاحِبَ بلاد الإِفْرِجِيَّة يتجهَّز إليه ، عَمَدَ إلى جَبَلٍ بين البحر المِلْحِ وَشَرْقي الثَّيْلِ فَأَصْعَدَ إليه أَكْثَرَ كُنُوزِه ، وَبَنَى عليها قِبابًا مُصَفَّحَةً بِالرَّصَاصِ . وَظَهَرَ صاحِبُ بلاد الإِفْرِجِيَّة في أَلْفِ مَرْكَبٍ ، فَكان لا يَمِيزُ بشيءٍ من أَعلام مصر وَمَنَازِلِها إِلَّا هَدَمَهُ ، وَكَتَمَرَ الأَصْنامَ بِمَعُونَةِ ذلك الكاهِنِ ، حتى أَتَى الإِسْكَنْدَرِيَّةَ الأُولَى فَعَاثَ فيها وفيما حَوَّلَها ، وَهَدَمَ أَكْثَرَ مَعَالِمِها ، إلى أن دَخَلَ الثَّيْلَ من ناحية رَشِيدٍ وَصَعِدَ إلى مَنَفٍ ، وَأَهْلُ الثَّوَّاحِي يُحَارِبُونَهُ ، وَهُوَ يَنْهَبُ ما مَرَّ بِهِ وَيَقْتُلُ ما قَدَّرَ عليه ، إلى أن طَلَبَ المَدَائِنَ الدَّاخِلَةَ/ لِأَخْذِ كُنُوزِها ، فَوَجَدَها مُتَمَيِّعَةً بِالطَّلْسَمَاتِ الشَّدَادِ والمِياهِ العَمِيقَةِ والخَنَادِقِ والشَّدَاخَاتِ ، فَأَقَامَ عليها أَيَّامًا كَثِيرَةً فلم يُمَكِّنْهُ الوصولُ إليها ، وَغَضِبَ على الكاهِنِ فَقَتَلَهُ من أَجلِ جَماعَةٍ من أَصحابِهِ هَلَكُوا .

فاجْتَمَعَ أَهْلُ الثَّوَّاحِي وَقَتَلُوا من أَصحابِهِ الذين بالمَرَائِبِ خَلَقًا ، وَأَحْرَقُوا بعضَ المَرَائِبِ ، وَقَامَ أَهْلُ مصر بِسُخْرِهِمْ وَتَهْاوِيلِهِمْ ، فَأَتَتْ رِياحٌ أَغْرَقَتْ أَكْثَرَ مَرَائِبِهِ حتى نَجَّى بِنَفْسِهِ ، وَقَد خَرَجَ فَعَادَ النَّاسُ إلى مَنَازِلِهِمْ وَقَرَّاهِم . وَرَجَعَ المَلِكُ صَا إلى مَدِينَةِ مَنَفٍ وَأَقَامَ بها ، وَتَجَهَّزَ لِقَرَوِ بُلْدانِ الرُّومِ وَبَقِيَ إليها ، وَخَرَبَ الجَزائِرَ فَهَابَتْهُ المُلُوكُ ، وَتَبِعَ الكَهَنَةُ فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلَقًا كَثِيرًا .

(٢) بولاق : إيساد .

وَأَقَامَ مَلِكًا سَبْعًا وَسِتِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ وَعُمُرُهُ مِائَةً وَسَبْعُونَ سَنَةً ، وَذَفِنَ بِمَنْفٍ فِي وَسْطِهَا تَحْتَ الْأَرْضِ وَمَعَهُ الْأَمْوَالُ وَالْجَوَاهِرُ وَالْتِمَائِلُ وَالطَّلُشُمَاتُ كَمَا قَعَلَ أَبَاؤُهُ : مِنْهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ يُقَالُ ^(٥) دَهَبًا عَلَى صُبُورِ حَيَوَانَاتِ بَرْيَوتِهِ وَبَعْرِئِهِ ، وَتَمَثَّلُ عُقَابٌ مِنْ حَجَرٍ أَحْضَرُ ، وَتَمَثَّلُ بَيْتَيْنِ مِنْ دَهَبٍ ، وَزَيَّنُوا عَلَيْهَا اسْمَهُ وَغُلِبَتَهُ الْمُلُوكُ وَسِيرَتَهُ ، وَعَهْدَ إِلَى ابْنِهِ تَدَارِسَ ^(٦) .

- قَالَ : وَلَمَّا جَلَسَتْ حُوزِيَا ^(٥) ابْنَةُ طُوطِيسَ ، أَوَّلَ فَرَايَعَةِ مِصْرَ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ بَعْدَ قَتْلِهَا لِأَبِيهَا ، وَعَدَّتِ النَّاسَ بِالْإِحْسَانِ وَأَخَذَتْ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ ، فَاجْتَمَعَ لَهَا مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِلْمُلْكِ ، وَقَدَّمَتِ الْكَهَنَةَ وَأَهْلَ الْحِكْمَةِ وَرُؤَسَاءَ الشَّجَرَةِ وَرَفَعَتْ أَقْدَارَهُمْ ، وَأَمَرَتْ بِتَجْدِيدِ الْهَيْكَلِ . وَسَارَ ^(٧) مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا إِلَى مَدِينَةِ أَثْرِبَ ، وَمَلَكَوْا عَلَيْهِمْ رِجَالًا مِنْ وَلَدِ أَثْرِبَ يُقَالُ لَهُ أُنْدَاخُسُ ، فَعَقَّدَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ ، فَأَنْقَذَتْ إِلَيْهِ جَيْشًا فَهَزَمُوهُ وَقَتَلُوا أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ ، فَهَرَبَ إِلَى الشَّامِ وَبِهَا الْكَنْعَانِيُّونَ فَاسْتَقَاتَ بِمَلِكِهِمْ ، فَجَهَّزَهُ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ . فَفَتَحَتْ حُوزِيَا ^(٥) الْخَزَائِنَ ، وَفَرَّقَتْ الْأَمْوَالَ ، وَقَوَّتِ الشَّجَرَةَ فَفَعِلُوا أَعْمَالَهُمْ .

- وَتَقَدَّمَ أُنْدَاخُسُ ^(٥) بِجُيُوشِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَعَلَيْهَا قَائِدٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ جِيرُونَ ، فَلَمَّا نَزَلُوا أَرْضَ مِصْرَ بَعَثَتْ طِفْلًا لَهَا مِنْ عُمَّلَاءِ النِّسَاءِ إِلَى الْقَائِدِ سِرًّا مِنْ ^(٨) أُنْدَاخُسَ تُعَرِّفُهُ رَغْبَتَهَا فِي تَزْوُجِهِ ، وَأَنَّهَا لَا تُخْتَارُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهَا ، وَأَنَّهُ إِنْ قَتَلَ أُنْدَاخُسَ تَزَوَّجَتْ بِهِ وَسَلَعَتْهُ مِثْلُكَ مِصْرَ . فَفَرِحَ بِذَلِكَ وَسَمَّيَ أُنْدَاخُسَ ^(٥) بِسَمِّ أَنْقَذَتِهِ إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ .

- وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ قَتْلِ أُنْدَاخُسَ ^(٥) أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ حَتَّى يَظْهَرَ قَوْمُكَ فِي بَلَدِي وَتَبْنِيَ لِي مَدِينَةً عَجِيئَةً - وَكَانَ اتِّخَاذُهُمْ حَيْثُئِذٍ بِالْبَنِيَانِ وَإِقَامَةِ الْأَعْلَامِ وَعَمَلِ الْعَجَائِبِ - وَقَالَتْ : انْتَقِلْ مِنْ مَوْضِعِكَ إِلَى غَرْبِي بَلَدِي ، فَهَمَّ أَتَاثٌ لَنَا كَثِيرٌ ، فَاقْتَفَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَابْنُ عَلَيْهَا ؛ فَفَعَلَ ، وَبَنَى مَدِينَةً فِي صَحْرَاءِ الْغَرْبِ يُقَالُ لَهَا قَنْدُومَةُ ^(٩) ، وَأَجَزَى إِلَيْهَا مِنَ التِّلِّ نَهْرًا ، وَغَرَسَ حَوْلَهَا غُرُوسًا كَثِيرَةً ، وَأَقَامَ بِهَا مَنَارًا عَالِيًا قُوَّةً مُنْتَظَرٌ مُصَفَّحٌ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالزُّجَاجِ وَالرُّخَامِ ، وَهِيَ تُجَدُّهُ بِالْأَمْوَالِ ، وَتُكَاتِبُ صَاحِبَهُ عَنْهُ وَتُهَادِيهِ وَهُوَ لَا يَقْلَمُ .

- فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا قَالَتْ لَهُ : إِنَّ لَنَا مَدِينَةً أُخْرَى مُحَصَّنَةً كَانَتْ لِأَوَّلِنَا ، وَقَدْ خَرِبَتْ مِنْهَا أُمُكِنَةٌ وَتَشَقَّتْ جِصُّنُهَا ، فَامْضِ إِلَيْهَا وَاعْمَلْ فِي إِصْلَاحِهَا حَتَّى أَتَقْبِلَ أَنَا إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَيْتَهَا ، فإِذَا

(٥) عند النويري : تمثال . (٦) بولاق : تدارس . (٧) بولاق : حوزييا . (٨) الأصل وبولاق : صار . (٩) بولاق :

أنداخس . (١٠) بولاق : عن . (١١) بولاق : قبلومة ، نهاية : نندومة .

فَرَزَتْ من إصلاح تلك المدينة فَأَنْفِذَ إِلَيَّ جَيْشَكَ حَتَّى أَصِيرَ إِلَيْكَ وَأُبْثِدَ عن مَدِينَتِي وَأَهْلَ بَيْتِي ،
فَأُنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيَّ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ . فَمَضَى وَجَدَّ فِي عَمَلِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ الثَّانِيَةِ .

وَأَهْلُ التَّارِيخِ يَذْكُرُونَ^(a) أَنَّ الَّذِي قَصَدَهَا الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَغَ الْعَمَلِيَّ ثَانِي الْفَرَاغَةَ . وَكَانَ سَبَبُ
قَصْدِهَا أَنَّهُ كَانَ بِهِ جِلَّةٌ فَوَجَّهَ إِلَى الْأَقْطَارِ لِيَحْمَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَائِهَا حَتَّى يَرَى مَا يُلَاقِيهِ . فَوَجَّهَ إِلَى
مَمْلَكَةِ مِصْرَ عُلَامًا فَوَقَّفَ عَلَى كَثْرَةِ خَيْرَاتِهَا ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَائِهَا وَالطَّائِفِهَا ، وَعَادَ إِلَيْهِ فَعَرَفَهُ حَالُ
مِصْرَ . فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ ، وَكَاتَبَ الْمَلِكَةَ يَخْطِبُهَا لِنَفْسِهِ ، فَأَجَابَتْهُ وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ
يَتِيَّ لَهَا مَدِينَةً يَظْهَرُ فِيهَا أَيْدِيهِ^(b) وَقُوَّتُهُ ، وَيَجْعَلَهَا لَهَا مَهْرًا . فَأَجَابَتْهَا وَشَقَّ مِصْرَ إِلَى نَاجِيَةِ
الْعَرْبِ ، فَجَعَلَتْ إِلَيْهِ أَصْنَافَ الرِّيَاحِينَ وَالْفَوَاكِهَ ، وَخَلَقَتْ وَجُوهَ الدُّوَابِ .

فَمَضَى إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَقَدْ خَرِبَتْ بَعْدَ خُرُوجِ الْعَادِيَّةِ مِنْهَا ، فَتَقَلَّ مَا كَانَ مِنْ حِجَارَتِهَا
وَمَعَالِمِهَا وَعُمْدِهَا ، وَوَضَعَ أَسَاسَ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَبَقِيَ إِلَيْهَا مِائَةُ أَلْفٍ فَاعِلٍ ، وَأَقَامَ فِي بَنَائِهَا
مُدَّةً ، وَأَتَّفَقَ جَمِيعُ مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ ، وَكُلُّمَا بَنَى شَيْئًا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ دَوَابٌّ فَتَقَلَّعَهُ ، فَإِذَا
أَصْبَحَ لَمْ يَجِدْ مِنَ الْبِنَاءِ شَيْئًا ، فَاعْتَمَ^(c) لِلذَّكَ .

وَكَانَتْ مُحُورِيَا^(d) قَدْ أَنْفَذَتْ إِلَيْهِ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الْمَغَزِ اللَّبُونِ يَسْتَقْبَلُ أَلْبَانَهَا فِي مَطْبِخِهِ ، وَكَانَتْ
مَعَ رَاحٍ ثِقِيٍّ بِهِ يَزْعَمُهَا هُنَاكَ ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْصَرِفَ عِنْدَ الْمَسَاءِ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْبَحْرِ جَارِيَةٌ
خَشَنَاءُ فَتَشَوَّقُ نَفْسُهُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَلَّمَهَا شَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُصَارِعَهُ ، فَإِنْ صَرَعَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَإِنْ
صَرَعَتْهُ أَخَذَتْ مِنَ الْمَغَزِ رَأْسَيْنِ .

فَكَانَتْ طُولَ الْأَيَّامِ تَصْرَعُهُ وَتَأْخُذُ الْعَنَمَ ، حَتَّى أَخَذَتْ أَكْثَرَ مِنْ يَصْفِهَا ، وَتَغْيِرُ بَاقِيَهَا لَشُغْلِهِ
بِحُبِّ الْجَارِيَةِ عَنْ رَغْبِهَا ، وَتَحُلَّ جِسْمُهُ . فَمَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَأَخْبَرَهُ الْحَبَرَ خَوْفًا مِنْ
سَطْوَتِهِ ، فَلَبَسَ ثِيَابَ الرَّاعِي ، وَتَوَلَّى رَغْيَ الْعَنَمِ يَوْمَهُ إِلَى الْمَسَاءِ .

فَعَزَّجَتْ إِلَيْهِ الْجَارِيَةُ وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ الشَّرْطَ فَأَجَابَتْهَا ، وَصَارِعَهَا فَصَرَعَهَا وَشَدَّهَا ، فَقَالَتْ : إِنْ
كَانَ وَلَايَتِي مِنْ أَخْذِي فَسَلِّعْنِي لِصَاحِبِي الْأَوَّلِ ، فَإِنَّهُ أَلْطَفَ بِي وَقَدْ عَذَّبْتُهُ مُدَّةً .

فَرَدَّهَا إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : سَلِّهَا عَنْ هَذَا الْبُيُوتَانِ الَّذِي / نَبِيهِ وَنَزَالُ مِنْ لَيْلَتِهِ ، مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ
فِي ثَبَاتِهِ مِنْ حِيلَةٍ ؟

(a) بعد ذلك عند النويري : شيئاً من أخبار أنداخس ويذكرونه أنه الذي قصد الوليد . (b) الأصل وبولاق : أبه .

(c) الأصل وبولاق : فاهتم . (d) بولاق : جورياق .

فَسَأَلَهَا الرَّاعِي عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَتْ : إِنَّ دَوَابَّ الْبَحْرِ الَّتِي تَنْزِعُ بُيُوتَكُمْ ؛ فَقَالَ : فَهَلْ مِنْ جِيلَةٍ ؟
قَالَتْ : نَعَمْ ، تَعْمَلُونَ تَوَابِيثَ مِنْ رُجَاجٍ كَثِيفٍ بِأَعْطِيَّةٍ ، وَتَجْعَلُونَ فِيهَا أَقْوَامًا يُعْمِسُونَ التَّصْوِيرَ ،
وَيَكُونُ مَعَهُمْ صُحُفٌ وَأَنْقَاشٌ وَزَادَ يَكْفِيهِمْ أَلْهَامًا ، وَتَحْمَلُ التَّوَابِيثُ فِي الْمَرَائِبِ بَعْدَمَا تُشَدُّ
بِالْحِيَالِ ، فَإِذَا تَوَسَّطُوا الْمَاءَ أَمَرُوا الْمُصَوِّرِينَ أَنْ يُصَوِّرُوا جَمِيعَ مَا يَمُرُّ بِهِمْ ، ثُمَّ تُزْفَعُ تِلْكَ التَّوَابِيثُ ،
فَإِذَا وَقَفْتُمْ عَلَى تِلْكَ الصُّورِ فَاهْتَمُّوا لَهَا أَشْبَاهًا مِنْ صُفْرِ أَوْ حِجَازَةٍ أَوْ رَصَاصٍ ، وَانْصُبُّوْهَا قُدَّامَ
الْبَيْتَانِ الَّذِي تَبْنُونَهُ مِنْ جَانِبِ الْبَحْرِ ، فَإِنَّ تِلْكَ الدَّوَابَّ إِذَا خَرَجَتْ وَرَأَتْ صُورَهَا هَرَّتْ وَلَمْ
تَقْدِرْ فَعَرَفَ الرَّاعِي صَاحِبَهُ ذَلِكَ فَفَعَلَهُ ، وَتَمَّ الْبَيْتَانِ وَبَنَى الْمَدِينَةَ .

وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّ صَاحِبَ الْبِنَاءِ وَالْعَتَمِ هُوَ جَيرون الْمُؤْتَفَكِي^(a) ، كَانَ قَصَدَهُمْ قَبْلَ الْوَلِيدِ ، وَإِنَّمَا
أَتَاهُمُ الْوَلِيدُ بَعْدَ حُجُورِيَا^(b) وَقَهَرَهُمْ وَمَلَكَ مِصْرَ .

- ١٠ وَذَكَرُوا أَنَّ الْأَمْوَالَ الَّتِي كَانَتْ مَعَ جَيرون نَفِذَتْ كُلَّهَا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَتَمَّ ، فَأَمَرَ الرَّاعِي
أَنْ يُخْبَرَ الْجَارِيَّةُ فَقَالَتْ : إِنَّ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي خَرِبَتْ مَلْعَبًا مُسْتَدِيرًا حَوْلَهُ سَبْعَةُ عُمُدٍ عَلَى رُؤُوسِهَا
تَمَائِيلُ مِنْ صُفْرِ قِيَامٍ ، فَقَرَّبَ لِكُلِّ تَمَائِيلٍ مِنْهَا ثَوْرًا سَمِينًا ، وَلَطَّخَ الْعُمُودَ الَّذِي تَحْتَهُ مِنْ دَمِ الثَّوْرِ
وَبَخَّرَهُ بِشَعْرِ مِنْ ذَنْبِهِ وَشَيْءٍ مِنْ نُحَاتِهِ قُرُونَهُ وَأُظْلَافَهُ ، وَقُلَّ لَهُ : هَذَا قُرْبَانُكَ فَأَطْلِقْ لِي مَا عِنْدَكَ ،
ثُمَّ قِسْ مِنْ كُلِّ عُمُودٍ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا وَجْهَ الثُّغْمَالِ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، وَاخْفِرْ عِنْدَ انْتِثَاءِ الْقَمَرِ
وَاسْتِيقَامَةِ رُحْلِ ، فَإِنَّكَ تَنْتَهِي بَعْدَ خَمْسِينَ ذِرَاعًا إِلَى بَلَاطَةِ عَظِيمَةٍ ، فَلَطِّخْهَا بِمَرَارَةِ الثَّوْرِ وَأَقْلِقْهَا ،
فَإِنَّكَ تَنْزِلُ إِلَى سَرَبٍ طَوْلُهُ خَمْسُونَ ذِرَاعًا ، فِي آخِرِهِ خِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ ، وَمِفْتَاحُ الْقِفْلِ تَحْتَ عَتَبَةِ
الْبَابِ فَحُذِّهِ ، وَلَطِّخِ الْبَابَ بِبَقِيَّةِ الْمَرَارَةِ وَدَمِ الثَّوْرِ ، وَبَخَّرَهُ بِشُحَاتِهِ قُرُونَهُ وَأُظْلَافَهُ وَشَعْرَ ذَنْبِهِ ،
وَادْخُلْ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُكَ صَتَمٌ فِي غُفْهِ لَوْحٍ مِنْ صُفْرِ مَكْتُوبٍ فِيهِ جَمِيعُ مَا فِي الْخِزَانَةِ ، فَحُذِّ مَا يَشْفَتْ
وَلَا تَغْرِضْ مَيْتًا تَجِدُهُ وَلَا مَا عَلَيْهِ ؛ وَكَذَلِكَ كُلُّ عُمُودٍ وَتَمَائِيلٍ ، فَإِنَّكَ تَجِدُ مِثْلَ تِلْكَ الْخِزَانَةِ ، وَهَذِهِ
نَوَافِسُ سَبْعَةِ مِنَ الْمُلُوكِ وَكُنُوزِهِمْ .

- ٢٠ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ سُورَهُ ، وَاسْتَنْقَلَهُ فَوَجَدَ مَا لَا يُدْرِكُ وَصْفُهُ ، وَوَجَدَ مِنَ الْعَجَائِبِ شَيْئًا كَثِيرًا ،
فَعَمَّ بِنَاءَ الْمَدِينَةِ . وَبَلَغَ ذَلِكَ حُجُورِيَا^(b) فَسَاءَهَا ، وَكَانَتْ قَدْ أَرَادَتْ إِيْعَابَهُ وَمَلَكَهُ بِالْحِيلَةِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ وَجَدَ فِيهَا وَجَدَ دَرْجًا مِنْ دَهَبٍ مَخْتُومًا ، فِيهِ مَكْحَلُهُ زَبْرَجِدٌ فِيهَا دَرُورٌ أَخْضَرٌ وَمَعَهَا
عَرَقٌ أَحْمَرٌ ، مِنْ اِسْتَحْلَ مِنْ ذَلِكَ الدَّرُورِ بِالْعَرَقِ وَكَانَ أَشْيَبَ ، عَادَ شَابًا وَاسْوَدَّ شَعْرُهُ وَأَضَاءَ

بَصْرُهُ حَتَّى يُدْرِكَ الرُّوحَانِيْنَ . وَوَجَدَ تَمَثَّالًا مِنْ ذَهَبٍ إِذَا ظَهَرَ غَيِّمَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ ، وَمِثَالُ
 غُرَابٍ مِنْ حَجَرٍ إِذَا شَعَلَ عَنْ شَيْءٍ صَوْتٌ وَأَجَابَ عَنْهُ ، وَوَجَدَ فِي كُلِّ خِزَانَةٍ عَشْرَ أُعْجُوبَاتٍ .
 فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ وَجَّهَ إِلَى حُوزِيَا^(٥) بِحَثِّهَا عَلَى الْقُدُومِ إِلَيْهِ ، فَحَمَلَتْ إِلَيْهِ فَرْشًا فَاجِرًا
 لَيْسَطُهُ فِي الْحَجَلِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَقْسِمُ بِجَيْشِكَ أَثَلَاثًا ، فَأَنْفَذَ إِلَيْ ثَلَاثِهِ ، حَتَّى إِذَا
 بَلَغَتْ ثَلَاثَ الطَّرِيقِ فَأَتَيْدَ الثَّلَاثَ الْآخَرَ ، فَإِذَا جُزَتْ نِصْفَ الطَّرِيقِ فَأَتَيْدَ الثَّلَاثَ الْبَاقِي لِيَكُونُوا مِنْ
 وَرَائِي ، لَعَلَّ تَرَانِي أَحَدٌ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْكَ ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَكَ إِلَّا صِيبَةٌ تَبْقَى بِهِمْ بِخُدْمُونَكَ ، فَإِنِّي
 أُؤَفِّقُكَ فِي جَوَارِ تَكْنِيكَ الْحَيِّمَةِ وَلَا أُخْشِئُسَهُنَّ ، ففَعَلَ ، وَأَقَامَتْ تَحْمِلُ الْجِهَازَ إِلَيْهِ وَالْأَمْوَالَ حَتَّى
 عَلِمَ بِمَسِيرِهَا فَوَجَّهَ إِلَيْهَا ثَلَاثَ جَيْشِهِ ، فَعَمِلَتْ لَهُمُ الْأَطْعِمَةَ وَالْأَشْرِيَةَ الْمَشْمُومَةَ ، وَأَنْزَلَهُمْ جَوَارِيهَا
 وَخَشَمَهَا وَقَدَّمُوا إِلَيْهِمُ الْأَطْعِمَةَ وَالْأَشْرِيَةَ وَالطَّيِّبَ وَأَنْوَاعَ اللَّهْوَ ، فَلَمْ يُضْبَحْ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَيًّا .
 وَسَارَتْ ، فَلَقِيَهَا الثَّلَاثُ الْآخَرُ ففَعَلَتْ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَهِيَ تُوجِّهُ إِلَيْهِ أَنَّهَا أَنْفَذَتْ جَيْشَهُ إِلَى قَصْرِهَا
 وَتَمَلَّكْتُهَا بِحِفْظِ لَوْحَتَيْهَا .

وَسَارَتْ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهِ هِيَ وَظَفَرُهَا وَجَوَارِيهَا ، فَتَفَقَّحَتْ ظَفَرُهَا فِي وَجْهِهِ نَفْخَةً بُهِتَ إِلَيْهَا ،
 وَرَشَّتْ عَلَيْهِ مَا كَانَ مَعَهَا فَارْتَفَعَتْ أَعْضَاؤُهُ ، وَقَالَ : مِنْ طَرَفٍ أَنَّهُ يَغْلِبُ النِّسَاءَ فَقَدْ كَذَّبَتْهُ نَفْسُهُ
 وَغَلَبَتْهُ النِّسَاءُ . ثُمَّ إِنَّهَا فَصَدَّتْ عُرُوقَهُ وَقَالَتْ : دِمَاءُ الْمُلُوكِ شِفَاءٌ ، وَأَخَذَتْ رَأْسَهُ وَوَجَّهَتْ بِهِ إِلَى
 قَصْرِهَا وَنَصَبَتْهُ عَلَيْهِ ، وَحَوَّلَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ إِلَى مَدِينَةِ مَثَفٍ ، وَبَنَتْ مَنَازِلًا بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَزَبَرَتْ
 عَلَيْهِ اسْمَهَا وَاسْمَهُ ، وَمَا فَعَلَتْ بِهِ ، وَتَارِيخُ الْوَقْتِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَبَرُهَا الْمُلُوكَ هَائِبُهَا وَأَطَاعُوهَا وَهَادُوهَا . وَعَمِلَتْ بِمَصْرِ عَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَبَنَتْ عَلَى
 حَدِّ مِصْرَ مِنْ نَاحِيَةِ الثَّوْبَةِ حِصْنًا وَقَنْظَرَةً يَجْرِي مَاءُ النَّيْلِ مِنْ تَحْتِهَا ، وَاعْتَلَّتْ فَقَلَّدَتْ ابْنَتَهُ عَمَّا
 زُلَيْفَةَ بِنْتِ مَأْمُومٍ^(٥) ، وَمَاتَتْ^١ .

وَقَالَ ابْنُ خُرْدَادَذَهَ : رُوِيَ أَنَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ بَنِيَتْ فِي ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا مَكَثُوا سَبْعِينَ سَنَةً لَا
 يَمُتُّونَ فِيهَا بِالْأَنْهَارِ إِلَّا بِخُرْقٍ شَدِيدٍ مَخَافَةٍ عَلَى أَبْصَارِهِمْ مِنْ شِدَّةِ بَيَاضِ جِبِلَّاتِهَا ، وَمَنَازِلِهَا الْعَجِيبَةِ
 عَلَى سَرَطَانَ رُجَاجٍ فِي الْبَحْرِ ، وَأَنَّهُ كَانَ فِيهَا سِتُّ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْيَهُودِ غَوَّلَ لِأَهْلِهَا^٢ .

(٥) بولاق : جورباق . (ب) بولاق : زلفى بنت مأمون .

^١ التومري : نهاية الأرب ١٠٧: ١١٢-١٠٧ : نقلًا عن ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦٠ : بقوت :
 وصيف شاه .
^٢ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦٠ : بقوت :
 معجم البلدان ١ : ١٨٦ .

وقال ابنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : وكانت البِعمَارَةُ ممتدَّةً في رِمَالِ رَشِيدِ الإسْكَندَرِيَّةِ إلى بَرْقَةِ ، فكان الرجلُ يَسِيرُ في أَرْضِ مِصرَ فلا يَخْتِاجُ إلى زَادٍ لَكَثْرَةِ القَوَاكِه والخَيْرَاتِ ، ولا يَسِيرُ إِلَّا في ظِلَالِ تَشْتَرِهِ من حَرِّ الشَّمْسِ .

وَعَمِلَ المَلِكُ صَا بِن قُطَيْمٍ في تلك الصُّحَارَى قُصُورًا ، وَغَرَسَ فِيهَا غُرُوشًا ، وسَاقَى إليها من الثَّيْلِ أَنهَارًا ، فكان يُشْلِكُ من الحَايِبِ الغَرِيبِ إلى حَدِّ القَرْبِ في عِمَارَةٍ مُتَّصِلَةٍ .

فلَمَّا انْقَرَضَ أولئك القَوْمُ بَقِيَتْ آثارُهُمْ في تلك الصُّحَارَى ، وَخَرِبَتْ تلك المَنَازِلُ وبَادَ أَهْلُهَا ، ولا يَزَالُ من دَخَلَ تلك الصُّحَارَى يَخْجِي ما رآه فِيهَا من الآثَارِ والعَجَائِبِ .

وقال ابنُ عَبدِ الحَكَمِ : وكان الذي بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ وَأَسَّسَ بِنَائَهَا ذُو القَرْنَيْنِ الرُّومِي ، واسمه الإسْكَندَرُ ، وَه سُمِّيَتْ الإسْكَندَرِيَّةُ ، وهو أَوَّلُ من عَمِلَ الوَشْيَ ، وكان أبوه أَوَّلُ القِيَاصِرَةِ .

وقيلَ إِنَّهُ رَجُلٌ من أَهلِ مِصرَ اسمه مَرْزَبَا بِن مَرْزَبَةِ اليُونَانِي ، من وَلَدِ يُونَانَ بِن يَاقِثَ بِن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وقيلَ كان من أَهلِ لُؤَيَّةَ ، كُوزَةٍ من كُوزِ مِصرَ الغَرِيبةِ . قال ابنُ لُؤَيَّةَ : وَأَهْلُهَا رُومٌ . ويُقالُ هو رَجُلٌ من جَمْعِ ، قال ثَجَّجٌ ١ :

[الكامل]

قَدْ كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ جَدِّي مُتَمَلِّمًا مَلِكًا تَدْبِيرُ لَهُ المُلُوكُ وَتَحْشِيدُ
بَلَغَ المَغَارِبَ والمَشَارِقَ يَبْتَغِي أَشْبَابَ عِلْمٍ من حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَتَأْطِ حَزْمِدِ

وَيُروى : « قد كان ذُو القَرْنَيْنِ قَبْلِي مُتَمَلِّمًا » . وَخَدَّثَنِي عُثْمَانُ بِن صَالِحٍ ، خَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بِن وَهَبٍ ، عَنِ عبدِ الرَّحْمَنِ بِن زِيَادِ بِن أَنْعَمَ ، عَنِ سَعْدِ بِن مَشْعُودِ الثَّجَبِيِّ ، عَنِ شَيْخَيْنِ من قَوْمِهِ قَالَا : كُنَّا بِالإِسْكَندَرِيَّةِ ، فَاسْتَطَلْنَا يَوْمًا فَقُلْنَا : لو انْطَلَقْنَا إلى عُقْبَةِ بِن عَامِرٍ تَتَخَدَّثُ عِنْدَهُ ، فَانْطَلَقْنَا إِلَيْهِ فَوَجَدْنَاهُ جَالِسًا فِي دَارِهِ ، فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّا اسْتَطَلْنَا يَوْمًا ، فَقَالَ : وَأَنَا مِثْلُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا خَرَجْتُ حِينَ اسْتَطَلَّتْهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْدُمُهُ ، فَإِذَا أَنَا بِرِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَهُمْ مَصَاحِفُ أَوْ كُتُبٌ ، فَقَالُوا : اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَكَانِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَالِي وَلَهُمْ ، يَسْأَلُونِي عَمَّا لَا أَذْرِي ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ لَا

١ ابن عبد الحكم : فتح مصر ٣٧-٣٨ وقارن ، ٤ : ١٢٥ الزبيدي : تاج العروس ٢ : ٣٣٥ .
البيروني : الآثار الباقية ٤٠-٤١ ؛ ابن منظور : لسان العرب

عَلِمَ لِي^٩ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي^{١٠}؛ ثم قال: «أُبَلِّغُنِي وَضُوعًا»، فَتَرَضُّأُ ثُمَّ قَامَ إِلَى مَسْجِدِ بَيْتِهِ فَزَكَّعَ رُكْعَتَيْنِ، فَلَمْ يَنْصَرَفْ حَتَّى عَرَفْتُ الشَّرُورَ فِي وَجْهِهِ وَالْبِشْرَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ: «أَدْخِلْهُمْ، وَمَنْ وَجَدْتَ بِالْبَابِ مِنْ أَصْحَابِي فَأَدْخِلْهُ»؛ قَالَ: فَأَدْخَلْتُهُمْ، فَلَمَّا وَقَفُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «إِنْ شِئْتُمْ أَخْبِرْتُكُمْ عَمَّا أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ وَأَخْبِرْتُكُمْ»؛ قَالُوا: بَلَى، أَخْبِرْنَا قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ؛ قَالَ: «أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَسْأَلُونِي عَنْ ذِي الْقَرْوَيْنِ، وَسَأَخْبِرُكُمْ عَمَّا نَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ، إِنَّ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَنَّهُ غُلَامٌ مِنَ الزُّومِ أُعْطِيَ مُلْكًا، فَسَارَ حَتَّى أَتَى سَاحِلَ الْبَحْرِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ فَاهْتَبَى عِنْدَهُ مَدِينَةً يُقَالُ لَهَا الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ.

فَلَمَّا قَرَعَ مِنْ بَنَائِهَا أَنَاهُ مَلِكٌ فَعَرَّجَ بِهِ حَتَّى اسْتَقَلَّهُ فَرَقَعَهُ، فَقَالَ: انْظُرْ مَا تَحْتَكُ؟ فَقَالَ: أَرَى مَدِينَتِي وَأَرَى مَدَائِنَ مَعَهَا. ثُمَّ عَرَّجَ بِهِ فَقَالَ: انْظُرْ. فَقَالَ: قَدْ اخْتَلَطَتْ مَدِينَتِي مَعَ الْمَدَائِنِ فَلَا أَعْرِفُهَا. ثُمَّ زَادَ فَقَالَ: انْظُرْ. فَقَالَ: أَرَى مَدِينَتِي وَخَدَّهَا وَلَا أَرَى غَيْرَهَا. قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «لَمَّا تِلْكَ الْأَرْضُ كُلُّهَا، وَالَّذِي تَرَى يُحِيطُ بِهَا هُوَ الْبَحْرُ، وَلَمَّا أَرَادَ رُؤُكَ أَنْ يُرِيدَكَ الْأَرْضُ، وَقَدْ جَعَلَ لَكَ شُلْطَانًا فِيهَا سَوْفَ تُعَلِّمُ الْجَاهِلَ وَتُبَيِّنُ^{١١} الْعَالِمَ. فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ، ثُمَّ أَتَى السُّدُنَ، وَهِيَ بَجِلَانُ لِيَانٍ يَزِلُّ عَنْهُمَا كُلُّ شَيْءٍ، فَبَتِيَ السُّدُ. ثُمَّ جَازَ بِأَمْجُوجَ وَأَمْجُوجَ، فَوَجَدَ قَوْمًا وَجُوهَهُمْ وَجُوهَ الْكِلَابِ يُقَاتِلُونَ بِأَمْجُوجَ وَأَمْجُوجَ، ثُمَّ قَطَعَهُمْ فَوَجَدَ أُمَّةً قِصَارًا يُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَجُوهَهُمْ وَجُوهَ الْكِلَابِ، وَوَجَدَ أُمَّةً مِنَ الْغَرَانِقِ يُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ الْقِصَارَ، ثُمَّ مَضَى فَوَجَدَ أُمَّةً مِنَ الْحَيَّاتِ تَلْتَقِمُ الْحَيَّةَ مِنْهَا الصُّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ، ثُمَّ أَقْبَضَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُدْتَرِّ بِالْأَرْضِ»؛ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ أَمْرَهُ هَكَذَا كَمَا ذَكَرْتَ، وَأَنَّا نَجِدُهُ هَكَذَا فِي كِتَابِنَا.

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَقْدَانَ الْكِلَاعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْوَيْنِ فَقَالَ: «مَلِكٌ مَسَخَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بِالْأَشْبَابِ»؛ قَالَ خَالِدٌ: وَسَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلًا يَقُولُ يَا ذَا الْقَرْوَيْنِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ غُفِّرَا، أَمَا رَضِيتُمْ أَنْ تُسَمِّوا بِالْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تُسَمِّيتُمْ بِالْمَلَائِكَةِ^{١٢}!

وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ: كَانَ ذُو الْقَرْوَيْنِ مُلْكًا، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا؛ قَالَ: وَلَمَّا سُمِّيَ ذَا الْقَرْوَيْنِ لِأَنَّ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْوَيْنِ فَقَالَ: لَمْ يَكُنْ مُلْكًا وَلَا نَبِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ

(٩) بولاق: لا أعلم. (ب) بولاق: يعلم ... هبت.

^١ انظر فيما يلي ٤١٧ نقلًا عن الحيوان للجاحظ.

عَبْدًا صَالِحًا أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحْبَبَهُ اللَّهُ ، وَنَصَحَ اللَّهُ فَتَصَحَّحَهُ اللَّهُ ، بَعَثَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَوْمِهِ^(٥) فَمَاتَ ، (ب) فَأَخْيَاهُ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَوْمِهِ فَمَاتَ^(٥) فَسُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ .

وَيُقَالُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ جَاوَزَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ .

وَيُقَالُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ لَهُ غَدِيرَتَانِ مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ يَطَّأُ فِيهِمَا ، وَقِيلَ بَلْ كَانَ لَهُ

قَرْنَانِ صَغِيرَانِ ثَوَارِيهِمَا الْعِمَامَةُ .

وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ : إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَرْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَطْلَعِهَا^(٥) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْقَاصِ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ أَوَّلُ شَأْنِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ أَنْ يُرْعَوْنَ اتَّخَذَ بِهَا

مَصَانِيعَ وَمَجَالِسَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عَمَّرَهَا وَبَنَى فِيهَا ، فَلَمْ تَزَلْ عَلَى بَنَائِهِ وَمَصَانِيهِ . ثُمَّ تَدَاوَلَهَا

مُلُوكُ مِصْرَ بَعْدَهُ ، فَجَبَّتْ ذَلُوكَةَ بِنْتِ زَبَاءَ مَنَارَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَمَنَارَةَ بُوقِيرَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ . فَلَمَّا ظَهَرَ

سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَلَى الْأَرْضِ اتَّخَذَ بِهَا مَجْلِسًا/ وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدًا . ثُمَّ إِنَّ ذَا

الْقَرْنَيْنِ تَلَكَّهَا فَهَتَمَ مَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْقِرَاعَةِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَّا بِنَاءَ سُلَيْمَانَ لَمْ يَهْدِمِهِ وَلَمْ

يُغَيِّرْهُ ، وَأَصْلَحَ مَا كَانَ رَتْ مِنْهُ ، وَأَقَرَّ الْمَنَارَةَ عَلَى حَالِهَا ، ثُمَّ بَنَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا بِنَاءً يُشَبِّهُ

بَعْضُهُ بَعْضًا . ثُمَّ تَدَاوَلَهَا الْمُلُوكُ بَعْدَهُ مِنَ الرُّومِ وَغَيْرِهِمْ ، لَيْسَ مِنْ مَلِكٍ إِلَّا يَكُونُ لَهُ بِهَا بِنَاءٌ يَضَعُهُ

بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ يُعْرِفُ بِهِ وَيُنَسِّبُ إِلَيْهِ^(٦) .

قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ : وَبَلَغَنِي أَنَّهُ وَجِدَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ حَجَرًا مَكْتُوبٌ فِيهِ : «أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادَ ، وَأَنَا

الَّذِي نَصَبَ الْعِمَادَ ، وَحَدَّ الْأَحْيَادَ ، وَشَدَّ بِلِزَاعِهِ الْوَادَ ، يَنْتَبِهْنَ إِذَا لَا شَيْءَ وَلَا مَوْتَ ، وَإِذَا

الْحِجَارَةُ فِي اللَّيْلِ مِثْلَ الطُّيْنِ»^(٦) .

وَفِي رِوَايَةٍ : «وَكُنْتُ فِي الْبَحْرِ كَنْزًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا ، لَنْ يُخْرِجَهُ أَحَدٌ حَتَّى تُخْرِجَهُ أُمَّةٌ

مُحَمَّدٍ ﷺ» ، قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ : وَالْأَحْيَادُ كَالْمَقَارِ^(٦) .

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي فِي كِتَابِ «الْأَمَالِي» : وَأَلْشَدَّ ابْنُ الْأَغْرَابِيِّ وَغَيْرُهُ^(٦) :

(٥) بولاق : قرنيه . (b-b) ساقط من بولاق . (c) بولاق : شرقها .

^٤ نفسه ٤١ .

^١ قارن مع السعدي : مروج الذهب ٢: ٨-٩ .

^٢ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٢٨-٤١ . ^٥ القالي : الأمالي ، القاهرة ١٩٢٦ ، ١: ٢٣٤ . وقارن

أيضًا ، ابن منظور : لسان العرب ١٤: ٤٢-٤٣ الزبيدي :-

^٣ نفسه ٤١ .

[الرجز]

تَسْأَلُنِي عَنْ السَّنِينَ كَمْ لِي فَقُلْتُ لَوْ عُمِرْتُ عُمَرَ الْحِشْلِ
أَوْ عُمَرَ نُوْحِ زَمَنِ الْفِطْحَلِ

وفي رواية :

[الرجز]

لَوْ أَتَيْتُ عِلْمَ الْحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامِ الثُّغْلِ
وَعِشْتُ ذَهْرًا زَمَنَ الْفِطْحَلِ أَهَامَ كَانَ الصُّخْرُ مِثْلَ الْوَحْلِ
لَيْتَ زَهْنٍ هَزَمَ أَوْ قَتَلَ^(a)

وقال آخر: زَمَنُ الْفِطْحَلِ : إِذِ السَّلَامُ يُطَابُ^(b)؛ وعندهم أَنَّ زَمَنَ الْفِطْحَلِ زَمَانٌ كَانَ بَعْدَ
الطُّوفَانِ عَظُمَ فِيهِ الْخِصْبُ وَحَسِنَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ . وقال بعضهم : زَمَنُ الْفِطْحَلِ زَمَنٌ لَمْ يُخْلَقْ^(c)
بعد . وقوله : «علم الحُكْلِ» ، الحُكْلُ مَا لَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ .

هذا الرجز لرؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حنّ بن بكر بن ربيعة بن
سعد بن مالك بن زيد مائة بن تميم . وذلك أَنَّهُ وَرَدَ مَاءٌ لِّلْحُكْلِ فَرَأَى قَتَاةً فَأَعْجَبَتْهُ فَخَطَبَهَا ،
فَقَالَتْ : أَرَى سَيْئًا ، فَهَلْ مِنْ مَالٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِطْعَةً مِنْ إِبِلٍ ؛ قَالَتْ : فَهَلْ مِنْ وَرَقٍ ؟ قَالَ : لَا ؛
قَالَتْ : يَا آلَ عُكْلٍ أَكْبَرًا وَإِعْزَازًا ! فَقَالَ رُؤْبَةُ^١ :

[الرجز]

لَمَّا لَزَذَرْتُ قَدْرِي وَقِلَّةَ إِبِلِي تَأَلَّقَتْ وَائْتَصَلَتْ بِعُكْلِي
يَحْطِبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَمْتَلِبِي تَسْأَلُنِي عَنْ السَّنِينَ كَمْ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمِرْتُ عُمَرَ الْحِشْلِ أَوْ عُمَرَ نُوْحِ زَمَنِ الْفِطْحَلِ
وَالصُّخْرُ مُبْتَلٍ كِطْبَيْنِ الْوَحْلِ صِرْتُ زَيْهِنَ هَزَمَ أَوْ قَتَلَ

وفي رواية :

[الرجز]

لَوْ أَتَيْتُ عِلْمَ الْحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامِ الثُّغْلِ

(a) ورد هذا الرجز في بولاق بطريقة مشوهة . (b) بولاق : رطاب . (c) بولاق : يخلف .

= تاج العروس ٨ : ٦٤ . العجاج ، اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد ، يولين

^١ مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن ١٩٠٣ ، ١٢٨ ، وهي من أبيات يمدح فيها ابن الممرين .

وَسَأَلْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ دُرَيْدٍ عَنْ زَمَنِ الْفَيْطَلِ فَقَالَ : تَزْعُمُ الْعَرَبُ أَنَّهُ زَمَانٌ كَانَتْ فِيهِ الْحِجَارَةُ رَطْبَةً .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ شَذَادُ بْنُ عَادٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^١ .

- وَكَانَتْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ثَلَاثَ مِائَتَيْنِ ، بَعْضُهَا إِلَى جَنْبِ بَعْضٍ : مِئَةٌ ^٢ ، وَهِيَ مَوْضِعُ الْمَنَارَةِ وَمَا وَالِهَا ، وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةُ - وَهِيَ مَوْضِعُ قَصْبَةِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ الْيَوْمَ - وَتَقِيطَةٌ . وَكَانَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ شُورٌ ، وَشُورٌ مِنْ تَحْتِ ذَلِكَ عَلَى الثَّلَاثِ مِائَتَيْنِ يُحِيطُ بِهِنَّ جَمِيعًا . وَقِيلَ كَانَ عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ سَبْعَةُ مَحْصُونٍ مَنِيعَةٍ ، وَسَبْعَةُ خَنَاقٍ ^١ .

- قَالَ : وَإِنَّ ذَا الْقَوْنَيْنِ لَمَّا بَنَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ رَحَّمَهَا بِالرُّخَامِ الْأَبْيَضِ مَجْدُوزًا وَأَرْضَهَا ، فَكَانَ لِيَأْشُهُمْ فِيهَا السَّوَادُ وَالْحُمْرَةُ ، فَمَنْ قَتَلَ ذَلِكَ لَيْسَ الرُّهْبَانُ السَّوَادُ مِنْ تَصَوُّعِ بَيَاضِ الرُّخَامِ . وَلَمْ يَكُونُوا يُشْرِجُونَ فِيهَا بِاللَّيْلِ مِنْ بَيَاضِ الرُّخَامِ ، وَإِذَا كَانَ الْقَمَرُ أَدْخَلَ الرَّجُلَ الَّذِي يَخِيطُ بِاللَّيْلِ فِي صَوءِ الْقَمَرِ مَعَ بَيَاضِ الرُّخَامِ الْخَفِيطِ فِي ثَقْبِ الْإِزْبَةِ . وَيُقَالُ بُنِيََتِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ فِي ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَشَكِنَتْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَخَرِبَتْ ثَلَاثَ مِائَةٍ . وَلَقَدْ مَكَّنَتْ سَبْعِينَ سَنَةً مَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا وَعَلَى بَصَرِهِ خِرْقَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ بَيَاضِ بَحْصِهَا وَبَلَاغِهَا ، وَلَقَدْ مَكَّنَتْ سَبْعِينَ سَنَةً مَا يُشْتَشْرِجُ فِيهَا ^٢ .

- قَالَ : وَكَانَتْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ يَبْضَاءُ تُضِيءُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَكَانُوا إِذَا غَوَّتِ الشَّمْسُ لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ ، وَمَنْ خَرَجَ اخْطِطَفَ . وَكَانَ مِنْهُمْ رَاغٍ يَرْعَى عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَكَانَ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ شَيْئًا فَيَأْخُذُ مِنْ غَنَمِهِ ، فَكَمَنَّ لَهُ الرَّاغِي فِي مَوْضِعٍ حَتَّى خَرَجَ ، فَإِذَا جَارِيَةٌ قَدْ نَقَشَتْ شَعْرَهَا ، وَمَانَعَتْهُ عَنْ نَفْسِهَا ، فَغَوَّيَ عَلَيْهَا ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَنَسَتْ بِهِ ، فَرَأَتْهُمْ لَا يَخْرُجُونَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَسَأَلَتْهُمْ ، فَقَالُوا : مَنْ خَرَجَ مِنَّا اخْطِطَفَ . فَبَيَّاتُ لَهُمُ الطَّلُشْمَاتُ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ الطَّلُشْمَاتَ بِمِصْرَ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَقِيلَ كَانَ الرُّخَامُ قَدْ شَحَّرَ لَهُمْ حَتَّى يَكُونَ مِنْ بُكْرَةٍ إِلَى نِصْفِ ^(ب) النَّهَارِ كَالْعَجِينِ ، فَإِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ اشْتَدَّ ^٣ .

(٢) بولاق : منبوعة . (ب) ساقطة من بولاق .

^٢ نفسه ٤٢-٤٣ .

^١ ابن عبد الحكم : فوج مصر ٤١ .

^٢ نفسه ٤٢ .

وقال المشهودي: ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْإِسْكََنْدَرَ الْمَقْدُونِي لَمَّا اسْتَقَامَ مُلْكُهُ فِي بِلَادِهِ ،
 وَسَارَ حَتَّى يَخْتَارَ أَرْضًا صَحِيحَةً الْهَوَاءِ وَالثَّرْوَةِ وَالْمَاءِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْإِسْكََنْدَرِيَةِ فَأَصَابَ
 فِيهَا أَثَرَ بُيَّانٍ وَعُثْمًا كَثِيرَةً مِنَ الرُّوحَامِ ، وَفِي وَسْطِهَا عُمُودٌ عَظِيمٌ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْمُسْنَدِ -
 وَهُوَ الْقَلَمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَقْلَامِ جَمِيرٍ وَمُلُوكِ عَادَ - : «أَنَا شَدَادُ بْنُ عَادَ ، شَدَّدْتُ بِسَاعِيدي الْوَادَ»^٥ ،
 وَقَطَعْتُ عَظِيمَ / الْعِمَادِ وَشَوَائِخَ الْحِيَالِ وَالْأَطْوَادِ ، وَبَنَيْتُ لِرِمِّ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
 فِي الْبِلَادِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَبْنِيَ هُنَا مَدِينَةً كَارِمَةً ، وَأَتَقِلَّ إِلَيْهَا كُلُّ ذِي قَدَمٍ وَكَرَمٍ ، مِنْ جَمِيعِ الْعَشَائِرِ
 وَالْأَنْحُمِ ، وَذَلِكَ إِذْ لَا خَوْفَ وَلَا هِزْمَ ، وَلَا اِهْتِمَامَ وَلَا سِقَمَ ، فَأَصَابَنِي مَا أَعْجَلَنِي ، وَعَمَّا أَرَدْتُ
 قَطَعَنِي ، وَمَعَ وَقُوعِهِ طَالَ هَمِّي وَشَجَنِي ، وَقَلَّ تَوْمي وَسَكَنِي ، فَارْتَمَيْتُ بِالْأَمْسِ عَنْ دَارِي لَا
 لِقَهْرِ مِثْلِكَ جَبَّارٍ ، وَلَا لَخَوْفِ جَيْشِ جَرَّارٍ ، وَلَا عَنْ رَغْبَةٍ وَلَا عَنْ صَغَارٍ ، وَلَكِنْ لِتِمَامِ الْقِدَارِ ،
 وَانْقِطَاعِ الْآثَارِ ، وَسُلْطَانِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ . فَمَنْ رَأَى أَثَرِي ، وَعَرَفَ خَبْرِي وَطُولَ عُمرِي وَنَفَادَ
 بَصْرِي وَشِدَّةَ خَذْرِي ، فَلَا يَفْتَرِ بِالْذُّنْيَا بَغْدِي ، فَإِنَّهَا غَرَاوِزُ عَذَارَةٍ ، نَأْخُذُ مِنْهَا مَا تُغْطِي ، وَتَسْتَرْجِعُ
 مِنْهَا مَا تُؤْتِي ...» ، وَكَلَامُ كَثِيرٍ يُرَى فَنَاءَ الدُّنْيَا وَيَمْتَنِعُ مِنَ الْاِغْتِرَارِ بِهَا وَالشُّكُونِ إِلَيْهَا .

فَنَزَلَ الْإِسْكََنْدَرُ مُتَفَكِّرًا يَدْبُرُ هَذَا الْكَلَامَ وَيَغْتَبِرُهُ ، ثُمَّ بَقِيَ يَحْشُرُ الصُّنَاعَ مِنَ الْبِلَادِ ، وَخَطَّ
 الْأَسَاسَ ، وَجَعَلَ طَوْلَهَا وَعَرْضَهَا أُمَيَّالًا ، وَجَمَعَ إِلَيْهَا الْعُمُدَ وَالرُّوحَامَ ، وَأَتَتَهُ الْمَرَائِبُ فِيهَا أَنْوَاعَ
 الرُّوحَامِ وَأَنْوَاعَ الْمَرْمَرِ وَالْأَخْجَارِ مِنْ جَزِيرَةِ صِبُولِيَّةٍ وَبِلَادِ إِفْرِيْقِيَةِ وَإِفْرِيطِشَ وَأَقَاصِي بَحْرِ الرُّومِ ثُمَّ يَلِي
 مَصْبِيحَهُ نَحْوَ أَقْيَانَسَ ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ أَيْضًا مِنْ جَزِيرَةِ رُودُسَ .

وَأَمَرَ الْقَعْلَةَ وَالصُّنَاعَ أَنْ يَدُورُوا بِمَا رُئِيَ لَهُمْ مِنْ أَسَاسِ سُورِ الْمَدِينَةِ ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ
 الْأَرْضِ خَشَبَةً قَائِمَةً ، وَجَعَلَ مِنَ الْخَشَبَةِ جِبَالًا مَنُوطَةً بِبَعْضِهَا بَعْضٌ ، وَأَوْصَلَ جَمِيعَ
 ذَلِكَ بِعُمُودٍ مِنَ الرُّوحَامِ ، وَكَانَ أَمَامَ مَضْرَبِهِ ، وَغَلَّقَ عَلَى الْعُمُودِ جَرَسًا عَظِيمًا مُصَوِّتًا ، وَأَمَرَ النَّاسَ
 وَالْقَوَامَ عَلَى الْبَتَائِينِ وَالْقَعْلَةِ وَالصُّنَاعِ أَنْهُمْ إِذَا سَمِعُوا صَوْتَ ذَلِكَ الْجَرَسِ وَتَحَوَّكَتِ الْحِيَالُ ، وَقَدْ
 غَلَّقَ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهَا جَرَسًا صَغِيرًا ، حَرَّصُوا عَلَى أَنْ يَضَعُوا أَسَاسَ الْمَدِينَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ
 سَائِرِ أَقْطَارِهَا ، وَأَحْبَبَ الْإِسْكََنْدَرُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ يَخْتَارُهُ ، وَطَالِبِ سَعْدٍ . فَحَرَّكَ
 الْإِسْكََنْدَرُ رَأْسَهُ وَأَخَذَتْهُ نَفْسُهُ فِي حَالِ اِزْتِفَائِهِ الْوَقْتَ الْمُحْتَمُودَ ، فَجَاءَ غُرَابٌ فَجَلَسَ عَلَى حَبْلِ
 الْجَرَسِ الْكَبِيرِ الَّذِي فَوْقَ الْعُمُودِ فَحَرَّكَهُ ، وَخَرَجَ صَوْتُ الْجَرَسِ ، وَتَحَوَّكَتِ الْحِيَالُ وَخَفَّقَ مَا عَلَيْهَا

من الأجراس الصُّغار ، وكان ذلك معمولاً بحركات هندسية وجبل حِكْمِيَّة . فلَمَّا رَأَى الصُّنَّاعُ تلكَ الخيالَ قد تحوَّكت ، وسمِعوا الأَصْوَاتَ ، وَصَغَوْا الأساسَ دَفْعَةً وَاجِدَةً ، وَاتَّقَعَ الصُّجُجُ بالتَّخْمِيدِ والتَّقْدِيسِ . فَاسْتَيْقَظَ الإسْكَنْدَرُ من رَفَدَتِهِ ، وسألَ عن الحَبْرِ فَأُخْبِرَ بذلكَ ، فَأَعْجَبَ وقالَ : «أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ غَيْرَهُ ، وَبَاتَى اللهُ إِلَّا مَا يُرِيدُ ، أَرَدْتُ طَوْلَ بَقَائِهَا ، وَأَرَادَ اللهُ سُرْعَةَ فَنَائِهَا وَخَرَابَهَا وَتَدَاوُلَ الْمُلُوكِ لِإِثْمِهَا»^١ .

- وَأَنَّ الإسْكَنْدَرَ لَمَّا أَحْكَمَ بِنَاءَهَا^٢ ، وَبَنَتْ أُسَاسَهَا ، وَبَجَّزَ اللَّيْلَ عَلَيْهِمْ ، خَرَجَتْ دَوَابُّ الْبَحْرِ فَأَتَتْ عَلَى جَمِيعِ الْبَنِيَانِ ، فَقَالَ الإسْكَنْدَرُ حِينَ أَصْبَحَ : «هَذَا بَدْءُ الْخَرَابِ فِي عِمَارَتِهَا ، وَتَحَقُّقُ مُرَادِ الْبَارِي سَبْحَانَهُ مِنْ زَوَالِهَا» . فَتَطَيَّرَ مِنْ فِعْلِ الدَّوَابِّ ، فَلَمْ تَزَلِ الْبِنَاءُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَبْنَى وَتُحْكَمُ وَيُؤَكَّلُ مِنْ يَمْنَعِ الدَّوَابِّ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ ، فَيُضَيِّحُونَ وَقَدْ خَرَجَتْ وَخَرَجَتِ الْبَنِيَانُ . فَقَلِقَ الإسْكَنْدَرُ لذلكَ وَرَاعَهُ مَا رَأَى مِنَ الْبَحْرِ ، فَأَقْبَلَ يُفَكِّرُ مَا الَّذِي يَصْنَعُ ، وَأَتَى حِيلَةَ تَلْقَعُ فِي ذَلِكَ ، حَتَّى تَذْفَعَ الْأَذِيَّةَ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَسَنَحَتْ لَهُ الْحِيلَةُ عِنْدَ خُلُوهُ بِنَفْسِهِ وَإِيرَادَهُ الْأُمُورَ وَإِصْدَارِهَا . فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا الصُّنَّاعَ فَاتَّخَذُوا لَهُ تَابُوتًا مِنَ الْخَشَبِ طَوْلُهُ عَشْرَةُ أَذْرُعٍ فِي غَرْضِ خَمْسَةِ أَذْرُعٍ ، وَجُعِلَتْ فِيهِ جَامَاتُ مِنَ الزُّجَاجِ قَدْ أَحَاطَ بِهَا خَشَبُ التَّابُوتِ بِاسْتِدَارَتِهَا ، وَقَدْ أُمْسِكَ ذَلِكَ بِالْقَارِ وَالزُّفْتِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَطْلِيَّةِ الدَّافِعَةِ لِلْمَاءِ حَذَرًا مِنْ دُخُولِ الْمَاءِ إِلَى التَّابُوتِ ، وَقَدْ جُعِلَ فِيهَا مَوَاضِعُ لِلْحَبَالِ .
- وَدَخَلَ الإسْكَنْدَرُ فِي التَّابُوتِ وَرَجُلَانِ مِنْ كُتَّابِهِ مِمَّنْ لَهُ عِلْمٌ بِإِثْقَانِ التَّصْوِيرِ ، وَأَمَرَ أَنْ تُسَدَّ عَلَيْهِ الْأَبْوَابُ ، وَأَنْ تُطْلَى بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَطْلِيَّةِ ، وَأَمَرَ بِمَرْكِيبَيْنِ عَظِيمَيْنِ فَأُخْرِجَا إِلَى لُجَّةِ الْبَحْرِ وَعُلِقَ فِي التَّابُوتِ مِنْ أَسْفَلِهِ مُثْقَلَاتُ الرُّصَاصِ وَالْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةِ لَتَهْوِيَ بِالتَّابُوتِ سِفْلًا ، وَجُعِلَ التَّابُوتُ بَيْنَ الْمَرْكِيبَيْنِ ، وَالصَّقَقُهَا بِخَشَبٍ بَيْنَهُمَا لَعَلَّ يَفْتَرِّقَا ، وَشُدَّ جِبَالُ التَّابُوتِ إِلَى الْمَرْكِيبَيْنِ وَطَوَّلَ جِبَالَهُ ، فَغَاصَ التَّابُوتُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ ، فَتَنَظَّرُوا إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحَيَوَانِهِ مِنْ ذَلِكَ الزُّجَاجِ الشُّقَافِ فِي صَفَاءِ مَاءِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا بِصُورِ الشَّيَاطِينِ عَلَى مِثَالِ النَّاسِ ، وَفِيهِمْ مَنْ لَهُ مِثْلُ رُؤُوسِ السِّنْبَاعِ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْقُفُوسُ مَعَ بَعْضِهِمْ ، وَفِي أَيْدِي بَعْضِهِمُ الْمَنَاشِيرُ وَالْمَقَامِيعُ يَحْكُونَ بِذَلِكَ صُنَّاعَ الْمَدِينَةِ وَالْفَعْلَةَ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ آلَاتِ الْبِنَاءِ ؛ فَأَتَتْ الإسْكَنْدَرَ وَمَنْ مَعَهُ تِلْكَ الصُّوَرُ ، وَحَكَوْهَا بِالتَّصْوِيرِ فِي الْقَرَاتِيسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَتَشْوِهُ خَلْقِهَا وَقُدُودِهَا . ثُمَّ حَرَّكَ

(ب) فِي مَرْجِ الدَّهَبِ : وَأَنَّ الإسْكَنْدَرَ لَمَّا أَحْكَمَ بِنَاؤَهَا .

^١ قَارَنَ ذَلِكَ بِرَوَايَةِ بِنَاءِ الْقَاهِرَةِ فِي زَمَنِ جَوْهَرِ الْقَائِدِ (فِيمَا بَلَى ٣٧٧:١) .

الحِيَالُ ، فَلَمَّا أَحْسَسَ بِذَلِكَ مِنْ فِي الْمُرْكَبِينَ جَذَبُوا الْحِيَالَ وَأَخْرَجُوا التَّابُوتَ . فَخَرَجَ الْإِسْكََنْدَرُ ، وَأَمَرَ صُنَاعَ الْحَدِيدِ وَالثُّحَاسَ وَالْحِجَازَةَ فَعَمِلُوا تَمَائِيلَ تِلْكَ الدُّوَابِّ عَلَى مَا صَوَّرَ ، فَلَمَّا فَرَعُوا مِنْهَا وَضِعَتْ عَلَى الْعُمْدِ بِشَاطِئِ الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ فِتْنُوا ؛ فَلَمَّا جَرَى اللَّيْلُ ظَهَرَتْ الدُّوَابُّ وَالْآفَاتُ مِنَ الْبَحْرِ ، فَتَنَزَّلَتْ إِلَى صُورِهَا عَلَى الْعُمْدِ مُقَابِلَةً إِلَى الْبَحْرِ ، فَرَجَعَتْ وَلَمْ تَعُدْ بَعْدَ ذَلِكَ ... فَبَيَّتَ الْإِسْكََنْدَرُ وَشَبَّهَتْ .

وَأَمَرَ الْإِسْكََنْدَرُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى أَبْوَابِهَا : «هَذِهِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ، أَرَدْتُ أَنْ / أَتَبِيهَا عَلَى الْفَلَاحِ وَالتَّجَاحِ وَالْيَقِينِ وَالشُّعَادَةِ وَالسُّرُورِ وَالثَّبَاتِ فِي الدُّهُورِ ، وَلَمْ يُدِرْ الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - مَالِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُغْنِيَ الْأُتَمِّ أَنْ يَبِيَهَا^(أ) كَذَلِكَ ، فَتَبَيَّهَا وَأَحْكَمَتْ بُيَاتَهَا وَشَبَّهَتْ سُورَهَا . وَأَتَانِي اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَحِكْمَةً ، وَسَهَّلَ لِي وَجُوهَ الْأَسْبَابِ فَلَمْ يَتَعَذَّرْ عَلَيَّ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ مِمَّا أَرَدْتُهُ ، وَلَا امْتَنَعَ عَنِّي شَيْءٌ مِمَّا طَلَبْتُهُ ، لَطْفًا مِنْ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَصُنْعًا لِي وَصَلَاحًا لِعِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ . وَرَسَمَ بَعْدَ هَذِهِ الْكِتَابَةِ كُلِّ مَا يَخْدُثُ بِيَلَدِهِ مِنَ الْأَخْدَاثِ بَعْدَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعُثْرَانِ وَالْخَرَابِ ، وَمَا يُؤُولُ أَمْرُهَا إِلَيْهِ إِلَى وَقْتِ دُثُورِ الْعَالَمِ .

وَكَانَ بِنَاءُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ طَبَقَاتٍ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرُ مَقْنَطَرَةٍ عَلَيْهَا دُورُ الْمَدِينَةِ ، بِسِيرِ تَحْتَهَا الْفَارِسُ وَبِيَدِهِ رُمْحٌ لَا تَضِيْقُ بِهِ حَتَّى يَدُورَ جَمِيعُ تِلْكَ الْأَزَاجِ وَالْقَنَاطِرُ الَّتِي تَحْتَ الْمَدِينَةِ . وَقَدْ عَمِلَ لِتِلْكَ الْعُقُودِ وَالْأَزَاجِ مَخَارِيقَ ، وَمُتَتَّقِسَاتٍ لِلضِّيَاءِ ، وَمَنَافِذَ لِلهَوَاءِ . وَقَدْ كَانَتْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ تُضِيءُ بِاللَّيْلِ بِغَيْرِ مِضْبَاحٍ لَشِدَّةِ بَيَاضِ الرُّخَامِ وَالْمُؤَمَرِ ، وَكَانَتْ أَشْوَاقُهَا وَسَوَارِعُهَا وَأَزِقَّتُهَا مَقْنَطَرَةٌ كُلُّهَا لَا يُصِيبُ أَهْلَهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَطَرِ . وَكَانَ عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَسْوَارٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحِجَازَةِ الْمُخْتَلِفِي اللَّوْنِ^(ب) ، بَيْنَهَا خَنَاقٌ ، وَبَيْنَ كُلِّ خَنَاقٍ وَسُورٌ فَضُولٌ ، وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ فِي الْمَدِينَةِ شِفَاقُ الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ لِاحْتِطَافِ بَيَاضِ الرُّخَامِ أَبْصَارَ النَّاسِ لَشِدَّةِ بَيَاضِهِ .

فَلَمَّا أَحْكَمَ بِنَاءَهَا وَسَكَنَهَا أَهْلُهَا ، كَانَتْ آفَاتُ الْبَحْرِ وَشُكَّانُهُ - عَلَى مَا زَعَمَ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنَ الْمَصْرِينَ وَالْإِسْكََنْدَرِيِّينَ - تَخْتَلِطُ بِاللَّيْلِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ، فَيَضِيقُونَ وَقَدْ فُقِدَ مِنْهُمْ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ ؛ فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ الْإِسْكََنْدَرُ اتَّخَذَ الطَّلُوسَاتِ عَلَى أَعْمِدَةٍ هُنَالِكَ تُدْعَى الْمَسَالُ ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمِدَةِ عَلَى هَيْئَةِ الشُّرُوزَةِ ، وَطَوَّلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا

(أ) بولاق : يبيتها ، مروج : أبنيها . (ب) بولاق : المختلطة الألوان .

ثمانون ذراعاً، على عُقْدٍ من نُحاس، وجَعَلَ نَحْتَهَا صُورًا وَأَشْكَالًا وَكِتَابَةً^١.

قال كاتبه^٢: فيما تَقَدَّمَ من حكاية ابن وَصيف شاه ما يَحْكِي بِه وَهَم ما نَقَلَهُ المَشْعُودِي من أَنَّ الإسكَنْدَرَ هو الذي عَمِلَ الثَّابُوتَ حَتَّى صَوَّرَ أَشْكَالَ حَيَوَانَاتِ البَحْرِ، فَإِنَّ ابْنَ وَصيف شاه أَعْرَفَ بِأَخْبَارِ أَهْلِ مِصْرَ. وكذلك ما ذَكَرَهُ المَشْعُودِي من أَنَّ الْمَسَالَ من عَمَلِ الإسكَنْدَرَ وَهَلَمَّ أَيْضًا، بل هذه الْمَسَالَ هي الْمَنَائِرُ الَّتِي كَانَ يُتَوَرَّعُ عَلَيْهَا، والأَعْلَامُ الَّتِي كَانَتْ مُلُوكُ مِصْرَ الْقَدَمَاءُ تَنْصِبُهَا. وهي من أَعْمَالِ مُلُوكِ الْقَيْطِ الْأَوَّلِ، ومن أَعْمَالِ الْفَرَاعِيَّةِ الَّذِينَ مَلَكَوا مِصْرَ من قَدِيمِ الزَّمَانِ.

ذِكْرُ الإسكَنْدَرَ^٣

هو الإسكَنْدَرُ بنُ فِيلِيش بنِ أَمَلَقَه بنِ هِرْمَكْلَش الْخَبَّارِ الَّذِي هو ابنُ الإسكَنْدَرَ الْأَعْظَمِ. وَلِيَّ أَبُوهِ فِيلِيش الْمَلِكُ فِي بَلَدِ مَجْدُونِيَّةِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً، اسْتَبْتِطَ فِيهَا ضُرُوبًا مِنَ الْمُنْكَرِ، وَاجْتَدَعَ أَنْوَاعًا مِنَ الشَّرِّ تَقَدَّمَ فِيهَا كُلُّ مَنْ وَلِيَ الْمَلِكُ بِهَا قَبْلَهُ. وَكَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَهُ أَخُوهُ الإسكَنْدَرَ رَهِيئَةً عِنْدَ أَمِيرِ مِنَ الرُّومِ^٤، فَأَقَامَ عِنْدَهُ ثَلَاثَ سَنِينَ، وَكَانَ فَيَلْسُوفًا، فَتَعَلَّمَ عِنْدَهُ ضُرُوبَ الْفَلَسْفَةِ. فَلَمَّا قُتِلَ أَخُوهُ الإسكَنْدَرَ، اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى تَوَلِيَةِ فِيلِيشَ، فَوَلَّوهُ أَمِيرًا، فَقَامَ فِي السُّلْطَانِ مُقَامًا عَظِيمًا، فَحَارَبَ الرُّومَ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى إِلَى الْبَرْيَةِ فَقَتَلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ آلاَفًا، وَغَلَبَ عَلَى مَدَائِنَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ جَمْعٌ لَا يُقَادُ وَجَيْشٌ لَا يُرَامُ، فَأَذَلَّ جَمِيعَ الرُّومِ، وَذَهَبَتْ عَيْنُهُ فِي بَعْضِ الْخُرُوبِ. وَعَمَّ^٥ الْيَلْدَانِ وَالْمَدَائِنُ غَارَةً^٦ وَهَذَا وَسَيِّئًا وَانْتِهَابًا.

(a) بولاق: مؤلفه، وعلى هامش الأصل: في الأصل: كاتبه. (b) بولاق: خمر. (c) بولاق: عمارة.

West», *Bulletin of the John Rylands University Library of Manchester* LX/1 (1977), pp. 13-27; Caratini, R., *Alexandre le grand*, Paris, 1999; La carrière, J., *La Légende d'Alexandre*, traduit du Grec et commenté par, Paris 2000; Fevre, F., *Alexandre le grand, un héros de légende*, Paris 1999; *Alexandre le grand dans les littératures occidentales et Proche-Orientales*, Paris - Université de Paris X-Nanterre 1999; Montgomery Watt, W., *El art. Iskandar* IV, p. 133.

^٣ عند أورويسوس: أمير الطبايين واسمه إبا يمينوندا.

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٩٩-١٠٤.
^٢ هذا الفصل جميعه نقله المقرئ مليحًا من الترجمة العربية لكتاب «تاريخ العالم» لبابولوس أورويسوس Paulus Orosius الذي يسميه المؤلفون العرب هروشوش، وقارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢: ٨-١٠. وشغل الإسكندر اهتمام الباحثين منذ وفاته وتمددت الكتب والبراسات حوله ولكن أحدث ما كتب عنه هو Pseudo-Callisthine, *Le roman d'Alexandre, la vie et les hauts faits d'Alexandre de Macédoine*, Paris 1992; Boyle, J.A., «The Alexander Romance in the East and

ثم حشد جميع أهل بلد الروم، وعيّن عسكرًا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس، سوى من كان فيه من أصحابه المجدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين، يُريد غزو الفرس. فبينما هو يجمع هذا الجمع نظر في تزويج ابنة له يقال لها قلوبطرة من ختنه، أخي امرأته وخال ولده؛ الإسكندر، وجلس قبل الفرس يومين يُحدث قواده إذ سئل عن أي الموات أخق أن يتخاتها الإنسان؟ فقال: الواجب على الرجل القوي الظافر المحارب - يُريد نفسه - ألا يتخى الموت إلا بالسيف فجأة، لئلا يُعذبه المرض وتعمل قوته الأوجاع. فعجل له ما تمنى في ذلك الفرس، وذلك أنه حضر لبيبا كان على الخيل بين ولده الإسكندر وختنه الإسكندر، فبينما هو في ذلك غافله أخذ أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثأيرًا بأبيه عندما تمكن منه مُنقَرِدًا^١.

فولي الإسكندر الملك بعد أبيه فليش، وكان أول شيء أظهر فيه قوته وعزمه في بلد الروم، وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين إلى طاعة الفرس، فدرّسهم واشتأصلهم وخرب مدّتهم وجعلهم سبيًا مبيعًا، وجعل سائر بلادهم وكوزهم تؤدّي إليه الخراج. ثم قتل جميع أشتائه وأكثر أقاربه في وقت تغيبه لمحاربة الفرس^٢.

وكان جميع عسكره اثنين وثلاثين^(أ) ألف فارس وستين ألف راجل، وكانت مراكبه خمس مائة موزك وثمانين موزكيا. فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا، وسار إلى الإسكندرية، ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قربانًا^٣.

وخرج يُريد مُحاربة دارا^(ب)، وكان في عسكر دارا ملك الفرس في أول ملاقاته إياه ست مائة ألف مقاتل، فلقبه الإسكندر، وكانت إذ ذاك على الفرس وقعة شعاء ونكبة ذهياء، قيل فيها منهم عدد لا يحصى، ولم يُقتل من عسكر الإسكندر إلا مائة وعشرون فارسًا وتسعون راجلًا.

ومضى الإسكندر ففتح ميدانًا وانتهب ما فيها، فبلغه أن دارا قد عيّن وأقبل نحوه بجمع عظيم، فخاف أن يلحقه في ضيق الجبال التي كان فيها، فقطع نحوًا من مائة ميل في سرعة

(أ) بولاق: وعشرين. (ب) في الأصل وعند أوريوس في جميع المواضع «داري» ، وقد فضلت رسمها بالألف.

^١ أوريوس: تاريخ العالم ٢٢٠-٢٢٦ ملخصًا. ^٢ نفسه ٢٢٩-٢٣٠.

^٣ نفسه ٢٢٩.

عَجِيبةً حتى بَلَغَ مَدِينَةَ طَرَسُوسَ ، وَكَادَ يَهْلِكُ لِقَرُوطِ البُرودِ حَتَّى انْتَقَضَ عَصَبُهُ ، فَلَقَاهُ دَارَا فِي ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ رَايِلٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ فَارِسٍ .

فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ كَادَ الإسْكَندَرُ يَفْرُجُ^١ لِكثْرَةِ مَا كَانَ فِيهِ دَارَا وَقِلَّةِ مَا كَانَ فِيهِ ، وَاسْتَحَرَّ^٢ الْقِتَالَ بَيْنَهُمَا وَبَاشَرَ الْقَوَادُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَنَازَلَ الْأَبْطَالُ ، وَاخْتَلَفَ الطُّغْرُنُ وَالضَّرْبُ ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ بِالْأَهْلِ ، فَبَاشَرَ بِكَلَا الْمَلِكِينَ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِهِمَا : دَارَا وَالْإِسْكَندَرُ ، وَكَانَ الإسْكَندَرُ أَكْمَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ فُروسِيَّةً وَأَشَجَقَهُمْ وَأَقْوَاهُمْ جِسْمًا ، فَبَاشَرَا حَتَّى جَرَّحَا جَمِيعًا ، وَتَمَادَى الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا حَتَّى انْتَهَزَمَ دَارَا ، وَنَزَلَتِ الْوَقِيعَةُ بِالْفُرْسِ ، فَقُتِلَ مِنْ رَايِلِهِمْ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَمِنْ فُرسَانِهِمْ نَحْوُ مِنْ عَشْرَةِ أَلْفٍ ، وَأَبْرَزَ مِنْهُمْ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَلَمْ يَنْقُطْ مِنْ عَشْكَرِ الإسْكَندَرِ^٣ إِلَّا مِائَتَانِ وَثَلَاثُونَ رَايِلًا وَمِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَارِسًا . فَانْتَهَبَ الإسْكَندَرُ جَمِيعَ عَشْكَرِ الْفُرْسِ ، وَأَصَابَ فِيهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَمْنِيعَةِ الشَّرِيفَةِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَأَصِيبَ مِنْ جُحْلَةِ الْأَسَارَى أُمُّ دَارَا وَزَوْجَتُهُ وَأَخْتُهُ وَابْنَتَاهُ ، فَطَلَبَ دَارَا مِنَ الإسْكَندَرِ فِدْيَتَهُنَّ بِنِصْفِ مِثْلِكِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ^٤ .

فَتَبَأَ دَارَا مَرَّةً ثَلَاثَةً وَخَشِدَ الْفُرسَ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَاسْتَجَاشَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَتَمِّ ، فَبَعَثَ الإسْكَندَرُ قَائِدًا فِي أَشْطُولٍ^٥ لِلْغَارَةِ عَلَى بَلَدِ الْفُرْسِ ، وَمَضَى الإسْكَندَرُ إِلَى الشَّامِ فَتَلَقَّاهُ هُنَاكَ مُلُوكُ الدُّنْيَا خَاضِعِينَ لَهُ ، فَفَقَّأَ عَنْ بَعْضٍ وَنَقَى بَعْضًا وَقَتَلَ بَعْضًا ، وَمَضَى إِلَى أُخْوَازِ طَرَسُوسَ - وَكَانَتْ مَدِينَةُ زَاهِرَةً قَدِيمَةً عَظِيمَةَ الشَّانِ ، وَأَهْلُهَا قَدْ وَتَقُوا بِعَوْنِ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةٍ لَهُمْ لَيْصَهْرٌ كَانَ بَيْنَهُمْ - فَحَاصَرَهُمْ فِيهَا حَتَّى انْتَحَتْهَا ، وَمَضَى مِنْهَا إِلَى زُودَسَ وَإِلَى مِصْرَ فَانْتَهَبَ الْجَمِيعَ ، وَبَنَى مَدِينَةَ الإسْكَندَرِيَّةَ بِأَرْضِ مِصْرَ ، وَقَالَ هِرُودُوتُوسُ : وَلَهُ فِي بُيُوتِهَا أَخْبَارٌ طَوِيلَةٌ وَسِيَاسَاتٌ كَرِهْنَا تَطْوِيلَ بَيَانِهَا بِهَا^٦ .

ثُمَّ إِنَّ دَارَا لَمَّا بَيَسَ مِنْ مُصَالَحَتِهِ أَجْبَلَ فِي أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفٍ رَايِلٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ فَارِسٍ فَتَلَقَّى الإسْكَندَرُ مُقْبِلًا مِنْ نَاحِيَةِ مِصْرَ ، فِي أَعْمَالِ مَدِينَةِ طَرَسُوسَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مَعْرَكَةٌ عَجِيبَةٌ شَنِيعَةٌ ، اجْتِيهَادًا مِنَ الزُّومِ عَلَى مَا كَانُوا خَيَّرُوهُ وَاعْتَادُوهُ^٧ مِنَ الْعَلَبَةِ وَالظُّفْرِ ، وَاجْتِيهَادًا مِنَ الْفُرْسِ بِالْتَّوْطِيلِ عَلَى

(a) بولاق : يفر . (b) بولاق : ووقع . (c) عند أورويسوس : المجلولين . (d) بولاق : واعدوا .

^١ أورويسوس : تاريخ العالم ٢٣٠ - ٢٣١ . ابن وب .

^٢ عند أورويسوس : يدعي برمينون Parmenion ^٣ أورويسوس : تاريخ العالم ٢٣١ .

الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية ، فقلما يُحكى عن مفركة كان القتل فيها أكثر منه في تلك المعركة .

فلما نظرو دارا إلى أصحابه يتقلب عليهم ويهزمون ، غرم على استيغال الموت في تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل مغترضا للقتل ، فلطف به بعض قواده حتى سلّوه^(a) فانهزم ، وذهبت قوة الفرس وعزهم ، وذُل بعدها سلطانهم ، وصار بئذ المشرق كله في طاعة الروم ، وانقطع ملك الفرس مدة أربع مائة عام وخمسين عامًا .

واشتغل الإشكندر بتحصيل ما أصاب في عسكر الفرس والنظر فيه ، وقسمته على عسكره ثلاثين يومًا .

ثم مضى إلى مدينة الفرس^(b) التي كانت رأس مملكتهم^(c) ، والتي اجتمعت فيها أموال الدنيا ونعمتها فهدمتها ونهت ما فيها ، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم [من الوجدمونيين]^(d) مكبلا في كئول من فضة ، فنهيا وخرج في ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحًا جراحات كثيرة ، فلم يلبث أن هلك منها . فأظهر الإشكندر الحزن عليه والمروءة له ، وأمر بدفيه في مقابر الملوك من أهل مملكته .

وكان في أمر هذه الثلاث معارك عبثة لمن اغتبر ، ووعظ لمن انتظ ، إذ قُتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف^(e) بين راكب وراجل من أهل بلد آسيا - وهي العراق - وقد كان قُتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكب وراجل ، من أهل بلاد العراق والشام وطرشوس ومصر وجزيرة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الإشكندر أجمعين^(f) .

وكان سلطان الدنيا مقسومًا بين قواده بعد ما زلزل بدوايه العظيمة العالم كله ، وعم أهله بعضًا بالمنايا الفظيعة ، وبعضًا بالتوطين عليها والمباشرة لأهوالها . وأوصى عند وفاته أن يُلقب كل قائم في اليونانيين بعده بـ «بطلانيوس» تهيولًا للأعداء ، لأن معناه «الحربي»^(g) .

(a) بولاق : سلوه . (b) عند أورو سيوس : التي كانت بيضة الفرس . (c) زيادة من أورو سيوس . (d) صوبه الدكتور بدوي في هامش أورو سيوس إلى : خمسة عشر مائة ألف - أى مليون ونصف - كما في الأصل اللاتيني Quinquies .

^٣ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١ .

^١ هي مدينة Persepolis برسبولس .

^٢ أورو سيوس : تاريخ العالم ٢٢٩ - ٢٣٣ .

فهذا هو الصحيح من خبر الإسكندر، فلا يُلْتَفَتُ إلى ما خالفه .
ويقال إنه كان أشقر أزرق، وهو أول من سَمَرَ بالليل، وكان له قَوْمٌ يُضْحِكُونَهُ وَيُحْكُوا له
الخرافات، يُريد بذلك حفظ ملكه وجراحة نفسه، لا اللذة . وبه اقتدى الملوك في السمر واتخاذ
المُضْحِكِينَ والمُخَرِّفِينَ^١.

ذِكْرُ تَارِيخِ الْإِسْكَندَرِ

/قال أبو الزحان محمد بن أحمد البيروني^٢: تاريخُ الإسكندر اليوناني - الذي يُلقبُه بعضهم
بذي القرنين - على سبيل الروم، وعليه عمل أكثر الأمم، لما خرج من بلاد يونان، وهو ابن ست
وعشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس .

ولما وَرَدَ بَيْتَ المقدس أمر اليهود بتوك تاريخ داود وموسى - عليهما السلام - والتحول إلى
تاريخه؛ فأجابوه وانتقلوا إلى تاريخه، واستعملوه فيما يحتاجون إليه، بعد أن عملوه من السنة
السادسة والعشرين لميلاده - وهو أول وقت تحوُّك - ليتموا ألف سنة من لدن موسى عليه السلام؛
وتبقوا مُقتَصِمِينَ بهذا التاريخ ومُستعملين له، وعليه عمل اليونانيين، وكانوا قبله يُورَخُون بِخروج
يونان بن نورس عن بابل إلى المغرب^٣.

وأول تاريخ الإسكندر يوم الاثنين أول تشرين الأول، وموافق اليوم الرابع من بابه . ومبدي
الأيام عندهم من وقت طلوع الشمس إلى وقت غروبها، وإلى أن يُصبح الصُّباح وتُطلع الشمس
فقد كُمل يومٌ بليته . ومبدي الشهور ترجع إلى عَدَدٍ واحد له نُظِمَ يجري عليه دائماً، وعَدَدُ
شهور سنتهم اثنا عشر شهراً يُخَالِفُ بعضها بعضاً في العَدَد .
وهذه أسماءها (٤) وعَدَدُ أَيَّامِ كُلِّ شَهْرٍ منها (٥):

تشرين الأول: أحد وثلاثون يوماً . تشرين
الثاني: ثلاثون يوماً . كائون الأول: أحد
وثلاثون يوماً . كائون الثاني: أحد وثلاثون
يوماً . شباط: ثمانية وعشرون يوماً ورُبْع .

(٤-٥) ساطعة من الأصل .

^١ هذا النص موجود عند ابن النديم: الفهرست ٣٦٣ . ٧٦٤-٧٦٥ .

^٢ اعتمد المقرئ في كل ما يخص تواريخ الأمم المختلفة
على ما ذكره البيروني . انظر فيما يلي ٣٣٢، ٣٥٤، ٣٦٧،
^٣ البيروني: الآثار الباقية ٢٨ .

أذار: أخذ ثلاثون يوماً. نيسان: ثلاثون ثلاثون يوماً. تموز: أخذ ثلاثون يوماً. آب: يوماً. أيار: أخذ ثلاثون يوماً. حزيران: أخذ ثلاثون يوماً. أيلول: ثلاثون يوماً.

فَصِيغة أَشْهَر، كُلُّ شَهر مِها أَخذَ وَثلاثون يوماً، وأربعة أَشْهر كُلُّ شَهر مِها ثلاثون يوماً، وَشَهر واحد ثمانية وعشرون يوماً وَرُبْع يوم - وَذلك أَنَّهُم جَعَلُوا شَباط كُلَّ ثَلاث سَنين مُتَواليات ثمانية وعشرين يوماً، وَجَعَلُوهُ في السَّنة الرَّابِعة سَعة وَعشرين يوماً - فَيَكون عِدَّةُ أَيَّام سَنَتِهِم ثلاث مائة وَخَمسة وَستين يوماً وَرُبْع يوم، وَجَعَلُوا السَّنة الرَّابِعة ثلاث مائة وَسَنة وَستين يوماً وَجَعَلُوا السَّنة الكَبيسة.

وَإِذَا زادوا الرُّبع في كُلِّ سَنة لِيَقْرُبَ عِدَّةُ أَيَّام سَنَتِهِم من عِدَّة أَيَّام السَّنة الشَّمْسية، حَتَّى تَبْقَى أُمُورُهُم على نِظامٍ واحد، فَكَوْنُ شُهور البَرْد وَشُهور الحَرِّ وَأَوان الزَّرْع وَلِقاح الشَّجر وَجَنِي الثَّمَر في وَقْتٍ مَعْلُومٍ من السَّنة، لا يَتَغَيَّر وَتَمَّ شَيْءٌ من ذلك أَلْبَسَهُ ١.

وَكان ابتداء الكَبيس في السَّنة الثَّالِثة من مُلك الإِسْكَندَر.

وَين يوم الاثَين أَوَّلَ يَومٍ من تَارِيخ الإِسْكَندَر هَذا وَين يوم الخَميس أَوَّلَ شَهر الحَرَم من السَّنة الَتي هاجَرَ نَبِيُّنا مُحَمَّد بن عَبْدِ اللَّهِ بن عَبْدِ المُطَّلِب رَسولَ اللَّهِ ﷺ من مَكَّة إلى المَدينة تَسع مائة سَنة وَثَلاث وَثَلاثون سَنة ومائة وَخَمسة وَخَمسون يوماً.

وَينهُ يوم الجُمعة أَوَّلَ يَومٍ من الطُوفان أَلْفا سَنة وَسَبْع مائة سَنة وَأَنتَتان وَتَسعون سَنة ومائة وَثَلاثة وَتَسعون يوماً.

وَين ابتداء مُلك بُحْت نَصْر وَين أَوَّلَ تَارِيخ الإِسْكَندَر أَرْبَع مائة وَخَمس وَثَلاثون سَنة شَمْسية ومائَتا يوم وَثمانية وَثَلاثون يوماً.

وَقال أبو بَكر أَحْمَد بن عَلِي بن قَيس بن وَحْشِيَّة في كِتاب «الفَلاحَة النَّبِيَّة»: الشَّهر المُسَمَّى تَمُوز - فِيمَا ذَكَرَ النَّبَطُ^(٢) بِحَسَب ما وَجَدَتْ في كُتُبِهِم - اسْمُ رَجُلٍ كانَتْ لهُ قِصَّةٌ عَجيبة طَويلة، وَهو أَنَّهُ دَعَا مَلِكًا إلى عِبادَةِ الكُواكِب السَّبعة وَالبُرُوج الاثَني عَشر، وَأَنَّ المَلِك قَتَلَهُ وَعاشَ بَعْدَ

(٢) يولاي: القبط.

^١ قارن مع المسعودي: التنبيه والإشراف، ٢١٤، مروج الذهب ٢: ٣٣٧-٣٤٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٩١-

الْقَتْلَةُ ، ثُمَّ قَتَلَهُ قَتَلَاتٌ بَعْدَ ذَلِكَ قَبِيحَةٌ وَفِي كُلِّهَا يَمِيشُ ، ثُمَّ مَاتَ فِي آخِرِهَا . وَإِنَّ شَهْرَهُمْ هَذِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا اسْمُ رَجُلٍ فَاضِلٍ عَالِمٍ كَانَ فِي الْقَدِيمِ مِنَ النَّيْطِ الَّذِينَ كَانُوا مَكَانَ إِقْلِيمِ بَابِلَ قَبْلَ الْكَشْدَانِيِّينَ . وَذَلِكَ أَنَّ تَمْوَزَ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْكَشْدَانِيِّينَ وَلَا الْكَنْعَانِيِّينَ وَلَا الْعَبْرَانِيِّينَ وَلَا الْجَرَامِقَةَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْحَنْبَاسِيِّينَ^(a) الْأَوَّلِينَ .

- وكذلك^(b) يَقُولُونَ فِي كُلِّ شَهْرِهِمْ : إِنَّهَا أَسْمَاءُ رِجَالٍ مَضَوْا ، وَإِنَّ يَثْرِينَ الْأَوَّلَ وَيَثْرِينَ الثَّانِي اسْمَا أَخَوَتَيْنِ كَانَا فَاضِلَيْنِ فِي الْعُلُومِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ كَاتُونُ الْأَوَّلَ وَكَاتُونُ الثَّانِي ، وَإِنَّ شَبَاطَ اسْمِ رَجُلٍ تَكْعَجَ أَلْفَ امْرَأَةٍ - أَبْكَازَا كُلَّهُنَّ - وَلَمْ يَتَّسِلْ نَسْلًا وَلَا وَلَدَ وَلَدًا ، فَجَعَلُوهُ فِي آخِرِ الشُّهُورِ لِنُقْصَائِهِ عَنِ النَّسْلِ ، فَصَارَ النُّقْصَانُ مِنَ الْعَدَدِ فِيهِ .

- والصَّابِيُّونَ مِنَ الْبَابِلِيِّينَ وَالْحَرْثَانِيِّينَ^(c) جَمِيعًا إِلَى وَقْتِنَا هَذَا يَتَوَحَّوْنَ وَيَتَّكُونَ عَلَى تَمْوَزَ فِي الشَّهْرِ الْمُسَمَّى تَمْوَزَ فِي عِيدِ لَهُمْ فِيهِ مَنَسُوبٌ إِلَى تَمْوَزَ ، وَيُعَدُّدُونَ تَعْدِيدًا عَظِيمًا ، وَخَاصَّةً النِّسَاءَ ، فَإِنَّهُنَّ يَقْنَنَ هَهُنَا جَمِيعًا وَيُتَّخَنَ وَيَتَّكِينَ عَلَى تَمْوَزَ ، وَيَهْتَدِينَ فِي أَمْرِهِ هَذَانَا طَوِيلًا ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مِنْ أَمْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَقُولُوا هَكَذَا وَجَدْنَا أَشْلَاقَنَا يَتَوَحَّوْنَ وَيَتَّكُونَ عَلَى تَمْوَزَ فِي هَذَا الْعِيدِ الْمَنَسُوبِ إِلَى تَمْوَزَ .

- واللُّصَّارِيُّ ذِكْرَانُ^(d) يَعْمَلُونَهُ لِرَجُلٍ يُسَمَّى جُورْجِيَسَ ، أَحَدُ حَوَارِيِّي عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَعَا مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ فَقَذَّبَهُ الْمَلِكُ بِتِلْكَ الْقَتَلَاتِ^١ .

فَلَا أَذْرِي وَقَعَ إِلَى النَّصَارَى قِصَّةُ تَمْوَزَ فَأَبْدَلُوا مَكَانَهَا اسْمَ جُورْجِيَسَ وَخَالَفُوا الصَّابِيِّينَ فِي الْوَقْتِ ، لِأَنَّ الصَّابِيِّينَ يَعْمَلُونَ ذِكْرَانَ تَمْوَزَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ تَمْوَزَ ، وَالنَّصَارَى يَعْمَلُونَ لِحُورْجِيَسَ فِي آخِرِ نَيْسَانَ^٢ .

(a) بولاق : الحرناسيين وحيث : الحبانيين والمثبت من ابن وحشية . (b) بولاق والمخطوطات : ولذلك والمثبت من ابن وحشية . (c) بولاق : الحرنانيين . (d-d) وردت هذه الفقرة في الأصل في نهاية الفصل . (e) بولاق : والنصارى تذكر أنهم .

^١ دمج المقريري نص ابن وحشية بطريقة مخلة ونص ابن وحشية هو : «...جورجيس ، يزعمون أنه قُتل قتلًا عذبة قبيحة ، ثم يميش - زعموا - بعقب كل قطة منها ... ثم إنه مات في آخرها في قصة يطول شرحها ، وهي ملونة في كتاب في أيدي النصارى ... لكن النصارى سرقوها من الصابيين وجعلوا جورجيس أحد حواري المسيح وأنه دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية ، فمذَّبه ذلك الملك بتلك القتلات التي قتله » .
^٢ ابن وحشية : الفلاحة البطولية ١ : ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وختم حديثه بقوله : «والذي عندي أنا ، بمقدار علمي ، أن =

وَيُقَالُ إِنَّ بَعْضَ مُلُوكِ رُومِيَّةِ زَادَ فِي شُهُورِ الرُّومِ كَانُونَ الثَّانِي وَشَبَاطَ ، فَإِنَّ شُهُورَهُمْ كَانَتْ إِلَى زَمَانِهِ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ كُلِّ شَهْرٍ / سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا^٩.

وَيُقَالُ إِنَّ فِرْيُوسَ أَوَّلَ مَنْ مَلَكَ مَدِينَةَ رُومِيَّةَ ، وَإِنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهَا ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَزَادَ كَانُونَ الثَّانِي وَشَبَاطَ فِي شُهُورِ الرُّومِ بِحُكْمِ أَنَّهَا كَانَتْ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ كُلِّ شَهْرٍ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا .

وَكَانَ سَبَبُ نَقْصِ شَبَاطَ يَوْمِينَ ، وَفُتُوحَ غَازَةَ فِي أَيَّامِ فَيَطْنِ رَئِيسِ بَجِيْشِ الرُّومِ مَعَ خُلَفِ وَخُرُوبِ بَيْنِهِ وَبَيْنَ فِرْيُوسَ آلَتِ إِلَى نُصْرَةِ فَيَطْنِ وَأَخَذَهُ بِمَلَكَةِ الرُّومِ ، وَأَمَرَ بِفِرْيُوسَ فُتُودِي عَلَيْهِ : «أَغْبَا فُودِيَا»^{١٠} ، وَتَقْسِيرُهُ : اخْرُجْ يَا شَبَاطَ ، ثُمَّ عَرِقَ فِي الْبَحْرِ . وَسَمُّوا شَهْرَ شَبَاطَ فِرْيُوسَ لِيَكُونَ تَذْكَارُ سَوِيٍّ لَهُ ، فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ كَانَ فِي يَوْمِي الثَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ شَبَاطَ ، فَتَقْصُوهُمَا مِنْ شَبَاطَ وَزَادُوهُمَا فِي تَمُوزَ وَكَانُوا الثَّانِي ، فَجَعَلُوا كُلَّ شَهْرٍ مِنْهُمَا أَحَدًا وَثَلَاثِينَ يَوْمًا .

ثُمَّ بَعْدَ زَمَانٍ جَاءَ مَلِكٌ آخَرُ فَقَالَ : لَا يَخْشَنُ أَنْ يَكُونَ شَبَاطَ فِي وَسْطِ الشَّنَةِ ، فَتَقَلَّهَ إِلَى آخِرِهَا ، وَلَمْ تَزَلِ الرُّومُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ يَتَطَلَّيُونَ مِنْ شَبَاطَ .

ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْكَنْدَرِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَأَنَّهُمَا رَجُلَانِ

اعْلَمْ أَنَّ التَّحْقِيقَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَخْبَارِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فَقَالَ : ﴿وَنَسِئًا لَوْلَاكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَغَائِثَتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾ [الْأَنْبَاءُ ٨٣ : ٨٤ سُورَةُ الْكَهْفِ] الْآيَاتِ ، عَزَّيْزِي قَدْ كَثُرَ ذِكْرُهُ فِي أَشْغَارِ الْقَرْبِ ، وَأَنَّ اسْمَهُ الصُّعْبُ بْنُ ذِي مَرَائِدَ بْنِ الْحَارِثِ الرَّائِشِ بْنِ الْهَمَالِ ذِي شُدَادَ بْنِ عَادَ بْنِ ذِي مَنَحَ بْنِ عَابِرِ الْمَلْطَاطِ بْنِ سَكْسَكَ بْنِ وَايِلَ بْنِ جَمِيرَ بْنِ سَبَأَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَتْرُوبَ بْنِ قَحْطَبَانَ بْنِ هُودَ بْنِ عَابِرِ ابْنِ شَالِيحَ بْنِ أَوْفَحْشَدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^١ ، وَأَنَّهُ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ جَمِيرَ وَهُمْ الْقَرْبِ

(٩) فِي بَوَاقِ وَالْمَخْطُوطَاتِ : أَعْيَا مَرْدِيَا ، وَالضَّبْطُ الْمُهْجَتِ عَنْ Wiet تَمَا لِلضَّبْطِ السَّرْيَانِي لِلْفُظِّ .

= الْقَصَتَيْنِ جَمِيعًا كَذَبَ وَمُحَالٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَقًّا . عِدَ الْمَلِكُ بْنُ هَشَامَ ، وَهُوَ مُصَدِّرُ الْمَقْرِيزِيِّ : الصُّعْبُ بْنُ الْحَارِثِ الرَّائِشِ ذِي مَرَائِدَ بْنِ عَمْرٍو الْهَمَالِ ذِي مَنَاحَ بْنِ -^١ الْاسْمُ كَمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ «التَّجِيَانِ» رَوَايَةُ مُحَمَّدَ بْنِ

العاربة ، ويُقالُ لهم أيضًا العربُ العزباء ؛ وكان ذو القُرُونِ يُجَمَّعُ مُتَّوَجِّعًا ، ولَمَّا وَلِيَ الْمَلِكُ تَجَبَّرَ ، ثم تَوَاضَعَ لِلَّهِ واجْتَمَعَ بِالْخِضَرِ^١.

وقد غَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْإِسْكَانْدَرَ بْنَ فِيلِيُشٍ هُوَ ذُو الْقُرُونِ الَّذِي بَنَى الشَّدَّ ، فَإِنَّ لَفْظَةَ «ذُو» عَرَبِيَّةٌ ، وَذُو الْقُرُونِ مِنَ أَلْقَابِ الْعَرَبِ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، وَذَاكَ رُومِيٌّ يُونَانِيٌّ^٢.

قال أبو جعفر الطبري : كان الخِضَرُ في أيام أفريدون الملك بن أنفیان^٣ في قَوْلِ عَامَّةِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَقِيلَ مُوسَى بْنُ عِثْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ ذِي الْقُرُونِ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ عَلَى أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّ الْخِضَرَ بَلَغَ مَعَ ذِي الْقُرُونِ أَيَّامَ مَسِيرِهِ فِي الْبِلَادِ نَهْرَ الْحَيَاةِ فَسَرِبَ مِنْ مَائِهِ وَهُوَ لَا يَغْلَمُ بِهِ ذُو الْقُرُونِ وَلَا مَنْ مَعَهُ ، فَحُلِدَ ، وَهُوَ حَيٌّ عِنْدَهُمْ إِلَى الْآنَ^٤.

وقال آخرون : إِنَّ ذَا الْقُرُونِ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ أَفْرِيدُونُ ابْنِ أَنْفِيَانِ^٥ ، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ كَانَ الْخِضَرُ^٦.

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب «التَّيْجَانِ فِي مَعْرِفَةِ مُلُوكِ الْأَزْمَانِ»^٧ بَعْدَ مَا ذَكَرَ نَسَبَ ذِي الْقُرُونِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ : وَكَانَ يُجَمَّعُ مُتَّوَجِّعًا ، لَمَّا وَلِيَ الْمَلِكُ تَجَبَّرَ ، ثُمَّ تَوَاضَعَ وَاجْتَمَعَ بِالْخِضَرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَسَارَ مَعَهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبَنَى الشَّدَّ عَلَى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَمَاتَ بِالْعِرَاقِ^٨.

فَأَمَّا الْإِسْكَانْدَرُ فَإِنَّهُ يُونَانِيٌّ ، وَيُغْتَرَفُ بِالْإِسْكَانْدَرِ الْمُجْدُونِي .

(a) بولاق : الضحاك وهو الاسم العربي له . (b) بولاق : الزمان .

^٣ ذكر الطبري أن يوراسب المعروف بالازدهاق هو الذي تسميه العرب الضحاك (تاريخ ١: ١٩٤)، وأضاف أن أفريدون تزعهم الفرس أن له عشرة أبناء كلهم يسمى أنفیان وأنه من ولد جم شاذ الملك الذي قتله الازدهاق (أي الضحاك) (تاريخ ١: ٢١٢).

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١: ٣٦٥.

^٥ ابن هشام : التيجان ٨٢-٩٥ رواية طويلة أوجزها المقرئ في هذه العبارة .

= عاد ذي شدد بن عامر بن اللطاط بن شكتك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عامر ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح (التيجان ٨١-٨٢) .

^١ عن ابن هشام : التيجان ٨٢ ملخصاً .

^٢ قارن عن ذي القرنين ، المسعودي : مروج الذهب

٨-٢: ١٩ البيروني : الآثار الباقية ٣٦-٤٢ الهملاني :

الإكليل Montgomery Watt, W., *El² art. Iskandar*

IV, p. 133

شَيْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - عن ذي الْقَرْيَنِ : مَنْ كَانَ ؟ فَقَالَ : مِنْ جَمِيرٍ ، هُوَ^(٥) الصُّعْبُ بْنُ ذِي مَرَايِدٍ الَّذِي مَكَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ ، وَأَتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَبَلَغَ قَرْيَةَ الشُّعْسُ وَرَأْسَ الْأَرْضِ ، وَبَنَى السُّدَّ عَلَى تَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ .

قِيلَ لَهُ : فَالْإِسْكََنْدَرُ ؟ قَالَ : كَانَ رَجُلًا صَالِحًا رُومِيًّا حَكِيمًا ، بَنَى عَلَى الْبَحْرِ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ مَنَازًا ، وَأَخَذَ أَرْضَ رُومَةَ ، وَأَتَى بَحْرَ الْقُرْبِ ، وَأَكْثَرَ عَمَلَ الْآثَارِ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْمَصَانِعِ وَالْمُدُنِ .

وَشَيْلُ كَتَبَ الْأَخْبَارَ عَنْ ذِي الْقَرْيَنِ فَقَالَ : الصَّحِيحُ عِنْدَنَا مِنْ أَخْبَارِنَا وَأَسْلَافِنَا أَنَّهُ مِنْ جَمِيرٍ ، وَأَنَّهُ الصُّعْبُ بْنُ ذِي مَرَايِدٍ ، وَالْإِسْكََنْدَرُ كَانَ رَجُلًا مِنْ ثُونَانَ مِنْ وَلَدِ عِيصُونَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا^(٦) . وَرِجَالُ الْإِسْكََنْدَرِ أَذْرَكُوا الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ، مِنْهُمْ جَالِثُوسُ وَأَرْسَطَاطَالِيسُ .

وَقَالَ الْهَمْدَانِيُّ فِي كِتَابِ «الْأَنْسَابِ» : وَوُلِدَ كَهْلَانُ بْنُ سَبَأَ زَيْدًا ، فَوُلِدَ زَيْدٌ عَرَبِيًّا وَمَالِكًا وَغَالِيًّا وَعَمِيكَرِبَ وَقَالَ الْهَيْثَمُ : عَمِيكَرِبُ بْنُ سَبَأَ أَخُو جَمِيرٍ وَكَهْلَانُ - فَوُلِدَ عَمِيكَرِبُ أَبَا مَالِكٍ فَدَرَحًا وَمَهْلِيلُ ابْنُ عَمِيكَرِبَ ، وَوُلِدَ غَالِبُ مَجْنَادَةَ بْنِ غَالِبٍ - وَقَدْ مَلَكَ بَعْدَ مَهْلِيلَ بْنِ عَمِيكَرِبَ ابْنُ سَبَأَ - وَوُلِدَ عَرِيبُ عَمْرًا ، فَوُلِدَ عَمْرُو زَيْدًا وَالْهَيْثَمُ ، وَبَكَى أَبَا الصُّعْبِ ، وَهُوَ ذُو الْقَرْيَنِ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ الْمَسَاحُ وَالْبَنَاءُ^(١) . وَفِيهِ يَقُولُ الثُّغَمَانُ بْنُ بَشِيرٍ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣) :

[الطويل]

فَمَنْ ذَا يُعَادِدُنَا مِنَ النَّاسِ مَغْشَرًا كِرَامًا ، فَذُو الْقَرْيَنِ مِنَّا وَحَاتِمُ
وَفِيهِ يَقُولُ الْحَارِثِيُّ :

[البيط]

سَلُّوْا لَنَا وَاحِدًا مِنْكُمْ فَتَغْرِقْهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِاسْمِ الْمَلِكِ مُتَحِيلًا
كَالْتُّبُعَيْنِ وَذِي الْقَرْيَتَيْنِ يَتَّعِلُهُ أَهْلُ الْحِجْيِ فَأَعَقَّ الْقَوْلُ مَا قَبِلَا
وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ أَبِي ذَيْبٍ الْخَزَاعِيُّ :

[الطويل]

/وَمِنَّا الَّذِي بِالْخَالِفَيْنِ تَغْرِبَا وَأَضَعَدَ فِي كُلِّ الْبِلَادِ وَصُوبَا
فَقَدْ نَالَ قَوْنُ الشُّعْسِ شَرَفًا وَمَغْرِبَا وَفِي زُؤْمٍ بِأُجُوجٍ بَنَى ثُمَّ نَصَبَا

(٥) بولاق : وهو . (٦) الأصل : عليه السلام . (٧) ساقطة من بولاق .

^١ الهمداني : الإكليل ١٠ : ١٠٦ .

^٢ الأصفهاني : الأغاني ١٦ : ٤٥ ، وقارن الهمداني :

الإكليل ٢ : ٢١٢ .

وذلك ذُو الْقَرْوَيْنِ تَفْعَلُ جَمِيزٌ بِمَشْكِرٍ قِيلَ لَيْسَ يُخَصَّصُ فَيُخَسَّبُ
قال الهمداني: وعلماء همدان تقول: ذُو الْقَرْوَيْنِ الصُّغْبُ بن مالك بن الحارث الأعلى بن
زبيعة بن الجبار بن مالك، وفي ذي الْقَرْوَيْنِ أقاويل كثيرة^١.

وقال الإمام فخر الدين^(٢) محمد بن عمر^(٣) الرازي في كتاب «تفسير القرآن الكريم»: ومما
يُفْتَرَضُ به على من قال إن الإسكندر هو ذو الْقَرْوَيْنِ، أن مُعَلِّمَ الإسكندر كان أرسطاطاليس بأمره
بأن يُمِرَّ وينتهي بتبني، واعتقاد أرسطاطاليس مشهور، وذو الْقَرْوَيْنِ نَبِيٌّ، فكيف يُفْتَدِي نَبِيٌّ بأمر
كافر؟ في هذا إشكال^٣.

وقال الجاحظ في كتاب «الحيران»: إن ذا الْقَرْوَيْنِ كانت أمه فري^(٤) آدمية، وأبوه عبري^(٥) من
الملائكة؛ ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً يُنادي: يا ذا الْقَرْوَيْنِ، قال:
أَفَرَعْتُمْ من أسماء الأنبياء فارتفعتُم إلى أسماء الملائكة؟! ١٠

وروى المختار بن أبي عبيد أن عليًا - رضي الله عنه - كان إذا ذَكَرَ ذا الْقَرْوَيْنِ قال: ذلك المليكُ
الأمَوط^(٦)، والله أعلم.

(a-a) ساقطة من بولا. (b) ساقطة من بولا.

الكبرى ٥: ٣٣-٤٠، *Fakhr* ٤٤٠-٣٣: ٥، *Anawati, G.C. Et* art. *al-Din al-Razi* II, pp. 770-73.

^١ قارن الهمداني: الإكليل ٢: ١٦٢، ٣١٨-٣١٩، ٦: ١٠.

^٢ الفخر الرازي: مناقب الغيب المعروف بالتفسير
الكبير، استانبول ١٣٠٧هـ، ٥: ٧٥٢، والنص فيه «...
والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر،
فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو، إلا أن فيه إشكالا
قويًا، وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على
مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب
أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه، والله
أعلم».

^٣ فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين
القرشي البكري الطبرستاني، الأصولي المفسر المتوفي بهجرة
يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م، والتي أسنى بها أكبر
فترة من حياته. وضع عددًا كبيرًا من المؤلفات، القسم الأكبر
منها في علم الكلام والأصول والتفسير (راجع، ابن أبي
أسيمة: حيون الأنبا ٢: ٢٣-٣٠، القفطي: تاريخ الحكماء
٢٩١-٢٩٣، ابن خلكان: وفيات ٤: ٢٤٨-٢٥٨،
الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١: ٥٠٠-٥٠١، الصفدي:
الوافي بالوفيات ٤: ٢٤٨-٢٥٩، السبكي: طبقات الشافعية

^٤ الجاحظ: الحيوان ١: ١٨٨، وفيما تقدم ٤٠٠.

ذآكر مَن وَلَّى الْمَلَكُ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ بَعْدَ الْإِسْكََنْدَرِ

قال في كتاب هروشيوش: إِنَّ الْإِسْكََنْدَرَ مَلَكَ الدنفا اثنتي عشرة سنة، فكانت الدنفا مأشورة بين يديه طولَ ولايته، فلما مات تركها بين يدي قواده المشأخلفين تحته. فكان مثله معهم كمثل الأسد الذي ألقى صبيته بين يدي أشباله، ففأالت عليه تلك الأشبال بعده. وذلك أنهم اقتسموا البلاد، فصارت مصر وإفريقية كلها وبلاد الغرب^١ إلى قائده وصاحب خيله الذي ولي مكانه وهو بطلميوس بن لاوي، ويقال بطلميوس بن أرنبا المنطقي [Ptolemaeus Lagos].

وذكر بمالك بقية القواد من أقصى بلاد الهند إلى آخر بلاد المغرب، ثم قال: ففارت بينهم محروب، وسببها رسالة كانت خرجت من عند الإسكندر بأن يرجع جميع الغزاة المأفين إلى بلادهم، ويأقط عنهم الرق والعبودية. فاستأقل ذلك ملك بلاد الروم، إذ خاف أن يكون الغزاة والمأفين إذا رجعوا إلى بلدانهم ومأطينهم يطلبون الثأمة لأنفسهم، فكان هذا الأمر سبب خروجهم عن طاعة سلطان المأدونيين^٢.

وقال غيره: وبطلميوس هذا سبى بني مآد بعدما غزا فلسطين، ثم أطلقهم وحباهم بأية بجوهر وضمت في بيت المقدس، وملك عشرين سنة.

وقال غيره: ولي أربعين سنة، وقيل ثمانيا وثلاثين سنة؛ وقيل إن اسمه فيلدفوس [Philadelphos] - وهو مآجب الأب - وكان مآجدونيا، وهو الذي غيم اليهود وانتقل كثير منهم

(١) بولاني والمخطوطات: بلد الغرب والمآب من تاريخ أوريوس فالكلمة في أصله Arabia.

البطلمة، ١-٤، القاهرة ١٩٦٠، Fraser, P.M., *Ptolemaic Alexandria*, 2 vols, Oxford 1972; Monica, M., *Les derniers Pharaons les turbulents Ptolémées d'Alexandre le grand à Cléopatre la grande*, Paris, 1993; Nanoyeke, V., *Les Ptolémées, derniers Pharaons d'Égypte*, d'Alexandre à Cléopatre, Paris 1998; وعن الفترة التالية انظر فيما يلي ١٠٥:١.

^٢ ترجمة حرفية لكلمة لاجوس Lagos.

^٣ أوريوس: تاريخ العالم ٢٤٤-٢٤٦.

^١ راجع عن تاريخ مصر بعد الإسكندر الأكبر Bell, H.I., *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. A Study in the Diffusion and Decay of Hellenism*, Oxford 1948 (نقله إلى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد علي، بعنوان: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفآع العربي - دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها، القاهرة ١٩٧٢)، وانظر أيضًا مصطلفي الصباذي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفآع العربي، القاهرة ١٩٧٥؛ وعن فترة حكم البطلمة انظر دراسة إبراهيم نصحي التي لا غنى عنها: تاريخ مصر في عصر

إلى مصر. وفي زمانه كان زينون [Zenon] الفيلسوف^١، وكان هذا الملك فيلسوفًا. وأقبل بَرْدِيْقَا [Perdicca] أحد قُوَادِ الإسْكَانْدَرِ إلى مصر بعشكر عظيم وجيش عزمزم، فتفرق سلطان^(٢) مجدويه إلى بلد^(٣) مجدونية على قسطين.

ثم إن بطليموس جمع عساكر مصر وإفريقية فلاقى بَرْدِيْقَا فَهَزَمَهُ وَأَصَابَ عَشْكَرَهُ، ثم قَتَلَهُ وَأَصَابَ مَا كَانَ مَعَهُ، وحازبَ عِدَّةً من قُوَادِ الإسْكَانْدَرِ^٢.

وقال عِيْزَه: وكان بطليموس هذا حكيماً عالماً سائِماً^(٤) مُدَبِّرًا، وهو أول من ائْتَمَرَ الْبِرَّةَ وَلَبَّ بِهَا وَصَرَّاهَا، وكان من قبله من الملوك لا يَلْعَبُ بِهَا^٣.

ولما مات، مَلَكَ الإسْكَانْدَرِيَّةَ بَعْدَهُ بَطْلِمَيْوسُ الثَّانِي، واسمه فِيلِدِلْفُس [Philadelphus] - ويُقال له: مُحِبُّ الْأَخْ - وكانت مُدَّةُ مُلْكِهِ ثَمَانِيًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً؛ وهو الذي أَطْلَقَ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَأْسُورِينَ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَزَدَّ الْأَوَانِي الْمَقْدِسَةَ عَلَى عِزْرِ النَّبِيِّ؛ وهو الذي تَخَيَّرَ السَّبْعِينَ مُتَرَجِّمًا من عُلَمَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ تَرَجَّمُوا كُتُبَ التَّوْرَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنَ اللِّسَانِ الْعِبْرَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الرُّومِيِّ الْيُونَانِيِّ وَاللَّاطِينِيِّ، وكان فيلسوفًا مُتَجَمِّمًا.

ومَاتَ، فولِّيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ بَطْلِمَيْوسُ أَوْرَاجِيطْلُس [Euregutus] - المعروف بِمُحِبِّ الْأَبْ - سَنًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، ثم وَلَّى بَعْدَهُ أَخُوهُ بَطْلِمَيْوسُ فِيلَوْبَطُور [Philopoter] سبع عشرة سنة، وهو الذي قَتَلَ من الْيَهُودِ نَحْوًا من سِتِينَ أَلْفًا وَتَعَلَّبَ عَلَيْهِمْ^٤.

ويُقَالُ إِنَّهُ صَاحِبُ عِلْمِ الْفَلَكَ وَالثُّجُومِ وَكِتَابِ «الْمَجَسْطِي»^٥.

(٢-٣) ساقطة من بولاق. (٤) الأصل وبولاق: شابه والتصويب من مروج الذهب.

١ «المدخل إلى الجغرافيا» المعروف باسم «الجغرافيا»، وكتاب «الجامع» في الفلك والذي أطلق عليه العرب اسم «المجسطي» *al-Madjisti* والذي نُقِلَ إلى العربية في أواخر القرن الثاني الهجري (كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٨٩-٩١ وكتب هاول كونيشت دراسة بالألمانية عن الترجمات العربية واللاتينية للمجسطي، انظر Kunitzsch, P. *Der Almagest - Die Syntaxis Mathematica des Claudius Ptolemaeus in arabische - Lateinischer* (Überlieferung, Wiesbaden 1974).

٢ أورويسوس: تاريخ العالم ٢٤٠.

٣ نفسه ٢٤٧.

٤ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٢٤.

٥ أورويسوس: تاريخ العالم ٢٥٧، ٢٧٨، ٢٨٦.

٥ مؤلف «المجسطي» هو قلاوديوس بطليموس Claudius Ptolemaeus الذي عرف عند العرب باسم بطليموس القلودي، وهو فلكي وجغرافي مصري عاش في الإسكندرية في العصر الروماني؛ اشتهر بكتابين الأول

- ثم مَلَكَ بعده ابنه بَطْلَمَيْوس أَيْفَانِيَش [Epiphanes] أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً^١.
- ثم وَلِيَ بعده ابنه بَطْلَمَيْوس فِلُومَاطِر [Philometor] - مُجِثَ الْأُمِّ^٢ - خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وهو الذي غَلَبَ مُلْكُ الشَّامِ ، وَحَمَلَ الْيَهُودَ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ^٣.
- ثم مَلَكَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ بعده ابنه بَطْلَمَيْوس إِبْرَاهِيمِيَش [Euergetes] - وهو الْإِسْكََنْدَرَانِي -
 ٥ سِتْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً^٤. وفي زَمَانِهِ غَلَبَ الرُّومَانِيُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَاخْتَرَقَتْ مَدِينَةُ قُوطَاخَتَهُ بِالْثَّارِ ، وَأَقَامَتِ النَّارُ فِيهَا سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَهَدِمَتْ وَحَوَّلَتْ أَسَاسَاتِهَا حَتَّى صَارَ رُخَامٌ أَشْوَارُهَا غُبَارًا ، وَذَلِكَ إِلَى تِسْعِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَقْتِ بُنْيَانِهَا ، وَبِيعَ جَمِيعُ أَهْلِهَا رَقِيقًا ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْ خِيَارِهِمْ وَأَسْرَافِهِمْ ، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى لِتَخْرِيبِهَا قُوَاذُ رُومَةٍ^٥.
- ثم وَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ بَطْلَمَيْوسُ سَوَطَار [Soter] - الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْجَدِيدُ - سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً^٦ ، وَكَانَ قَبِيحَ السَّيَرَةِ ، تَزَوَّجَ بِأَخْتِهِ ثُمَّ فَارَقَهَا عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ مَّا تَزَوَّجَهَا عَلَيْهِ ، فِي خَبَرٍ لَهُ ، ثُمَّ تَزَوَّجَ رُبَيْبَتَهُ الَّتِي كَانَتْ بِنْتُ / أَخْتِهِ ، ثُمَّ زَوَّجَهَا مِنْ ابْنِ الْمُؤَلَّدِ لَهُ مِنْ أَخْتِهِ ، وَكَثُرَتْ قَوَاجِشُهُ حَتَّى نَفَاةُ أَهْلِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَمَاتَ مَتْنَفِيًا^٧.
- وَوَلِيَ أَخُوهُ بَطْلَمَيْوسُ الْإِسْكََنْدَر - وهو الْحَوَال - عَشْرَ سِنِينَ^٨.
- ثم وَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ بَطْلَمَيْوسُ دِيُونَسِيَش [Dionysas] ثَمَانِيًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَفِي زَمَانِهِ غَلَبَ قَائِدُ الرُّومَانِيِّينَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَجَعَلَ الْيَهُودَ يُؤَدُّونَ إِلَيْهِ الْحَرَجَةَ^٩.
- ١٥ وَظَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عِلَامَاتٌ فِي السَّمَاءِ مَهُولَةٌ : مِنْهَا أَنَّهُ ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ بِنَاحِيَةِ مَطْلَعِ الشَّمْسِ مِنْ مَدِينَةِ رُومَةٍ مِمَّا يَلِي نَاحِيَةَ الْجَنُوبِ نَارٌ مُلْتَهَبَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَكَسَرَ قَوْمٌ خُبْرًا فِي صُنْعِ لَهُمْ فَاَنْفَعَجَزَ مِنَ الْخُبْرِ دَمٌ سَائِلٌ ، وَنَزَلَ بِمَدِينَةِ رُومَةٍ مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ هَزْدٌ كَانَ يُوجَدُ فِي دَاخِلِهِ حِجَارَةٌ وَشَقَافٌ ، وَانْفَتَحَتِ الْأَرْضُ فَصَارَ فِيهَا عَوْرٌ عَظِيمٌ وَخَرَجَ مِنْهُ لَهَبٌ اشْتَقَلَ حَتَّى طَلَّوهُ بَلَّغَ السَّمَاءَ ، وَنَظَرَ أَهْلُ رُومَةٍ يَوْمَئِذٍ إِلَى عُمُودٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ لَوْنُهُ لَوْنُ الذَّهَبِ ، وَكَانَ مِنْ

(٥) بولاق : وهو الصانع وعلط القرعزي بين أيفانيش وفلوماطر .

^١ أوريوس : تاريخ العالم ٢٩١ ، ٢٩٢ .

^٢ نفسه ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

^٣ نفسه ٣٠٩ ، ٣١٠ .

^٤ نفسه ٣١٢ ، ٣١٤ - ٣١٥ .

^٥ نفسه ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

^٦ نفسه ٣٣٥ .

^٧ نفسه ٣٤١ ، ٣٤٢ .

^٨ نفسه ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

عَظِيمُهُ تَكَادُ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيْبَ مِنْهُ ^١.

ثم وَلِيَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ بَعْدَهُ كِلُوبَاطَرَةُ [Cleopatra] سَتَيْنِ ^٢، فَدَامَتْ مَمْلَكَةُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ - وَهِيَ الدَّوْلَةُ الْمَجْدُونِيَّةُ - إِلَى أَوَّلِ مُلُوكِ قَيْصَرٍ - الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مُلُوكِ الرُّومَانِيِّينَ - مَائَتَيْنِ وَإِحْدَى وَثَمَانِينَ سَنَةً ^٣.

فَبَعَثَ قَيْصَرُ قَائِدَيْنِ بِعَسَاكِرَ كَثِيرَةٍ لِفَتْحِ مِصْرَ، فَتَزَوَّجَ أَحَدُهُمَا كِلُوبَاطَرَةَ ابْنَةَ دِيُوشِيَشِ الْمَلِكِ بَطْلَمَيُْوسَ، وَقُتِلَ الْقَائِدُ الْآخَرُ، وَخَالَفَ قَيْصَرٌ. فَسَارَ إِلَيْهِ قَيْصَرُ بِنَفْسِهِ، وَجَزَتْ أُمُورُ آتَتْ إِلَى فَتْحِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ بَعْدَ حُرُوبٍ، وَاسْتَوْلَى قَيْصَرُ عَلَى مَمْلَكَةِ مِصْرَ، وَقَتَلَ كِلُوبَاطَرَةَ وَوَلَدَيْهَا، وَقَتَلَ الْقَائِدَ الَّذِي تَزَوَّجَهَا؛ وَنُقِلَ بِلَ سَمَتٍ نَفْسَهَا عِنْدَمَا تَبَيَّنَتْ غَلَبَةُ قَيْصَرٍ لَهَا.

وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ حَزْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَتَدْبِيرٍ، وَإِنَّهَا حَفَرَتْ خَلِيجَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَأَجْرَتْ فِيهِ الْمَاءَ مِنْ مِصْرَ، وَبَنَتْ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ أُبْنِيَّةً عَجِيبَةً، مِنْهَا هَيْكَلُ زُحَلٍ، وَعَمِلَتْ فِيهِ صَنْعًا مِنْ نُحَاسٍ أَشْوَدَ. وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ يَهْتَمُّونَ لَهُ عِيْدًا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ هَاتُورَ، وَيُخْبِجُ إِلَيْهِ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ سَائِرِ الْأَفْطَارِ وَيَذْبَحُونَ لَهُ ذَبَائِحَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. فَلَمَّا ظَهَرَتْ بِلَّةُ النُّصَارَى فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ جَعَلُوا هَيْكَلَ زُحَلٍ كَنِيْسَةً، وَلَمْ تَزَلْ إِلَى أَنْ هَدَمَهَا جُيُوشُ الْمُعَزِّ لِدِينِ اللَّهِ عِنْدَ قُدُومِهِمْ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَيُقَالُ إِنَّ كِلُوبَاطَرَةَ هِيَ الَّتِي بَنَتْ حَائِطَ الْعَجُوزِ بِمِصْرَ، وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا غَيْرَ صَحِيحٍ.

وَيُقَالُ إِنَّهَا بَنَتْ مِقْيَاسًا بِمَدِينَةِ إِخْمِيمَ، وَمِقْيَاسًا آخَرَ بِأَلْيَسَا. وَيُقَالُ كَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَبَمَوْتَ كِلُوبَاطَرَةَ انْقَطَعَتْ مَمْلَكَةُ مِصْرَ، وَصَارَتْ تَحْتَ يَدِ مُلُوكِ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ مَدِينَةِ رُومَةَ، ثُمَّ تَحْتَ يَدِ مُلُوكِ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ. فَلَمْ تَزَلْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ يُؤَلُّونَ فِيهَا مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ شَاءُوا، فَيَصِيرُ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَيَقِيمُ بِهَا، إِلَى أَنْ قَدِمَ عَفْرُو بْنُ الْعَاصِ بِالْمُشْلَمِينَ، وَقَتَعَ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ الْخِيْصَنَ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةَ وَجَمِيعَ أَرْضِ مِصْرَ ^٤. وَيُقَالُ مَعْنَى كِلُوبَاطَرَةَ: الْبَاكِئَةُ.

^١ أورويسوس: تاريخ العالم ٣٥٤-٣٥٥.

^٢ نفسه ٣٩٠، ٣٩١.

^٣ نفسه ٤١١.

^٤ لم يذكر المقرئ اسم أحد من ولاية مصر في المصريين في روما ثم في القسطنطينية. وعن تاريخ مصر في هذه -

^١ أورويسوس: تاريخ العالم ٣٥٤-٣٥٥.

^٢ نفسه ٣٩٠، ٣٩١.

^٣ نفسه ٤١١.

^٤ لم يذكر المقرئ اسم أحد من ولاية مصر في المصريين في روما ثم في القسطنطينية. وعن تاريخ مصر في هذه -

فكان جميع المدة التي ما بين ذهاب دؤلة البطالسة من الإسكندرية وقُدوم عمرو بن العاص إلى مصر وفتحها ست مائة سنة وبضعا وسبعين سنة .

وفي خلال هذه المدة قَوِيَ جانبُ ملوك الفُرس على القياصرة ، وملكوا منهم بلاد الشام ، واشتولوا على أرض مصر والإسكندرية في أيام كيشرى أنزويز بن هُزُر ، فبعث قائداً إلى مصر وملك الإسكندرية وقتل الروم ، وأقاموا بالإسكندرية مدة عشر سنين .

فلما اشتهد هزقل بمملكة الروم وخرج من القسطنطينية لجمع الأموال من سائر مملكته أخذ حَمَاة ودمشق ، وصار إلى بيت المقدس وقد غرَبها الفُرس فأمرَ بينائها ، وسارَ منها إلى أرض مصر ، ودخل الإسكندرية وقتل من بها من الفُرس ، وأقام بها بطريقاً ، ثم عاد إلى قسطنطينية ؛ فاستمرت مصر بغيره تحت إبانة الروم حتى ملكها المسلمون .

ويقال إن كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس ، وما فيها من بناء حَجَر فهو للروم ، والله أعلم .

ذكر منار^(١) الإسكندرية

قال المسعودي : فأما منار^(٢) الإسكندرية ، فذهب الأكثرون من المصريين والإسكندرانيين ممن عني بأخبار بلدهم أن الإسكندر بن فيليش المقدوني هو الذي بناها ؛ ومنهم من رأى أن دؤوكة

(١) يولاق : منارة .

ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٨٣ الهروي : الإشارات إلى معرفة الزيارات ٤٨ ، ٤٩ مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ٩٦ عبد النعم الحميري : الروض المطار في خبر الأقطار ٥٥ - ٥٦ التنوير : نهاية الأرب ١ : ٣٩٥ - ٣٩٨ ابن فضل الله المصري : مسالك الأبصار ١ : ٢٤٠ - ٢٤١ ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٣٣ Tousson, O., «Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XII^e siècle», *BSRAA* 9 (1936), pp. 49-53; Lévi-Provençal E., «Une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie», *Mélanges Maspero* III, pp. 161-71 (وهو نص وترجمة لما أورده عبد النعم الحميري عن المنار) ؛ السيد عبد العزيز سالم : -

= الفترة التي امتدت نحو ستة قرون (٣٠ ق م - ٦٤٠ م) انظر ، Milne, J.G., *A History of Egypt under Roman Rule*, London 1924; Bagnall, R. & Fries, B. W., *The Demography of Roman Egypt*, Cambridge 1994; id., *The Chronological System of Byzantine Egypt*, Zutphen 1978 ؛ عبد اللطيف أحمد علي : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٧ السيد الباز العربي : مصر البيزنطية ، القاهرة د. ت .

^(١) عن وصف منار الإسكندرية في المصادر العربية انظر ، المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٤ - ١٠٨ أبا حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٠ ابن جبير : الرحلة ١٤ - ١٥

الملكة بتها وجعلتها مرقباً لمن يرد من العدو إلى بلدهم ؛ ومن الناس من رأى أن العائير من فراعة مصر هو الذي بتها ؛ ومنهم من رأى أن الذي بتى مدينة رومة هو الذي بتى مدينة الإسكندرية ومنازلها والأفرايم بمصر ، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته باشتيلائه على الأكثر من تحالك العالم فشهرت به .

- وذكروا في ذلك أخباراً كثيرة يشتدّون بها على ما قالوا ، [وأن^(a)] الإسكندر لم يظرفه في هذا البحر عدو ، ولا هاب ملكاً يرد إليه في بليده ويغزوه في داره ، فيكون هو الذي جعلها مرقباً ؛ وأن الذي بتها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة الشيطان في جوف البحر ، وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البئر ، وجعل على أغلاها تمثيل من الثعالب وغيره ؛ منها تمثال قد أشار بسبابته من يده/ اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك ، وإذا علت في الفلك فأضبعه يشير بها نحوها ، فعذا انخفضت صارت يده سفلاً تدور معها حيث دارت ؛ ومنها تمثال يشير يده إلى البحر ، إذا صار العدو منه على نحو من ليلة ، فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة ، سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة ، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فهزمقونه بأبصارهم ؛ ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة ، سمعوا له صوتاً بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها ، وصوته مطرب .
- ١٠ وقد كان ملك الروم في ملك الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادماً من خواصّ خدمه ذا رأي وذهاء ، فجاء مشتتاً إلى بعض الثغور ، فوزد باله حسنة ومعه جماعة ، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواصّ الملك ، وأنه أراد قتله لمؤجدة وحال بلفته عنه لم يكن لها أصل ، وأنه اشتوحش ورغب في الإسلام ؛ فأسلم على يد الوليد ، وتقرب من قلبه ، وتصحح إليه في ذفائن اشتخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكثب كانت معه فيها صفات تلك الذفائن . فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر شربت نفسه ، واشتوحكم طمعه ، فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، إن ههنا أموالاً وجواهر وذفائن للملك ؛ فسأله الوليد عن الخبر فقال : ونحت متار^(b)

(a) زيادة من المسعودي . (b) بولاق : منارة .

الإسكندرية أموال ملوك الأرض، وذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال والجواهر التي كانت
 لشداد بن عاد وملوك مصر، فبني لها الأزاج^(أ) تحت الأرض، وقنطر لها الأقباء والقناطر
 والشراديب، وأودعها تلك الذخائر من الغين والورق والجوهر، وبني فوق ذلك هذه المنارة.
 وكان طولها في الهواء ألف ذراع، والمزاة في علوه، والهداية لمجلوس حوله، فإذا نظروا إلى
 القدو في البحر في ضوء تلك المرأة صوّثوا لمن قرب منهم، ونشّروا أعلاماً فيها من يمد
 منهم، فتخذر الناس وتلذر البلد، فلا يكون للعدو عليهم سبيل. فبعت الوليد مع الخاديم
 بجيش وأناس من إقايته وخواصه، فهذه نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرأة، فضج الناس
 من هذا وعلموا أنها مكيدة وجيلة في أمرها؛ فلما علم الخاديم اشتغاضة ذلك، وأنه سينم إلى
 الوليد، وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه، هرب في الليل في مركب كان قد أعده، وواطأ^(ب) [قوماً]
 على ذلك، ففتت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرناه إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين
 وثلاثين وثلاث مائة.

وكانت حواري منارة الإسكندرية في البحر مفاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه
 فصوص للخواتم أنواعاً من الجواهر، يقال إن ذلك من آلات اتخدها الإسكندر للشراب، فلما
 مات كسرتهم أمة ورمت بها في تلك المواضع من البحر، ومنهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك
 النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة، لكيلا تخلو من الناس حولها، لأن من شأن الجوهر أن
 يكون مطلوباً أبداً في كل عصر^١.

ويقال إن هذه المنارة إنما جعلت المرأة في أعلاها لأن ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تحارب
 ملوك مصر والإسكندرية، فجعل من كان بالإسكندرية من الملوك تلك المرأة ترى من يود في
 البحر من عدوهم. وكان من يذخلها يمي فيها، إلا أن يكون عارفاً بالشدول والخروج فيها،
 لكثرة يبرتها وطبقاتها وممراتها. وقد ذكر أن المغاربة، حين وافوا في خلافة المقتدر في جيش
 صاحب المغرب، دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة، فأتوا فيها في طرق تؤول إلى مهاو
 تهوي إلى سرطان الزجاج، وفيه مخاريق إلى البحر فتقوّرت ذوائهم وفقد منهم عدد كثير، وعلم

(أ) بولاق: أزجاج. (ب) زيادة من مروج الذهب.

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٠٤-١٠٧.

بهم بعد ذلك وقيل إنَّ قَهْوَهم كان على كُرُوسِي لها قُدَامُها ، وفي المنازة مَشْجَدٌ في هذا الوقت يُرَابِط فيه مُطْلُوعَةُ المَصْرِيِّين وغيرهم ^١.

وفي سنة سبع وسبعين وسبع مائة ، سَقَطَ رَأْسُ المَنَارِ ^(أ) من زَلْزَلَةٍ . ويُقَالُ إنَّ مَنَارَ ^(ب) الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ كانت مَبْنِيَّةً بِحِجَارَةٍ مُهَنْدَمَةٍ مُضَبَّجَةٍ بِرِصَاصٍ على قَنَاطِرٍ من الرُّجَاجِ ، وتلك القَنَاطِرُ على ظَهْرِ سَرَطَانٍ ، وكان في المَنَارِ ^(ج) ثلاث مائة بيت بعضها فوق بعض ، وكانت الدَّائِيَّةُ تَضَعُهُ بِحَقْلِهَا إلى سَائِرِ البُيُوتِ من دَاخِلِ المَنَارِ ^(د) . ولهذه البُيُوتِ طَاقَاتٌ تُشْرِفُ على البحر . وكان على الجَانِبِ الشَّرْقيِّ من المَنَارِ ^(هـ) كِتَابَةٌ عُرِّيتْ فإذا هي : «بُنْتُ هَذِهِ الْمُنْتَظَرَةُ قَرِينَتَا ^(ب)» بنت مَرِينُوسِ الْيُونَانِيَّةِ لِرُصْدِ الْكُوكَبِ .

وقال ابنُ وَصِيفِ شاه ، وقد ذَكَرَ أَخْبَارَ مِصْرَإِيمَ بنِ بَيْضَرِ بنِ حَامِ بنِ نُوحٍ : وَبَنُوا على عَهِرٍ ^(١٠) البحر مُدُنًا منها رَقُودَةٌ مكانَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَجَعَلُوا في وَسَطِهَا قُبَّةً على أَسَاطِينٍ من نُحَاسٍ مُذَلَّجٍ ، وَالْقُبَّةُ مُذَلَّجَةٌ ، وَنَصَبُوا فَوْقَهَا مَنَازَةً عليها مِرْآةٌ من أَخْلاطِ شَتَّى ، قُطْرُهَا خَمْسَةُ أَشْبَارٍ ، وَكان اِرْتِفَاعُ الْقُبَّةِ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، فَكَانُوا إِذَا قَصَدَهُمْ قَاصِدٌ من الْأُتُمِ التي حَوْلَهُمْ ، فَإِنْ كانَ مِمَّا يَهْمُهُمْ أَوْ من البَحرِ ، عَمِلُوا لتلك المِرْآةِ عَمَلًا فَأَلْقَتْ شُعَاعَهَا على ذلك الشَّيْءِ فَأَخْرَجَتْهُ . فلم تَزَلْ على حَالِهَا إلى أَنْ غَلَبَ عليها البحرُ فَتَسَقَّهَا .

وَيُقَالُ إنَّ الْإِسْكََنْدَرَ إِذَا عَمِلَ المَنَارَ الَّذِي كانَ تُشْبِهُهَا بها ، وقد كانَ أَيْضًا عليه مِرْآةٌ يُرَى فيها ^(١٥) مَنْ يَقْصِدُهُمْ من بِلَادِ الرُّومِ ، فَاجْتَنَلِ [عليها] ^(د) بعضُ مُلُوكِ الرُّومِ فَوَجَّهَ [إليها] ^(هـ) مِنْ أَرْزَالِهَا ، وَكانت من رُجَاجٍ مُدَوَّرٍ ^٢.

وقال المَسْعُودِيُّ في كتاب «التَّجَمُّعِ وَالْإِشْرَافِ» : وقد كانَ وَزِيرُ الْمُتَوَكَّلِ عبيد الله بن/ يحيى بن خاقان ، لما أَمَرَ الْمُشْتَعِينَ بِتَقْيِهِ إلى بَرْزَةِ في سنة ثمان وأربعين ومائتين ، صَارَ إلى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ من بِلَادِ مِصْرَ ، فَرَأَى حُمْرَةَ الشَّمْسِ على غُلُوِّ المَنَازَةِ التي بها وَقَّتِ المَغِيبُ ، فَقَدَّرَ أَنَّهُ يَلْزِمُهُ أَلَّا يُفْطِرَ إِذْ كانَ صَائِمًا أَوْ تَقَرَّبَ الشَّمْسُ من جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، فَأَمَرَ إِنْسَانًا أَنْ يَصْعَدَ إلى أَهْلَى مَنَازَةِ

(أ) بولاق : منارة . (ب) بولاق : قريبا . (ج) ساقطة من بولاق . (د) زيادة من النويري .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٨ . ونسبه النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ لابن وصيف شاه .

^٢ النص عند المسعودي : أخبار الزمان ١٥٣ - ١٥٤

الإسكندرية ومعه حجر، وأن يتأمل موضع سقوط [قُصص] ^٥ الشمس، فإذا سقطت رمى بالحجر، ففعل الرجل ذلك، فوصل الحجر إلى قرار الأرض بعد صلاة العشاء الآخرة، فجعل إقطاعه بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد إذا صام في مثل ذلك الوقت. وكان عند رجوعه إلى شومن رأى لا يفطر إلا بعد العشاء الآخرة، وعنده أن هذا فرضه، وأن الوقتين متساويان: وهذا غايته ما يكون من قلة العلم بالفرض ومجاري الشرق والغرب.

وقد ذكر أرسطاطاليس في كتاب «الآثار العلوية» ^١ أن بناحية المشرق الصيفي بجبل شامخا جدا، وأن من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه إلى ثلاث ساعات من الليل، وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات.

ومنازة الإسكندرية أخذ ببيان العالم العجيب، بتأها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيليس الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب في البر والبحر، فجعلوا هذه المنازة مرقبا، في أعاليها مראה عظيمة من نوع الأحجار المشقة ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إفرادها، فكانوا يُراعون ذلك في تلك المראה، فيستعدون لهم قبل ورودهم.

وطول المنازة في هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا، وكان طولها قديما نحوًا من أربع مائة ذراع، فهدمت على طول الأزمان وترادف الزلازل والأمطار، لأن بلد الإسكندرية تمطر، وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر، إذ كان الأغلب عليها ألا تمطر إلا اليسير. وبنائها ثلاثة أشكال: فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل، وبنائها بأحجار يرض، يكون نحوًا من مائة ذراع وعشرة أذرع على التقريب. ثم من بعد ذلك مئتين الشكل مبنى بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا، وحواليه قضاء يدور فيه الإنسان وأعلىها مدور. وكان أحمد بن طولون رم شيقا منها، وجعل في أعلاه قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها، وهي مبسوطة موزبة بغير درج. وفي الجهة الشمالية من المنازة كتابة برصاص مدقون بقلم يوناني، طول كل حرف ذراع

(٥) زيادة من السيه.

^١ كتاب «الآثار العلوية» لأرسطاطاليس مصدر ينقل في مواضع كثيرة النص بما فيه من مصادر المؤلف السعدي في التنبيه لا من مصادر المقرئ، فالمقرئ الأصلي، الأمر الذي يوهم أحيانا أنه أطلع على هذه المصادر.

في عرض شبر، ومقدارها على جهة الأرض نحو من مائة ذراع، وماء البحر قد بَلَغَ أَصْلَهَا . وقد كان تَهْدُمُ أَحَدُ أَرْكَانِهَا الغربية ممَّا يلي البحر، فبَنَّاها أَبُو الجَيْشِ حُمَارُوتَهُ بنُ أَحْمَدَ بنِ طُولُون . وبينها وبين مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ في هَذَا الْوَقْتُ نحو من ميل، وهي على طَرَفِ لِسَانٍ مِنَ الْأَرْضِ قَدْ رَكِبَ الْبَحْرَ جَبْتِيَّةً . وهي مَبْنِيَّةٌ عَلَى فَمِّ مِيْنَاءِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وليس بالمِيْنَاءِ الْقَدِيمِ لِأَنَّ الْقَدِيمَ فِي الْمَدِينَةِ الْعَتِيقَةِ لَا تَرُوسِي فِيهِ الْمَرَائِبَ لِبُعْدِهِ عَنِ الْعُثْرَانِ . والمِيْنَاءُ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَرُوسِي فِيهِ مَرَائِبُ الْبَحْرِ .

وَأَهْلُ الإسْكَندَرِيَّةِ يُخْبِرُونَ عَنْ أَشْلَافِهِمْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا بَيْنَ الْمَنَازَةِ وَبَيْنَ الْبَحْرِ نَحْوًا مِمَّا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْمَنَازَةِ فِي هَذَا الْوَقْتُ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ مَاءُ الْبَحْرِ فِي الْمُدَّةِ الْبَسِيرَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ فِي زِيَادَةِ ١ .

قَالَ : وَتَهْدُمُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ نَحْوَ مِنْ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا مِنْ أَعَالِيهَا بِالزَّلْزَلَةِ الَّتِي كَانَتْ يَبْلُغُ مِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَالْمَغْرِبِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ عَلَيْنَا الْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَنَحْنُ بِقُسْطَاطِ مِصْرَ ، وَكَانَتْ عَظِيمَةً جَدًّا مَهُولَةً فَظِيْعَةً أَقَامَتْ نَحْوَ نِصْفِ سَاعَةٍ زَمَانِيَّةً ، وَذَلِكَ لِنِصْفِ يَوْمِ السَّبْتِ لِثَمَانِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ ، وَهُوَ الْخَامِسُ مِنْ كَانُونِ الْآخِرِ وَالتَّاسِعُ مِنْ طُوبَةِ ٢ .

وَكَانَ لِهَذِهِ الْمَنَازَةِ مَجْمَعٌ فِي يَوْمِ خَمِيسِ الْعَدَسِ ٣ ، يُخْرُجُ سَائِرُ أَهْلِ الإسْكَندَرِيَّةِ إِلَى الْمَنَازَةِ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ بِمَا يَكْلِمُهُمْ - وَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا عَدَسٌ - فَيُفْتَحُ بَابُ الْمَنَارِ وَيَدْخُلُهُ النَّاسُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْهَوُ ، وَلَا يَزَالُونَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ . وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ يُخْتَرَسُ عَلَى الْبَحْرِ مِنْ هُجُومِ الْعَدُوِّ .

وَكَانَ فِي الْمَنَازَةِ قَوْمٌ مُرْتَبُونَ لَوْقُودِ النَّارِ طَوْلَ اللَّيْلِ ، فَيَقْصِدُ رُكَّابُ الشُّقْنِ تِلْكَ النَّارَ عَلَى بُغْدٍ ، فَإِذَا رَأَى أَهْلُ الْمَنَارِ مَا يُرِيدُهُمْ أَشْعَلُوا النَّارَ مِنْ جِهَةِ الْمَدِينَةِ ، فَإِذَا رَأَى الْحَرَسُ حَرَبُوا الْأَبْوَاقَ وَالْأَجْرَاسَ ، فَيَخْرُوكَ عِنْدَ ذَلِكَ النَّاسُ لِحَاوِزَةِ الْعَدُوِّ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْمَنَارَ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الْبَحْرِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ بْنِ قُسْطَنْطِينِ هَاجَ الْبَحْرُ وَغَرَّقَ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً وَكُنَائِسَ عَدِيدَةً بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَغْلِبُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَيَأْخُذُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَاسَهُ فَكَانَ مَائَتِي ذِرَاعٍ وَثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ، وَهِيَ ثَلَاثُ

١ المسعودي: التنبيه والإشراف ٤٦-٤٨ . وصف الزلزلة ١٧٤ .

٢ نفسه ٤٨-٤٩ السيرطي : كشف الصلصلة عن ٣ عن خميس العدس انظر فيما يلي ١ : ٤٥٠ ، ٤٩٥ .

طَبَقَات : الطَّبَقَةُ الأولى مُرَبَّعَةٌ ، وهي مائة وإحدى وعشرون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع . والطَّبَقَةُ الثانية مُعَمَّنَةٌ ، وهي إحدى وثمانون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع . والطَّبَقَةُ الثالثة مُدَوَّرَةٌ ، وهي إحدى وثلاثون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع ^١.

وَذَكَرَ ابْنُ مُجَبِّيرٍ فِي «رِخْلَتِهِ» أَنَّ مَنَارَ الإِسْكََنْدَرِيَّةِ يَظْهَرُ عَلَى أَزْيَدَ مِنْ سَبْعِينَ مِثْلًا ، وَأَنَّهُ ذَرَعَ أَحَدَ جَوَانِيهِ الأَرْبَعَةِ/ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةِ فَأَنَافَ عَلَى خَمْسِينَ ذِرَاعًا ، وَأَنَّ طُولَ الْمَنَارِ أَزْيَدُ مِنْ مِائَةِ وَخَمْسِينَ قَاعَةً ، وَفِي أَغْلَاهُ مَشْجَدٌ يَبْكُرُ النَّاسَ بِالصَّلَاةِ فِيهِ ^٢.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى مَنَارَ الإِسْكََنْدَرِيَّةِ كِلُوبَاطَرَةُ الْمَلِكَةِ ، وَهِيَ الَّتِي سَاقَتْ تَحْلِيَجَهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَلْفُهَا إِلَّا مَا كَانَ يَقْدِرُ مِنْ قَرِيَةِ يُقَالُ لَهَا كِشَا قُبَالَةَ الْكِرْثُونِ ، فَحَفَرَتْهُ حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي بَلَطَتْ قَاعَهُ ^٣.

وَلَمَّا اسْتَوَلَى أَحْمَدُ بْنُ طُغْلُوكَ عَلَى الإِسْكََنْدَرِيَّةِ بَنَى فِي أَعْلَى الْمَنَارِ قُبَّةً مِنْ خَشَبٍ فَأَخَذَتْهَا الرِّيحُ ^{١٠}.

وَفِي أَيَّامِ الظَّاهِرِ بَيْبُوسَ تَدَّاعَى بَعْضُ أَزْكَانِ الْمَنَارِ وَسَقَطَ ، فَأَمَرَ بِنَاءَ مَا انْتَهَدَمَ مِنْهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، وَبَنَى مَكَانَ هَذِهِ الْقُبَّةِ مَسْجِدًا ، وَهَدِيَمَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعَ مِائَةٍ عِنْدَ مُحْدُوْثِ الزَّلْزَلَةِ ، ثُمَّ بُنِيَ فِي شُهُورِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعَ مِائَةٍ عَلَى يَدِ الْأَمِيرِ رُكْنِ الدِّينِ بَيْبُوسَ الْجَاشَنْكِرِ ، وَهُوَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ^{١٥}.

وَلَهُ ذِكْرُ الْوَجِيهِ الدَّرَوِي حَيْثُ يَقُولُ فِي مَنَارِ الإِسْكََنْدَرِيَّةِ ^٤:

[الطويل]

وسامية الأوجاء تُهْدِي أُنْحَا الشَّرَى	ضياء إذا ما جِلْدِسُ اللَّيْلِ أَطْلَعَا
لَيْسَتْ بِهَا يُزْدَا مِنَ الْأُنْسِ ضَافِيَا	فَكَانَ بَعْدُكَارِ الْأَجِيَّةِ مُغْلَمَا
وَقَدْ ظَلَّلْتُشْنِي مِنْ دُرَاهَا بِقَبِيَّةٍ	أَلَا حِطُّ فِيهَا مِنْ صَحَابِي أَتْجَمَا
فَخِيلَ أَنَّ الْبَحْرَ تَحْتِي غَمَامَةً	وَأَنِّي قَدْ نَحِثْتُ فِي كَيْدِ الشَّمَا

وَقَالَ ابْنُ قَلَاقِسَ مِنْ أَيْيَاتٍ ^٥:

٢٠

^١ مصدر هذه الفقرة عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعبيار ٥٣.
^٢ ابن جبير : الرحلة ١٥.
^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤١.
^٤ الأبيات عند النويري : نهاية الأرب ١: ٣٩٧.
^٥ لم ترد الأبيات في ديوان ابن قلايس الذي نشرته سهام الفريخ ، ووردت عند النويري : نهاية ١: ٣٩٨ ، وابن فضل الله العمري : مسالك الأبهصار ١: ٢٤١.

[البسيط]

وَمَنْزِلَ جَاوَزَ الْجَوَازَةَ مُرَوِّقِيَا كَأَمَّا فِيهِ لِلشُّرْمَنِ أَوْكَارُ
رَاسِي الْقَرَارَةِ سَامِي الْفَرْعِ فِي يَدِهِ لِلشُّونِ وَالشُّورِ أَخْبَارُ وَأَخْبَارُ
أُطْلِقْتُ فِيهِ جِنَانُ الثَّغْلَمِ فَاطْرَدَتْ خَيْلُ لَهَا فِي بَيْدِيعِ الشُّعْرِ مِضْمَارُ
وَقَالَ الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِوَيْه^١:

[البسيط]

لَهُ دَرُ مَنَارِ اسْكََنْدَرِيَّةٍ كُنْمْ يَشْمُو إِلَيْهِ عَلَى بُغْدٍ مِنَ الْحَدَقِ
مِنْ شَامِيخِ الْأَنْفِ فِي عَرْنِيهِ شَعْمُ كَأَنَّهُ بَاهِثٌ فِي دَائِرَةِ الْأَقْنِي
لِلْمُثَنَّنَاتِ الْجَوَارِي عِنْدَ رُؤُوتِهِ كَمْوَقِعِ النُّزْمِ فِي أَجْفَانِ ذِي أَرْقِي

- ١٠ وقال عُثْمَرُ بْنُ أَبِي عُثْمَرَ الْكِئَنَدِيِّ فِي «فَضَائِلِ مِصْرَ»: ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَنَازَةَ كَانَتْ فِي وَسْطِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهَا الْبَحْرُ فَصَارَتْ فِي جَوْفِهِ، أَلَا تَرَى الْأَثْنِيَّةَ وَالْأَسَاسَاتِ فِي الْبَحْرِ إِلَى الْآنَ عَيَانًا^٢؟
وقال عبدُ الله بن عُثْمَرُ: عَجَائِبُ الدُّنْيَا أَرْبَعَةٌ: مِرَآةٌ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَنَازَةِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَكَانَ يَجْلِسُ الْجَالِسُ تَحْتَهَا فَيَرَى مِنْ بِالْقُسْطِ نَظِيرَتِهَا، وَبَيْنَهُمَا عَرَضُ الْبَحْرِ، وَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ.

ذِكْرُ الْمَلَقَبِ الَّذِي كَانَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ

- ١٥ قَالَ الْقَضَائِي: وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَمَا بِهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، فَمِنْ عَجَائِبِهَا الْمَنَازَةُ وَالشُّوَارِي وَالْمَلَقَبُ الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّنَةِ، ثُمَّ يَزُومُونَ بِأَكْمَرَةٍ فَلَا تَقَعُ فِي جَنْبِ أَحَدٍ إِلَّا مَلَكٌ مِصْرَ.
وَحَضَرَ عِيْدًا مِنْ أَعْيَادِهِمْ عُثْرُو بْنُ الْقَاصِ، فَوَقَّعَتِ الْأَكْمَرَةُ فِي جَنْبِهِ فَمَلَكَ الْبَلَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ.
٢٠ ثُمَّ يَحْضُرُ^٣ هَذَا الْمَلَقَبُ أَلْفُ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ، فَلَا يَكُونُ فِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ ثُمَّ إِنْ قُرِئَ كِتَابُ سَمِيعِهِ جَمِيعًا، أَوْ لُعِبَ لَوْثٌ مِنَ اللَّعِبِ رَأَوْهُ عَنِ

(a) فِي جَمِيعِ النُّسخِ: عِدْرَتُهُ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ. (b) بُولَاق: حَضَرَ.

^١ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عُثْمَرَ بْنِ الْمُزَيْنِي،

١٩٥٧، ١٤٤-١٤٩.

^٢ ابْنُ الْكِئَنَدِيِّ: فَضَائِلُ مِصْرَ ٣٣.

فَقِيهُ أَصُولِي مِنَ الْيَمَنِ تَوَفِيَ سَنَةَ ٥٢٥/١١٣١ م (ابْنُ سُرَّةٍ: طَبَقَاتُ فُقَهَاءِ الْيَمَنِ، تَحْقِيقُ غُزَادِ سِيدِ، الْقَاهِرَةُ

آخِرهم ، لا يَتَظَلَّمُونَ فِيهِ بِأَكْثَرٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْعِلْمَةِ وَالشُّغْلَةِ^١.

وقال ابنُ عبد الحكم : فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وقَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - الجاهليَّة ، خَلَا بِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْمَسِيرِ إِلَى مِصْرَ ؛ وَكَانَ عُمَرُ قَدْ دَخَلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِصْرَ وَعَرَفَ طَرَفَهَا ، وَرَأَى كَثْرَةَ مَا فِيهَا . وَكَانَ سَبَبُ دُخُولِهِ لِإِيَّاهَا أَنَّهُ قَدِمَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِتِجَارَةٍ فِي نَقَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَإِذَا هُمْ بِشَّمْسٍ مِنْ شَمَائِسَةِ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ قَدِيمٍ لِلصَّلَاةِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَخَرَجَ فِي بَعْضِ جِبَالِهَا يَسْبُحُ ، وَكَانَ عُمَرُ يَزْعِي إِبِلَهُ وَإِبِلَ أَصْحَابِهِ ، وَكَانَتْ رَغْبَةُ الْإِبِلِ نُوبًا بَيْنَهُمْ . فَبَيَّنَّا عُمَرُ يَزْعِي إِبِلَهُ ، إِذْ مَرَّ بِهِ ذَلِكَ الشَّمْسُ وَقَدْ أَصَابَتْهُ عَطَشٌ شَدِيدٌ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، فَوَقَّفَ عَلَى عُمَرُ فَاسْتَشْقَاه فَسَقَاهَ عُمَرُ مِنْ قِرْبَةٍ لَهُ ، فَشَرِبَ حَتَّى زَوَّيَ وَنَامَ الشَّمْسُ مَكَانَهُ وَكَانَتْ إِلَى جَنْبِ الشَّمْسِ حَيْثُ نَامَ مُحْفَرَةٌ ، فَخَرَجَتْ مِنْهَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، فَبَضَرَ بِهَا عُمَرُ فَتَرَعَ لَهَا بِسَنَامِهَا فَقَتَلَهَا .

فلما اسْتَيْقَظَ الشَّمْسُ نَظَرَ إِلَى حَيَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ أُنْجَاهَ اللَّهُ مِنْهَا ، فَقَالَ لِعُمَرُ : مَا هَذِهِ ؟ فَأَخْبَرَهُ عُمَرُ أَنَّهُ زَمَاهَا فَقَتَلَهَا ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَقَالَ : قَدْ أَخْيَانِي اللَّهُ بِكَ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ ، وَمَرَّةً مِنْ هَذِهِ الْحَيَّةِ ، فَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبِلَادَ ؟ قَالَ : قَدِمْتُ مَعَ أَصْحَابِي لِي تَطْلُبَ الْفَضْلَ فِي تِجَارَتِنَا ، فَقَالَ لَهُ / الشَّمْسُ : وَكَمْ نَرَاكَ تَوَجُّوْا أَنْ تُصِيبَ فِي تِجَارَتِكَ ؟ قَالَ : رَجَائِي أَنْ أُصِيبَ مَا أَشْتَرِي بِهِ بَعِيرًا ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا بَعِيرَيْنِ ، فَأَتَمَّلُ أَنْ أُصِيبَ بَعِيرًا آخَرَ فَتَكُونَ ثَلَاثَةً أَيْمَرَةً ؛ فَقَالَ لَهُ الشَّمْسُ : أَرَأَيْتَ أَحَدَكُمْ يَبْنِيكُمْ كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ؛ فَقَالَ لَهُ الشَّمْسُ : لَسْنَا أَصْحَابَ إِبِلٍ ، إِنَّمَا نَحْنُ أَصْحَابُ دَنَانِيرٍ ؟ قَالَ : تَكُونُ أَلْفَ دِينَارٍ ؛ فَقَالَ لَهُ الشَّمْسُ : إِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَإِنَّمَا قَدِمْتُ أَصْلِي فِي كَنِيسَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَسْبُحُ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ شَهْرًا ، جَعَلْتُ ذَلِكَ نَذْرًا عَلَى نَفْسِي ، وَقَدْ قَضَيْتُ ذَلِكَ ، وَأَنَا أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى بِلَادِي ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَّبَعَنِي إِلَى بِلَادِي وَلَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَبِمِيثَاقِهِ أَنْ أُعْطِيكَ دِيبَيْنِ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْيَانِي بِكَ مَرَّتَيْنِ ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَيْنَ بِلَادُكَ ؟ قَالَ : مِصْرَ ، فِي مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَا أَغْرِفُهَا ، وَلَمْ أَدْخُلْهَا قَطُّ ، فَقَالَ لَهُ الشَّمْسُ : لَوْ دَخَلْتُهَا لَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تَدْخُلْ قَطُّ مِثْلَهَا ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : وَتَغْيِي لِي بِمَا تَقُولُ ، وَلِي عَلَيْكَ بِذَلِكَ الْعَهْدُ وَالْمِثَاقُ ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّمْسُ : نَعَمْ ، لَكَ وَاللَّهِ عَلَيَّ الْعَهْدُ وَالْمِثَاقُ أَنْ أَفِي لَكَ ، وَأَنْ أَزُودَكَ إِلَى أَصْحَابِكَ ؛ فَقَالَ

^١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٨ ؛ وانظر ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

له غمرو - كم يكون مُكْنِي في ذلك ؟ قال : شهرًا ، تنطلق معي ذاهبًا عشرًا ، وتُقيم عندنا عشرًا ، وتزجع في عشر ، ولك علي أن أحمفظك ذاهبًا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا ؛ فقال له غمرو : أَلْيُظَرِّني حتى أُشاور أصحابي في ذلك .

فانطلق غمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشَّمْسُ ، وقال لهم : تُقيمون علي حتى أُرْجِع إليكم ولكم علي العهد أن أعطيكم شطر ذلك ، علي أن يضحيتي رجل منكم آنس به ؛ فقالوا : نعم ، ويَتَّقُوا معه رجلًا منهم .

فانطلق غمرو وصاحبه مع الشَّمْسُ ، حتى اتَّهَوا إلى مصر ، فرأى غمرو من جِمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ، فقال غمرو للشَّمْسُ : ما رأيك مثل ذلك ، ^(٨) فقال الشَّمْسُ : ما رأيت مثل غمرو ^(٩) .

١٠ ومضى إلى الإسكندرية ، فنظر غمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة ، وجودة بنايتها وكثرة أهلها ، فازداد عجبًا . ووافق دُخُول غمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ، ولهم كُرَّة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهو يلقونها بأحمامهم ، وفيما اختبروا من تلك الكرة - علي ما وصَّفا من مَضَى منهم - أنها من وَقَعَت الكرة في كُمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم .

١٥ فلما قَدِم غمرو الإسكندرية أَكْرَمَهُ الشَّمْسُ الإكرام كله ، وكساه ثوب ديباج ألبسه إقامه ، وجلس غمرو والشَّمْسُ مع الناس في ذلك المجلس ، حيث يترامون بالكرة وهم يلقونها بأحمامهم ، فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوي حتى وَقَعَت في كُم غمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كَدَّبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة . أَرَى هذا الأعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبدًا . وأن ذلك الشَّمْسُ مَشَى في أهل الإسكندرية ، وأعلمهم أن غمرو أحياء مرتين ، وأنه قد ضَمِنَ له ألفي دينار ، وسألهم أن يجتمعوا ذلك له فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوها إلى غمرو .

فانطلق غمرو وصاحبه ، وبعثَ معهما الشَّمْسُ دليلًا وزنولًا ، وزودهما وأخبرتهما حتى رَجَعَ هو وصاحبه إلى أصحابهما ، فبذلك عَرَفَ غمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما عَلِمَ أنها أَفْضَلُ البلاد وأكثرها أنوالًا . فلما رَجَعَ غمرو إلى أصحابه ، دَنَعَ إليهم فيما بينهم

ألف دينار، وأمسك لنفسه ألفاً. قال عمرو: وكان أول ما لي اعتقده وتأتته^١.

ذكر عمود الشواري

هذا العمود حَجَرٌ أحمر مُنْقَط، وهو من الصُّوان الماتع، كان حَوْلَهُ نحو أربع مائة عَمُود كَسَرَهَا قَرَاجَا - والي الإسكندرية في أيام السُلطان صلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب - ورَمَاهَا بِسَاطِئِ الْبَحْرِ لِیُؤَخِّرَ عَلَى الْقَدُورِ سُلُوكَهُ إِذَا قَدِمُوا.

ويُذَكِّرُ أَنَّ هَذَا الْعَمُودَ مِنْ جُمْلَةِ أَعْجَمَةٍ كَانَتْ تَحْمِلُ رَوَاقَ أَرِسْطَاطَالِيسِ الَّذِي كَانَ يُدْرَسُ بِهِ الْحِكْمَةُ، وَأَنَّهُ كَانَ دَارَ عِلْمٍ، وَفِيهِ خِزَانَةُ كُتُبٍ أَخْرَقَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِإِشَارَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيُقَالُ إِنَّ ارتفاعَ هَذَا الْعَمُودِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَقَطْرُهُ خَمْسَةُ أَذْرُعٍ.

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ طُولَهُ بِقَاعِدَتَيْهِ اثْنَانِ وَسِتُونَ ذِرَاعًا وَشُدُسُ ذِرَاعٍ، وَهُوَ عَلَى نَشْرِ طُولِهِ ثَلَاثَةُ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا وَنِصْفُ ذِرَاعٍ، فَجُمْلَةُ ذَلِكَ خَمْسَةُ وَثَمَانُونَ ذِرَاعًا وَثُلُثًا ذِرَاعٍ، وَطُولُ قَاعِدَتِهِ السُّفْلَى اثْنَانِ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَطُولُ الْقَاعِدَةِ الْعُلْيَا سَبْعَةُ أَذْرُعٍ وَنِصْفٍ^٢.

قال المسعودي: وفي الجانِبِ الشَّرْقِيِّ^(a) مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ جَبَلٌ رُخَامٌ عَظِيمٌ، كَانَتْ الْأَوَائِلُ تُقَطِّعُ مِنْهُ الْعُمُدَ وَغَيْرَهَا، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ مَا عَمِلُوا بَعْدَ النِّقَرِ^(b)؛ فَأَمَّا الْعُمُدُ وَالْقَوَاعِدُ وَالرُّؤُوسُ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ مِصْرَ الْأُسْوَانِيَّةِ - وَمِنْهَا حِجَارَةُ الطُّوَّاحِينَ - فَتِلْكَ تَقَرَّبَهَا الْأَوَّلُونَ قَبْلَ حُدُوثِ النُّصْرَانِيَّةِ بِمَقِينَ مِنَ السِّنِينَ، وَمِنْهَا الْعُمُدُ الَّتِي بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ^٣، وَالْعَمُودُ بِهَا الصُّنْعُ الْكَبِيرُ لَا يُقْلَمُ

(a) بولاق: الفري. (b) المسعودي: وكانوا يحملون ما عملوا بالرمل بعد النقر، وهو الصواب.

وقد ناقش هذه الرواية مطولاً ودَحَضَهَا أَلْفَرِدُ بَطَرُ فِي كِتَابِهِ:

فتح العرب لمصر ٣٤٨ - ٣٧٠. وعن تاريخ هذه المكتبة انظر Parsons, E.A., *The Alexandrian Library-Glory of the Hellenic World, its Rise, Antiquities, and Destructions*, London 1952; Macleod, R., *The Library of Alexandria - Centre of Learning in the Ancient World*, London - Tauris 2000.

^٢ فيما يلي ٥٣٨.

^١ ابن عبد الحكم: فروح مصر ٥٣ - ٥٥.

^٢ مصدر هذا الخير عبد اللطيف اليفدادي: الإفادة والاعتبار ٥١ - ٥٣؛ وما ذكره عن إحراق عمرو بن العاص لخزانة كتب دار العلم بإشارة الخليفة عمر بن الخطاب فضلته فيما بعد أبو الفرج بن العري الذي اشتمل كتابه لتاريخ مختصر الدولة على أول ذكر مفصل لإحراق مكتبة الإسكندرية المزعم على يد العرب، وكان الغرض منه هو تبرير ما قام به صلاح الدين من بيع وتشيت لمكتبة الفاطميين.

بالعالم عمود مثله ؛ وقد رأيت في جبل أسوان أنما هذا العمود وقد هندس ونقبر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحمل ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم^١ . انتهى .

وكان بالإسكندرية من العمود العظام ، وأنواع الحجازة والرخام الذي لا تثقل القطعة منه إلا بألوف من الناس ، وقد غُلقت بين السماء والأرض على قوق / المائة ذراع ، وقوق رؤوس أساطين دائر الأسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعاً إلى العشرين ذراعاً ، والحجر فوقه عشرة أذرع في عشرة أذرع في سلك عشرة أذرع ، بغرائب الألوان .

وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا نظير له في مقصور الأرض ، على رتبة عظيمة بإزاء باب البلد ، طوله خمس مائة ذراع ، وغرضه على النصف من ذلك ، وبابه من أعظم بناء وأتقنه ، كل عصابة منه حجر واحد ، وعقبته حجر واحد .

وكان فيه نحو مائة أسطوانة ، وإزائيه أسطوانة عظيمة لم يمتنع بمثلها ، غلظها ستة وثلاثون شبراً ، وغلظها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء ، وتحتها قاعدة حجر أحمر مُحكم الصناعة ، غرض كل ضلع منه عشرون شبراً في ارتفاع ثمانية أشبار .

والأسطوانة منزهة في عمود من حديد قد خُرقت به الأرض ، فإذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك ، وربما وُضِعَ تحتها الحجازة فطاحتها لشدة حركتها .

وكانت هذه الأسطوانة إحدى عجائب الدنيا ، وقد زعم قوم أنها مما عمله الجبر لسليمان بن داود عليهما السلام ، كما هي عادتهم في نبذة كل ما يشفقظمون عقله إلى أنه من صنيع الجبر ، وليس كذلك ، بل كانت مما عمله قداماء من أهل مصر .

كان في وسطه قبة ، ومن حولها أساطين ، وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع .

ويقال إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية ، فأعجبته هذا القصر وأراد أن يبني مثله ، فجمع الصناع والمهندسين ليقوموا له قصراً عظيماً على هيئته ، فما منهم إلا من اعترف بعجزه عن مثله ، إلا شيعاً منهم فإنه التزم أن يصنع مثله ؛ فسر الملك ذلك ، وأذن له في طلب ما يحتاج إليه من

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٨ .

المؤمن والآلات والرجال . فقال : اثنوني بثورنن مطيقين ، وعجله كبيرة ، فللحال أتني بذلك .
فمضى إلى المقابر القديمة ، وحفر منها قبراً أخرج منه مجتمعة عظيمة ، رفعها عدة من الرجال
على العجلة ، فما جررها الثوران ، مع قوتيهما ، إلا بعد مجهود وعناء . فلما وقف بها بين يدي
الملك ، قال : أضلح الله سيدنا ، إن أتيتني بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس ، غملت لك مثل هذا
القصر . فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن إقامة مثل ذلك القصر .

وقد ذكر أنه كان بالإسكندرية ضرس إنسان عند قصاب يزن به اللحم ، زنته ثمانية أوتال .
ويقال إن عمود السواري ، الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية ، أخذ سبعة أعمدة أتى
بأحدها البتون بن مرة العادي ، وهو يحميه تحت إبطه ، من جبل يرمي الأحمر قبلي أشوان إلى
الإسكندرية ، فالتكسر ضلعه لأنه كان ضعيف القوى في قومه .

فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد ، وقال : ليتني قدتيه بنصف ملكي .
وجاء بعمود آخر بجحدر بن سينان الثمودي - وكان قويا - فحمله من أشوان تحت إبطه وجاء
بقية رجالهم ، كل رجل بعمود ، فأقام العمود السبعة الجوارد بن قطن المؤتفكي - وكان يناؤها -
بعد أن احتاروا لها طالعا سعيًا كما هي عادة في عائم أعمالهم .

وقد ذكر غير واحد أن الصخور ، في القديم من الدهر ، كانت تلين ، ففعل منها أعمدة ناعط
ومأرب وبينون ومأثر اليمن ، وأعمدة دمشق ومصر ومدن وتدمر ، وأن كل شيء كان يتكلم .
قال أُمَيَّة بن أبي الصلت ١ :

[الوافر]

واذ هم لا لبوس لهم غزاة وإذا صحرؤ السلام لهم وطاب

وقال قوم : عمود السواري من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة ، وذلك
حيث انتهت علوم أهل العرب إلى خمس فروع ، وهم : أصحاب الرواق هذا ، وأصحاب
الأسطوانة وكانوا يتغلبك ، وأصحاب المظال وهم بالطاكية ، وأصحاب البرابي وكانوا يصعد
مصر ، والمشائون وكانوا بمقدونية .

وكأني بمن قل علمه يذكرك علي إيراد هذا الفصل ، وقرأه من قبيل الخيال ومما وضعه القصاص ويخبرم
بكذبه ، فلا يوحشتك حكايته له ، واستمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود : ﴿وَإِذْ كُذِّرُوا إِذْ يَجْعَلُكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الآية ٦٩ سورة الأعراف] ، أي طولًا وعظم جسم .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعاً . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم ، وقيل على خلق قوم نوح . وقال وهب بن منبه : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة ، وكانت عين الرجل منهم تُفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخيرهم .
وروى شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليحمل المضراغين ، لو اجتمع عليه خمس مائة من هذه الأئمة لم يطيقوه ؛ وإن كان أخذهم ليُغِيرَ بقدمه الأرض فيدخل فيها .

وروى عبد الله بن لهيعة ، عن يزيد بن عمرو الماعري ، عن ابن بكرة قال : استظل سبعون رجلاً من قوم موسى - عليه السلام - في قحف رجل من العماليق . وعن زيد بن أسلم : بلغني أن الضيقة وأولادها زُيِّن في ججاج عين رجل من العماليق .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ يَمَادٍ * لِرَمِّ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الآيات ٧-٥ سورة النجر] .

قال المبرد : وقولها - يعني الحفساء - : رفيع العِمَاد ، إنما تُريد الطول . يقال رجل مُعَمَّد : يُريد طويلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِرَمِّ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، أي الطوال .

وقال البقوي : سُمُوا ذات العِمَاد ، لأنهم كانوا أهل غمد سيطرة ، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ، ورواية غطاء عن ابن عباس . وقال بعضهم : سُمُوا ذات العِمَاد ، لطول قاماتهم ، قال ابن عباس : يعني طولهم مثل العِمَاد . قال مقاتل : كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً .
وفي «كشاف» الزمخشري : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ﴾ : (مثل عاد) في البلاد عظم أجرام وقوة ، كان طول الرجل منهم أربع مائة ذراع ، وكان يأتي الصخرة العظيمة فتحملها فيلقها على الحَيِّ فيهلكهم^١ .

وقد ذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المقتصد ، كنز بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شهراً في عرض ثلاثة أشبار .

والعلم أن أعين بني آدم ضيقة ، وقد نشأت نفوسهم في محل صغير ، فإذا حدثت القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو متبلغ أجسامهم - مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه إلا ما يشاهدونه أو يألّفونه - عجلوا إلى الارتياح فيه ، وسارحوا إلى الشك في الخبر عنه ، إلا من كان معه علم وفهم ، فإنه يفحص عما يلغنه من ذلك حتى يجد دليلاً على قبوله أو رده .

^١ الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥ ، ٢ : ٥٤٢ .

وكيف يرد مثل هذه الأخبار، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ طُولَهُ ستون ذراعاً في السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

وذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغزنائي في كتاب «تحفة الألباب» قال: نقل الشعبي في كتاب «سير الملوك»، أن الضحاك بن مخلد لما هرب منه لام بن عابر إلى ناحية الشمال، أرسل في طلبه أميرين، مع كل أمير طائفة من الجبارين، خرج أحدهما قاصداً إلى بلغار، والآخر إلى باشغرد^١، فأقام أولئك الجبارون في أرض بلغار وفي باشغرد^٢.

قال الأقبليسي: وقد رأيت صورهم في باشغرد، ورأيت قبورهم بها، فكان مما رأيته نتيجة أخذهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران، وقد كان عندي في باشغرد نصف أضل الشية، أخرجت لي من فكه الأسفل، فكان عرضها شبراً ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال، أنا وزنتها بيدي، وهي الآن في داري في باشغرد^٣، وكان دوز فلك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً.

وفي بيت بعض أصحابي في باشغرد غصن أحدهم، طوله ثمانية وعشرون ذراعاً، وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام، وأخرج إلي نصف رشف يد أحدهم، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه يدي جميعاً.

قال: ولقد رأيت في بلد بلغار، سنة ثلاثين وخمسمائة، من نسل العاديين رجلاً طويلاً، كان طوله أكثر من سبعة أذرع، وكان يسمى دثقي، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الطفل الصغير، وكان إذا وقع القتال بتلك الناحية يُقاتل بشجرة من شجر البلوط: يُمسكها كالعصا في يده، لو ضرب بها الفيل قتله. وكان خيراً متواضعاً، كلما التقاني سلم علي ورحب بي وأكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حقه.

وكان له أخت على طوله، رأيتها في بلغار يرازاً جدة، قال لي القاضي يعقوب بن النعمان - يعني قاضي بلغار -: إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان من أقوى أهل بلغار، ضعته إلى صدرها فكتمت أضلاعه، فمات من ساعته.

(١) بولاق: باشغرد.

^١ أبو عمرو عامر بن سراجيل الشعبي المتوفى سنة ١٠٣هـ/٧٢١م، محدث وعالم في الفقه والمغازي، عارف بالشعر راوية له، لم يذكر له غواد مزجيين بين مؤلفاته كتاب «سير الملوك» فتكون إشارة أبي حامد الغزنائي ذات قيمة خاصة (Sezgin, F., GASI, p. 277).

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ فِي بَلْغَارِ حَمَامٍ تَسْتَعْمِلُهُمْ إِلَّا حَمَامٌ وَاحِدَةٌ وَاسِعَةُ الْأَبْوَابِ^١. انْتَهَى.

وَقَدْ حَدَّثَنِي الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُرْبَانِيُّ^٢، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ شَاهَدَ قَبْرًا اخْتَفِرَ بِمَدِينَةِ قَرْطَابَجَنَّةٍ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ، فَإِذَا بَحْثُهُ رَجُلٌ قَدَرُ عِظَمِ رَأْسِهِ كَقَوْزَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وَوُجِدَ مَعَهُ لَوْحٌ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْمُسْتَدِّ، وَهُوَ قَلَمٌ عَادٍ وَمُحَرَّوْفَةٌ مُقَطَّعَةٌ، مَا نَصَّهُ:

«أَنَا كُوشُ بْنُ كَنْعَانَ ابْنِ الْمَلُوكِ مِنْ آلِ عَادَ، مَلَكَتْ بِهَذِهِ الْأَرْضِ أَلْفَ مَدِينَةٍ، وَبَنَيْتُ بِهَا عَلَى أَلْفِ بَكْرٍ، وَرَكِبْتُ مِنَ الْخَيْلِ الْبَتَاقَ سَبْعَةَ أَلْفِ حُمْرٍ وَصُفْرٍ وَشُحْبٍ وَبَيْضٍ وَذَهَبٍ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِ عَنِّي ذَلِكَ شَيْئًا، وَجَاءَنِي صَائِحٌ فَصَاحَ بِي صَبِيحَةً أَخْرَجَنِي مِنَ الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَ عَاقِلًا مَنِ جَاءَ بَعْدِي فَلْيَعْتَبِرْ بِي، وَأَنْشُدْ:

[الرجز]

١٠ يا واقِفًا بِرِشْمٍ رَنَعَ قَدْ وَهَى
وَفِنَ وَاعْتَبِرْ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْتَهَى^(ب)
بِالْأَمْسِ كُنَّا قَرْقَهَا وَالْيَوْمَ صِرْنَا نَحْتَهَا
فَلِكُلِّ حَدٍّ غَايَةٌ وَلِكُلِّ أَفْرِ مُنْتَهَى

قَالَ: فَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرُ بْنُ يَحْيَى الْحَقَاصِي صَاحِبَ ثُوْنُسٍ بَطْنَهُ، فَطَمَّ الْقَبْرَ.

١٥ قَالَ مُؤَلِّفُهُ: وَأَنَا أَذْرَكُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ تَرَفَّعَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ طَائِفَةٌ مِنَ الْحَبَّارِينَ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ تَوْفُوقِ أَغْوَامٍ بَضْعٍ وَتَسْعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَى مَالٍ وَجَدُوهُ بِجَبَلٍ

(أ) بولاق: القرطابي. (ب) في بولاق: إضافة شطر غير موجودة في النسخ المخطوطة فخلل بوزن الرجز.

^١ أبو حامد الفراء: تحفة الألباب ١٢٤، ١٢٩، ١٣١-١٣٣.

^٢ الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي القُرْبَانِيُّ - بضم الفاء وراء مشددة مكسورة - نسبة لقرْبَانَةِ إِحْدَى مَدَائِنِ إِفْرِيقِيَّةٍ

ثم تحتانية وآخره نون - نسبة لقرْبَانَةِ إِحْدَى مَدَائِنِ إِفْرِيقِيَّةٍ قَرِبَ سَفَافُسَ، مَوْلَدُهُ بَتُونُسَ سَنَةِ ٧٨٠ هـ وَارْتَحَلَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٨١٢ هـ فَحَجَّ ثُمَّ قَطَعَ الْقَاهِرَةَ، وَتَرَكْدَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِ الشَّامِ. قَالَ السَّخَاوِيُّ: «وَقَدْ كَانَ الْمُقْرِزِيُّ بِعَظْمِهِ جَدًّا

ووصفه بالشَّيْخِ الْحَافِظِ الْوَحْشَالِيِّ ذِي الْكَيْتَيْنِ، وَأَكْبَرَ مِنْ

الاعتماد عليه فيما كان يخبره به مما يتعلق بالتاريخ ونحوه من غير إفساح بالنقل عنه على عادته، وذكر أنه ترجمه في عقوده باختصار. وكانت وفاته في صفر سنة ٨٦٠ هـ (السَّخَاوِيُّ: الضوء اللامع ٦٧: ٧-٧٠).

وواضح تحامل السَّخَاوِيُّ - كما داته - على المقرزي حيث نسب المقرزي ما أخأده به الحافظ القُرْبَانِيُّ إِلَيْهِ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ بِالنَّصِّ الَّذِي لَمَأَمْنَا، وَانْظُرْ كَذَلِكَ فِيمَا بَلَى ٥١١، ٦٤٦؛ ٢: ٢٠٩، ٣٠٢.

المقطم ؛ وهو أنهم كانوا يقطعون الحجازة من مغار فيما يلي قلعة الجبل من بحريها ، فأنكشفت لهم حجرة أشود عليه كتابة ، فاجتمعوا على قطع ما بين يدي هذا الحجر طمعا في وجود مال ، فالتفتى بهم القطع إلى عمود عظيم قائم في قلب الجبل ، فلعلجهم أقبلوا بعمالهم عليه حتى تكسر قطعاً ، فإذا هو مجوف وإنسان قائم على قدميه بطوله . وتناثر لهم من جهة رأسه دنائير كثيرة ، فالتسموها وتناقشوا في قسمتها ، واختلفوا حتى اشتهر أمرهم وترافعوا إلى السلطان . فبعث من كشف المغار ، فوجد الحجر والعمود وقد تكسر ، فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ، ولم يجد من يعرف ما قد كُتب على الحجر . وتسامع الناس بالخبر ، فأقبلوا إلى المغار وعينوا برمة الميت .

فأخبرني من شاهد سباً من أشنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة ، وأن عظم ساقه فيما بين قدمه إلى ركبته خمسة أذرع ، فيجيء من هذا حساب طوله عشرين ذراعاً وأزيد ، ودماغ سن واحد من أشنانه في قدر الباذنجانة ما هو إلا كالقبة الكبيرة .

وأخبرني السيد الشريف قاضي القضاة بدمشق شهاب الدين أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني ، المعروف بابن عدنان وبن أبي الجين^١ ، أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمان مائة ، بمقبرة باب الصغير من دمشق ، على قبر ليذفن فيه ميت لهم ، فلما تهيأ القبر ولم يبق إلا أن يذلى فيه الميت ، انكشف وخرج من الحشف ذهاب كثير كبار رزق الألوان حتى كادت تظلمهم . فنزل الحفار في الحشف ، فإذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعاً ، وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد .

وأخبرني أيضاً أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس إنسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة ، وهو في قدر البطيخة ، وأنه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواقي بالرطل الشامي ، وأن القطعة التي انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامي ، فيكون على هذا رنة هذا الضرس نحو اثني عشر رطلاً بالمصري .

^١ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن عدنان بن جعفر بن محمد بن عدنان الحسيني المتقري الدمشقي الشافعي كاتب السر الشريف بدار مصر ، توفي بالطاعون سنة ٨٣٣هـ ، ودفن في تربة الأشرف عند السيد حسن بن عجلان ، بعد الصلاة عليه ياب الوزير في محفل شهده السلطان (ابن حجر : إنباء الفهر ٤٤١:٣ - ٤٤٢ ، أبو المحسن : المنهل الصافي : ٤٠٦:١ - ٤٠٧ : النجوم الزاهرة ١٥ : ١٦٤ السخاوي : الضوء اللامع ٢ : ٥ - ٦) .

ذِكْرُ طَرَفٍ بِمَا قِيلَ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ

قال عمر بن أبي عمر^(a) الكندي: أجمعَ الناسُ أنه ليس في الدنيا مدينةٌ على مدينةٍ^(b) ثلاث طَبَقَاتٍ غير الإسْكَندَرِيَّةِ؛ ولَمَّا دَخَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ الإسْكَندَرِيَّةَ سَأَلَ رَجُلًا مِنْ عُلَمَاءِ الرُّومِ عَنْهَا وَعَنْ عَدَدِ أَهْلِهَا؛ فَقَالَ: وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَا أَذْرَكَ عَلِمَ هَذَا أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَالَّذِي أُخْبِرَكَ كَمْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْيَهُودِ، فَإِنَّ مَلِكَ الرُّومِ أَمَرَ بِإِخْصَائِهِمْ فَكَانُوا سِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ؛ قَالَ: فَمَا هَذَا الْحَرَابُ الَّذِي فِي أَطْرَافِهَا؟ قَالَ: بَلَّغَنِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ فَارِسَ، حِينَ مَلَكَوْا مِصْرَ، أَنَّهُ أَمَرَ بِفَرْصِ دِينَارٍ عَلَى كُلِّ مُخْتَلَمٍ لِعِمْرَانَ الإسْكَندَرِيَّةِ، فَأَتَاهُ كُثْرَاءُ أَهْلِهَا وَعُلَمَاؤُهُمْ وَقَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْعَبْ، فَإِنَّ الإسْكَندَرِيَّةَ أَقَامَ عَلَى^(c) بِنَائِهَا ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ، وَعُمِّرَتْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ، وَإِنَّهَا لِحَرَابٌ مِنْذَ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ. وَلَقَدْ أَقَامَ أَهْلُهَا سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَمُتُّونَ فِيهَا نَهَارًا إِلَّا بِخَرَقٍ سُودٍ فِي أَبْدَانِهِمْ^(d)، خَوْفًا عَلَى أَبْصَارِهِمْ مِنْ شِدَّةِ بَيَاضِهَا.

وَمِنْ قَضَائِلِهَا مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهَا الْمَدِينَةُ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ^(e) فَقَالَ: ﴿وَرَمَّ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الْأَنْعَامُ ٦-٧ سورة الفجر]. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ: قَالَ لِي شَفِيَانُ بْنُ عُمَيْيَّةَ: يَا مِضْرِي أَيْنَ تَسْكُنُ؟ قُلْتُ: أَتَسْكُنُ الْقُسْطَاطَ؛ فَقَالَ: أَتَأْتِي الإسْكَندَرِيَّةَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ؛ قَالَ: تِلْكَ كِنَانَةُ اللَّهِ، يَجْعَلُ فِيهَا نِجَارَ سِنَاهِيهِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْزُوقِ الصَّدْفِيِّ: لَمَّا نُعِيَ لِي ابْنُ عَمِّي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ - وَكَانَ قَدْ تَوَفَّى بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ - لَقِيتُ مُوسَى بْنَ عَلِيٍّ بْنِ رَبَاحٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ لَهْبَعَةَ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ مَتَفَرِّقِينَ، كُلُّهُمْ يَقُولُ: أَلَيْسَ مَاتَ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ! فَأَقُولُ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُونَ هُوَ حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ يُرْزَقُ، وَيُجْرَى عَلَيْهِ أَجْرُ رِبَاطِهِ مَا قَامَتْ^(f) الدُّنْيَا، وَلَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ حَتَّى يُخْشَرَ عَلَى ذَلِكَ^١.

(a) بولاق: أبو عمر. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: خان الإسْكَندَرِيَّةِ أَقَامَ الإسْكَندَرُ عَلَى. (d) بولاق: ألبديهم. (e) بولاق: العزيز. (f) بولاق: أقامت.

^١ ابن الكندي: فضائل مصر ٣١-٣٢؛ ابن دقاق: الانتصار ١١٦:٥-١١٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة

وقال الذين ينظرون في الأهوية والبلدان وتُرب^(a) الأقاليم والأمنصار : إنه لم تطل أعمارُ الناس في بلد من البلدان طولها يَمْرُوط من كورة الإسكندرية ووادي فرغانة^١.

وقال الحسن بن رضوان^(b) : وأما الإسكندرية وثبّس وأمثال هذه^(c) : فقُرْبُها من البحر ، وسكون الحرارة والبرد عندهم ، وظهور ربح الصبا فيهم ، ممّا يَصْلِحُ أمرهم ، ويُقِرُّ طباعهم ، وَيَرْفَعُ هِمَّتَهُمْ^(d) ، وليس يَغْرُضُ لهم ما يَغْرُضُ لأهل البُشمور^(e) من غَلَطِ الطَّبْعِ والحمارية .

وقد وُصِفَ أهل الإسكندرية بالبخل ؛ قال جلال الدين مُكْرَم بن أبي الحسن بن أحمد بن عُبَيْقَة^(f) الخَزْرَجِي مَلِك الحَقَاط :
[الوافر]

تَزِيلُ سَكَنْدَرِيَّةَ لَيْسَ يُقْرَى بَعِيرُ الْمَاءِ أَوْ نَعْتُ الشُّوَارِي
وَيُتَجَفُّ حِينَ يُكْرَمُ بِالْهَوَا مَلَائِنُ وَالْإِشَارَةُ لِلَسَنَارِ
وَيُذَكِّرُ الْبَحْرَ وَالْأَمْوَاجَ فِيهِ وَوَضَفَ مَرَاكِبَ الزُّوْمِ الْكِتَارِ
فَلَا يَطْمَتِعُ تَزِيلُهُمْ بِخَيْرٍ فَمَا فِيهَا لَذَاكَ الْحَرْفُ قَارِي

وقال أَحْمَدُ بْنُ خُرْدَاذَه : من المُسْتَطَاطِ إِلَى ذَاتِ^(g) السَّاحِلِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مَيْلًا ، ثُمَّ إِلَى تَرْنُوطِ^(h) ثَلَاثُونَ مَيْلًا ، ثُمَّ إِلَى كُومِ شَرِيكِ⁽ⁱ⁾ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ مَيْلًا ، ثُمَّ إِلَى الرَّاقِقَةِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مَيْلًا مَعَ النَّيْلِ ، ثُمَّ إِلَى قَرْطَسَا^(j) ثَلَاثُونَ مَيْلًا ، ثُمَّ إِلَى كِرْتِزُونَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مَيْلًا ، ثُمَّ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مَيْلًا^٢.

وقال آخَرُ : طَرِيقُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِذَا تَصَبَّ مَاءُ النَّيْلِ بِأَخْذِ بَيْنِ الْمَدَائِنِ وَالصِّيَاغِ . وَذَلِكَ إِذَا أَخَذْتَ مِنْ شَطْئِهَا إِلَى / شَبَكِ الْعَبِيدِ ، فَهُوَ مَثَرُ فِيهِ مِثْقَالُ لُطِيفَةٍ^(k) ، وَبَيْنَهُمَا اثْنَا عَشَرَ سَقْسَا ؛ وَمِنْ شَبَكِ إِلَى مَدِينَةِ مَثُوفٍ - وَهِيَ كَبِيرَةٌ فِيهَا حُكَّامَاتُ وَأَسْوَاقُ ، وَبِهَا قَوْمٌ ثَنَاءً^(l) فِيهِمْ تَسَارُ وَوُجُوحٌ مِنَ النَّاسِ - وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ عَشَرَ سَقْسَا ؛ وَمِنْ مَثُوفٍ إِلَى مَحَلَّةِ صُرْدٍ - وَفِيهَا مِثْبَرٌ وَحُكَّامٌ وَقَنَادِقُ وَسُوقٌ صَالِحٌ - سِتَّةُ عَشَرَ سَقْسَا ؛ وَمِنْ مَحَلَّةِ صُرْدٍ إِلَى سَحَا - وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ذَاتُ حُكَّامَاتٍ وَأَسْوَاقٍ وَعَمَلٍ وَاسِعٍ ، وَأَقْلِيمٌ جَلِيلٌ لَهُ عَابِلٌ بِعَشْكَرٍ وَجُنْدٍ ، وَبِهِ الْكَثَّانُ الْكَثِيرُ وَزَيْتُ الْفِجْلِ وَقَمْحٌ عَظِيمَةٌ - سِتَّةُ عَشَرَ سَقْسَا ؛ وَمِنْ سَحَا إِلَى شَهْرَامِيَّةٍ - وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ بِهَا جَامِعُ

(a) بولاق : ترب . (b) بولاق : صفوان . (c) بولاق : أمثالهما . (d) بولاق : همتهم . (e) بولاق : البشمور . (f) ساقطة من بولاق . (g) بولاق : ذوات . (h) بولاق : مربوط . (i) ساقطة من بولاق . (j) في صورة الأرض : منير لطيف .

وأَسْوَاق - ستة عشر سَقْشَا ؛ ومن سَبْرَامِيَّة^(أ) إلى مَسِير - وهي مَدِينَةٌ بِهَا جَامِعٌ وَأَسْوَاق - ستة عشر سَقْشَا ؛ ومن مَسِير إلى سَنَهْوَر - وهي مَدِينَةٌ ذَاتُ إِقْلِيمٍ كَبِيرٍ ، وَبِهَا حُكَّامَاتٌ وَأَسْوَاقٌ وَغَايِلٌ كَبِيرٌ - ستة عشر سَقْشَا ؛ ومن سَنَهْوَر إلى الْبُجُوم - وهي إِقْلِيمٌ وَبِهَا حُكَّامَاتٌ وَقَنَادِقٌ وَأَسْوَاق - ستة عشر سَقْشَا ؛ ومن الْبُجُوم إلى نَسْتَرُو - وَكَانَتْ مَدِينَةً حَسَنَةً عَلَى بُحَيْرَةِ الْيَشْمُون - عَشْرُونَ سَقْشَا ؛ ومن نَسْتَرُو إلى الْبِرُّلُس - وهي مَدِينَةٌ كَثِيرَةُ الصَّبَدِ مِنَ الْبُحَيْرَةِ ، وَبِهَا حُكَّامَاتٌ - عَشْرُ سَقْشَاتٍ ؛ ومن الْبِرُّلُس إلى إِخْنَا - وهي حِصْنٌ عَلَى سَطِّ بَحْرِ الْمِلْح - عَشْرُ سَقْشَاتٍ ؛ ومن إِخْنَا إلى زَشِيد - وهي مَدِينَةٌ عَلَى الثَّلِثِ ، وَمِنْهَا يَصُبُّ الثَّلِثُ فِي الْبَحْرِ مِنْ قُوَّةِ تَقَرُّفٍ بِالْأَشْشُومِ وَهِيَ الْمُدْخَلُ - ثَلَاثُونَ سَقْشَا ، وَكَانَ بِهَا أَسْوَاقٌ صَالِحَةٌ وَحُكَّامٌ ، وَبِهَا تَخِيلٌ وَضَرِيَّةٌ عَلَى مَا يُعْمَلُ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ . وَهَذَا الطَّرِيقُ ، الْآخِذُ مِنْ سَطْنُوفٍ إِلَى زَشِيدٍ ، رُبَّمَا افْتَتَحَ مَلُوكُهُ عِنْدَ زِيَادَةِ الثَّلِثِ^١ .

وَالثِّيَابُ الْمُنْسُوجَةُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ لَا تَنْظِيرَ لَهَا وَتُحْتَمَلُ إِلَى أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَفِي ثِيَابِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ مَا يُبَاعُ الْكَثَّانُ مِنْهُ ، إِذَا عُجِلَتْ^(ب) ثِيَابًا كُلُّ زَنْةٍ دِرْهَمٌ بِلِزْهَمٍ فَضَّةً ، وَمَا يَدْخُلُ فِي الطَّرَازِ فَيُبَاعُ بِنَظِيرِ وَزْنِهِ مَرَّاتٍ عَدَّةً^(ج) وَيُقَالُ لَهَا الشُّرْبُ^٢ .

ذِكْرُ فَتْحِ الإسْكَندَرِيَّةِ

١٥ قَالَ أَبُو عُمَرَ الْكِتْدِي : لَمَّا حَازَ الْمُسْلِمُونَ الْخِيَصْنَ بِمَا فِيهِ ، أَجْمَعَتْ عُمَرُو عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي رَيْعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ عَشْرِينَ^٣ . وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلِ سَارَ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ مِنْهَا .

(أ) النسخ : شيركية والتصويب من ابن حوقل . (ب) بولاق : عمل . (ج) بولاق : عديدة .

^١ ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٨-١٣٩ .
^٢ عن طراز الإسكندرية راجع ، ابن نماتي : قوانين الدواوين ٣٣٠-٣٣١ ابن فضل الله العمري : مسالك الألبصار (مالك مصر والشام) ١١٩ الفلخشندي : صبح الأعشى ١١: ٤٢٥-٤٢٦ Marzouk, M. A., History of Textile Industry in Alexandria, Alexandria

^٣ الكندي : ولاء مصر ٣٢ .

وَذَكَرَ سَيْفُ بْنُ عَمْرٍو أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْقَاصِ بَقِيَ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَهُوَ عَلَى عَيْنِ شَمْسٍ ، عَزَفَ ابْنُ مَالِكٍ ، فَتَزَلَّ عَلَيْهَا وَبَقِيَ يَقُولُ لِأَهْلِهَا : إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَنْزِلُوا فَلَكُمْ الْأَمَانُ ، فَقَالُوا : نَعَمْ . فَرَأَسَلَهُمْ وَتَرَبَّصُوا أَهْلَ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَسَمِعُوا^(٥) الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ^١ .

وقال ابن عبد الحكم : وَيُقَالُ إِنَّ الْمُقَوْسَ لَمَّا صَالَحَ عَمْرُو بْنَ الْقَاصِ^(٦) عَلَى الرُّومِ وَهُوَ مُحَاصِرُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : إِنْ عَمْرُو بْنَ الْقَاصِ^(٦) لَمَّا قَتَعَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ حَاصِرَ أَهْلِهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَأَلْحَ عَلَيْهِمْ فَخَافُوهُ ، وَسَأَلَهُ الْمُقَوْسُ الصُّلْحَ عَنْهُمْ كَمَا صَالَحَهُ عَلَى الْقِبْطِ ، عَلَى أَنْ يَسْتَنْظِرَ رَأْيَ الْمَلِكِ . فَحَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ الْمُقَوْسَ الرُّومِيَّ ، الَّذِي كَانَ مَلِكًا عَلَى مِصْرَ ، صَالَحَ عَمْرُو بْنَ الْقَاصِ عَلَى أَنْ يَسِيرَ مِنَ الرُّومِ مَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ ، وَيَقْرَأَ مَنْ أَرَادَ مِنَ الرُّومِ عَلَى أَمْرِ قَدْ سَمِعَهُ . فَبَلَغَ ذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ ، فَسَخَطَ أَشَدَّ السُّخْطِ^(٧) ، وَأَنْكَرَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَبَقِيَ الْجَبُوشُ فَأَغْلَقُوا أَبْوَابَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَأَذْنَوْا عَمْرُوًا بِالْحَرْبِ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُقَوْسُ فَقَالَ : أَسْأَلُكَ ثَلَاثًا ؛ قَالَ : مَا هُنَّ ؟ قَالَ : لَا تَبْدُلَ لِلرُّومِ مَا بَدَّلْتَ لِي ، فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَهُمْ فَاسْتَشْشُونِي ، وَلَا تَنْقُضْ بِالْقِبْطِ فَإِنَّ النُّقْضَ لَمْ يَأْتِ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَأَنْ تَأْمُرَ بِي إِذَا مِتُّ فَأَذْفِنِي فِي أَبِي يُحْنَسٍ ؛ فَقَالَ عَمْرُو : هَذِهِ أَهْوَنُهُنَّ عَلَيْنَا^٢ .

قَالَ : فَخَرَجَ عَمْرُو بِالْمُسْلِمِينَ حِينَ أَمْنَكْتَهُمُ الْخُرُوجَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْقِبْطِ ، وَقَدْ أَصْلَحُوا لَهُمُ الطَّرِيقَ ، وَأَقَامُوا لَهُمُ الْجُشُورَ وَالْأَشْوَاقَ ، وَصَارَتْ لَهُمُ الْقِبْطُ أَغْوَانًا عَلَى مَا أَرَادُوا مِنْ قِتَالِ الرُّومِ . وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الرُّومُ فَاسْتَعَدَّتْ وَاسْتَحْجَاشَتْ وَقَدِمَتْ عَلَيْهِمْ مَرَائِبُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ فِيهَا جَفَقَ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ بِالْعُلَّةِ وَالسَّلَاحِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو مِنَ الْقُسْطَاطِ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَلَمَ يَرِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى بَلَغَ تَوْزُوطَ فَلَقِيَ بِهَا طَائِفَةً مِنَ الرُّومِ ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا خَفِيفًا فَهَزَّزَهُمُ اللَّهُ .

وَمَضَى عَمْرُو بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى لَقِيَ بِجَمْعِ الرُّومِ بِكُومِ شَرِيكٍ^٣ . فَاقْتَتَلُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ قَتَعَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَوَلَّى الرُّومُ أَكْثَانَهُمْ . وَيُقَالُ بَلْ أُرْسِلَ عَمْرُو بْنَ الْقَاصِ شَرِيكُ بْنُ شُعَيْبٍ فِي

(a) بولاق : وسار . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : فسخط أشد السخط .

^٣ كُومِ شَرِيك ، انظر فيما يلي ٤٩٦ .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤ : ١٠٨ .

^٢ ابن عبد الحكم : فترج مصر ٧٢-٧٣ .

آثارهم ، فأَذَرَكَهُمْ عند الكُوم الذي يُقال له كُوم شريك ، فقاتلهم^١ ، فهَزَمَهُمْ وكان على مُقدِّمة عمرو - وعُمرُو بَنُوتُوط^٢ - فالجأوه إلى الكُوم فاحتَصَم به ، وأحاطت به الرُّوم .

فلما رأى ذلك شريك بن سُمَيٍّ أَمَرَ أَبَا نَاعِمَةَ مَالِك بن نَاعِمَةَ الصَّدْفِي - وهو صاحب الفَرَسِ الأَشَقَر الذي يُقال له أَشَقَر صَدَف ، وكان لا يُجَارِي شُرْعَةً - فأنحط عليهم من الكُوم ، وطلَّبه الرُّوم فلم تُلْزِمْهُ ، حتى أتى عُمَرَا فَأَخْبَرَهُ .

فأقبل عمرو مُتَوَجِّهًا ، وسمعت به الرُّوم فأنصرفت ، ثم التقوا بسلطيس فاشتتلوا قتالاً شديداً ، ثم هَزَمَهُم الله تعالى ، ثم التَقُوا بِالِكُرْيُون فاشتتلوا بها بضعة عشر يوماً ؛ وكان عبدُ الله بن عمرو على المُقدِّمة ، وحامِل اللِّوَاء يومئذ وَرْدَان مَوْلَى عُمَرُو ، فأصابَتْ عبدُ الله بن عمرو جراحات كثيرة فقال : يا وَرْدَان لو تَفَهَّقَرْتَ قَلِيلاً نُصِيب الرُّوح ؛ فقال وَرْدَان : الرُّوح تُريد ؟ الرُّوح أَمَامَكَ وليس هو^٣ خَلَقَكَ ؛ فتقدَّم عبدُ الله ، فجاءه رَسُولُ أَبِيهِ يسأله عن جراحه ، فقال / :

[الوافر]

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ رُوَيْدَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَشْتَرِيحِي^١

وهذا البيت لعمرو بن الإطنابة^٢ ، وهو أَنَّ رَجُلًا من بني التُّجَّار كان مُجَاوِرًا لِمُعَاذ بن الثُّغَمَانِ قَتِيل ، فقال مُعَاذ : لا أَقْتُلُ بِهِ إِلَّا عُمَرَا بن الإطنابة ، وهو يومئذ أَشْرَفُ الْخَزَرَج ، فقال عمرو^٣ :

[الوافر]

أَلَا مِنْ مُبْلِغِ الْأَكْفَاءِ عَنِّي وقد تُهْدِي التَّصِيحَةَ لِلتَّصِيحِ
فَمِنْكُمْ وَمَا تُزْجِحُونَ شَطْرِي مِنْ الْقَوْلِ الْمُرْعِي وَالْمُصْرِحِ
سَيُثْمُ بِفَضْلِكُمْ عَجَلًا عَلَيْهِ وَمَا أَثَرُ اللِّسَانِ إِلَى الْجُرُوحِ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بمربوط . (c) بولاق : بسلطيس .

^١ ابن عبد الحكم : فُروح مصر ٧٣-٧٤ ، والبيت فيه : الأغاني ١١: ١٢١-١٢٤ المزياني : معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٦٠ ، ٨-٩ ، ابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء ، تحقيق عبد السلام هارون - نواذر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥٤ ، ٢: ٩٥ .
^٢ عمرو بن هارم بن زَيْد مَنَاة بن عامر الأنصاري ، والإطنابة أمه وهي بنت شهاب بن زَيْدَان من بني الْقَيْن بن جسر ، شاعِرٌ قديم من فرسان قومه وساداتهم ، ملك الحجاز وكان على قومه في بعض حروبهم مع الأَوْس (أبو الفرج :
^٣ انظر الأبيات وتاريخها عند البصري : الحماسة البصرية ، تحقيق وشرح ودراسة عادل سليمان جمال ، القاهرة ١٩٩٩ ، ٦: ٧-٨ .

أَبْتَحْ لِي عِفْطِي وَأَبَى تِلَاحِي وَأَخْذِي الْحَقْدَ بِالشَّعْنِ الرِّبِيحِ
وَأَعْطَانِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَالِي وَأَقْدَامِي عَلَى الْبَطَلِ الْمُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا بَجَشَأْتُ وَجَاشَتْ مَكَائِكَ تَحْتَمِدِي أَوْ تَشْتَرِيحِي
لَأَذْفَعُ عَنْ مَائِزِ صَالِحِي وَأَخْمِي بَعْدَ عَنْ عِوَضِ صَحِيحِ
بَنِي شَطَبٍ كُلُّونَ الْمِلْحِ صَابٍ وَتَنْفِسِ لَمْ تَقِرَّ عَلَى الْقَبِيحِ

الشُّطَبُ . سَقَفُ الثُّخْلِ الْأَخْضَرِ ، الرَّاجِدَةُ شُطْبَةً ؛ وَجَشَأْتُ . ارْتَفَعْتُ مِنْ حُزْنٍ أَوْ قَرْعٍ ؛ وَجَاشَتْ : دَارَتْ لِلْعَتَيَانِ ، وَقِيلَ هُمَا بِمَعْنَى ارْتَفَعَ ؛ وَالْمُشِيحُ : الْمَهَادُ وَالْمُتَكَبِّشُ .
فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى عَمْرٍو فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ ، فَقَالَ عَمْرٍو : هُوَ ابْنِي حَقًّا ؛ وَصَلَّى عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ صَلَاةَ الْخَوْفِ ^١ .

١٠ . ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَاتَّبَعُوهُمْ حَتَّى بَلَغُوا الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ . فَتَحَصَّنَ بِهَا الرُّومُ - وَكَانَ عَلَيْهَا حُصُونٌ مَتِينَةٌ لَا تُرَامُ ، حِصْنٌ دُونَ حِصْنٍ - فَتَزَلَّ الْمُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ رُؤَسَاءُ الْقَيْطِ يُحِدُّونَهُمْ بِمَا اخْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْعُلُوقَةِ ^٢ .
فَأَقَامُوا شَهْرَيْنِ ثُمَّ تَحَوَّلَ [إِلَى الْمَقَسِ] ^٣ ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ خَيْلٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحِيرَةِ مُسْتَبِيرَةٌ بِالْحِصْنِ ، فَوَاقَعُوهُ ، فَقَتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَوُشِلَ مَلِكُ الرُّومِ تَخْتَلِفُ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فِي الْمَرَاكِبِ بِمَادَّةِ الرُّومِ . ١٥

وَكَانَ مَلِكُ الرُّومِ يَقُولُ : لَئِنْ ظَهَرَتْ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، إِنَّ ذَلِكَ انْقِطَاعُ الرُّومِ وَهَلَاكُهُمْ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلرُّومِ كُنَائِسٌ أَعْظَمُ مِنْ كُنَائِسِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَأَمَّا كَانَ عِيدُ الرُّومِ - حِينَ غَلَبَتِ الْعَرَبُ عَلَى الشَّامِ - بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : لَئِنْ غَلَبُونَا عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ هَلَكَتِ الرُّومُ وَانْقَطَعَ مُلْكُهَا . فَأَتَمَّرَ بِجَهَازِهِ وَمَصْلَحَتِهِ خُرُوجَهُ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ حَتَّى يُبَايِعَ بِهَا بِنَفْسِهِ ^٤ (إِعْظَامًا لَهَا وَأَتَمَّرَانَ لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ مِنَ الرُّومِ وَقَالَ : مَا بَقِيَ الرُّومُ بَعْدَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ^٥ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ جَهَازِهِ ، صَرَعَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَأَمَاتَهُ ، وَكَفَى الْمُسْلِمِينَ مَوْثِقَةً . وَكَانَ مَوْثِقُهُ فِي سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةٍ ، فَكَتَبَ اللَّهُ بِمَوْثِقِهِ شَوْكَةَ الرُّومِ ، فَزَجَّعَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ [إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ] ^٦ . ٢٠

(a) زيادة من فروع مصر . (b) بولاق : لفي . (c-c) ماقطة من بولاق .

^٣ نفسه ٧٥-٧٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فروع ٧٤ .

^٢ نفسه ٧٤ .

وقال الليث: مات هِرَقْل في سنة عشرين، وفيها قُبِحت قَيْسَارِيَّةُ الشَّامِ.

قال: واستأْشَدَتِ القَرْبُ عند ذلك، وألحَّتْ بالقتال على أهل الإسكَنْدَرِيَّةِ، فقاتلوهمْ قِتَالًا شَدِيدًا، وخرج طَرْفٌ من الروم من باب حِصْنِ الإسكَنْدَرِيَّةِ، فحملوا على الناس فقتلوا رَجُلًا من مَهْرَةٍ، واختاروا رأسه ومَضَوْا به، فجعل المَهْرِيُّونَ يَتَغَضَّبُونَ ويقولون: لا نَذْفِئُهُ إِلَّا بِرَأْسِهِ. فقال عمرو: تَتَغَضَّبُونَ كَأَنَّكُمْ تَتَغَضَّبُونَ على من يُيَالِي بِغَضَبِكُمْ، احمِلُوا على القَوْمِ إذا خَرَجُوا فاقْتُلُوا منهم رَجُلًا، ثم ازْمُوا بِرَأْسِهِ بِرُؤُوسِكُمْ بِرَأْسِ صَاحِبِكُمْ. فخرَجَتِ الرومُ إليهم فاقْتُلُوا، فَقُتِلَ من الروم رَجُلٌ من بَطَارِقِهِمْ، فاحتاروا رأسه وزَمَوْا به الروم، فزَمَتِ الرومُ بِرَأْسِ المَهْرِيِّ إليهم، فقال: دونكم الآن فادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ^١.

وكان عمرو يقول: ثَلَاثُ قَبَائِلٍ من مُصْرَ^(٢): أُمَّا مَهْرَةٌ فَقَوْمٌ يَقْتُلُونَ وَلَا يُقْتَلُونَ، وَأُمَّا غَافِقٌ فَقَوْمٌ يَقْتُلُونَ وَلَا يُقْتَلُونَ، وَأُمَّا بَلِيٌّ فَأَكْثَرُهَا رَجُلًا صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَفْضَلُهَا فَارِسًا^٣.
وقال رَجُلٌ لعمرو: لو جعلتِ المَنْجَنِقَ وزَمَيْتَهُمْ به لَهَدَمَ مِنْهُ^(٤) حَائِطَهُمْ؛ فقال عمرو: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْنِي^(٥) مَقَامَكَ مِنَ الصَّفِّ. وقيل له: إِنَّ الْعَدُوَّ قَدْ عَشَوَكَ، ونحن نَخَافُ على رَايَةِ - يُرِيدُونَ امْرَأَتَهُ - فقال: إِذَنْ يَتَّخِذُوا أَرْبَاطًا كَثِيرَةً^٦.

ولما اسْتَحَرَّ الْقِتَالُ [بينهم]^(٧) بَارَزَ رَجُلٌ من الروم مَسْلَمَةً بنَ مَخْلَدٍ، فَصَرَعَهُ الرُّومِيُّ وَأَلْقَاهُ عَنْ فَرْسِهِ، وَهَوَى إِلَيْهِ لِيَقْتُلَهُ حَتَّى حَمَاهُ رَجُلٌ من أَصْحَابِهِ - وَكَانَ مَسْلَمَةً لَا يُقَاوِمُ لِسَبِيلِهِ^(٨) وَلَكِنهَا مَقَادِيرٌ - فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ الرُّومُ، وَشَقَّ ذَلِكَ^(٩) على المسلمين. وَغَضِبَ عمرو بن العاص لذلك، وَكَانَ مَسْلَمَةً كَثِيرَ اللَّحْمِ ثَقِيلَ الْبَدَنِ، فقال عمرو عند ذلك: مَا بَالُ الرَّجُلِ الْمُسْتَهْ الذي يُشَبِّههُ النِّسَاءُ، يَتَقَرَّضُ مَدَائِجِلَ الرُّجَالِ وَيَتَشَبَّهُ بِهِمْ. فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ مَسْلَمَةً وَلَمْ يُرَاجِعْهُ.

ثم اسْتَدَّتِ الْقِتَالُ حَتَّى افْتَحَمُوا حِصْنَ الإسكَنْدَرِيَّةِ، فقاتلهم القَرْبُ في الحِصْنِ، ثم جَاشَتْ عَلَيْهِمُ الرُّومُ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ بِجَمِيعًا مِنَ الحِصْنِ، إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرُوا فِي الحِصْنِ وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ بَابَ الحِصْنِ، أَخَذَهُمْ عمرو بن العاص وَالْآخَرُ مَسْلَمَةً، وَلَمْ نَحْفَظْ الْآخَرِينَ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

(١) بولاق: مصر. (٢) ساقطة من بولاق. (٣) بولاق: يفتي. (d) زيادة من فروع مصر.

^٣ نفسه ٧٧.

^١ ابن عبد الحكم: فروع مصر ٧٦.

^٢ نفسه ٧٦-٧٧.

أصحابيهم ، ولا تذرِي الروم من هم . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه ، التجأوا إلى ديماس من عثمانيهم ، فدخلوا فيه فاحتزوا به . فأمرُوا روميًا أن يُكَلِّمهم بالعربية ، فقال لهم : إنكم قد صيرتُم بأيدينا/ أسارى ، فاستأثروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم . ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم ميتا رجلا أسروه ، ونحن نعطيكُم العهد نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأتوا عليهم . فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم : هل لكم إلى خصلة وهي نصف ، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأثرتُم لنا وأمكنثمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم . فرضوا بذلك ، وتغاهدوا عليه ، وعثرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس .

فتداعوا إلى البراز ، فبرز رجل من الروم - وقد وثقت الروم ببنجده وشدهته - وقالوا : يبرز رجل منكم لصاحبنا . فأراد عمرو أن يبرز ، فمنعه مسلمة وقال : ما هذا ؟ تُخطي مؤتين : تُشد من أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوائمهم بك وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يذكرون ما أترك ولا ترضى حتى يُبارز وتعرض للقتل ، فإن قيلت كان ذلك بلاء على أصحابك ، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله تعالى . فقال عمرو : دونك فربما فرجها الله بك .

فبرز مسلمة والرومي ، فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله ، فكَرَّ مسلمة وأصحابه ، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ، ففتحو لهم باب الحصن فخرجوا ، ولا يذري الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأيسفوا على ذلك ، وأكلوا أيديهم تعظيما على ما فاتهم . فلما خرجوا استنحيا عمرو لما كان قال لمسلمة حين غضب ، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لي ما كُنتُ قلْتُ لك ، فاستغفر له .

وقال عمرو : ما أفحشت قط إلا ثلاث مِرار : مرتين في الجاهلية ، وهذه الثالثة . وما منهم مؤة إلا وقد ندمت ، وما استخيت من واجدة منهم أشد مما استخيتت مما قلت لك . والله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت ^١ .

قال : وأقام عمرو محاصر الإشكندرية أشهرًا . فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : ما أبطلوا بالفتح إلا لما أخذوا . وكتب إلى عمرو بن العاص :

«أما بعد ، فقد عجبنا لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقابلونهم منذ

سنين ، وما ذاك إلا لما أخذتكم وأحببتكم من الدنيا ما أحب عُدُوكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا يصدق نبياتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتلك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم . فإذا أتاك كتابي هذا ، فاشطب الناس وحضهم على قتال عُدُوهم ، وزعيتهم في الصبر والثقة ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، وفي الناس جميعا أن يكونوا لهم صدقة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة . وليبعث الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عُدُوهم .

- ١٠ فلما أتى عمرو بن العاص - رضي الله عنه - الكتاب ، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر - رضي الله عنه . ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يزعجوا إلى الله - جل وعز^(a) - ويسألوه النصر ، ففعلوا ، ففتح الله عليهم .
- ويقال إن عمرو بن العاص استشار مشلعة بن مخلد^(b) فقال : أشر علي في قتال هؤلاء ؛ فقال له مشلعة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك ؛ فقال عمرو : من ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت .

- ١٠ فدعا عمرو عبادة^(c) ، فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول ، فقال له عمرو : عزمْتُ عليك إن نزلت ، ناوئني سنان رُمحك ، فناوله إياه ؛ فنزع عمرو عِماتته عن رأسه ، وعقد له وولاه قتال الروم . فتقدم عبادة مكانه ، فصادف الروم وقتلهم ، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك^١ .

وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر ، وخمسة أشهر قبل ذلك . وتوحيث يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين^٢ .

(a) بولاق : تعالى . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : فدعا عمرو .

وقال أبو عُمر الكِنْدِيُّ: وحاصَرَ عُمرُو الإسْكَندَريَّة ثلاثَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ فَتَحَهَا عَثْوَةً، وَهُوَ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ. وَيُقَالُ: بَلَ فَتَحَهَا عُمرُو لِمُسْتَهْلِ الْحَرَمِ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ^١.

قال القَضَائِيُّ عن اللَّيْث: أَقامَ عُمرُو بالإسْكَندَريَّة، في حِصارِها وَفَتْحَها، سَنَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ قَفَّلَ^٢ إِلَى الْقُسْطَاط فَاتَّخَذَهَا دارًا في ذِي الْقَعْدَةِ.

وقال ابنُ عبدِ الحَكَمِ: فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ تبارَكَ^٣ وَتعالى الرُّومَ وَفَتْحَ الإسْكَندَريَّة، هَرَبَ الرُّومُ في البَرِّ والْبَحْرِ، فَخَلَّفَ عُمرُو بالإسْكَندَريَّة أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحابِهِ، وَمَضَى وَمَنْ مَعَهُ في طَلَبِ مَنْ هَرَبَ مِنَ الرُّومِ في البَرِّ، فَزَجَعَ مَنْ كانَ هَرَبَ مِنَ الرُّومِ في البَحْرِ إِلَى الإسْكَندَريَّة، فَقَتَلُوا مَنْ كانَ فيها مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ هَرَبَ مِنْهُمْ. وَبَلَغَ ذَلِكَ عُمرًا، فَكَرَّرَ راجِعًا فَفَتْحَهَا وَأقامَ بِها، وَكَتَبَ إِلَى عُمرَ بْنِ الحَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «إِنَّ اللهَ قد فَتَحَ عَلَيْنَا الإسْكَندَريَّة عَثْوَةً^٤ بغيرِ عَقْدٍ ولا عَهْدٍ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يُقَبِّحُ رَأْيَهُ، وَيَأْمُرُهُ ألاَّ يُجاوِزَها.

قال ابنُ لَهيْعة: وَهُوَ فَتْحُ الإسْكَندَريَّة الثَّانِي، وَكانَ سَبَبُ فَتْحِها هَذَا أَنَّ رَجُلًا يُقالُ لَهُ ابنُ بَشامَةَ كانَ يَؤَيِّسًا، فَسَأَلَ عُمرًا أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَرْضِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَيَفْتَحَ لَهُ البابَ. فَأجابَهُ عُمرُو إلى ذَلِكَ، فَفَتَحَ لَهُ ابنُ بَشامَةَ البابَ، فَدَخَلَ عُمرُو. وَقُتِلَ مِنَ المُسْلِمِينَ، مَنْ حِينَ كانَ مِنْ أَمْرِ الإسْكَندَريَّة ما كانَ إلى أَنْ قُبِحتِ اثْنانِ/ وَعِشْرُونَ رَجُلًا^٥.

وَبَعَثَ عُمرُو بنَ العاصِ مُعاوِيَةَ بنَ مُحَدِّجٍ، وَإِذَا إِلَى عُمرَ بْنِ الحَطَّابِ بِبَشِيرٍ لَهُ بِالْفَتْحِ، فَقَالَ لَهُ مُعاوِيَةُ: أَلَا تَكُتِّبُ مَعِيَ؟ فَقَالَ لَهُ عُمرُو: وَمَا أَصْنَعُ بِالْكِتابِ، أَلَسْتُ رَجُلًا غَرِيبًا يُبَلِّغُ الرِّسالةَ وَمَا رَأَيْتُ وَحَضَرْتُ؟ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمرَ أَخْبَرَهُ بِفَتْحِ الإسْكَندَريَّة، فَخَرَّ عُمرُ ساجِدًا، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

وقال مُعاوِيَةُ بنُ مُحَدِّجٍ: بَعَثَنِي عُمرُو بنَ العاصِ إِلَى عُمرَ بْنِ الحَطَّابِ^٦ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِفَتْحِ الإسْكَندَريَّة، فَقَدِمْتُ المَدِينَةَ في الظُّهيرةِ، فَأَتَيْتُ راجِلَتِي بِبابِ المَسْجِدِ، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَبَيْنَا أَنَا قاعِدٌ فِيهِ، إِذْ خَرَجَتْ جاريةٌ مِنْ مَنزِلِ عُمرَ بْنِ الحَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَأَتَتْني شاجِيًا عَلَيَّ ثِيابُ السُّفَرِ، فَأَتَيْتُني وَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا مُعاوِيَةُ بنُ مُحَدِّجٍ رَسولُ عُمرُو بنِ

(a) بولاق: انتقل. (b) تبارك و: ساقطة من بولاق. (c) ساقطة من بولاق.

- العاص ؛ فأنصرفت عني ، ثم أتجلت تشد أشمع خفيف إزارها على ساقها ، حتى دنت مني ، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك ، فتيقظها . فلما دخلت ، فإذا بغير يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية ؛ فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ؛ ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، ففعلت فأخبرتهم ؛ ثم صلى ودخل منزله ، واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية ، هل من طعام ؟ فأنت بغير وزيت ، فقال : كل ، فأكلت على^(٥) حياء . ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، ولو كنت أكلًا لأكلت معك . فأصبت على حياء . ثم قال : يا جارية ، هل من تمر ؟ فأنت بتختر في طبعي ، فقال : كل ، فأكلت على حياء ؛ ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت : أمير المؤمنين قاتل ؛ قال : بفس ما قلت (أو بفس ما ظننت) ، لمن نمت النهار لأضيمن الزعينة ، ولن نمت الليل لأضيمن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟

- ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب : «أما بعد ، فإنني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف ثنية بأربعة آلاف حثام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربع مائة ملهى للخلوك^١ .
- وعن أبي قبيل أن عمرو لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثني عشر ألف يبعون البثل^{١٥} الأخضر . وترحل من الإسكندرية ، في الليلة التي دخلها عمرو ، أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو ، سبعون ألف يهودي .
- وكان بالإسكندرية ، فيما أحصيت من الحمامات ، اثنا عشر ألف ديماس ، أصغر ديماس منها يتسع ألف مجلس ، كل مجلس يسع جماعة نفر . وكان عدة من الإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال^(٦) ، فليج بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن ؛ وكان بها مائة متركب من المراكب الكبار ، فحمل فيها ثلاثون ألفًا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل . وبقي من بقي من الأسارى من بلغ الخراج ، فأحصي يومئذ ست مائة ألف سوى النساء والصبيان . فاختلف

(٥) ساقطة من بولاق . (٦) بولاق : رجل .

^١ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٨١-٨٢ .

الناس على عمرو في قسيميهم^٥، فكان أكثر الناس يؤيدون قسيميها؛ فقال عمرو: لا أقدر على قسيميها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسيميها. فكتب إليه عمر: «لا تقسميها، ودورها يكون خراجها فيا للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوهم».

٥ فأقروها عمرو، وأخصي أهلها، وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين^٦ على كل رجل، لا يؤاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع، إلا الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليتهم، لأن الإسكندرية فُتحت عثوة بغير عهد ولا عفا، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة^١.

١٠ وقد كانت قري من قري مصر فائتت، فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب، وقرية يقال لها الخنس، وقرية يقال لها سلطيس، فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها، فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم، وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة.

١٥ وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرا سبى أهل بلهيب وسلطيس وقوطسا^٧ وسحًا، فتفرقوا وتلغ أولهم المدينة حين نقضوا. ثم كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عمرو بردهم، فرد من وجد منهم. وفي رواية أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب في أهل سلطيس خاصة: «من كان منهم في أيديكم فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه، فخلوا بينه وبين قريته، فكان البلهبي خير يومئذ فاختار الإسلام».

٢٠ وفي رواية أن أهل سلطيس ومصيل^٨ وبلهيب ظاهروا الزوم على المسلمين في جميع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون، اشتعلوهم وقالوا: هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية. فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك.

(٥) يولاي: قسمها. (٦) ساقطة من يولاي. (٧) يولاي: قوطيا. (٨) يولاي: صا.

^١ ابن عبد الحكم: فوح مصر ٨٢-٨٣، ٨٤، وأعاد ابن عبد الحكم: فوح مصر ٨٨-٩٠. التقريري ذكر هذا النص فيما يلي ٢٩٤:١ وقارن كذلك مع

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ «أَنْ تُجْعَلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ وَمَوْلَاءُ الثَّلَاثِ قَرْيَاتٍ ذِمَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَضْرِبَ عَلَيْهِمُ الْحَرَجُ ، وَيَكُونَ خَرَاஜُهُمْ وَمَا صَالَحٌ عَلَيْهِ الْقَبِيطُ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَلَا يُجْعَلُونَ قَبِيحًا وَلَا عَبِيدًا» ، فَفَعَلَ ذَلِكَ . وَيُقَالُ إِنَّمَا رَدُّهُمْ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَعَهْدٍ كَانَ تَقَدَّمَ لَهُمْ^١ .

- وقال ابنُ لَهَيْعَةَ : جَبَى عُمَرُو جِزْيَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ سِتَّ مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ ، لِأَنَّهُ وَجَدَ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ ، فَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ ، فَبَلَغَتْ ذَلِكَ^٢ . وَقِيلَ كَانَتْ جِزْيَةُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ/ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَلَمَّا كَانَتْ بِخِلَافَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَلَغَتْ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَيُقَالُ إِنَّ عُمَرُو بْنَ الْقَاصِ اسْتَبَقَى أَهْلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَلَمْ يَقْتُلْ وَلَمْ يَسْبِ ، بَلْ جَعَلَهُمْ ذِمَّةً كَأَهْلِ الثُّوْبَةِ .

١٠ ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَانْقِاضِ الزُّومِ

- قال ابنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : فَأَمَّا الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا خِطَطٌ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ أَحَايِذُ ، مَنْ أَخَذَ مَنَزِلًا نَزَلَ فِيهِ هُوَ وَبَنُو أَبِيهِ . وَأَنَّ عُمَرُو بْنَ الْقَاصِ لَمَّا فَتَحَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، أَقْبَلَ هُوَ وَغُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حَتَّى غَلَوْا الْكُومَ الَّذِي فِيهِ مَسْجِدُ عُمَرُو بْنَ الْقَاصِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ : نَتَزَّلُ ، فَتَزَلَ عُمَرُو الْقَصْرَ ، وَنَزَلَ أَبُو ذَرٍّ مَنَزِلًا كَانَ غَرْبِي الْمَضَلَّى الَّذِي عِنْدَ مَسْجِدِ عُمَرُو مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ وَقَدْ انْتَهَدَمَ ، وَنَزَلَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ فَوْقَ الثَّلِّ ، وَضَرَبَ^(أ) غُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بِنَاءً^(ب) فَلَمْ يَزَلْ فِيهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا الدُّرْدَاءَ كَانَ مَعَهُ ، وَاللَّهُ أَهْلَمُ^٣ .

- قال : فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ لَهُمُ الْبِلَادُ قَطَعَ عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ مِنْ أَصْحَابِهِ لِرِبَاطِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ رُبْعَ النَّاسِ ، وَرُبْعَ فِي السَّوَاجِلِ ، وَالنِّصْفَ مُقِيمُونَ مَعَهُ . وَكَانَ بِمَصِيرِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ خَاصَّةً الرُّبْعُ فِي الصَّيْفِ بِقَدْرِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَيُقَقَّبُ بَعْدَهُمْ سَائِيَةُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَكَانَ لِكُلِّ غَرِيفٍ قَصْرٌ يَنْزِلُ فِيهِ مِنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَتَّخَذُوا فِيهِ أَحَايِذَ .

(أ) الأصل : صَرَفَ ، وَالتَّبَتِ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ . (ب) بُولاق : خَبَاءَ .

^١ ابن عبد الحكم : فخر مصر ٨٣ . ^٢ ابن عبد الحكم : فخر مصر ١٣٠ .

^٣ فيما تقدم ٢١٢ .

وعن يزيد بن أبي حبيب أنَّ المسلمين لما سَكَنُوا الإسكَنْدَرِيَّةَ في رِبَاطِهِمْ ، ثُمَّ قَفَلُوا ثُمَّ عَزَّوْا ابْتَدَرُوا ، فَكَانَ الرَّجُلُ بِأُتَى الْمَنْزِلَ الَّذِي كَانَ فِيهِ صَاحِبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَيَبْتَدِرُهُ فَيَسْكُنُهُ . فَلَمَّا عَزَّوْا ، قَالَ عُمَرُو : إِنَّنِي أَخَافُ أَنْ تُخْرِبُوا الْمَنَازِلَ إِذَا كُنْتُمْ تَتَعَاوَرُونَهَا . فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْكُرْبِيِّينَ قَالَ لَهُمْ : سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَمَنْ رَكَّزَ مِنْكُمْ رُفْعَهُ فِي دَارٍ فَهِيَ لَهُ وَلِبْنِي أَبِيهِ^(٥) .

فَكَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ الدَّارَ فَيُرَكِّزُ رُفْعَهُ فِي مَنْزِلٍ مِنْهَا ، ثُمَّ يَأْتِي الْآخَرَ فَيُرَكِّزُ رُفْعَهُ فِي بَعْضِ بُيُوتِ الدَّارِ ، فَكَانَتِ الدَّارُ تَكُونُ لثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ وَكَانُوا يَسْكُنُونَهَا ، حَتَّى إِذَا قَفَلُوا سَكَنَهَا الرُّومُ وَعَلَيْهِمْ مَرَّتُهَا . وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ يَقُولُ : لَا يَحِلُّ مِنْ كِرَائِهَا شَيْءٌ وَلَا يَنْعَمُهَا ، وَلَا يُورَثُ مِنْهَا شَيْءٌ ، لَأَمَّا كَانَتْ لَهُمْ يَسْكُنُونَهَا فِي رِبَاطِهِمْ^(١) .

وعن يزيد بن أبي حبيب أنَّ عُمَرُو بْنَ الْقَاصِ لَمَّا فَتَحَ الإسكَنْدَرِيَّةَ ، وَرَأَى بُيُوتَهَا وَبَنَاءَهَا مَقْرُوعًا مِنْهَا ، هَمَّ أَنْ يَسْكُنَهَا وَقَالَ : تَسَاكِنَ قَدْ كُفِّتْهَا . فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَسْتَأْذِنُهُ فِي ذَلِكَ ؛ فَسَأَلَ عُمَرَ الرَّسُولَ : هَلْ يَحْوُلُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَاءٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بَجَرَ الثَّلِثُ .

فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى عُمَرُو : «إِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تُنْزِلَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلًا يَحْوُلُ الْمَاءُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فِي شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ^(ب) ؛ فَتَحْوُلَ عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ مِنَ الإسكَنْدَرِيَّةِ^(ج) إِلَى الْقُسْطَاطِ .

قَالَ : وَكَتَبَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ نَازِلٌ بِمَدَائِنِ كِشْرَى ، وَإِلَى عَامِلِهِ بِالْبُصْرَةِ ، وَإِلَى عُمَرُو بْنِ الْقَاصِ وَهُوَ نَازِلٌ بِالإِسكَنْدَرِيَّةِ : «أَلَا تَجْعَلُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَاءً ، مَتَى مَا أَرَدْتُ أَنْ أَرْكَبَ إِلَيْكُمْ رَاجِلَتِي حَتَّى أَقْدِمَ عَلَيْكُمْ ، قَدِمْتُ . فَتَحْوُلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ مِنْ مَدَائِنِ كِشْرَى إِلَى الْكُوفَةِ ، وَتَحْوُلَ صَاحِبُ الْبُصْرَةِ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَنَزَلَ الْبُصْرَةَ ، وَتَحْوُلَ عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ مِنَ الإسكَنْدَرِيَّةِ إِلَى الْقُسْطَاطِ^(٢) .

وَكَانَ عُمَرُو بْنُ الْخَطَّابِ يَتِمَّتُ فِي كُلِّ سَنَةِ غَازِيَةً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تُرَابِطُ بِالإِسكَنْدَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ عَلَى الْوَلَاةِ : لَا يُعْقَلُهَا ، وَتَكْتَفِ رَابِطَتَهَا^(د) ، وَلَا تَأْمَنُ الرُّومُ عَلَيْهَا .

(٥) بولاق : به . (ب) بولاق : شتاء ولا صيفاً . (ج) ساقطة من بولاق . (د) بولاق : موابطها .

^١ ابن عبد الحكم : فوح مصر ١٣٠ - ١٣١ . يلي ٢٩٦ : ١ .

^٢ نفسه ٢٩١ ابن سعيد : المغرب ٣٩ - ٤٠ : وفيما

وَكَتَبَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ : « قَدْ عَلِمْتُ كَيْفَ كَانَ هُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَقَدْ نَقَضَتِ الرُّومُ مَوَازِينَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ رَابِطَتَهَا ^(٥) ، ثُمَّ أَجْرَ عَلَيْهِمْ أَزْوَاقَهُمْ ، وَأَغْشَبَ بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ .

قَالَ : وَقَدْ ^(٦) كَانَتْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ انْتَقَضَتْ ، وَجَاءَتِ الرُّومُ ، عَلَيْهِمْ مَثْوِيلُ الْخَصِي فِي الْمَرَاكِبِ حَتَّى أَرْسَوْا بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَأَجَابَتْهُمْ مِنْ بَهَا مِنَ الرُّومِ وَلَمْ يَكُنْ الْمُقَوْسُ قَمْرًا وَلَا نَكْتُ . وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَوَلَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ . فَلَمَّا نَزَلَتِ الرُّومُ سَأَلَ أَهْلُ مِصْرَ عُثْمَانُ أَنْ يُقَرِّعُوا عَمْرُوًا حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ قِتَالِ الرُّومِ ، فَإِنَّ لَهُ مِفْرَقَةً بِالْحَزَبِ وَهَيْبَةً ^(٧) ، فَعَفَّلَ ^(٨) .

وَكَانَ عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ سُورُهَا ، فَخَلَفَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، لَئِنْ أَطْفَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، لَيُهْدِمَنَّ سُورُهَا حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ بَيْتِ الزَّائِنَةِ يُؤْتِي مِنْ كُلِّ مَكَانٍ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَضَمُّوا إِلَى الْمُقَوْسِ مِنْ أَطَاعِهِ مِنَ الْقَيْطِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَلَمْ يُطْعَمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

فَقَالَ خَارِجَةُ بْنُ خَدَافَةَ لِعَمْرُو ^(٩) : نَاهِضْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَكْثُرَ مَدَدُهُمْ ، فَلَا أَمِنْ أَنْ تَنْتَقِضَ مِصْرُ كُلُّهَا ؛ فَقَالَ عَمْرُو : لَا ، وَلَكِنْ أَدْعُهُمْ حَتَّى يَسِيرُوا إِلَيَّ ، فَإِنَّهُمْ يُصِيبُونَ مِنْ مَرَوْا بِهِ فَيُخْزِي اللَّهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . فَخَرَجُوا مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَمَعَهُمْ مَن نَقَضَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَجَعَلُوا يَنْزِلُونَ الْقَرْيَةَ فَيُشْرِبُونَ خُمُورَهَا ، وَيَأْكُلُونَ أَطْعَمَتَهَا ، وَيَتَتَبِعُونَ مَا مَرَّوْا بِهِ .

فَلَمْ يَتَعَرَّضْ ^(١٠) لَهُمْ عَمْرُو حَتَّى يَلْقَوْا نَقْيُوسَ ^(١١) ، فَلَقَوْهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَجَدَّتْ الرُّومُ الْقَيْطَ ، فَرَمَوْا بِالنُّشَابِ فِي الْمَاءِ رَمِيًا شَدِيدًا ، حَتَّى أَصَابَتْ النُّشَابُ يَوْمئِذٍ ^(١٢) قَرَسَ عَمْرُو فِي لُبِّهِ وَهُوَ فِي الْبَحْرِ ^(١٣) ، فَتَزَلَّ عَنْهُ عَمْرُو . ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ ، فَاجْتَمَعُوا هُمُ وَالَّذِينَ فِي الْبَرِّ ، فَتَفَقَّحُوا ^(١٤) الْمُسْلِمِينَ بِالنُّشَابِ ، فَاسْتَأْخَرُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ / شَيْقًا ، وَحَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حُمْلَةً وَلَّى

(a) بولاق : مرابطها . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : وهبة في العدو . (d) ساقطة من الأصل . (e) الأصل : يعرض . (f) بولاق : نفوس . (g) بولاق : البر . (h) بولاق : ففحقوا .

^١ إيشادي وأنها قد زالت ومحلها الآن الكوم الأثري الكائن

^١ الكندي : ولاية مصر ٣٥ .

بالجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف ، والتي يطلق عليها الأهالي اسم كوم مانوس أو دقيانوس الهرفين عن نفويس (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٤٦٣-٤٦٤) .

^٢ نفويس مدينة قديمة ظن بعض الدارسين أنها البلدة التي تعرف اليوم باسم إيشادي إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية ، ولكن محمد رمزي يرجح أنها مدينة أخرى غير

المسلمون منها، وأنهزم شريك بن شتعي في حمله. وكانت الروم قد جعلت صفوفًا خلف صفوف.

ويزر يومئذ بطريق - ممن جاء من أرض الروم - على فرس له، عليه سلاح مذنب، فدعا إلى البراز. فبرز إليه رجل من زبيد - يقال له حومل، يكنى أبا مذحج - فافتلا طويلاً يومئذ يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان يعرف بالنجدة، فجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لييك، والناس على شاطئ النيل في البر على تبعيتهم وضفوفهم، فتجاوزا ساعة بالسيف، ثم حتل عليه البطريق، فاختمه وكان تحيماً، فاخترط حومل خنجرًا كان في مبطته أو في ذراعه، فضرب به نحر العليج أوثر قوته فائتبه، ووقع عليه فأخذ سلبه. ثم مات حومل بعد ذلك بالأيام رجماً الله، فزني عمرو بحميل سريوه بن عمودي نفيته حتى ذفنه بالمقطم.

ثم شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم. فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم، وقيل مثول الحصبي^١.

وقتلهم عمرو حتى أمعن في مدينتهم، فكلّم في ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجدًا، وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له مسجد الرخمة، سمي بذلك لرفع عمرو السيف هناك، وهدم سورها كله.

وجتمع ما أصاب منهم فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض، فقالوا: قد كُنا على صلحنا، وقد مر علينا هؤلاء اللصوص، فأخذوا متاعنا ودوابنا، وهو قائم في يدك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع غزوه وأقاموا عليه البيعة. وقال بعضهم لعمرو: ما حل لك ما صنعت بنا، كان لنا أن نقاتل عنا لأننا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعد الله، فقدم عمرو وقال: يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية^٢.

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا، أن طلما صاحب إخوانا قديم على عمرو فقال: أخبرنا ما على أجدنا من الجزية فتصبر لها، فقال عمرو، وهو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى الشقف ما أخبرتكم، إنما أتم جزائنا لنا: إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن شقفنا عثا خففنا عنكم^٣.

^٣ نفسه ١٥٤، ١٧٦، وفيما تقدم ٢٠٦.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧٥-١٧٦.

^٢ نفسه ١٧٦.

فَقَضِبَ صَاحِبُ إِخْنَا، وَخَرَجَ إِلَى الرُّومِ فَقَدِمَ بِهِمْ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى. وَأَسِرَ فَأَتَيْ بِهِ إِلَى عَمْرُو، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: اقْتُلْهُ؛ فَقَالَ: لَا، بَلْ أَنْطَلِقْ فَيُجِنَّا بَجَيْشِ آخَرٍ، وَسُورُهُ وَتَوَجُّهُهُ، وَكَتَاةُ يُزْنُسِ أَرْجُوَانٍ، فَرَضِي بِأَدَامِ الْحِزْمَةِ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ أَتَيْتَ مَلِكَ الرُّومِ؟ فَقَالَ: لَوْ أَتَيْتُهُ لَقَتَلَنِي، وَقَالَ قَتَلْتُ أَصْحَابِي^١.

- وعن أَبِي قَبِيلٍ أَنَّ عُثْبَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَقَدَ لِعَلْقَمَةَ بْنِ يَزِيدٍ^(أ) الْقَطْلِيَّ^(ب) عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَهَمَّتْ مَعَهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَكَتَبَ عَلْقَمَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ يَشْكُو عُثْبَةَ حِينَ غَزَوْهُ بِهِ وَمِنْ مَعَهُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: «إِنِّي قَدْ أَمَدَدْتُكَ بِعَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَبِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»، فَكَانَ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا.

- وفي رواية: أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ يَزِيدٍ كَانَ عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَمَعَهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: «إِنَّكَ خَلَفْتَنِي بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَلَيْسَ مَعِيَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، مَا يَكَادُ بَعْضُنَا يَرَى بَعْضًا مِنَ الْقِلْعَةِ». ١. فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: «إِنِّي قَدْ أَمَدَدْتُكَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَأَمَرْتُ مَعْنُ بْنَ يَزِيدٍ السُّلَمِيَّ أَنْ يَكُونَ بِالْوَقْلَةِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ثَمَسَكِينَ بِأَعْيُنِهِ خِيُولَهُمْ، مَتَى يَلْعَهُمْ عَنْكَ فَرَّخَ يَتَّبِعُوا إِلَيْكَ»^٢. قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ: وَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ يَقُولُ: «وَلَايَةُ مِصْرَ جَامِعَةٌ تَقْدِيلُ الْخِلَافَةِ»^٣.

١٥. وَكَانَ عَمْرُو، حِينَ تَوَجَّهَ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، خَرُوبَ الْقَرْيَةِ الَّتِي تُغَرَفُ الْيَوْمَ بِخَرِيَّةٍ وَزَدَانٍ. وَاخْتَلَفَ عَلَيْنَا الْمُبْتَدِئُ الَّذِي خَرُوبَتْ لَهُ، فَحَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَفْرِ أَنَّ عَمْرُوًّا لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى يَقْيُوسَ لِقِتَالِ الرُّومِ، عَدَلَ وَزَدَانَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ عِنْدَ الصُّبْحِ، فَاسْخَطَ أَهْلَ الْخَرِيَّةِ فَنَبَّيْوهُ فَقَدَهُ عَمْرُو وَسَأَلَ عَنْهُ وَقَفَا أَثَرَهُ، فَوَجَدُوهُ فِي بَعْضِ دُورِهِمْ، فَأَقْرَزَ بِإِخْرَاجِهَا وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا. وَقِيلَ كَانَ أَهْلُ الْخَرِيَّةِ زُهَبَانًا كُلُّهُمْ، فَغَدَرُوا بِقَوْمٍ مِنْ سَاقَةِ عَمْرُو، فَقَتَلُوهُمْ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ عَمْرُو الْبَكْرِيَّةَ، فَأَقَامَ عَمْرُو، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ وَزَدَانَ فَقَتَلَهُمْ وَخَرَّبَهَا، فَهِيَ خَرَابٌ إِلَى الْيَوْمِ. ٢٠.

(أ) ساقطة من بولاق. (ب) بولاق: القطلي.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧٦-٧٧. ^٢ نفسه ١١٩٢، التويري: نهاية الأرب ١: ٣٤٨، أبو

الححسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٢-٣٣ وفيما تقدم ٧١.

^٣ نفسه ١١٩٢.

وقيل كان أَهْلُ الْحَرَبَةِ أَهْلُ تَوُثُبٍ^(٥) وَخُبُثٍ ، فَأَرْسَلَ عُمَرُو إِلَى أَرْضِهِمْ فَأَخَذَ لَهُ مِنْهَا جِرَابٌ فِيهِ تُرَابٌ مِنْ تُرَابِهَا ، ثُمَّ دَعَاهُمْ^(٦) فَكَلَّمَهُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى شَيْءٍ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالتُّرَابِ فَفَرَشَ تَحْتَ مُصَلَّاهُ ، ثُمَّ قَعَدَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَكَلَّمَهُمْ ، فَأَجَابُوهُ إِلَى مَا أَحَبَّ . ثُمَّ أَمَرَ بِالتُّرَابِ فَرَفَعَ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى شَيْءٍ ، فَقَالَ ذَلِكَ يَرَارًا . فَلَمَّا رَأَى عُمَرُو ذَلِكَ قَالَ : هَذِهِ بَلْدَةٌ لَا يَصْلُحُ (لَهَا) أَنْ تُوْحَا ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا^(٧) . فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الرُّومَ أَرَادَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَكُونَ عُمَرُو بْنُ الْقَاصِ عَلَى الْحَرْبِ ، وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى الْخُرَاجِ ، فَقَالَ عُمَرُو : أَنَا إِذَنْ كَمَا يَكُنِ الْبَقَرَةُ بِقَرْيَتِهَا وَآخَرُ يَحْلِبُهَا ، فَأَتَى عُمَرُو^(٨) .

وكان قَتْلُ عُمَرُو هَذَا عَنُودٌ قَسَرُوا فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ أَرْبَعُ سِنِينَ . وَقَالَ اللَّيْثُ : كَانَ قَتْلُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْأَوَّلِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ ، وَكَانَ قَتْلُهَا الْآخِرُ سَنَةَ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ^(٩) . وَأَقَامَتِ الْخَيْسُ مِنَ الْبَيْمَاءِ^(١٠) يُقَاتِلُونَ سَبْعَ سِنِينَ ، بَعْدَ أَنْ فُتِحَتْ مِصْرَ ، ثُمَّ يَفْتَحُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ الْمِيَاهِ وَالْفَيَاضِ^(١١) .

قَالَ : ثُمَّ غَزَا / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ ذَا الصُّوَارِيِّ^(١٢) فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ . وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدٍ ، لَمَّا نَزَلَ ذَا الصُّوَارِي ، أَنْزَلَ نِصْفَ النَّاسِ مَعَ بُشَيْرِ بْنِ أَبِي^(١٣) أَرْطَاةٍ فِي الْبَيْتِ ، فَلَمَّا مَضَوْا آمَى آتٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَ : مَا كُنْتُ فَاعِلًا حِينَ يَنْزِلُ بَلَكَ ابْنُ هِرْقَلٍ فِي أَلْفِ مَرْكَبٍ ، فَافْعَلْهُ الشَّاعَةُ ، وَكَانَتْ مَرَائِبُ الْمُسْلِمِينَ مَائَتِي مَرْكَبٍ وَتَيْفًا .

(a) بولاق : توث . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : الجيش من السماء .

أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥١) ، ٩٠-٩٤ إبراهيم أحمد العدوي : قوات البحرية العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٤٤-٥٢ أحمد مختار المهدي ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، ٢٨:١-٣١ *El Dhāt al-* Bosworth, C.E., *El* art. *Sawāri*, Suppl. pp. 221-22 وانظر فيما يلي ١٩٠:٢ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٧ .
^٢ نفسه ١٧٨ .
^٣ نفسه ١٧٨ .
^٤ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٨ .
^٥ لا تعرف على التدقيق المكان الذي تَمَّتْ فِيهِ هَذِهِ الْمَوْقِعَةُ الَّتِي تَعُدُّ حَدًّا فَاصِلًا فِي مِيزَانِ الْقُوَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْبِيزَنْطِيِّينَ فِي الْبَحْرِ الْخَوْصِ ، وَانْظُرْ لِمَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ حَوْلَ هَذِهِ الْمَرْكَةِ الْبَحْرِيَّةِ الْهَامَةِ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨:٤-٢٨٨:٢٩٢ المسعودي : التنبيه والإشراف ١٥٨ حسين مؤنس :

فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بَيْنَ ظَهْرَانِي الثَّانِسِ فَقَالَ : قَدْ^١ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ هِرَظْلٍ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ فِي أَلْفٍ مَرْكَبٍ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ ، فَمَا كَلَّمَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَجَلَسَ قَلِيلًا لَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفِيدَتُهُمْ ، ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ فَكَلَّمَهُمْ ، فَمَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ ، فَجَلَسَ ، ثُمَّ قَامَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فَأَشِيرُوا عَلَيَّ .

- فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - كَانَ مُتَطَوِّعًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ - فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاهُ يَقُولُ : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الآيَةُ ٢٤٩ سُورَةُ الْبَقَرَةِ] .

- فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ازْكَبُوا [بِسْمِ اللَّهِ]^٢ ، فَرَكِبُوا ، وَأَمَّا فِي كُلِّ مَرْكَبٍ نَصْفُ شِخْتِهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ خَرَجَ النِّصْفُ الْآخَرُ إِلَى الْبَرِّ مَعَ بُشْرٍ ، فَلَقَوْهُمْ فَأَقْتَتَلُوا بِالنَّبْلِ وَالشُّشَابِ . وَتَأَخَّرَ ابْنُ هِرَظْلٍ لَعَلَّ تَضْيِيقَ الْهَزِيمَةِ ، وَجَعَلَتْ الْقَوَارِبُ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ بِالْأَخْبَارِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : قَدْ أَقْتَتَلُوا بِالنَّبْلِ وَالشُّشَابِ ؛ فَقَالَ : غُلِبَتِ الرُّومُ . ثُمَّ أَتَوْهُ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : قَدْ نَفَدَ النَّبْلُ وَالشُّشَابُ ، فَهُمْ يَزْتُمُونَ بِالْحِجَارَةِ ؛ فَقَالَ : غُلِبَتِ الرُّومُ ؛ ثُمَّ أَتَوْهُ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : قَدْ نَفِدَتِ الْحِجَارَةُ ، وَزَيَّنُوا الْمَرَاكِبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ يَقْتَتِلُونَ بِالسُّيُوفِ ؛ قَالَ : غُلِبَتِ الرُّومُ .

- وَكَانَتْ الشُّغْنُ إِذْ ذَاكَ تُقَرَّنُ بِالسَّلَاسِلِ عِنْدَ الْقِتَالِ . قَالَ : فَقَرَّنَ مَرْكَبُ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ - وَهُوَ الْأَمِيرُ - بِمَرْكَبٍ مِنَ مَرَاكِبِ الْعَدُوِّ ، فَكَانَ مَرْكَبُ الْعَدُوِّ يَجْتَرُّ مَرْكَبَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَقَامَ عَلَقَمَةُ^٣ ابْنُ يَزِيدَ الْغَطَفِيِّ^٤ ، وَكَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ فِي الْمَرْكَبِ ، فَضَرَبَ السَّلْسِلَةَ بِسَيْفِهِ فَقَطَعَهَا . فَسَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ أَمْرَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بُسَيْسَةَ ابْنَةَ حَمْزَةَ بْنِ لَيْثٍ^٥ - وَكَانَتْ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ النَّاسُ يَغْرُزُونَ بِنِسَائِهِمْ فِي الْمَرَاكِبِ - مِنْ زَاهِتٍ أَشَدَّ قِتَالًا ؟ قَالَتْ : عَلَقَمَةُ صَاحِبُ السَّلْسِلَةِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ خَطَبَ بُسَيْسَةَ إِلَى أَبِيهَا فَقَالَ لَهُ : إِنَّ عَلَقَمَةَ قَدْ خَطَبَهَا ، وَلَهُ عَلَيَّ فِيهَا رَأْيٌ ،

(a) ساقطة من بولاق . (b) زيادة من ابن عبد الحكم . (c) بولاق : القطيفي .

^١ خلط المقرئ بين روايتين لأن عبد الحكم الرواية

الرئيسة للثبوت بن سعد ، ولها أن ملك الروم هو هرقل ، ورواية أخرى لم يحدد صاحبها تذكر أن ملك الروم إنما هو ابن هرقل ، لأن هرقل مات في سنة تسع عشرة والمسلمون محاصرون الإسكندرية . وقد رجح المقرئ الرواية الثانية

واعتمد أن ملك الروم هو ابن هرقل .

^٢ ليشرح . اسم مختصر من الاسم الحميري (الليشرح) وهو اسم معروف في النقوش السبئية والمهنية القديمة . (Torrey, Futūh 57)

فإن تَرَكَهَا أَفْطَلَ . فَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ عُلُقَمَةَ فَتَرَكَهَا ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ ، ثُمَّ هَلَكَ عَنْهَا عَبْدُ اللَّهِ فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ عُلُقَمَةُ بْنُ يَزِيدٍ ، ثُمَّ هَلَكَ عَنْهَا عُلُقَمَةُ فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ كُرَيْبُ بْنُ أَمْرِئَةَ وَمَاتَتْ تَحْتَهُ^١ .

وَقِيلَ مَشَتْ الرُّومُ إِلَى قُسْطَنْطِينِ بْنِ هِرَقْلٍ ، فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ ، فَقَالُوا : أَتَرَكَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِي أَيْدِي الْعَرَبِ وَهِيَ مَدِينَتُنَا الْكُبْرَى ؟ فَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِكُمْ ؟ مَا تَقْدِيرُونَ أَنْ تَمَالِكُوا سَاعَةً إِذَا لَقِيتُمُ الْعَرَبَ ؟ قَالُوا : الْحَوْرَجُ عَلَى أَنَّا نَمُوتُ ، فَتَبَاهَتُوا عَلَى ذَلِكَ . فَخَرَجَ فِي أَلْفِ مُرَكَبٍ يُرِيدُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ ، فَسَارَ فِي أَيَّامٍ غَالِيَةٍ مِنَ الرِّيحِ^(أ) ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا فَمَرَقَتْهُمْ ، لِأَنَّ قُسْطَنْطِينَ لَمَّا نَجَّى بِمُرَكَبِهِ ، فَأَلْقَاهُ الرِّيحُ بِصَوِلِيَّةٍ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَثَرِهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ ؛ فَقَالُوا : سَعَبَتْ^(ب) النَّصْرَانِيَّةُ ، وَأَقْنَيْتِ رِجَالَهَا ، لَوْ دَخَلْتَ الْعَرَبُ عَلَيْنَا لَمْ نَجِدْ مِنْ يُؤَدِّهِمْ ؛ فَقَالَ : نَخْرُجُنَا مُقْتَدِرِينَ فَأَصَابَنَا هَذَا . فَصَنَعُوا لَهُ الْحُمَامَ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : وَيْلَكُمْ ، يَذْهَبُ رِجَالُكُمْ ، وَتَقْتُلُونَ مِلَكُوكُمْ ؟ قَالُوا : كَأَنَّهُ عَرِقَ مَعَهُمْ . ثُمَّ قَتَلُوهُ وَخَلَّوْا مِنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمُرَكَبِ^٢ .

قَالَ أَبُو عُمَرَ الْيَكْنَدِيُّ : وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ غَزْوَةُ ذِي الصُّوَارِي لَكثَرَةِ صَوَارِي الْمَرَائِبِ وَاجْتِمَاعِهَا^٣ .

ذِكْرُ بُحَيْرَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : كَانَتْ بُحَيْرَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ كُرومًا كُلُّهَا لِامْرَأَةِ الْمُؤَفِّسِ ، فَكَانَتْ تَأْخُذُ خَرَابِجَهَا مِنْهُمْ الْخَمْرَ بِفَرِيضَةٍ عَلَيْهِمْ ، فَكَثُرَ الْخَمْرُ عَلَيْهَا حَتَّى ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا ، فَقَالَتْ : لَا حَاجَةَ لِي فِي الْخَمْرِ ، أَغْطُونِي دَنَانِيرَ ؛ فَقَالُوا : أَيْسَ عِنْدَنَا ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمُ الْمَاءَ فَمَرَقَتْهَا ، فَصَارَتْ بُحَيْرَةً يُصَادُ فِيهَا الْحَيَاتَانِ ، حَتَّى اسْتَحْزَجَهَا الْخَلْفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَسَدُّوا بِجُشُوزِهَا وَزَرَعُوهَا^٤ .

(أ) بولاق : غالية الرياح . (ب) بولاق : شعث .

^١ ابن عبد الحكم : فترج مصر ١٨٩-١٩١ .

^٢ نفسه ١٩١ .

^٣ الكندي : ولاة مصر ٣٦-٣٧ وأيضًا المسعودي :

التبنيه والإشراف ١٥٨ ويبدو أن الصواب غير ذلك من

خلال ما ذكره الطبري بقول : « فركب في مركب وحده وما

معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا جموع الروم

في خمس مائة مركب أو ست مائة (تاريخ ٢٩١:٤) ، ولي

موضع آخر : وواقام عبد الله بذات الصواري أبحاثا بعد هزيمة

القوم (تاريخ ٢٩٢:٤) ، مما يدل على أنها اسم موضع كان

مصدرا لأخشاب تصنع منها الصواري

^٤ ابن عبد الحكم : فترج مصر ٧ .

ثم صارت بُحيرة طولها إقلاخ يوم في عرض يوم ، وبصير إليها الماء من أششوم في البحر الرومي ، ويخرج منها إلى بُحيرة دونها في خليج عليه مَدْبَتَان : إحداهما الحدة ، والأخرى إتكو ، وهي كثيرة المقاتي والتخل ، وكلها في الرمل .

وتصب في هذه البحيرة خليج من النيل - يُسمى الحافر - طوله نصف يوم إقلاخاً ، وهو كثير الطير والسّمك والعشب .

وكان المشك ، بوجود هذه البحيرة في الإسكندرية ، غاية في الكثرة ، يُباع بأقلّ القيم وأبّخس الأثمان . ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ ...^١

ذئخر خليج الإسكندرية^٢

يقال إن كيلوباطرة الملكة هي التي ساقّت خليج الإسكندرية حتى أذخلته إليها ، ولم يكن يبلغها الماء ، فحفّرت حتى أذخلته الإسكندرية ، وبَلَطَت قاعه بالرخام من أوله إلى آخره ، ولم يزل يُوجد ذلك فيه .^٣

وقال أبو الحسن الخزومي في كتاب «المنهاج» : أمّا خليج الإسكندرية فإنه من فُرْعة الخليج إلى ثُرعة بُودرة ليس على شيء منها سدّ . يومئذ ج (b) ، محلة / بثوك ، أسمنية أورين ، محلة فُونو ، محلة حسن ، مئبة طراد - وتعرف بالقاعة - محلة نصر ومسروق .

فأمّا ثُرعة نَقانة^(c) فإنها تُفتّح بعد سبعة أيام من ثوت ، والثُرعة الجديدة تفتح في السادس عشر من ثوت ؛ وثرعة بُودرة ، تُفتّح بعد سبعة أيام من ثوت ؛ وثرعة بويحى ، وثرعة بوالشخاء ، وثرعة القهويّة ، ليس على شيء من ذلك سدّ ؛ وثرعة الشراك تُفتّح بعد سبعة أيام من ثوت ؛ وثرعة بوخراسة ، وثرعة البزيط ، يشرب منها دسيو^(d) وسمخراط وسرنوبة^(e) ومئبة ححاد

(a) ياض في النسخ . (b) يولاى : يومئذ . (c) يولاى : لقانة . (d) يولاى : ديسو . (e) يولاى : سرنوبة .

^١ سبق وذكر المقرئ لما تقدم ٢٩٠ أن بحيرة الإسكندرية قد جفت في وقته .
١٩٤٢ ، وكذلك أبا الحسن : النجوم ١٩٣:٧ هـ ،
١٧٨:٩ هـ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية

٢٩٢ - ٢٩٥ .

^٢ انظر ابن تيمّاني : قوانين الدواوين ٢٢١ - ٢٢٢ ،

القلشندي : صبح الأعيان ٣: ٣٠٠ ودراسة عمر طوسون :
^٣ ابن عبد الحكم : فوح مصر ٦ - ٧ ، وفيما تقدم
١٨٩ . تاريخ خليج الإسكندرية القديم وثرعة المحمودية ، الإسكندرية

وسنمادة وبعض مَحَلَّة مارية . وترعة فيشة بَلَحًا تُفْتَح في ثاني عشر ثوت ، وجرت العادة أن تُفْتَح في الثوروز ؛ وَثُرْعَة يَهْوِيط^(a) ، ومقطع سَعْدِيَسَة يُفْتَح في الثاني والعشرين من ثوت ؛ وَمَقْطَع ياطس يُفْتَح في تابع عشر ثوت .

ولما شُدَّ الْمَقْطَع المذكور ، غَمِلَتْ بعد ذلك ثُرْعَة تَزْوِي الصَّفَقَة الْقَبْلِيَّة منها ، فَتَفْتَح في يَوْم الثوروز .

ولما اسْتَجْدَّت^(b) ثُرْعَة إِفْلَاقَة ، وَخَرَجَتْ في أرض ياطس ، جَرَتْ العادة إِذَا رُوِيَت الصَّفَقَة الْقَبْلِيَّة من إِفْلَاقَة ، تُطْلَق الثُرْعَة المذكورة على القسم الْبَحْرِي من ياطس إلى أن يَزْوَى . وَثُرْعَة الْقَارِزَرَة مُخَدَّئَة . وَثُرْعَة نَقْرَهَا^(c) تُفْتَح في ثاني عشر ثوت . وَثُرْعَة إِفْلَاقَة تُفْتَح في عاشر ثوت . وَثُرْعَة إِسْكَنْيَة تُفْتَح في سادس ثوت .

١٠ تراع بحر دَمَنْهُور تُفْتَح في العشرين من مِشْرَى إلى سادس ثوت ، وَيُزْوَى منها بعض طاموس ، وبعض كَنِيَسَة الْغِيْط ، وبعض قَرُطْسا وَدَمَنْهُور .

ثُرْعَة الْقَوَادِيس ، منها تَشْرَب شَبْرَا التُّخْلَة وَكُوم التَّلُون^(d) . تُرَاع شَبْرَا التُّخْلَة تَفْتَح على أعاليها من أول ثوت . وَثُرْعَة بَشْطَرَى تُفْتَح في خاميس عشر مِشْرَى . وَثُرْعَة مَسِيد^(e) تُفْتَح في ثامن ثوت . وَثُرْعَة بَسْتَنْوِيَة تُفْتَح في ثامن عشر ثوت .

١٥ وبحر دَمَشْوِيَة يُفْتَح في العشرين من مِشْرَى ، ومنه تَشْرَب مِثْيَة زَرْقُون^(f) ، وَسَفْط كِرْدَاسَة ، وَدَمَشْوِيَة ، وَمَحَلَّة الشَّيْخ وَمَصِيل . وَثُرْعَة دَمَشْوِيَة تُفْتَح في تاسع ثوت ، وَيُقِيم الماء عليها سبعة عشر يوما ، وَتُفْتَح إلى مَحَلَّة الشَّيْخ ، وَمَصِيل يُقِيم الماء عليها ثلاثين يوما ، وَيُسَدُّ بعد ذلك على دَمَشْوِيَة سبعة أيام .

وعلى سَفْط ومِثْيَة زَرْقُون^(g) ثُرْعَة يَزْسِيق ، كانت تُفْتَح في أول ثوت . مَحَلَّة يَزْسِيق ليس عليها سَدٌّ .

٢٠ مَحَلَّة الْكُروم تُفْتَح في ثامن ثوت ، ومنها تَشْرَب عِدَّة أَمَاكِن ، وفي مَحَلَّة الْكُروم وَكُفُورَهَا ، وهي دَبِيَسِيَّة وَكُوم الْوَلَايِد وَكُوم الصَّخْرَة وَدِيرَامِيس وَالصَّفَاصِيف ، وما يخرج عن كُفُورَهَا وهي تَلْمَسَا وَالْجَلْمُون من حَقُوق مَحَلَّة كِيل ، ومنها تَشْرَب الْجِيْهَة الْغَرِيْبَة .

(a) بولاق : يهويط . (b) بولاق : استجدت . (c) بولاق : بقوها . (d) بولاق : التلون . (e) بولاق : قبيل . (f) بولاق :

رزقون .

شبرابار ليس عليها سدّ، ^(a) والشراعي ليس عليها سدّ ^(a). وثرعة قافلة كانت تُفتح في ثامن ثوت، وليس عليها الآن سدّ. وثرعة بلقطن وكفورها، كانت تُفتح في تاسع ثوت، وليس عليها الآن سدّ. وثرعة الزايب ليس عليها سدّ. وثرعة دسونس المقاريضي تشقي الحفاية، وتُفتح في ثامن ثوت. وكذلك ثرعة مزجنا والملعقة، وثرعة بشلامة وبشاي ^(b)، وآخر تراع الحبيجية، وثرعة الكريون تُفتح في ثامن ثوت. وثرعة البسلقون كانت تُفتح في تاسع ^(c) ثوت، وليس عليها الآن سدّ. وثرعة أرمياخ تُفتح في ثاني عشر ثوت. وثرعة أبلوق تُفتح في سادس ثوت.

وأما خذف زمسيس فإن بحر زمسيس كان يضرب السدّ فيه على تراع زمسيس من أول الليل إلى سابع عشر ثوت. والذي يشرب على ^(d) السد المذكور من التواحي والكفور، زمسيس ومحلة جعفر وقلشان وبعض أهنية الثقدي وبعض خيزنا وبعض البلكوس وبعض بولين وبعض محلة واقد والبصضاء وبعض طملاس ^(e).

ثم يفتح على ^(f) سد دكدوكة، وهو مُحدث يقيم الماء عليه عشرة أيام، وتشرب منه دكدوكة ومحلة مغن ومثية أياني وبعض صيفية.

ثم يقطع على ^(g) سد القطامي، وهو مُحدث، ومنه يشرب بعض جنوبية وتلانة ^(d) البحرية الثبيرة وأبو حمار والبهووط.

ثم يُقطع سدّ دسونس وأبو دينار وثرعة طبرنية، فيشرب منه دنشال، وطاموس يقيم الماء عليها ستة أيام، ومنه تشرب مثية عطية وسلطيس.

وأما بحر دمنهور فإنه يُسلط ^(h) على سلطيس إلى سابع عشر ثوت، ومنه تشرب سلطيس وزهرا وبعض طاموس وبعض قزطسا وبعض كنيسة الغيط ودمنهور. ثم يقطع سد نديّة، وهو مُحدث، فيقيم ثمانية أيام، ومنه تشرب نديّة ودقّرنس والعميرية والبسرير ⁽ⁱ⁾. ثم يُفتح ويسدّ على محلة حفص ومحلة كيل ومحلة ثمير. ثم يقطع على ^(j) سد سلطيس، وهو مُحدث، فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين ببحر دمنهور وزمسيس. ثم يقطع على ^(k) جسر ملولة، ومنه تشرب تزوجة وأرسيس والمراسي وغابة الأعساس وبعض سحر ومحلة ثمير، ويبقى هناك إلى انقضاء الليل.

(a-a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: نهامة وبشاي. (c) بولاق: سادس. (d) بولاق: من. (e) بولاق:

طيلاس. (f) ساقطة من بولاق. (g) بولاق: بلانة. (h) بولاق: يسد. (i) بولاق: النسرين.

وأما ترعة طَبْرُوتْ فهي مُخَدَّنة ، وإذا رويت طَبْرُوتْ تَطْلُقْ على دِسُونْسْ أم دينار ، ثم تقطع على طائوس بمقدار زَتهَا ، ثم تَطْلُقْ في الثَّيلِ العَالِي على أرض قَرَايسْ ، ويُطْلَقُ الماءُ على قُرْطُسا وكنيسة الغَيْطِ .

وخليج الطَّبْرُوتْ إذا خَرَجَ الماءُ منه يسقي منه في أوَّلِ لَيْلٍ ، وإلى أن يُضْرَبَ جِسْرُ شَبْرَا وَسِيمْ ، فيسقي منه شَبْرَا وَسِيمْ وبعض البَلَكُوسِ وحفيرة الزُّعْفَرَانِ وبعض بُولِينِ وَمَسْجِدِ غَايْمِ والصَّوَّافِ وَكُومِ شَرِيكٍ ومُنْيَةِ مَغْنِينِ وتَلِّ القطاميِّ ومَحَلَّةِ وَاقِدِ .

ثم يُنْقَطِعُ جِسْرُ دِلْنَجَةِ ، ومنه يُشْرَبُ بعض خَزْبَتَا وبعض قَلِيشَانِ وبعض بُولِينِ والبَيْضَا وَدِينِسْتِ وتِلْبَانَةِ الأَبْرَاجِ وَقَلِّ بَقَا والحَدَكَيْنِ واليهودية وَأَسُومٌ^(٨) وأبو صَمَادَةَ والحِصْنِ/ وَقَلَاوَةَ بنِي غُجَّيدٍ وطُوحِ دَحَانَةِ وَدَرْشَا وشُقْرَا ودِلْنَجَةِ وَمَحَلَّةِ وَطَبِيَةِ ، ثم يقطع على مُنْيَةِ وَزَزَاةِ الحَبْجَرِ والحُرُوقِ وبعض جَبَارِسِ وَأَفْرِيمِ وأبو سِمَادِ وأم الصُّرُوعِ .

خَلِيجِ ابْنِ زَلُومِ - ويُعرَفُ بِخَلِيجِ ابْنِ ظَلُومِ وَسَدِّ مَخْرَجِ التَّعْدِي - لا يُفْتَحُ إلى عشرة أيام من ثَوْتِ ، ومنه يُشْرَبُ شَابُورِ وكنيسة مبارك وبعض سَرْسِيْقَةِ وبعض دَمْشُوبِهِ ومُنْيَةِ يَزِيدِ وخَوْضِ المَاصِلِيِّ وَحِصَّةِ سَلْمُونِ وبعض سَنِيتِ وبعض التَّعْدِيِّ وبعض قَلِيشَانِ ؛ ثم يُفْتَحُ ، فيشْرَبُ منه أَفْلَيطِ وبعض إِيْتَايِ وبعض كَنِيسَةِ عبدِ المَلِكِ وبعض أَرْمَنِيةِ وَرَمِيْشْنَا وبعض مَحَلَّةِ غَيْبِدِ وَسَقَطِ خَالِدِ وَهَرْنَامَةِ وشَبْرَا ثَوْتِ وَكِيْمَانِ شَرَّاسِ وبعض دَمْشُوبِهِ ، وتَقَامُ الحُرَّاسُ على جِسْرِ سَقَطِ^(٩) خَالِدِ إلى أن يتكامل شرب سَقَطِ خَالِدِ فينقطع حينئذٍ جِسْرُ سَقَطِ^(١٠) .

ويشْرَبُ من خَلِيجِ الإِسْكََنْدَرِيَةِ وما يَهْمُضُ منه ، أَهْلُ البَاطِنِ وَأَهْلُ البَحْرَةِ في فِجَاجِ وَأَوْدِيَةِ ، فيكون ذلك الماءُ صِلَةً ، وهم قَبِيلٌ من زَنَاقَةِ الزُّمَحَانَةِ وَبَنِي بَرَّانِ وَقَبَائِلُ البَزْزِيْرِ ، وَيَزْرَعُونَ عَلَيْهِ فيشْتَرُونَ مِنْهُمُ الحَرَاجَ .

وبَيْنَ مَشَارِقِ الفَرَمَا من نَاحِيَةِ جَزْجِيرِ وَفَاقُوسِ ، وَبَيْنَ آخِرِ مَا يُشْرَبُ من خَلِيجِ الإِسْكََنْدَرِيَةِ ، مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، كَانَ عَامِرًا كَلَّةً - فِي مَخْلُولِ وَمَقْقُودِ - إلى بَعْدِ الخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ مِنْ مِينَيِ البَهْجَرَةِ ، وَقَدْ خَرِبَ مَعْظَمُ ذَلِكَ .

وقال أبو بَكْرٍ الطَّرُطُوشِي ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ مِنْ مَشَايخِ الثُّمَرِ^(١١) ، أَنَّهُ قَالَ : شَاحَدْتُ الإِسْكََنْدَرِيَّةَ وَالصَّيْفَةَ فِي الخَلِيجِ مُطْلَقًا لِلوَجِيَّةِ ، وَالشَّمْلَكُ فِيهِ يَغْلِي^(١٢) الماءُ بِهِ كَثْرَةً حَتَّى تَصِيْدُهُ الأَطْفَالُ بِالْحَرِيقِ ،

ثم حَجَرَهُ الْوَالِي وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْ صَيِّدِهِ ، فَذَهَبَ حَتَّى كَادَ لَا يُرَى فِيهِ إِلَّا الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الْوَاحِدَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ^١.

وَقَالَ أَبُو عُثْمَرَ الْكِئَنَدِيُّ فِي كِتَابِ «الْمَوَالِي» عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَشْكِينَ : أَنَّهُ تَقَلَّدَ قَضَاءَ مِصْرَ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَالِيِّ بِاللَّهِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ ، فَذَكَرَ سِيرَتَهُ وَقَالَ : وَحَفَرَ خَلِيجَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَوَزَدَ الْكِتَابَ بِصَرْفِهِ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتِينَ .

وَقَالَ جَامِعُ «السِّيَرَةِ الطُّولُونِيَّةِ» : وَفِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتِينَ ، أَمَرَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونٍ بِحَفْرِ خَلِيجِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ .

وَقَالَ الْمُسْعُودِيُّ : وَقَدْ كَانَ النَّيْلُ انْقَطَعَ عَنْ بِلَادِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ قَبْلَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ .

وَقَدْ كَانَ الْإِسْكََنْدَرُ بَنَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ عَلَى هَذَا الْخَلِيجِ مِنَ النَّيْلِ ، وَكَانَ عَلَيْهَا عُظْمٌ ^٢ مَاءِ النَّيْلِ ، فَكَانَ يَسْقِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ وَبِلَادَ مَرْيُوطَ ، وَكَانَتْ بِلَادُ مَرْيُوطَ فِي نَهَابَةِ الْعِمَارَةِ وَالْجِنَانِ الْمُتَّصِلَةِ بِأَرْضِ بَرْقَةِ ، وَكَانَتْ الشُّقْنُ تَجْرِي فِي النَّيْلِ وَتَتَّصِلُ بِأَشْوَاقِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَقَدْ بَلَّطَ أَرْضَ خَلِيجِهَا فِي الْمَدِينَةِ بِالْأَخْجَارِ وَالْمَرْمَرِ ، وَانْقَطَعَ الْمَاءُ عَنْهَا لِعَوَارِضَ سَدَّتْ خَلِيجِهَا وَمَنَعَتْ النَّاسَ دُخُولَهُ ، فَصَارَ شُرْبُهُمْ مِنَ الْآبَارِ ، وَصَارَ النَّيْلُ عَلَى يَدَيْهِمْ ^٣.

وَذَكَرَ الْمُسَبِّحِيُّ أَنَّ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، أَبَا مَنْصُورَ بْنَ الْعَزِيزِ ، أَطْلَقَ لِحَفْرِ خَلِيجِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ ، خَمْسَةَ عَشْرَةَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَحَفَرَ كُلَّهُ ^٤.

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ تَمَتَّ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بِيَّيُوسَ الْأَمِيرِ عَلِيًّا ، أَمِيرَ جَائِدَارٍ ، لِحَفْرِ خَلِيجِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَقَدْ اِثْتَلَأَتْ قُوَّتُهُ بِالطُّلُونِ ، وَقُلَّ الْمَاءُ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَاجْتَمَعَ الْحَفَرُ مِنَ التَّمِيدِيِّ ، وَأَنْشَأَ هُنَاكَ مَسْجِدًا . وَتَوَلَّى مُبَاشَرَةَ هَذَا الْحَفْرِ الْمُقَلَّمِ تَعَايِيفُ نَازِرَ الدَّوَاوِينِ ^٥.

ثُمَّ تَمَتَّ السُّلْطَانُ ، فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، لِحَفْرِ هَذَا الْخَلِيجِ الْأَمِيرِ عَلَمَ الدِّينِ سَيْفُ الْمَشْرُورِيِّ ، ثُمَّ سَارَ بِعَائِمَةِ الْأُمَرَاءِ وَالْأَجْنَادِ وَبَاشَرَ الْحَفَرَ بِنَفْسِهِ ، وَعَمِلَ فِيهِ الْأُمَرَاءُ وَجَمِيعُ النَّاسِ

(٢) بولاق : معظم .

^٣ المسبحي : نصوص ضائعة ٣٢ .

^٤ المقرئ : السلوك ١ : ٥١٠ .

^١ الطرطوشي : سراج الملوك ١ : ١٩٠ - ١٩١ .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ١ : ١١٤ - ١١٥ .

إلى أن زالت الرمال التي كانت على الساحل بين التقيدي وقم الخليج، ثم عدى إلى بارئبار^٥، وغرق مراكب هناك وبنى عليها بالحجارة، فلما تم الغرض عاد إلى قلعة الجبل^١.

ثم تعطل استعمار جزيران الماء فيه بطول السنة، وصار يجر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه، واحتاج أهل الإشكندرية في طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التي يُخْبُون^٥ فيها الماء؛ إلى أن كانت سنة عشر وسبع مائة، فقَدِمَ الأمير بذر الدين بكتوت الخزنداري^٢، المعروف بأمر شكار، متولّي الإشكندرية إلى قلعة الجبل، وحسن للسلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون حفرة، وذكر له ما في ذلك من المنافع.

أولها: حقل الغلال وأصناف المتجر إلى الإشكندرية في المراكب، وفي ذلك توفير للكلف، وزيادة في مال الديوان. وثانيها: عِمارة ما على حافتي الخليج من الأراضي لإنشاء الضياع والسواقي، فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا. وثالثها: انتفاع الناس به في عِمارة بساتينهم، وشرب ماء دائما.

فأعجب السلطان ذلك، وتذّب الأمير بذر الدين محمد بن كجذغدي بن الوزير مع بكتوت لعمله، وتقدّم إلى جميع أمراء الدولة بإخراج مياشربهم لإحضار رجال النواحي الجارية في إقطاعاتهم للعتل في الحفير^٣، وكتب لؤلاة الأعمال بالوقوف في العتل.

فاجتمع من النواحي نحو الأربعين ألف رجل، جمعت في نحو العشرين يوما، ووقع العتل في شهر رجب من السنة المذكورة، وأُفرد لكل أهل ناحية قطعة يخفرونها حتى كمل، فجاء قياس الحفر من قم بحر النيل إلى ناحية شبار^٤، ثمانية آلاف قصبَة حاكمية، ومن شبار^٥ إلى الإشكندرية مئلا.

وكان الخليج الأصلي يَدْخُلُ الماء إليه من حدّ شبار^٤، فجعل قم هذا البحر يرمي إليه^٥، وعمل عمقه ست قصبَات/ في عرض ثماني قصبَات. فلما انتهوا إلى حدّ الخليج الأول، حفر أيضا على نظير الخليج المستجَدّ، فصارا بحرًا واحدًا، ورُكِبَ عليه الشدود والقناطر.

(a) في الروض الزاهر: بر أبار. (b) بولاق: يخرن. (c) بولاق: للحفير. (d) بولاق: شبار. (e) بولاق: عليه.

^١ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٤٧. ٨١، السلوك ٢: ١١١، ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ١٢٢.

^٢ انظر ترجمته عند المقرئ: المقفى الكبير ٢: ٤٧٩ - أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٢١٧.

ووجد في الخليج الأول عند حفرة، من الرصاص المبني تحت الصهاريج، شيء كثير جداً، فلم يتعرض السلطان لشيء منه، وأنعم به على الأمير بكتوت.

وعظمت المشقة في حفر هذا الخليج، فإن الذي تجاوز البحر منه غلب عليه الماء، فصارت الرجال تقطس فيه وتوقع الطين من أسفل، ثم كثر الماء فركبت الشواقي حتى ترخته؛ إلا أن عظيم النفع به سهل جميع ذلك، فإن السفن جرت فيه طول السنة، واشتغى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج، وبادر الناس للصفاة على جانبي الخليج، فلم يفيض غير قليل حتى اشتجده عليه ما يزيد على مائة ألف فدان، زرع بعد ما كانت مباحاً، وما ينفى على ست مائة ساقية يرسم القلقاس والثيلة والسسيم، وفوق الأربعين صبيعة، وأزهد من ألف غطط بالإسكندرية، وغمرت منه عدة بلاد كثيرة، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد عليه، ومنه^(٨).

ولما فرغ القتل في الخليج شرع الأمير بكتوت في عمل جنس من ماله، فإن الناس كانوا، في وقت هيجان البحر، يجدون مشقة عظيمة لقلية الماء على أراضي السباغ، فأقام ثلاثة أشهر حتى بنى رصيفاً، ذلك أساسه بالحجر والرصاص وأغلاه بالحجر والكلس، وعمل فيه ثلاثين قنطرة. وأنشأ خاناً ينزل الناس، ورثب فيه الحفراء، ووقف على مصالحيه رزقة، فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية، وسوى ما أجد من الحিজارة التي نقصها^(٩) من قصر قديم كان خارج الإسكندرية، وسوى ما وجدته من الرصاص في سرب بأشقل هذا القصر ينتهي بمن يمشي فيه إلى قريب البحر، وسوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج.

ولم يزل الخليج فيه الماء طول السنة إلى ما بعد سنة سبعين وسبع مائة، فانقطع الماء منه وصار الماء لا يدخل إليه إلا في أيام زيادة ماء النيل فقط، ثم يجف عند نقصه، فتلف من أجل هذا أكثر بساكنين الإسكندرية وتخرت، وتلاشى كثير من القرى التي كانت على هذا الخليج. وسبب انقطاع الماء عنه غلبة الرمل^(١٠) على الأشجور الذي كان يغبر منه ماء بحر الملح إلى بحيرة الإسكندرية حتى جفت، وصار الرمل يلقه الرياح في الخليج، فانطمت منه وعلا قاعه^(١١).

(٨) بولاق: نه. (٩) بولاق: بعضها. (١٠) بولاق: الروم.

^١ المقرئ: السلوك ١١١: ٢-١١٢، ١٢٩، ٥٣٨؛ أبو الحسن: التجوم الزاهرة ٩: ٢١٨.

وَقَصَّدَ مِنْ أَذْرُكْنَاهُ مِنْ مَلُوكِ مِصْرَ حَفَرِ هَذَا الْخَلِيجِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، فَلَمْ يَتَّهَمُوا ذَلِكَ ، إِلَى أَنْ كَانَتْ سُلْطَنَةُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بَرْزْبَايَ ، فَتَذَبَّ حَفَرِهِ الْأَمِيرَ جَرَبَاشَ الْكُرَيْمِيَّ ، الْمَعْرُوفَ بِقَاشِقٍ^(١) ، فَوَجَّهَهُ إِلَيْهِ ، وَجَمَعَ لَهُ مِنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ رِجَالِ التَّوَّاحِي ، فَطَلَعَتْ عِدَّتُهُمْ ثَمَانِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَسَبْعِينَ رَجُلًا ، ابْتَدَأُوا فِي حَفَرِهِ مِنْ حَادِي عَشَرَ جَمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ إِلَى حَادِي عَشَرَ شَعْبَانَ لَتَمَامِ تِسْعِينَ يَوْمًا ، فَانْتَهَى عَمَلُهُمْ^(٢) .

وَمَشَى الْمَاءُ فِي الْخَلِيجِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى حُدُودِ مَدِينَةِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَجُرَتْ فِيهِ الشُّقْنُ ، فَشَرُّ النَّاسِ بِهِ سُرُورًا كَبِيرًا^(٣) .

وَحَسِبَ^(٤) مَا أُتِفِقَ عَلَى الْعُمَالِ فِي الْحَفْرِ مِنْ أَزْبَابِ التَّوَّاحِي الَّتِي عَلَى الْخَلِيجِ ، وَمِنْ أَزْبَابِ الْبَسَاتِينِ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي حَفَرِهِ كَبِيرُ شِدَاةٍ ، مِمَّا جُرَتْ بِهِ عَادَةُ الْوَلَاةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ . وَعِنْدَمَا انْتَهَى قَدِيمُ الْأَمِيرِ جَرَبَاشَ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ ، فَخَلَعَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ وَشَكَرَهُ ، ثُمَّ عَمِلَهُ حَاجِبَ الْحُجَّابِ^(٥) ، فَلَمْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى انْطَلَمَ بِالْوَقْلِ ، وَتَعَذَّرَ سُلُوكُ الْخَلِيجِ بِالْمَرَاكِبِ إِلَّا فِي أَيَّامِ الثَّيْلِ فَقَطْ .

ذِكْرُ مَجْمَلِ خَوَادِثِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ

وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ ، عَظُمَتِ الْحُرُوبُ بِدِيَارِ مِصْرَ بَيْنَ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيِّ أَمِيرِ مِصْرَ ، وَبَيْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَزِيرِ الْجَزَوِيِّ الثَّائِرِ بَيْتِيْسَ ، فَقَعَدَ الْمُطَّلِبُ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِمُحَمَّدِ بْنِ هُبَيْرَةَ بْنِ هَاشِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، فَاسْتَخْلَفَ مُحَمَّدٌ خَالَهَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّوْحَمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ - الَّذِي يُقَالُ لَهُ عُتْرُ بْنُ مَلَالٍ^(٦) - ثُمَّ عَزَلَهُ الْمُطَّلِبُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرَ بِأَخِيهِ الْفَضْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ .

(١) عِنْدَ الْعَيْنِي : سِرْمَاشُ قَاشِقُ . (ب) وَجْهِي . (ج) فِي النِّسْخِ : مَلَاكُ .

^١ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ : بِدَائِعِ الزُّهَرِ ٢ : ٨٧ .
^٢ السَّيِّدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَالِمٌ : تَارِيخُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ١٤ : ٢٤٥ ؛ الصَّرِفِيُّ : نَزْهَةُ النَّفُوسِ ٣ : ١٩ ؛ السَّخَاوِيُّ : الضُّوءُ اللَّامِعُ ٣ : ٢٧٠ .

^٣ قَارَنَ ، الْعَيْنِيُّ : عَقْدُ الْجَمَانِ (تَحْقِيقُ الْقُرُومُوطِ) ١٩٤ .

وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم . وكان سبب قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قوطية بوقعة الرنص مع الحكم بن هشام في سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فأخرج جماعة منهم ، فوصلوا إلى ثغر الإسكندرية زيادة على عشرة آلاف .

وكان سبب قورتهم أن قصاصا من الإسكندرية رمى وجه رجل منهم بكرش ، فأيقوا من ذلك ، وصاروا إلى ما صاروا إليه ، وذلك لما نزلوا رتل الإسكندرية ليعتصروا ما يصلحهم . وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا يبيحهم دخول الإسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون إليهم فيها يعونهم .

فلما عزل عمر بن ملال^(أ) ، كتب إليه عبد العزيز الجوزي يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها ، فبعث عمر بن ملال إلى الأندلسيين ، فدعاهم إلى القيام معه في إخراج الفضل عنها ، فساروا معه ، وأخرج الفضل ، ودعا للجوزي . فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين ، وأخرجوهم وردوا الفضل ، وقيل من الأندلسيين نفر ، وأنهزم الباقون إلى مراكبهم . فعزل المطلب أخاه ، وولى عليها/ إسحاق بن أبرهة بن الصباح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين ، ثم عزله بأبي ذكر^(ب) بن مجادة الماعوري . فلما اقتتل الشري بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله ، وغلب الشري على مصر ، وثب عمر بن ملال^(أ) على أبي ذكر ، وأخرجته من الإسكندرية ، ودعا للجوزي ، وأقبل الأندلسيون إليه فأقتدوا ، فأمرهم بالخروج إلى مراكبهم ، فشق ذلك عليهم .

وظهرت بالإسكندرية طائفة يستمون بالصوفية ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في أموره ، فترأس عليهم رجل منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي ، فساروا مع الأندلسيين يدًا واجدة ، واعتصموا بلحمهم ، وكانت لحم أعز من في ناحية الإسكندرية ؛ فحوصم أبو عبد الرحمن الصوفي إلى عمر بن ملال^(أ) في امرأة ، فقضى على أبي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ، وأخرج إلى الأندلسيين فألف بينهم وبين لحم ، ورجا أهل الأندلس أن يذكروا ثارا من عمر بن ملال^(أ) . فساروا إلى عمر بن ملال^(أ) ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فحصره في قصره ، وخشي أن القصر لا يمتعه منهم ، وخاف أن يدخلوا عليه غنوة فيفضح في حريمه ، فاعتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يذلوهم إليهم ، فذلي فأخذته السيوف فقتل ؛ ثم ذلي^(ج) أخوه محمد بن عبد الملك^(د) الذي يلقب جيوش ، فقتل ؛ ثم ذلي^(ج) عليهم عبد الله البطال ابن عبد الواحد بن محمد بن

(أ) في النسخ : ملاك . (ب) عند الكندي : بأبي بكر . (ج) بولاق : ولي . (د) بولاق : عبد الله .

عبد الرحمن بن معاوية بن حذنج ، فقتل ؛ ثم دُلِّي^(أ) عليهم أخوه أبو هُبَيْرَةَ الحارث ، فقتل ؛ ثم دُلِّي^(أ) عليهم حذنج بن عبد الواحد ، فقتل وانصرف القَوْمُ ، وذلك في ذي القعدة^١ .

ثم قُتِلَ ما بين لحم والأندلسيين عند مقتل ابن ملال^(ب) ، واقتتلوا ، فانهزمت لحم ، فظفر الأندلسيون بالإشكندرية في ذي الحجة ، فولوها أبا عبد الرحمن الصوفي ، فبلغ من الفساد والنهب والقتل ما لم يُشَمَّع بمثله ، فعزله الأندلسيون ، وولوا رجلاً منهم يُعرف بالكناني .

ثم حازب بنو مذليج الأندلسيين ، فظفر بهم الأندلسيون ونفّوهم^(ج) عن البلاد ، فلم يُقدَّر بنو مذليج على الرجوع إلى أرض الإشكندرية حتى طلب السري من الأندلسيين أن يرُدُّوهم ، فأذنوا لهم حينئذٍ ورجعوا .

وكان أبو قبيل يقول : أنا على الإشكندرية من أربعين مَركبًا مسلمين ، ولَيْشُوا بمسلمين ، تأتي في آخر الصيف ، أخوف مِنِّي عليها من الروم ؛ فيقال له : ما هذه الأربعون مَركبًا في هذا الخلق لو كانت نيرانًا تُصْطَرَّم ؟ فيقول : اشكت وتلك ، منها ومَن فيها يكون غراب الإشكندرية وما حوّلها .

وبلغ عبد العزيز الجزوي قتل ابن ملال^(ب) ، فسار في خمسين ألفًا حتى نزل على حصن الإشكندرية ، وحصرها حتى أجهد من فيها فبلغه أنَّ السري بن الحكم بعث إلى يثيس بئثًا فكَرَّ راجعًا في المحرم سنة إحدى ومائتين ، فدعا الأندلسيون للسري^٢ ثم لما خلَعَ أهل مصر المائون ، ودعوا لإبراهيم بن المهدي ، وقام الجزوي بذلك ، سار إلى الإشكندرية ، وحصر الأندلسيين حتى دخلها صلحًا ، ودعي له بها ، ثم سار عنها إلى القسطنطينية ، فحازب السري وقتل ابنه ، ثم انصرف^٣ .

فثار الأندلسيون بعامل الجزوي ، وأخرجوه من الإشكندرية ، وخلعوا الجزوي ، ودعوا للسري ؛ فسار إليهم الجزوي في شهر رمضان سنة ثلاث ومائتين ، فعازضه القبط بسنًا ، وأمدتهم بنو مذليج - وهم في نحو من مائتي ألف - فهزمتهم ، وبعث بجيوشه إلى الإشكندرية فحاصروها^٤ .

(أ) بولاق : ولي . (ب) التسخ : ملاك . (ج) بولاق : نفروهم .

^١ نفسه ١٩٣ .

^٢ الكندي : ولاة مصر ١٨٦ - ١٨٧ .

^٣ نفسه ١٩٥ .

^٤ نفسه ١٨٨ - ١٨٩ .

وكانت بين الشري وبين أهل الصعيد حروب .

ثم إنَّ الجزوي سار إلى الإسكندرية سيرة الرابع وحاصرها ، ونصبت عليها الحجانق سبعة أشهر ، من أول شعبان سنة أربع ومائتين إلى سلخ صفر سنة خمس ، فأصاب الجزوي قلقاً من حجب منجنيقه ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين^١ .

- وقام من بعده ابنه علي ، فلم تزل الفتنة بالأنذلسيين في الإسكندرية متصلة ، إلى أن قديم عبد الله بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون ، وأخرج عبيد الله بن الشري من مصر ، وسار إلى الإسكندرية في قواد العجم من أهل خراسان ، مستهل صفر سنة اثني عشرة ومائتين ، فعاصرها بضعة عشرة ليلة حتى خرج إليه أهلها بأمان . وصالحه الأنذلسيون على أن يُستريحهم من الإسكندرية حيث أحبوا ، على ألا يُخرجوا في مراكبهم أحدًا من أهل مصر ، ولا عهدًا ولا آبقًا ، فإن قتلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهده وتوجَّهوا . فبعث ابن طاهر من يُفتش عليهم مراكبهم ، فوجدوا فيها جمعًا من الذي اشترط عليهم ألا يُخرجوهم ، فأمر بإحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم إلى شريطهم ، ففعل^٢ .

- وساروا إلى جزيرة إفريطش وملكوها ، وكان الأمير معهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم ملكها ولده من بعده ، وعمرها الأنذلسيون إلى أن غزاها الروم سنة خمس وأربعين وثلاث مائة ، وملكها^٣ بعد حصار طويل^٤ .

- وولي على الإسكندرية إلياس بن أسد بن سامان ، ورجع إلى القسطنطين في جمادى الآخرة ، ثم سار إلى العراق .

- ولما انتفض أسفل الأرض في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، وحاربهم الأفشين ومعه عيسى بن منصور الرافقي أمير مصر ، وبعث عبد الله بن يزيد بن يزيد الشيباني إلى الرافقة ، فأنهزم إلى الإسكندرية ، واشتجاشت عليه بنو مذليج ، وحصروه في شوال . فسار الأفشين وأوقع^٥ .

(٤) بولاق : ملكها .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٩٦ .

^٢ نفسه ٢٠٧ .

^٣ حول هذا الموضوع انظر ، إبراهيم أحمد العلوي : ٥٣-٦٨ .

إفريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع

الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ٣ (أكتوبر ١٩٥٠) ،

بن/ في طريقه حتى قَدِمَ الإسكندرية في مجنوده ، فَلَقِيَتْهُ طائِفَةٌ من بني مذليج ، فَهَزَمَهُمْ مَرَّتَيْنِ ، وَأَسَرَّ مِنْهُمْ وَقَتْلَ .

وَدَخَلَ الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة ، فَقَرَّ مِنْهُ رُؤُوسَاؤُهَا ، وَكَانَ عَلَيْهَا مُعَاوِيَةُ بن عبد الوَّاحِد بن محمد بن عبد الرَّحْمَنِ بن مُعَاوِيَةَ بن حَذِيح ، فَأَصْلَحَ أَمْرَهَا .
 ٥ ثم خَرَجَ إِلَى أَهْلِ الْبَشْرُودِ فَاثْتَقَفُوا عَلَيْهِ ، حَتَّى قَدِمَ الْمَأْمُونُ إِلَى مِصْرَ ، فَصَارَ إِلَى الْبَشْرُودِ ، وَالْأَقْشِينَ قَدْ أَوْقَعَ بِالْقَيْطِ بِهَا كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

وَلَمَّا وَلَّى إِبْرَاهِيمُ بن أَحْمَدُ بن مُحَمَّدٍ بن الْأَعْلَبِ إِفْرِيقِيَّةً فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، حَسَّنَتْ سِيرَتُهُ ، فَكَانَتْ الْقَوَافِلُ وَالشُّجَارُ تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ وَهِيَ أَيْمَةٌ ، وَبَنَى الْحُصُونُ وَالْمَحَارِسَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، حَتَّى كَانَتْ تُوقِدُ النَّارَ مِنْ مَدِينَةِ مَسَبَّةَ إِلَى الإسكندرية ، فَيَصِلُ الْخَبَرُ مِنْهَا إِلَى الإسكندرية فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ أَشْهُرٍ .
 ١٠

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَ مِائَةٍ دَخَلَ حُبَابَةَ ، فِي جُيُوشِ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى الإسكندرية فِي الْحَرَمِ ، وَمَعَهُ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ زِيَادَةً عَلَيْهَا ، وَقَدِمَتْ الْجُيُوشُ مِنَ الْمَشْرِقِ مَدَدًا تَكِينُ أَمِيرَ مِصْرَ ، وَسَارَ حُبَابَةَ مِنَ الإسكندرية . وَتَوَدَّى بِالتَّغْيِيرِ فِي الْفُشْطَاطِ ، لِعَشْرِ بَقِينَ مِنْ جَمَادِي الْآخِرَةِ ، فَلَمْ يَخْلَفْ عَنْ الْخُرُوجِ إِلَى الْحِيزَةِ أَحَدٌ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، إِلَّا مِنْ عَجَزَ عَنْ الْحَرَكَةِ لِمَرْضٍ أَوْ غَدْرٍ . وَأَتَاهُمُ حُبَابَةَ ، فَلَقَوْهُ وَهَزَمُوهُ ، ثُمَّ دَارَ عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ أَلْفٍ ، وَنَهَضَ حُبَابَةَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ ، وَأَقَامُوا بِمِصْرَ مُضْطَرِبِينَ .
 ١٥

فَأَقْبَلَ مُؤَيَّسُ الْخَادِمِ مِنَ الْبِرَاقِ فِي رَمَضَانَ بِجُيُوشٍ كَثِيرَةٍ ، فَصَرَفَ تَكِينَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . وَوَلَّى ذَكَا الْأَعْوَرُ فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، فَخَرَجَ فِي جُيُوشِهِ إِلَى الإسكندرية ، وَتَبَّعَ كُلُّ مَنْ يُؤَمِّى إِلَيْهِ بِمُكَاتَبَةِ صَاحِبِ إِفْرِيقِيَّةَ ، فَسَجَنَ مِنْهُمْ وَقَتْلَ كَثِيرًا . وَجَلَا أَهْلُ لُؤْيَةِ وَمَرَاقِيَّةَ إِلَى الإسكندرية ، فِي شَوَّالِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، خَوْفًا مِنْ صَاحِبِ يَوْقَةَ ١ .
 ٢٠

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ سَارَتْ مُقَدَّمَةُ الْمُهْدِيِّ عَبِيدِ اللَّهِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ ، مَعَ ابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، إِلَى لُؤْيَةِ . فَهَزَبَ أَهْلُ الإسكندرية وَجَلَوْا عَنْهَا ، وَخَرَجَ مِنْهَا مُطْفَرُ بْنُ ذَكَا الْأَعْوَرُ فِي جُيُوشِهِ ، وَدَخَلَتْ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِثَمَانٍ خَلَوْنَ مِنْ صَفَرٍ ، وَقَرَّ أَهْلُ الْقُوَّةِ مِنَ الْفُشْطَاطِ إِلَى الشَّامِ ٢ .

فَخَرَجَ ذَكَا أَمِيرُ مِصْرَ إِلَى الْجَزِيرَةِ وَعَشَرَ بِهَا، ثُمَّ مَرَضَ وَمَاتَ عَلَى مَصَافَةِ بِالْجَزِيرَةِ فِي رَيْعِ الْأَوَّلِ^١.

فَوَلَّى تَكْبِينَ بَعْدَهُ وَلاِيَتَهُ الثَّانِيَةَ مِنْ قِبَلِ الْمُقْتَلِ، وَنَزَلَ الْجَزِيرَةَ^٢. وَأَقْبَلَتْ مَرَاكِبُ صَاحِبِ إِفْرِيْقِيَّةَ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ الْخَادِمِ، فَقَدِمَ ثَقُلُ الْخَادِمِ، صَاحِبُ مَرَاكِبِ طُوسُوسَ، فَالْتَقَيْنَا بِرَشِيدٍ فِي سَوَالٍ، فَابْتَدَأَ: فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا عَلَى مَرَاكِبِ سُلَيْمَانَ أَلْقَتْهَا إِلَى الْبَرِّ، فَتَكَسَّرَ أَكْثَرُهَا، وَأُخِذَ مِنْ فِيهَا أَلْحَدًا بِاليدِ، وَقُتِلَ أَكْثَرُهُمْ، وَأُسِرَ مِنْ بَقِيٍّ وَسِيقُوا إِلَى الْفُسْطَاطِ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ نَحْوُ سَبْعِ مِائَةِ رَجُلٍ^٣.

وَسَارَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ الْمُهْدِيِّ مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ إِلَى الْفُيُومِ، وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْأَشْمُونَيْنِ وَالْفُيُومِ وَأَزَالَ عَنْهَا مَجْنَدَ مِصْرَ. فَتَمَضَى ثَقُلُ الْخَادِمِ فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَقَاتَلَ مِنْ بَهَا مِنْ أَهْلِ إِفْرِيْقِيَّةِ فَظَفِرَ بِهِمْ، وَنَقَلَ أَهْلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ إِلَى رَشِيدٍ. وَعَادَ إِلَى الْفُسْطَاطِ، وَتَمَضَى فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى اللَّاهُوتِ، وَلَحِقَتْهُ الْقَسَاكِرُ فَدَخَلُوا إِلَى الْفُيُومِ فِي صَفَرِ سَنَةِ سَبْعِ ثَلَاثِ مِائَةٍ. فَخَرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ الْمُهْدِيِّ إِلَى بَرْقَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ، وَرَجَعَتِ الْقَسَاكِرُ إِلَى الْفُسْطَاطِ^٤.

وَمَازَلَتْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ وَأَعْمَالُهَا فِي اضْطِرَابٍ إِلَى أَنْ قَدِمَتْ جُيُوشُ الْمُعِزِّ لَدِينِ اللَّهِ مَعَ الْقَائِدِ بَجُورَ، فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ، فَتَمَلَّكَهَا. وَمَا بَرِحَتْ إِلَى أَنْ قَامَ بِهَا يَزَارُ بْنُ الْمُشْتَصِرِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ذِكْرِ خَزَائِنِ الْقَصْرِ^٥.

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ، اجْتَمَعَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنْ تِجَّارِ الْفِرْنَجِ، وَقَدِمَتْ بَطْشَةُ^٦ إِلَى الْمِينَاءِ فِيهَا مِنْ مُلُوكِ الْفِرْنَجِ مَلِكَانِ، فَهَمُّوا أَنْ يَتَوَرَّعُوا وَيَقْتُلُوا أَهْلَ الْبَلَدِ وَيَمْلِكُوهَا. فَتَوَجَّهَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَيُّوبَ إِلَيْهَا، وَقَبَضَ عَلَى الثُّجَّارِ الْمَذْكُورِينَ وَعَلَى مَنْ بِالْبَطْشَةِ،

(١) عند الكندي: ربيع الآخر.

^١ الكندي: ولاية مصر ٢٩٣. نفسه ٢٩٣.

^٢ نفسه ٢٩٤. نفسه ٢٩٥.

^٣ فيما يلي ١: ٣٦١، ٤٢٣.

^٤ البطشنة ويقال أحيانًا البطشنة والجمع البطشات والبطش والبطش والبطشات والبطش. سفينة عظيمة الحجم كبيرة القلوع، قد يصل عدد القلوع في البطشنة الواحدة إلى أربعين

قلعًا. كانت تستخدم لنقل الأوزاد والميرة، كما كانت تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاربين قد يصل عددهم إلى سبع مائه. واشتهر هذا النوع من السفن في زمن الحروب الصليبية وكانت وظيفتها مشتركة لدى المسلمين والفرنج (درويش النخيلي: السفن الإسلامية ١٤-١٧).

واستعصمى أفعالهم وسجنهم، وسجن الملكين، وحجرت حطوب حتى أطلق السلطان نساءهم، وعاد إلى القاهرة^١.

وفي سنة أربع وخمسين وخمسة مائة بنى الملك الصالح طلائع بن رزك على بلييس حصناً من لبن^٢.

وفي سنة اثنين وستين وخمسة مائة كانت وقعة البايين، بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه، فانهزم عسكر شيركوه، ومضى منهم طائفة إلى الإسكندرية، ثم كانت لشيركوه على شاور، فانهزم منه إلى القاهرة^٣. ومضى شيركوه إلى الإسكندرية، فخرج إليه أهل الثغر، وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والي الثغر، وقاضيه الأشرف بن الحجاب، وناظره القاضي الرشيد بن الزبير، وسروا بقذومه، وسلموه المدينة. ثم سار منها يريد بلاد الصعيد، واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر في ألف فارس. فنزل عليه شاور، ومعه مئوي [Amaury] ملك الفرنج، فقام معه أهل الثغر، واستعدوا لقتال شاور، فكان مما^٤ أخرجوه أربعة وعشرون ألف قوس^٥.

فوعدهم شاور أن يرضع عنهم المكوس والواجبات، ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين، فأبوا ذلك، وألحوا في قتاله، فحصرهم حتى قل الطعام عندهم. فتوجه إليهم شيركوه، وقد حشد من القربان مجموعاً كثيرة، فبعث إليه/ شاور، وبذل^٥ له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشام، فأجابته إلى ذلك.

وفتح المدينة، وخرج صلاح الدين إلى مروي [Amaury] ملك الفرنج، وجلس معه، فأراد^٥ شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافق^٥ه في سببه إلى عمه شيركوه من البحر على عكا

(a) بولاق: ما. (b) بولاق: فرس. (c) الأصل: نزل. (d) بولاق: فمزال. (e) بولاق: بل.

^١ انظر فيما يلي ٤٧٣:١.

الباهر ١٣٣، الكامل ٣٢٤:١١ - ١٣٢٦ أبو شامة:

الروستين ٣٦٥:١ - ٣٦٦، ١٤٢٤ ابن خلكان: وفات

الأعيان ١٤٧:٧ - ١٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب

١: ١٥١ النوري: نهاية الأرب ٢٨: ٣٣٧، المقريزي:

اتماظ ٣: ٢٨٦.

^٢ المقريزي: اتماظ الحنفا ٣: ٢٣٦.

^٣ انظر عن هذه الواقعة التي تمت قرب الأشمونين في

صحيح مصر، ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٣٢، أبا شامة:

الروستين ١: ١٥١، المقريزي: اتماظ ٣: ٢٨٤.

^٤ ابن ظافر: أخبار الدول ١١٥، ابن الأثير: التاريخ

بِمن مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ . وَدَخَلَ شَاوَرُ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فِي سَابِعِ عَشَرَ شَوَّالَ ، فَاسْتَقَرَّ ابْنُ مَصَالٍ وَمَوَّ
إِلَى الشَّامِ ، وَقَبَضَ عَلَى ابْنِ الْحَبَّابِ ، وَغَوَّبَ حَتَّى قَدَّاهُ أَهْلُهُ بِمَالٍ خَزِيلٍ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ابْنِ
الرُّكْبَرِ وَخَرَجَ إِلَى رَشِيدٍ .

هَذَا ، وَقَدْ امْتَنَعَ الْفَقِيهَ أَبُو الطَّاهِرِ بْنِ عَوْفٍ وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ بِالْمَنَارِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ شَاوَرُ ، فَقَالَ
لَهُ ابْنُ عَوْفٍ : اَعْلَظْنَا يَا أَمِيرَ الْجُيُوشِ ، وَسَامِعْنَا بِمَا فَعَلْتَاهُ ؛ فَعَقَّا عَنْهُمْ ، وَوَلَّى الْقَاضِي الْأَشْرَفُ أَبَا
الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَنصُورٍ بَنَ نَحَا نَاطِرًا عَلَى الْأَمْوَالِ . وَخَرَجَ مَعَهُ مُرِّي [Amaury] مَلِكُ
الْفِرَنْجِ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ مُرِّي [Amaury] إِلَى بِلَادِهِ ^(٨) وَنَزَلَ عَلَى صَيْدَا ^(٩) .

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ وَزَدَ الْحَبِيرُ بِخَرْكَةِ الْفِرَنْجِ إِلَى ثُغُورِ مِصْرَ ، فَاهْتَمَّ الْمَلِكُ
الظَّاهِرُ بِيَبْرَسَ بِأَمْرِ الشُّوَانِي ، وَنَصَبَ عَلَى أَسْوَارِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ نَحْوًا مِنْ ^(١٠) مِائَةِ مَنُجَبِيقٍ .

وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ، خَامِسِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، خَرَجَ بَعْضُ تِجَّارِ الْفِرَنْجِ إِلَى ظَاهِرِ
بَابِ الْبَحْرِ ، حَيْثُ تَجْتَمِعُ الْعَامَّةُ ^(١١) لِلْفُرْجَةِ ، وَتَعْرُضُ إِلَى صَبِيٍّ أَمْرَدَ يُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَأَتَكَرَّ ذَلِكَ
بَعْضٌ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَ : هَذَا مَا يَحِلُّ . فَأَتَخَذَ الْفِرَنْجِيُّ شُحْمًا كَانَ بِيَدِهِ وَضَرَبَهُ عَلَى
وَجْهِهِ ، فَصَاحَ بِالنَّاسِ فَأَتَوْهُ ، فَقَامَ الْفِرَنْجِيُّ مَعَ صَاحِبِهِمْ .

وَأَتَسَعَ الْحَزَقُ ، إِلَى أَنْ رَكِبَ مُتَوَلِّي الثُّغُرِ ، وَأَغْلَقَ أَبْوَابَ الْمَدِينَةِ ، وَطَلَبَ مَنْ أَتَاكَ الْفِتْنَةَ ،
فَفَرَّوْا ، وَعَادَ إِلَى دَارِهِ وَتَرَكَ الْأَبْوَابَ مُغْلَقَةً .

وَكَانَ بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ قَدْ تَوَجَّهُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ ، فَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
يُورَتِهِمْ ، وَجَاءَ اللَّيْلُ وَهُمْ قِيَامٌ عَلَى الْأَبْوَابِ يَضِجُونَ وَيَصِيحُونَ ، فَمَضَى أَعْيَانُ الْبَلَدِ إِلَى الْمُتَوَلَّى ،
وَمَازَالُوهُ حَتَّى فَتَحَ لَهُمْ . فَدَخَلُوا مُبَادِرِينَ وَهُمْ يَزْدَجِمُونَ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ زِيَادَةٌ عَلَى عَشْرَةِ أَنْفُسَ ،
وَتَلَفَّتْ أَعْضَاءُ جَمَاعَةٍ ، وَدَهَبَ مِنْ عَمَائِمِ النَّاسِ وَمَنَادِيْلِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَعَظُمَ الْبُكَاءُ
وَالصَّرَاحُ طُولَ اللَّيْلِ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَدَرِ رَكِبَ الْوَالِي لِكَشْفِ أَسْوَارِ النَّاسِ ، فَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِ وَرَجَمُوهُ ، فَأَنْهَزَمَ مِنْهُمْ
إِلَى دَارِهِ ، فَتَحَبَّوهُ وَقَاتَلُوهُ ، فَقَاتَلَهُمْ مِنْ أَعْلَى الدَّارِ حَتَّى شَفِكَتَ بَيْنَهُمَا دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ ، وَأَخْرَقُوا
دَارَهُ ^(١٢) ، وَنَهَبُوا دُورًا بِجَانِبِهِ . فَكَتَبَ يَمْتَنِعِدُ الْوَالِي دَمَظُورَ وَمَنْ حَوَّلَهُ مِنَ الْغُرَبَانِ ، فَأَتَوْهُ وَاحْتَاطُوا
بِالْمَدِينَةِ .

وسرع الطائر إلى السلطان بخروج أهل الإسكندرية عن الطاعة ، فاشتد غضبه ، وحبس من إطلاقهم الأمراء المشجونين ، وبعث إلى القضاة فجمعهم واستفتاهم في قتالهم ، فكتبوا بما يجب .
 وخرج إليهم الوزير ثعلباني الجمالي ، وطوغان شاذ الدواوين ، وأهدم أمير جندار ، وعدة من الممالك السلطانية ، وناظر الخاص ، ومع الوزير تذكرة بإراقة دماء أهل القصاد ، ومصادرة جماعة ، وأخذ أموال أهل البلد ، والقبض على الأسلحة المعلقة بها للفرقة ، وإسكاف القاضي والشهود ، وحمل الأمراء المشجونين إلى القاهرة .

فساروا في عاشره ، وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام ، ونزل الوزير بالحبس ، وفرض على الناس خمس مائة ألف دينار مصرية ، وأخضر قاضي القضاة عماد الدين ونابيه في الحديد ، وأكبر عليهما كونهما شهرا النداء في البلد بالفرقة في سبيل الله . فأنكروا وقوع هذا منهما ^(٨) وإنما كان من غيرهما ^(٩) ، وأنها لم يكن في قدرتهما رد السواد الأعظم . فضرب نابيه ابن التتسي ^(١٠) ضربا مبرحا ، وألزمه بحمل ست مائة ألف درهم ، وألزم القاضي بخمس مائة ألف درهم ، وكان قد رسم بشقه ، فتلطف في مكاتبة السلطان ، واعتذر عنه وبوأه حتى عفا عنه .

وتبع العائمة ، فوسط منهم ثلاثين رجلا في يوم الجمعة ثالث عشره ، فتسارع الناس إلى ذورهم من الخوف ، فذهبت عدة عمائم ، واشتد الخوف مدة عشرين يوما ، وكثب السلطان تنواليا بالإيقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم ، والوزير يُعجمن في الجواب إلى أن تجهز الأمراء المشجونين وسار من الثغر ، وقد استغرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة ، بحملها جميعها في قاعة وختم عليها ، وبلغت الجباية من الناس ما يُنصف على مائتين وستين ألف دينار . فكانت هذه من الحين العظيمة ، والحوادث الشنيعة .

ذكر مدينة أثريب

هذه المدينة بناها أثريب بن قبطيم بن مصر بن نصير بن حام بن نوح ^١ . قال ابن وصيف شاه : وكان أثريب قد انتقل إلى بحيره بعد موت أبيه قبطيم ، وهي المدينة التي كان أبوه بناها له ، وكان

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : الشبي .

^١ مدينة مندرسة يدل على موضعها الآن التلول التي بأحواض أثريب الواقعة في الجهة الشمالية من سكن بندر بنها =

- طُولُهَا اثْنِي عَشَرَ مِيلًا ، وَلَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا ؛ وَجَعَلَ فِي شَارِعِهَا الْأَعْظَمَ ثَلَاثَ قِيَابٍ عَالِيَةٍ عَلَى أَعْجِمَةٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، مِنْهَا قُبَّةٌ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ ، وَقُبَّتَانِ فِي طَرَفَيْهَا ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ^(٥) مَرْقَبًا كَبِيرًا ، وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهَا مَلْعَبَاتٌ وَمَجَالِسٌ وَمُتَنَزَّهَاتٌ تُشْرِفُ^(٦) ؛ وَشَقَّ فِي غَرْبِهَا نَهْرًا ، وَغَقَدَ عَلَيْهِ قَنَاطِرَ ، وَجَعَلَ مِنْ فَوْقِهَا مَجَالِسَ مُتَّصِلَةً ، وَخَوَّلَهَا الْمَنَازِلَ تَدُورُ بِالْخَلِيجِ مُتَّصِلَةً بِالْقَنَاطِرِ عَلَى رِيَاضٍ / مَزْرُوعَةٍ مِنْ خَلْفِهَا الْأَجْنَةُ^(٧) وَالنَّسَاتِينَ ؛ وَعَلَى كُلِّ بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ أُعْجُوبَةٌ مِنْ تَمَاثِيلٍ وَأَصْنَافٍ مُتَّحَرِّكَةٍ ، وَأَصْنَافٍ تَمْتَعُ مِنْ يُؤْذِي ؛ وَجَعَلَ فِي دَاخِلِ كُلِّ بَابٍ صُورَةَ شَيْطَانِينَ مِنْ صُفْرِ ، فَإِذَا قَصَدَهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ قَهَقَهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي عَنْ يَمِينَةِ الْبَابِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ بَكَى الشَّيْطَانُ الَّذِي عَنْ يَسْرَةِ الْبَابِ ؛ وَجَعَلَ فِي كُلِّ مُتَنَزَّهَةٍ مِنْهَا مِنَ الْوُخْشِ الْآلِفَةِ وَالطُّيُورِ الْمُفْرَدَةِ كُلُّ مُشْتَعَشَسٍ ، وَفَوْقَ قِيَابِ الْمَدِينَةِ صُورًا تُصَفِّرُ إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ ، وَنَصَبَ مَرَايِدَ^(٨) تَرَى الْبِلَادَ الْبَعِيدَةَ ؛ وَبَنَى جِذَاعَهَا فِي الشَّرْقِ مَدِينَةً ، وَجَعَلَ فِيهَا مَلَاعِبَ وَأَصْنَافًا بَارِزَةً فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَفِي وَسْطِهَا بَرْكَةً إِذَا مَرَّ بِهَا الطُّيْرُ سَقَطَ عَلَيْهَا فَلَا يَتَرَحَّحُ حَتَّى يُؤْخَذَ ؛ وَجَعَلَ لَهَا حِصْنًا بَاطِنِي عَشْرِ بَابَاتٍ ، عَلَى كُلِّ بَابٍ تِمْنَالٌ يَعْمَلُ أُعْجُوبَةٌ ؛ وَعَمِلَ حَوَالِيَهَا أَجْنَةً^(٩) ، وَجَعَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهَا - فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ^(١٠) - مَجْلِسًا مَنَقُوشًا عَلَى ثِمَانِي أُسَاطِينَ ، وَفَوْقَهُ قُبَّةٌ عَلَيْهَا طَائِرٌ مَنَشُورُ الْجَنَاحَيْنِ ، يُصَفِّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ تَصْفِيرَاتٍ : بُكْرَةً ، وَنِصْفَ النَّهَارِ ، وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ؛ وَأَقَامَ فِيهَا أَصْنَافًا وَعَجَائِبَ كَثِيرَةً .

- وَبَنَى مُدُنًا كَثِيرَةً ، وَأَقَامَ فِيهَا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ بُرْسَانٌ ، يَعْمَلُ الْكَيْمِيَاءَ ، وَضَرَبَ مِنْهَا دَنَانِيرَ ، فِي كُلِّ دِينَارٍ سَبْعَةُ مَنَاقِبَ ، عَلَيْهَا صُورَتُهُ .
- وَعَاشَ أَثَرِيبَ مَلِكًا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِينَ سَنَةً ، وَتَلَعَّ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسَ مِائَةٍ سَنَةٍ . وَحُمِّلَ لَهُ نَاوُوشٌ فِي جَبَلٍ بِالشَّرْقِ^(١١) ، حَفِيفٌ لَهُ تَحْتَهُ سَرُوبٌ يُطْفَأُ بِالزُّجَاجِ وَالْمُؤَمَّرِ ، وَجُعِلَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُرَصَّعٍ ، وَحُمِّلَتْ إِلَيْهِ دَخَائِيزُهُ ، وَجَعَلُوا عَلَى بَابِهِ صُورَةَ يَتِيمٍ لَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلَكَهُ ، وَسَقَا عَلَيْهِ الرِّمَالُ ، وَزَيَّزُوا عَلَيْهِ اسْمَهُ وَتَارِيخَ وَقْتِهِ^١ .

(a) بولاق : قبة . (b) بولاق : تشرق ، وفي المقي : تشرف على ما تحتها . (c) بولاق : الجنان . (d) بولاق : مرة . (e) بولاق : جنان . (f) في المقي : في شرقها . (g) بولاق : بالشرق .

= (بالقوت : معجم البلدان ١ : ٨٧) محمد رمزي : القاموس
 ١ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٦ - ٧٧ ؛ وترجم
 الجغرافي ١ : ٣١١ (Maspero & Wiet, Matériaux I, p. 311) .
 المقريزي لأثريب في المقي الكبير ١ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

وقال ابنُ الكندي: أَرَبَعَ كُورَ بمصر ليس على وَجْهِ الأرض أَفْضَلُ منها ، ولا تحت السماء لهنَّ نظير : كُورَةُ الفَيُوم ، وكُورَةُ أَثْرِب ، وكُورَةُ سَمْعُود ، وكُورَةُ أَنْصِنَا^١ . وكُورَةُ أَثْرِب من لُجْنَلَة كُورَ أَشْفَلُ الأرض ، وهي مائة وثماني قُرَى .

وكان يُقالُ مَدَائِنُ الشَّحْرَة من ديار مصر سَنَع ، وهي : أَرَمْنَت ، وَبْنَا ، وَبُوصِير ، وَأَنْصِنَا ، وَصَان ، وَأَثْرِب ، وَصَا^٢ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ تَنِيْس

تَنِيْس - بِكْشَرِ التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكَشَرِ النون المشددة وباء آخر الحروف وسين مُهْمَلَة - بَلَدَة من بلاد مصر في وَسْطِ الماء ، وهي من كُورَةِ الخَلِيج ، سُمِّيَتْ تَنِيْس بن حام بن نُوح ، ويُقالُ بَنَاهَا فليمون من وَلَدِ أَثْرِب بن قُطْب^٣ أَخَذَ ملوك القِبْط في القَدِيم^٤ .

قال ابنُ وَصِيف شاه : وَمَلَكَتْ بعد أَثْرِب ابنته [تَدُورَة]^٥ ، فَذُبِرَتْ المَلِكُ وَسَامَتْهُ بِأَيْدِ قُوَّة ، خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَمَاتَتْ . فقامَ بِالمَلِكُ من بعدها ابنُ أختها^٦ فليمون المَلِكُ ، فَزَدَ الوُزَرَاء إلى مَرَاتِبِهِمْ ، وَأقامَ الكُفَّانَ على مَوَاضِعِهِمْ ، ولم يخرج الأُمُرَ عن رأيهم ، وَجَدَّ في العِمَارَات وَطَلَبَ

(a) بولاق : قبطوم . (b) إضافة لما تقدم ١٣٨:١ . (c) فيما تقدم ١٣٨:١ آخرها .

بعد تسعة كيلومترات جنوب غربي مدينة بورسعيد الحالية .

(راجع ، البكري : جغرافية مصر ٩٠-١٩٢ مجهول :

الاستبصار ٨٧-١٨٨ باقوت : معجم البلدان ١: ٥١-

١٥٤ النويري : نهاية الأرب ١: ٢٥٢ ابن دقماق :

الاستبصار ٧٨:٥-٧٩ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

١: ١٩٧-١٩٨ محمد بن أحمد بن هشام المهنسي :

أنس الجلبس في أغبار تنيس ، نشر وتحقيق جمال الدين

الشيال ، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤ (١٩٦٧) ،

١٥١-١٨٩ جابر سلامة المصري : مدينة تنيس في

التاريخ الإسلامي ، مجلة كلية الآداب - جامعة

الإسكندرية ٣٥ (١٩٨٧) ، ٨٩-١١٤٢ Maspero & El^١

Wiet, Matériaux, pp. 60-61; Mouton, J.M., El^٢

(art. Tinnis X, pp. 570-71

^١ ابن الكندي : فضائل مصر ٣٦ .

^٢ انظر فيما تقدم ٣٤ .

^٣ تَنِيْس . مدينة منسوسة ، وهي جزيرة كانت قرية من البر ما بين القَرَمَا ودمياط يحيط بها البحر من كل جهة ، وكان النيل في وقت الفيضان تغلب حلاوته على ماء البحر فصير البحيرة حلوة ، فحصد يدر أهل تنيس المياه في صهاريجهم لستهم . واشتهرت في العصر الفاطمي بصناعة الثياب الملونة والبوقلمون (ناصر خسرو : سفرنامه ٧٧) .

ولانزال الجزيرة التي كانت بها مدينة تنيس موجودة إلى اليوم بحيرة المَنَزَلَة وتعرف بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المخلف من مبانيها القديمة ، وهي تقع على

الحِكْمَ . وفي أُنْجَاهِ بُنِيتَ نَبِيسُ الْأُولَى الَّتِي غَرَقَهَا الْبَحْرُ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَخَوَّلَهَا الزُّرْعَ وَالشَّجَرَ وَالْكُرُومَ ، وَفَرَى وَمَعَاوِيسَ لِلخَمْرِ ، وَعِمَارَةَ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهَا ^١ .

فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُبْنَى لَهُ وَسْطُهَا ^(٢) مَجَالِسٌ ، وَيُنْصَبَ لَهُ عَلَيْهَا قِيَابٌ ، وَتُرْزَنَ بِأَحْسَنِ الزُّيْنَةِ وَالنَّقُوشِ ، وَأَمَرَ بِفَرْشِهَا وَإِصْلَاحِهَا ؛ وَكَانَ إِذَا بَدَأَ الثَّيْلُ يَجْرِي انْتَقَلَ الْمَلِكُ إِلَيْهَا ، فَأَقَامَ بِهَا إِلَى الثُّورِوزِ وَرَجَعَ .

وَكَانَ لِلْمَلِكِ بِهَا أَمْنَاءٌ يَتَسَمَّوْنَ الْمِيَاهَ ، وَيَقْطُطُونَ كُلَّ قَرْيَةٍ يَسْطُهَا ، وَكَانَ عَلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ حِصْنٌ يَدُورُ بِقَنَاطِرٍ ، وَكَانَ كُلُّ مَلِكٍ يَأْتِي بِأَمْرِ بِعِمَارَةٍ بِهَا ^(٣) وَالزِّيَادَةَ فِيهَا ، وَيَجْعَلُهَا لَهُ مَسْتَوًى .

وَيُقَالُ إِنَّ الْخَبِيثَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْغَزِيرِ ، إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رُجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَّفْنَاهُمَا بِنَخْلِ... ﴾ [الآيَةُ ٣٢ سُورَةُ الْكَهْفِ] ، كَانَتَا لِأَخَوَيْنِ مِنْ بَنَاتِ الْمَلِكِ أَقْطَعَهُمَا ذَلِكَ الْمَوْضِعَ ^٢ ، فَأَحْسَنَا عِمَارَتَهُ وَهَنْدَسَتَهُ وَبُيُوتَهُ . وَكَانَ الْمَلِكُ يَنْتَزِعُهُمَا ^(٤) ، وَيُؤْتِي بِفَرَاثِ الْفَوَاكِهِ وَالْبُقُولِ ، وَيُعْتَمِلُ لَهُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ مَا يَسْتَشْطِيهِ . فَتَعَجَّبَ بِذَلِكَ الْمَكَانِ أَحَدُ الْأَخَوَيْنِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الضِّيَافَةِ وَالصَّدَقَةِ ، فَفَرَّقَ مَالَهُ فِي وَجْهِ الْبَرِّ ، وَكَانَ الْآخَرُ تَمْسِكًا بِشَخَرٍ مِنْ أَخِيهِ إِذَا فَرَّقَ مَالَهُ ، وَكَلَّمَا بَاغَ مِنْ قِشْمِهِ شَيْقًا اشْتَرَاهُ مِنْهُ ، حَتَّى بَقِيَ لَا يَمْلِكُ شَيْقًا .

وَصَارَتْ تِلْكَ الْأَجْنَةُ ^(٥) لِأَخِيهِ ، وَاحْتِاجَ إِلَى سُؤَالِهِ ، فَانْتَهَرَهُ وَطَرَدَهُ ، وَغَيَّرَهُ بِالنَّبَذِ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَنْصَحُكَ وَأَمْرُكَ ^(٦) بِصِيَانَةِ مَا لَكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، وَتَقَعْنِي إِنْسَاكِي فَصِرْتُ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، وَوَلَّى عَنْهُ مَسْرُورًا بِمَالِهِ وَجَنَّتِهِ . فَأَمَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - - الْبَعْزَ ، فَرَكِبَ تِلْكَ الْقَرْيَةَ وَغَرَقَهَا بِجَمِيعِهَا ، فَأَقْبَلَ صَاحِبُهَا يُؤَلِّوِلُ وَيَدْعُو بِالثُّبُورِ ^٣ ، ﴿ وَتَقُولُ بِأَلْبَتِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الْآيَاتَانِ ٤٢ ، ٤٣ سُورَةُ الْكَهْفِ] .

وَفِي زَمَانٍ قَلِيمُونَ الْمَلِكِ بُنِيتَ دِمْيَاطُ ^٤ .

(٥) بولاق : فِي وَسْطِهَا . (ب) بولاق : بِعِمَارَتِهَا . (ج) بولاق : فِيهَا . (د) بولاق : الْجَنَّةُ . (هـ) سَاطِعَةٌ مِنْ بُولَاق . (٢) بولاق : تَعَالَى .

^١ انظر فيما تقدم ٣٧٧ .
^٢ النويري : نَهَايَةُ الْأَرْبِ ١٥ : ٧٧-٧٨ .
^٣ قَارَنَ النُّوَيْرِيُّ : نَهَايَةُ الْأَرْبِ ١ : ٢٥٢ نَقْلًا عَنْ كِتَابِ
 «الْمَجَالِبِ الْكَبِيرَةِ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ وَصِيفٍ شَاهٍ .
^٤ النويري : نَهَايَةُ ١٥ : ٧٨ ؛ وَفِيمَا يَلِي ٥٨١ .

وملك فليمون تسعين سنة، وعَمِلَ لنفسه ناووسًا في الجبل الشرقي، وحَوَّلَ إليه الأموال والجواهر وسائر الذخائر، وجَعَلَ من داخله تماثيل تدور بِلَوَائِب^(a) في أيديها شيوف، من دَخَلَ قَطَعَتْهُ. وجَعَلَ عن يمينه ويساره أَسَدَتَيْنِ من نحاس مُدْهَب بِلَوَائِب^(b)، من أتاه حَطَمَاه، وَزَيَّرَ عليه: هذا قَبْرُ فليمون بن أثريب بن قُبْطِيم بن مصرم^(c)، عَمْرُ/ ذَهْرًا، وأتاه الموتُ فما اسْتَطَاعَ له دَفْنًا، فَمَنَ وَصَلَ إليه فلا يَسْلُبُهُ ما عليه، وليأخذ مما^(d) بين يديه^(e).

وَيُقَالُ إِنَّ تَيْسَ أَخَ لِدِشِيَا^(f).

وقال المسعودي في كتاب «مروج الذهب»: وبُحَيْرَةُ^(g) تَيْسَ كانت أَرْضًا لم يَكُنْ بمصر يَمْلِكُهَا اشتواء وطيب ثَرِيَّة [وَرَاءَ]^(h)، وكانت جَنَاتًا وَنَحْلًا وَكُوزًا وَشَجَرًا وَمَزَارِعَ، وكانت فيها مجاري على ارتفاع من الأرض. ولم يَزِ الناسُ بَلَدًا أَحْسَنَ من هذه الأرض، ولا أَحْسَنَ اتِّصَالًا من جَنَاتِهَا وَكُوزِهَا، ولم يَكُنْ بمصر كُوزَةٌ يُقَالُ إِنَّهَا تُشَبِّهُهَا إِلَّا الْقَيْوَمُ. وكان الماءُ مُنْخَلِجًا إِلَيْهَا، لا يَنْقَطِعُ عَنْهَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً، يَشْقُونَ جَنَاتَهُمْ⁽ⁱ⁾ إِذَا شَاءُوا، وكذلك زُرُوعُهُمْ، وسائرُه يَصُبُّ إِلَى الْبَحْرِ من جميع خُلُجَانِهِ، ومن الْمَوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَشْتُمِ.

وقد كان بين الْبَحْرِ وبين هذه الْأَرْضِ مَسِيرَةٌ يَوْمَ، وكان فيما بين الْقَرِيشِ وَجَزِيرَةِ قُبْزُسَ طَرِيقٌ مَسْلُوكٌ إِلَى قُبْزُسَ تَسْلُكُهُ الدَّوَابُّ يَسَافِرُ، ولم يَكُنْ بين الْقَرِيشِ وَجَزِيرَةِ قُبْزُسَ فِي الْبَحْرِ سَبِيلٌ طَوِيلٌ، حَتَّى غَلَا الْمَاءُ الطَّرِيقَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ الْقَرِيشِ وَبَيْنَ^(j) قُبْزُسَ^(k).

فَلَمَّا مَضَتْ لِدِقْلَطِيَانُوسَ مِنْ مُلْكِهِ مَائَتَانِ وَاحِدَى وَخَمْسُونَ سَنَةً، هَجَمَ الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تُسَمَّى الْيَوْمَ بُحَيْرَةُ تَيْسَ فَأَغْرَقَتْهُ، ويزيد في كُلِّ عَامٍ حَتَّى أَغْرَقَتْهَا بِأَجْمَعِهَا؛ فَمَا كَانَ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي فِي قَرَارِهَا غَرَقَ، وَأَمَّا الَّذِي كَانَ مِنْهَا عَلَى ارْتِفَاعٍ مِنَ الْأَرْضِ فَبَقِيَ مِنْهَا ثَوْنَةٌ وَبُورًا، وَغَيْرُ ذَلِكَ جَمًّا هُوَ بَاقٍ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ، وَالْمَاءُ مُحِيطٌ بِهَا.

وكان أَهْلُ الْقَرْيَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ يَتَّقُونَ مَوْتَاهُمْ إِلَى تَيْسَ، فَيَهْبِرُونَهُمْ وَاجِدًا فَوْقَ وَاجِدٍ^(l). وكان اسْتِحْكَامُ غَرْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ بِأَجْمَعِهَا قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ مِصرَ بِمِائَةِ سَنَةٍ^(m).

(a) الأصل: بكواكب. (b) بولاق: مصر. (c) بولاق: من. (d) بولاق: وغيره. (e) إضافة من للمسعودي. (f) الأصل: بحار. (g) الأصل: جنتهم. (h) سالطة من بولاق. (i) بولاق: فنبشوم واحدًا.

^٣ المسعودي: مروج الذهب ٧٤:٢ - ٧٥.

^١ التويري: نهاية الأرب ٧٨:١٥.

^٤ نفسه ٢: ١٧٦ وقارن ابن دقماق: الانتصار ٩٧:٥.

^٢ ابن دقماق: الانتصار ٧٨:٥.

قال: وقد كان للملك من الملوك التي كانت داره^(a) الفَرَمَا، مع أركون من أرايكة البليتا وما اتَّصلَ بها من الأرض، محروث عملت فيها خنادق وحُلجانان^(b)، فُيحت من التِّل من التِّل إلى البحر، يمتنع بها كلُّ واحدٍ من الآخر. وكان ذلك داعيًا لتشعب الماء من التِّل، واستيلائه على هذه الأرض^١.

وقال في كتاب «أخبار الزمان»: وكانت يثيس عظيمة لها مائة باب^٢.

وقال ابن بطَّان^٣: يثيس بَلَدٌ صغير، على جزيرة في وَسَط البحر، متلة إلى الجنوب عن وَسَط الإقليم الرابع خمس دَرَج، وأرضه سَبَخة، وهوائه مُخْتَلَف، وشَرْب أهله من مياه مخزونة في صهاريج مُملَأ في كلِّ سنة عند غلوة مياه البحر يَدْخول ماء التِّل إليها، وجميع حاجاتها منجلوبة إليها في المراكب.

- وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن والبان البقر، فإنَّ ضَمَانَ الجبن السلطاني سبع مائة دينار جسابًا عن كلِّ ألف قالب دينار ونصف، وضَمَانَ السمك عشرة آلاف دينار. وأغلاقي أهلها سَهْلَةٌ مُتَقَادَةٌ، وطبائِعُهُم مائِلَةٌ إلى الرطوبة والأنوثة.
- قال أبو السري الطييب: إنه كان يُولَد بها في كلِّ سنة مائتا مُحَنَّت، وهم يُحِبُّون التَّظافَةَ والدِّمَامَةَ والغِنَاءَ واللَّذَّةَ، وأكثرهم يَبِيتون سُكَازَى، وهم قليلو الرِّباضَةِ لضيق البَلَدِ، وأبدانهم مُتَمَتِّعة أَخْلَاطًا^(c)، وحَصَلَ بها مَرَضٌ، يُقال له الفَوَاق التَّيْسِي، أَقامَ بأهلها ثلاثين سنة.

= بعد واحد، الأصل: فيمجرنهم واحد فوق واحد، والمثبت من مروج الذهب مصدر النقل. (a) بولاقي: دارها. (b) بولاقي: خلجان. (c) بولاقي: الأخلاط.

^١ مصر. ثم غادرها بعد أربع سنوات إلى القسطنطينية ومنها إلى حلب وأنطاكية حيث ترُفِّب بها وتوفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م. واشتهر بكتابه «دعوة الأطباء» وكتابه «تقويم الصحة» ورسائله التي نشرها شاعت ومايرهوف (القنطلي: تاريخ الحكماء ٢٩٤-٣١٥ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١: ٢٤١-٢٤٣، Schacht, J., ١٩٤٣-١٩٤٤، *El² art. Ibn Butlān III*, pp. 763-64).

^٢ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٦.

^٣ المسعودي: أخبار الزمان ٢٦.

^٤ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عهدون بن سعدون ابن بطَّان، طبيب من أهل بغداد، التي غادرها سنة ١٠٤٩هـ/١١٤٩، في رحلة زار فيها الرحبة والرافقة وحلب وأنطاكية وبغداد، وانتهت به في القاهرة حيث دخل في مناظرة مع علي بن رضوان الطييب رئيس أطباء

وقال جايغ «تاريخ دمياط»^١: وكان على تئيس رجل، يقال له أبو ثور، من العرب المتحصرة، فلما فُتحت دمياط سار إليها المسلمون، فبرز إليهم في^٢ نحو عشرين ألفاً من العرب المتحصرة والقبط والروم، وكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانتهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد، وبنا كنيستها جامعاً، وقسموا القنائم، وساروا إلى القرما^٣.

وكانت تئيس مدينة كبيرة، وفيها آثار كثيرة للأوائل، وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكّة، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا.

وكان يصنع فيها للخليفة بمصر^٤ ثوب يقال له «البدنة»، لا يدخل فيه الغزل - شداء ولحمة - غير أوقيصين، وتُنسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخروج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار. وليس في الدنيا طراز ثوب كثان يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائة دينار عتيقاً غير طراز تئيس ودمياط.

وكان النيل إذا أُطلق يشرب منه من بمشارق القرما من ناحية جزجير وفافوس، من خليج تئيس ومغايضها^٥.

وكانت تئيس^٦ من أجل مدن مصر، وإن كانت شطاً وذبقة وديرة وثوثة، وما قازيهم من تلك الجزائر، يُغفل فيها الرفيع، فليس ذلك بمقارب^٧ للتئيسي والدمياطي والشطوي^٨. وكان الحمل منها إلى بعد سنة ستين وثلاث مائة، يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدمير المال، استأصل ذلك بالتوايب.

وكان يسكن بجزيرة^٩ تئيس ودمياط نصارى تحت الذمة، وكان أهل تئيس يصيدون السحاني وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم - والسحاني طير^{١٠} يخرج من البحر فتح في تلك الشباك -، وكانت السفن تزكب من تئيس إلى القرما وهي على ساحل البحر.

(a) بولاق : فيهم . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : يقارب . (d) بولاق : بمدينة . (e) بولاق : طائر .

^١ لم يُحدد المقريري اسم جامع تاريخ دمياط ولم يشر إليه . . .

الدكتور جمال الدين الشيال في رسالته «مجموع تاريخ دمياط»، كما أنني لم أتمكن من الاضطلاع إليه، وانظر فيما يلي قبل الفقرة التي أولها: «ولما مات هارون الرشيد . . .»^٢ في بولاق توجد هنا الفقرة الواردة فيما يلي ١٧٨:١

أفلم تَزَلْ تَيْيَسُ بيدَ المُسلمين إلى أن كانت إمْرَةً بِشَرِّ بنِ صَفْوَانَ الكَلْبِيِّ على مصر، من قِبَلِ
يُزَيْدِ بنِ عبدِ الملك، في شهرِ رَمَضَانَ سنةِ إِحْدَى ومائة، فَتَزَلْ الرُّومُ تَيْيَسَ، فَقُتِلَ مُزَاجِمُ بنُ
سَلَمَةَ^(١) المُرَادِي أميرها في جَمْعٍ من المَوَالِي، وَلَهُمْ^(٢) يقولُ الشَّاعِرُ:

[الوافر]

- أَلَمْ تَزْتَفِعْ فَيُخْبِرُكَ الرَّجَالُ بِمَا لَأَقَى بَيْتَيْسَ المَوَالِي
ولمَّا مَاتَ هَارُونَ الرَّشِيدُ، وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الأَمِينُ، وَأَرَادَ العَدْرَ والثَّكُثَ بِالمَأْمُونِ،
كَانَ عَلَى مِصْرَ حَاتِمُ بنُ هَرْثَمَةَ بنِ أَهْنَيْنِ مِنْ قِبَلِ الأَمِينِ، فَلَمَّا نَازَ عَلَيْهِ أَهْلُ نَثَوٍ وَنَمِيٍّ^(٣)، بَعَثَ
إِلَيْهِمُ الشَّرِيَّ بنَ الحَكَمِ وعَبْدَ العَزِيزِ بنَ الوَازِرِ الحَزْرَوِيَّ، فَغَلَبَا البَحْثَانِيَّةَ فِي^(٤) شَوَّالِ سنةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ
ومائة^٢.

- ١٠ ثُمَّ وَلِيَ الأَمِيرُ جَابِرُ بنُ الأَشْعَثِ الطَّلَاطِي مِصْرَ، وَصُرِفَ حَاتِمُ بنُ هَرْثَمَةَ، وَكَانَ جَابِرٌ لَيْثًا، فَلَمَّا
تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ مُحَمَّدِ الأَمِينِ وَبَيْنَ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ المَأْمُونِ، وَخَلَعَ مُحَمَّدٌ أَخَاهُ مِنْ وَلَايَةِ العَهْدِ، وَتَرَكَ
الدُّعَاءَ لَهُ عَلَى المَنَابِرِ، وَعَهْدَ إِلَى ابْنِهِ مُوسَى وَلَقَبَهُ بِالشَّدِيدِ، وَدَعَا لَهُ، تَكَلَّمَ الجُنْدُ بِمِصْرَ بَيْنَهُمْ فِي
خَلَعَ مُحَمَّدٌ غَضَبًا لِلْمَأْمُونِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ جَابِرَ يُنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَيُخَوِّفُهُمْ عَوَاقِبَ الْفِتَنِ. وَأَقْبَلَ
الشَّرِيَّ بنَ الحَكَمِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى خَلَعَ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ مِمَّنْ دَخَلَ إِلَى مِصْرَ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ مِنْ جُنْدِ
الأَلِثِّ بنِ القُضَلِ، وَكَانَ خَائِبًا، فَارْتَفَعَ ذِكْرُهُ بِقِيَامِهِ فِي خَلَعَ مُحَمَّدِ الأَمِينِ. وَكَتَبَ المَأْمُونُ إِلَى
أَشْرَافِ مِصْرَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْقِيَامِ بِدَعْوَتِهِ، فَأَجَابُوهُ وَبَايَعُوا المَأْمُونُ فِي رَجَبِ سنةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ
مائة، وَوَثَّقُوا بِجَابِرٍ فَأَخْرَجُوهُ، وَوَلَّوْا عُبَادَ بنَ مُحَمَّدٍ^٣.

- ١٥ فَبَلَغَ ذَلِكَ مُحَمَّدًا الأَمِينُ، فَكَتَبَ إِلَى رُؤَسَاءِ الحَوَافِ بِوَلَايَةِ رَبِيعَةَ بنِ قَيْسِ الجَرَشِيِّ، وَكَانَ
رئيسَ قَيْسِ الحَوَافِ، فَانْقَادَ أَهْلُ الحَوَافِ كُلُّهُمْ مَعَهُ، يَمْنُهَا وَقَيْشُهَا، وَأَظْهَرُوا دَعْوَةَ الأَمِينِ وَخَلَعَ
المَأْمُونُ، وَسَارُوا إِلَى القُسْطَاطِ مُحَازِبَةً أَهْلِهَا، وَاقْتَتَلُوا فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا قَتْلَى، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَعَادُوا
مِرَازًا إِلَى الحَوَافِ.

(١) بولاق : مسلمة . (٢) بولاق : فيهم . (٣) بولاق : نثو ونمي . (٤) بولاق : بعد البعثانية من .

^٢ الكندي : ولاية مصر ١٧٣-١٧٤.

^٣ نفسه ١٧٤-١٧٥.

^١ هذه الفقرة وردت في بولاق قبل الفقرة التي تبدأ بـ:
وكانت تيس مدينة كبيرة، وهذا الخطأ نتيجة النقل عن
طيارات المقرري دون معرفة موضعها الصحيح.

فَعَقَدَ عُبَادُ بْنُ مُحَمَّدٍ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيِّ ، وَسَيَّرَهُ فِي جَيْشٍ لِجَهَارِثِ الْقَوْمِ فِي دَارِهِمْ ، فَخَرَجَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ ، وَحَارَبَهُمْ بِعَمْرِيطَ ، فَأَنْهَزَمَ الْجَزَوِيُّ ، وَمَضَى فِي قَوْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَمَجْدَامٍ إِلَى فَاقُوسَ ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ : أَلَا تَدْعُو لِنَفْسِكَ ، فَمَا أَنْتَ بِدُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَرْضِ ؟ فَمَضَى فِيهِمْ إِلَى يَثِيسَ فَتَزَلَّهَا ، ثُمَّ بَعَثَ بِعُمَالِهِ يَجِيبُونَ الْخُرَاجَ مِنْ أَشْفَلِ الْأَرْضِ .

فَبَعَثَ زَيْبَعَةُ بْنُ قَيْسَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَسَارَ أَهْلُ الْخَوْفِ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ إِلَى الْفُشْطَاطِ فَانْقَلَبُوا ، وَتَقَبَّلَ جَمْعٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ . وَبَلَغَ أَهْلُ الْخَوْفِ قَتْلُ الْأَمِينِ ، فَتَفَرَّقُوا ^١ .

وَوَلَّى لِمَرْةَ مِصْرَ مُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ مِنْ قِبَلِ الْمَأْمُونِ ، فَدَخَلَهَا فِي رَجَبِ الْأَوَّلِ ، وَوَلَّى عَبْدَ الْعَزِيزِ الْجَزَوِي شُرْطَقَةَ ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَعَقَدَ لَهُ عَلَى حَزْبِ أَشْفَلِ الْأَرْضِ ^٢ .

ثُمَّ صُرِفَ الْمُطَّلِبُ ، وَوَلَّى الْقَبَّاسُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيسَى فِي شَوَّالٍ ، فَوَلَّى عَبْدَ الْعَزِيزِ الشُّرْطَةَ .

فَلَمَّا نَارَ الْجُنْدُ ، وَأَعَادُوا الْمُطَّلِبَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ ، هَرَبَ الْجَزَوِيُّ إِلَى يَثِيسَ . وَأَقْبَلَ الْقَبَّاسُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيسَى مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْخَوْفِ ، فَتَزَلَّ يَلْبِيسَ وَدَعَا قَيْسًا إِلَى نُصْرَتِهِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْجَزَوِيِّ يَثِيسَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ دَارَ قَيْسَ ، فَرَجَعَ إِلَى يَلْبِيسَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ ، وَبِهَا مَاتَ مَشْمُومًا فِي طَعَامٍ دَسَّهُ إِلَيْهِ الْمُطَّلِبُ عَلَى يَدِ قَيْسَ ^٣ . فَذَاكَ أَهْلُ الْأَخْوَافِ لِلْمُطَّلِبِ وَبِائِثُوهُ ،

وَسَارَعُوا إِلَى جُبِّ عُمَيْرَةَ وَسَلَّمُوهُ عِنْدَمَا لَقَوْهُ ، وَبَعَثَ إِلَى الْجَزَوِيِّ بِأَمْرِهِ بِالشُّخُوصِ إِلَى الْفُشْطَاطِ ، فَاثْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَارَ فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى ^٤ شَطْثُوفَ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُطَّلِبُ الشَّرِيَّ بْنَ

الْحَكَمِ فِي جَمْعٍ مِنَ الْجُنْدِ يَشَاكُونَهُ الصُّلْحَ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي الْفُتْرِ بِهِمْ ، فَتَقَبَّلُوا لَهُ ، فَمَضَى رَاجِعًا إِلَى بَنَّا ، فَأَتْبَعُوهُ وَحَارَبُوهُ . ثُمَّ عَادَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الصُّلْحِ وَلَاطَفَ الشَّرِيَّ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ

فِي زَلَّاجَ ، وَخَرَجَ الْجَزَوِيُّ فِي بَقْلِهِ ، فَالْتَقَيَا فِي وَسْطِ النَّيْلِ مُقَابِلَ شَنْدَفَا ، وَقَدْ أَعَدَّ الْجَزَوِيُّ فِي بَاطِنِ زَلَّاجِهِ الْحِيَالَ ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِشَنْدَفَا إِذَا لَصَقَ بِزَلَّاجِ الشَّرِيَّ أَنْ يَجْرُوا الْحِيَالَ إِلَيْهِمْ ^٥ ،

فَلَصَقَ الْجَزَوِيُّ بِزَلَّاجِ الشَّرِيَّ ، فَزَبَطَهُ فِي زَلَّاجِهِ وَجَرَّ الْحِيَالَ ، وَأَسَرَ الشَّرِيَّ وَمَضَى بِهِ إِلَى يَثِيسَ

(a) بولاق : حتى نزل . (b) بولاق : إليها .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٨٠ - ١٨١ .

^٢ الكندي : ولاية مصر ١٧٧ .

^٣ انظر فيما يلي ٤٨٩ : ١ .

^٤ نفسه ١٧٨ : وانظر عن ولاية حرب أسفل الأرض

فيما يلي ٢ : المسودة .

فَسَجَنَهُ بِهَا ، وَذَلِكَ فِي جَمَادَى الْأُولَى ١ . ثُمَّ كَرَّ الْجَزَوِي وَقَاتَلَ ، فَلَقِيَتْهُ ٢ جَمْعُ الْمُطْلَب سَفْطَ سَلَيْطَ فِي رَجَب ، فَطَلَبَ ٣ .

وَلَمَّا غَزَلَ عُمَرُ بْنُ مَلَالٍ ٤ عَنْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِيِّينَ وَدَعَا لِلْجَزَوِيِّ ، فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى إِلَى مِصْرَ ، طَالِبًا بِدَمِ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ ، فِي الْحَرَمِ سَنَةَ مَائَتَيْنِ ، فَتَزَلَّ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيِّ ، فَسَارَ مَعَهُ فِي مَجْمُوشِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى نَزَلَ الْحِيزَةَ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُطْلَبُ فِي أَهْلِ مِصْرَ ، فَحَارَبُوهُ فِي صَفَرٍ ، فَزَجَعَ الْجَزَوِيُّ إِلَى شَرِيكِيهِ ، وَمَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى إِلَى الْحِجَازِ ، وَظَهَرَ الْمُطْلَبُ عَلَى أَنَّ أَبَا حَزْمَةَ فَرَجًا الْأَشُودَ هُوَ الَّذِي كَاتَبَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ مُوسَى وَخَرَضَهُ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَطَلَبَهُ فَقَرَّ إِلَى الْجَزَوِيِّ .

- وَجَدَّ الْمُطْلَبُ فِي أَمْرِ الْجَزَوِيِّ ، فَأَخْرَجَ الْجَزَوِيُّ الشَّرِيَّ بْنِ الْحَكَمِ مِنَ السَّجَنِ ، وَعَاهَدَهُ وَعَاقَدَهُ عَلَى أَنْ يَتَوَرَّعَ بِالْمُطْلَبِ وَيَخْلَعَهُ ، فَعَاهَدَهُ الشَّرِيُّ عَلَى ذَلِكَ فَأُطْلِقَهُ ، وَأَلْقَى إِلَى أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ كِتَابَاتَا ١٠ وَرَدَّ بُولَاتِهِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْجُنْدُ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَعَقَدُوا لَهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَاسْتَقْبَلَ الْمَصْرِيِّونَ مِنْ وِلَايَتِهِ ، فَتَزَلَّ دَارَهُ بِالْحُمْرَاءِ ، وَأَمَدَهُ قَيْسٌ بِجَمْعٍ مِنْهُمْ ، وَحَارَبَ الْمَصْرِيِّينَ فَهَزَمَهُمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ ، فَطَلَبَ الْمُطْلَبُ مِنْهُ الْأَمَانَ فَأَمَنَهُ ، وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ ، وَاسْتَبَدَّ الشَّرِيُّ بْنُ الْحَكَمِ بِأَمْرِ مِصْرَ فِي مَسْتَهْلَ شَهْرِ رَمَضَانَ ٣ . فَلَمَّا قَتَلَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ عُمَرَ بْنَ مَلَالٍ ٥ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، سَارَ إِلَيْهَا الْجَزَوِيُّ فِي خَمْسِينَ أَلْفًا ، فَبَعَثَ الشَّرِيَّ إِلَى يَتِيمَسَ بَغْتًا ، فَكَرَّ الْجَزَوِيُّ رَاجِعًا إِلَى يَتِيمَسَ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ إِحْدَى / وَمَائَتَيْنِ ١٥ فَلَمَّا ثَارَ الْجُنْدُ بِالشَّرِيَّ فِي رَجَبِ الْأَوَّلِ ، وَبَايَعُوا سُلَيْمَانَ بْنَ غَالِبٍ ، قَامَ عَجَّادُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَخَلَعَهُ ٤ .

- وَقَامَ بِالْأَمْرِ عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي مَسْتَهْلَ شَعْبَانَ ، فَأَمْتَنَعَ عَجَّادُ أَنْ يُبَايِعَهُ وَلَحِقَ بِالْجَزَوِيِّ ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِ أَيْضًا سُلَيْمَانُ بْنُ غَالِبٍ ، فَكَانَ مَعَهُ . وَعَادَ الشَّرِيَّ إِلَى وِلَايَةِ مِصْرَ فِي شَعْبَانَ ، وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَمَائَتَيْنِ ، ٢٠ وَرَدَّ كِتَابُ الْمَأْمُونِ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْبَيْعَةِ لَوْلِيِّ عَهْدِهِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الرُّضِيِّ ، فَتَوَرَّعَ لَهُ بِمِصْرَ . وَقَامَ فِي

(٤) بولاق : لقبه . (٥) النسخ : ملاك .

^١ سنة تسع وتسعين ومائة ؛ والزلاج نوع من القوارب .

^٢ نفسه ١٨٣ - ١٨٤ .

^٣ نفسه ١٨٢ .

^٤ الكندي : ولادة مصر ١٨٢ .

فساد ذلك إبراهيم بن المهدي ببغداد ، وكتب إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده ، وبالوثوب على الشري . فقام بذلك الحارث بن زُرعة بن قحزم^(٩) بالفسطاط ، وعبد العزيز ابن الوزير الجزوي بأشقل الأرض ، وسلعة^(١٠) بن عبد الملك الطحاوي الأزدي بالصعيد ، وغالفوا الشري ، ودعوا إلى إبراهيم بن المهدي ، وعقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ، فحاربه الشري وظفر به في صفر .

ولحق كل من كره بيعة علي رضي الجزوي ، لمنتهه يتيسر وشدة سلطانه ، فسار إلى الإسكندرية وملكها ، ودعي له بها وبلاد الصعيد . ثم سار في جمع كثير لمحاربة الشري ، واشتد كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه . فبعث إليه الشري ابنه ميمونا ، فالتقى بشعلثوف ، فقتل ميمون في جمادى الأولى سنة ثلاث ومائتين^١ . وأقبل الجزوي في سراجه إلى الفسطاط ليحرقها ، فخرج إليه أقل المسجد وسأله الكف ، فأنصرف عنها^٢ . وحارب الإسكندرية غير مرة ، وقيل بها من حجري أصابه من متجنقه في آخر صفر سنة خمس ومائتين ، ومات الشري بعده بثلاثة أشهر في آخر جمادى الأولى^٣ .

وقام بعد الجزوي ابنه علي بن عبد العزيز الجزوي ، فحارب أبا نصر محمد بن الشري - أمير مصر بعد أبيه - بشعلثوف ، ثم التقي بدمثهور ، فيقال إن القتلى بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف ، وانهزم ابن الشري إلى الفسطاط ، فقبضه سراجه ابن الجزوي ثم عادت ، فدخل أبو حرملة بينهما حتى اضطلحا^٤ . ومات ابن الشري في شعبان سنة ست ومائتين ، فولي بعده أخوه عبيد الله بن الشري ، فكف عن ابن الجزوي .

وبعث المأمون بخالده^(٥) بن يزيد بن مزلد الشيباني إلى مصر في جيش من ربيعة ، فانتقم عيذ الله بن الشري من التسليم له وماتته ، فاقتلوا بغاوس^(٦) . وانضم علي بن الجزوي إلى خالده بن يزيد ، وأقام له الأنزال وأغاثه ، وسار حتى نزل على خلدق عبيد الله بن الشري ، فاقتلوا في شهر ربيع الأول سنة سبع ومائتين ، وجزت بينهما محروب بعد ذلك آلت إلى ترفع خالده إلى أرض الحوف ، فكره ذلك ابن الجزوي ، وتمكز به حتى أخرجه من عمله إلى غربي النيل ، فنزل نهبها ،

(٩) بولاق : محرم . (ب) بولاق : مسلمة . (ج) بولاق : مخلد . (د) ساقطة من بولاق .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٩٢-١٩٣ . ^٢ نفسه ١٩٤ . ^٣ نفسه ١٩٦ . ^٤ نفسه ١٩٧ .

وَانْصَرَفَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ إِلَى تَيْسٍ ، فَصَارَ خَالِدٌ فِي شَرْءٍ وَجْهٍ ، وَعَسَكَرَ لَهُ ابْنُ الشَّرِيِّ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَسْرَهُ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ فِي الْبَحْرِ^١ .

وَبَقِيَ الْمَأْمُونُ بِوِلَايَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّرِيِّ عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَهُوَ قُشَطَاطُ مِصْرَ وَصَعِيدُهَا وَغَرِيبُهَا ، وَبِوِلَايَةِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيِّ تَيْسٍ مَعَ الْخَوْفِ الشَّرْقِيِّ وَصَنْعَتِهِ خَرَاجِهِ . وَأَقْبَلَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ عَلَى اسْتِخْرَاجِ خَرَاجِهِ مِنْ أَهْلِ الْخَوْفِ ، فَمَانَعُوهُ وَكَتَبُوا إِلَى ابْنِ الشَّرِيِّ بِشَتْمِهِ عَلَيْهِ ، فَأَمَدَّهُمْ بِأَخِيهِ ، فَاتَّقَى بِكُورَةَ بَنَّا فِي ثُلَيْثَةِ ، فَاقْتَتَلُوا فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَمِائَتَيْنِ ، وَامْتَدَّتْ الْحَرْبُ^٢ بَيْنَهُمَا إِلَى أَثْنَاءِ رَجَبِ الْأَوَّلِ وَهُمْ مُتَنَصِّفُونَ .

فَانْصَرَفَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ فِيمَنْ مَعَهُ إِلَى دِمَاطٍ ، فَسَارَ ابْنُ الشَّرِيِّ إِلَى مَحَلَّةِ شَرِيقُونَ وَنَهَبَهَا ، وَبَقِيَ إِلَى تَيْسٍ وَدِمَاطٍ فَغَلَبَهُمَا . وَلَحِقَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ بِالْقَرَمَا ، وَسَارَ مِنْهَا إِلَى الْغَرِيشِ ، فَتَزَلَّ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَزَّةَ ، ثُمَّ عَادَ وَأَغَارَ عَلَى الْقَرَمَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ ، فَقَرَأَ أَصْحَابُ ابْنِ الشَّرِيِّ مِنْ تَيْسٍ .

وَسَارَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ إِلَى شَطْطُوفَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ الشَّرِيِّ . وَاقْتَتَلَا ، فَكَانَتْ لَابْنِ الْجَزَوِيِّ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ، ثُمَّ أَتَاهُ كَمِئُ ابْنِ الشَّرِيِّ فَانْهَزَمَ ، وَذَلِكَ فِي رَجَبٍ ، فَمَضَى إِلَى الْغَرِيشِ ، وَسَارَ ابْنُ الشَّرِيِّ إِلَى تَيْسٍ وَدِمَاطٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ ، فِي الْحَرَمِ سَنَةَ عَشْرٍ وَمِائَتَيْنِ ، وَمَلَكَ تَيْسٍ وَدِمَاطٍ بِغَيْرِ قِتَالٍ ، فَبَقِيَ إِلَيْهِ ابْنُ الشَّرِيِّ الْبُخُوثُ ، فَحَارَبَهُمْ^٣ .

فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ قَلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ ، فَتَلَقَاهُ ابْنُ الْجَزَوِيِّ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْزَالِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ وَتَزَلَّ مَعَهُ بِبَلَيْسٍ ، فَامْتَنَعَ ابْنُ الشَّرِيِّ وَدَافَعَ ابْنُ طَاهِرٍ ، فَتَرَاخَى لَهُ ، وَبَقِيَ فَبَجَى الْمَالَ ، وَتَزَلَّ رِفْقَى ، وَبَقِيَ إِلَى شَطْطُوفَ بِعِيسَى الْجَلُودِيِّ عَلَى جِسْرِ عَقْدِهِ مِنْ رِفْقَى ، وَجَعَلَ ابْنُ الْجَزَوِيِّ عَلَى شَفْنِهِ الَّتِي جَاءَتْهُ مِنَ الشَّامِ لِمَعْرِفَتِهِ بِالْحَرْبِ ، فَهَزَمَ مَرَاكِبَ ابْنِ الشَّرِيِّ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ . وَصَالَحَ ابْنُ طَاهِرٍ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ الشَّرِيِّ فِي صَفَرٍ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَجَازَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارًا ، وَأَمَرَهُ^٤ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَسَكَنَتْ فِتْنُ مِصْرَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ^٥ .

(١) بولاق : الحروب . (٢) بولاق : وأمره .

^٣ نفسه ٢٠٤-٢٠٥ .

^١ الكندي : ولادة مصر ١٩٨-٢٠١ .

^٢ نفسه ٢٠١-٢٠٣ .

وفي سنة سبع وسبعين وثلاث مائة، وَلَدَتْ بَيْتِيسُ مِغْزَى جَذِيًّا لَهُ قُرُونٌ عِدَّةٌ، وَرَأْسُهُ مَعَ صَدْرِهِ، وَبَدَنُهُ وَمَقْدَمُهُ بَصُوفٌ أَيْضُ، وَمُؤَخَّرُهُ بَشَرٌ أَسْوَدُ، وَذَنْبُهُ ذَنْبُ شَاةٍ. وَوَلَدَتْ امْرَأَةً سَخْلَةً^(٥) لَهَا رَأْسٌ مُدَوَّرٌ، وَلَهَا يَدَانِ وَرِجْلَانِ وَذَنْبٌ.

ولثلاث بقين من ذي الحجة من هذه السنة، حَدَثَ بَيْتِيسُ رَعْدًا وَبَرَقًا شَدِيدَةً وَشَوَّادًا عَظِيمًا فِي الْجَوِّ. ثُمَّ ظَهَرَ وَقَتَ الشَّحَرِ فِي السَّمَاءِ عَمُودٌ نَارِ احْمَرَّتْ مِنْهُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أَشَدَّ حُمْرَةً، وَخَرَجَ غُبَارٌ كَادَ أَنْ^(٦) يَأْخُذَ بِالْأَنْفَاسِ، فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الرَّابِعَةِ مِنَ النَّهَارِ حَتَّى ظَهَرَتْ الشَّمْسُ، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى^(٧) خَمْسَةِ أَيَّامٍ.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة، خَضِرَ عِنْدَ قَاضِي بَيْتِيسَ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الدُّبُسِ^(٨) رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ، فَطَالَبَتِ الْمَرْأَةُ الرَّجُلَ بِقَرْضٍ وَاجِبٍ عَلَيْهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: تَزَوَّجْتُ بِهَا مِنْذُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَوَجَدْتُ لَهَا مَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلنِّسَاءِ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا الْقَاضِي امْرَأَةً تُشْرِفُ عَلَيْهَا، فَأَخْبَرَتْ أَنَّ لَهَا قَوْقُ الْقَبْلِ ذَكَرًا بِخَصِيَّتَيْنِ وَالْفَرْجَ نَحْمًا وَالذَّكَرَ أَقْلَفَ^(٩)، وَأَنَّهَا رَائِعَةُ الْحُسْنِ، فَطَلَّقَهَا الزَّوْجَ.

قال أبو عُمر الْيَكْنُودِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو نَضْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: حَدَّثَنِي بِسْ بِنُ عَبْدِ الْأَعْدَى قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: لَمَّا دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ مِصْرَ، كُنْتُ فِيمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَهْمَةَ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ عَنْ ثُبَيْعٍ^(١٠)، قَالَ: يَا أَهْلَ مِصْرَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا كَانَ فِي بَلَدِكُمْ فِتْنٌ، فَوَلَّيْتُكُمْ فِيهَا الْأَعْرَجَ ثُمَّ الْأَصْفَرَ ثُمَّ الْأَمْرُذَ، ثُمَّ بَاتَنِي رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ، لَا يُدْفَعُ وَلَا يُمْتَنَعُ، تَبْلُغُ رِايَتُهُ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ، يَمْلَأُهَا عَذَلًا. فَقَدْ^(١١) كَانَ ذَلِكَ، كَانَتِ الْفِتْنَةُ فَوَلَّيْتُهَا الشَّرِيَّ وَهُوَ الْأَعْرَجُ، وَالْأَصْفَرُ ابْنُ أَبِي النَّضْرِ، وَالْأَمْرُذُ غُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ الشَّرِيَّ، وَأَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ^(١٢).

ثم إنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ سَارَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَأَصْلَحَ أَمْرَهَا، وَأَخْرَجَ ابْنَ الْجَزَوِيِّ إِلَى الْعِرَاقِ. ثُمَّ قَلِمَ بِهِ الْأَفْشِينَ إِلَى مِصْرَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ، وَقَدْ أَمَرَ الْأَفْشِينَ أَنْ يُطَالِبَهُ

(٥) كلمة غير واضحة بالنسخ. (ب) بولاق: ودخان. (ج) ساقة من بولاق. (د) بولاق: الرمس. (هـ) بولاق: سبيع. (ز) بولاق: فقال.

^١ هو المعروف بالجنس الأمروديسي أو الحشى المشكل. ^٢ الكندي: ولاية مصر ٢٠٦.

بالأموال التي عنده ، فإن دَفَعَهَا إِلَيْهِ وَالْأَقْلَهُ ، فَطَالَبَهُ فَلَمْ يَذْفَعْ إِلَيْهِ شَيْئًا ، فَقَدِمَهُ بَعْدَ الْأَضْحَى بِثَلَاثِ فَعْتَلَهُ .

وفي جمادى الآخرة^(٥) سنة تسع عشرة ومائتين ، ناز يحيى بن الوزير في يَثِيسَ ، فمَكَرَجَ إِلَيْهِ الْمُظَفَّرُ بْنُ كَيْدَرٍ^(٦) أمير مصر ، فقاتله في بُحَيْرَةِ يَثِيسَ وأسَرَهُ ، وتفرق عنه أصحابه^(٧) .

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين ، أَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِنَاءَ جِصْنٍ عَلَى الْبَحْرِ بِيَثِيسَ ، فَقَتَلَى عِمَارَتَهُ عَثْبَسَةَ بْنَ إِسْحَاقَ أمير مصر ، وَأَتَّفَقَ فِيهِ وَفِي جِصْنٍ دُمِيَاطَ وَالْقَرَمَا مَالًا عَظِيمًا^(٨) .

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين ، عَذَّبَتْ بُحَيْرَةُ يَثِيسَ صَبِيغًا وَبِشَاءً ، ثُمَّ عَادَتْ وَلَمَّا صَبِيغًا وَشِثَاءً . وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تُقِيمُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَذْبَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ مَالِحَةً .

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة^(٩) ، وَصَلَتْ مَرَاكِبُ مِنْ صِبْغِيَّةٍ^(١٠) ، فَتَهَبَّؤُوا مَدِينَةَ يَثِيسَ^(١١) .

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاث مائة ، صِيدَ بِأَشْشُومَ يَثِيسَ حُوتٌ طَوْلُهُ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا^(١٢) وَنِصْفٌ ، مِنْ ذَلِكَ طَوْلُ رَأْسِهِ تِسْعَةُ أَذْرُعَ ، وَدَائِرُ بَطْنِهِ مَعَ ظَهْرِهِ خَمْسَةُ عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَقَتْحَةُ فِيهِ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ شَيْبَرًا ، وَعَرْضُ ذَنْبِهِ خَمْسَةُ أَذْرُعَ وَنِصْفٌ ، وَلَهُ يَدَانِ يَجْدَفُ بِهِمَا ، طَوْلُ كُلِّ يَدٍ ثَلَاثَةُ أَذْرُعَ ؛ وَهُوَ أَمْلَسُ أَغْبَرُ غَلِيظُ الْجِلْدِ ، مُخَطَّطُ الْبَطْنِ بِيَاضٍ وَسَوَادٍ ، وَلِسَانُهُ أَحْمَرٌ ، وَفِيهِ خَمَلُ الرِّيشِ طَوْلُهُ نَحْوُ الذَّرَاعِ يَعْمَلُ مِنْهُ أَقْمَاشُ تُشَبِّهُ الدَّلِيلَ ، وَلَهُ عَيْنَانِ كَعَيْنِي الْبَقَرِ ؛ فَأَمَرَ أَمِيرُ يَثِيسَ أَبُو إِسْحَاقَ ابْنَ تَوَيْتَةَ بِهِ ، فَشَقَّ بَطْنَهُ وَمُلَّحَ بِمَاءَةٍ إِذْذَبَ مِلْحَ ، وَرَفَعَ فَكَّهُ الْأَعْلَى بِغُودٍ حَشَبَ طَوِيلٍ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ إِلَى جَوْفِهِ يَقِفَافُ الْمِلْحِ وَهُوَ قَائِمٌ غَيْرُ يَنْحَنٍ ، وَحُمِلَ إِلَى الْقَصْرِ حَتَّى يَرَاهُ^(١٣) الْعَزِيزُ بِاللَّهِ^(١٤) .

(٥) الكتدي: جمادى الأولى . (٦) بولاق: كندر . (٧) جميع النسخ: وثلاث مائة . (٨) د بعد ذلك عند ابن الأثير: فيها جمع من الفرج . (٩) بولاق: رآه .

^١ الكتدي: ولاية مصر ٢١٨ .
^٢ نفسه ٢٢٧ .

^٣ هذا الخبر أورده ابن الأثير بنفس الصيغة في حوادث سنة ٥٤٨ هـ (وهو في الأصل هنا ٣٤٨ هـ) وهو خطأ من المقرئ في ترتيب سبائك الأحداث (الكامل في التاريخ ١٩٠: ١١) ، وصحته أن يرد قبل الخبر الذي يذكر وصول شواني صقلية إلى تيس سنة ٥٧١ هـ .

^٤ هذا الخبر أورده ابن إياس ، ولكن جعله في سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة ، نقلًا عن كتاب عجائب العجائب وغرائب الغرائب لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ابن أبي بكر التلمساني المعروف بابن أبي محجلة ، المتوفي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م ، رواية عن الشيخ أبي القاسم عبد المجيد القرشي (بدائع الزهور ١/ ١٩٥) .

وفي ليلة الجمعة ، ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعين^(a) وثلاث مائة ، شاهد أهل يثيس تسعة أعمدة من نار تلتهب في آفاق السماء من ناحية الشمال ، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون الله تعالى حتى أصبحوا ، وخفيت^(b) تلك النيران^١ .

وفيهما صيدٌ ببخيرة يثيس حوت طوله ذراع ، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر على صورة أسد ، ويداه في صدره بمخالب^(c) ، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر ، فحمل إلى القاهرة .

وفي سنة سبع وسبعين^(a) وثلاث مائة ، ولدت جارية يتقا برأسين : أحدهما بوجه أبيض منزل^(d) ، والآخر بوجه أشمر فيه شهولة ، في كل وجه عينا ، فكانت ترضعهما . وكلاهما متركب على عنق واحد في جسد واحد يذنب ورجلين ورج وذئب ؛ فحملت إلى العزيز حتى رآها ، وهب لأمرها جملة ، ثم عادت إلى يثيس وماتت بعد شهر^٢ .

وفي سنة إحدى وسبعين وخمس مائة ، وصل إلى يثيس ، من شواني صقلية ، نحو أربعين موكبا ، فحصرها يومين وألقوا . ثم وصل إليها من صقلية ، في سنة ثلاث وسبعين أيضا ، نحو أربعين موكبا ، فقاتلوا أهل يثيس حتى ملكوها . وكان محمد بن إسحاق صاحب الأسطول قد جيل بينه وبين مراكبه ، فتخبر في طائفة من المسلمين إلى مصلى يثيس ، فلما أجنهم الليل هجم بمن معه البلد على الفرج وهم في غفلة ، فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم ، فأصبح الفرج إلى المصلى ، وقاتلوا من بها من المسلمين ، فقتل من المسلمين نحو السبعين ، وسار من بقي منهم إلى دمياط . فمال الفرج على يثيس ، وألقوا فيها النار فأحرقوها ، وساروا - وقد انثلت أيديهم بالغنائم والأشرى - إلى جهة الإسكندرية بعدما أقاموا يثيس أربعة أيام^٣ .

ثم لما كان في^(e) سنة خمس^(f) وسبعين وخمس مائة ، نزل فرنج عسقلان ، في عشر حراريق^٤ ،

(a) بولاق : وسعين . (b) بولاق : فحبت . (c) بولاق : بمخالب . (d) بولاق : مستدير . (e) بولاق : لا كانت . (f) بولاق : ست .

^١ ابن عباس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٥ وفيه أن ذلك كان في سنة ثمان وسبعين .
^٢ نفسه ١/١ : ١٩٤ - ١٩٥ .
^٣ لم يذكر المقرئ في هذه الحوادث في السلوك !

^٤ عوالة ج . حراريق وعوالات : نوع من السفن الحربية التي تستخدم للرمي بالنيران والثقل بفرض إحراق السفن العدو ، وهي تلي الشواني في الأهمية ، وكانت من لواحق المراكب الحربية الكبيرة التي لا تسير بدونها حماية لها .

على أَعْمَالِ ثِيَس ، وعليها رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الْفَرَّ^(٥) ، فَأَسَرَّ جَمَاعَةً . وَكَانَ عَلَى مِصْرَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوشَفَ عِنْدَمَا سَارَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ . ثُمَّ مَضَى الْفَرَّ^(٥) ، وَعَادَ فَأَسَرَّ وَنَهَبَ ، فَارَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَقَاتَلُوهُ ، فَظَفَرَهُمْ / اللَّهُ بِهِ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ، وَقَطَعُوا بِيَدِهِ وَرَجْلَيْهِ ، وَصَلَبُوهُ .

- وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، انْتَدَبَ السُّلْطَانُ لِمِمَارَةِ قَلْعَةِ ثِيَسَ وَتَجْدِيدِ الْآلَاتِ بِهَا ، عِنْدَمَا اسْتَدَّ خَوْفُ أَهْلِ ثِيَسَ مِنَ الْإِقَامَةِ بِهَا ، فَقَدَّرَ لِمِمَارَةِ سُورِهَا الْقَدِيمِ - عَلَى أَسَاسَاتِهِ الْبَاقِيَةِ - مَبْلَغَ ثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ عَنْ ثَمَنِ أَصْنَافٍ وَأَجْمَرُ^١ .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة ، كُتِبَ بِإِخْلَاءِ ثِيَسَ وَنَقَلَ أَهْلُهَا إِلَى دِمِياطَ ، فَأُخْلِيَتْ فِي صَفَرٍ مِنَ الدَّرَارِيِّ وَالْأَقْقَالِ ، وَلَمْ يَبْقَ بِهَا سِوَى الْمُقَاتِلَةِ فِي قَلْعَتِهَا^٢ .

- ١٠ وفي شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، أَمَرَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُؤْتَبَرَ بِهَذِهِ مَدِينَةِ ثِيَسَ ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُدُنِ الْجَلِيلَةِ ، تُغْتَلُ بِهَا الثِّيَابُ الشَّرْبُ^(ب) ، وَتُضَمَّعُ بِهَا كُثُوفَةُ الْكَفْتَةِ^٣ .

قال الفَاكِيهِيُّ فِي كِتَابِ «أَنْخَبَارِ مَكَّةَ» : وَرَأَيْتُ كُثُوفَةً مِمَّا يَلِي الرُّكْنَ الْغَرْبِيَّ - يَعْنِي مِنَ الْكَفْتَةِ - مَكْتُوبًا عَلَيْهَا :

- ١٥ وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ الشَّرِيفُ بْنُ الْحَكَمِ وَعَبْدُ الْقَزِيزِ بْنُ الْوُزَيْرِ الْجَزَوِيُّ ، بِأَمْرِ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ وَطَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ^٤ .
وَرَأَيْتُ شِقَّةً مِنْ قِبَاطِيٍّ^٥ مِصْرَ فِي وَسْطِهَا ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَتَبُوا فِي أَرْكَانِ الْبَيْتِ بِحُطٍّ ذَقِيقٍ أَسْوَدَ :
«مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْمِنُونَ سَنَةَ سِتِّ وَمِائَتَيْنِ» .

(٥) كَلِمَةٌ فِي الْأَصْلِ ، وَفِي بَوَلَقِ الْمَرْزُوقِ اسْمٌ غَيْرُ وَاضِعٍ . (ب) بَوَلَقٌ : الشَّرْبَةُ .

«وَأَسْتَخْدَمَ هَذَا النَّوعَ مِنَ السَّفِينِ الْحَرَبِيَةِ بِكَثْرَةٍ فِي مِيَاهِ الْبَحْرِ حَتَّى لَا تَقَعَ فِي أَيْدِي الْفَرَجِ ، وَفِيمَا يَلِي ٤٩١ .
الْمُتَوَسِّطِ فِي زَمَنِ الْحُرُوبِ الصَّلَاحِيَةِ (دُرُوبِشِ النَخْلِيِّ) : السَّفِينُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ ٣٢-٣٧ .

^١ الْمَقْرِزِيُّ : السُّلُوكُ ١ : ٧٢ .

^٢ نَفْسُهُ ١ : ١١١ .

^٣ نَفْسُهُ ١ : ٢٢٤ ؛ ابْنُ دِقْمَاقٍ : الْإِنْتِصَارُ ٧٩ : ٥ وَذَلِكَ الْفَاطِمِيَّةُ فِي مِصْرَ ٤٧٣ .

حَتَّى لَا تَقَعَ فِي أَيْدِي الْفَرَجِ ، وَفِيمَا يَلِي ٤٩١ .
^٤ انْظُرْ فِيهَا يَلِي ٦١٢ .

^٥ الْقِبَاطِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَقْبَاطِ مِصْرَ . نَسِيجٌ يَتَّخِذُ بَانَ زَعَارِفَهُ لِيَكُونُ مِنَ الْحِمَاتِ غَيْرِ مُتَمَلِّدَةٍ فِي عَرْضِ الْمَسْجُودِ وَغَيْرِ مَنْطِقَةٍ وَبِعَرَفٍ أَيْضًا بِ«التَّبَسْتَرِي Tapestry» (أَيْمَنُ فَوَادٍ : الدُّوَلَةُ

ورأيت كُشوة من كُسا المهدي مكتوبة عليها :

«بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَه من الله لَعَبْدُ اللَّهِ الْمَهْدِي مُحَمَّدٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَطَالَ اللَّهُ
بِقَائِهِ ، يَمَّا أَمَرَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِدْرِيسٍ أَنْ يُصْنَعَ^(أ) فِي طَرِازِ يَتِيمٍ ، عَلَى يَدَيِ
الْحَكَمِ بْنِ عُثَيْدَةَ سَنَةِ اثْنَيْنِ وَسِتِينَ وَمِائَةٍ .

• ورأيت كُشوة من قباطي مصر مكتوبة عليها :

«بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَه من الله ، يَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ الْمَهْدِي مُحَمَّدٌ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ ، أَصْلَحَهُ اللَّهُ ، مُحَمَّدُ بْنُ شَلِيمَانَ أَنْ يُصْنَعَ^(ب) فِي طَرِازِ يَتِيمٍ كُشوة
الْكُتَيْبَةِ ، عَلَى يَدَيِ الْخَطَّابِ بْنِ مَسْلُكَةَ عَامِلِهِ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ^(١) .

قال المصنف في حوادث سنة أربع وثمانين وثلاث مائة : وفي ذي القعدة وَرَدَ بِحِصْنِ بْنِ الْيَمَانِ
من يَتِيمٍ وَدُمِيَّاطٍ وَالْفَرَمَا بِهَيْدِيَّتِهِ ، وَهِيَ أَشْفَاطٌ وَتُخُوتٌ وَصَنَادِقُ مَالٍ ، وَخَيْلٌ وَبَغَالٌ وَخَمِيرٌ ،
وثلث مِظَالٌ ، وَكُشُوتَانِ لِلْكُتَيْبَةِ^(٢) .

وفي ذي الحجة سنة اثنتين وأربع مائة ، وَرَدَتِ هَدِيَّةُ يَتِيمٍ الْوَارِدَةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ : مِنْهَا خَمْسُ
نُوقٍ مُزَيَّنَةٍ ، وَمِائَةُ رَأْسٍ مِنَ الْخَيْلِ بِشُرُوجِهَا وَلُحْمُهَا ، وَتَجَافِيْفٌ وَصِيَاغَاتُ^(ب) عِدَّةٍ ، وَثَلَاثُ قِيَابٍ
ذِيْقِيَّةٍ بِمَرَاتِبِهَا ، وَخَنُجُوقَاتٍ وَبُثُودٍ ، وَمَا يَجْزِي الرُّشْمُ بِحَمْلِهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْمَالِ وَالْبَرِّ .

وَلَمَّا قُبِدَتْ^(ج) الْحَاكِمُ ، اسْتَدْعَتْ أُخْتَهُ السَّيِّدَةَ سَيِّدَةَ الْمَلِكِ ، إِلَى عَامِلِ يَتِيمٍ عَنِ الْحَاكِمِ ، بِأَنْ
يَحْمِلَ مَالًا كَانَ اجْتَمَعَ قَبْلَهُ ، وَيَتَعَجَّلَ تَوْجِيهِهِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ وَأَلْفِي أَلْفٍ دِرْهَمٍ ،
اجْتَمَعَتْ مِنْ ارْتِفَاعِ الْبَلَدِ لثَلَاثَ سِنِينَ ، وَأَمَرَهُ الْحَاكِمُ بِتَوَكُّفِهَا عَنْهُ فَحَمَلَ ذَلِكَ إِلَيْهَا ، وَهوَ
اسْتَعَانَتْ عَلَى مَا ذُكِرَتْ^(٣) .

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، وَرَدَ الْخَبَرُ عَلَى الْخَلِيفَةِ الظَّاهِرِ لِإِغْرَازِ دِينَ اللَّهِ أَبِي هَاشِمٍ
عَلِيِّ بْنِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، أَنَّ السُّودَانَ وَغَيْرَهُمْ ثَارُوا بِيَتِيمٍ وَطَلَبُوا أَرْزَاقَهُمْ ، وَصَيَّقُوا عَلَى الْعَامِلِ

(أ) الأصل : بن يصبح . (ب) بولاق : صناعات . (ج) بولاق : قدم .

^١ لم أجد هذا النص ولا النص الآتي بعد قليل فيما نشره الحنفا ١: ٢٨٣؛ وفيما يلي ١: ٢٩٢ .

^٢ نفسه ٣٠؛ نفسه ٢: ٩١ .

^٣ المسيحي : نصوص ضائعة ١١٤ المقرري : انعاظ

حتى هرب ، وأنهم عاثوا في البلد وأفسدوا ، ومدوا أيديهم إلى الناس ، وقطعوا الطرقات ، وأخذوا من المذبح ألفاً وخمسة مائة دينار . فقام الجزيراني وقعد ، وقال : كيف يُفعل هذا بخزائن السلطان ؟ وسأنا فعل هذا بتيس أو بيت المال ، وسهر خمسين فارساً للقُبض على الجناة ^١ .

وما زالت تيس مدينة عامرة ، ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ، ولا أحسن من عمارتها ، إلى أن غرقتها الملك الكايل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب ، في سنة أربع وعشرين وست مائة ، فاستمرت خراباً ، ولم يبق منها إلا رؤسها في وسط البحيرة ^٢ .

وكان من مجلّة كورة تيس : بُورا ، وعناها ^٣ ، وأهوان ، وشطّا . ويُخبرتها الآن يُصاد منها السمك ، وهي قليلة الغنق يُسار فيها بالمعادي ، وتلتقي الشفتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واجدة ، وقُلّع كل واجدة منهما مملوءة بالريح ، سيّرها في الشرعة مُشتري .

وهو وسط ^٤ البحيرة عدّة جزائر تُعرف اليوم بالعُزْب (جمع عُزْبَة بضم العين المهملة وزاي ثم باء مؤنّدة) ، يسكنها طائفة من الصيادين وفي بعضها ملاحات يُؤخذ منها مِلْع غَدَبٌ لذيد مُلوحة ، وماؤها مِلْع وقد يخلو أيام النيل .

ثوثة : وكان من مجلّة مُعاملة ^٥ مدينة تيس قرية يُقال لها ثوثة ، يُعمل بها طراز تيس ، ويُصنع بها من مجلّة الطراز كُسوة الكعبة أحياناً ^٦ .

قال الفاكهي : ورأيت أيضاً كُسوة لهازون الرشيد ، من قبايطي مصر ، مكتوباً عليها :
« بِسْمِ اللَّهِ ، بِرَكَّةً مِنْ اللَّهِ لِلْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ عَبْدِ اللَّهِ هَازُونَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ ، بِمَا أَمَرَ بِهِ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ أَنْ يُعْمَلَ فِي طِرَازِ ثَوْتَةٍ
سَنَةِ تِسْعِينَ وَمِائَةً ^٧ .

(a) بولاق : منها . (b) بولاق : توسط . (c) بولاق : عمل .

^١ المسيحي : أخبار مصر ١٥٧ القريري : اعطاء الخنفا ١٥٧:٢ .

^٢ الثوري : نهاية الأرب ١٣٩:٢٩ - ١٤٠ : ابن دقماق : الانتصار ٧٩:٥ : القريري : السلوك ٢٢٤:١ .

^٣ ثوثة : يدل على موقعها اليوم الجزيرة التي تعرف بجزيرة سيدي عبد الله بن سلام الواقعة في بحيرة المنزلة شرقي
^٤ لم أشر على هذا النص فيما نشره واستفاد من تاريخ الفاكهي .

بلدة المطرية وعلى بعد أربعة كيلومترات منها ، ولا تزال آثار
أطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة باسم كوم ابن سلام
(بالقوت : معجم البلدان ١: ٦٦٢ ابن دقماق : الانتصار
١٧٩:٥ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ١٩٨ - ١٩٩
(Maspero & Wiet, Matériaux p. 61 .

مفتاي: قَوْنَة من قُرَى تَيْس، غَلَبَتْ عليها بُحَيْرَة تَيْس فصارت جزيرة^١. فلما كان في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وثمان مائة، كُشِفَ عن حِجَارَة وأَجْر بها، فإذا غُضَارَات^(a) رُجَاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المَعز لدين الله، وعلى بعضها اسم الإمام العزيز بالله زار، ومنها ما عليه اسم الإمام الحَاكِم بأمر الله، ومنها ما عليه اسم الإمام الظَّاهر لإعزاز دين الله، ومنها ما عليه اسم المُستَئْصِر، وهو أَكْثَرُهَا، أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ من شَاهِدَهُ وَرَّاهُ.

ثورا: كانت فيما بين تَيْس ودمياط، وإليها يُنسَب السَّمَك الذي يُقال له «الثوري»، وإليها يُنسَب/ أيضًا بنو الثوري الذين كانوا بالقاهرة والإسكندرية^٢.

وفي سنة عشر وست مائة، وَصَلَ القُدُّو إليها بشَوَانِيهِ وسَبَاهَا، فَقَدِمَتْ إليها القَطَائِلُ التي كانت علي رَشِيد، فسَارَ عنها القُدُّو^٣.

القَلْس^(b) - بَقَّتْ القاف وبعدها سين مهمل - : بَلَدٌ يُنسَب إليها الثِّيَابُ القَسِيَّةُ، أَنَاثُهَا إلى اليوم باقية على البحر المِلْح فيما بين السَّوَادَة والزَّوَادَة، وبُعْدَهَا من مَدِينَةِ القَرَمَا قَرِيب من ستة بُرُود في البر^٤.

(a) بولاق: عضادات. (b) بولاق: القيس.

Albert Museum, London - V & A Publications
1998, pp. 104-108؛ أمين فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر
٦٣٩-٦٤٠) ولم يذكر المقرئ هذا الخبر في السلوك.

^٢ ثورا ويقال أيضًا بوره. مدينة قديمة كانت تقع على الشاطئ الغربي لفرع دمياط، ومكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ إحدى قرى مركز شربين بمحافظة الغربية على بعد سبعة كيلومترات جنوب غرب دمياط وتبعد عن ساحل البحر المتوسط مسافة ثمانية كيلومترات. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١٧٦٦:١-١٧٩).

^٣ المقرئ: السلوك ١٩٠:١.

^٤ القَلْس. أحد المدن الساحلية الشرقية القديمة ضمن أرض الخمار بين القَرَمَا والعرش، يعرف موضعها اليوم باسم القَلْس على ساحل البحر المتوسط شمال شرقي محطة جر القند (باقوت: معجم البلدان ٣٤٦:٤-٣٤٧؛ محمد =

^١ وترد في المصادر بالصيغ الآتية: سمناء وسمناءه، كانت تقع في جزيرة بحيرة المنزلة والذئرت الآن، ويدل على موقعها جزيرة كوم الذهب الواقعة في البحيرة شرقي بلدة فارسكور وعلى بعد ١١ كيلومترًا منها (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢٨١:١).

^٢ الفُضَارَات، هي الصُّنُج الزجاجية التي تستخدم كعمارات وزن وكيل ويطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة، أو لتحديد وزن الدنانير والدراهم (راجع، Jungfleisch, H., «Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar», *BIE XXXIII* (1950-51), pp. 539-74; Balog, P. «Fatimid Glass Jetons: Token Currency or Coin - Weights?», *JESHO XXIV* (1981), pp. 93-104; id., «The Fatimid Glass Jeton», *Annali Dell'Istituto Italiano* 18-19 (1971-72), pp. 175-264, 20 (1973), pp. 121-212, Contadini, A., *Fatimid Art at the Victoria and*

وهناك تَلٌّ عَظِيمٌ من رَمْلٍ خَارِجٍ فِي الْبَحْرِ الشَّامِيِّ ، يَتَقَطَّعُ الْفِرْنَجُ عِنْدَهُ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَازَةِ ،
وَبِالْقُرْبِ مِنَ التَّلِّ سَبَاخٌ ، يَبْنِي فِيهِ مَلْعٌ يَحْمِلُهُ الْقُرْبَانُ إِلَى غَزَّةَ وَالْوَلْمَةَ ، وَبِقُرْبِ هَذَا السَّبَاخِ أَبَاؤُ
يُزْرَعُ عِنْدَهَا مَقَاتِي الْقُرْبَانِ تِلْكَ الْبَوَادِي .

دَيْرُ مَدِينَةِ صَا

- قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٌ : وَلَمَّا قَسَمَ قُبْعِيمُ بْنُ مِصْرَايِمَ الْأَرْضَ بَيْنَ أَشْمُونَ^(a) وَأَثَرِبٍ وَقَطَعَ وَصَا ،
انْتَقَلَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى قِسْمِهِ وَخَيْرِهِ ، فَخَرَجَ صَا بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَخَشِيهِ إِلَى خَيْرِهِ - وَهُوَ بَلَدُ الْبَحِيرَةِ
وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ - حَتَّى أَتَاهُ^(b) إِلَى بَرْقَةِ^(c) ، وَنَزَلَ مَدِينَةَ صَا قَبْلَ أَنْ تُبْنَى الْإِسْكَندَرِيَّةُ . وَكَانَ صَا
أَصْغَرَ وَلَدِ أَبِيهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا مَلَكَ خَيْرُهُ أَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي الْعِمَارَاتِ وَبِنَاءِ الْمَدَائِنِ وَالْجُلْدَانِ
وَالْهَيْكَلِ ، وَأَظْهَرَ الْعَجَائِبَ ، كَمَا صَنَعَ إِخْوَتُهُ ، وَطَلَبَ الزِّيَادَةَ فِي ذَلِكَ .
- ١٠ وَكَانَ^(d) مَرْهُونُ الْهِنْدِيِّ^(e) صَاحِبُ بِنَائِهِ^(f) ، فَبَنَى لَهُ^(g) مِنْ حَدِّ صَا إِلَى حَدِّ لُؤَيْيَةِ وَمَرَاتِيَةِ عَلَى
الْبَحْرِ أَعْلَامًا ، وَجَعَلَ عَلَى رُؤُوسِ تِلْكَ الْأَعْلَامِ مَرَاتِيٍّ مِنْ أَخْلَاطِ شَتَّى : فَكَانَ مِنْهَا مَا يَمْتَنِعُ مِنَ
دَوَابِّ الْبَحْرِ وَأَذَاهَا ، وَمِنْهَا مَا إِذَا قَصَدَهُمْ غَدُوٌّ مِنَ الْجَزَائِرِ وَأَصَابَهَا الشَّمْسُ ، أَلْقَتْ شُعَاعًا عَلَى
مَرَاكِبِهِمْ فَأَحْرَقَتْهَا . وَمِنْهَا مَا يَرَى الْمَدَائِنَ الَّتِي تُحَاطَبُ مِنْ غَدَوَةِ الْبَحْرِ وَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُهَا . وَمِنْهَا مَا
يُنْظَرُ مِنْهَا^(h) إِلَى إِفْلِيمِ مِصْرَ ، فَيَعْلَمُ مِنْهُ مَا يَخْصُصُ وَمَا يَجْعَدُ فِي كُلِّ سَنَةٍ .
- ١٥ وَجَعَلَ فِيهَا حُكَّامَاتٍ تَقْدُ مِنْ نَفْسِهَا ، وَجَعَلَ مُسْتَشْرِقَاتٍ وَمُسْتَشْرَهَاتٍ . وَكَانَ يَنْزِلُ كُلُّ يَوْمٍ
مِنْهَا فِي مَوْضِعٍ بَيْنَ يَخْصَصُهُ مِنْ خَدْمِهِ وَخَشِيهِ ، وَجَعَلَ حَوْلَهَا بَسَاتِينَ ، وَسَرَّحَ فِيهَا الطُّيُورَ الْمُفْرَدَةَ
وَالْوَحْشَ الْمُشْتَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ الْمُطْفِرَةَ وَالزِّيَاضَ الْمَوْقَةَ . وَجَعَلَ سُورَاتٍ قُصُورَهُ مِنْ جِجَارَةٍ مَلُونَةٍ ،
تَلْمَعُ إِذَا أَصَابَهَا الشَّمْسُ ، فَيَنْشُرُ شُعَاعَهَا عَلَى مَا حَوْلَهَا ، وَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا مِنْ آلَةِ النُّعْمَةِ وَالرِّفَاحَةِ
إِلَّا اسْتَعْمَلَهُ . فَكَانَتِ الْعِمَارَةُ مُتَدَّةً فِي رَمَالِ رَشِيدٍ وَرِمَالِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ إِلَى بَرْقَةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ

(a) الأصل : أشمون . (b) الأصل : تنتهي . (c) عند النويري نقلًا عن ابن وصيف شاه . وهو بلد البحيرة وما يليها إلى
برقة . (d) بولاق : قال والتصويب من النويري . (e) كذا في الأصل وعند النويري وفي تعليقات Wiet :
المهندس . (f) بولاق : بابه . (g) ساقطة من بولاق . (h) بولاق : فيها .

يسافر في أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير إلا في ظلال شجره من الشمس . وعمل في تلك الصحاري قصورا ، وغرس فيها غروشا ، وساق إليها من الثيل أنهارا ، فكان يشترك من الجانب الغربي إلى حد القرب في عمارة متصلة . فلما انقضى أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحاري ، وغربت تلك المنازل ، وباء أهلها . ولا يزال من دخل تلك الصحاري يضحكي ما رآه فيها من الآثار والمعائب ^١ .

قال مؤلفه : حدثني الثقة عن دخل مدينة صا ومشي في خرابها ^٢ ، فإذا هو ببلية طولها أربعة أشبار ، فتناولها وأخذ يتأملها ، ثم كسرها ، فإذا فيها شجرة قدر شبر وافر كأنها كما حصدت ، وفركها بيده ، فخرج منها قمح أبيض كبار حبه جدًا ، في قدر حب اللؤلؤا ، فأكله كله فلم يجد فيه تغيرًا .

ودخل آخر إليها فبيل سنة تسعين وسبع مائة ، وأخذ منها لينة طولها ذراع ونصف في عرض ذراع ، فكسرها ، فإذا فيها شجرة قمح تخرج كل قمحة منها في مقدار ما يكون أكبر من الحبيص ، فلم يطق كسره إلا بعدما رضعه بالحجارة رضاء .

ووجد بصا صنم لطيف طوله أصبع ، فاتفق أنه ألقي في خاية ماء فصار خمرًا ؛ وكان ذلك عند رجل من تيس ، فصلحت حاله من يتعه ذلك الخمر . فطلبه الأمير الأوحى مشتولي تيس ، ومازال به حتى أخذ الصنم منه .

رمل الفرائي

اعلم أن هذا الرمل تمتد في الأرض ، ويسميه بعضهم الرمل الهبر ، وطوله من وراء جبل طي إلى أن يتصل مشرقًا بالبحر ، ويمضي من وراء جبل طي إلى أرض مصر ، ثم إلى بلد الثوبة ، ويمتد إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر .

^١ التوري : نهاية الأرب ١٥ : ٨١ - ٨٢ .
^٢ صا . مدينة قديمة كانت تقع في الحوف الغربي لمصر تمتد من أعمال الغربية . أطلق عليها في العهد العثماني صا الحجر نسبة إلى ما تخلف من أطلالها من بقايا أحجار معبدتها القديم ، وتقع اليوم بمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (باقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٨٧ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ / ١ : ٨٩) .

كانت الفرائي أحد محطات البريد بين مصر وقرية غربي بلدة قطيا (قطية) ، ومكانها اليوم حوض أبر غرب في رمال دبة الفرائيات الواقعة جنوبي آثار مدينة الفرماء وعلى بعد ١١ كيلومترا منها داخل محافظة شمال سيناء . (باقوت : معجم البلدان ٤ : ١٩٠ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٨٩) .

٢ : ١٢٦ : ١١٦ (Maspero & Wist, Matériaux p. 116) .

ومنه عِرْقٌ يَضْرِبُ مِنَ الْقَادِيسِيَّةِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَيَجُوزُ الْبَحْرَيْنِ، فَيَمُرُّ عَلَى مَشَارِقِ خُوزِشْتَانِ وَفَارِسَ إِلَى أَنْ يَرِدَ سِجِسْتَانَ، وَيَمُرُّ مُشْرِقًا إِلَى مَرُو أَخِذًا عَلَى جَبْجِيحُونَ فِي بَرِّيَّةِ خُوازِمَ، وَيَأْخُذُ فِي بِلَادِ الْخَزَلِجِيَّةِ^(٥) إِلَى الصَّيْنِ وَالْبَحْرِ الْمَهِيطِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ؛ وَهُوَ، عَلَى مَا وَصَفْتُهُ وَشَفَقْتُهُ، مِنَ الْمَهِيطِ بِالْمَشْرِقِ إِلَى الْمَهِيطِ بِالْمَغْرِبِ، وَفِيهِ جِبَالٌ عِظَامٌ لَا تُرْتَقَى، وَبَعْضُهُ فِي أَرْضٍ سَهْلَةٍ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمِنْهُ أَضْفَرُ لَيْلِ اللَّئِيسِ، وَأَحْمَرُ قَانِي^(٦) وَالْأَزْزَقُ سَمَاوِي، وَأَشْوَدُ حَالِكٍ، وَأَسْخَلُ مُشْبِعِ كَالْثِيلِ، وَأَبْيَضُ كَالْقَلْجِ، وَمِنْهُ مَا يَخْشِكِي الْغَبَارَ نُعُومَةً، وَمِنْهُ نَخِيشَ بَجْرِيشِ اللَّئِيسِ.

- ١٨٣:١ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ زُفْلَ الْغَرَايِ/ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ حَدِّ الْغَرِيشِ إِلَى أَرْضِ الْعَبَّاسَةِ، حَادِثٌ. وَذِكْرُ فِي سَبَبِ كَوْنِهِ نَجَبٍ فِيهِ مُغْتَبَرٌ، وَهُوَ أَنَّ شَدَّادَ بْنَ هَدَّادَ بْنَ شَدَّادَ بْنَ عَادَ، أَحَدَ الْمُلُوكِ الْعَادِيَةِ، قَدِمَ إِلَى مِصْرَ وَغَلَبَ بِكَثْرَةِ جُيُوشِهِ أَشْمُونَ^(٧) بَنَ مِصْرَ بَنَ يَكْبَرَ بَنَ حَامَ بَنَ نُوحَ مَلِكِ مِصْرَ، وَهَدَمَ مَا بَنَاهُ وَوَأَبَاؤُهُ، وَبَنَى لِنَفْسِهِ أَهْرَامًا، وَنَصَبَ أَغْلَامًا زَيَّرَ عَلَيْهَا الطُّلُوسَمَاتِ، وَاسْتَخْطَ مَوْضِعَ الْإِسْكَنْطَرِيَّةِ؛ وَأَقَامَ هُنَاكَ دَهْرًا إِلَى أَنْ نَزَلَ بِهِ وَبَقْوِيهِ وَبَاءَ، فَخَرَجُوا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى جِهَةِ وَادِي الْقَرْيِ، فِيمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَأَرْضِ الشَّامِ، وَعَمَرُوا الْمَلَايِبَ وَالْمَصَانِعَ الْحَفِيسَ الْمِيَاهُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالشُّيُولِ، فَكَانَ سَقَةً كُلُّ مَصْنَعٍ مِيلًا فِي مِيلٍ، وَعَمَرُوا التُّخُلَ وَغَيْرَهُ، وَزَرَعُوا أَصْنَافَ الزَّرَائِعَاتِ فِيمَا بَيْنَ رَايَةِ وَأَثَلَةٍ إِلَى الْبَحْرِ الْغَرَبِيِّ.

- ١٥ وَامْتَدَّتْ مَنَازِلُهُمْ مِنَ الدُّنْيَانِيَّةِ إِلَى الْغَرِيشِ وَالْجِفَارِ، فِي أَرْضٍ سَهْلَةٍ ذَاتِ عُيُونٍ تَجْرِي وَأَشْجَارٍ مُثْمِرَةٍ وَزُرُوعٍ كَثِيرَةٍ، فَأَقَامُوا بِهِذِهِ الْأَرْضِ دَهْرًا طَوِيلًا، حَتَّى عَمَرُوا وَبَنَوْا وَتَجَمَّرُوا وَطَفَعُوا، وَقَالُوا: نَحْنُ الْأَكْثَرُونَ قُوَّةَ الْأَشْدُّونَ الْأَعْلَىونَ؛ فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَأَهْلَكَهُمْ، وَنَسَفَتْ مَصَانِعُهُمْ وَدِيَارَهُمْ حَتَّى سَخَلَتْهَا رِشَالًا^١.

- ٢٠ فَمَا تَرَاهُ مِنْ هَذِهِ الرُّمَالِ الَّتِي بَارِضُ الْحِفَارِ - مَا بَيْنَ الْعَبَّاسَةِ حَيْثُ الْمَنْزَلَةُ الَّتِي تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالصَّالِحِيَّةِ إِلَى الْغَرِيشِ - مِنْ زُفْلِ مَصَانِعِ الْعَادِيَةِ وَسَخَالَةِ صُخُورِهِمْ، لَمَّا أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِالرِّيحِ، وَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيرًا. وَلِئَامٍ وَإِنْكَارٍ ذَلِكَ لِقَرَابَتِهِ، فَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَشْهَدُ لَصِحَّتِهِ، قَالَ تَعَالَى:

(٥) الْأَصْلُ: الْخَزَلِجِيَّةُ. (ب) سَائِلَةٌ مِنْ بُولَاق. (ج) الْأَصْلُ: أَشْمُونُ.

^١ قَارَنَ مَعَ التَّوْبَةِ: نَهَايَةُ الْأَرْبِ ١٥: ٧٦.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾^١ والآيات ٤١، ٤٢ سورة النمل. أي كالشيء الهالك البالي؛ وقيل الرميم نبات الأرض إذا قُيس ودُيس، وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم؛ والرميم الخلق البالي من كل شيء.

مراقية: مدينة مراقية كورة من كور مصر القوية، وهي آخر حد أرض مصر، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض انطاكيوس وهي بوقفة^١، وبُعْدُهَا مِنْ مَدِينَةِ سَنْتَرِيه^٢ نَحْوَ مِائَةِ بَرِيدَيْنِ. وَكَانَ قَطْرًا كَبِيرًا بِهِ تَحْلُ كَثِيرٌ وَتَزَارِيعٌ، وَهِيَ عِيُونٌ جَارِيَةٌ، وَبِهَا إِلَى الْيَوْمِ بَقِيَّةٌ، وَتَمُوهَا جَيِّدٌ إِلَى الْغَايَةِ، وَزَرْعُهَا إِذَا بُذِرَ يُثْمِرُ مِنَ الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْقَمْحِ مِائَةُ سُبْلَةٍ، وَأَقْلٌ مَا تُثْمِرُ تَعْمُونَ سُبْلَةً، وَكَذَلِكَ الْأَزْزَ بِهَا فَإِنَّهُ جَيِّدٌ زَاكٍ، وَبِهَا إِلَى الْيَوْمِ بَسَاتِينَ مُتَعَدِّدَةٌ.

وكانت مراقية، في القديم من الزمان، يسكنها البيزريون الذين نفاهم داود - عليه السلام - من أرض فلسطين، فنزلها منهم خلائق^٣، ومنها تفرقت البيزريون: فنزلت زقانة ومغيلة وضريسة الجبال، ونزلت لواتة أرض بوقفة، ونزلت هوازنة طرابلس المغرب، ثم انتشرت البيزريون إلى الشام^٤.

فلما كان في شوال سنة أربع وثلاث مائة من سني الهجرة المحمدية جلا أهل لونية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من صاحب بوقفة^٥؛ ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في زمننا، وبها بعد ذلك بقية جيدة.

كوم شريك - هذا المكان بالقرب من الإسكندرية، له ذكر في الأخبار، عُرف بشريط ابن سمي بن عبد يغوث بن جزء المرادي الفطيفي، من الصحابة رضي الله عنهم^٦؛ وكان على مقدمة عمرو بن العاص في فتح الإسكندرية الثاني، فعندما كثرت جماعات الروم، انحاز شريك إلى هذا الكوم بأصحابه، ودافع الروم حتى أذكه عمرو.

(a) بولاق: السوس.

^١ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٩٤٤ محمد رمزي: الكندي: ولاية مصر ٢٩٢.
^٢ انظر السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٠٩.
^٣ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٩٤٤ محمد رمزي: الكندي: ولاية مصر ٢٩٢.
^٤ انظر السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٠٩.
^٥ مدينة سنتريه هي واحة سيوة (انظر فيما يلي ٦٣٧).

وَكُومَ شَرِيكَ هَذَا مِنْ مَجْثَلَةِ حَوْفِ رَمْسِيْس^١.

هَيْفًا - قَرْيَةُ تُقَارِبُ مَدِينَةَ بَلْبِيْسَ، مِنْ الْمُنْتَطَاطِ إِلَيْهَا مَرَحِلَتَانِ، كَانَتْ مَثْرِلَةً قَافِلَةً الْحَاجِ^٢. وَيُقَالُ إِنَّ ضَوَاعَ الْمَلِكِ الَّذِي لُقِدَ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرَ، وَجَدَ فِي رِحَالِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْفًا هُنَا.

سَمْعُود^٣ - كَانَ بِهَا يَزُومُ عَلَيْهِ هَيْفَةُ ذَرْقَةٍ فِيهَا كِتَابَةٌ حَكَى ابْنُ زُوَلَاقَ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ مَأْمُونِ الْقَذْلِ، أَنَّهُ نَسَخَ هَذِهِ^٤ الْكِتَابَةَ فِي قُوطَاسَ وَصَوَّرَهُ عَلَى ذَرْقَةٍ، قَالَ: فَمَا كُنْتُ أَشْتَقِيْلُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا وَلَّى هَارِبًا.

وَكَانَ بِهَا أَيْضًا تَمَائِلُ وَصُورٌ مِنْ تَمَلِكِ مِصْرَ، فِيهِمْ قَوْمٌ عَلَيْهِمْ شَائِطَاتٌ، وَبِأَيْدِيهِمْ الْحِرَابُ، وَعَلَيْهِمْ مَكْتُوبٌ «هَؤُلَاءِ يَمْلِكُونَ مِصْرَ».

(a) ساقطة من بولاق.

^١ كُومَ شَرِيكَ أَحَدُ قُرَى مَرْكَزِ كُومِ حَمَادَةِ مَحَافِظَةِ الْبَحْيَرَةِ (مُحَمَّدُ رَمْزِي: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ٢/٢: ٣٣٩-٣٤٠) وَأُطْلِقَ الْعَرَبُ لَفْظَ الْحَوْفِ بِمَعْنَى الْجَانِبِ عَلَى بَعْضِ الْأَقْلَامِ الْمِصْرِيَّةِ، حَيْثُ أَطْلَقُوا اسْمَ حَوْفِ رَمْسِيْسَ عَلَى الْقُرَى الْوَاقِعَةِ جَنُوبَ إِقْلِيمِ الْبَحْيَرَةِ نَسْبَةً إِلَى مَدِينَةِ رَمْسِيْسَ الَّتِي كَانَتْ قَاعِدَةً لِبِلَادِ هَذَا الْحَوْفِ وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى قُرَى مَرْكَزِ لِبْنَتِي الْبَارُودِ بِمَحَافِظَةِ الْبَحْيَرَةِ (نَفْسُهُ ١: ٢٣٥).

^٢ هَيْفًا (خَيْفَةٌ). أَحَدُ مَدَنِ الْحَوْفِ الشَّرْقِيِّ - وَهِيَ الْمَدِينُ الْوَاقِعَةُ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ - وَحُرُوفُ اسْمِهَا فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ إِلَى هَيْفَةٍ، وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى قُرَى مَرْكَزِ بَلْبِيْسَ بِمَحَافِظَةِ الشَّرْقِيَّةِ. (مُحَمَّدُ رَمْزِي: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ٢/٢: ٧١-٧٢ Ayman F. Sayyid, *El² art. Samannūd VIII*, pp. 1066-67).

^٣ سَمْعُودُ. مِنْ مَدَنِ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ تَنَجَّى عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ لِلْفَرَجِ دِمَاطَ عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِيَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ شَرْقَ مَدِينَةِ الْهَمْلَةِ الْكُبْرَى. ذَكَرَهَا الْجُغْرَافِيُونَ الْعَرَبُ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ لِلْهَجْرَةِ كَمَدِينَةٍ ذَاتِ نَشَاطٍ اِقْتِصَادِيٍّ هَامٍّ، وَأَصْبَحَتْ فِي أَعْقَابِ الْإِصْلَاحَاتِ الْإِدَارِيَّةِ لِأَمِيرِ الْجَيْشِ بِدَرِ الْجُمَايِي إِقْلِيمًا مُسْتَقْلَلًا بِاسْمِ «السَّمْعُودِيَّةِ»، وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى مَدَنِ مَحَافِظَةِ الْغَرْبِيَّةِ (ابْنُ عِمَاتِي: قَوَانِينُ الدَّوَالِيْنِ ١٤٨، ١٦٢؛ الْفَلَقْشَنْدِي: صَبِيح ٣: ٣٨٣؛ عَلِيٌّ مَبَارَكُ: الْخَطَطُ التَّوْفِيقِيَّةُ ١٢: ٤٦-٥٠، ١٦: ٦٥-٦٦، مُحَمَّدُ رَمْزِي: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ٢/٢: ٧١-٧٢).

(١٠٣: ١/١).

ذِكْرُ مَدِينَةِ بَلْبَيسَ

وسُمِّيت في التَّوْرَةِ : «أَرْضُ جَاشَانَ» ، وفيها نَزَلَ يَعْقُوبُ لَمَّا قَدِمَ عَلَى وَلَدِهِ يُوشَفَ - عليهما السلام - فَأَنْزَلَهُ بِأَرْضِ جَاشَانَ^(١) ، وهي بَلْبَيسُ إِلَى الْعَلَايَةِ ، من أَجْلِ مَوَاشِيهِمْ .

قال ابنُ سَعِيدٍ : بَلْبَيسُ ، واليها يَصِلُ شَحْمُهُ إِلَى الْوَرْدَةِ ، وهي أَجْرُ خَدِّ مِصْرَ ، واليها تَنْتَهِي الْمُعَامَلَةُ بِفِضَّةِ السَّوَادِ ، وبصيرِ النَّاسِ يَتَعَامَلُونَ بِالْفُلُوسِ بَعْدَهَا إِلَى الْقَرِيشِ ، وهي أَوَّلُ الشَّامِ ، وقيل هي آخِرُ مِصْرَ .

وقال أَبُو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ : بَلْبَيسُ - بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَاشْكَانِ ثَانِيهِ بَعْدَهُ بَاءٌ مِثْلُ الْأَوَّلَى مُفْتُوحَةٌ أَبْضًا وَبَاءً سَاكِنَةٌ وَسِينٌ مُهْمَلَةٌ - وَهُوَ مُؤْضِعٌ قُزْبٍ^(٢) مِصْرَ مَعْرُوفٌ^٣ .

وَذَكَرَ ابْنُ خُرْدَاذْبَةِ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ» : أَنَّ بَيْنَ بَلْبَيسَ وَمَدِينَةِ قُسْطَاطٍ مِصْرَ أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ مِيلًا^٤ .

وَذَكَرَ الْوَالِدِيُّ أَنَّ الْمُقَوْسَ زَوْجَ ابْنَتِهِ أُمَامُوسَةَ مِنْ قُسْطَنْطِينِ بْنِ هِرْقُلَ ، وَجَهَّزَهَا بِأَمْوَالِهَا وَبِجَوَارِيهَا وَغُلْمَانِهَا وَخَشَمِيهَا ، لَتَسِيرَ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَنِي عَلَيْهَا فِي مَدِينَةِ قَيْسَارِيَّةَ^(٥) بِسَاحِلِ الْبَحْرِ مِنَ الشَّامِ ، فَبَلَغَهَا بَعْدَمَا سَارَتْ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ نَزَلُوا عَلَى قَيْسَارِيَّةَ^(٦) وَهُمْ مُحَاصِرُونَ لَهَا . فَرَجَعَتْ^(٧) إِلَى بَلْبَيسَ وَأَقَامَتْ بِهَا ، وَبَعَثَتْ حَاجِبَهَا الْكَبِيرَ فِي الْفَنِيِّ فَارِسَ/ إِلَى الْقَرَمَا ، لِيَحْفَظَ الطَّرِيقَ ، وَلَا يَدْعَ أَحَدًا مِنَ الرُّومِ وَلَا غَيْرِهِمْ يَغْتَرُّ إِلَى مِصْرَ .

(١) بولاق : جاشان . (b) بولاق : قريب . (c-c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : فخرجت .

^١ بَلْبَيسُ . مدينة استراتيجية هامة في الوجه البحري تقع على الطريق الموصل من الرملة إلى القسطنطية ، لذلك كانت تقع تحت حصار من يريد قصد العاصمة المصرية ، كما كانت محطة هامة من محطات البريد . كانت قاعدة الحوف الشرقي أيام العرب ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية وحتى نهاية الدولة المملوكية ، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٣٢ حيث حلت محلها مدينة الزقازيق كماصمة للإقليم لتوسطها بين مدن الولاية . وهي الآن قاعدة

مركز بلبيس بمحافظة الشرقية (باقوت : معجم البلدان ١ : ١٤٧٩ ابن دقماق : الانصار ٥ : ١٥١ علي مبارك : الحطط التوفيقية ٧٠٩-٧٨٠ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١/٢ : ١٠٠-١٠١ Wiet, G., *Et* ² art. (Bilbays I, p. 1254).

^٢ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢٧٢-٢٧٣ .

^٣ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٠ .

وَبَقِيَ الْمُقَوْسُ رُشْلَهُ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِهِ، مِمَّا يَلِي الشَّامَ، أَلَّا يَتْرُكُوا أَحَدًا يَدْخُلُ أَرْضَ مِصْرَ، مَخَافَةً أَنْ يَتَّخِذُوا بَقَايَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الشَّامِ، فَيَدْخُلُ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ عَسَاكِرِهِ.

فَلَمَّا قَدِمَ عُثْمَانُ بْنُ الْخَطَّابِ الْجَائِيَّةَ، وَصَارَ عُثْمَانُ بْنُ الْقَاصِ إِلَى مِصْرَ، نَزَلَ عَلَى بَلْبَيسَ - وَبِهَا أَرْمَاتُوسَةُ ابْنَةُ الْمُقَوْسِ - فَقَاتَلَ مِنْ بَهَا، وَقَتَلَ مِنْهُمْ رُهَاءَ أَلْفِ فَارَسٍ وَأَسْرَ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ، وَانْتَهَزَمَ مِنْ بَقِيٍّ إِلَى الْمُقَوْسِ، وَأُتِيحَتْ أَرْمَاتُوسَةُ وَجَمِيعُ مَالِهَا، وَسَائِرُ مَا كَانَ لِلْقَيْطِ فِي بَلْبَيسَ. فَأَحْبَبَ عُثْمَانُ مِلَاطَقَةَ الْمُقَوْسِ، فَسَيَّرَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ أَرْمَاتُوسَةَ مُكَرَّمَةً فِي جَمِيعِ مَالِهَا مَعَ قَيْسَ بْنِ أَبِي الْقَاصِ السُّنْهَمِيِّ، فَسَرَّ بِقُدُومِهَا، ثُمَّ سَارَ عُثْمَانُ إِلَى الْقَصْرِ^١.

وَلَمْ تَزَلْ مِنْ مَدَائِنِ مِصْرَ الْكِبَارِ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهَا مُرِي [Amaury] مَلِكُ الْفِرَنْجِ، وَأَخَذَهَا عَثْرَةً بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ، وَقَتَلَ مِنْهَا أَلْفًا.

١٠ وَلَهَا أُخْتَانِ كَثِيرَتَانِ.

وَقَدْ خَرِبَتْ مِنْذُ عَهْدِ الْخَوَادِثِ بِدِيَارِ مِصْرَ، بَعْدَ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ، بَعْدَمَا أَذْرَنْتَهَا وَبِهَا عِمَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيهَا عِدَّةُ بَسَاتِينٍ، وَأَهْلُهَا أَصْحَابُ يَسَارٍ وَيَعْمُ سَيِّئَةٌ.

ذِكْرُ بَلَدِ الْوَزَاةِ

الْوَزَاةُ مِنْ جُفْلَةِ الْجِفَارِ.

١٥ قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُرْدَادْزِبَةِ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَتَالِكِ»: وَصِفَةُ الطَّرِيقِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْوَزَاةِ إِلَى أَرْدُودِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا، ثُمَّ إِلَى غَزَّةَ عَشْرُونَ مِيلًا، (هَمْ إِلَى رَفَحَ سِتَّةَ عَشَرَ مِيلًا^٢) ثُمَّ إِلَى الْعَرِيشِ أَرْبَعَةَ وَعَشْرُونَ مِيلًا فِي رَهْلٍ، ثُمَّ إِلَى الْوَزَاةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا، ثُمَّ إِلَى الْعُدَيْبِ^٣ عَشْرُونَ مِيلًا، ثُمَّ إِلَى الْفَرَمَا أَرْبَعَةَ وَعَشْرُونَ مِيلًا.

قَالَ الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ:

٢٠ [الوافر]

لَلْيَلِكُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ نِ أَقْصَرُ مِنْهُ بِالْفَرَمَا
عَرِبَتْ فِي قَرْيَ مِصْرَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالسَّخَمَا

(a-b) زيادة من المسالك. (b) بولاق: العريب.

^١ ملخصاً من الواقي: فتوح مصر والإسكندرية ١٩-٣٢.

ثم إلى مجزير^٥ ثلاثون ميلاً ، ثم إلى الغاضرة^٦ أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى مسجد قضاة ثمانية عشر ميلاً ثم إلى بليس أحد وعشرون ميلاً ، ثم إلى قسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً^١.

وقال جامع تاريخ دمياط^٢ : ولما افتتح المسلمون القرما ، بعدما انفتحوا دمياط وبليس ، ساروا إلى البقارة فأسلم من بها ، وساروا منها إلى الوزادة ، فدخل أهلها في الإسلام وما حولها إلى عسقلان^٣.

وقال القاضي الفاضل في «متجددات» شهر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة : وصاحبنا الوزادة فيثا على ميثا الوزادة ، ودخلنا الوزادة فرأيت تاريخ منازة جامعها سنة ثمان وأربع مائة ، واسم الحاكم بأمر الله عليها .

والوزادة من جحلة الجفار ، ويقال أخذ اسمها من الوزود ، ولم يزل جامعها عامراً تقام به الجمعة إلى ما بعد السبع مائة .

وبلد الوزادة القديم^٤ في شرقي المنزلة التي يقال لها اليوم الوزادة^٥ ، وبها آثار عمائر ونخل قليل .

الصالحية

هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكايل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بأرض الشانج^٦ والعلايمة ، في أول الزمل الذي بين مصر والشام ، وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وشوقاً ، لتكون منزلة العساكر إذا خرجوا من الزمل ، وذلك في سنة أربع وأربعين وست مائة^٧.

(a) بولاق : جرير . (b) بولاق : القاهرة . (c) بولاق : القديمة . (d) بولاق : الصالحية . (e) بولاق : السانج وما أتبته ورد أيضاً عند ابن واصل .

^١ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ٨٠ ، ٢١٩-٢٢٠ . ^٢ ابن واصل : مفرج الكروب ، ٥ : ٣٧٩ ، المقرئ : وفيما يلي ٦١٤-٦١٥ .

^٣ انظر فيما تقدم ٤٨٠ . ^٤ على جانبي التربة السعيدة في المسافة الواقعة بين ناحيتي

^٥ قارن الرازي : فوح مصر والإسكندرية ١٤٨- . ^٦ سودة والصالحية بمرکز فاقوس بمحافظة الشرقية (أبو الحسن : النجوم ، ١ : ١٥٠ ، ٣٠٣) . والصالحية اليوم إحدى قرى مركز = ١٤٩ .

ذكر مدينة أيلة^١

(٢) ذَكَرَ ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّ أَثَالَ - بِضَمِّ أَوَّلِهِ ثُمَّ ثَاءً مِثْلَةً - وَادِي أَيْلَةَ^(٣)، وَأَيْلَةَ - بِفَتْحِ أَوَّلِهِ، عَلَى وَزْنِ «فَعْلَةٍ» - مَدِينَةً عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِيمَا بَيْنَ مِصْرَ وَمَكَّةَ، سُمِّيَتْ بِأَيْلَةَ بِنْتِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وَأَيْلَةُ أَوَّلُ حَدِّ الْحِجَازِ، وَقَدْ كَانَتْ مَدِينَةً جَلِيلَةً الْقَدْرَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ، بِهَا التُّجَارَةُ الْكَثِيرَةُ، وَأَقْلَاهَا أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ. وَكَانَتْ حَدُّ مَمْلَكَةِ الرُّومِ فِي الزَّمَنِ الْغَايِرِ، وَعَلَى مِيلٍ مِنْهَا بَابُ مَقْقُودَ لَقَيْصَرٍ، قَدْ كَانَ مَسْلُوحَةً^(٤) يَأْخُذُونَ الْمَكْسَ. وَبَيْنَ أَيْلَةَ وَبَيْنَ الْقُدْسِ سِتُّ مَرَاجِلَ، وَالطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى يَوْمِ وَلِيْلَةٍ مِنْ أَيْلَةَ. وَكَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ مَثَرًا لِبَنِي أُمَيَّةَ، وَأَكْثَرَهُمْ مُوَالِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَكَانُوا شِقَاةَ الْحَاجِّ. وَكَانَ بِهَا عِلْمٌ كَثِيرٌ وَأَدَابٌ، وَمَتَاجِرُ وَأَسْوَاقٌ عَامِرَةٌ، وَكَانَتْ كَثِيرَةُ الثَّخْلِ وَالزُّرْعِ^(٥).

وَعَقِبَةُ أَيْلَةَ لَا يَصُغَدُ إِلَيْهَا مَنْ هُوَ رَاكِبٌ، وَأَصْلَحَهَا فَائِقٌ، مَوْلَى خُمَارِزَوْهَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ، وَسَوَّى طَرِيقَهَا وَرَمَّ مَا اسْتَرَمَّ مِنْهَا.

وَكَانَ بِأَيْلَةَ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ^(٦)، وَبِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ عِنْدَهُمْ بُرْذَ الشَّيْءِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ بَقِيَ إِلَيْهِمْ أَمَانًا، وَكَانُوا يُخْرِجُونَهُ رِدَاءً عَدْنِيًّا مَلْفُوفًا فِي الثِّيَابِ قَدْ أُبْرِزَ مِنْهُ قَدْرٌ شَيْئًا فَقَطْ.

(a-a) ساقط من الأصل . (b) بولاق : فيه مسلحة . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : الزروع . (e) بولاق :

عديدة .

والشامية والحجازية ، فإن الجغرافيين العرب كانوا يلقونها بالشام . وكانت أيلة في فترة الحروب الصليبية مسرحاً لصراع طويل أدى إلى خرابها في نهاية هذه الفترة . وهي تعادل مدينة العقبة الواقعة بشمال خليج العقبة (بالوت : معجم البلدان ٢٩٢: ٢٩٣ - علي مبارك : الخريط التوفيقية ١٠٦: ١٠٧ -

١١٠٧ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ١١٣٦ - (Glidden, H.W., *El' art. Ayla* I, p. 807

= فالوس بمحافظة الشرقية ، ويطلق عليها الصالحية الكبرى لتميزها عن القرى الأخرى التي تحمل اسم الصالحية (علي مبارك : الخريط التوفيقية ١١٣: ١٧ - محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١/٢: ١١٢ - ١١٣ وفيما يلي ٢٢٧: ٢٢٨).

^١ أيلة . ميناء يقع شمال خليج العقبة حلت محله الآن مدينة العقبة ، كان في العصر الإسلامي مركزاً هاماً لتجسس الحجاج القادمين من مصر والشام وكذلك مركزاً تجارياً هاماً ، ورغم أن المدينة كانت تقع عند تقاء الأراضي المصرية

وَيُقَالُ إِنَّ أَيْلَةَ هِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ^(أ) حَيْثُ قَالَ : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَيْعِ إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف] . وقد اختلف في تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وعكرمة والسدي : هي أَيْلَةُ ؛ وعن ابن عباس أيضًا أنها مدينة بين أَيْلَةَ والطور ؛ وعن الزهري أنها طَبْرَةَ .

وقال قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام ، بين مَدْيَنَ وعِثْرَةَ/، يُقَالُ لها مَقْنَةُ .

وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا تأتيك إلا قوتًا ، والحرام يأتيك جوعًا؟ قال : نعم في قصة أَيْلَةَ : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف] .

وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بني إسرائيل ، وقد حرم الله عليهم القتل في يوم السبت ، فزنى لهم إبليس الحيلة وقال : إنما نهيتكم عن أخذ الحيتان يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يشرقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لِقْلَةُ الماء ، فيأخذونها يوم الأحد .

وقيل كان الرجل يأخذ خيطًا ، ويضع فيه وَهَقَةً ويُلْقِيها^(ب) في دَنَبِ الحوت - وهو بتحريك الهاء وإسكانها - خبل كالطول ، ويجعل في الطرف الآخر من الخيط وندًا ، ويتركه كذلك إلى يوم الأحد .

ثم تطرق الناس ، حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى ، حتى كثر الصيد للحيتان ، ومشي به في الأشواق ، وأعلن الفسقة بصيده . فقامت طائفة من بني إسرائيل وجاهرت بالثبهي ، واعتزلت وقالت : لا نساكنكم . فقسما القرية بجدار ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لَشَأْنًا ؛ فَعَلُوا على الجدار ، فإذا هم قِرْدَةٌ ، فدخلوا عليهم ، فَعَرَزَتِ الْقِرْدَةُ أنسابها من الإنس ، فجعلت تأتيتهم فتشمت بياهم وتبكي ، فيقول الناهون للقردة : أَلَمْ نَكْهَمْ ؟ فنقول برأسها : نعم . قال قتادة : فصارت الشباب قردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم . وقيل إن ذلك كان في زمن نبي الله داود عليه السلام .

(أ) ساقطة من بولاق . (ب) بولاق : يلقه .

وقد^٥ قيل إنَّ أَيْلَةَ أَصْلُهَا إِبِلْيَاءٌ^٦، وقد وَقَّعَ ذِكْرُهَا فِي الثُّورَةِ كَذَلِكَ .

وقال الشريف محمد بن أشعد الجواني: دُكَّالَةٌ مِنَ الْبَزْرِ بَطْلٌ مِنَ الْمَصَائِدَةِ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ دُكَّالَةَ وَلَدَ أَيْلَةَ - وَيُقَالُ أَيْلٌ - الَّذِينَ سُمِّيَتْ بِهِ عَقِبَةُ أَيْلَةَ، وَإِخْوَتُهُمْ^٧ دَغْلُ بْنُ أَيْلَةَ، وَإِنَّهُمْ يُغَزُّونَ إِلَى النَّزَارِينِ^٨، ويقولون: نحن من ربيعة الفُرس، وفي ذلك خلافٌ عظيمٌ .

- وَذَكَرَ الْمَشْعُورِيُّ أَنَّ ثَوْشَعَ بْنَ نُونٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَارَبَ السَّمَيْدَةَ بْنَ هَوَئِرَ^٩ بْنَ مَالِكِ الْعُثْلِقِيِّ مَلِكَ الشَّامِ، بِبَلَدِ أَيْلَةَ نَحْوَ مَدَيْنَ، وَقَتْلَهُ وَاحْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَوْفُ بْنُ سَعِيدِ الْجَوْهَمِيِّ:

[الطول]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعُثْلِقِيَّ بْنَ هَوَيْرَ^{١٠} بِأَيْلَةَ أَمْسَى لَحْمُهُ قَدْ تَمَرَّعَا

تَدَاعَتْ عَلَيْهِ مِنْ يَهُودٍ بِجَحَافِلٍ ثَمَانُونَ أَلْفًا حَاشِدُونَ^{١١} وَدُرْعَا

وهي أبحاث كثيرة^١.

وقال ابنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ، أَنَاهُ يُحَنِّتُ بِنَ رُؤْيَةَ صَاحِبِ أَيْلَةَ، فَصَالَحَهُ وَأَعْطَاهُ الْخِزْيَةَ، وَأَتَاهُ أَهْلُ جَزْءَاءَ وَأَذْرَحَ فَأَعْطَوْهُ الْخِزْيَةَ، وَكَتَبَ لَهُمْ يَكِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُمْ، وَكَتَبَ لِيُحَنِّتُ بِنَ رُؤْيَةَ:

- ١٥ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا^{١٢} أَمْنَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِهِ، لِيُحَنِّتَ ابْنَ رُؤْيَةَ وَأَهْلَ أَيْلَةَ، أَسَاقِفَهُمْ وَسَائِرَهُمْ^{١٣} فِي الْبَيْزِ وَالْبَيْعِ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ [مُحَمَّدٍ] النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْبَيْعِ. فَتَنْ أَخَذْتَ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ. وَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ أَنْ يُمْتَنِعُوا مَاءَ يَرْدُونَهُ^{١٤}، وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ.
- ٢٠ هَذَا يَكِتَابُ جَهَنِمِ بْنِ الصَّلْتِ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ، بِإِذْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^{١٥}.

٥ ساقطة من بولاق . (b) بولاق : إيليايه . (c) بولاق : وآخر أنهم من . (d) بولاق : البرير . (e) بولاق : هرمز والتصويب من النسخ ومروج الذهب . (f) الأصل : هربز ، بولاق : هرمز . (g) بولاق : حاسرين . (h) في السيرة : هله . (i) في السيرة : سفنهم وسائرهم . (j) إضافة من السيرة . (k) الأصل وبولاق ، بمنعوا ما يريدونه ، والتصويب من السيرة .

وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة ، ولم تزل مدينة أئمة عاصمة أهلة .

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، طرَقَ عبدُ الله بن إدريس الجعْفَرِي أئمة - ومعه بعض بني الجَوَّاح - وهَبَّها ، وأَخَذَ منها ثلاثة آلاف دينار وعِدَّة غِلَّال ، وسَبَى النِّسَاء والأَطْفَال ، ثم إِنَّهُ صَرَفَ عن ولاية وادي القُرَى ، فسَارَتْ إليه سَرِيَّة من القاهرة لحَازِمته ^١ .

قال القاضي الفاضل : وفي سنة ست وستين وخمس مائة ، أَنشَأَ الملكُ النَّاصِر صلاح الدين يُوسُف بن أَلُوب مَرَاكِبَ مُفَصَّلة ، وحَمَلَهَا على الجِمال ، وسَارَ بها من القاهرة في عَشْرَةِ كَبِيرٍ لِحَازِمَةِ قَلْعَةِ أئمة ، وكانت قد مَلَكَهَا الفِرِنجُ وامْتَنَعُوا بها ، فَنَازَلَهَا في ربيع الأول ، وأَقَامَ المَرَاكِبَ وَأَصْلَحَهَا وطَرَحَهَا في البحر ، وسَحَنَهَا بالمَقَائِلَةِ والأسْلِحَةِ ، وقَاتَلَ قَلْعَةَ أئمة في البرِّ والبحر حتى فَتَحَهَا في العشرين من شهر ربيع الآخر ، وَقَتَلَ مَنْ بها من الفِرِنجِ وَأَسْرَهُمْ ، وَأَسْكَنَ بها جماعَةً من يَتَاتِيهِ ، وقَوَّاهم بما يَحْتَاجُونَ إليه من سلاح وغيره ، وعَادَ إلى القاهرة في آخر جمادى الأولى ^٢ .

وفي سنة سبع وسبعين ، وَصَلَ كِتَابُ النَّائِبِ بِقَلْعَةِ أئمة ، أَنَّ المَرَاكِبَ على تَحْقُظٍ وَخَوْفٍ شَدِيدٍ من الفِرِنجِ ، ثم وَصَلَ الإِبْرَنْسُ ^٣ - لَعَنَهُ الله - إلى أئمة وَرَبَطَ الْعَقْبَةَ ، وَسَيَّرَ عَشْكَرَهُ إلى نَاجِيَةِ شُجُوك ، وَرَبَطَ جَانِبَ الشَّامِ لِحَوْفِهِ من عَشْكَرٍ يَطْلُبُهُ من الشَّامِ أو مصر . فَلَمَّا كَانَ في شعبان من السنة المذكورة ، كَثُرَ المَطَرُ بالجبل المقابل للقَلْعَةِ بِأئمة ، حتى صَارَتْ به مِيَاةٌ اشْتَقَتْ بِهَا أَهْلُ القَلْعَةِ عن وُرُودِ الْعَيْنِ مُدَّةَ شَهْرَيْنِ ، وتَأَثَّرَتْ بُيُوتُ القَلْعَةِ لِنَتَائِجِ المَطَرِ ، وَوَهَتْ لَضَعْفِ أَسَاسِهَا ، فَتَلَاَزَمَتْهَا أَصْحَابُهَا وَأَصْلَحُوهَا .

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَسْغُودِي في كتاب «أَخْبَارِ الزَّمانِ وَمِنْ أَبَادَةِ الْحَدَثَانِ» الْكُوكَةَ ، وَهِيَ أُمَّةٌ لَهُمْ أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَلَكُوا أَرْضَ أئمة وَالْحِجَازَ ، وَبَنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً سَمَّاهَا بِاسْمِهِ ، وَجَعَلُوا سَائِرَ الْأَرْضِ نَخِيَمَاتٍ وَقَسَمُوهَا على ثَلَاثِينَ كُورَةً / وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَعْمَالٍ لِكُلِّ عَمَلٍ مَلِكٌ يَجْلِسُ على مِثْرٍ ذَهَبٍ فِي مَدِينَتِهِ . [وفي كُلِّ] ^٤ عَمَلٍ بِرُوبَا - وَهِيَ بَيْتُ الْحِكْمَةِ - وَعَمِلَ هَيْكَلًا لِأَخِذِ الْكُوكَاكِبِ ، وَجَعَلَ فِيهِ أَصْنَانًا مِنْ ذَهَبٍ ، كُلُّ صَنْمٍ لَهُ مَرْتَبَةٌ .

(٤) زيادة من السعودي .

^٢ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٢٠ .

^١ المسيحي : أخبار مصر ٣٤ - ٣٥ : المقرئ : اتعاظ

^٣ هو البرنس أرناط Renauld de Chatillon صاحب الكوك (انظر عن حملته في البحر الأحمر فيما يلي ٨٦:٢) .

١٤٣:٢ ، وذلك يوم الأحد لأربع خلون من شهر ربيع الآخر .

وكانت الإِسْكََنْدَرِيَّةُ، واسمها رُقُودَةُ، فجعلوا لها خَمْسَ عَشْرَةَ كُورَةً، وجعلوا فيها كِبَارَ الكَهَنَةِ، ونصبوا في هَيَاكلها من أَسْنام الذَّهَبِ أَكْثَرَ ثَمًّا فِي غَيْرِهَا، وكان فيها مائتا صَنَمٍ من ذَهَبٍ. وقسموا الصُّعِيدَ على ثمانين كُورَةً، وجعلوه أربعة أَقْسامٍ، وكان عَدَدُ مَدُنِ مِصْرَ، الدَّاخِلَةِ فِي كُورِهَا، ثلاثين مَدِينَةً فِيهَا جَمِيعُ الْعَجَائِبِ^١.

٥. وقيل إنَّ جَمِيزَ الأَكْبَرِ، واسمُه القَرْعُجَجِ بنِ سَبَأِ الأَكْبَرِ - واسمُه عاير، ويُعرَفُ بعبدِ شَمْسٍ ابنِ يَشْجَبِ بنِ يَفْرُوبِ بنِ قَظْطَانٍ - لَمَّا مَلَكَ بعدَ أَبِيهِ جَمَعَ جَبُوشَه، وسَارَ يَطْعَا الأُمَمَ، ويُدْخِلُ المَمَالِكَ كَمَا فَعَلَ أبُوهُ، فَأَتَمَعَ فِي المَشْرِيقِ حَتَّى أَتَمَعَ تَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ قَفَلَ نَحْوَ المَغْرِبِ، فَجَاءَهُ قَبَائِلُ من أَهْلِ اليَمَنِ، من بَنِي هُودِ بنِ عايرِ بنِ شالِحِ بنِ أَرْفَخْشَيْدِ بنِ سَامِ بنِ نُوحٍ، يَشْكُونَ من ثَمُودِ بنِ عايرِ بنِ إِزْمِ بنِ سَامِ بنِ نُوحٍ، وما نَزَلَ بِهِمْ من ظُلْمِهِمْ. فَأَتَمَرَ بِرَفْعِهِمْ من أَرْضِ اليَمَنِ، وَأَنْزَلَهُمْ أَهْلَةً، فَعَمَّرُوهَا من أَهْلَةٍ إِلَى ذَاتِ الأَصَالِ إِلَى أَطْرَافِ جَبَلِ نَجْدٍ، فَقَطَعَتْ ثَمُودُ هُنَاكَ الصُّخُورَ، وَنَحَتُوا مِنَ الجِبَالِ البُيُوتَ، وَتَكَبَّرُوا وَطَغَوْا؛ فَبَقَتْ اللهُ فِيهِمْ صَالِحًا نَبِيًّا وَرَسُولًا، فَكَذَّبُوهُ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَافَةَ من صَخْرَةٍ، فَأَخْرَجَهَا لَهُمْ، فَعَمَّرُوهَا، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ ٦٧، ٩٤ سورة هود].

١٥. وقد ذُكِرَ أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، بعدَ مَوْتِ أَخِيهِ هَارُونَ، إِلَى أَرْضِ أَوْلَادِ الْعِيبِصِ - وَهِيَ الَّتِي تُعْرَفُ بِجِبَالِ الشَّرَاةِ - جَنِبَ بَلَدِ الشُّوَيْكِ. ثُمَّ مَرَّ فِيهَا إِلَى أَهْلَةٍ، وَتَوَجَّهَ بعدَ أَيَّامٍ إِلَى ثَرْبَةِ بَابِ، حَيْثُ بِلَادُ الكَرَكِ حَتَّى حَارَبَ تِلْكَ الأُمَمَ. وَكَانَ إِلَى جَانِبِ أَهْلَةٍ مَدِينَةٍ، يُقَالُ لَهَا عَضِيونَ، جَلِيلَةٌ عَظِيمَةٌ.

مَسْرُوط

٢٠. كُورَةُ من كُورِ الإِسْكََنْدَرِيَّةِ، كانت لِشِدَّةِ يَبَاضِهَا لَا يَكَادُ يَبِينُ فِيهَا دُخُولُ اللَّيْلِ إِلَّا بعدَ وَفَتْ، وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُونَ فِيهَا وَفِي أَيْدِيهِمْ عِزْقُ شَدِّ خَوْفًا عَلَى أَنْبَارِهِمْ، وَمِنْ شِدَّةِ يَبَاضِهَا لَيْسَ الرُّهْبَانُ السَّوَادُ^٢.

^١ السمعوني: أخبار الزمان ٦٧-١٦٨ وفيما تقدم ^٢ فيما تقدم ٣٩٨، ٤٠٣.

وكانت بلاد مزبوط في نهاية العماراة والجنان المتصلة بأرض بركة . وهي اليوم من بعض^(a) قرى الإسكندرية ، يُزرع بها القوايكه وغيرها ، وقد وَقَفَهَا الملك المظفر رُكنُ الدِّين بيبرس الجاشنكير على جهات يربو بالجامع الحاكمي من القاهرة ، وبها جامع عُمر في سنة ست وستين وست مائة . ثم استأجرها الملك المؤيد شَيْخ الحمودي ، في سنة إحدى وعشرين وثمان مائة ، وجمَّد عماراة بُشْتَانِيهَا ، وقد تَحَوَّبَ بِتَرْدَادِ عَرَبٍ لَبْدَةٍ وَبَرْقَةٍ إِلَيْهِ^(b) ، فاستمرت في ديوان السلطان .

وادي هُبَيْب

هذا الوادي بالجانب الغربي من أرض مصر ، فيما بين مزبوط والقُيُوم ، يُجَلَّبُ منه المِلْحُ والنُّطْرُون^١ . غَرِفَ بهيَّب بن محمد بن تغزل بن الواقعة بن حرام بن غفار الغفاري ، أخذ أصحاب رسول الله ﷺ ، شَهِدَ فَتَحَ مصر ، وَرَوَى عنه أبو تميم الجيشاني ، وَأَسْلَمَ مَوْلَى نُجَيْب ، وَسَعِيد بن عبد الرحمن الغفاري . وكان قد اغتزل ، عند يَفْتَنَةِ عُثْمَانَ - رضي الله عنه - بهذا الوادي فَعَرِفَ به ، وكان يقول : لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ قَضَاءِ ذَيْنَ رَمَضَانَ ، وَلَا بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ^(c) فِي الشَّفْرِ . ويُقَالُ لهذا الوادي أَيْضًا : وادي الملوك ، ووادي النُّطْرُون ، وَبَرْقَةٍ شَيْهَات^(d) ، وَبَرْقَةٍ الْأَشْقِيط ، وميزان القلوب . وكان به مائة ذَيْرٍ لِلنَّصَارَى ، وبقي به سبعة أَذْيَرَةٍ^(e) ، وقد ذُكِرَتْ ، عند ذِكْرِ الدِّيَارَاتِ^(f) من هذا الكتاب .

وهو وادٍ كثيرُ القَوَائِدِ ، فيه النُّطْرُونُ وَيَتَحَصَّلُ منه مَالٌ كثيرٌ ، وفيه المِلْحُ الْأَنْدَرَانِي ، والمِلْحُ السُّلْطَانِي - وهو على هَيْئَةِ ألْوَاحٍ الرُّعَامِ - وفيه التُّوكْتُ^٢ ، والكُكْخُلُ الْأَسْوَدُ ، وَمَقْمَلُ الرُّجَاجِ . وفيه الماسِكَةُ ، وهو طَيْنٌ أَصْفَرٌ فِي دَاخِلِ حَجَرٍ أَسْوَدَ ، يُحَلَّ في الماءِ وَيُشْرَبُ لَوَجَعَ الْمَعِدَةِ . وفيه البَرْزِي لَقَمَلِ الْحَصْرِ ، وفيه عَيْنُ الْغُرَابِ ، وهو ماءٌ ، في هَيْئَةِ الْبَرْزَةِ ، وطولُهَا نحوُ خَمْسَةِ عَشَرَ

(a) ساقطة من بولاق . (b) الأصل وفيت : لبيد حرب بركة إليه . (c) بولاق : ويجمع بين الصلاتين . (d) الأصل : شيهاب . (e) بولاق : دبيرة . (f) بولاق : الأدبار .

^١ وادي هُبَيْب هو المعروف اليوم بوادي النُّطْرُون حيث يستخرج من بعض بركة النُّطْرُون المستخدم في الصباغة والدهابة ، ويقع غربي الدلتا جنوبي محافظة البحيرة ويتوصَّل إليه عن طريق الإسكندرية البري (باقوت : معجم البلدان ٤٩: ١٧) .
٢ الوكت . هو التوتيا (علي مبارك : الحطاط التوفيقية ٤٩: ١٧) .
٣ ابن دقماق : الانتصار ٥: ١١٣ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ٤٧٤) .

ذِرَاعًا فِي عَرْضِ خَمْسَةِ أَذْرُعَ ، فِي مَغَارٍ بِالْجَبَلِ ، لَا يُعْلَمُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ ، وَهُوَ حُلُوٌّ رَائِقٌ .

وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ سَبْعُونَ أَلْفَ رَاهِبٍ ، بِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ حُكَّازٌ ، فَتَلَقَّوْا عَثْرًا مِنْ الْعَاصِ بِالطَّرَاقَةِ ، فَرَجَعَهُ مِنَ الْإِسْكَانِ لِيَرِيَّةٍ ، يُطْلَبُونَ أَمَانَهُ لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَذْيَارِهِمْ . فَكَتَبَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَمَانًا بَقِيَ عِنْدَهُمْ ، وَكَتَبَ لَهُمْ أَيْضًا بِجِرَاتِهِ الْوَجْهَ الْبَحْرِي فَاسْتَمَرَّتْ بِأَيْدِيهِمْ . وَإِنَّ جِرَاتِهِمْ جَاءَتْ فِي سَنَةِ زِيَادَةٍ عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ أَرْدَبَ ، وَهِيَ الْآنَ لَا تَبْلُغُ مِائَةَ أَرْدَبَ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ مَدْيَنَ

اعْلَمْ أَنَّ مَدْيَنَ - أُمَّةٌ شُعَيْبٌ - هُمُ يَثْوُ مَدْيَانُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَهْلُهُمْ قَتَطُورَا ابْنَةُ يَطْطَانَ الْكَنْعَانِيَّةِ ، وَلَدَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ مِنَ الْوُلْدِ تَنَاسَلَتْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ .

وَمَدْيَنُ عَلَى بَحْرِ الْقُلُوزِ ، تُحَازِي ثَبُوكَ عَلَى نَحْوِ سِتِّ مَرَايِلَ ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ ثَبُوكَ ، وَبِهَا الْيَثْرُ الَّتِي اسْتَقَى مِنْهَا مُوسَى لِسَائِمَةِ شُعَيْبَ ، وَغَمِلَ عَلَيْهَا يَتَمُ .

^(١) قَالَ الْفَرَّاءُ : مَدْيَنُ اسْمٌ بَلَدِي وَقَطْرِ^(٢) ، وَقِيلَ اسْمُ قَبِيلَةٍ سُمِّيَتْ بِاسْمِ أَبِيهَا مَدْيَنَ ، وَيُقَالُ لَهُ مَدْيَانُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ مَدْيَنَ أَعْجَمِي ، وَقِيلَ / عَرَبِي ، فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «فَعِيلًا» ، مِنْ مَدَنَ بِالْمَكَانِ : أَقَامَ بِهِ ، وَهُوَ بِنَاءٌ نَائِرٌ وَقِيلَ مُهْمَلٌ ، أَوْ «مَفْعَلًا» ، مِنْ دَانَ ، فَتَضَحِيحُهُ شَاذٌ ، وَهُوَ يَمْتَنِعُ الصَّرْفُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، سَوَاءً كَانَ اسْمُ الْأَرْضِ أَوْ اسْمُ الْقَبِيلَةِ ، عَجَبِيًّا أَوْ عَرَبِيًّا^(٣) .

وَقَالَ الْمَشْهُودِيُّ : قَدْ تَنَازَعَ أَهْلُ الشَّرَائِعِ فِي قَوْمِ شُعَيْبَ بْنِ نَوِيلَ^(٤) بْنِ رَعُوِيلَ بْنِ مُزَيْنَ بْنِ غَيْفَاءَ^(٥) ابْنِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ لِسَائِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الدَّائِرَةِ وَالْأُمَّةِ الْبَائِلَةِ ، وَبَعْضُ مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْأَنْجِيَالِ الْخَالِيَةِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْحِصْنِ^(٦) بْنِ جَثْدَلِ بْنِ يَغْصَبَ بْنِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَالِيلِ ، وَأَنَّ شُعَيْبًا أَخُوهُمْ^(٧) فِي النَّسَبِ ؛ وَقَدْ كَانُوا عِدَّةً

(١-٥) ساقط من الأصل . (b) بولاق : نوفل . (c) بولاق : عفا . (d) مروج الذهب : المحض . (e) بولاق :

آخرهم .

ملوك، تفرقوا في ممالك متصلة، فمنهم المسمى بأبجد، وهوز، وحطى، وكلن، وسففس، وقزست.

وهم - على ما ذكرنا - بنو الحصن^(أ) بن جندل، وأحرف الجمل هي أسماء هؤلاء الملوك، وهي الاثنان والعشرون حرفاً التي عليها حساب الجمل. وقد قيل في هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه.

فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز؛ وكان هوز وحطى ملكين ببلاد ورج - وهي الطائف - وما اتصل بذلك من أرض نجد؛ وكلن وسففس وقزست ملوك بئدين وقيل ببلاد مصر، وكان كلن على ملك مدين.

ومن الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سبينا متصلاً على ما ذكرنا، وأن عذاب ﴿يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ كان في ملك كلن منهم، وأن شعبنا دعاهم فكذبوه، فوعدهم بعذاب يوم الظلة^١، ففتح الله^(ب) عليهم باباً من السماء من نار، ونجا شعب بن آمن معه إلى الموضع المعروف بأبيكة^(ج)، وهي غيضة نحو مدين.

فلما أحسن القوم بالبلاء، واشتد عليهم الحزن، وأيقنوا بالهلاك، طلبوا شعبنا ومن آمن معه - وقد أظلمتهم صحابة يضاء، طيبة النسيم والهواء، لا يجدون فيها ألم العذاب - فأخرجوا شعبنا ومن آمن معه من مواضعهم، وأزالوهم عن أماكنهم، وتوهموا أن ذلك يُنجزهم مما نزل بهم، فجعلها الله عليهم نارا فأنت عليهم.

^(٢) فزنت جارية بنت كلن أباه، وكانت بالحجاز، فقالت:

[الرملة]

كلمون قد ركني	هلكه ونط الهل
سبب القوم أناه الح	غف نارا ونط ظله
كوت نارا فأضحت	دار قومي شتمجله ^(٢)

(أ) مروج الذهب: الحضر. (ب) ساقطة من بولاق. (ج) بولاق: بأهله.

^١ يقصد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [آية ١٨٩ سورة الشعراء].
^{٢-٢} هذه الفقرة والآيات ساقطة من مروج الذهب وأوردها ابن النديم في الفهرست ٧، وفي البيت الأخير: جلت نارا عليهم دارهم كالضحلة.

وقال المُتَصِمِر بن المُثِير المَدِيْنِي :

[الطبري]

أَلَا يَا شَعْبُ قَدْ تَطَلَّعْتَ مَقَالَةً أَتَيْتُ^(٥) بِهَا عَمْرًا وَحِي^(٦) بَنِي عَمْرٍو
هَمَّ مَلَكُوا أَرْضَ الْحِجَازِ بِأَوْجِهِ كَتَمْتُ شُعَاعَ الشَّمْسِ فِي صُورَةِ النَّذْرِ
وَهُمْ قَطَعُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَزَيَّنُوا قَطَعُوا وَفَارَّوْا بِالْمَكَارِمِ وَالْفَخْرِ
مُلُوكُ تَبِي حَطِي وَسُفْهَنُ ذِي التَّدَى وَهَوَّزَ أَرْبَابَ الثَّيْبَةِ وَالْحِجْرِ^١

قال المَسْعُودِي: وَلَهُؤُلَاءِ الْمُلُوكُ أَشْبَارٌ عَجِيْبَةٌ مِنْ حُرُوبٍ وَسِيَرٍ، وَكَفَيْتُهُ تَقْلِبُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَمَالِكِ وَتَمَلُّكِهِمْ عَلَيْهَا، وَإِبَادَتِهِمْ مِنْ كَانَ فِيهَا وَعَلَيْهَا^(٢) قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ^٣.

وقيل إِنَّ الْأَيْمَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ١٧٦ سورة الشعراء]، وَفِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْمَةِ لَطَالِمِينَ • فَانْتَقَعْنَا مِنْهُمْ﴾ [الآيات ٧٨، ٧٩ سورة الحجر] هِيَ مَدِيْنَةُ، وَقِيلَ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ إِلَى مَدِيْنَةٍ، وَقِيلَ هِيَ غَيْصَةُ نَحْوِ مَدِيْنَةٍ.

وقيل بل أَصْحَابُ الْأَيْمَةِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ شَعْبٌ كَانُوا بِبَيْتُوكَ بَيْنَ الْحِجْرِ وَأَوَّلِ الشَّامِ، وَلَمْ يَكُنْ شَعْبٌ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ مَدِيْنَةٍ.

وقال أَبُو حَبِيْد الْبَكْرِي: الْأَيْمَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّتِي كَانَتْ مَنَازِلَ قَوْمِ شَعْبٍ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - فِيهَا رِوَايَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ مَدِيْنَةٍ إِلَى شَعْبٍ وَهَذَا^(٤)؛ وَالثَّانِيَةُ أَنَّهَا مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ إِلَى مَدِيْنَةٍ. وَكَانَ شَجَرُهُمُ الْمَثَلُ، وَالْأَيْمَةُ عِنْدَ أَهْلِ اللَّغَةِ: الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ، وَكَانُوا أَصْحَابَ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْأَيْمَةُ الْغَيْصَةُ، وَلَيْكَةُ اسْمُ الْبَلَدِ حَوْلَهَا، كَمَا قِيلَ مَكَّةَ وَبَكَّةَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الثُّخَاسِ: وَلَا يُقَالُ «لَيْكَةُ» اسْمُ بَلَدٍ^(٥).

وقال ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَزْعُمُ أَنَّ بَكَّةَ هُوَ مَوْضِعُ الْمَسْجِدِ، وَمَا حَوْلَهُ مَكَّةَ، كَمَا فُرِّقَ بَيْنَ الْأَيْمَةِ وَلَيْكَةَ، فَقِيلَ الْأَيْمَةُ الْغَيْصَةُ، وَلَيْكَةُ الْبَلَدُ حَوْلَهَا^(٦).

(a) بولاق: أهدت. (b) بولاق: تحي. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: شيب. (e) بولاق: البلد.

^٣ أبو حبيد البكري: معجم ما استعجم ٢١٥-٢١٦.

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٢٨١-٢٨٣.

^٤ ابن قتيبة: غريب الحديث ١: ٤٧٥-٤٧٦.

^٢ نفسه ٢: ٢٨٣.

وقال البكري: مَدِينٌ بَلَدٌ بِالشَّامِ مَعْلُومٌ بِلِقَاءِ غَزَّةَ ، وهو المذكور في كتاب الله تعالى^١ - وهذا وَهْمٌ ، بل مَدِينٌ من أَرْضِ مِصْرَ .

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى مَدِينَةِ مَدِينٍ ، أَمِيرُهُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَصَابَ سَبِيحًا مِنْ أَهْلِ مِثَاءَ (قال ابن إسحاق : ومِثَاءُ هِيَ السَّوَالِجِل) فَبِيعَهَا ، وَفُتِقَ بَيْنَ الْأُمَمَاتِ وَالْأَوْلَادِ ؛ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَتَكُونُونَ ، فَقَالَ : « مَا لَهُمْ ؟ » فَأُخْبِرَ خَبَرَهُمْ ، فَقَالَ : « لَا تَبِيعُوهُمْ إِلَّا جَمِيعًا » .

وَمَدِينٌ مِنْ مَنَازِلِ مُجَذَّامِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ أَدَدَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَرِيبِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ كَهْلَانَ . وَشُعَيْبُ الثَّيْبِيِّ ، الْمَبْعُوثُ إِلَى أَهْلِ مَدِينٍ ، أَخَذَ بَنِي وَائِلَ / مِنْ مُجَذَّامِ .
وَقَدْ رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَوْ قَدْ مُجَذَّامِ : « مَرْغَبًا بِقَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَضْهَارِ مُوسَى ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْتَرِجَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ وَيُولَدَ لَهُ » .

وقال محمد بن سهل الأحمول: مَدِينٌ مِنْ أَغْرَاضِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا^٢ ، مِثْلَ فَذَكِ وَالْفُرُوعِ وَرَهَاطِ^٣ .

قال مؤلفه : وَكَانَ بِأَرْضِ مَدِينٍ عِدَّةُ مَدَائِنَ كَثِيرَةٌ قَدْ بَادَ أَهْلُهَا وَخَرِبَتْ ، وَبَقِيَ مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا - وَهُوَ سَنَةُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ^٤ - نَحْوُ الْأَرْبَعِينَ مَدِينَةً قَائِمَةً ، مِنْهَا مَا يُعْرَفُ اسْمُهُ ، وَمِنْهَا مَا قَدْ جُهِلَ اسْمُهُ ؛ فَمِمَّا يُعْرَفُ اسْمُهُ - فِيمَا بَيْنَ أَرْضِ الْحِجَازِ وَبِلَادِ فَلَسْطِينَ وَدِيَارِ مِصْرَ - سِتُّ عَشْرَةَ مَدِينَةً ، مِنْهَا فِي نَاحِيَةِ فَلَسْطِينَ عَشْرُ مَدَائِنَ ، وَهِيَ : الْخَلَصَةُ ، وَالشَّيْطَلَةُ^٥ ، وَالْمَذْرَةُ ، وَالْمُثَنِيَّةُ ، وَالْأَعْوَجُ ، وَالْخَوْرَقُ ، وَالْيَرْزِينُ ، وَالْمَائَعَيْنُ ، وَالْمَشْبَعُ ، وَالْمُثَلَّقُ ؛ وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْمَدَائِنَ الْعَشْرَ مَدِينَتَا^٦ الْخَلَصَةُ وَالشَّيْطَلَةُ^٧ ، وَكَثِيرًا مَا تُنْقَلُ حِجَارَتُهَا إِلَى غَزَّةَ وَيُنْتَى بِهَا هُنَاكَ .

وَمِنْ مَدِينٍ^٨ مَدِينٌ بِنَاحِيَةِ بَحْرِ الْقَلْزُومِ وَالطُّورِ مَدِينَةُ فَارَانَ ، وَمَدِينَةُ الرُّقَّةِ^٩ ، وَمَدِينَةُ الْقَلْزُومِ ، وَمَدِينَةُ أَيْلَةَ ، وَمَدِينَةُ مَدِينٍ . وَمَدِينَةُ مَدِينٍ إِلَى الْآنَ أَثَارٌ عَجِيبَةٌ ، وَغُمْدٌ عَظِيمَةٌ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : السبيطة . (c) بولاق : مدائن .

^١ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٤ : ١٢٠١ . التاريخ هو تاريخ تأليف الخطط !

^٢ نفسه ٤ : ١٢٠١ .
^٣ انظر عنها فيما يلي ٦١٧ .

^٤ اعتبر كاترمير Quatremère وجست Guest هذا

ووجد في مدينة الأعوج، أعوام بضع وستين وسبع مائة، حُبْ بَقْلَتِهَا بعيد المهوى، يبلغ عُقْمُهُ نحو مائة باع^(a)، وبقاعه عِدَّة أشفار على رُفوف، حُجِّلَ منها سيفر طوله ذراعان وأزَيْد، قد غُلِفَ بَلَوَحِينَ من خَشَب، وكنانة بالقلم المُشْتَد، طول الألف واللام نحو شبر. فوجد ببلاد الكرك من قرأه، فإذا هو سيفر من عشرة أشفار، قد ابتدأه بحمد الله، ثم قال: خُروج موسى من أرض مصر إلى بلاد مدين، وملوك بني مدين فيما بعد شُعَيْب. فَذَكَرَ لموسى - عليه السلام - عِدَّة أسماء منها: اسمه بالعربية موسى بن عمران، وبالغبرانية مُوشى، وبالفارسية داران، وبالقيبطية هُروهسيس؛ وذَكَرَ أَنَّهُ تَزَوَّج ابنة شُعَيْب، وَأَنَّهُ أَقام بمدين ثمانين حَجَج، ثم قال لابنة شُعَيْب: قد أَتَمَمْتُ لك شَوطك، وسأزيدك من عندي^(b) ستين فَضْلاً مِنِّي^(c).

قال^١: وَخَرَجَ موسى مُتَوَجِّهاً إلى مصر، والملك يومئذ على مدين أئبجد. قال: وقوي أقر أئبجد، فطغى حتى ملكَ الحجاز واليمن، وكان له خمسة أولاد، هم: هوز، وحطى، وكلمن، وسغفص، وقَرَشَت. فأقام أئبجد ملكاً باليمن مائة سنة ومات.

وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن، وجعل ابنه هوز على الحجاز، وابنه حطى على أرض مصر، وابنه سغفص على الجزيرة وبلادها حيث المؤصل وحوان إلى أرض العراق، وابنه قَرَشَت على العراق ومشارفها من خراسان. وكان قَرَشَت هو الجبار فيهم، وكان سغفص وهوز وكلمن أهل عدل وحلم، وكان حطى صاحب بطش وخوب^(d). وكان بثو إسرائيل إذ ذاك بالشام، فلم يملك أولاد أئبجد أرض الشام، ولا اختروا عليها. وكانت ثلثة ملكهم نحواً من مائة وخمسين سنة؛ فتم لهم بدولة أيهم أئبجد ثلاث مائة سنة وأزَيْد. ثم ملك بعدهم على بني إسرائيل روزيب بن هوز، وعزيب بن حطى بن أئبجد، نحو سبع سنين. ثم خَرَجَت الدولة عن أولاد أئبجد. وأقام هذا الكتاب عندهم زماناً، ثم أعادوه إلى الحُب من قلعة الأعوج.

٢٠ حدثني بهذا الخبر الحافظ المتيقن الضابط أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي الثوسي المالكي^٢، قال: حدثني به شُعَيْب بن عُثَيْم العامري - شيخ لقبيته بأرض فلسطين - أَنَّهُ شاهدَ هذا الكتاب^(e) وهو شاب، وحفظ منه ما تقدم ذكره.

(a) بولاق: ذراع. (b) ساقطة من بولاق. (c) بعد ذلك في بولاق والنسخ التي من عائلتها عنوان هو: بقية خير مدينة مدين. (d) بولاق: وجرة. (e) بولاق: شاهد الكتاب المذكور.

وقيل إن مالِك بن دَعْر بن حُجْر بن مُجْدَلَة بن لَحْم، كان له أربعة وعشرون وَلَدًا ذَكَرًا، فَكَثُرَتْ أَوْلَادُهُمْ حَتَّى أَتَوْا الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى وَالْحُصُون، وَعَمَرُوا بِلَادَ مَدَنٍ كُلِّهَا، وَغَلَبُوا عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَغَيْرِهَا خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ.

وقيل إنما كان استيلاءُ مُلُوكِ مَدَنٍ عَلَى مِصْرَ خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ، بَعْدَ غَرْقِ فِرْعَوْنَ مُوسَى وَهَلَاكِ دَلُوكَةِ بَنَتِ زَيْبَانَ^(٨)، حَتَّى أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، فَعَاذَ الْمَلِكُ إِلَى التَّيْبَطِ بَقَدَمِهِمْ^(٩).

ذِكْرُ مَدِينَةِ فَارَانَ

هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِسَاحِلِ بَحْرِ الْقُلُزْمِ^(١٠)، وَهِيَ مِنْ مَدَنِ الْعَمَالِيقِ، عَلَى ثَلَاثِينَ جَبَلَيْنِ، وَفِي الْجَبَلَيْنِ ثَقُوبٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى تَمْلُؤُهُ أَمْوَالًا.

وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى بَحْرِ الْقُلُزْمِ مَرَحَلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَيُقَالُ لَهُ هُنَاكَ سَاحِلُ بَحْرِ فَارَانَ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي أَعْرَقَ اللَّهُ فِيهِ فِرْعَوْنَ. وَبَيْنَ مَدِينَةِ فَارَانَ وَالثَّيِّهِ مَرَحِلَتَانِ.

وَيُذَكَّرُ أَنَّ فَارَانَ اسْمٌ لَجِبَالِ مَكَّةَ، وَقِيلَ اسْمٌ لَجِبَالِ الْحِجَازِ، وَهِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي التَّوْرَةِ^(١١). وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ فَارَانَ وَالطُّورَ كُورَتَانِ مِنْ كُورَ مِصْرَ الْقِبْلِيَّةِ، وَهِيَ غَيْرُ فَارَانَ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّوْرَةِ. وَقِيلَ إِنَّ فَارَانَ بَنَ عُمَرُو بْنُ عَمَلِيقَ هُوَ الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ جِبَالُ الْحَرَمِ، فَقِيلَ جِبَالُ فَارَانَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ جِبَالُ قَرَانَ. ^(١٢) وَالْمَشْهُورُ أَنَّ فَرَانَ هُوَ قَرَانَ بَنَ بَلْغِي بْنِ عَمَرُو بْنِ الْحَافِ إِلَيْهِ يُنْسَبُ مَعْدَنُ فَرَانَ^(١٣).

وَكَانَتْ مَدِينَةُ فَارَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَدَائِنِ مَدَنٍ وَبِهَا إِلَى الْيَوْمِ نَخْلٌ^(١٤) كَثِيرٌ مُثْمَرٌ أَكَلْتُ مِنْ ثَمَرِهِ، وَبِهَا نَهْرٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ خَرَابٌ يَمُوتُ بِهَا الْعُزْبَانُ.

(٨) بولاق: زباء. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: وبها نخل كثير.

^١ انظر فيما تقدم ٣٨٩.

محافظة جنوب سيناء (محمد رمزي: القاموس الجغرافي

١٠٣٤٢:١).

^٢ اندثرت اليوم هذه المدينة وكانت واقعة في وادي فاران

^٣ بولاق: معجم البلدان ٢٢٥:٤ نقلًا عن القضاخي.

الذي يُعرف اليوم بروادي فيران بين سلسلة جبال طور سيناء في

١/ ذكر أرض الجفار

- اعلم أن الجفار^١ اسم لخمس مدينتين وهي : الفرما ، والبقارة ، والوزادة ، والعريش ، ورفع . والجفار كله رمل ، وسُمي بالجفار لشدة المشي فيه على الناس والدواب ، من كثرة رمله ويُعدّ مراحله . والجفار تجر فيه الإبل^٢ ، فأتخذ له هذا الاسم ، كما قيل للجبل الذي يُهجر به البعير هجر ، وللذي يُهجر به حمار ، وللذي يُعقل به عقال ، وللذي يُطعن به بطن ، وللذي يُخطم به خطام ، وللذي يُزم به زمام .

واشتقت البقارة من البقر ، والوزادة من الوريد^٣ ، والعريش أُخذ من العرش ، وقيل إن رفع اسم جبل^٤ . وكان يمشن الجفار في القدم لجذام بن الغزيان .

- ويقال إن أرض الجفار كانت في الدهر الأول والزمن الغابر متصلةً بالعمارة ، كثيرةً البركات ، مشهورةً بالخيرات ، لكثرة زراعة أهلها الرغفران والغصفر وقصب السكر . وكان ماؤها غزيرًا عذبًا ، ثم صار بها نخلٌ يُحْدِق بها من كل النواحي ، إلى أن دمرها الله تدميرًا ، فصارت إلى اليوم ذات رملٍ عظيم يُشَلِّك فيه إلى العريش وإلى رفع ، كله قفر ، يُعرف بعضه^٥ برمل الغرابي ، قليل الماء ، عديم المروعي ، لا أنيس به ، فسبحان مُحيل الأحوال .

في تضييع مصر

- الصعيد^٦ : المُرْتَقِع من الأرض ، وقيل الأرض المُتَوَقِّعة من الأرض المُتَخَفِضة ، وقيل ما لم يُخالطه رمل ولا سبخة ، وقيل هو وَجْه الأرض ، وقيل الأرض الطيبة ، وقيل هو كلُّ ثرابٍ طيب .

(٦) في مسالك الأبصار مصدر الحبر : الورد . (ب) بولاق : تعرف بقبته .

^١ من كور مصر الشرقية ، ذكرها قوت أنها جمع جفر نحو فوج

وغيره ، وهي سعة في الأرض مستديرة ، والجفر كذلك لغير القرية

القرى الواسعة . مكانها اليوم المنطقة التي كانت تجوز بها السكة الحديدية

المرحلة من القنطرة إلى العريش ثم إلى رفع في محافظة شمال سيناء ،

وكانت تمتد غربًا إلى عربة قل المسخوطة بأراضي ناحية أبو صوير

بمركز أبو عكاد بمحافظة الشرقية على بعد ١٦ كم غربي مدينة

الإساعيلية (باقوت : معجم البلدان ١٤٤: ١١٤٦ محمد

رمزي : القاموس الجغرافي ١: ٤١-٤٢) .

^٢ تجفر أي تهلك .

^٣ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مالك مصر

والشام) ٩٤-٩٥ .

^٤ انظر مقال جارسان *Et art. Saïd* Garcin, J.-Cl.,

Misr VIII, pp. 892-97 و *Maspero & Wiet*,

Matériaux I, pp. 173-79 .

وتسميته هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدثت في الإسلام، سمّاها العرب بذلك لأنها جهة مُرْتَفَعَةٍ عما دونها من أرض مصر، ولذلك يُقال فيها أغلى الأرض، ولأنها أرض ليس فيها رمل ولا سباح، بل كلها أرض طيبة مباركة. ويُقال للصعيد أيضًا «الوجه القليل».

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: ولما حضرت مصرية الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، وكان قد قسم أرض مصر بين ينيه: فجعل لقبطيم من بلد يقطع إلى أشوان [إلى الثوبة]^(a)، ولأشمون من بلد أشمون إلى منف، ولأثريب الخوف كله [إلى الشجرتين إلى أيلة من الحجاز]^(a)، ولصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب بركة؛ وقال لأخيه فارق: لك من بركة إلى الغرب، فهو صاحب إفريقيا، وولده الأفارق؛ وأمر كل واحد من بنيه أن يتبنى لنفسه مدينة في موضعه^١.

وقال ابن عبد الحكم: فلما كثُر ولد مضر وأولاد أولادهم، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده، وقسم لهم هذا النيل. فقطع لابنه فقط موضع فقط فسكنها، وبه سُميت فقط فقطًا، وما قوقها إلى أشوان، وما دونها إلى أشمون في الشرق والغرب. وقطع لأشمون من أشمون، فما دونها في الشرق والغرب، إلى منف، فسكن أشمون أشمون، فسُميت به. وقطع لأثريب ما بين منف إلى صا، فسكن أثريب، فسُميت به. وقطع لصا ما بين صا إلى البحر، فسكن صا فسُميت به. فكانت مضر كلها على أربعة أجزاء؛ مجزعين بالصعيد، ومجزعين بأشقل الأرض^٢.

وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي^٣ في كتاب «الطالع السعيد في تاريخ الصعيد»: مسافة إقليم الصعيد الأعلى مسيرة اثني عشر يومًا يسير الجمال [السير المعتاد]^(b)، وعرضه ثلاث ساعات وأكثر [وأقل]^(b) بحسب الأماكن العائرة. ويتصل عرضه في الكورة

(a) زيادة من النوري. (b) زيادة من الأدفوي.

الحج سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٤م. اشتهر بكتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجهاء الصعيد» الذي أتمه سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م، وإن ظل ينظر فيه وينقحه إلى ما قبل وفاته، وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ هنا (الصفي: الوالي بالوفيات ١١: ٩٩-١١: ١٠٠ المقرئ: السلوك ٢: ٧٩٣؛ أبو الحسن: النجوم ١٠: ٢٣٧، ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ٧٢-٧٣).

^١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٤٤٥؛ المسعودي: أخبار الزمان ١١٥٤ وفيها تقدم ٤٩، ٣٧٠.

^٢ ابن عبد الحكم: فوج مصر ٩.

^٣ كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي الشافعي، ولد في أدفو بصعيد مصر سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ودرس في قوص، ثم قصد القاهرة حيث التقى بشيخه أثير الدين أبي حيان، وتوفي في القاهرة بعد عودته من

الشرقية بالبحر المِلْح وأراضي البجّة ، وفي الغربية بالوِاح ، وهي كُوزَتَان : شَرْوِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ ، والنَّيْلُ بينهما فاصِلٌ .

وأوّلُ الشَّرَوِيَّةِ من مَزَجِ بني هُخَيْمٍ ، المتَّصلة أَرْضُهَا بأراضي جَزْجَا من عمل إِنْخِمْمٍ ، وآخِرُهَا من قِبَلِي أَبْهَرٌ^٨ ، ويليهما أوّلُ أراضي الثَّوْبَةِ ، وفي هذه الكُوزَةِ تَبِيجٌ وَقِطٌّ وَقُوصٌ^١ .

وأوّلُ الكُوزَةِ الغربية بِزَيْدِيسٍ تتَّصلُ أَرْضُهَا بأَرْضِ جَزْجَا ، وفي هذه الكُوزَةِ الغَرْبِيَّةِ سُتْهُودٌ ، وآخرُ الكُوزَةِ الغَرْبِيَّةِ أَشْوَانٌ ، وبِحَافِيهِ أَكْثَرُ النَّخْلِ من الجَانِبَيْنِ ، تكونُ مِسَاحَةُ الأَرْضِ التي فيها النَّخْلُ والبَسَاتِينُ ثُقَارِبَ عَشْرِينَ أَلْفَ قَدَانٍ ، والمَمْتَوِلِي على إِقْلِيمِ الصَّعِيدِ المُشْتَرَى^٢ .

ويُقَالُ كانَ بِصَعِيدِ مِصْرَ نَخْلَةٌ تَحْمِلُ عَشْرَةَ أَرَادِبٍ تَمْرًا ، فَغَضَبَتْهَا بَعْضُ الْوَلَاةِ ، فَلَمْ تَحْمَلْ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَلَا تَمْرَةً وَاحِدَةً ، وَكَانَتْ هَذِهِ النَّخْلَةُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ، وَيَبِيعُ مِنْهَا فِي الْغَلَاءِ كُلَّ وَتِيَّةٍ بِدِينَارٍ .

ويُقَالُ لَمَّا صُوِّرَتِ الدُّنْيَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّشِيدِ ، لَمْ يَسْتَخْسِرِ إِلَّا كُوزَةَ سُيُوطٍ مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ ، فَإِنَّهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَدَانٍ فِي اسْتِوَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ ، لَوْ وَقَعَتْ فِيهَا قَطْرَةٌ مَاءٍ لَانْتَشَرَتْ فِي جَمِيعِهَا .

وبالصَّعِيدِ بَقَايَا سِخْرِ قَدِيمٍ ؛ حَكَى الْأَمِيرُ طُفْقُصًا^٣ - وَالِي قُوصٍ فِي أَيَّامِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ - قَالَ : أَمْسَكْتُ امْرَأَةً سَاجِرَةً فَقُلْتُ لَهَا : أُرِيدُ أَنْ أَبْصِرَ شَيْئًا مِنْ سِخْرِكَ ؛ فَقَالَتْ : أَجُودُ عَمَلِي أَنْ أَشْحَرَ الْعَقْرَبَ عَلَى اسْمِ شَخْصٍ بَعِثْتُهُ ، فَلَا بُدَّ أَنْ نَقَعَ عَلَيْهِ ، وَيُصِيبُهُ سُهُمُهَا فَتَقْتُلُهُ ؛ فَقُلْتُ : أَرِنِي هَذَا ، وَأَقْصِدْنِي بِسِخْرِكَ .

فَأَخَذْتُ عَقْرَبًا وَغَمِلْتُ مَا أَحْبَبْتُ ، ثُمَّ أَوْسَلْتُ الْعَقْرَبَ قَتِيعَتِي ، وَأَنَا أَتَتَخَى عَنْهُ ، وَهُوَ يَقْصِدُنِي ؛ فَجَلَسْتُ عَلَى تَحْتٍ وَضَعْتُهُ عَلَى بِرْكَةِ مَاءٍ ، فَأَقْبَلَ الْعَقْرَبُ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ، وَأَخَذَ فِي

(٨) بولاق : الهر .

هناك بالمصر تسعة أشهر ، وعُكِّرَ حتى توفي سنة ٧٤٥هـ /

^١ الأدفوي : الطالع السعيد ٧ - ٨ .

١٣٤٥م (المقريزي : المقفى الكبير ٤ : ٣٠ - ٣٣ ، ابن حجر :

^٢ نفسه ١٨ .

الدرر الكامنة ٢ : ٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ أبو المحاسن : التجوم الزاهرة

^٣ الأمير سيف الدين طُفْقُصًا الحسامي الظاهري ، أحد المالكات الظاهرية بريس ، ترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وغزا النوبة في سنة ٧٠٥هـ ، وصير إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث

Garcin, J.-Cl., *Un center musulman de* ١١١ : ١٠

(*la Haute - Égypte médiévale*, pp. 195-96, 229 .

التوصل إلي فلم يطق ذلك ، فتمز إلى الحائط ، وصعد فيه وأنا أشاهده ، حتى وصل إلى الشف ، /
ومر فيه إلى أن صار قوحي ، وألقى نفسه صوبي ، وسعى نحوي حتى قرب مني ، فصرته فقتلته ،
ثم قتلت الشاجرة أبطاً^١ .

وأرض الصعيد كثيرة المواشي ، من الضأن وغير ذلك لكثرة إنتاجه ، حتى إن الرأس الواحد من
يعاج الضأن يتولد عنه في عشر سنين ألف وأربعة وعشرون رأساً وذلك بتقدير السلامة ، وأن تلد
كلها إنثاء ، وتلد مرة واحدة كل سنة ، ولا تلد في كل بطن غير رأس واحد ، وإلا فإن ولدت في
السنة مرتين ، وكان في كل بطن رأسان ، تضاعف العدد . وتأمل حساب ما قلناه نجده صحيحاً .
وقد شوهد كثيراً أن من أعنام الصعيد ما تلد في السنة ثلاث مرات ، وتلد في البطن الواحد ثلاثة
رؤوس .

وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لسبب قبائل وهم : بنو هلال ، وبلي ، وجبهية ، وقريش ،
ولواتة ، وبنو كلاب . وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ومن مذبذبة وبنو زراح^٢
وبني كلاب وقبيلة ومجدام .

وتلغ من عمارة الصعيد أن الرجل ، في الأيام الناصرية^٣ محمد بن قلاوون وما بعدها ، كان
يتمز من القاهرة إلى أشوان فلا يحتاج إلى نفقة ، بل يجد بكل بلد وناحية عدة دور للضيافة إذا
دخل داراً منها أخضر لدابته علفها وجيء له بما يليق به من الأكل ونحوه ، وآل أمره الآن إلى ألا
يجد الرجل أحداً فيما بين القاهرة وأشوان يضيقه لضيق الحال .

ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقي في الأيام الأشرفية^٤ شعبان بن حسين بن
محمد ابن قلاوون سنة ست وسبعين وسبع مائة ، وتزايدت تلاشي في الأيام الظاهرية^٥ بوقوق
لمجور الولاة ، ولم يزل في إذهار إلى أن كانت سنة ست وثمان مائة وشرفت مصر بقصور مد
الليل ، فذهي أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف ، حتى إنه مات من مدينة قوص سبعة عشر
ألف إنسان ، ومات من مدينة شيوط أحد عشر ألف إنسان ممن غشيل وكفن ، ومن مدينة هو
خمسة عشر ألف إنسان وذلك كله سوى الطرقي على الطرقات ، ومن لا يعرف من الغزاة

(a) بولاق : دراج . (b) بولاق : أيام الناصر . (c) بولاق : أيام الأشرف . (d) بولاق : أيام الظاهر .

^١ نقل عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٧ .

وَنَحْوَهُمْ . ثُمَّ دُمِّرَ فِي الْأَيَّامِ الْمُؤَيَّدَةِ^١ شَيْخٌ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رُسُومٌ تَبْدُلُ الرُّوَاةَ الْجُهْدَ فِي مَعْرِهَا ، نَسَّأَلُ اللَّهَ مُحَسِّنَ الْحَقَائِمَةِ .

ذِكْرُ الْجَنَادِلِ وَلَمْعٌ مِنْ أُخْبَارِ أَرْضِ الثُّوبَةِ

الْجَنْدَلُ مَا يَتَلَّى الرَّجُلُ مِنَ الْحِجَازَةِ ، وَقِيلَ هُوَ الْحَجَرُ كُلُّهُ ، الْوَاحِدَةُ جَنْدَلَةٌ .

- وَالْجَنْدَلُ الْجَنَادِلُ ، قَالَ سِيَّوِيَّةٌ : وَقَالُوا جَنْدَلٌ يَعْنُونَ الْجَنَادِلَ ، وَصَرَفُوهُ لثَقُفَانِ الْبِنَاءِ عَمَّا لَا يَتَصَرَّفُ ، وَأَرْضٌ جَنْدَلَةٌ : ذَاتُ جَنْدَلٍ ؛ وَقِيلَ الْجَنْدَلُ الْمَكَانُ الْغَلِيظُ فِيهِ جِجَارَةٌ ، وَمَكَانٌ جَنْدَلٌ : كَثِيرُ الْجَنْدَلِ^١ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمٍ الْأُسْوَانِيُّ^٢ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الثُّوبَةِ وَالْمَقَرَّةِ وَعِلْوَةِ وَالبَحْجَةِ وَالْبَيْلِ» : وَأَوَّلُ بَلَدِ الثُّوبَةِ قَرْيَةٌ تُقَرَفُ بِالْقَصْرِ^٣ مِنْ أُسْوَانَ إِلَيْهَا خَمْسَةُ أَمْيَالٍ ، وَآخِرُ حِصْنٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِحَزِيرَةِ تُقَرَفُ بِبِلَاقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرْيَةِ الثُّوبَةِ مِيلٌ ، وَهُوَ سَاحِلُ بَلَدِ الثُّوبَةِ^٤ .

(a) بولاق : أيام المزيدي .

٤: ٥٧٤-٥٧٦؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي

العربي ٢١٠-٢١١؛ Troupeau, G., «La description de la Nubie d'al-Uswānī», *Arabica* I (1954), pp. 276-88; Brockelmann, C., *GAL* S I, 410; Yusuf Fadi Hasan, *El*^١ art. *Ibn Sulaym al-Uswānī* III, p. 973؛ وجمع خند محمد خير النصوص التي وردت عن ابن سليم وعلى الأخص لدى المقرئ في مقاله Kheir, H.M., «A Contribution to a Textual Problem: Ibn Sulaym al-Aswānī's *Kitāb Akhbār al-Nūba wal-Maḡurra wal-Begā wal-Nīl*», *An. Isl. XXI* (1985), pp. 9-72؛ الذي أهاد نشره في مجلة أرابيكا (1989), pp. 36-80 (*Arabica* XXXVI).

^٣ عن قرية القصر انظر فيما يلي ٢٥٤٠ وانظر كذلك المسعودي : أخبار الرمان ٦٦-٦٧ ومقال كريستيد وبوزورث Christides, V. & Bosworth, C.E., *El*^٢ art. *Nūba* VIII, pp. 90-93.

^٤ انظر فيما يلي ٥٤٠.

^١ سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٧ ، ٣ : ٣٤٢ .

^٢ عاش عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في منتصف القرن الرابع الهجري ، ولم يعطنا المقرئ في ترجمته التي أفردنا له في كتاب «المقفى الكبير» أي تحديد لتاريخ ميلاده أو وفاته ، وإنما ذكر أن القائد جُوهر الصقلي بعث بكتاب إلى قيرفي ، ملك الثوبَةِ ، يعرض عليه فيه الإسلام وتسديد البُطْ (انظر فيما يلي ٢٠٠:١) ، وعلى هذا يكون مسيره في هذه البعثة في الفترة بين سنتي ٣٥٨هـ (وصول جوهر إلى مصر) و٣٦٣هـ (وصول للمز إلى مصر) ، وألف كتابا وصف فيه المناطق التي زارها في جنوب مصر وقدمه إلى الخليفة الفاطمي الثاني في مصر العزيز بالله ، وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ هنا ؛ ولا نعرف هذا الكتاب إلا عن طريق النقول التي وصلت إلينا عنه لدى ثلاثة مؤلفين متأخرين هم : المقرئ وابن لباس والمنوفي . (المقرئ : المقفى الكبير

ومن أشوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحَجَر، لا تشلُكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يُخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأن هذه الجنادل مُتَقَطَّعة وشعاب مُفترضة في النيل، ولا نصيبها فيها خَريرٌ عَظِيمٌ ودويٌّ يُسمع من بُعد.

وبهذه القرية مشلحة وباب إلى بلد الثوبة، ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد الثوبة عشر مراحل. وهي الناحية التي يَصْرُوف فيها المسلمون، ولهم فيما قَرَب أُملاك، ويُسْجَرُون في أغلاها. وفيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يُفْصِح أحدهم بالقرية، وسَجَرُها كثير.

وهي ناحية ضيقة شطقة كثيرة الجبال، وما تخرج عن النيل، وقراها مُتَسَطِّرة على شاطئها، وسَجَرُها النخل والمُقل، وأغلاها أوسع من أذناها، وفي أغلاها الكُروم. والنيل لا يَزُوي مزارعها لارتفاع أرضها، وزرعها القَدَان والقَدَانان والثلاثة على أغناق البقر بالدواليب.

والقَمْشُ عندهم قليلٌ والشعيرُ أَكْثَرُ والثَلثُ، ويتقنّبون الأرض لضيقها فيزرعونها في الصيف، بعد تطريتها بالزُّبُل والثراب، الدُّخْنُ والدُّرَّة والجاوزس والسَّمْسَم واللُّوينا.

وفي هذه الناحية بخراش مدينة المريسى^(a)، وقلة إبريم، وقلة أخرى دونها، ولها^(b) مينا تُعرف بأدراء يُنسب إليها لُفْمان الحكيم وذو الثون، وبها يزبأ عجيب.

ولهذه الناحية والى من قِبَل عَظِيم الثوبة يُعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام. ومن يَخْرُج إلى بلد الثوبة من المسلمين فمعاملته معه، في تجارة أو هدية إليه أو إلى مَوْلَاهُ، يَقْبَل الجميع ويكافئ عليه بالزُّقِيق، ولا يُطْلِق لأحد الصعود إلى مَوْلَاهُ لا لمُسْلِم ولا لغيره.

وأول الجنادل من بلد الثوبة قرية تُعرف بتقوى هي ساجل، وإليها تنتهي مراكب الثوبة المُصْعَدَة من القصر أول بلدهم، ولا تتجاوزها المراكب، ولا يُطْلَق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، ومنها إلى^(c) المَقْس الأعلى ست مراحل. وهي جنادل كلها، وشُرُ ناحية رأيتها لهم لصُعوبتها وضيقها ومَشَقَّة مسالكها.

أما يَحْزُها فجنادل وجبال مُفترضة فيه، حتى أن النيل يُعَصَّب من شعابٍ ويضيق في مواضع حتى يكون سعة ما بين/ الجابين خمسين ذراعاً.

وبزها مجابوب ضيقة وجبال شاهدة وطُرقات ضيقة، حتى لا يُمكن الراكب أن يَضَعْد منها، والراجل الضعيف يَفْجِر عن سلوكها، ورمالٌ في غربيها وشرقيها. وهذه الجبال حِصْنهم، وإليها

(a) بولاق : المريس . (b) بولاق : بها . (c) ساقطة من بولاق .

يَفْزَعُ أَهْلُ النَّاحِيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا الْمُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ الْإِسْلَامِ . وَفِي جَزَائِرِهَا نَخْلٌ يَسِيرُ ، وَزَرْعٌ خَفِيرٌ ،
وَكَثْرُ أَكْلِهِمُ السَّمَكِ ، وَيَذْهَبُونَ بِشَخِيمِهِ .

وَهِيَ مِنْ أَرْضِ مَرِيسَ ، وَصَاحِبُ الْجَبَلِ وَالْيَهْمِ ، وَالْمُسْلَخَةُ بِالْمَقَسِ الْأَعْلَى صَاحِبُهَا مِنْ قَبْلِ
كَبِيرِهِمْ شَدِيدُ الضُّبُطِ لَهَا ، حَتَّى إِنَّ عَظِيمَهُمْ إِذَا صَارَ بِهَا وَقَفَ بِهِ الْمُسْلَحِيُّ وَأَوْهَمَ أَنَّهُ يُفْتَشُّ
عَلَيْهِ ، حَتَّى يَجِدَ الطَّرِيقَ إِلَى وَلَدِهِ وَوَزِيرِهِ فَمِنْ دُونِهِمَا .

وَلَا يَجُوزُهَا دِهْنَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِذْ كَانُوا لَا يَتَبَايَعُونَ بِذَلِكَ إِلَّا دُونَ الْجَنَادِلِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا
فَوْقَ ذَلِكَ لَا يَتَّعُ بَيْنَهُمْ وَلَا شِرَاءً ، وَأَمَّا هِيَ مُعَاوَضَةٌ بِالزُّوقِ وَالْمَوَاشِيِّ وَالْجِمَالِ^٥ وَالْحَدِيدِ
وَالْحُجُوبِ .

وَلَا يُطْلَقُ لِأَحَدٍ أَنْ يَجُوزَهَا إِلَّا بِإِذْنِ الْمَلِكِ ، وَمَنْ خَالَفَ كَانَ جَزَاؤُهُ الْقَتْلُ كَأَيْتَانِ مَنْ كَانَ .
وَبِهَذَا الْاِخْتِطَاطِ تَنَكَّرَ أَخْبَارُهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الْعَشَكْرَ مِنْهُمْ يَهْجُمُ عَلَى الْبَلَدِ إِلَى الْبَادِيَةِ وَغَيْرِهِمْ فَلَا
يَعْلَمُونَ بِهِ .

وَالشُّبَّاذُ^١ ، الَّذِي يُخَرِّطُ بِهِ الْجَوْهَرُ ، يُخْرَجُ مِنَ الثَّلِثِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ، يُقَطَّسُ عَلَيْهِ فَيُوجَدُ
جَسْمُهُ بَارِدًا مُحَالِفًا لِلْجِجَارَةِ ، فَإِذَا أَشْكِلَ عَلَيْهِ نُفِخَ فِيهِ بِالْقَمِ فَيَفْرَقُ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمُسْلَخَةِ إِلَى قَرْيَةٍ تُعْرَفُ بِسَايِ جَنَادِلٍ أَيْضًا ، وَهِيَ أَنْجِرُ كُرْسِيهِمْ ، وَلَهُمْ فِيهَا
أَشَقْفٌ ، وَفِيهَا يَزْبَا .

ثُمَّ نَاحِيَةُ سَقْلُوذَا ، وَتَقْسِيرُهَا السَّبْعُ وَآلَاةٌ ، وَهِيَ أَشْبَهُ الْأَرْضِ بِالْأَرْضِ الْمَتَاخِمَةِ لِأَرْضِ الْإِسْلَامِ
فِي الشَّعَةِ وَالضُّمِيقِ فِي مَوَاضِعِ النَّخْلِ وَالكَزْمِ وَالزُّرْعِ وَشَجَرِ الْمُقْلِ . وَفِيهَا شَيْءٌ مِنْ شَجَرِ الْقُطْنِ ،
وَيُعْتَمَلُ مِنْهُ ثِيَابٌ وَخَشَّةٌ ، وَبِهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ .

وَوَالِيهَا مِنْ قَبْلِ كَبِيرِهِمْ ، وَتَحْتَ يَدِهِ وَآلَاةٌ يَنْصَرُّونَ . وَفِيهَا قَلْعَةٌ تُعْرَفُ بِأَصْطَنُونِ ، وَهِيَ أَوَّلُ
الْجَنَادِلِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ أَشَدُّ الْجَنَادِلِ شُعُوبَةً لِأَنَّ فِيهَا جَبَلًا مُعْتَرِضًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ فِي الثَّلِثِ ،
وَالْمَاءُ يُنْصَبُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ - وَرَبَّمَا رَجَعَ إِلَى بَاتِنِ عِنْدَ أَنْجِسَارِهِ - شَدِيدُ الْخَرِيرِ عَجِيبُ الْمُنْظَرِ ،
يَنْحَدِرُ الْمَاءُ عَلَيْهِ مِنْ غُلُوِّ الْجَبَلِ .

(٥) بولاق : الجبال .

^١ الشُّبَّاذُ أَوْ الشُّبَّاذَجُ ، حَجَرٌ يَسْتَقْ ، فَارْسِي مَرْبِ (الْفَيْرُوزْآبَادِي : الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ ٤٢٦) .

وقبليه قَرْشَ حِجَازَةٍ فِي النَّيْلِ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَيْدٍ إِلَى قَرِيَةِ تُقْرَفُ بِبِشْتُو، وَهِيَ آخِرُ قَرْيَ مَرِيسَ وَأَوَّلُ بَلَدٍ مُقَرَّةٍ. وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى حَدِّ الْمُسْلِمِينَ لِسَانَهُمْ مَرِيسِي، وَهِيَ آخِرُ عَمَلٍ مُتَمَلِّكِهِمْ. ثُمَّ نَاحِيَةُ بَشُون، وَتَقْسِيرُهَا الْقَجَب، وَهِيَ عِنْدَ أَشْهُمِهَا لِحْشِنُهَا. وَمَا رَأَيْتُ عَلَى النَّيْلِ أَوْشَعَ مِنْهَا. وَقَلَّزْتُ أَنَّ سَعَةَ النَّيْلِ فِيهَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مَرَاجِلِ الْجَزَائِرِ تَقَطُّعُهُ، وَالْأَنْهَارُ مِنْهُ تَجْرِي بَيْنَهَا عَلَى أَرْضٍ مُتَخَفِضَةٍ، وَقَرْيَ مُتَّصِلَةٍ، وَعِمَارَةٌ مُحَسَّنَةٌ، بِأَثَرِ جَرَجَةٍ حَتَامٍ وَمَوَاشٍ وَأَنْعَامٍ.

وَأَكْثَرُ مِيزَةِ مَدِينَتِهِمْ مِنْهَا، وَطُيُورُهَا التُّغَيْطُ^(أ) وَالتُّوْبِي وَالبَيْغُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الطُّيُورِ الْحِيسَانِ. وَأَكْثَرُ نَزْهَةٍ كَبِيرِهِمْ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

قَالَ: وَكُنْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ فَكَانَ سَيْرُنَا فِي ظِلِّ شَجَرٍ مِنَ الْحَافَتَيْنِ فِي الْخَلْجَانِ الضَّيْقَةِ. وَقِيلَ إِنَّ التَّنْسَاحَ لَا يَصُطِّرُ هُنَاكَ، وَرَأَيْتُهُمْ يَغْيِرُونَ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَنْهَارِ سِبَاحَةً. ثُمَّ سَقَدَبَغْلٌ وَهِيَ نَاحِيَةُ ضَيْقَةٍ شَبِيهَةٍ بِأَوَّلِ بِلَادِهِمْ لِأَنَّ فِيهَا جَزَائِرَ جِسَانًا، وَفِيهَا دُونَ الْمَرْحَلَتَيْنِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ قَرْيَةً بِالْأَنْبِيَةِ الْحِيسَانِ وَالْكَنَائِسِ وَالْأَذْيَارِ وَالتُّخْلُ الْكَبِيرِ^(ب) وَالْكُرُومِ وَالتَّبَسَاتِينَ وَالزُّرْعَ، وَمُزْجَجٌ كِبَارٌ فِيهَا إِبِلٌ وَجِمَالٌ صُهْبٌ مَوْثَلَةٌ لِلتَّنَاجِ.

وَكَبِيرُهُمْ يُكْثِرُ الدُّخُولَ إِلَيْهَا لِأَنَّ طَرَفَهَا الْقِبْلِيَّ يُحَاضِي دُنْقَلَةَ مَدِينَتِهِمْ، وَمِنْ مَدِينَةِ دُنْقَلَةِ دَارِ الْمَمْلُوكَةِ إِلَى أَشْوَانِ خَمْسُونَ مَرَّخَلَةً. وَذَكَرَ صِفَتَهَا ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمْ يُسَقِّفُونَ مَجَالِسَهُمْ بِخَشَبِ السَّنَطِ، وَبِخَشَبِ الشَّاجِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ النَّيْلُ فِي وَقْتِ الزَّيَادَةِ، إِشْقَالَاتٍ مَنْحُوقةً لَا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ تَأْتِي، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِهَا عَلَامَةً عَرَبِيَّةً.

وَمَسَافَةٌ مَا بَيْنَ دُنْقَلَةِ^١ إِلَى أَوَّلِ بَلَدٍ غَلُوةٍ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَشْوَانِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْقَرْيَ وَالضُّبَاعِ وَالْجَزَائِرِ وَالْمَوَاشِي وَالتُّخْلِ وَالشُّجَرِ وَالْمَقْلِ وَالزُّرْعِ وَالْكَزْمِ أَضْعَافٌ مَا فِي الْجَانِبِ الَّذِي يَلِي أَرْضَ الْإِسْلَامِ.

(أ) بولاق: التقيط. (ب) بولاق: الكبير.

^١ ذكر القلقشندي - نقلًا عن أبي الفدا - أن دُنْقَلَةَ بضم الدال المهمله وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء في الآخر، وهو الجاري على ألسنة أهل الديار المصرية، بينما ذكرها الحميري في «الروض المبطر» دُنْقَلَةَ بإبدال النون ميماً، مضبوطة بفتح الدال وباقي الضبط على ما تقدم (صحيح الأعشى ٢٧٥:٥).

وفي هذه الأماكن جزائز عظام مسيرة أيام ، فيها الجبال والوُحش والسباع ، وغافور يخاف فيها القطش . والنَّيْلُ يَنْتَظِفُ من هذه النواحي إلى مَطْلَعِ الشَّمْسِ وإلى مَغْرِبِهَا مسيرة أيام حتى يصير المَضْعَدُ كالمُخْبِرِ . وهي الناحية التي تَبْلُغُ المَطْلُوفُ من النَّيْلِ إلى المَقْدَنِ المعروف بالشَّعْكَةَ^(٥) ، وهو بَلَدٌ يُعْرَفُ بِشَتَقِيرِ ، ومنه خَرَجَ العُمَرِيُّ^(٦) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عُمر بن الحطَّاب^(٧) ، كانت له في الثَّوْبَةِ والبَّحَّةِ حروب وهَدَمَ حَبَسَ أحمد بن طولون^(٨) ، وَتَقَلَّبَ على هذه النَّاحِيَةِ إلى أن كان من أمره من كان .

وَقَرَسُ الْبَحْرِ يَكْثُرُ في هذه المَوَاضِعِ^(٩) .

ومن هذا المَوَاضِعِ طُرُقٌ إلى سَوَاكِنَ وباضيع وذهلك وجزائر البَحرِ ، ومنها عَبَرٌ مَنْ نَجَا من بني أُمَيَّةٍ عند هَرَبِهِمْ إلى الثَّوْبَةِ^(١٠) .

- ١٠ وفيها خَلَقَ من البَّحَّةِ يُعْرَفُونَ بِالزَّنَافِجِ انْتَقَلُوا إلى الثَّوْبَةِ قَدِيمًا وَقَطَنُوا هناك ، وهم على جملتهم^(١١) في الرُّغْيِ واللُّغَةِ لا يَخَالِفُونَ الثَّوْبَةَ ولا يَشْكُنُونَ قُرَاهِمَ ، وعليهم والي من قِبَلِ الثَّوْبَةِ .

وَيُتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْغُلَّةِ وَمَنْ يَتَكَلَّفُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْفِ

- ١٥ اَعْلَمَ أَنَّ الثَّوْبَةَ والمَقْرَةَ جَنَسَانِ يَلْسَانِيَّ كِلَاهُمَا على النَّيْلِ : فَالثَّوْبَةُ وهم المَرِيسُ المُجَاوِرُونَ لأَرْضِ الإِسْلَامِ ، وبين أوَّلِ بَلَدِهِمْ وبين أَشْوَانَ خمسة أُمِيال . وَيُقَالُ إِنَّ سِلْهَا جَدَّ الثَّوْبَةِ ، وَمَقْرِي جَدَّ المَقْرَةِ ، من اليمن . وقيل الثَّوْبَةُ وَمَقْرِي من/ جَنِيْر . وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْأَنْتَابِ على أَنَّهُمْ جَمِيعًا من وَلَدِ حَامِ بْنِ نُوحٍ .

- وكان بين الثَّوْبَةِ والمَقْرَةِ محروب قبل النُّصْرَانِيَّةِ .
- وَأَوَّلُ أَرْضِ المَقْرَةِ قَرْيَةٌ تُعْرَفُ بِتَافَةِ على مَرَحَلَةٍ من أَشْوَانَ ، ومَدِينَةُ مُلْكِهِمْ يُقَالُ لَهَا بِخَزَاشَ ، على أَقْلٍ من عَشْرِ مَرَاجِلَ من أَشْوَانَ . وَيُقَالُ إِنَّ يُوْسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - غَزَاهُمْ قَبْلَ مَبِيعَتِهِ فِي أَيَّامِ فِرْعَوْنَ ، فَأَخْرَبَ تَافَةَ ، وَكَانُوا صَافِقَةً يَفْهَدُونَ الْكَوَاكِبَ وَيَلْبِصُونَ الثَّمَائِلَ لَهَا ، ثُمَّ تَصَبَّرُوا جَمِيعًا .
- ٢٠

(a) بولاق : الشلة . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : حديثهم .

^٢ انظر فيما تقدم ١٧٦ .

^١ توفي بعد سنة ٨٢٥٥/٨٦٩م ، وترجم له المقرئ
ترجمة حافلة في المقفى الكبير ٤: ٤٠٣-٤١٥ ، وفيما يلي

^٣ انظر السعدي : التبيه والإشراف ٣٢٩-٣٣٠ .

النوبة والمقرّة ومدينة دُنُقَلَة هي دار مملكتهم ، وأوّل بلاد غَلَوَة قُرَى في الشّرق على شاطئ النّيل تُعرَف بالأبواب . ولهذه النّاحية والي من قِبل صاحب بَلَد^(٥) غَلَوَة يُعرَف بالوحواح^(٦) .

والنّيل يَنْشَعِب من هذه النّاحية على سبعة أنهار ، فمنها نَهْر يَأْتِي من ناحية المشرق ، كثير الماء يَجِفّ في الصّيف حتى يُمْكِن بَطْنُهُ ، فإذا كان وَقْتُ زيادة النّيل تَبَعَ فيه الماء ، وزادت البرك التي فيه ، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد فَوَقَعَت الزّيادة في النّيل . وقيل إنّ آخِر هذا النّهر عَيْنٌ عظيمة تأتي من جبَل .

قال مؤرّخ النوبة^١ : وحدّثني سيمون صاحب عهد بَلَد غَلَوَة أنّه يوجد في بطن هذا النّهر حُوت لا يَسْرَ له ، ليس هو من جنس ما في النّيل ، يُخَفّر عليه قامة وأكثر حتى يَخْرُج ، وهو كبير .

١٠ وعليه جنس مؤلّد بين الغلوة والبجة يُقال لهم الديحيون ، وجنس يُقال لهم بازه ، يأتي من عندهم طيّز يُعرَف بحمام بازين .

وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة ، ثم النّيل الأبيض ، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن .

١٥ قال : وقد سألت من طرّق بلاد السودان من المغاربة عن النّيل الذي عندهم وعن لونه ، فدكّر أنّه يَخْرُج من جبال الرّمل ، أو جبَل الرّمل ، وأنّه يجتمع في بَلَد السودان في برك عظام ، ثم يَنْصَب إلى ما لا يُعرَف ، وأنّه ليس بأبيض ، فإنّما أن يكون اكتسب ذلك اللون ممّا يَرى عليه ، أو من نهر آخر يَنْصَب إليه ، وعليه أجناس من جانبيه ؛ ثم النّيل الأخضر ، وهو نهر يأتي من القبلة ممّا يلي المشرق شديد الخضرة ، صافي اللون جدّاً ، يَرى ما في قعره من السمك ، وطعمه مُخَالِف لطعم النّيل ، يَغَطّش الشّارب منه بسرعة ، وحيثان الجميع واحدة ، غير أنّ الطّعم مُخْتَلِف ، ويأتي فيه وَقْتُ الزّيادة خَشَب الشّاج والبَقَم والقناء^(٧) ، وخَشَب له رائحة كرائحة اللّبان ، وخَشَب غليظ يُنَحّت ويُعمل منه مقدام . وعلى شاطئيه بُيُوت هذا الخَشَب أيضًا . وقيل إنّهُ وُجِدَ فيه غود البخور .

(٥) ساقطة من بولاق . (٦) بولاق : مرجح . (٧) بولاق : الغناء .

^١ أي ابن سليم الأسواني ، فهو مصدر المقريري الرئيس عن النوبة .

قَالَ: وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِ الشَّقَالَاتِ الْمُنْحَوْتَةِ الشَّجَاحَ الَّتِي تَأْتِي فِيهِ وَقْتُ الزِّيَادَةِ عِلَامَةٌ غَرِيبَةٌ، وَيَجْتَمِعُ هَذَانِ الثُّهْرَانِ الْأَبْيَضُ وَالْأَخْضَرُ عِنْدَ مَدِينَةِ مُتَمَلِّكَ بَلَدِ عِلْوَةٍ، وَيَقِيَانِ عَلَى أَلْوَانِهِمَا قَرِيبًا مِنْ مَرَحَلَةٍ، ثُمَّ يَخْتَلِطَانِ بَعْدَ ذَلِكَ وَبَيْنَهُمَا أَمْوَاجُ كِبَارٍ عَظِيمَةٍ يَتَلَاطِمُهُمَا.

قَالَ: وَأَخْبَرَنِي مَنْ نَقَلَ الثَّلِثَ الْأَبْيَضَ وَصَبَّهَ فِي الثَّلِثِ الْأَخْضَرِ، فَبَقِيَ فِيهِ مِثْلُ اللَّبَنِ سَاعَةً قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِطَا. وَبَيْنَ هَذَيْنِ الثُّهْرَيْنِ جَزِيرَةٌ لَا يُعْرِفُ لَهَا غَايَةٌ، وَكَذَلِكَ لَا يُعْرِفُ لَهُذَيْنِ الثُّهْرَيْنِ نِهَآيَةً. فَأُولَهُمَا يُعْرِفُ عَرْضُهُ، ثُمَّ يَتَّسِعُ فَيَصِيرُ مَسَافَةً شَهْرٍ، ثُمَّ لَا تُذْرِكُ بَيْعَتُهُمَا لِحُفُوفٍ مِنْ يَسْكُنُهُمَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لِأَنَّ فِيهِمَا أَجْنَاسًا كَثِيرَةً وَخَلْقًا عَظِيمًا.

قَالَ: وَتَلْعَنِي أَنْ بَعْضَ مُتَمَلِّكِي بَلَدِ عِلْوَةٍ سَارَ فِيهَا يُرِيدُ أَقْصَاهَا فَلَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ بَعْدَ سَنِينَ. وَأَنَّ فِي طَرَفِهَا الْقِبْلِي جَنَّتًا يَسْكُنُونَ وَدَوَائِبُهُمْ فِي بِيوتٍ تَحْتَ الْأَرْضِ مِثْلَ الشَّرَادِيبِ بِالنَّهَارِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ، وَيَسْرَحُونَ فِي اللَّيْلِ، وَفِيهِمْ قَوْمٌ عُرَاةٌ.

وَالْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ تَأْتِي أَيْضًا مِنَ الْقِبْلَةِ، مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ أَيْضًا، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَلَا يُعْرِفُ لَهَا نِهَآيَةً أَيْضًا وَهِيَ دُونَ الثُّهْرَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَخْضَرِ فِي الْعَرَضِ وَكَثْرَةِ الْخَلْجَانِ وَالْجَزَائِرِ.

وَجَمِيعُ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ تَنْصَبُّ فِي الْأَخْضَرِ، وَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ الَّذِي قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ مَعَ الْأَبْيَضِ، وَكُلُّهَا مَشْكُونَةٌ عَامِرَةٌ مَسْلُوكٌ فِيهَا بِالسُّفُنِ وَغَيْرِهَا، وَأَخَذَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ يَأْتِي مَدَّةً مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ.

قَالَ: وَلَقَدْ أَكْثَرْتُ السُّؤَالَ عَنْهَا، وَاسْتَعَشَفْتُهَا مِنْ قَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ، فَمَا وَجَدْتُ مُخْبِرًا يَقُولُ إِنَّهُ وَقَفَ عَلَى نِهَآيَةِ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْهَارِ. وَالَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ عِلْمٌ مِنْ عَرَفَنِي عَنْ آخِرِينَ إِلَى خَرَابٍ، وَأَنَّهُ يَأْتِي فِي وَقْتِ الزِّيَادَةِ فِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ أَلَّةٌ مَرَاكِبُ وَأَبْوَابٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَيُدَلُّ عَلَى عِمَارَةٍ بَعْدَ الْخَرَابِ.

فَأَمَّا الزِّيَادَةُ، فَيَجْمَعُونَ أَنَّهَا مِنَ الْأَمْطَارِ مَعَ مَادَّةٍ تَأْتِي مِنْ ذَاتِهَا، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الثُّهْرَ الَّذِي يَجِفُّ وَيَسْكُنُ بَطْنُهُ، ثُمَّ يَتَّبِعُ وَقْتُ الزِّيَادَةِ. وَمِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّ زِيَادَتَهُ فِي أَنْهَارِ مَجْتَمِعَةٍ، وَسَائِرِ التَّوَاحِي وَالْبُلْدَانِ فِي مِصْرٍ وَمَا يَلِيهَا وَالصُّعِيدِ وَأَسْوَانَ وَبَلَدِ الثَّوْبَةِ وَعِلْوَةٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ.

وَأَكْثَرُ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ أَنَّهُ رُبَّمَا وَجِدَتْ مِثْلًا بِأَسْوَانَ وَلَا تُوجَدُ بِقُرُوصٍ ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ؛ فَإِذَا كَثُرَتْ الْأَمْطَارُ عِنْدَهُمْ، وَاتَّصَلَتِ الشُّيُوبُ، عَلِمَ أَنَّهَا سَنَةٌ رَيِّ، وَإِذَا قَصُرَتْ الْأَمْطَارُ عَلِمَ أَنَّهَا سَنَةٌ ظَمًا.

قَالَ: وَأَمَّا مِنْ طَرَقَ بِلَادَ الرُّنْجِ، فَإِنَّهُمْ أَخْبَرُونِي عَنْ مَسِيرِهِمْ فِي بَحْرِ الصِّينِ إِلَى بِلَادِ الرُّنْجِ بِالرَّيْحِ الشَّمَالِيِّ مُسَاحِلِينَ لِلجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ جَزِيرَةِ مِصْرَ، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِرَأْسِ حَفْرِي، وَهُوَ عِنْدَهُمْ آخِرُ جَزِيرَةِ مِصْرَ، فَيَنْظُرُونَ كَوْنَهَا يَهْتَدُونَ بِهِ، فَيَقْصِدُونَ الْغَرْبَ، ثُمَّ يَهْجُرُونَ إِلَى الْبَحْرِ، وَيَصِيرُ الشَّمَالُ فِي وُجُوهِهِمْ، حَتَّى يَأْتُوا إِلَى قَبِيلَةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّنْجِ. وَهِيَ مَدِينَةٌ مُتَمَلِّكُهُمْ، وَتَصِيرُ قَبِيلَتُهُمْ لِلصَّلَاةِ إِلَى جُدَّةَ.

قَالَ: وَبِقَضِ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ يَأْتِي مِنْ بِلَادِ الرُّنْجِ لِأَنَّهُ يَأْتِي فِي الْحَشَبِ الرُّنْجِيِّ. وَسُوبَةُ مَدِينَةِ الْعُلُوِي شَرْقِي الْجَزِيرَةِ الْكُبْرَى الَّتِي بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَخْضَرِ فِي الطَّرَفِ الشَّمَالِيِّ مِنْهَا عِنْدَ مُجْتَمَعِهِمَا، وَشَرْقِيهَا النَّهْرُ الَّذِي يَجِفُّ وَيَسْكُنُ بَطْنُهُ. وَفِيهَا أُنْبِيَّةٌ جِسَانٌ وَدُورٌ وَاسِعَةٌ وَكُنَائِسٌ كَثِيرَةٌ الذَّهَبِ وَبَسَاتِينٌ، وَلَهَا رِبَاطٌ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَمُتَمَلِّكٌ غَلَوَةٌ أَكْثَرُ مَالًا مِنْ مُتَمَلِّكِ الْمَقْرَةِ، وَأَعْظَمُ بِحْيَشًا، وَعِنْدَهُ مِنَ الْخَيْلِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْمَقْرِيِّ، وَبِلَدُهُ أَخْصَبُ وَأَوْسَعُ، وَالنَّخْلُ وَالكَزْمُ عِنْدَهُمْ يَسِيرٌ.

وَأَكْثَرُ مُحِبُّوهُمْ الذَّرَّةَ الْبَيْضَاءَ الَّتِي مِثْلُ الْأَرْزِ، مِنْهَا خَبِثَتُهُمْ وَمَزُؤُهُمْ، وَاللَّحْمُ عِنْدَهُمْ كَثِيرٌ لَكَثْرَةِ الْمَوَاشِي وَالْمُزُوجِ الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّعَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يُوصَلُ إِلَى الْجَبَلِ إِلَّا فِي أَيَّامٍ.

وَعِنْدَهُمْ خَيْلٌ عِتَاقٌ، وَجِمَالٌ صُهْبٌ عِرَابٌ، وَدِيْهُمُ التُّضْرَانِيَّةُ بِعَاقِبَتِهِ، وَأَسَاقِفَتُهُمْ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ كَالثُّوْبَةِ، وَكُنْبَتُهُمْ بِالرُّومِيَّةِ، يُفَسِّرُونَهَا يِلْسَانِيَهُمْ، وَهُمْ أَقَلُّ فَهْمًا مِنَ الثُّوْبَةِ. وَعَلَيْكُهُمْ يَمْتَرِقُ مِنْ شَاءَ مِنْ رَعِيَّتِهِ بِجُزْمٍ وَبَغِيرِ جُزْمٍ، وَلَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، بَلْ يَسْجُدُونَ لَهُ وَلَا يَفْصِلُونَ أَمْرَهُ عَلَى الْمَكْرُوهِ الْوَاقِعِ بِهِمْ. وَيَتَذَاوَنَ: الْمَلِكُ يَمِيشُ، فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ. وَهُوَ يَنْتَوِجُ بِالذَّهَبِ، وَالذَّهَبُ كَثِيرٌ فِي بِلَدِهِ.

وَمِمَّا فِي بِلَدِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ فِي الْجَزِيرَةِ الْكُبْرَى الَّتِي بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ جِنْسًا يُعْرَفُ بِالْكُونِيَا، لَهُمْ أَرْضٌ وَاسِعَةٌ مَزْرُوعَةٌ مِنَ التَّبَلِ وَالْمَطَرِ، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ الزَّرْعِ خَرَجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ التَّبَرِّ، وَاسْتَخَطَّ عَلَى مِقْدَارِ مَا مَعَهُ، وَزَرَعَ فِي أَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْخِطَّةِ بِسِيرًا، وَجَعَلَ التَّبَرَّ فِي وَسْطِ الْخِطَّةِ وَشِيقًا مِنَ الْمَزْرِ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ. فَإِذَا أَصْبَحَ وَجَدَ مَا اسْتَخَطَّ قَدْ زُرِيَغٌ وَشَرِبَ الْمَزْرَ. فَإِذَا كَانَ وَقْتُ الْحَصَادِ حَصَدَ بِسِيرًا مِنْهُ وَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعٍ أَرَادَهُ وَمَعَهُ مَزْرٌ وَيَنْصَرِفُ، فَيَجِدُ الزَّرْعَ قَدْ حُصِدَ بِأَسْرِهِ وَجَرَّ فَإِذَا أَرَادَ دِرَاسَتَهُ وَتَذَرِيَّتَهُ فَقُلَّ بِهِ كَذَلِكَ. وَرُبَّمَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقْتَنِي زَرْعَهُ مِنَ الْحَمِيشِ، فَيَلْقُظُ بِقَلْعِ شَيْءٍ مِنَ الزَّرْعِ فَيَضْبِحُ وَقَدْ قُلِعَ جَمِيعُ الزَّرْعِ.

وهذه النَّاجِيَةُ الَّتِي فِيهَا مَا ذَكَرْتَهُ يُقْلِدَانِ وَاسِعَةً مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ، يُزْرَعُ بِجَمِيعِهَا فِي وَتْبٍ وَاجِدٍ.

وَمِيزَةُ بَلَدِ غُلُوَّةٍ وَمُتَمَلِّكُهُمْ مِنْ هَذِهِ النَّاجِيَةِ، فَيُوجِّهُونَ الْمَرَائِبَ فَتُوسَقُ، وَرُبَّمَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ.

- قَالَ: وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ صَحِيحَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الثُّوبَةِ وَالْغُلُوَّةِ، وَكُلٌّ مِنْ يَطْرُقُ ذَلِكَ الْبَلَدَ مِنْ تُجَّارِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَشْكُونَ فِيهِ، وَلَا يَزْتَابُونَ بِهِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَشْيَاهُ وَانْتِشَارَهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ الْقَوَاطِلُ عَلَى يَثْلِهِ، لَمَا ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْهُ لِشَاعِرِيهِ. فَأَمَّا أَهْلُ النَّاجِيَةِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَيَّ تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا تُظْهَرُ لِبَعْضِهِمْ وَتُخْذَمُ بِحِجَارَةٍ يُطَاعُونَ لَهَا، وَتَفْعَلُ لَهُمْ عَجَائِبَ، وَأَنَّ الشَّحَابَ يُطْلِعُهُمْ.

- ١٠ قَالَ: وَمِنْ عَجَائِبِ مَا حَدَّثَنِي بِهِ مُتَمَلِّكُ الْمَقَرَّةِ لِلثُّوبَةِ، أَنَّهُمْ يَمْطَرُونَ فِي الْجِبَالِ، وَيَلْتَقِطُونَ مِنْهُ لِلْوَقْتِ سَمَكًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ جَنْبِهِ فَذَكَرُوا أَنَّهُ صَغِيرُ الْقَدْرِ بِأَذْنَابٍ حُمْرٍ. قَالَ: وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً وَأَجْنَاسًا مِمَّنْ تَقْدُمُ ذِكْرَ أَكْثَرِهِمْ، يَغْتَرِفُونَ بِالْبَارِي شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْبَارِي وَيَتَجَدَّدُ الشَّمْسُ وَالنَّارُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ كُلَّ مَا اشْتَقَّ حَسَنَهُ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ بَهِيمَةٍ.

- ١٥ وَذَكَرَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي مَجْلِسِ عَظِيمِ الْمَقَرَّةِ سَأَلَهُ عَنْ بَلَدِهِ فَقَالَ: مَسَافَتُهُ إِلَى الثَّيْلِ ثَلَاثَةُ أَهْلَةٍ. وَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِ فَقَالَ: زَيْي وَزَيْكُ اللَّهِ، وَرَبُّ الْمَلِكِ وَرَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَاجِدٌ؛ وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: فَأَنْتَ يَكُونُ؟ قَالَ: فِي السَّمَاءِ وَحْدَهُ.

- وَقَالَ إِنَّهُ إِذَا أَتَبَطَّ عَنْهُمْ الْمَطَرُ، أَوْ أَصَابَتْهُمْ الرِّبَاةُ، أَوْ وَقَعَ بِدَوَابِهِمْ آفَةٌ، صَعِدُوا الْجَبَلَ، وَدَعَاؤُا اللَّهَ فَيُجَابُونَ لِلْوَقْتِ، وَتُقْضَى حَاجَتُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَثْرِلُوا. وَسَأَلَهُ: هَلْ أُزِيلُ فِيكُمْ رَسُولٌ؟ قَالَ: لَا؛ فَذَكَرَ لَهُ بِعِثَةِ مُوسَى وَعِيسَى وَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، وَمَا أَثْبَدُوا بِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، فَقَالَ: إِذَا كَانُوا فَعَلُوا هَذَا فَقَدْ صَدَّقُوا؛ ثُمَّ قَالَ: قَدْ صَدَّقْتُهُمْ إِنْ كَانُوا فَعَلُوا. قَالَ مُؤَلِّفُهُ: وَقَدْ غَلَبَ أَوْلَادُ كَنْزِ الدُّوَلَةِ^١ عَلَى الثُّوبَةِ وَمَلَكَوْهَا مِنْ سَنَةِ ٥٤٠٠ هـ. وَبَنِي بَدَنْقَلَةَ جَامِعَ بِأَوْيِ إِلَيْهِ الْقُرَبَاءُ.

(٥) بياض في الأصل.

^١ انظر حول بني الكنز فيما يلي ٥٣٩.

واغْلَمَ أَنَّ عَلَى صَفَةِ الثَّيْلِ أَيْضًا الْكَانِمَ، وَمَلِكُهَا مُسْلِمٌ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ بِلَادِ مَالِي مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ جِدًّا، وَقَاعِدَةُ مُلْكِهِ بَلَدَةٌ اسْمُهَا جِمِي^(أ)، وَأَوَّلُ تَمْلِكْتِهِ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ بَلَدَةٌ اسْمُهَا زَلَا^(ب)، وَأَخِيرُهَا طُولًا بَلَدَةٌ يُقَالُ لَهَا كَاكَا، وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ.

وَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ، وَمَلِكُهُمْ مُتَخَجِّبٌ لَا يُرَى إِلَّا يَوْمَيِ الْعِيدَيْنِ، بُكْرَةً وَعِنْدَ الْقَصْرِ، وَطُولُ الشَّهَةِ لَا يُكَلِّمُهُ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وِغَالِبُ عَيْشِهِمُ الْأَرْزُ، وَهُوَ يَبْنِي مِنْ غَيْرِ تَدْرٍ. وَعِنْدَهُمُ الْقَمْحُ وَالذُّرَّةُ وَالتِّينُ وَاللَّيْثُونُ وَالبَاذِلْجَانُ وَاللُّفْتُ وَالرُّطْبُ. وَيَتَعَامَلُونَ بِقُمَاشٍ يُنْسَجُ عِنْدَهُمْ اسْمُهُ ذَنْدِي، طُولُ كُلِّ ثَوْبٍ عَشْرَةُ أَذْرُعَ، يَشْتَرُونَ بِهِ مِنْ رُبْعِ ذِرَاعٍ فَأَكْثَرَ. وَيَتَعَامَلُونَ أَيْضًا بِالْوَدَعِ وَالْحَزَزِ وَالثُّحَاسِ الْمَكْشَرِ وَالْوَرِقِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ بِسِعْرِ ذَلِكَ الْقُمَاشِ.

وَفِي جَنْبِهَا شَعَارِي وَصَحَارِي فِيهَا أَشْخَاصٌ مَتَوَحِّشَةٌ كَالْفَيُولِ، قَرِيبَةٌ مِنْ شَكْلِ الْآدَمِيِّ، لَا يَلْبَسُهَا الْفَارِسُ، تُؤْذِي النَّاسَ. وَيُظْهَرُ فِي اللَّيْلِ أَيْضًا شَيْبَةُ نَارٍ تُضِيءُ، فَإِذَا مَشَى أَحَدٌ لِيَلْحَقَهَا بَعْدَتْ عَنْهُ، وَلَوْ جَرَى إِلَيْهَا لَا يَصِلُ إِلَيْهَا بَلْ لَا تَرَالُ أَمَامَهُ، فَإِذَا زَمَاهَا بِحَجَرٍ فَأَصَابَهَا تَشَقُّطٌ مِنْهَا شَرَرٌ. وَتَقْطَعُ عَنْهُمْ الْيَقْطِينَةُ حَتَّى تُصْنَعَ مِنْهَا مَرَاكِبٌ يُغْبَرُ فِيهَا/ فِي الثَّيْلِ.

وَهَذِهِ الْبِلَادُ بَيْنَ إِفْرِيقِيَّةٍ وَبَرْقَةِ مُتَعَدَّةٍ فِي الْجَنُوبِ إِلَى سَمْتِ الْعَرَبِ الْأَوْسَطِ. وَهِيَ بِلَادُ قَحْطٍ وَشَطْنٍ وَشَوْءٍ مِزَاجٍ. وَأَوَّلُ مَنْ بَنَى بِهَا الْإِسْلَامَ الْهَادِي الْعُثْمَانِي، ادَّعَى أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَصَارَتْ بَعْدَهُ لِلِيزْنِيِّينَ مِنْ بَنِي سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ. وَهُمْ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَالْعَدْلُ قَائِمٌ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَابِسُونَ فِي الدِّينِ لَا يَلِيُونُ. وَبَنُوا بِمَدِينَةِ مِصْرَ مَدْرَسَةً لِلْمَالِكِيَّةِ غُرِفَتْ بِمَدْرَسَةِ ابْنِ رَشِيقٍ فِي سَنَى أَرْبَعِينَ وَسِتٍّ مِائَةٍ، وَصَارَتْ وَفُودُهُمْ تَنْزِلُ بِهَا، وَسَيَرِدُ ذِكْرُهَا فِي الْمَدَارِسِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^١.

(أ) بولاق: جيمي. (ب) بولاق: زولا، القلقشندي: دلا.

^١ القلقشندي: صبح الأعشى ٢٨٠: ٢٨١ (ومصدره مسالك الأبحار للعبري)، وانظر فيما يلي ٣٦٥: ٢.

ذِكْرُ البَجَّةِ

وَيُقَالُ إِنَّهُمْ مِنَ الْبَزَرِ

اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ بَلَدِ الْبَجَّةِ ، مِنْ قَرْيَةٍ تُقَرَّفُ بِالْخَرْبَةِ مَعْدِنُ الزُّمُرُودِ فِي صَحْرَاءِ قُوصٍ ^١ . وَبَيْنَ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيْنَ قُوصٍ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِ مَرَاجِلٍ . وَذَكَرَ الْجَاهِظُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَعْدِنٌ لِلزُّمُرُودِ غَيْرَ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَهُوَ يُوجَدُ فِي مَغَايِرَ بَعِيدَةٍ مُظْلِمَةٍ ، يُدْخَلُ إِلَيْهَا بِالصَّايِحِ وَبِحِجَالٍ يُشْتَدَلُ بِهَا عَلَى الرُّجُوعِ خَوْفُ الضَّلَالِ . وَيُخْفَرُ عَلَيْهِ بِالْمَعَاوِلِ فَيُوجَدُ فِي وَسْطِ الْحِجَارَةِ وَخَوْلِهِ غَشِيمٌ ذُونُهُ فِي الصَّبْغِ وَالْجَوْهَرِ . وَآخِرُ بِلَادِ الْبَجَّةِ أَوَّلُ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَهُمْ فِي بَطْنِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ - أَغْنَى جَزِيرَةِ مِصْرَ - إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ مِمَّا يَلِي جَزَائِرَ سِوَاكِينَ وَبَاضِعَ وَذَهْلَكَ . وَهُمْ بِأَدْيَةِ يَبْعُونَ الْكَلَأَ حَيْثُمَا كَانَ الرُّغْمِيُّ بِأُخْيَةِ مِنْ مَجْلُودٍ ، وَأُنْسَائِهِمْ مِنْ جِهَةِ النَّسَاءِ . وَلِكُلِّ بَطْنٍ مِنْهُمْ رَئِيسٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مُتَمَلِّكَ وَلَا لَهُمْ دِينَ ^٢ . وَهُمْ يُؤَرِّثُونَ ابْنَ الْبَيْتِ وَابْنَ الْأُخْتِ دُونَ وَلَدِ الصُّلْبِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ وِلَادَةَ ابْنِ الْأُخْتِ وَابْنِ الْبَيْتِ أَصَحُّ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ زَوْجِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ وَلَدُهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ .

المقريزي يذكر أنهم أسلموا في إمارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإن الثقافة الإسلامية لم تنتشر بينهم فبصفهم ابن حجر في التصف الثاني للقرن السادس الهجري بأنهم «أصل من الأنعام سيلاً وأقل عقولاً» ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام ... ورجالهم ونساؤهم يصفون غرة ، ألا يزوجاً يسرون بها غوراتهم ، وأكثرهم لا يمشقرون (الرحلة ٤٨-٤٩) ، ولم ينتشر الإسلام حقيقة بينهم إلا في القرنين الثامن والتاسع للهجرة بسبب الهجرات العربية التي اتجهت على نطاق واسع إلى السودان عبر أراضيهم في أعقاب سقوط بغداد . وينقسم البجة في الوقت الحاضر إلى أربع قبائل كبيرة هي : البشاريون في الشمال والأمرار والهندندوه وبني عامر إلى الجنوب من طوكر في الشمال إلى داخل حدود إيرتريا في الجنوب . (راجع ، القلقشندي : صبح الأمشى ٢٧٣:٥ - ٢٧٤ ، مصطفى محمد مسعد : البجة والعرب في العصور الوسطى ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩) ، ١-٥٩ ، Holt ، P.M. , El² art. Bedja I, pp. 1192-93 .

^١ سيقتل المقريزي الحديث عن معدن الزمرد فيما يلي ٦٣٢ .

^٢ البجة أو البجة وضبطها القلقشندي : البجة بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر (ويعرفون في الوقت الحاضر باسم البجة) قبائل حابجة تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد ، وهم شعب قديمٌ معروف عليه العرب الفاتحون منذ بدايات الإسلام في مصر وعقد معهم والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح معاهدةً عرفت باسم «البطنة» (فيما يلي ١٩٩:١-٢٠٠) ، وهم ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة كما أنهم بادية يبعون الكَلَأَ حَيْثُمَا كَانَ الرُّغْمِيُّ . وأهم مصدر يحدثنا عن البجة وحياتهم ونظامهم كتاب «أخبار النوبة» لابن شَيْمٍ الأَسْوَاني الذي نقل عنه المقريزي أغلب معلوماته عن النوبة والبجة في القرون الأربعة الأولى للإسلام (فيما تقدم ١٧٥ هـ) . ورغم أن

وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه ، يمشكن قزبة تُعرف بهجر هي أقصى جزيرة البجعة .

ويؤكجون الثجب الصُهب ، وتنتج عندهم ، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً .
والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم . ويقومهم حسان مُلثعة بقرون عظام ،
ومنها حتم ، وكباشهم كذلك مُنثرة ولها أنبان . وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن ، وأكلهم للخبز^(أ)
قليل وفيهم من يأكله ، وأهدائهم صحاح ، ويطولونهم خِماص ، وألوانهم مُشرقة الصفرة ، ولهم
سُرعة في الجزى يُباينون بها الناس .

وكذلك جمالهم شديدة الغدو صبورة عليه وعلى القطش ، يسابقون عليها الخيل ، ويقابلون
عليها ، وتُدور بهم كما يشتهون ، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ، ويتطاردون عليها
في الحروب ، فيزومي الواحد منهم الحزبة فإن وقفت في الرمية طار إليها الجمل فأخذها صاحبها ،
وإن وقفت في الأرض ضرب الجمل بجراحه الأرض فأخذها صاحبها .

وتبغ منهم في قبض الأوقات رجل يُعرف بكلاز ، شديد مقدام ، وله جمل ما سُمع بمثله في
الشوعة ، وكان أغور وصاحبه كذلك ، التزم لقومه أنه يُشرف على مُصلّى مصر يوم العيد ، وقد
قرب العيد قُرْباً لا يكون للبلوغ إليها في مثله حقيقة ، فوفى بذلك ، وأشرف على المقطم ،
وضربت الخيل خلقه فلم يُلحق .

وهذا هو الذي أوجب أن يكون في الشفح طليقة يوم العيد . وكان الطولونية وغيرهم من أتراء
مصر يُوقفون في سفح الجبل المقطم - مما يلي الموضع المعروف بالحبش - جيوشاً كثيفة مُراعياً للناس
حتى ينصرفوا من عييدهم في كل عيد .

وهم أصحاب ذمة ، فإذا غدر أحدُهم رفع المَعدور به قزبة على حزبة وقال : هذا عرس^(ب) فلان -
يعني أنا الغادر^(ج) - ، فتصير سبيته عليه إلى أن يَرْضاه .

وهم يُبالغون في الضيافة ، فإذا طرَق أحدُهم الضيف ذُبَح له ، فإذا تجاوز ثلاثة نَفَر نَحَرَ لهم من أقرب
الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره ، وإن لم يكن شيء نَحَرَ راجلة الضيف وعرضه ما هو خير منها .
وسلاحهم الحراب السباعية ، مقدار طول الحليدة ثلاثة أذرع ، والعود أربعة أذرع ، وبذلك
سُميت سباعية ، والحليدة في عرض الشيف لا يُخرج مجونتها من أيديهم إلا في بعض الأوقات ، لأن

في آخِرِ الْعُودِ شَيْئًا سَبِيحًا بِالْفَلَكَهْ يَمْتَنِعُ خُرُوجُهَا عَنْ أَيْدِيهِمْ . وَصُنَاعُ هَذِهِ الْحِرَابِ نِسَاءً فِي مَوْضِعٍ لَا يَحْتَلِطُ بِهِنَ رَجُلٌ إِلَّا الْمُشْتَرِي مِنْهُنَّ : فَإِذَا وَلَدَتْ إِخْدَاهُنَّ مِنَ الطَّارِقِينَ لَهُنَّ جَارِبَةٌ اسْتَحْبَبْتُهَا ، وَإِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا قَتَلَتْهُ ، وَيَقُولُنَّ إِنَّ الرِّجَالَ بِلَاءَةٌ وَخَوْبٌ .

وَدَرَقَهُمْ مِنْ مَجْلُودِ الْبَقْرَةِ شُشْعَرَةٌ ، وَدَرَقٌ مَقْلُوبَةٌ تُغْرِفُ بِالْأُكْسُومِيَّةِ مِنْ مَجْلُودِ الْجَوَامِيسِ - وَكَذَلِكَ الدَّهْلَكِيَّةُ - وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْبَحْرِ .

وَقِسْمُهُمْ عَرَبِيَّةٌ كِبَارٌ غِلَاطٌ مِنَ السُّنْبُرِ وَالشُّوْخُطِ ، يَزْمُونُ عَلَيْهَا بِبَيْلٍ مَشْعُومٍ . وَهَذَا السُّمُّ يُغْتَمَلُ مِنْ عُروَقِ شَجَرِ الْغَلَقَةِ يُطْبَخُ عَلَى النَّارِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْغُرَا . فَإِذَا أَرَادُوا تَجَرِبَتَهُ شَرَطُوا أَخَذَهُمْ بِجَسَدِهِ وَتَبَلُّلَ الدَّمِّ ثُمَّ شَمَعَهُ هَذَا السُّمُّ ، فَإِذَا تَرَاوَجَ الدَّمُّ عَلِيمٌ أَنَّهُ جَيِّدٌ ، وَمَسَحَ الدَّمُّ لَلَّاءَ يَرْجِعُ إِلَى جِسْمِهِ فَيَقْتُلُهُ . فَإِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ قِيلَ لَوَفْتُهُ ، وَلَوْ مِثْلَ شَرْطَةِ الْحِجَامِ . وَلَيْسَ لَهُ عَمَلٌ فِي غَيْرِ الْجُرُوحِ وَالْدَّمِ ، وَإِنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَضُرَّ .

وَبُلْدَانُهُمْ كُلُّهَا مَعَادِنٌ ، وَكُلُّهَا تَصَاعَدَتْ كَانَتْ أَجُودَ ذَهَبًا وَأَكْثَرُ . وَفِيهَا مَعَادِنُ الْفِضَّةِ وَالنَّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالرَّمْصَاصِ وَخَجَرُ الْمَغْنِطِيسِ وَالْمَرْقَشِيَّةِ وَالْحَمَشْتِ وَالزُّمُرُودِ وَحِجَارَةُ بِيْشَطَا ، فَإِذَا بُلَّتِ الشُّطْبِيَّةُ مِنْهَا بَرَزَتْ ، وَقَدَّتْ/ مِثْلَ الْفَيْلَةِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا شَغَلَهُمْ طَلَبُ مَعَادِنِ الذَّهَبِ عَمَّا سِوَاهُ . وَالْبَجَّةُ لَا تَنْتَرِضُ لِعَمَلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَادِنِ .

وَفِي أَوْدِيَّتِهِمْ شَجَرُ الْمَقْلُ وَالْإِهْلِيلِجِ وَالْإِذْخَرِ وَالشَّيْحِ وَالسَّنَا وَالْحَنْظَلِ وَشَجَرُ الْبَانِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَبِأَقْصَى بَلَدِهِمُ النَّخْلُ وَشَجَرُ الْكَزْمِ وَالزَّيْطِاحِينَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَزِرْغُهُ أَحَدٌ . وَبِهَا سَائِرُ الْوُخْشِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْفَيْلَةِ وَالنَّمُورِ وَالْفُهُودِ وَالْقِرْدَةِ وَعِنَاقُ الْأَرْضِ وَالزَّبَادِ ، وَدَابَّةٌ تُشَبَّهُ الْغَزَالَ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ لَهَا قَرْنَانِ عَلَى لَوْنِ الذَّهَبِ ، قَلِيلَةُ الْبَقَاءِ إِذَا صِيدَتْ ، وَمِنْ الطُّيُورِ الْبَيْغَا وَالنَّقِيطُ وَالشُّوْبِي وَالْقَمَارِي وَدَجَاجُ الْحَبَشِ وَحَمَامُ بِلَازِينَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا مَنْرُوعُ الْبَيْضَةِ الْبَغْنَى ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَمَقْطُوعُ أَشْفَارِ فُرُوجِهِنَّ ، وَأَنَّهُ يُلْتَحِمُ حَتَّى يُشَقَّ عَنْهُ لِلْمَنْتَرُوجِ بِمِقْدَارِ ذَكَرِ الرَّجُلِ ، ثُمَّ قُلَّ هَذَا الْفِعْلُ عَنْهُمْ . وَقِيلَ إِنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَنَّ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ حَازَهُمْ قَدِيمًا ، ثُمَّ صَالَحَهُمْ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ قَطْعَ ثَنَدِيٍّ مِنْ يُولَدَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَقَطْعَ ذُكُورٍ مِنْ يُولَدَ مِنَ الرِّجَالِ ، أَرَادَ بِذَلِكَ قَطْعَ النَّسْلِ مِنْهُمْ ، فَوَفُّوا بِالشَّرْطِ ، وَقَلَّبُوا الْمَغْنَى فِي أَنْ يَجْعَلُوا قَطْعَ الثَّنَدِيِّ لِلرِّجَالِ وَالْفُرُوجِ لِلنِّسَاءِ .

وَفِيهِمْ جِنْسٌ يَقْلَمُونَ نَسَابَهُمْ وَيَقُولُونَ : لَا تَنْشَبُ بِالْحَمِيرِ . وَفِيهِمْ جِنْسٌ آخَرُ فِي آخِرِ بِلَادِ الْبَجَّةِ يُقَالُ لَهُمُ الْبَاوَّةُ ، نِسَاءٌ جَمِيعُهُمْ يَمْسَعُونَ بِاسْمِ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ الرِّجَالُ ، فَطَرَقَهُمْ فِي وَقْتِ رَجُلٍ

مُسَلِّمٌ لَهُ جَمَالٌ ، فَدَعَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَقَالُوا : هَذَا اللَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ جَالِسٌ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مِنْ بُعْدٍ .

وَتَقَطَّعَ الْحَيَّاتُ بَيْلَهُمْ وَتَكَثَّرَ أَصْنَافُهَا ، وَرُمِيَتْ حَيَّةٌ فِي عَدِيرِ مَاءٍ قَدْ أُخْرِجَتْ ذَنْبُهَا وَالتَّقَّتْ عَلَى امْرَأَةٍ وَرَدَّتْ فَتَقَلَّتْهَا ، فَوُثِي شَحْمُهَا قَدْ خَرَجَ مِنْ ذُبُرِهَا مِنْ شِدَّةِ الضَّغْطَةِ .

وَبِهَا حَيَّةٌ لَيْسَ لَهَا رَأْسٌ ، وَطَرَفَاها سَوَاءٌ ، مُتَقَشَّةٌ لَيْسَتْ بِالْكَبِيرَةِ ، إِذَا مَشَى الْإِنْسَانُ عَلَى أَثَرِهَا مَاتَ ، وَإِذَا قُتِلَتْ وَأُمْسِكَ الْقَاتِلُ مَا قَتَلَهَا بِهِ مِنْ عُودٍ أَوْ حَرَبَةٍ فِي يَدِهِ وَلَمْ يُلْقِهِ مِنْ سَاعِيهِ مَاتَ . وَقُتِلَتْ حَيَّةٌ مِنْهَا بِحَشَبَةٍ ، فَالْتَشَقَّتْ الْحَشَبَةُ . وَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذِهِ الْحَيَّةَ أَحَدًا وَهِيَ مَيِّتَةٌ أَوْ حَيَّةٌ أَصَابَهُ ضَرَرُهَا .

وَفِي الْبَيْحَةِ شَرٌّ وَتَسْرُوعٌ إِلَيْهِ ، وَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَقْتُهُ أَذِيَّةٌ عَلَى شَرْقِ صَعِيدِ مِصْرَ ، خَرَبُوا هُنَاكَ قُرَى عَدِيدَةً . وَكَانَتْ قَرَاعَتُهُ مِصْرَ تَغْزُوهُمْ وَتُوَادُّهُمْ أَجْبَانًا لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْمَعَادِنِ ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لَمَّا أَنْ مَلَكَوا مِصْرَ . وَلَهُمْ فِي الْمَعَادِنِ آثَارٌ مَشْهُورَةٌ ، وَكَانَ أَصْحَابُهُمْ بِهَا وَقَدْ فُتِحَتْ مِصْرُ .

قَالَ عَبْدُ الرَّؤْحَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَتَجَمَّعَ لَعْنَةُ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي سَرْحٍ فِي انْصِرَافِهِ مِنَ الثَّوْبَةِ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ الْبَيْحَةِ ، فَسَأَلَ عَنْ شَأْنِهِمْ فَأُخْبِرَ أَنَّ لَيْسَ لَهُمْ مَلِكٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، فَهَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ وَتَرَكَهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَقْدٌ وَلَا ضَلْحٌ .

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ هَادَنَهُمْ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْحَبِيبِ السَّلُولِيِّ . وَبُذِّكِرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي كِتَابِ ابْنِ الْحَبِيبِ : لَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةِ بَكْرٍ فِي كُلِّ عَامٍ حِينَ يَنْزِلُونَ الرَّيْفَ مُجْتَازِينَ ، مُجَازًا غَيْرَ مُقِيمِينَ ، عَلَى أَلَّا يَقْتُلُوا مُسْلِمًا وَلَا ذِمِّيًّا ، فَإِنْ قَتَلُوهُ فَلَا عَهْدَ لَهُمْ . وَلَا يُؤْزَوُوا عِيْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَرُدُّوا آيَاتِهِمْ إِذَا وَقَفُوا إِلَيْهِمْ . وَيُقَالُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤَاخِذُونَ بِهَذَا ، وَبِكُلِّ شَاةٍ أَخَذَهَا الْبِجَاوِي فَعَلِيهِ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ ، وَلِلْبَقَرَةِ عَشْرَةٌ ، وَكَانَ وَكَيْلُهُمْ مُقِيمًا بِالرَّيْفِ رَهِيْنَةً بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ^١ .

ثُمَّ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَغْدِينَ فَخَالَطُوهُمْ وَتَزَوَّجُوا فِيهِمْ . وَأَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْجَنَاسِ الْمَعْرُوفِ بِالْخُدَارِبِ إِسْلَامًا ضَعِيفًا ، وَهُمْ شَوْكَةُ الْقَوْمِ وَوُجُوهُهُمْ ، وَهُمْ مِمَّا يَلِي مِصْرَ مِنْ أَوَّلِ حُدُودِهِمْ إِلَى الْعَلَّاقِيِّ وَعَيْلِدَابِ الْمَعْرِ مِنْهُ إِلَى جُلَّةٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ ^٢ .

ومنهم جُنُودٌ آخَرٌ يُقَرِّفُونَ بِالزُّنَافِجِ ، هُم أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْحَدَارِبِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ تَبِعَ لَهُمْ ، وَخَفَرَاؤُهُمْ يَخْشَوْنَهُمْ وَيَحِبُّونَهُمُ الْمَوَاشِي . وَلِكُلِّ رَئِيسٍ مِنَ الْحَدَارِبِ قَوْمٌ مِنَ الزُّنَافِجِ فِي حِمْلَتِهِ ، فَهَمُ كَالْعَبِيدِ يَتَوَارَثُونَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الزُّنَافِجُ قَدِيمًا أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ ^١ .

ثُمَّ كَثُرَتْ أَدِيَّتُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ وِلَاةُ أَشْوَانَ مِنَ الْعِرَاقِ ، فَوُفِّعَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُأْمُونُ خَبِيرُهُمْ ، فَأُخْرِجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجَهْمِ ، فَكَانَتْ لَهُ مَعَهُمْ وَقَائِعٌ ، ثُمَّ وَادَعَهُمْ وَكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُنُونٍ ، رَئِيسِهِمُ الْكَبِيرِ الَّذِي يَكُونُ بِقَرْيَتِهِمْ هَجْرَ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهَا ^٢ ، يَكْنَاهَا نُسَحْحَةُ :

«هَذَا كِتَابُ كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجَهْمِ مُؤَلَّى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، صَاحِبِ بَيْتِشِ الْعُرَاةِ ، عَامِلِ الْأَمِيرِ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ أَبَقَاهُ اللَّهُ ، فِي شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، لَكُنُونِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَظِيمِ الْبَيْعَةِ بِأَشْوَانَ .

إِنَّكَ سَأَلْتَنِي وَطَلَبْتَ إِلَيَّ أَنْ أَوْثِقَكَ وَأَهْلَ بَلَدِكَ مِنَ الْبَيْعَةِ ، وَأَعْقِدَ لَكَ وَلَهُمْ أَمَانًا عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَجَبْتُكَ إِلَى أَنْ عَقَدْتَ لَكَ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَمَانًا مَا اسْتَقَمْتَ وَاسْتَقَامُوا ، عَلَى مَا أَعْطَيْتَنِي وَشَرَطْتَ لِي فِي كِتَابِي هَذَا .

وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ سَهْلٌ بَلَدِكَ وَجَبِلُهَا مِنْ مُنْتَهَى حَدِّ أَشْوَانَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى حَدِّ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَاضِيعُ مُلْكًا لِلْمَأْمُونِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَازُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَنْتَ وَجَمِيعُ أَهْلِ بَلَدِكَ عِبِيدٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَّا أَنْتَ تَكُونُ فِي بَلَدِكَ مَلِكًا عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ فِي الْبَيْعَةِ .

وَعَلَى أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِ الْخَرَاجَ فِي كُلِّ عَامٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْبَيْعَةِ ، وَذَلِكَ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ، أَوْ ثَلَاثَ مِائَةِ دِينَارٍ وَارِزَةَ دَاجِلَةٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَالْخِيَارَ فِي ذَلِكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِوَلَايَتِهِ . وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَحْرُمَ شَيْقًا عَلَيْكَ مِنَ الْخَرَاجِ . وَعَلَى أَنْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِنْ ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى / اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ كِتَابَ اللَّهِ أَوْ دِينَهُ بِمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَهُ بِهِ ، أَوْ قَتَلَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُحَرًّا أَوْ عَبْدًا ، فَقَدْ بَرَّكَتَ مِنْهُ الدُّمَةُ : دُمَةُ اللَّهِ ، وَدُمَةُ رَسُولِهِ ﷺ ،

وَذِمَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّهُ اللَّهُ ، وَذِمَّةُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَحَلُّ ذِمَّتِهِ كَمَا يَحُلُّ ذِمَّةَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَذُرَارِيهِمْ .

وَعَلَى أَنْ أَحَدًا مِنْكُمْ إِنْ أَعَانَ الْخَارِجِينَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَالٍ ، أَوْ ذَلَّهُ عَلَى غَوْرَةٍ مِنْ غَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَثَّرَ لِعِزَّتِهِمْ ، فَقَدْ نَقَضَ ذِمَّةَ عَهْدِهِ ، وَحَلَّ ذِمَّتَهُ .

وَعَلَى أَنْ أَحَدًا مِنْكُمْ إِنْ قَتَلَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا أَوْ خَطَأً ، مُحَرًّا أَوْ عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ أَصَابَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ ذِمَّتِهِمْ مَالًا يَبْلُدُ الْبُحْجَةَ ، أَوْ بِلَادَ الْإِسْلَامِ ، أَوْ بِلَادَ الثُّوبَةِ ، أَوْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْبُلْدَانِ بَرًّا أَوْ بَحْرًا : فَعَلَيْهِ فِي قَتْلِ الْمُسْلِمِ عَشْرَ دِيَّاتٍ ، وَفِي قَتْلِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ عَشْرَ قِيَمٍ ، وَفِي قَتْلِ الذَّمِّيِّ عَشْرَ دِيَّاتٍ مِنْ دِيَّاتِهِمْ ، وَفِي كُلِّ مَالٍ أَصَبْتُمُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الذَّمَّةِ عَشْرَةَ أَضْعَافِهِ . وَإِنْ دَخَلَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِلَادَ الْبُحْجَةِ تَاجِرًا أَوْ مُقِيمًا أَوْ مُجْتَازًا أَوْ حَاجًّا ، فَهُوَ آمِنٌ فِيكُمْ كَأَحَدِكُمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِكُمْ .

وَلَا تُزْوُوا أَحَدًا مِنْ آيَقِي الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ أَنَاكُمْ آتٍ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَرْدُّوهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَعَلَى أَنْ تَرْدُّوا أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا صَارَتْ فِي بِلَادِكُمْ بِلا مُؤَنَةٍ تَلْزَمُهُمْ فِي ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنْكُمْ إِنْ تَرَأْتُمْ رَيْفَ صَعِيدٍ مِصْرَ لِتِجَارَةٍ أَوْ مُجْتَازِينَ ، لَا تُظْهِرُونَ سِلَاحًا ، وَلَا تَدْخُلُونَ الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى بِحَالٍ .

وَلَا تَمْتَنُوا أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الدُّخُولَ فِي بِلَادِكُمْ وَالتَّجَارَةَ فِيهَا بَرًّا وَلَا بَحْرًا ، وَلَا تُخْفِقُوا الشَّيْلَ ، وَلَا تَقَطِّعُوا الطَّرِيقَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَهْلِ الذَّمَّةِ ، وَلَا تَشْرِقُوا لِمُسْلِمٍ وَلَا ذِمِّيٍّ مَالًا .

وَعَلَى أَلَّا تَهْدِمُوا شَيْئًا مِنَ الْمَسَاجِدِ الَّتِي ابْتَنَى الْمُسْلِمُونَ بِصَنْجَةِ^(٥) وَهَجَرَ ، وَبَسَائِرِ بِلَادِكُمْ طَوْلًا وَعَرْضًا ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَلَا عَهْدَ لَكُمْ وَلَا ذِمَّةَ .

وعلى أَنَّ كَنُونَ بن عبد العزيز يُقيم بريف صعيد مصر، وَكَيْلًا يَفِي للمسلمين بما شَرَطَ لهم من دَفْعِ الْحَرَّاجِ، وَرَدِّ مَا أَصَابَهُ الْبَيْعَةُ للمسلمين من دَمٍ وَمَالٍ.

وعلى أَنَّ أَحَدًا من الْبَيْعَةِ لَا يَغْتَرِضُ حَدَّ الْقَصْرِ إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا قَبَان من بَلَدِ الثَّوْبَةِ حَدَّ الْأَعْمِدَةِ.

عَقَدَ عبد الله بن الْجَهْمُ مَوْلىَ أمير المؤمنين لَكَنُونَ بن عبد العزيز كبير الْبَيْعَةِ الْأَمَانَ عَلَى مَا سَلَّمْنَا وَشَرَطْنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَعَلَى أَنْ يُؤَافِي بِهِ أمير المؤمنين. فَإِنْ زَاغَ كَنُونَ أَوْ عَاثَ، فَلَا عَهْدَ لَهُ وَلَا ذِمَّةَ.

وعلى كَنُونَ أَنْ يُدْخِلَ عُمَّالَ أمير المؤمنين بِلَادَ الْبَيْعَةِ لِقَبْضِ صَدَقَاتِ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْبَيْعَةِ.

وعلى كَنُونَ الْوَفَاءَ بِمَا شَرَطَ لَعَبْدِ اللَّهِ بن الْجَهْمِ، وَأَخَذَ بِذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَعْظَمَ مَا أَخَذَ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْوَفَاءِ وَالْمِيثَاقِ.

وَلَكَنُونَ بن عبد العزيز وَلِجَمِيعِ الْبَيْعَةِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ، وَذِمَّةُ أمير المؤمنين، وَذِمَّةُ الْأَمِيرِ أَبِي إِسْحَاقَ بن أمير المؤمنين الرَّشِيدِ، وَذِمَّةُ عبد الله بن الْجَهْمِ، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ، بِالْوَفَاءِ بِمَا أَعْطَاهُ عبد الله بن الْجَهْمُ مَا وَقَى كَنُونَ ابْنِ عبد العزيز بِجَمِيعِ مَا شَرَطَ عَلَيْهِ. فَإِنْ غَيَّرَ كَنُونَ أَوْ بَدَّلَ أَحَدٌ مِنَ الْبَيْعَةِ، فَلِذِمَّةِ اللَّهِ بِجَلِّ اسْمِهِ وَذِمَّةِ أمير المؤمنين وَذِمَّةِ الْأَمِيرِ أَبِي إِسْحَاقَ ابْنِ أمير المؤمنين الرَّشِيدِ وَذِمَّةِ عبد الله بن الْجَهْمِ وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ بَرِيَّةٍ مِنْهُمْ.

وَتَوَجَّمَ بِجَمِيعِ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ حَرْفًا حَرْفًا زَكَرِيَّا بن صَالِحِ الْخَزْزُومِيِّ مِنْ سُكَّانِ مَجْدَّةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بن إِسْمَاعِيلَ الْقُرَشِيَّ. ثُمَّ تَشَقَّقَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ شُهَدَاءِ أَسْنَوَانَ.

فَأَقَامَ الْبَيْعَةَ عَلَى ذَلِكَ بَرْهَةً، ثُمَّ عَادُوا إِلَى غَزْوِ الرَّيْفِ مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ، وَكَثُرَ الضَّجيجُ مِنْهُمْ إِلَى أمير المؤمنين بِجَفَرِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ، فَتَدَبَّرَ لِحَزْبِهِمْ مُحَمَّدُ بن عبد الله الْقُتَيْبِيُّ، فَسَأَلَ أَنْ يُخْتَارَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ أَحَبَّ، وَلَمْ يَزْعَبْ إِلَى الْكَثْرَةِ لَصُعُوبَةِ الْمَسَالِكِ^١. فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مِصْرَ فِي

^١ انظر تفاصيل حملة محمد بن عبد الله القتيبي على بلاد
البيجة في ولاية غثينة بن إسحاق عند الطبري: تاريخ
الرسول والملوك ٢٠٢: ٩-٢٠٦؛ المغربي: المعنى الكبير

عِدَّةٌ قَلِيلَةٌ وَرَجَالٌ مُتَخَبِّةٌ ، وَسَارَتْ الْمَرَائِبُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَاجْتَمَعَ الْبَيْجَةُ لَهُمْ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ عَظِيمٍ قَدْ رَكِبُوا الْإِبِلَ فَهَابَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ ، فَشَغَلَهُمْ بَكِتَابٌ طَوِيلٌ كَتَبَهُ فِي طُومَارٍ وَلَقَّهَ بِثَوْبٍ ، فَاجْتَمَعُوا لِقِرَائَتِهِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ وَفِي أَغْنَاكِ الْخَيْلِ الْأَجْرَاسُ فَتَفَرَّتِ الْجِمَالُ بِالْبَيْجَةِ ، وَلَمْ تَثْبُتْ لِمُضَلَّةِ الْأَجْرَاسِ ، فَزَكَبَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفِيَّتَهُمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً وَقَتَلَ كَبِيرُهُمْ .

٥ فقام من بعده ابن أخيه ، وَتَحْتِ يَطْلُبُ الْهَذَّةَ ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَطَّأَ بِسَاطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَسَارَ إِلَى بَغْدَادٍ وَقَدِمَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ بِشَرٍّ مِمَّنْ رَأَى فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتِينَ ، فَضَلَّحَ عَلَى أَدَاءِ الْإِنَاوَةِ وَالْبَيْقُطِ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَمْنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْمَقْدِينِ . وَأَقَامَ الْقُتَيْبِيُّ بِأَسْوَانَ مُدَّةً ، وَتَرَكَ فِي خَزَائِنِهَا مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ السِّلَاحِ وَآلَةِ الْعَزْوِ ، فَلَمْ تَزَلِ الْوَلَاةُ تَأْخُذُ مِنْهُ حَتَّى لَمْ يَبْقُوا مِنْهُ شَيْعًا .

١٠ فَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعَادِينِ وَاجْتَلَطُوا بِالْبَيْجَةِ قَلَّ شَرُّهُمْ ، وَظَهَرَ التَّبَيُّرُ لِكثَرَةِ طُلَّابِهِ ، وَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهِ فَوَقَدُوا مِنَ الْجُلْدَانِ ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْقُمَيْرِيُّ ، بَعْدَ مُحَارَبَتِهِ الثَّوْبَةَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتِينَ ، وَقَعَهُ رَيْبَةً وَجُهَيْتَةً وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ؛ فَكَثُرَتْ بِهِمُ الْعِمَارَةُ فِي الْبَيْجَةِ ، حَتَّى صَارَتْ الرُّوَايِلُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمِرَّةَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَسْوَانَ سِتِينَ أَلْفَ رَاجِلَةً ، غَيْرَ الْجِلَابِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الْقَلْزُومِ إِلَى عَيْذَابٍ ، وَمَالَتْ الْبَيْجَةُ إِلَى رَيْبَةٍ وَتَزَوَّجُوا إِلَيْهِمْ .

١٥ وَقِيلَ إِنَّ كُفَّانَ الْبَيْجَةِ قَبْلَ إِسْلَامِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، ذَكَرَتْ عَنْ مَعْبُودِهِمُ الطَّاعَةَ لِرَيْبَةٍ وَلَكُنُونِ مَعًا ، فَهَمَّ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا قَتَلَ الْقُمَيْرِيُّ ، وَاسْتَوَلَتْ رَيْبَةُ عَلَى الْجَزَائِرِ ، وَالْأَهَمُّ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْجَةِ / ، فَأَخْرَجَتْ مِنْ خَالَفَهَا مِنَ الْعَرَبِ ، وَتَصَاهَرُوا إِلَى رُؤَسَاءِ الْبَيْجَةِ ، وَبَذَلَ كَفَّ ضَرَرَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

٢٠ وَالْبَيْجَةُ الدَّاخِلَةُ فِي صَحْرَاءِ بَلَدٍ غَلَوَةٍ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمِلْحَ إِلَى أَوَّلِ الْحَبَشَةِ ، وَرِجَالُهُمْ فِي الظُّفْنِ وَالْمَوَاشِي وَاتِّبَاعُ الرِّعْيِ وَالْمَعِيشَةُ وَالْمَرَائِبُ وَالسِّلَاحُ ، كَحَالِ الْحَدَارِبِ ، إِلَّا أَنَّ الْحَدَارِبَ أَشْجَعُ وَأَهْلَى مِنَ الدَّاخِلَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِكُفَّائِهِمْ .

وَلِكُلِّ بَطْنٍ كَاهِنٌ يَضْرِبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ مَعْبُودُهُمْ فِيهَا ؛ فَإِذَا رَأَوْا اسْتِخْبَارَهُ عَمَّا يَخْتَانُجُونَ إِلَيْهِ ، تَعَزَّى وَدَخَلَ إِلَى الْقُبَّةِ مُسْتَقْبِذًا ، وَيَخْرِجُ إِلَيْهِمْ وَبِهِ أَثَرُ مَجْنُونٍ وَصَرَخَ ، يَقُولُ : الشَّيْطَانُ يُقْرِئُكُمْ

١ عن دور أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب يكنى أبا القميري في بلاد النوبة راجع ، البلوي : سيرة أحمد بن عبد الرحمن ؛ القميري : المقفى الكبير ٤٠٣: ٤١٥- طولون ٦٤- ٦٧ ، وهو فيه عبد الحميد بن عبد الله بن (ترجمة حافلة) .

السلام ، ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحيلة فإن الزمط الفلاني يقع بكم ؛ وسألتهم عن الغزو إلى بلد كذا ، فسيروا فإنكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا ، والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي ، والجارية الفلانية التي تجذبونها في الحياء الفلاني ، والغنم التي من صفتها كذا ، ونحو هذا القول .

٥. فيزعمون أنه يصلحهم في أكثر من ذلك ، فإذا غلبوا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ، ودفعوه إلى الكاهن يتموله ، ويحرمون ألبان ثوبها على من لم يقتل . فإذا أرادوا الرحيل ، حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد ، فيزعمون أن ذلك الحمل لا يثور إلا بجهد - وكذلك سيوه - ويتصعب عرقا ، والحيلة فارغة لا شيء فيها .

- وقد بقي في الحدارب جماعة على هذا المذهب ، ومنهم من يمسك بذلك مع إسلامه .
١٠. قال مؤرخ الثوبة ، ومنه تلخصت ما تقدم ذكره : وقد قرأت في خطبة الأجناس لأmir المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذكر البجة والكجة ، ويقول عنهم : شديد كلبيهم ، قليل سلبهم . فالبجة كذلك ، وأما الكجة فلا أعرفهم . انتهى ما ذكره عبد الله بن أحمد مؤرخ الثوبة . وقال أبو الحسن المسعودي : فأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا . وفي أرضهم معادن الذهب - وهو الثبر - ومعادن الزمرد . وتتصل سراياهم ومتابعتهم على الثجب إلى بلاد الثوبة ، فيغيرون^(a) ويشبون ؛ وقد كانت الثوبة قبل ذلك أشد من البجة إلى أن قوي الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين مغيد الذهب وبلاد القلاقي وعينداب ، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم وقرؤمجوا من البجة ، فقويت البجة ، ثم صاهرها قوم من ربيعة ، فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاؤوها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار .

٢٠. وصاحب المغين في وقتنا هذا^١ - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة - أبو مزوان يطر بن إسحاق وهو من ربيعة^(b) ، يزكب في ثلاثة آلاف ألف من ربيعة وأخلافها من مصر واليمن ، وثلاثين ألف حزاب على الثجب من البجة في الحجب البجاوية^(c) ، وهم الحدارية^(d) ، وهم

(a) بولاق : بغزون . (b) في الأصل وبولاق : بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، والتصويب من مروج الذهب .

(c) بولاق : النحابة . (d) بولاق : الحدارب والتصويب من مروج الذهب .

^١ أي وقت المسعودي الذي انتهى إلى هذا الموضع من كتابه في هذه السنة وكان بفسطاط مصر (مروج ١٢٦: ٢) .

- مسلمون من بين سائر البجة ، والدأخلة من البجة كُفَّار يُعْبَدُونَ صَنَعًا لَهُمْ^١ .
 والبجة المالكة لمقيد الزمرد يتصل ديارها بالعلاقي ، وهو مقيد الذهب ، وبين العلاقي والتيل
 خمس عشرة مَرَحَلَة ، وأقرب العِمَارَة إليه مدينة أُسْوَان .
 وجزيرة سواكن أَقْل من ميل في ميل ، وبينها وبين البحر الحبشي بَحْرٌ قَصِيرٌ يُخَاض . وأهلها
 طائفة من البجة تُسَمَّى الحَاس ، وهم مسلمون ، ولهم بها مَلِك .
 وقال الهمداني : نَكَحَ كَنْعَانُ بْنُ حَامٍ أَرْتَبَ بَنَاتِ تَبَاوِيلَ^٢ بِنَ تَرَسَ بْنِ بَافِثَ ، فَوَلَدَتْ لَهُ حَقًا
 وَالْأَسَاوِذَ وَثَوْبَةَ وَفَرَّانَ وَالزُّنْجَ وَالرُّغَاوَةَ وَأَجْناسَ السُّودَانِ^٣ .
 وقيل البجة من وَلَدَ حَامِ بْنِ نُوحَ ، وقيل من وَلَدَ كُوشَ بْنِ كَنْعَانَ بْنِ حَامٍ .
 وقيل البجة قَبِيلَة من الحَبَشِ أَصْحَابُ أَخِيَّةٍ مِنْ شَعْرَ ، وَالْوَانَهُمْ أَشَدُّ سَوَادًا مِنَ الْحَبَشَةِ ، يَتَزَوَّجُونَ
 بَنِيَّ الْعَرَبِ . وليس لهم مُدُنٌ وَلَا قُرَى وَلَا مَزَارِعَ ، وَمَعِيشَتُهُمْ مِمَّا يُنْقَلُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ
 وَأَرْضِ مِصْرَ وَالثَّوْبَةِ .
 وكانت البجة تُعْبَدُ الْأَصْنَامَ ، ثُمَّ أَسْلَمُوا فِي إِمَارَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحَ ، وَفِيهِمْ كَرَمٌ
 وَسَمَاحَةٌ .
 وهم قِبَائِلٌ وَأَفْخَادٌ ، لِكُلِّ فَخْذٍ رَئِيسٌ . وهم أَهْلُ نَجْعَةٍ ، وَطَعَامُهُمُ اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ فَقَطْ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ أُسْوَانِ^٤

أُسْوَانٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَسَى الرَّجُلُ تَأْسَى أَسَى ، إِذَا حَزِنَ . وَرَجُلٌ أَشْيَانٌ وَأُسْوَانٌ ، أَيُّ حَزِينٍ .
 وَأُسْوَانٌ فِي آخِرِ بِلَادِ الصُّعِيدِ ، وَهِيَ تَفَرُّ مِنْ تَقُورِ الْإِفْقِيمِ يَفْصَلُ بَيْنَ الثَّوْبَةِ وَأَرْضِ مِصْرَ .

(أ) بولاق : شاول . (ب) بولاق : قران .

١ محافظة أسوان . (البكري : جغرافية مصر ٨٣-١٨٤
 مجهول المؤلف : الاستبصار ١٨٧ : الإدرسي : نزهة المشاق
 ٣٩-٤١ : باقوت : معجم البلدان ١ : ١٩١-١٩٢
 الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٨ ، علي مبارك :
 الحفظ التوفيقية ٨ : ٦٤-١٧١ محمد رمزي : القاموس
 الجغرافي للبلاد المصرية ٢ : ٤ / ٢١٦-٢١٧ ، ولحمود محمد
 الخوري : أسوان في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨٠ .

٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٢٧ .

٣ الهمداني : الإكليل ١ : ٦٥ .

٤ أسوان بضم الهزة كما في معجم البلدان والطالع
 السعيد للأدفي ١٧ ، من المدن المصرية الأكثر قديمًا واسمها
 المصري Soun أو Sounou بمعنى «السوق أو محل التجارة»
 حيث كانت تُتبادل فيها أنواع التجارة بين مصر والسودان
 فهي آخر بلد في صعيد مصر الأعلى . وهي اليوم قاعدة

وكانت كثيرة الحَيْطَةُ وغيرها من الحَبُوب والفَوَاكِه والخَضْرَاءَات والبَقُول . وكانت كثيرة الحَيَوَان من الإِبِل والبَقَر والغَنَم ، ولَحْمَانَهَا هناك غَايَةٌ فِي الطَّيْب والسَّخَن . وكانت أَسْعَارُهَا أَبْهَدًا رَخِيصَةً ، وبها تِجَارَاتُ وَبَضَائِجُ تُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثَّوْبَةِ .

وَلَا يَتَّصِلُ بِأُشُونٍ مِنْ شَرْقِهَا بَلَدٌ إِسْلَامِيٌّ ، وَفِي جَنْبِهَا جَبَلٌ بِهِ مَقْدَنُ الزُّمُرَد ، وَهُوَ فِي بَرِّيَّةٍ مُتَقَطِّعَةٍ عَنِ الْعِمَارَةِ ، وَعَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ أُشُونٍ مَقْدَنُ الذَّهَبِ .

وَيَتَّصِلُ بِأُشُونٍ مِنْ غَرْبِهَا الْوَاحَات ، وَيُحِلُّكَ مِنْ أُشُونٍ إِلَى عَيْذَاب ، وَيَتَّصِلُ مِنْ عَيْذَابِ إِلَى الْحِجَازِ وَإِلَى الْيَمَنِ وَالْهِنْدِ .

(أ) قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَمَدِينَةُ أُشُونٍ يَمْشِكُنَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ قَحْطَانٍ / وَزَارٍ بْنِ زَيْبَةَ وَمُضَرَ وَخَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْحِجَازِ . وَابِلَدٌ كَثِيرٌ التَّخْلُ خَصِيْبٌ كَثِيرٌ الْخَيْرِ تُودَعُ الثَّوَابُ فِي الْأَرْضِ ، فَتَنْبِتُ نَخْلَةً ، وَيُؤْكَلُ مِنْ ثَمَرِهَا بَعْدَ سَنَتَيْنِ .

وَلَمِنْ بِأُشُونٍ [مِنَ الْمُسْلِمِينَ] (ب) ضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ دَاخِلَةٌ بِأَرْضِ الثَّوْبَةِ ، يُؤَدُّونَ خَرَايجَهَا إِلَى مَلِكِ الثَّوْبَةِ ، وَاتَّبَعَتْ هَذِهِ الضِّيَاعُ مِنَ الثَّوْبَةِ فِي صُدْرِ الْإِسْلَامِ فِي ذَوَلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ .

وَقَدْ كَانَ مَلِكُ الثَّوْبَةِ اسْتَعْدَى الْمَأْمُونُ - حِينَ دَخَلَ مِصْرَ - عَلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ ، يَوْفَدُ وَقَدَّمَ إِلَى الْفُسْطَاطِ ذَكَرُوا عَنْهُ أَنَّ أَنْاسًا مِنْ أَهْلِ تَمَلُّكِيَّةَ وَعَبِيدِهِ بَاغُوا ضِيَاعًا مِنْ ضِيَاعِهِمْ مِمَّنْ جَاوَزَهُمْ مِنْ أَهْلِ أُشُونٍ ، وَأَنَّهُ ضِيَاعُهُ وَالْقَوْمُ عَبِيدٌ لَا أَمْلَاقَ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا تَمْلِكُهُمْ عَلَى هَذِهِ الضِّيَاعِ تَمْلِكُ الْعَبِيدُ الْعَايِرِينَ فِيهَا ؛ فَجَعَلَ الْمَأْمُونُ أَمْرَهُمْ إِلَى الْحَاكِمِ بِمَدِينَةِ أُشُونٍ ، وَمَنْ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالشُّيُوخِ .

وَعَلِمَ مِنْ اتِّبَاعِ هَذِهِ الضِّيَاعِ مِنْ أَهْلِ أُشُونٍ أَنَّهَا سَتُنَزَعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَى مَلِكِ الثَّوْبَةِ بِأَنْ يُقَدِّمُوا إِلَى مَنْ اتَّبَعَ مِنْهُمْ مِنَ الثَّوْبَةِ أَنَّهُمْ إِذَا حَضَرُوا حَضْرَةَ الْحَاكِمِ أَلَّا يَقْرَءُوا لِمَلِكِهِمْ بِالْمُجُودِيَّةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : سَبَلْنَا مَعَاشِرَ الثَّوْبَةِ سَبِيلُكُمْ مَعَ مَلِكِكُمْ ، بِحُجْبٍ عَلَيْنَا طَاعَتُهُ وَتَرَكْ مُخَالَفَتُهُ ، فَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ عَبِيدًا لِمَلِكِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ لَهُ ، فَتَحْنُ كَذَلِكَ .

فَلَمَّا جَمَعَ الْحَاكِمُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْمَلِكِ ، أَتَوْا بِهَذَا الْكَلَامِ لِلْحَاكِمِ وَنَحْوَهُ مِمَّا أَوْفَقُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَقْنَى ، فَخَضَى الْبَيْعَ - لَعَلَّهم إِقْرَارَهُمْ بِالرَّوْقِ لِمَلِكِهِمْ - إِلَى هَذَا الْوَقْتِ ، وَتَوَارَتْ النَّاسُ تِلْكَ الضِّيَاعِ بِأَرْضِ الثَّوْبَةِ مِنْ بِلَادِ مَرِيسَ .

وصار الثوبَةُ أَهْلُ تَمْلَكَةِ هَذَا الْمَلِكِ نَوْعَيْنِ : مَنْ وَصَفْنَا أَخْرَارَ غَيْرِ عَبِيدَ ، وَالنَّوْعَ الْآخَرَ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ عَبِيدَ ، وَهُمْ مِنْ سَكَنَ الثَّوْبَةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَجَاوِزَةِ لِأَسْوَانَ ، وَهِيَ بِلَادُ مَرِيسَ^١ .

قَالَ : وَأَمَّا الثَّوْبَةُ فَافْتَرَقَتْ فِرْعَوْنَيْنِ : فِرْعَوْنٌ فِي شَرْقِ النَّيْلِ وَعَرَبِهِ ، فَأَنَاخَتْ عَلَى شَاطِئِهِ ، وَانْفَصَلَتْ دِيَارُهَا بِدِيَارِ الْقِبْطِ مِنْ أَرْضِ صَعِيدِ مِصْرَ ، وَانْتَشَعَتْ مَسَاكِينُ الثَّوْبَةَ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ مُصْعَقَةً ، وَلَحِقُوا بِقَرِيبٍ مِنْ أَعَالِيهِ ، وَبَنَوْا^(أ) دَارَ تَمْلَكَةٍ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ تُدْعَى دُنْقَلَةَ . وَالفِرْعَوْنُ الْآخَرُ مِنْ الثَّوْبَةِ يُقَالُ لَهَا عِلْوَةُ ، وَبَنَوْا مَدِينَةً عَظِيمَةً سَمَّوْهَا سَوْتَةَ^(ب) .

وَالْبَلَدُ الْمُتَّصِلُ بِمَمْلَكَتِهِ بِأَرْضِ أُسْوَانَ يُعْرَفُ بِمَرِيسَ ، وَإِلَيْهِ تُضَافُ الرِّيحُ الْمَرِيسِيَّةُ ، وَعَمَلُ هَذَا الْمَلِكِ مُتَّصِلٌ بِأَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ أَرْضِ الصَّعِيدِ وَمَدِينَةِ أُسْوَانَ^٢ .

قَالَ : وَفِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ بِجَبَلٍ رُخَامٍ عَظِيمٍ كَانَتْ الْأَوَائِلُ تَقْطَعُ مِنْهُ الْعُمْدَ وَغَيْرَهَا . فَأَمَّا الْعُمْدُ وَالْقَوَاعِدُ وَالرُّؤُوسُ الَّتِي يُسَمِّيَهَا أَهْلُ مِصْرَ «الْأُسْوَانِيَّةَ» ، وَمِنْهَا حِجَارَةُ الطَّوَّاحِينِ ، فَبَلَدُهَا الْأَوَّلُونَ قَبْلَ لِحْدُوثِ النُّصْرَانِيَّةِ بِمَعْنَى مِنَ السَّنِينَ ، وَمِنْهَا الْعُمْدُ الَّتِي بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ^٣ .

وَفِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ أَغَارَ مَلِكُ الثَّوْبَةِ عَلَى أُسْوَانَ ، وَقَتَلَ جَمْعًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَازِنُ عَلَى عَشْكَرِ مِصْرَ مِنْ قِبَلِ أَوْتُوجُورَ بْنِ الْإِخْشِيدِ ، فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ ، فَسَارُوا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَبَعَثُوا بَعْدَهُ مِنَ الثَّوْبَةِ أَسْرُورَهُمْ ، فَضَرَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ بَعْدَ مَا أُزِيقَ بِمَلِكِ الثَّوْبَةِ . وَسَارَ الْخَازِنُ حَتَّى فَتَحَ مَدِينَةَ أُبْرِيمَ وَسَمَّى أَهْلَهَا . وَقَدِمَ إِلَى مِصْرَ فِي نِصْفِ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ بِمِائَةِ وَخَمْسِينَ أَسِيرًا وَعِدَّةَ رُؤُوسٍ^٤ .

وَقَالَ الْقَاضِي الْقَاضِي : إِنَّ مُتَّحَصِلَ ثَغْرِ أُسْوَانَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ بَلَغَ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(أ) نهاية السقط الذي بدأ في الصفحة السابقة . (ب) بولاق : سرقه .

^١ المسعودي : مروج الذهب ١٣١:٢ - ١٣٢ .

^٢ ٤٣٢ .

^٣ نفسه ١٢٦:٢ .

^٤ انظر المقرئ : الملفى الكبير ١٣٧:٦ - ١٣٨ .

^٥ المسعودي : مروج الذهب ٧٨:٢ وفيما تقدم

وقال الكَمَالُ جَعْفَرُ الْأَذْفَوِي: وكان بأشوان ثمانون رَسُولاً من رُسُلِ الشُّرْع. وَتَحَصَّلَ من أَشْوَان في سنة واجِدَة ثلاثون ألفَ أَرْدَبٍ نَمْرًا. وَأَخْبَرْنَا من وَقَفَ على مَكْتُوبٍ كان فيه أَوْتَمون شَرِيفًا حَاصِبَةً، وَأَن مَكْتُوبًا آخَرَ رَأَى فيه ستين شَرِيفًا دون من عَدَاهُمْ؛ قَالَ: وَوَقَفْتُ أَنَا على مَكْتُوبٍ فيه نَحْو من أربعين، مُؤَرَّخ بما بعد العشرين وست مائة من الهجرة.

- وكان يَقْرَأ أَشْوَان بَثْو الكَنْز من رَيْبَة، أَمْرَاءٌ تَمْدُوحون مَقْصُودون، صَنَعَ لَهُم الفَاضِلُ السَّديد أَبُو الحَسَنِ بن عَزَام سِيرَة ذَكَرَ فيها مَنَاقِبَهُم وَأَسْمَاءَ مَن مَدَحَهُم وَمَن وَرَدَ عَلَيْهِم.
- ولمَّا أَرْسَلَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بن أَيُّوبَ جَيْشًا إلى كَنْزِ الدَّوْلَة وَأَصْحَابِهِ، تَرَحَّلُوا عن البلاد، فَذَخَلُوا بِيوْتَهُم فَوَجَدُوا بِهَا قَصَائِدَ من مَدَحِهِم، منها قَصِيدَة أَبِي مُحَمَّد الحَسَنِ بن الزَّيْبَر^١، قال فيها:

- ١٠ [الطويل]
- وَيُنْجِدُهُ - إِنْ خَانَهُ الذُّهْرُ أَوْ سَطَا - أَنَا نَسْ إِذَا مَا أُنْجِدَ الذُّلُّ أَتْهَمُوا
أَجَارُوا فَمَا تَحْتَ الكَوَاكِبِ خَائِفٌ وَجَادُوا فَمَا قَوْقُ البَاسِطَةِ مُغْدَمٌ
وَأَنَّهُ أَجَارَهُ عَلَيْهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَاقِيَة تُسَاوِي أَلْفَ دِينَارٍ^٢.
- وكان بأشوان رِجَالٌ من القَشَكِرِ مُشْتَعِدون بِالْأَسْلِحَةِ لِحِفْظِ الثَّغْرِ من هُجُومِ الثُّوبَةِ والشُّودَانِ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا زَالَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ أَهْمِلَ ذَلِكَ^٣، فَسَارَ مِلْكُ الثُّوبَةِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، وَنَزَلَ تِجَارَةُ أَشْوَان فِي جَزِيرَةٍ، وَأَسَرَ مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.
- ثُمَّ تَلَاسَى بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرُ الثَّغْرِ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ أَوْلَادُ الكَنْزِ^٤ من بَعْدِ سَنَةِ تِسْعِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ، فَافْتَسَدُوا فَسَادًا كَبِيرًا، وَكَانَتْ لَهُم مَعَ وِلَاةِ أَشْوَان عِدَّةٌ مِنْ حُرُوبٍ، إِلَى أَنْ كَانَتْ الْحِجْرُ مِنْذُ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِ مِائَةٍ، وَخَرِبَ إِقْلِيمُ الصَّعِيدِ، فَارْتَفَعَتْ يَدُ السُّلْطَنَةِ عَنْ ثَغْرِ أَشْوَان، وَلَمْ يَبْقَ / لِلْإِمْلَاحِ فِي مَدِينَةِ أَشْوَان وَالِيٍّ، وَأَتَّصَحَّ حَالُهُ عِدَّةَ سِنِينَ.
- ٢٠

^١ الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأسواني المعروف بالمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م. (خريدة القصر ١: ٢٠٤، معجم الأدياء ٩: ٤٧). والبيت في الديوان ...

^٢ الأذفوي: الطالع السعيد ٢٩-٣١.

^٣ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٧٢٣.

^٤ عن بني الكنز الذين أششوا في منتصف القرن الرابع الهجري إمارة جنوب مصر أولًا في منطقة العلاف ثم انتقلت إلى أسوان إلى أن ضعفت دولتهم بعد تغلب قبيلة مغارة عليهم في مطلع القرن التاسع الهجري، انظر المقرئ: البيان والإعراب ٤٤-٤٦؛ عطية القوصي: تاريخ دولة الكنز الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦، Holt, P.M., *El* art. 590. Banûl Kanz TV, p. 590

ثم رَحَقَتْ هَوَازَة في محرم سنة خمس عشرة وثمان مائة إلى أشوان ، وحَارَبَتْ أَوْلَادَ الْكَثَرِ
وَهَزَمُوهُمْ ، وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، وَسَبَّوْا مَا هُنَاكَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ ، وَاسْتَرْقَوْا الْجَمِيعَ ،
وَهَدَمُوا سُورَ مَدِينَةِ أَشْوَان ، وَمَضَوْا بِالسَّبْيِ ، وَقَدْ تَرَكُوها خَرَابًا يَبَاقُ لَا سَكَنَ بِهَا . فَاسْتَمَرَّتْ عَلَى
ذلك بعد ما كانت بِحَيْثُ يَقُولُ عَنْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَلِيمٍ الْأَشْوَاني فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ
الثُّبُوة» : إِنَّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْقَمَرِيَّ لَمَّا غَلَبَ عَلَى الْمَقْدِنِ ، كَتَبَ إِلَى
أَشْوَانٍ يَسْأَلُ التَّجَارَ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ بِالْجِهَازِ مِنْ طَرِيقِ الْمَقْدِنِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُقْرَفُ بِعُثْمَانَ بْنِ
عُثْلَجَةَ التَّمِيمِيِّ فِي أَلْفِ رَاجِلَةٍ فِيهَا الْجِهَازُ وَالْبَرُ .

وَذَكَرَ أَنَّ الْقَمَرِيَّ لَمَّا عَادَ إِلَى بِلَادِ الْبَيْحَةِ بَعْدَ خُرُوبِهِ لِلثُّبُوةِ ، كَثُرَتْ الْعِمَارَةُ حَتَّى صَارَتْ الرُّوَايِلُ
الَّتِي تَحْمِلُ الْمِيرَةَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَشْوَانِ سِتِينَ أَلْفَ رَاجِلَةٍ ، غَيْرِ الْجِلَابِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الْقَلْزُومِ إِلَى عَيْنِ دَابِ .
قَالَ : وَمِمَّا شَاهَدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِنَا الثَّقَاتِ بِأَشْوَانِ بَقَرِيَّةٌ تُدْعَى أَسَاشِي ، هِيَ مِنْ أَشْوَانِ عَلَى
مَرَحَلَتَيْنِ وَنَصَفٍ ، أَنَّهُمْ رَأَوْا شَرْقَهَا مِنْ جَانِبِ الثَّلِيلِ قَرِيبَةً بِشُورٍ وَخَارِجَ بَابِهَا جُمُيْرَةٌ ، وَنَاسٌ
يَتَذَلُّونَ وَيَخْرُجُونَ ، فَإِذَا عَبَّرُوا إِلَى الْمَوْضِعِ لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا ؛ وَهَذَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ دُونَ الصَّيْفِ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ . وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَى رُؤُوسِهَا ، وَصِبْغَةُ هَذَا الْخَيْرِ .
وَكَانَ بِهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الثَّمَرِ ، وَأَنْوَاعٌ مِنَ الرُّطْبِ ، مِنْهَا نَوْعٌ مِنَ الرُّطْبِ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنْ خُضْرَةِ
الشَّلَقِ . وَأَمَرَ هَارُونَ الرَّشِيدُ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ مِنَ الْوَانِ ثَمَرُ أَشْوَانٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ثَمَرَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَجُمِعَ لَهُ
وَلَيْتُهُ ، وَلَا يُقْرَفُ فِي الدُّنْيَا بَشَرٌ يَتَمَرَّرُ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ رُطْبًا إِلَّا بِأَشْوَانِ .

بِلَاقُ بِلَاقِ

بِلَاقُ بِلَاقِ جِصْنٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ تَقْرُبُ مِنَ الْجَنَادِلِ مُحِيطٌ بِهَا الثَّلِيلُ ، فِيهَا بَلَدٌ كَبِيرٌ
يَسْكُنُهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَبِهَا نَخْلٌ عَظِيمٌ ، وَمِنْبَرٌ فِي جَامِعٍ وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي سُقْنُ الثُّبُوةِ وَسُقْنُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَشْوَانِ . وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَرِيبَةِ الَّتِي تُقْرَفُ بِالْقَضَرِ - وَهِيَ أَوَّلُ بَلَدِ الثُّبُوةِ - مِيلٌ وَاحِدٌ .
وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ أَشْوَانِ أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ . وَمِنْ أَشْوَانِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ جَنَادِلُ فِي الْبَحْرِ لَا تَسْلُكُهَا الْمَرَائِبُ
إِلَّا بِالْحِمْلَةِ وَدَلَالَةٍ مِنْ يُخْبِرُ ذَلِكَ مِنَ الصَّيَّادِينَ الَّذِينَ يَصِيدُونَ هُنَاكَ .

وَبِالْقَصْرِ مَسْلُحَةٌ وَهَابٌ إِلَى بَلَدِ التَّوْبَةِ^١.

ذِكْرُ حَائِطِ الْعُجُوزِ

هَذَا الْحَائِطُ كَانَ جِصْنًا لَأَرْضِ مِصْرَ يُخْدِقُ بِجَمِيعِهَا، وَكَانَ فِيهِ مَحَارِسُ وَمَسَالِخُ، وَمِنْ وَرَائِهِ خَلِيجٌ يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، مَغْقُودٌ عَلَيْهِ الْقَنَاطِرُ، عَمِلَتْهُ دُلُوكَةٌ بِنْتُ زَبَاءَ، وَقَدْ وَهَى وَتَلَاشَى، وَلَمْ يَتَّقِ مِنْهُ إِلَّا يَسِيرَ فِي شَطِّ النَّيْلِ الشَّرْقِيِّ يَنْتَهِي إِلَى أَسْوَانَ^٢.

قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، فِي كِتَابِ «فَتْوحِ مِصْرٍ»: فَبَقِيَتْ مِصْرُ بَعْدَ غَرْفِهِمْ - بِمَعْنَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ - وَلَيْسَ فِيهَا مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ يَبْقِ بِهَا إِلَّا الْقَبِيذُ وَالْأَجْرَاءُ وَالنِّسَاءُ. فَأَعْظَمَ أَشْرَافُ مِنْ مِصْرَ مِنَ النِّسَاءِ أَنْ يُؤَلِّينَ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَأَجْمَعَ زَائِنُهُنَّ أَنْ يُؤَلِّينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ يُقَالُ لَهَا دُلُوكَةٌ بِنْتُ زَبَاءَ، وَكَانَ لَهَا عَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ وَتَجَارِبٌ، وَكَانَتْ فِي شَرْفٍ مِنْهُنَّ وَمَوْضِعٍ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ مِائَةِ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، فَكَلَّكُوهَا، فَخَافَتْ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا مُلُوكُ الْأَرْضِ، فَجَمَعَتْ نِسَاءَ الْأَشْرَافِ فَقَالَتْ لَهُنَّ: إِنَّ بِلَادَنَا لَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ فِيهَا أَحَدٌ، وَلَا يَمْتَدُّ عَيْنُهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ هَلَكَ أَكَابِرُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَذَهَبَ السَّحَرَةُ الَّذِينَ كُنَّا نَقْوَى بِهِمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَتْبِنِي جِصْنًا أُخْدِقُ بِهِ جَمِيعَ بِلَادِنَا، فَأَصْبَحَ عَلَيْهِ الْمَحَارِسُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ فِيْنَا النَّاسُ.

فَبَنَتْ جِدَارًا أَحَاطَتْ بِهِ عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا، الْمَزَارِغُ وَالْمَدَائِنُ وَالْقُرَى، وَجَعَلَتْ دُونَهُ خَلِيجًا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، وَأَقَامَتْ الْقَنَاطِرَ وَالنَّزْعَ، وَجَعَلَتْ فِيهِ مَحَارِسَ وَمَسَالِخَ، عَلَى كُلِّ ثَلَاثَةِ أَهْمَالٍ مَحْرَسٌ وَمَسْلُحَةٌ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مَحَارِسُ صِغَارًا عَلَى كُلِّ مِيلٍ. وَجَعَلَتْ فِي كُلِّ مَحْرَسٍ رَجُلًا، وَأَجَرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ. وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُجْرَسُوا بِالْأَجْرَاسِ، فَإِذَا أَتَاهُمْ أَحَدٌ يَخَافُونَهُ ضَرَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالْأَجْرَاسِ، فَأَتَاهُمُ الْخَبِيرُ

^١ البلادان ١٤٧٨:١ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ٧: ١١٨٨
محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٦٧، ١٨٧، ٢ /
٤: ٢١٦-٢١٧.

^٢ التويري: نهاية الأرب ١: ١٣٩٢ ابن فضل الله
العصري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٩.

^١ بلاق. كلمة مصرية قديمة بمعنى الموردة أو المرساة التي
ترسو بها السفن، فكما كانت أسوان تقع بالطرف البحري
من الشلال كانت بلاق تقع بالطرف الجنوبي منه ميناء للسفن
الحاملة للأصناف الواردة من السودان والصادرة إليه. ويدل
على موقعها اليوم جزيرة المبدد وجزيرة أنس الوجود جنوب
أسوان (الإدريسي: نزهة المشتاق ٣٨-٣٩ بالقوت: معجم

من أي وجه كان^٥ فتمتعت بذلك مصر ممن أرادها .
وفرغت من بنائه في ستة أشهر . وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز بمصر ، وقد بقيت
بالصعيد منه بقايا كبيرة . والله أعلم^١ .

ذكر البسط

البسط ما يُقبَض من سبي الثوبة في كل عام ، ويُحْمَل إلى مصر ضريبة عليهم ؛ فإن كانت هذه
اللفظة^٥ عربية فهي إما من قولهم : في الأرض بقط من ثقل وعشب ، أي تَبَد من مزعى ، فيكون
معناه على هذا : تبدة من المال ، أو / يكون من قولهم إن في نبي نعيم بقطاً من ربيعة أي فزقة أو
قطعة ، فيكون معناه على هذا : فرقة من المال أو قطعة منه ؛ ومنه بقط الأرض فزقة منها ، وبقط
الشيء فزقه ؛ والبط أن تُعطي الحبة على الثلث أو الربع ؛ والبط أيضاً ما سقط من الثمر إذا قُطِع
فأخطأه الخلب^٦ ، فيكون معناه على هذا بغض ما في أيدي الثوبة .

وكان يؤخذ منهم في قزبة يقال لها القصر ، مساققتها من أشوان خمسة أميال فيما بين بلد
بلاق وبلد الثوبة ، وكان القصر قزصة لقوص^٢ .

وأول ما تقرر هذا البسط على الثوبة في إمارة عمرو بن العاص ، لما تمت عبد الله بن سعد بن
أبي سرح بعد فتح مصر إلى الثوبة سنة عشرين - وقيل سنة إحدى وعشرين - في عشرين ألفاً ،
فتمكت بها زماناً ، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه .

فلما مات عمرو - رضي الله عنه - نقض الثوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن
سعد ، وكثرت سراياهم إلى الصعيد فأخزبوا وأفسدوا . ففراهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن أبي
سرح وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان - رضي الله عنه - سنة إحدى وثلاثين ، وحصرهم
بمدينة دُنْغَلَة حصاراً شديداً ، وزامهم بالمجنق - ولم تكن الثوبة تعرفه - وخسف بهم كيستهم
بحجر ؛ فبهرهم ذلك وطلب إليهم - واشمه قليدوروث - الصلح ، وخرج إلى عبد الله وأبدي
ضعفاً ومسكنة وتواضعاً ؛ فلقاه عبد الله ورفقه وقوته ، ثم قرر الصلح معه على ثلاث مائة وستين

(٥) بولاق : من أي جهة كانت . (ب) بولاق : الكلمة . (ج) بولاق : الحرف .

^١ ابن عبد الحكم : فزع مصر ٢٦-٢٧ وفيما تقدم أنظر فيما تقدم ٥١٧ ، ٥٤٠ .

رَأْسًا فِي كُلِّ سَنَةٍ^١، وَوَعَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بِمُحِبُّوبٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ لِمَا شَكَاهُ لَهُ قِلَّةَ الطَّعَامِ بَيْلَدِهِ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا تُشَحِّفُهُ بَعْدَ الْبَيْسَمَلَةِ:

«عَهْدٌ مِنَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي سَرْحٍ لِعَظِيمِ الثَّوْبَةِ وَلِجَمِيعِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، عَهْدٌ عَقَدَهُ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ مِنَ الثَّوْبَةِ مِنْ حَدِّ أَرْضِ أَشْوَانَ إِلَى حَدِّ أَرْضِ غَلْوَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ يَجْعَلُ لَهُمْ أَمَانًا وَهَدَنَةً جَارِيَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ جَاوَزَهُمْ مِنْ أَهْلِ صَعِيدِ مِصْرَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الذَّمَّةِ. إِنَّكُمْ مَعَاضِرُ الثَّوْبَةِ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَلَّا تُحَارِبُوكُمْ، وَلَا تَنْصَبَ لَكُمْ حَرْبًا، وَلَا تَغْرُوكُمْ، مَا أَقْبَضْتُمْ عَلَى الشَّرَائِطِ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؛ عَلَى أَنْ تَدْخُلُوا بِلَدَّنَا مُجْتَازِينَ غَيْرَ مُقِيمِينَ فِيهِ، وَتَدْخُلَ بِلَدَّكُمْ مُجْتَازِينَ غَيْرَ مُقِيمِينَ فِيهِ.

وَعَلَيْكُمْ حِفْظٌ مِنْ نَزَلَ بِلَدَّكُمْ أَوْ يَطْرُقَهُ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهِدٍ حَتَّى يَخْرُجَ عَنْكُمْ. وَإِنْ عَلَيْكُمْ رَدُّ كُلِّ آيَةٍ خَرَجَ إِلَيْكُمْ مِنْ عِبِيدِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَرُدُّوه

مَقَرُّهُ وَالثَّوْبَةُ فِي رَجَبِ سَنَةِ ١٤٤١هـ/٧٥٨م، مَتَضَعَةً الْحَدِيثَ عَنِ الْبَيْطِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُهُ إِلَى الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِصْرَ. وَنُجِّحُ أَنْ هَذِهِ الْوِثَاقَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْوِثَاقَةُ الْأَصْلِيَّةُ لِأَنَّهَا لَا تَتَّصِلُ عَلَى أَيْةِ إِشْهَادَاتٍ، وَأَيْضًا صَوْرَةُ نَسَخَتِ عَنْهَا فِي نَفْسِ التَّارِيخِ لِتَحْفَظَ فِي أَوْشَافِ الثَّوْبَةِ. (رَاجِعْ، Plumley, M., «An Eighth-Century Arabic Letter to the King of Nubia». *JEA* 61 (1975), pp. 45-241، الَّذِي قَدَّمَ تَرْجُمَةً لِنَصِّ الْوِثَاقَةِ؛ كَمَا تَشَرَّحُ حَمْدِي السَّكُوتُ وَمَارْتِينَ هِينزُ الثَّقَفُ الْعَرَبِيَّ لِلْوِثَاقَةِ انظر، Hinds, M. & Sakkut, H., «A Letter from the Governor of Egypt to the King of Nubia and Muqurra concerning Egyptian - Nubian Relations in 141/758», in *Studia Arabica et Islamica: Festschrift for Ihsan 'Abbās on his sixtieth birthday*. Ed. Wadād al-Qādi, Beirut - AUB 1981, pp. 209-24; Halm, H., «Der nubische baqt» in Vermeulen, U. & De Smet, D. (eds.) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven (1998), pp. 63-103.

^١ الْبَيْطُ هُوَ الضَّرِيَّةُ السَّنَوِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَدْفَعُهَا الثَّوْبَةُ الْمَسِيحِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِصْرَ مَقَابِلَ الْهَدَنَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَهُمَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ ٣٦٥ رَأْسًا مِنَ الشَّعْرِ لِبَيْتِ مَالٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَرْبَعِينَ رَأْسًا تُجْعَلُ لِأَمِيرِ مِصْرَ وَعِشْرِينَ رَأْسًا لِوَالِيِ أَسْوَانَ الَّذِي يَتَوَلَّى قَبْضَ الْبَيْطِ، وَخَمْسَةَ لِلْأَمِيرِ الْمُقِيمِ بِأَسْوَانَ، وَالتِّي عِشْرَ رَأْسًا لِلتَّيْنِ عِشْرَ شَاهِدٍ عَذْلٍ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَعَ الْحَاكِمِ قَبْضَ الْبَيْطِ فِي قَرْيَةِ الْقَضْرُ (انظر إِضَافَةً إِلَى نَصِّ الْفَرِيزِيِّ، الْبَلَاذَرِيِّ: فَدَحُ الْبُلْدَانِ ٢٨١، ٢٨٢؛ الْمَسْعُودِيِّ: مَرْجُوحُ الذَّهَبِ ٢: ١٢٩، ١٣٠، Lokkegaard, F., *El² art. Bakr I*, p. 996; Beshir, B.I., «New Lights on the Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), p. 16. وَفِي أَثْنَاءِ سَنَةِ ١٩٧٢ عَفَرُ فِي مَنَاطِقَةِ قَعْرِ إِبْرَاهِيمَ فِي الثَّوْبَةِ عَلَى عَدَدِ مِنْ لِفَائِلِ الْيُرْدِيِّ بَيْنَهَا بَرْدِيَّةٌ تَعَدُّ مِنْ أَرْوَعِ الْوِثَاقَاتِ الْبَرْدِيَّةِ الْمَكْتُوفَةِ حَتَّى الْآنَ طَوَّلُهَا ٢٥٥ سَمَ وَعَرْضُهَا ٣٥ سَمَ مَكْتُوبٌ عَلَى وَجْهَيْهَا ٦٩ سَطْرًا بِحِفْظٍ جَمِيلٍ، وَهِيَ عَطَابٌ رَسْمِيٌّ مُوجَّهٌ مِنَ وَالِيِ مِصْرَ مُوسَى بْنِ كَعْبٍ إِلَى صَاحِبِ

إلى أرض الإسلام ، ولا تَسْتَوِلُوا عليه ، ولا تَمْتَنِعُوا منه ، ولا تَتَعَرَّضُوا لِمُسْلِم
قَصْدَه وحَاوَزَه إلى أن يَنْصَرِفَ عنه .

وعليكم جَفْظُ الْمَسْجِدِ الَّذِي ابْتَنَاهُ الْمُسْلِمُونَ بِقِنَاءِ مَدِينَتِكُمْ ، ولا تَمْتَنِعُوا
منه مُصَلِّيًا ، وعليكم كَنَسُه وإِسْرَاجُه وتَكْرِيمُه .

وعليكم في كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُّونَ رَأْسًا تَذْفَعُونَهَا إِلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ
من أَوْسَطِ رَفِيقِ بِلَادِكُمْ غَيْرِ الْمَغِيبِ ، يَكُونُ فِيهَا ذُكْرَانُ وَإِنَاثُ ، لَيْسَ فِيهَا
شَيْخٌ هَرِمٌ وَلَا عَجُوزٌ وَلَا طِفْلٌ لَمْ يَتَلُغِ الْحُلُمَ ؛ تَذْفَعُونَ ذَلِكَ إِلَى وَالِي
أَسْوَانِ .

وليس على مُسْلِمٍ دَفْعُ عَدُوٍّ غَرَضَ لَكُمْ ، وَلَا مَنَعُه عَنْكُمْ مِنْ حُدِّ أَرْضٍ
عُلُوًّا إِلَى أَرْضِ أَسْوَانِ ؛ فَإِنْ أَنْتُمْ آوَيْتُمْ عَبْدًا لِمُسْلِمٍ ، أَوْ قَتَلْتُمْ مُسْلِمًا أَوْ
مُعَاهِدًا ، أَوْ تَعَرَّضْتُمْ لِلْمَسْجِدِ الَّذِي ابْتَنَاهُ الْمُسْلِمُونَ بِقِنَاءِ مَدِينَتِكُمْ بِهِتْمٍ ، أَوْ
مَنَعْتُمْ شَيْقًا مِنَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ رَأْسٍ وَالسَّتِينَ رَأْسًا ، فَقَدْ يَرَّتْ مِنْكُمْ هَذِهِ الْهُذُنَةُ
وَالْأَمَانُ ، وَعُدْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ بَيْنَنَا ﴿ وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الآية ١٠٩ سورة يونس] ؛ عَلَيْنَا بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ وَذِمَّتُهُ
وَذِمَّةُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَنَا عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مَا تَدِينُونَ بِهِ مِنْ ذِمَّةِ
الْمَسِيحِ وَذِمَّةِ الْخَوَارِيزِ وَذِمَّةِ مَنْ تُعْظَمُونَهُ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ ، اللَّهُ
الشَّاهِدُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عَلَى ذَلِكَ .

كُتِبَ عَمْرُو بْنُ شَرْحِبِيلٍ^١ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ .

وَكَانَتْ الثُّبُوتُ دَفَعَتْ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ مَا صُوجِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْبَقَطِ قَبْلَ نَكْبِهِمْ ، وَأَهْدُوا إِلَى
عَمْرُو أَرْبَعِينَ رَأْسًا مِنَ الرَّقِيقِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا وَرَدَّ الْهَدِيَّةَ إِلَى كَبِيرِ الْقَبْطِ^(أ) - وَيُقَالُ لَهُ نَسْتَقُوسٌ^(ب) -
فَاشْتَرَى لَهُ بِذَلِكَ جِهَازًا وَخَمْرًا وَوَجَّهَهُ إِلَيْهِ^٢ .

(أ) الأصل وبولاق : كبير البقط والثبت من فروح مصر لابن عبد الحكم وفيه : عظيم من عظماء القبط . (ب) بولاق :
سمقوس ، الأصل : سمقوس والثبت من فروح مصر .

^١ أبو عتيبة عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي (ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٠٦:٦ - ١٠٩:٦ الذهبي : سير
^٢ ابن عبد الحكم : فروح مصر ١٨٩ .

أعلام النبلاء ٤: ١٣٥-١٣٦) .

وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْحُبُوبِ : قَفْحًا وَشَعِيرًا وَعَدَسًا ، وَثِيَابًا ، وَخَيْلًا . ثُمَّ تَطَاوَلَ الرِّثْمُ عَلَى ذَلِكَ فَصَلَّيَ رَشْمًا يَأْخُذُونَهُ عِنْدَ دَفْعِ الْجُحْطِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَصَارَتْ الْأُرْبَعُونَ رَأْسًا الَّتِي أَهْدَيْتِ إِلَى عَمْرٍو يَأْخُذُهَا وَالْيَ مِصْرَ .

وَعَنْ أَبِي خَلِيفَةَ حَمِيدَ بْنِ هِشَامِ الْبُخَّارِيِّ أَنَّ الَّذِي صُوِّلَ عَلَيْهِ الثُّوبَةُ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ رَأْسًا لِقَبْلِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِصَاحِبِ مِصْرَ أُرْبَعُونَ رَأْسًا ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ أَلْفُ أَرْدَبٍ قَفْحًا ، وَلِرَسُولِهِ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَرْدَبٍ ، وَمِنَ الشَّعِيرِ كَذَلِكَ ، وَمِنَ الْخَمْرِ أَلْفُ أَقْنَيْنِ^(٥) ، لِلْمُتَمَلِّكَ وَلِرَسُولِهِ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَقْنَيْنِ^(٦) ، وَقَرَسَيْنِ مِنْ بِنَاجٍ خَيْلٍ الْإِمَارَةِ ، وَمِنْ أَصْنَافِ الثِّيَابِ مِائَةُ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الْقَبَاطِيِّ أَرْبَعَةُ أَثْوَابٍ لِلْمُتَمَلِّكَ وَلِرَسُولِهِ ثَلَاثَةٌ ، وَمِنَ الْبَطْرِيَّةِ ثَمَانِيَةُ أَثْوَابٍ ، وَمِنَ الْمُعَلَّمَةِ خَمْسَةُ أَثْوَابٍ ، وَجِبَّةٌ مُجَمَّلَةٌ لِلْمَلِكِ ، وَمِنْ قُمْصٍ أَبِي بُقْمَرٍ عَشْرَةُ أَثْوَابٍ ، وَمِنْ أَحَاصِي عَشْرَةِ أَثْوَابٍ ، وَهِيَ ثِيَابٌ غِلَاطٌ .

قَالَ أَبُو خَلِيفَةَ : لَيْسَ فِي كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ ، وَلَا فِي كِتَابِ الْوَاقِدِيِّ ، تَسْمِيَةٌ يُنْتَهَى إِلَيْهَا ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُ التَّسْمِيَةَ مِنْ أَبِي زَكَرِيَّا ، قَالَ أَبُو زَكَرِيَّا : سَمِعْتُ وَالِدِي عُثْمَانَ^(٧) بْنِ صَالِحٍ يَقُولُ هَذَا الْخَبَرَ ، فَحَفِظْتُ مِنْهُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ .

وَقَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَهُوَ عَلَى مِصْرَ ، فَقَالَ : أَنْتَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ الَّذِي وَجَّهْنَا إِلَيْكَ فِي كِتَابِ بَقِطِ الثُّوبَةِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ مَحْفُوظُ بْنُ شَلِيمَانَ^(٨) فَقَالَ : مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ! وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ نَطْلُبُ عِلْمًا مِنْ عُلُومِهِمْ إِلَى هَذَا الشَّيْخِ ، فَمَا شَفَانَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ؛ فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، إِنَّ الَّذِي طَلَبْتُ مِنْ خَيْرِ الثُّوبَةِ عِنْدِي ، قَدْ حَفِظَهُ شُبُوحُ عَنِ الشُّبُوحِ الَّذِينَ حَضَرُوا هُنَا ، وَالْهُدَنَةُ وَالصُّلَحُ الَّذِي جَزَى بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ وَبَيْنَ الثُّوبَةِ ؛ ثُمَّ حَدَّثَنِي عَنْ أَخْبَارِهِمْ كَمَا سَمِعْتُ ، فَأَتَكَرَّرَ عَطِيَّةُ الْخَمْرِ ، فَقُلْتُ : قَدْ أَلْكَرَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ مَرْوَانَ . وَكَانَ هَذَا الْمَجْلِسُ بِمُسْتَطَاطِ مِصْرَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، بَعْدَ أَنْ تَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّرِيٍّ بْنِ الْحَكَمِ التَّمِيمِيِّ الْأَمِيرِ كَانَ قَبْلَهُ .

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ : فَوَجَّهَ الْأَمِيرُ إِلَى الدِّيَّانِ بَطْلَمُوسَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمِصْرَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ خَيْرَ الثُّوبَةِ فَوَجَّهَهُ كَمَا ذَكَرْتُ ، فَسَمِعَهُ ذَلِكَ .

(٥) بولاق : أقيز . (٦) في النسخ : عمرو ، والصواب ما أثبتناه فالخبر عن أبي زكريا يحكى عن عثمان بن صالح ، وكما صرحه المقرئ في السطور التالية .

وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أَرْضَ الثَّوْبَةِ إلى حَدِّ غَلْوَةِ صُلْحٍ، وكان لا يُجَبِّزُ شِرَاءَ رَقِيقِهِمْ، وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم وعبد الله بن وهب والليث بن سعد ويحيى بن أبي حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يزؤون بخلاف ذلك.

قال الليث بن سعد: نحن أعرفُ بأَرْضِ الثَّوْبَةِ من الإمام مالك بن أنس، إنما صَوَّلُوا على ألا نَغْزُوهم ولا نَمْنَعُ منهم غَدَاً، فما اشترَقَهُ مُتَعَلِّكُهُمْ أو غَزَا بعضهم بعضاً فشيراهُ جائزٌ، وما اشترَقَهُ بُغَاةُ المسلمين وشُرَاقُهُمْ ففَعِيرٌ جائزٌ. وكان عند جماعةٍ منهم جوارٍ نُويَّياتٍ لقرشهم.

ولم يَزَلِ الثَّوْبَةُ يُوَدُّونَ البَقْطَ في كُلِّ سَنَةٍ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ ما تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ، إلى أَيَّامِ أمير المؤمنين الْمُغْتَصِمِ بالله أبي إسحاق بن الرشيد، وكَبِيرِ الثَّوْبَةِ يومئذٍ زَكْرِيَاءُ بْنُ يُحْنَسَ. وكانت الثَّوْبَةُ رُبَّمَا عَجِزَتْ عن دَفْعِ البَقْطِ، فَشَبَّتِ الْغَازَةَ عَلَيْهِمْ وَلاَءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَرِيبُونَ مِنْ بِلَادِهِمْ، وَتَمْنَعُ مِنْ إخراجِ الْجِهَازِ إِلَيْهِمْ، فَأَتَكَرَّ قِرْقِي وَلَدُ كَبِيرِهِمْ زَكْرِيَاءَ عَلَى أَبِيهِ بِذَلِكَ الطَّاعَةِ لَعَنَهُ، وَاشْتَعَجَزَهُ فِيمَا يَدْفَعُ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: فَمَا تَشَاءُ؟ قَالَ: عَصِيَانَتُهُمْ وَمُحَازَبَتُهُمْ. قَالَ أَبُوهُ: هَذَا شَيْءٌ رَأَى السَّلَفُ مِنْ آبَائِنَا صَوَابًا، وَأَخْشَى أَنْ يُفْضِيَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَتُقَدِّمَ عَلَى مُحَازَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، غَيْرَ أَنِّي أَوْجَّهَكَ إِلَى مَلِكِهِمْ رَشَوَلًا، فَأَنْتَ تَرَى حَالَنَا وَحَالَهُمْ، فَإِنْ رَأَيْتَ لَنَا بِهِمْ طَاقَةً حَازِبْنَاهُمْ عَلَى نَجْزَةِ، وَالْأَسْأَلَةُ الْإِحْسَانَ إِلَيْنَا.

فَشَخَّصَ قِرْقِي إِلَى بَغْدَادَ، وَكَانَتِ الْبُلْدَانُ تُزَيِّنُ لَهُ وَيَسِيرُ عَلَى الْمَدِينِ، وَانْحَدَرَ بِانْحِدَارِهِ رَئِيسَ الْبَيْجَةِ بِأَسْبَابِهِ، وَلَقِيَ الْمُغْتَصِمَ فَظَنَّرَا إِلَى مَا يَهْرُمُهَا مِنْ حَالِ الْعِرَاقِ فِي كَثْرَةِ الْجَبُوشِ وَعِظَمِ الْعِمَارَةِ مَعَ مَا شَاهَدَاهُ فِي طَرِيقِهِمَا. فَقَرَّبَ الْمُغْتَصِمُ قِرْقِي وَأَذْنَاهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ إِحْسَانًا نَائِمًا، وَقِيلَ هَدِيَّتُهُ وَكَافَاهُ بِأَضْعَافِهَا، وَقَالَ لَهُ: تَمَنَّيْتُ مَا شِئْتُ؛ فَسَأَلَهُ فِي إِطْلَاقِ الْخَبْرَيْنِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ.

وَكَبَّرَ فِي عَيْنِ الْمُغْتَصِمِ، وَوَهَبَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي نَزَلَهَا بِالْعِرَاقِ، وَأَمَرَ أَنْ يُشْتَرَى لَهُ فِي كُلِّ مَثْرَلٍ مِنْ طَرِيقِهِ دَارٌ تَكُونُ لِرُشْلِهِمْ، فَإِنَّهُ انْتَبَهَ مِنْ دُخُولِ دَارٍ لِأَخِيهِ فِي طَرِيقِهِ، فَأَخِذَ لَهُ بِمَصْرِ دَارٍ بِالْحِيزَةِ، وَأُخْرَى بِبَنِي وَائِلَ.

وَأَجْزَى لَهُمْ فِي دِيْوَانِ مِصْرَ سَبْعَ مِائَةِ دِينَارٍ، وَفَرَسًا وَبِزْجًا وَلِجَامًا، وَسَيْفًا مُخَلَّى، وَنَوْبًا مُثْقَلًا، وَعِمَامَةً مِنَ الْخَزِّ، وَقَمِيصَ شَرِبَ وَرِدَاءَ شَرِبَ، وَثِيَابًا لِرُشْلِهِ غَيْرَ مَحْدُودَةٍ عِنْدَ وُضُولِ الْبَقْطِ إِلَى مِصْرَ، وَلَهُمْ جِمْلَانٌ وَخِلَعٌ عَلَى الْمُتَوَلَّى لِقَبْضِ الْبَقْطِ، وَعَلَيْهِمْ رُسُومٌ مَقْلُومَةٌ لِقَابِضِ الْبَقْطِ وَالْمَنْصَرِفِينَ مَعَهُ، وَمَا يُهْدَى إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَغَيْرُ مَحْدُودٍ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ هَدِيَّةٌ يُجَازُونَ عَلَيْهَا.

وَنَظَرَ الْمُغْتَصِمُ إِلَى مَا كَانَ يَدْفَعُهُ الْمُسْلِمُونَ فَوَجَدَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْبَقْطِ ، وَأَنْكَرَ عَطِيَّةَ الْخَمْرِ ، وَأَجْرَى الْحُبُوبَ وَالثِّيَابَ الَّتِي تَقْدَمُ ذِكْرَهَا ، وَقَرَّرَ دَفْعَ الْبَقْطِ بَعْدَ انْقِضَاءِ كُلِّ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَكَتَبَ لَهُمْ يَكْتَابًا بِذَلِكَ بَقِيَ فِي يَدِ الثُّوْبَةِ .

وَادَّعَى الثُّوْبِيُّ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ أَشْوَانَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا أَمْلَاحًا مِنْ عِبِيدِهِ ، فَأَمَرَ الْمُغْتَصِمُ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ ، فَأَخْضَرَ وَالِي الْبَلَدِ وَالْمُخْتَارَ لِلْحُكْمِ فِيهِ التَّائِبِينَ مِنَ الثُّوْبَةِ وَسَأَلَهُمْ عَمَّا ادَّعَاهُ صَاحِبُهُمْ مِنْ يَتَعَمَّهُمْ ، فَأَتَكَرَّوْا ذَلِكَ وَقَالُوا : نَحْنُ زَعِيَّةٌ ، فَوَالَ مَا ادَّعَاهُ .

وَطَلَبَ أَشْيَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ لِمَا زَالَتْ الْمَسْلُحَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْقَصْرِ عَنْ مَوْضِعِهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْمَسْلُحَةَ عَلَى أَرْضِهِمْ ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ . وَلَمْ يَزَلِ الرَّسْمُ جَارِيًا بِدَفْعِ الْبَقْطِ عَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ ، وَنُذِّعَ إِلَيْهِمْ مَا أَعْجَاهُ الْمُغْتَصِمِ ، إِلَى أَنْ قَدِمَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ إِلَى مِصْرَ^١ ، ذَكَرَ ذَلِكَ مُؤَرِّخُ الثُّوْبَةِ .

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَسْعُودِيُّ : وَالْبَقْطُ هُوَ مَا يُقْبَضُ مِنَ الشَّيْءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَيُحْمَلُ إِلَى مِصْرَ ضَرِيَّةً عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ ثَلَاثُ مِائَةِ رَأْسٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُونَ رَأْسًا لِبَيْتِ الْمَالِ^٢ ، بِشَرُوطِ الْهُدْنَةِ بَيْنَ الثُّوْبَةِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَلِلْأَمِيرِ بِمِصْرَ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا أَرْبَعُونَ رَأْسًا ، وَلِخَلِيفَتِهِ الْمَقِيمِ بِأَشْوَانَ - وَهُوَ الْمُتَوَلَّى لِقَبْضِ الْبَقْطِ - عِشْرُونَ رَأْسًا ، وَلِلْحَاكِمِ الْمَقِيمِ بِأَشْوَانَ الَّذِي يَخْضَرُ مَعَ أَمِيرِ أَشْوَانَ قَبْضُ الْبَقْطِ خَمْسَةَ أَرْبُوسَ ، وَلِاثْنَيْ عَشَرَ شَاهِدًا عُذُولَ مِنْ أَهْلِ أَشْوَانَ يَخْضَرُونَ مَعَ الْحَاكِمِ لِقَبْضِ الْبَقْطِ اثْنَا عَشَرَ رَأْسًا مِنَ الشَّيْءِ عَلَى حَسَبِ مَا يَجْرَى بِهِ الرَّسْمُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي بَدْءِ إِبْقَاعِ الْهُدْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالثُّوْبَةِ^٣ .

وَقَالَ الْبَلَاذُرِيُّ فِي كِتَابِ «الْفُتُوحَاتِ» : إِنَّ الْمُقَرَّرَ عَلَى الثُّوْبَةِ أَرْبَعُ مِائَةِ رَأْسٍ يَأْخُذُونَ بِهَا حَلَاعَاتًا - أَيْ غَلَّةً - وَالزَّمَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْدِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ ثَلَاثَ مِائَةِ وَسِتِينَ رَأْسًا وَزَرَافَةً^٤ . / وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسِتْ مِائَةٍ كَثُرَ خَبَثُ دَاوُدَ مُتَمَلِّكِ الثُّوْبَةِ ، وَأَقْبَلَ إِلَى أَنْ قَرَّبَ مِنْ مَدِينَةِ أَشْوَانَ ، وَخَرَقَ عِلْدَةً سَوَاقِي بَعْدَمَا أَقْبَسَ بِغَيْذَابٍ فَتَضَيَّ إِلَيْهِ وَالِي قُوصَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ ، وَقَبَضَ

^١ أضاف المسعودي : «وأراه رسم على عدد أيام السنة»

(مروج : ٢ : ١٣٠) .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٠ .

^٣ البلاذري : فتح البلدان ٢٨١ .

^٤ عن العلاقة بين الثوبة والدولة الإسلامية انظر مقال

فرراند P., «Early Muslim Relations with نوبيا», *Der Islam* 48 (1972), pp. 111-21 ومع

الدولة الفاطمية انظر مقال : بشير إبراهيم بشير Beshir B.I., «New Lights on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), pp. 15-24

على صاحب الحبل في عدة من التوبة ، وحملهم إلى السلطان الملك الظاهر بيزرس البندقداري بقلعة الجبل فوشتهم .

وقديم شكندة^٥ ابن أخت^٦ متملك التوبة متظلمًا من خاله داود ، فجموده السلطان معه الأمر شمس الدين آق شتقر الغازقاني الأستاذار ، والأمير عز الدين أيتك الأقزم ، وأمير جاندار ، في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات وغزبان الوجه القبلي والزرايين والرماة ورجال الحراري .

فساروا في أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض التوبة ، فخرجوا إلى لغاتهم على الثجب ، بأيديهم الحراب وعليهم ذكادك سود ، فافتتل الفريقان قتالًا كبيرًا ، انهزم فيه التوبة ، وأغار الأقزم على قلعة الدر ، وقتل وسبي . وأوغل الغازقاني في أرض التوبة برًا وبحرًا يقتل ويأسر ، فحاز من المواشي ما لا يحصى ، ونزل بجزيرة ميكايل برأس الجنادل ، ونفر المراكب من الجنادل . ففر التوبة إلى الجزائر ، وكتب لقمرة الدولة نائب داود متملك التوبة أمانًا ، فحلف لشكندة^٥ على الطاعة ، وأحضر رجال المرس ومن قرو .

وخاض الأقزم إلى بوزج في الماء وحصره حتى أخذه ، وقتل به مائتين ، وأسّر أختا لداود ، فهزب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام ، وهم يقتلون ويأسرون ، حتى أذعن القوم .

وأسيرت أم داود وأخته ، ولم يقدر على داود فتقرر شكندة^٥ عوضه ، وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلّة وثلاث زرافات وخمسة فهود من إناثها ، ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المثججة ، على أن تكون بلاد التوبة نصيبين : نصفها للسلطان ، ونصفها لجماعة البلاد وجفطها ، ما خلا بلاد الجنادل ، فإنها كلها للسلطان لقربها من أسوان ، وهي نحو الزرع من بلاد التوبة . وأن يحمل ما بها من الثمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان . وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية ، فيدفع كل بالغ منهم في السنة دينارًا عيًا^١ .

٥ بولاق : سكندة . ٦ في كثر الدر وتاريخ ابن شداد : ابن عم . c بولاق : سكندة .

^١ انظر خبر هذه الواقعة عند ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٤١٦ : ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ١٢٩-١٣١ : السعيد ٢١١ ، ٢٣٤-٢٣٦ : للقريري : السلوك ابن أيتك : كثر الدر ٨ : ١٨٣-١٨٦ : للتوري : نهاية ١ : ٦٢١-٦٢٣ .

وَكَتَبَ نُسْخَةً يَمِينٍ بِذَلِكَ حَلَفَ عَلَيْهَا الْمَلِكُ سُكْنَدَةُ، وَنُسْخَةً يَمِينٍ أُخْرَى حَلَفَتْ عَلَيْهَا الرَّومِيَّةُ^١.

وَعَرَّبَ الْأَمِيرَانِ كَنَائِسَ الثُّوبَةِ، وَأُخِذَ مَا فِيهَا، وَقُبِضَ عَلَى نَحْوِ عَشْرِينَ أَمِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الثُّوبَةِ، وَأُفْرِجَ عَنْهُمْ كَانَ بِأَيْدِي الثُّوبَةِ مِنْ أَهْلِ أَشْوانَ وَعَيْذَابَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَشْرِهِمْ.

- وَالْيَسَّ سُكْنَدَةُ تَاجَ الْمَلِكِ، وَأُقْبِدَ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ، بَعْدَ مَا حَلَفَ وَالْتَزَمَ أَنْ يَحْمِلَ جَمِيعَ مَا لِدَاوَدَ وَلِكُلِّ مَنْ قُبِلَ وَأَسِيرَ مِنْ مَالٍ وَدَوَابٍّ إِلَى السُّلْطَانِ مَعَ الْبَقْطِ الْقَدِيمِ، وَهُوَ أَرْبَعُ مِائَةِ رَأْسٍ مِنَ الْوَقِيقِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَزَرَافَةَ (مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ لِلْخَلِيفَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ رَأْسًا، وَ لِنَائِيهِ بِمِصْرَ أَرْبَعُونَ رَأْسًا)، عَلَى أَنْ يُطْلَقَ لَهُمْ إِذَا وَصَلُوا بِالْبَقْطِ ثَامًا مِنَ الْقَمْشِ أَلْفَ أَوْدَبٍ لِمَتْلُكِهِمْ، وَثَلَاثُ مِائَةِ أَوْدَبٍ لِرُؤُسِهِ.

١٠

ذِكْرُ صَخْرَاءِ عَيْذَابَ

اَعْلَمَ أَنَّ حُجَّاجَ مِصْرَ وَالْمَغْرِبِ أَقَامُوا زِيَادَةً عَلَى مِائَتِي سَنَةٍ لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَكَّةَ - شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى - إِلَّا مِنْ صَخْرَاءِ عَيْذَابَ، يَزْكِبُونَ اللَّيْلَ مِنْ سَاجِلِ مَدِينَةِ مِصْرَ الْقَشْطَاطِ إِلَى قُوصَ، ثُمَّ يَزْكِبُونَ الْإِبِلَ مِنْ قُوصَ وَيَقْبِرُونَ هَذِهِ الصَّخْرَاءَ إِلَى عَيْذَابَ^٢، ثُمَّ يَزْكِبُونَ

١٣٥٩م عندما توقَّف التجار عن استخدامه بسبب ثورة القبائل الجنوبية (البيجة وقواراة والثوبية) وتمردوها الذي جعل من طريق عَيْذَابَ - قُوصَ طريقًا غير آمن. وتقلَّ معلومتا حول النهار ميناء عَيْذَابَ وزوال دوره يكتنفه الغموض، فتوقَّف المعلومات المندوثة عنه بطريقة غريبة في منتصف القرن الثامن الهجري إلى أن يخبرنا الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزان Jean - Léon l'Africain في مطلع القرن العاشر الهجري - وهو يتحدث عن جماعة البيجة - أنهم كانت لهم في الماضي مدينةً ضخمة على البحر الأحمر تدعى عَيْذَابَ حيث كان يقوم ميناء يقع مباشرة تجاه مدينة جدة ميناء مكة، ولكن منذ مائة عام قام هؤلاء البيجة بنهب قلعة كانت تنقل السلع والأقوات إلى مكة، فأرسل سلطان مصر أسطولاً احتلَّ المدينة وعَرَّبَ ميناءها (وصف إفريقيا ٥٥٨-٥٥٩)، وواضح أنَّ السلطان الذي قام بهذا العمل هو السلطان المملوكي =

^١ انظر نص هذه الأيمان عند التوري: نهاية الأرب ٣٠: ٣٤٦-٣٤٧.

^٢ عَيْذَابَ: ميناء على الساحل المصري للبحر الأحمر، ما زالت تُرى أنقاضه على أرض منبسطة لا يصل إليها الماء على بُعد عشرين كيلومترًا شمال مدينة خِلَيب الحالية. ورد ذكرها في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كميناء يتردد عليه حجاج بيت الله والتجار المتوجهين إلى اليمن والهند. واستمدَّت عَيْذَابُ أهميتها ابتداءً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مع تنامي الاستراتيجية الشرقية للفاطميين وازدهار التجارة الكاوية (ناصر حسرو: سفرنامه ١١٨؛ ابن جبير: الرحلة ٤٤٥؛ القفري: السلوك ٦٤:١) (المكوس التي ألغاه صلاح الدين)؛ أمين غزاد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٨-٥٠٠م. وبدأ ميناء عَيْذَابَ يفقد أهميته ابتداءً من عام ٧٦٠هـ/

البحر في الجلاب^١ إلى مجدة ساحل مكة . وكذلك تجاز الهند واليمن والحبشة ، يردون في البحر إلى عيذاب ، ثم يتسلكون هذه الصخراء إلى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر .

فكانت هذه الصخراء لا تزال عامرة أهلة بما يصدُر أو يرد من قوافل التجار والحجاج ، حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها ، والفقُول صاعدةً وهابطةً ، لا يفتقر لها أحدٌ ، إلى أن يأخذها صاجيها :

فلم تزل مسلكًا للحجاج في ذهابهم وإيابهم زيادةً على مائتي سنة : من أغوام بضع وخمسين وأربع مائة ، إلى أغوام بضع وستين وست مائة ؛ وذلك منذ كانت الشدة العظيمة في أيام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم تغد بن الظاهر واقطاع الحج في البر ، إلى أن كَسَا السلطان الملك الظاهر رُكن الدين بيبرس البندقداري الكعبة وعمل لها مُفتاحًا ، ثم أخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وست مائة ، فقلَّ سلوكُ الحاج لهذه الصخراء ، واستمرت بضائع التجار تُحمَل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبع مائة ، وتلاشى أمر قوص من حيثئذ . وهذه الصخراء مساحتها من قوص إلى عيذاب سبعة عشر يومًا ، ويُفقد فيها الماء ثلاثة أيام متوالية ، وتارة يُفقد أربعة أيام .

وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدة ، وهي غير مُسوّزة ، وأكثر بُيوتها أخصاص . وكانت من أعظم مراسي الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تُخطّ فيها البضائع وتُقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة^٢ . فلما انقطع وُروُد مراكب الهند واليمن إليها ، صارت المراسي

الموسم الثقافي الثاني ١٩٦٨ ، ١٨٥ - ٢٢٠ ، Gibb, H.A.R., *Et art. "Aydhâb I, pp. 805-806; Garcin, J.-C., «Jean-Léon l'Africain et "Aydhâb», An. Isl. XI (1972), pp. 194-95; id., «La Méditerranéisation» de l'empire mamlouk sous les sultans bahrides», RSO XLVIII (1973-74), pp. 113-14; Darrag, A., L'Égypte sous le Règne de Barsbay, pp. 201-203, 209-10* محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٣٣٨-٣٣٩ .

^١ جلابة بن جلاب انظر وصفها فيما يلي ٥٥١ نقلًا عن ابن جبير .

^٢ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٥ .

= الأشرف برسباي الذي احتكر التجارة الشرقية في القرن التاسع الهجري وسيطر على السفن الحاملة لهذه التجارة ورفع المكوس المفروضة عليها . ويُعرف الآن مكان عيذاب عند قبائل عرب الصحراء الشرقية باسم سواكن القديمة وتقع على خط عرض ٢٢ درجة و ٢٠ ثانية في مواجهة بلدة أبي سمبل المصرية على النيل وبلد رابع شمال جدة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر ، بينما تقع سواكن الحالية على خط عرض ١٩ درجة .

(راجع ، البكري : جغرافية مصر ٨٤ - ٨٦ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ١٩٩ - ١٥٢٠ أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية -

العظيمة عَذَنَ من بلاد اليمن، إلى أن كانت أغوامٌ بضع / وعشرين وثمان مائة فصارت جُدَّةً
أَعْظَمَ مَراسِي الدُّنْيَا، وكذلك هُزُمْتُ فَإِنَّهَا مَرَسَى جَلِيلٌ^١.

وعَذَابٌ فِي صَخْرَاءَ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ بِهَا مَخْلُوبٌ إِلَيْهَا حَتَّى الْمَاءُ. وَكَانَ لِأَهْلِهَا
مِنَ الْحُجَّاجِ وَالشَّجَّارِ قَوَائِدُ لَا تُحْصَى، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى كُلِّ حِفْلٍ يَحْمِلُونَهُ لِلْحُجَّاجِ ضَرِيَّةٌ مُقَرَّرَةٌ،
وَكَانُوا يُكَارُونَ الْحُجَّاجَ الْجَلَابَ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ فِي الْبَحْرِ إِلَى جُدَّةَ وَمِنْ جُدَّةَ إِلَى عَذَابٍ، فَيَجْتَمِعُ
لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَالٌ عَظِيمٌ. وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ عَذَابٍ إِلَّا مَنْ لَهُ جَلْبَنَةٌ فَأَكْثَرُ عَلَى قَدْرِ نِسَارِهِ^٢.

وَفِي بَحْرِ عَذَابٍ مَغَاصُ اللَّؤْلُؤِ فِي جَزَائِرٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا، تَخْرُجُ إِلَيْهِ الْقَوَاصِدُونَ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مِنْ
كُلِّ سَنَةٍ فِي الزَّوَارِقِ، حَتَّى يُؤَافِقُوهُ بِتِلْكَ الْجَزَائِرِ فَيَقْبِضُونَ هُنَالِكَ أَثَامًا ثُمَّ يَعُودُونَ بِمَا قَبِضَ لَهُمْ مِنْ
الْحِطِّ وَالْمَغَاصِ فِيهَا قَرِيبَ الْقَفْرِ. وَعَيْشُ أَهْلِ عَذَابٍ عَيْشُ الْبِهَائِمِ، وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْوُخْشِ فِي
أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ.

وَكَانَ الْحُجَّاجُ يَجِدُونَ فِي رُكُوبِهِمُ الْجَلَابَ عَلَى الْبَحْرِ أَهْوَالًا عَظِيمَةً؛ لِأَنَّ الرِّيحَ تُلْقِيهِمْ فِي
الْغَالِبِ بِمَرَّاسٍ فِي صَحَارَى بَعِيدَةٍ ثَمَّا يَلِي الْجَنُوبَ، فَيَنْزِلُ إِلَيْهِمُ الشَّجَّارُ مِنْ جِبَالِهِمْ فَيُكَارُونَهُمْ
الْجِمَالُ، وَيَسْلُكُونَ بِهِمْ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَرُبَّمَا هَلَكَ أَكْثَرُهُمْ عَطَشًا وَأَخَذَ الشَّجَّارُ مَا كَانَ مَعَهُمْ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ وَيَهْلِكُ عَطَشًا. وَالَّذِي يَسْلَمُ مِنْهُمْ يَدْخُلُ إِلَى عَذَابٍ كَأَنَّهُ نُشِيرٌ مِنْ كَفَنٍ، قَدْ
اسْتَحَالَتْ هَيْئَتُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ صِفَاتُهُمْ. وَأَكْثَرُ هَلَكَ الْحُجَّاجِ بِهَذِهِ الْمَرَّاسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَاعِدُهُ
الرِّيحُ فَتَحْطُهُ بِمَرَّاسِ عَذَابٍ، وَهُوَ الْأَقَلُّ.

وَجَلْبَائِثُهُمُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحُجَّاجَ فِي الْبَحْرِ لَا يُسْتَعْمَلُ فِيهَا مَسْمَارُ أَلْيَتَةٍ، أَمَّا يُحْطِطُ خَشْبُهَا بِالْقِنْبَارِ -
وَهُوَ مُتَّخَذٌ مِنْ شَجَرِ النَّازِجِيلِ - وَيُحْلَلُونَهَا بِدُشْرِ مِنْ عِيدَانِ الثَّنَخْلِ، ثُمَّ يَشَقُّونَهَا بِسُفْنٍ أَوْ ذُهْنٍ
الْحَزْرَوِّ أَوْ ذُهْنِ الْقَوْشِ، وَهُوَ لِحْوَتٌ عَظِيمٌ فِي الْبَحْرِ يَتَلَعَّ الْقَرْقَى، وَ قِلَاعٌ هَذِهِ الْجَلَابِ مِنْ
خُوصِ شَجَرِ الْمُقَلِّ.

وَلِأَهْلِ عَذَابٍ فِي الْحُجَّاجِ أَحْكَامُ الطَّوَاغِيتِ، فَإِنَّهُمْ يُبَالِغُونَ فِي شَحْنِ الْجَلْبَةِ بِالنَّاسِ حَتَّى
يَبْقَى بَعْضُهُمْ قَرَقٌ بَعْضَ جِزْمًا عَلَى الْأَجْرَةِ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا يُصِيبُ النَّاسَ فِي الْبَحْرِ، بَلْ يَقُولُونَ
دَائِمًا: غَلَبْنَا بِالْأَلْوَاخِ، وَعَلَى الْحُجَّاجِ بِالْأَزْوَاجِ.

^١ المقرئ: السلوك ٤: ٦٨١.

ورن الجلبة جـ. جلاب وجلبات انظر درويش النخيلي:

السفن الإسلامية على حروف المعجم ٢٧-٢٩.

^٢ نقلًا عن ابن جبير: الرحلة ٤٥.

وأغل غيذاب من البجاة ، ولهم تلك منهم ، وبها والي من قتل سلطان مصر . وأذركت قاضيا عندنا بالقاهرة أشود اللؤن . والبجاة قوم لا دين لهم ولا عقل ، ورجالهم ونساؤهم أبتا غرة ، وعلى غوراتهم خرق ، وكثير منهم لا يشترون غوراتهم^١ .
وعذاب عروها شديد بشموم محرق .

ذكر مدينة الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة ، يقال إن أهلها المريس ، ومنها الحميم المريسية^٢ .

ذكر البليتا

ذكر الكمال الأدقوي أنه وقع بين أهل البلاد والوالي قوص [مخاصمة]^(ب) ، فتوجهوا إلى القاهرة وصرفوه ، وولي غيره ؛ وطلع الخطيب بالبليتا شخصته ، وكان إقطاعه تزممت^(ج) ، فلما وصل إليها أضافه أهلها بستين متسقا من طعام اللبن ، فقال للخطيب : في بلادكم مثل هذا ؟ فقال الخطيب : وخلوى . فلما وصل إلى إخميم تقدم الخطيب إلى البليتا ، فعندما وصل الوالي إليها أخرجوا له ستين متسقا خلوى وستين متسقا شواء^(د) .

(a) ساقطة من الأصل . (b) زيادة من الأدقوي . (c) بولاق : أرمنت وعند الأدقوي : تومت من عمل البهنا .

«Luxor und Heliopolis: Ein Aufruf zum Denkmalschutz aus dem 13 Jahrhundert n. Chr.», *MDAIK* 40 (1984), pp. 153-57.

٣ البليتا : بضم الباء الموحدة وسكون اللام ثم باء آخر الحروف ثم نون ثم ألف (الأدقوي : الطالع السعيد ١٨) ، وضبطها محمد رمزي البليتا بفتح الباء ، مدينة على شاطئ النيل من غربه بمحافظة سوهاج . (القاموس الجغرافي ٤/٢ : ٩٧-٩٦) .

٤ راجع ، ابن دسوقي : الانصار ٥ : ١٦ ابن الجيعان : الصفحة السنية ١٦٥ .

٥ الأدقوي : الطالع السعيد ٣٩-٤١ .

١ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٧-٤٨ .

٢ الأقصر . مدينة تاريخية كانت عاصمة مصر في العصر الفرعوني ، وهي الآن إحدى مدن محافظة قنا وتشتمل على معبد الكرنك والأقصر شرقي النيل ، ووادي الملوك والمملكات غربي النيل وهي أكثر مدن العالم آثارًا . (بالقوت : معجم البلدان ١ : ٢٣٧ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ : ٤ : ١٦٦-١٦٧) . والغريب أن المقرئ لم يشر إلى البراني المنتشرة في مدينة الأقصر سواء في البر الشرقي أو البر الغربي ، وإن كان الشريف أبو جعفر الإدريسي قد ذكرها في كتابه وقال عنها : فإنها من أكبر البراني ساحة وأوسعها وأعلاها جدرانًا وأرفعها (أنوار علوي : الأجرام ٤٤٥ ، Haarmann, U.,

قَالَ : وَبَعْضُ الْحُكَّامِ بِهَا فِي عِيدٍ مِنَ الْأَعْيَادِ افْتَدَحَهُ مِنْ أَهْلِهَا خَمْسَةَ وَعَشْرُونَ شَاعِرًا . وَفِيهَا مِنْ لَا يَرَوْنِي بِمَدْحِ الْقَاضِي ، وَفِيهَا مِنْ تَقْصُرُ رُتْبَتُهُ عَنْ ذَلِكَ .
قَالَ : وَكَانَ فِيهَا عِدَّةٌ مَسَابِكٌ لِلشُّكْرِ ، وَيُوصَفُ أَهْلُهَا بِالْمَكَارِمِ ^١ .

ذُكِرَ شَهْرُود

- هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِالْجَانِبِ الْمَرْبِيِّ مِنَ الثَّلِ ، قَالَ الْأَدْفُوي : كَانَ بِشَهْرُود سَبْعَةُ عَشَرَ حَجَرًا لَاغْتِصَارَ قَصَبِ الشُّكْرِ ، وَيُقَالُ إِنَّ الْقَارَ لَا يَأْكُلُ ^(b) قَصَبَهَا ^٢ .

ذُكِرَ إِجْلُوس

- هَذِهِ الْمَدِينَةُ مِنْ جَمَلَةِ عَمَلِ الْبَهْتَسَا ، بِهَا كُنَيْسَةٌ بظَاهِرِهَا فِيهَا يُقَالُ لَهَا بِرِ سِيرِسَ صَغِيرَةٌ لَهَا عِيدٌ يُعْمَلُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ بَشَنَسَ أَحَدِ شُهُورِ الْقَيْطِ ، فَيَقُورُ بِهَا الْمَاءُ عِنْدَ مُضِيِّ سِتِّ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ حَتَّى يَطْفُو ثُمَّ يَمْحُودُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ^٣ . وَيَسْتَقْدِلُ النَّصَارَى عَلَى زِيَادَةِ الثَّلِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِقَدْرِ مَا عَلَى الْمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ فِي الثَّلِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ مُوَافِقًا لِذَلِكَ .

ذُكِرَ أَتَوَيْط

هَذِهِ الْمَدِينَةُ أَيْضًا مِنْ جَمَلَةِ الْبَهْتَسَاوِيَّةِ ، كَانَ بِهَا مَنَارَةٌ مُحْكَمَتَةُ الْبِنَاءِ ، إِذَا هَرَّهَا الرَّجُلُ تَحَوَّكَتْ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَيَرَى / تَمِيلُهَا رُؤْيَةً ظَاهِرَةً بِاتِّقَالِ ظِلِّهَا عَنْ مَوْضِعِهِ ^٤ .

(a) ساقطة من الأصل . (b) بولاق : يدخل .

^١ قوانين ١١٠٤ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠ : ١٥٧

^٢ نفسه ١٨ وفيه : شلهود بسين مهمله مضمومة وميم

محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٣/٢ : ٢١٣ .

ساكنة وهاء مضمومة ودال مهمله ، وانظر كذلك علي

^٤ وتنضبط أحيانًا أبويط بكسر الواو ، من القرى القديمة

مبارك : الخطط التوفيقية ١٢ : ٥١ - ٥٢ ، محمد رمزي :

تقع اليوم في مركز الواسطي بمحافظة بني سويف (ياقوت :

القاموس الجغرافي ٤/٢ : ١٩٧ .

معجم البلدان ١ : ٨٢ ؛ ابن عماتي : قوانين ١٠٧ ؛ ابن

^٣ تعرف اليوم بـ «الجزلوس» وهي تقع في مركز بني مزار

دقماق : الانتصار ٥ : ٣٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

محافظة المنيا (ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٤٤ ؛ ابن عماتي :

٣/٢ : ١١٢٥ (Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 57

ذِكْرُ مَسْلُوى

هذه المَدِينَةُ بالجانب الغربي من النيل، وأرضها معروفة بزراعة قَصَبِ الشُّكْرِ، وكان بها عِدَّةُ
أشجار لا غنصاره. وآخر من كان بها أولاداً قُضِيل، بَلَغَتْ زراعتهم في أيامِ التَّائِصِ مُحَمَّد بن
قَلَاوون ألفاً وخمسة مائة قَدَان من القَصَب في كلِّ سنة. فَأَوْقَعَ النَّشْو - ناظِرُ الحَاصِ^١ - الحَوْطَةَ
على مَوْجودهم في سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة، فَوُجِدَ من جُمْلَةِ مالهم أربعة عشر ألف قِنْطَار
من القَنْد^٢ حَمَلَهَا إلى دار القَنْد بمصر، سوى القَسَل، وأَلْزَمَهُمْ بِحَمْل ثمانية آلاف قِنْطَار بعد
ذلك؛ وأَفْرَجَ عنهم، فَوَجَدُوا لهم حاصِلاً لم يَهْتَدِ له النَّشْو فيه عشر آلاف قِنْطَار قَنْد، سوى ما
لهم من عَيْد وغلّال وغير ذلك^٣.

ذِكْرُ مَدِينَةِ أَنْصِنَا

اعْلَمُ أَنَّ مَدِينَةَ أَنْصِنَا إحدى مَدَائِنِ صَعِيدِ مِصْرِ الْقَدِيمَةِ، وفيها عِدَّةُ عَجَائِبَ، منها المَلْعَبُ،
ويقالُ إِنَّه كان يَمِيزُ النَّيْلَ، وإنَّه من بِنَاءِ ذُلُوكَ أَحَدٍ من مَلِكِ مِصْرَ، وكان كَالطُّيْلَسَانِ؛ وفي
دَائِرِهِ عُمْدٌ على عِدَّةِ أَيَّامِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ، كُلُّهَا من الصَّوَّانِ الْأَحْمَرِ الْمَاتِعِ، وَمَسَافَةٌ مَا بَيْنَ كُلِّ
عُمُودَيْنِ بِمِقْدَارِ خُطْوَةِ إِنْسَانٍ.

وكان ماءُ النَّيْلِ يَدْخُلُ إلى هذا المَلْعَبِ من قُوَّةٍ عند زِيَادَةِ الْمَاءِ؛ فَإِذَا بَلَغَ ماءُ النَّيْلِ الْحَدَّ الَّذِي
كان إِذْ ذَاكَ يَخْصُلُ مِنْهُ رَيُّ أَرْضِ مِصْرَ وَكِفَايَتُهَا، جَلَسَ الْمَلِكُ عند ذلك في مُشْرِفٍ له، وَصَعِدَ
الْقَوْمُ من خَوَاصِّهِ إلى رُؤُوسِ الْأَعْمِدَةِ الْمَذْكُورَةِ، فَيَتَعَادَوْنَ عَلَيْهَا مَا بَيْنَ ذَاهِبٍ وَأَيْتٍ، وَيَتَسَاطَلُونَ
من الْأَعْمِدَةِ إلى المَلْعَبِ وهو مُتَمَلِّئٌ بِالْمَاءِ^٤.

(a) ساقطة من الأصل.

^١ هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله ناظر
الحِصْنِ الشَّرِيفِ الْخَوَافِي سنة ٧٤٠هـ (ابن حجر: الدرر
الكامنة ٤٢٣-٤٤٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ٣٩٠:٧-
٣٩٣).

^٢ القَنْد هو عسل قصب السكر.

^٣ كانت إحدى قرى ولاية الأشمونين ونظراً لوقوع

الأشمونين بعيداً عن النيل نقل ديوان الولاية منها إلى مَلُوى
سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م. وفي سنة ١٨٣١ ألفي اسم
الأشمونين وسميت مأمورية أسيوط، وأصبحت مَلُوى إحدى
قرى محافظة أسيوط (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/
٤: ٦٨، Maspero & Wiet, Matériaux I, 197).

^٤ التويري. نهاية الأرب ١: ٣٩٣؛ وانظر كذلك =

قال أبو عبيد البكري : أنصنا - بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف - كورة من كور مصر معروفة ، منها كانت مارية^١ سرية النبي ﷺ أم ابنه إبراهيم من قرية يقال لها حفن من قري هذه الكورة^٢ .

ويقال إن سخرة فوعون كانوا منها ، وأنه جلبتهم منها يوم المؤيد للقاء موسى عليه السلام .
ويقال إن التمساح لا يضرب بساحل أنصنا لطلايم وضعت بها ، وأنه إذا حاذى برها انقلب على ظهره حتى يجاوزها^٣ .

ويقال إن الذي بتى مدينة أنصنا أشعون بن مضرام بن بصير بن حام بن نوح . وهي واقعة في شرقي النيل ، وكانت حسنة البساتين والمتنزهات ، كثيرة الثمار والفواكه ، وهي الآن خراب^٤ .

وقال أبو حنيفة الدينوري : ولا يثبت البنج إلا بأنصنا ، وهو غود ينشر منه ألواح للشفن ، وربما أرغت ناسرها . ويأخ اللوح منها بخمسين ديناراً ونحوها . وإذا شد لوح منها بلوح وطرح في الماء ستة أيام ، صاراً لوحاً واحداً^٥ .

وكان لأنصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجعل على كل مزكيب متحدر في النيل جزءاً من حقل صخره إلى القاهرة ، فتقل بأشهر إليها .

ذكر القيس

١٥

اعلم أن القيس من البلاد التي تجاور مدينة البهنسا ؛ وكان يقال القيس والبهنسا^{*} .

(a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من الأصل .

= البكري : جغرافية مصر ٨١-٨٢ ؛ مجهول المؤلف : النيل بمرکز ملوي بمحافظة المنيا (محمد رمزي : القاموس الاستيعار ١٨٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ١: ٢٦٥-٢٦٦ .
الجغرافي ١: ١٣٢ ، ١/٢: ٦٣) .

^١ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٩٩ .
^٢ أبو عبيد البكري : جغرافية مصر من الممالك

والممالك ٨٢ .
^٣ من المدن القديمة كانت تقع قرب النيل فتحها قيس بن الحارث المرادي ولكنها لم تسم به لأنها كانت معروفة بهذا الاسم قبل فتح العرب لها وتصادف فقط تشابه اسمه مع

^٤ لا يوجد هنا الثمن فيما وصل إلينا من كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري .
^٥ مكانها اليوم الأطلال الواقعة في حوض مدينة النحلة (الهرة عن أنصنا) بأراضي ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقي

قال ابن عبد الحكم: بَقِيَ عَفْرُو بن العاص قَيْس بن الحارث إلى الصَّعِيد، فسَارَ حتى أَتَى القَيْسَ فَتَزَلَّ بِهَا فَسَمَّيَتْ بِهِ ^١.

وقال ابن يُونُس ^٢: قَيْس بن الحارث المُرَادِي ثم الكُفَي، شَهِدَ فَتَحَ مِصْرَ يَزْوي عن عُمر بن الخطَّاب، وكان يُقْتَلِي النَّاسَ فِي زَمَانِهِ. رَوَى عَنْهُ شَوْهَدُ بن قَيْس - وقيل شَهِيدُ بن قَيْس بن ثَعْلَبَةَ - وَرَوَى عَنْهُ عُسْكَرُ بن سَوَادَةَ. وهو الذي فَتَحَ القَرْيَةَ بِصَعِيدِ مِصْرَ المَعْرُوفَةَ بِالْقَيْسِ فَسَمَّيَتْ إِلَيْهِ.

وقال ابن الكندي: ولهم ثِيَابُ الصُّوف، والأَكْسِيَّةُ المُرْعَزُ، وَلَيْسَ هِيَ بِالدُّنْيَا إِلَّا بِمِصْرَ. وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بن أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا كَثُرَ كَانَ لَا يَهْدَقُ، فَأَجْتَمَعُوا إِلَيْهِ لَا يَهْدِيهِ إِلَّا أَكْسِيَّةٌ تُعْمَلُ بِمِصْرَ مِنْ صُوفِهَا المُرْعَزُ القَسْلِيُّ الغَيْرُ المَصْبُوغُ. فَعَمِلَ لَهُ مِنْهَا عَدَدٌ، فَمَا اخْتِاجَ مِنْهَا إِلَّا إِلَى وَاحِدٍ. وَلَهُمْ طِرَازُ القَيْسِ وَالبَهْنَسَا فِي الشُّتُورِ وَالمُضَارِبِ، يُعْرَفُونَ بِهِ، وَمِنْهُ طِرَازُ أَهْلِ الدُّنْيَا ^٣.

وظَهَرَ بِهَا بِالْقُرْبِ مِنَ البَهْنَسَا سَوَرَتْ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ المَلِكِ الكَامِلِ مُحَمَّدِ بنِ العَادِلِ أَبِي بَكْرٍ ابنِ أَيُّوبَ، فَأَمَرَ مُتَوَلِّيَ البَهْنَسَاوِيَةِ بِكُشْفِهِ، فَجَمَعَ لَهُ أَهْلَ المَعْرِفَةِ بِالْعَزْمِ وَالْقَطَسِ، فَكَانُوا مَا يَنْفِي عَلَى مَا نِيَّ رَجُلٍ مَا فِيهِمْ إِلَّا مِنْ نَزْلِ الشَّرْبِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ قَرَارًا وَلَا جَوَابًا.

فَأَمَرَ بِعَمَلِ مَزَكِبٍ طَوِيلٍ رَقِيقٍ بِحَيْثُ يُمْكِنُ إِذْخَالُهُ مِنْ رَأْسِ الشَّرْبِ وَشَعْنُهُ بِالأَزْوَادِ وَالرِّجَالِ، وَرَكَّبَ فِيهِ جِبَالًا مَرْبُوطَةً فِي خَوَازِقٍ عِنْدَ رَأْسِ الشَّرْبِ، وَحَمَلَ مَعَ الرِّجَالِ آلَاتَ يُعْرَفُونَ بِهَا أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَعِدَّةُ شَمْعٍ وَغَيْرُهَا مِمَّا تُسْتَخْرَجُ بِهِ النَّارُ وَتُشَقَّلُ بِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْلُكُوا بِالمَزَكِبِ فِي الشَّرْبِ حَتَّى يَتَّقِدَ نِصْفَ مَا مَعَهُمْ مِنْ الزَّادِ. فَسَارُوا بِالمَزَكِبِ فِي ظُلْمَةِ وَهُمْ يُلْقُونَ الحِيَالَ وَلَا يَجِدُونَ لَهَا هَمَّ سَائِرُونَ فِيهِ مِنَ المَاءِ جَوَابًا. فَمَا زَالُوا حَتَّى قَلَّتْ أَزْوَادُهُمْ،

(هـ) فِي فَضَائِلِ مِصْرَ: مَا يَفْقَهُونَ بِهِ طِرَازُ أَهْلِ الدُّنْيَا.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٦٩ وفيها يلي ٦٧٥.

^٢ انظر عنه فيما تقدم ٦١.

^٣ ابن الكندي: فضائل مصر ٤٨-٤٩؛ وانظر عن

Serjeant, R.B., *Islamic Textiles*, pp. 161, 252-53.

= اسمها القديم، وكانت تعد من جملة الأعمال البهنساوية، وتقلد القيس والبهنسا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المؤرخ المصري الأمير المختار عز الملك للمسلمي، وهي الآن تابعة لمركز بني مزار بمحافظة المنيا (بافوت: معجم البلدان ٤: ٤٢٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١٥).

فَأَبْطَلُوا حَرَكَةَ الْمُزَكِّبِ بِالْمَجَازِيفِ إِلَى دَاخِلِ الشَّرْبِ وَجَرُّوا الْحَيَالَ لِيَرْجِعُوا إِلَى حَيْثُ دَخَلُوا ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ الشَّرْبِ .

فَكَانَتْ مُلْدَةٌ غَيْبَتِهِمْ فِي الشَّرْبِ سِتَّةَ أَيَّامٍ : أَرْبَعَةٌ مِنْهَا دُخُولًا إِلَى جَوْفَةٍ وَتَطَوُّافٍ بِجَوَائِبِهِ ، وَيَوْمَانِ رُجُوعًا إِلَى رَأْسِ الشَّرْبِ . وَلَمْ يَقِفُوا فِي هَذِهِ الْمُلْدَةِ عَلَى نَهَايَةِ الشَّرْبِ .

فَكَتَبَ بِذَلِكَ الْأَمِيرُ عِلَاءُ الدِّينِ الطُّنْبُجَا وَالِي الْبَهْنَسَا إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، ضَعِجٌ عَجَبًا كَثِيرًا ، وَاسْتَقْلَلَ عَنْ ذَلِكَ بِمُحَازَنَةِ الْفِرْنَجِ عَلَى دِمْيَاطَ . فَلَمَّا رَحَلُوا عَنْ دِمْيَاطَ وَعَادُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ ، خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى شَاهَدَ الشَّرْبَ الْمَذْكُورَ .

ذِكْرُ ذُرُوطِ بَلْهَاسَةٍ

اعْلَمْ أَنَّ ذُرُوطَ - وَهِيَ بَفَتْحِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَضَمِّ الرَّاءِ وَشُكُونِ الْوَاوِ وَطَاءِ - اسْمُ ثَلَاثِ قُرَى : ذُرُوطُ أَشْمُونٍ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وَذُرُوطُ سَرِيَانٍ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ أَيْضًا ، وَذُرُوطُ بَلْهَاسَةٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَهْنَسَا بِالضَّعِيدِ^١ .
وَبِهَا جَامِعٌ أَتَتْهُ زِيَادُ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ زِيَادِ بْنِ عَثْرَةَ الْعَتَكِيِّ^٢ ، وَمَاتَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَمِائَةً فَذُفِرَ بِهِ ، وَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ :

[الحنيف]

حَلَفَ الْجُودَ حَلْفَةً بَرًّا فِيهَا مَا تَرَوْا اللَّهَ وَاجِدًا كَزِيَادِ
كَانَ عَيْثًا لِمَصْرَ إِذْ كَانَ حَيًّا وَأَمَانًا مِنَ السَّنِينَ الشَّدَادِ
وَمَاتَ أَخُوهُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ سِتَّةَ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً ، فَقَالَ الشَّاعِرُ فِيهِ :

[البسيط]

ابْنُ الْمُغِيرَةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذَهَبَ تَزْدَادُ حُسْنًا عَلَى طُولِ الدَّهَائِرِ
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ مَا فِي الْأَرْضِ عَجَلَهُ إِلَى الثَّقَاةِ وَلَمْ يَهْتُمَّ بِتَأْخِيرِ
وَمَاتَ أَحْمَدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَقَالَ الشَّاعِرُ فِيهِ :

[الحنيف]

أَحْمَدُ مَاتَ مَا جِدًّا تَفَقُّودًا وَلَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ مَخْمُودًا
وَرِثَ الْمَجْدَ عَنْ أَبِي ثُمَّ عَمِّ يَفْلَهُ لَيْسَ بَعْدَهُ مَوْجُودًا

^١ هي المعروفة الآن بقرية الشيخ زباد بمركز متاخمة بمحافظة المنيا (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٢٤٥) .

^٢ مازال هذا الجامع قائما ويعرف بجملع الأمير زباد بقرية الشيخ زباد بمحافظة المنيا (سعاد ماهر : مساجد مصر ١: ٣١٠-٣١٣) .

ذکر اشکر

هي من الإطفيحية ، تجماعها واد به إلى وقتنا هذا شكل جمل من الحاجر كأكبر ما يرى من الجمال وأحسنها هيئة . وهو قائم على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق ، وعلى فخذه الأيمن كتابة بقلمهم ، وهي أحرف مقطعة في ثلاثة أسطر .

ثم على نحو مائة وخمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء ، ووجهه إلى وجه الجمل الأول ، وليس عليه كتابة .

وفيما بين الجملين المذكورين هيئة أعدل قد ملقت قماشا عذتها أربعون زكينة موضوعة بالأرض ، عشرين تجاه عشرين ، وجميعها من ججاجة ، ولا يشك من رآها أنها أحمال قماش .

وبعد مائة وخمسين خطوة منها جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين ، وهو أيضا قائم ، وظهره إلى ظهر الجمل الثاني ، ووجهه إلى الجبل ، وهناك آخر الوادي ، وليس على هذا الجمل أيضا كتابة . أخبرني بذلك من لا أتهم روايته .

ذکر منية الخصب

هذه المدينة تُنسب إلى الخصب بن عبد الحميد ، صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد .^٢

(ه) ساقطة من الأصل .

^١ من القرى القديمة تقع شرقي النيل ، وضبطها باقوت أشكر ، وهي تقع اليوم بمركز الصف بمحافظة الجيزة (باقوت ، معجم البلدان ١: ١٨٢) محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢٥: ٣/٢ .

^٢ ورد ذكرها عند الإدريسي باسم منية ابن الخصب ، وعند باقوت : منية أبي الخصب ، وترد أحيانا باسم منية بني

خصب ، وهي تقع على الضفة الغربية للنيل . وتحول اسمها إلى المنيا أجداء من سنة ١٢٣٦ هـ . وهي قاعدة محافظة المنيا التي تنسب إليها المحافظة وتكونت لأول مرة في جغرافية مصر سنة ١٨٣٣ (الإدريسي : نزعة المشتاق ١٢٤) باقوت : معجم البلدان ٥: ٢١٨ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٣: ٢/٢ (١٩٨-١٩٦) .

ذِكْرُ مَنِيَّةِ الْبَاسَاكِ^(١)

هي بَلَدَةٌ مِنْ مَجْلَةِ الإِطْفِيجِيَّةِ^١ عُرِفَتْ بِالْبَاسَاكِ^(٢) أَخِي الْوَزِيرِ بُهْرَامِ الْأَرْمَنِيِّ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْحَافِظِ لَدِينِ اللَّهِ أَبِي الْيَمِينِ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَلِيٍّ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ مَدِينَةِ قُوصٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ - وَوَلَايَةِ قُوصٍ يَوْمَئِذٍ أَجَلٌ وَلَايَاتٍ مِصْرَ^٢ - فَجَازَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ عَشَقُهُ وَأَذَاهُ لَهُمْ. فَعِنْدَمَا وَصَلَ الْخَبِيرَ بِقِيَامِ رِضْوَانِ بْنِ وَلَخْشِي عَلَى بُهْرَامٍ وَهَزِيمَتِهِ مِنْهُ وَتَقَلُّدِهِ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُ، ثَارَ أَهْلُ قُوصٍ بِالْبَاسَاكِ^(٣) فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ وَقَتَلُوهُ، وَرَبَطُوا كَلْبًا مَيِّتًا فِي رِجْلِهِ، وَسَخَبُوهُ حَتَّى أَلْقَوْهُ عَلَى مَرْبَلَةٍ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا^٣.

ذِكْرُ الْجِيزَةِ

قَالَ ابْنُ سَيْلَةَ: الْجِيزَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْمَجَانِبُ، وَجُمُعُهَا جِيزٌ وَجِيزٌ. وَالْجِيزُ جَانِبُ الْوَادِي، وَقَدْ يُقَالُ فِيهِ الْجِيزَةُ^٤.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجِيزَةَ اسْمٌ لِقَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ جَمِيلَةٍ الْبُنْيَانِ عَلَى الثِّيلِ مِنْ جَانِبِهِ الْعَرْشِيِّ تَجَاهَ مَدِينَةِ قُصْطَاطٍ مِصْرَ، لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَخِيذٌ سَوْقٌ عَظِيمٌ يَجِيءُ إِلَيْهِ مِنَ النُّوَاحِي أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ عَالَمٌ عَظِيمٌ؛ وَبِهَا عِدَّةٌ مَسَاجِدَ جَامِعَةٍ.

وَقَدْ رَوَى / الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ ثَابِتٍ الْخَطِيبُ، مِنْ حَدِيثِ نُبَيْطِ بْنِ شُرَيْطٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجِيزَةُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِصْرُ خَزَائِنِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ».

(١) الْأَصْلُ وَبُولَاقُ: النَّاسِكُ.

Centre musulman de la Haute - Égypte médiévale:
Qûs, pp. 83-85؛ وفيما يلي (٢٣٦:١).

^٢ انظر تفصيل ذلك عند ابن الطوير: نزعة الملقين ٤٥-٤٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٢٤-١٢٥؛ النويري: نهاية الأرب ٣٠١:٢٨-٣٠٢؛ القرطبي: معاني الخلفاء ٣: ١٦٦؛ المقفى ٥١٤:٢-٥١٦. وإلى هنا ينتهي الجزء الثالث من نشرة جاستون فيث.

^٤ ابن سيلة: الحكم ٧: ٣٦٣.

^١ إحدى قرى مركز الصف بمحافظة الجيزة مجاورة لناحتي الشرفا والمعطيات وتعرف بالمتيا (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣١:٣/٢).

^٢ كانت ولاية قوص في العصر الفاطمي أعظم ولايات الديار المصرية ويحكم واليها على جميع بلاد الصعيد وكانت تعد أكبر الأعمال بعد الوزارة (أمين فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ٣٣٠-٣٣٢؛ Garcin, J.-Cl., *Uz*

ويُقال إنَّ مسجد التَّوْبَةِ الذي بالجِيزَةِ كان فيه تَابُوتُ مُوسَى - عليه السَّلامُ - الذي قَدَفَتْهُ أُمُّهُ فِيهِ بِالثَّيْلِ ؛ وَبِهَا الثَّخَالَةُ الَّتِي أَرْضَعَتْ مَرْيَمَ تَحْتَهَا عِيسَى ، فَلَمْ يُعْمَرْ غَيْرُهَا .

وقال ابنُ عبد الحكم ، عن يزيد بن أبي حبيب : فاستحبَّتْ هَمْدَانُ وَمَرْ وَالْأَهِمَّةُ الجِيزَةَ ، فَكَتَبَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يُعْلِمُهُ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمَا قَتَحَ عَلَيْهِمْ ، وَمَا قَعَلُوا فِي عِطْلِهِمْ ، وَمَا اسْتَحَبَّتْ هَمْدَانُ مِنَ التَّزْوِلِ بِالْجِيزَةِ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ لَهُ : كَيْفَ رَضِيتَ أَنْ تُفَرِّقَ أَصْحَابَكَ ؟ لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُرَضِيَ لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بَحْرٌ ، وَلَا تَذْهَبَ مَا يُفْجَأُهُمْ ، فَلَعَلَّكَ لَا تُقَدِّرُ عَلَى غِيَابِهِمْ حِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا تُكْرَهُ ، فَاجْتَمَعَهُمْ إِلَيْكَ ، فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكَ وَأَعْجَبْتَهُمْ مَوْضِعَهُمْ بِالْجِيزَةِ وَأَخْبَرُوا مَا هُنَاكَ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ مِنْ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ حِصْثًا .

فَقَرَضَ عَلَيْهِمْ عُمَرُو ذَلِكَ فَأَبَوْا ، وَأَعْجَبْتَهُمْ مَوْضِعَهُمْ بِالْجِيزَةِ - وَمِنْ وَالْأَهِمَّةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ زَهْلِهِمْ نَافِعٌ وَغَيْرُهَا - وَأَخْبَرُوا مَا هُنَاكَ . فَتَنَّى لَهُمْ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ الْحِصْنَ فِي الْجِيزَةِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ ، وَفَرَّغَ مِنْ بِنَائِهِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ .

ويُقال إنَّ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا سَأَلَ أَهْلَ الْجِيزَةِ أَنْ يَنْضَمُّوا إِلَى الْفُسْطَاطِ ، قَالُوا : مُقَدِّمُ قَدِينَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا كُنَّا لَنَدْخُلَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ . فَتَزَلَّتْ نَافِيعُ الْجِيزَةِ فِيهَا مُتَبَرِّجٌ بِنِ شِهَابٍ ، وَهَمْدَانُ وَذُو أَصْبَحَ فِيهِمْ أَبُو شَيْمٍ بْنُ أَبَرَّةَ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْحَجَرِ .

وقال القضاعي : وَلَمَّا رَجَعَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَنَزَلَ الْفُسْطَاطَ ، جَعَلَ طَائِفَةٌ مِنْ جِيشِهِ بِالْجِيزَةِ خَوْفًا مِنْ عَدُوِّ يَفْشَاهُمْ مِنْ تِلْكَ النَاحِيَةِ ، فَجَعَلَ فِيهَا آلَ ذِي أَصْبَحَ مِنْ جِشْرِ وَهُمْ كَثِيرٌ وَنَافِعٌ بِنِ زَيْدٍ مِنْ رُعَيْنَ ، وَجَعَلَ فِيهَا هَمْدَانُ ، وَجَعَلَ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأُرْدِيِّينَ بِنِ الْحَجَرِ ابْنِ الْهَثَوِيِّ بِنِ الْأُرْدِ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْحَبَشَةِ ، وَدِيَوَانُهُمْ فِي الْأُرْدِ .

فلَمَّا اسْتَقَرَّ عُمَرُو فِي الْفُسْطَاطِ ، أَمَرَ الَّذِينَ خَلَفَهُمْ بِالْجِيزَةِ أَنْ يَنْضَمُّوا إِلَيْهِ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : هَذَا مُقَدِّمُ قَدِينَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقْبَنَاهُ ، مَا كُنَّا بِالَّذِينَ نُرْغَبُ عَنْهُ وَنَحْنُ بِهِ مُنْذَرُونَ أَشْهُرٌ . فَكَتَبَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بِذَلِكَ ، يُخْبِرُهُ أَنَّ هَمْدَانُ وَآلَ ذِي أَصْبَحَ وَنَافِيعًا وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ أَحْبَبُوا الْمَقَامَ بِالْجِيزَةِ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ : كَيْفَ رَضِيتَ أَنْ تُفَرِّقَ عَنْكَ أَصْحَابَكَ وَتَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بَحْرًا ، لَا تَذْهَبُ مَا يُفْجَأُهُمْ ، فَلَعَلَّكَ لَا تُقَدِّرُ عَلَى

غِيَاثِهِمْ ، فَاجْتَمَعَهُمْ إِلَيْكَ وَلَا تُفَرِّقْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا وَأَعْجَبَتْهُمْ مَكَانَتُهُمْ فَاتَيْنَ عَلَيْهِمْ حِصْنًا مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَجَعَلَهُمْ عَمْرُو وَأَخْبَرَهُمْ بِكِتَابِ غَمْرٍ ، فَأَمْتَنُوا مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْحِيزَةِ . فَأَمَرَ عَمْرُو بِبِنَاءِ الْحِصْنِ عَلَيْهِمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : لَا حِصْنَ أَحْصَنَ لَنَا مِنْ سُيُوفِنَا . وَكَرِهَتْ ذَلِكَ هَمْدَانُ وَنَافِعٌ ، فَأَقْرَعَ عَمْرُو بَيْنَهُمْ فَوَقَّعَتِ الْقُرُوعَةُ عَلَى نَافِعٍ ، فَبَنَى فِيهِمُ الْحِصْنَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ، وَفَرَّغَ مِنْ بِنَائِهِ فِي سَنَةِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ .

وَأَمَرَهُمْ عَمْرُو بِالْحِطْطِ بِهَا : فَاخْتَطَّ ذُو أَصْبَحٍ مِنْ جَعْفَرٍ مِنَ الشَّرْقِ ، وَمَضُوا إِلَى الْقَرْبِ حَتَّى تَلَقُّوا أَرْضَ الْحَوْتِ وَالزُّرْعِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يَتَنَى الْحِصْنَ فِيهِمْ . وَاخْتَطَّ نَافِعٌ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ رُغَيْنَ بَوَسْطِ الْحِيزَةِ ، وَبَنَى الْحِصْنَ فِي حِطْطِهِمْ ، وَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ عَنِ الْحِصْنِ أَنْفَةً مِنْهُ . وَاخْتَطَّتْ بُكَيْلُ بْنُ جُشَمٍ بِنِ تَوْفٍ - مِنْ هَمْدَانَ - فِي مَهَبِّ الْجَنُوبِ مِنَ الْحِيزَةِ فِي شَرْقِيهَا . وَاخْتَطَّتْ حَاشِدُ بْنُ جُشَمٍ بِنِ تَوْفٍ فِي مَهَبِّ الشَّمَالِ مِنَ الْحِيزَةِ فِي غَرْبِيهَا . وَاخْتَطَّتْ الْحَيَاوَةُ بْنُ عَامِرٍ بِنِ بُكَيْلٍ فِي قِبْلَى الْحِيزَةِ . وَاخْتَطَّتْ بَنُو حَجَرٍ بِنِ أَرْحَبٍ بِنِ بُكَيْلٍ فِي قِبْلَى الْحِيزَةِ . وَاخْتَطَّتْ بَنُو كَعْبٍ ابْنِ مَالِكٍ بِنِ الْحَجَرِ بِنِ الْهَبْوِ بِنِ الْأَزْدِ فِيمَا بَيْنَ بُكَيْلٍ وَنَافِعٍ . وَالْحَبَشَةُ اخْتَطَّطُوا عَلَى الشَّارِعِ الْأَعْظَمِ ^١ .

وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ بِالْحِيزَةِ بَنَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَازِنُ ، فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، بِأَمْرِ الْأَمِيرِ عَلِيِّ بْنِ الْإِخْشِيدِ ، فَتَقَدَّمَ كَأَفْوَرٍ إِلَى الْخَازِنِ بَيْنَائِهِ وَعَمِلَ لَهُ مُسْتَقْلًا . وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْحِيزَةِ يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ فِي مَسْجِدِ هَمْدَانَ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مُرَاجِقٍ بِنِ عَامِرٍ بِنِ بُكَيْلٍ ، كَانَ يُجْتَمِعُ فِيهِ الْجُمُعَةَ فِي الْحِيزَةِ ؛ وَشَارَفَ بِنَاءَ هَذَا الْجَامِعِ ، مَعَ الْخَازِنِ ، أَبُو الْحَسَنِ بِنِ أَبِي جَعْفَرٍ الطُّحَاوِيِّ .

وَاجْتَمَعُوا إِلَى عُمْدٍ لِلْجَامِعِ ، فَمَضَى الْخَازِنُ فِي اللَّيْلِ إِلَى كَنْبَسَةِ بِأَعْمَالِ الْحِيزَةِ فَقَلَعَ عُمْدَهَا وَنَصَبَ بَدَلَهَا أَزْكَانًا ، وَحَمَلَ الْعُمْدَ إِلَى الْجَامِعِ ؛ فَتَرَكَ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ الطُّحَاوِيِّ الصَّلَاةَ فِيهِ مُذْ ذَلِكَ تَوَرَّعًا .

قَالَ الْيَعْنِي ^٢ : وَقَدْ كَانَ ابْنُ الطُّحَاوِيِّ يُصَلِّي فِي جَامِعِ الْفُسْطَاطِ الْحَقِيقِ وَبَعْضُ عُمْدِهِ ، أَوْ

^١ نقل ابن دقماق نص القضاء في الانتصار ١٢٥: ١٢٦ . القضاء في قد نقل عنه في موضع آخر انظر فيما يلي

^٢ لم أستطع تحديد اسم هذا اللورخ وهو من مصادر ١٦١: ٢ ، وكذلك ابن دقماق : الانتصار ١١: ٤ م ٦ .

أكثرها ، ورُخامه من كتائب الإسكندرية وأرياف مصر ، وبعضه بناء قوة بن شريك عامل الوليد ابن عبد الملك ^١.

ويقال إن بالجيزة قبر كعب الأخبار ، وأنه كان بها أحجار ورخام قد صوّرت فيها التماسيح ، فكانت لا تظهر فيما يلي البلد من النيل بمقدار ثلاثة أميال غلوا وسفلا .
وفي سنة أربع وعشرين وسبع مائة ، منع الملك الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض إلى شيء مما يتحصل من مال الجيزة ، فصار جميعه يُختم إليه .

١ / ذكر رجس يوسف عليه السلام

قال القضاعي : سجن يوسف - عليه السلام - يوصير من عمل الجيزة ^٢ ، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان . وفيه أثر تبيين : أحدهما يوسف ، سجن به المدة التي ذكر أن مبلّغها سبع سنين ، وكان الوحي ينزل عليه فيه .

وسطح السجن موضح معروف بإجابة الدعاء ، يُذكر أن كافور الإخشيدي سأل أبا بكر بن الحداد عن موضح معروف بإجابة الدعاء ليتدعو فيه ، فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن ^٣ .
والثاني الآخر موسى - عليه السلام - وقد بُني على أثره مسجد هناك يُعرف بمسجد موسى .
أخبرنا أبو الحسن علي بن إبراهيم الشرفي بالشرف ^٤ قال : حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّد عَبْد اللَّهِ بْنُ الْوَزْد - وكان قد هَلَكْتَ أَخُوهُ وَوَرِثَ مِنْهَا مَوْرَثًا ، وَكُنَّا نَسْمَعُ عَلَيْهِ دَائِمًا ، وَكَانَ لِسَجْنِ يُوسُفَ وَقْتُ يَمْنِي النَّاسُ إِلَيْهِ بِتَفْرُجٍ - فَقَالَ لَنَا يَوْمًا : يَا أَصْحَابَنَا ، هَذَا أَوَانُ السَّجْنِ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ ؛ وَأَخْرَجَ عَشْرَةَ دنانير فناولها لأصحابه وقال لهم : مَا اسْتَهْتَمُوهُ فَاشْتَرَوْهُ ؛ فَتَضَى أَصْحَابُ الْحَدِيثِ وَاشْتَرَوْا مَا أَرَادُوا ؛ وَعَدُّنَا يَوْمَ أَخِيذِ الْجِيزَةِ كُلَّنَا ، وَبَقْنَا فِي مَسْجِدِ هَمْدَانَ ، فَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ مَشِينَا حَتَّى جِئْنَا إِلَى مَسْجِدِ مُوسَى ، وَهُوَ الَّذِي فِي السَّهْلِ ، وَمِنْهُ يُطَلَّعُ إِلَى

(عجل أبي) بصحراء سقاية قرب الهرم المدرج (Stricker, B.M., «La Prison de Joseph», *Acta Orientalis* (XIX) (1942), pp. 101-137 .

^٤ بعد ذلك في الانتصار لابن دقماق : في جمادى الآخر سنة أربع وأربع مائة .

^١ ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢٧ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٠ .

^٣ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٣٧ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ . ودَرس الأستاذ سريكر جميع النصوص العربية التي ذكرت سجن يوسف لتحديد هذا للموضع ، وتوصل إلى أن المقصود به هو معبد الشرايوم

السَّجْنِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّجْنِ ثَلَاثُ عَشْرَةَ مِائَةً مِنَ الرُّجُلِ، فَقَالَ السَّيِّدُ: مَنْ يَحْمِلُنِي وَيُطْلَعُنِي إِلَى هَذَا السَّجْنِ حَتَّى أُحَدِّثَهُ بِحَدِيثٍ لَا أُحَدِّثُهُ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ حَتَّى تُفَارِقَ رُوحِي الدُّنْيَا؟ قَالَ الشَّرَفِيُّ: فَأَخَذْتُ السَّيِّدَ وَحَمَلْتُهُ حَتَّى صِرْتُ فِي أَغْلَاهُ، فَتَزَلَّ وَقَالَ: مَعَكَ وَرَقَةٌ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: أَبْصِرْ لِي بِلَاطَةَ. فَأَخَذَ فَحَمَةً وَكَتَبَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ابْنِ بَسَّارٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَى إِلَى يُوسُفَ فِي هَذَا السَّجْنِ، فِي هَذَا الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ، فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: مَنْ أَنْتَ الَّذِي مَدَّ دَخْلَكَ السَّجْنَ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَجْهًا مِنْكَ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا جِبْرِيلُ. فَكَفَى يُوسُفَ فَقَالَ: مَا يُنْكِيكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَقَالَ: إِيَّاهُ يَحْمِلُ جِبْرِيلَ فِي مَقَامِ الْمَذْنُبِينَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُطَهِّرُ الْبِقَاعَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَاللَّهُ لَقَدْ طَهَّرَ اللَّهُ بِكَ السَّجْنَ وَمَا حَوْلَهُ؛ فَمَا أَقَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ حَتَّى أُخْرِجَ مِنَ السَّجْنِ^١

١٠. قَالَ الْقَضَائِيُّ: سَقَطَ بَيْنَ يَحْيَى وَزَيْدِ رَجُلٍ.
- وَقَالَ الْفَقِيهُ أَبُو مُحَمَّدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَلَامَةَ الطَّحَاوِيُّ، وَذَكَرَ سِجْنَ يُوسُفَ: لَوْ سَافَرَ الرَّجُلُ مِنَ الْعِرَاقِ لِيَصِلَ فِيهِ وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ، لَمَا عَنَّثَتْهُ فِي سَفَرِهِ.
- وَقَالَ الْفَقِيهُ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُرُوزِيُّ: لَوْ سَافَرَ الرَّجُلُ مِنَ الْعِرَاقِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ مَا عَنَّثَتْهُ.
- وَذَكَرَ الْمُسَبِّحِيُّ فِي حَوَادِثِ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ^٢ سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةِ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ: أَنَّ الْعَامَّةَ وَالشُّوْقَةَ طَافَتْ الْأَشْوَاقَ بِمِصْرَ بِالطُّبُولِ وَالثُّبُوقَاتِ، يَجْتَمِعُونَ مِنَ الثُّجَّارِ وَأَزْيَابِ الْأَشْوَاقِ مَا يُتَّفِقُونَهُ فِي مُضِيِّهِمْ إِلَى سِجْنِ يُوسُفَ، فَقَالَ لَهُمُ الثُّجَّارُ: شَغَلْنَا بَعْدَ الْأَقْوَاتِ يَمْتَنِعُنَا مِنْ هَذَا، وَكَانَ قَدْ اشْتَدَّ الْغَلَاءُ. وَأَنْهَؤْا حَالَهُمْ إِلَى الْحَضْرَةِ الْمُطَهَّرَةِ - يَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّاهِرَ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ أبا الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ - فَرَسَمَ لِسَامِي^٣ الدَّوْلَةَ أَبِي طَاهِرٍ بْنِ كَافِي - مُتَوَلِّيَ الشُّرْطَةِ الشُّفْلَى - التَّرْسِيمَ عَلَى الثُّجَّارِ حَتَّى يَذْفَعُوا إِلَيْهِمْ مَا بَحَرَتْ بِهِ رُسُومُهُمْ، وَرَسَمَ لَهُمُ بِالْخُرُوجِ إِلَى سِجْنِ يُوسُفَ، وَوَعَدُوا أَنْ يُطْلَقَ لَهُمْ مِنَ الْحَضْرَةِ ضَيْغَفَ مَا أُطْلِقَ لَهُمْ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْهَيْبَةِ، فَخَرَجُوا^٤.

(١) بولاق: الأول والتصويب من المسبحي. (٢) بولاق: نائب والتصويب من المسبحي.

^١ ابن دقماق: الانتصار ٤: ١٢٨-١٢٩. الحنفا ٢: ١٤٤-١٤٥.

^٢ المسبحي: أخبار مصر ٣٩-٤٠. المقرئ: اتعاط

وفي يوم السبت لتسبع خَلَوْنَ من مجمادى الأولى رَكِبَ القائدُ الأَجَلُ عِزُّ الدولة وسَناها مِفْضادُ الخادِمِ الأَسود^١ في سائر الأثراك ووجوه القواد، وشَقَّ البَلَدَ ونَزَلَ إلى الصَّنَاعَةِ التي بالجِشْرِ مِن معه . ثم خَرَجَ من هناك وَعَدَى في سائر عَسَاكِرِهِ إلى الجِيزَةِ ، حتى رَتَّبَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَاكِرَ تَكُونُ مَعَهُ مُقِيمَةً هُنَاكَ لِحِفْظِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَدَى يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِاحْدَى عَشْرَةِ خَلَتْ مِنْهُ فِي أَرْبَعِ عَشْرَاتٍ وَأَرْبَعِ عَشْرَةِ بَغْلَةٍ مِنْ بَغَالِ الثَّقَلِ ، وَفِي جَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ وَخَزَمِهِ إِلَى سِجْنِ يُوشَفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَقَامَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ، إِلَى أَنْ عَادَ الرَّمَادِيَةُ الْخَارِجُونَ إِلَى السِّجْنِ بِالثَّمَائِلِ وَالْمُضَاحِكِ وَالْحِكَايَاتِ وَالشَّمَاجَاتِ^٢ ، فَضَحِكَ مِنْهُمْ وَاسْتَقْظَرَهُمْ ، وَعَادَ إِلَى قَصْرِهِ بِكُرَّةِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ لثَلَاثِ عَشْرَةِ خَلَتْ مِنْهُ .

وَأَقَامَ أَهْلُ الْأَشْوَاقِ نَحْوَ الْأُسْبُوعَيْنِ يَطُوفُونَ^٣ الشُّوَارِعَ بِالْحِكَايَاتِ^٤ وَالشَّمَاجَاتِ وَالثَّمَائِلِ ، وَيَطْلُقُونَ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِذَلِكَ لِيُشَاهِدَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَقْدُونَ وَمَعَهُمْ سِجْلٌ قَدْ كُتِبَ لَهُمْ : أَلَّا يُعَارِضَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَهَابِهِ وَعَوْدِهِ ، وَأَنْ يُعْتَمَدَ إِكْرَامُهُمْ وَصِيَانَتُهُمْ .

وَلَمْ يَرَالُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَكَامَلَ جَمِيعُهُمْ ، وَكَانَ دُخُولُهُمْ مِنْ سِجْنِ يُوشَفَ يَوْمَ السَّبْتِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ بَقِيَتْ مِنْ مُجْمَادَى الْأُولَى ، وَشَقُّوا الشُّوَارِعَ بِالْحِكَايَاتِ وَالشَّمَاجَاتِ وَالثَّمَائِلِ ، فَتَقَطَّلَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَنْ أَشْغَالِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ . وَاجْتَمَعَ فِي الْأَشْوَاقِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِنَظَرِهِمْ ، وَظَلَّ النَّاسُ أَكْثَرَ هَذَا الْيَوْمِ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأُطْلِقَ لِحَمِيْعِهِمْ ثَمَانِيَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ شَوْقًا ، وَنَزَلُوا مَشْرُورِينَ^٥ .

(أ) يولاق : يطرقون . (ب) يولاق : الخيال والتصويب من المسيحي .

^١ عن القائد معضاد انظر المسيحي : أخبار مصر ٢٤ - ٢٧ ، والكشاف ١٣١ .

^٢ شَمَاجَةٌ ج. شَمَاجَات . نوع من الأُثْمَةِ (Masques) تبحث على السخرية والضحك ، كانت معروفة في مصر . ذكر أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ فِي وَصْفِهِ لِأَهْلِ مِصْرَ : دُومَنَ ظَرْفٍ مَا سَمِعْتُهُ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ مِنْذُ عَهْدِ قُرَيْبٍ رَجُلٌ مُلَازِمٌ لِلْمَارِسْتَانِ يُشْتَدَعَى لِلْمَرْضَى كَمَا تُشْتَدَعَى الْأَطْبَاءُ ، فَيَدْخُلُ عَلَى الْمَرِيضِ فَيُحْكِي لَهُ حِكَايَاتٍ مُضْحِكَةً وَخِرَافَاتٍ مُسَلِيَةً .

^٣ المسيحي : أخبار مصر ٤٢ - ٤٣ ؛ للقريري : انماط الحنفا ٢ : ١٤٦ .

ويُخْرَجُ لَهُ وَجُوهًا مُضْحِكَةً ؛ أَيْ شَمَاجَاتٍ (الرسالة المصرية ٣٤) ؛ وانظر Dozy, R., *Suppl. Dict. Ar.* I, 680 ومقال صمويل مورن «Masks in Medieval Arabic Theatre», *Assaph* C9 (1993), pp. 89-94 وفيما يلي ١ : ٢٦٨ ، ٤٩٣ .

وبخارج مدينة الجزيرة مَوْضِعٌ يُعْرَفُ بِأَبِي هُرَيْرَةَ ، فَيُظَنُّ مِنْ لَا يَعْلَمُ لَهُ أَنَّهُ أَبُو هُرَيْرَةَ الصُّحَابِيُّ ، وليس كذلك ، بل هو منسوبٌ إِلَى ابْنِ ابْنَتِهِ .

١ / ذِكْرُ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ

قال القُضَاعِيُّ : وذكر أَنَّ القَاسِمَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَبَّابِ ، عَامِلَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى خِراجِ مِصْرَ ، بَنَى فِي الْجِزَّةِ قُرَيْشًا يُعْرَفُ بِبَنِي هَاشِمٍ .^١

والقَاسِمُ هَذَا خَرَجَ إِلَى مِصْرَ وَوَلَّى الْخِلَافَةَ عَنْ أَبِيهِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَبَّابِ السُّلُولِي عَلَى الْخِراجِ فِي خِلَافَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . ثُمَّ أَمَرَهُ هِشَامٌ عَلَى خِراجِ مِصْرَ حِينَ خَرَجَ أَبُوهُ إِلَى إِمَارَةِ إِفْرِيقِيَّةَ فِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ ، فَلَمْ يَزَلْ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ ، فَتَزَعَّ عَنْ مِصْرَ ، وَجَمِيعَ الْخَفَصِ ابْنُ الْوَلِيدِ عَزَبُهَا وَعَمَّجُمُهَا ، فَصَارَ يَلِي الْخِراجَ وَالصَّلَاةَ مَعًا .
وبَنِي هَاشِمٍ هَذِهِ كَانَتْ وَقَعَةُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَعْفَرِيِّ .

ذِكْرُ مُنْجِي الدُّنْيَا

هِيَ إِحْدَى قُرَى الْجِزَّةِ^٢ ، عُرِفَتْ بِأَنْدُونَةَ كَاتِبِ أَحْمَدَ الْمَدَائِنِيِّ الَّذِي كَانَ يَتَقَلَّدُ ضِيَاعَ مُوسَى ابْنِ بُغَا الَّذِي بِمِصْرَ ، فَقَبَضَ أَحْمَدُ بْنُ طُؤْلُونَ عَلَى أَنْدُونَةَ هَذَا - وَكَانَ نَضْرَانِيًّا - فَأَخَذَ مِنْهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

ذِكْرُ وَسِيمٍ

قال ابنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ أَمِيرَ مِصْرَ إِلَى وَسِيمٍ^٣ ، وَكَانَتْ لِرَجُلٍ مِنَ الْقَيْطِ ، فَسَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَى مَثَرِهِ وَيَجْعَلَ لَهُ مِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

^١ ابن دقماق : الاختصار ٤ : ١٣٦ .
^٢ هي المعروفة الآن بقرية المنازات بمركز الجزيرة قاعدة محافظة الجزيرة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ٨ : ٨٠) .
^٣ هي المعروفة الآن بقرية أوسيم التابعة لمركز إمبابة بمحافظة الجزيرة (علي مبارك : الحطط التوفيقي ١٧ : ٥٩ - محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ٣ : ٥٧ - ٥٨) .

وقيل إنما مخرج^(٥) عبد الله إلى قَرْيَةِ أَبِي الثَّعْرَسِ^١ مع رَجُلٍ من الكُتَّاب يُقَالُ لَهُ ابْنُ حَنْظَلَةَ ، فَأَتَى عَبْدَ اللَّهِ الْعَزْلُ وَوِلَايَةُ قُوَّةِ بْنِ شَرِيكٍ وَهُوَ هُنَاكَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَامَ لِيَلْبَسَ سَرَاوِيلَهُ فَلَبَسَهُ مِنْكَوسًا^٢ .

وقيل إنَّ عَبْدَ اللَّهِ لَمَّا بَلَغَهُ الْعَزْلُ ، رَدَّ الْمَالَ عَلَى صَاحِبِهِ وَقَالَ : قَدْ غُرِلْنَا .
 • وكان عَبْدُ اللَّهِ قَدْ رَكِبَ مَعَهُ إِلَى الْمَقْدُودَةِ ، وَعَدَى أَصْحَابَهُ قَبْلَهُ وَتَأَخَّرَ ، فَوَزَدَ الْكِتَابَ بِعَزْلِهِ فَقَالَ صَاحِبُ الْمَالِ : وَاللَّهِ لَا يَهْدُ أَنْ تُشْرَفَ مَنَازِلِي ، وَتَكُونَ ضَيْفِي ، وَتَأْكُلَ طَعَامِي . وَوَاللَّهِ لَا عَادَ لِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَذْهَبُ مُنْصَرَفًا ، فَعَدَى مَعَهُ .

زَكْرُ مُمْنِيَّةِ عُقْبَةَ

هذه الْقَرْيَةُ بِالْجِيزَةِ^٣ عُرِفَتْ بِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

١٠ قال ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : كَتَبَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَسْأَلُهُ أَرْضًا يَشْتَرُوقُ فِيهَا عِنْدَ قَرْيَةِ عُقْبَةَ ، فَكَتَبَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَلْفِ ذِرَاعٍ فِي أَلْفِ ذِرَاعٍ ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَى لَهُ كَانَ عِنْدَهُ : انْظُرْ أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَرْضًا صَالِحَةً ، فَقَالَ عُقْبَةُ : لَيْسَ لَنَا ذَلِكَ ، إِنَّ فِي عَهْدِهِمْ شُرُوطًا سِتَّةَ : مِنْهَا أَلَّا يُؤْخَذَ مِنْ أَرْضِهِمْ شَيْءٌ ، وَلَا مِنْ نِسَائِهِمْ وَلَا مِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَلَا يُؤَاذَ عَلَيْهِمْ ، وَيُدْفَعَ عَنْهُمْ مُؤْضِعُ الْخَوْفِ مِنْ غَدُوِّهِمْ ، وَأَنَا شَاهِدٌ لَهُمْ بِذَلِكَ .

١٥ وفي رِوَايَةٍ : كَتَبَ عُقْبَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَسْأَلُهُ بِقِيَقًا^(٤) فِي قَرْيَةِ يَتَنِي فِيهَا مَنَازِلُ وَمَسَاكِنُ ، فَأَمَرَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَلْفِ ذِرَاعٍ فِي أَلْفِ ذِرَاعٍ ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ : انْظُرْ إِلَى أَرْضٍ تُعْجِبُكَ فَاخْتِطَّ فِيهَا وَابْتَنَ ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ لَنَا ذَلِكَ ، لَهُمْ فِي عَهْدِهِمْ سِتَّةَ شُرُوطَ : مِنْهَا أَلَّا يُؤْخَذَ مِنْ أَرْضِهِمْ شَيْءٌ ، وَلَا يُؤَاذَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يُكَلَّفُوا غَيْرَ طَائِفَتِهِمْ ، وَلَا تُؤْخَذَ ذُرَارِيهِمْ ، وَأَنْ يُقَاتَلَ عَنْهُمْ غَدُوُّهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ^٤ .

(٥) بولاق : خرج والتصويب من فروع مصر . (b) بولاق : نعمها .

^١ ما زالت معروفة بهذا الاسم وتقع بمركز الجيزة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٣: ٣٠٢) .
^٢ هي المعروفة الآن باسم ميت عقبة ، وتقع على الشاطئ الغربي للنيل وتبعد مركز إمبابة بمحافظة الجيزة .

^٣ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٢٣٨ .
^٤ ابن عبد الحكم : فروع مصر ٨٥ - ٨٦ .

قال أبو سعيد بن يونس: وهذه الأرض التي انقطعها عُقْبَةُ هي المنيّة المعروفة بمنيّة عُقْبَةَ في جيوة فسطاط مصر: عُقْبَةُ بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدي بن عَنَم بن الزُبعة بن رَشْدان بن قيس بن مُجَهِّنة، كذا نسب أبو عمرو الكندي^١.

- وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: عُقْبَةُ بن عامر بن عبس^٢ الجُهَنِيّ من مُجَهِّنة بن زَيْد بن سُوْد ابن أسلم بن عمرو بن الحَاف بن قُضَاعَةَ - وقد اختلف في هذا النسب - يُكنى أبا حَمَاد، وقيل أبا أسد، وقيل أبا عمرو، وقيل أبا سعاد، وقيل أبا الأسود. وقال خليفة بن خياط: وقيل أبو عامر عُقْبَةُ بن عامر الجُهَنِيّ يؤمّ الثُورَان شهيدًا، وذلك سنة ثمان وثلاثين. وهذا غلط منه، وفي كتابه بعد: وفي سنة ثمان وخمسين تُوفِّي عُقْبَةُ بن عامر الجُهَنِيّ. قال أبو عمر: سَكَن عُقْبَةُ بن عامر مصر، وكان وليًا عليها، وابتنى بها دارًا، وتُوفِّي في آخر خلافة معاوية. روى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبو أُمَامَةَ ومُسلمة بن مخلد، وأما زوائه من التابعين فكثير^٣.

- وقال الكندي: ثم وليها عُقْبَةُ بن عامر، من قِبل معاوية، وجمع له صلاتها وخراجها، فجعل على شرطته حَمَادًا. وكان عُقْبَةُ قارئًا فقيهاً فَرَضِيًا شاعِرًا، له الهجرة والصحبة السابقة. وكان صاحب بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الشَّهْبَاء الذي يقرؤها في الأشجار. وكان صَرَفُ عُقْبَةَ عن مصر بِمُسلمة بن مخلد، لقُتِرَ بقين من ربيع الأول سنة أربعين، فكانت ولايته ستين وثلاثة أشهر^٤.

وقال ابن يونس: تُوفِّي بمصر سنة ثمان وخمسين، ودُفِنَ في مقبرتها بالمقطم، وكان يُخَصَّب بالشواد، رحمه الله / تعالى.

(٥) يولاي: حسن.

١: الكندي: وفاة مصر ٥٩. ٢٢٥: ٢٧٠. والتاريخ الصحيح لوفاة عقبة بن عامر هو

سنة ثمان وخمسين كما عند الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢: ٤٦٨، ٤٦٩، وقد انتقد قول خليفة بن خياط كذلك أبو الحسن في النجوم الزاهرة ١: ١٢٨.

٢ الكندي: وفاة مصر ٥٩ - ٦٠، ٦١.

٢ هذا النص نقله المقرئ عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة - مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠، ٣: ١٠٧٣، والاستشهاد بتاريخ خليفة ابن خياط يرجع لابن عبد البر لا المقرئ، وهو موجود في تاريخ خليفة بن خياط (تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧)

ذكر حلوان^١

يُقال إنها تُنسب إلى حلوان بن بابهون بن عمرو بن امرئ القيس ملك مصر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان حلوان هذا بالشام على مقدمة أبرهة ذي المنار أحد الثبابة .

قال ابن عبد الحكم : وكان الطاعون قد وَقَعَ بالفسطاط ، فَخَرَجَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بن مَرْوان من الفسطاط فَتَزَلَّ بِحُلُوانِ دَاخِلًا فِي الصُّخْرَاءِ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ أَبُو قَرْقُور ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَيْنِ الَّتِي اخْتَفَرَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بن مَرْوان وَسَاقَهَا إِلَى نَخِيلِهِ الَّتِي غَرَسَهَا بِحُلُوانِ ؛ فَكَانَ ابْنُ خَدِيجٍ يُرْسِلُ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِخَبَرٍ مَا يَخْدُثُ فِي الْبَلَدِ مِنْ مَوْتٍ وَغَيْرِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولًا فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَ : أَبُو طَالِبٍ ؛ فَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ وَغَاظَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : أَسَأَلْتُكَ عَنْ اسْمِكَ فَتَقُولُ أَبُو طَالِبٍ ! مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَ : مُذْرِكٌ ، فَتَفَاعَلَ بِذَلِكَ . وَتَرَضَّ فِي مَخْرَجِهِ ذَلِكَ وَمَاتَ هُنَالِكَ ، فَحِمِلَ فِي الْبَحْرِ يُرَادُ بِهِ الْفُسْطَاطُ حَتَّى تَغَيَّرَ ، فَأَنْزِلَ فِي بَعْضِ خُصُوصِ سَاحِلِ مَرِيسَ فَنُقِلَ فِيهِ وَأُخْرِجَتْ مِنْ هُنَالِكَ بَجَنَازَتِهِ ، وَخُرِجَ مَعَهُ بِالْجَائِمِ فِيهَا الْعُودُ لَمَّا كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ مِنْ رِيحِهِ . وَأَوْصَى عَبْدُ الْعَزِيزِ أَنْ يُجَرَّ بِجَنَازَتِهِ إِذَا مَاتَ عَلَى مَثَرِ جَنَابِ بن مَرْزُوقَ بن زَيْدِ بن هَانِي الرُّعَيْنِيِّ صَاحِبِ حَرْسِهِ - وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ ، وَقَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - فَمُرَّ بِجَنَازَتِهِ عَلَى بَابِ جَنَابِ ، وَقَدْ خَرَجَ عِيَالُ جَنَابِ وَلِبَسَنَ السَّوَادَ وَوَقَفْنَ عَلَى الْبَابِ صَالِحَاتٍ ثُمَّ اتَّبَعْنَهُ إِلَى الْمَقْبَرَةِ .

وكان لثصيب من عبد العزيز ناحية ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي مَرْصِهِ فَأَذِنَ لَهُ ، فَلَمَّا رَأَى شِدَّةَ مَرْصِهِ أَتَشَأَ يَقُولُ :

١ من أقدم المدن التي أنشأها العرب في مصر تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وجنوبي القاهرة على بعد عشرين كيلومترا من مصر القديمة . وما ورد في رواية المقرئ هنام أن المدينة وجدت قبل قدوم العرب إلى مصر غير صحيح ، فالنابات من الروايات التاريخية (وعصاة عند ابن عبد الحكم وياقوت الحموي) أن والي مصر عبد العزيز بن مروان هو أول من احتلها وتحول إليها في سنة ٧٠ هـ بعد أن اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار (النجوم الزاهرة ١: ١٨٥) . واختار

عبد العزيز بن مروان لهذه المدينة اسم حلوان لأنها تشبه في موضعها ومزاياها موضع حلوان التي كانت بالعراق العجمي ، وهي الآن تحت الضاحية الجنوبية لمحافظة القاهرة . (راجع ، ياقوت : معجم البلدان ٢: ٢٩٣-٢٩٤ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠: ٧٦-٨٤ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٣/٢ : ١٢-١٤ ، Maspero & Wiet, Matériaux I, 74; Jones. M.B., El² art. Hulwān (III), pp. 591-92 .

١ من أقدم المدن التي أنشأها العرب في مصر تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وجنوبي القاهرة على بعد عشرين كيلومترا من مصر القديمة . وما ورد في رواية المقرئ هنام أن المدينة وجدت قبل قدوم العرب إلى مصر غير صحيح ، فالنابات من الروايات التاريخية (وعصاة عند ابن عبد الحكم وياقوت الحموي) أن والي مصر عبد العزيز بن مروان هو أول من احتلها وتحول إليها في سنة ٧٠ هـ بعد أن اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار (النجوم الزاهرة ١: ١٨٥) . واختار

[الكامل]

وَنَزَرُوا سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا لَيْتَ التَّشْكِي كَانَ بِالْمَوَادِّ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ قِذْيَةٌ لَقَذَيْتُهُ بِالْمُضْطَّقَى مِنْ طَارِفِي وَتِلَادِي
فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَأَمَرَّ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَاسْتَبَشَرَ بِذَلِكَ آلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَفَرِحُوا بِهِ، ثُمَّ
مَاتَ^١.

وَقَالَ الْكِتَابِيُّ: وَوَقَعَ الطَّاعُونَ بِمِصْرَ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ، فَخَرَجَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ مِنْهَا إِلَى
الشَّرْقِيَّةِ مُتَبَدِّيًا^٢، فَتَزَلَّ حُلْوَانُ فَأَعْجَبَتْهُ، فَأَتَتْهَا وَسَكَنَتْهَا وَجَعَلَ بِهَا الْحَرَسَ وَالْأَعْوَانَ وَالشَّرَطَ،
فَكَانَ عَلَيْهِمْ جَنَابُ بْنُ مَرْزُوقٍ بِحُلْوَانَ. وَبَنَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بِحُلْوَانَ الدُّوْرَ وَالْمَسَاجِدَ، وَعَمَّرَهَا أَحْسَنَ
عِمَارَةٍ وَأَحْكَمَهَا، وَغَرَسَ نَخْلَهَا وَكَوَّمَهَا، فَقَالَ ابْنُ قَيْسٍ الرَّقِّيَّاتُ^٣:

[النسرح]

سَقَيْتَا حُلْوَانَ ذِي الْكُرُومِ وَمَا صَنَّفَ مِنْ بَيْتِهِ وَمِنْ عَيْنِهِ
نَخْلٌ مُوَاقِيرُ بِالْقَنَاءِ مِنَ الْمَجْزُونِي غُلَبٌ يَهْتَزُّ فِي سَرِيهِ^٤
أَسْوَدُ سُكَّاتِهِ الْحَمَامُ فَمَا يَشْفُكُ غِرْبَانُهُ عَلَى رُطْبِهِ

وَلَمَّا غَرَسَ عَبْدُ الْعَزِيزِ نَخْلَ حُلْوَانَ وَأَطْعِمَ، دَخَلَ وَالْجُنْدُ مَعَهُ، فَجَعَلَ يَطُوفُ فِيهِ وَيَتَفَقَّصُ عَلَى
غُرُوبِهِ وَمَسَاقِيهِ، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ عُزُوزَةَ الْجَمَلِيُّ: أَلَا قُلْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿مَا
شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الآية ٣٩ سورة الكهف]؟! فَقَالَ: ذَكَرْتَنِي، شَكَرًا يَا غُلَامَ، قُلْ لِأَبِينَا يَزِيدَ
فِي عَطَائِهِ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ^٥.

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْقَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرَشِيُّ
الْأُمَوِيُّ أَبُو الْأَصْبَغِ، أَنَّهُ لَقِيَ ابْنَةَ زَيْبَانَ بْنِ الْأَصْبَغِ الْكِتَابِيِّ. رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعُقَيْبَةَ بْنِ عَامِرٍ
الْجُهَنِيِّ، وَرَوَى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ رِزْبَاحٍ وَبُخَيْرُ بْنُ دَاخِرَةَ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ الْحَفْلَوَانِيُّ وَكَثَبُ بْنُ
عَلْقَمَةَ، وَوَقَّعَ النَّسَائِيُّ وَابْنُ سَعْدٍ^٦.

(a) بولاق : متديا . (b) في بولاق ومعجم البلدان : يرنى بهتز ثم في سربه ، والثبت من الديوان .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٣٦-٢٣٧ . ^٢ الكندي : ولاية مصر ٧١-٧٢ .

^٣ الأبيات في ديوان ابن قيس الرقييات ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت - دار صادر ١٩٥٨ ، ١١٣ وعند
الطبقات الكبرى ٥ : ٢٣٦ ، الكندي : ولاية مصر ٧٠-٧٩ ،
الصفدي : الوافي بالوفيات ١٨ : ٥٥٨-٥٦١ ، أبي -
ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٩٤ .

ولما سار أبوه مزوان إلى مصر، بعثه في جيش إلى أئمة ليتدخل مصر من تلك الناحية، فبعث إليه ابن جحشدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوي، فلقي عبد العزيز بصاق - وهي سطح عقبة أئمة - فقاتله فانهزم زهير ومن معه.

فلما غلب مزوان على مصر في جمادى الآخرة سنة خمس وستين، جعل صلاتها وغراجها إلى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شهرين، فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له مزوان: يا بُني، غمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أهلك، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا على غيره، ويتقاد قومه إليك. وقد جعلت ملك أخاك بشراً مؤمناً، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً. وما عليك يا بُني أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وحمولك في منزلك؟

وأوصاه عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال: أوصيك بتقوى الله في سر وأمرك وعلايته ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [الآية ١٢٨ سورة النحل]، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً، فإن المؤذن يدعو إلى فريضة افترضها الله، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [الآية ١٠٣ سورة النساء]، وأوصيك ألا تبع الناس مؤعداً إلا أنفذته لهم، وإن خفك على الأمانة، وأوصيك ألا تتجمل في شيء من / الحكم حتى تستشير، فإن الله لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه، قال الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الآية ١٥٩ سورة آل عمران].

وخرج مزوان من مصر ليهلال رجب سنة خمس وستين، فوليتها عبد العزيز على صلاتها وغراجها.

وتوفي مزوان ليهلال رخصان، وتوفي ابنه عبد الملك بن مزوان، فأقر أخاه عبد العزيز. ووعد على عبد الملك في سنة سبع وستين، وجعل على الحرس والحليل والأشوان بجانب بن مؤند الرعيني، فاشتد سلطانه. وكان الرجل إذا أغلظ لعبد العزيز وخرج، تناوله بجانب ومن معه فضربوه وحبسوه.

واعتد العزيز أول من عرف بمصر في سنة إحدى وسبعين، قال يزيد بن أبي حبيب: أول من أخذت القعود يوم عرفة في المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مزوان.

وفي سنة اثنتين وسبعين ، صرّف بعث البحر إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وجعل عليهم مالك بن شرجيل الخولاني ، وهم ثلاثة آلاف رجل فيهم عبد الرحمن بن ثعلبة مولى ابن أزي ، وهو الذي قتل ابن الزبير ^١.

وخرج إلى الإسكندرية في سنة أربع وسبعين ، ووقد على أخيه عبد الملك في سنة خمس وسبعين ، وهدم جامع القسطنطين كله ، وزاد فيه من بجوابه كلها في سنة سبع وسبعين ، وأمر بضرب الدنانير المنقوشة .

وقال ابن عثير : كان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره . وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل ^٢.

وكتب عبد الملك إليه أن يترك له عن ولاية العهد ليعهد إلى الوليد وشيخان ، فأبى ذلك وكتب إليه : «إن يكن لك ولد فلنا أولاد ، ويقضي الله ما يشاء» . فعصّب عبد الملك ، فبعث إليه عبد العزيز بعلي بن زباح يترضاه . فلما قدم على عبد الملك ، استعطفه على أخيه ، فشكا عبد الملك وقال : «فوق الله يتيه ويته» . فلم يزل به علي حتى رضي ، فقدم على عبد العزيز فأخبره عن عبد الملك وعن حاله ، ثم أخبره بدعوته فقال له : أفعل ؟ أنا والله مفارق ، والله ما دعا دعوة قط إلا أجبت .

وكان عبد العزيز يقول : قدمت مصر في إمرة مسلمة بن مخلد ، فتمت بها ثلاث أماني فأدرتها : تمت ولاية مصر ، وأن أجمع بين امرأتي مسلمة ، ويخجتي قيس بن كليب حاجه . فتوفي مسلمة ، وقدم مصر فولّيتها ، وحججه قيس ، وتزوج امرأتي مسلمة .

وتوفي ابنه الأصغر بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ست وثمانين . فمرض عبد العزيز ، وتوفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين . فحمل في الثيل من حلوان إلى القسطنطين فدفن بها ^٣.

وقال ابن أبي مليكة : رأيته عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول : «ألا ليتني لم ألك شيئا مذكورا ، ألا ليتني كناية من الأرض أو كراعي إبل في طرف الحجاز» .

^٣ نفسه ٧٥ - ٧٦ .

^١ الكندي : ولاية مصر ٧٢ .

^٢ نفسه ٧٣ .

ولما مات لم يوجد له مالٌ ناضٍ^١ إلا سبعة آلاف دينار، ولحلوان والقيسارية، وثياب بعضها مزقوع، وخيل، ورفيق. وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً، ولم تلها في الإسلام قبله أطول ولاية منه^٢.

وكان بحلوان في النيل متديّة من صوان تُقَدِّي بالليل، تحمل فيها الناس وغيرهم من البرّ الشرقي بحلوان إلى البرّ الغربي. فلما كان^٣.

وهذا من الأسرار التي في الخليقة؛ فإن جميع الأجسام المتديّة، كالحديد والنحاس والفضة والروصاص والذهب والقصدير، إذا غُمِلَ من شيء منها إناء تسع من الماء أكثر من وزنه فإنه يغمُ على وجه الماء، ويَحْمِل ما يُمكنه ولا يَفْرُق.

وما يَرِخ المسافرون في بحر الهند - إذا أَظْلَمَ عليهم الليل ولم يَرَوْا ما يَهْدِيهم من الكواكب إلى مَقَرِّة الجِهَات - يَحْمِلون حديدَةً مُجَوِّفَةً على شَكْلِ سَمَكَةٍ وَيُيَالِفُونَ في تَرْفِيقِها جَهْدَ المَقْدِرَةِ، ثم يُغْمِل في قِمِّ السَمَكَةِ شيء من مَغْناطيس جَيِّدًا، ويَحْكُ فيها بالمَغْناطيس، فإن السَمَكَةَ إذا وُضِعَتْ في الماء دَارَتْ واشتَقَبَلَت القُطْبَ الجنوبي بَقِيَّها، واشتَدَّ بَرْتُ القُطْبِ الشَّمَالِي، وهذا أيضًا من أسرار الخليقة.

فإذا عَرَفُوا بَجَهْتِي الجُتُوبِ والشُّمَالِ، تَبَيَّنَ مِنْهُمَا المَشْرِيقُ والمَغْرِبُ، فإن من اشتَقَبَلَ الجُتُوبَ فقد اشتَدَّ بَرْتُ الشُّمَالِ وصَارَ المَغْرِبُ عن يَمِينِهِ والمَشْرِيقُ عن يَسَارِهِ. فإذا تَحَدَّدَتِ الجِهَاتُ الأَرْبَعُ، عَرَفُوا مَوَاقِعَ البِلَادِ بها، فيَتَصِيدُونَ حيثُ جَهَّةُ النَّاجِيَةِ التي يُرِيدُونَهَا.

ذِكْرُ مَدِينَةِ العَرِيشِ

العَرِيشُ مَدِينَةٌ فِيهَا بَيْنُ أَرْضِ فَلَسْطِينَ وإقليمِ مصر، وهي مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ، من جملة المَدَائِنِ التي اخْتُطَّتْ بَعْدَ الطُوفَانِ^٤.

١) ناضٍ بالنسخ. والفقرة التالية يذو أنها مَكَلَّزَةٌ أَقْحَمُهَا الشُّخَّاعُ في غير موضعها فلا علاقة لها بترجمة عبد العزيز بن مروان.

٢) المال الناض والنض. الدرهم والدينار. على شاطئ البحر المتوسط قرب نهاية الحد الشرقي لأرض

٣) الكندي: ولاية مصر ٧٦-٧٧.

٤) مدينة العريش هي قاعدة محافظة شمال سيناء تقع وفلسطين ٤٥ كيلومترا (راجع، ابن زولاقي: فضائل مصر =

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه عن مِصْرَامِ بْنِ بَصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَكَانَ عَلَامًا مُرْفُفًا ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْ مِصْرَ بَنَى لَهُ عَرِيشًا مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرِ وَسَتَرَهُ بِخَشِيشِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ بَنَى لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَدِينَةً وَسَمَّاهَا دُرْسَانُ - أَيْ بَابُ الْحَيَّةِ - فَزَرَعُوا وَغَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَالْحَيَّاتِ مِنْ دُرْسَانٍ إِلَى الْبَحْرِ ، فَكَانَتْ كُلُّهَا زُرُوعًا وَجَنَانًا وَعِمَارَةً ^١.

- وقال آخر : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ بَيْصَرَ بْنَ حَامِ بْنِ نُوحٍ تَحَمَّلَ فِي وَلَدِهِ ، وَهُمْ أَرْبَعَةٌ وَمَعَهُمْ / أولادهم ، فَكَانُوا ثَلَاثِينَ مَا بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . وَقَدِيمُ ابْنِهِ مِصْرَ بْنَ بَيْصَرَ أَمَاتَهُ نَحْوَ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى خَرَجَ مِنْ حَدِّ الشَّامِ ، فَتَاهُوا وَسَقَطَ مِصْرُ فِي مَوْضِعِ الْقَرِيشِ - وَقَدْ اسْتَدَّ تَعَبَهُ - وَنَامَ ، فَرَأَى قَائِلًا يُبَشِّرُهُ بِخُصُولِهِ فِي أَرْضِ ذَاتِ خَيْبٍ وَدُرٍّ وَمُلْكٍ وَفَخْرٍ ، فَانْتَبَهَ فَرِعًا ، فَإِذَا عَلَيْهِ عَرِيشٌ مِنْ أَطْرَافِ الشَّجَرِ ، وَحَوْلَهُ عُيُونُ مَاءٍ . فَحَمِدَ اللَّهَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ بَأْيَهُ وَإِخْوَتَهُ ، وَأَنْ يُبَارِكَ لَهُ فِي أَرْضِهِ ، فَاسْتَجِيبَ لَهُ ، وَقَادَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَتَزَلُّوا فِي الْقَرِيشِ وَأَقَامُوا بِهِ . فَأَخْرَجَ اللَّهُ لَهُمُ مِنَ الْبَحْرِ ذَوَابَّ مَا بَيْنَ خَيْلٍ وَحُمْرٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ وَإِبِلٍ ، فَسَاقُواهَا حَتَّى أَتَوْا مَوْضِعَ مَدِينَةِ مُتَفٍ فَتَزَلُّوا ، وَبَنَوْا فِيهِ قَرْيَةً سُمِّيَتْ بِالْقَبْطِيَّةِ مَاقَةً ، يَعْنِي قَرْيَةً ثَلَاثِينَ ^٢.

فَتَمَّتْ دُرِّيَّةٌ يَتَصَرَّ حَتَّى عَمَّرُوا الْأَرْضَ وَزَرَعُوا ، وَكَثُرَتْ مَوَاسِيهِمْ . وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْمَعَادِنُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَخْرِجُ الْقِطْعَةَ مِنَ الزَّبْجَدِ يَعْمَلُ مِنْهَا مَائِدَةً كَبِيرَةً ، وَيُخْرِجُ مِنَ الذَّهَبِ مَا تَكُونُ الْقِطْعَةُ مِنْهُ مِثْلَ الْأَشْطُرَانَةِ ، وَكَالْبَحْرِ الرَّابِضِ .

وقال ابنُ سَعِيدٍ عَنِ الْبَيْهَقِيِّ : كَانَ دُخُولُ إِخْوَةِ يُوسُفَ وَأَيُّوبَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَيْهِ بِمَدِينَةِ الْقَرِيشِ ، وَهِيَ أَوَّلُ أَرْضِ مِصْرَ ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ إِلَى تَلْقِيهِمْ حَتَّى نَزَلَ الْمَدِينَةَ بِطَرَفِ سُلْطَانِهِ . وَكَانَ لَهُ هُنَاكَ غَرَشٌ - وَهُوَ سَرِيرُ السُّلْطَانَةِ - فَأَجْلَسَ أَيُّوبَ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَدِينَةُ تُسَمَّى فِي الْقَدِيمِ بِمَدِينَةِ الْقَرَشِ لِذَلِكَ ، ثُمَّ سَمَّيَهَا الْعَائَةُ مَدِينَةَ الْقَرِيشِ فَقَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهَا .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ لِيُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَرَشٌ فِي أَطْرَافِ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ جَمِيعِ بَجَائِبِهَا ؛ فَلَمَّا أَصَابَ الشَّامُ الْقَحْطُ ، وَسَارَتْ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَتَقَاتَارِ مِنْ مِصْرَ ، أَقَامُوا بِالْقَرِيشِ . وَكُتِبَ

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ عن ابن وصيف شاه ؛

المسعودي : أخبار الزمان ١٥٢ - ١٥٣ ، وأورد المقرئ نفس

النص فيما تقدم ٤٨ نقلًا عن المسعودي ؛

^٢ قارن مع ابن عبد الحكم : فروع ٩٩ النوري : نهاية

= وأنها ٥٩٩ بالقوت : معجم البلدان ٤ : ١١٣ - ١١٤ ؛

ابن طهيرة : الفضائل الباهرة ٥٥٥ علي مبارك : الخطوط

التوفيقية ١٤ : ٣٩ - ٤٨٨ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 125 ; ٢٦٣ : ٤/٢

صاحب الحرس إلى يوسف: إِنَّ أَوْلَادَ يَتَقَوَّبُ الْكَتْمَانِي يُرِيدُونَ الْجَدَّ لَمَحْطِ نَزَلَ بِهِمْ .
فَقِيلَ لِإِخْوَةِ يُوسُفَ عِنْدَ ذَلِكَ عَزْشًا يَسْتَنْظِلُونَ بِهِ مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يَفُودَ الْجَوَابُ ،
فَسَمِّيَ الْمَوْضِعُ الْقَرِيشَ . وَكَتَبَ يُوسُفَ بِالْإِذْنِ لَهُمْ ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ مَا قَدْ ذُكِرَ فِي
مَوْضِعِهِ ^١.

وَيُقَالُ لِلْقَرْشِ الْج . فهذا كما ترى . وابنٌ وصيف شاة أعرف بأختبار مصر .
وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، طَرَقَ عَبْدُ اللَّهِ إِدْرِيسَ الْجَفَّارِي الْقَرِيشَ مُعَاوَنَةً بَنِي
الْجَوَاحِ ، وَأَخْرَقَهَا وَأَخَذَ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا ^٢.

وقال القاضي الفاضل: وفي جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وخمسة مائة ، وَرَدَ الْحَبِيرُ بَأْنَ
نَحْلَ الْقَرِيشِ قَطَعَ الْفَرِجُ أَكْثَرَهُ وَحَمَلُوا مَجْذُوعَهُ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَفُلِقَتْ مِنْهُ ، وَلَمْ يَجِدُوا مُخَاطِبًا
عَلَى ذَلِكَ .

ونقل عن ابن عبد الحكم أَنَّ الْحِفَازَ بِأَجْمَعِهِ كَانَ أَلْيَامَ فِرْعَوْنَ مُوسَى فِي غَايَةِ الْعِمَارَةِ بِالْمِيَاهِ
وَالْقَرْيِ وَالشُّكَّانِ ، وَأَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَوَدَّعَيْنَا مَا كَانَ بَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا
يَعْرِشُونَ﴾ [الأنعام ١٣٧] عن هذه المواضع ، وَأَنَّ الْعِمَارَةَ كَانَتْ مُتَّصِلَةً مِنْهُ إِلَى الْيَمَنِ ،
وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْقَرِيشَ عَرِيشًا .

وقيل إِنَّهَا نِهَائَةُ الشُّخُومِ مِنَ الشَّامِ ، وَإِنَّ إِلَيْهِ كَانَ يَتَهَيَّ رُعَاةُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
بِمَوَاشِيهِ ، وَأَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - اتَّخَذَ بِهِ عَرِيشًا كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ حَتَّى تَحْلُبَ مَوَاشِيَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
فَسَمِّيَ الْقَرِيشُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ .

وقيل إِنَّ مَالِكَ بْنَ دَعْرَ بْنَ حَجَّارَ بْنِ عَجْزِيلَةَ بْنِ لَحْمٍ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَلَدًا ، مِنْهُمْ الْقَرِيشُ
ابْنُ مَالِكٍ ، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْقَرِيشُ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِهَا وَبَنَاهَا مَدِينَةً ^٣ .
وعن كَتَبِ الْأَشْبَارِ أَنَّ بِالْقَرِيشِ قُبُورَ عَشْرَةِ أَنْبِيَاءَ .

^١ انظر فيما يلي ٦٦١ ، وأورد ابن سعيد هذا الحديث

فيما لم يصل إلينا من القسم المصري من كتاب «المغرب»

^٢ انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد

السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٧٧ ، ٤٢٤ .

(انظر فيما يلي ٢٣٠:١) .

^٣ قارن مع المسيحي : أخبار مصر ٣٤ - ٣٥ ؛ القرطبي :

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَرَمَاءِ^١

قال البكري: الفرماء - بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن فَعْلَاءَه وقد تُقصر - مَدِينَةٌ يَلْقَاءُ مصر^٢.

وقال ابنُ خَالَوَيْه في كتاب «أليس»: الفرما هذه سُمِّيَتْ بأخي الإسكندر، كان يسمى الفرما، وكان كافرًا، وهي قَرْيَةٌ أُمُّ إسماعيل بن إبراهيم^٣، انتهى.

ويُقالُ اسمُهُ الفرما بن فيلقوس، ويُقالُ فيه ابن فليس، ويقالُ بليس. وكانت الفرما على شَطِّ بُحَيْرَةِ يَمِيس، وكانت مَدِينَةٌ خَصْبَاءَ، وبها قَبْرُ جالينوس الحكيم.

وتَنَى بها المُنْتَوِكُلُ على الله حِصْنًا على البَحْرِ، تَوَلَّى بِنَاءَهُ عَنِيَسَةُ بنُ إِسْحَاقَ أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بَنَى حِصْنَ دِمِياط وحِصْنَ يَمِيس، وَأَتَّفَقَ فيها مَالًا عَظِيمًا.

ولَمَّا فَتَحَ عَمْرُو بن القاص عَيْنَ شَمْسٍ أَتَقَدَّ إِلَى الفرماء أَهْرَهَ بن الصَّبَّاح، فصالحه أَهْلُهَا على خمس مائة دينار هِرَقِيَّةً وأربع مائة نَاقَةً وألف رَأْسٍ مِنَ النَّمَمِ، فَرَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى البُقَّارَةِ.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاث مائة نَزَلَ الرُّومُ عليها، فَتَقَرَّ النَّاسُ إِلَيْهِمْ وَقَتَّلُوا مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ. ثم نَزَلُوا فِي جُمَادَى الْأُولَى سنة تسع وأربعين وثلاث مائة، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ مَزَكِبًا، وَقَتَّلُوا مَنْ فِيهِ وَأَسْرَوْا عَشْرَةَ.

وقال اليَقْقُوبِي: الفرما أَوَّلُ مَدُنِ مصر من جِهَةِ الشَّمالِ، وبها أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ، وبينها وَيَنٌ الْبَحْرِ الْأَخْضَرُ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ^٤.

وقال ابنُ الْكِتْلَبِيِّ: ومنها الفرما، وهي أَكْثَرُ عَجَائِبِ، وَأَقْدَمُ آثَارًا، ويذكر أَهْلُ مصر أَنَّهُ كَانَ مِنْهَا طَرِيقٌ إِلَى جَزِيرَةِ قُبُوسٍ فِي الْبَحْرِ، فَقَلَّبَ عَلَيْهَا الْبَحْرُ، ويقولون إِنَّهُ

^١ اندثرت اليوم مدينة الفرما وتعرف آثارها بتل الفرما على بُعد ثلاثة كيلومترات عن ساحل البحر المتوسط وعلى بعد ٢٣ كيلومترًا شرقي محطة الطينة الواقعة على الطريق الذي يربط بين بورسعيد والإسماعيلية. ويوجد بالقرب من تل الفرما أطلال قلعة قديمة تسمى قلعة الطينة لوقوعها في أرض موحلة، وكانت هذه القلعة تستخدم كمنفى لغير المرغوب فيهم من المصريين إلى نهاية القرن الثامن عشر للميلادي. (البكري: جغرافية مصر ٩٢-٩٣؛ مجهول:

الاستبصار ٤٨٩؛ باقوت: معجم البلدان ٤: ٢٥٥؛ ابن دسوقي: الانتصار ٥: ٥٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٩١: ١-٩٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 138).

^٢ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٠٢٢.
^٣ لا يوجد هذا الحبر فيما وصل إلينا من كتاب «أليس» في كلام العرب؛ لابن خالويه.

^٤ اليقوي: كتاب البلدان ٣٣٠.

كان فيما غَلَب عليه البحرُ مَقْطَعُ الرُخامِ الأَبْلَقِ ، وَأَنَّ مَقْطَعِ الأَيْبُضِ بِلُونِيَّة .

وقال يحيى بن عُثْمَان : كُنْتُ أَرَا بَطِ فِي الْفَرَسَا ، وَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ قَرِيبٌ مِنْ يَوْمٍ ، يَخْرُجُ النَّاسُ وَالْمُرَابِطُونَ فِي أَخْصَاصٍ عَلَى السَّاحِلِ ، ثُمَّ عَلَا الْبَحْرُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ .

/ وقال ابنُ قُذَّيْدٍ : تَوَجَّهَ ابْنُ الْمُدَبَّرِ - وَكَانَ يَتَّبِعُ - إِلَى الْفَرَسَا فِي هَذِهِ أَبْوَابٍ مِنْ حِجَارَةِ شَرْقِي الْحِصْنِ اخْتِجَاعُ أَنْ يَغْتَلَّ مِنْهَا جَيْزًا . فَلَمَّا قَلَّعَ مِنْهَا حَجَرًا أَوْ حَجَرَانِ خَرَجَ أَهْلُ الْفَرَسَا بِالسَّلَاحِ فَصَنَعُوا مِنْ قَلْعِهَا وَقَالُوا : هَذِهِ الْأَبْوَابُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا عَلَى لِسَانِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ يَأْتِيَنَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [الآية ٦٧ سورة يوسف] .

وَالْفَرَسَا بِهَا التَّخْلُ الْعَجِيبُ الَّذِي يُخْرِجُ حِينَ يَنْقَطِعُ الْبَحْرُ وَالرُّطْبُ مِنْ سَائِرِ الدُّنْيَا ، فَيَبْدَأُ هَذَا الرُّطْبُ مِنْ حِينَ يَلِدُ التَّخْلُ فِي الْكَوَانِ ، فَلَا يَنْقَطِعُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى يَجِيءَ الْبَلَحُ فِي الرُّيْعِ . وَهَذَا لَا يُوجَدُ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ ، لَا بِالْبَصْرَةِ ، وَلَا بِالْحِجَازِ ، وَلَا بِالْيَمَنِ ، وَلَا بِغَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَانِ . وَيَكُونُ فِي هَذَا الْبَشَرِ مَا وَزَنَ الْبَشَرَةَ الْوَاحِدَةَ فَوْقَ الْعَشْرِينَ دِرْهَمًا ، وَفِيهِ مَا طَوَّلَ الْبَشَرَةَ نَحْوَ الشُّبْرِ وَالْفِئْرِ ^١ .

وقال ابنُ المأمُونِ الْبُطْلَيْحِيُّ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : وَوَصَلَتْ التَّجَارِبُونَ مِنْ وَالِي الشَّرْقِيَّةِ تُخْبِرُ بَأَنِ يُغْدُونَ [Baldwin] مَلِكُ الْفَرَنْجِ وَصَلَ إِلَى أَعْمَالِ الْفَرَسَا ؛ فَسَيَّرَ الْأَفْضَلَ بْنَ أَمِيرِ الْجَيْشِ لِلْوَقْتِ إِلَى وَالِي الشَّرْقِيَّةِ بَأَنِ يُسَيِّرُ الْمُرُكَبِيَّةَ وَالْمَقْطَعِينَ بِهَا ، وَسَيَّرَ الرَّاجِلَ مِنَ الْعُطُوفِيَّةِ ، وَأَنِ يَسِيرَ الْوَالِي بِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَرْبَانَ بِأَسْرِهِمْ بَأَنِ يَكُونُوا فِي الطُّوَالِ ، وَيَطَارِدُوا الْفَرَنْجَ ، وَيُشَارِفُوهُمْ بِاللَّيْلِ قَبْلَ وَصُولِ الْعَسَاكِرِ إِلَيْهِمْ ، فَاعْتَمَدَ ذَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ الْخِيَامِ وَتَجْهِيزِ الْأَصْحَابِ وَالْحَوَاشِي ؛ فَلَمَّا تَوَاصَلَتِ الْعَسَاكِرُ وَتَقَدَّمَا الْقَرْبَانَ ، وَطَارَدُوا الْفَرَنْجَ ، وَعَلِمَ يُغْدُونَ [Baldwin] مَلِكُ الْفَرَنْجِ أَنَّ الْعَسَاكِرَ مُتَوَاصِلَةً إِلَيْهِ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْإِقَامَةَ لَا تُمَكِّنُهُ ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالنَّهْبِ وَالتَّخْرِيبِ وَالْإِخْرَاقِ ، وَهَلَمَّ الْمَسَاجِدَ ، فَأَحْرَقَ جَامِعَهَا وَمَسَاجِدَهَا وَجَمِيعَ الْبَلَدِ ، وَعَزَمَ عَلَى الرُّحِيلِ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَعَجَّلَ بِنَفْسِهِ إِلَى النَّارِ . فَكُنْتُ أَصْحَابَهُ مُؤْتَةً ، وَصَارُوا بَعْدَ أَنْ سَقُوا بَطْنَ يُغْدُونَ وَمَلَأُوهُ مِلْحًا حَتَّى بَقِيَ إِلَى بِلَادِهِ ، فَذَنَّبُوهُ بِهَا ^٢ .

وَأَمَّا الْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، فَإِنَّهُمْ شَتُّوا الْغَارَاتِ عَلَى بِلَادِ الْعُدُوِّ ، وَعَادُوا بَعْدَ أَنْ خَيَّمُوا عَلَى ظَاهِرِ عَسْقَلَانَ .

^١ ابن الكندي : فضائل مصر ٣٤-٣٥ ؛ وفارن ابن زولاقي : فضائل مصر وأخبارها ٥٧-٥٨ ؛ ابن ظهيرة : ٤٤٠ ؛ أبا الحسن : النجوم الزاهرة ١٧١:٥ وفيه : «فشق أصحابه بطنه وصبروه ، ورموا حشوته هناك ، فهي ترجم = الفضائل الباهرة ٥٤ .

^٢ قارن ، المقرئ : أتماظ الحنفا ٣:٥٣ ، المقفى الكبير ٢ : ٤٤٠ ؛ أبا الحسن : النجوم الزاهرة ١٧١:٥ وفيه : «فشق أصحابه بطنه وصبروه ، ورموا حشوته هناك ، فهي ترجم =

وَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ ظَهِيرِ الدِّينِ طُغْدُكِينٍ - صَاحِبِ دِمَشْقٍ - بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ ، فَسَارَ إِلَى عَمَقْلَانَ ، وَحِيلَتْ إِلَيْهِ الضِّيَافَاتُ .

وَطَوَّلَعَ بِخَيْرٍ وَصُولَهُ فَأُبْرَزَ بِحَمَلِ الْخِيَامِ وَغِدَّةٍ وَافِزَةٍ مِنَ الْخَيْلِ وَالْكَسَوَاتِ وَالشُّودِ وَالْأَعْلَامِ وَسَيْفٍ ذَهَبٍ وَمِنْطَقَةٍ ذَهَبٍ وَطَوَّقٍ ذَهَبٍ وَبَذْلَةٍ طَلْعَمٍ وَخِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ مُكْتَمَلَةٍ وَمَرْتَبَةٍ مُلُوكِيَةٍ وَقُرُوشَهَا وَجَمِيعِ آلَاتِهَا وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ آلَاتِ الْفَيْصَةِ .

وَسُيِّرَ بِرُشْمِ شَمْسِ الْخَوَاصِ - وَهُوَ مُقَدَّمٌ كَبِيرٌ - خِلْقَةً مُذَهَّبَةً وَمِنْطَقَةً ذَهَبٍ وَسَيْفٍ وَسُيِّرَ بِرُشْمِ الْمُتَمَرِّينَ مِنَ الْوَاصِلِينَ خِلْقَةً وَسُيُوفَ ، وَسُلِّمَ ذَلِكَ بِقَبْطٍ لِأَحَدِ الْحُجَّابِ ، وَسُيِّرَ مَعَهُ قَوَاشَانِ بِرُشْمِ الْخِيَامِ .

وَأُمِرَ بِضَرْبِ الْخِيَمَةِ الْكَبِيرَةِ وَقُرُوشَهَا ، وَأَنْ يَكْتُبَ وَالِي عَمَقْلَانَ وَظَهِيرُ الدِّينِ وَشَمْسُ الْخَوَاصِ وَجَمِيعُ الْأُمَرَاءِ الْوَاصِلِينَ وَالْمُتَمَرِّينَ بِعَمَقْلَانَ إِلَى بَابِ الْخِيَمَةِ وَيَقْبِلُوهُ ، ثُمَّ إِلَى بِسَاطِهَا وَالْمَرْتَبَةِ الْمُتَنَصِّبَةِ ، ثُمَّ يَجْلِسَ الْوَالِي وَظَهِيرُ الدِّينِ وَشَمْسُ الْخَوَاصِ وَالْمُقَدَّمُونَ وَيَقِفُ النَّاسُ بِأَجْمَعِهِمْ إِبْجَالًا وَتَقْطِيعًا . وَيُخْلَعُ عَلَى الْأَمِيرِ ظَهِيرِ الدِّينِ وَشَمْسُ الْخَوَاصِ ، وَتُسَدُّ الْمَنَاطِقُ فِي أَوْسَاطِهَا ، وَيُقْلَدُ بِالشُّيُوفِ ، وَيُخْلَعُ بَعْدَهُمَا عَلَى الْمُتَمَرِّينَ ، ثُمَّ يَسِيرُ ظَهِيرُ الدِّينِ وَالْمُقَدَّمُونَ بِالشُّرَيْفِ وَالْأَعْلَامِ وَالرَّايَاتِ الْمُسْتَوْرَةِ إِلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْخِيَامِ الَّتِي صُورَتْ لَهُمْ . فَإِذَا كَانَ كُلُّ يَوْمٍ يَكْتُبُ الْوَالِي وَالْأُمَرَاءُ وَالْمُقَدَّمُونَ وَالْعَسَاكِرُ إِلَى الْخِيَمَةِ الْمُلُوكِيَةِ ، وَيَتَقَاوَضُونَ فِيهَا يَجِبُ مِنْ تَذِيرِ الْعَسَاكِرِ ، فَافْتَسَلَ ذَلِكَ .

وَتَوَاصَلَتِ الْغَارَاتُ عَلَى بِلَادِ الْعُدُوِّ ، وَأَسْرَوْا وَقَتَلُوا ، فَسِيرَتْ إِلَيْهِمُ الْخِلْقَةُ ثَانِيًا ، وَجُعِلَ لَشَمْسِ الْخَوَاصِ خَاصَّةٌ فِي هَذِهِ الشُّفْرَةِ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ، وَتَسَلَّمَ ظَهِيرُ الدِّينِ الْخِيَمَةَ الْكَبِيرَةَ بِمَا فِيهَا . وَكَانَ تَقْدِيرُ مَا حَصَلَ لَهُ وَالْأَصْحَابُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَتَلَعَ الْمُتَّقَى فِي هَذِهِ الثُّوْبَةِ وَعَلَى ذَهَابِ مُغْدُونٍ وَهَلَاقِهِ مِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ^١ .

٢٠ وَفِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةِ نَزَلَ الْفَرَنْجُ عَلَى الْقَوْمِ فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ وَأَخْرَقَهَا وَنَهَبُوا أَهْلَهَا^٢ .

^١ = إِلَى الْيَوْمِ بِالسَّبْخَةِ . ابن ميسر : أخبار مصر ١١٤٤ : التوهمي : نهاية الأرب

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ١٣-١٤ : القرطبي : اتعاظ الخنقا ٣ : ٢٠١ .

الخنقا ٣ : ٥٣-٥٤ .

وَأَخِرُ أَمْرُهَا أَنَّ الْوَزِيرَ شَاوَرَ خَرَّبَهَا لَمَّا خَرَجَ مِنْهَا مُتَوَلِّيًا مُلْهِمَ أَحُو الصُّرُغَامِ فِي سَنَةِ ...^(٨) فاستمرت خرابًا لم تُعْمَرْ بعد ذلك .

وكان بالقرمنا والبقارة والورادة عرب من مجذام يُقال لهم القاطع ، وهو جزئي بن عوف بن مالك بن شنوة بن بُذيل بن جشم بن مجذام ، منهم عبد العزيز بن الوزير بن صابي بن مالك بن عامر بن عدي بن خزش بن نقر بن نصر بن القاطع ، مات في صفر سنة خمس ومائتين .
وللشري^(٩) والجزوي هنا أخبار كثيرة أثبتنا^(١٠) عليها في كتاب «عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة القسطنطية»^١.

وقال ابن الجندي : وبها مجتمع البحرين ، وهو البرزخ الذي ذكره الله عز وجل فقال : ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الأنعام ١٩ ، ٢٠ سورة الرحمن] ، وقال : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الأنعام ٦١ سورة النمل] ، وهما بحر الروم وبحر الصين ، والحاجز بينهما مسيرة ليلة ما بين القلزم والقرمنا ، وليس يتقاربان في بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع ، وبينهما في الشفر مسيرة شهر^٢.

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ

/القلزم - بضمة القاف وسكون اللام وضمة الزاي وميم - بلدة كانت على ساحل بحر اليمن في أقصى من جهة مصر . وهي كورة من كور مصر ، وإليها ينسب بحر القلزم^٣ ، وبالقرمنا عرق فيزغون ، وبينها وبين مدينة مصر ثلاثة أيام ، وقد خربت ، ويُعرف اليوم موضعها بالشونس تجاه عجمود^٤.

ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولا زرع ، وإنما يُحتمل الماء إليها من آبار بعيدة . وكان بها فُرْضة مصر والشام ، ومنها تُحتمل الحمولات إلى الحجاز واليمن .

(٨) ياض بالنسخ ولعلها ٥٥٩ . (b) بولاق : الروي . (c) بولاق : نهنا .

^١ هذه الإشارة الوحيدة في الحيط إلى هذا الكتاب الذي يتناول فيه المقريزي تاريخ مصر قبل العصر الفاطمي .
الزبيدي : تاج العروس ٩ : ٣٢٢ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٩٩ ؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 149
ابن الكندي : فضائل مصر ٤٨ .
انظر فيما تقدم ٤٠ .
^٢ انظر بالقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨٧ - ٣٨٨
الزبيدي : تاج العروس ٩ : ٣٢٢ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٩٩ ؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 149
ابن الكندي : فضائل مصر ٤٨ .
انظر فيما تقدم ٤٠ .
^٣ انظر فيما تقدم ٤٠ .
^٤ انظر بالقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨٧ - ٣٨٨
الزبيدي : تاج العروس ٩ : ٣٢٢ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٩٩ ؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 149
ابن الكندي : فضائل مصر ٤٨ .
انظر فيما تقدم ٤٠ .

ولم يكن بين القُلْزُومِ وفاران قَرْيَةً ولا مَدِينَةً ، سوى ^(٥) نَحْلٌ يَسِيرُ فِيهِ صَيَّادُونَ لِلشَّمَكِ . وكذلك من فاران وجبيلان ^(٦) إلى أَيْلَةٍ .

قال ابنُ البَطَوِيِّ : وَالبَلَدُ المعروف بالقُلْزُومِ أَكْثَرُهَا باقِي إِلَى الْيَوْمِ ، وَيَرَاهَا الرَّاكِبُ السَّائِرُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْحِجَازِ . وَكَانَتْ فِي الْقَدِيمِ سَاحِلًا مِنْ سَوَاحِلِ الدَّوْلَةِ ^(٧) الْمِصْرِيَّةِ ، وَرَأَيْتُ شَيْقًا مِنْ جِسَابِهِ مِنْ نَجْهَةٍ مُسْتَعْدَمِيهِ فِي حَوَاصِلِ الْقَصْرِ وَمَا يُتَّفَقُ عَلَى وَالِيهِ وَقَاضِيهِ وَذَاعِيهِ وَخَطِيئِهِ وَالْأَجْنَادَ الْمُرَكِّزِينَ بِهِ لِحِفْظِهِ وَقَرْبِهِ وَجَامِعِهِ وَمَسَاجِدِهِ ، وَكَانَ مَسْكُونًا مَأْمُولًا .

قال المُتَّبِعِي فِي حَوَادِثِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ : وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَامِعٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَهْلَ مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ مِمَّا كَانَ يُؤْخَذُ مِنْ مُكُوسِ الْمَرَاكِبِ ^١ .

وقال ابنُ خُرْدَادْبَةِ عَنْ الثُّجَّارِ : فَيَزْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ ، وَيَخْرُجُونَ بِالْقَرْمَاتِ وَيَعْمَلُونَ تِجَارَتَهُمْ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى الْقُلْزُومِ - وَبَيْنَهُمَا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ قَوْسًا - ثُمَّ يَزْكَبُونَ الْبَحْرَ الشَّرْقِيَّ مِنَ الْقُلْزُومِ إِلَى الْجَارِ ^(٨) وَجِدَّةً ، ثُمَّ يَمْضُونَ إِلَى السُّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ ^٢ .

وَمِنْ الْقُلْزُومِ يَنْزِلُ النَّاسُ فِي بَرِّيَّةٍ وَصَحْرَاءٍ يَتَمَرَّجِلُ إِلَى أَيْلَةٍ ، وَيَتَزَوَّدُونَ مِنَ الْمَاءِ لِهَذِهِ السَّيِّئَةِ مَرَاجِلَ . وَيُقَالُ إِنَّ بَيْنَ الْقُلْزُومِ وَبَحْرِ الرُّومِ ثَلَاثَ مَرَاجِلَ ، وَإِنْ مَا بَيْنَهُمَا هُوَ الْبَزْرُخُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ يَنْتَهِمَا بَزْرُخٌ لَا يَمْتَعِيَانِ ﴾ [آلَةُ ٢٠ سُورَةُ الرَّحْمَنِ] .

التَّيْه

١٥

هُوَ أَرْضٌ بِالْقَرْبِ مِنْ أَيْلَةٍ ، بَيْنَهُمَا عَقَبَةٌ لَا يَكَادُ الرَّاكِبُ يَضَعُهَا مِنْ عَلَيْهَا لَصُعْبَتَيْهَا ، إِلَّا أَنَّهَا مُهَدَّتٌ مِنْ زَمَنٍ خُحْمَاوَرَتْهُ بَنُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ . وَيَسِيرُ الرَّاكِبُ مَرَحَلَتَيْنِ فِي فَحْصِ التَّيْهِ هَذَا حَتَّى يُوَافِيَ سَاحِلَ بَحْرِ فَارَانَ ، حَيْثُ كَانَتْ مَدِينَةُ فَارَانَ ، وَهُنَاكَ غَرَقٌ فَوْعُونَ . وَالتَّيْهُ بِمِقْدَارِ أَرْبَعِينَ قَوْسًا فِي مِثْلِهَا ، وَفِيهِ تَاهَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، لَمْ يَدْخُلُوا مَدِينَتَهُ وَلَا أَوُوا إِلَى يَتَيْتَ ، وَلَا يَدْخُلُوا قَوْمًا ، وَفِيهِ مَاتَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُقَالُ إِنَّ طَوْلَ التَّيْهِ نَحْوَ مِنْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ^٣ .

٢٠

(a) بولاق : وهي . (b) بولاق : جبيلان . (c) بولاق : الديار . (d) بولاق : تجار .

^١ المقرئ : اتعاط الحنفا ١٥ : ٢ . (باقوت : معجم البلدان ٢ : ٦٩٩ محمد رمزي : القاموس

الجغرافي ٣٨ : ١) .

^٢ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ١٥٣ .

^٣ هو المعروف اليوم بوادي التيه في محافظة جنوب سيناء

وَأَتَّفَقَ أَنَّ الْمَمَالِيكَ الْبَحْرِيَّةَ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْقَاهِرَةِ هَارِبِينَ ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسِتْ مِائَةٍ^١ ، مَرُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ بِالْقِيَّةِ فَتَاهُوا فِيهِ خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ تَرَاءَى لَهُمْ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ سَوَادٌ عَلَى بُعْدٍ ، فَقَصَصْنَاهُ فَإِذَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا سُورٌ وَأَبْوَابٌ كُلُّهَا مِنْ رُخَامٍ أَحْمَرٍ ، فَدَخَلُوا بِهَا وَطَافُوا بِهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا الزَّمَلُ حَتَّى طَمَّ أَشْوَاقُهَا وَدُورُهَا ، وَوَجَدُوا بِهَا أَوَانِي وَمَلَابِسَ ، وَكَانُوا إِذَا تَنَاولُوا مِنْهَا شَيْئًا تَنَافَرُوا مِنْ طُولِ الْبَلَى . وَوَجَدُوا فِي صِبْنَتِهَا بَعْضَ الْبَزَائِينَ تَسْعَةَ دَنَانِيرَ ذَهَبًا ، عَلَيْهَا صُورَةُ غُرَالٍ وَبِكَايَةِ عِبْرَانِيَّةٍ ، وَخَفَرُوا مُوَضِّعًا ، فَإِذَا حَجَرٌ عَلَى صِفْرِجٍ مَاءٌ فَشَرِبُوا مِنْهُ مَاءً أَثَرَدَ مِنَ الثَّلْجِ . ثُمَّ خَرَجُوا وَمَشَوْا لَيْلَةً ، فَإِذَا بِطَائِفَةٍ مِنَ الْغُرَبَانِ حَمَلُوهُمْ إِلَى مَدِينَةِ الْكَرْكِ ، فَدَقَّقُوا الدَّنَانِيرَ لِبَعْضِ الصَّيَّارَةِ ، فَإِذَا عَلَيْهَا أَنَّهَا ضَرِبَتْ فِي أَيَّامِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَدَفَعَ لَهُمْ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِائَةَ دِرْهَمٍ^٢ .

وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْخَضْرَاءَ مِنْ مَدَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَهَا طُوفَانٌ زَمَلٌ يَزِيدُ تَارَةً وَيَنْقُصُ أُخْرَى ، لَا يَرَاهَا إِلَّا تَارَةً .

ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمِيَّاطَ

اعْلَمْ أَنَّ دِمِيَّاطَ كُورَةٌ مِنْ كُورِ أَرْضِ مِصْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تَيْئِسَ اثْنَا عَشَرَ قَوْسَخًا ؛ وَيُقَالُ شُعِبَتْ بِدِمِيَّاطَ مِنْ وَلَدِ أَشْمُنَ بْنِ مِصْرَامَ بْنِ يَصْرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَيُقَالُ إِنَّ إِدْرِيسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ذُو الْقُوَّةِ وَالْجَبَرُوتِ : أَنَا اللَّهُ مُدِينِ الْمَدَائِنِ ، فَالْتَفَلَكَ بِأَمْرِي وَصُنْعِي ، أَجْمَعَ بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ وَالتَّارِ وَالثَّلْجِ ، وَذَلِكَ بِقُدْرَتِي وَمَكُونِ عِلْمِي الدَّالِ وَالْمِيمِ وَالْأَلِفِ وَالطَّاءِ .

قِيلَ هُمْ بِالْعِزْبَانِيَّةِ دِمِيَّاطَ ، فَتَكُونُ دِمِيَّاطَ كَلِمَةً سُزْبَانِيَّةً أَصْلُهَا دَعَطَ : أَيِ الْقُدْرَةِ ، إِشَارَةً إِلَى مَجْمَعِ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ^٣ .

^١ انظر فيما يلي ١: ٣٨٣ .

^٢ دِمِيَّاطَ : مِنْ تَعُورِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ تَقَعُ عَلَى الشَّاطِئِ

الشرقي لفرع دِمِيَّاطَ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مَصْبِ هَذَا الْفَرْعِ فِي الْبَحْرِ الْخَاسِئِ ١٥ كِيلُومِتْرًا . وَكَانَتْ دِمِيَّاطُ الْأَصْلِيَّةُ وَالْقَعَةُ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ دِمِيَّاطِ الْحَالِيَّةِ وَتَقَلَّتْ إِلَى مَكَانِهَا الْحَالِي مِنْ سَنَةِ ٦٣٣ هـ (أَبُو عُبَيْدٍ الْهَكْرِي : جُغْرَافِيَّةُ مِصْرَ ٨٩-٩٠ مَجْهُولٌ : الْأَسْبِيحَارُ ٨٨ : يَاقُوتٌ : مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ -

^٣ ابْنُ أَيْلِيك : كُنْزُ الدَّرَرِ ٨: ٢٦٨-٢٦٩ ، الْقُرَيْشِيُّ : السُّلُوكُ ١: ٣٩١ ، وَيَرَى كَاتِرْمِيرُ أَنَّ الْمَدِينَةَ الَّتِي مَرَّ بِهَا هُوَلَاءُ الْمَمَالِيكُ هِيَ مَدِينَةُ الْبُتْرَاءِ (Quatremère, E., *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte*, I/1 p. 49, n. 71) .

وقال الأشعثُ إبراهيم بن وَصِيف شاه: دِيْمِيَاطُ بَلَدٌ قَدِيمٌ بُنِيَ فِي زَمَنٍ فَلْيُمُونُ بْنُ أَثَرِيبِ بْنِ قُطَيْمِ بْنِ مِصْرَايِمَ عَلَى اسْمِ غُلَامٍ لَهُ (٥) كَانَتْ أُمُّهُ سَاحِرَةً لِفَلْيُمُونِ (١).

وَلَمَّا قَبِمَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ، كَانَ عَلَى دِيْمِيَاطِ رَجُلٌ مِنْ أَهْوَالِ الْمُقْرِئِ يُقَالُ لَهُ الْهَامُوكُ؛ فَلَمَّا انْتَحَى عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِصْرَ، انْتَحَى الْهَامُوكُ بِدِيْمِيَاطِ وَاسْتَعَدَّ لِلْحَرْبِ، فَأَتَقَدَّ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَشْوَذِ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَحَارَبَهُمُ الْهَامُوكُ، وَقُتِلَ ابْنُهُ فِي الْحَرْبِ، فَعَادَ إِلَى دِيْمِيَاطِ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ فَاسْتَشَارَهُمْ فِي أَمْرِهِ.

وَكَانَ عِنْدَهُ حَكِيمٌ قَدْ حَضَرَ الشُّوْرَى، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ جَوْهَرَ الْعَقْلِ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَمَا اسْتَقْنَى بِهِ أَحَدٌ إِلَّا هَدَاهُ إِلَى سَبِيلِ الْقَوْزِ وَالتَّجَاعَةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَهَؤُلَاءِ / الْعَرَبُ مِنْ بَدَأَ أَمْرَهُمْ لَمْ تُرَدِّ لَهُمْ رَأْيُهُ، وَقَدْ قَتَمُوا الْبِلَادَ وَأَذَلُّوا الْجِبَادَ، وَمَا لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ قُدْرَةٌ، وَلَسْنَا بِأَشَدَّ مِنْ لُجُوشِ الشَّامِ وَلَا أَعَزَّ وَأَمْتَعُ، وَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ أُيِّدُوا بِالنُّصْرِ وَالْعُظْمَى، وَالرَّأْيُ أَنْ تَعْقِدَ مَعَ الْقَوْمِ صُلْحًا نَقَالَ بِهِ الْأَمْنُ وَخَفَ الدَّمَاءُ وَصِيَانَةُ الْحَرَمِ، فَمَا أَنْتَ بِأَكْثَرَ رِجَالًا مِنَ الْمُقْرِئِ.

فَلَمْ يَفْعَلْ الْهَامُوكُ بِقَوْلِهِ، وَغَضِبَ مِنْهُ فَقَتَلَهُ. وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَارِفٌ عَاقِلٌ، وَلَهُ دَارٌ مُلَاصِقَةٌ لِلشُّوْرِ، فَخَرَجَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي اللَّيْلِ وَذَلَّهُمْ عَلَى غُزْرَاتِ الْبَلَدِ، فَاسْتَوَلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا وَتَمَكَّنُوا مِنْهَا. وَبَرَزَ الْهَامُوكُ لِلْحَرْبِ، فَلَمْ يَشْفُرْ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَهُمْ يُكَبِّرُونَ عَلَى سُورِ الْبَلَدِ وَقَدْ مَلَكَوهُ، فَعِنْدَمَا رَأَى شَطَا بَنِي الْهَامُوكِ الْمُسْلِمِينَ فَوْقَ الشُّوْرِ، لَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ وَمَعَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَتَلَ ذَلِكَ فِي غَضَبٍ أَيْهِ وَأَسْتَأْمَنَ لِلْمِقْدَادِ، فَتَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ دِيْمِيَاطَ، وَاسْتَخْلَفَ الْمُقْدَادُ عَلَيْهَا، وَسِيرَ بِخَبَرِ الْفَتْحِ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ.

وَخَرَجَ شَطَا - وَقَدْ أَسْلَمَ - إِلَى الْبُرُوسِ وَالدُّمَيْرَةِ وَأَشْمُومِ طَنَاحَ، فَحَشَدَ أَهْلَ تِلْكَ النُّوَاحِي وَقَدَّمَ بِهِمْ مَدَدًا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَوَّنَا لَهُمْ عَلَى عُدُوِّهِمْ. وَسَارَ بِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِفَتْحِ يَثْرَيسَ، فَهَبَزَ

(٥) إضافة من النويري.

Maspero & Wiet, *Matériaux* pp. 92-93; Holt, P. ٢٠٧-٢٠٨ = ١٤٧٢:٢-١٤٧٠:٢ الحُميري: الروض المطار ٢٠٧-٢٠٨ = ١٤٧٢:٢-١٤٧٠:٢ ابن بطوطة: الرحلة ٢٣:١-٢٤:١ ابن فضل الله العمري: مسائل الأبهار (ممالك مصر والشام) ٩٣-٩٤ = ١٤٥٠:١ ابن دقماق: الانتصار ٨٠:٥-٨١:٢ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٢٤٠٢ وعلي مبارك: الحطوط التوفيقية ١١:٣٦-١٢:١٨ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١٨:١/٢

١ النويري: نهاية الأرب ١٥:٧٨.

لأنهم قاتلوا شديداً حتى قُتلَ رحمه الله في المعركة شهيداً، بعد ما أُنكس فيهم وقُتل منهم، فحُجِّلَ من المعركة ودُفِنَ في مكانه المعروف به خارج دِمياط. وكان قُتلُه في ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة مؤسفاً يجتمع الناس فيها من التواحي عند شطأ ويخيونها، وهم على ذلك إلى اليوم.

وما زالت دِمياط بيد المسلمين إلى أن نزلَ عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة فَأَسْرَوْا خالداً ابن كيسان - وكان على البحر هناك - وسَيَّرُوهُ إلى ملك الروم، فَأَنْفَذَهُ إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم.

فلما كانت جَلَاةً بِشَام بن عبد الملك نازل الروم دِمياط في ثلاث مائة وستين مركباً، فَقَتَلُوا وسَبُّوا، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة.

ولما كانت الفِثَّة بين الأخوان محمد الأمين وعبد الله المأمون، وكانت الفِتْنَةُ بأرض مصر، طَمَعَ الروم في البلاد، ونازلوا دِمياط في أغوام بضع ومائتين.

ثم لما كانت جَلَاةً أمير المؤمنين الْمُتَوَكِّل على الله، وأمير مصر يومعذ غنبة بن إश्حاق، نَزَلَ الروم دِمياط يوم عَرَفَةَ من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فمَلَكُوهَا وما فيها، وَقَتَلُوا بها جَمْعاً كثيراً من المسلمين، وسَبُّوا النساء والأطفال وأهل الذمة. فَتَقَرَّ إليهم غنبة بن إश्حاق يوم الثَّخَر في بجيشه، وَنَفَرَ كثيرٌ من الناس إليهم فلم يُذَرِّكُوهم^١. وَمَضَى الروم إلى تَيْس فأقاموا بأشْشُومِها، فلم يتبعهم غنبة، فقال يَحْيَى بن الفَضْل لِلْمُتَوَكِّل^٢:

[العلول]

أَتَوْضَى بِأَنْ يُوطَا حَرِيْمُكَ عَنُوةً	وَأَنْ يُسْتَبَاحَ الْمُسْلِمُونَ وَيُخْرَبُوا
جِمَارٌ أَتَى دِمِيَاظَ وَالرُّومَ وَتُبَ	بِتَيْسٍ مِنْهُ رَأْيُ الْعَيْنِ وَأَقْرَبَ
مُقِيمُونَ بِالْأَشْتُومِ يَتَّقُونَ مِثْلَ مَا	أَصَابُوهُ مِنْ دِمِيَاظَ وَالْخَرْبِ تُرْتَبُ
فَمَا رَامَ مِنْ دِمِيَاظٍ شَيْئاً وَلَا دَرَى	مَنْ الْعَجْزُ مَا يَأْتِي وَمَا يَسْتَحِبُّ

٢٠

Kubiak, W. B., «The Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9th century», *Byzantion* XL (1970), pp. 45-66

وانظر كذلك أحمد مختار المهادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ٤٦١-٤٩.

^٢ انظر الأبيات في معجم البلدان ٢: ٤٧٣.

^١ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ٢: ٢٩٢، ٢٩٤.

Levi Della - Vida, G., «A papyrus reference to the Damietta raid of 853 A.D.», *Byzantion* XVII (1944-45), pp. 212-21; Rémondon, R., «A propos de la menace byzantine sur Damiette sous le règne de Michel III», *Byzantion* XXIII (1953), pp. 254-60;

فَلَا تَسْأَلْنَا إِنَّا بَدَارِ مَضِيَّةٍ بِمَصْرَ، وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ كَادَ يَذْهَبُ
فَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِنَاءَ حِصْنِ دِمَاطَ، فَأَبْدَى فِي بِنَائِهِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لثَلَاثَ خَلُونٍ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ
سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ^١، وَأَنْشَأَ مِنْ حَيْثُ الْأَسْطُولِ بِمَصْرَ.

فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ^٢ طَرَقَ الزُّوْمُ دِمَاطَ فِي نَحْوِ مِائَتِي مَرْكَبٍ، فَأَقَامُوا يَعْشُونَ فِي
السَّوَاجِلِ شَهْرًا وَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ مَعَارِكُ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْفَيْتَنُ بَعْدَ مَوْتِ كَافُورِ الْإِخْشِيدِي، طَرَقَ الزُّوْمُ دِمَاطَ لِعَشْرِ خَلُونٍ مِنْ رَجَبِ
سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ فِي بَضْعِ وَعِشْرِينَ مَرْكَبًا، فَقَتَلُوا وَأَسْرَوْا مِائَةً وَخَمْسِينَ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، ظَهَرَ بِدِمَاطَ سَمَكَةٌ عَظِيمَةٌ طَوَّلَهَا مِائَتَانِ وَسِتُونَ ذِرَاعًا، وَعَرَضَهَا
مِائَةُ ذِرَاعٍ. وَكَانَتْ حَمِيرُ الْمِلْحِ تَدْخُلُ فِي جَوْفِهَا مَوْسُوقَةً فَتَفْرُغُ وَتَخْرُجُ، وَوَقَفَ خَمْسَةُ رِجَالٍ
فِي قَعْفِهَا وَمَعَهُمُ الْجَارِيْفُ يَجْرِفُونَ الشَّحْمَ وَيُنَاوِلُونَهُ النَّاسَ، وَأَقَامَ أَهْلُ تِلْكَ التَّوَاخِي مَدَّةَ طَوِيلَةٍ
يَأْكُلُونَ مِنْ لَحْيِهَا.

وَفِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْفَائِزِ بَنَصْرَ اللَّهِ عَيْسَى، وَالْوَزِيرِ حَيْثُ الصَّالِحِ طَلَّاحِ بْنِ زُرَّيْكَ، نَزَلَ عَلَى
دِمَاطَ نَحْوُ سِتِينَ مَرْكَبًا فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ بَقِيَ بِهَا جِيَوْمُ بْنُ
رُجَارٍ صَاحِبِ^٣ صَيْغِيَّةٍ^٤، فَعَاثُوا وَقَتَلُوا، وَنَزَلُوا يَتَيْسَ وَرَشِيدَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةَ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا
الْفَسَادَ.

ثُمَّ كَانَتْ خِلَافَةُ الْعَاضِدِ لَدِينِ اللَّهِ فِي وَزَارَةِ شَاوَرِ بْنِ مُجِيرِ الشُّعْدِي - الْوَزَارَةُ الثَّانِيَّةُ - عِنْدَمَا
حَضَرَ مَلِكَ الْفِرَنْجِ مُؤَي [Amaury] إِلَى الْقَاهِرَةِ وَحَضَرَهَا، وَقَرَّرَ عَلَى أَهْلِهَا الْمَالَ، وَاحْتَرَقَتْ
مَدِينَةُ الْفُسْطَاطِ، فَتَزَلَّ عَلَى يَتَيْسَ وَأَشْمُومَ وَمُثْنِيَّةَ غَمِيرَ، وَصَاحِبِ أَسْطُولِ الْفِرَنْجِ فِي عِشْرِينَ
شُؤْنَةً، فَقَتَلَ وَأَسْرَ وَسَبَى.

(a) بولاق : سبع . (b) بولاق : لوجيز بن رجا وصاحب ، الأصل : بوجير والمثبت من المصادر .

^١ الكندي : ولاية مصر ٢٢٧ ، وقارن النجوم الزاهرة ١١٥٣ ، وحتى ١١٦٦/٥٦١ هـ هو جيوم الأول بن رجار

.Guillaume fils de Roger

٢٩٤ : ٢ .

^٢ كان ملك صقلية في ذلك الوقت من ١٠٤٨/٥٤٨

وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد، وَصَلَ الْفِرْنَجُ إِلَى دِمْيَاط فِي
شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسة مائة، وهم فيما يُزِيد على ألف ومائتي / مَرَكِب .
فَخَرَجَتِ الْعَسَاكِرُ مِنَ الْقَاهِرَةِ، وَقَدْ بَلَغَتِ التُّفُقَةُ عَلَيْهِمْ زِبَادَةً عَلَى خَمْسِ مِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ
أَلْفٍ دِينَار. فَأَقَامَتِ الْحَرْبُ مُدَّةَ خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَكَانَتْ صَفِيَّةً شَدِيدَةً. أَتَاهُمْ فِي هَذِهِ
النُّزْبَةِ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ بَنِي الْمَصْرِيِّينَ بِمِائَةِ الْفِرْنَجِ وَمُكَاتِبَتِهِمْ، وَقَبَضَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ
وَقَتَّلَهُمْ .

وكان سَبَبُ هَذِهِ النُّزْبَةِ أَنَّ الْفَرَنْجِيَّ قَدِمُوا إِلَى مِصْرَ مِنَ الشَّامِ صُحْبَةً أَشَدَّ الدِّينِ شِدْرَكَوهُ، تَحَوَّلَ
الْفِرْنَجُ لَغْزَوْ دِيَارِ مِصْرَ خَشِيَةً مِنْ تَمَكُّنِ الْفَرَنْجِيَّ بِهَا، فَاسْتَمَدُّوا إِخْوَانَهُمْ أَهْلَ صِغَالِيَّةٍ فَأَمْتَدُّوهُمْ بِالْأَمْوَالِ
وَالسَّلَاحِ، وَتَهَيَّأُوا إِلَيْهِمْ بَعْدَةً وَإِفْرَةً. فَسَارُوا بِالدُّبَابَاتِ وَالْجُنَاحِيْقِ، وَنَزَلُوا عَلَى دِمْيَاطَ فِي صَفَرٍ -
وهم فِي الْعِدَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا مِنَ الْمَرَائِبِ - وَأَحَاطُوا بِهَا بِحَرًّا وَبَرًّا. فَبَقِيَ السُّلْطَانُ بِأَبْنِ أَخِيهِ تَقِيَّ
الدِّينِ عَمْرُو، وَأَتْبَعَهُ بِالْأَمِيرِ شِهَابِ الدِّينِ الْخَازِمِيِّ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى دِمْيَاطَ، وَأَمْتَدَّهُمَا بِالْأَمْوَالِ
وَالْمِيزَةِ وَالسَّلَاحِ. وَاسْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى أَهْلِ دِمْيَاطَ وَهُمْ ثَابِتُونَ عَلَى مُحَازَرَةِ الْفِرْنَجِ .

فَسَيَّرَ صَلاَحُ الدِّينِ إِلَى نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ بْنِ رَنْكِي صَاحِبِ الشَّامِ يَسْتَنْجِدُهُ، وَيُغْلِمُهُ بِأَنَّهُ لَا
يُمَكِّنُهُ الْخُرُوجُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى لِقَاءِ الْفِرْنَجِ خَوْفًا مِنْ قِيَامِ الْمَصْرِيِّينَ عَلَيْهِ. فَجَهَّزَ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرَ شَيْئًا بَعْدَ
شَيْءٍ، وَخَرَجَ نُورُ الدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ بِنَفْسِهِ إِلَى بِلَادِ الْفِرْنَجِ الَّتِي بِالسَّاحِلِ وَأَغَارَ عَلَيْهَا
وَاسْتَبَاحَهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ الْفِرْنَجُ وَهُمْ عَلَى دِمْيَاطَ، فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ مِنْ نُورِ الدِّينِ أَنْ يَتَمَكَّنَ
مِنْهَا، فَرَحَلُوا عَنْ دِمْيَاطَ فِي الْخَامِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، بَعْدَ مَا غَرِقَ لَهُمْ نَحْوُ الثَّلَاثِ
مِائَةِ مَرَكِبٍ، وَقَتَّلَ رِجَالُهُمْ بَقَاءً وَقَعَ فِيهِمْ، وَأَخْرَقُوا مَا ثَقُلَ عَلَيْهِمْ حَمْلُهُ مِنَ الْمُنْجَنِيَقَاتِ
وغيرها^١.

وكان صَلاَحُ الدِّينِ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ مِنَ الْعَاضِدِ أَرْسَلَ إِلَيَّ مُدَّةَ مَقَامِ الْفِرْنَجِ عَلَى دِمْيَاطَ
أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ، سِوَى مَا أَرْسَلَهُ إِلَيَّ مِنَ الثِّيَابِ وَغَيْرِهَا .

وفي سنة سبع وسبعين وخمسة مائة، رُجِّتِ الْمُقَاتِلَةُ عَلَى الْبُرُوجِيِّينَ، وَشُدَّتْ مَرَائِبُ إِلَى
السُّلَيْسَةِ لِلْمُقَاتِلِ عَلَيْهَا وَيُدَافِعُ عَنِ الدُّخُولِ مِنْ بَيْنِ الْبُرُوجِيِّينَ، وَزَمَّ شَعَثَ شُورِ الْمَدِينَةِ وَشُدَّتْ ثُلُمُهُ،

^١ راجع، ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٤٣-١٤٤، ١٧٩: ١٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ ٨٢: ١/٤-٨٧؛
الكامل ٣٥١: ٣٥٢-٣٥٣، ابن خلكان: وفیات ٧: ١٥٢؛ المقريزي: امعاظ الحنفا ٣١٥: ٣١٦-٣١٧؛ أمين غزاد: الدولة
أبا شامة: الروضتين ١: ٤٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب ٣٠٢-٣٠٣.

وَأَتَقِنَتِ السِّلْسِلَةَ الَّتِي بَيْنَ الْبُرْجَيْنِ ، فَتَلَعَتْ الثَّقَّةَ عَلَى ذَلِكَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ . وَاعْتَبِرَ الشُّورُ ، فَكَانَ قِيَاسُهُ أَرْبَعَةَ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا^١ .

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ ، أَمَرَ السُّلْطَانُ بِقَطْعِ أَشْجَارِ بَسَاتِينِ دِمِشَاقَ وَحِجْرٍ خَلْفَهَا ، وَعَمَلَ جِسْرًا عِنْدَ سِلْسِلَةِ الْبُرْجِ^٢ .

- وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ ، كَانَتْ رَاقِعَةُ دِمِشَاقَ الْعُظْمَى^٣ ، وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْوَارِقَةِ أَنَّ الْفَرَنْجَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ تَنَاهَتْ أُمْدَادُهُمْ مِنْ زُومِيَةِ الْكِبْرَى مَقَرَّ الْبَابَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ . وَسَارُوا إِلَى مَدِينَةِ عَمَّا فَاجْتَمَعَ بِهَا عِدَّةٌ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ ، وَتَعَاقَدُوا عَلَى قَصْدِ الْقُدْسِ وَأَخْذِهِ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَصَارُوا بِقَا فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ . وَتَلَعَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَبَا بَكْرَ بْنِ الْغُبَّ ، فَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى الرُّمَّةِ ، فَبَرَزَ الْفَرَنْجُ مِنْ عَمَّا فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ ؛ فَسَارَ الْعَادِلُ إِلَى بَيْسَانَ ، فَقَصَصَهُ الْفَرَنْجُ فَخَافَهُمْ لَكُنْزَتِهِمْ وَقِلَّةَ عَشِكَرِهِ ، فَأَخَذَ عَلَى عَقَبَةٍ فَبَقِيَ يُرِيدُ دِمَشْقَ .

- وَكَانَ أَهْلُ بَيْسَانَ وَمَا حَوْلَهَا قَدْ اطْمَأَنَّنُوا لِنُزُولِ السُّلْطَانِ هُنَاكَ ، فَأَقَامُوا فِي أَمَاكِيهِمْ . وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَارَ السُّلْطَانُ ، وَإِذَا بِالْفَرَنْجِ قَدْ وَصَّعُوا الشَّيْفَ فِي النَّاسِ ، وَنَهَبُوا الْبِلَادَ ، فَحَارَوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَأَخَذُوا بَيْسَانَ وَبَانِيَّاسَ وَسَائِرَ الْقُرَى الَّتِي هُنَاكَ وَأَقَامُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَرْجٍ عَمَّا بِالْقَنَائِمِ وَالْعَبْثِ ، وَهَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ . فَاسْتَرَحَ الْفَرَنْجُ بِالْمَرْجِ أَيَّامًا ، ثُمَّ عَادُوا ثَانِيًا وَنَهَبُوا صَبِيحًا وَالشَّيْفَ ، وَعَادُوا إِلَى مَرْجٍ عَمَّا فَأَقَامُوا بِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ لِيَمَّا بَيْنَ النُّصَفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَعِيدِ الْفِطْرِ ، وَالْمَلِكُ الْعَادِلُ مُقِيمٌ بِمَرْجٍ الصُّفَرِ ، وَقَدْ سَيَّرَ ابْنَهُ الْمُعْظَمَ عَيْسَى بِعَشِكَرٍ إِلَى نَابُلُسَ لِمَنَعَ الْفَرَنْجَ مِنْ طُرُوقِهَا وَالْوُضُولِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ .

- فَنَازَلَ الْفَرَنْجُ قَلْعَةَ الطُّورِ سَبْعَةَ عَشْرِ يَوْمًا ثُمَّ عَادُوا إِلَى عَمَّا ؛ وَعَزَّمُوا عَلَى قَصْدِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَةِ فَرَكِبُوا بِجُمُوعِهِمُ الْبَحْرَ ، وَسَارُوا إِلَى دِمِشَاقَ فِي صَفَرٍ فَتَرَّلُوا عَلَيْهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ - الْمَوَافِقَ لِثَلَاثِينَ حُزْنِيَانٍ - وَهُمْ نَحْوُ السَّبْعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ وَأَرْبَعٍ مِائَةِ أَلْفٍ رَاجِلٍ ، فَحَيَّوْهُمَا تَحِيَّاهُ دِمِشَاقَ فِي الْهَرِّ الْغَزَبِيِّ ، وَحَفَرُوا عَلَى عَشِكَرِهِمْ خَنْدَقًا ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ شُورًا ؛

^١ المقيزي: السلوك ١: ٧٤ . وانظر كذلك ابن الأثير: الكامل ١٢: ٣٢٣-٣٣١

^٢ نفسه ١: ١١١ . النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٨٧-٩٣ ، ٩٤-٩٥

^٣ ينقل المقيزي خبر واقعة دِمِشَاقَ الْعُظْمَى عَنْ ابْنِ

واصل: مفرج الكرب ٣: ٢٥٤-٢٦١ ، ٤: ١٥-١٦٠ ، ٢٠٥-٢١٠ .

وشرعوا في قتال بُرج دُمياط، فإنه كان بُرجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ مُمدَّ على الثيل لتتفتح المراكب الواصلة في البحر المِلح من الدُخول إلى ديار مصر في الثيل. وذلك أنَّ الثيل إذا انتهى إلى قُسطاط مصر مرَّ عليه في ناحية الشمال إلى شَطْنُوف، فإذا صار إلى شَطْنُوف انقسم قِسْمَيْن: أحدهما يُمُرُّ في الشمال إلى رَشيد فيصب في البحر المِلح، والشطر الآخر يُمُرُّ من شَطْنُوف إلى بجوَجْر، ثم يتفرق من عند بجوَجْر فُوقَتَيْن: فُوقَة تمرُّ إلى أَشْمُوم فتصب في بُحيرة يَثِيس، وفُوقَة تمرُّ من بجوَجْر إلى دُمياط فتصب في البحر المِلح هناك. وتُصيرُ هذه الفُوقَة من الثيل فاصلة بين مَدِينَة دُمياط والْبَرِّ الغربي^١.

وهذا البرُّ الغربي من دُمياط يُعرَف بِجَزِيرَة دُمياط، يُحيط بها ماءُ الثيل والبحر المِلح. وفي مُدَّة إقامَة الفِرْنَج بهذا البرِّ الغربي، عملوا الآلات والمِرْمَات^٢، وأقاموا أهرجاء يُزْحَقُون بها / في المراكب إلى بُرج السِّلْسِلَة لِيُثْلِكُوهُ، فإنهم إذا مَلَكُوهُ تَمَكَّنُوا من العبور في الثيل إلى القَاهِرَة ومِصر. وكان هذا البُرج مَشْحُونًا بِالْمُقَاتِلَة، فَتَحِيلَ الفِرْنَج عليه، وعَمِلُوا بُرْجًا من الصَّوَارِي على بَشْطَة كَبِيرَة، وأَقْلَعُوا بها حتى أَشْنَدُوا إِلَيْهِ وَقَاتَلُوا مَنْ بِهِ حَتَّى أَخَذُوهُ.

فَبَلَغَ نُزُولُ الفِرْنَج على دُمياط الْمَلِكَ الْكَامِلَ - وكان يُخَلِّفُ أَبَاهُ الْمَلِكَ الْعَادِلَ على دِيَارِ مِصر - فَخَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ فِي ثَلَاثِ يَوْمٍ مِنْ وَقُوعِ الطَّائِرِ بِخَبَرِ نُزُولِ الفِرْنَجِ لِحَمْسِ خَلَوْنَ مِنْهُ، وَأَمَرَ وَالِي الْقَرْيَةِ بِجَمْعِ الْعُزْبَانِ، وَسَارَ فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ.

وَخَرَجَ الْأَسْطُولُ فَأَقَامَ تَحْتَ دُمياط، وَنَزَلَ السُّلْطَانُ مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ بِمَنْزِلَةِ الْعَادِلِيَّةِ^٣ قُرْبَ دُمياط، وَامْتَدَّتْ عَسَاكِرُهُ إِلَى دُمياط لِتُفْتَحَ الفِرْنَجُ مِنَ الشُّورِ، وَالْقِتَالُ مُسْتَمِرٌّ وَالْبُرْجُ مُتَنَبِّعٌ مُدَّةَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. وَالْعَادِلُ يُسَيِّرُ الْعَسَاكِرَ مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ شَيْقًا بَعْدَ شَيْءٍ، حَتَّى تَكَاثَلَتْ عِنْدَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ.

(٥) بولاق: والمراسي والمثبت من النسخ ومفرج الكروب.

^١ انظر فيما تقدم ١٦٦ الحديث عن تحول الدلتا المصرية، وأن شطنوف كانت في هذا الزمان هي رأس الدلتا. (المقريزي: السلوك ١: ١٨٩، ١٣٤٨ ابن واصل: مفرج الكروب ٣: ٢٦٠ هامش ٩١ درويش النخيلي: السفن الإسلامية ١٤٠-١٤١).

^٢ قِرْمَة ج. قَرَمَات: نوع من السفن الحربية الكبيرة يظهر أنها من أصل إيطالي Maremma وهي اسم ناحية في إيطاليا، تردَّد ذكرها في المصادر التاريخية لهذه الفترة

^٣ العادلية من القرى القديمة أسسها الملك العادل أبو بكر ابن أيوب سنة ٦١٤ ليتخذها قاعدة يواجه منها الفرنج =

واقْتَمَّ الْمَلِكُ لِنَزُولِ الْفِرْنَجِ عَلَى دِيْمَاطٍ وَاشْتَدَّ خَوْفُهُ ، فَرَحَلَ مِنْ مَرْجِ الصَّقَرِ إِلَى غَالِقِينَ ، فَتَزَلَّ بِهِ الْمَرْضُ وَمَاتَ فِي سَابِعِ جُمَادَى الْآخِرَةِ . فَكَتَمَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ عَيْسَى مَوْتَهُ ، وَحَمَلَهُ فِي مَحْفَةِ وَجَحَلْ عِنْدَهُ خَادِمًا وَطَبِيبًا رَاكِبًا إِلَى جَانِبِ الْحَقَّةِ ، وَالشَّرَابِ دَارَ يُصْلِحُ الشَّرَابَ وَيَحْمِلُهُ إِلَى الْحَادِمِ فَيَشْرِبُهُ ، وَيُوْهِمُ النَّاسَ أَنَّ السُّلْطَانَ شَرِبَهُ ، إِلَى أَنْ دَخَلُوا بِهِ إِلَى قَلْعَةِ دِمَشْقَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهَا الْخَزَائِنُ وَالْيَبُوتَاتُ ، فَأُغْلِنَ بِمَوْتِهِ وَتَسَلَّمَ ابْنُهُ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُ ، وَدَفَنَهُ بِالْقَلْعَةِ ، ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى مَدْرَسَةِ الْعَادِلِيَةِ بِدِمَشْقَ .

وَبَلَغَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مَوْتَ أَبِيهِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْعَادِلِيَةِ قُرْبَ دِيْمَاطٍ ، فَاسْتَقْبَلَ بِمَمْلَكَةِ دِيَارِ مِصْرَ . وَاشْتَدَّ الْفِرْنَجُ وَأَخْوَا فِي الْقِتَالِ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى بُرْجِ السُّلَيْبَةِ ، وَقَطَعُوا السُّلَيْبَ الْمُتَّصِلَةَ بِهِ لَتَجُوزَ مَرَاكِبُهُمْ فِي بَحْرِ النَّيْلِ وَيَسْتَكُونُوا مِنَ الْبِلَادِ . فَتَصَبَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ بِدَلِّ السُّلَيْبِ جَسْرًا عَظِيمًا لَمْنَعِ الْفِرْنَجِ مِنْ غُبُورِ النَّيْلِ ، فَقَاتَلَتِ الْفِرْنَجُ عَلَيْهِ قِتَالًا شَدِيدًا إِلَى أَنْ قَطَعُوهُ ، وَكَانَ قَدْ أَنْفَقَ عَلَى الْبُرْجِ وَالْجِسْرِ مَا يَنْفِي عَلَى سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَكَانَ الْكَامِلُ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِدَّةَ مِرَارٍ مِنَ الْعَادِلِيَةِ إِلَى دِيْمَاطٍ لِتَذْيِيرِ الْأُمُورِ ، وَاعْمَالِ الْحِيلَةِ فِي مُكَايَدَةِ الْفِرْنَجِ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ أَنْ يُفَرَّقَ عِدَّةٌ مِنَ الْمَرَاكِبِ فِي النَّيْلِ حَتَّى تَمْنَعَ الْفِرْنَجَ مِنْ شُلُوكِ النَّيْلِ . فَعَمِدَ الْفِرْنَجُ إِلَى تَحْلِيحِ هُنَاكَ يُعْرِفُ بِالْأَزْرَقِ ، كَانَ النَّيْلُ يَجْرِي فِيهِ قَدِيمًا ، فَحَفَرُوهُ وَعَمَّقُوا حَفْرَهُ وَأَجْرَوْا فِيهِ الْمَاءَ إِلَى الْبَحْرِ الْمِلْحِ ، وَأَضْعَدُوا مَرَاكِبَهُمْ فِيهِ إِلَى بُورَةِ عَلَى أَرْضِ جَبِيْزَةِ دِيْمَاطٍ ، مُقَابِلَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بِهَا السُّلْطَانُ لِيَقَاتِلُوهُ مِنْ هُنَاكَ . فَلَمَّا صَارُوا فِي بُورَةِ جَاعَوْهُ وَقَاتَلُوهُ فِي الْمَاءِ ، وَزَحَفُوا إِلَيْهِ عِدَّةَ مِرَارٍ فَلَمْ يَنْظُرُوا مِنْهُ بَطَائِلَ .

وَلَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَى أَهْلِ دِيْمَاطٍ شَيْءٌ ، لِأَنَّ الْمِهْرَةَ وَالْأَمْدَادَ مُتَّصِلَةً إِلَيْهِمْ ، وَالنَّيْلُ يَخْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرْنَجِ ، وَأَبْوَابُ الْمَدِينَةِ مُفْتَتِحَةٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا مِنَ الْخَضَرِ ضَيْقٌ وَلَا ضَرَرٌ ، وَالْعُرْبَانُ تَخْطُفُ الْفِرْنَجَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بِحَيْثُ امْتَنَقُوا الرِّقَادَ^(١) خَوْفًا مِنْ غَارَاتِهِمْ ، فَلَمَّا قَوِيَ طَمَعُ الْعَرَبِ فِي الْفِرْنَجِ حَتَّى صَارُوا يَخْطِفُونَهُمْ نَهَارًا ، وَيَأْخُذُونَ الْحَيِّمَ مِنْ فِيهَا ، أَكْثَمَ الْفِرْنَجُ لَهُمْ عِدَّةَ كَمْنَاءٍ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ

(١) بُولَاقُ : مِنْ الرِّقَادِ .

خَلَقًا كَثِيرًا . وَأَذْرَكَ النَّاسَ الشُّتَاءَ ، وَهَاجَ الْبَحْرُ عَلَى مُخَيِّمِ الْمُسْلِمِينَ وَغَرَفَهُمْ ، فَتَعَظَّمَ الْبَلَاءُ وَتَزَادَ الْعَمُ . وَأَلْعَ الْفِرْنَجُ فِي الْقِتَالِ ، وَكَادُوا أَنْ يَمْلِكُوا ، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا قَطَعَتْ مَرَاسِي مَرِيَّةِ الْفِرْنَجِ - وَكَانَتْ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا - فَعُرِثَ إِلَى بَرِّ الْمُسْلِمِينَ فَأَخَذُوهَا ، فَإِذَا هِيَ مُصَفَّحَةٌ بِالْحَدِيدِ لَا تَقْتُلُ فِيهَا النَّارَ ، وَمَسَاحَتُهَا خَمْسُ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، فَكَسَرُوهَا فَإِذَا فِيهَا مَسَامِيرُ زِنَةِ الْوَاحِدِ مِنْهَا خَمْسَةُ وَعِشْرُونَ رَطْلًا .

• وَبَعَثَ الْكَامِلُ إِلَى الْآفَاقِ سَبْعِينَ رَسُولًا ، يَسْتَنْجِدُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَخَوِّفُهُمْ مِنْ غَلَبَةِ الْفِرْنَجِ عَلَى مِصْرَ . فَسَازُوا فِي شَوَّالٍ ، وَأَتَتْهُ النُّجُودَاتُ مِنْ حِمَاةٍ وَحَلَبَ .

وَبَيَّنَا النَّاسَ فِي ذَلِكَ ، إِذْ طَمِعَ الْأَمِيرُ عِمَادُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي الْحُسَيْنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ الْهَكَارِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْمَشْطُوبِ فِي الْمَلِكِ الْكَامِلِ عِنْدَمَا بَلَغَهُ مَوْتُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ .

وَكَانَ لَهُ لَقَبُفٌ يَنْقَادُونَ إِلَيْهِ وَيُطِيعُونَهُ ، وَكَانَ أَمِيرًا كَبِيرًا مُقَدِّمًا عَظِيمًا فِي الْأَشْرَادِ الْهَكَارِيَّةِ ، وَافِزَ الْحُرْمَةِ عِنْدَ الْمُلُوكِ ، مَقْدُودًا بَيْنَهُمْ مِثْلَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَالِي الْهَيْمَةِ ، غَزِيرَ الْجُودِ ،

وَاسِعَ الْكَرَمِ ، شُجَاعًا ، أَيْمَنَ النَّفْسِ ، تَهَابَهُ الْمُلُوكُ ، وَلَهُ الْوَقَائِعُ الْمَشْهُورَةُ . وَهُوَ مِنْ أَتْرَاءِ الدَّوْلَةِ الصَّلَاحِيَّةِ يُوسُفُ^(١) . فَاتَّفَقَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُنْدِ وَالْأَشْرَادِ عَلَى خَلْعِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَإِقَامَةِ أَخِيهِ

الْمَلِكِ الْفَائِزِ إِبْرَاهِيمَ لِيَصِيرَ لَهُ الْحُكْمُ . وَوَافَقَهُ الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ الْحَمِيدِيُّ ، وَالْأَمِيرُ أَسَدُ الدِّينِ الْهَكَارِيُّ ، وَالْأَمِيرُ مُجَاهِدُ الدِّينِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَتْرَاءِ .

١٥ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ وَالْمُضْخَفُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُخْلِفُوا لِلْفَائِزِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ انْقَضُوا ، فَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَخَرَجَ^(٢) .

فَاتَّفَقَ وَصُولُ الصَّاحِبِ صَفِيِّ الدِّينِ بْنِ شُكْرٍ مِنْ أَيْدٍ إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ - فَإِنَّهُ كَانَ اسْتَدْعَاهُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ - فَتَلَقَّاهُ وَأَكْرَمَهُ وَذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ فِيهِ ، فَضَمِنَ لَهُ تَحْصِيلَ الْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ

رَكِبَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ وَتَوَجَّهَ مِنَ الْعَادِلِيَّةِ فِي جَرِيدَةٍ إِلَى أَشْمُومِ طَنَاحٍ ، فَتَزَلَّهَا . وَأَصْبَحَ الْعَشُكْرُ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ، فَزَكِبَ كُلُّ مِنْهُمْ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَقْطَعْ الْأَخُّ عَلَى أَخِيهِ ، وَتَرَكُوا أَتْقَالَهُمْ / وَبِخِيَاتِهِمْ

٢٠ وَأَمْرَاهُمْ وَأَسْلَخَتْهُمْ ، وَلَحِقُوا بِالسُّلْطَانِ . فَبَادَرَ الْفِرْنَجُ فِي الصُّبْحِ إِلَى مَدِينَةِ دِشْبَاطٍ ، وَتَزَلُّوا الْبُرَّ الشَّرْقِيِّ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ سَادِسَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ بِغَيْرِ مُنَازَعٍ وَلَا مُدِافِعٍ ، وَأَخَذُوا سَائِرَ مَا كَانَ فِي

عَشْكَرِ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ شَيْقًا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ . وَدَاخَلَ السُّلْطَانُ وَهُمْ عَظِيمٌ ، وَكَادَ أَنْ يُفَارِقَ الْبِلَادَ ، فَإِنَّهُ تَحَيَّلَ مِنْ جَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ .

(a) بولاق : دولة صلاح الدين يوسف . (b) بولاق : فخرج .

واشتدَّ طَمَعُ الْإِفْرِجِ^(أ) فِي أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا ، وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ مَلَكَوْهَا ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى
أَعْيُنُ الْمُسْلِمِينَ وَثَبَّتَ السُّلْطَانُ . وَوَفَاهُ أَخُوهُ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ بِأَشْمُومٍ طَنَاحٍ فَاشْتَدَّ بِهِ أَرْزُهُ وَقَوِيَ
جَأَشُهُ ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ ابْنِ الْمَشْطُوبِ ، فَوَعَدَهُ بِإِزَاحَةِ مَا يَكْرَهُ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُعْظَمَ رَكِبَ إِلَى خَيْمَةِ ابْنِ الْمَشْطُوبِ وَاسْتَدْعَاهُ لِلرُّكُوبِ مَعَهُ وَمُسَائِرَتِهِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ
حَتَّى يَلْبَسَ خُفَّهُ وَثِيَابَ الرُّكُوبِ فَلَمْ يُجِئْهُ وَأَعْجَلَهُ . فَرَكِبَ مَعَهُ وَسَائِرَهُ حَتَّى خَرَجَ بِهِ مِنْ
الْعَشْكَرِ الْكَامِلِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا عِمَادَ الدِّينِ ، هَذِهِ الْبِلَادُ لَكَ ، وَأَشْتَهِي أَنْ تَهْبِئَهَا لَنَا . وَأَعْطَاهُ
نَقْفَةً ، وَسَلَّمَهُ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَّقِي بِهِمْ ، وَقَالَ لَهُمْ : أَخْرِجُوهُ مِنَ الرُّمْلِ ، وَلَا تُفَارِقُوهُ حَتَّى
يَخْرُجَ إِلَى^(ب) الشَّامِ . فَلَمْ يَسْعَ ابْنُ الْمَشْطُوبِ إِلَّا ابْتِهَالًا مَا قَالَ الْمُعْظَمُ ، لِأَنَّهُ مَعَهُ بِمَقْرَدَةٍ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ
عَلَى الْمُنَاقَعَةِ . فَسَارُوا بِهِ إِلَى حِمَاةٍ ، ثُمَّ مَضَى مِنْهَا إِلَى الشَّرْقِ^(ج) .

وَلَمَّا شَفِيَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ ابْنَ الْمَشْطُوبِ ، رَجَعَ إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَأَمَرَ أَخَاهُ الْفَائِزَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ
يَسِيرَ إِلَى مُلُوكِ الشَّامِ فِي رِسَالَةٍ عَنْ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ لَاسْتِدْعَائِهِمْ إِلَى قِتَالِ الْفِرْجِ . فَمَضَى إِلَى
دِمَشْقَ ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى حِمَاةٍ فَمَاتَ بِهَا مَسْنُومًا عَلَى مَا قِيلَ ، فَثَبَّتَ لِلْمَلِكِ الْكَامِلِ أَمْرُ الْمَلِكِ ،
وَسَكَنَ زَوْجُهُ هَذَا وَالْإِفْرِجُ^(أ) قَدْ أَحَاطُوا بِدِمَياط بَرًّا وَبَحْرًا ، وَأَخَذُوا وَضَبُّوا عَلَى أَهْلِهَا ، وَمَتَعُوا
الْقُوَّةَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ ، وَخَفَرُوا عَلَيْهِ عَشْمَكِرْهُمْ الْمُحِيطَ بِدِمَياط خَنْدَقًا ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ سُورًا ؛ وَأَهْلُ
دِمَياط يُقَاتِلُونَهُمْ أَشَدَّ الْقِتَالِ ، وَمُبَايَعُونَهُمْ ، وَقَدْ غَلَّتْ عِنْدَهُمُ الْأَشْعَارُ لِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُعْظَمَ فَارَقَ الْمَلِكَ الْكَامِلَ ، وَسَارَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ؛ وَأَقَامَ الْكَامِلُ لِحَارِبَةِ الْفِرْجِ وَانْتَدَبَ
شَمَائِلَ - أَعَدَ الْجَانْدَارِيَّةَ فِي الرُّكَابِ - لِلدُّخُولِ إِلَى دِمَياط ، فَكَانَ يَشْبِيحُ فِي الْمَاءِ وَيَصِلُ إِلَى أَهْلِ
دِمَياط فَيَعِدُّهُمْ بِوُصُولِ التَّجَدُّاتِ . فَحَظِيَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْكَامِلِ ، وَتَقَرَّبَ مِنْهُ حَتَّى عَمِلَهُ وَالِي
الْقَاهِرَةِ ، وَإِلَيْهِ تُنْتَسَبُ خِزَانَةُ شَمَائِلَ بِالْقَاهِرَةِ^١ .

فَلَمْ يَزَلِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتٍّ عَشْرَةَ ، فَجَهَّزَ الْمَلِكُ الْمُتَصَوِّرُ مُحَمَّدُ بْنُ
عَمْرٍو بْنِ شَاهِنْشَاهِ بْنِ أَيُّوبٍ صَاحِبَ حِمَاةِ ابْنِهِ الْمُظَفَّرِ تَقِيَّ الدِّينِ مُحَمَّدًا إِلَى مِصْرَ ، نَجْدَةً لِحَالِهِ

(أ) بولاق : الفرج . (ب) بولاق : من . (ج) بولاق : المشرق .

^١ يستمر الفريزي في النقل عن ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ١٧ - ٢٠ ؛ وعن خزانة شمائل انظر فيما يلي ٢ : ١٨٨ .

الملك الكاميل على الفريخ، في جيش كثيف . فوصل إلى العسكر، وتلقاه الملك الكاميل وأنزله في ميمنة العسكر منزلة أبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف . فألح الفريخ في القتال، وكان يديمياط نحو العشرين ألف مقاتل، فتهاكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأشعار حتى بلغت يعضة الدجاجة عندهم عدة دنانير .

قال الحافظ عبد العظيم المنذري^١ : سمعت الشيخ أبا إسحاق علي بن قفل^٢ يقول : كان لبعض بني خيار بقرة فذبحوها وباعوها في الحصار، فجاءت ثمان مائة دينار .

وقال في «المعجم المتزجم»^٣ : سمعت الأمير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول : كنت يديمياط في حصار القدو بها، فبيع السكر بها بمائة وأربعين ديناراً الرطل، والدجاجة بثلاثين ديناراً . قال : واشترت ثلاث دجاجات بتسعين ديناراً، والزاوية بأربعين درهماً، والقنبر بخمسة وأربعين مثقالاً . وأخذت أختي جملاً فشقت جوفه وملأته دجاجاً وفاكهةً وبقلًا وغير ذلك، وخاطته وزمته في البحر، وكتبته إلي تقول : قد فعلت كذا فإذا رأيتهم جملاً ميتاً فخذوه، فوقع لنا ليلاً فأخذناه، وكان فيه ما يساوي جملة، ففرقته على الناس . ثم عمل بعد ذلك ثلاثة جمال على هيئته، ففطن لها الفريخ فأخذوها .

(٥) بولاق : أبا الحسن علي بن فضل .

المنذري وكتابه التكملة، النجف (١٩٦٨) .
وهذا النقل ربما كان من كتابه «تاريخ من دخل مصر»، ووضع ولده القاضي الرشيد أبو بكر محمد بن عبد العظيم الذي توفي شاباً في حياة أبيه سنة ١٢٤٤هـ/١٢٤٦م كتاباً على حروف المعجم عنوانه «تاريخ مصر» نحا فيه منحى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، ولف عليه ابن سعيد المغربي ونقل عنه (ابن سعيد : النجوم الزاهرة ٣٦٤ الصفيدي : الوافي ٣ : ٢٦٤-٢٦٥) أمين فؤاد : مصادر تاريخ الفاطميين في مصر (١٩٧١) .

^٢ لم يصل إلينا كتاب «المعجم المترجم» للحافظ زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري .

^١ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري الشامي الأصل المصري المولد والنار والوفاة، ولد بفسطاط مصر سنة ١١٨٥هـ/١١٨٥م وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٥٨هـ/١٢٥٨م . كان محدثاً فقيهاً مؤرخاً، ودرس بالجامع الظاهري بالقاهرة مدة، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها مكثاً على التصنيف والتأليف عشرين سنة، وبلغ عدد مؤلفاته نحو ٢٥ كتاباً أكثرها في الحديث وعلم الرجال أهمها كتاب «التكملة لوفيات النقلة» و«المعجم المترجم» و«تاريخ من دخل مصر» (راجع، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٣١٩-٣٢٤ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨ : ٢٥٩-٢٦١، الصفيدي : الوافي بالوفيات ١٩ : ١٤-١٦) أبا المحاسن : المنهل الصافي ٧ : ٣٠٩-٣١١) وبشار عواد معروف :

وَانْتَلَّتْ مَسَاكِينُهُمْ وَطُرُقَاتُ الْبَلَدِ مِنَ الْمَوْتَى، وَغَدِمَتِ الْأَقْوَاتُ، وَصَارَ الشُّكْرُ كَعَزَّةِ الْهَاقُوتِ، وَفُقِدَتِ اللَّحُومُ فَلَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهَا بَوَاجُهُ، وَأَلَّتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بِهَا سِوَى قَلِيلٍ مِنَ الْقَمْحِ وَالشُّعْبِيرِ فَقَطْ. فَتَسَوَّرَ الْفَرِجُ الشُّورَ^(٥) وَأَخَذُوا مِنْهُ الْبَلَدَ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ خَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ، وَكَانَتْ ثُدَّةُ الْحِصَارِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا وَاثْنَيْنِ عَشْرِينَ يَوْمًا.

• وَلَمَّا أَخَذُوا الْبَلَدَ وَضَعُوا السَّيْفَ فِي النَّاسِ، فَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْقَتْلِ، وَأَسْرَقُوا فِي مِقْدَارِ الْقَتْلِ. وَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانَ، فَرَحَلَ بَعْدَ أَخْذِ دِمِشَاقَ يَوْمَيْنِ، وَنَزَلَ قِبَالَةَ طَلْحَا عَلَى رَأْسِ بَحْرِ أَشْمُومَ وَرَأْسِ بَحْرِ دِمِشَاقَ، وَخَيَّمَ^(٦) فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي صَارَ يُقَالُ لَهَا الْمَنْصُورَةُ.

وَحَصَّنَ الْفَرِجُ أَسْوَازَ دِمِشَاقَ، وَجَعَلُوا الْجَامِيعَ كَنِيْسَةً، وَبَنَوْا سَرَايَاهُمْ فِي الْقَرْيَةِ فَكْتَلُوا وَنَهَبُوا. وَسَيَّرَ السُّلْطَانُ الْكُتُبَ إِلَى الْآفَاقِ لِيَسْتَجِثَّ النَّاسُ عَلَى الْحُضُورِ لَدَفْعِ الْفَرِجِ عَنْ مِثْلِكَ مِصْرَ، وَتَمَرَّعَ الْعَشُكْرُ فِي بِنَاءِ الدُّورِ وَالْفَنَادِقِ وَالْحَمَامَاتِ وَالْأَسْوَاقِ بِمَنْزِلَةِ الْمَنْصُورَةِ^(٧).

وَجَهَّزَ الْفَرِجُ مِنْ أَسْرَوْهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَحْرِ إِلَى عَكَا، وَخَرَجُوا مِنْ دِمِشَاقَ وَنَازَلُوا السُّلْطَانَ نِجَاهَ الْمَنْصُورَةِ، وَصَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بَحْرُ أَشْمُومَ وَبَحْرُ دِمِشَاقَ. وَكَانَ الْفَرِجُ فِي مَائَتِي أَلْفِ رَاجِلٍ وَعَشْرَةِ أَلْفِ فَارِسٍ. فَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ مَوَانِيَهُمْ أَمَامَ الْمَنْصُورَةِ وَعِدَّتْهَا مِائَةَ قِطْعَةٍ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ التَّوَاهِي مِنْ أَشْوَانَ إِلَى الْقَاهِرَةِ. وَوَصَلَ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ يُوسُفَ، وَالْفَقِيهُ / تَقِي الدِّينِ أَبُو الطَّاهِرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ^(٨) بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَلِّيِّ، فَأَخْرَجَا النَّاسَ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ، وَنُودِيَ بِالْتَّغْيِيرِ الْعَامِ. وَخَرَجَ الْأَمِيرُ علاء الدِّينِ بَجَلْدَكَ وَجَمَالُ الدِّينِ بَنَ صَيِّمَ لَجَمْعِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى آخِرِ الْحَوْفِ الشُّرُفِيِّ، فَاجْتَمَعَ عَالَمٌ لَا يَتَقَعُّ عَلَيْهِ حَضَرٌ.

وَأَنْزَلَ السُّلْطَانُ عَلَى نَاحِيَةِ شَارِمْسَاحِ أَلْفَ فَارِسٍ فِي آلَافٍ مِنَ الْعُزْبَانِ، لِيُحْمِلُوا بَيْنَ الْفَرِجِ^(٩) وَبَيْنَ دِمِشَاقَ. وَسَارَتِ الشُّرَانِي وَمَعَهَا خِزَانَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى رَأْسِ بَحْرِ الْحَلَّةِ، وَعَلَيْهَا الْأَمِيرُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ حُسَيْنٍ، فَانْقَطَعَتِ الْمِرَّةُ عَنِ الْفَرِجِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَسَارَتِ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الشَّرْقِ وَالشَّامِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ. وَكَانَ قَدْ خَرَجَ الْفَرِجُ مِنْ دَاخِلِ الْبَحْرِ لِمَدَدِ الْفَرِجِ عَلَى دِمِشَاقَ، فَقَدِمَ مِنْهُمْ أَمْرٌ لَا تُحْتَسَى يُرِيدُونَ التَّوَعُّلَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. فَلَمَّا تَكَامَلُوا بِدِمِشَاقَ، خَرَجُوا مِنْهَا فِي حُدُودِهِمْ

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: وحيز. (c) بولاق: الحسن. (d) بولاق: بين الفرخ ودمياط.

^١ ابن واصل: مفرج الكروب ٤: ٣٢-٣٣.

وحديددهم ، ونزلوا تجاه الملك الكاميل كما تقدّم . فقديمت التجذات يقدّمها الملك الأشرف موسى ابن العادل ، وعلى ساقبها الملك المعظم عيسى ، فلقاها الملك الكاميل ، وأنزلهم عنده بالمنصورة في ثالث عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة .

وتتابع مجيء الملوك ، حتى بلغت عدة فؤسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس ، فحاربوا الفرينج في البر والبحر ، وأخذوا منهم ست شواني وجلاسة^١ وبطسة ، وأسروا من الفرينج ألفين ومائتين ، ثم ظفّر المسلمون بثلاث قطايح أخرى ، فتضعض الفرينج لذلك وضائق بهم المقام ، فبهتوا يطلبون الصلح .

فقديم عند مجيء رؤسهم أهل الإسكندرية في ثمانية آلاف مقاتل . وكان الذي طلب الفرينج القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية ، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ، ليخرجوا عن ديار مصر .

فبدّل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك ، فامتنع الفرينج من الصلح وقالوا : لا بد من أخذهم الكرك والشوبك ، ومبلغ ثلاث مائة ألف دينار ، عوضا عما تحربه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس .

وكان المعظم لما مات أبوه العادل ، واشتول الفرينج على دنياط ، ونازلوا الملك الكاميل قبالة المنصورة ، خاف أن يحصل منهم في البحر من يأخذ القدس ويخصّصوا به ، فأمر بتخريب أسواره . وكانت أسواره وأبراجه في غاية العظمة والمنعة - فأتى الهدم على جميعها ما خلا بروج داود ، وانتقل أكثر الناس من القدس ، ولم يبق به إلا القليل ، ونقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة والآلات .

فامتنع المسلمون من إجابة الفرينج إلى ذلك وقاتلوهم ، وعبر جماعة من المسلمين في بحر الهلة إلى الأرض التي عليها الفرينج ، وحفروا مكانا عظيما في التل - وكان في قوة الزيادة - فركب الماء أكثر تلك الأرض وصار حائلا بين الفرينج ومدينة دنياط . وانحصروا ، فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة ، فأمر السلطان للوقت بتعصيب الجسور عند أشموم طنّاح ، فقبرت المسالك عليها ، ومكّنت الطريق التي يسلّكها الفرينج إلى دنياط إذا أرادوا الوصول إليها . فاضطربوا ، وضائق عليهم الأرض .

^١ الجلاسة . نوح من السفن الحربية الكبيرة تسم بالشرع الاستعمال في البحر المتوسط واسمها بالفرنسية Goléace أو Golénsee (درويش النخيلي : السفن الإسلامية ٢٧) . والمجاهد وهي أقل وأقوى من الشني ، كانت شائعة

وَاتَّفَقَ مَعَ ذَلِكَ وَصُولَ مَرِّمَةِ^١ عَظِيمَةِ الْفِرْنَجِ فِي الْبَحْرِ حَوْلَهَا عِدَّةُ حَرَاقَاتٍ تَحْمِيهَا ، وَقَدْ مُلِقتْ كُلُّهَا بِالْمِيْرَةِ وَالْأَسْلِحَةِ ، فَقَاتَلَتْهُمْ شَوَاتِي الْمُسْلِمِينَ وَظَفَرَهَا اللَّهُ بِهِمْ فَأَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ .

وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْفِرْنَجِيُّ ذَلِكَ أَتَقَتُوا بِالْهَلَاكِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمُونَهُمْ بِالشَّابَابِ وَيَحْمِلُونَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ . فَهَدَمُوا حَيْثُ خِيَامَهُمْ وَمَجَانِيْقَهُمْ ، وَأَلْقَوْا فِيهَا النَّارَ ، وَهَمُّوا بِالزُّخْفِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمُقَاتَلَتِهِمْ لِيُخْلَصُوا إِلَى دِيْمَاطَ ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ كَثْرَةُ الْوَحْلِ وَالْمِيَاهِ الرَّابِكَةِ عَلَى الْأَرْضِ . وَخَشَوْا مِنَ الْإِقَامَةِ لِقَلَّةِ أَقْوَاتِهِمْ ، فَذَلُّوا وَسَأَلُوا الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يَتْرَكُوا دِيْمَاطَ لِلْمُسْلِمِينَ .

فَاسْتَشَارَ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ ، فَاسْتَخْلَفَ النَّاسَ عَلَيْهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَشَعَ مِنْ تَأْمِينِ الْفِرْنَجِ ، وَرَأَى أَنْ يُؤْخَذُوا عَثْوَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَحَثَ إِلَى إِعْطَائِهِمُ الْأَمَانَ خَوْفًا مِّنْ رِّوَاءِهِمْ مِنَ الْفِرْنَجِ فِي الْجَزَائِرِ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلُّ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ زَهَائِنَ . فَتَقَرَّرَ ذَلِكَ فِي تَاسِعِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةٍ .

وَسَيَّرَ الْفِرْنَجِيُّ عِشْرِينَ مَلَكًا رَهْنًا عِنْدَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَبَعَثَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ بَابِنَهُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمَ الدِّينِ الْيُوسُفَ وَجَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى الْفِرْنَجِ . وَجَلَسَ السُّلْطَانُ مَجْلِسًا عَظِيمًا لِقُدُومِ مُلُوكِ الْفِرْنَجِ ، وَقَدْ وَقَفَ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَصَارَ فِي أَهْبَةِ وَنَامُوسٍ مَهِيْبٍ .

وَخَرَجَ قُسُوسُ الْفِرْنَجِ وَزُهَبَانُهُمْ إِلَى دِيْمَاطَ ، فَسَلَّمُوها لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَاسِعِ عَشْرَةٍ ، وَكَانَ يَوْمٌ تَسْلِيمِيهَا يَوْمًا عَظِيمًا . وَعِنْدَمَا تَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ دِيْمَاطَ وَصَارَتْ بِأَيْدِيهِمْ ، قَدِمَتْ نَجْدَةٌ فِي الْبَحْرِ لِلْفِرْنَجِ ، فَكَانَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِ اللَّهِ تَأَخُّرُهَا حَتَّى مُلِكَتْ دِيْمَاطَ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهَا لَوْ قَدِمَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَقَوِيَ بِهَا الْفِرْنَجِيُّ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَجَدُوا مَدِينَةَ دِيْمَاطَ قَدْ حَصَّنَهَا الْفِرْنَجِيُّ وَصَارَتْ بِحَيْثُ لَا تُرَامُ .

وَلَمَّا تَمَّ الْأَمْرُ ، بَعَثَ الْفِرْنَجِيُّ بَوْلَدَ السُّلْطَانِ وَأَتْرَائِهِ إِلَيْهِ ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فِي الزَّوْنِ ، وَتَقَرَّرَتْ الْهُدْنَةُ بَيْنَ الْفِرْنَجِ وَالْمُسْلِمِينَ ثَمَنًا ثَمَانِي سَنِينَ . وَكَانَ مِمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَيْهِ أَنْ كَلَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفِرْنَجِ يُطْلِقُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَسْرَى . وَخَلَفَ السُّلْطَانُ وَإِخْوَتَهُ ، وَخَلَفَتْ مُلُوكُ الْفِرْنَجِ . وَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ إِلَى / دِيْمَاطَ وَإِخْوَتِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، وَكَانَ يَوْمٌ دُخُولِهِ إِلَيْهَا مِنَ الْأَيَّامِ الْمَذْكُورَةِ .

^١ مَرِّمَةُ نَوْعٍ مِنَ السَّفِينِ انْظُرْ فِيهَا تَقْدِيمُ ٥٨٦ .

وَرَحَلَ الْفِرْنَجُ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى مَقَرِّ مَلِكِهِ . وَأُطْلِقَتْ الْأَشْرَى مِنْ دِهَارِ مِصْرَ ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ لَهُ مِنْ أَيَّامِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ . وَسَارَتْ ثُلُوكُ الشَّامِ بِعَسَاكِرِهَا إِلَى بِلَادِهَا .

وَعَمَّتْ بِشَارَةُ أَخَذَ الْمُسْلِمِينَ مَدِينَةَ دِمَاطٍ مِنَ الْفِرْنَجِ سَائِرَ الْآفَاقِ ، فَإِنَّ الثَّتَرَ كَانُوا قَدْ اسْتَقْبَلُوا عَلَى تَمَالِكِ الْمَشْرِقِ ، فَأَشْرَفَ الْفِرْنَجُ عَلَى أَخَذِ دِهَارِ مِصْرَ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَتْ مُدَّةُ نَزُولِ الْفِرْنَجِ عَلَى دِمَاطٍ ، إِلَى أَنْ أَقْلَعُوا عَنْهَا سَائِرِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ ، ثَلَاثَ سِنِينَ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، مِنْهَا مُدَّةُ اسْتِيلَانِهِمْ عَلَى مَدِينَةِ دِمَاطٍ سَنَةً وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَةَ وَعَشْرُونَ يَوْمًا^١ .

فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، حَدَّثَ بِالسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمُ الدِّينِ الْكُوبِ ابْنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدَ وَزَرَ فِي تَأْثِيهِ تَكُونُ مِنْهُ نَاصُورٌ فُتِحَ وَعَشْرُ نِزْوَةٍ ، فَتَرَضَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنْصَافَ إِلَيْهِ قُرْبَحَةٌ فِي الصَّنَرِ ، فَلَزِمَ الْفِرَاشَ ، إِلَّا أَنَّ عُلُوَّ هَيْئَتِهِ اقْتَضَى مَسِيرَهُ مِنْ دِهَارِ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ . فَسَارَ فِي مَحْفَةٍ وَنَزَلَ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ ، فَوَزَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ الْإِمْبَرَاطُورِ مَلِكِ الْفِرْنَجِ الْأَلْمَانِيَةِ بِجَزِيرَةِ صِبْغِيَّةٍ فِي هَيْئَةِ تَاجِرٍ ، وَأَخْبَرَهُ سِرًّا أَنَّ بَوَاشَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ « رِيدَا فَرَنْس »^٢ عَازِمٌ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَأَخْذِهَا .

(a) بولاق : رواد فرنس .

بالفرنسية القديمة ؛ وانظر كذلك الصفدي : الوافي بالوفيات ٣١٣:١-٣١٦:١ ابن شاعر : فوات الوفيات ٢٣١:١-٢٣٣:١

أبا المحاسن : المنهل الصافي ٤٣٩:٣-٤٤٢:٤ ثلاثهم ترجموه تحت اسم : بواش ؛ ولتفاصيل أكثر راجع ، محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة في المنصورة ، القاهرة ١٩٦١ جوزيف نعيم يوسف : العلوان الصليبي على مصر - هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الإسكندرية ١٩٨٤ Joinville, Histoire de Saint Louis, éd. N. de Wailly, Paris 1874; Gabrieli, Fr., Chroniques arabes des Croisades, Paris, sindbad - Actes sud, 1996, pp. 314-31

^١ راجع عن هذه الحملة أيضًا ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٢٣:١٢-٣٣١:١ .

^٢ ريدا فرنس أو رواد فرنس أي Roi de France صيغ استخدمها المؤرخون العرب للتعبير عن ملك فرنسا والمقصود هنا هو لويس التاسع Louis IX (تذكره المصادر العربية باسم بواش) الذي قاد حملة على السواحل المصرية عند دمياط في زمن الصالح نجم الدين أيوب تعرف بالحملة الصليبية السابعة ، وأضاف المقرئ في السلوك ٣٣٣:١ ريدا فرنس - ويقال له الفرنسي واسمه لويس بن لويس - وريدا فرنس لقب بلغة الفرنج معناه ملك لفرنس ، وريد تعني ملك

فسَارَ السُّلْطَانُ مِنْ دِمَشْقَ وَهُوَ مَرِيضٌ فِي مَخْفَةٍ، وَنَزَلَ بِأَشْمُومَ طَنَاحَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَجَمَعَ فِي مَدِينَةِ دِمَاطَ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَزْوَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَأَلَاتِ الْقِتَالِ شَيْقًا كَثِيرًا، خَوْفًا أَنْ يَجْرِيَ عَلَى دِمَاطَ مَا يَجْرَى فِي أَيَّامِ أَبِيهِ، فَأَعِدَّتْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

- وَلَمَّا نَزَلَ السُّلْطَانُ بِأَشْمُومَ، كَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ حُسَامِ الدِّينِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ الْهَذْبَانِيِّ - نَائِبِهِ بِدِيَارِ مِصْرَ - أَنْ يُجَهِّزَ الْأَسْطُولَ مِنْ صِنَاعَةِ مِصْرَ. فَسَرَعَ فِي الْإِخْتِمَامِ بِذَلِكَ، وَشَعَنَ الْأَسْطُولَ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَسَائِرِ مَا يُنْتَاجُ إِلَيْهِ، وَسَيَّرَهُ شَيْقًا بَعْدَ شَيْءٍ. وَجَهَّزَ السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ فُخْرَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ شَيْخِ الشُّيُوخِ وَمَعَهُ الْأَمْرَاءُ وَالْمَسَاكِرَ، فَتَزَلَّ بِجِزَّةٍ (a) دِمَاطَ مِنْ بَرِّهَا الْغَرْبِيِّ، وَصَارَ النَّبْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا. فَلَمَّا كَانَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ نَهَارِ الْجُمُعَةِ لَتَسْعَ بَقِيْنَ مِنْ صَفَرٍ، وَرَدَتْ مَرَاكِبُ الْفِرَاجِ الْبَحْرِيِّينَ، وَفِيهَا جُشُوعُهُمُ الْعَظِيمَةُ، وَقَدْ انْقَضَ إِلَيْهِمْ فِرَاجُ الشَّاحِلِ، وَأَرْسَلُوا لِأَزْوَاجِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعَثَ مَلَائِكُهُمْ إِلَى السُّلْطَانِ كِتَابًا نَصَّهُ:

«أَمَّا تَعَدُّ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ أَنِّي أَمِيرُ الْأُمَّةِ الْيَسُوعِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ أَنَّكَ أَمِيرُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ. وَغَيْرُ خَافٍ عَلَيْكَ أَنَّ عِنْدَنَا أَهْلَ جَزَائِرِ الْأَنْدَلُسِ وَمَا يَحْمِلُونَهُ إِلَيْنَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْهَدَايَا، وَنَحْنُ نُسَوِّقُهُمْ سَوَاقَ الْبَقَرِ، وَنَقْتُلُ مِنْهُمْ الرِّجَالَ وَنُرْمِلُ النِّسَاءَ، وَنَسْتَأْسِرُ الْبَنَاتِ وَالصَّبِيَّانَ، وَنُخَلِّي مِنْهُمْ الدِّيَارَ.

وَأَنَا قَدْ أَبْدَيْتُ لَكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، وَبَذَلْتُ لَكَ التَّضَخُّعَ إِلَى النُّهَايَةِ. فَلَوْ حَافَلْتُ لِي بِكُلِّ الْأَيْمَانِ، وَأَدَخَلْتُ عَلَيَّ الْأَمْشَاءَ وَالرُّهْبَانَ، وَحَمَلْتُ قُدَّامِي السُّنَمَ طَاعَةً لِلصُّلْبَانِ، لَكُنْتُ وَاصِلًا إِلَيْكَ، وَقَاتِلُكَ فِي أَعْرُ الْبِقَاعِ إِلَيْكَ. فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ الْبِلَادُ لِي، فَيَا هَدِيَّةَ حَصَلَتْ فِي يَدَيَّ، وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ الْبِلَادُ لَكَ وَالْعَلْبَةُ عَلَيَّ، فَيَذُكُ الْغُلْيَا مُتَمَتَّةً إِلَيَّ.

وَقَدْ عَرَفْتُكَ وَعَدْتُكَ مِنْ عَسَاكِرِ حَضَرَتْ فِي طَاعَتِي تَمَلُّ الشَّهْلِ وَالْجَبَلِ، وَعَدَدْتُهُمْ كَعَدَدِ الْحَصَى، وَهُمْ يُرْسَلُونَ إِلَيْكَ بِأَشْيَافِ الْقَضَاءِ».

فلما قرئ الكتاب على السلطان ، وقد اشتد به المرض ، بكى واستزجج ، فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد^١ الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، فإنه وصل بحالك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قيل مئاً قرون^٢ إلا مجدناه ، ولا تبي علينا باغ إلا دمرناه .

ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم محروبتنا ، وفشحتنا منكم الحصون والشواجل ، وتخريبتنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تفض على أناميك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك . فهناك نسيء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون^٣ .

فإذا قرأت كتابي هذا ، فتكون فيه على أول سورة النحل ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [الآية ١ سورة النحل] وتكون على آخر سورة ص ﴿وَلَتَقْلُمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ، وتعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الآية ٢٤٩ سورة البقرة] وقول الحكماء : إن الباغي له مضرع ، وتفتك بضروعك ، وإلى التلاءم يهلك . والسلام^٤ .

(٥) بولاق : فرد .

١ بهاء الدين زهير ، القاضي أبو الفضل زهير بن محمد ابن علي المهلي شاعر من العصر الأيوبي ، كان كاتب الإنشاء في مصر في نهاية هذا العصر (القاقلشندي : صبح الأعشى ١: ٩٧) انظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ٣٣٢-٣٣٨ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٤: ٢٣١-٢٤٣؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٧: ٦٢-٦٣

٢ قارن نص الرسالة مع ابن أبيك : كنز الدرر ٧: ٣٦٦-٣٦٨ وبينهما خلاف كبير في الألفاظ : المقرئ : السلوك ١: ٣٣٤-٣٣٥ .

٣ بهاء الدين زهير ، القاضي أبو الفضل زهير بن محمد ابن علي المهلي شاعر من العصر الأيوبي ، كان كاتب الإنشاء في مصر في نهاية هذا العصر (القاقلشندي : صبح الأعشى ١: ٩٧) انظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ٣٣٢-٣٣٨ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٤: ٢٣١-٢٤٣؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٧: ٦٢-٦٣

وفي يوم السبت غد وُزِدَ الفِرْنَجُ^(٨) وضُرِّبُوا خِيَامَتُهُمْ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ الَّتِي فِيهَا عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ خَيمَةُ الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسَ^(٩) حُمْرَاءَ . فَنَافَسَهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْقِتَالَ ، وَاسْتَشْهِدَ يَوْمَئِذٍ الْأَمِيرُ نَجْمُ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَالْأَمِيرُ صَارِمُ الدِّينِ أَرْزَكَ الْوَزِيرِي .

فَلَمَّا أَتَى اللَّيْلُ ، رَحَلَ الْأَمِيرُ فَخَرَّ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنَ شَيْخِ الشُّبُوحِ بِعَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ مُجْتَمِعًا وَصَلَفًا ، وَسَارَ بِهِمْ فِي بَرٍّ دِمَاطَ ، وَسَارَ إِلَى جِهَةِ أَشْمُومِ طُنَاحَ . فَخَافَ مَنْ كَانَ فِي مَدِينَةِ دِمَاطَ ٥ وَخَرَجُوا مِنْهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي اللَّيْلِ لَا يَتَلَقَّيْتُونَ إِلَى شَيْءٍ ، وَتَرَكُوا الْمَدِينَةَ خَالِيَةً مِنَ النَّاسِ ، وَلَحِقُوا بِالْعَسَاكِرِ فِي أَشْمُومِ وَهُمْ مُحْفَاةٌ غَزَابًا جِيَاعٌ حِيَارَى ، مِنْ مَعَهُمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ ، وَمَرُّوا هَارِينَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأَخَذَ مِنْهُمْ قُطَاعُ الطَّرِيقِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ / وَتَرَكُوهُمْ غَرَابًا .

فَسَنَّتْ الْقَائِلَةُ عَلَى الْأَمِيرِ فَخَرَّ الدِّينِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَعُدُّ جَمِيعُ مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبِلَاءِ بِسَبَبِ هَزِيمَتِهِ ، فَإِنَّ دِمَاطَ كَانَتْ مَشْخُورَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالْأَزْوَادِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَسْلِحَةِ وَغَيْرِهَا ، خَوْفًا أَنْ يُصِيبَهَا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مَا أَصَابَهَا فِي أَيَّامِ الْكَامِلِ ، فَإِنَّهُ مَا أَتَى عَلَيْهَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ قِلَّةِ الْأَقْوَاتِ بِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ اسْتَنْتَقَتِ مِنَ الْفِرْنَجِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ حَتَّى فَنِيَ أَهْلُهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . وَلَمَّا أَصْبَحَ الْفِرْنَجُ يَوْمَ الْأَحَدِ لَسَبَعَ بَقِيَّةً مِنْ صَفَرٍ ، فَصَدُّوا دِمَاطَ ، فَإِذَا أَبْوَابُ الْمَدِينَةِ مُفْتَتِحَةٌ وَلَا أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنْهَا ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مَكِيدَةٌ ، وَتَهَلَّلُوا حَتَّى ظَهَرَ لَهُمْ خُلُوعُهَا فَدَخَلُوا إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَا بِهَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَلَاتِ الْحَرْبِ وَالْأَقْوَاتِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْحَدِّ ١٥ فِي الْكَثْرَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَمْنَةِ ، صَفَّوْا بِغَيْرِ كُلْفَةٍ ، فَأَصِيبَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ بِلَاءٍ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ لَحِيَ اسْمُ الْإِسْلَامِ وَرَسْمُهُ بِالْكَلْبَةِ .

وَانْزَعَجَ النَّاسُ فِي الْقَاهِرَةِ وَمَصْرَ انْزِعَاجًا عَظِيمًا لَمَّا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مَعَ شِدَّةِ مَرَضِ السُّلْطَانِ وَعَدَمِ حَرَكَتِهِ . وَأَمَّا السُّلْطَانُ فَإِنَّهُ اسْتَدَّ حَقِّقَهُ عَلَى الْأَمِيرِ فَخَرَّ الدِّينِ وَقَالَ : أَمَا قَدَرْتُ أَنْتَ وَالْعَسَاكِرُ أَنْ تَقِفُوا سَاعَةً بَيْنَ يَدَيِ الْفِرْنَجِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْقِيَامَةَ ، لَكِنْ الْوَقْتُ لَمْ يَكُنْ يَسَعُ غَيْرَ الصَّبْرِ ٢٠ وَالْإِعْصَاءِ . وَغَضِبَ عَلَى الْكِنَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا بِدِمَاطَ وَوَبَّخَهُمْ فَقَالُوا : مَا نَعْمَلُ إِذَا كَانَتْ عَسَاكِرُ السُّلْطَانِ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَأَمْرَاؤُهُمْ^(١٠) هَزَبُوا وَأَخْرَقُوا^(١١) الزُّودَ خَانَاتَ ، كَيْفَ لَا نَهْزُبُ نَحْنُ ؟ فَأَمَرَ بِشَنْقِهِمْ لِكُونِهِمْ خَرَجُوا مِنْ دِمَاطَ بِغَيْرِ إِذْنٍ . وَكَانَتْ عِدَّةٌ مِنْ شَيْخٍ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْكِنَانِيَةِ زِيَادَةً عَلَى خَمْسِينَ أَمِيرًا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمِنْ جَمَلَتِهِمْ أَمِيرٌ جَسِيمٌ لَهُ ابْنٌ جَمِيلٌ ، سَأَلَ أَنْ يُشْنَقَ قَبْلَ ابْنِهِ ،

(٨) بولاق : السبت ورد الفرغ . (b) بولاق : رواد فرانس . (c) بولاق : أمراؤه . (d) بولاق : وأخربوا .

فَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَنْ يُشْنَقَ ابْنُهُ قَبْلَهُ ، فَشَنِقَ الْإِبْنُ ثُمَّ الْأَبَ . وَيُقَالُ إِنَّ شَنْقَ هَؤُلَاءِ كَانَ بِقُوَى الْفُقَهَاءِ فَخَافَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَهَمُّوا بِالْقِيَامِ عَلَى السُّلْطَانِ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمُ الْأَمِيرُ فَخَرُ الدِّينِ ابْنُ شَيْخِ الشُّيُوخِ بِأَنَّ السُّلْطَانَ عَلَى حِطَّةٍ ، فَإِنْ مَاتَ فَقَدْ كُفِّتُمْ أَمْرُهُ ، وَالْأَفْهَى بَيْنَ أَيْدِيكُمْ .

وَأَخَذَ السُّلْطَانُ فِي إِصْلَاحِ سُورِ الْمَنْصُورَةِ ، وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا لِحَتْسِ بَقِيَّةٍ مِنْ صَفَرٍ ، وَجَعَلَ الشُّتَائِرَ عَلَى الشُّورِ . وَقَدِمَتِ الشُّوَانِي إِلَى نَجَاهِ الْمَنْصُورَةِ وَفِيهَا الْعُدَّةُ الْكَامِلَةُ ، وَشَرَعَ الْعَشْكَرُ فِي تَجْدِيدِ الْأَيْتَةِ هُنَاكَ ، وَقَدِمَ مِنَ الْعُرَبَانِ وَأَهْلِ التَّوَّاحِي وَمِنَ الْمُطَوَّعَةِ خَلْقٌ لَا يُحْصَى عَدْدُهُمْ ، وَأَخَذُوا فِي الْإِغَارَةِ عَلَى الْفَرِجِ . فَمَلَأَ الْفَرِجُ أَشْوَازَ مَدِينَةِ دِمَشْقَاطٍ بِالْمُقَاتِلَةِ وَالْآلَاتِ .

فَلَمَّا كَانَ أَوَّلُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، قَدِمَ إِلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ أَسْرَى الْفَرِجِ الَّذِينَ تَخَطَّفَهُمُ الْعُرَبَانِ سِتَّةً وَثَلَاثُونَ ، مِنْهُمْ فَارِسَانٌ ؛ وَفِي خَامِسِ رَبِيعِ الْآخِرِ وَرَدَ مِنْهُمْ تِسْعَةٌ وَثَلَاثُونَ ؛ وَفِي سَابِعِهِ وَرَدَ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ أُسِيرًا ؛ وَفِي سَادِسِ عَشْرِهِ وَرَدَ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ أُسِيرًا ، مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ خَيَْالَةٌ ؛ وَفِي ثَامَنِ عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى وَرَدَ خَمْسُونَ أُسِيرًا ؛ هَذَا ، وَمَرَضُ السُّلْطَانِ يَتَزَايَدُ ، وَقُوَاهُ تَنْقَاصُ ، حَتَّى أَيْسَ الْأَطِبَّاءُ مِنْهُ .

وَفِي ثَالِثِ عَشَرَ رَجَبٍ ، قَدِمَ إِلَى الْقَاهِرَةِ سَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ أُسِيرًا وَأَخَذَ عَشَرَ فَارِسًا ، وَظَفِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِمُسْطَحٍ لِلْفَرِجِ فِي الْبَحْرِ فِيهِ مُقَاتِلَةٌ بِالْقَرَبِ مِنْ نَشْتَرَاوَةٍ .

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْأَخْدِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ مَضَتْ مِنْ شَعْبَانَ ، مَاتَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ بِالْمَنْصُورَةِ ، فَلَمْ يُظْهَرْ مَوْتُهُ ، وَحُمِلَ فِي تَابُوتٍ إِلَى قَلْعَةِ الرُّوَضَةِ ، وَقَامَ بِأَمْرِ الْعَشْكَرِ الْأَمِيرُ فَخَرُ الدِّينِ ابْنُ شَيْخِ الشُّيُوخِ ، فَإِنَّ شَجَرَةَ الدَّرُّ زَوْجَةَ السُّلْطَانِ لَمَّا مَاتَ أَخْضَرَتْ الْأَمِيرُ فَخَرُ الدِّينِ ، وَالطُّوَّاشِي جَمَالَ الدِّينِ مُخْبِئًا - وَإِلَيْهِ أَمَرَ الْمَمَالِيكَ الْبَحْرِيَّةَ وَالْحَاشِيَّةَ - وَأَعْلَمَتْهُمَا بِمَوْتِهِ ، فَكَمَا ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ الْفَرِجِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَشْرَفُوا عَلَى تَمَلُّكِ دِيَارِ مِصْرَ . فَقَامَ الْأَمِيرُ فَخَرُ الدِّينِ بِالْتَّذِيرِ ، وَسَيَّرُوا إِلَى الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ ثُورَانَ شَاهٍ وَهُوَ بِحِصْنِ كَيْفَا الْفَارِسِ أَقْطَايَ لِإِخْضَارِهِ .^١

(a) بولاق : شجرة .

^١ التويري : نهاية الأرب ٣٣٦:٢٩-٣٣٧ وأورد التويري نص الكتاب الذي أرسله الملك الصالح إلى الملك المعظم تورانشاه بحصن كيفا يسند إليه فيه الملك ويوصيه بحملة من الوصايا قال : « وقد وقعت على الكتاب المذكور - وهو بخط السلطان الملك الصالح بحملته : (نهاية الأرب ٣٤٠:٢٩-٣٥٢) وفيما يلي ٣٧٤ .

وَأَخَذَ الْأَمِيرُ قَحْرُ الدِّينِ بِتَحْلِيلِ الْعَشْكَرِ لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَابْنَهُ الْمَلِكَ الْمُعْظَمَ بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلِلْأَمِيرِ قَحْرُ الدِّينِ بِأَتَابِكِيَّةِ الْعَشْكَرِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ الْمَلِكِ حَتَّى حُلْفَتِهِمْ كُلَّهُمْ بِالْمَنْصُورَةِ وَبِالْقَاهِرَةِ فِي دَارِ الْوِزَارَةِ عِنْدَ الْأَمِيرِ حُسَامِ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ لِانْتِهَى عَشْرَةِ بَقِيَّتِ مِنْ شَعْبَانَ . وَكَانَتْ الْعَلَامَاتُ تَخْرُجُ مِنَ الدَّهَالِيزِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْمَنْصُورَةِ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِحُطٍّ خَادِمٍ يُقَالُ لَهُ سَهَيْلٌ ، لَا يَشْكُ مِنْ رَأَاهَا أَنَّهَا حَطَّ السُّلْطَانُ . وَمَشَى ذَلِكَ عَلَى الْأَمِيرِ حُسَامِ الدِّينِ بِالْقَاهِرَةِ .

وَلَمْ يَتَقَوَّهْ أَحَدٌ بِمَوْتِ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ كَانَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِسَمَائِيْنَ بَقِيَّتِ مِنْ شَعْبَانَ ، وَزَدَ الْأَمْرُ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِدُعَاءِ الْخَطِيَاءِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ لِلْمَلِكِ الْمُعْظَمِ بَعْدَ الدُّعَاءِ لِلْسُّلْطَانِ ، وَأَنْ يُنْقَشَ اسْمُهُ عَلَى السُّكَّةِ .

- ١٠ فَلَمَّا عَلِمَ الْفِرْنَجُ بِمَوْتِ السُّلْطَانِ ، خَرَجُوا مِنْ دِيْمِيَاطُ بِفَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ - وَشَوَانِيهِمْ تُحَاذِبُهُمْ فِي الْبَحْرِ - حَتَّى نَزَلُوا فَارِسْكَوْرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِحَمْسِ بَقِيَّتِ مِنْ شَعْبَانَ فَوَزَدَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْغَدِ كِتَابٌ إِلَى الْقَاهِرَةِ مِنَ الْعَشْكَرِ ، أَوَّلُهُ : ﴿إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آلَةُ ٤١ : سُورَةُ التَّوْبَةِ] ، وَفِيهِ مَوَاعِظُ بَلِيغَةٌ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ فَقَرَأَ عَلَى مَثْبَرِ جَامِعِ الْقَاهِرَةِ وَقَدْ جَمِيعَ النَّاسِ لِسَمَاعِيهِ ، فَازْتَجَمَتِ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُ وَظَوَاهِرُهَا بِالْبَيْكَاءِ وَالْقَوِيلِ ، وَأَتَقَنَ النَّاسُ بِاشْتِيَاءِ الْفِرْنَجِ عَلَى الْبِلَادِ لِحُلُولِ الْوَقْتِ مِنْ مَلِكٍ يَقُومُ بِالْأَمْرِ ، لَكُنْهُمْ لَمْ يَهْتُؤُوا ، / وَخَرَجُوا مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ ، فَاجْتَمَعَ عَالَمٌ عَظِيمٌ .
- ١٥ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، أَقْتَتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَالْفِرْنَجُ ، فَاسْتَشْهِدَ الْقَلَائِيَّ أَمِيرَ مَجْلِسِ وَجْمَاعَةِ ، وَنَزَلَ الْفِرْنَجُ شَارِمْسَاحَ . وَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ سَابِعِهِ نَزَلُوا الْبَرْمُونُ ، فَاضْطَرَبَتِ النَّاسُ وَزُلْزَلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا لَقُرْبِهِمْ مِنَ الْعَشْكَرِ . وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَالِثِ عَشْرِهِ ، وَصَلُوا تَجَاهَ الْمَنْصُورَةِ ، وَصَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَحْرُ أَشْمُومٍ وَخَنْدَقُوا عَلَيْهِمْ ، وَأَدَارُوا عَلَى خَنْدَقِهِمْ سُورًا سَتَرُوهُ بِكَثِيرٍ مِنَ السُّنَابِرِ ، وَنَصَبُوا الْهَجَانِقَ لِيُزَيَّعُوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَصَارَتْ شَوَانِيهِمْ بِإِزَائِهِمْ فِي بَحْرِ الثَّيْلِ ، وَشَوَانِي الْمُسْلِمِينَ بِإِزَاءِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالتَّحَمَّ الْقِتَالُ بَرًّا وَبَحْرًا . وَفِي سَادِسِ عَشْرِهِ ، نَقَرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ سِتَّةَ خَيَْالَةٍ أَشْجَرُوا بِمُضَابِقَةِ الْفِرْنَجِ . وَفِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ أَسْرَوْا مِنَ الْفِرْنَجِ كُنْدًا مِنْ أَقَارِبِ الْمَلِكِ .

^١ لعل المقصود كونت Comte وهو أحد الألقاب الشرقية لطائفة النبلاء في فرنسا .

وَأَبْلَى عَوَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالِ الْفِرْنَجِ بِلَاءٌ كَبِيرًا ، وَأَنْكَوَهُمْ نِكَائَةً عَظِيمَةً ؛ وَصَارُوا يَمُتُّونَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَأْبِرُونَ ، وَيَلْقُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَاءِ وَيَمُوتُونَ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ الْفِرْنَجُ وَيَتَحِيلُونَ^(٥) فِي اخْتِطَافِ الْفِرْنَجِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَلَا يَهَابُونَ الْمَوْتَ ، حَتَّى إِنَّ إِنْسَانًا قَوَّزَ بِطَيْخَةٍ وَحَمَلَهَا عَلَى رَأْسِهِ ، وَغَطَّسَ فِي الْمَاءِ حَتَّى حَاذَى الْفِرْنَجَ ، فَطَنَّهُ بَعْضُهُمْ بِطَيْخَةٍ وَنَزَلَ حَتَّى يَأْخُذَهَا ، فَخَطَفَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ سَابِعِ شَوَّالٍ ، أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ شُؤْنَةَ لِلْفِرْنَجِ فِيهَا كُنْدٌ وَمَاتَنَا رَجُلٌ .
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ النِّصْفِ مِنْهُ ، رَكِبَ الْفِرْنَجُ إِلَى بَرِّ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتَتَلُوا ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ أَرْبَعُونَ فَارِشًا ، وَسَيَّرَ فِي عِدَّةٍ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِسَبْعَةِ وَسْتِينَ أَسِيرًا ، مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَكْبَارِ الدَّوَادِرَةِ .
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَانِي عَشْرِهِ ، أُخْرِقَتِ لِلْفِرْنَجِ مَرْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الْبَحْرِ ، وَاسْتَظْهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ .

وَكَانَ يَخْرُ أَشْمُومٌ فِيهِ مَخَابِضٌ ، فَذَلَّ بَعْضٌ مِنْ لَا دِينَ لَهُ مَن يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ الْفِرْنَجَ عَلَيْهَا ، فَزَكَبُوا سَحَرَ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ خَامِسَ ذِي الْقَعْدَةِ أَوْ رَابِعِهِ ، وَلَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ إِلَّا وَقَدْ هَجَمُوا عَلَى الْعَشْكَرِ .

وَكَانَ الْأَمِيرُ فَخْرُ الدِّينِ قَدْ عَبَّرَ إِلَى^(٦) الْحَمَامِ ، فَأَتَاهُ الصَّبْرِيخُ بِأَنَّ الْفِرْنَجَ قَدْ هَجَمُوا عَلَى الْعَشْكَرِ . فَزَكَبَ دَهْشًا غَيْرَ مُغْتَدٍّ وَلَا مُتَحَفِّظٍ ، وَسَاقَ لِأَمْرِ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ بِالرُّكُوبِ فِي طَائِفَةٍ مِنْ تَمَالِيكِهِ ، فَلَقِيَهُ عِدَّةٌ مِنَ الْفِرْنَجِ الدَّوَادِرَةِ ، وَحَمَلُوا عَلَيْهِ فَفَرُّوا أَصْحَابَهُ ، وَأَتَتْهُ طَغَنَةٌ فِي جَنْبِهِ ، وَأَخَذَتْهُ الشُّبُوفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِي الْحَالِ هَدَّتْ تَمَالِيكُهُ فِي طَائِفَةٍ إِلَى دَارِهِ ، وَكَسَرُوا صِنَادِيقَهُ وَخَزَائِنَهُ ، وَنَهَبُوا أَمْوَالَهُ وَخُيُولَهُ .

وَسَاقَ الْفِرْنَجُ عِنْدَ مَقْتَلِ الْأَمِيرِ فَخْرِ الدِّينِ إِلَى الْمَنْصُورَةِ فَتَفَرَّقَ^(٧) الْمُسْلِمُونَ خَوْفًا مِنْهُمْ ، وَتَفَرَّقُوا يَمِينَةً وَيَسْرَةً ، وَكَادَتْ الْكَثْرَةُ أَنْ تَكُونَ ، وَتَمَحَّوُ الْفِرْنَجُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ .

وَوَصَلَ الْمَلِكُ رِيْدَا فَرَنْسَ^(٨) إِلَى بَابِ قَصْرِ السُّلْطَانِ ، وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا أَنْ يَمْلِكَهُ . فَأَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ طَائِفَةَ الْمَمَالِكِ مِنَ الْبَحْرَةِ وَالْجَمْدَارِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَدَّوْهُمُ لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَمَنْ جَمَلَتْهُمْ بَيَّزَسَ الْبُتْدُقْدَارِي ، حَمَلُوا عَلَى الْفِرْنَجِ حَمَلَةً صَدَقُوا فِيهَا اللَّقَاءَ ، حَتَّى أَزَاخَوْهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ ، وَأَهْلَوْا فِي مَكَانَتِهِمْ بِالشُّبُوفِ وَالذَّبَابِيسِ فَأَنْهَزُوا .

وَبَلَغَتْ عِدَّةً مِنْ قُتِلَ مِنْ قُزَّانِ الْفِرْنَجِ الْحَيَّالَةِ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ فَارِسٍ ، وَأَمَّا
الرَّوَّاجِلَةُ فَإِنَّهَا كَانَتْ وَصَلَتْ إِلَى الْجِشْرِ لَتَعْدِي ، فَلَوْ تَرَاخَى الْأَمْرُ حَتَّى صَارُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِأَعْضَلَ
الدَّاءَ . عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ كَانَتْ بَيْنَ الْأَرِزَّةِ وَالْأَرْوَبِ ، وَلَوْلَا ضَيْقُ الْجَمَالِ لَمَا أَقَلَّتْ مِنَ الْفِرْنَجِ
أَحَدٌ . فَتَجَا مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ ، وَضَرَبُوا عَلَيْهِمْ سُورًا ، وَحَفَرُوا خَنْدَقًا . وَصَارَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي الْبَرِّ
الشُّرُفِيِّ ، وَمُعْظَمُهُمْ فِي الْجَزِيرَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِدِفْيَاطِ .

وَكَانَتْ الْبَطَاقَةُ عِنْدَ الْكَبْشَةِ سَرَّحَتْ عَلَى جَنَاحِ الطَّائِرِ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَأَنْزَعَجَ النَّاسُ انْزِعَاجًا
عَظِيمًا ، وَوَزَدَتْ الشُّوْقَةُ وَبَعْضُ الْعَشْكَرِ ، وَلَمْ تُغْلَقْ أَبْوَابُ الْقَاهِرَةِ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ
وَفِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ سَقَطَ الطَّائِرُ بِالْبِشَارَةِ بِهَزِيمَةِ الْفِرْنَجِ وَعِدَّةٌ مِنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، فَزِيَّتْ الْقَاهِرَةُ ،
وَضُرِبَتْ الْبِشَائِرُ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، وَسَارَ الْمُعْظَمُ ثُورَانِ شَاهٍ إِلَى دِمَشْقَ فَدَخَلَهَا يَوْمَ السَّبْتِ آخِرَ شَهْرِ
رَمَضَانَ ، وَاشْتَوَّلَى عَلَى مِنْهَا . وَلَازِمٌ مَضِيٍّ مِنْ شَوَالِ سَقَطَ الطَّائِرُ بِوُضُوءِهِ إِلَى دِمَشْقَ ،
فَضُرِبَتْ الْبِشَائِرُ فِي الْعَشْكَرِ بِالْمَنْصُورَةِ وَفِي قَلْعَةِ الْجَبَلِ .

وَسَارَ مِنْ دِمَشْقَ لثَلَاثَ بَقِيٍّ مِنْهُ ، فَتَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ بِقُدُومِهِ ، وَخَرَجَ الْأَمِيرُ حُسَّامُ الدِّينِ بْنِ أَبِي
عَلِيٍّ إِلَى لِقَائِهِ ، فَوَافَاهُ بِالصَّالِحِيَّةِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ بَقِيٍّ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَمِنْ يَوْمِهِدْ أُغْلِيَتْ بَمَوْتِ الْمَلِكِ
الصَّالِحِ ، بَعْدَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَنْطَلِقُ أَحَدٌ بِمَوْتِهِ أَلْبَتَّةَ ، بَلِ الْأُمُورُ عَلَى حَالِهَا ، وَالذَّهْلِيُّ
الْشَّلْطَانِي بِحَالِهِ ، وَالسَّمَاطُ عَلَى الْعَادَةِ ، وَشَجَرُهُ^(١) الدُّرُّ ثُمَّ خَلِيلُ زَوْجَةِ الشَّلْطَانِ تُدَبِّرُ الْأُمُورَ
وَتَقُولُ : الشَّلْطَانُ مَرِيضٌ مَا إِلَيْهِ وَضُولُ . ثُمَّ سَارَ مِنَ الصَّالِحِيَّةِ ، فَتَلَقَّاهُ الْأُمَرَاءُ وَالْمَحَالِيكُ ، وَاسْتَقَرُّ
بِقَضْرِ الشَّلْطَانَةِ مِنْ الْمَنْصُورَةِ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ تَاسِعِ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ ، عَمِلَ الْمُسْلِمُونَ مَرَاكِبَ وَحَمَلُوهَا عَلَى الْجِمَالِ إِلَى بَحْرِ الْحَمَّةِ وَالْقَوْهَا
فِيهِ ، وَشَخَّنُوهَا بِالْمُقَاتِلَةِ . فَعِنْدَمَا حَازَتْ مَرَاكِبُ الْفِرْنَجِ بَحْرَ الْحَمَّةِ - وَتِلْكَ الْمَرَاكِبُ فِيهِ مُكْمَنَةٌ -
خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَعَتْ^(٢) الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا .

وَقَدِيمُ الْأَسْطُولِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ جِهَةِ الْمَنْصُورَةِ وَأَحَاطَ بِالْفِرْنَجِ ، فَطَفِرَ بَاقِيَيْنِ وَخَمْسِينَ مَوْكِبًا
لِلْفِرْنَجِ ، وَقَتْلَ / وَأَسَرَ مِنْهُمْ نَحْوَ أَلْفِ رَجُلٍ . فَانْقَطَعَتْ الْمِيرَةُ عَنِ الْفِرْنَجِ ، وَاشْتَدَّ عِنْدَهُمُ الْعَلَاءُ ،
وَصَارُوا مَحْصُورِينَ .

فلما كان أوَّل يوم من ذي الحِجَّة ، أَتَخَذَ الفرَنْجُ من المراكِب التي في بَحْرِ المَحَلَّة سبع حَرَارِيق ، وَفَرَّ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وفي يوم عَرَفَة ، بَرَزَتِ الشُّوَانِي الإِسْلَامِيَّة إِلَى مَرَاكِب قَدِمَتِ لِلْفَرَنْجِ فِيهَا مِيرَة ، فَأُخِذَت مِنْهَا اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ مَرْكَبًا مِنْهَا تِسْعُ شَوَانِي ، فَوَهَّتْ قُوَّةُ الْفَرَنْجِ ، وَتَرَايَدَ الْغَلَاءُ عِنْدَهُمْ ، وَشَرَعُوا فِي سَلْبِ الْهَدَنَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى أَنْ يُسَلِّمُوا دِمْيَاطَ ، وَيَأْخُذُوا بَدَلًا مِنْهَا الْقُدْسَ وَبِقُصْ بِلَادِ السَّاحِلِ ، فَلَمْ يُجَاوِزُوا إِلَى ذَلِكَ .

فلما كان اليوم السابع والعشرون من ذي الحِجَّة ، أَخْرَقَ الْفَرَنْجُ أَخْشَابَهُمْ كُلَّهَا ، وَأَتَلَفُوا مَرَاكِبَهُمْ يُرِيدُونَ التَّخَصُّصَ بِدِمْيَاطَ . وَرَحَلُوا فِي لَيْلَةِ الْأَرْبَعَاءِ لثَلَاثِ مَضِينَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ إِلَى دِمْيَاطَ ، وَأَخَذَتِ مَرَاكِبَهُمْ فِي الْإِنْجِدَارِ قُبَالَتَهُمْ . فَزَكَبَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفِيَّتَهُمْ بَعْدَمَا عَدُّوا إِلَى بَرِّهِمْ ، وَطَلَعَ الْفَجْرُ مِنْ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ وَقَدْ أَحَاطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْفَرَنْجِ ، وَقَتَّلُوا وَأَسْرَوْا مِنْهُمْ كَثِيرًا . حَتَّى قِيلَ إِنَّ عِدَدَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْفُرْسَانِ عَلَى فَارَشْكُورَ يَزِيدَ عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَأُسِيرَ مِنَ الْحَيَّالَةِ وَالرَّجَالَةِ وَالصُّنَّاعِ وَالشُّوْقَةِ مَا يُنَاجِزُ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَنُهِبَ مِنَ الْمَالِ وَالذَّخَائِرِ وَالْخُيُولِ وَالْبِغَالِ مَا لَا يُحْصَى .

وَاتَّخَذَ الْمَلِكُ رِيْدَا فَرَنْسَ^(٥) وَأَكَابِرَ الْفَرَنْجِ إِلَى تَلٍّ ، وَوَقَّفُوا مُسْتَقْسِلِينَ وَسَلَّوُوا الْأَمَانَ ، فَأَمَنَتْهُمْ الطَّوَّاشِي جَمَالُ الدِّينِ مُعْسِنُ الصَّالِحِي ، وَنَزَلُوا عَلَى أَمَانِهِ ، وَأُحِيطَ بِهِمْ وَسِيقُوا إِلَى الْمَنْصُورَةِ . فَقَبِلَ رِيْدَا فَرَنْسَ^(٥) وَاعْتَقَلَ فِي الدَّارِ الَّتِي كَانَ يَنْزِلُ فِيهَا الْقَاضِي فَخْرُ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ لُقْمَانَ كَاتِبَ الْإِنْشَاءِ ، وَوُكِّلَ بِهِ الطَّوَّاشِي صَبِيحُ الْمُعْظَمِي ، وَاعْتَقَلَ مَعَهُ أَشْوَاهُ ، وَرُتِبَ لَهُ رَاتِبٌ يُحْتَمَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ^١ .

وَرَسَمَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ لَسَيِّفِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ الطُّورِي - أَخَذَ مِنْ وَصَلِ صُحْبَتِهِ مِنَ الشَّرْقِ - أَنْ يَتَوَلَّى قَتْلَ الْأَمْسَرِيِّ . فَكَانَ يُخْرِجُ مِنْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَ مِائَةِ رَجُلٍ وَيَقْتُلُهُمْ وَيُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ حَتَّى قَتَلُوا^٢ .

(٥) بولاق : رواد فرنسا .

^٢ التويري : نهاية الأرب ٢٩ : ٣٥٦ .

^١ انظر أبا شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع

١٨٣ - ١٨٤ : العيني : عقد الجمان ١ : ١٨٠ - ١٩٠ .

وَلَمَّا قُبِضَ عَلَى الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْس^٥، وَرَحَلَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ مِنَ الْمَنْصُورَةِ، وَنَزَلَ بِالْهَظْلِيْزِ الشَّلْطَانِي عَلَى فَارْشَكُور، وَعَمِلَ لَهُ بُرْجًا مِنْ خَشَبٍ، وَتَرَانِي فِي قَصْدِ دِيْمِيَاط. وَكَتَبَ بِخَطِّهِ إِلَى الْأَمِيرِ جِمَالِ الدِّينِ بْنِ تَغْمُور نَائِبِهِ بِدِمَشْقَ.

وَلَدَهُ^٥ ثُورَانُ شَاهٍ : « الْحَقْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، وَمَا نُنْصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ [يُنْصِرُ مِنْ يُشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ]^٥، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . يُبَشِّرُ الْمُجَلِّسَ الشَّامِي الْجَمَالِي - بَلْ يُبَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً - بِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الظَّفَرِ بِعَدُوِّ الدِّينِ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَقْبَلَ^د أَمْرَهُ وَاسْتَحْكَمَ شَرَّهُ ، وَيَحْسُ الْعِبَادُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ ، فَتُودُوا ^{هـ} لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » [الآية ٨٧ سورة يوسف] .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ مُسْتَهْلَ السَّنَةِ الْمُبَارَكَةِ - وَهِيَ سَنَةُ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ تَحْتَمُّ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَرَكَتَهَا - فَتَحْنَا الْخَزَائِنَ ، وَبَدَّلْنَا الْأَمْوَالَ ، وَفَرَّقْنَا السَّلَاحَ ، وَجَمَعْنَا الْغُرَبَانَ وَالْمَطْرُوعَةَ ، وَخَلَقْنَا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، وَجَاءُوا مِنْ كُلِّ فَنَجٍ عَمِيقٍ ، وَمَكَانٍ سَحِيقٍ . فَلَمَّا رَأَى الْعَدُوُّ ذَلِكَ ، أَرْسَلَ يُطَلِّبُ الصُّلْحَ عَلَى مَا وَقَعَ الْأَتْفَاقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، فَأَتَيْنَا .

وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْأَرْبَعَاءِ ، تَرَكُوا خِيَامَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ وَقَصَدُوا دِيْمِيَاطَ هَارِيْنَ ، فَبِزُونَا فِي آثَارِهِمْ طَالِيْنَ . وَمَا زَالَ الشَّيْفُ يَعْمَلُ فِي أَذْبَارِهِمْ عَائِمَةُ اللَّيْلِ ، وَقَدْ خَلَّ بِهِمُ الْخِزْيُ^٥ وَالْوَهْلُ .

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، قَتَلْنَا مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا غَيْرَ مِنَ الَّذِي نَفْسَهُ فِي اللَّجَجِ ، وَأَمَّا الْأَشْرَى فَحَدِّثْ عَنِ الْبُخْرِ وَلَا حَرَجَ . وَالتَّجَا الْفَرَنْسِيْسَ إِلَى الْمُنْبِيَةِ^١ وَطَلَّبَ الْأَمَانَ ، فَأَمَّنَّاهُ وَأَخَذْنَاهُ وَأَكْرَمْنَاهُ ، وَسَلَعْنَاهُ دِيْمِيَاطَ

(٥) بولاق : رواد فرنس . (b) بولاق : وولده . (c) إضافة من العمري . (d) بولاق : استكمل . (e) الأصل : الحزن .

^١ أي منية أبي عبد الله ، وهي مازالت موجودة باسم منية مركز فلرسكور بمحافظة الدقهلية (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة الخولي عبد الله وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع ديمياط وتبعد ٣٦٥ : ٦٠٣ هـ) .

بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ، وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ^١.

وَبَقِيَ مَعَ الْكِتَابِ غِفَارَةٌ^٢ الْمَلِكِ قَرْنِيسِ فَلَبِسَهَا الْأَمِيرُ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ يَحْمُورٍ، وَهِيَ أَشْكُزْلَاطُ^٣ أَحْمَرُ بَقَرُو سِنْجَابٍ. فَقَالَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ إِسْرَائِيلَ:

[الخفيف]

إِنَّ غِفَارَةَ الْقَرْنِيسِ الَّتِي جَاءَتْ جِبَاءً^٤ لِسَيِّدِ الْأُمَرَاءِ
كِبْيَاضُ الْقِرْطَاسِ لَوْنًا وَلَكِنْ صَبَغْتُهَا شَهْوَنًا بِالْذَّمَاءِ

وَقَالَ^٥:

[الطويل]

أَسَيِّدَ أُمَلَاكِ الزَّمَانِ بِأَسْرِهِمْ تَنَجَّرَتْ مِنْ نَضْرِ الْإِلَهِ وَغُودِهِ
فَلَا زَالَ مَوْلَانَا يُبَيِّحُ حَتَّى الْعِدَى وَثُلَيْسَ أَشْلَابٍ^٦ الْمَلُوكِ غَبِيْدِهِ

وَأَخَذَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ يُهْدِدُ زَوْجَةَ أَبِيهِ شَجَرَةً^٧ الدَّرَّ وَيُطَالِيهَا بِمَالِ أَبِيهِ، فَخَافَتْهُ وَكَاتَبَتْ تِمَالِيكَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ تُخَرِّضُهُمْ عَلَيْهِ.

وَكَانَ الْمُعْظَمُ لَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْفَارِسُ أَقْطَايَ إِلَى جِصْنَ كَيْفَا، وَعَدَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُ إِمْرَةً فَلَمْ يَفِ لَهُ بِهَا، وَأَعْرَضَ مَعَ ذَلِكَ عَنْ تِمَالِيكَ أَبِيهِ وَأَطْرَحَ أَمْرَاءَهُ، وَصَرَفَ الْأَمِيرَ حُسَامَ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ عَنْ نِيَابَةِ السُّلْطَانَةِ وَأَخْضَرَهُ إِلَى الْقَشْكَرِ وَلَمْ يَقْبَأْ بِهِ، وَأَتَعَدَّ غِلْمَانُ أَبِيهِ^٨.

وَاخْتَصَّ بِمَنْ وَصَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَجَعَلَهُمْ فِي الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ، فَجَعَلَ الطَّوَاشِي مَشْرُورًا - خَادِمَهُ - أَشْتَادَازًا، وَعَمِلَ صُبَّيْحًا - وَكَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَخْلًا - أَمِيرَ جُنْدَارِهِ^٩، وَأَمَرَ أَنْ / تَكُونَ لَهُ غَصَا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْطَاهُ مَالًا بِجَزِيلًا وَإِقْطَاعَاتٍ جَلِيلَةً.

وَكَانَ إِذَا سَكِرَ جَمَعَ الشَّمْعَ وَضَرَبَ رُؤُوسَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَنْقَطِعَ، وَيَقُولُ: «هَكَذَا

(a) بولاق: غفارة. (b) بولاق: جاءت حقًا. (c) بولاق: وقال آخر. (d) بولاق: أثواب. (e) بولاق: شجرة. (f) بولاق: خازنداره.

^١ النويري: نهاية الأرب ٣٥٦:٢٩-٣٥٧. ^٢ النويري: نهاية الأرب ٣٥٨:٢٩-٣٥٩. ^٣ النويري: نهاية الأرب ٣٥٨:٢٩-٣٥٩. ^٤ النويري: السلوك ٣٥٦:١-٣٥٨. ^٥ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٣٦٧:٦-٣٦٨. ومصدره سبط ابن الجوزي. ^٦ النويري: نهاية الأرب ٣٥٦:٢٩-٣٥٧. ^٧ النويري: السلوك ٣٥٦:١-٣٥٨. ^٨ النويري: السلوك ٣٥٦:١-٣٥٨. ^٩ النويري: السلوك ٣٥٦:١-٣٥٨.

أَفْعُلُ بِالْبَحْرِئَةِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِ هَرَجٌ وَخِطَّةٌ . وَاسْتَحَبَّ عَلَى الْعُكُوفِ بِمَلَاذِهِ ، فَتَفَرَّتْ مِنْهُ الثُّمُوسُ ^١ .

وَبَقِيَ كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ تَاسِعٍ ^٢ عَشْرِي الْمَحْرَمِ ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى السَّمَاطِ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَخَذَ الْمَمَالِيكَ الْبَحْرِئَةَ وَضَرَبَهُ بِسَيْفٍ قَطَعَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ ، فَفَرَّ إِلَى الْبُرْجِ ، فَاتَّحَفُوا عَلَيْهِ وَشَبَّوهُمْ مُضَلَّةً ، فَصَبَدَ أَغْلَى الْبُرْجِ الْحَشَبَ فَرَمَوْهُ بِالثُّشَابِ وَأَطْلَقُوا النَّارَ فِي ^٣ الْبُرْجِ . فَالْقَى نَفْسَهُ وَمَرَّ إِلَى الْبَحْرِ وَهُوَ يَقُولُ : مَا أُرِيدُ مُلْكَكُمْ ، دَعُونِي أَرْجِعَ إِلَى الْحِصْنِ ، يَا مُسْلِمِينَ ، مَا فِيكُمْ مِنْ تَضَطُّعٍ لِي وَبُحَيْرِي ، وَسَائِرِ الْعَسَاكِرِ بِالشُّيُوفِ وَاقِفَةً ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، وَالثُّشَابُ يَأْخُذُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ . وَأَذْرَكَوهُ قَطَّاعًا بِالشُّيُوفِ ، وَمَاتَ خَرِيقًا غَرِيقًا قَتِيلًا فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْمَذْكُورِ ، وَتَرَكَ عَلَى الشَّاطِئِ ^٤ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ دُفِنَ ^٥ .

وَلَمَّا قَتِلَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ ، اتَّفَقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ عَلَى إِقَامَةِ شَجَرٍ ^٦ الدَّرِّ وَالِدَةِ خَلِيلٍ فِي مَمْلَكَةِ مِصْرَ ، وَأَنْ يَكُونَ مُقَدِّمَ الْعَشْكَرِ الْأَمِيرُ عَزَّ الدِّينَ أَيْمَنُ التُّوْكْمَانِي الصَّالِحِي ^٧ ، وَخَلَفَ الْكُلَّ عَلَى ذَلِكَ ، وَسَيَّرُوا إِلَيْهَا عِزَّ الدِّينِ الرُّومِيَّ ، فَقَدِمَ عَلَيْهَا فِي قَلْعَةِ الْجَبَلِ وَأَخْلَمَهَا بِمَا اتَّفَقَ ، فَضَيَّعَتْ بِهِ ، وَكَتَبَتْ عَلَى التَّوَاقِيحِ عِلَامَتَهَا وَهِيَ « وَالِدَةُ خَلِيلٍ » ، وَخُطِبَتْ لَهَا عَلَى الْمَنَابِرِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ .

وَجَرَى الْحَدِيثُ مَعَ الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسٍ ^٨ فِي تَسْلِيمِ دِمِيَاطِ ، وَتَوَلَّى مُفَاوَضَتَهُ فِي ذَلِكَ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ بَنُ أَبِي عَلِيٍّ الْهَذَبَانِي ، فَأُجَابَتْ إِلَى تَسْلِيمِهَا ، وَأَنْ يُخْلَى عَنْهُ بَعْدَ مُحَاوَرَاتٍ . وَسَيَّرَ إِلَى الْفِرْنَجِ بِدِمِيَاطِ يَأْتُرُهُمْ بِتَسْلِيمِهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَسَلَّمُوهَا - بَعْدَ مُجْهَدٍ بَجْهِيدٍ مِنْ كَثْرَةِ الْمُرَاجَعَاتِ - فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ثَلَاثَ صَفَرٍ ، وَزَفَعَ الْعَلَمَ السُّلْطَانِي عَلَى سُورِهَا ، وَأُغْلِنَ فِيهَا بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَشَهَادَةِ الْحَقِّ ، بَعْدَمَا أَقَامَتْ يَدُ الْفِرْنَجِ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ .

وَأُفْرِجَ عَنِ الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسٍ ^٩ وَعَنْ أَخِيهِ وَزَوْجَتِهِ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَى الْبَرِّ الْغُرْبِيِّ . وَرَكِبُوا الْبَحْرَ مِنَ الْقَدِّ - وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ رَابِعَ صَفَرٍ - وَأَقْلَعُوا إِلَى عَكَّا .

(a) السلوك : سادس ، والنويري : سادس أو سابع . (b) بولاق : على . (c) بولاق : الشط . (d) بولاق : شجرة .

(e) بولاق : رواد فرانس .

^١ المقرئ : السلوك ١ : ٣٥٩ - أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٣٧١ .

الزاهرة ٦ : ٣٧٠ - ٣٧١ .

^٢ نفسه ٢٩ : ٣٦٢ - ٣٦٣ ؛ وفيما يلي ٢ : ٢٢٧ .

^٣ النويري : نهاية الأرب ٢٩ : ٣٦٠ - ٣٦١ المقرئ :

وفي هذه التوبة يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح^١:

[السريع]

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَفَّتْهُ مَقَالَ صِدْقِي^(٥) عَنْ قَوْلِ نَصِيحِ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
أَتَيْتَ مِضْرَ تَبْتَغِي مُلْكَهَا تَحْسَبُ أَنَّ الزُّمْرَ بِأَطْيَلُ رِيحِ
فَسَأَلَ الْخَوْنُ إِلَى أَدْهَمِ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَظَرِنَاكَ الْفَسِيحِ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِحُشْنِ تَذْيِيرِكَ بَطْنِ الضَّرِيحِ
خَلَسُونَ أَلْفًا لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَبِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ أَوْ^(٥) جَرِيحِ
وَقَفَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَشْتَرِيحِ
إِنْ كَانَ بِأَبَائِكُمْ بِذَا رَاضِيًا فَوَيْلٌ غَشَّ قَدْ أَتَى مِنْ نَصِيحِ
قُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْعَرُّوا عُرْوَةَ لِأَخِيذِ نَارٍ أَوْ لِنَقْدِ صَحِيحِ
دَارِ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَيْدِ بَاقِي وَالطَّوَاشِي صَبِيحِ

وقدّر الله أن الفرّنسيّس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة، جمّع عدّة جمُوع وقصّد ثوئس، فقال شاب من أهلها يُقال له أختد بن إسماعيل الزّيات:

[الحفيد]

يَا فَرَنْسِيْسِ هَذِهِ أَخْتُ مِضْرٍ فَتَأَقَّبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصْبِيْرُ
لَكَ فِيهَا دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ قَبِيْرٍ وَطَوَاشِيكَ، مُتَكَبِّرُ وَتَكْبِيْرُ
فَكَانَ هَذَا قَوْلًا حَسَنًا، فَإِنَّهُ مَاتَ وَهُوَ عَلَى مُحَاصَرَةِ ثُوئْس^٢.

(a) يولاقي: نصيح. (b) ساقطة من يولاقي.

وفيات سنة ٦٤٩ (٢٧:٧) (في وفيات سنة ٦٥٠).

ونشر ديوان ابن مطروح في إستانبول - مطبعة علمرة
١٢٩٨هـ/١٨٨٠م. وانظر الأبيات عند الصفدي: الوافي
بالوفيات ١: ٣١٥-١٠ ابن شاذلي: فوات الوفيات ١: ٢٣٢
المقريزي: السلوك ١: ٣٦٣-٣٦٤ أبي المحاسن: النجوم
الزاهرة ٦: ٣٧٠ والمنهل الصافي ٣: ٤٤١.

^٢ قارن المقريزي: السلوك ١: ٣٦٤-٣٦٥، وانظر
الأبيات عند، الصفدي: الوافي بالوفيات ١: ٣١٥-١٠

^١ الأمير صاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن
عيسى بن إبراهيم بن مطروح من أهل صعيد مصر، قدم مع
الملك الصالح نجم الدين أيوب بأيدي وعزّان وحسن كيفا،
فلما تسلطن بمصر ولّاه نظرا لحزّانه، ثم وُزّله بنميش إلى أن
عزله وتغيّر عليه وتوفي في شعبان سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م.
(راجع، أبا شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع
١٨٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦: ٢٥٨-٢٦٦
الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٧٣-٢٧٤، المقريزي:
السلوك ١: ٣٨٢، أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٤) (في

وَلَمَّا تَسَلَّمَ الْأَمْرَاءُ دِمْيَاطَ ، وَرَدَتِ الْبُشَيْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَضُرِبَتِ الْبَشَائِرُ وَرُمِيَتْ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُ ، فَقَدِمَتِ الْعَسَاكِرُ مِنْ دِمْيَاطَ يَوْمَ الْخَمِيسِ تَاسِعَ صَفَرٍ^١ .

فَلَمَّا كَانَ فِي سُلْطَنَةِ الْأَشْرَفِ مُوسَى ابْنِ الْمَلِكِ الْمَشْعُودِ أَقْسِيسَ ابْنِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالْمَلِكِ الْمُجِيرِ عِزَّ الدِّينِ التُّرْكُمَانِي ، وَكَثُرَ الْأَخْيَالُ بِمِصْرَ ، وَاسْتَوْلَى الْمَلِكُ النَّاصِرُ يَوْسُفَ بْنَ الْقَزِيزِ عَلَى دِمَشْقَ ، اتَّفَقَ أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ بِمِصْرَ - وَهُمْ الْمَمَالِكُ الْبَحْرِيَّةُ - عَلَى تَخْرِيبِ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، خَوْفًا مِنْ مَسِيرِ الْفَرَجِ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى . فَسَيَّرُوا إِلَيْهَا الْحَجَّارِينَ وَالْفَعْلَةَ ، فَوَقَعَ الْهَيْدَمُ فِي أَشْوَارِهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، حَتَّى خَرِبَتْ كُلُّهَا ، وَمُجِيتِ أَثَارِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الْجَمَاعِ ، وَصَارَ فِي قَلْبِهَا أَخْصَاصٌ عَلَى الثِّيلِ سَكَنَتِهَا النَّاسُ الصُّعْفَاءُ ، وَسَمَّوْهَا الْمُنْشِيَّةَ^٢ . وَهَذَا الشُّوْرُ هُوَ الَّذِي بَنَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ^٣ .

١٠ فَلَمَّا اسْتَبَدَّ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبُوسُ الْبُنْدُقْدَارِي / الصَّالِحِي بِمَمْلَكَةِ مِصْرَ بَعْدَ قَتْلِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِّ قُطْلُزَ ، أَخْرَجَ مِنْ مِصْرَ عِدَّةً مِنَ الْحَجَّارِينَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ لِرَدِّمِ قَمِّ بَحْرِ دِمْيَاطَ ، فَتَمَصَّوْا وَقَطَعُوْا كَثِيرًا مِنَ الْقَرَابِيسِ^٤ وَأَلْقَوْهَا فِي بَحْرِ الثِّيلِ الَّذِي يَنْصَبُ مِنْ شِمَالِ دِمْيَاطَ فِي الْبَحْرِ الْمِلْحِ حَتَّى ضَاقَ وَتَقَدَّرَ دُخُولُ الْمَرَاكِبِ مِنْهُ إِلَى دِمْيَاطَ^٥ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عَلَى ذَلِكَ ، لَا تَقْدِيرَ مَرَاكِبُ الْبَحْرِ الْكِبَارِ أَنْ تَدْخُلَ مِنْهُ ، وَلَئِنَّمَا يُنْقَلُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَضَائِعِ فِي مَرَاكِبِ نِيلِيَّةٍ تُغْرَفُ عِنْدَ أَهْلِ دِمْيَاطَ بِالْجُرُومِ (وَاحِدَهَا جَزْمٌ) وَتَصِيرُ مَرَاكِبُ بَحْرِ الْمِلْحِ وَاقِفَةً بِأَخْرِ الْبَحْرِ ، قَرِيبًا مِنْ مُلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ .

٢٠ وَتَزْعَمُ أَهْلُ دِمْيَاطَ الْآنَ أَنَّ سَبَبَ امْتِنَاعِ دُخُولِ مَرَاكِبِ الْبَحْرِ بِجَبَلٍ فِي قَمِّ الْبَحْرِ ، أَوْ رَقْلٍ يَتَرَفَّى هُنَاكَ . وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ مَا يَجِدُونَهُ مِنْ ثَلَاثِ الْمَرَاكِبِ إِذَا هَبَّحَمَتْ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ ، وَجَهْلُهُمْ بِأَحْوَالِ الْمَوْجُودِ ، وَمَا مَرَّ مِنَ الزَّوَالِ . وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا يُخَافُ عَلَى الْمَرَاكِبِ عِنْدَ وُرُودِهَا قَمِّ الْبَحْرِ ، وَكَثِيرًا مَا تَكْلَفُ فِيهِ . وَقَدْ بَيَّرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى شَاهَدْتُهُ ، وَرَأَيْتُهُ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ .

^٣ فيما تقدم ٥٨٣ .

^٤ القرباص ج. القرايص هي الحجلوة (Dozy, R.)
^٥ (Suppl. Dict. Ar. II, p. 332) .

^٥ المقرئبي: السلوك ١: ٤٤٦ .

= ١٣١٦ ابن شاذر: فوات الوفيات ١: ٢٣٢ أبي
 الحاسن: المنهل الصافي ٣: ٤٤٢ .

^١ المقرئبي: السلوك ١: ٣٦٦ .

^٢ نفسه ١: ٣٧٢؛ أبو الحاسن: النجوم ٧: ٢٠ ، ٢٣ .

وأما دمياط الآن فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط ، وغُيِّلَ هناك أشخاص ، وما تَرَحَّت
تَزْدَادُ إلى أن صارت بَلَدَةً كَبِيرَةً ذات أشواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها
تُشْرِف على النيل الأعظم ، ومن ورائها البساتين ، وهي أَحْسَنُ بلاد الله مَنْظَرًا . وقد أَخْبَرَنِي
الأمير الوزير المشير الأستاذار بَلْبَغًا السالمي - رحمه الله - أنه لم يَر في البلاد التي سَلَكَها من
سَمَرْقَنْد إلى مصر أَحْسَن من دمياط هذه ، فَعَلَّيْتُ أَنَّهُ يَغْلُو في مَدْحِها إلى أن شَاهَدْتُها ، فإذا هي
أَحْسَنُ بَلَدٍ وَأَنْزَه ، وفيها أقول :

[الطول]

سَقَى هَهْدَ دَمِيَاطَ وَحَيَاةَ مِنْ عَهْدٍ فَقَدْ زَادَنِي ذِكْرَاهُ وَجَدْنَا عَلَى وَجْدٍ
وَلَا زَالَتْ الْأَنْوَاءُ تَسْقِي سِحَابِهَا دِهَازًا حَكَتْ مِنْ لَحْنِهَا جَنَّةَ الْحَلْدِ
فِيَا مُحْسِنَ هَاتِيكَ الدَّيَّارَ وَطِيبَهَا فَكَمْ قَدْ حَوَتْ لَحْنًا يَجَلُّ عَنِ الْقَدِّ
فَالَهُ أَنْهَارٌ تَجِفُّ بِرَوْضِهَا لِكُلِّ مَرْهَفٍ الْمَضْفُوقِ أَوْ صَفْحَةِ الْحَدِّ
وَبَشَائِنِهَا الرِّيَّانَ يَحْكِي مُتَيْمًا تَبْدُلُ مِنْ وَصَلِ الْأَجْبَةِ بِالْصُدِّ
فَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الذَّمِّعِ غَارِقًا يُرَاعِي نُجُومَ اللَّيْلِ مِنْ وَخْشَةِ الْفَقْدِ
وَطَلَّ عَلَى الْأَقْدَامِ تَحْسِبُ أَنَّهُ لَطُولِ انْتِظَارٍ مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَغْدِ
وَلَا يَسِيحُ تِلْكَ التَّوَاعِيمُ إِنَّهَا تُجَدِّدُ حُزْنَ الْوَالِدِ الْمَذْيِفِ الْفَرْدِ
أَطَارِحُهَا سَجُوجِي وَصَارَتْ كَأَنَّمَا تُطَارِحُ شَكَاوَاهَا بِمِثْلِ الَّذِي أُبْدِي
فَقَدْ خِلْتُهَا الْأَفْلَاكَ فِيهَا نُجُومُهَا تَدُورُ بِمَحْضِ النُّفْعِ مِنْهَا وَبِالشَّغْدِ
وَفِي الْبِرِّكَ الْغَرَاءِ يَا مُحْسِنَ تَوْفَرٍ حَلَا وَغَدَا بِالزُّهْرِ يَسْطُو عَلَى الْوَرْدِ
سَمَاءَ مِنَ الْجَلُورِ فِيهَا كَوَاكِبُ عَجِيبَةٍ صَبَغَ اللَّوْنُ مُحْكَمَةَ التُّصْدِ
وَفِي شَاطِئِ النَّيْلِ الْمُقَدَّسِ نُزْهَةٌ تُعِيدُ شَبَابَ الشَّيْبِ فِي عَوِيشَةِ الرَّغْدِ
وَتُنْشِي رِيحًا تَطْرُدُ الْهَمَّ وَالْأَسَى وَتُنْشِي لِيَالِي الْوَسْلِ مِنْ طِيبِهَا عِنْدِي
وَفِي مَرْجِ الْيَخْرُزَيْنِ جُحْمٌ عَجَائِبُ قُلُوحٌ وَتَبْدُو مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بُغْدِ
كَانَ الْيَقَاءَ النَّيْلِ بِالْبُخْرِ إِذْ عَدَا مَلِيكَانَ سَارَا فِي الْجَحَايِلِ مِنْ مَجْدِ
وَقَدْ تَزَلَا لِلْحَزَبِ وَاحْتَدَمَ اللَّقَا وَلَا طَعْنٌ إِلَّا بِالْمُتَّقَةِ الْمَدِّ
فَطَلَّا كَمَا بَاتَا وَمَا بَرَحَا كَمَا هُمَا مِنْ جَلِيلِ الْخَطْبِ فِي أَعْظَمِ الْجُهْدِ
فَكَمْ قَدْ مَضَى لِي مِنْ أَفَانِينَ لَذَّةٍ بِشَاطِئِهَا الْعَذْبِ الشَّيْبِ لَدَوِي الْوَرْدِ
وَكَمْ قَدْ نَعِمْنَا فِي الْبَسَاتِينِ بُرْهَةً بَعِثَ مَنِيءٍ فِي أُمَانٍ وَفِي سَعْدِ
وَفِي الْبِرِّزْخِ الْمَأْنُوسِ كَمْ لِي خَلُوةٍ وَعِنْدَ شَطَا عَنْ أَيْمَنِ الْعَلَمِ الْفَرْدِ

١٠

١٥

٢٠

٢٥

هناك تَرَى عَيْنَ البَصِيرَةِ ما تَرَى من الفضل والأفضال والخير والحجْد
فيا رَبِّ هَيِّئْ لي بِفَضْلِكَ عَوْدَةً ومُنْ بها في غير بَلْوَى ولا مُجْهِدٍ

وبديمياط - حيث كانت المَدِينَةُ التي هُدِمَتْ - جامعٌ من أجل مَساجِدِ المسلمين، تُسَمِّيهِ العائِمَةُ
مَسْجِدُ قُتْح، وهو المَسْجِدُ الَّذِي أَسَّسَهُ المسلمون عند قُتْح دِيْمَاطٍ أَوَّلَ ما قَتَحَ اللهُ أَرْضَ مصرَ على
يدِ عمرو بن العاص، وعلى بابِهِ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الكُوفِيِّ «إِنَّهُ عُمَرُ بعد سنة خمس مائة من
الهجرة»، وفيهِ عِدَّةٌ من عُمد الرِخام، منها ما يَبْزُجُ وَجُودَ مِثْلِهِ. وأما عُرْفُ / بهجامع قُتْح، لَنُزُولِ
شَخْصٍ يُقَالُ لَهُ فَاخٍ بِهِ، فَقَالَتِ العائِمَةُ جامعُ قُتْح. وأما هو فَاخٍ بن عُثْمَانَ الأَسْمَرِ التُّكُرُورِيِّ قَدِيمٍ
من مَرَاكِش إلى دِيْمَاطٍ على قَدَمِ التَّجْرِيد، وَسَقَى بها الماءَ في الأشواقِ اخْتِسابًا من غير أن يَتَنَازَلَ
من أَخِذٍ شَيْئًا، وَنَزَلَ في ظَاهِرِ الثَّقَرِ، وَلَزِمَ الصَّلَاةَ مع الجَمَاعَةِ. وَتَرَكَ النَّاسَ جَمِيعًا، ثُمَّ أَقَامَ
بِناحية ثُوْنَةٍ من بُحَيْرَةِ تَيْبَسٍ وهي خَرَابٌ نحو سبعِ سِنِينَ، وَرَمَ مَسْجِدَها. ثُمَّ انْتَقَلَ من ثُوْنَةٍ إلى
جامعِ دِيْمَاطٍ، وَأَقَامَ فِي وَكْرٍ بِأَسْفَلِ المَنَارَةِ من غير أن يُخَالِطَ أَحَدًا، إِلَّا إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ
وَصَلَّى، فَإِذَا سَلَّمَ الإمامُ عادَ إلى وَكْرِهِ، فَإِنْ عَارَضَهُ أَحَدٌ بِحَدِيثِ كَلِمَةٍ وهو قائِمٌ بعد انصِرَافِهِ
من الصَّلَاةِ؛ وكانت حالُهُ أَهْدَى اتِّصَالًا في انفصالٍ، وَأَقْرَبًا في اتِّعَادٍ، وَأَنْشَأَ في نَفَارٍ.

وَحَجَّ، فكان يُفَارِقُ أَصْحَابَهُ عند الرِّحِيلِ، فلا يَرَوْنَهُ إِلَّا وَفَتِ الثُّرُولِ. ويكون سَيِّئُهُ مُتَفَرِّدًا
عنهم، لا يُكَلِّمُ أَحَدًا، إلى أن عادَ إلى دِيْمَاطٍ فَأَخَذَ في تَرْميمِ الجامعِ وتَنْظِيفِهِ بِنَفْسِهِ، حتَّى نَقَى ما
كان فيه من الوُطُوطِ بِشَقْوَفِهِ، وساقَ الماءَ إلى ضَهَارِيجِهِ، وَبَلَّطَ صَحْنَهُ، وَسَبَكَ سَطْحَهُ
بِالجِئْسِ، وَأَقَامَ فِيهِ. وكان قَبْلَ ذَلِكَ من حين خَرِبَتْ دِيْمَاطٍ لا يُفْتَحُ إِلَّا في يومِ الجُمُعَةِ فقط،
فَوُتِّبَ فِيهِ إمامًا رابِعًا يُصَلِّي الخُمُسَ. وَسَكَنَ في بَيْتِ الخُطَّابَةِ، ووَاطَبَ على إقامة الأُورادِ
بِهِ، وَجَعَلَ فِيهِ قُرَاءَةَ الْقُرْآنِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَقَرَّزَ فِيهِ رَجُلًا يَقْرَأُ مِيعَاذاً يُذَكِّرُ النَّاسَ
وَيُعَلِّمُهُم.

وكان يقول: لو عَلِمْتُ بِدِيْمَاطٍ مكانًا أَفْضَلَ من الجامعِ لأَقَمْتُ بِهِ، ولو عَلِمْتُ في الأرضِ
بلدًا يكون فيه الفَقِيرُ أَخْشَلَ من دِيْمَاطٍ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ، وَأَقَمْتُ بِهِ. وكان إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ أَحَدٌ من
الفُقَرَاءِ ولا يَجِدُ ما يُطْعِمُهُ، باعَ من لِياسِهِ ما يُصَيِّفُهُ بِهِ. وكان يَسِيتُ وَيُضَيِّحُ وليس لَهُ مَغْلُومٌ، ولا
ما يَقَعُ عَلَيْهِ العَيْنُ، أو تَسْمَعُهُ الأُذُنُ. وكان يُؤَوِّزُ في السَّرِّ الفُقَرَاءَ والأَراملَ، ولا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا،
ولا يَقْبَلُ غَالِيًا، وَإِذَا قَبِلَ ما يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ أَثَرَ بِهِ. وكان يَبْذُلُ مُجْهِدٍ في كَثَمِ حالِهِ، والله تعالى
يُظْهِرُ خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ من غير قَصْدٍ مِنْهُ لذلك.

وَعَرِفَتْ لَهُ عِدَّةُ كَرَامَاتٍ ، وَكَانَ سُلُوكُهُ عَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ،
وَالْتَفُورِ عَنِ الْفِتْنَةِ ، وَتَرْكِ الدَّعَاوَى وَأَطْرَاجِهَا ، وَسُرِّ حَالِهِ ، وَالتَّحْفُظِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَكَانَ لَا
يُرَافِقُ أَحَدًا فِي اللَّيْلِ ، وَلَا يُعْلَمُ أَحَدٌ يَوْمَ صَوْمِهِ مِنْ يَوْمِ فِطْرِهِ ، وَيَجْعَلُ دَائِمًا قَوْلَ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى » مَكَانَ قَوْلِ غَيْرِهِ « وَاللَّهِ » .

٥ ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْعَزِيزِ الذَّمِيرِي أَسَارَ عَلَيْهِ بِالنِّكَاحِ ، وَقَالَ لَهُ : النِّكَاحُ مِنَ الشُّئَةِ ؛ فَتَزَوَّجَ فِي
آخِرِ عُمرِهِ بِامْرَأَتَيْنِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نَهَارًا أَلْبَنَةً ، وَلَا أَكَلَ عَنْدهما وَلَا شَرِبَ قَطْرًا .
وَكَانَ لَيْلَهُ طَرُوقًا لِلْعِبَادَةِ ، لَكُنْهُ يَأْتِي إِلَيْهِمَا أحيانًا ، وَيَقْطَعُ أحيانًا لَاشْتِغَاكِ زَمَانِهِ كُلَّهُ فِي الْقِيَامِ
بِوُضَائِفِ الْعِبَادَاتِ وَإِثَارِ الْخُلُوةِ .

١٠ وَكَانَ خَوَاصُّ خَدَمِهِ لَا يَعْلَمُونَ بِصَوْمِهِ مِنْ فِطْرِهِ ، وَأَمَّا يَحْمِلُ إِلَيْهِ مَا يَأْكُلُ وَيُوضَعُ عَنْده
بِالْخُلُوةِ ، فَلَا يُرَى قَطْرٌ أَكَلًا . وَكَانَ يُحِبُّ الْفَقْرَ ، وَيُؤَثِّرُ حَالَ الْمَسْكِينَةِ ، وَيَتَطَارَحُ عَلَى الْحُمُولِ
وَالْجَفَا ، وَيَتَوَاضَعُ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، وَيَتَعَاطَلُّ عَلَى الْعُظَمَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ .

١٥ وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ ، وَيَطَالِعُ الْكُتُبَ ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ يَخْطُ بِيَدِهِ شَيْئًا . وَكَانَتْ بِلَاوَتُهُ
لِلْقُرْآنِ بِخُشُوعٍ وَتَذَكُّرٍ . وَلَمْ يَعْمَلْ لَهُ سِجَاةٌ قَطْرًا ، وَلَا أَخَذَ عَلَى أَحَدٍ عَهْدًا ، وَلَا لَبَسَ طَاقِيَةً ، وَلَا
قَالَ أَنَا شَيْخٌ وَلَا أَنَا فَقِيرٌ ، وَمَتَى قَالَ فِي كَلَامِهِ « أَنَا » ، تَفَطَّنَ لِمَا وَقَعَ مِنْهُ ، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ قَوْلِ
أَنَا ، وَلَا حَضَرَ قَطْرٌ سَمَاعًا ، وَلَا أَتَكَرَّرَ عَلَى مَنْ يَحْضُرُهُ .

وَعَنِ شُلُوكِهِ صَلَاحًا مِنْ غَيْرِ إِصْلَاحٍ ، وَنِيَالٍ فِي التَّرَفُّعِ عَلَى أَثْنَاءِ الدُّنْيَا ، وَيَتَرَامَى عَلَى
الْفُقَرَاءِ ، وَيُقَدِّمُ لَهُمُ الْأَكْلَ ، وَلَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ أَكَلًا أَلْبَنَةً .

وَإِذَا اجْتَمَعَ عَنْده النَّاسُ ، قَدَّمَ الْفَقِيرَ عَلَى الْغَنِيِّ . وَإِذَا مَضَى الْفَقِيرُ مِنْ عَنْده ، سَارَ مَعَهُ وَشَيْخُهُ
عِدَّةَ خُطُوتٍ وَهُوَ حَافٍ بِغَيْرِ نَعْلٍ ، وَوَقَّفَ عَلَى قَدَمَيْهِ يَنْظُرُهُ حَتَّى يَتَوَارَى عَنْهُ .

٢٠ وَمَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَرَاءِ يُسَارُّ إِلَيْهِ بِمَشِيخَةٍ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَذْبٍ مَعَ إِمَاتَتِهِ . وَتَقَدَّمَهُ فِي الطَّرِيقِ
وَيَقُولُ : مَا أَقُولُ لِأَحَدٍ أَفْعَلُ أَوْ لَا تَفْعَلُ ، مَنْ أَرَادَ الشُّلُوكَ يَكْفِيهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَعْيَالِهِ ، فَإِنْ مِنْ لَمْ
يَسْأَلْكَ يَنْظُرْهُ لَا يَسْأَلْكَ بِسَمْعِهِ .

وَقَالَ لَهُ شَخْصٌ مِنْ خَوَاصِّهِ : يَا سَيِّدِي ، ادْعِ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا فَتَحَنُّنُ فُقَرَاءٍ ؛ فَقَالَ : إِنْ
أَرَدْتُمْ فَتَحَ اللَّهُ ، فَلَا تُبْقُوا فِي الْبَيْتِ شَيْئًا ثُمَّ اطْلُبُوا فَتَحَ اللَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ جَاءَ : « لَا تَسْأَلُ اللَّهَ
وَلَكَّ خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ » . وَمِنْ كَلَامِهِ : الْفَقِيرُ بِحَالِ الْيَكْرِ ، إِذَا سَأَلَ زَالَتْ بَكَارَتُهُ .

٢٥ وَسَأَلَهُ بَعْضُ خَوَاصِّهِ أَنْ يَدْعُو لَهُ بِسَمْعَةٍ ، وَشَكَا لَهُ الضُّيْقَ ، فَقَالَ : أَنَا مَا أَدْعُو لَكَ بِسَمْعَةٍ ، بَلْ
أَطْلُبُ لَكَ الْأَفْضَلَ وَالْأَكْمَلَ .

وكان مع اشتغاله بالعبادة واشتغراق أوقاته فيها لا تغفل عن صاحبه ، ولا يتسى حاجته حتى يفضيها ، ولا يترك الرفاء لأصحابه ويخين معاشرتهم ، ويعرف أحوال الناس على طبقاتهم ، ويعظم العلم ، ويكرم الأيتام ، ويشفق على الضعفاء والأراذل ، ويذل شفاعة في قضاء حوائج الخاص والعامة من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك ، ويكثر من الإتيار في السر ، ولا يميلك لتغيبه شيقا ، ويستقل ما مئة مع كثرة إحصائه ، ويستكثر ما يندفع إليه وإن كان يسيرا ، ويكافئ عليه بأحسن منه . ولم يصب قط أميرا ولا وزيرا ، بل كان في سلوكه وطريقه يرفع في تواضع ، ويعزز مع مشكته ، وقرب في الاعتدال ، واتصال في الانفصال ، وزهد في الدنيا وأهلها . وكان أكبر من خبره .

/ ومن دُعائه لنفسه ، ولمن يسأل له الدعاء : « اللَّهُمَّ بَعِّدْنَا عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا ، وَبَعِّدْهَا عَنَّا » . وما زال على ذلك إلى أن مات آخر ليلة أَشْفَرَ صَبَاحُهَا عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وست مائة ، وترك وَلَدَيْنِ ليس لهما قوت لَيْلَةٍ ، وعليه مَبْلَغُ أَلْفِي دِرْهَمٍ دَيْنًا ، وَدَفْنٍ بِجَوَارِ الْجَامِعِ ، وَقَبْرِهِ يُؤَادَى إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

ذِكْرُ شَطَا

شَطَا مَدِينَةٌ عِنْدَ تَيْسٍ وَدِمْيَاطَ ، وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ الثِّيَابُ الشُّطُوبِيَّةُ^١ . وَيُقَالُ إِنَّهَا عُرِفَتْ بِشَطَا بْنِ الْهَامُوكِ ، وَكَانَ أَبُوهُ خَالُ الْمُقَوْسِ ، وَكَانَ عَلَى دِمْيَاطَ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الْحِصْنَ عَلَى يَدِ عَمْرُو بْنِ الْغَاصِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، جَهَّزَ بَعَثًا لِفَتْحِ دِمْيَاطَ ، فَنَازَلُوهَا إِلَى أَنْ مَلَكَوا سُورَ الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ شَطَا فِي أَلْفَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُحِبُّ الْخَيْرَ وَيَمِيلُ إِلَى مَا يَشْتَمِعُهُ مِنْ سِيرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ دِمْيَاطَ ، امْتَنَعَ عَلَيْهِمْ صَاحِبُ تَيْسٍ ، فَخَرَجَ شَطَا إِلَى الْيَرُوسِ وَالْذَمِيرَةِ وَأَشْمُومَ طَنَاحَ يَسْتَشْجِدُ ، فَجَمَعَ النَّاسُ لِقِتَالِ أَهْلِ تَيْسٍ ، وَسَارَ بِهِمْ مَعَ مَنْ كَانَ بِدِمْيَاطَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ قَدِمَ مَدِينًا مِنْ عِنْدِ عَمْرُو بْنِ الْغَاصِ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ تَيْسٍ . فَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ ، وَأَبْلَى شَطَا فِيهِمْ^٢

(١) بولاق : منهم .

^١ إحدى مدن مركز فارسكور بمحافظة دمياط (باقوت : معجم البلدان ٣: ٣٤٢-٣٤٣) محمد رمزي : القاموس الجغرافي

بلاء حسناً وقُتل من أبطال تئيس اثني عشر رجلاً . واشتُشهد في ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، فقبر - حيث هو الآن - خارج دمياط ، وبني على قبره ، وصار الناس يجتمعون هناك في ليلة النصف من شعبان كل عام ، ويُعدّون للحضور من القرى . وهم على ذلك إلى يومنا هذا .

وكانت تُعمل كشوة الكعبة بشطّا ، قال الفاكهي : ورأيت فيها كشوة من كُسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطي مصر ، مكتوباً عليها :

« بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَه من الله لقبه الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ،
مما أَمَرَ الفضل بن الربيع مؤلى أمير المؤمنين بصنّعه في طراز شطّا ، كشوة
للعباد » سنة إحدى وتسعين ومائة ^١ .

ومن المواضع المشهورة بدمياط :

البزوخ : وهو مسجدٌ بُحيرة دمياط ، تُسمّيه العائمة البزوخ ، ولا أعرف مُستندهم في ذلك . وشاهدت فيه عجباً ، وهو أنّ به منارة كبيرة مبنية من الحجر ، إذا هزّها أحد اهتزّت ، فلما صعدت أعلاها - حيث يقف المؤذنون - وحرّكتها ، رأيت ظلّها قد تحركت بتحريكها لها . ويوجد حول هذا المسجد رُمّ أنواب يُشبه أن تكون من اشتُشهد في وقائع الفرنج ، والله يتعلّم وأنتم لا تعلمون .

رَيْسِق

قُرْبَة من قرى دمياط ، يُنسب إليها الثياب الثقيلة ، والعمائم الشرب الملوّنة ^٢ . والديقي : القلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تُعمل بها ، ويكون طول كلّ عمامة منها مائة فراسخ ، وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العمامة من الذهب خمس مائة

(a) بولاق وفيت : للكعبة .

لناحية صان الحجر بركو فاتوس بمحافظة الشرقية وعلى بعد ٥٥٠ متر من صان الحجر (باقوت : معجم البلدان ٢ : ٤٣٨)

الزبيدي : تاج العروس ٦ : ١٣٤١ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٢٤٣ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. ١٧٤٣ . (178; Wiet, G., *El² art. Dabik* II, p. 74 .

^١ لم أشر على هذا النص فيما نشره واستفد من «تاريخ الفاكهي» ، وانظر فيما تقدم ٤٨٩ - ٤٩٠ .

^٢ ذيق كأمير من المدن المصرية الصناعية القديمة كانت بالقرب من تئيس ، وقد اندثرت اليوم ويعرف مكانها بتل ديقو أو ديجو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة في الشمال الشرقي

دينار، سوى الحرير والفضة. وحدثت هذه العمائم وغيرها في أيام العزيز بالله بن المعز، سنة خمس وستين وثلاث مائة، إلى أن مات في شعبان سنة ست وثمانين وثلاث مائة.

التخريبية

قَرْيَةٌ من الأعمال الغريبة، أسس جُكْرُهَا الأمير شمس الدين سُقْرُ الشَّعْبِيِّ نَقِيب الجَيْش في أيام الناصر محمد بن قلاوون، وبَالَعَ في عِمَارَتِهَا، فَبَلَّغَتْ في أَيَّامِهِ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ فِضَّةً. ثم خَرَجَ عنها فَقُمِرَتْ لِلسُّلْطَانِ، وَأَتَمَّعَ أَهْلُهَا حَتَّى أُنْشِئَ فِيهَا زِيَادَةٌ عَلَى ثَلَاثِينَ بُيُوتًا، وَوَصَلَ جُكْرُهَا لِكثَرَةِ سُكَّانِهَا إِلَى أَلْفٍ دِرْهَمٍ فِضَّةً لِكُلِّ قَدَانٍ، وَصَارَتْ بَلَدًا كَبِيرَ الْعَمَلِ، يَلُغُ فِي السَّنَةِ مَا بَيْنَ خِرَاجِي وَهِلَالِي ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فِضَّةً، عَنْهَا خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ذَهَبًا. وَمَاتَ سُقْرُ هَذَا فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ، وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ الْمَدْرَسَةُ الشَّعْبِيَّةُ بِحُطٍّ حَدَرَةٍ الْبَقَرِ خَارِجَ بَابِ زَوَيْلَةَ^١.

جَزِيرَةُ بَنِي نَصْرٍ

مُتَّسِبَةٌ إِلَى بَنِي نَصْرٍ بِنِ مُعَاوِيَةَ بِنِ بَكْرِ بِنِ هَوَازِنَ، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي خَمَاسٍ بِنِ طَالِمٍ بِنِ جَعِيلِ ابْنِ عَمْرِو بِنِ ذَهْمَانَ بِنِ نَصْرِ بِنِ مُعَاوِيَةَ بِنِ بَكْرِ بِنِ هَوَازِنَ كَانَتْ لَهُمْ شَوْكَةٌ شَدِيدَةٌ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَكَثُرُوا حَتَّى مَلَأُوا أَشْغَلَ الْأَرْضِ، وَغَلَبُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَوَّيَتْ عَلَيْهِمْ قَبِيلَةُ مِنَ الْبُزَيْرِ تُقَرِّفُ بِلَوَاتِهِ - وَلَوَاتُهُ تَزْعُمُ أَنَّهَا مِنْ قَيْسٍ - فَأَجْلَسَتْ بَنِي نَصْرِ وَأَسْكَنْتُهَا الْجِدَارَ، فَصَارُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ فِي مَكَانٍ عَرِيفٍ بِهِمْ وَسَطِ الثَّيْلِ، وَهِيَ جَزِيرَةُ بَنِي نَصْرِ هَذِهِ^٢.

١٢٢-١٢٣ وانظر فيما يلي ٦٧٦، ٢: ٣٩٧.

٢ تشمل جزيرة بني نصر المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد من محلة اللبن التي بمركز كفر الزيات شمالاً إلى زاوية رزين بمركز منوف جنوباً وسميت جزيرة لأن ماء النيل كان يحيط بها فكان يحددها من الغرب فرع رشيد ومن الشرق ترعة الباجورية وفروعها (ابن ماضي: قوانين ١٩٥ القلقشندي: ٣: ٤٠٥-٤٠٦؛ أبو المحاسن: النجوم ٣٨: ٩؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢١٣: ١-٢١٤).

١ التخريبية. من القرى القديمة كانت في بدء تكوينها ضبعة أنشأها تحرير الأرغلي الإخشيدي، المعروف بابن الشوزاني في القرن الرابع الهجري فعرفت به، وهي من أعمال الغربية وورد رسمها كذلك التحرلية في بعض المصادر وهو تحريف، ثم تحوّل للمرة الثانية إلى التَّخْرِيْبِيَّة وهو اسمها الحالي الذي وردت به في تاج العروس وفي ذلك الزمان سنة ١٢٢٨ هـ مما يدل على أن هذا التحريف وقع في العهد العثماني وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (ابن دقماق: الانتصار ٨٦: ٥؛ الزبيدي: تاج العروس ٣: ٥٥٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٧: ٥٠-١٦ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢).

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ومَشَقْ

اعْلَمَ أَنَّ الْبَرِيدَ أَوَّلَ مَنْ رَئِبَ ذَوَائِهِ الْمَلِكُ دَارًا بِنَ بَهْمَنَ بْنِ كَيْشْتَاغَ بْنِ لَهْرَاسَفَ^(٥)، أَحَدُ مُلُوكِ الْفُرْسِ .

وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَأَوَّلَ مَنْ أَقَامَ الْبَرِيدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ، أَقَامَهُ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ - ^(٦) عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ^(٦) وَالْيَتْمَنِ، وَجَعَلَهُ بِغَالًا وَابِلًا، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِينَ وَمِائَةٍ . وَأَصْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ « بَرِيدٌ ذَنْبٌ » فَإِنَّ دَارًا أَقَامَ فِي سَبْكِكَ الْبَرِيدِ ذَوَابَّ مَخْلُوقَةِ الْأَذْنَابِ سَمَّيَتْ « بَرِيدٌ ذَنْبٌ »، ثُمَّ غُرِّبَتْ وَخُذِفَ مِنْهَا نِصْفُهَا الْأَخِيرِ فَقِيلَ « بَرِيدٌ » .

وَهَذَا الدُّرْبُ / الَّذِي يَسْتَلْكُهُ الْعَسَاكِرُ وَالتُّجَّارُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْقَاهِرَةِ عَلَى الزَّوْمِلِ إِلَى مَدِينَةِ عَزَّةَ، لَيْسَ هُوَ الدُّرْبُ الَّذِي يُسَلِّكُ فِي الْقَدِيمِ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ . وَلَمْ يَخْدُثْ هَذَا الدُّرْبُ الَّذِي يُسَلِّكُ فِيهِ مِنَ الزَّوْمِلِ الْآنَ إِلَّا بَعْدَ الْخَمْسِ مِائَةٍ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ، عِنْدَمَا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاتِمِيَّةُ^(٧) .

وَكَانَ الدُّرْبُ أَوَّلًا قَبْلَ اسْتِيلَاءِ الْفَرَنْجِ عَلَى سَوَاحِلِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ غَيْرَ هَذَا؛ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عُثَيْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُرْدَاذْهَبٍ فِي كِتَابِ « الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ » : وَصِيفَةُ الْأَرْضِ وَالطَّرِيقِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى الْكُشُوفَةِ اثْنَا عَشَرَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى جَابِسَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى فَيْقَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى طَبْرِيقَةِ مَدِينَةِ الْأُرْدُنِّ سِتَّةَ أَثْنَاءَ، وَمِنْ طَبْرِيقَةِ إِلَى اللَّجُونِ عِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى الْقَلْشُوفَةِ عِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى الزَّوْمِلَةِ مَدِينَةِ فِلَسْطِينَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا، وَالطَّرِيقُ مِنَ الزَّوْمِلَةِ إِلَى أَزْدُودَ اثْنَا عَشَرَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى عَزَّةَ عِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى الْعَرِيشِ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا فِي زَمَلٍ، ثُمَّ إِلَى الْوَرَّادَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى أُمِّ الْقَرْبِ^(٨) عِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى الْقَرْمَاتِ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى مَجْزَجِيرِ ثَلَاثُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى الْغَاضِرَةِ^(٩) أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيْلًا، ثُمَّ إِلَى

(٥) يولاق : كيشتاسف بن كيهراسف . (b-b) ساقطة من يولاق . (c) يولاق : القاصرة .

^١ نقل سلفستر دي سامي هذا الفصل إلى الفرنسية 7 (1801), pp. 328-32.

^٢ ابن أبياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٧ - ٢٨ .

^٣ جاء على هامش نسخة الأصل هنا : « ثُمَّ الْقَرْبِ » .

بحنوان De Sacy, S., «Route de la capitale de l'Égypte à Damas (Extrait de la Description de l'Égypte par Makrizi)», *Magazin Encyclopédique*

مَسْجِدَ قُضَاعَةَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا ، ثُمَّ إِلَى بَلْبَيْسٍ أَحَدَ وَعِشْرُونَ مِيلًا ، ثُمَّ إِلَى الْقُسْطَاطِ مَدِينَةَ مِصْرَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيلًا^١.

فَهَذَا كَمَا تَرَى إِنَّمَا كَانَ الدَّرَبُ الْمَسْلُوكُ مِنْ مِصْرَ إِلَى دِمَشْقَ ، عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ الْآنَ ، فَيَسْلُكُ مِنْ بَلْبَيْسَ إِلَى الْقَرْمَاتِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِبِلَادِ السُّبُخِ ، مِنَ الْخَوْفِ ، وَيُسْلِكُ مِنَ الْقَرْمَاتِ - وَهِيَ بِالْقَرْبِ مِنْ قَطِيَّةَ - إِلَى أُمِّ الْقَرْبِ - وَهِيَ بِلَادُ خَرَابٍ عَلَى الْبَحْرِ فِيمَا بَيْنَ قَطِيَّةَ وَالْوَزَائِدَةِ ، وَيَقْصِدُهَا قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ ، وَيَحْفَرُونَ فِي كَيْمَانِهَا فَيَجِدُونَ دَرَاهِمَ مِنْ فِضَّةٍ خَالِصَةٍ ، ثَقِيلَةِ الْوِزْنِ ، كَبِيرَةِ الْمِقْدَارِ - وَيُسْلِكُ مِنْ أُمِّ الْقَرْبِ إِلَى الْوَزَائِدَةِ ، وَكَانَتْ بَلَدَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا الْآنَ ، قَدْ ذُكِرَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ^٢.

فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرَنْجُ مِنْ بَحْرِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ لَأَخْذِ الْبِلَادِ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذَ بُغْدُوينَ [Baldwin] الشَّوْبَلَكَ وَعَثْرَهُ فِي سَنَةِ تِسْعِ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، وَكَانَ قَدْ خَرِبَ مِنْ تَقَادُمِ السِّنِينَ ، وَأَغَارَ عَلَى الْفَرِيشِ - وَهُوَ يَوْمُ عِيدِ عَامِرٍ - بَطْلُ السَّقَرِ حَيْثُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ ، وَسَارَ يُسْلِكُ عَلَى طَرِيقِ الْبَرِّ مَعَ الْقَرْبِ مَخَافَةَ الْفَرَنْجِ ، إِلَى أَنْ اسْتَقْبَلَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ أَيُّوبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِي الْفَرَنْجِ فِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْإِيقَاعِ بِالْفَرَنْجِ ، وَافْتَتَحَ مِنْهُمْ عِدَّةَ بِلَادٍ بِالسَّاحِلِ ، وَصَارَ يُسْلِكُ هَذَا الدَّرَبَ عَلَى الرَّغْلِ^٣. فَسَلَكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ حَيْثُ إِلَى أَنْ وَلَّى مَلِكُ مِصْرَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ بْنَ الْكَامِلِ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنَ أَيُّوبَ ، فَأَنْشَأَ بِأَرْضِ السُّبُخِ ، عَلَى طَرَفِ الرَّغْلِ ، بَلَدَةً عُرِفَتْ إِلَى الْيَوْمِ بِالصَّالِحِيَّةِ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، وَصَارَ يُنْزِلُ بِهَا وَيَقِيمُ فِيهَا ، وَنَزَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ الْمُلُوكُ^٤.

فَلَمَّا مَلَكَ مِصْرَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبُوسُ الْبَنْدُكْدَارِي ، رَتَّبَ الْبَرِيدَ فِي سَائِرِ الطَّرِيقَاتِ ، حَتَّى صَارَ الْحَيَّزُ يَصِلُ مِنْ قَلْعَةِ الْجَبَلِ إِلَى دِمَشْقَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَيَعُودُ فِي مِثْلِهَا . فَصَارَتْ أَخْبَارُ الْمَمَالِكِ تَرِدُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مَوْتِينَ ، وَيَتَحَكَّمُ فِي سَائِرِ تَمَالِكِهِ بِالرَّغْلِ وَالْوَلَايَةِ وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْقَلْعَةِ ، وَأَنْفَقَ فِي ذَلِكَ

= أَتَارَهَا بَاقِيَةً إِلَى الْيَوْمِ عَلَى الْبَحْرِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَرْمَاتِ سِيَاحٌ

وَيُوجَدُ بِهَا دَرَاهِمُ فَضَّةٍ كَبَارٍ يَظْفَرُ بِهَا مِنْ يَجْمَعُهَا ، وَوُجِدَ بِهَا

فِي زَمَانِنَا رَجُلٌ مَالًا نَحْوَ عَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ فِي فَنَرٍ مِنْ ...

وُغْلِبَ الْبَحْرُ بِهَا عَلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا فَكُشِفَ عَنْ عِدَّةِ حَوَانِيتٍ

وُجِدَ فِيهَا عِدَّةُ قَطْعٍ مِنْ ذَهَبٍ بِطَبْعِهَا أَنَّهَا كَانَتْ الصَّاعِقَةَ .

كُتِبَ مِنَ الْأَصْلِ .

^١ ابن خردادبه : المسالك والممالك ، ٨٠ ، ٢١٩ - ٢٢٠ .

^٢ انظر فيما تقدم ٤٩٩ - ٥٠٠ .

^٣ ابن أبي عمير : بلدائع الزهور ١/١ : ٢٨ .

^٤ فيما تقدم ٥٠٠ .

مالاً عظيماً ، حتى تمّ تزتيه . وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وست مائة^١ .

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق ، يوجد بكلّ مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب - وتُعرف بخيل البريد - وعندها عدّة سؤاس ، وللخيل رجالٌ يُعرفون بالشواقين ، واجدهم سواق ، يركب مع من رُسم بركوبه خيل البريد ليتشوق له فرسه ويخدمه مدّة مسيره . ولا يركب أحدٌ خيل البريد إلا بمرسوم سلطانى ، فإزّة يُمنع الناس من ركوبه إلا من اتّذبه السلطان لمهتاته ، وتازة يركبه من يُريد الشرف من الأعيان بمرسوم سلطانى .

وكانت طُرق الشام عامرة ، يُوجد بها عند كلّ بريد ما يحتاج إليه المسافرين من زاد وعلف وغيره . ولكثرة ماكان فيه من الأمن أذركنا المزاة تُسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها - راكبة أو ماشية - لا تحمل زاداً ولا ماءً .

فلما أخذَ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها ، وخرقها في سنة ثلاث وثمان مائة ، خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن ، وما دُهاها به من كثرة الفتن ، عن إقامة البريد^٢ ، فاحتلّ بانقطاعه طريق الشام خللاً فاجحاً ، والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمان مائة .

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة آثارها إلى اليوم باقية فيما بين حبة والعاقلة بأرض العاقلة فيما بين قطية والغريش ، تجاهها بميل ماء عذب تُسميه العرب أبا العروق ، وهو شرقها^٣ .

وهذه المدينة تُنسب إلى حطين ، ويُقال حطّ بن الملك أبي جاد المدبني . وأهل قطية اليوم يُسمون تلك الأرض ببلاد حطين والحقر .

وملك حطين هذا أرض مصر بعد موت أبيه ، وكان صاحب حزب وطمش ، وكان ينزل بقلعة في جبال الأردن قريباً من طبرية ، وإليه تُنسب قرية حطين التي بها / الآن قبر شقيب بالقرب من صفد^٤ .

^١ ابن إياس : بدائع الزهور ٢٨ : ١/١ .

^٢ ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٧٣-٢٧٤ وفيه أنها موضع بين الغرما وتيس .

^٣ راجع دراسة سولاجيه الهامة عن بريد الخيول في العصر المملوكي Sauvaget, J., *La poste aux chevaux dans*

l'Empire des Mamelouks, Damas - IFÉAD 1941 .
^٤ وهي الموضع الذي تجرت فيه الواقعة المشهورة التي انتصر فيها صلاح الدين على جيوش الفرنج (الصليبيين) =

ذِكْرُ مَدِينَةِ الرَّقَّةِ

هذه المَدِينَةُ من مَجْمَلَةِ مَدَائِنِ مَدْيَنَ فيما بين بَحْرِ الْقُلُومِ وَجَبَلِ الطُّورِ . كان بها عندما خَرَجَ مُوسَى - عليه السَّلامُ - بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ قَوْمٌ مِنْ لَحْمٍ آلَ فِرْعَوْنَ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ ، وَإِنَّا هُمْ عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَتَفَكَّهُونَ عَلَى آصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ [الأنبياء ١٣٨ سورة الأعراف] . قال قَتَادَةُ : أَوَّلِيكَ الْقَوْمُ مِنْ لَحْمٍ ، وَكَانُوا نُزُولًا بِالرَّقَّةِ . وَقِيلَ كَانَتْ آصْنَامُهُمْ تَمَائِيلَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا أَخْرَجَ لَهُمُ الشَّامِرِيُّ عِجَلًا .
وَأَثَارُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بَاقِيَةٌ إِلَى الْيَوْمِ ، فِيمَا بَقِيَ مِنْ مَدِينَةِ فَارَانَ وَالْقُلُومِ وَمَدْيَنَ وَأَيْلَةَ ، تَمُرُّ بِهَا الْأَعْرَابُ ^١ .

ذِكْرُ عَيْنِ شَمْسٍ

١. (a) كَانَتْ عَيْنُ شَمْسٍ هَيْكَلًا يُحَجُّ النَّاسُ إِلَيْهِ وَيَقْصِدُونَهُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، فِي مَجْمَلَةِ مَا كَانَ يُحَجُّ إِلَيْهِ مِنَ الْهَيَاكِلِ الَّتِي كَانَتْ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ . وَيُقَالُ إِنَّ الصَّابِئَةَ أَخَذَتْ هَذِهِ الْهَيَاكِلَ عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ عَنْ شِيثَ بْنِ آدَمَ ، وَعَنْ هِزْمَسِ الْأَوَّلِ - وَهُوَ إِدْرِيسُ - فَإِنَّ (b) إِدْرِيسَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْجَوَاهِرِ الْقَلَوِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ التَّجْوِيمِيَّةِ وَبَنَى الْهَيَاكِلَ وَمَجَّدَ اللَّهَ فِيهَا .

(a) قبل ذلك في بولاق : كان يقال لها في القديم وعمساس ، وهذه العبارة موجودة في الأصل بعد الفقرة التي تبدأ فيما يلي بـ: قال ابن وصيف شاه . (b) بولاق : وإن .

الآن من هذه المدينة المصرية القديمة (راجع : باقوت : معجم البلدان ١٧٨: ٤ - ١٧٩ : النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٣ - ٣٩٤) وجمع عصام الدين البُتَّاء النصوص العربية التي ذكرت عين شمس في رسالة إلى جامعة باريس انظر El-Banna, E.S., *Matériaux pour servir à l'histoire d'Héliopolis*, thèse de 3^e cycle EPHE, V : section, Université de Paris-Sorbonne 1975 وانظر كذلك Ayn Shams I, Becker, C.H., *El² art.* pp. 811-12.

= سنة ١١٨٧/هـ ١١٨٣ م، وانظر Cahen, Cl., *El² art.* Hittin ou Hattin III, p. 528.

^١ انظر فيما تقدم ٥١٠.

^٢ أخبار عين شمس كثيرة في كتب الجغرافيا والرحلات وهي مدينة فأون القديمة أطلق عليها العرب عين شمس ، وهي أول مدينة في مصر بنيت على الضفة الشرقية لنهر النيل . وظلت بقايا هذه المدينة موجودة حتى دخول العرب المسلمين إلى مصر سنة ١١٩ هـ / ٦٤١ م . ونجد الآن في ضاحية المطرية شمال القاهرة مسلة مصرية منزلة هي الشاهد الوحيد الباقي

وَيُقَالُ إِنَّ الْهَيَاكِلَ كَانَتْ عِدَّتُهَا فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ اثْنَيْ عَشَرَ هَيْكَلًا ، وَهِيَ : هَيْكَلُ الْعِلَّةِ الْأُولَى ، وَهَيْكَلُ الْعَقْلِ ، وَهَيْكَلُ السِّيَاسَةِ ، وَهَيْكَلُ الصُّورَةِ ، وَهَيْكَلُ النَّفْسِ - وَكَانَتْ هَذِهِ الْهَيَاكِلُ الْخَمْسَةُ مُشْتَدِرَاتٍ - وَالْهَيْكَلُ السَّادِسُ هَيْكَلُ رُحْلِ وَهُوَ مُشْدَسٌ ، وَبَعْدَهُ هَيْكَلُ الْمُشْتَرِي وَهُوَ مُثَلَّثٌ ، ثُمَّ هَيْكَلُ الْمَرْيَخِ وَهُوَ مُرْبَعٌ ، وَهَيْكَلُ الشَّمْسِ وَهُوَ أَيْضًا مُرْبَعٌ ، وَهَيْكَلُ الزُّهْرَةِ وَهُوَ مُثَلَّثٌ مُسْتَطِيلٌ ، وَهَيْكَلُ عُطَارِدٍ مُثَلَّثٌ فِي جَوْفِ مُرْبَعٍ مُشْتَطِيلٍ ، وَهَيْكَلُ الْقَمَرِ مُثَنَّنٌ .

وَعَلَّلُوا عِبَادَتَهُمْ لِلْهَيَاكِلِ بِأَن قَالُوا : لَمَّا كَانَ صَانِعُ الْعَالَمِ مُقَدَّسًا عَنْ صِفَاتِ الْحُدُوثِ وَجِبَ الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ جَلَالِهِ ، وَتَعَيَّنَ أَن يَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ عِبَادُهُ بِالْمَقْرُوبِينَ لَدَيْهِ ، وَهُمْ الرُّوحَانِيُّونَ ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ ، وَيَكُونُوا وَسَائِلَ لَهُمْ عِنْدَهُ .

وَعَنُوا بِالرُّوحَانِيِّينَ الْمَلَائِكَةِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ^(٥) الْمُدْبِرَاتُ لِلْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ فِي أَفْلَاكِهَا ، وَهِيَ هَيَاكِلُهَا ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ لِكُلِّ رُوحَانِيٍّ مِنْ هَيْكَلٍ ، وَلَا بَدَّ لِكُلِّ هَيْكَلٍ مِنْ فَلَكٍ ، وَأَنَّ نِسْبَةَ الرُّوحَانِيِّ إِلَى الْهَيْكَلِ نِسْبَةُ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ .

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ رُؤْيَا الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ بَارِئِهِمْ حَتَّى يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ بِنَفْسِهِ ، وَيَسْتَقِيدَ مِنْهُ . فَزَعَرُوا إِلَى الْهَيَاكِلِ الَّتِي هِيَ السَّيَّارَاتُ ، فَزَعَرُوا يَبُوتَهَا مِنَ الْفَلَكَ ، وَغَرَفُوا مَطَالِعَهَا وَمَغَارِبَهَا وَاتِّصَالَاتَهَا ، وَمَا لَهَا مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالسَّاعَاتِ وَالْأَشْخَاصِ وَالصُّوَرِ وَالْأَقَالِمِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْعِلْمِ الرِّيَاضِيِّ .

وَسَمَّوْا هَذِهِ السَّبْعَةَ السَّيَّارَةَ أَرْبَابًا وَآلِهَةً ، وَسَمَّوْا الشَّمْسَ إِلَهَ الْآلِهَةِ وَرَبَّ الْأَرْبَابِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا الْمَفِضَّةُ عَلَى السَّنَةِ أَنْوَارَهَا ، وَالْمُظْهِرَةُ فِيهَا آثَارَهَا . فَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْهَيَاكِلِ تَقَرُّبًا إِلَى الرُّوحَانِيِّينَ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَى الْبَارِي ، لِيَرْغَبَهُمْ أَنَّ الْهَيَاكِلَ أَبْدَانُ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَكُلٌّ مِنْ تَقَرُّبٍ إِلَى شَخْصٍ فَقَدْ تَقَرَّبَ إِلَى رُوحِهِ .

وَكَانُوا يُصَلُّونَ لِكُلِّ كَوْكَبٍ يَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ رَبُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَوْقَاتٍ : الْأُولَى عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَالثَّانِيَّةُ عِنْدَ اسْتِوَائِهَا فِي الْفَلَكَ ، وَالثَّالِثَةُ عِنْدَ غُرُوبِهَا . فَيُصَلُّونَ لِرُحْلِ يَوْمِ السَّبْتِ ، وَلِلْمُشْتَرِي يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَلِلْمَرْيَخِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَلِلشَّمْسِ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ ، وَلِلزُّهْرَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَلِلْعُطَارِدِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَلِلْقَمَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَبْلُغُ هَيْكَلُ بَنَاءِ بَنُو جُمَيْرٍ عَلَى اسْمِ الْقَمَرِ لَتَعَارِضَ بِهِ الْكَفَّةُ ، فَكَانَتْ الْقُرْسُ تَحْتَجُّهُ وَتَكْشُوهُ الْحَرِيرَ ، وَكَانَ اسْمُهُ نُوبَهْرٌ . فَلَمَّا تَمَجَّجَسَتْ الْقُرْسُ عَمِلَتْهُ بَيْتُ نَارٍ ، وَقِيلَ لِلْمَوَكَّلِ بِسَدَائِهِ يَزِمُكَ - بِعَيْنِي وَالْيَ مَكَّةَ وَانْتَهَتْ الْبَزْمَكَةُ إِلَى جَدِّ خَالِدٍ جَدِّ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ .

- وَخَرَّبَ هَذَا الْهَيْكَلُ قَيْسُ بْنُ الْهَيْثَمِ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ . وَكَانَ بِنَاءُ عَظِيمًا حَوْلَهُ أَرْبُوعَةٌ وَثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ مَقْصُورَةً لِسَكْنِ خُدَايِهِ .

وَكَانَ بَصْنَعَاءَ قَصْرِ عَمْدَانِ مِنْ بِنَاءِ الصُّبْحَاكِ ، وَكَانَ هَيْكَلُ الزُّهْرَةِ ، وَهَدِيمٌ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانٍ .

وَكَانَ بِالْأَنْدَلُسِ ، فِي الْجَبَلِ الْفَارِقِ بَيْنَ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ، هَيْكَلُ الْمُشْتَرِي مِنْ بِنَاءِ كِلَوْبَطْرَةَ^(a) بِنْتُ بَطْلَغَيْئُوسَ .

١٠

وَكَانَ بِفَرْغَانَةِ يَثُتْ يُقَالُ لَهُ كَوْشَانُ^(b) هَيْكَلُ لِلشَّمْسِ ، بَنَاهُ بَعْضُ مُلُوكِ فَارِسِ الْأَوَّلِ ، خَرَّبَهُ الْمُغْتَصِمُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ بَنَى هَيْكَلِ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَسَأَقُصُّ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا لَمْ أَرَهُ مَجْمُوعًا فِي كِتَابٍ . قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهُ : (وَكَانَ يُقَالُ لَهَا فِي الْقَدِيمِ رَغْمَسَاسُ^(c)) وَقَدْ كَانَ الْمَلِكُ مُتَقَاوِسًا إِذَا رَكِبَ عَمِلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ التَّخَايِلَ الْعَجَبِيَّةَ ، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ وَيَقْبِضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . وَأَمَرَ أَنْ يُبْنَى لَهُ هَيْكَلٌ لِلْعِبَادَةِ يَكُونُ لَهُ / خُصُوصًا ، وَيَجْعَلُ فِيهِ قُبَّةٌ فِيهَا صُورَةُ الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهَا أَضْنَانًا وَعَجَائِبَ ، فَكَانَ الْمَلِكُ يَرْكَبُ إِلَيْهِ ، وَيُقِيمُ فِيهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . وَيَجْعَلُ فِيهِ عَمُودَيْنِ زَبَرَ عَلَيْهِمَا تَارِيخَ الْوَقْتِ الَّذِي عَمِلَهُ فِيهِ - وَهُمَا بَاقِيَانِ إِلَى الْيَوْمِ - وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ عَيْنُ شَمْسٍ ، وَنُقِلَ إِلَى عَيْنِ شَمْسٍ كُنُوزًا وَجَوَاهِرَ وَطِلَّاسِمَاتٍ وَعَقَاقِيرَ وَعَجَائِبَ ، وَدَفَنَهَا بِهَا وَبَنَوَاجِيهَا .

١٥

وَأَقَامَ مَلِكًا إِحْدَى وَتِسْعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ مِنَ الطَّاعُونَ ، وَقِيلَ مِنْ شَمٍّ ، وَغُمِلَ لَهُ نَاوُوسُ فِي صَخْرَاءِ الْقُرْبِ ، وَقِيلَ فِي عَرَبِيٍّ قُرُوسَ ، وَدُفِنَ مَعَهُ (d) مُصَاحِفُ الْحِكْمَةِ وَالصَّنْعَةِ ، وَتَمَائِيلُ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ ، وَمِنْ الذَّهَبِ الْمَضْرُوبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ . وَدُفِنَ مَعَهُ (d) يَثُتَالُ زَوْجَانِي الشَّمْسِ مِنْ ذَهَبٍ يَلْمَعُ ، وَلَهُ بَجَانِحَانِ مِنْ زَبَرٍ وَجَدَ ، وَصَنَّمَ عَلَى صُورَةِ اِغْرَائِيهِ ، وَكَانَ يُحِبُّهَا ، فَلَمَّا مَاتَتْ أَمَرَ أَنْ تُعْمَلَ

٢٠

(a) الأصل : كلاويطرة . (b) بولاق : كلوسان . (c-c) ساقطة من بولاق ، وانظر أول الحديث عن عين شمس .

(d-d) ساقطة من الأصل : اختلاف نظر .

صُورَتُهَا فِي الْهَيَاكِلِ كُلِّهَا ، وَعَمِلَ صُورَتَهَا مِنْ ذَهَبٍ بِلَوَاقِظٍ سَوَادَوَيْنِ ، وَعَلَيْهَا حُلَّةٌ مِنْ جَوَاهِرٍ مُنْظُومَةٌ وَهِيَ جَالِسَةٌ عَلَى كُرْسِيٍّ . وَكَانَ يَجْعَلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يَجْلِسُ فِيهِ ، يَسْتَلِي بِذَلِكَ عَنْهَا ، فَذُقَّتْ هَذِهِ الصُّورَةُ مَعَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ كَأَنَّمَا تُخَاطِبُهُ ^١ .

وَقَالَ الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَحْمَدُ [بْنُ الْقَاسِمِ] ^(أ) بَنَ خَلِيقَةَ [الْمَعْرُوفِ بـ ابْنِ أَبِي أَصْبَحَةَ] ^(ب) فِي كِتَابِ «عُيُونِ الْأَنْبَاءِ فِي طَبَقَاتِ الْأَطِبَاءِ» : وَاشْتَقَّ فِثَاغُورَسُ إِلَى الْجَمْعِ بِالْكَهَنَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرَ ، فَوَزَدَ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ الشَّمْسِ - الْمَعْرُوفَةِ فِي زَمَانِنَا بِعَيْنِ شَمْسٍ - فَقَبِلُوهُ قَبُولًا كَرِهًا ، وَامْتَحَنُوهُ زَمَانًا فَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهِ نَقْصًا وَلَا تَقْصِيرًا ؛ فَوَجَّهُوا بِهِ إِلَى كَهَنَةٍ مُتَّفٍ كَيْ يُبَالِغُوا فِي امْتِحَانِهِ ، فَقَبِلُوهُ عَلَى كَرَاهَةٍ ، وَاسْتَقْصَوْا امْتِحَانَهُ ، فَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهِ مَعِيًا ، وَلَا أَصَابُوا لَهُ عَثْرَةً ؛ فَبَيَّعُوا بِهِ إِلَى أَهْلِ دِيُوشُولِيسَ ^(ب) لِيَتَحَنُوهُ ، فَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهِ طَرِيقًا وَلَا إِلَى إِدْحَاضِهِ سَبِيلًا [لِالْعُنَايَةِ مَلِكِهِمْ بِهِ] ^(ج) ، فَتَرَضَوْا ^(د) عَلَيْهِ قَرَائِضَ صَغِيرَةٍ كَيْمَا يَتَمَتَّعَ مِنْ قَبُولِهَا فَيُدْخِضُوهُ ، وَيَخْرُمُوهُ طَلَبَتِهِ مُخَالَفَةً لِقَرَائِضِ الْيُونَانِيِّينَ ، فَقَبِلَ ذَلِكَ وَقَامَ بِهِ ؛ فَاشْتَدَّ إِعْجَابُهُمْ بِهِ ، وَفَشَا بِمِصْرَ وَزَعَهُ ، حَتَّى بَلَغَ ذِكْرَهُ إِلَى أَمَاسِيسَ مَلِكِ مِصْرَ ، فَأَعْطَاهُ سُلْطَانًا عَلَى صَحَايَا الرُّبِّ وَعَلَى سَائِرِ قَرَابَتِهِمْ ، وَلَمْ يُغْطِ ذَلِكَ لِقَرِيبٍ قَطُّ ^٢ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ لِلْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ هَيَاكِلَ ، يُحْجِجُ النَّاسُ إِلَيْهَا مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الدُّنْيَا ، وَضَعَهَا الْقَدَمَاءُ ، فَجَعَلُوا عَلَى اسْمِ كُلِّ كَوْكَبٍ هَيْكَلًا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْأَرْضِ .
رَزَعُمَا أَنَّ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ هُوَ الْكَفْتَةُ ، وَأَنَّهُ مِمَّا أَوْضَى إِدْرِيسَ - الَّذِي يُسَمُّونَهُ هِرْمَسَ الْأَوَّلَ الْمُثَلَّثَ ^٤ - أَنْ يُحْجِجَ إِلَيْهِ ، وَرَزَعُمَا أَنَّهُ مَنَسُوبٌ لِرُحْلِ . وَالْبَيْتُ الثَّانِي بَيْتُ الْمَرْيَمِ ، وَكَانَ

(أ) إضافة اقتضاها السياق . (ب) بولاق : ديوسوس . (ج) إضافة من عيون الأنباء . (د) بولاق : ففرضوا .

^١ النويري : نهاية الأرب ٦٦:١٥-٦٧ نقلًا عن ابن وصيف شاه .

^٢ موفق الدين أبو المباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن بولس الخزرجي المعروف بابن أبي أصْبَحَةَ المتوفى سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م طبيب معروف ألف تاريخًا للأطباء عنوانه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يعد أهم كتاب في موضوعه بعد كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جليل الأندلسي

الذي اعتمد عليه كثيرًا فيما يخص الأطباء القدماء (الصفدي : الوافي بالوفيات ٧: ٢٩٥؛ أبو الحسن :

النجوم الزاهرة ٧: ١٢٢٩ *Ibn Abi Vernet, J., El² art. Usaybi* a III, pp. 715-16 .

^٣ ابن أبي أصْبَحَةَ : عيون الأنباء ١: ٣٩ .

^٤ عن هرمس الأول انظر فيما تقدم ٣١٩-٣٢٠ .

بمدينة صور من الساحل الشامي. والبيت الثالث للمشتري، وكان بدمشق، بناء جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن جامع بني أمية. والبيت الرابع بيت الشمس بمصر، ويقال إنه من بناء هوشنك^(٥)، أحد ملوك الطيبة الأولى من ملوك الفرس، وهو المسمى بعين شمس. والبيت الخامس بيت الزهرة، وكان بمشج^(٦). والبيت السادس بيت عطارد، وهو بصيدا من ساحل البحر الشامي. والبيت السابع بيت القمر، وكان بحران - ويقال إنه قلعتها - ويسمى المدور، ولم يزل عامرا إلى أن خربته التتر؛ ويقال إنه كان هو هيكل الصابئة الأعظم.

وقال شافع بن علي في كتاب «عجائب البيان»^(٧): وعين شمس مدينة صغيرة، تشاهد سورها مخططا بها مهندوما، ويظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة. وفيها من الأضنام الهائلة العظيمة الشكل، من نحيب الحجازة، ما يكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعا، وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم، وكل هذه الأضنام قائمة على قواعد، وبعضها قاعد على نضبات عجبية وإثانات محكمة، وباب المدينة موجود إلى الآن^(٨).

وعلى معظم تلك الحجازة تصاوير على شكل الإنسان وغيره من الحيوان، وكتابة كثيرة بالقلم المجهول، وقلما ترى حجرا غفلا^(٩) من كتابة أو نقش أو صورة.

وفي هذه المدينة المستلتان المشهورتان، وتسميان مسلتني فزعون. وصفة المسلة قاعدة مربعة، طولها عشرة أذرع في مثلها عرضا في نحوها شعكا، قد وضعت على أساس ثابت في الأرض، ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع، يتدنى من القاعدة لعل^(١٠) فطرها خمسة أذرع، وينتهي إلى نقطة، وقد أُبْسَ رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع، وقد تَزَجَّرَ بالمطر وطول المدة، واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة، وكلها عليها كتابات بذلك القلم. وكانت المستلتان قائمتين، ثم خربت إحداهما، وانصدعت من نصفها لعظم الثقل، وأخذت النحاس من رأسها.

ثم إن حوّلها من الأضنام شيئا كثيرا لا يُحصى حدّه، على نصف تلك العظمى أو ثلثها^(١١)، وقلما يوجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة، بل فصوصها تفصلها

(a) بولاق: هريك. (b) بولاق: متيج. (c) جميع النسخ: البلدان والصواب ما أتته، انظر فيما تقدم ١٢٠:١. (d) الإفادة والاعتبار: اليوم. (e) بولاق: خلا. (f) بولاق: بسطة. (g) بولاق: يليها.

على بغض، وقد تهذم أكثرها وإنما بقيت قواعدها^١.

وقال محمد بن إبراهيم الجزري في «تاريخه»^٢: وفي رابع شهر رمضان - يعني من سنة ست وخمسين وست مائة - وقعت إحدى مسائل^٣ فيزغون، التي بأراضي المطرية من ضواحي القاهرة، فوجدوا داخلها مائتي قطار من نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار.

ويقال إن عين شمس بناها الوليد بن ذؤمغ من الملوك العماليق؛ وقيل بناها الزمان بن الوليد، وكانت سرير ملكه. والفرس تزعم أن هوشك^٤ بناها. ويقال طول العمودية مائة ذراع، وقيل / أربعة وثمانون ذراعًا، وقيل خمسون ذراعًا.

ويقال إن بُحْت نصر هو الذي خرب عين شمس لما دخل إلى مصر.

وقال القضاعي: وعين شمس - وهي هيكل الشمس - بها العمودان اللذان لم يُر أعجب منهما ولا من شأنهما، طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعًا، وهما مَحْمُولان على وجه الأرض، وبينهما صورة إنسان على ذائبة، وعلى رأسهما شبه الصُومَعَتَيْن من نحاس؛ فإذا جاء الثيل قَطَرَ من رأسيهما ما تشبَّه به وتراه يثقلهما واضحا يَنْبُع حتى يجري من أسفلهما، فيثب في أصليهما العوسج وغيره.

وإذا دخلت الشمس ذقيقة من الجدي - وهو أقصر يوم في السنة - انتهت إلى الجنوبي منهما، فطلعت عليه على قمة رأسه. ثم إذا دخلت ذقيقة من السرطان - وهو أطول يوم في السنة - انتهت إلى الشمالي منهما، فطلعت على قمة رأسه؛ وهما مُنتَهَي المِليْن، وخط الاستواء في الواسطة منهما، ثم خَطَرَت بينهما ذائبة وجائبة سائر السنة، كذا يقول أهل العلم بذلك^٥.

(أ) يولاي: مسلي. (ب) يولاي: هرشيك.

حوادث سنة ٦٥٦ فيما وصل إلينا من نسخ الكتاب (راجع Brockelmann, C., GAL S II, 45، صلاح الدين المسجد: معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٨، ١٤٥-١٤٦، ٤٤٤) ونشر عمر عبد السلام تدمري حوادث السنوات من سنة ٦٨٩-٦٩٩ هـ وصدر في صيدا - بيروت عن المكتبة المصرية سنة ١٩٩٨).

^٣ فيما تقدم ٨٤.

^١ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٥٠-٥١، وانظر التعليق على كتاب «حجائب البيان» لشافع بن علي فيما تقدم ٣٢٥.

^٢ تاريخ الجزري ويسمى «حوادث الزمان وأبناؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ألفه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري الدمشقي المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م، رُجم على السنين على نسق «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» للذهبي، ولا توجد

وقال ابنُ سَعِيدٍ في كتاب «المَغْرِبِ»: وكانت عَيْنُ شَمْسٍ، في قَدِيمِ الزَّمانِ، عَظِيمَةُ الطُّولِ والعَرْضِ، مُتَّصِلَةُ الْبِنَاءِ بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ حيثُ مَدِينَةُ الْقُشَطَاطِ الْآنَ^١ (وَلَمَّا قَدِيمَ عَمْرُو بْنِ الْقَاصِ، نَازَلَ عَيْنُ شَمْسٍ - وكان جَمَعَ الْقَوْمِ - حتى فَتَحَهَا^٢).

وقال جَامِعُ «السِّيَرَةِ الطُّولُونِيَّةِ»: كان بَعْنُ شَمْسٍ صَنَّمَ بِمِقْدَارِ الرَّجُلِ الْمُقْتَدِلِ الْخَلْقَ، من كَذَانٍ أبيضٍ مُخَكَّمِ الصَّنَعَةِ، بِتَخْيِيلٍ من اسْتَعْرَضَهُ أَنَّهُ نَاطِقٌ. فَوُصِفَ لِأَحْمَدَ بْنِ طُولُونٍ، فَاسْتَنَاقَ إِلَى تَأْمُلِهِ، فَتَهَا نَدُوسَةٌ عَنْهُ وَقَالَ: ما رَأَى وَالِ قَطَّ إِلَّا عَزَلَ. فَزَكِبَ إِلَيْهِ - وكان هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين - وتأمله، ثم دَعَا بِالْقُطَاعِينَ وَأَمَرَهُمْ بِاجْتِثَائِهِ مِنَ الْأَرْضِ، ولم يَتْرَكْ مِنْهُ شَيْئًا. ثم قال لندوسة خازنَه: ياندوسة، مَنْ صَرَفَ يَدًا صَاحِبِهِ؟ قال: أنت أَيُّهَا الأمير. وعاشَ بَعْدَهَا أَحْمَدُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً أَمِيرًا^٣.

وَبَنَى الْعَزِيزُ بِاللَّهِ يَزَارَ بْنَ الْمُعِزِّ قُصُورًا بِعَيْنِ شَمْسٍ^٤ (b).

وقال أَبُو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ: عَيْنُ شَمْسٍ - بَفَتْحِ الشَّيْنِ وَإِسْكَانِ ثَانِيهِ بَعْدَهُ سَيْنٌ مَهْمَلَةٌ - عَيْنُ مَاءٍ مَعْرُوفَةٌ. قال مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ: عَيْنُ شَمْسٍ حيثُ بَنَى فِرْعَوْنُ الصُّرَحَ. وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ عَبْدًا^٥ شَمْسٍ إِلَى هَذَا الْمَاءِ أَضْيَفَ. وَأَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ هَذَا الْأَسْمَ سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ. وَذَكَرَ الْكَلْبِيُّ أَنَّ شَمْسًا الَّذِي تَسَمَّوْا بِهِ صَنَّمَ قَدِيمًا^٦.

(a-b) هذه العبارة موجودة في هامش الأصل وغير موجودة فيما نسبته ابن دقماق إلى ابن سعيد. (b) أُنْقِصَتْ نَسْخَةُ الْأَصْلِ هُنَا الْعِبَارَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي (a-b). (c) بولاق: عين.

^١ هذا النص من كتاب «منية النفس في حلى مدينة عين شمس» - أحد أقسام الجزء المصري من كتاب «المغرب» - وهو من الأقسام المفقودة من الكتاب (انظر زكي محمد حسن: مقدمة المغرب لابن سعيد (قسم مصر)، ٢٨-٢٩)؛ ابن دقماق: الانصار ٤٣: ٤٤.

^٢ البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٢٨٨-٢٨٩؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٠٢-١٠٣ (نقلًا عن ابن الداية)؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ١١٢١؛ ابن دقماق: الانصار ٤٤: ٥.

^٣ كان للخلفاء الفاطميين منظر أو قصرًا صغيرًا للترفيه في عين شمس، يقول ناصر عسرو: «وللسلطان حديقَةٌ تسمى «حديقة عين شمس» على فرسخين من القاهرة، وهناك عين ماء عذبة يُسْقَى الْبِسْتَانُ بِهَا» (سفرنامه ٩٨)، وأورد المسيحي في تاريخه المناسبات التي كان الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لإعزاز دين الله يتوجه فيها إلى نواحي عين شمس للترفيه (أخبار مصر ٩، ١٨، ٢٣، ٤١، ٧٧).
^٤ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ٨٠٨-٨٠٩، ٩٨٧.

وقال ابن خرداذبة: وَأَسْطُوَانَتَيْنِ بَعَيْنِ شَمْسٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَمِنْ بَقَايَا أَسَاطِينِ كَانَتْ هُنَاكَ، فِي رَأْسِ كُلِّ أَسْطُوَانَةٍ طَوْقٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَنْقُطُ مِنْ إِحْدَاهُمَا مَاءٌ مِنْ تَحْتِ الطَّوْقِ إِلَى نِصْفِ الْأَسْطُوَانَةِ لَا يُجَاوِزُهُ، وَلَا يَنْقَطِعُ قَطْرُهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، فَمَوْضِعُهُ مِنَ الْأَسْطُوَانَةِ أَخْصَرُ رَطْبٍ، وَلَا يَحِيلُ الْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ. وَهُوَ مِنْ بِنَاءِ أَوْشَهْثَكَ^١.

وذكر محمد بن عبد الرحيم في كتاب «تَحْفَةُ الْأَلْبَابِ» أَنَّ هَذَا الْمَنَارَ مُزَيَّعَ عُلوِّهِ مِائَةَ فِرَاعٍ [مِنَ الرِّخَامِ الْمَجْرُوعِ الصَّافِي]^(٥) قِطْعَةً وَاحِدَةً، مُتَّخِذَةً الرَّأْسَ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ حَجَرٍ، وَعَلَى رَأْسِ الْمَنَارِ غِشَاءٌ مِنْ صُفْرِ كَالذَّهَبِ، فِيهِ صُورَةُ إِنْسَانٍ عَلَى كُرْسِيٍّ قَدْ اسْتَقْبَلَ الْمَشْرِقَ، وَيَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ ذَلِكَ الْغِشَاءِ الصُّفْرُ مَاءً يَسِيلُ بِمِقْدَارِ عَشْرَةِ أَذْرُعَ، وَقَدْ نَبَتْ مِنْهُ شَيْءٌ كَالطَّلْحَلْبِ، فَلَا يَخْرُجُ لِمَعَانُ الْمَاءِ عَلَى تِلْكَ الْحُضْرَةِ أَبَدًا صَبْفًا وَشَتَاءً، لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَحِيلُ إِلَى الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ^٢.

وَبَعَيْنِ شَمْسٍ نَبَتْ يَزْرَعُ كَالْقُضْبَانِ يُسَمَّى «الْبَلْسَمِ»، يُتَّخَذُ مِنْهُ دُخْنُ الْبَلْسَانِ، لَا يُعْرِفُ بِمَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا هُنَاكَ، وَتُؤْكَلُ لَحْيَ هَذِهِ الْقُضْبَانِ فَيَكُونُ لَهُ طَعْمٌ، وَفِيهِ حَرَارَةٌ وَحِرَاقَةٌ لَذِيذَةٌ^(ب)^٣.

وَبِنَاحِيَةِ الْمَطَرِيَّةِ، مِنْ حَاضِرَةِ عَيْنِ شَمْسٍ، الْبَلْسَانِ، وَهُوَ شَجَرٌ قِصَارٌ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ بِفِرَ هُنَاكَ، وَهَذِهِ الْبَقْرُ تُعْظَمُهَا النَّصَارَى، وَتَقْصِدُهَا وَتَغْتَبِلُ بِمَائِهَا وَتَسْتَشْفِي بِهِ.

وَيَخْرُجُ لَاغِصَارُ الْبَلْسَانِ - أَوَانِ إِذَا رَاكَ - مِنْ قَيْلِ السُّلْطَانِ مِنْ يَمَوَّلَى ذَلِكَ وَيَحْفَظُهُ، وَيُحْمَلُ إِلَى الْخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، ثُمَّ يُثَقَّلُ مِنْهُ إِلَى قِلَاعِ الشَّامِ وَالْمَارِشَتَانَاتِ لِمُعَالِجَةِ الْمَيُّوودِينَ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا مِنْ خِزَانَةِ السُّلْطَانِ، بَعْدَ أَخْذِ مَرْشُومٍ بِذَلِكَ.

وَالْمُلُوكُ النَّصَارَى - مِنَ الْحَبَشَةِ وَالرُّومِ وَالْفَرَنْجِ - فِيهِ عُلوٌّ عَظِيمٌ، وَهُمْ يَتَهَادَوْنَهُ مِنْ صَاحِبِ مِصْرَ، وَيَرْوُونَ أَنَّهُمْ لَا يَصِيحُّ عِنْدَهُمْ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْتَصِرَ إِلَّا أَنْ يَنْقِمِسَ فِي مَاءِ الْمَقْمُودِيَّةِ وَيَقْتَقِدُونَ أَنَّهُ

(٥) زيادة من تحفة الأبواب. (ب) هذه الفقرة توجد في الأصل بين نص ابن خرداذبة ونص تحفة الأبواب.

١ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ١٦١. الله العمري: مسالك الأبحار (بمالك مصر والشام) ١٣،

٢ أبو حامد الفراء: تحفة الأبواب ٧٣-٧٤. ٦٨، الفلقشدي: صبح الأعشى ٢: ١٨١، ٣: ٢٨٧، أبا

الحسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٣، الحسن الوزان: وصف إفريقيا ٥٨٨، وفيما تقدم ٧٤.

٣ عن دُخْنِ الْبَلْسَانِ رَاجِعَ، ابْنُ حَوْفَلٍ: صُورَةُ الْأَرْضِ

١٦١-١٦٢؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ٢٠٩؛ عبد

اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٢٣-٢٥؛ ابن فضل

لأنه أن يكون في ماء المعمودية شيء من دهن البلسان ، ويُستعمله الميرون^١.

وكان في القديم إذا وصل من الشام خبر انتهى إلى صاحب عين شلس ، ثم يرد من عين شلس إلى الحصن الذي عُرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر ، ثم يرد من الحصن إلى مدينة منف حيث كانت منف تحت الملك .

- وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان ما ذكره في كتاب «المتكسار»^٢ - وهو يشتغل على أخبار النصارى - أن المسيح لما خرجت به أمه ، ومعهما يوسف النجار ، من بيت المقدس ، فرارا من هيرودس ملك اليهود ، نزلت به أول موضع من أرض مصر مدينة بشفة في رابع عشرين بشس ، فلم يقبلهم أهلها ، فنزلوا بظاهرها ، وأقاموا أياما ، ثم ساروا إلى مدينة سمثود ، وعدوا الليل إلى القرية ، وسموا إلى مدينة الأشمونين ، وكان بأعلاها إذ ذاك شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمدة ، فإذا قديم إليها غربت سهل ، فجاءوا ونظروا في أمر القادم ، فعندما وصلت مزيم بالمسيح - عليه السلام - إلى المدينة سقط الفرس المذكور وتكسر / ، فدخلت به أمه . وظهرت له - عليه السلام - في الأشمونين آية ، وهو أن خمسة جمال محملة زحمتهم^٣ في مرورهم ، فصرخ فيها المسيح في الأشمونين ، فصارت حجارة .

- ثم إنهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا بقية تسمى فيكس^٤ مدة أيام ، ثم مضوا إلى مدينة تسمى قس قام^٥ - وهي التي يقال لها اليوم القوصية - فطلق الشيطان من أنجواف الأضنام التي بها ، وقال : إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يحزروا بيوت معايدكم ؛ فخرج إليهم مائة رجل بسلاحهم ، وطردوهم عن المدينة .

فمضوا إلى ناحية مير^٦ في عزيم القوصية ، ونزلوا في الموضع الذي يُعرف اليوم بدئر المحرق ، وأقاموا به ستة أشهر وأياما ، فرأى يوسف النجار في منامه قائلا يُخبره بموت هيرودس ، وبأمره أن

(a) بولاق : زحمتهم . (b) بولاق : فيكس . (c) الأصل وبولاق : قس وقام ، والمبت هو الاسم القبطي للمدينة . (d) بولاق : ميرة .

Coptic Encyclopedia art. *Synaxarion* VII, pp.

2171-90، وتوجد له نشرة عربية في جزعين أعدها عبد

المسيح ميخائيل وأرمانيوس حبشي ، القاهرة ١٩٣٥ -

١٩٣٧ .

^١ نقلا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبهار (ممالك مصر والشام) ٦٨ .

^٢ من كتاب الشيكسار ، وهو عبارة عن قائمة أسماء القديسين المستخدمة في الكنيسة القبطية ، انظر *The*

تَرْجِعَ بِالْمَسِيحِ إِلَى الْقَدَسِ . فَعَادُوا مِنْ مِير^٨ حَتَّى نَزَلُوا حَيْثُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرَفُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ
مِصْرَ بِقَصْرِ الشُّعْبِ ، وَأَقَامُوا بِمَغَارَةِ تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِكَنِيسَةِ بَوِيْرُجَةِ^١ .

ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى عَيْنِ شَمْسٍ ، فَاسْتَرَاخُوا هُنَاكَ بِجَوَارِ مَاءٍ ، فَغَسَلَتْ مَرْيَمُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ثِيَابَ
الْمَسِيحِ وَقَدْ انْتَسَحَتْ ، وَصَبَّتْ غُسَّالَتَهَا بِتِلْكَ الْأَرْضِي ، فَأَثْبَتَ اللَّهُ هُنَاكَ الْبَلْسَانَ ، وَكَانَ إِذْ ذَلِكَ
بِالْأَرْدُنِّ ، فَانْقَطَعَ مِنْ هُنَاكَ وَبَقِيَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ^٢ . وَعُمِّرَتْ^٣ هَذِهِ الْبُيْرُ ، الَّتِي هِيَ الْآنَ مُوجُودَةٌ
هُنَاكَ ، عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي غَسَلَتْ مِنْهُ مَرْيَمُ .

وَبَلَّغَنِي أَنَّهَا إِلَى الْآنَ إِذَا اغْتَبِرَتْ يُوجَدُ مَائُهَا عَيْتًا جَارِيَةً فِي أَشْفَلِهَا ؛ فَهَذَا سَبَبُ تَقْطِيمِ
النَّصَارَى لِهَذِهِ الْبُيْرِ وَلِلْبَلْسَانِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُشْفَى^٤ مِنْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَنْصُورَةُ

هَذِهِ الْبَلَدَةُ عَلَى رَأْسِ بَحْرِ أَشْمُومِ^٢ ، تَجَاهَ نَاحِيَةِ طَلْحَا ، بَنَاهَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْكَامِلُ نَاصِرُ
الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَيُّوبَ ، فِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ ، عِنْدَمَا مَلَكَ
الْفَرَنْجُ مَدِينَةَ دِمَاطِ^٤ . فَتَزَلُ فِي مَوْضِعِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَخَيْمٌ بِهِ ، وَبَنَى قَصْرًا لِسُكْنَاهَا ، وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ مِنْ
الْأُمَرَاءِ وَالْعَسَاكِرِ بِالْبِنَاءِ ، فَبَنِيَ هُنَاكَ عِدَّةَ دُورٍ ، وَنُصِبَتْ الْأَسْوَاقُ ، وَأَدَارَ عَلَيْهَا سُوْرًا مِمَّا يَلِي
الْبَحْرَ ، وَسَمَّاهُ بِالْأَلَاتِ الْخَرِيَّةِ وَالشَّتَائِرِ . وَسَمَّى^٥ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الْمَدِينَةَ الْمَنْصُورَةَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَبْنَاهَا حَتَّى

(a) بولاق : ميرة . (b) بولاق : غمرت . (c) بولاق : سقي . (d) بولاق : وتسمى .

بحيرة تنيس ، وهي اليوم قاعدة محافظة الدقهلية وتقع على
الشاطئ الشرقي لفرع دمياط (باقوت : معجم البلدان
٥ : ٢١٢) ، وهو أول الجغرافيين العرب الذين ذكروا هذه
المدينة : ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ٢٣٣ ابن دلفاق :
الانصار ٥ : ٧١ ، للمقريزي : السلوك ١ : ٧٠١-٧٠٢ علي
مبارك : الخطط التوفيقية ١٥ : ٨٨-٩٣ محمد رمزي :

القاموس الجغرافي ١/٢ : ٢١٥-٢١٧ Maspero &
Wiet, Matériaux I, p. 198; Halm, H., *El*² art.
(al-Mansûra VI, pp. 425-26 .

^١ انظر عنها فيما يلي ٢ : ٥١١ .
^٢ Le Synaxaire arabe Jacobite, texte arabe
publié, traduit et annoté par René Basset, *Patr.*
Or. XVI (1922), pp. 407-10
^٣ بحر أشموم هو المعروف الآن بالبحر الصغير . (علي
مبارك : الخطط التوفيقية ١٥ : ٨٨) .

^٤ مدينة المنصورة بناها للملك الكامل محمد عند هجوم
الفرنج على مصر سنة ٦١٦ عند مفرق البحرين الأبعد
أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طناح ومصبة في

استرجع مدينة دمياط - كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا - فصارت مدينة كبيرة، بها الحمامات والفنادق والأسواق^١.

ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفريخ، ورحل الفريخ إلى بلادهم، جلس بقصره في المنصورة وبين يديه إخوته: الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق، وغيرهما من أهله وخواصه، فأمر الملك الأشرف جاريته^٢ فعثت على غودها^٣:

[الطول]

ولما طعنى فروعون عثا وقومه وجاء إلى مصر ليفيد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأعزقهم في التيم بقصا على بعض
فطرب الأشرف، وقال لها: « بالله كزري »؛ فشق ذلك على الملك الكامل وأسكتها، وقال
لجاريته: « عثي أنت »، فأخذت العود وعثت:

[الطول]

أيا أهل دين الكفر قوموا لتظفروا لما قد جرى في وقتنا ونجدنا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه^٤ وموسى جميعا ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حيازة أولها:

« أتى الوجد إلا أن أبيت مسهدا^٥ »

فأعجب ذلك الملك الكامل، وأمر لكل من الجاريتين بخمسة مائة دينار. فنهض القاضي الصدور الأجل الرئيس هبة الله بن محاسين قاضي غزة - وكان من جملة المجلساء - على قدميه، وأنشد يقول:

[الطول]

هنيئا فإن السعد جاء محمدا وقد أتمز الرحمن بالنضر مؤيدا
حبا لنا إله الخلق فتحا لنا بدا مبيئا وإنعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الأرض بعد قطوبه وأضبع وجه الشوك بالظلم أسودا

(٤) بولاق: وحزه. (٥) هذه العبارة في هامش الأصل.

^١ انظر فيما تقدم ٥٨٨-٥٩٤. الكروب ١٠٥:٤.

^٢ اسمها ست القفر بنت التاج (ابن واصل: مفرج ^٣ ابن واصل: مفرج الكروب ١٠٥:٤.

وَلَمَّا طَلَى الْبَحْرُ الْخِصْمَ بِأَهْلِهِ الطُّغَاةَ وَأَضْحَى بِالْمَرَكَبِ مُزِيدًا
أَقَامَ لِهَذَا الدِّينِ مَنْ سَلَّ عَزْمُهُ صَقِيلًا كَمَا سَلَّ الْحُسَامُ الْمُهْتَدَا
فَلَمْ يَنْجُ إِلَّا كُلَّ شَيْلُو مُجْدَلٍ ثَوَى مِنْهُمْ أَوْ مَنْ تَرَاهُ مُقْبِدَا
وَنَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّمَا عَقِيرَتُهُ فِي الْخَافِقِينَ وَمُنْشِدَا
أَعْبَادَ عَيْسَى إِنَّ عَيْسَى وَجِزْتُهُ وَمُوسَى جَمِيعًا يَنْصُرَانِ مُحَمَّدَا
فَكَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِالْمَنْصُورَةِ مِنْ أَحْسَنِ لَيْلَةٍ مَرَّتْ لِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ^١.

وكان عند إنشاده يُشير، إذا قال عيسى، إلى / عيسى المُعْظَم، وإذا قال موسى، إلى موسى الأشرف، وإذا قال محمدًا، إلى السلطان الملك الكامل. وقد قيل إن الذي أنشد هذه الأبيات إنما هو راجع الحلي^(٥) الشاعر^٢.

العباسة

هذه القَريَّةُ فيما بين بَلْبَيسَ والصَّالِحِيَّةِ من أرض السَّدير، ولم تَزَلْ^(ب) مَسَرَّةً لِمُلُوكِ مِصْرَ، وبها وُلِدَ الْعَبَّاسُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ فَسَمَّاهُ لَذَلِكَ أَبُوهُ الْعَبَّاسُ، وَوُلِدَ بِهَا أَيْضًا الْمَلِكُ الْأَمَّاجِدُ تَغِييَ الدِّينِ عَبَّاسُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَيُّوبَ.

وكان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرًا، ويقول: هذه قِئْلُ^(ج) مصر؛ إذا أَقْبَضَتْ بِهَا أَصْطَاذُ الطَّيْرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّمَكُ مِنَ الْمَاءِ، وَالْوَحْشُ مِنَ الْقَضَاءِ، وَيَصِلُ الْخَبْرُ مِنْ قَلْعَةِ الْجَبَلِ إِلَيَّ بِهَا فِي قَلْعَتِي، وَهُوَ شَحْنٌ. وَبَنَى بِهَا آدْرًا وَمَنَاظِرَ وَبَسَاتِينَ، وَبَنَى أُمْرَاؤُهُ بِهَا أَيْضًا عِدَّةً مَسَاكِينَ فِي الْبَسَاتِينَ.

ولم تَزَلِ الْعَبَّاسَةُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى أَتَشَأَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ بْنِ الْكَامِلِ الْمُنَزَّلَةَ الصَّالِحِيَّةَ، فَتَلَاشَى حِينَئِذٍ أَمْرَ الْعَبَّاسَةِ، وَخَرِبَتِ الْمَنَاظِرُ فِي سَلْطَنَةِ الْمَلِكِ الْمُجَرَّ أَهْلِكَ^٣.

(٥) بولاق: الحلي. (ب) بولاق: لم يزل. (ج) بولاق: تملو.

(الصفدي: الوافي بالوفيات ٥٣: ١٤-٥٨).

^١ المقرئ: السلوك ٢٠٩: ١-٢١٠.

^٢ فيما تقدم ٥٠٠.

^٣ شرف الدين أبو الوفاء راجع بن إسماعيل بن أبي القاسم الأندلسي الحلي الشاعر المتوفى بدمشق سنة ٦٢٧هـ.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر رُكن الدين بيبرس، مرَّ على الشدير - وهو قَم الوادي - فأعجب به، وتبى في موضع اختاره، منه قرية سماها «الظاهريَّة»^١، وأنشأ بها جامعاً، وذلك في سنة ست وستين وست مائة^٢.

وسُميت بالعباسة بنت أحمد بن طولون، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مُودعة لِبنت أخيها قَطَر التَّدَى بنت خُماروَّة بن أحمد بن طولون، لما حُمِلت إلى المُقتَضد، وضربت هناك قُساطيلها، ثم بُيِّت^٣ قرية فشُميت باسمها^٤.

ذكر مدينة قنط بصعيد مصر

هذه المدينة بصعيد مصر عُرِفَت^٥ بِقَطَطِيم بن قُطَيْم بن مِصْرَام بن يَصْر بن حَام بن نُوح عليه السلام. وكانت في الذَّهْر الأوَّل مدينة الإقليم، وأما بدأ خرابها بعد الأربع مائة من تاريخ الهجرة النبوية^٦. وأخير ما كان فيها - بعد السَّبع مائة من سني الهجرة - أزهون مُنْبَكاً للسكر، وبِيت^٧ معاصر للقَصَب^٨.

ويقال كان فيها قِبابٌ بأعالي دُورها، تكون^٩ إشارة من ملك من أهلها عشرة آلاف دينار، أن يجفل في داره قُبَّة. و بالقرب منها مغْدِن الرُّمُود، ولم يَطُل إلا من قَريب.

قَطَطِيم^{١٠} ولي الملك بعد أبيه قُطَيْم. قال ابنُ وَصِيف شاه: كان أَكْبَر وَلَد أبيه، وكان جَبَّاراً عَظِيم الخلق، وهو الذي وَضَعَ أساسات الأهرام الدَّهْشورية وغيرها، وهو الذي بَنَى مدينة دَنْدَرَة^{١١}.

(a) بولاق: بنت. (b) بولاق: المدينة تعرف. (c) الأصل: الهجرة. (d) بولاق: وكانت. (e) بولاق: فإن قَطَطِيم.

قنا (البكري: جغرافية مصر ١٨٣: مجهول: الاستصار ١٨٧
ياقوت: معجم البلدان ٤: ١٣٨٣: ابن جبير: الرحلة ٤٤٠
ابن دقماق: الاستصار ٥: ٣٢-١٣٣: علي مبارك: الخطط
التوفيقية ١٤: ١٠٤-١٠٥: محمد رمزي: القاموس
الجغرافي ٤/٢: ١٧٧-١٧٨، Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 148; Garcin, J.C., *El* art. *Kift*. V, (p. 101).

^١ انظر تفصيل ذلك عند ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٩١.

^٢ هذه رواية ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤: ٧٥.

^٣ قنط (قنط، قنط)، مدينة قديمة في صعيد مصر، في المنطقة التي يقرب فيها مجرى النهر أكثر ما يكون من شاطئ البحر الأحمر، على نحو ٤٠ كيلومتراً شمال الأقصر وعلى بعد كيلومترين شرقي النيل، وهي تبعد اليوم مركز قنا بمحاذة

ومَدِينَةُ الْأَصْنَامِ ، وَهَلَكْتَ عَادَ بِالرَّيْحِ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ ؛ وَأَثَارَ مِنَ الْمَعَادِنِ مَا لَمْ يُبْزِهِ غَيْرُهُ ، وَكَانَ يُتَّخَذُ مِنَ الذَّهَبِ مِثْلَ حَجَرِ الرَّحَى ، وَمِنَ الزُّبُرِ مِثْلَ الْأَسْطُوَانَةِ ، وَمِنَ الْأَشْبَادِ شَمٌ فِي صَحْرَاءِ الْعَرَبِ كَالْقَلْعَةِ . وَعَمِلَ مِنَ الْعَجَائِبِ شَيْئًا كَثِيرًا ، وَبَنَى مَنَارًا عَالِيًا عَلَى جَبَلٍ يَقُطُّ لُزْزِي مِنْهُ الْبَحْرُ الشَّرْقِيُّ ، وَوُجِدَ هُنَاكَ مَغْدَنٌ زَيْتِيٌّ فَعَمِلَ مِنْهُ مِثَالًا كَالْعَمُودِ لَا يَنْخَلُّ وَلَا يَذُوبُ . وَعَمِلَ الْبِرْكَةَ الَّتِي سَمَّاهَا صَيَادَةَ الطُّيْرِ ، إِذَا مَرَّ عَلَيْهَا طَائِرٌ سَقَطَ فِيهَا ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكََةِ حَتَّى يُؤْخَذَ . وَهَذِهِ الْبِرْكَةُ يُقَالُ إِنَّهَا هُنَاكَ إِلَى الْآنَ ، وَأَمَّا الْمَنَارُ فَسَقَطَ .

وَعَمِلَ عَجَائِبَ كَثِيرَةً . وَفِي أَيَّامِهِ أَثَارُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَ الطُّوفَانُ غَرَقَهَا ، وَزَيْنَ الشَّيْطَانِ أَمْرَهَا وَعِبَادَتَهَا ؛ وَيُقَالُ إِنَّهُ بَنَى الْمَدَائِنَ الدَّاجِلَةَ وَعَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ .

وَبَنَى غَرْبِيَّ الثَّيْلِ وَخَلَفَ الْوَاهِتِ الدَّاجِلَةَ ، مُدُنًا عَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَوَكَّلَ بِهَا الرُّوحَانِيْنَ الَّذِينَ يَتَمَعُونَ مِنْهَا ، فَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَذْنُوَ إِلَيْهَا وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا أَنْ يَعْمَلَ قَرَائِينَ لِأُولَئِكَ الرُّوحَانِيْنَ .

وَأَقَامَ قُفْطَرِيمَ مَلِكًا أَرْبَعَ مِائَةٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، وَأَكْثَرَ الْعَجَائِبِ عَمِلَتْ فِي وَفْتِهِ وَوَفَّتْ ابْنَهُ الْيُودُسِيرَ . وَلِذَلِكَ كَانَ الصَّعِيدُ أَكْثَرَ عَجَائِبَ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرْضِ ^(أ) ، لِأَنَّهُ حَيَّرَ قُفْطَرِيمَ فِيهِ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ ^(ب) قُفْطَرِيمَ الْوَفَاةَ ، عَمِلَ لَهُ ^(ج) نَارُوسٌ فِي الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ قُرْبَ مَدِينَةِ الْكُهَّانِ ، فِي سَرَبٍ تَحْتَ الْأَرْضِ مَقْفُودٌ عَلَى أَرْجٍ إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَقَرَّ تَحْتَ الْجَبَلِ دَارًا وَاسِعَةً ، وَجَعَلَ دُورَهَا خَزَائِنَ مَتَقَوَّرَةً ، وَفِي سَقْفِهَا مَسَارِبَ لِلرِّيَّاحِ ، وَبَلُطَ الشَّرْبِ وَجَمِيعِ الدَّارِ بِالْمَزْمَرِ ؛ وَجَعَلَ فِي وَسْطِ الدَّارِ مَجْلِسًا عَلَى ثَمَانِيَةِ أَرْكَانٍ ، مُصَفَّقًا بِالزُّجَاجِ الْمَلُونِ الْمَشْبُوكِ ، وَجَعَلَ فِي سَقْفِهِ جَوَاهِرَ تُشْرِجُ ، وَجَعَلَ فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْمَجْلِسِ مِثَالًا مِنَ الذَّهَبِ يَمُدُّ كَالْبُوقِ الَّذِي يَبْخَرُ بِهِ ؛ وَتَحْتَ الْقُبَّةِ دُكَّةٌ مُصَفَّقَةٌ بِالذَّهَبِ ، وَلَهَا خَوَافٍ مِنْ زَيْزَجِدٍ ، وَفَوْقَ الدُّكَّةِ قَرْشٌ مِنْ خَرِيرٍ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا جَسَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَطَّخَ بِالْأَدْوِيَةِ الْجَفْقَةَ ، وَوَضَعَ فِي جَانِبَيْهِ آلَاتَ كَافُورٍ ، وَسَدَلَتْ عَلَيْهِ ثِيَابَ مَنَسُوجَةٍ بِالذَّهَبِ ، وَوَجَّهَهُ مَكْشُوفٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مَكْمَلٌ ، وَعَنْ جَوَانِبِ الدُّكَّةِ أَرْبَعَةُ تَمَاثِيلَ مُجَوِّفَاتٍ مِنْ زُجَاجٍ مَشْبُوكٍ ، فِي صُورِ النِّسَاءِ بِأَيْدِيَهُنَّ مَرَاوِحَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَعَلَى صُدْرِهِ مِنْ فَوْقِ الثِّيَابِ سَيْفٌ فَاجِزٌّ قَائِمَتُهُ مِنْ زَيْزَجِدٍ . وَجَعَلَ فِي تِلْكَ الْخَزَائِنِ مِنَ الذَّخَائِرِ وَسَبَائِكَ الذَّهَبِ وَالنَّيِّجَانِ وَالْجَوْهَرِ وَبِرَّانِي الْحِكْمِ وَأَصْنَافِ الْعَقَاقِيرِ وَالطَّلْشَمَاتِ وَمَصَاحِفِ الْعُلُومِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَتُهُ .

وجعل / على باب المجلس ديكاً من ذهب ، على قاعدة من رُجاج أخضر ، منشور الجناحين ، مزبوراً عليه آيات مائقة .

وجعل على مدخل كل^(٥) أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان ، وقدامهما بلاطة تحتها ألواب من وطفها ضرباه بأشياهما قتللاه ، وفي سقف كل أزج كُرة ، وعليها لُطوخ مدبر ، يُشرح فيقد طول الزمان .

وسد باب الأزج بالأساطين المُرصصة ، ورسوا على شقيه البلاط العظام ، ورددوا فوقها الزمال ، وزهروا على باب الأزج :

« هذا المدخل إلى جسد الملك المعظم ، المهيب الكريم الشديد قُطُعيم ، ذي الأهد والفخر والغلبة والقهر ، أقل نجمه ، وبقي ذكره وعلمه ، فلا تصل أحدٌ إليه ، ولا يُقَدِّر بحيلة عليه ، وذلك لسبع مائة وسبعين ودورات مضت من السنين »^١ .

وقال المشعودي : ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال^(ب) مدينة فقط ، ومنها يُخرج إلى هذا المعدن ، والموضع الذي هو فيه يُعرف بالخزنة ، وهي مفازة^(ج) وجبال ، والبجة تحمي هذا المكان المعروف بالخزنة ، وإليها يؤدي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد^٢ .

ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوي الدراية - ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر - يخبرون أنه يكثر ويقل في فصول السنة ، فيكثر في قوة من^(د) مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتقوى الحضرة فيه والشماع الثوري في أوائل الشهر ، والزيادة في نور القمر .

وهذا الموضع المعروف بالخزنة الذي فيه معدن الزمرد ، وبين ما اتصل من العتارة وقرب منه من الديار ، مسيرة سبعة أيام . وهي فقط وقوص وغيرهما من صعيد مصر ، وقوص راجبة النيل . وبين النيل فقط نحو من ميلين .

ولديتي فقط وقوص أخباراً عجيبة في بدء عمارتهما ، وما كان في أيام القبط من أخبارهما ، إلا أن مدينة فقط في هذا الوقت متداخلة للخراب ، وقوص أهدر ، والناس فيها أكثر^٣ .

(٥) بلاق : كل مدخل . (ب) ساقطة من بلاق . (ج) مروج : مغاير .

^١ النويري : نهاية الأرب ٤٦: ٤٩ - ٤٩ : وفيما يلي

^٢ السعدي : مروج الذهب ٢ : ١٣٢ .

^٣ نفسه ٢ : ١٣٥ .

وكان يقفط يربا موكل بها رُوحاني في صورة جارية سوداء تحيل صبياً أسود صغيراً، محكي أنها رُئيت بها مرازاً.

وتعدين الزُمُرد^١ في البرّ المتصل بأشوان، وكان له ديوان فيه شهود وكتّاب، ويُنفق على العمال به، وتُنال لهم المُون لحفره، واستخرج الزُمُرد منه. وهو في جبال مُزَملة يُخفر فيه، وربما سقط على الجماعة به فماتوا. وكان يُجمع ما يُخرج منه، ويُحمل إلى القسطنطية، ومنه يُحمل إلى البلاد^٢.

وقد كان الناس يسيرون من قوص إلى مَعْدِن الزُمُرد في ثمانية أيام بالسفر المُعَدِّل، وكانت البحارة تنزل حوْله وقرباً منه لأجل القيام بحفره وحفظه. وهذا المَعْدِن في الجبل الآخذ على شَرْقي النيل، في بحري قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى أَقْرَشَنَدَة، وليس هناك من الجبال أعلى منها، وهو في مُتَقَطع من البرّ لا عِمارة عنده ولا حوْله ولا قريباً منه، والماء عنه مسيرة نصف يوم أو أَزِيد، وهو ما يُتَحَصَّل من المطر، ويُعرف بِعَدِير أَغْنين، يكثر بِكَثْرَة المطر ويقلّ بِقَلْتَه.

وهذا المَعْدِن في صَدْر مَغَاة^٣ طَوِيلَة في حَجَر أبيض يُسْتَخْرَج منه الزُمُرد، وهذا الحَجَر الأبيض ثلاثة أنواع: أَحَدُهَا يُقال له طَلَق كَافُوري، والثاني يُقال له طَلَق فُضِّي، والثالث يُقال له حَجَر جَزوي. ويُضْرَب في هذه الحِجَاة حتى يُخْرَج الزُمُرد، وهو كالغُروك^٤ فيه.

وأَنواعه الذَّهَابي^٥، وهو أَقلُّ من القليل، لا يُخْرَج إِلَّا في الثَّانِر، وإذا اسْتُخْرِج أُلْقِيَ في الزَّيْت الحار، ثم يُحَطَّ في قُطن، ويَصَرَّ ذلك القُطن في حِرْقَة خَام^٦ أو نَحوها. وكان الاختِرارُ على هذا المَعْدِن كثيراً جداً، ويُفْتَش الفَعْلَة عند الخُرُوج منه كلَّ يوم حتى تُفْتَش عَوْرَاتُهم، ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم في ذلك^٧.

(a) بولاق : مغاظة . (b) الأصل وبولاق : كالغريق . (c) بولاق : الرباني . (d) بولاق : خرق وفي مسالك الأبهصار خرق كنان .

^١ عن هذا المعدن ومواضعه في مصر راجع، المسعودي : مروج الذهب ١٣٢: ١٣٦ التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ٧٨-٩١، ابن فضل الله العمري : مسالك الأبهصار (ممالك مصر والشام) ١١-١٣ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠٧: ١١٠، ٢٨٢: ٢٨٣، أبا المحاسن : ^٢ النجوم الزاهرة ١: ٤٣ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٣٢. ^٣ نقلاً عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبهصار (ممالك مصر والشام) ٦٧. ^٤ نقلاً عن مسالك الأبهصار ١١-١٣ وقارن مع القلقشندي : صبح ١٠٨: ١٠٩.

ولم يزل هذا المَقْدُون يُسْتَخْرَج منه الزُّمْرُود ، إلى أن أَبْطَلَ الْعَمَلُ منه الْوَزِيرُ الصَّاحِبُ عِلْمُ الدِّينِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنِ زُبَيْرٍ ، فِي أَهَامِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، فِي سَنَةِ بَضْعٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعٍ
مِائَةٍ .

- وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسة مائة ، كانت فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ بِمَدِينَةِ قِفْطٍ ، سَبَّبَهَا أَنَّ دَاعِيًا مِنْ بَنِي
عَبْدِ الْقَوِيِّ ادَّعَى أَنَّهُ دَاوُدُ بْنُ الْعَاضِدِ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَبَيَّثَ السُّلْطَانُ صَلَاحَ الدِّينِ يُوسُفَ
ابنِ أَيُّوبَ أَخَاهُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ أَمَا يَكْرُ بْنُ أَيُّوبَ عَلَى جَيْشٍ ، فَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ قِفْطٍ نَحْوَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ،
وَصَلَبَهُمْ عَلَى شَجَرِهَا ظَاهِرًا يَقُطُّ بِمَائِمَتِهِمْ وَطَلَبِاسْتِهِمْ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ دَنْدَرَةَ^١

- أَخَذَ^(أ) مُدُنَ الصُّعَيْدِ الْأَعْلَى الْقَدِيمَةِ ، بِنَاهَا قُفْطَرِيمُ بْنُ يَضْرَائِمَ بْنِ يَصْصَرِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ - عَلَيْهِ
الْسَّلَامُ - وَكَانَ فِيهَا بِرُوحَا عَظِيمَةٌ فِيهَا مِائَةٌ وَثَمَانُونَ كُوَّةً تَدْخُلُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ كُوَّةٍ حَتَّى
تَأْتِيَ عَلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ تَكُوزُ رَاجِعَةً إِلَى حَيْثُ بَدَأَتْ . وَكَانَتْ رُوحَانِيَّتُهَا الْمُوَكَّلَةُ بِهَا تَظْهَرُ فِي هَيْئَةِ
إِنْسَانٍ لَهُ رَأْسٌ أَسَدٍ بِمَرَوَيْنَ .

- وَكَانَ بِهَا أَيْضًا شَجَرَةٌ - تُعْرَفُ بِشَجَرَةِ الْعَبَّاسِ - مَتَوَسِّطَةٌ ، وَأَوْرَاقُهَا تُخْضَرُ مُسْتَدِيرَةً ، إِذَا قَالَ
الْإِنْسَانُ عِنْدَهَا : يَا شَجَرَةَ الْعَبَّاسِ جَانِّكَ الْفَاسَ ، تَجْتَمِعُ أَوْرَاقُهَا وَتَحْتَرِقُ^(ب) لَوَقْعِهَا ثُمَّ تَعُودُ كَمَا
كَانَتْ .

وَبَيْنَ دَنْدَرَةَ وَبَيْنَ قُوصٍ بَرِيدٌ وَاحِدٌ . وَكَانَتْ يَزْبَا دَنْدَرَةُ أَكْثَرُهَا مِنْ يَزْبَا إِخْمِيمٍ^٢ .

(أ) بولاق : هي إحدى . (ب) بولاق : وتحزن .

^١ دَنْدَرَةُ . من المدن القديمة بصعيد مصر تقع غربي النيل
دون قوص ، وقد حُرِبَت مَدِينَةُ دَنْدَرَةَ الْقَدِيمَةِ الَّتِي كَانَتْ تَلْعُجُ
بِجَوْلَرِ حَاجِرِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا أَطْلَالُهَا وَمَعْبَدُ
هَاتُورٍ ، وَتَقَعُ فِي الْخَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِلْبَلَدَةِ دَنْدَرَةِ الْحَالِيَةِ الَّتِي
أَنْشَأَهَا الْعَرَبُ عَلَى النِّيلِ فِي شَاطِئِهِ الْغَرْبِيِّ غَرْبِي مَدِينَةِ قَنَا .
وهي الآن تابعة لمركز قنا بمحافظة قنا . (ابن جبير : الرحلة
٤٤٠ : ياقوت : معجم البلدان ٤٧٧:٢ - ٤٧٨ : علي ميارك :
الخطوط الترفيحية ١٠ : ٦٥ - ٦٦ : محمد رمزي : القاموس
الجغرافي ١٧٦:٤/٢) .
^٢ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٠ .

١. ذكر الواحات الداجلة

الواحات مُنْقَطِعَةٌ وَرَاءَ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ فِي مَغَارِبِهِ ، وَلَا تُعَدُّ فِي الْوِلَايَاتِ وَلَا فِي الْأَعْمَالِ ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الشُّلْطَانِ وَالْإِمَامِ ، وَأَمَّا يُحْكَمُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ مُقْطِعِيهَا .
 وبلاد الواحات ، بين يضر والإسكندرية والصعيد والثوبة والحبشة ، يقطعها داخل بيعض .
 وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ، ولا مُفْتَقِرٌ^(a) إلى سواه . وفي^(b) أرضها شجيرة وزاجية ، وغيون حايضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل ، وغيون مختلفة الطعوم من الحامض والقايض والمليح .
 ولكل نوع منها خاصية ومنفعة ، وهي على قسمين : واحات داخلية ، وواحات خارجية . جعلتها أزيع واحات .

وَيُقَالُ إِنَّ الْوَاحَاتِ وَلَدٌ^(c) حويلا بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح ، وأنه أخو سبأ بن كوش أبو الحبش وأبو شقا بن كوش أبو زغاوة وأبو شحنتا^(d) بن كوش أبو الدقمد^(e) . ١٠

قال ابن وصيف شاه : وَيُقَالُ إِنَّ قُطَيْرِمَ بَنَى الْمَدَائِنَ الدَّاجِلَةَ ، وَعَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ : مِنْهَا الْمَاءُ [الْمَلْفُوفُ]^(f) الْقَائِمُ كَالْعَمُودِ لَا يَنْحَلُّ وَلَا يَذُوبُ ، وَالْبُرْكَةُ الَّتِي تُسَمَّى فِلَسْطِينَ - أَيْ صَيَادَةُ الطَّيْرِ - إِذَا مَرَّ عَلَيْهَا الطَّيْرُ سَقَطَ فِيهَا ، وَلَمْ يُكِنِّهِ الْخُرُوجُ مِنْهَا حَتَّى يُؤْخَذَ .

وَعَمِلَ أَيْضًا عَمُودًا مِنْ نُحَاسٍ عَلَيْهِ صُورَةُ طَائِرٍ ، إِذَا قَرُبَ الْأَسَدُ أَوْ الْحَيَّاتُ ، أَوْ غَيْرُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَضِرَّةِ ، مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، صَفَّرَ تَضْفِيرًا عَالِيًا ، فَتَرْجِعُ تِلْكَ الدَّوَابُّ هَارِبَةً . ١٥
 وَعَمِلَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْوَابِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَرْبَعَةَ أَصْنَامٍ مِنْ نُحَاسٍ ، لَا يَقْرُبُ مِنْهَا غَرِيبٌ إِلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِ التَّوْمُ وَالسُّبَاتُ ، فَيَتَامَ عِنْدَهَا ، وَلَا يَتَرَجَّحُ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَيَتَّقُخُوا فِي وَجْهِهِ لِيَقُومَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لَا يَزَالُ نَائِمًا عِنْدَ الْأَصْنَامِ حَتَّى يَهْلِكَ .

وَعَمِلَ مَنَارًا لَطِيفًا مِنْ رُجَاجٍ مُلَوَّنٍ ، عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ نُحَاسٍ ، وَعَمِلَ عَلَى رَأْسِ الْمَنَارِ صُورَةَ صَنْمٍ مِنْ أَخْلَاطٍ كَثِيرَةٍ ، وَفِي يَدِهِ كَالْقَوْسِ كَأَنَّهُ يَرْمِي عَنْهَا ، فَإِنْ عَائَتْهُ غَرِيبٌ وَقَفَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ حَتَّى يَنْتَحِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ . وَكَانَ ذَلِكَ الصَّنَمُ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَهَبِّ الرِّيحِ الْأَزْبَعِ مِنْ نَفْسِهِ . ٢٠

(a) بولاق : يفتقر . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : ولدوا . (d) بولاق : تسفحنا . (e) بولاق : أبو الحبش الرمزم . (f) زيادة من التويري .

وقيل إنَّ هذا الصَّنَمَ على حاله إلى الآن ، وإنَّ النَّاسَ تحامَوا تلكَ المَدِينَةَ - على كثرة ما فيها من الكُنُوزِ والعجائبِ الظَّاهِرَةِ - خَوْفًا من ذلك الصَّنَمِ أن تَقَعَ عَيْنُ إنسانٍ عليه ، فلا يزالُ قائمًا حتى يَتَلَف . وكان بعضُ الملوكِ عَمِلَ على قَلْبِهِ فما أَمَكَّتَهُ ، وهَلَكَ لذلك خَلْقٌ كثير .

ويقالُ إنَّه عَمِلَ في بعضِ المَدَائِنِ الدَّائِلَةِ مِرْأَةَ يُرَى فيها جميع ما يَسْأَلُ الإنسانُ عنه .

- وَبَنَى غَرْبِي الثَّيْل ، وَخَلَفَ الْوَاحَاتِ الدَّائِلَةَ ، مُدُنًا عَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَوَكَّلَ الْوُحَّانِينَ بِهَا الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ مِنْهَا ، فَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا وَلَا يَخْرُجَ مِنْهَا ، أَوْ يَعْمَلُ قَرَابِينَ أَوْ يَكُنْ الْوُحَّانِينَ ، فَيَصِلَ إِلَيْهَا حَيْثُذِي ، وَيَأْخُذَ مِنْ كُنُوزِهَا مَا أَحَبَّ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا ضَرَرٍ ١ .

- وَبَنَى الْمَلِكُ صَا بَنِ أَنْسَاد - وَقِيلَ صَا بَنِ مَرْقُونَس - بِدَاخِلِ الْوَاحَاتِ مَدِينَةً ، وَغَرَسَ حَوْلَهَا نَخْلًا كَثِيرًا ، وَكَانَ يَسْكُنُ مَنَفًى ، وَمَلَكَ الْأَحْيَازَ كُلَّهَا ، وَعَمِلَ عَجَائِبَ وَطَلْسُمَاتٍ ، وَرَدَّ الْكَهَنَةَ إِلَى تَرَاتِيهِمْ ، وَنَفَى الْمَلْهِينَ وَأَهْلَ الشَّرِّ مِمَّنْ كَانَ يَصْحَبُ أَنْسَادُ بَنِ مَرْقُونَس ، وَجَعَلَ عَلَى أَطْرَافِ ١٠ مِصْرَ أَصْحَابَ أَخْبَارٍ يَزْعُمُونَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي فِي مَحْدُودِهِمْ ، وَعَمِلَ عَلَى غَرْبِي الثَّيْلِ مَتَابِرَ يُوقَدُ عَلَيْهَا إِذَا خَزَبَهُمْ أَمْرٌ أَوْ قَصَدَهُمْ قَاصِدٌ .

- وَكَانَ لِمَا مَلَكَ الْبَلَدَ بِأَسْرِهِ ، جَمَعَ الْحُكَمَاءَ إِلَيْهِ ، وَنَظَرَ فِي نُجُومِهِ - وَكَانَ بِهَا حَاقِدًا - فَرَأَى أَنَّ بَلَدَهُ لَا يَدُ أَنْ تَفْرُقَ بِالطُّوفَانِ مِنْ نِيْلِهَا ، وَرَأَى أَنَّهَا تَخْرُبُ عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ ، فَجَمَعَ كُلَّ فَاعِلٍ بِمِصْرَ ، وَبَنَى فِي الْوَاكِ الْأَقْصَى مَدِينَةً ، جَعَلَ طَوْلَ حِصْنِهَا فِي الِازْتِفَاعِ خَمْسِينَ ذِرَاعًا ، وَأَوْدَعَهَا جَمِيعَ الْحِكَمِ وَالْأَمْوَالِ ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي رَفَعَ عَلَيْهَا مُوسَى بَنُ نُصَيْرٍ فِي زَمَنِ بَنِي أُمَيَّةٍ لَمَّا قَدِمَ مِنَ الْمَغْرِبِ . فَلَمَّا دَخَلَ مِصْرَ أَخَذَ عَلَى الْوَاكِ الْأَقْصَى - وَكَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْهَا - فَأَقَامَ سَبْعَةَ أَهَامٍ يَسِيرُ فِي رِمَالٍ بَيْنَ الْقَرْبِ وَالْجُنُوبِ ، فَظَهَرَتْ لَهُ مَدِينَةٌ عَلَيْهَا حِصْنٌ وَأَبْوَابٌ مِنْ حَدِيدٍ ، فَلَمْ يُكُنْهُ فَتَحَ الْأَبْوَابَ . وَكَانَ إِذَا صَعِدَ إِلَيْهَا الرِّجَالُ ، وَعَلَوْا الْحِصْنَ وَأَشْرَفُوا عَلَى الْمَدِينَةِ ، أَلْقَوْا ١٠ بِأَنْفُسِهِمْ فِيهَا ، فَلَمَّا أَشْغَاهُ أَمْرُهَا مَضَى ، وَهَلَكَ مِنْ أَصْحَابِهِ عِدَّةٌ ٢ .

قالَ : وَفِي تِلْكَ الصَّحَارِيِّ كَانَتْ مُتَنَزِّهَاتُ الْقَوْمِ وَمُذُنُهُمُ الْعَجِيبَةُ وَكُنُوزُهُمْ ، لِأَنَّ الرُّومَالَ غَلَبَتْ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَبْقَ يَمْلِكُ تِلْكَ إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ لِلرَّمْلِ طَلْسُمًا لَدَفَعَهُ ، فَفَسَدَتْ طَلْسُمَاتُهَا لِقَدَمِ الرُّومَانِ ٣ .

١ البوري : نهاية الأرب ٤٧: ٤٨ - ٤٩ ، وانظر فيما

٢ نفسه ٨٨: ٨٩ - ٨٩ .

٣ نفسه ٨٩: ٩٠ .

تقدم ٦٣٠ .

قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْكِرَ كَثْرَةَ بُنْيَانِهِمْ، وَلَا مَدَائِيهِمْ وَلَا مَا نَصَبُوهُ مِنَ الْأَعْلَامِ الْعِظَامِ، فَقَدْ كَانَ لِلْقَوْمِ بَطْشٌ لَمْ يَكُنْ لِقَرِهِمْ، وَإِنْ أَتَا زَهْمُ لَبِيئَةٍ، مِثْلُ الْأَهْرَامِ وَالْأَعْلَامِ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَمَا فِي صَحَارِي الشَّرْقِ، وَالْجِبَالِ الْمُتَحَوِّتَةِ الَّتِي يَجْعَلُونَ كَنُوزَهُمْ فِيهَا وَالْأَذْوَبَةَ الْمُتَحَوِّتَةَ، وَمِثْلَ مَا بِالصَّعِيدِ مِنَ الْبَرَابِيِّ وَمَا تَقَشَّوْهُ عَلَيْهَا مِنْ حِكْمَتِهِمْ؛ فَلَوْ تَعَاطَى جَمِيعُ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّخُوا مِثْلَ الْهَرَمَيْنِ مَا تَهَيَّأَ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ أَنْ يَتَّقَشَّوْا بِزِيَا لَطَالِ بِهِمُ الْأَمَدُ وَلَمْ يَكُنْهُمْ.

وَحُكِّيَ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْبَنَاتَيْنِ، فِي ضِيَاعِ الْقَرْبِ، أَنَّ عَامِلًا عَنْدهُمْ غَنَفٌ بِهِمْ، فَقَرَّوْا فِي صَخْرَاءِ الْقَرْبِ وَمَعَهُمْ زَادٌ إِلَى أَنْ تَتَصَلَحَ أَمْوَالُهُمْ وَيَرْجِعُوا؛ فَلَمَّا كَانُوا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَبَعْضُ آخَرٍ، قَدَّمُوا إِلَى سَفْحِ جَبَلٍ، فَوَجَدُوا غَيْرَ أَهْلِيًّا قَدْ خَرَجَ مِنْ بَعْضِ الشُّعَابِ، فَتَبِعَهُ بَعْضُهُمْ، فَاتَّهَى إِلَى مَسَاكِينِ وَأَشْجَارٍ وَتَخُلُ وَمِيَاهٍ تَطْرُدُ^١، وَقَوْمٌ هُنَاكَ / يَزْعُونَ وَلَهُمْ مَسَاكِينُ، وَكَلَّمَتْهُمْ وَأَعْجَبَ بِهِمْ. فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَدَّمَ بِهِمْ عَلَى أُولَئِكَ الْقَوْمِ، فَسَأَلُوهُمْ عَنْ خَالِيهِمْ فَأَخْبَرُوهُمْ، وَأَقَامُوا عَنْدهُمْ حَتَّى صَلَحَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَخَرَجُوا لِيَأْتُوا بِأَهَالِيهِمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَيَقِيمُوا عَنْدهُمْ، فَسَارُوا مُدَّةً وَهُمْ لَا يَتَفَرَّقُونَ الطَّرِيقَ وَلَا يَتَأَتَّى لَهُمُ الْقَوْدُ، فَأَسْفَقُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ.

وَضَلَّ آخَرُونَ عَنِ الطَّرِيقِ فِي الْقَرْبِ، فَوَقَعُوا عَلَى مَدِينَةٍ عَامِرَةٍ كَثِيرَةِ النَّاسِ وَالْمَوَاشِيِ وَالْثُلُحِ وَالشَّجَرِ، فَأَضَاعُواهُمْ وَأَطْعَمُوهُمْ وَسَقَوْهُمْ، وَبَاتُوا فِي طَاحُونَةٍ، فَسَكِرُوا مِنَ الشَّرَابِ وَنَاشُوا، فَلَمْ يَتَنَبَّهُوا إِلَّا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، فَإِذَا هُمْ فِي مَدِينَةٍ خَرَابٍ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ؛ فَخَافُوا وَخَرَجُوا، وَظَلُّوا يَوْمَهُمْ سَائِرِينَ إِلَى الْمِيسَاءِ، فَظَهَرَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْأُولَى وَأَعْتَمَرُ، وَأَكْثَرُ أَهْلًا وَشَجَرًا وَمَوَاشِيًا، فَأَبْسَوْا بِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِخَيْرِ الْمَدِينَةِ الْأُولَى، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْهُمْ وَيَضْحَكُونَ، وَأَطْلَقُوا بِهِمْ إِلَى وَلِيْمَةٍ لِبَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَغَنَّوْهُمْ^٢ حَتَّى سَكِرُوا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَدِّ انْتَبَهُوا، فَإِذَا هُمْ فِي مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَحَوْلُهَا نَخْلٌ قَدْ تَسَاقَطَ ثَمَرُهُ وَتَكَدَّسَ. فَخَرَجُوا، وَهُمْ يَجِدُونَ رِيحَ الشَّرَابِ وَمَعَانِي^٣ الْحُمَارِ، فَسَارُوا يَوْمًا إِلَى الْمِيسَاءِ، وَإِذَا رَاغَ يَزْعَى غَنَمًا، فَسَأَلُوهُ عَنِ الطَّرِيقِ فَذَلَّلَهُمْ، فَسَارُوا بَعْضُ يَوْمٍ مِنَ الْقَدِّ، فَوَصَلُوا مَدِينَةَ الْأَشْمُونِيِّينَ بِالصَّعِيدِ.

(a) بولاق: هنا بهم. (b) بولاق: مبادي.

^١ تَطْرُدُ: تجري.

قَالَ : وَهَذِهِ مَدَائِنُ الْقَوْمِ الدَّاجِلَةِ الْقَدِيمَةِ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا الْجَائُ ، وَمِنْهَا مَا سَنَرْتَهُ عَنِ الْعِيُونِ ، فَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهَا أَحَدٌ ^١ .

وَقَالَ : إِنَّ الْبُودَسِيرَ بْنَ قُطَيْمِ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ خَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ بِصَحْرَاءِ الْغَرْبِ مَنَازِلٌ وَمُنْتَزَهَاتٌ ، وَخَوَّلَ إِلَيْهَا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَقَعَّرُوا تِلْكَ التَّوَاحِي ، وَبَنَوْا فِيهَا حَتَّى صَارَتْ أَرْضُ الْغَرْبِ عَامِرَةً كُلَّهَا . وَأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً كَثِيرَةً ، فَخَالَطَهُمُ الْبَرَبَرُ وَتَكَبَّحُوا مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَحَامَسُوا ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ خَرِبَتْ فِيهَا تِلْكَ الْجِيهَاتُ وَبَادَتْ ، إِلَّا بَقِيَّةَ مَنَازِلٍ تُسَمَّى الْوَاحَاتِ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ سَنْتَرِيَّةَ

وَمَدِينَةُ سَنْتَرِيَّةَ مِنْ جُمْلَةِ الْوَاحَاتِ ^٢ ، بَنَاهَا مَنَاقِيُوشُ بَانِي مَدِينَةِ إِخْمِيمَ ، كَانَ أَحَدَ مُلُوكِ الْقِبْطِ الْقَدَمَاءِ ^٣ .

قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٌ : وَكَانَ فِي حَزْمِ أَبِيهِ وَحُكْمَتِهِ ، فَقَطَّعَ فِي أَغْيُنِ أَهْلِ مِصْرَ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْمَيْدَانَ ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِرِيَاضَةِ أَنْفُسِهِمْ فِيهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْمَارِشْتَانَ لِإِعْلَاجِ الْمَرْضَى وَالزَّمَنَى ، وَأَوْدَعَهُ الْعَقَاقِيرَ ، وَرَتَّبَ فِيهِ الْأَطِبَّاءَ ، وَأَجْرَى عَلَيْهِمْ مَا يَسْتَعِيمُ ، وَأَقَامَ الْأَتْنَاءَ عَلَى ذَلِكَ . وَصَنَعَ لِنَفْسِهِ عَيْدًا ، فَكَانَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَسَمَّاهُ «عِيدَ الْمَلِكِ» فِي يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ ، فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ، وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ مَجْلِسٍ عَلَى عُمُدٍ قَدْ طُوِّقَتْ بِالذَّهَبِ ، وَأَلْبِسَتْ فَاخِرَ الثِّيَابِ الْمُسَوَّجَةِ بِالذَّهَبِ ، وَعَلَيْهِ قُبَّةٌ مُصَفَّحَةٌ مِنْ دَاخِلٍ بِالزُّرْحَامِ وَالزُّجَاجِ وَالذَّهَبِ .

وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ سَنْتَرِيَّةَ فِي صَحْرَاءِ الْوَاحَاتِ ، عَمِلَهَا مِنْ خَجَرٍ أبيضٍ مُرَبَّعَةٍ ، وَفِي كُلِّ حَائِطٍ بَابٌ فِي وَسْطِهِ شَارِعٌ إِلَى حَائِطٍ مُحَافِظٍ لَهُ ، وَجَعَلَ فِي كُلِّ شَارِعٍ بَيْتَةً وَيَشْرَةُ أَبْوَابًا تَنْتَهِي طُرُقَاتُهَا إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ، وَفِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ مَلْعَبٌ يَدُورُ بِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ سَبْعَ دَرَجٍ ، وَعَلَيْهِ قُبَّةٌ مِنْ

^١ النويري : نهاية الأرب ٩٠ : ٩١ - ونص النويري ١٤ : ٥ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢٥٨ : ٤/٢ .

^٢ نقلًا أيضًا عن ابن وصيف شاه ولكنه أكثر تفصيلًا .

^٣ هي الواحة المعروفة اليوم بواحة سيوة عُرفَتْ بِذَلِكَ مِنْذُ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهَجْرِيِّ ، وَهِيَ تَبْعُ الْيَوْمِ مَحَافِظَةُ مَرْسَى مَطْرُوحٍ (بِقُوت : معجم البلدان ٣ : ٢٦١) ابن دقماق : الانتصار .

^٣ عند ابن وصيف شاه - كما نقل عنه النويري - أن الذي بناها ابنُ مَنَاقِيُوشَ بْنِ أَشْمُونٍ لَمْ يَسْمَعْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْقَاسِمِ الْكَاتِبَ مُخْتَصِرَ كِتَابِ ابْنِ وَصِيفٍ شَاهِ الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ النُّوَيْرِيُّ .

خَشَبَ مَذْهُون ، على عُمْدٍ عَظِيمَةٍ من رُحَام ، وفي وَسَطِهِ مَنَارٌ من رُحَام ، عليه صَنَمٌ من صَوَانِ
 أَسود يَدُور مع الشَّمْسِ بِدَوَرَانِهَا ، وبسائر نَوَاحِي القُبَّةِ صُورٌ مُعَلَّقةٌ تُصَفِّرُ وتُصَيِّحُ بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ .
 فكان المَلِكُ يَجْلِسُ على الدَّرَجَةِ العَالِيَةِ من المَلْعَبِ ويَحُولُهُ بِنُوءِ وَأَقَارِبِهِ وَأَهْنَاءِ المُلُوكِ ، وعلى الدَّرَجَةِ
 الثَّانِيَةِ رُؤَسَاءُ الكَهَنَةِ والوُزَرَاءُ ، وعلى الثَّالِثَةِ رُؤَسَاءُ الجَيْشِ ، وعلى الرَّابِعَةِ القَلَابِيقَةُ والمُنْتَجِمُونَ
 والأَطِبَّاءُ وَأَرْبَابُ الغُلُومِ ، وعلى الخَامِسَةِ أَصْحَابُ العِمَارَاتِ ، وعلى السَّادِسَةِ أَصْحَابُ المَهَنِ ،
 وعلى السَّابِعَةِ العَامَّةُ . فيَقَالُ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ : انْظُرُوا إِلَى مَنْ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ ،
 فَإِنَّكُمْ^١ لَا تُلْحَقُونَهُمْ ، وهذا صُرُوبٌ من التَّأْدِيبِ . وَقَتْلُهُ اِمْرَأَتِهِ بِسَكِينٍ فَمَاتَ ، وَكَانَ مُلْكُهُ سِتِينَ
 سَنَةً^١ .

وَسَقَرِيَّةُ الْآنَ بَلَدٌ صَغِيرٌ ، يَسْكُنُهُ نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْهَزِيرِ يَعْرِفُونَ بِسَيُوءَةٍ ، وَلَعَنَتُهُمْ تُعْرَفُ
 بِالسَّيُوءَةِ تَقَرَّبَ مِنْ لُغَةِ زَنَاتَةٍ . وَبِهَا حَدَائِقُ نَخْلٍ ، وَأَشْجَارٌ مِنْ زَيْثُونٍ وَزَيْنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَرْمٌ
 كَثِيرٌ . وَبِهَا الْآنَ نَحْوُ الْعِشْرِينَ عَيْنًا تَسِيحُ بِمَاءٍ عَذْبٍ . وَمَسَافَتُهَا مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَةِ أَحَدُ عَشَرَ يَوْمًا ،
 وَمِنْ جِيْزَةِ مِصْرَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا .
 وَهِيَ قَرْيَةٌ يُصِيبُ أَهْلَهَا الْحُمَى كَثِيرًا ، وَتَمَرُهَا غَايَةٌ فِي الْجَوْدَةِ ، وَتَعْبَثُ الْجَيْنُ بِأَهْلِهَا كَثِيرًا ،
 وَتُخْتَلِطُ مِنْ أَفْرَدٍ مِنْهُمْ ، وَتَسْمَعُ النَّاسُ بِهَا عَزِيفَ الْجَيْنِ .

ذِكْرُ الْوَاحَاتِ الْخَارِجَةِ

بَنَاهَا أَحَدُ مُلُوكِ الْقِبْطِ الْأَوَّلِ ، وَيُقَالُ لَهُ الْيُودُسِيرُ بْنُ قُفْطِيمِ بْنِ قُفْطِيمِ بْنِ مِصْرَايِمَ بْنِ يَكْصَرَ بْنِ
 حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : وَأَرَادَ الْيُودُسِيرُ أَنْ يَسِيرَ مُقَرَّبًا لِيَنْظُرَ إِلَى مَا لَهَا ذَلِكَ ، فَوَقَعَ عَلَى أَرْضٍ
 وَاسِعَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ / بِالمِيَاهِ وَالْعَيُونِ كَثِيرَةِ الْغُشْبِ ، فَبَنَى فِيهَا مَنَائِرَ وَمُنْتَزَهَاتٍ ، وَأَقَامَ فِيهَا جَمَاعَةً مِنْ
 أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَعَمَرُوا تِلْكَ النُّوَاحِي وَبَنَوْا فِيهَا حَتَّى صَارَتْ أَرْضُ الْعَرَبِ عِمَارَةً كُلَّهَا . وَأَقَامَتْ
 كَذَلِكَ مُدَّةً كَثِيرَةً ، وَخَالَطَهُمُ الْبِزْزَرُ ، فَتَكَحَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَحَاسَدُوا وَبَغَى بَعْضُهُمْ

(١) ساقطة من بولاق .

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٢ - ١٧٤ وقارن ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١٤ .

على بعض، فكانت بينهم محروب، فحُرب ذلك البلد وبأد أهله، إلا بقية منازل تسقى الواحات^١.

وقال المَسْعُودِي: وأما بلاد الواحات فهي بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والقَرْب وأرض الأحابش من الثوبة وغيرهم. وبها أرض شبيبة وزاجية، وغبون حامضة وغير ذلك من الطُغْم. وصاحب الواحات في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة - عبد الملك بن مَروان، وهو رجُل من لوائه، إلا أنه مَرواني المذهب، ويَزَكِب في آلاف من الناس خيلاً ونَجْياً، وبينه وبين الأحابش نَعْم من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذَكَرْنَا من التماثيل هذا المقدار من المسافة. وفي أرضه خواص وعجائب، وهو بَلَد قائم بنفسه، غير مُتَّصِل بغيره ولا مُفْتَقِر^(أ) إليه. ويَحْتَمِل من أرضه الثَّعْل والزَّيْب والْعُتَاب^٢.

١٠. وخذتني وَكَيْلُ أَبِي الشَّيخ المَعْمَر^(ب) حُسام الدين عَفْرُو بن محمد بن زَنْكِي الشَّهْرَزُورِي، أنه سمع ببلاد الواحات أن فيها شَجَرَةً نَارِيحٌ يُقَطَّف منها، في سنة واحدة، أربعة عشر ألف حبة نارِيحٍ صَفراء، سوى ما يَتَنَاقَرُ وسوى ما هو أَخْضَر. فلم أَصْدُق ذلك لَعَرَابِهِ، وَقَفْتُ حَتَّى شَاهَدْتُ الشَّجَرَةَ المذكورة، فإذا هي كَأَعْظَم ما يكون من شَجَر الجُذَيْر بِمِصْر وأَكْبَر. وسألتُ مُسْتَوْفِي البلد عنها، فَأَخْضَرَ إِلَيَّ جَرَائِدَ حُسباناته، وتَصَحَّفها حَتَّى أَوْقَفَنِي منها في سنة كَذَا قُطِفَ من النَّارِيحَةِ الفَلَانِيَةِ أربعة عشر ألف حبة نارِيحٍ مُستوية صَفراء، سوى ما بَقِيَ عليها من الْأَخْضَر، وسوى ما تَنَاقَرُ منها وهو صَغِير^٣.

- وبالواحات الشَّيْبُ الْأَبْيَضُ بَوَادِيهَا مَدِينَةُ أَدْفُو، كان في زَمَنِ الْمَلِكِ الْكَائِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، وفي زَمَنِ ابْنِهِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ، على مُقْطَعِي الْوَاحَاتِ حَقْلُ أَلْفِ قِنْطَارٍ شَبَّ أَبْيَضَ فِي كُلِّ سَنَةٍ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَيُطْلَقُ لَهُمْ فِي نَظِيرِ ذَلِكَ جَوَالِي الْوَاحَاتِ، ثم أَهْمِلَ هَذَا قِبَلِ. وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، سَارَ مَلِكُ الثُّوْبَةِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ إِلَى الْوَاحَاتِ، فَأَوَاقَعَ بِأَهْلِهَا وَقَتَلَ مِنْهَا وَأَسَرَ كَثِيرًا^٤.

(أ) بولاق: يفتقر. (ب) بولاق: المنز.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٩. وفيه أن ذلك كان سنة ٧٠١هـ.

^٢ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٣٦. ^٣ انظر فيما تقدم ٥٣٨، وفيه أن إغارة ملك الثوبة على

^٤ ابن لياس: بدائع الزهور ١/١١ (نقلًا عن المقرئ) أسوان كانت في سنة ٣٤٤هـ.

زَكْرُ مَدِينَةِ قُوصٍ

اعْلَمَ أَنَّ قُوصَ أَكْثَمَ مَدَائِنِ الصَّعِيدِ ، وَهِيَ عَلَى النَّيْلِ ، بُنِيَتْ بَعْدَ قَطْعِ فِي أَيَّامِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْقَيْطِ الْأَوَّلِ يُقَالُ لَهُ شَدَاتٌ^١ بَنَ عَدِيمَ بْنِ الْبُودَسِيرِ بْنِ قُطَيْرِمٍ^٢ . قَبْلَ سُمِّيَتْ بِاسْمِ قُوصِ بْنِ قُطْعِ ابْنِ الْخَمِيمِ بْنِ سَيْفَانَ بْنِ أَشْمَنَ بْنِ مِصْرٍ^٣ .

قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهُ : شَدَاتٌ^٤ بَنَ عَدِيمَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْأَهْرَامَ الدَّهْشُورِيَّةَ مِنَ الْحِجَازَةِ الَّتِي قُطِعَتْ فِي زَمَانِ أَبِيهِ ، وَغَمِلَ مَصَاحِفَ الثَّيَرِجَاتِ وَهَيْكَلَ أَرْمَنْتَ ، وَغَمِلَ فِي الْمَدَائِنِ الدَّاخِلَةِ مِنْ أَنْصِنَا هَيْكَلًا وَأَقَامَ قُبَّةً^٥ فِي أَثَرِهِ ، وَهَيْكَلًا فِي شَرْقِيِّ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَبَنَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مَدَائِنَ ، وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ قُوصُ الْعَالِيَةِ ، وَأَسْكَنَ فِيهَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَأَهْلِ الصَّنَاعَاتِ .

وكَانَتْ الْحَبَشُ وَالشُّودَانُ قَدْ عَاثُوا فِي بَلَدِهِ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ ابْنَهُ يَنْقَاوَشَ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَسَبَى ، وَاسْتَعْبَدَ الَّذِينَ سَبَاهُمْ وَصَارَ ذَلِكَ سُنَّةً لَهُمْ ، وَاقْتَطَعَ مَثَلَيْنِ

(a) بولاق : شَدَات . (b) بولاق : فِيهِ .

محافظة قنا . (البكري : جغرافية مصر ٨٢-٨٣ مجهول : الاستبصار ٨٥-٨٦ ابن جبير : الرحلة ٤٠-٤١ ياقوت : معجم البلدان ٤: ٤٤١٣ عبد النعم الحميري : الروض المعمار ٤٨٤-٤٨٥ التيجي : مستفاد الرحلة والاختراع ١٧٣-١٧٥ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مالك مصر والشام) ٨٦-٨٧ ابن دلقاق : الانتصار ٥: ٢٨ القلقشندي : صبح الأعي ٣: ٣٩٧ علي مبارك : الحفظ التوفيقية ١٤: ١٢٨-١٢٩ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ١٨٧-١٨٨ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 155-57; ١٨٩ Garcin, J.C., *Un centre musulman de la Haute - Égypte médiévale : Qûs*, le Caire 1976; id., *El* ٣ art. *Kûs* V, pp. 517-19 وانظر كذلك فيما تقدم (٥٤٩) .

^١ قوص . تقع على الشاطئ الشرقي للنيل على بعد نحو ٣٠ كيلومترا شمال مدينة الأقصر في الموقع الذي يكون فيه مجرى النيل أكثر قربا من شاطئ البحر الأحمر حيث يفصله عن القصير مائي كيلومترا .

ولزدهرت مدينة قوص في النصف الثاني من العصر الفاطمي مع الإصلاحات الإدارية التي أدخلها أمير الجيوش بدر الجمالي حيث كانت عاصمة الصعيد الأعلى ، بفضل استراتيجيته الفاطمين الشرقية للسيطرة على تجارة الهند عن طريق ميناء عقذاب على البحر الأحمر ، وأصبح منصب والي قوص هو الرتبة التي تلي رتبة الوزارة كما أصبح بها دار لضرب النقود . وحافظت قوص على مكانتها طالما كانت التجارة الكارمية في ازدهار . واعتبارا من سنة ١٣٧٦/٥٧٧٦م نتيجة لحقاف أصاب المدينة أخذت تفقد قيمتها كمركز لتقل التجارة خاصة مع انهيار ميناء عقذاب الذي تم في القرن التاسع الهجري ، وهي اليوم إحدى مدن

^٢ الأدفوي : الطالع السعيد ١٣-١٤ .

الذهب من أرضهم، وأقام ذلك الشئني يعملون فيه ويخيلون الذهب إليه .
وهو أول من أحب الصيد، واتخذ الجوارح، ووَلَدَ الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب
الأهلية، وعجل من العجايب والطلسمات لكل قرن ما لا يُحصى كثرة^١.

وقال الأدقوي في « تاريخ الصعيد » : وقُوص بجانب قفط، حكى بعض المؤرخين أنها شرعت
في العمارة، وشرعت قفط في الخراب من سنة أربع مائة^٢. قيل إنه حضر مرة قاضي قُوص،
فخرج من أشوان أربع مائة راكب بغلة إلى إلفاه^٣.

وفي شهر رَمَضَانَ سنة اثنتين وستين وست مائة، أُحضِر إلى الملك الظاهر بيبرس قُلُوسٌ
وُجِدَتْ مَذْفُونَةٌ بقُوص؛ فأخذ منها فِلْسٌ، فإذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفي يده
الْيَمْنَى ميزان وفي اليسرى سيف، وعلى الوجه الآخر رأس فيه أذنٌ كبيرة وعَيْنٌ مفتوحة؛ وبدائر
الفِلْسِ كتابة، فقرأها راهبٌ يوناني، فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاث مائة سنة، وفيه
« أنا غليات الملك : ميزان العدل والكرم في يميني لمن أطاع، والسيف في يساري لمن عصى » .
وفي الوجه الآخر : « أنا غليات الملك : أذني مفتوحة لسماع المظلوم، وعيني مفتوحة أنظر بها
مصالح ملكي » .

وقُوص كثيرة العقارب والشام أترص، وبها صنف من العقارب القتالات حتى إنه كان يُقالُ
فيها [عن المأسوع:]^٤ أَكَلَتْهُ الْعُقْرَبُ؛ لأنه كان لا يُرجى لمن لَسَعَتْهُ حياة. واجتمع بها مرة، في
يوم صائف، على حائط الجامع سبعون سام أترص صفًا واحدًا. وكان الواحد من أهلها إذا مشى
في الصيف ليلاً خارج داره يأخذ يأخذي يديه مشرحة تضيء له، وبالأخرى مَشَكٌ^٥ من حديد
يَشَكُّ به العقارب^٦. ثم إنها تلاشت بعد سنة ثمان مائة.

فلما كانت الحوادث والهجرت، مات بها سبعة عشر / ألف إنسان في سنة ست وثمان مائة .
وكانت من العتارة بحيث إنه تَعَطَّلَ منها في شراقي البلاد سنة ست وسبعين وسبع مائة، مائة

(٥) إضافة من مسالك الأبصار مصدر النقل. (ب) الأصل . سلك .

^١ النويري : نهاية الأرب ٦٦:١٥ - ٦٣ .

والشام ٨٦ .

^٢ الأدقوي : الطالع السعيد ١٣ .

^٣ نفسه ٢٩ : ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٢٨ .

وخمسون مقلَقًا (والمقلَق عندهم بُشتانٌ من عشرين فدانًا فصاعدًا، وله ساقية بأربعة وأجوه) وذلك سيوى ما تعطل مما هو دون ذلك، وهو كثير جدًا.

ذكر مدينة إشتا

قال الأذفوي: وذكر أن إشتا في سنة حصل منها أربعون ألف لإذبت تمر، واثنان عشر ألف لإذبت زبيب. وإشتا تشتمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل، وقيل إنه كان بها في وقت سبعةون شاعرًا^١.

ذكر مدينة أذفو

ومدينة أذفو (يقال بالدال المهملة، ويقال أيضًا بالتاء المثناة من فوق)^٢، قال الأذفوي: أخبرني الخطيب القذل أبو بكر، خطيب أذفو، أن جبارة^٣ طرحت ثلاثة شماريخ في كل شعوخ ثمرة واحدة، وأنه قلع الجبارة^٤ بأصلها ووزنها فجاءت خمسة وعشرين درهما، كلها بجريدها وخشبها، وذلك بأذفو^٥.

ولما كان بعد سنة سبع مائة، حفز صنّاع الطوب، فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسي، وعليها مثال شبكة، وفي ظهرها لوح مكتوب بالقلم البرهاني^٦، رأيتها على هذه الحالة في مدينة أذفو.

(a) بولاق: جمارة. (b) بولاق: اليوناني.

٢٤، ٥٥٥-٥٥٦ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٤٤: ٨-٤٤.

٥٠. محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٤/٢: ٢١١؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 136, id., *El² art.* (Addf I, pp. 191-92).

^٣ على هامش الأصل: الجبارة من النخل التي فاقت

اليد، يقال: نخلة جبارة وثاقة جبار إذا عظمت وفوة الجبارة الرقلة وهي النخلة الطويلة وهي دون الحرق وجمع الرقلة رفل.

^٤ الأذفوي: الطالع السعيد ٢٦-٢٧.

^١ الأذفوي: الطالع السعيد ٢٥-٢٦ ابن دقماق:

الاتصار ٥: ٣٠، وانظر كذلك، باقوت: معجم البلدان

١٨٩: ١ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٤/٢: ١٥١؛

علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ٥٦-٦٤ Ritter, H., *El² art. Isn² IV*, p. 216.

^٢ أذفو. بضم الهمزة وسكون الدال وضم القاء وسكون

الواو، من المدن المصرية القديمة تقع بين أشوان وقوص وبها

الكثير من المعابد المصرية، وهي تابعة الآن لمحافظة أسوان

(باقوت: معجم البلدان ١: ١٢٦، الأذفوي: الطالع السعيد

أفناس

كوزة من كوز الصعيد^١، يقال إن عيسى ابن مريم - عليه السلام - وُلِدَ بها، وإن نَحْلَةَ مَرْيَمَ - عليها السلام - التي ذُكِرَتْ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِكُلِّ نَحْلَةٍ مِمَّا يَنْشَأُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِثْلَ نَحْلِ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٨] لم تَزَلْ بها إلى آخر أيام بني أمية. والذي عليه الجماعية أن عيسى - عليه السلام - إنما وُلِدَ بِقَرْيَةِ يَمْتَ لَحْمٍ من مَدِينَةِ يَمْتِ الْمُقَدَّسِ^٢. وبأفناس شَجَرُ اللَّبْنِ^٣.

زُكْرُ مَدِينَةِ الْبَهْنَسَا

هذه المَدِينَةُ في جِهَةِ الْقَرْبِ من النَّيْلِ^٤، بها تُعْمَلُ الشُّتُورُ الْبَهْنَسِيَّةُ، وَيُنْسَجُ الْمُطَرِّزُ وَالْمُقَاطَعُ السُّلْطَانِيَّةُ، وَالْمُضَارِبُ الْكِبَارُ وَالثِّيَابُ الْمُتَخَيَّرَةُ^٥. وكان يُعْمَلُ بها من الشُّتُورِ ما يَتَلَوَّنُ طَوْلَ الشُّتْرِ الْوَاحِدِ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَقِيَمَةُ الزَّوْجِ مَائَتًا يُقَالُ ذَهَبًا.

وَإِذَا صُنِعَ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الشُّتُورِ وَالْأَكْمِيَّةِ وَالثِّيَابِ، مِنَ الصُّوفِ أَوْ الْقُطْنِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا اسْمُ الْمُتَّخِذِ لَهُ مَكْتُوبًا، عَلَى ذَلِكَ مَضَوْا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وَيَقِطُّ مِصْرَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ مَرْيَمَ كَانَا بِالْبَهْنَسَا، ثُمَّ انْتَقَلَا عَنْهَا إِلَى الْقُدْسِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [آل عمران: ٥٠] الرُّبُوعَةُ : الرُّبُوعَةُ : الْبَهْنَسَا.

وهذه المَدِينَةُ بَنَاهَا مَلِكٌ مِنَ الْقَيْطِ يُقَالُ لَهُ مَنَاوِشُ بْنُ مَنَاوِشٍ.

(١) بولاق : البهنج . (٢) بولاق : الهيرة .

^٣ من المدن القديمة تقع على الضفة الغربية للنيل من خليج اللُّثَّى (بحر يوسف)، وهي إحدى قرى مركز بني مزار التابع لمحافظة المنيا. (بالوت : معجم البلدان ١: ٥١٦-٥١٧؛ علي مبارك: الخطة التوفيقية ١٠: ٢-٥، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢: ٢١١-٢١٢ Maspero & Wiet, Matériaux I, 51-52; Wiet, G., El² art. af- (Bahnasá I, p. 974).

^١ إحدى كوز الأعمال البهنساوية يصعد مصر وتعرف بأفناسية المدينة، لا تزال أطلالها ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية المحروقة بأفناسية الخضراء بمركز بني سويف أحد مراكز محافظة بني سويف (بالوت : معجم البلدان ١: ٢٨٤؛ علي مبارك: الخطة التوفيقية ٨: ١٠٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢: ١٠٣).

^٢ فيما تقدم ٧٢.

قال ابنُ وصيف شاه : واشتُخِلَفَ مَنَاشُ الْمَلِكِ ، فَطَلَبَ الْحِكْمَةَ مِثْلَ أَبِيهِ ، وَاشْتَخَرَجَ كُتُبَهَا ، وَأَكْرَمَ أَهْلَهَا ، وَتَدَلَّ فِيهِمُ الْجَوَائِزُ ، وَطَلَبَ الْإِعْرَابَ فِي عَمَلِ الْعَجَائِبِ . وَكَانَ كُلُّ مَنْ مَلُوكَهُمْ يَجْهَدُ لِحُفْدِهِ فِي أَنْ يَمْتَلِكَ لَهُ غَرِيْبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ لَمْ تُعْمَلْ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ . وَتَبَتْ فِي كُتُبِهِمْ ، وَزُيِّرَ عَلَى الْحِجَارَةِ فِي تَوَارِيخِهِمْ .

• وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ الْبَقَرَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ؛ وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَلَّ جِلَّةٌ يَحْسُ مِنْهَا ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ صُورَةَ رُوحَانِيٍّ عَظِيمٍ يَقُولُ لَهُ : إِنَّهُ لَا يُخْرِجُكَ مِنْ عَلَيْكَ إِلَّا عِبَادَتُكَ الْبَقَرَ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ كَانَ وَقْتُ حُلُولِهَا بِكَ صُورَةَ ثَوْرٍ بِقَوْنَيْنِ ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِأَخْذِ ثَوْرٍ أَتْلَقَ حَسَنَ الصُّورَةِ ، وَغِيْلَ لَهُ مَجْلِسًا فِي قَصْرِهِ ، وَسَقَفَهُ بِقُبَّةٍ مُذَهَّبَةٍ . فَكَانَ يُسَخِّرُهُ وَيَطْلُبُ مَوْضِعَهُ ، وَوَكَّلَ بِهِ سَادِنًا^(٨) يَقُومُ بِهِ وَيَكْنُسُ تَحْتَهُ ، وَيَقْبُدُهُ سِرًّا مِنْ أَهْلِ تَمَلُّكِهِ ، فَبَرَأَ مِنْ عِلَّتِهِ .

١٠ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ غِيْلَ الْعَجَلَ فِي عِلَّتِهِ ، فَكَانَ يُرْتَكَبُ عَلَيْهَا الْبُيُوتُ مِنْ فَوْقِهَا قِيَابُ الْخَشَبِ . وَغِيْلَ ذَلِكَ مَعَ^(ب) مِنْ أَحَبَّ مِنْ نِسَائِهِ وَخَدَمِهِ إِلَى الْمَوَاضِعِ وَالْمُنْتَرِهَاتِ ، وَكَانَتِ الْبَقَرُ تَجَرُّهُ^(ج) ، فَإِذَا مَرَّ بِمَكَانٍ نَزِهٍ^(د) أَقَامَ فِيهِ ، وَإِذَا مَرَّ بِمَكَانٍ خَرَابٍ أَمَرَ بِعِمَارَتِهِ فِيهَا^(هـ) ؛ فَيُقَالُ إِنَّهُ نَظَرَ إِلَى ثَوْرٍ مِنَ الْبَقَرِ الَّذِي يَجْرُ عَجَلَتُهُ ، أَتْلَقَ حَسَنَ الشَّيْءِ ، فَأَمَرَ بِتَرْفُفِهِ وَسَوْفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِإِعْجَابًا بِهِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ جُلًّا مِنْ دِيبَاجٍ ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي يَوْمٍ ، وَقَدْ تَخَلَّى فِي مَوْضِعٍ صَارَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ انْفَرَدَ عَنْ غِيْبِهِ وَخَدَمِهِ ، وَالثَّوْرُ قَائِمٌ ، إِذْ خَاطَبَهُ الثَّوْرُ وَقَالَ لَهُ : لَوْ رَفَعْتَنِي الْمَلِكُ عَنِ الشَّيْرِ مَعَهُ ، وَجَعَلَنِي فِي هَيْكَلٍ وَغَبَدَنِي ، وَأَمَرَ أَهْلَ تَمَلُّكِهِ بِعِبَادَتِي ، كَفَيْتِهِ جَمِيعَ مَا يُرِيدُهُ ، وَعَاوَنْتَهُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَقَوَّيْتَهُ فِي تَمَلُّكِهِ ، وَأَزَلْتِ عَنْهُ جَمِيعَ عِلَّتِهِ ؛ فَازْتَاغَ لِلذَّكَ ، وَأَمَرَ بِالثَّوْرِ فُتِّلَ وَطُيِّبَ وَأُدْخِلَ فِي هَيْكَلٍ ، وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ .

٢٠ فَأَقَامَ ذَلِكَ الثَّوْرُ يُعْبَدُ مُدَّةً ، وَصَارَ فِيهِ آيَةٌ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ وَلَا يَمُوتُ ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا أَطْرَافَ وَرَقِ الْقَصَبِ الْأَخْضَرِ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ، فَافْتَنَّتِ النَّاسُ بِهِ / وَصَارَ ذَلِكَ أَصْلًا لِعِبَادَةِ الْبَقَرِ^١ .

(٨) بولاق : سائسا . (ب) ساقطة من بولاق . (ج) بولاق : وكان البقر يحجره . (د) بولاق : نزهة .

^١ ربما يقصد ابن وصيف شاه بذلك العبادة المعروفة عند قدماء المصريين بعبادة العجل أبيس .

وَبَنَى مَوَاضِيعَ كَثَرَتْ فِيهَا كُنُوزًا، وَأَقَامَ عَلَيْهَا أَغْلَامًا. وَبَنَى فِي صَحْرَاءِ الْغَرْبِ مَدِينَةً يُقَالُ لَهَا دِيمَاسُ، وَأَقَامَ فِيهَا مَنَارًا، وَذَفَنَ حَوْلَهَا كُنُوزًا^١. وَيُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ قَائِمَةٌ، وَإِنْ قَوْمًا جَازُوا بِهَا مِنْ تَوَاجِيهِ الْغَرْبِ وَقَدْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَسَمِعُوا بِهَا عَزِيفَ الْحَيِّ، وَرَأَوْا ضَوْعًا يَتَرَاءَى بِهَا.

- وَفِي بَعْضِ كُتُبِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ الثَّوْرَ، بَعْدَ ثَلَاثَةِ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا صُورَتَهُ مِنْ ذَهَبِ أَجْجُوفٍ، وَيُؤْخَذَ مِنْ رَأْسِهِ شَفَرَاتٍ وَمِنْ ذَنْبِهِ وَمِنْ ثُحَاتِهِ قُرُونُهُ وَأُظْلَافِهِ، وَيُجْعَلُ فِي الثَّعْثَالِ الْمَذْكُورِ، وَعَرَفَهُمْ أَنَّهُ يَلْحَقُ بِعَالِمِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا بَجَسَدِهِ فِي مَجْرُونٍ مِنْ شَجَرٍ أَحْمَرَ، وَيُذَنَّنَ فِي الْهَيْكَلِ، وَيُنْصَبَ يَمَانُهُ عَلَيْهِ، وَرُحْلُ فِي شَرْفِهِ، وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ ثَلَاثِ^٢ وَالْقَمَرُ زَائِدُ الثَّوْرِ، وَيُنْقَشُ عَلَى الثَّعْثَالِ عِلَامَاتُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ؛ فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَكَلَّلُوهُ بِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ مِنَ الْجَوَاهِرِ، وَجَعَلُوا عَيْنَيْهِ جَزْعَتَيْنِ، وَعَرَّسُوا فِي الْهَيْكَلِ عَلَيْهِ شَجَرَةً، بَعْدَ مَا ذَفَنُوهُ فِي الْمَجْرُونِ الْأَحْمَرَ، وَبَنَوْا مَنَارًا طَوَّلُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا، عَلَى رَأْسِهِ قُبَّةٌ تَتَلَوَّنُ كُلَّ يَوْمٍ لَوْنًا حَتَّى تَمُضِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى اللَّوْنِ الْأَوَّلِ.

- وَكَسَوْا الْهَيْكَلَ أَلْوَانِ الْقِيَابِ، وَشَقُّوا نَهْرًا مِنَ الثَّلِيلِ إِلَى الْهَيْكَلِ، وَجَعَلُوا حَوْلَهُ طِلْسَمَاتٍ، رُؤُوسَهَا رُؤُوسُ الْقُرُودِ عَلَى أَيْدَانِ النَّاسِ، كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَدَفْعٍ مَضْرُوعَةٍ وَجَلْبٍ مُنْقَعَةٍ. وَأَقَامَ عِنْدَ الْهَيْكَلِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ، وَذَفَنَ تَحْتَ كُلِّ صَنْمٍ صِنْفًا مِنَ الْكُنُوزِ، وَكَتَبَ عَلَيْهَا قُوبَانَهَا وَبَنَحُورَهَا، وَأَشْكَنَهَا الشَّحْرَةَ^٣، فَكَانَتْ تُغْرِفُ بِمَدِينَةِ الشَّحْرَةِ^٤، وَمِنْهَا كَانَتْ أَصْنَافُ الشَّحْرَةِ^٥ تَخْرُجُ^٦.

- وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الثَّوْرُوزَ بِمِصْرَ. وَفِي زَمَانِهِ بُنِيَ الْيَهُتْسَا. وَأَقَامَ بِهَا أَشْطُوَانَاتٍ، وَجَعَلَ فِيهَا قُوقَهَا مَجْلِسًا مِنْ رُجَاجٍ أَصْفَرٍ، عَلَيْهِ قُبَّةٌ مُذَهَّبَةٌ، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَلْقَتْ شُعَاعَهَا عَلَى الْمَدِينَةِ^٧. وَيُقَالُ إِنَّهُ مَلَكَهُمْ ثَمَانِ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَذُفِنَ فِي أَحَدِ الْأَهْرَامِ الصَّغَارِ الْقَبْلِيَّةِ، وَقِيلَ فِي عَرَبِي الْأَشْمُونِيِّينَ. وَذُفِنَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْعَجَائِبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَصْنَافًا^٨ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: الشجرة. (c) بولاق: أصناف.

^١ فيما تقدم ٣٧٦. (شاه)؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٧٧ء، وانظر فيما تقدم

^٢ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٦٧-٦٩.

^٣ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٧١ (عن ابن وصيف) مناقوش.

التي تَرى الدُّفِين والحَبِيبَةَ ، وألف سَرَج دَهَبًا وَفِصَّة ، وعشرة آلاف جام وَغَضَار من دَهَب وَفِصَّة وَرُجَاج ، وألف عَقَار^(٥) لَفُتُون الأَعْمَال . وَرُزِير^(٥) عليه اسمه ومُدَّة مُلكه وَوَقْتُ مَوْتِهِ .

وفي سنة أربع وثلاثين وسبع مائة ، ظَهَرَ بِالْأَشْمُونَيْنِ ، في وادٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَسَاقِي مُرْبَعَةِ مَمْلُوكَةٍ مَاءً عَذْبًا صَافِيًا ، فَتَشَى شَخْصٌ عَلَى حَاقَتِهَا طُولُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَلَمْ يَبْلُغْ آخِرَهَا . وَيُقَالُ إِنَّهَا مِنْ عَمَلِ سُورِيدِ بَانِي الْأَهْرَامِ ، لِتَكُونَ عُذَّةً لِمَا كَانُوا قَدْ تَوَقَّعُوهُ مِنْ مُحْدُوثِ طُوفَانِ نَارِي ، فَرِيدَمَ هَذَا الْوَادِي بَعْدَ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ تَلَاَفِ النَّاسِ^١ .

يقول الشَّيْخُ الإمامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَّيْهَانِي^٢ : حَدَّثَنِي عَلِيٌّ بْنُ حَسَنِ بْنِ خَالِدِ الشَّعِيرِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ عَلَيَّ فِيهَا ، قَالَ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ قَزَاةِ الشَّاكِنِينَ بِكُورَةِ الْبَهْتَسَا ، قَالَ : خَرَجْتُ أَنَا وَرَجُلٌ رَفِيقٌ لِي نَزْتَادُ الْبِلَادِ وَنَطْلُبُ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَةِ عَشْرِ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، فَقَطَعْنَا الْجَبَلَ الْعَرَبِيَّ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَهْتَسَا ، وَسَوْنَا مَتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَقَمْنَا أَيَّامًا وَنَحْنُ نَمْشِي مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْجَنْوِبِ ، فَوَقَعْنَا فِي وَادٍ كَثِيرِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَاءِ وَالْكَلَأِ ، لَيْسَ فِيهِ أَنْهَسٌ . وَهُوَ وَادٍ وَاسِعٌ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، نَحْوُ يَوْمٍ فِي الطُّولِ وَيَوْمٍ فِي الْعَرْضِ ، كُلُّهُ أَغْبَى وَبَسَاتِينَ نَخْلٍ وَزَيْثُونٍ ، كَثِيرِ الْإِبِلِ وَالْمَعْزِ ، وَالذَّنْبُ وَالصَّبْعُ بِهِ كَثِيرٌ ، وَالْإِبِلُ بِهِ مُتَوَحِّشَةٌ وَكَذَلِكَ الْمَعْزُ قَدْ صَارَتْ بِهِ وَخْشِيَّةً ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ آيِسِيَّةً^(٥) ، وَلَيْسَ بِالْوَادِي لَا رَائِحَ وَلَا غَادٍ مِنَ النَّاسِ .

قَالَ : فَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا^(٥) أَقَامَا بِالْوَادِي نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَأَنَّهُمَا رَأَيَا فِي وَسْطِ الْوَادِي مَدِينَةً حَصِينَةً مَبْنِيَّةً عَالِيَةً الشُّورِ شَامِيخَةً الْقُصُورِ ، لِإِذَا تَقَرَّبَا مِنْ سُورِهَا سَمِعَا صَجِيحًا عَظِيمًا وَأَصْوَاتًا مَهُولَةً مَخُوفَةً ، وَرَأَيَا دُخَانًا يَرْتَفِعُ إِلَى جَوْ الشَّمَاءِ حَتَّى يَغْطِيَ سُورَ الْمَدِينَةِ وَجَمِيعَ مَا فِيهَا ؛ وَأَنَّ تِلْكَ الْإِبِلَ الْوَحْشِيَّةَ عَدَّتْ عَلَى رَوَاجِلِهَا الْإِنْسِيَّةَ فَأَذْنَتْهَا وَقَتَلَتْهَا .

(a) بولاق : عقابر . (b) بولاق : زبروا . (c) بولاق : آتسه بهم . (d) حتى نهاية الفقرة تستخدم نسخة الأصل صيغة الجمع .

^١ في هامش الأصل : وبأصل المصنف ورقة فيها مكتوب ما مثاله بخطُّ أَفْنَه مَغْرَبِي : الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَّيْهَانِي ، حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ ، الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ بِرَمْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
^٢ انظر عن الشيخ محمد بن أحمد الفرياني فيما تقدم ٤٣٧ ، ٥١١ ، وفيما يلي ٢ : ٢٠٩ ، ٣٠٢ فهو أحد المصادر الشفهية للمغربي .

فَتَحْتَلُّ عِنْدَ ذَلِكَ الرِّجْلَانِ الْغَزَارِيَانِ بِحَيْلٍ ، وَقَتْلًا جِيَالًا وَأَشْرَاكَ شِبَاكَمَا مِنْ لَيْفِ الثُّخُلِ ، وَقَيْدًا تِلْكَ الْإِبِلَ الْوَحْشِيَّةَ ، وَقَتْلًا خُوصًا ، وَضَغْفًا قِفَاقًا مِنَ الْخُوصِ لِزَادِهِمَا وَمَلَأَهَا تَمْرًا ، وَزَلًّا مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ الْوَحْشِيَّةِ مَكَانَ رَوَاجِلِهِمَا ، عِوَضًا عَنْهَا ، وَرَكِبَاهَا مُتَوَجِّهَيْنِ نَحْوَ الشَّرْقِ ، وَحَمَلًا مَعَهُمَا مِنَ الْجَرِيدِ - أَعْنِي جَرِيدَ الثُّخُلِ - مَا يَغْرِفَانِ بِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا ، وَيَجْعَلَانِ ذَلِكَ أَمَارَاتٍ لِمُرُورِهِمَا إِلَيْهَا .

فَكَانَا كُلُّمَا مَرَا عَلَى شَرْفٍ ، جَمْعًا عَلَيْهِ جَرِيدَتَيْنِ عُلْمًا ، حَتَّى وَصَلَا إِلَى الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مِصْرَ ، فَزَلَّا إِلَى الْبَهْنَسَا ، فَعَرَفَا قُوَّتَهُمَا ، وَتَحَمَّلَا بِأَهَالِيهِمَا .
فَلَمَّا عَمَلُوا سَطْحَ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ ، وَجَدَا كُلُّ مَا فَوْقَاهُ مِنْ جَرِيدِ الثُّخُلِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَكَامِ مُجْتَمِعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ فِي أَعْلَى الْجَبَلِ ، فَزَجَعَا عِنْدَ ذَلِكَ لِأَهَالِيهِمَا وَمِنْ مَعَهُمْ إِلَى أَرْضِ الْبَهْنَسَا .
وَهَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ^١

كَانَتْ مِنْ عَظَائِمِ مَدَائِنِ^(٥) الصُّعِيدِ ، يُقَالُ إِنَّهَا مِنْ بَنَاءِ أَشْمُونِ بْنِ مِصْرَ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ . وَقَالَ / ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : كَانَ أَشْمُونُ أَعْدَلُ وَلَدَ أَبِيهِ ، وَأَرْغَبُهُمْ فِي صَنْعَةِ تَبْقَى وَتَبْقَى ذِكْرُهَا ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْحَجَالِيسَ الْمُصَفَّخَةَ بِالزُّجَاجِ الْمَلُونِ وَسَطَ النَّيْلِ .

وَتَقُولُ الْقِبْطُ : إِنَّهُ بَنَى سَرَبًا تَحْتَ الْأَرْضِ ، مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ إِلَى أَنْصَنَا تَحْتَ النَّيْلِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ حَفَرَهُ وَعَمَلَهُ لِبَنَاتِهِ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَخْضِينَ إِلَى هَيْكَلِ الشَّمْسِ . وَكَانَ هَذَا الشَّرَبُ مُبْلَطُ الْأَرْضِ وَالْحَيْطَانِ وَالشَّقْفِ بِالزُّجَاجِ الْقَحِينِ الْمَلُونِ .

(٥) يرواقي : أعظم مدن .

معجم البلدان ١ : ٢٠٠ ، ابن دقماق : الانصار ٥ : ١١٥ علي مبارك : الخطط الترتيبية ٨ : ٧٤-٧٦ : محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ : ٩٤-٩٦ : وتعليقاته على النجوم الزاهرة ٩ : ٤٠-٤١ ،^١ ٢-٣ ، Ayman F. Sayyid, *Et* art. al- (Ushmunayn X, p...

^١ الأشمونيين . من المدن المصرية القديمة ، عرفت في العصرين اليوناني والروماني باسم Hermopolis Magna ، كانت تقع غربي النيل بصعيد مصر تجاه مدينة أنصنا التي عُلِّ محلُّها الآن قرية الشيخ عبادة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل . وهي الآن إحدى مدن مركز مَلُوي الواقعة في محافظة المنيا بالوجه القبلي (الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥ : ياقوت :

وقيل: إن أشمون كان أطول إخوته ملكًا، وقال أهل الأثر: إنه ملك ثمان مائة سنة، وإن قَوْم عاد انتزعوا منه الملك بعد ست مائة سنة من ملكه، وأقاموا تسعين سنة، واستولوا على البلد، فانتقلوا إلى الدثينة من طريق الحجاز إلى وادي القرى فعمروها، واتخذوا بها المنازل والمصانع، وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أشمون.

ويقال إنه عمل على باب الأشمونين إوزة من نحاس، فكان الغريب إذا جاء ليُدخل المدينة صاحبت الإوزة وصفت بجانحها فيعلم به، فإن أحبوا منعوه، وإن أخرجوا تركوه. وكثرت الحيات في وقته، فكانوا يصيدونها ويقتلون من لحومها أدوية وزيافات، ثم ساقوها بسخرهم إلى وادي الحيات في جبال لويته ومراقية، فسجنوها هناك^١.

^(٨) وفي «تواريخ النصارى» أن المسيح - عليه السلام - لما قُدمت به أمه وهو طفل إلى أرض مصر نزلت أولًا ظاهري مدينة بتمطه، ثم مضت وعُدت الثيل إلى الجانب الغربي ومضت إلى الأشمونين، وكان على أعلى المدينة صورة فرس على أربعة أعمدة إذا قدم غريب صهلت، فعندما قدم المسيح سقط هذا الفرس وتكسر^(٩).

وقال في «كتاب هروشيوش»: إن أشمون بن قبط أول ملوك المصريين، وأنه كان في زمان ساروج^(ب) بن راعو بن فالغ^(ج) بن عاير بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وإن سني الدنيا صارت إلى زمان ساروج^(ب) ألفين وتسع مائة وخمس سنين^(د)، يكون ذلك بعد الطوفان بست مائة وثلاث وستين سنة^٣.

وبها كانت فرهة الخيل والبغال والحمير، وكان يُعَمَل بها قرش القومز الذي يُشبه الأَرَمَنِي. وكان ينزل بأرض الأشمونين عدَّة بطون من بني جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكانوا بادية أصحاب شوكة - وكان معهم بنو مشلمة بن عبد الملك بن مزوان خلفاء لهم، ومعهم بطون آخر يُقال لهم بنو عسكر، يُقال إن أباهم كان مولى لعبد الملك بن مزوان، ويُزعمون أنهم من بني

(٨-٩) هذه الفقرة ساقطة من بولاق. (ب) بولاق: شاروح وفي أصل أورويسوس Serug. (ج) بولاق: تالغ وعند

أورويسوس: فالق. (د) عند أورويسوس: اثنين وستين.

^١ التويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٠-٧١.

^٢ أورويسوس: تاريخ العالم ٩١.

^٣ انظر فيما تقدم ٦٢٥-٦٢٦.

أَتَيْتُهُ صُلَيْبِيَّةً . وكان معهم أَيْضًا حُلَفَاءُ لَهُمْ بَنُو خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ يَتَزَلُّونَ أَرْضَ دِلْجَةَ عِنْدَ أَشْمُونِ .

دُوْرُ مَدِينَةِ إِخْمِيم

صَبَّطَهَا الْبَكْرِيُّ بِكَثْرِ الْهَمْزَةِ وَإِسْكَانِ الْخَاءِ ثُمَّ مِمَّ وَيَاءٍ وَمِمَّ عَلَى بِنَاءِ إِفْعِيلٍ^١ . وهي في الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ النَّيْلِ ، والذي بَنَاهَا مَنَاقِيُوشُ بْنُ أَحَدِ مُلُوكِ الْقِبْطِ الْأَوَّلِ^٢ .

قال ابنُ وَصِيفٍ شَاهٌ : كَانَ جَلْدًا مُخَنَّكَ ، فَاسْتَأْنَفَ الْعِمَارَةَ ، وَبَنَى الثَّقَرَى ، وَنَصَبَ الْأَعْلَامَ ، وَجَمَعَ الْحِكْمَ وَمَصَاحِفَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَعَمِلَ الْعَجَائِبَ ، وَبَنَى لِنَفْسِهِ مَدِينَةً انْفَرَدَ بِهَا ، وَعَمِلَ عَلَيْهَا جِصْنًا ، وَنَصَبَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَعْلَامَ ، فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ عِلْمٌ ، وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَعْلَامِ ثَمَانُونَ صَنْعًا مِنْ نُحَاسٍ وَأَخْلَاطٍ فِي أَيْدِيهَا السِّلَاحُ ، وَزَيَّرَ عَلَى صَدْرِهَا آيَاتِهَا .

وكان بِمَنْفَى رَجُلٌ مِنْ أَوْلَادِ الْكَهَنَةِ ، مِنْ أَهْلِ النَّاسِ بِالسَّحَرِ ، وَأَبْصَرَهُمْ بِأَخْذِ الثَّمَاسِيحِ وَالسَّبَاعِ ، وَكَانَ يُعَلِّمُ الْعِلْمَانَ السَّحَرِ ، فَإِذَا حَدَّثُوا عِلْمَ غَيْرِهِمْ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْتَقَى لَهُ مَدِينَةٌ ، وَيُحَوَّلَ إِلَيْهَا وَهِيَ إِخْمِيمُ .

فَمَلَكَهُمْ مَنَاقِيُوشُ نِيفًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ فَدُفِنَ فِي الْهَرَمِ الْمُخَاذِي لِإِطْفِيحٍ ، وَمَعَهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَالِ وَالْجَوْهَرِ وَالْآتِيَةِ وَالتَّمَائِيلِ ، وَزُيِّرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ وَالْوَقْتُ الَّذِي هَلَكَ فِيهِ^٣ .

قال : وَذَكَرَ أَهْلُ إِخْمِيمِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى مِنَ الشَّرْقِ ، وَكَانَ يَلْمُ الْيَرْبَا ، وَيَأْتِي إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ بِبَخُورٍ وَخُلُوقٍ ، فَيُبَيِّحُ وَيَطْلُبُ صُورَةً فِي عِضَادَةِ الْبَابِ ، فَيَجِدُ تَحْتَهَا دِينَارًا فَيَأْخُذُهَا وَيُتَصَرَّفُ . ففَعَلَ ذَلِكَ مُدَّةً حَتَّى وَشَى بِهِ غُلَامٌ لَهُ إِلَى عَامِلِ الْبَلَدِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ ، فَتَبَدَّلَ مَالًا وَخَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ .

(a) يَبَاضُ بِالْأَصْلِ .

١ باقوت : معجم البلدان ١ : ١٢٣ - ١٢٤ : القلتشندي : صبح الأضفى ٣ : ٣٩٦ ابن دسماق : الانتصار ٥ : ٢٥٠ - ١٢٦ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨ : ٣٥ - ٤٣ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ : ٨٩ - ٩٠ Wist, G., *El* art. ١٩٠ (Akhmia I, p. 340).

٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٢ .

١ أبو حبيد البكري : معجم ما استعجم ١٢٥ .

٢ إخميم (وتضبط أحيانًا إخميم) من أقدم المدن المصرية تقع في شرقي النيل ، اشتهرت بمبدها المعروف ببريا إخميم الذي هدم بعد القرن الخامس الهجري . وهي الآن إحدى مدن محافظة سوهاج في صعيد مصر (البكري : جغرافية مصر ٨١ ؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ١٨٤ ابن جبير : الرحلة ٣٥ - ٣٨ الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥ - ١٢٦

وكانت يربوا إخميم من أعجب البرابي وأعظمها ، قد بُنيت لحزن بُرهم ، فإنهم قَصَّوا على أهل مصر بالطوفان قَبْلَ وقته بقرائن ، لكنهم اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : تكون نازٌّ فتخرق جميع ما على وَجْه الأرض ، وقال آخرون : بل يكون ماءً ، فتجلبوا هذه البرابي قبل الطوفان .

وكان في هذه البربا صُورُ الملوك الذين يَمْلِكُون مصر ، وكانت مَبْنِيَةٌ بِحَجَرِ المَرْمر ، وطولُ كُلِّ حَجَرٍ منها خمسة أَذْرُعٍ في شَمَكِ ذِرَاعَيْن ، وهي سبعة دَهاليز شَقُوفُها حِجَاوَةٌ ، طولُ الحَجَرِ منها ثمانية عشر ذِرَاعًا في عَرْضِ خمسة أَذْرُعٍ ، مَذْهُونَةٌ بِالْأَزْوَرْدِ وغيره من الأصباغ التي يَحْسِبُها النَّاظِرُ كأنَّما فُرِغَ الدَّهَانُ منها الآن لِحِدَّتِهَا^١ .

وكان كُلُّ دِهاليزٍ منها على اسمِ كَوَكَبٍ من الكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ ، ومُجْدِرَانِ هذه الدَّهاليزِ مَنقُوشَةٌ بِصُورِ مختلفة الهَيَّاتِ والمَقَادِيرِ ، فيها رُموزُ عُلُومِ القَبِيطِ ، من الكِيمِيَاءِ والسَّيْمِيَاءِ وَالطَّبَلَسَمَاتِ والطَّبِّ والنُّجُومِ والهِندَسَةِ وغير ذلك ، أَوْدَعُوها تلكَ الصُّورَ .

وَذَكَرَ ابْنُ جُبَيْرٍ في « رِخْلَتِهِ » أَنَّ طُولَ هذه البربا مائتان وعشرون ذِرَاعًا ، وسَعَتُها مائة وسبعون^٢ ذِرَاعًا ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ على أربعين سارية سوى الحيطان ، دَوَّرُ كُلِّ سارية خمسون شِيزًا ، وبين كُلِّ ساريتين ثلاثون شِيزًا ، ورؤوسها في نِهَآةِ العَظَمِ كُلِّهَا مُنْقَشَةٌ^٣ من أَشَقْلِهَا إلى أَغْلَاهَا ، ومن رَأْسِ كُلِّ سارية إلى الأُخْرَى لَوُحٌ عَظِيمٌ من الحَجَرِ المُنْحَوْتِ فيها ما دَوَّرُوه ستة وخمسون شِيزًا طولًا ، في عَرْضِ عَشْرَةِ أَشْبَارٍ وارتفاع ثمانية أَشْبَارٍ ؛ وَسَطُحُهَا^٤ من ألواح الحِجَاوَةِ ، كأنَّها فَوْشٌ واحد ، فيه النُّصَاوِيرُ البديعة / والأَصْبِغَةُ القَرِييَّةُ ، كَهَيِّةِ الطَّيُورِ والآدَمِيِّينَ ، وغير ذلك في دَاخِلِهَا وخَارِجِهَا ؛ وَعَرْضُ حَائِطِ البربا ثمانية عَشَرَ شِيزًا من حِجَاوَةِ مَرصُوصَةٍ^٥ ، كَذَا قَاسَهَا ابْنُ جُبَيْرٍ في سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ .

وَيُقَالُ إِنَّ ذَا الثُّونَ عَرَفَ مِنْهَا عِلْمَ الكِيمِيَاءِ .

وما زَالَتْ هذه البربا قَائِمَةً إلى سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، فَخَرَّبَهَا رَجُلٌ من أَهْلِ إخميم ، يُقَرَفُ بِالخَطِيبِ كَمَالِ الدِّينِ بنِ بَكْرِ الخَطِيبِ عَلمَ الدِّينِ عَلِيٍّ ، ونَالَ مِنْهَا مَالًا ، فلم تَطُلْ

(a) رحلة ابن جبير : ستون . (b) رحلة ابن جبير : منقوشة . (c) رحلة ابن جبير : سقف هذا الهيكل .

^١ قارن : النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٤ ابن فضل الله

^٢ ابن جبير : الرحلة ٣٦ ، ٣٧ .

العمرى : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

حياته ومات. ومن حينئذٍ تلاشى أمر إخميم إلى أن خربت. وقد ذَكَرَ جماعةٌ أَنَّ يَرْبَا إخميم كانت في هيئة غُلامٍ أَمْرَدٍ غُويَانٍ، وَأَنَّ قَوْمًا دَخَلُوهَا مَرَّةً، فَتَبِعَهُمْ وَأَخَذَ يَضْرِبُهُمْ ضَرْبًا وَجِيعًا حَتَّى خَرَجُوا هَارِبِينَ. وَحِكْمِي مِثْلَ ذَلِكَ عَلَنَ دَخَلَ الْأَهْرَامَ أَيْضًا.

- وقد حِكْمِي أَنَّ رَجُلًا أَلْصَقَ عَلَى صُورَةٍ مِنْ يَرْبَا إخميم شَعْعَةً، فَكَانَ إِذَا تَرَكَّهَا فِي مَوْضِعِ الثَّجَابِ الْعَقَارِبُ إِلَيْهَا، وَإِذَا وَضَعَ الشَّعْعَةَ فِي ثَابُوتٍ اجْتَمَعَتِ الْعَقَارِبُ حَوْلَهُ.
- وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ فِي يَرْبَا إخميم شَيْطَانٌ قَائِمٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدَةٍ، وَلَهُ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَقَدْ رَفَعَهَا إِلَى الْهَوَاءِ، وَفِي جَبْهَتِهِ وَحَوَالِيهِ كِتَابَةٌ، وَلَهُ إِخْلِيلٌ ظَاهِرٌ مُتَلَصِّقٌ بِالْحَائِطِ. وَكَانَ يُذَكِّرُ أَنَّ مِنْ اِخْتِالٍ حَتَّى يُنْقَبَ عَلَى ذَلِكَ الْإِخْلِيلِ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْكَسِرَ، وَيُعْلِّقَهُ عَلَى وَسْطِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ مُنْعِطًا إِلَى أَنْ يَنْزِعَهُ، وَيُجَامِعُ مَا أَحَبَّ وَلَا يَنْقُزُ مَا دَامَ مُعْلَقًا عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَغْضَ مِنْ وَلِيِّ إخميم أَقْلَعَهُ فَوَجَدَ مِنْهُ شَيْعًا عَجِيبًا مِنْ ذَلِكَ.

وَكَانَتِ الْأَنْطَاعُ تُجَلِّبُ مِنْ إخميم، وَبِهَا تُقْتَلُ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ غَرِيفٍ عَلَى الشَّخَرَةِ، وَكَانَ بِهَا شَجَرُ الْبُنَجِ.

- وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى يَرْبَا إخميم اسْمُهُ دُومَرِيَا، وَإِنَّهُ جَعَلَ هَذِهِ الْيَرْبَا مَثَلًا لِلْأُمَمِ الْآتِيَةِ بَعْدَهُ، وَكَتَبَ فِيهَا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ وَمَفَاخِرَهُمُ الَّتِي يَفْتَحِرُونَ بِهَا، وَصَوَّرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءَ وَالْحُكَمَاءَ، وَكَتَبَ فِيهَا مِنْ يَأْتِي مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

وَكَانَ بِنَاؤُهُ إِثَاها وَالتَّشْرِ بِرَأْسِ الْحَمَلِ، وَالتَّشْرِ يُقِيمُ عِنْدَهُمْ فِي كُلِّ بُرْجٍ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ. قُلْتُ: وَالتَّشْرِ فِي زَمَانِنَا بِأَخِيرِ بَابِ بُرْجِ الْجَدِيِّ، فَيَكُونُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذِهِ الْيَرْبَا مِنْذُ بُنِيَتْ نَحْوُ الثَّلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

- وَذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَيْسِيُّ، فِي كِتَابِ «تَحْقِيقِ الْأَلْبَابِ»، أَنَّ هَذِهِ الْيَرْبَا مُرَبَّعَةٌ مِنْ جِجَارَةٍ مَنَحُوتَةٍ، وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، يُفْضِي كُلُّ بَابٍ إِلَى بَيْتٍ لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، كُلُّهَا مُظْلَمَةٌ، وَيُضْعَدُ مِنْهَا إِلَى ثِيُوتٍ كَالْغُرُفِ عَلَى قَدْرِهَا^٢.

^٢ أبو حامد الفَرْنَاطِيُّ: تحفة الألباب ٧٧.

^١ ابنُ لُبَّاسٍ: بِلَاحِ الزُّهْرِيِّ ١/٢٣: ١ عن ابنِ وَصِيفٍ

ذكر مدرسة العقاب

قال المسعودي: مدينة العقاب غربي أهرام بوسير الجيزة^(أ)، على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجيد، وقد غور طريقها، وحمي المسلك إليها والشت الذي يؤذي نحوها، وفيها عجائب البنيان والجواهر والأموال^١.

وقال ابن وصيف شاه^٢: وكان الوليد بن دؤمغ العمليقي قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان ويغهر ملوكها، فلما صار بالشام وجهه غلاماً له يقال له عون، فسار إلى مصر وقتلها، ثم سار فتلقاه عون ودخل مصر فاستباح أهلها. ثم سئح له أن يقف على مصب النيل، فخرج في جيش كثيف، واشتخلف عوناً على مصر، وأقام في غيبته أربعين سنة.

وإن عوناً، بعد سبع سنين من مسيره، تجر وادعى أنه الملك، وأنكر أن يكون غلام الوليد وإنما هو أخوه، وغلب بالسحر، وسبى الحرائر، فمال الناس إليه، ولم يدع امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالاً إلا أخذته وقتل صاحبه. وهو مع ذلك يكرم الكهنة، ويعظم الهياكل^(ب). فاتفق أنه رأى الوليد في منامه وهو يقول له: من أمرك أن تتسمى باسم الملك، وقد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل؟ ونكحت بنات الملوك، وأخذت الأموال بغير واجب. ثم أمر بقدر مئقت زينة، وأخفيت حتى غلت، ونزع ثيابه ليلقيه فيها، فأتاه عقاب فاحتطفه وحلق به في الجو، وجعله في هوة على رأس جبل، فسقط إلى واد فيه حجارة مئنة^(ج). فأنته مزعوباً، وقص ذلك على كهنته، فقالوا: نحن نخلصك منه بأن نعمل عقاباً وتعبده، فإنه الذي خلصك في نؤمك، فقال: أشهد لقد قال لي: اعرف لي هذا المقام ولا تنسه.

فعمل عقاباً من ذهب، وجعل غيبته جوهريتين، ووشحه بالجواهر، وعمل له هيكلًا لطيفاً، وأوحى عليه شتور الحرير، وأقبلوا على تبخيرهم وقربانه حتى نطق لهم، فأقبل عون على عبادته، ودعا الناس إلى ذلك فأجابوه^٣.

(أ) بولاق: أبو صير بالجيزة، المسعودي: بوسير والجيزة. (ب) النوري نقلًا عن ابن وصيف شاه: وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويكرم الكهنة. (ج) النوري: واد فيه حية.

ثُمَّ أَمَرَ فُجِّمَعَ لَهُ كُلُّ صَانِعٍ بِمَصْرَ، وَأُخْرِجَ أَصْحَابَهُ إِلَى صَخْرَاءِ الْغَرْبِ لَطَلَبَ أَرْضَ سَهْلَةٍ حَسَنَةِ الْإِسْتِوَاءِ، يُدْخَلُ إِلَيْهَا مِنْ مَوَاضِعَ صَغْبَةٍ وَجِبَالٍ وَعِزَّةٍ، بِحَيْثُ تَقْرُبُ مِنْ تَغِيضِ الْمَاءِ - الَّتِي هِيَ الْيَوْمَ الْقَيُّومُ، وَكَانَتْ تَغِيضًا لِمَاءِ الثَّيْلِ حَتَّى أَصْلَحَهَا يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِيُخْرِجِيَ الْمَاءَ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ.

- فَخَرَجُوا، وَأَقَامُوا شَهْرًا يَطْوِفُونَ حَتَّى وَجَدُوا بُغْيَتَهُ، فَلَمْ يَتَّقِ بِمَصْرَ فَاعِلٌ وَلَا مُهْلِدَسٌ، وَلَا أَحَدٌ لَهُ بَصَرٌ بِالْبِنَاءِ وَقَطَعَ الصُّخُورَ وَنَخَعَهَا إِلَّا وَجْهَ إِلَيْهَا، وَأَنْقَذَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنَ الْجَيْشِ وَسَبْعَ مِائَةِ سَاحِرٍ لِمَعَاوَنَتِهِمْ، وَأَنْقَذَ مَعَهُمُ الْآلَاتِ وَالْأَزْوَادَ عَلَى الْعَجَلِ؛ وَطَرِيقَ هَذِهِ الْعَجَلِ إِلَى الْقَيُّومِ فِي صَخْرَاءِ الْغَرْبِ وَاضِحَةٌ مِنْ خَلْفِ الْأَهْرَامِ.

- فَلَمَّا تَكَامَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ نُحْتِ الْحِجَازَةِ، خَطُّوا الْمَدِينَةَ فَرَسَخَيْنِ فِي مِثْلِهِمَا، وَخَفَرُوا فِي /
- ١٠ الْوَسْطِ بَقْرًا جَعَلُوا فِيهَا تِمْنَالٌ يُخْتَزِرُ مِنْ نُحَاسٍ بِأَخْلَاطٍ، وَنَصَبُوهُ عَلَى قَاعِدَةٍ نُحَاسٍ وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّرْقِ، وَذَلِكَ بِطَالِيعِ يَتِّتِ رُحْلٍ وَاسْتَقَامَتِهِ وَسَلَامَتِهِ - وَكَانَ فِي شَرْفِهِ - وَذَبَحُوا يُخْتَزِرًا، وَلَطَّخُوا الثَّنَائِلَ بِدَمِهِ فِي وَجْهِهِ، وَتَخَرَّوْا بِشَيْءٍ مِنْ شَعْرِهِ، وَخَشَوْا جَوْفَهُ بِدَمِهِ وَشَعْرَهُ وَعِظَامِيهِ وَلَحْيِهِ وَمَرَاتِهِ، وَجَعَلُوا فِي أَدْنَاهُ مِنْ مَرَاتِهِ، وَخَرَقُوا بِقِيَةِ الْخَيْتَزِرِ، وَجَعَلُوا زِمَادَهُ فِي قُلَّةٍ مِنْ نُحَاسٍ بَيْنَ يَدَيْ الثَّنَائِلِ، وَنَقَشُوهُ بِآيَاتِ رُحْلٍ.

- ١٥ ثُمَّ شَقُّوا فِي الْبُحْرِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، فِي كُلِّ جِهَةٍ سَرَبًا إِلَى حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، وَعَمِلُوا عَلَى أَقْوَاهِهَا مَنَافِسَ تَجْذِبُ الْهَوَاءَ، وَسَدُّوا الْبُحْرَ، وَعَقَدُوا فِيهَا قُبَّةً عَلَى عُمُدٍ مَرْتَفَعَةٍ عَلَى حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، وَجَعَلُوا فِيهَا شَوَارِعَ يَتَّصِلُ كُلُّ شَارِعٍ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَقَصَلُوهَا بِالطَّرِيقَاتِ وَالْمَنَازِلِ، وَجَعَلُوا حَوْلَ الْقُبَّةِ تَمَائِيلَ فَرْسَانٍ مِنْ نُحَاسٍ بِأَيْدِيهَا جِرَابٍ، وَوُجُوهُهَا تَجَاهَ الْأَبْوَابِ. وَجَعَلُوا أَسَاسَ الْمَدِينَةِ مِنْ حَجَرٍ أَسْوَدَ، فَوْقَهُ حَجَرٌ أَحْمَرٌ، عَلَيْهِ حَجَرٌ أَضْفَرٌ، مِنْ فَوْقِهِ حَجَرٌ أَخْضَرٌ. وَفَوْقَ الْجَمِيعِ حَجَرٌ أَيْضٌ يَشْفُ، وَكُلُّهَا مَتِينَةٌ بِالرُّعَاصِ الْمَضْبُوبِ بَيْنَ الْحِجَازَةِ، وَفِي
- ٢٠ قُلُوبِهَا أَعْمِدَةٌ مِنْ حَدِيدٍ عَلَى بِنَاءِ الْأَهْرَامِ.

وَجَعَلُوا طَوْلَ حِصْنِهَا سِتِينَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ عَشْرِينَ، وَعَلَى رَأْسِ كُلِّ بَابٍ حِصْنٌ بِأَعْلَاهُ عُقَابٌ كَبِيرٌ مِنْ صُفْرِ وَأَخْلَاطٍ قَدْ نَشَرَ جَنَاحَيْهِ وَهُوَ أَجْوَفٌ، وَعَلَى كُلِّ رُكْنٍ فَارِسٌ بِيَدِهِ خِزْبَةٌ وَوَجَّهَهُ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ.

- ٢٥ وَسَاقَ الْمَاءَ إِلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ، يَتَخَدَّرُ فِي صَبَبِهِ إِلَى الْبَابِ الْغَرْبِيِّ وَيَخْرُجُ إِلَى صَهَارِيجٍ، وَكَذَلِكَ مِنَ الْبَابِ الْجَنُوبِيِّ إِلَى الشَّمَالِيِّ، وَقُرُوبٌ لِلْعُقَابِ عُقْبَانًا ذُكُورًا، وَاجْتَلَبَ الرِّيَاحَ إِلَى أَقْوَاهِ

الثمائل، فصَارَ يُسَمَّعُ لها أصوات هائلة، ووَكَّلَ بها أزواجاً تَمْنَعُ الدَّاخل إليها إلا أن يكون من أهلها.

وَنَصَّبَ القُقاب الذي يَتَجَدُّ له تحت القُبَّة في وَسَطِ المَدِينَةِ، على قَاعِدَةٍ بأربعة أركان على كُلِّ رُكْنٍ وَجْهَ شَيْطَانٍ، وجَعَلَهَا على عُمُود يُدِيرُهَا. فكان القُقاب يدور إلى الجهات، فيُقيم في كُلِّ جهة رُبْعَ السَّنَةِ.

فلَمَّا تَمَّ ذلك، نَقَلَ إلى المَدِينَةِ الأموال والجواهر التي بمصر من عَهْدِ المُلُوكِ، والثمائل والحِكَمِ وثراب الفِضَّةِ والعقاقير والسِّلاح، وحَوَّلَ إليها كِبَارَ الشَّحَرَةِ والكَهَنَةِ وأَصْحَابِ الصَّنَائِعِ والتَّجَارِ، وقَسَمَ المَسَاكِينَ بينهم، فلا يَخْتَلِطُ أَهْلُ صِنَاعَةٍ بسواهم.

وعَمِلَ لها^(١) رَيْضًا [يحيط بها وبني فيه منازل]^(٢) لأَصْحَابِ المِهْنِ والزَّرَاعَةِ، وعَقَدَ على تلكِ الأَنْهَارِ قَنَاطِرَ يَمْشِي عليها الدَّاخلُ إلى المَدِينَةِ، وجَعَلَ المَاءَ يَدُورُ حَوْلَ الرِّيْضِ، وَنَصَّبَ عليها أَغْلَامًا وَحَرَسًا، ثم غَرَسَ وَرَاءَ ذلكِ مِمَّا يَتَّصِلُ بالبَرْيَةِ النَّخْلَ والكَرَمَ، وجميعَ أَصْنَافِ الشَّجَرِ على أَقْسامٍ مَقْسُومَةٍ، ومن وَرَاءَ ذلكِ كُلِّهِ مَزَارِعَ الغَلَّتِ من كُلِّ جِهَةٍ، كُلُّ ذلكِ حَوْفًا من الوَلِيدِ.

قَالَ: وبين هذه المَدِينَةِ وبين مَنَفٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وكان يُقِيمُ فيها وَيَخْرُجُ إليها، ثم يَعودُ إلى مَنَفٍ، وكان لها أَرْبَعَةُ أَعيَادٍ في السَّنَةِ، وهي الأَوْقَاتُ التي يَتَحَوَّلُ القُقاب فيها.

فلَمَّا تَمَّ لَعُونُ ذلكِ اطمأنَّ قَلْبُهُ، إلى أن وَافَى إليه كِتَابُ الوَلِيدِ من الثُّوبَةِ، يَأْمُرُهُ بِحَمْلِ الأَزْوَادِ وَنَصْبِ الأَشْوَاقِ. فَوَجَّهَ إليه في البَرِّ والبحْرِ بما أَرَادَ، وحَوَّلَ أَهْلَهُ ومن اصْطَفَاهُ من بَنَاتِ المُلُوكِ والكُبراءِ إلى المَدِينَةِ. فلَمَّا قَرُبَ الوَلِيدُ، خَرَجَ إليها وَتَحَصَّنَ فيها، واستَخْلَفَ على مَنَفٍ.

فَقَدِمَ الوَلِيدُ، وقد سَمِعَ ما فَعَلَهُ عَوْنٌ، فَغَضِبَ وَهَمَّ أَنْ يَتَقَتَّ إليه بِجَيْشٍ، فَعَرَفَ بِخَيْرِ المَدِينَةِ وَمَتَنَّتِهَا وَخَبَرَ الشَّحَرَةَ، فَكَتَبَ إليه أَنْ يَتَقَدَّمَ عليه، ويُحَذِّرُهُ عَاقِبَةَ التَّخَلُّفِ؛ فَأَجَابَهُ: ما على المَلِكِ مِنِّي مَقْوَنَةٌ وَلَا تَعَرُّضٌ، وَلَا عَثَ فِي بَلَدِهِ لِأَنِّي عَبْدُهُ، وَأَنَا لَهُ رِذْءٌ في هذا المَكَانِ من كُلِّ عَدُوٍّ يَأْتِيهِ من القَرْبِ، وَلَا أَقْدِرُ على المَسِيرِ إليه لِحُزْفِي مِنْهُ، فَلْيَقَرَّنِي المَلِكُ بِحَالِي كَأَخِي عَمَّالِهِ، وَأُوجِّهْ إليه

ما يُلْزَمُنِي مِنْ خَرَايجِهِ وَهَدَايَاهُ ؛ وَبَقِيَ إِلَيْهِ بِأَمْوَالِ جَلِيلَةٍ وَجَوْهَرِ نَفِيسٍ ، فَكَفَّ عَنْهُ . وَأَقَامَ الْوَلِيدُ بِمِصْرَ حَتَّى مَاتَ ^١ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَيَّومِ

أَعْلَمُ أَنَّ مَوْضِعَ الْفَيَّومِ كَانَ مَغِيصَ مَاءِ النَّيْلِ ، فَلَمَّا وَلِيَ الشَّيْخُ يُوسُفُ الصُّدِّيقُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَذْيِيرَ أُمُورِ مِصْرَ ، عَمَّرَهَا ^٢ .

- قال ابنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : ثُمَّ مَلَكَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ ، وَالْوَقِيعُ تَسْمِيَةً نَهْرَ اَوْشٍ - فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْخَلْقِ ، جَمِيلَ الْوَجْهِ ، عَاقِلًا مُتَمَكِّنًا ؛ فَوَعَدَ بِالْجَمِيلِ ، وَأَشَقَطَ عَنِ النَّاسِ خَرَايجَ ثَلَاثَ سِنِينَ ، وَفَرَّقَ الْمَالَ فِي الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ^٣ . وَمَلَكَ عَلَى الْبَلَدِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ يُقَالُ لَهُ أَطْفِينٌ ^٤ ، وَهُوَ الَّذِي تَسْمِيَهُ أَهْلُ الْأَثَرِ : الْعَزِيزُ ، فَأَمَرَ أَنْ يُنْصَبَ لَهُ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ سَرِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَيَقْدُو فِيهِ وَيَتَوَرَّجُ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ ، وَيُخْرِجُ الْعُمَّالَ وَالْكَتَّابَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَكَفَى نَهْرَ اَوْشٍ مَا خَالَفَ شَرَّهُ ، وَقَامَ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَخَلَّاهُ لِلدَّهْرِ ^٥ .
- فَانْتَقَسَ نَهْرَ اَوْشٍ فِي لَهْوِهِ وَلَمْ يَنْظُرْ فِي عَمَلٍ ، وَلَا ظَهَرَ لِلنَّاسِ حَيَاتًا ، وَالْبَلَدُ عَايِرٌ وَهُوَ لَا يُشَأَلُ عَنْ شَيْءٍ ، وَغَمِلَ لَهُ مَجَالِسٌ مِنْ رُجَاجِ مِلُّونَ ، وَخَوَّلَهَا مَاءٌ فِيهِ أَشْمَاكٌ مُفْرِطَةٌ وَتَلَوْنٌ مِلُّونَ ، فَكَانَ إِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ظَهَرَ لَهُ شُعَاعٌ عَجِيبٌ . وَغَمِلَتْ لَهُ عِدَّةٌ مُنْتَزَهَاتٍ عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ ، فَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا ، وَغَمِلَ لَهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْآيَةِ وَالْفَرَشِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ .

(a) بعد ذلك في نهاية الأرب : وقيل في اسمه قطفير ، وقيل فوطيفر ، وقرأه Wiet أطفير .

^١ النويري : نهاية الأرب ١١٥:١١٩ . (Holt, P. M., *Et* art. *al-Fayyûm* II, p. 893

ومن أهم مصادر تاريخ الفيوم ونظام الزراعة وحيي الحراج والضرائب في مصر في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، كتاب «تاريخ الفيوم وبلاده» لشمسان بن إبراهيم التابلسي الذي نشره B. Moritz في القاهرة سنة ١٨٩٩ ، وانظر كذلك دراسة كلود كاهن الهامة Cahen Cl., «Le régime des impôts dans le Fayyûm (ayyûbide)», *Arabica* III (1956), pp. 8-30

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥:١٢٠ .

^٣ فيما تقدم ٣٨٤ .

^٤ النويري : نهاية الأرب ١١٥:١١٩ .

^٥ الفهم . من المدن المصرية القديمة ويطلق اسمها أيضًا على الإقليم وهي تقع في مصر الوسطى في الصحراء الغربية غربي النيل قرب أسبوط ، يربطها بالنيل خليج المنهى المعروف ببحر يوسف وهي اليوم عاصمة محافظة الفيوم (بالقوت : معجم البلدان ٤: ٢٨٦-٢٨٨ مجهول المؤلف : الاستبصار ٩٠-٩١ ابن عماتي : قوانين ٧٩ ، ١٢٢٩ القلقشندي : ٣: ٣٧٦ ، ٣٩٣-٣٩٤ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤: ٨٤-٩٤ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ٣: ٩٦ ، Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 142-43;

فانقصل بملوك / النواحي تُشاغلُه بلذته وتذير أطفين . فسارَ مَلِكٌ من العماليق - يُقال له أبو قابوس عاكن بن ييجوم^٩ - إلى مصر ، ونَزَلَ على محدودها ، فجَهَّزَ إليه العزيزُ جيشًا عليه قائِدٌ يُقال له بريانس ، فأقامَ يُحاربُه ثلاث سنين ، فظَفِرَ به العنليقي وقتلَه ، وهَدَمَ الأعلام والمصانع ، وقَوِيَ طَمَعُه في البَلَد . فاجتمعَ الناسُ إلى قُصر الملك واستفتأوا ، فخرجَ إليهم ، وعَرَضَ لجيوشه ، وخرَجَ في سِتِّ مائة ألف مُقاتِلٍ يَمُوى الأتباع ، فالتقوا من وراءِ الحُوف ، وكان بينهما قتالٌ شَدِيدٌ ، فانتهزمَ العنليقي ، وتَبِعَه نَهراوش إلى حَدِّ الشَّام ، وقُتلَ خَلَقًا من أصحابه ، وأُفْسِدَ زُرُوعُهم وأشجارُهم ، وخُوقَ وصَلَبَ ، ونَصَبَ أعلامًا على الأماكن التي وَصَلَهَا ، وَزَيَّرَ عليها : « إِنِّي لَمَنْ يُجَاوِزُ هَذَا الْمَكَانَ بِالْمُؤَصَادِ » .

وقيل إِنَّهُ بَلَغَ المؤَصِل ، وضَرَبَ على أَهْلِ الشَّامِ خراجًا ، وبَنَى عندَ العريشِ مَدِينَةً لَطِيفَةً وَسَخَنَهَا بِالرَّجَالِ . وَرَجَعَ إلى مصر ، فحَسَدَ من جميعِ الأَعْمَالِ مَجْنُودًا ، واشتَعَدَّ لَغَزْوِ مَلِكِ الْغَزَبِ ، وخرَجَ في سبعِ مائة ألف ، فَمَرَّ بِأَرْضِ الْبِزْرِ ، وَأَجْلَى كَثِيرًا مِنْهُمْ ، وَجَهَّزَ قَائِدًا فِي الشُّفَنِ مِنْ نَاحِيَةِ رُقُودَةَ إِلَى جَزَائِرِ بَنِي يَافِثَ ، فَعَاتَ فِيهَا ، وَخَرَجَ مِنْ نَاحِيَةِ أَرْضِ الْبِزْرِ ، فَقَتَلَ وَصَالِحَ بَعْضِهِمْ عَلَى مَالٍ حَمَلُوهُ إِلَيْهِ .

وَمَضَى إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ وَقُرْطَابَجَّةٍ ، فَصَالَحُوهُ عَلَى مَالٍ ، وَمَرَّ حَتَّى بَلَغَ مَصْبَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ إِلَى بَحْرِ الرُّومِ - وَهُوَ مَوْضِعُ الْأَضْنَامِ الْتُخَاسِ - فَأَقَامَ هُنَاكَ صَنِمًا زَيَّرَ عَلَيْهِ اسْمَهُ وَتَارِيخَ خُرُوجِهِ ، وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ النُّوَاحِي الْحَرَاجَ . وَعَدَى إِلَى الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ، وَسَارَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، فَحَارَبَهُ مَلِكُهَا أَيُّمًا ، ثُمَّ صَالَحَهُ عَلَى مَالٍ ، وَأَنْ يَمْتَنِعَ مِنْ يَغْزُو مِصرَ مِنْ نَاحِيَتِهِ . وَانصَرَفَ عَلَى غَيْرِ الْبَحْرِ مُشْرِقًا فِي بِلَادِ الْبِزْرِ ، فَلَمْ يَمَرَّ بِأُمَّةٍ إِلَّا وَدَخَلَتْ فِي طَاعَتِهِ .

وَمَرَّ فِي الْجَنُوبِ فَقَتَلَ خَلَقًا ، وَبَنَتْ قَائِدًا إِلَى مَدِينَةِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مَلِكُهَا ، وَذَكَرَ لَهُ حَالِ الرِّثَانِ وَمُصَالَحَةِ الْمُلُوكِ لَهُ ، فَقَالَ : مَا بَلَّغْنَا أَحَدًا قَطْ . وَسَأَلَهُ الْقَائِدُ عَنِ الْبَحْرِ : هَلْ رَكِبَهُ أَحَدٌ قَطْ ؟ فَقَالَ : مَا يَثْقُرُ أَحَدٌ عَلَى رُكُوبِهِ ، وَرُبَّمَا أَظْلَهُ غَمَامٌ فَلَا يُرَى أَيُّمًا ؟ وَقَدِمَ الرِّثَانُ ، فَحَمَلُوا الْهَدَايَا إِلَيْهِ ، فَاجْتَهَتْ أَكْثَرُهَا الْمُوزَ ، وَجِجَارَةَ سُودَاءَ إِذَا جُمِعَتْ فِي الْمَاءِ صَارَتْ يَهْضَاءَ . ثُمَّ سَارَ الْمَلِكُ عَلَى أُنْمِ السُّودَانِ إِلَى تَمْلِكَةِ الدُّمْدَمِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ النَّاسَ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ غُرَاءَ ، فَهَزَمَهُمْ وَظَفِرَ بِهِمْ .

وَمَرَوْا عَلَى الْبَحْرِ الْمُظْلِمِ، فَغَشِيَهُمْ مِنْهُ غَمَامٌ، فَتَرَجَّعَ شَمَالًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى تَمْنَالٍ مِنْ حَجَرٍ أَحْمَرَ يَوْمَئِذٍ يَبْدُو: ارْجِعُوا، وَعَلَى صَنْدَرِهِ مَرْبُورٌ: «مَا وَرَأَيْتُ أَحَدًا».

فَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ التُّحَاسِ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، وَمَضَى إِلَى الْوَادِي الْمَظْلَمِ، وَكَانُوا^(٥) يَسْتَسْقُونَ مِنْهُ جَلْبَةً عَظِيمَةً، وَلَا يَرَوْنَ أَحَدًا لَيْثَةً ظَلَمَتْهُ.

- وَسَارَ إِلَى وَادِي الرَّمْلِ، فَوَآى عَلَى مَقْبَرِهِ أَصْنَامًا عَلَيْهَا أَسْمَاءُ الْمُلُوكِ، فَأَقَامَ عَلَيْهِ صَنْعًا زَبَرَ عَلَيْهِ اسْمَهُ، فَلَمَّا أَتَيْتِ الرَّمْلَ جَاوَزَ عَلَيْهِ إِلَى الْخَرَابِ الْمُتَّصِلِ بِالتَّيْعَرِ الْأَسْوَدِ، فَرَأَى سِبَاعًا يَزَارُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَحَكَّمَ أَنَّهُ لَا مَذْهَبَ لَهُ مِنْ وَرَائِهَا.

- فَرَجَعَ وَعَدَى وَادِي الرَّمْلِ، وَمَرَّ بِأَرْضِ الْعُقَارِبِ، فَهَلَكَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَدَفَنُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَذَاهَا بِالرُّقَى، وَجَاوَزَهَا إِلَى مَدِينَةِ الْحُكَمَاءِ - وَتُعرف بِمَدِينَةِ الْكَثْدِ - فَفَرَّوْا مِنْهُ إِلَى جَبَلٍ، فَأَقَامَ عَلَيْهِ أَبَاطًا حَتَّى كَادَ يَهْلِكُ بِجَيْشِهِ عَظِيمًا؛ فَتَنَزَّلَ إِلَيْهِ مِنَ الْجَبَلِ رَجُلٌ مِنْ أَفْضَلِ الْحُكَمَاءِ، وَقَدْ لَيْسَ شَعْرُهُ بِجَسَدِهِ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: أَيْنَ تُرِيدُ أَيُّهَا الْمُرُورُ الْمَعْدُودُ لَهُ فِي الْأَجَلِ، الْمَرْزُوقُ فَوْقَ الْكِفَايَةِ؟ أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ وَجَوَشَكَ، أَلَا اجْتَرَأْتَ بِمَا تَحْمِلُكَ، وَاتَّكَلْتَ عَلَى خَالِقِكَ، وَرَبَّيْتَ الرَّاخِةَ، وَتَرَكْتَ الْعَنَاءَ وَالْفَرَزَ بِهَذَا الْخَلْقِ؟ فَعَجِبَ مِنْ قَوْلِهِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْمَاءِ فَذَلَّهُ عَلَيْهِ. وَسَأَلَهُ عَنْ مَوْضِعِهِمْ، فَقَالَ: مَوْضِعٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا يَلْغُو قَبْلَكَ أَحَدٌ؛ فَقَالَ: مَا غَيْبُكَ؟ قَالَ: مِنْ أَصُولِ الثِّبَاتِ تَنْفَعُ بِهِ، وَيَكْفِينَا التَّيْسِيرَ. قَالَ: فَمَنْ أَيْنَ تَشْرَبُونَ؟ قَالَ: مِنَ الْأَمْطَارِ وَالتَّلُوجِ.
- قَالَ: فَلَمْ هَرَبْتُمْ مِنِّي؟ قَالَ: زَهَادَةٌ فِي مُخَالَطَتِكُمْ، وَالْأُفْلَاحُ لَنَا مَا نَخَافُكُمْ عَلَيْهِ؛ قَالَ: فَكَيْفَ بَكُمْ إِذَا حَيَّيْتُ الشُّعْشُوعَ؟ قَالَ: نَأْوِي إِلَى غَيْرَانِ تَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ؛ قَالَ: فَهَلْ لَكُمْ فِي مَالِي أَخْلَفُهُ لَكُمْ؟ قَالَ: إِنَّمَا يُرِيدُ الْمَالُ أَهْلُ التَّرَفِ، وَنَحْنُ لَا نَسْتَعْمَلُ مِنْهُ شَيْعًا، اسْتَفْتَيْنَا عَنْهُ بِمَا قَدْ اكْتَفَيْنَا بِهِ، وَعِنْدَنَا مِنْهُ مَا لَوْ رَأَيْتَهُ لَاحْتَقَرْتَ مَا عِنْدَكَ؛ قَالَ: فَأَرْنِيهِ، فَانْطَلَقَ بِتَقَرٍّ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى أَرْضٍ فِي سَفْحِ جَبَلِهِمْ فِيهَا قُضْبَانٌ ذَهَبٌ نَائِمَةٌ، وَأَرَاهُمْ وَادِيًا لَهُمْ فِي حَافَتِهِ جِجَارَةٌ زَبْرُوجٌ وَفَرُوزٌ.
- فَأَمَرَ نَهْرَائِهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا مِنْ كِبَارِ تِلْكَ الْحِجَارَةِ، فَفَعَلُوا.

وَرَأَى الْحَكِيمُ جَمَاعَةَ الْمَلِكِ يَمْشُونَ إِلَى صَنْعٍ يَحْمِلُونَهُ مَعَهُمْ، فَسَأَلَ الْمَلِكَ أَلَا يُقِيمُ بِأَرْضِهِمْ، وَخَوْفُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ فَوَدَّعَهُ وَسَارَ، فَلَمْ يَمْزَ بِأُمَّةٍ إِلَّا أَلَّزَمَهَا، حَتَّى بَلَغَ الثُّوبَةَ فَصَالَحَهُمْ عَلَى مَالٍ، وَأَقَامَ عَلَى ذَنْقِلَةٍ صَنْعًا وَزَبَرَ عَلَيْهِ اسْمَهُ وَمَسِيرَهُ. وَسَارَ يُرِيدُ مَدِينَةَ مَثَفٍ، فَكَانَ أَهْلُ كُلِّ

(٥) بولاق: فكَانُوا.

مدينة من مدائن مصر يتأقونه بالفرح والسرور والرياحين والطيب إلى أن بلغ منف، فخرج أهلها إليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب.

وكان العزيز قد بنى له مجلىسا من رجاج ملون، وقوشه بأحسن فرش، وعرس حوله الأشجار والرياحين، وجعل فيه بحرة^(٥) من رجاج سماوي، وفي أرضه شبه السمك من رجاج أبيض، فتزل الملك فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياما كثيرة.

وتفقد جيشه، فقصد منهم سبعين ألفا، ووجد فيهم ثمن أسرته ثيفا وخمسين ألفا. فكانت مدة غيبته عن مصر، في مسيره هذا، إحدى عشرة سنة.

فلما بلغ الملك قدومه هابوه، واشتد بأشه وتجبجج، وبنى في الجانب الشرقي قصورا من رخام، ونصب عليها أعلاما، وأمر بالعمارة وإصلاح الجسور واشتتباط الأراضي، حتى زاد الحراج على مائة ألف دينار^١.

ودخل إلى البلد في أيامه غلام من أهل الشام اختال عليه إخوته وباغوه - وكانت قوافل الشام تفرس بناحية الموقف اليوم - فوقف الغلام ونودي عليه، وهو يوسف الصديق بن يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن - صلوات الله عليهم وسلامه - فاستقراه أطفين العزيز^(ب) ليهديه إلى الملك^(٢)، فلما أتى به قصره رآته امرأته زليخا، وهي ابنة عمه، فقالت: أتراك لنا نزيه نيتفعا، ففعل^(٣)، وكان من أمرها ما قصه الله تعالى في القرآن.

فكانت تكتم حبه حتى غلبت، فخلت به وترزئت له، وعرفته أنها تحبه، وأنه إن اتاها على ما ترده منه حبته بمال عظيم، فامتنع من ذلك. ورامت^(٤) أن تغلبه، فما زالت تعاركه، وهو يتنصع عليها^(٥)، إلى أن وافى زوجها، ورآه وهو هارب منها - وكان العزيز عثيا لا يأتي النساء - فجعل يوسف يعتذر إليه، وقالت: إني كنت نائمة فأتاني مراودني عن نفسي. وتبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل اغترابه، فقال ليوسف: ﴿أعرض عن هذا﴾ - أي عن اغتدارك - وقال لها: ﴿استغفري لذنبك﴾ [الآية ٢٩ سورة يوسف].

(٥) عند النوري: صهريجا. (ب) ساقطة من بولاق. (٤) بولاق: ورأت. (د) بولاق: تمتع عنها.

وقد كان خَيْرُ أَطْفِينِ وَالْغَلَامِ بَلَّغَ الْمَلِكِ ، وَكَانَ نَهْرَاوَشَ عَاوَدَ الْعُكُوفَ عَلَى اللَّهْوِ وَالْإِخْتِجَابِ عَنِ النَّاسِ .

وَاتَّصَلَ خَيْرُ زُلَيْخَا وَيُوشَفُ يَنْسَاءَ الْخَاصَّةَ ، فَفَعِّيزَتْهَا بِذَلِكَ ، فَذَعَتْ جَمَاعَةً مِنْهُمْ ، وَصَنَعَتْ لَهُنَّ طَعَامًا وَشَرَابًا ، وَعَمِلَتْ مَجْلِسَيْنِ مُذَهَّبَيْنِ ، وَفَرَشَتْهُمَا بِدِيَاجٍ أَضْفَرٍ مُذْهَبٍ ، وَأَزْنَحَتْ عَلَيْهِمَا مُتَوَرِّدِيَا الدِّيَاجِ ، وَأَمَرَتْ الْمَوَاشِيطَ بِتَرْيِيزِ يُوشَفٍ وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَجْلِسِ الَّذِي يُحَاذِي الْمَجْلِسَ الَّذِي كَانَتْ مَعَ النَّشْوَةِ فِيهِ ، وَكَانَ الْمَجْلِسُ مُحَاذِيًا لِلشَّمْسِ .

فَأَخَذَهُ الْمَوَاشِيطُ ، وَتَطَلَّنَ شَعْرَهُ بِأَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ ، وَأَلْبَسَتْهُ ثَوْبَ دِيَاجٍ أَضْفَرٍ قَدْ تُسَبِّحُ بِدَارَاتٍ حُمْرٍ مُذْهَبَةٍ فِيهَا أَطْيَازٌ صِبْغًا خُضَرُ ، مُبْطِنٌ بِبَطَانَةِ خُضْرَاءَ ، وَمِنْ تَحْتِهِ غِلَالَةُ حُمْرَاءَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ قَدْ نُظِمَ بِالذَّرِّ وَالْجَوْهَرِ ، وَأُخْرِجَتْ مِنْ تَحْتِ التَّاجِ أَطْرَافُ شَعْرِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ ، وَرَدَّدْنَ ذَوَائِجَهُ عَلَى صُدْرِهِ ، وَجَعَلْنَ جَبْهَتَهُ مَكْشُوفَةً وَالتَّاجَ مُحِيطًا بِهَا ، وَفِي أُذُنَيْهِ قُوطِيٌّ بِجَوْهَرٍ ، وَمِنْ خَلْفِ طَوْقِ الْقِيَاءِ شَعْرٌ مُسْتَبَلٌ بَيْنَ كَيْفِيَّتِهِ مَنَظُومٌ مُشَبَّكٌ بِالذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ ، وَفِي عُنُقِهِ طَوْقٌ مَنَظُومٌ بِذَّهَبٍ ، مُشَدَّدٌ بِجَوْهَرٍ أَحْمَرَ وَدُرٍّ فَاحِشٍ ، وَفِي وَسْطِهِ مَنَظُومَةٌ ذَهَبٌ ، فِيهَا كَوَاكِبٌ^(أ) جَوْهَرٌ مَلُونٌ ، وَلَهَا مَعَالِيقُ مَنَظُومَةٌ ، وَأَلْبَسَتْهُ خُفَيْنِ أَيْضَيْنِ مُتَقَوِّشَيْنِ بِأَخْضَرٍ عَلَى نَقُوشِ ذَهَبٍ ، وَجَعَلْنَ لِلْقِيَاءِ الَّذِي عَلَيْهِ وَشَاحِيْنٌ عَلَى كَتِفَيْهِ^(ب) وَفَرَاوِزٌ يُحِيطُ بِأَسْفَلِهِ ، وَكُمَيْتُهُ مِنْ جَوْهَرٍ أَخْضَرٍ ، وَعَقْرَتَيْنِ صَدَعَتْهُمَا عَلَى خَدَيْهِ ، وَكَمَحَلْنِ عَيْنَيْهِ ، وَذَفَعْنَ إِلَيْهِ مَذْبَةَ شَعْرِهَا أَخْضَرَ .

فَلَمَّا فَرَّغَ النِّسَاءُ مِنْ طَعَامِيْهِنَّ ، وَشَرَبْنَ أَقْدَاحًا ، قَدَّمَتْ إِلَيْهِنَّ سَكَكِيْنَ نَضْلُهُنَّ^(ج) مِنْ جَوْهَرٍ لِيَقْطَعْنَ بِهَا الْفَاكِهَةَ . فَهِيَئَالُ إِنَّهُنَّ أَخَذْنَ أَتْرَاجًا وَهَنَ يُقَطِّعْنَ ، إِذْ قَالَتْ لَهُنَّ : قَدْ بَلَغْنِي حَدِيثُكَ فِي أَمْرِيْ مَعَ عَبِيدِيْ ؛ فَقُلْنَ لَهَا : الْأَمْرُ كَمَا بَلَغَكَ ، لِأَنَّكَ أَعْلَى قَدْرًا مِنْ هَذَا ، وَمِثْلُكَ يَرْتَفِعُ عَنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ لِحُسْنِكَ وَشَرَفِكَ ، فَكَيْفَ تَرْضَيْنِ بِثُلَاثِيْكَ ؟ فَقَالَتْ : لَمْ يَبْلُغْكَ الصَّدَقُ ، وَلَا هُوَ عِنْدِيْ بِهَذَا ؛ وَأَوْمَأَتْ إِلَى الْمَوَاشِيطِ أَنْ يُخْرِجْنَ يُوشَفَ ، فَزَفَقْنَ الشُّتُورَ عَنِ الْمَجْلِسِ الَّذِي يُحَاذِي مَجْلِسَهَا ، وَبَرَزَ مِنْهُ يُوشَفُ مُحَاذِيًا بِوَجْهِهِ الشَّمْسِ ، فَأَشْرَقَ الْمَجْلِسُ وَمَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ يُوشَفٍ ، وَأَقْبَلَ بِالْمَذْبَةِ - وَهَنَ يَوْمُئِثِهِ - فَوَقَّفَ عَلَى رَأْسِ زُلَيْخَا يَذُبُّ عَنْهَا . فَاسْتَعْتَلَ النِّسَاءُ بِرُؤُوسِهِ ، وَجَعَلْنَ يُقَطِّعْنَ أَثْدِيَهُنَّ مَوْضِعَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُنَّ ، وَلَا يَمِيزْنَ الْكَلَامَ ذَهُولًا مِنْهُمْ بِمَا رَأَيْنَ مِنْ حُسْنِ يُوشَفٍ ؛ فَقَالَتْ لَهُنَّ زُلَيْخَا : مَا لَكُمْ قَدْ اسْتَعْتَلْنَ عَنْ حِطَابِيْ بِالنَّظَرِ إِلَى عَبْدِيْ ؟ فَقُلْنَ : مَعَاذَ اللَّهِ !

ما هذا عَيْدُكَ ، إن هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ! ولم يَتَّقِ مِنْهُنَّ امْرَأَةً إِلَّا حَاصَّتْ ، وَأُنْزِلَتْ شَهْوَةٌ مِنْ مَخْبِئِهِ ؛ فَقَالَتْ زُلَيْخَا عِنْدَ ذَلِكَ : فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ؛ فَقُلْنَ : مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَلُومَكَ فِي هَذَا ، وَمَنْ لَامَكَ فَقَدْ ظَلَمَكَ ، فَدُونَكَ ، قَالَتْ : قَدْ فَعَلْتُ فَأَتَى عَلِي ، فَخَاطَبَتْهُ لِي .

فَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تُخَاطِبُهُ ، وَتَدْعُوهُ سِرًّا إِلَى نَفْسِهَا ، وَتَبْتَدِلُ لَهُ وَهُوَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهَا ، فَإِذَا يَمْسَتْ مِنْهُ أَنْ يُحِبِّبَهَا لِنَفْسِهَا ، خَاطَبَتْهُ مِنْ جِهَةِ زُلَيْخَا ، وَقَالَتْ : مَوْلَانُكَ تُحِبُّكَ وَأَنْتَ تُكَرِّهُهَا ، مَا يَنْبَغِي أَنْ تُخَالِفَهَا ، فَقَالَ : مَا لِي بِذَلِكَ حَاجَةٌ ؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَجْتَمَعْنَ عَلَى أَخْذِهِ غَضَبًا ، فَقَالَتْ زُلَيْخَا : لَا يَجُوزُ هَذَا ، لَكُنْهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَأَمْتَعَنَّهُ اللَّذَاتُ ، وَلَأَسْجِنَنَّهُ ، وَأَنْتَرَعَ جَمِيعٌ مَا أُعْطِيَتْهُ ؛ فَقَالَتْ يُوسُفُ : ﴿ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ بِمَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [الآية ٣٣ سورة يوسف] .

فَأَقْسَمَتْ بِالْهَيْهَاتَ - وَكَانَ صَنَمًا مِنْ زَبْجٍ أَحْضَرَ بِاسْمِ عَطَارِدَ - أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَتَعْجَلَنَّ لَهُ ذَلِكَ . ثُمَّ أَتَرَتْ بَنَزَرَ نِيَابِهِ ، وَأَلْبَسَتْهُ الصُّوفَ ، وَسَأَلَتْ الْعَزِيزَ حَبْسَهُ لِيُرِوْلَ مَا قَدَفَهَا بِهِ ، فَأَمَرَ بِهِ فَحَبَسَ .

وَرَأَى الْمَلِكُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّهُ آتِيًا أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ فُلَانًا وَفُلَانًا قَدْ عَزَمَا عَلَى قَتْلِكَ - يُرِيدُ صَاحِبِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ - فَلَمَّا أَصْبَحَ قَرَّرَهُمَا ، فَأَعْتَرَفَا لَهُ ، وَقِيلَ اعْتَرَفَ أَحَدُهُمَا وَأَنْكَرَ الْآخَرُ ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِمَا . وَكَانَ اسْمُ صَاحِبِ الطَّعَامِ « رَاسَان » ، وَاسْمُ صَاحِبِ الشَّرَابِ « مَرْطَس » .

وَكَانَ يُوسُفُ وَهُوَ فِي السَّجْنِ ، رَعُوفًا بِمَنْ فِيهِ وَيَعُدُّهُمْ / الْفَرَجَ ؛ فَأَخْبَرَهُ صَاحِبَا طَعَامِ الْمَلِكِ وَشَرَابِهِ بِزُيَاهِمَا الَّتِي قَصَّهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، فَوَقَّعَ كَمَا قَصَّهُ يُوسُفُ .

وَرَأَى الْمَلِكُ الْبَقَرَاتِ وَالسَّنَابِلَ ، فَعَرَفَهُ السَّاقِي خَيْرَ يُوسُفَ ، فَمَضَى إِلَيْهِ وَقَصَّهَا عَلَيْهِ . فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْمَلِكِ ، قَالَ : جِيعُونِي بِهِ ؛ فَقَالَ يُوسُفُ : مَا أَخْرُجُ ، أَوْ يُكْشَفُ أَمْرُ النَّشْوََةِ اللَّاحِي مِنْ أَجْلِهِمْ حَبْسَتْ ؛ فَكُشِفَ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَعْتَرَفَتْ زُلَيْخَا بِالْقَصَّةِ .

وَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، فَأَخْرَجَ وَغَمِيلَ مِنْ دَرَنِ السَّجْنِ وَالْأَلْسِ مَا يَلِيقُ بِالْمُخُولِ عَلَى الْمُلُوكِ . فَلَمَّا رَأَاهُ امْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ حُبِّهِ وَاجْتِبَاهِهِ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الرُّؤْيَا ، ففَسَّرَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَقَالَ الْمَلِكُ : وَمَنْ يَقُومُ لِي بِذَلِكَ ؟ فَقَالَ : أَنَا . فَخَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعَ الْمُلُوكِ ، وَأَلْبَسَتْهُ تَاجًا ، وَأَمَرَ أَنْ يُطَافَ بِهِ ، وَرَكِبَ الْجِمَاشَ مَعَهُ ، وَتَرَدَّدَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْعَزِيزِ ، وَاسْتَخْلَفَهُ الْمَلِكُ عَلَى مُلْكِهِ مَكَانَهُ .

وَيُقَالُ : إِنَّ الْعَزِيزَ أَطْفَنَ كَانَ قَدْ مَاتَ ، فَزَوَّجَهُ امْرَأَتَهُ ؛ وَقَالَ لَهَا يُوسُفُ : هَذَا أَصْلَحُ ثَمًا أَرَدْتُ ؛ فَقَالَتْ : اغْدُرْنِي إِنْ زَوَّجَنِي كَانَ عَيْنِي ، وَلَمْ تَرَكَ امْرَأَةً إِلَّا صَبَا قَلْبُهَا إِلَيْكَ مِنْ حُسْنِكَ .

وجاءت يسو خضب في مصر ، فجمع يوسف الخلال وخزنها وأكثرت منها . فلما جاءت سنو الجذب بدأ النيل في القُصان ، وكان ينقص كل سنة أكثر من التي قبلها ، ففحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والذواب والياب والآية والعقار ، وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف .

- ٥ وقحط الشام أيضًا ، وكان من مجيء الخوة يوسف ما قصه الله تعالى ، ووجهه إلى أبيه فحميل إلى مصر وجميع أهله ، وخرج في وجوه أهل مصر فلقاه وأدخله على الملك . وكان يعقوب مهيبًا^(a) ، فأعظمه الملك ، وسأله عن سنه وصناعته وعبادته ؛ فقال : سني عشرون ومائة سنة ، وأما صناعتي فلنا غنم نرعى نتبع بها ، وأعبد رب العالمين الذي خلقنا وخلقني ، وهو إله أبائي وإلهك وإله كل شيء .

- ١٠ وكان في مجلس الملك كاهن جليل القدر ، فقال للملك : إني أخاف أن يكون خراب مصر على يد وليد هذا ؛ فقال له الملك : فأتى لنا خبره ، فقال الكاهن يعقوب : أرني إلهك أيها الشيخ ؛ قال : إلهي أعظم من أن يرى ، قال : فلما ترى إلهتنا ، قال : إن إلهتكم من ذهب وفضة وججاجة وجوهر ونحاس وخشب مما تعلمه بنو آدم ، وهم عبيد إلهي ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ؛ قال الكاهن : إن كل شيء لا تراه العيون ليس بشيء . فغضب يعقوب وكذبه ، وقال : إن الله شيء لا كالأشياء ، وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو . قال : فصفه لنا ؛ قال : إنما يوصف المخلوق ، لكنه خالق واحد قديم مذهب أزلي ، يرى ولا يرى .

- ٢٠ وقام يعقوب مُضْطَبًا ، فأجلسه الملك ، وأمر الكاهن فكف عنه . فقال الكاهن : إنا نجد في كتبنا أن خراب مصر يجري على أيدي هؤلاء ؛ فقال الملك : هذا يكون في أيامنا ؟ قال : لا ، ولا إلى مدة كثيرة ، والصواب أن يثقله الملك ولا يمتني من ذريته أحدًا ، فقال الملك : إن كان الأمر كما تقول فلا يُمكننا أن ندفعه ، ولا نقدر على قتل هؤلاء .

وأنزل يعقوب ومن معه بوادي الشدير إلى أن مات ، فحميل إلى قويزة إبراهيم - عليه السلام - ودُفِنَ عنده .

ويقال إن نهر اوش الملك آمن ، وكنتم إيمانه خوفًا من قصاد أمره ، وأقام ملكًا مائة وعشرين سنة .

وفي وقتِهِ عَمِلَ يُوسُفُ الْفَيْيُومَ ، فَإِنَّ أَهْلَ مِصْرَ كَانُوا وَشَوْا بِهِ إِلَى الْمَلِكِ ، وَقَالُوا : قَدْ كَبِرَ وَنَقَصَ نَفْعُهُ ، فَاخْتَرِهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي وَهَيْتُ هَذِهِ الثَّاجِيَةَ لِابْنَتِي - وَكَانَتْ مَغَايِضَ لِلْمَاءِ - فَذَبَّرَهَا لَهَا ، فَعَمِلَهَا يُوسُفُ ، وَاخْتَالَ لِلْمِيَاهِ حَتَّى أَخْرَجَهَا وَقَلَعَ أَذْغَالَهَا^١ ، وَسَاقَ الْمَتْنَى وَبَنَى اللَّاهُوتَ ، وَجَعَلَ الْمَاءَ فِيهَا مَقْسُومًا مَوْزُونًا ، وَفَرَّغَ مِنْهَا فِي شُهُورٍ أَرْبَعَةٍ ، فَعَجِبُوا مِنْ حِكْمَتِهِ .
وَيُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلَ مَنْ هَنَّدَسَ بِمِصْرَ .

وَمَاتَ نَهْرَاوَشَ ، فَخَلَفَ ابْنُهُ دَرِيْمُوسُ^٢ ، وَسَمَّيْتُهُ أَهْلُ الْأَثَرِ دَارِمَ بْنَ الرُّيَّانِ ، هُوَ الْفِرْعَوْنُ الرَّابِعُ عِنْدَهُمْ ، فَخَالَفَ سِتَّةَ أَهْلِهِ^١ . وَكَانَ يُوسُفُ خَلِيفَتَهُ ، فَقِيلَ مِنْهُ بَعْضًا ، وَخَالَفَهُ فِي الْبَعْضِ .

فَمَاتَ يُوسُفُ فِي أَيَّامِهِ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، فَكَفَّنَ وَجَعَلَ فِي تَابُوتٍ مِنْ رُحَامٍ ، وَذَفِنَ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ فَأُخْصِصَ وَنَقَصَ الشَّرْقِيُّ ، فَحُوِّلَ إِلَيْهِ فَأُخْصِصَ وَنَقَصَ الْغَرْبِيُّ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي الشَّرْقِيِّ عَامًا وَفِي الْغَرْبِيِّ عَامًا ، ثُمَّ حَدَّثَ لَهُمْ مِنَ الرَّأْيِ أَنْ يَجْعَلُوا لَهُ خَلْقًا وَثَاقًا وَيَسُدُّوا التَّابُوتَ فِي وَسْطِ الثَّلِيلِ ، فَأُخْصِصَ الْجَانِبَانِ كِلَاهُمَا^٢ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : فَملِكُهُمُ الرُّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ دَوْغَ ، وَهُوَ صَاحِبُ يُوسُفَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ النَّبِيِّ رَأَى وَعَبَّرَهَا يُوسُفُ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَأَخْرَجَهُ مِنَ السَّجْنِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ : أَلْقِ عَنْكَ ثِيَابَ السَّجْنِ ، وَالْيَسَ ثِيَابًا جَدِّدًا ، وَقُمْ إِلَى الْمَلِكِ ، فَذَعَا لَهُ أَهْلُ السَّجْنِ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا أَتَاهُ ، رَأَى عَلَامًا حَدَّثًا فَقَالَ : أَيْغَلَمَ هَذَا رُؤْيَايَ وَلَا تَقْلَمُهَا السَّحَرَةُ وَالْكَهَنَةُ ؟ وَأَقْعَدَهُ قُدَّامَهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَخَفْ ؛ قَالَ : فَلَمَّا اسْتَنْطَقَهُ وَسَأَلَهُ ، عَظُمَ فِي عَيْنَيْهِ ، وَجَلَّ أَفْرُهُ فِي قَلْبِهِ^٣ ، فَذَقَعَ إِلَيْهِ خَاتَمَهُ ، وَوَلَّاهُ مَا خَلَّفَ بَابَهُ ، وَأَلْبَسَهُ طَوَاقًا مِنْ ذَهَبٍ وَثِيَابَ خَرِيرٍ ، وَأَعْطَاهُ ذَابَّةً مُسَرَّجَةً مُزَيَّنَةً كَذَابَةِ الْمَلِكِ ، وَضَرَبَ بِالطُّبُلِ بِمِصْرَ أَنَّ يُوسُفَ خَلِيفَةَ الْمَلِكِ .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِيُوسُفَ : قَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى مِصْرَ ، غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ كُرْسِيَّ أَطْوَلَ مِنْ كُرْسِيِّكَ بِأَرْبَعِ أَصَابِعَ ؛ وَأَجْلَسَتْهُ / عَلَى الشَّرِيرِ ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ بَيْتَهُ مَعَ

(a) بولاق : أوحالها . (b) بولاق : فرمجوش . (c) بولاق : وجعل إليه أمره .

^١ فيما تقدم ٣٨٤-٣٨٥ . ١٣: ١٣٦-١٣٧ ؛ وقارن مع ابن عبد الحكم : فوج مصر

^٢ انظر تفاصيل قصة يوسف عند التوري : نهاية الأرب ١٨-١٩ .

نِسَائِهِ ، وَقَوَّضَ أَمْرَ مِصْرَ كُلِّهَا إِلَيْهِ ، فَسَبَّحَ بِإِجَارَةِ رُؤْيَا الْمَلِكِ ، مَلَكَ يُوسُفَ مِصْرَ .

وَعَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : حَدَّثَنِي مَشَيْخُهُ لَنَا ، قَالُوا : اسْتَدَّ الْجُوعُ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ ، فَاشْتَرَوْا الطَّعَامَ بِالذَّهَبِ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا ذَهَبًا ، فَاشْتَرَوْا بِالْفِضَّةِ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا فِضَّةً ، فَاشْتَرَوْا بِأَعْنَابِهِمْ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا عَنَابًا . فَلَمْ يَزَلْ يَبِيعُهُمُ الطَّعَامَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِضَّةٌ وَلَا ذَهَبٌ وَلَا شَاةٌ وَلَا بَقَرَةٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، فَأَتَوْهُ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالُوا لَهُ ^(٥) : لَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا أَنْفُسُنَا وَأَهْلُونَا وَأَرْضُنَا ، فَاشْتَرِ يَوْسُفَ أَرْضَهُمْ كُلَّهَا لِفِرْعَوْنَ ، ثُمَّ أَعْطَاهُمْ يُوسُفَ طَعَامًا يَزْرَعُونَهُ عَلَى أَنْ لِفِرْعَوْنَ الْخُمْسُ ^١ .

وَيُقَالُ فِي خَبَرِ بِنَاءِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَدِيْنَةُ الْقِيَوْمِ : إِنَّهُ لَمَّا وَزَرَ لِفِرْعَوْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَزَلَهُ ، فَقَالَ : لَمْ عَزَلْتَنِي ؟ قَالَ : لَمْ أَغْرِكَ عَنْ رَبِّي ^(٦) ، وَلَا أَنْتَى بِرُكْحِكَ ، وَلَكِنْ أَهَانِي عَهْدِي إِلَيْهِ أَلَّا يَكُوْلِي لَنَا وَزِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَتَأَصَّلَ الْوَزِيرُ حَتَّى يُدْبِرَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ : قَدْ عَلِمْتَ نُصْحِي لَكَ حَتَّى صَيَّرْتَ دِيَارَ مِصْرَ كُلِّهَا مِلْكًا لَكَ ، فَأَقْطِئْنِي أَرْضًا تَكُونُ لِقَوْمِي وَقَوْتُ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : اخْتَرِ حَيْثُ شِئْتَ .

فَمَشَى يُوسُفُ فِي قِفَارِ الْأَرْضِ ، حَتَّى رَأَى أَرْضَ الْقِيَوْمِ وَفِيهَا جَبَلٌ حَائِلٌ بَيْنَ الثَّيْلِ وَبَيْنَهَا ، فَوَزَنَ مَاءَ الثَّيْلِ حَتَّى رَأَى أَنَّ قَاعَهَا يَرْكَبُهُ الثَّيْلُ ، فَحَرَقَ خَرَقًا فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَسَاقَ الْمَاءُ فِيهِ إِلَى الْقِيَوْمِ فَسَقَى الْأَرْضَ .

وَعَمِلَ فِي جَوَائِبِ الْمَاءِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِينَ قَرْيَةً عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ ، وَشَحَنَهَا بِالْغُلَالِ وَالْأَقْوَاتِ الَّتِي ارْتَدَّعَهَا ، فَكَانَ إِذَا تَقَصَّ الثَّيْلُ وَوَقَعَ الْجُوعُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، بَاعَ كُلُّ يَوْمٍ مَا جَمَعَهُ فِي قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ الْقِيَوْمِ ، حَتَّى مَلَكَ مِصْرَ لِنَفْسِهِ كَمَا جَمَعَهَا لِلْمَلِكِ .

فَعَظُمَ شَأْنُ يُوسُفَ وَكَثُرَ مَالُهُ ، فَرَّذَهُ الْمَلِكُ بَعْدَ مَدَّةٍ إِلَى وَزَارَتِهِ . وَثَوْفِيٌّ وَهُوَ وَزِيرٌ ، فَأَوْصَى بِخُرُوجِ مَجْتَمَعِهِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَخَرَجَ بِهَا هَارُونَ بْنُ أَفْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَهَزَمَتْهُ الْجَبَابِرَةُ فِيمَا بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ ، وَهَلَكَ أَكْثَرُ مِنْ مَقَّةٍ ، وَعَادَ بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ ، فَأَقَامُوا بِهَا حَتَّى تَبَيَّنَ اللَّهُ مُوسَى بْنَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، فَخَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَمَقَّةٍ مَجْتَمَعًا يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٥) سَاقَطَةٌ مِنْ بُولَاق . (٦) بُولَاق : لَرَبِّيَةِ .

وفي ذلك الزمان استنبطت الفيوم ، كان سبب ذلك أن يوسف لما ملك مصر ، وعظمت منزله من فيرعون ، وجاوزت سنه مائة سنة ، قال وزراء الملك له : إن يوسف قل علمه ، وتغير عقله ، وتبدلت حكيمته . فعقبتهم فيرعون ، ورد عليهم مقالتهم ، وأساء اللفظ لهم ، فكفوا .

ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين ، فقال لهم : هللوا ما يشتم ، من أي شيء أخبره به ؟ وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوزة ، ولما كانت لمصاة ماء الصعيد وقضوله ، فاجتمع رأيهم على أن تكون هي الحينة التي يمتحنون بها يوسف ، فقالوا لفيرعون : سل يوسف أن يصف ماء الجوزة عنها ويخرجها منها ، فتزاد بلدا إلى بلدك ، وخراجا إلى خراجك .

فدعا يوسف فقال : تعلم مكان ابنتي فلانة ميتي ، وقد رأيت إذا بلغت أن أطلب لها بلدا ، وإني لم أصب لها إلا الجوزة - وذلك أنه بلد بعيد قريب ، لا تؤتى من وجهه من الوجوه إلا من غابة أو صحراء ، وكذلك ليست هي تؤتى من ناحية من النواحي من مصر إلا من مغارة وصحراء ، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر في وسط البلاد ، لأن مصر لا تؤتى من ناحية من النواحي إلا من صحراء أو مغارة - قال : وقد أقطعناها إياها ، فلا تترك وجهها ولا نظرا إلا بلغت . فقال يوسف : نعم أيها الملك ، متى أرذت ذلك فابعث إلي ، فإني إن شاء الله فاعل ذلك ، قال : إن أحبه إلي وأوفقه أعجله .

فأوجي إلى يوسف أن تحفر ثلاثة خلج : خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجا شرقيا من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجا غربيا من موضع كذا إلى موضع كذا . فوضع يوسف العمال ، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، وأمر البائين أن يحفروا اللاهون ، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقي ، وحفر خليجا بقرية يقال لها تنهت^(٨) من قري الفيوم وهو الخليج الغربي . فخرج ماؤها من الخليج الشرقي فصبت في النيل ، وخرج من الخليج الغربي فصبت في صحراء تنهت إلى الغرب ، فلم يبق في الجوزة ماء . ثم أدخلها القملة ، وقطع ما كان فيها من القصب والطوفاء ، وأخرجها منها . وكان ذلك ابتداء مجرى النيل ، وقد صارت أرض الجوزة أرضا^(٩) نوية برية ، وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهى ، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون ، فقطعه إلى الفيوم فدخل خليجها فسقاها ، فصارت لجة من النيل .

(٨) بولاق : نهبت . (ب) ساقطة من بولاق .

^١ النص التالي عن ابن عبد الحكم .

وَحَرَجَ إِلَيْهَا الْمَلِكُ وَوَزَّرَاهُ - وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ فِي سَبْعِينَ يَوْمًا - فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا الْمَلِكُ قَالَ لَوُزَّرَاتِهِ أُولَئِكَ : هَذَا عَمَلُ أَلْفِ يَوْمٍ ، فَسَمَّيْتُ الْفَيْيُومَ ، وَأَقَامْتُ تُزْرَعُ كَمَا تُزْرَعُ غَوَائِطُ مِصْرَ .

قَالَ : وَقَدْ سَمِعْتُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْفَيْيُومِ غَيْرَ هَذَا ، أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَلَكَ مِصْرَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ ، فَأَقَامَ يَدْبُرُهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَالَ أَهْلُ مِصْرَ : قَدْ كَبِرَ يُوسُفُ وَاحْتَلَّ^(١) رَأْيُهُ فَعَزَّلُوهُ ، وَقَالُوا : اخْتَرْ لِنَفْسِكَ مِنَ الْمَوَاتِ أَرْضًا تُقْطِعُهَا لِنَفْسِكَ وَتُضْلِحُهَا وَتَعْمَلُ رَأْيَكَ فِيهَا ، فَإِنَّ رَأْيَنَا مِنْ رَأْيِكَ وَحُشْنُ تَذْيِيرِكَ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ فِي زِيَادَةٍ مِنْ عَقْلِكَ ، رَدَدْنَاكَ إِلَى مَلِكِكَ ، فَاعْتَزَّضَ الْبَرِّيَّةَ فِي نَوَاحِي مِصْرَ ، فَاخْتَارَ مَوْضِعَ الْفَيْيُومِ ، فَأَعْطَاهَا ، فَشَقَّ إِلَيْهَا خَلِيجَ / الْمُنْتَهَى مِنَ الثَّيْلِ حَتَّى أَدْخَلَهُ الْفَيْيُومَ كُلُّهَا ، وَفَرَّغَ مِنْ حَفْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي سَنَةٍ .

قَالَ تَرِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا عَمِلَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ ، وَقَوِي عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَالْأَعْوَانِ ، فَتَنَظَّرُوا فَإِذَا الَّذِي أَحْيَاهُ يُوسُفُ مِنَ الْفَيْيُومِ لَا يَعْلَمُونَ لَهُ بِمِصْرَ كُلِّهَا مِثْلًا وَلَا نَظِيرًا ، فَقَالُوا : مَا كَانَ يُوسُفُ قَطُّ أَفْضَلَ عَقْلًا وَلَا رَأْيًا وَلَا تَذْيِيرًا مِنْهُ الْيَوْمَ ، فَرَدُّوا إِلَيْهِ الْمَلِكُ ، فَأَقَامَ سِتِينَ سَنَةً أُخْرَى تَمَامَ مِائَةِ سَنَةٍ ، حَتَّى مَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ .

قَالَ : ثُمَّ بَلَغَ يُوسُفَ قَوْلُ وَزَّرَائِهِ الْمَلِكُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ^(٢) عَلَى الْحِجَةِ مِنْهُمْ لَهُ ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ : عِنْدِي مِنَ الْحِكْمَةِ وَالتَّذْيِيرِ غَيْرُ مَا رَأَيْتَ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : أَنْزِلَ الْفَيْيُومَ مِنْ كُلِّ كُورَةٍ مِنْ كُورِ مِصْرَ أَهْلُ يَتِ ، وَأَمْرُ أَهْلِ كُلِّ يَتٍ أَنْ يَتَنُوا لَأَنْفُسِهِمْ قَرْيَةً - وَكَانَتْ قَرْيُ الْفَيْيُومِ عَلَى عَدَدِ كُورِ مِصْرَ - فَإِذَا فَرَّغُوا مِنْ بِنَاءِ قُرَاهِمَ ، صَيَّرَتْ لِكُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْمَاءِ بِقَدَرِ مَا أُصِيرَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ ، لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ زِيَادَةٌ وَلَا نَقْصٌ ، وَأُصِيرَ لِكُلِّ قَرْيَةٍ شَرَبًا فِي زَمَانٍ لَا يَبَالُغُهُمُ الْمَاءُ إِلَّا فِيهِ ، وَأُصِيرَ مُطَابِقًا لِلْمُرْتَفِعِ وَمُتَقَبِّحًا لِلْمُطَابِطِ بِأَوْقَاتٍ مِنَ السَّاعَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأُصِيرَ لَهَا قَبْضَاتٌ ، فَلَا يَقْصُرُ بِأَحَدٍ دُونَ حَقِّهِ ، وَلَا يُزَادُ^(٣) فَوْقَ قَدْرِهِ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : هَذَا مِنْ مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَبَدَأَ يُوسُفُ فَأَمَرَ بَيْنِيَانَ الْقَرْيَ وَحَدَّدَ لَهَا حُدُودًا ، وَكَانَتْ أَوَّلُ قَرْيَةٍ عُثِّرَتْ بِالْفَيْيُومِ قَرْيَةُ^(٤) يُقَالُ لَهَا شَانَةُ^(٥) ، وَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْزِلُهَا بِنْتُ فِرْعَوْنَ . ثُمَّ أَمَرَ بِحَفْرِ الْخَلِيجِ وَتَبْيَانِ الْقَنَاظِرِ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَ وَزْنَ الْأَرْضِ وَوَزْنَ الْمَاءِ . وَمِنْ يَوْمَئِذٍ حَدَّثَتِ الْهَيْئَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ ذَلِكَ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ الثَّيْلَ بِمِصْرَ يُوسُفُ ، وَوَضَعَ بِمِقْيَاسًا جَمِيفًا^(٦) .

(a) بولاق : واختلفت . (b) ساقط من بولاق . (c) بولاق : يزداد . (d) بولاق : سانه .

قال جامعُهُ: وفي التوراة أَنَّ فِرْعَوْنَ أَلَزَمَ بني إسرائيل البِنَاءَ وَضَرَبَ اللَّبَنَ، فَبَنَوْا لَهُ عِلَّةً مُدُنَ مُحَصَّنَةً مِنْهَا فَيَتَوَمَّعُونَ وَعَزَمَسِسَ، قال الشارحُ: هي القِيومُ وَخَوْفُ رَمْسِيسَ.

وفي^١ زَمَانِ الرِّثَانِ بْنِ الرَّيْدِ دَخَلَ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَوَلَدَهُ مِصْرَ، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ نَفْسًا مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، فَأَنْزَلَهُمْ يُوشَفُ مَا بَيْنَ عَيْنِ شَمْسٍ إِلَى الْفَرَمَاتِ، وَهِيَ أَرْضٌ رِيفِيَّةٌ بَرِيَّةٌ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ لَمَّا دَنَا مِنْ مِصْرَ، أَرْسَلَ يَهُوذَا إِلَى يُوشَفَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يُوشَفُ فَلَقِيَهُ فَالْتَزَمَهُ وَبَكَى. فَلَمَّا دَخَلَ يَعْقُوبُ عَلَى فِرْعَوْنَ كَلَّمَهُ - وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخًا كَبِيرًا خَلِيمًا، حَسَنَ الزَّوْجَةِ وَاللَّخِيَةِ، جَهِيرِ الصَّوْتِ - فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، كَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟ قَالَ: عِشْرُونَ وَمِائَةٌ.

وَكَانَ بَيْنَ^(٥) سَاجِرِ فِرْعَوْنَ قَدْ وَصَفَ صِفَةً يَعْقُوبَ وَيُوشَفَ وَمُوسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -

فِي كُتُبِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ خَرَابَ مِصْرَ وَهَلَاكَ أَهْلِهَا يَكُونُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَوَضَعَ الْبِرَبَابَاتِ وَصِفَاتِ مِنْ تَحْزُونِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ. فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ قَامَ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ أَنْ قَالَ: مِنْ

تَعْبِيدِ أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ قَالَ لَهُ يَعْقُوبُ: أَعْبَدَ اللَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَقَالَ: فَكَيْفَ تَعْبُدُ مِنْ لَا تَرَى؟ قَالَ يَعْقُوبُ: إِنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُ مِنْ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ. قَالَ: فَتَحْنُ نَرَى آلِهَتِنَا؟ قَالَ يَعْقُوبُ: إِنَّ آلِهَتَكُمْ مِنْ

عَمَلِ أَتْدِي بَنِي آدَمَ مِنْ يَمُوتُ وَيَتَلَى، وَإِنَّ إِلَهِي لِأَعْظَمُ وَأَرْفَعُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

فَنَظَرَ بَيْنَ^(٥) إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ: هَذَا الَّذِي يَكُونُ هَلَاكُ بِلَادِنَا عَلَى يَدَيْهِ، قَالَ فِرْعَوْنَ: أَيُّ أَيَّامِنَا

أَوْ فِي أَيَّامِ غَيْرِنَا؟ قَالَ: لَيْسَ فِي أَيَّامِكَ وَلَا أَيَّامِ بَنِيكَ؛ قَالَ الْمَلِكُ: فَهَلْ تَجِدُ هَذَا فِيمَا قَضَى بِهِ إِلَهُكُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْ تَقْتُلَ مِنْ يُرِيدُ إِلَهُهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ عَلَى يَدَيْهِ فَلَا تَعْبُدُ بِهِذَا

الكلام؟

وَعَنْ كُتُبِ أَنَّ يَعْقُوبَ عَاشَ فِي أَرْضِ مِصْرَ سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةً، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ

لْيُوشَفَ: لَا تُدْفِنِي بِمِصْرَ، فَإِذَا مِتُّ فَاحْمِلُونِي فَادْفِنُونِي فِي مَغَارَةِ جَبَلِ حَبْرُونَ - وَحَبْرُونَ^(ب)

مَسْجِدُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا.

(a) بولاق: يهن. (b) بولاق: جيرون.

^١ يستمر المقرري ابتداء من هنا في النقل عن ابن عبد
معجم البلدان ٢: ٢١١٢-٢١١٣. Sharon, M., *El* art. 2
الحكم. Khalil IV, pp. 987-94.

^٢ عين حبرون وهي مدينة الخليل الحالية انظر ياقوت:

قَالَ : فَلَمَّا مَاتَ لَطُخُوهُ بَمُزٍ وَصَبَرٍ ، وَجَعَلُوهُ فِي تَابُوتٍ مِنْ سَاجٍ ، فَكَانُوا يَحْمِلُونَهُ بِهِ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ
يَوْمًا ، حَتَّى كَلَّمَ يُوسُفَ فِرْعَوْنُ فَأَعْلَمَهُ أَنَّ أَبَاهُ قَدْ مَاتَ ، وَأَنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ ،
فَأَذِنَ لَهُ ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَشْرَافُ أَهْلِ مِصْرَ حَتَّى دَفَنَهُ وَالصَّرَفَ .

وقيل : قَبِرَ يَعْقُوبُ بِمِصْرَ فَأَقَامَ بِهَا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ ، ثُمَّ حُمِلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ،
وَأَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ مَوْتِهِ ^١ .

قَالَ : ثُمَّ مَاتَ الرَّيْثَانُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَتَلَكَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ دَارِمُ بْنُ الرَّيْثَانِ . وَفِي زَمَانِهِ تُوُفِّيَ يُوسُفُ
- عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ : إِنَّكُمْ سَتَخْرُجُونَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ ،
فَاخْمِلُوا عِظَامِي مَعَكُمْ . فَمَاتَ فَجَعَلُوهُ فِي تَابُوتٍ وَدَفَنُوهُ فِي أَحَدِ جَانِبَيْ الثَّلِيلِ ، فَأَخْصَبَ الْجَانِبُ
الَّذِي كَانَ فِيهِ وَأَجْذَبَ الْجَانِبُ الْآخَرَ ، فَحَوَّلُوهُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ فَأَخْصَبَ الْجَانِبُ الَّذِي حَوَّلُوهُ
إِلَيْهِ وَأَجْذَبَ الْآخَرَ . فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ ، حَجَمُوا عِظَامَهُ فَجَعَلُوهَا فِي صَنْدُوقٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَجَعَلُوا فِيهِ
سِلْسِلَةً ، وَأَقَامُوا عَمُودًا عَلَى شَاطِئِ الثَّلِيلِ ، وَجَعَلُوا فِي أَصْلِهِ سِكَّةً مِنْ حَدِيدٍ ، وَجَعَلُوا السِّلْسِلَةَ فِي
السِّكَّةِ ، وَأَلْقَوْا الصَّنْدُوقَ فِي وَسْطِ الثَّلِيلِ ، فَأَخْصَبَ الْجَانِبَانِ جَمِيعًا ^٢ .

وَكَانَ سَبَبُ حُمْلِ عِظَامِ يُوسُفَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ ، أَنَّ سَارِحَ ^٣ ابْنَةَ أَبِيهِ بْنِ يَعْقُوبَ عُمِّرَتْ
حَتَّى صَارَتْ عَجُوزًا كَبِيرَةً ذَاهِبَةُ الْبَصَرِ ، فَلَمَّا سَرَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَيْنِي إِسْرَائِيلَ غَشِيَتْهُمْ
ضُبَابَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطَّرِيقِ أَنْ يُصِرُّوهُ ، وَقِيلَ لِمُوسَى : لَنْ تَغْيِرَ إِلَّا وَمَعَكَ عِظَامُ يُوسُفَ ؛
قَالَ : وَمَنْ يَذَرِي أَيْنَ / مَوْضِعُهَا ؟ قَالُوا : عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ ذَاهِبَةُ الْبَصَرِ تَرْتَكِنُهَا فِي الدَّيَارِ ، فَرَجَعَ
مُوسَى ، فَلَمَّا سَمِعَتْ جِسْمَهُ ، قَالَتْ : مَا رَدُّكَ ؟ قَالَ : أُمِرْتُ أَنْ أُحْمِلَ عِظَامُ يُوسُفَ ، قَالَتْ : مَا
كُنْتُمْ لَتَغْيِرُوا إِلَّا وَأَنَا مَعَكُمْ ، قَالَ : دُلَّنِي عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ ، فَدَلَّتهُ عَلَيْهَا ، فَأَخَذَ عِظَامَ يُوسُفَ
مَعَهُ إِلَى التِّيهِ .

يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّخْمَنِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، أَخَذَ الْأَنْشِبَاطَ
الْآتِي عَشَرَ ، وَوُلِدَ بِأَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَرَأَى الْأَخْذَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَهُ
سَاجِدِينَ ، وَخَمْرُهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً .

(٨) بولاق : سارة .

^٢ نفسه ١٨-١٩ .^١ ابن عبد الحكم : فزع مصر ١٧-١٨ .

وكأده إخوانه على ذلك ، وباعوه من قوم مَدَنَتَيْن ، فساروا به إلى مصر وباعوه لقائِد فرعون . فأقام في منزله اثني عشر شهراً ، ثم رآوه امرأة العزيز عن نفسه فاعتصم ، وكذبت عليه إلى أن حُبِسَ ، ومكث في السُجْنِ عشر سنين ، وقيل غير ذلك .

فلم يزل في السُجْنِ إلى أن رأى السَّاقِي والخِجَّاز ذَيْنِكَ المناقِثَ ، وفُسرَ لهما يُوسُفُ وخَرَجَا ، فَأُتِيَ السَّاقِي يُوسُفُ ستين ، إلى أن رأى الملك البَقَرَّ والشَّيَاطِلَ ، فَذَكَرَهُ وَأَنَّهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا وعَظَّمَهَا ، فَأُخْرِجَ مِنَ السُّجْنِ وله حَبْلٌ ثَلَاثُونَ سَنَةً ، فَاسْتَوَزَّرَهُ الْمَلِكُ .

ومن ذلك الوقت إلى أن صارَ يُعْقُوبُ إلى مصرَ سِتْعَ سِنِينَ ، منها سِتْعَ سِنِينَ من سِنِي الشُّبُعِ ، وستان من سِنِي الجُوعِ .

وكان ليعقُوبَ في السَّنَةِ التي صارَ فيها إلى مصر مائة سنة وثلَاثُونَ سنة ، وكان أهل بيته حَبْلُ سَبْعِينَ نَفْسًا . ومنذ سارَ إلى مصر إلى أن وُلِدَ مُوسَى - عليه السَّلام - مائة وثلَاثُونَ سنة أخرى . فلَمَّا مَضَى له بمصر سَبْعَ عَشْرَةَ سنة توفي وعمره مائة وسبع وأربعون سنة . فخافَ الأَشْبَاطُ حَبْلُ مُقَابَلَةِ يُوسُفَ إِثْنَاهُمْ ، فقالوا : إِنَّ أَبَاكَ أَوْصَى أَنْ تَغْفِرَ ذَنْبَ إِخْوَتِكَ ، فَإِنَّكَ وَهُمْ عِبِيدُ اللَّهِ إِلَهُ أَيْكَ ، فَجَكَ يُوسُفُ وقال لهم : لا تَحْتَاجُونَ إلى ذلك ، وَوَعَدَهُمْ بِخَيْرٍ تَمَّتْ لَهُمْ . وماتَ يُوسُفُ وله مائة سنة وعشر سنين ، والله أَغْلَمَ .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْفَيْئُومِ وَخَلْجَانِهَا وَضِياعِهَا

قال اليعقوبي : كان يُقالُ في مُتَقَدِّمِ الأَيَّامِ : مصر والفَيْئُومُ ، لِحَلَالَةِ الْفَيْئُومِ وَكَثْرَةِ عِمَارَتِهَا ، وبها الْقَلْبُحُ الْمُزْصُوفُ ، وبها يُعْمَلُ الْخَيْشُ^١ . وَحَكَى الْمَسْعُودِيُّ أَنَّ مَعْنَى الْفَيْئُومِ : أَلْفُ يَوْمٍ^٢ .

قال الْقَضَائِيُّ : الْفَيْئُومُ ، وهي مَدِينَةُ دُفْرَها يُوسُفُ الثَّيِّبُ - عليه السَّلام - بِالرُّوحِيِّ ، وكانت ثلاث مائة وَسِتِّينَ صَبِيْعَةً ، تَمِيرُ كُلُّ صَبِيْعَةٍ مِنْهَا مِصْرَ يَوْمًا وَاحِدًا ، فَكَانَتْ تَمِيرُ مِصْرَ السَّنَةِ .

وكانت تُرَوَّى من اثني عشر ذِرَاعًا ، ولا تَمَسُّ تَحْرَ ما زادَ على ذلك ، فَإِنَّ يُوسُفَ - عليه السَّلام - اتَّخَذَ لَهُمْ مَجْرًى ، وَرَتَّبَهُ لِيُدْوَماً لَهُمْ دُخُولُ الْمَاءِ فِيهِ ، وَقَوْمُهُ بِالْحِجَازَةِ الْمُتَّصِدَةِ ، وَبَنَى بِهِ اللَّاهُوتُونَ .

^١ اليعقوبي : كتاب البلدان ٣٣١ . أنه أتى على خبر الفيوم وخلجانها في الكتاب الأوسط

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٧٢ وأضاف المسعودي فأغنى ذلك عن إعادته في مروج الذهب .

وقال ابنُ رِضْوَانٍ: الْقِيَوْمُ يُخْزَنُ فِيهِ مَاءُ الثَّيْلِ، وَيُزْرَعُ عَلَيْهِ مَرَّاتٌ فِي السَّنَةِ، حَتَّى إِنَّكَ تَرَى هَذَا الْمَاءَ إِذَا خُلِيَ يَغْتَيَّرُ لَوْنُ الثَّيْلِ وَطَعْمُهُ، وَأَكْثَرُ مَا تُحَسُّ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي الْبَحِيرَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَثَامِ الْقَيْظِ بَسْفَطٍ وَتَهَيَّا وَصَاعِدًا إِلَى مَا يَلِي الْقِيَوْمَ، وَهَذِهِ حَالَةٌ تَرِيدُ فِي رَدَاءَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - يَعْنِي مِصْرَ - وَلَا سِوَاهَا إِذَا هَبَّتْ رِيحُ الْجَنُوبِ^١، فَإِنَّ الْقِيَوْمَ فِي جَنُوبِ مَدِينَةِ مِصْرَ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْ أَرْضِهَا.

وقال القاضي الشَّعِيدُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْقَاضِي الْمُؤْتَمَنُ بَقِيَّةُ الدَّوْلَةِ أَمِي غَمْرُو عُثْمَانُ بْنُ يُوسُفَ الْقُرَشِيِّ الْخَزْرُومِيِّ فِي كِتَابِ «الْمُنْهَاجِ فِي عِلْمِ الْخَرَاجِ»: وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ تَذْيِيرًا، وَأَوْسَعَهَا أَرْضًا وَأَجْوَدَهَا قَطْرًا، وَإِنَّمَا غَلَبَ عَلَى بَعْضِهَا الْخَرَابُ لَخُلُوعِهَا مِنْ أَهْلِهَا، وَاشْتِيَاءُ الرِّثْلِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَرْضِهَا. وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى دُسْتُورِ عَمِلِهِ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، لِذِكْرِ خُلُجَانِ الْأَعْمَالِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الضَّيَاعِ. وَقَدْ أَوْرَدْتُهُ هَهُنَا وَإِنْ كَانَ مِنْهُ مَا قَدْ دَنَزْتُ، وَمِنْهُ مَا تَغَيَّرَتْ أَشْأَاؤُهُ، وَمِنْهُ مَا جَهِلْتُ مَوَاضِعَهُ بِالذُّثُورِ وَلَكِنْ أَوْرَدْتُهُ لِيَقْلَمَ مِنْهُ حَالُ الْعَايِرِ الْآنَ، وَيَسْتَنْضِيءُ^(أ) بِهِ مِنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي عِمَارَةِ مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَايِرِ. وَفِي إِمْرَادِهِ مَضْلُحَةٌ لِيَعْلَمَ شَرْبُ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ مَوْضِعِهِ^(ب). وَتُسَخِّخُهُ:

« دُسْتُورُ يَشْتَمِلُ^(ب) عَلَى مَا أَوْضَحَهُ الْكَشْفُ مِنْ حَالِ الْخَلِيجِ الْأَمْهَاتِ بِمَدِينَةِ الْقِيَوْمِ، وَمَا لَهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ، وَشَرْبُ كُلِّ صَبِيغَةٍ مِنْهَا، وَرَسْمُهَا فِي الشَّدِّ وَالْفَتْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّخْرِيرِ وَزَمَانِ ذَلِكَ، عَمِلَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ.

تَبْدِيءُ، بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، بِذِكْرِ حَالِ الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي مِنْهُ هَذَا الْخَلِيجُ^(ب)، فَتَذَكُّرُ مَا دُونَهُ الَّتِي صَلَاحُهُ بِصَلَاحِهَا.

٢٠ خَلِيجُ الْقِيَوْمِ الْأَعْظَمِ: يَصِلُ الْمَاءُ إِلَى هَذَا الْخَلِيجِ مِنَ الْبَحْرِ الصَّغِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُنْهَى ذِي الْخَبَرِ الْيُوسُفِيِّ، وَفَوْقَهُ هَذَا الْبَحْرُ عِنْدَ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِكُزْسِي الشَّاحِرَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْأَشْمُونِيِّينَ، وَمِنْهُ شَرْبُ بَعْضِ الضَّيَاعِ

(أ) بولاق: ويستضيء. (ب) ساقطة من بولاق. (ج) بولاق: هذه الخليج.

^١ ابن رِضْوَانٍ: دفع مضار الأبدان ١٦٥-١٦٦.

الأشُمونية والقَيْبِيَّة والأَهْناسِيَّة، وعلى جانبيه ضياع كثيرة شربها منه وشرب كُروم ما له كُروم منها.

قال: «الحَجَرُ اليوسُفي»: والحَجَرُ اليوسُفي جِدَارٌ مَبْنِي بالطوب والجير المعروف عند المتقدمين بالصَارُوج، وهو الجير والزُّبْتُ. وبنائُه من جهة الشمال إلى الجنوب، ويتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه، على استقامة من الغرب إلى الشرق، ويحصره / ميلان منه في نهايته، وطوله مائتا ذراعًا بليراع القمل. ويتصل بهذا الجدار، على طول ثمانين ذراعًا منه من جهة الغرب، نهاية الجدار الأعظم من الجنوب.

وفائدة بناء الجدار الأعظم، رَدُّ الماء إذا انتهى إلى حدود اثنتي عشرة ذراعًا إلى مدينة القيوم. وطول ما يتصل منه الجدار الذي من جهة الغرب إلى الشرق، ثم يتصل بالميل، ثم ينخفض من حدود هذا الميل إلى ميل مثله يُقَابِلُهُ من جهة الشمال، خمسون ذراعًا. ويُغَدُّ ما بين هذين الميَلين - وهو المُتَخَفِّض - مائة ذراع وعشرة أذرع. ومقدارُ المُتَخَفِّض منه أربعة أذرع. وهذا المُتَخَفِّض هو الذي يُسَدُّ بجسر من خشب يُسَمَّى لَمْشًا: وعرض ما يجري عليه الماء وقت التَّيْل^(a) - وهو مَوْضِع اللَّعْش وما قَابِلُهُ إلى جهة الشرق - أربعون ذراعًا، وعليه (ب) تجري المراكب في وقت التَّيْل ويحصر موضع اللمش ميلان فائدتهما^(b) مَتَكَ اللَّعْش الثاني.

ويتصل بهذا الميل إلى جهة الشمال ما طوله ثلاث مائة واثنان وسبعون ذراعًا، ثم يتصل به - على نهاية هذا الطول - جِدَارٌ رُيْسٌ^(c) على استقامته إلى المشرق^(d) مبني بالحجر، طوله على استقامته إلى جهة الشرق مائة ذراع - ثم ينخفض أيضًا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله عشرون ذراعًا، وقدرُ المُتَخَفِّض منه ذراعان. وهذا المُتَخَفِّض أيضًا يُسَدُّ بجسر خشب يُسَمَّى اللَكَنْد.

وطولُ بقية الجدار إلى نهايته إلى^(e) جهة الشمال مائة وستة وثلاثون ذراعًا، وقبالة هذا بطوله منه مُبْلَطٌ، وفيه قَنَاطِرٌ مبنية بالحجر، كانت قديمًا

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق : يمر. (d) بولاق : الحجر. (e) بولاق : من.

تَرَدُّ الْمَاءُ إِلَى الْقِيَوْمِ مِنَ الْخَلِيجِ الْقَدِيمِ الَّذِي عِنْدَهُ الشَّدُودُ الْيَوْمَ ، وَكَانَ عَلَيْهَا أَبْوَابٌ ، وَعِدَّتُهَا عَشْرُ قَنَاطِرٍ قَدِيمَةٍ . فَيَكُونُ جَمِيعُ ذُرْعِ الْجِدَارِ الْأَعْظَمِ مِنْ نَهَائِهِ سَبْعَ مِائَةٍ وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْعَمَلِ ، دُونَ الْجِدَارِ الْمُفْتَرَضِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى الشَّرْقِ .

• وَيَمُرُّ هَذَا الْجِدَارُ الْأَعْظَمُ مِنْ بَيْنِ جِهَتَيْهِ جَمِيعًا حَتَّى يَقْصُلَ بِالْجَبَلِ ، فَتُوجَدُ آثَارُهُ فِي الْفَيْطِ^(٥) مُرَوَّرًا عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ ، وَعَرَضُهُ مُخْتَلَفٌ . وَكُلَّمَا انْتَهَى إِلَى سَطْحِهِ قُلَّ عَرَضُهُ . وَعَرَضُ أَغْلَاهُ مَعَ الظَّاهِرِ مِنْ أَسْفَلِهِ جَمِيعًا سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا . وَفِيهِ مَنَافِسُ يَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ ، وَهِيَ تَرَابِخُ زُجَاجٍ مُلَوَّنَةٌ تُشَبِّهُ الْمِينَا وَأَزْرَقَ وَسَلِيمَانِي .

١٠ وَهُوَ مِنَ الْعَجَائِبِ الْحَسَنَةِ فِي عِظَمِ الْبِنَاءِ وَإِثْقَانِهِ ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَيَّامِ اللَّاحِقَةِ بِمَنَازَةِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَبِنَاءِ الْأَهْرَامِ . فَمَنْ مُعْجَزَتُهُ أَنَّ النَّيْلَ يَمُرُّ عَلَيْهِ مِنْ عَهْدِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ وَمَا تَغَيَّرَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ .

وَيَدْخُلُ الْمَاءُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ، فِي هَذَا الزَّمَانِ ، إِلَى مَدِينَةِ الْقِيَوْمِ مِنْ خَلِيجِهَا الْأَعْظَمِ ، مَا بَيْنَ أَرْضِ الضُّيْعَتَيْنِ الْمَعْرُوفَتَيْنِ بِدُمُونَةِ وَاللَّاهُونَ ، وَمِنْهُ شُرْبٌ هَائِلٌ الضُّيْعَتَيْنِ وَغَيْرُهُمَا سَيِّحًا ، وَمِنْهُ شُرْبٌ كُرُومِهَا بِالْدُّوَالِبِ عَلَى أَغْنَاقِ الْبَقَرِ . وَإِنْ قَصُرَ النَّيْلُ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى سَوَادِهَا ، سُقِيَتْ مِنْهُ عَلَى أَغْنَاقِ الْبَقَرِ وَزُرِعَتْ .

وَيُنْتَهِي فِي الْخَلِيجِ الْأَعْظَمِ إِلَى خَلِيجٍ يُعْرَفُ بِخَلِيجِ الْأَوَاسِي ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ رَسْمٌ فِي سَدٍّ وَلَا قَنَحٍ وَلَا تَقْدِيلٍ .

٢٠ وَيُنْتَهِي إِلَى الضُّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بَبِيَّاضَ ، فَيَتَلَأُّ بِرِكَتِهَا وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِرَكِ ، وَلِلْبِرَكِ مَقَاسِيمُ يَصِلُ إِلَى كُلِّ مَقَسَمٍ مِنْهَا كِفَايَتُهُ وَمِقْدَارُ شُرْبٍ مَا عَلَيْهِ . وَيُنْتَهِي إِلَى الضُّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْأَوْسِيَّةِ الْكُبْرَى ، فَمِنْهُ شُرْبُهَا مِنْ مَقَسَمَيْنِ لَهَا ، وَبِرَسْمِهَا بَابٌ ، وَمِنْهُ يَشْرَبُ نَحْلُهَا وَشَجَرُهَا ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ طَاحُونَةٌ تَعْمَلُ بِالْمَاءِ .

ثم ينتهي إلى ثلاثة مقاييس آخرها الضبعة المعروفة بمزطينة : منها مقسم لها ، ومقسم لثلاث عدة ، والمقسم الثالث ينسقي أحد أحياء النخل . وبهذا الحَي سواقي وتساتين قد غربت ، وجُمير دَائِر به . وكان بها ثبوت في أَفْنِيَةِ النخل . ثم ينتهي إلى حَي ثانٍ على صفة الأول ، ثم ينتهي إلى الضبعة المعروفة بالخرابة^٥ فينقل بركها . وينتهي إلى ثلاثة مقاييس في صف ، وفوقها خليج مقطّل ، ويشرب من هذه المقاييس عدة ضياع . ثم ينتهي الماء من هذا الخليج إلى البطس ، وهو نهايته .

وعلى الخليج الأعظم بعد هذا أباليز ، شربها منه من أفواها لها سيمحا ؛ فإذا نَصَبَ الثيلُ نُصب على أفواهاها ، يرسم صيد السمك ، شباك .

ثم ينتهي الخليج الأعظم ، على يَمَنَة من بُريد الفُيوم ، إلى خليج يُعرف بـ «خليج سمسطوس» منه شرب سمسطوس وغيرها ، وأباليز كثيرة تُجاوز الصُخراء من المشرق منه ومن قبليه ، وهي ما بين هذا الخليج وخليج الأواسي . ثم ينتهي الخليج الأعظم أيضًا إلى «خليج دهالة» ، ومنه شرب عدة ضياع ، وعليه يُزرع الأرز وغيره ، ثم ينتهي الخليج الأعظم إلى ثلاثة خلُج . ثم ينتهي إلى «خليج تنبطاوة» ، وبهذا الخليج ثلاثة أبواب قديمة يُوسُفِيّة ، سعة كل باب منها ذراعان بذراع القمل ، ويمر فيه الماء . وينتهي أيضًا إلى باتين يوسفين .

ورسم هذا الخليج : أن يُسدّ هو وسائر المطاطلة على استقبال عشرٍ تَخْلُو من هاتور إلى سلخه ، ويُفتح على استقبال كيهك إلى عشرٍ تبقى منه ، ثم يُسدّ إلى عشرٍ تَخْلُو من طوبة ، ثم يُفتح ليلة الغطاس إلى سلخ طوبة ، ثم يُسدّ على استقبال أمشير إلى عشرة تبقى منه ، ثم يُفتح لعشر تبقى منه إلى عشرٍ تَخْلُو من بزمهات ، ثم يُفتح إلى عشرٍ تَخْلُو من بزمودة ، ثم يُعدّل في موضعه . وقد غرِبَ ما على بغيره من الضياع ، ويشرب منه عدة ضياع ولهذا الخليج مفيض مغمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء في زمان تكاثره .

ثم ينتهي الخليج الأعظم إلى «خليج دله»، وهو المطاطة، وحكمه في الشد والفتح والتعديل والتخسين كما تقدم. وهو / على يشرة من يُريد المدينة، وله بابان يُوسفيان مَبْتِيَان بالحجر سعة كل منهما ذراعان ورُبع، ومنه شُرب عِدَّة ضياع أُمّهات وغيرها، وفي وَسَطه مَفِيض لزمان الاِشْتِيحار يُفْتَح فيفيض الماء إلى البركة العظمى، وفي أَقْصَى هذه البركة أيضًا مَفِيض له أبواب، يُقالُ إنّها كانت من حديد، فإذا زادت قُدحت الأبواب فيفيض الماء إلى الغرب، وقيل إنّهُ يَمُرُّ إلى سَنَرِيَّة. وكان على هَذَيْنِ الْخَلِيجَيْنِ بَسَاتِينٌ وَكُرُومٌ كَثِيرَةٌ تَشْرَبُ عَلَى أَغْنَاقِ الْبَهَرِ.

- ١٠ وينتهي الخليج الأعظم إلى «خليج المجنونة»، سُمِّيَ بِذلِكَ لِعَظَمِ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ. وَحُكْمُهُ فِي الشَّدِّ وَغَيْرِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ. وَمِنْهُ شُرْبُ ضِيَاعٍ كَثِيرَةٍ، وَبِهِ تُدَارِ طَوَاجِينُ، وَإِلَيْهِ تَصِيرُ فِضَالَاتُ مِيَاهِ الضِّيَاعِ الْقِبْلِيَّةِ، وَإِلَى بَرْكَةٍ فِي أَقْصَى مَدِينَةِ الْقُرْآنِ تُجَاوِرُ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي قَطْرَانَ، وَتَلْتَقِي مَا يَنْصَبُ مِنْ فِضَالَاتِ الضِّيَاعِ الْبَحْرِيَّةِ فِيهَا وَهِيَ الْبَرْكَةُ الْعُظْمَى.
- ١٥ ثم ينتهي الخليج الأعظم إلى «خليج تلاله»، وله بابان يُوسفيان مَبْتِيَان بالحجر، سعة كل منهما ذراعان وثُلَاثَا ذِرَاعٍ، وَلَيْسَ فِيهِ رَسْمٌ سَدٌّ وَلَا قَتْعٌ وَلَا تَعْدِيلٌ وَلَا تَحْمِيرٌ، إِلَّا فِي تَقْصِيرِ الثَّيْلِ فَإِنَّهُ يُخَيَّرُ بِحَشِيشٍ، وَمِنْهُ شُرْبُ طَوَائِفِ الْمَدِينَةِ وَعِدَّةِ أَرْضِ ضِيَاعٍ، وَفِيهِ فُوهَةٌ خَلِيجِ الْبَطْنِ الَّذِي تَصِيرُ^(a) إِلَيْهِ مَفَاضِلُ الْمِيَاهِ، وَفِيهِ أَبْوَابٌ تُسَدُّ حَتَّى يَصْعَدَ الْمَاءُ إِلَى أَرْضٍ مَرْتَفَعَةٍ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ. وَإِذَا حَدَّثَ بِالشَّدِّ حَدَّثَ يُفْسِدُهُ، كَانَتْ الثَّقَفَةُ عَلَيْهِ مِنَ الضِّيَاعِ الَّتِي تَشْرَبُ مِنْهُ بِقَدْرِ اِشْتِغَاقِهَا.

- ٢٠ ثم ينتهي الخليج الأعظم إلى خُلُجَانٍ مِنْ جَانِبَيْهِ فِي قِبْلَتِهِ وَبَعْرِهِ. ثم ينتهي إلى «خليج بموه»^(b)، وهو على يَمْنَةٍ مِنْ يُرِيدُ مَدِينَةَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مِنَ الْمَطَاطَةِ، وَلَهُ بَابَانِ يُوسْفِيَانِ سَعَةً كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ، وَحُكْمُهُ مُحْكَمٌ مَا تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ شُرْبُ طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ وَعِدَّةِ ضِيَاعٍ. وَيَنْتَهِي إِلَى أَرْبَعَةِ

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: سموة.

مقاسيم بأبواب ، وإلى (a) خَلِيج فيه شاذروان^١ ينزل عليه الماء وينتهي الخَلِيج
الأعظم إلى عِدَّة^(b) خُلُجان تَسْقِي ضِباغا كثيرة ، منها «خَلِيج بُدود» فيه عُيُنٌ
مَحْلُوة ، فإذا سُدَّ هذا الخَلِيج سَقَى منها أراضِي ما جاورَها . وظَهَرَت هذه العين لما
غَلِمَ الماء ، وحَفِرَ هذا المَوْضِعُ لِيَعْمَلَ بَرًا ، فَظَهَرَت منه هذه العَيْنُ فَاسْتَفْنِي بها .
ثم يَنْتَهِي الخَلِيج الأعظم إلى خُلُجان بها شاذروانات ومقاسيم قَدِيمَةٌ يُوسَفِي . وبها
أبواب يُوسَفِي لها رُسُومٌ في السَّدِّ والْفَتْحِ يَشْرَبُ منها عِدَّة^(b) ضِباغ كثيرة .

ورَسَمَ الشَّرْعُ : أَنْ يُسَدَّ جَمِيعُهَا عَلَى اسْتِيقْبَالِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ تَخْلُو مِنْ هَاشُورٍ إِلَى
سَلْمَخِ ، وَتُفْتَحَ عَلَى اسْتِيقْبَالِ كَيْفَهِكَ مُدَّةَ عَشْرِينَ يَوْمًا ، وَتُسَدَّ لَعَشْرِ ثَبَقِي مِنْهُ
إِلَى الْغَطَّاسِ ، وَتُفْتَحَ يَوْمَ الْغَطَّاسِ إِلَى سَلْمَخِ طُوبَةً ، وَتُسَدَّ عَلَى اسْتِيقْبَالِ أَثْنِ عَشْرٍ
عَشْرِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ تُفْتَحَ لَعَشْرِ ثَبَقِي مِنْهُ إِلَى عَشْرِينَ مِنْ بَرْمَهَاتِ ، وَتُفْتَحَ عَشْرَةَ
أَيَّامٍ تَخْلُو مِنْ بَرْمُودَةٍ ، ثُمَّ تُعَدَّلُ فِيهِتَمَ بِعَمَارَتِهَا . وَلَهُمْ فِي التَّغْدِيلِ قِسْمٌ تُغْفَى
مِنْهُ كُلُّ نَاجِيَةٍ شَرَبَهَا بِالْعَدَلِ ، بِقَوَانِينَ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَهُمْ .
وَقَدْ اسْتَخْصَرْتُ أَسْمَاءَ الضِّبَاغِ الَّتِي ذَكَرَهَا لِحَرَابِ أَكْثَرِهَا الْآنَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ذَكَرْتُ فِيهِ يَوْمَ وَمَسْلُغَ خَرَابِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّرَاقِ

قال ابن عبد الحكم : فَلَمَّا نَمَّ الْفَتْحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، بَقِيَ عَمْرُو بْنُ الْقَاصِ جَرَائِدَ الْخَيْلِ إِلَى الْقُرَى
الَّتِي حَوْلَهَا ، فَأَقَامَتِ الْقِيُومُ سَنَةً لَا يَقْلَمُ الْمُسْلِمُونَ بِمَكَائِهَا ، حَتَّى أَتَاهُمْ رَجُلٌ فَذَكَرَهَا لَهُمْ .
فَأَرْسَلَ عَمْرُو مَعَهُ رِبِيعَةَ بْنِ حَبِيشَ بْنِ عُرْقُطَةَ الصَّدْفِيِّ ، فَلَمَّا سَلَكُوا فِي الْحِجَابَةِ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَهَشُّوا
بِالْأَنْصِرَافِ ، فَقَالُوا : لَا تَعْبَجُوا ، سَيَرُوا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ كَذَبَ فَمَا أَقْدَرَكُمْ عَلَى مَا أَرَدْتُمْ . فَلَمْ يَسِيرُوا
إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَ لَهُمْ سَوَادُ الْقِيُومِ ، فَهَجَمُوا عَلَيْهَا ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ قِتَالٌ وَأَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ .
قَالَ : وَيُقَالُ بَلْ خَرَجَ مَالِكُ بْنُ نَاعِمَةَ الصَّدْفِيِّ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْأَشْقَرِ ، عَلَى قَرْبِهِ يَنْقُضُ
الْحِجَابَةَ وَلَا يَعْلَمُ لَهُ بِمَا خَلَقَهَا مِنَ الْقِيُومِ ، فَلَمَّا رَأَى سَوَادَهَا رَجَعَ إِلَى عَمْرُو فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من بولاق .

^١ عن الشاذروان انظر فيما يلي ٦٢: ٢ ، ٤٠٢ .

قَالَ: وَيُقَالُ بَلْ يَمُتْ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ قَيْسُ بْنُ الْحَارِثِ إِلَى الصُّعَيْدِ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى الْقَيْسَ فَنَزَلَ بِهَا، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْقَيْسُ^١.

فَرَأَتْ عَلَى عَمَرُو خَيْرَهُ، فَقَالَ رَيْعَةُ بْنُ حُبَيْشٍ: كُفَيْتْ. فَوَكَّبَتْ فَرَسَهُ فَأَجَارَ عَلَيْهِ الْبَحْرَ - وَكَانَتْ أَتَتْ - فَأَتَاهُ بِالْخَيْرِ. وَيُقَالُ إِنَّهُ أَجَارَ مِنْ نَاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْفَيْيُومِ، وَكَانَ يُقَالُ لِفَرَسِهِ الْأَعْمَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^٢.

وَقَالَ ابْنُ الْكِنْدِيِّ فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ مِصْرَ»: وَمِنْهَا كُورَةُ الْفَيْيُومِ، وَهِيَ ثَلَاثُ مِائَةِ وَسْتُونَ قَوْسَةً ذُبُرَتْ عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ لَا تَنْقُصُ عَنِ الرَّيِّ. فَإِنْ قَصُرَ الثَّلَاثُ فِي سَنَةٍ مِنَ السَّنِينَ، مَارَ بِلَدِّ مِصْرَ كُلُّ يَوْمٍ قَرْيَةً^٣. وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَا يُنْتَجَى بِالْوَحْيِ غَيْرَ هَذِهِ الْكُورَةِ، وَلَا بِالذُّنْيَا بِلَدِّ أَنْفُسٍ مِنْهُ وَلَا أُخْصَبُ وَلَا أُكْتَرَّ خَيْرًا وَلَا أُعَزَّزَ أَثَرًا. وَلَوْ قَاتَيْنَا بِأَنْهَارِ الْفَيْيُومِ أَنْهَارَ الْبَصْرَةِ وَدِمَشْقَ، لَكَانَ لَنَا بِهَذَا الْقُضْلِ.

وَلَقَدْ عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْمَرْقَةِ مَرَافِقَ الْفَيْيُومِ وَخَيْرَهَا فَإِذَا هِيَ لَا تُحْصَى، فَتَزَكُّوا ذَلِكَ وَعَدُّوا مَا فِيهَا مِنَ الْمُبَاحِ - مِمَّا لَيْسَ عَلَيْهِ مِلْكٌ لِأَحَدٍ مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهِدٍ يَسْتَعِينُ بِهِ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ - فَإِذَا هُوَ فَوْقَ السَّبْعِينَ صِنْفًا^٤.

وَقَالَ ابْنُ زُوَلَّاقٍ فِي كِتَابِ «الذَّلِيلُ عَلَى أَمْرَاءِ مِصْرَ» لِلْكِنْدِيِّ: وَعَقَدَتْ لِكَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ الْفَيْيُومَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ - يَعْنِي سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - سِتِّ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَنِيفًا وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَقَالَ الْقَاضِي الْقَاضِلُ / فِي كِتَابِ «مُتَجَدِّدَاتِ الْحَوَادِثِ»، وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ: إِنَّ الْفَيْيُومَ بَلَّغَتْ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ مَبْلَغَ مِائَةِ أَلْفٍ وَاثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ وَثَلَاثَةِ دَنَانِيرٍ^٥. وَقَالَ الْبَكْرِيُّ: وَالْفَيْيُومُ مَعْرُوفٌ هُنَاكَ، يُقَالُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفِي مِثْقَالٍ ذَهَبًا^٦.

(٥) النص عند ابن الكندي: مارت كل قرية منها مصر يومًا واحدًا.

^١ فيما تقدم ٥٥٦.

^٢ ابن عبد الحكم: فترج مصر ١٦٩.

^٣ ابن الكندي: فضائل مصر ٣٣-٣٤.

^٤ انظر فيما تقدم ٢٣٣.

^٥ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ٢٥٢. وانظر أيضًا، سعيد عاشور: «الفيوم في العصور الوسطى»، بحوث ودراسات في العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٧، ٣٢٣-٣٥٠.

مَدِينَةُ الشَّعْبِيَّةِ^١

كانت أَرْضًا مُقَطَّعَةً لِعَشْرَةِ^٢ مِنْ أَجْنَادِ الْحَلَقَةِ^٣ مِنْ جُمْلَتِهِمْ شَمْسُ الدِّينِ سُتْنَرُ السَّعْدِي ، فَأَخَذَ قِطْعَةً مِنْ أَرْضِي زَرَّاعَتِهَا ، وَجَعَلَهَا إضْطَبَالًا لِدَوَائِهِ وَخَيْلِهِ ، فَشَكَاهُ شُرَكَاءُهِ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُتَّصِرِ قَلَاوُونَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ جَامِعًا تُقَامُ فِيهِ الْخُطْبَةُ ، فَأَذِنَ لَهُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ .

فابتدأ عِمَارَتَهُ فِي أُخْرِيَّاتِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتْ مِائَةٍ حَتَّى كَمُلَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ ، فَعَمِلَ لَهُ السُّلْطَانُ مِثْبَرًا ، وَأُقِيمَتْ بِهِ الْجُمُعَةُ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَأُنْشِأَ السَّعْدِيُّ حَوَانِيثَ حَوْلَ الْجَامِعِ ، فَلَمْ تَزَلْ يَدُهُ حَتَّى مَاتَ . وَوَرِثَهَا ابْنَاهُ غَرْسُ الدِّينِ^٤ خَلِيلُ وَرُكْنُ الدِّينِ عُتْرَ ، فَبَاعَهَا بَعْدَ مُدَّةٍ لِلْأَمِيرِ شَيْخُو الْقَهْرِي ، فَجَعَلَهَا مَاءً وَقَفَّهُ عَلَى الْخَانِكَاهِ وَالْجَامِعِ اللَّذَيْنِ أَنْشَأَهُمَا بِحُطِّ صَلِيْبَةِ جَامِعِ ابْنِ طُولُونٍ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ . فَعُمِّرَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ بِعِمَارَةِ الْجَامِعِ ، وَسَكَنَهَا النَّاسُ ، فَصَارَتْ مَدِينَةً مِنْ مَدَائِنِ أَرْضِي مِصْرَ بَحِثَ بَلَّغَتْ أَنْوَالَ الْقَرَّازِينَ فِيهَا عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ .

وَتَرَفَّى سُتْنَرُ السَّعْدِي فِي الْحِدْمِ حَتَّى صَبَارَ مِنَ الْأَمْزَاءِ ، وَوَلِيَ تَقْيِيبَ الْمَمَالِكِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَأُنْشِأَ الْمَدْرَسَةُ السَّعْدِيَّةُ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ قَرِيبًا مِنْ حُدُودِ الْبَقَرِ^٥ ، فِيمَا بَيْنَ قَلْعَةِ الْجَبَلِ وَبُزْكَةِ الْفَيْلِ ، فِي سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ ، وَبَنَى أَيْضًا رِبَاطًا لِلنِّسَاءِ . وَكَانَ شَدِيدَ الرُّغْبَةِ فِي الْعِمَائِرِ ، مُجِيبًا لِلزَّرَاعَةِ ، كَثِيرَ الْمَالِ ظَاهِرَ الْيَقْنَى .

ثُمَّ إِنَّهُ أَخْرَجَ إِلَى طَرَائِئُسَ ، وَبِهَا مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ^٦ .

(٥) بولاق : عز الدين .

^١ انظر فيما تقدم ٦١٣ .

^٢ لم ترد ترجمة لسنقر السعدي سوى عند ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٢٧٣ .

^٣ عن أجناد الحلقة انظر فيما يلي ٢ : ٢١٦ .

^٤ انظر فيما يلي ٢ : ٣٩٧ .

ذكر تاريخ الخليقة

اعلم أنه لما كانت الحوادث لا بد من ضبطها، وكان لا يضبط ما بين القصور وبين أزمنة الحوادث إلا بالتاريخ المستعمل العام الذي لا ينكره الجماعة أو أكثرها، وذلك أن التاريخ المجتمع عليه لا يكون إلا من حادث عظيم يتلأ ذكره الأشماع.

- وكانت زيادة ماء النيل ونقصائه إنما يتغيرهما أهل مصر ويحسبون أيامهما بأشهر القبط، وكذلك خراج أراضي مصر إنما يحسبون أوقاته بذلك، وهكذا زراعات الأراضي إنما يعتمدون في أوقاتها أيام الأشهر القبطية عادة، وسلكوا فيها سبيل أسلافهم، واقتفوا منهاج قداميهم - وما يرخ الناس من قديم الدهر أسراء العوايد - اختيج في هذا الكتاب إلى إيراد جملة من تواريخ^(a) الخليقة لتعين موقع تاريخ القبط منها، فإن يذكر ذلك يتم الغرض.

- ١٠ فأقول: التاريخ عبارة عن يوم ينسب إليه ما يأتي بعده، ويقال أيضًا: التاريخ عبارة عن مدة مغلومة، تعد من أول زمن مفروض، لتعرف بها الأوقات المحدودة؛ ولا غنى عن التاريخ في جميع الأحوال الدنيوية والأمور الدينية؛ ولكل أمة^(b) من أمة البشر^(c) تاريخ تحتاج إليه في معاملاتها وفي معرفة أزمته، تتفرد به دون غيرها من بقية الأمم.

- وأول الأوائل القديمة وأشهرها هو كون مبدأ البشر، ولأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس في كتيبه وسياقة التاريخ منه خلاف لا يجوز مثله في التواريخ. وكل ما تتعلق معرفته ببداية الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مشحط بتزويرات وأساطير، لبعد العهد وعجز المغنى به عن حفظه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِيَكُمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ الآية ٩ سورة إبراهيم. فالأولى ألا يقتل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرفة تبديل، أو خبر ينقله النفقات.

- ٢٠ وإذا نظرنا في التاريخ وجدنا فيه بين الأمم خلافا كبيرا. وسأتلو عليك من ذلك ما لا أظنك تجده مجموعا في كتاب، وأقدم بين يدي هذا القول ما قبل في مدة بقاء الدنيا^(d).

(a) بولاق: تاريخ. (b-b) ساقطة من ط. (c) ط: وسأقص عليك من بيا ذلك - ومن ذلك ما قبل في مدة بقاء

الدنيا - ما لا تجده مجموعا في غير هذا الكتاب.

ذكر ما قيل في مدة أيام الدنيا وأيامها وما ضيعتها^(٥)

اعلم أن الناس قد اختلفوا قديماً وحديثاً في هذه المسألة ، فقال قوم من القدماء الأول بالأموار والأدوار ، وهم الدهرية ، وهؤلاء هم القائلون بعزود العوالم كلها على ما كانت عليه بعد ألوف من السنين معدودة ؛ وهم في ذلك غالطون من جهة طول أدوار النجوم . وذلك أنهم وجدوا قوماً من الهند والفرس قد عملوا أدواراً للنجوم ليصححوا بها في كل وقت مواضع الكواكب ، وظنوا^(٦) أن القدد المشترك لجميعها هو عزود^(٧) بيني العالم أو أيام العالم ، وأنه كلما مضى / ذلك القدد عادت الأشياء إلى حالها الأول . وقد وقع في هذا الظن ناس كثير مثل أبي مفسر^١ وغيره ، وتبع هؤلاء خلق .

وأنت تفق على فساد هذا الظن إن كنت تخبر من القدد شيئاً ما ، وذلك أنك إذا طلبت عدداً مشترکاً بعده أعداد مغلومة ، فإنك تقدر أن تضع لكل زيغ أياماً مغلومة كالذي وضعه الهند والفرس ؛ فهؤلاء حيث جهلوا صورة الحال في هذه الأدوار ، ظنوا أنها عدد أيام العالم ، فتقطن ترشد .

وعند هؤلاء أن الدور هو^(٨) أخذ الكواكب من نقطة وهي سايرة حتى تعود إلى تلك النقطة^(٩) ، وأن الكور هو^(١٠) اشتفاف الكواكب في أدوارها سيرا آخر إلى أن تعود إلى مواضعها مرة بعد أخرى .

وزعم أهل هذه المقالة أن الأدوار مضمرة^(١١) في أنواع خمسة : الأول أدوار الكواكب السائرة في أفلاك تدويرها ؛ الثاني أدوار مراكز أفلاك التدوير في أفلاكها الحاملة ؛ الثالث أدوار أفلاكها الحالية في فلک البروج ؛^(١٢) الرابع أدوار الكواكب الثابتة في فلک البروج^(١٣) ؛ الخامس أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة .

(٥) ظ : ذكر ما قيل في مدة ما مضى من أيام الدنيا وما قد بقي منها ، وفي بولاق : ... ماضيها وبقاياها . (٦) الأصل وبولاق : وظنوا والتصويب من ظ . (٧) بولاق وظ : عدد . (٨) ظ : معنى الدور أخذ . (٩) ظ : تعود إليها . (١٠) ظ : ومعنى الكور . (١١) ظ : قد انحصرت . (١٢-١٣) ساقطة من ظ .

وهذه الأدوار المذكورة : منها ما يكون في كلِّ زَمَانٍ طَوِيلٍ مَرَّةً وَاحِدَةً ، ومنها ما يكون في كلِّ زَمَانٍ قَصِيرٍ مَرَّةً وَاحِدَةً . فَأَقْصَرُ هذه الأدوار أَدْوَارُ الْفَلَكَ الْحَيْطِ بِالْكُلِّ حَوْلَ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ ، فَإِنَّهُ يَدُورُ فِي كُلِّ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً دَوْرَةً وَاحِدَةً . وباقِي الأدوار يكون في أَرْبَعَةِ أَسْفَلِ أَطْوَلٍ مِنْ هذه ، لَا حَاجَةَ بِنَا فِي هذه الْمَسْأَلَةِ إِلَى ذِكْرهَا .

- قالوا : وَأَدْوَارُ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ فِي فَلَكِ الْبُرُوجِ تكون في كلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَحَيْثُ تَنْتَقِلُ أَوْجَاتُ الْكَوَاكِبِ وَجُزْأَتُهَا إِلَى مَوَاضِعِ خَضِيضِهَا وَتَوْبَهَرَاتِهَا وَبِالْعَكْسِ ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَوْدَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْأَوْضَاعِ ، بِحَيْثُ لَا يَتَخَالَفُ دَوْرَةُ وَاحِدَةً . وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ مُخْتَلِفُونَ فِي كَيْفِيَّةِ مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِ الْعَالَمِ وَمَا بَقِيَ .

- ١٠ فقال الْبِرَاهِمَةُ مِنَ الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ قَوْلًا غَرِيبًا ، وَهُوَ عَلَى^(أ) مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ الْأَسْتَاذُ أَبُو الرَّيْحَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْبِيرُونِي فِي كِتَابِ «الْقَانُونِ الْمَسْهُودِي» ، أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ^(ب) الطَّبِيعَةَ بِاسْمِ مَلِكٍ يُقَالُ لَهُ بَرَاهِمٌ^(ج) ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُعَدَّتْ مَخْصُورَ الْمُدَّةِ^(د) بَيْنَ مَبْدَأٍ وَانْتِهَاءٍ ، عُثِرَ كَعُثْرُهَا فِي مَقْدَارِ^(هـ) مِائَةِ سَنَةٍ بَرَاهِمِيَّةٍ ، كُلِّ سَنَةٍ مِنْهَا ثَلَاثُ مِائَةِ وَسْتُونَ يَوْمًا ، زَمَانُ النَّهَارِ مِنْهَا بِقَدْرِ مُدَّةِ دَوْرَانِ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ لِإِثَارَةِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ^(١) ، وَهذه الْمُدَّةُ بِقَدْرِ مَا بَيْنَ كُلِّ اجْتِمَاعَيْنِ لِلْكَوَاكِبِ السَّابِقَةِ فِي أَوَّلِ بُرْجِ الْحَمَلِ بِأَوْجَاتِهَا وَجُزْأَتِهَا ، وَمَقْدَارُهَا أَرْبَعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَهُوَ زَمَانُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دَوْرَةٍ لِلْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ ، عَلَى أَنَّ زَمَانَ الدَّوْرَةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفَ سَنَةٍ وَسْتُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ^(٢) .

وَاسْمُ هَذَا النَّهَارِ بِلُغَتِهِمْ «الْكَلْبَةُ»^(٣) ، وَزَمَانُ اللَّيْلِ عِنْدَهُمْ كَزَمَانِ النَّهَارِ ، وَفِي اللَّيْلِ تُشَكَّرُ الْمُتَحَرِّكَاتُ ، وَتُسْتَرَحُّ الطَّبِيعَةُ مِنْ إِثَارَةِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ، ثُمَّ يَتَوَرَّى فِي مَبْدَأِ الْيَوْمِ الثَّانِي بِالْحَرَكَةِ

(أ) سَاقِطَةٌ مِنْ بُولَاق . (ب) الْبِيرُونِي : بِمَعْنَى عَنْ . (ج) الْأَصْلُ وَبُولَاق : بَرَاهِمٍ ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْبِيرُونِي . (د) الْأَصْلُ وَبُولَاق : الْمَوْتُ ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْبِيرُونِي . (هـ) بُولَاق : الْكَلْبَةُ .

^١ فِي ظِلْمٍ يَرِدُ مَا نَقَلَهُ الْقُرَيْشِيُّ هُنَا عَنْ كِتَابِ «الْقَانُونِ الْمَسْهُودِي» يَلِ أَوْرَدَ النَّصَّ الْوَاردَ فِي ٦٨٥ وَأَوَّلُهُ : وَقَالَ أَصْحَابُ الْهَافِزُونَ مِنْ قَدَمَاءِ أَهْلِ الْهِنْدِ

^٢ الْكَلْبَةُ Kalpa كَلِمَةٌ سَمْسَكْرِيَّةٌ تَمَرُّ عَنْ طَرِيقَةِ اتِّبَاعِهَا
^٣ الْبِيرُونِي : الْقَانُونُ الْمَسْهُودِي ، ١-٣ ، حِينَرِيَاد - الْهِنْدُ فِي تَعْلِيمِ حِسَابِ حَرَكَاتِ الْأَجْرَامِ السَّمَاءِيَّةِ . فَقَدْ =

والتكوّن ، فيكون زمانُ اليوم بليّته من بيني الناس ثمانية آلاف ألف سنة وست مائة ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة .

فإذا صرّنا ذلك في ثلاث مائة وستين ، تبلغ سنو أيام السنة البرهمنوية ثلاثة آلاف ألف سنة وعشرة آلاف ألف سنة وأربع مائة ألف سنة شمسية ؛ فإذا صرّناها في مائة ، تبلغ عمر الملك الطبيعي البرهمنوي ، من بيني الناس ، ثلاث مائة ألف ألف سنة وأحد عشر ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة شمسية . فإذا تمت هذه السنين بطل العالم عن الحركة والتكوّن ما شاء الله ، ثم يستأنف من جديد على الوضع المذكور .

وقسموا زمانَ النهار المذكور إلى تسع وعشرين قطعة ، وسَمَوْا كُلَّ أربع عشرة قطعة منها نوباً ، وسَمَوْا الخمس عشرة قطعة الباقية فصولاً ، وجعلوا كُلَّ نوبةً مَحْصُورَةً بين فَضْلَيْنِ ، وكلَّ فَضْلٍ مَحْصُوراً بين نوبَتَيْنِ ، وقَدَمُوا زمانَ الفضل على النوبة إلى تمام المدة .

وزمانُ الفضل هو حُصْنُ الدَّوْر ، والدَّوْرُ لجزء من ألف جزء من المدة . فإذا قَسَمْنَا المدة على ألف ، نحصل زمانَ الدَّوْر أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف سنة وعشرين ألف سنة ، وحُصْنُها - أعني زمانَ الفضل - ألف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وثمانية وعشرون ألف سنة . وزمانُ النوبة عندهم أحد وسبعون دَوْرًا ، مقدارها من السنين ثلاث مائة ألف ألف سنة وستة آلاف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وعشرون ألف سنة .

وقد قَسَمُوا الدَّوْر أيضًا بأربع قطع : أولها أعظمها ، وهي مُدَّة الفضل المذكور ، وثانيها ثلاثة أرباع الفضل ، ومُدَّتْها ألف ألف سنة ومائتا ألف سنة وستة وتسعون ألف سنة ؛ وثالثها نصف الفضل ، ومُدَّتْها ثمان مائة ألف سنة وأربعة وستون ألف سنة ؛ ورابعها ربع الفضل ، وهو عُشْر الدَّوْر المذكور ، ومُدَّتْها أربع مائة ألف سنة واثنان وثلاثون ألف سنة .

ولكل واحد من هذه القطع الأربع اسم يُعرف به ، فاسمُ القطعة الرابعة عندهم «كَلْكَال» لأنهم يزعمون أنهم في زمانها ، وأن الذي مضى من عُمر الملك / الطبيعي - على زعم حكيمهم

الشمسية النجومية (أي الزمان الذي تستغرقه الشمس للرجوع إلى نجم ثابت مفروض) الفاتحة بين الاجتماعين الكليين تسمى كلبه Kalpa. (تليو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى) ، روما ١٩١١ ، ١٥١-١٥٢) .

= زعم الهنود أن كل الكواكب غير الثابتة خلقت مجتمعة مع أوجاتها وجوزهراتها في أول برج الحمل - أي في نقطة الاعتدال الربيعي - ثم أخلت بتحرك حركات مختلفة السرعة ، وبعد ألوف ألوف أحوار تامة ستجتمع كلها ثانية هي وأوجاتها وجوزهراتها في أول الحمل . وجملة السنين

الأَعْظَمُ الْمُسَمَّى عَنْدهُمْ بِرَهْمَكُوتِ [Brahmagupta] - ثمان سنين وخمسة أشهر وأربعة أَلَّام .
ونحن الآن في نَهَار اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة التاسعة ، وَمَضَى من النُّهَار
الخامس سِتُّ نُوُب وسبعة فُصُول وسبعة وعشرون دَوْرًا من النُّوبَة السَّابِقَة ، وثلاث قطع من الدَّوْر
المذكور - أَغْنَى تسعة أَغْشَارِهِ - وَمَضَى من القِطْعَة الرَّابِعَة - أَغْنَى من أَوَّل كَلْكَال إلى هلاك
شَكْكَال عَظِيم مُلُوكِهِمْ ، الواقعة في آخِر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإشكَنْدَر - ثلاثة آلاف
سنة ومائة سنة وتسع وسبعون سنة .

وَقَالَ : إِنَّمَا عَرَفْنَا هذا الزَّمان من عِلْم إلهي وَقَعَ إلينا من عَظَمَاءِ أَنْبِيائِنَا الْمُتَالِهِينَ بِرواياتِهِمْ جَيِّلاً
بعد جيل على تَمَرِّ الدُّهور والأزْمان .

وَرَزَعُمُوا أَنَّ في مَبْدَأ كُلِّ دَوْر أو فَضْل أو قِطْعَة أو نُوْبَة تَتَجَدَّد أُرْمِيَة العوالم وتَنَقُّل من حالٍ إلى
حال ، وَأَنَّ المَاضِي من أَوَّل كَلْكَال إلى شَكْكَال ثلاثة آلاف ومائة وتسع وسبعون سنة .
والمَاضِي من النُّهَار المذكور ، إلى آخِر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإشكَنْدَر ، أَلْف أَلْف
سنة وتسع مائة أَلْف سنة واثنان وسبعون أَلْف سنة وتسع مائة أَلْف سنة وسبعة
وأربعون أَلْف سنة ومائة سنة وسبع وسبعون سنة .

فَيَكُونُ المَاضِي من عُمر المَلِك الطَّبِيعِي إلى آخِر هذه السَّنَة : ستة وعشرين أَلْف أَلْف أَلْف
سنة وثلاث مائة أَلْف أَلْف سنة وخمسة عشر أَلْف أَلْف سنة وسبع مائة أَلْف أَلْف واثنين
وثلاثين أَلْف أَلْف سنة وتسع مائة أَلْف سنة وسبعة وأربعين أَلْف سنة ومائة سنة وتسعاً وسبعين
سنة .

فَإِذَا زِدْنَا عَلَيْهَا البَاقِي من تَارِيخ الإِسْكََنْدَر ، بعد ثَقْصَان السَّنِينَ المذكورة منه ، تَحْصُلُ المَاضِي
من عُمر المَلِك بِالْوَقْتِ المَفْرُوضِ ؛ وَاللهُ أَغْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذلك .

وَقَالَ الحَطَّاءُ والإِغْرَاءُ^(أ) في ذلك قَوْلًا أَهْجَبَ من قَوْل الهِنْدِ وأَغْرَبَ ، على ما نَقَلْتُهُ من «زِيَجِ
أَدْوَارِ الأَنْوَارِ» ، وقد لَخَّصَ هذا القَوْل من كُتُب أَهْلِ الصِّينِ ، وذلك أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَبْدَأَ سِنِيهِمْ
مَبْنِيَّةً على ثَلَاثَةِ أَدْوَارٍ :

الأَوَّلُ يُعْرَفُ بالعَشْرِي^(ب) ، مُدَّتُهُ عشر سنين ، لكلِّ سنة منها اسْمٌ يَعْرِفُ بِهِ ؛ والثَّانِي
يُعْرَفُ بالدَّوْرِ الاثْنِي عَشْرِي ، وهو أَشْهَرُهَا خُصُوصًا في بِلَادِ التُّرْكِ ، يُسَمُّونَ سِنِيَهُ بِأَسْمَاءِ

حيوانات بُلَغَتِي الخطأ والإيغر^١. والثالث مُرَكَّب من الدَّوَرَيْنِ جميعًا، ومُدَّتُهُ ستون سنة، وبه يُؤَرَّخُونَ سِنِي العَالَمِ وأَيَّامَهُ، ويقوم عندهم مقام أَيَّامِ الأَشْبُوعِ عند العَرَبِ وغيرها.

واسمُ كُلِّ سَنَةٍ منها مُرَكَّب من اسْمَيْهَا في الدَّوَرَيْنِ جميعًا، وكذلك كُلُّ يَوْمٍ من أَيَّامِ السَّنَةِ. ولهذا الدَّوَرِ ثَلَاثَةُ أَشْهُاءٍ وهي: شَانِكُون [Shank-wan]، وَجُونِكُون [jûnk-wan]، وَخَاوَن [Khâ-wan]، وَتَصِيرُ بِحَسَبِهَا مَرَّةٌ أَكْثَرُ، وَمَرَّةٌ أَوْسَطُ، وَمَرَّةٌ أَضْغَرُ. فيقال: دَوْرُ شَانِكُونِ الأَكْثَرُ، ودَوْرُ جُونِكُونِ الأَوْسَطُ، ودَوْرُ خَاوَنِ الأَضْغَرِ.

وبهذه الأَدْوَارِ يَحْتَسِبُونَ سِنِي العَالَمِ وأَيَّامَهُ، وَجُمْلَتُهَا مِائَةٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَدُورُ الأَدْوَارُ الثَّلَاثَةُ عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى.

وَاتَّفَقَ وَفُتِحَ مَبْدَأُ الدَّوَرِ الأَكْثَرُ فِي الشَّهْرِ الأوَّلِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ لِيَزْدَجِرْدَ، واسمها بِلَغْنَهُمْ «كَازَه»^(a) وبلغة العرب: سنة الفار.

وكان أوَّلُ دُخُولِ فَرَّوَرْدِينَ^(b) هَذِهِ السَّنَةِ مِنْ سِنِي العَرَبِ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَهُوَ بِلَغْنَهُمْ تِنِ جَو [tîn-jû]^(c)، وَمِنْ هَذَا اليَوْمِ وَعَلَى هَذَا التَّارِيخِ تَتَرْتَّبُ مِبَادِي سِنِيهِمْ وَأَيَّامُهُمْ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ.

وشهورُهُم اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، لِكُلِّ شَهْرٍ مِنْهَا اسْمٌ بِلُغَةِ الخطأ وبلغة الإيغر، لَا حَاجَةَ بِنَا هُنَا إِلَى ذِكْرِهَا.

وَيُقَسِّمُونَ اليَوْمَ الأوَّلَ بِلِيلَتِهِ اثْنِي عَشَرَ قِسْمًا، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ جَاغ [jag]، وَكُلُّ جَاغِ ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ كِه [Kah].

وَيُقَسِّمُونَ اليَوْمَ بِلِيلَتِهِ أَيْضًا عَشْرَةَ آلَافِ فَنَك [fank]، وَكُلُّ فَنَكٍ مِنْهَا مِائَةُ مَيَاو [miyâu]، فَيَصِيبُ كُلُّ جَاغٍ ثَمَانِ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ فَنَكًا وَثَلَاثَ فَنَكٍ، وَكُلُّ كِه مِائَةٍ وَأَرْبَعَةَ أَفْنَاكٍ وَسُدُسَ

(a) بولاق: كادره والأصل: كاره. (b) بولاق: فرودين. (c) الأصل وبولاق: سن جن، والصواب من مقال Pelliot.

ونشره في نهاية الجزء الثالث من نشرته للخطوط وكذلك مقال Bosworth, C.E., *Et art. Karâ Khitay IV*, بورزورث، pp. 604-607. والصُّبُطُ اللاتيني من مقال Pelliot.

^١ عن تأريخ الخطأ والإيغر انظر Ideler, «Sur la chronologie de Khatâ et d'Igour» (annoté par Kloppe), JA (1835) I, pp. 305-48 وانظر ما كتبه Paul Pelliot حول هذا الموضوع وخص به جاستون فييت

فَنَكَ . وَيَتَّبِعُونَ كُلَّ جَاغٍ إِلَى صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ الْإِثْنِي عَشْرَةِ ، وَمَبْدَأُ الْيَوْمِ بِأَيْلَتِهِ عِنْدَهُمْ مِنْ يَصْفُ اللَّيْلَ ، وَفِي مَتَصَفِّ جَاغٍ كَشَكْرٍ يَتَغَيَّرُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَأَخْرَجَهُ بِحَسَبِ الطُّولِ وَالْقَصْرِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ كُلَّ جَاغٍ سَاعَتَانِ مَسْتَوِيَتَانِ ، وَفِي مَتَصَفِّ النَّهَارِ يَتَصَفِّ جَاغٍ يُؤْتَدُ .

وَهُمْ يَكْبِسُونَ فِي كُلِّ ثَلَاثِ سَنِينَ قَمَرِيَّةٍ شَهْرًا وَاحِدًا يُسَمُّونَهُ شِيُون ، لِيَحْفَظُوا بِالْكَبْسِ مَبَادِي سِنِي الشَّمْسِ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ مِنْ مِثَّةِ أُخْرَى ، وَيَكْبِسُونَ أَحَدَ عَشْرِ شَهْرًا فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةٍ . وَلَا يَقَعُ عِنْدَهُمْ شَهْرُ الْكَبْسِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ بَعِيْنِهِ مِنَ السَّنَةِ ، بَلْ يَقَعُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا .

وَكُلُّ شَهْرٍ عِدَّةُ أَيَّامِهِ إِثْنَا ثَلَاثُونَ يَوْمًا أَوْ تِسْعَةً وَعِشْرُونَ يَوْمًا ، وَلَا يُمْكِنُ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مُتَوَالِيَةٍ تَامَّةٍ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ نَاقِصَيْنِ .

١٠ وَمَبَادِي شُهُورِهِمْ يَوْمُ الْاجْتِمَاعِ ، إِنْ وَقَعَ اجْتِمَاعُ الْيُزْجَيْنِ نَهَارًا ، فَإِنْ وَقَعَ الْاجْتِمَاعُ لَيْلًا كَانَ أَوَّلُ الشَّهْرِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ .

وَزَمَانُ الْمِثَّةِ الشَّمْسِيَّةِ - بِحَسَبِ أَزْوَاجِهِمْ - ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَسِتُونَ يَوْمًا ، وَأَلْفَانِ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ وَسِتَّةٍ وَثَلَاثَةِ فَنَكَا .

وَالْمِثَّةُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِسْمًا : كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا خَمْسَةُ عَشْرِ يَوْمًا ، وَأَلْفَانِ وَمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ فَنَكَا وَخَمْسَةُ أَشْدَاسٍ فَنَكَا . وَلِكُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ اسْمٌ ، وَكُلُّ سَنَةٍ أَقْسَامٌ مِنْهَا فَضْلٌ مِنْ ١٥ فُضُولِ الْمِثَّةِ . فَاسْمُ أَوَّلِ قِسْمٍ مِنْ فُضُولِهَا لِيَجُن [Lijun] ^(١) ، وَأَوَّلُهُ أَبَدًا حَيْثُ تَكُونُ الشَّمْسُ فِي سِتِّ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ مِنْ / بُرْجِ الدَّلْوِ ، وَهَكَذَا أَوَائِلُ كُلِّ فَضْلٍ إِنَّمَا تَكُونُ فِي مَحْدُودٍ أَوْاسِطِ الْبُرْجِ النَّاقِئَةِ .

وَكَانَ يُعَدُّ مَدْخَلُ لِيَجُن ^(٢) ، مِنْ أَوَّلِ الدُّورِ الْمُتَتَابِعِي فِي السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ : أَحَدَ عَشْرِ يَوْمًا ، وَسَبْعَةَ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَسِتِينَ فَنَكَا .

٢٠ وَاسْمُ مَدْخَلِهِ يِي خَاي [Yi-khāy] ، وَكَانَ بَعْدَ دُخُولِ السَّنَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ يَنْخَوِ عِشْرِينَ يَوْمًا ، وَيَتَّعَدُّ مَدْخَلُهُ عَنْ أَوَّلِ الدُّورِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِقَدْرِ فَضْلِ سَنَةِ الشَّمْسِ عَلَى سَنَةِ الدُّورِ ، وَهُوَ خَمْسَةُ أَيَّامٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ فَنَكَا . فَإِنْ زَادَتْ الْأَيَّامُ عَلَى سِتِينَ يَوْمًا ، كَانَ الْبَاقِي بَعْدَ لِيَجُن فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَنْ أَوَّلِ الدُّورِ الْمُتَتَابِعِي .

ويَتَقَاصِلُ الْيَعْدُ بَيْنَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ بِقَدَرِ قُضِلَ سَنَةُ الشَّمْسِ عَلَى سَنَةِ الْقَمَرِ الَّتِي هِيَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسُونَ يَوْمًا ، وَثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ فَتَكُنَا . وَمُقْدِيرُ الْفَضْلِ بَيْنَهُمَا عَشْرَةُ أَيَّامٍ ، وَثَمَانِيَةُ أَلْفٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسِتُونَ فَتَكُنَا . فَإِنْ زَادَتْ الْأَيَّامُ عَلَى زَمَانِ الشَّهْرِ الْقَمَرِيِّ الْاَوْسَطِ ، الَّذِي هُوَ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا وَخَمْسَةُ أَلْفٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَسِتَّةِ أَفْنَاكٍ ، نَقُصُّ مِنْهَا هَذَا الْعَدَدَ وَاحْتُسِبَ بِالْبَاقِي .

فَإِذَا عَرَفْتُمْ هَذَا مِنْ حِسَابِهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ عُمْرَ الْعَالَمِ عِنْدَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ أَلْفٍ وَنَ [Wan] وستون ألفَ وَنَ ، كُلُّ وَنَ عَشْرَةُ أَلْفٍ سَنَةٍ ، مَضَى مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَوَّلِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ لِيَزْدَجُرْدَ - وَهِيَ دُورُ شَانِكُونِ [Shank-wan] الْأَعْظَمِ - ثَمَانِيَةُ أَلْفٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَثَلَاثَةٍ وَسِتُونَ وَنَا وَتِسْعَةُ أَلْفٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةٍ ، فَتَكُونُ الْمُدَّةُ الْعَظْمَى عَلَى هَذَا : ثَلَاثَةُ أَلْفٍ أَلْفٍ أَلْفٍ أَلْفٍ أَلْفٍ سَنَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ أَلْفٍ أَلْفٍ أَلْفٍ أَلْفٍ سَنَةٍ (بِهَذِهِ الصُّورَةُ ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠) وَالْمَاضِي مِنْهَا إِلَى السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ : ثَمَانِيَةُ وَثَمَانُونَ أَلْفٍ أَلْفٍ سَنَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ أَلْفٍ سَنَةٍ وَتِسْعَةُ وَثَلَاثُونَ أَلْفٍ سَنَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ سَنَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةٍ (بِهَذِهِ الصُّورَةُ ٨٨٦٣٩٧٤٠) ١ ؛ ﴿ وَبِذِهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ [الآية ١٢٣ سورة هود] .

وَأَمَّا ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ حِسَابِ بَيْنِي الْبَرَاقِمَةِ ، وَطَرَفٍ مِنْ حِسَابِ بَيْنِي الْخَطَا وَالْإِيغَرِ الْمُسْتَخْرَجِ مِنْ حِسَابِ الصِّينِ ، لِيَعْلَمَ الْمُتَصِفُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَضَعْهُ حُكَمَاؤُهُمْ غَيْبًا ، وَلَأَمْرٍ مَا مَجْدَعُ فَصِيرِ أَتْفِهِ .

وَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ بِالتَّعَالِيمِ ، إِذَا سَمِعَ أَقْوَالَهِمْ فِي مُدَّةِ بَيْنِي الْعَالَمِ ، يُادِرُ إِلَى تَكْذِيبِهِمْ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِدَلِيلِهِمْ عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الْحَقِّ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِيمَا لَا يَقْلَمُهُ حَتَّى يَبَيِّنَ أَخَذَ طَرَفِيهِ فَيُرْجِعْهُ عَلَى الْآخِرِ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَأَقَالَ أَصْحَابُ «السُّنْدِ هُنْد» ٢ - وَمَغْنَاهُ الذُّهْرُ الدَّاهِرُ : إِنَّ الْكَوَاكِبَ وَأَوْجَاتِهَا وَجُوزَافَرَاتِهَا

١ بغداد سنة ١٥٤٤هـ/٧٧١م رجل هندي قدم على الخليفة المنصور العباسي . وكلّف المنصور ذلك الهندي بإعلاء مختصر للكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية واستخراج كتاب منه تتخذة العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها من الأعمال . وترأى نقله محمد بن إبراهيم الفزاري وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب وظلوا =

آخر الفقرة التي ترجمها وعلّق عليها Pelliot .

٢ يلتقي نص نسخة ط مرة أخرى مع الأصل .

٣ السُّنْدِ هُنْد ، حساب فلكي هندي مبني على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه براهمسبھتسَد هانت Brāhmasphutasiddhanta ألفه سنة ٦٢٨م الفلكي والرياضي الهندي بُرْهْمَكَبْتا Brahmagupta ، وجاء به إلى

تجتمع كلها في أول^٥ بزج الحمل ، عند كل أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف سنة وعشرين ألف سنة شمسية ، وعندهم أن هذه السنين هي مدّة العالم ، ويؤمنون أنها إذا اجتمعت برأس برج^٦ الحمل قصّدت المكونات الثلاث التي يحويها عالم الكون والفساد ، المعبر عنه بالحياة الدُّنيا ، والمكونات الثلاث هي^٧ : المقيد والثبات والحَيَوَان ، قالوا^٨ : فإذا قصّدت بقي العالم الشفلي خراباً دُفِّعَ طويلاً إلى أن تنفوق الكواكب والأوجات والجوّزهرات في بزج الفلك ، فإذا تفرّقت فيها بدأ الكون بعد الفساد ، فعادت أحوال العالم الشفلي إلى الأمر الأول ، وهذا يكون عوذاً بعد بدء إلى غير نهاية .

قالوا^٩ : ولكل واحد من الكواكب والأوجات والجوّزهرات عدّة أذوار في هذه المدّة ، يدل كل دور منها على شيء من المكونات ، كما هو مذكور في كتبهم ، ثم لا حاجة بنا هنا إلى ذكره ، وهذا القول مُنتزع من قول البراهمة الذي تقدّم ذكره .

١٠ وقال أصحاب الهاذروان من قُدّماء الهند^١ : إن كل ثلاث مائة ألف سنة وستين ألف سنة شمسية يَهْلِكُ العالم بأسره ، ويَبْقَى مثل هذه المدّة ، ثم يعود بعينه ويقبّبه الجدّ ، وهكذا أبداً يكون الحال لا إلى نهاية .

قالوا : ومضى من أيام العالم المذكورة إلى طوفان نوح - عليه السلام - مائة ألف وثمانون ألف سنة شمسية ، ومضى من الطوفان إلى سنة الهجرة المحمدية ثلاثة آلاف وسبع مائة وثلاث وعشرون سنة وأربعة أشهر وأيام ، وبقي من سني العالم حتى يتبدئ ويُنْقِئَ مائة ألف وبضع و سبعون ألف سنة شمسية ، أولها تاريخ الهجرة الذي يُؤرّخ به أهل الإسلام^٢ .

(a) ظ : رأس . (b) الأصل ويولاق : وهذه مدّة سني العالم . قالوا : وإذا جمعت برأس الحمل . (c) الأصل ويولاق : وهذه المكونات هي . (d) زيادة من ظ . (e) ظ : ويؤمنون أن . (f-g) هذه الفقرة وردت في ظ موضع النص للمول للثقل عن القانون المسعودي السيريني .

تميّزاً له عن كتاب «الشريعة» الذي ألفه في عهد المأمون ، محمد بن موسى الخوارزمي . (تلليو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ١٤٩-١٥٢ ، ١٣٥١ كرتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٧٧-٧٩ ، ٦٦٥-٦٦٦ P. El² art. Sinhind IX ، و ذكر المسعودي في أخبار الزمان ٩ أن كتاب السندهند هو الذي عمل عنه الجسطي وغيره من الزيجات .

^١ الهاذروان . هو مدّة ستة وثلاثين ألف سنة مضروبة =

= يعملون به إلى أيام المأمون عندما بدأ في الانتشار مبدأ بطليموس في الحساب والجداول الفلكية . ولفظ سينهانت معناه بالسنسكريتية : معرفة وعلم ومذهب ، فيكون معنى الكتاب الأصلي «كتاب الهيئة المصحح المنسوب إلى نوح» وتحذف العرب ثلثي اللفظ مقتصرين على الثلث الأخير وهو سدّ هنت ثم تحوّل تحت تأثير الاشتقاق الشعبي إلى «الشندهند» الذي تنعكس فيه التسمية العربية لخطري الهند : الهند والسند . وسواء بعض المتأخرين «الشندهند الكبير»

وقال أصحاب الأزججهز^١: ١: مدّة العالم، التي تجتمع فيها الكواكب برأس برج^٢ الحمل هي وأوجاتها وجوزهراتها، مجزء من ألف مجزء من مدّة السند هند، وهذا أيضًا مُتّرع من قول البراهمة^٣.

وقال أبو معشر^٤ وابن توبخت^٥: إن بغض القوس يرى أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة بعدة البروج، لكل بروج ألف سنة. فكان ابتداء أمر الدنيا في أول ألف الحمل، لأن الحمل والقور والجزءاء تُسمى أشرف الشرف، ويُنسب إلى الحمل الفضل، وفيها تكون الشمس في شرفها وعُلُوها وطول نهارها، ولذلك الدنيا كانت إلى ثلاثة آلاف سنة علوية روحانية طاهرة.

ولأن السرطان والأسد والسجّلة مُتَقَصّة، فإن الشمس تتخط من علوها في أول دقيقة من السرطان، وكان قدر الدنيا وأبنائها مُنحطًا في الثلاثة الآلاف الثانية. ١٠ ولأن الميزان أهبط الهبوط وبقر الآبار وضد البرج الذي فيه شرف الشمس، دلّ على أنه أصابت الدنيا وانكسب أهلها المعصية، والميزان والعقرب والقوس إذا نزلتها الشمس لم تزد إلا انحطاطًا والأيام إلا نقصانًا / فلذلك دلت على البلايا والضيق والشدة والشّر.

(a) ظ وبلاق: الأزجهر. (b) زيادة من ظ: المطول لقول عن القانون المسعودي للبيروني.

^١ بعد ذلك في نسخة الظاهرية (ظ): وقال أصحاب الأركيز من قدماء الهند خلاف ذلك. وهذه كلها أقوال لا دليل عليها ولا مستند لقالها إلا تقليد قدماء الصابئة. وأما أقول أهل الإسلام... ثم انتقل بعد ذلك إلى ما جاء هنا فيما يلي نهاية ١: ٢٥٦.

^٢ أبو معشر انظر عنه فيما تقدم ١٨٠ هـ.

^٣ ابن توبخت، هو أبو سهل الفضل بن نونجت فارسي الأصل، كان في عزاة الحكمة لهارون الرشيد، اهتم في علمه على كتب الفرس ونقل الكثير من الكتب من الفارسية إلى العربية (ابن النديم: الفهرست ٣٣٣؛ القفطي: تاريخ الحكماء ٢٥٥).

= في اثني عشر ألف عام (المسعودي: مروج الذهب ١: ٨٥-٨٦، التنبيه والإشراف ٢٠١، ٢٢١).

^٤ أَرَبَجَهْزَ Aryabhata أحد حكماء الهند سماه العرب الأَرَجَجَهْزَ، وحرف نظام الحساب الذي توصل إليه باسم سني الأَرَجَجَهْزَ أو أيام الأَرَجَجَهْزَ، وزعم بعض العرب القدماء أن الأَرَجَجَهْزَ اسم الجزء من ألف جزء من سني السندهند أو اسم كتاب مستخرج من كتاب السندهند. وجعل أصحاب الأَرَجَجَهْزَ سني عالمهم أربع مائة ألف واثنين وثلاثين ألف سنة (المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٢٠، مروج الذهب ١: ٨٥؛ البيروني: الآثار الباقية ٢٥؛ مطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ ٢: ١٤٦؛ نلليو: علم الفلك ١٥٣-١٥٤).

وحيث تَبْلُغُ الأَلف إلى أَوَّلِ الجَدِّي الذي فيه أَوَّلُ اِرْتِفَاعِ الشَّمْسِ وإِشْرَافِهَا على شَرْفِهَا ، وفيه تَزْدَادُ الأَيَّامُ طَوْلًا ، والدَّلْوُ والْحَوْتُ اللَّذَانِ تَزْدَادُ الشَّمْسُ فِيهِمَا صُغُورًا حَتَّى تَصِلَ لَشَرْفِهَا ، فيُذَلَّ على ظُهُورِ الحَيْرِ وَمَصْغَفِ الشَّرِّ ، وَتَهَابَ الدِّينَ والعَقْلُ ، والعَقْلُ بِالْحَقِّ والعَدْلُ ، ومُتَعَرِّقَةُ فَضْلِ الْعِلْمِ والأَدَبِ فِي تِلْكَ الثَّلَاثَةِ الأَلفِ سَنَةٍ .

- وما يَكُونُ فِي ذَلِكَ قَدْرُ صَاحِبِ الأَلفِ والمِائَةِ والعِشْرَةِ ، وعلى حَسَبِ اتِّفَاقِ الكَوَاكِبِ فِي أَوَّلِ سُلْطَانِ صَاحِبِ الأَلفِ . فلا يَزَالُ ذَلِكَ فِي زِيَادَةٍ حَتَّى يَمُوتَ أَفْرَ الدُّنْيَا فِي آخِرِهَا إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ابْتِدَاؤُهَا وَهِيَ فِي أَلْفِ الحَمَلِ .

وَكُلَّمَا تَقَارَبَ آخِرُ كُلِّ أَلْفٍ مِنْ هَذِهِ الأَلُوفِ ، اسْتَدَّ الرُّمَانُ وَكَثُرَتِ البَلَايَا ، لِأَنَّ أَوَاخِرَ البُرْجِ فِي مَحْدُودِ الثَّحُوسِ ، وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ المَعِينِ والعِشْرَتِ ، فعَلَى هَذَا الاِئْتِصَاءِ لِلدُّنْيَا إِذَا كَانَ الرُّمَانُ يَمُوتُ إِلَى الحَمَلِ كَمَا بَدَأَ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

- وَزَعَمُوا أَنَّ ابْتِدَاءَ الخَلْقِ بِالتَّحَرُّكِ ، كَانَ وَالشَّمْسُ فِي ابْتِدَاءِ المَسِيرِ : فَذَاكَ الفَلَكُ ، وَجَرَتْ المِائَةُ ، وَهَبَّتِ الرِّيحُ ، وَاتَّقَدَّتِ النِّيرانُ ، وَتَحَرَّكَ سَائِرُ الخَلَائِقِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . والطَّالِبُ تِلْكَ السَّاعَةُ تَسَعُ عَشْرَةَ دَرَجَةٍ مِنْ بُرْجِ الشَّرْطَانِ وَفِيهِ المُشْتَرِي ، وَفِي البَيْتِ الرَّابِعِ الَّذِي هُوَ بَيْتُ العَافِيَةِ ، وَهُوَ بُرْجُ المِيزَانِ ، رُحِلَ ، وَكَانَ الذَّنْبُ فِي القَوْسِ ، وَالمُرْبِيعُ والجَدِّي والزُّهْرَةُ وَعُطَارِدُ فِي الحَوْتُ ، وَوَسَطَ السَّمَاءِ بُرْجُ الحَمَلِ ، وَفِي أَوَّلِ دَقِيقَةِ مَنَهِ الشَّمْسِ ، وَكَانَ القَمَرُ فِي الثَّوْرِ وَفِي بَيْتِ السَّعَادَةِ ، وَكَانَ الرَّأْسُ فِي بُرْجِ الجُوزَاءِ وَهُوَ بَيْتُ الشَّقَاءِ .

وَفِي تِلْكَ الدَّقِيقَةِ مِنَ السَّاعَةِ كَانَ اسْتِيقْبَالُ أَفْرِ الدُّنْيَا ، فَكَانَ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا وَانْحِطَاطُهَا وَارْتِفَاعُهَا وَسَائِرُ مَا فِيهَا ، عَلَى قَدْرِ مَجَارِي البُرُوجِ وَالتَّجُومِ وَوَلَايَةِ أَصْحَابِ الأَلُوفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهَا .

- ولأنَّ المُشْتَرِي كَانَ فِي الشَّرْطَانِ فِي شَرْفِهِ ، وَرُحِلَ فِي المِيزَانِ فِي شَرْفِهِ ، وَالمُرْبِيعُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي إِشْرَافِهَا ، ذَلَّتْ عَلَى كَائِنَةِ جَلِيلَةٍ ، فَكَانَ نَشْوَ الْعَالَمِ . وَانْتَبَزَّ رُحِلُ فَتَوَلَّى الأَلفُ هُوَ وَالمِيزَانُ ، وَكَانَ المُشْتَرِي فِي الطَّالِبِ مَقْبُولًا ، وَكَذَلِكَ بِجَمِيعِ الكَوَاكِبِ كَانَتْ مَقْبُولَةً ، فَذَلَّ عَلَى تَمَاءِ الْعَالَمِ وَخُسْفَانِ نَشْوِهِ .

وَكَانَ رُحِلُ هُوَ المُسْتَوَلِيُّ وَالعَالِي فِي الفَلَكِ وَالبُرْجِ طَوِيلِ المَطَالِ ، فَطَالَتْ أَهْمَارُ تِلْكَ الأَلفِ ، وَقَوِيَتْ أَبْدَانُهُمْ ، وَكَثُرَتْ مِياهُمْ .

- وَكَوَّنَ المِيزَانُ تَحْتَ الأَرْضِ ، ذَلَّ عَلَى خَفَاءِ أَوَّلِ مُحْدُوثِ الْعَالَمِ ، وَعَلَى أَنَّ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ يَنْظُرُونَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِينَ وَتَشْيِيدِ البُنْيَانِ .

ثم ولي الألف الثاني القعرب والمريخ، وكان في الطاليع المريخ، فذل على القتل في ذلك الألف، وسفك الدماء والسبي والظلم والجور والخوف والهزم والأخزان والفساد وجور الملوك. وولي الألف الثالث القوس، وشاركه عطارد والزهرة بطلوعهما، وكان الذنب في القوس: فذل المشتري على النجدة في تلك الألف والشدة والجلد والبأس والرياسة والعدل، وتقسيم الملوك الدنيا وسفك الدماء بسبب ذلك؛ وذلّت الزهرة على ظهور ميوت العبادة وعلى الأنبياء؛ وذل عطارد على ظهور العقل والأدب والكلام. وتكون البروج مجسداً، ذل على انقلاب الخير والشر في تلك الألف موات، وعلى ظهور ألوان من آيات الحق والعدل والجور.

ثم ولي الألف الرابع الجدي - وكان فيه المريخ - فذل على ما كان في تلك الألف من إفراق الدماء، وذلّت الشمس على ظهور الخير والعلم ومعرفة الله تعالى وعبادته وطاعته وطاعة أنبيائه، والروعة في الدين مع الشجاعة والجلد. وتكون البروج مثقلين هو والبرج الذي فيه الشمس، ذل على انقلاب ذلك في آخرها، وظهور الشر والتفريق والغشم^(أ) والقتل وسفك الدماء والغضب في أصناف كثيرة، وتحول ذلك وتلونه. وتكون الجدي منحنياً، ذل على أنه يظهر في آخر تلك الألف الجنس^(ب) الشبيه بصفة زحل والمريخ، وانقطاع العظماء والحكماء وبوارهم، وارتفاع السفلة، وخراب العاير، وعمارة الخراب، وكثرة تلون الأشياء.

وولي الألف الخامس الدلو بطلوع القمر - وكان القمر في الثور - فذل الدلو لبرودته وعشره على سقوط العظماء وعطلة أميرهم، وارتفاع السفلة والعبيد، ومحمدة البخلاء، وظهور الجنس^(ج) الأسود والسود، وعلى كثرة التفكير والتفكير وظهور الكلام في الأذهان ومحنة الخصومات. وتكون القمر في شرفه يدل على قهر الملوك، وظهور ولاية الحق، ونفاذ الخير، وظهور ميوت العبادة، والكف عن الدماء، والرواحة والسعادة في العامة، وثبات ما يكون من العدل والخير وطول المدة فيه. وتكون البرج مائلاً يدل على كثرة الأقطار والفرق، وآفة من البرد يهلك فيها الكثير.

ولي الألف السادس برج الحوت بطلوع المشتري والرأس، فيدل على المحمدة في الناس عامة، وعلى الصلاح والخير والسرور وذهاب الشر وحسن القيش. ولكل واحد من الكواكب ولاية ألف سنة، فصار عطارد خاتماً في برج الشبلة.

وَزَعَمَ ابْنُ تَوَيْمَنَ أَنَّ مِنْ يَوْمِ سَارَتْ الشَّمْسُ إِلَى تَمَامِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ مِنْ مُلْكِ أَنْوَشُرَوَانَ ،
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَسَبْعٍ وَسِتُونَ سَنَةً ، وَذَلِكَ فِي أَلْفِ الْجَدِّي وَتَذْيِيرِ الشَّمْسِ . وَمِنْهُ / إِلَى
الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهِجْرَةِ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً وَسِتَّةً وَعَشْرُونَ يَوْمًا . وَمِنْ الْهِجْرَةِ إِلَى قِيَامِ
يَزْدَجِرْدَ تِسْعَ سِنِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا ، فَذَلِكَ الْجَمِيعُ إِلَى أَنْ قَامَ يَزْدَجِرْدُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ
وَتِسْعَ مِائَةٍ وَسِتَّ وَسِتُونَ سَنَةً .

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ : وَزَعَمَ قَوْمٌ مِنَ الْفُرْسِ أَنَّ عُمرَ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ بَعْدَةَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ،
وَزَعَمَ أَبُو مَعْشَرٍ أَنَّ عُمرَ الدُّنْيَا ثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفِ سَنَةٍ وَسِتُونَ أَلْفِ سَنَةٍ ؛ وَأَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ فِي
النُّصْفِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفِ سَنَةٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمرُ الدُّنْيَا تِسْعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ : لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ أَلْفُ
سَنَةٍ ، وَلِلرَّأْسِ أَلْفُ سَنَةٍ ، وَلِلذَّنْبِ أَلْفُ سَنَةٍ ، وَشَرَّهَا أَلْفُ الذَّنْبِ . وَأَنَّ الْأَعْمَارَ طَالَتْ فِي تَذْيِيرِ
آلَافِ الثَّلَاثَةِ الْعُلُوبَةِ ، وَقَصُرَتْ فِي آلَافِ الْكَوَاكِبِ السَّفَلِيَّةِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمرُ الدُّنْيَا تِسْعَةُ عَشْرِ أَلْفِ سَنَةٍ بَعْدَ الْبُرُوجِ الْاِثْنِي عَشَرَ لِكُلِّ بُرْجٍ أَلْفُ سَنَةٍ ،
وَبَعْدَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ لِكُلِّ كَوْكَبٍ أَلْفُ سَنَةٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمرُ الدُّنْيَا أَحَدُ وَعَشْرُونَ أَلْفِ سَنَةٍ ، بِيَزَادَةِ أَلْفٍ لِلرَّأْسِ وَأَلْفٍ لِلذَّنْبِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمرُ الدُّنْيَا ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفِ سَنَةٍ : فِي تَذْيِيرِ بُرْجِ الْحَمَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَفِي
تَذْيِيرِ بُرْجِ الثَّوْرِ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَفِي تَذْيِيرِ الْجُوزَاءِ عَشْرَةَ آلَافٍ سَنَةٍ . فَكَانَتْ الْأَعْمَارُ فِي هَذَا
الرُّبْعِ أَطْوَلَ ، وَالزَّمَانُ أَجَدَّ . ثُمَّ تَذْيِيرُ الرُّبْعِ الثَّانِي مُدَّةُ أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ أَلْفِ سَنَةٍ ، فَكُنْوَ الْأَعْمَارُ
دُونَ مَا كَانَتْ فِي الرُّبْعِ الْأَوَّلِ . وَتَذْيِيرُ الرُّبْعِ الثَّالِثِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفِ سَنَةٍ . وَتَذْيِيرُ الرُّبْعِ الرَّابِعِ
سِتَّةَ آلَافٍ سَنَةٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : كَانَتْ الْمُدَّةُ مِنْ آدَمَ إِلَى الطُّوفَانِ أَلْفَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ، وَمِنْ الطُّوفَانِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تِسْعَ مِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ
عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَلِكَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَمِائَتَانِ وَثَلَاثَ وَعَشْرُونَ سَنَةً .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ : عُمرُ الدُّنْيَا سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مُنْخَصِرَةً فِي أَلْفِ جِيلٍ ، وَلَقَفُوا ذَلِكَ مِنْ
قَوْلِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي صَلَاتِهِ : «إِنَّ الْجِيلَ سَبْعُونَ سَنَةً» ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي الزُّبُورِ : «إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطَعَ مَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَهْدًا لِبَقَاءِ الْبَشَرِ أَلْفَ جِيلٍ» ، فَجَاءَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا

سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَاسْتَظْهَرُوا لِقَوْلِهِمْ هَذَا بِمَا فِي الثَّوْرَةِ مِنْ قَوْلِهِ : «وَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ هُوَ الْقَادِرُ
الْمُهَيِّمُ الْخَافِظُ الْعَهْدُ وَالْفَضْلُ الْحُبِّيُّ وَحَافِظِي وَصَايَاهُ لِأَلْفِ جِيلٍ» .

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمَسْعُودِي فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» عَنِ الْأَوَائِلِ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَانَ فِي الْأَرْضِ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ أُمَّةً ذَاتَ أَزْوَاجٍ وَأَبْدٌ وَيَطُشٌ وَصُورٌ مُخْتَلِفَاتٌ، بَعْدَ دُنَايِلِ الْقَمَرِ، لِكُلِّ مِزْلَةٍ أُمَّةٌ مُنْفَرِدَةٌ تُعْرَفُ بِهَا تِلْكَ الْأُمَّةُ. وَيَزْعُمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ كَانَتْ الْكَوَاكِبُ الثَّابِتَةُ تَدْبُرُهَا، وَكَانُوا يَهْبُتُونَهَا^١.

وَيُقَالُ^٢: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْبُرُوجَ الْإِثْنِي عَشَرَ قَسَمَ دَوَامَهَا فِي سُلْطَانِهَا^٣: فَجَعَلَ لِلْحَمَلِ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ، وَلِلْقُورِ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ، وَلِلْجُوزَاءِ عَشْرَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلشَّرْطَانِ تِسْعَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلْأَسَدِ ثَمَانِيَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلشَّبْثَةِ سَبْعَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلْمِيزَانِ سِتَّةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلْعَقْرَبِ خَمْسَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلْقَوْسِ أَرْبَعَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلْجُذْيِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ عَامٍ، وَلِلدُّلُو أَلْفِي عَامٍ، وَلِلنَّحُوتِ أَلْفَ عَامٍ، فَصَارَ الْجَمِيعُ ثَمَانِيَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفَ عَامٍ. فَلَمَّ يَكُنْ فِي عَالَمِ الْحَمَلِ وَالْقُورِ وَالْجُوزَاءِ حَيَّوَانٌ، وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ عَامٍ؛ فَلَمَّا كَانَ عَالَمُ الشَّرْطَانِ تَكُونَتْ دَوَابُّ الْمَاءِ وَهَوَامُ الْأَرْضِ؛ فَلَمَّا كَانَ عَالَمُ الْأَسَدِ تَكُونَتْ ذَوَاتُ الْأَرْبَعِ مِنَ الْوَحْشِ وَالْبَهَائِمِ، وَذَلِكَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَلْفِ عَامٍ مِنْ خَلْقِ دَوَابِّ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ؛ فَلَمَّا كَانَ عَالَمُ الشَّبْثَةِ تَكُونُ الْإِنْسَانَانِ الْأَوَّلَانِ، وَهُمَا أَدَمَانُوسُ وَحَيَوَانُوسُ، وَذَلِكَ لِتَمَامِ سَبْعَةِ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ لَخَلْقِ دَوَابِّ الْمَاءِ وَهَوَامِ الْأَرْضِ، وَلِتَمَامِ ثَمَانِيَةِ أَلْفِ عَامٍ مِنْ خَلْقِ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ^٤.

وُخِلِقَتْ الْأَرْضُ فِي عَالَمِ الْمِيزَانِ، وَيُقَالُ بَلْ خُلِقَتْ الْأَرْضُ أَوَّلًا، وَأَقَامَتْ خَالِيَةً ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ عَامٍ لَيْسَ فِيهَا حَيَّوَانٌ وَلَا عَالَمٌ رُوحَانِي، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى هَوَامَ الْمَاءِ وَدَوَابَّ الْأَرْضِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ. فَلَمَّا نَمَّ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ عَامٍ لَخَلْقِ دَوَابِّ الْمَاءِ وَهَوَامِ الْأَرْضِ، وَلِتَمَامِ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ مِنْ خَلْقِ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، وَلِتَمَامِ سَبْعَةِ أَلْفِ عَامٍ مِنْ لَدُنْ تَكُونِ الْإِنْسَانِينَ، خُلِقَتْ الطُّيُورُ.

وَيُقَالُ إِنَّ مُدَّةَ مُقَامِ الْإِنْسَانَيْنِ وَنَسْلِهِمَا فِي الْأَرْضِ مِائَةَ أَلْفِ وَثَلَاثَةِ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ عَامٍ: مِنْهَا لِزُحَلِّ سِتَّةَ وَخَمْسُونَ أَلْفَ عَامٍ، وَلِلْمُشْتَرِي أَرْبَعَةَ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ عَامٍ، وَلِلْمَرْيُخِ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ عَامٍ.

(١) عند المسعودي: وقال هرمس. (٢) عند المسعودي: قسم لها دوامها في سلطانه.

وَيُقَالُ إِنَّ الْأُمَّمَ الْمُخْلُوقَاتِ قَبْلَ آدَمَ هِيَ كَانَتِ الْجَبَلَةُ الْأُولَى ، وَهِيَ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ أُمَّةً بِإِزَاءِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ ، خُلِقَتْ مِنْ أَمْرِجَةِ مُخْتَلَفَةِ أَصْلُهَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ وَالنَّارُ ، فَتَبَايَنَ خَلْقُهَا :

- فَمِنْهَا أُمَّةٌ خُلِقَتْ طَوَالًا زُرْقًا ذَوَاتُ أَجْنِيحَةٍ ، كَلَامُهُمْ قَرَوْنَةٌ عَلَى صِبْغَةِ الْأَسْوَدِ ، وَمِنْهَا أُمَّةٌ أَبْدَانُهُمْ أَبْدَانُ الْأَسْوَدِ ، وَزُرُوسُهُمْ زُرُوسُ الطَّيْرِ ، لَهُمْ شُغُورٌ وَأَذَانٌ طَوَالٌ ، وَكَلَامُهُمْ ذَوِيٌّ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ لَهَا وَجْهَانٌ : وَجْهَةٌ أَمَاتُهَا ، وَوَجْهَةٌ خَلَقَهَا ، وَلَهَا أَرْجُلٌ كَثِيرَةٌ ، وَكَلَامُهُمْ / كَلَامُ الطَّيْرِ . وَمِنْهَا
- أُمَّةٌ صَنِيعَةٌ فِي سُورِ الْكَلَابِ ، لَهَا أَذْنَابٌ ، وَكَلَامُهُمْ هَمْسَةٌ لَا يُعْرَفُ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ تُشَبِّهُ بَنِي آدَمَ ، أَفْوَاهُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، يُصَفِّرُونَ إِذَا تَكَلَّمُوا تَضَعِيًّا ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ يُشَبِّهُونَ نِصْفَ إِنْسَانٍ ، لَهُمْ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ ، وَرِجْلٌ يُفْقِزُونَ بِهَا قَفْرًا ، وَيَصِيحُونَ كَصِيَاحِ الطَّيْرِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ لَهَا رُجُوءٌ كَوُجُوهِ النَّاسِ ، وَأَصْلَابٌ كَأَصْلَابِ السَّلَاحِفِ ، فِي زُرُوسِهِمْ قُرُونٌ طَوَالٌ ، لَا يُفْهَمُ كَلَامُهُمْ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ مُدَوَّرَةٌ الْوُجُوهِ ، لَهُمْ شُغُورٌ بَيَضٌ وَأَذْنَابٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ ، وَزُرُوسُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، لَهُمْ شُغُورٌ وَثِيدٌ
- ١٠ وَهُمْ إِنْثَاءٌ كُلُّهُنَّ لَيْسَ فِيهِنَّ ذَكَرٌ ، يُلْقَعْنَ مِنَ الرِّيحِ وَيَلْذَنُ أَثْنَالُهُنَّ ، وَلَهُنَّ أَصْوَاتٌ مُطَرِبَةٌ ، يَجْتَمِعُ إِلَيْهِنَّ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّمِ لِحُسْنِ أَصْوَاتِهِنَّ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ عَلَى خَلْقِ بَنِي آدَمَ ، شَوْذٌ وَجُوهُهُمْ ، وَزُرُوسُهُمْ كَزُرُوسِ الْغِزْبَانِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ فِي خَلْقِ الْهَوَامِ وَالْحَشَرَاتِ ، إِلَّا أَنَّهَا عَظِيمَةُ الْأَجْسَامِ ، تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ مِثْلَ الْأَنْعَامِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ كَوُجُوهِ ذَوَابِ الْبَحْرِ ، لَهَا أَلْيَابٌ كَأَلْيَابِ الْخَنَازِيرِ وَأَذَانٌ طَوَالٌ . وَيُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ أُمَّةً تَنَاجَتْ^(٥) فَصَارَتْ مِائَةً وَعِشْرِينَ أُمَّةً^٦ .
- ١٥

- وَسُئِلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَلْ كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلْقٌ قَبْلَ آدَمَ يُقْبِدُونَ اللَّهَ تَعَالَى ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ ، وَخَلَقَ فِيهَا [أُمَّةً مِنْ^(ب) الْجِبْرِ] يُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَيُقَدِّسُونَهُ لَا يُفْشِرُونَ ؛ وَكَانُوا يَطِيرُونَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيَلْقَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَقْلِمُونَ مِنْهُمْ خَيْرَ مَا فِي السَّمَاءِ ؛ ثُمَّ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ^(٥) تَمَرَّدَتْ ، وَغَتَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ، وَبَقَتْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَعَدَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَجَحَدُوا بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وَغَبَدُوا مَا سِوَاهُ ، وَتَغَالَيَرُوا عَلَى الْمَلِكِ حَتَّى سَفَكُوا الدَّمَاءَ ، وَأَظْهَرُوا فِي الْأَرْضِ الْقِتَادَ ، وَكَثُرَ تَقَاتُلُهُمْ ، وَغَلَا بَغْضُهُمْ عَلَى بَغْضٍ ، وَأَقَامَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى دِينِهِمْ ، وَكَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الطَّاغُوتِ
- ٢٠

(٥) بولاق : تناكحت . (ب) زيادة من السعدي . (ج) السعدي : من الجن .

المطوعة لله والمستبحين له ، وكان يصعد إلى السماء فلا يُعجب عنها الحسن طاعته .

وَيُزَوَّى أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ تَفْتَرِقُ عَلَى إِخْدَى وَعَشْرِينَ قَبِيلَةً ، وَأَنَّ بَعْدَ خَمْسَةِ آلَافِ سَنَةٍ تَلَكُّوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ شِمَائِيلُ ^(أ) بَنَ أَرَسَ ، ثُمَّ اقْتَرَفُوا فَتَلَكُّوا عَلَيْهِمْ خَمْسَةَ مُلُوكَ ، وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ دَهْرًا طَوِيلًا ؛ ثُمَّ أَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَتَحَاسَدُوا ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَقَائِعٌ كَثِيرَةٌ ، فَأَهْبَطَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ إِبْلِيسَ - وَكَانَ اسْمُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ : الْحَارِثُ ، وَكَنِيَّتُهُ أَبُو مُرَّةٍ - وَمَعَهُ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَهَزَمَهُمْ وَقَتَّلَهُمْ . وَصَارَ إِبْلِيسُ مَلِكًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَتَكَبَّرَ وَطَفَى ، وَكَانَ مِنْ اِثْتِنَاعِهِ مِنَ السُّجُودِ لَا ذَمَّ مَا كَانَ . فَأَهْبَطَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْأَرْضِ ، فَسَكَنَ الْبَحْرَ وَجَعَلَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، فَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِ شَهْوَةَ الْجِمَاعِ ، وَجَعَلَ لِقَاحَهُ كِلْقَاحِ الطَّيْرِ وَيَبِضُهُ [كَبِيبُهُ] ^(ب) .

وَيُقَالُ إِنَّ قِبَائِلَ الْجِنَّ مِنَ الشَّيَاطِينِ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ قَبِيلَةً : خَمْسٌ عَشْرَةٌ قَبِيلَةٌ تَطْفِرُ فِي الْهَوَاءِ ، وَعَشْرٌ قِبَائِلٌ مَعَ لَهَبِ النَّارِ ، وَثَلَاثُونَ قَبِيلَةً يَشْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ . وَلِكُلِّ قَبِيلَةٍ مَلَكٌ مُؤَكَّلٌ بِدَفْعِ شَرِّهَا .

وَمِنْهُمْ صِنْفٌ مِنَ الشَّعَالِيِّ يَتَصَوَّرُونَ فِي صُورِ النِّسَاءِ الْحِصَانِ ، وَيَتَزَوَّجْنَ بِرِجَالِ الْإِنْسِ ، وَيَلِدْنَ مِنْهُمْ ؛ وَمِنْهُمْ صِنْفٌ عَلَى صُورِ الْحَيَّاتِ ، إِذَا قَتَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَاحِدَةً هَلَكَ مِنْ وَقْتِهِ ، فَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً هَلَكَ وَلَدُهُ أَوْ عَزِيزٌ عِنْدَهُ ^١ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الْكِلَابَ مِنَ الْجِنَّ ، فَإِذَا رَأَوْكُمْ تَأْكُلُونَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمْ مِنْ طَعَامِكُمْ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَنْفُسًا - يَعْنِي أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بِالْعَيْنِ ^٢ .

وَرُوي أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ مَغْمُورَةً بِأَتَمِّ كَثِيرَةٍ ، مِنْهُمْ الطُّمُّ وَالرَّمُّ وَالْحِينُ ^(ج) وَالْبِنُّ وَالْحِيسُ وَالْبِسُّ ^(د) ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ السَّمَاءَ عَمَّرَهَا بِالْمَلَائِكَةِ ، وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ عَمَّرَهَا بِالْجِنَّ ، فَعَاثُوا وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُجَنَّدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَأَتَوْا عَلَى أَكْثَرِهِمْ قَتْلًا وَأَشْرًا . فَكَانَ مِنْ أَسِيرِ إِبْلِيسَ - وَكَانَ اسْمُهُ غَزَاذِيلُ - فَلَمَّا صُعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، أَخَذَ نَفْسَهُ بِالْاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ رَجَاءً أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا لَمْ يُجِدْ ذَلِكَ عَلَيْهِ شَيْقًا خَافَرِ الْمَلَائِكَةِ الْقُنُوطَ ، فَأَرَادَ اللَّهُ

(أ) الأصل وبولاق : شمال ، والتصويب من المسعودي . (ب) الأصل وبولاق : لقاحه لقاح الطير ويبضه ، والمثبت من المسعودي . (ج) بولاق : الحين . (د) بولاق : الحسن والبسن .

أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ خُبْرَ طَوِيلِهِ وَقَسَادَ بَيْتِهِ ، فَخَلَقَ آدَمَ ، فَامْتَحَنَهُ بِالشُّجُودِ لَهُ لِيُظْهِرَ لِلْمَلَائِكَةِ تَكْبِيرَهُ وَابْتِئَانَهُ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ مِنْ مَكْتُومِ أَنْبَاءِهِ .

وَالِىَ عِمَارَةِ الْأَرْضِ قَبْلَ آدَمَ مَنْ أَفْسَدَ فِيهَا ، أَشَارَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمَلَائِكَةِ : ﴿ هَاجِلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [الأنعام ١٢٠] يَقْتُلُونَ كَمَا قُتِلَ بِهَا مِنْ قَبْلُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ وَحْشِيَّةٍ فِي كِتَابِ « الْفَلَاحَةِ » : إِنَّهُ عَرَبَ هَذَا الْكِتَابِ وَنَقَلَ مِنْ لِسَانِ الْكَلْدَانِيِّينَ (أ) إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنَّهُ وَجَدَهُ مِنْ وَضَعَ ثَلَاثَةَ حُكَمَاءَ قَدَمَاءَ ، وَهُمْ صَغْرِيثُ ، وَنُبُوسَادُ ، وَقُوثَامِي (ب) .

أَبْتَدَأَ الْأَوَّلُ وَكَانَ ظُهُورُهُ فِي الْأَلْفِ السَّابِعَةِ مِنْ سَبْعَةِ آلَافٍ سَنِي زُحَلٍ ، وَهِيَ الْأَلْفُ الَّتِي يُشَارِكُ فِيهَا زُحَلُ الْقَمَرِ ؛ وَتَمَّتْهُ الثَّانِي وَكَانَ ظُهُورُهُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأَلْفِ ؛ وَأَكْمَلَهُ الثَّالِثُ وَكَانَ ظُهُورُهُ بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ آلَافٍ سَنَةٍ مِنْ دَوْرِ الشَّمْسِ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ ، وَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَى مَا بَيْنَ زَمَانِ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ ، فَكَانَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَعْضُ الْأَلْفِ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ ١ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَيْضًا ، فَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّهُ قَالَ : الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمُعِ الْآخِرَةِ ، وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ ، فَذَلِكَ سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ . وَرَوَى شُعْبَانُ عَنْ / الْأَعْمَشِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ : قَالَ كُفَيْبُ الْأَنْجَبَارِ : الدُّنْيَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ . ١٠

وَعَنْ وَهَبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ قَالَ : قَدْ خَلَا مِنَ الدُّنْيَا خَمْسَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَسِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ ، إِنِّي لِأَعْرِفُ كُلَّ زَمَانٍ مِنْهَا وَمَنْ فِيهِ مِنَ الْمُلُوكِ (ج) الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَكَمْ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ ٢ . وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ صَلَاةِ الْقَصْرِ إِلَى مَغْرَبِ الشَّمْسِ » . ٢٠ وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : « الْحَقُّ ثَمَانُونَ عَامًا ، الْيَوْمُ مِنْهَا سُدُسُ الدُّنْيَا » ، وَالْحَقُّ هُنَا بِكَسْرِ الْحَاءِ وَضَمِّهَا .

(أ) بولاق : الكلدانيون . (ب) بولاق : صغريت وسوساد وفوقاي . (ج) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية .

٢ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١ : ١٠ .

١ ابن وحشية : الفلاحه البطيئة ١ : ٩ .

قال أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في كتاب «الإكليل»: فكانت الدنيا جزءاً من أربعة آلاف وسبع مائة وثلاثة وعشرين جزءاً وثلاث جزء من الحقب، على أن السنة القمرية ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وشدس يوم. فإذا كانت الدنيا ستة آلاف سنة واليوم ألف سنة، تكون سنين قمرية ستة آلاف ألف سنة.

فإذا جعلناه جزءاً وضربناه في أجزاء الحقب - وهي أربعة آلاف وسبع مائة سنة وثلاث وعشرون وثلاث - خرج من السنين ثمانية وعشرون ألف ألف وثلاث مائة ألف ألف وأربعون ألف ألف. وإذا كانت مجموعة من مجتمع الآخرة، زدنا مع هذا العدد مثل شديده، وهذا عدد الحقب^١.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه الكبير^(a): الصواب من القول ما دل على صحته الخبر^(b) الوارد، فذكر قوله - عليه السلام -: «أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، وقوله عليه السلام: «يُعْتَبَرُ أنا والشاعة كهاتين» وأشار بالشبابة والوسطى، وقوله عليه السلام: «يُعْتَبَرُ أنا والشاعة جميعاً إن كاذت لتسقيني»^٢.

قال: فمعلوم إذا^(c) كان اليوم أوله طلوع الشمس^(d) وآخره غروب الشمس، وكان صحيحاً عن النبي ﷺ قوله: «أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، وقوله: «يُعْتَبَرُ أنا والشاعة كهاتين»، وأشار بالشبابة والوسطى. وكان قدر ما بين أوسط أوقات صلاة العصر - وذلك إذا صار ظل كل شيء مثليه - على التحري إنما يكون قدر نصف سبع اليوم يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، وكذلك فضل ما بين الوسطى والشبابة إنما يكون نحواً من ذلك.

وكان صحيحاً مع ذلك قوله عليه السلام: «لن يُعْجِزَ الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» يعني نصف اليوم الذي يقدره ألف سنة، فأولى القولين، اللذين أحدهما عن ابن عباس والآخر عن كعب، قول ابن عباس: «إن الدنيا مجموعة من مجتمع الآخرة سبعة آلاف [سنة]»^(e).

وإذا كان ذلك^(f) كذلك، وكان قد جاء عنه عليه السلام: «إن الباقي من ذلك في حياته نصف يوم»، وذلك خمس مائة عام إذا كان ذلك نصف يوم من الأيام التي قدر الواحد منها ألف

(a) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية. (b) ط: ما دل عليه صحة الخبر. (c) بولاق: إن. (d) الطبري: الفجر.

(e) زيادة من الطبري.

^١ لم ألق عليه فيما وصل إلينا من أجزاء الإكليل. ^٢ الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١: ١١، ١٢، ١٥.

عام ، كان معلوماً أَنَّ الماضي من الدُّنْيَا ، إلى وَقْتُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام ، ستة آلاف سنة وخمسة مائة سنة أو نحو ذلك ^١.

وقد جاء عنه - عليه السَّلَام - خَبَرٌ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلٍ مِنْ قَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ ، لو كان صحيحاً [سَنَدُهُ] ^(أ) لم نَقْدُ الْقَوْلَ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ ؛ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ : «الْحَقُّبُ ثَمَانُونَ عَامًا ، الْيَوْمُ مِنْهَا سُدُسُ الدُّنْيَا» فَتَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ .
وذلك أَنَّ ^(ب) الْيَوْمَ ، الَّذِي هُوَ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ، يُقَدَّرُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا ، وَكَانَ الْيَوْمُ الْوَاحِدُ مِنْ ذَلِكَ سُدُسُ الدُّنْيَا ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ جَمِيعَهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ ^٢.

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ السَّهْلِيُّ ^(ج) فِي كِتَابِ «الرُّؤُوسِ الْأَنْفِ» ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْلَ الطَّبْرِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ^(د) :
«وَقَدْ مَضَتْ الْخَمْسُ مِائَةَ مِنْ وَفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْيَوْمِ بَيِّنٌ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ : «لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نِصْفَ يَوْمٍ» مَا يَنْفِي الزِّيَادَةَ عَلَى النِّصْفِ ، وَلَا فِي قَوْلِهِ : «يُعِثُّ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» مَا يَقْطَعُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ تَأْوِيلِهِ - يَعْنِي الطَّبْرِيُّ - ، فَقَدْ نَقَلَ فِي تَأْوِيلِهِ غَيْرَ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ وَلَا شِرْعَةٌ غَيْرُ شِرْعَتِهِ مَعَ التَّقَرُّبِ لِحِينِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَاقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ﴾ [الآيَةُ ١ سُورَةُ الْقَمَرِ] ، وَقَالَ : ﴿وَإِنِّي أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ﴾ [الآيَةُ ١ سُورَةُ النُّحْلِ] .

وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَّا يُعِثُّ فِي الْأَلْفِ الْآخِرِ بَعْدَ مَا مَضَتْ مِنْهُ سُنُونَ ، وَنَظَرْنَا إِلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ وَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا ، يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : «أَلَمْ يَسْطِعْ نَصْ حَقِّ كَرِهِ» ، ثُمَّ نَأْخُذُ الْعَدَدَ عَلَى حِسَابِ أَبِي جَادٍ ، فَيَجِيءُ تِسْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ ^٣.

وَلَمْ يُسَمِِّ اللَّهُ تَعَالَى فِي ^(د) أَوَائِلِ السُّورِ إِلَّا هَذِهِ الْحُرُوفَ ، فَلَيْسَ يَتَّعَدُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ مُقْتَضِيَّاتِهَا وَبَعْضُ قَوَائِدِهَا ، الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْعَدَدِ مِنَ السَّنِينَ ، لَمَّا قَدَّمْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَلْفِ الشَّابِعِ الَّذِي بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ .

(أ) زيادة من الطبري . (ب) بولاق : أنه حيث كان . (ج) زيادة من ط . (د) ساقطة من بولاق .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٦: ١٦٧-١٦٨ .
^٢ نفسه ١٦: ١٧٠ .
^٣ ابن خلدون : المقدمة ٨٢٣-٨٢٥ .
ومجموع هذه الحروف الأربعة عشرة ٦٩٣ وهو ما يتفق مع أورده القفري نقلًا عن يعقوب بن إسحاق الكندي (فيما يلي ٦٩٧) وهي طريقته المشاركة في الحساب ، أما =

غير أنَّ الحسابَ يحتمل أن يكون من مَبْعَثِهِ ، أو من وَفَاتِهِ ، أو من هِجْرَتِهِ - وكلُّ قريبٍ بعضُهُ من بعضٍ - فقد جاءَ أشرافُها : وَلَكِنْ ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ﴾ [آية ١٨٧ سورة الأعراف] .

وقد روي ^(٥) أنَّ المتوكلَ العبَّاسي سأل جعفرَ بن عبد الواحد القاضي عَمَّا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا ، فحدَّثَهُ بِحَدِيثٍ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ^(٥) أَنَّهُ قَالَ : «إِنْ أَحْسَنْتَ أَمْتِي فَيَقَاوَمَهَا يَوْمَ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ - وَذَلِكَ أَلْفَ سَنَةٍ - وَإِنْ أَسَاءْتَ فَيُصَفِّ يَوْمَ» . ففي هذا ^(٥) الْحَدِيثُ تَمِيمٌ لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ وَيَبَيِّنُ لَهُ ، إِذْ قَدْ انْقَضَتْ الْخَمْسُ مِائَةُ وَالْأُمَّةُ بَاقِيَةٌ .

وقال ^١ شاذَّانُ البَلْخِيُّ الْمُتَّحِمُ : مُدَّةُ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَعَشْرَ سِنِينَ ^(٥) ؛ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ قَوْلِهِ وَلِلَّهِ الْحُكْمُ .

وقال أبو تغشَّر : يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ / اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ .
وقال جَرَّاشٌ ^(٥) : «رَأَيْتُ فِي كِتَابِ الْأَقْدَمِينَ ^(٥) أَنَّ الْمُتَّحِمِينَ أَخْبَرُوا بِكُشْرَى أَنْوَشُرَوَانَ بِتَمْلُكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ الثُّبُوتِ فِيهِمْ ، وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةَ وَهِيَ فِي شَرْفِهَا وَالزُّهْرَةُ دَلِيلُ الْعَرَبِ ، فَتَكُونُ مُدَّةُ مُلْكِ ثُبُوتِهِمْ أَلْفًا وَسِتِينَ سَنَةً ، وَلِأَنَّ طَالِعَ الْقِرَانِ الدَّالَّ عَلَى ذَلِكَ يُوجِزُ الْمِيزَانَ وَالزُّهْرَةَ صَاحِبَتَهُ فِي شَرْفِهَا ^٢ .

قَالَ : وَسَأَلَ كِشْرَى وَزِيرَهُ بِزَوْجَتِهِ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْمَلِكَ يَخْرُجُ مِنْ فَارِسَ وَيَنْتَقِلُ إِلَى الْعَرَبِ ، وَتَكُونُ وِلَاةُ الْقَائِمِ بِإِمْرَةِ الْعَرَبِ لِحَمْسِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ وَقْتِ الْقِرَانِ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ تَمْلُكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمُشْتَرِيَّ دَلِيلُ فَارِسَ قَدْ قَبِلَ تَدْيِيرَ الزُّهْرَةَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ، وَالْقِرَانُ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ الْمَثَلَةِ الْهَوَائِيَّةِ إِلَى الْمَثَلَةِ الْمَالِيَةِ وَالْإِلَى يُزَجُّ الْقَرِيبُ مِنْهَا وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ أَيْضًا ، وَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تَقْتَضِي بَقَاءَ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِقَدْرِ دَوْرِ الزُّهْرَةِ ، وَهُوَ أَلْفٌ وَسِتُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ^٣ .

(a-a) هذه العبارة من ظ وجاء عوضها في الأصل وبولاق : وقد روي أنه - عليه السلام - قال . (b) ساقطة من بولاق . (c) عند ابن خلدون : وعشرون . (d) في الأصل : حراش ، وعند ابن خلدون وبولاق : حراس . (e-e) زيادة من ظ .

= بطريقة المغاربة يكون مجموع هذه الحروف ٩٠٣ (ابن خلدون : المقدمة ٤٢٩ هـ ٣٣٦) .
النص في نسخة (ظه) بعد نص ابن حزم ونص ابن وحشية

الآتي ذكرهما .

^٢ ابن خلدون : المقدمة ٨٣١ ، ٨٣٢ .

^٣ نفسه ٨٣٢ .

^١ من هنا يتفق نص المقرئ مع نص ابن خلدون في المقدمة ٨٣١-٨٣٣ حيث إن هذه النقول نُصِّغَتْ فِي نَصِ جَرَّاشِ بْنِ أَحْمَدِ الْحَاسِبِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ

وقال نوفل^(٥) الرومي ، وكان في أيام بني أُمَيَّة : تَبَقَى مِلَّةُ الْإِسْلَام بِقَلْبَرِ مُدَّةِ الْقِرَانِ الْكَبِيرَةِ ، وهي تسع مائة وستون سنة شمسية ؛ فإذا عَادَ الْقِرَانُ بعد هذه المُدَّةِ إلى بُرْجِ الْقَرُوبِ كما كان في ابتداء المِلَّةِ ، وَتَغَيَّرَ وَضْعُ تَشْكِيلِ الْفَلَكِ عن هَيْئَتِهِ في الْإِتِّدَاءِ ، فَحِيَعِلَ يَفْثُرُ الْعَمَلُ ، وَيَتَجَدَّدُ مَا يُوجِبُ بَحْلَافَ الظَّنِّ^١.

- قَالَ : وَانْفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِاسْتِيْلَاءِ الْمَاءِ وَالتَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ الْمَكُونَاتُ بِأَسْرَهَا ، وذلك إِذَا قَطَعَ قَلْبُ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً مِنْ بُرْجِ الْأَسَدِ ، الَّذِي هُوَ عَدُّ الْمَرْبِيعِ ، بعد تسع مائة وستين سنة شمسية من قِرَانِ المِلَّةِ .

- وَيُقَالُ إِنَّ مَلِكَ زَابِلِشْتَان - وهي عَزَّة^(٥) - تَمُتُ إِلَى عبد الله أمير المؤمنين المأمون بِحَكِيمِ اسْمِهِ ذُوبَانٍ فِي جَمَلَةِ هَدِيَّةٍ ، فَأُعْجِبَ بِهِ الْمَأْمُونُ وَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلْكِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَأَخْبَرَهُ بِخُرُوجِ الْمَلِكِ عَنْ عَقِبِهِ وَاتِّصَالِهِ فِي عَقِبِ أَخِيهِ ، وَأَنَّ الْعَجَمَ تَغْلِبُهُمْ عَلَى الْخِلَافَةِ ، فَيَتَغَلَّبُ الذُّيْلُ أَوَّلًا ثُمَّ يَسُوءُ حَالُهُمْ ، حَتَّى يَظْهَرَ التُّرُوكُ مِنْ شَمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَقْلِكُوا الْفُرَاتَ وَالرُّومَ وَالشَّامَ^٢.

وقال يَغْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِتْدِي^٣ : مُدَّةُ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ سِتُّ مِائَةٍ وَثَلَاثَ وَتِسْعُونَ سَنَةً^٤ . (وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِتَعَالِيلٍ نَجُومِيَّةٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَتَقْصُّدُهُ الْحُرُوفُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَائِلِ الشُّوَرِ بِحَذْفِ الْمَكْرُورِ وَاعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ الْجُمْلِ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ السَّهَيْلِيُّ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ عَنْهُ^(د) .

- ١٥ وَيُقَالُ إِنَّ الْكِتْدِيَّ هَذَا وَضَعَ كِتَابًا فِي الْقِرَانِ الْكَائِنِ فِي المِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَكَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ حَكَّمَ بِانْقِرَاضِ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُتَنَصِّفِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ وَأَنَّ بِانْقِرَاضِهَا تَنْقُضِي^(ع)

(a) بولاق : نفيل . (b) بولاق : عزبة . (c-e) زيادة من ط . (d) في المقدمة : قلت : وهذا هو الذي ذكره السهيلي ، والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه .

ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢ .

ابن أبي أصيبعة : حيون الأنبا ٢٠٦:١-٢١٤ ، Sezgin, F., GASVII, pp. 130-34; Joliver, J. & Rashed, R., El^٢ art. al-Kindi V, pp. 124-26 ، وللشيخ مصطفى

عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، القاهرة (١٩٤٥) .

٤ ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢ ، وكل هذه النصوص مضممة أيضًا في النص الذي نقله ابن خلدون .

١ ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢ .

٢ نفسه ٨٣٣ وهو نهاية المقول من نص جراح عند المقرئ .

٣ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ، فيلسوف العرب وعُتِّبَ الرشيد والمأمون ، التوفي سنة ٢٥٦/٨٧٠م (راجع ، ابن النديم : الفهرست ٣١٥-٣٢٠ ابن جليل : طبقات الأطباء والحكماء ٧٣-٧٤ ،

(٥) **مِلَّةُ الإسلام** وهكذا وَقَعَ فَإِنْ هَوَّلَاكَ قَتَلَ الخليفة المُشْتَعِصِمَ وَأزال دولة بني العبَّاس في صفر سنة خمس وخمسين وست مائة وكان هو وسَلَفُهُ على غير المِلَّةِ الإسلامية^١. والشُّبْهَةُ التي أَذَتْ بالقَوْمَ إلى القَوْلِ بقيام السَّاعَةِ في هذا الوقت أَنَّهُ تَقَوَّرَ عندهم من جهة الشريعة أَنَّها حائِمةُ الشُّرائعِ وعلى أهلها تقوم السَّاعَةُ، وَذَلَّتْهم الأَرْضُاعُ الفلكية على تلافِ المِلَّةِ الإسلامية والقائمين بها على يد قائم من غير أهلها، فَظَنُّوا أَنَّ ذلك هو وَقْتُ قيام السَّاعَةِ، فَأصابوا بعضًا وأخطأوا بعضًا، وزالت دولة الإسلام من بلاد المشرق بانقراض خُلَفَاءِ بني العبَّاس وقامت المغولُ بأمر المَلِكِ وهم على غير مِلَّةِ الإسلام، وَجَبَتْ الله أَهْلَ مصر حتى حاربوا ملوك المَغْلَ والتَّتَرُ غير مرة ودفعوهم عن مصر والشَّام حتى أَشْلَمَ من ملوك المَغْلَ من أَشْلَمَ بعد ذلك، وصارَ المَشْرِقُ بحمد الله دارَ إِسلام إلى اليوم ولم تَقُمْ السَّاعَةُ، والله يَغْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلَمُونَ^٢.

١٠ وقال الفقيه الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزَمٍ^٣ في كتاب [«الفصل في»^٤] الملل [والأهواء]^٥ والنحل: «وأما اختلافُ الناس في التاريخ، فَإِنَّ اليهودَ يقولون أربعة آلاف سنة، والنصارى يقولون الدنيا خمسة آلاف سنة، وأما نحن - يعني أهل الإسلام - فلا نَقْطَعُ على عِلْمٍ عَدَدٍ معروف عندنا.

١٥ ومن ادَّعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل، فقد قال ما لم يَأْتِ قَطُّ عن رَسولِ الله ﷺ فيه لَفْظَةٌ تَصِيحُ، بل صَحَّ عنه عليه السلام خِلَافُهُ.

بل نَقْطَعُ على أَنَّ للدنيا أَمَدًا لَا يَغْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [آية ٥١ سورة الكهف]، وقال رسول الله ﷺ:

(a-a) بقية النص المضاف من ظ. (b) زيادة اقتضاها السياق.

«الفصل في الأهواء والملل والنحل» وهو مَلُوكُ الحِمَامَةِ و«جوامع السيرة» (راجع، الحميدي: جذوة القتيبي في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق محمد بن ناوي الطنجي، القاهرة ١٩٥٢، ٢٩٠-٢٩٣، بالقوت: معجم الأدباء ١٢: ٢٣٥-

٢٥٧) ابن خلكان: وفيات ٣: ٣٢٥-٣٣٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨: ١٨٤-٢١٢؛ المقرئ: نفع الطيب ٧٧: ١٨٤، El art. Ibn Hazm III, Annaldez, R., (pp. 814-22).

^١ قال ابن خلدون عن هذا الكتاب: «ولم تقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه، ولعله غرق في كتبهم (أي العباسيون) التي طرحها هولاكو في دجلة عند استيلائهم على بغداد» (المقدمة ٨٣٤).

^٢ الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزَمٍ الأندلسي، المتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، شاعر ومؤرخ وفتي ومتكلم أندلسي، أحد كبار مفكري الإسلام أذاع المذهب الظاهري، ووضع العديد من المؤلفات من أشهرها

«ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشَّعْرة البَيْضَاءِ فِي الثُّورِ الْأَسْوَدِ ، وَالشَّعْرة السَّوْدَاءِ فِي الثُّورِ الْأَبْيَضِ» .

وهذه نِسْبَةٌ مِنْ تَذَنُّرِهَا ، وَعَرَفَ بِمِقْدَارِ عَدَدِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَنِسْبَةُ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ مَغْشُورِ الْأَرْضِ وَأَنَّهُ الْأَكْثَرُ ، عَلِمَ أَنَّ لِلدُّنْيَا أَمَدًا لَا يَغْلُمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

- وكذلك قوله عليه السلام : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ» ، وَضَمَّ أَصْبَغَيْهِ الْمُقَدَّسَيْنِ السَّجَّادَةَ وَالْوُسْطَى - وقد جاءَ النَّصُّ بِأَنَّ السَّاعَةَ لَا يَغْلُمُ مَتَى تَكُونُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لَا أَحَدَ سِوَاهُ - فَصَحَّ أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا عَنَى شِدَّةَ الْقُرْبِ لَا فَضْلَ السَّجَّادَةِ عَلَى السَّاعَةِ ، إِذْ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَأُجِدَتْ نِسْبَةٌ مَا بَيْنَ الْأَصْبَغَيْنِ وَنِسْبِ مِنْ طَوْلِ الْأَصْبَغِ ، فَكَانَ يَغْلُمُ بِذَلِكَ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَهَذَا بَاطِلٌ .

- ١٠ وأيضًا فكان تكون نِسْبَتُهُ ﷺ إِنَّمَا إِلَى مَنْ قَبَّلْنَا بِأَنَّا كَالشَّعْرة فِي الثُّورِ كَذِبًا - وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - فَصَحَّ أَنَّهُ عليه السلام إِنَّمَا أَرَادَ شِدَّةَ الْقُرْبِ .

وله ﷺ مِنْذُ بُعِثَ أَرْبَعُ مِائَةٍ عَامٍ وَكَيْفَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَغْلَمُ بِمَا بَقِيَ لِلدُّنْيَا - فَإِذَا كَانَ هَذَا الْعَدَدُ الْعَظِيمُ لَا نِسْبَةَ لَهُ عِنْدَ مَا سَلَفَ ، لِقَلْبَتِهِ وَتَفَاهُتِهِ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا مَضَى ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ ﷺ مِنْ أَنَّنَا فِيمَنْ مَضَى كَالشَّعْرة فِي الثُّورِ أَوْ الرُّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ .

- ١٥ وقد رَأَيْتُ بِحَظِّ الْأَمِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّاصِرِ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْقُرَشِيُّ أَنَّهُ رَأَى بِالْهِنْدِ بُدًّا^(١) لَهُ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ .

وقد وَجَدَ مُحَمَّدُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ بِالْهِنْدِ مَدِينَةً يُورُخُونَ بِأَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ .
قال أَبُو مُحَمَّدٍ : إِلَّا أَنَّ لِكُلِّ ذَلِكَ أَوَّلًا وَلَا بُدَّ وَنِهَائَةً ، لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ مُوجُودًا قَبْلَهُ ، ﴿لِللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(٢) [الآية ٤ سورة الروم] .

(١) بولاق : بلدًا .

^١ هذا كلام ابن حزم ، حيث توفي سنة ٤٥٦هـ / ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة

١٣٢٠هـ ، ١٠٥٢-١٠٦-١٠٦٠ .

١٠٦٤ .

ذكر التواريخ التي كانت للأمم قبل تاريخ القبط

التاريخ كلمة فارسية أصلها ماه روز^(١)، ثم غرّبت^(٢). قال محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف البلخي^١ في كتاب «مفاتيح العلوم»، وهو كتاب جليل القدر^(٣): وهذا اشتقاق بعيد لولا أن الرواية جاءت به^٢.

وقال قدامة بن جعفر في كتاب «الخراج»: تاريخ كل شيء آخره، وهو في الوقت غايته، يقال فلان تاريخ قومه، أي إليه ينتهي شرفهم. ويقال: ورخت الكتاب تؤريخا، أوزعته تأريخا. اللقمة الأولى لتسيم، والثانية لقنس. ولكل مملكة و^(٤) أهل ملة تاريخ^٣.

فكانت الأمم تؤرخ أولا بتاريخ / الخليفة وهو ابتداء كون النسل من آدم عليه السلام، ثم أرخت بالظوفان، وأرخت بيخت نصر، وأرخت بفيليس، وأرخت بالإشكندر، ثم بأغسطس، ثم بأنطس^(٥)، ثم بدقلديانوس^(٦) وبه تؤرخ القبط، ثم لم يكن بعد تاريخ القبط إلا تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزيد جرد. فهذه تواريخ الأمم المشهورة، وللناس تواريخ أخر قد انقطع ذكرها.

(a) بولاق: ماروز. (b) بولاق: حرب. (c) ط: جليل المقدار. (d) ساقطة من بولاق. (e) بولاق: بأنطس. (f) الأصل وبولاق: دقلديانوس ولكن نسخة الأصل فيما يلي تكبها دقلديانوس.

^١ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي البلخي المتوفى نحو سنة ٣٨٧/٩٩٧م، لم أقف على ترجمة له. ألف كتابه «مفاتيح العلوم» لأبي الحسن عبيد الله بن أحمد القتيبي وزير نوح بن نصر الساماني. وهو من أوائل الكتب الموسوعية في الأدب العربي.

^٢ الخوارزمي: مفاتيح العلوم، القاهرة - إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٢هـ، ٥٠، وانظر الشهاب الخفاجي: شفاء

الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، القاهرة - المطبعة الوهبة ١٢٨٢هـ، ٥٩، وفيه أنه «تعريب غريب». وذكر أبو منصور الجواليقي أن التاريخ الذي يورخه الناس ليس بعربي محض وأن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب... وقيل إنه

عربي واشتقاقه من «الأرخ» - وهو ولد البقرة الوحشية إذا كانت أنثى - بفتح الهزة وكسرهما، كأنه شيء يحدث كما يحدث الولد... ويقال: إن «الأرخ» الوقت، و«التاريخ» كأنه التوقيت. (المغرب من الكلام الأعجمي ٨٩-٩٠)؛ وانظر كذلك الصفدي: الوافي بالوفيات ٩٠١-٩٢٢؛ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (نشرة روزتال) ٣٨٢-٣٨٤؛ وفيما يلي ٧٧٠.

^٣ ورد هذا النص نقلًا عن كتاب «الخراج» لأبي الفرج قدامة بن جعفر أيضًا عند ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١، ١: ٢١.

فَأَمَّا تَارِيخُ الْخَلِيقَةِ - وَيُقَالُ لَهُ اتِّخْدَاءُ كَوْنِ الشَّيْءِ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ بَدْءُ الشَّيْءِ - فَإِنَّ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَالْمَجُوسِ فِي كَيْفِيَّتِهِ وَسِيَاقَةِ التَّارِيخِ مِنْهُ خِلَافًا كَثِيرًا^١ .

قَالَ الْمَجُوسُ وَالْفَرَسُ^٢ : عُمُرُ الْعَالَمِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ عَلَى عَدَدِ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَشُهُورِ الشَّئَةِ . وَزَعَمُوا أَنَّ زَرَادُشْتَ صَاحِبَ شَرِيعَتِهِمْ قَالَ : إِنَّ الْمَاضِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَى وَقْتِ ظُهُورِهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ سَنَةٍ مَكْجُوسَةِ الْأَرْبَاعِ . وَبَيْنَ ظُهُورِ زَرَادُشْتَ وَأَوَّلِ تَارِيخِ الْإِسْكَانْدَرِ^٣ مِائَتَا سَنَةً وَثَمَانٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً تَامَةً ، فَيَكُونُ الْمَاضِي مِنْ أَوَّلِ الْعَالَمِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ^٤ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَمِائَتَا سَنَةً وَثَمَانٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً . وَإِذَا حَسَبْنَا مِنْ أَوَّلِ كَيْمُورْت - الَّذِي هُوَ عِنْدَهُم الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ^٥ - وَجَعَمْنَا ثَمَدَةً كُلَّ مِنْ مَلَكٍ بَعْدَهُ - فَإِنَّ الْمَلَكَ مُتَسَقًى^٦ فِيهِمْ غَيْرُ مُتَقَطِّعٍ عَنْهُمْ - كَانَ الْعَدَدُ مِنْهُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَأَرْبَعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً ، فَلَيْسَ^٧ يَتَّفِقُ التَّفْصِيلُ مَعَ الْجُمْلَةِ^٨ .

وَقَالَ قَوْمٌ : الثَّلَاثَةُ الْآلَافِ الْمَاضِيَةُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ خَلْقِ كَيْمُورْت ، فَإِنَّهُ مَضَى قَبْلَهُ أَلْفٌ^٩ سَنَةً وَالْفَلَكَ فِيهَا وَاقِفٌ غَيْرُ مُتَحَرِّكٍ ، وَالطَّبَائِعُ غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ ، وَالْأُمُهَاةُ غَيْرُ مُتَمَارِجَةٍ ، وَالْكَوْنُ وَالْقَسَادُ غَيْرُ مُوجُودٍ فِيهَا ، وَالْأَرْضُ غَيْرُ عَامِرَةٍ . فَلَمَّا تَحَرَّكَ الْفَلَكَ ، حَدَثَ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ فِي مُعَدَلٍ^{١٠} النَّهَارِ ، وَتَوَلَّدَ الْحَيَوَانُ وَتَوَلَّدَ ، وَتَنَاسَلَ الْإِنْسَانُ فَكَثُرُوا ، وَامْتَرَجَتْ أَجْزَاءُ الْعَنَاصِرِ لِلْكَوْنِ وَالْقَسَادِ ، فَعُمِّرَتِ الدُّنْيَا وَانْتَضَمَ الْعَالَمُ^{١١} .

وَقَالَ الْيَهُودُ : الْمَاضِي مِنْ آدَمَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ وَثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . وَقَالَ النَّصَارَى : الْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَمِائَةٍ وَثَمَانُونَ سَنَةً ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْيَهُودَ نَقَضُوهَا لِيَقَعَ خُرُوجُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْأَلْفِ الرَّابِعِ وَسَطِ السَّبْعَةِ آلَافِ الَّتِي هِيَ بِمِقْدَارِ الْعَالَمِ

(a-b) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : ملصق . (c) الأصل وبولاق : فإذا لم ، والمثبت من البيروني . (d) البيروني : ستة آلاف . (e) بولاق : معدن .

^١ راجع ما كتبه المسعودي في التنبيه والإشراف ١٩٦ - ٢١٣ حول هذا الموضوع .

^٢ من هنا ينقل المقرئ من البيروني .

^٣ كيمورْت هو أول ملوك الطبقة الأولى من الفرس

المعروفين بـ «البيشداذته» ولقبه كيمشاه أي ملك الطلوع

(الحوارزمي : مفاتيح العلوم ٦٣) ، وأضاف البيروني أن تفسير

^٤ نقلًا عن البيروني : الآثار الباقية ١٤ .

^٥ نفسه ١٤ - ١٥ .

عندهم ، حتى تُخالف ذلك الوقت الذي سَبَقَت البشارة من الأنبياء الذين كانوا بعد مُوسَى بن عمران عليه السلام بولادة المسيح عيسى^١.

وإذا جُمِعَ ما في التُّوراة التي بيد اليهود ، من المدة التي بين آدم - عليه السلام - وبين الطوفان ، كانت ألفاً وست مائة وستاً وخمسين سنة . وعند النَّصَارَى في إنجيلهم ألفان ومائتا سنة واثنان وأربعون سنة .

وتزعم اليهود أنَّ توراتهم بعيدة عن التخاليف ، وتزعم النَّصَارَى أنَّ تورات السبعين - التي هي بأيديهم - لم يَنعَ فيها تحريف ولا تبديل ، وتقول اليهودُ فيها بخلاف ذلك ، وتقول الشايرية بأنَّ توراتهم هي الحق وما عداها باطل ، وليس في اختلافهم ما يُزيل الشك بل يُقوي الجالية له^٢.

وهذا الاختلاف بعينه بين النَّصَارَى أيضًا في الإنجيل ، وذلك أنَّ له عند النَّصَارَى أربع نُسَخ مجموعة في مُصحف واحد : أخذها إنجيل متى ، والثاني لمازقوس ، والثالث للوقا ، والرابع ليوحنا ، قد ألف كلٌّ من هؤلاء الأربعة إنجيلًا على حسب دَعْوَتِهِ في بلاده ، وهي مختلفة اختلافًا كثيرًا حتى في صفات المسيح - عليه السلام - وأيام دَعْوَتِهِ ، ووقت الصلب بزعيمهم ، وفي نسبه أيضًا ، وهذا الاختلاف لا يُحتمل مثله^٣.

ومع هذا فعند كلٍّ من أصحاب مَرْقِيون وأصحاب ابن دِهْصَان إنجيلٌ يُخالف بعضه بعضًا^٤ هذه الأنجيل ، ولأصحاب ماني إنجيلٌ على حدة يُخالف ما عليه النَّصَارَى من أوَّله إلى آخِرِهِ ، ويَزْعُمُونَ أَنَّهُ هو الصحيح وما عداه باطل ، ولهم أيضًا إنجيلٌ يسمَّى إنجيل السبعين يُنسب إلى بلامس^٥ ، والنَّصَارَى وغيرهم يُنْكِرُونَهُ^٦.

وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت ، ولم يكن للقياس والرأي مدخل في تمييز حق ذلك من باطله ، افتتح الوقوف على حقيقة ذلك من قبيلهم ، ولم يُعَوَّل على شيء من أقوالهم فيه .

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاقي : تلامس .

الأربعة ورأي العلماء المسلمين فيها El² Anawati, G.C.,

.art. Indjil III, pp. 1235-38

^٤ نفسه ٢٣ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ١٥ .

^٢ قارن مع البيروني : الآثار الباقية ٢٠ - ٢١ .

^٣ البيروني : الآثار الباقية ١٢٢ وانظر عن الأنجيل

وأما غير أهل الكتاب ، فإنهم أيضًا مختلفون في ذلك . قال أثنيوس^٥ : بين خلق آدم وبين ليلة الجمعة أول الطوفان ألفا سنة ومائتا سنة وست وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يوما وأربع ساعات^١ .

وقال ما شاء الله - واسمه مِنشًا بن أثري^٢ - مُتَّعِمُ الْمُنْصُورِ وَالْمَأْمُونِ فِي كِتَابِ «الْقِرَانَاتِ» : أَوَّلُ قِرَانٍ وَقَعَ بَيْنَ رُحْلِ وَالْمَشْتَرِي فِي بَدْءِ التَّحْرُوكِ - يعني ابتداء النسل من آدم - كان على مُضَيِّ خَمْسِ مِائَةِ وَتِسْعِ سِنِينَ وَشَهْرَيْنِ وَأَرْبَعَةِ وَعَشْرِينَ يَوْمًا مَضَّتْ مِنْ أَلْفِ الْمَرْيَخِ ، فَوَقَعَ الْقِرَانُ فِي بُرْجِ الثُّورِ مِنَ الْمُثَلَّةِ الْأَرْضِيَّةِ عَلَى سَبْعِ دَرَجٍ وَالثَّيْنِ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً .

وكان انتقالُ الْحَمَرِّ مِنْ بُرْجِ الْمِيزَانِ وَمُثَلَّثَةِ الْهَوَائِيَّةِ إِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ وَمُثَلَّثَةِ الْمَائِيَّةِ ، بَعْدَ ذَلِكَ بِأَلْفِي سَنَةٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ وَالثَّيْنِ عَشْرَةِ سَنَةٍ وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَسِتَّةِ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَوَقَعَ الطُّوفَانُ فِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الثَّانِي مِنْ قِرَانَاتِ هَذِهِ الْمُثَلَّةِ الْمَائِيَّةِ .

وكان بَيْنَ وَقْتِ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ الْكَائِنِ فِي بَدْءِ التَّحْرُوكِ ، وَبَيْنَ الشَّهْرِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الطُّوفَانُ ، أَلْفَانِ وَأَرْبَعِ مِائَةِ وَثَلَاثَ وَعَشْرُونَ سَنَةً وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَاثْنَا عَشَرَ يَوْمًا .

قَالَ : وَفِي كُلِّ سَبْعَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَسِتِّينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرَ وَسِتَّةِ أَيَّامٍ ، يَرْجِعُ الْقِرَانُ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ بُرْجِ الثُّورِ الَّذِي كَانَ / فِي بَدْءِ التَّحْرُوكِ .

وَهَذَا الْقَوْلُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - هُوَ الَّذِي اشْتَبَهَ حَتَّى ظَنَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَلِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ . فَلَا تَغْتَرَّ بِهِ ، وَتَبَّهِ إِلَى أَصْلِهِ تَجْدَهُ أَوْهَى مِنْ يَتِّتِ الْعَتَكَبُوتُ ، فَاطْرَحْهُ .

(٥) الأصل : أثنيوس ، بولاقي : أسوس والمفتى من البيروني .

والأديان والملل» (راجع ابن النديم : الفهرست ١٣٣٣ صاعد الأندلسي : التبريد بطبقات الأمم ١٢٢٣ Kennedy, E.S. & D. Pingree, *The Astrological History of 'Mashā'allāh*, Cambridge, Massachusetts 1971
القشطي : تاريخ الحكماء ١٣٢٧ Pringree, D.,
Dictionary of Scientific Biography, N.Y. 1974, pp. 159-62; Sezgin, F., *GAS VII*, pp. 102-8; (Samsó, J., *El' art. Mashā'allāh VI*, pp. 699-700
وانظر فيما يلي ٧٧١ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢١ ، وأثنيسوس رلوي الخبير وصفه البيروني بأنه أحد أصحاب الأخبار .

^٢ ما شاء الله بن أثري (أو ساربه) فلكي يهودي أصله من البصرة ، وكان اسمه اليهودي مِنشًا (وكتبه ابن النديم والقشطي مِنشًى) ، اشتغل بعلم الفلك والنجوم في العراق منذ أيام أبي جعفر المنصور وحتى أيام المأمون (١٣٦-٢١٨هـ/ ٧٥٤-٨٣٣م) ولكن من المؤكد أنه كان موجودًا سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م . أورد له ابن النديم تسعة عشر مؤلفًا . واسم الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ هنا «كتاب في القِرَانَاتِ

وقيل : كان بين آدم وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسة وثلاثون سنة ، وقيل كانت بينهما مئدة ألفين ومائتين وست وخمسين سنة ، وقيل ألفان وثمانون سنة .

وأما تأريخ الطوفان فإنه يثلو تأريخ الحليقة ، وفيه من الاختلاف ما لا يُطَمَع في حقيقته ، من أجل الاختلاف فيما بين [تأريخ^٨] آدم وبينه ، وفيما بينه وبين تأريخ الإسكندر . فإن اليهود عندهم أن بين الطوفان وبين الإسكندر ألفا وسبع مائة واثنين وتسعين سنة ؛ وعند النصارى بينهما ألفا سنة وتسع مائة وثمانين وثلاثون سنة ؛ والفُرس وسائر الجُوس ، والكسديون^٩ أهل بابل ، والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ، يُذكرون الطوفان . وأقر بعضُ الفُرس ، لكنهم قالوا : لم يكن الطوفان بيسوى الشام والمغرب ، ولم يعمَّ الغمران كله ، ولا غرق إلا بعض الناس ، ولم يتجاوز عَقَبَةَ حُلوان ، ولا يَبْلُغَ إلى تَمَالِكِ المَشْرِق . قالوا : وَوَقَعَ في زَمَانِ طَهْمُورَث^{١٠} ، وأنَّ أهل المغرب لما أُنْذِرَ حكماؤهم بالطوفان ، واتَّخَذُوا المباني العظيمة ، كَالهَرَمَيْنِ بِمِصرَ ونحوهما ، لِيَتَّخِذُوا فِيهَا عِنْدَ مُحْدُوْرِهِ .

ولما بَلَغَ طَهْمُورَثُ الإِنْدَارَ بالطوفان ، قبل كَوْنُهُ بمائة وإحدى وثلاثين سنة ، أَمَرَ بِاخْتِيارِ مَوَاضِعَ في مَمْلَكَتِهِ صَحِيحَةِ الْهَوَاءِ وَالثَّرْبَةِ ، فَوَجَدَ ذَلِكَ بِأَصْبَهَانَ ، فَأَمَرَ بِتَجْلِيدِ الْعُلُومِ وَذَفْنِهَا فِيهَا فِي أَشْلَمِ الْمَوَاضِعِ . وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا وَجِدَ بَعْدَ الثَلَاثِ مِائَةِ مِنْ سِنِي الْهَجْرَةِ ، فِي حَيٍّ مِنْ مَدِينَةِ أَصْبَهَانَ ، مِنَ الثَّلَالِ الَّتِي انْشَقَّتْ عَنْ بُيُوتٍ مَمْلُوءَةٍ أَعْدَالًا عِدَّةً كَثِيرَةً ، قَدْ ثَلِيَتْ مِنْ لِحَاءِ الشَّجَرِ الَّتِي تُلْبَسُ بِهَا الْقَيْسِيَّةُ وَتُسَمَّى التُّوزَ ، مَكْتُوبَةً بِكِتَابَةِ لَمْ يَذَرِ أَحَدٌ مَا هِيَ^{١١} .

وأما الْمُتَجَمُّونَ فَإِنَّهُمْ صَحَّحُوا هَذِهِ السِّنِينَ مِنَ الْقِرَآنِ الْأَوَّلِ مِنْ قِرَآنَاتِ الْعُلُوَيْنِ رُحِّلَ وَالْمُشْتَرِي ، الَّتِي أَثَبَّتَ عُلَمَاءُ أَهْلِ بَابِلَ وَالْكِلْدَانِيِّينَ مِثْلَهَا إِذْ كَانَ الطُّوفَانُ ظُهُورَهُ مِنْ جِهَةِ^{١٢} نَاحِيَتِهِمْ ، فَإِنَّ السَّفِينَةَ اسْتَقَرَّتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَهُوَ غَيْرُ بَعِيدٍ مِنْ تِلْكَ التَّوَاخِي . قَالُوا : وَكَانَ هَذَا الْقِرَآنُ قَبْلَ الطُّوفَانِ بِمِائَتَيْنِ وَتِسْعٍ^{١٣} وَعِشْرِينَ سَنَةً وَمِائَةً وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ، وَاعْتَمَدُوا بِأَقْرَبِهَا وَصَحَّحُوا مَا بَعْدَهَا ، فَوَجَدُوا مَا بَيْنَ الطُّوفَانِ وَبَيْنَ أَوَّلِ مُلْكِ بُحْتِ نَصْرِ الْأَوَّلِ أَلْفِي سَنَةً وَسِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعِ سِنِينَ ، وَبَيْنَ بُحْتِ نَصْرِ هَذَا وَبَيْنَ الْإِسْكَندَرِ أَرْبَعِ مِائَةٍ وَسِتِّ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بَيِّنُ

(a) إضافة من البيروني . (b) بولاق : الكلدانيون . (c) بولاق : طهمورث . (d) ساقطة من بولاق .

أَبُو مَعْشَرٍ أَوْسَاطُ الْكَوَاكِبِ فِي زِيْجَةٍ ، وَقَالَ : كَانَ الطُّوفَانُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْكَوَاكِبِ فِي آخِرِ بُرْجِ الْحُوتِ وَأَوَّلِ بُرْجِ الْحَمَلِ ، وَكَانَ بَيْنَ وَقْتِ الطُّوفَانِ وَبَيْنَ تَأْرِخِ الْإِسْكََنْدَرِ قَدْرُ أَلْفِي سَنَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً مَكْبُوشَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ عَشْرِينَ يَوْمًا ^١ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِ الْخَمِيسِ أَوَّلِ الْحَرَمِ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ بَنِي الْهَجْرَةِ الثُّبُوتُ أَلْفُ أَلْفِ يَوْمٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفِ يَوْمٍ وَتِسْعَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفَ يَوْمٍ وَتِسْعَ مِائَةٍ يَوْمٍ وَثَلَاثَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا ، يَكُونُ مِنَ السَّنَةِ الْفَارِيسِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ سَنَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ سَنَةٍ وَخَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثَ مِائَةٍ يَوْمٍ وَثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَعِنْدَ أَبِي مَعْشَرٍ أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ . وَلَمَّا تَقَرَّرَ عِنْدَهُ الْجُمْلَةُ الْمَذْكُورَةُ ، وَخَرَجَتْ لَهُ الْمُدَّةُ الَّتِي تُسَمَّى أَذْوَارَ الْكَوَاكِبِ - وَهِيَ يَزْعِمُهُمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفِ وَسِتُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَأَوَّلُهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى وَقْتِ الطُّوفَانِ بِمِائَةِ أَلْفِ وَثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ - حَكَمَ بِأَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ فِي مِائَةِ أَلْفِ وَثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَسَيَكُونُ فِيمَا بَعْدَ كَذَلِكَ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِحُجَّةٍ ، أَوْ مِنْ مَقْصُومٍ ^٢ .

وَأَمَّا تَأْرِخُ بُخْتِ نَصْرِ فَإِنَّهُ عَلَى سِنِي الْقَيْطِ وَعَلَيْهِ يَعْمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ [السَّيَّارَةِ] ^٣ مِنْ كِتَابِ الْجَيْسُطِيِّ ، ثُمَّ أَذْوَارَ فَالْلِبْسِ ^٤ ، وَأَوَّلَ أَذْوَارِهِ فِي سَنَةِ ثَمَانِيَةِ عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ لَبُخْتِ نَصْرِ ، وَكُلُّ دَوْرٍ مِنْهَا سِتٌّ وَسَبْعُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ^٥ . وَكَانَ فَالْلِبْسُ مِنْ لُجْلَةٍ أَصْحَابِ الْقَعَالِيمِ .

وَبُخْتِ نَصْرِ هَذَا لَيْسَ هُوَ الَّذِي عَرَّبَ يَسْتِ الْمَقْدَسِ ، وَإِنَّمَا هُوَ آخِرُ مَا كَانَ قَبْلَ بُخْتِ نَصْرِ مُخَرَّبِ يَسْتِ الْمَقْدَسِ بِمِائَةِ وَثَلَاثِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَهُوَ اسْمٌ فَارِسِيٌّ أَصْلُهُ «بُخْتِ نَرْسِي» وَمَعْنَاهُ : كَثِيرُ الْبُكَاءِ وَالْأَنِينِ ، وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِزْرَانِيَّةِ : نَصَار ، وَقِيلَ تَقْسِيرُهُ عَطَارِد ، وَهُوَ يُنْطَلَقُ وَكَذَلِكَ لَتَحْتَنَهُ ^٦ عَلَى الْحِكْمَةِ وَتَغْرِيبِ أَهْلِهَا ، ثُمَّ عَرَّبَ فَقِيلَ بُخْتِ نَصْرِ ^٧ .

وَأَمَّا تَأْرِخُ فِيلِبَشَ فَإِنَّهُ عَلَى سِنِي الْقَيْطِ ، وَكَثِيرًا مَا يُسْتَقْتَمَلُ هَذَا التَّأْرِخُ مِنْ مَوْتِ الْإِسْكََنْدَرِ الْبَيْتَاءِ الْمَقْدُونِيِّ ، وَكَلَا الْأَمْرَيْنِ سَوَاءً ، فَإِنَّ الْقَائِمَ بَعْدَ الْبَيْتَاءِ هُوَ فِيلِبَشُ ، فَسَوَاءٌ كَانَ مِنْ مَوْتِ الْأَوَّلِ

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : فاللبس . (c) في بولاق : لنحيه .

^٣ نفسه ٢٧ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢٤-٢٥ .

^٤ نفسه ٢٧ .

^٢ نفسه ٢٥-٢٦ .

أو من قيام الآخر، فإن الحالة المؤرخة هي كالفصل المشترك بينهما، وفيلبس هذا هو أبو الإسكندر المقدوني. ويُعرف هذا التاريخ بتاريخ الإسكندرانيين وعليه بنى ثاون الإسكندراني في زيجه^٥ المعروف بالقانون^١.

وأما تاريخ الإسكندر فإنه على سني الروم، وعليه يعتمد أكثر الأمم إلى وقتنا هذا، من أهل الشام وأهل بلاد الروم وأهل المغرب والأندلس والفرنج واليهود، وقد تقدم الكلام عليه عند ذكر الإسكندرية من هذا الكتاب^٢.

وأما / تاريخ أغسطس فإنه لا يُعرف اليوم أحد يستعمله، وأغسطس هذا هو أول القيصرية، ومعنى قيصِر بالرومية: شق عنه، فإن أغسطس هذا لما حملت به أمه مائت في الخاض، فشق بطنها حتى أخرج منه، ف قيل قيصِر، وبه يلقب من بعده من ملوك الروم. ويُزعم الثماري أن المسيح - عليه السلام - وُلِدَ لأربعين سنة من ملكه، وفي هذا القول نظر، فإنه لا يصح عند سبابة السنين والتواريخ، بل يجيء بتعديل ولادته عليه السلام في السنة السابعة عشر من ملكه^٣.

وأما تاريخ أنطونيوس فإن بطلانيوس صَحَّح الكواكب الثابتة في كتابه المعروف بالمجسطي لأول ملكه على الروم، وسُو هذا التاريخ رومية^٤.

ذكر تاريخ القبط

اعلم أن السنة الشمسية عبارة عن عود الشمس في فلَك البروج إذ تحركت على خلاف حركة الكل، إلى أي نقطة فرست ابتداء حركتها، وذلك أنها تستوفي الأربعة الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء، وتحور طبائعها الأربع، وتنتهي إلى حيث بدأت [منه]^٥.

وفي هذه المدة تستوفي القمر اثني عشرة عودة وأقل من نصف عودة، ويستهل اثني عشرة مرة، فجمعلت المدة التي فيها عودات القمر اثنتا عشرة في فلَك البروج سنة للقمر على جهة

(a) بولاي : تاريخه . (b) زيادة من البيروني .

^٤ نفسه ٢٩ .

^٥ نفسه ٩ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢٨ .

^٢ نفسه ٢٨ وفيما تقدم ٤١٩ - ٤١٤ .

^٣ نفسه ٢٩ .

الاضططلاح، وأُسْقِطَ الكَشمَر الذي هو أحد عشر يوماً بالتقريب، فصارت السنة على قسمين: سنة شعبية، وسنة قمرية^١.

وجميع من على وجه الأرض من الأمم، أخذوا تواريخ بينهم من مسير الشمس والقمر: فالآخذون بسير الشمس خمس أمم، هم اليونانيون والشرمانيون والقبط والروم والفرس. والآخذون بسير القمر خمس أمم، هم الهند والعرب واليهود والنصارى والمسلمون^٢.

فأهل قسطنطينية والإسكندرية وسائر الروم والشونانيون والكلدانيون وأهل مصر ومن يعمل برأي المعتضد، أخذوا بالسنة الشمسية التي هي ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم بالتقريب، وصيروا السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً، وألحقوا الأرباع بها في كل أربع سنين يوماً حتى انجبرت السنة، وسَمُّوا تلك السنة كبيسة لانكباس الأرباع فيها.

وأما قبط مصر القدماء فإنهم كانوا يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة، وذلك في كل ألف وأربع مائة وستين سنة، ثم يكبسونها سنة واحدة، ويتفقون حينئذ في أول تلك السنة مع أهل الإسكندرية وقسطنطينية^٣.

وأما الفرس فإنهم جعلوا السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً من غير كبس، حتى اجتمع لهم من ربع اليوم - في مائة وعشرين سنة - أيام شهر تام، ومن خمس الساعة - الذي يتبع ربع اليوم عندهم - يوم واحد، فألحقوا الشهر التام بها في كل مائة وست عشرة سنة. وافترق أثرهم في هذا أهل خوارزم القدماء والصغد ومن دان بدين فارس^٤.

وكانت الملوك البيشنادية منهم - وهم الذين ملكوا الدنيا بخداييرها - يفتلون السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً، كل شهر منها ثلاثون يوماً سواء، وكانوا يكبسونها السنة كل ست سنين يوماً ويسمونها كبيسة، وكل مائة وعشرين سنة بشهرين: أخذهما بسبب الخمسة الأيام، والثاني بسبب ربع اليوم. وكانوا يحفظون تلك السنة ويسمونها المباركة^٥.

^١ الهرودي: الآثار الباقية ١٠.

الإسكندراني.

^٢ هذه الفقرة من كلام المقريري.

^٤ نفسه ١٠-١١.

^٣ الهرودي: الآثار الباقية ١٠ نقلاً عن زيج تائون

^٥ نفسه ١١.

وأما قَدَماء القَبْط وأهل فارس في الإسلام وأهل خُوارزَم والصُّغْد^(a)، فتركوا الكُشُور، أغني
الربيع وما يتبعه أصلاً^١.

وأما البيروانيون وجميع بني إسرائيل والصَّاهِبُون والحَرَّانِيُّونَ، فإنَّهم أخذوا السَّنة من مسير
الشَّمْس وشهورها من مسير القَمَر، لتكون أعيادهم وصيائهم على حساب قَترَي، وتكون مع
ذلك حَافِظَةً لأوقاتها من السَّنة، فكَبَسُوا كُلَّ تِسْعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ قَمَرِيَّةً بِسَبْعَةِ^(b) أَشْهُرٍ. ووافَقَهُم
النَّصَارَى في صَوْمِهِمْ وبعض أعيادهم، لأنَّ مَدَارَ أَمْرِهِمْ على فَضْحِ الْيَهُود، وخالفُوهم في الشُّهُور
إلى مَذْهَبِ الرُّومِ والشَّرْيانِيِّينَ^٢.

وكانت العَرَبُ في جاهليتها^(c) تَنْظُرُ إلى فَضْلِ ما بين سَنَتِهِمْ وَسَنَةِ الْقَمَرِ، وهو عشرة أيام
وَإِحدى وَعِشْرُونَ سَاعَةً وَخُمْسُ سَاعَةٍ، فيُلْجِقُونَ ذلك بِهَا شَهْرًا كُلَّمَا تَمَّ مِنْهَا ما يَشْتَوِي أَيَّامَ
شَهْرٍ، وَلَكِنَّهُمْ كانوا يَعمَلُونَ على أَنَّهُ عَشْرَةُ أَيَّامٍ وَعِشْرُونَ سَاعَةً، وكان يَتَوَلَّى ذلك النِّسَاءُ من
بني كِنَانَةَ المَعْرُوفُونَ بِالْقَلَامِيسِ - وإِجْدُهُمْ قَلْبُوسٌ، وهو البَحْرُ الْغَزِيرُ - وهم^(d) أَبُو ثُمَامَةَ جُنَادَةَ بن
عَوْفِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ قَلْعٍ [بن عُبَادِ بْنِ قَلْعٍ بن حُذَيْفَةَ] وكانوا كلهم نِسَاءً^(e)؛ وَأَوَّلُ من فَعَلَ ذلك مِنْهُمْ
حُذَيْفَةُ بْنُ عَبْدِ قُفَيْمٍ، وأخِرُ من فَعَلَهُ أَبُو ثُمَامَةَ^٣.

وَأَخَذَ الْعَرَبُ الْكَبْسَ من الْيَهُود قَبْلَ مَجِيءِ دِينِ الْإِسْلَامِ بَنَحْوِ الْمِائَتِي سَنَةٍ، وكانوا يَكْبِسُونَ في
كُلِّ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، حَتَّى تَبْقَى أَشْهُرُ السَّنةِ ثَابِتَةً مَعَ الْأَزْمِنَةِ على حَالَةٍ وَاجِدَةٍ، لَا
تَتَأَخَّرُ عَنْ أَوقَاتِهَا وَلَا تَتَقَدَّمُ؛ إِلَى أَنْ حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [حُجَّةَ الْوَدَاعِ]^(e)، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا عَاتَا وَيُحَرِّمُونَ عَمَّا لَبَّيْطُوا
عِدَّةً / مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُنُّوا لَهُمْ شَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾
[الآيَةُ ٣٧ سورة التَّوْبَةِ]، فَخَطَبَ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّ الزُّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمْعَوَاتِ
وَالْأَرْضَ، فَبَطَلَ النَّسِيءُ، وَزَالَتْ شُهُورُ الْعَرَبِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَصَارَتْ أَشْهُارُهَا غَيْرَ دَالَّةٍ
عَلَى مَعَانِيهَا^٤.

(a) بولاق : الصغد . (b) بولاق : ستة . (c) بولاق : جهاتها . (d) بولاق : وهو . (e) زيادة من البيروني .

^١ البيروني : الآثار الباقية ١١ نقلًا عن كتاب المجسطي .

^٢ نفسه ١١-١٢ .

^٣ نفسه ١٢ ، وفيما يلي ٧٦٦-٧٦٨ .

^٤ نفسه ١١ .

وأما أهل الهند، فإنهم يستعملون رؤية الأهلة في شهورهم، ويكسبون كل تسع مائة سنة وستة^(٥) وسبعين يوماً بشهر قمري، ويجمعون ابتداء تاريخهم اتفاق اجتماع في أول دقيقة من بزج ما، وأكثر طلبهم لهذا الاجتماع أن يتحقق في إحدى نقطتي الاعتدالين، ويسمون السنة الكبيسة بدماسة^(٦) ١.

فهذه آراء الخليفة في السنة.

وأما اليوم فإنه عبارة عن عود الشمس بدوران الكل إلى دائرة قد قرّضت. وقد اختلف فيه: فجعله العرب من غروب الشمس إلى غروبها من الغد. ومن أجل أن شهور العرب متبينة على مسير القمر، وأوائلها مقيسة برؤية الهلال - والهلال يرى لدن غروب الشمس - صارت الليلة عندهم قبل النهار^٢.

- ١٠ وعند الفرس والروم اليوم بليته من طلوع الشمس بارزة من أفق المشرق إلى وقت طلوعها من الغد، فصارت النهار عندهم قبل الليل. واحتجوا على قولهم بأن الثور وجود والظلمة عدم، والحركة تغلب على الشكون، لأنها وجود لا عدم وحياة لا موت، والسماء أفضل من الأرض، والعايل الشاب أصح، والماء الجاري لا يقبل عفونة كالواكد^٣.

- واحتج الآخرون بأن الظلمة أقدم من الثور والثور طارئ عليها فالأقدم يبدأ به، وغلبوا الشكون على الحركة بإضافة الراحة والدعة إليه، وقالوا: الحركة إنما هي الحاجة، والضرورة والتعب تنتجها الحركة، والشكون إذا دام في الاستقصاءات مدة لم يؤد فساداً، فإذا دامت الحركة في الاستقصاءات واشتخكت أفسدت، وذلك كالزلازل والعواصف والأمواج وشبهها^٤.

- ١٥ وعند أصحاب التنجيم أن اليوم بليته من موافاة الشمس فلک نصف النهار إلى موافاتها إياه في الغد، وذلك من وقت الظهر إلى وقت العصر، وبنوا على ذلك حساب أزياجهم. ويقضهم ابتداء باليوم من نصف الليل، وهو صاحب زيج شهر ياران الشاه^(٥) ٥، وهذا هو حد اليوم على الإطلاقي^٦.

(٥) ماقطة من بولاق. (٦) بولاق: بدمات. (٧) بولاق: شهر ياران شاه.

^٤ نفسه ٦ وورد فيه هذا الخبر سابقاً على الخبر المتقدم.

^٥ راجع عن زيج شهر ياران الشاه، نلتو: علم الفلك

تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ١٨٣-١٨٦.

^١ البيروني: الآثار الباقية ١٢-١٣.

^٢ نفسه ٥.

^٣ نفسه ٦.

إذا اشترط الليلة في التركيب . فأما على التفصيل : فالיום بانفراذه والنهار بمعنى واحد ، وهو من طلوع جزم الشمس إلى غروب جزمها ، والليل خلاف ذلك وعكسه ^١ .

وخذ بعضهم أول النهار بطلوع الفجر ، وآخره بغروب الشمس ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبْيُنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ الآية ١٨٧ سورة البقرة ، وقال : هذان الحدان هما طرفا النهار . وغورض بأن الآية إنما فيها بيان طرفي الصوم لا تعريف أول النهار ، وبأن الشفق ، من جهة المغرب نظير الفجر من جهة المشرق ، وهما متساويان في العلة ، فلو كان طلوع الفجر أول النهار لكان غروب الشفق آخره ، وقد أقرم ذلك بعض الشيعة ^٢ .

فإذا تقرر ذلك فنقول : تأريخ القبط يُعرف عند نصارى مصر الآن بتأريخ الشهداء ، ويُسميه بعضهم تأريخ دقليطيانوس ^٣ .

ذكر دقلديانوس ^(٤) الذي يُعرف تأريخ القبط به ^٢ - أعلم أن دقلديانوس ^(٥) [Diocletianus] هذا أخذ ملوك الروم المعروفين بالقيصرية ، ملك في منتصف سنة خمس وتسعين وخمسة مائة من سني الإسكندرية ^٤ . وكان من غير بيت الملك ، فلما ملك قَجَر ، وامتدَّ ملكه إلى مدائن الأكاسرة ومدينة بابل ، فاستخلف ابنه على مملكة رومة ، واتخذ تحت ملكه بمدينة أنطاكية ، وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر إلى أقصى المغرب .

فلما كان في السنة التاسعة عشر من ملكه ، وقيل الثانية عشرة ، خالف عليه أهل مصر والإسكندرية ، فبعث إليهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا ، وأوقع بالنصارى ، فاستباح دماغهم ، وعلق كنائسهم ، ومنع من دين النصارى ، وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ في الإشراف في قتل النصارى .

(٥) كلنا في الأصل وبولاق ولكنه صوب رسم الكلمة فيما يلي في الأصل إلى دقلديانوس ودقلديانوس . (b) بولاق : دقلطيانوس .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٦ ، ٧ .

المقريزي ٢٥٥-٢٥٧ .

^٢ نفسه ٧ ، ٨ .

^٣ راجع حول ترجمة الإمبراطور دقلديانوس (٢٤٥-٢٤٥) .

^٤ نشر عبد الجهد دباب هذا الفصل في كتابه ^٣ Friend, W. H., *CE art. Diocletian* 3, pp. ٣١٣ ، ٣١٤ .

تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة 904-8 وما ذكر من مراجع .

وأقام ملكاً إحدى وعشرين سنة ، وهلك بعد عِلِّي صَغْبَة دَوْدَ منها بَدَنُه ، وسَقَطَت أَسْنَانُه . وهو آخِر من عَجَد الْأَصْنَام من مُلُوك الرُّوم^١ ، وكلّ من مَلَكَ بعده فإِذَا كَانَ عَلَى دِين النَّصْرَانِيَّة ، فَإِنَّ الَّذِي مَلَكَ بعده ابْنُه سَنَة وَاحِدَة ، وَقِيلَ أَكْثَر من ذَلِكَ . ثُمَّ مَلَكَ قُسْطَنْطِين الْأَكْبَر ، فَأَظْهَرَ دِينَ النَّصْرَانِيَّة وَنَشَرَه فِي الْأَرْض^٢ .

- وَيُقَالُ إِنَّ رَجُلًا نَازَ بِمَصْر يُقَالُ لَهُ «أَجَلَة» [Achilleus] ، وَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الرُّوم ، فَسَارَ إِلَيْهِ دِقْلَدِيَانُوس وَحَصَرَ الْإِسْكَنْدَرِيَّة - دَارَ الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ - ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى أَخَذَ أَجَلَه وَقَتْلَهُ ، وَعَمَّ أَرْضَ مَصْرَ كُلَّهَا بِالسَّيْفِ وَالْقَتْلِ^٣ .

وَبَعَثَ قَائِدَة فَحَازَتْ سَائِرَ مَلِكِ فَارِس ، وَقَتَلَ أَكْثَرَ عَسَاكِرِه ، وَهَزَمَهُ وَأَسْرَ امْرَأَتَهُ وَإِخْوَتَهُ ، وَأَتَّخَنَ فِي بِلَادِهِ ، وَعَادَ بِأَسْرَى كَثِيرَةٍ مِنْ رِجَالِ فَارِس ، ثُمَّ أَوْقَعَ بِعَائِثَةِ بِلَادِ رُومَة فَأَكْرَهَ فِي قَتْلِهِمْ وَسَبْيِهِمْ ، فَكَانَتْ أَيَّامُهُ شَيْعَة ، قَتَلَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْأُمَمِ ، وَهَدَمَ مِنْ بُيُوتِ الْعِبَادَاتِ مَا لَا يَدْخُلُ ١٠ تَحْتَ حَصَرٍ .

وَكَانَتْ وَاقِعَتُهُ بِالنَّصَارَى / هِيَ السَّنَة الْعَاشِرَة ، وَهِيَ أَشْنَعُ شِدَائِدِهِمْ وَأَطْوَلُهَا ، لِأَنَّهَا دَامَتْ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ ، لَا يُغْتَرُ يَوْمًا وَاحِدًا يَخْرُقُ فِيهَا كَنَائِسُهُمْ ، وَيُعَذِّبُ رِجَالَهُمْ ، وَيَطْلُبُ مِنْ أَشْتَرِّ مِنْهُمْ أَوْ هَرَبَ لِيُقْتَلَ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ قَطْعَ أَثَرِ النَّصَارَى وَإِبْطَالِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنَ الْأَرْضِ ، ١٥ فَلِهَذَا اتَّخَذُوا ابْتِدَاءَ مُلْكِ دِقْلَدِيَانُوس تَأْرِيخًا .

وَكَانَ ابْتِدَاءُ مُلْكِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَيْنَ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ ثَوْتٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ أَيَّامِ مُلْكِ الْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلِبُّشِ الْمَقْدُونِيِّ ، خَمْسَ مِائَةِ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً وَأَخَذَ عَشْرَ شَهْرًا وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَبَيْنَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ تَأْرِيخِ دِقْلَدِيَانُوس ، وَبَيْنَ يَوْمِ الْخَمِيسِ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ سَنَةِ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ٢٠ ثَلَاثَ مِائَةِ وَثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ سَنَةً قَمَرِيَّةً وَتِسْعَةَ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا .

وَجَعَلُوا شَهْرَ السَّنَةِ الْقَبْطِيَّةِ الَّتِي عَشْرَ شَهْرًا ، كُلَّ شَهْرٍ مِنْهَا عَدَدَهُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا سَوَاءً . فَإِذَا تَمَّتِ الْأَشْهُرُ الْاِثْنَا عَشَرَ ، أَتَبَّعُوهَا بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ زِيَادَةً عَلَى عَدَدِ أَيَّامِهَا ، وَسَمَوْا هَذِهِ الْخَمْسَةَ الْأَيَّامَ أَبُو عَفْنَا ، وَتُعْرَفُ الْيَوْمَ بِأَيَّامِ النَّسِيءِ^٤ .

^١ أورويسوس : تاريخ العالم ٤٠٠ . وانظر The Coptic Encyclopedia I, pp. 55-56 .

^٢ البيروني : الآثار الباقية ٢٩ ، وقارن ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ٧٧ - ٧٨ .

^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩٩ .

^٤ انظر فيما يلي ٧٢١ .

فيكون الحال في النسيء على ذلك ثلاث سنين متواليات ، فإذا كان في السنة الرابعة جعلوا النسيء ستة أيام ، فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليات كل سنة ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ، والرابعة يصير عددها ثلاث مائة وستة وستين يوماً .

ويُجمع محكم سنتهم إلى محكم سنة اليونانيين ، بأن قصير سنتهم الوسطى ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم ، إلا أن الكبس يختلف فإذا كان كبس القبط في سنة ، كان كبس اليونانيين في السنة الداجلة .

وأسماء شهور القبط - ثوت ، باته ، هاتور ، كيهك ، طوبة ، أمشير ، برمهات ، برمودة ، بشنس ، بؤونة ، أبيب ، مشري^١ . فهذه اثنا عشر شهراً ، كل شهر منها عدده ثلاثون يوماً ، وإذا كانت عددة شهر مشري ، وهو الشهر الثاني عشر ، زادوا أيام النسيء بعد ذلك ، وعملوا التزوز أول يوم من شهر ثوت^٢ .

ذكر أسابيع الأيام

اعلم أن القدماء من الفرس والصغد^٣ وقبط مصر الأول لم يكونوا يستعملون الأسابيع من الأيام في الشهور ، وأول من استعملها أهل الجانب الغربي من الأرض ، لا سيما أهل الشام وما حواله ، من أجل ظهور الأنبياء عليهم السلام فيما هنالك ، وإخبارهم عن الأسبوع الأول وبدء العالم فيه ، وأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام من الأسبوع .

ثم انتشر ذلك منهم في سائر الأمم ، واستعملته العرب العاربة بسبب تجاور ديارهم وديار أهل الشام ، فإتاهم كانوا قبل تحويلهم إلى التين يابل ، وعندهم أخبار نوح عليه السلام ، ثم بعث الله تعالى إليهم هوداً ثم صالحاً عليهما السلام ، وأنزل فيهم إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل عليهما السلام ، فتعربت إسماعيل .

وكانت القبط الأول تستعمل أسماء الأيام الثلاثين من كل شهر ، فتجعل لكل يوم منها اسماً كما هو العقل في تاريخ الفرس ؛ وما زالت القبط على هذا إلى أن ملك مضر أغسطس بن يوجس ، فأراد أن يحولهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبداً فيها ، فوجدوا الباقي حينئذ إلى

(٣) بولاق : الصغد .

^٢ انظر فيما يلي ٧٣٠ .

^١ انظر فيما يلي ٧٣٠ - ٧٣٩ .

تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين ، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين ، ثم حملهم على كبس الشهور في كل أربع سنين يوم كما تفعل الروم . فترك القبط من حيث اشتغال أسماء الأيام الثلاثين لاختياجهم في يوم الكبس إلى اسم يخصه^١ ، وانقرض بعد ذلك مستعملو أسماء الأيام الثلاثين من أهل مصر والعارفون بها ، ولم يبق لها ذكر يُعرف في العالم بين الناس ، بل دُثِرَت كما دُثِرَ غيرها من أسماء الرسوم القديمة والعادات الأول ، شئت الله في الذين خلوا من قبل .

وكانت أسماء شهور القبط في الزمن القديم : ثوت ، باؤني^٢ ، أثور ، شواقي^٣ ، طوبى ، ماكير ، فايثوث ، بزموثي ، ناخون ، باوني ، أفيفي ، أبيقا ، وكل شهر منها ثلاثون يوماً ، ولكل يوم اسم يخصه . ثم أخذت بعض رؤساء القبط ، بعد استعمالهم الكبس ، الأسماء التي هي اليوم متداولة بين الناس بمصر ؛ إلا أن من الناس من يُسمي كيهك كيكاك ، ويقول في بزمتهات بزمهوط ، وفي بَشَنَس بَشَنَس ، وفي مِشَرى ماسوري .

ومن الناس من يُسمي الخمسة الأيام الزائدة أيام النسيء ، ومنهم من يُسميها أبو غَغْنَا^٤ ، ومعنى ذلك : الشهر الصغير ، وهي كما تقدم فُلِحَق في آخر مِشَرى ، وفيه يُزاد اليوم الكبس ، فيكون أبو غَغْنَا^٥ ستة أيام حيثيذ ، ويُسمعون السنة الكبيسة الثقط ، ومعناه القلامة^٦ .

ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور بني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم ، وأنها لم تزل على ذلك إلى أن خرج نوح من مصر ، فقبلوا أول سنتهم خامس عشر نيسان كما أبروا به في الثوراة ، إلى أن نقل الإسكندر رأس سنتهم إلى أول تشرين .

وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم إلى أول يوم من ملكه ، فصار أول ثوت عندهم يتقدم أول يوم / خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام ، أولها يوم الثلاثاء وآخرها يوم السبت . وكان ثوت أوله في ذلك الوقت يوم الأحد ، وهو أول يوم خلق الله فيه العالم ، الذي يقال له الآن تاسع عشري بزمتهات .

(a) بولاق : بؤوني . (b) بولاق : شوال . (c) بولاق : أبو غغنا .

^١ مصدر هذه المعلومات البيروني : الآثار الباقية ^٢ نفسه ٤٩ - ٥٠ .

وذلك أنَّ أَوَّلَ مَنْ مَلَكَ عَلَى الْأَرْضِ ، بَعْدَ الطُّوفَانِ ، نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ ، فَفَعَّرَ
بَابِلَ ، وَهُوَ أَبُو الْبِلْدَانِيِّينَ . وَمَلَكَ بَنُو مِصْرَيمَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَقْتَسِمًا^(٩) ، فَهَبَى
بِمِصْرَ مَثْفَ عَلَى النَّيْلِ ، وَسَمَّاهَا بِاسْمِ جَدِّهِ مِصْرَايِمَ ، وَهُوَ ثَانِي مَلِكٍ مَلَكَ عَلَى الْأَرْضِ . وَهَذَانِ
الْمَلِكَانِ اسْتَعْمَلَا تَأْرِيخَ جَدَّهِمَا نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَاسْتَقْبَلَا بِسُتُنْهُمْ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ حَتَّى تَغَيَّرَتْ
كَمَا تَقْدَمُ .

ذِكْرُ أَعْيَادِ الْقِبْطِ مِنَ النَّصَارَى بِدِيَارِ مِصْرَ

رَوَى ابْنُ يُوْنُسَ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : اجْتَمَعُوا عِيدَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ الشَّعْطَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فِي مَجَامِعِهِمْ ، وَلَا تَعْمَلُوا رِطَائِهِمْ فَتُخْلَقُوا بَعْضُ
خُلُقِهِمْ .

^(١٠) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾
[الآية ٧٢ سورة الرِّفَاق] قَالَ : أَعْيَادُ الْمُشْرِكِينَ ؛ فَقِيلَ لَهُ : أَوْ مَا هَذَا فِي الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ ؟ فَقَالَ : لَا ، إِنَّمَا
آيَةُ شَهَادَةِ الزُّورِ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الشُّعْطَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا﴾ [الآية ٣٦ سورة الإسْرَاءِ] .

اعْلَمْ أَنَّ نَصَارَى مِصْرَ مِنَ الْقِبْطِ يَنْتَحِلُونَ مَذْهَبَ الْيَقُونِيَّةِ كَمَا تَقْدَمُ ذِكْرُهُ ؛ وَأَعْيَادُهُمُ الْآنَ ،
الَّتِي هِيَ مَشْهُورَةٌ بِدِيَارِ مِصْرَ ، أَرْبَعَةٌ عَشَرَ عِيدًا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ سِنِيهِمُ الْقِبْطِيَّةِ : مِنْهَا سَبْعَةٌ أَعْيَادُ
يُسَمُّونَهَا أَعْيَادًا كِبَارًا ، وَسَبْعَةٌ يُسَمُّونَهَا أَعْيَادًا صِغَارًا .

فَالْأَعْيَادُ الْكِبَارُ عِنْدَهُمْ : عِيدُ الْبِشَارَةِ ، وَعِيدُ الرَّيْثُونَةِ ، وَعِيدُ الْفِصْحِ ، وَعِيدُ خَمِيسِ الْأَرْبَعِينَ ،
وَعِيدُ الْخَمْسِينَ^(١١) ، وَعِيدُ الْمِيلَادِ ، وَعِيدُ الْفِطَاسِ .

وَالْأَعْيَادُ الصِّغَارُ : عِيدُ الْحَيَّانِ ، وَعِيدُ الْأَرْبَعِينَ ، وَخَمِيسُ الْعَهْدِ ، وَسَبْتُ الثَّوَرِ ، وَأَحَدُ
الْحَدُودِ ، وَالتَّجَلِّي ، وَعِيدُ الصَّلِيبِ .

(a) بولاق : مثنى . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من نسخة ط . (c) في جميع النسخ : عيد الخميس .

^١ للعلامة المقرئزي ، ٢٣١-٢٥٠ ، وهو موجود في الكراسة
التي بخط المقرئزي والمحفوظة في مكتبة Liège وفي نسخة
الظاهرية (ظ) المنقولة عن مسودة المقرئزي .

نشر هذا الفصل ونقله إلى الفرنسية جريغو بعنوان
Griveau, «Les fetes des Coptes par al-Maqrizî»,
Part. Or. X (1915), pp. 313-43 كما نشره عبد المجيد
دياب في كتاب «تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي

ولهم مواسم آخر ليست هي عندهم من الأعياد الشرعية، لكنّها عندهم من المواسم العادية، وهو يومُ النوروز.

وسأذكر من خبر هذه الأعياد ما لا تجده مجموعاً في غير هذا الكتاب، على ما استخرجته من كُتب النصارى وتواريخ أهل الإسلام^١.

- عيد البشارة - هذا العيد عند النصارى، أضله إشارة جبريل مريم ببلاد المسيح - عليهما السلام - وهم يُسمّون جبريل غبريال، ويقولون مارت مريم، ويُسمّون المسيح ياشوع، وربما قالوا السيد يشوع. وهذا العيد تعمله نصارى مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات^٢.
- عيد الزئفونة - ويُعرف عندهم بعيد الشعانين، ومقناه التشنيع، ويكون في سابع أحيان من صومهم. وسمّتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا بسقف^٣ النخل من الكنيسة، ويرون أنه يوم ركوب المسيح اليففور^٤ (وهو الحمار) في القدس ودُخله إلى صهيون وهو زاكب، والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف، ويبحث على عمل الخير، وينهى عن المنكر ويأبى عنه^٥.
- وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التي تزين فيها كنائسهم. فلما كان لعشر خلون من شهر رجب سنة ثمان وتسعين^٦ وثلاث مائة، كان عيد الشعانين، ففتح الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز بالله، النصارى من تزيين كنائسهم وحملهم الخوص على ما كانت عاداتهم، وقبض على عدة ممن وجد معه شيئا من ذلك، وأمر بالقبض على ما هو مُحْبَس على الكنائس من الأتلاك، وأدخلها في الديوان، وكتب لسائر الأعمال بذلك، وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع القتيق بمصر^٧ والشرطة^٨.

عيد الفصح^٩ - هذا العيد عندهم هو العيد الكبير، ويؤمنون أن المسيح - عليه السلام - لما تملاً اليهود عليه، واجتمعوا على تضليله وقتله، قبضوا عليه وأحضروه إلى خشبة ليصلب عليها،

(a) بولاق : سنف . (b) بولاق : العفر . (c) بولاق : سبعين . (d) ساقطة من بولاق . (e) الأصل وبولاق وظ : الفصح .

^١ اعتمد المقرئ في ذكره أعياد القبط ربما على أوتخيوس Butychius أو المكين بن العصيد، وهي تقريباً نفس المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي عند ذكره لأعياد القبط في مصر وإن لم يُصرّح كلّ منهما بمصدره (صبح الأعشى ٤٢٥:٢). وأورد المقرئ ذكر أعياد

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٤٢٥:٢.

^٣ نفسه ٤٢٥:٢.

^٤ المقرئ : اتعاط الحنفا ٧١:٢.

فصُلِبَ على خَشَبَةٍ عليها لَصَان . وعندنا - وهو الحق - أَنَّ الله تعالى رَفَعَهُ إليه ، ولم يُصَلَّب ولم يُقَتَّل ، وَأَنَّ الذي صُلِبَ على الخَشَبَةِ مع اللُّصُور ، غير المسيح أَلْقَى الله عليه سَبَّهُ الْمَسِيح ^١ .

قالوا : واقتَسَم الجُنْدُ ثِيَابَهُ ، وَغَشِيَ الْأَرْضَ ظُلْمَةٌ من السَّاعَةِ السَّادِسَةِ من النَّهَارِ إلى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ من يوم الجُمُعَةِ خَامِسَ عَشَرَ هِلَالِ نَيْسَانَ لِلْعَبْرَانِيِّينَ ، وَتَاسِعَ عَشْرِي بَرْمَهَات ، وَخَامِسَ عَشْرِي آذَارَ سَنَةِ [٥٧٠٣ قمرية] ^(أ) .

وَذُفِنَ الشَّيْبَةُ فِي ^(ب) آخِرِ النَّهَارِ بِقَبْرِ ، وَأُطْلِقَ عليه حَجَرٌ عَظِيمٌ ، وَخَتَمَ عليه رُؤُسَاءُ الْيَهُودِ ، وَأَقَامُوا عليه الْحَرَسَ بِأَكْبَرِ يَوْمِ السَّبْتِ كَيْلًا يُشْرِقُ . فَرَعَمُوا أَنَّ الْمَقْبُورَ قَامَ من الْقَبْرِ لَيْلَةَ الْأَخْدِ سَحَرًا ، وَمَضَى بِطُرُسَ وَيُوحَنَّا التَّلْمِيذَانِ إِلَى الْقَبْرِ ، وَإِذَا الثَّيَابُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْمَقْبُورِ قَطْعًا ^(ج) بَغِيرِ مَيِّتٍ ، وَعَلَى الْقَبْرِ مَلَاكُ اللهِ يَشَابُ بِبُيُضٍ ، فَأَخْبَرَهُمَا بِقِيَامَةِ ^(د) الْمَقْبُورِ من الْقَبْرِ .

قالوا : وَفِي عَشِيَّةِ يَوْمِ الْأَخْدِ هَذَا ، دَخَلَ الْمَسِيحُ عَلَى تَلَامِيذِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَأَكَلَ مَعَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ وَأَوْصَاهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِأُمُورٍ قَدْ تَضَعْنَاهَا لِتُجِيلِهِمْ . وَهَذَا الْعِيدُ عِنْدَهُمْ بَعْدَ عِيدِ الصُّلُوبِ / بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

تَحْمِيشُ الْأَرَبِيِّينَ - وَيُعْرَفُ عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ بِالسَّلَاقِ ^(هـ) ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا عِيدُ الصُّعُودِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ ^(و) الثَّانِي وَالْأَرْبَعُونَ مِنَ الْفِطْرِ ^٢ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ قِيَامَتِهِ ، خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنِّيَا وَالتَّلَامِيذِ مَعَهُ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَ عَلَيْهِمْ وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ . فَرَجَعَ التَّلَامِيذُ إِلَى أُورُشَلِيمَ - يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ - وَقَدْ رَعَدَهُمْ بِاشْتِهَارِ أَمْرِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ . فَهَذَا اعْتِقَادُهُمْ فِي كَيْفِيَّةِ رَفْعِ الْمَسِيحِ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [الآية ٨٧ سورة النساء] .

عِيدُ الْخَفْسِينَ ^(ز) - وَهُوَ الْفَنَصْرَةُ ، وَيَعْمَلُونَهُ بَعْدَ خَمْسِينَ يَوْمًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامِ ^٣ ، وَرَزَعَمُوا أَنَّ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنَ الصُّعُودِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا مِنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ ، اجْتَمَعَ التَّلَامِيذُ فِي عَلِيَّةِ صَهْيُونِ ، فَتَجَلَّى

(أ) بياض بجميع النسخ ، والمثبت من نشرة فيبت نقلًا عن تاريخ المكين . (ب) زيادة من ظ . (ج) ساقطة من بولاق .

(د) بولاق : بقيام . (هـ) بولاق : بالسلاق . (ف) جميع النسخ : عيد الخميس .

^١ القلشندي : صبح الأعشى ٤٢٦ : ٢ . ^٢ نفسه ٤٢٦ : ٢ وفيه أنه يحتفل به في السادس

^٣ نفسه ٤٢٦ : ٢ . والعشرين من بشنس .

لهم رُوح القدس في شبه أليسة من نار، فامتثلوا من رُوح القدس، وتكلّموا بجميع الألسن، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة، فعاداهم اليهود وحبسوهم، فتجأهم الله منهم، وخزجوا من السجن فساروا في الأرض متفرقين يذعنون الناس إلى دين المسيح.

الميلاد - يُزعمون أنه اليوم الذي وُلِدَ فيه المسيح، وهو يوم الاثنين، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد^(١). وشتهم فيه كثرة الوثود بالكنائس وتزيينها، ويقملونه بمصر في التابع والعشرين من كيهك^(٢). ولم يزل بدهار مصر من المواسم المشهورة فكان يُفرق فيه - أيام الدولة الفاطمية - على أبواب الرُشوم من الأتخاذين المحنكين والأمرء المطوقين وسائر القوالي^(٣) من الكتاب وغيرهم الجماعات من الحلاوة القاهرية، والمآرد التي فيها السميد، وقرابات الجلاب، وطياير الزلاية، والشمك المعروف بالثوري^(٤).

١٠ ومن رسم النصاري في الميلاد اللّعب بالثار، ومن أحسن ما قيل:

[البسيط]

ما اللّعب بالثار في الميلاد من شئ^(٥) وإنما فيه للإسلام مَقْصُودٌ

ففيه بُهِتَ النصاري أن رُبُّهُمْ عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وأذكرنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر مؤسماً جليلاً، يُباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة والشمائل البديعة بأقوال لا تنحصر، فلا يتقى أحد من الناس أغلاهم وأذنانهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله. وكانوا يُسمونها القوانيس (واحد فأنوس)^(٦)، ويُعلّقون منها في الأشواق بالخوانيت شيقاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة. ويتنافس الناس في المغالة في أنمانها، حتى لقد أذكرت شمعاً عُمِلت فتبلغ مضرّوها ألف درهم وخمس مائة درهم فضة، عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالاً من الذهب.

٢٠ وأعرف السؤال في الطُرقات أيام هذه المواسم، وهم يتسألون الله أن يتصدق عليهم بقانوس، فيشتري لهم من صغار القوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله.

(a) بولاق: فيحيون عشية ليلة الميلاد. (b) بولاق: الموالى. (c) بولاق: سفه.

^١ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٦.

^٢ انظر فيما يلي ١: ٤٩٤.

^٣ هذه إشارة مهمة لأصل استخدام القانوس في مصر عادات شهر رمضان في مصر عند المسلمين.

ثم لما اختلَّت أمور مصر، كان من مجئمة ما بطلَ من عوائد الثَّرفِ غمَلِ القَوَانيس في الميلاد إلا قليلاً .
 الغِطَّاسُ - ويُقْتَل بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر طُوبة ؛ وأصله عند النَّصَارَى أَنَّ يَحْيَى
 ابن زَكَرِيَّا - عليهما السلام - المعروف عندهم يُوْحَنَّا المِعْمَدَانِي - عَمِدَ المسيح (أي غَسَلَهُ) في
 بُحَيْرَةِ الْأَرْدُنِّ ، وعندما خَرَجَ المسيح عليه السلام من الماء اتَّصَلَ به رُوحُ الْقُدُس ؛ فَصَارَ النَّصَارَى
 لذلك يَغْمِسُونَ أَوْلَادَهُمْ في الماء في هذا اليوم ، وَيُزَلُّون فيه بِأَجْمَعِهِمْ ، ولا يكون ذلك إلا في
 شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَيُسَمُّونَهُ يَوْمَ الْغِطَّاسِ ، وكان له بمصر مَوْسِمٌ عَظِيمٌ إلى الغاية ^١ .

قال المشعودي : وَلَيْلَةُ الْغِطَّاسِ بِمِصْرَ شَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ أَهْلِهَا ، لَا يَتَأَمُّ النَّاسُ فِيهَا ، وَهِيَ لَيْلَةُ
 الْحَادِي عَشَرَ مِنْ طُوبَةِ . وَلَقَدْ حَضَرْتُ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِائَةِ لَيْلَةِ الْغِطَّاسِ بِمِصْرَ وَالْإِخْشِيدُ
 مُحَمَّدُ بْنُ طُنُجٍ - أَمِيرُ مِصْرَ - فِي دَارِهِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمُخْتَارِ فِي الْجَزِيرَةِ الرَّابِثَةِ لِلَّيْلِ ^٢ ، وَالثَّيْلُ يُطِيفُ
 بِهَا ، وَقَدْ أَتَرَ فَأَشْرَحَ فِي جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَجَانِبِ الْقُسْطَاطِ أَلْفَ مِشْعَلٍ ، غَيْرَ مَا أَسْرَجَ أَهْلُ مِصْرَ
 مِنَ الْمَشَاعِلِ وَالشَّمْعِ . وَقَدْ حَضَرَ بِشَاطِئِ الثَّيْلِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَلْفٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ
 النَّصَارَى : مِنْهُمْ فِي الزُّوَارِقِ ، وَمِنْهُمْ فِي الدُّورِ الدَّائِيَةِ مِنَ الثَّيْلِ ، وَمِنْهُمْ عَلَى سَائِرِ الشُّطُوطِ ، لَا
 يَتَنَاقَرُونَ كُلُّ مَا يُمْكِنُهُمْ إظهاره مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِيسِ وَأَلَاتِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوْهَرِ
 وَالْمَالَاهِي وَالْعَزْفِ وَالْقَصْفِ ؛ وَهِيَ أَحْسَنُ لَيْلَةٍ تَكُونُ بِمِصْرَ ، وَأَشْمَلُهَا سُورًا ، وَلَا تُغْلَقُ فِيهَا
 الدُّرُوبُ ، وَيُغَطَّسُ أَكْثَرُهُمْ فِي الثَّيْلِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ أَمَانٌ مِنَ الْمَرَضِ وَنُفْثَةِ الدَّاءِ ^٣ .

وقال المسبحي في «تاريخه» من حوادث سنة سبع وستين وثلاث مائة : مُنِعَ النَّصَارَى مِنْ
 إظهار ما كانوا يُفَعِّلُونَهُ فِي الْغِطَّاسِ مِنَ الْاجْتِمَاعِ وَتُرُوفِ الْمَاءِ وإظهار المَلَاهِي ، وَتُودِي أَنَّ مِنْ غِيَلٍ
 ذَلِكَ يُفِي مِنَ الْحَضَرَةِ ^٤ .

وقال : فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةِ كَانَ الْغِطَّاسُ ، فَضُرِبَتِ الْحَيَامُ وَالْمَضَارِبُ وَالْأَبْيُورَةُ
 فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ عَلَى شَاطِئِ الثَّيْلِ ، وَنُصِبَتِ أَسِيرَةُ لِلرَّيْسِ فَهَدَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ النَّصْرَانِي كَاتِبَ الْأَسْتَاذِ
 بَرْمُجَوَانَ ، وَأَوْقَدَتْ لَهُ الشُّمُوعُ وَالْمَشَاعِلُ ، وَحَضَرَ الْمُغْتُونُ وَالْمُتَلَهِّونَ ، وَجَلَسَ مَعَ أَهْلِهِ يَشْرَبُ إِلَى
 أَنْ كَانَ / وَقَتُ الْغِطَّاسِ فَغَطَّسَ وَانْصَرَفَ ^٥ .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢: ٦٩ - ٧٠ .

^٢ المسبحي : نصوص ضائعة ١٢ .

^٣ نفسه ١٨ - ١٩ وفيما يلي ١: ٤٩٤ .

^٤ القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٤٢٦ وفيه : يقول

المصريون : غَطَّسْهُمْ مِغْنَمَ ، وَتَوَزَّجْهُمْ شَتَمَ .

^٥ انظر عنه ، ابن سعيد : المغرب ١٦٠ - ١٦١ .

وقال: في سنة إحدى وأربع مائة، وفي ثامن عشرين جمادى الأولى، وهو عاشر طوبة، مُنِعَ النَّصَارَى مِنَ الْغِطَاسِ، فلم يُغَطَّسْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الْبَحْرِ^١.

وقال في حوادث سنة خمس عشرة وأربع مائة: وفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة: كان غِطَاسُ النَّصَارَى، فنجَزَى الرُّسُومَ مِنَ الثَّاسِ فِي شِرَاءِ الْفَوَاحِجِ وَالصَّنَائِنِ وَغَيْرِهِ، وَنَزَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الظَّاهِرُ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ لِقَضَرِ جَدِّهِ الْفَزِيرِ بِاللَّهِ فِي مِصْرَ، لِنَقْلِ الْغِطَاسِ وَمَعَهُ الْحَزَمُ، وَتُؤَدِي الْأَ تَحْتَطُّ الْمُسْلِمُونَ مَعَ النَّصَارَى عِنْدَ نُزُولِهِمْ فِي الْبَحْرِ فِي اللَّيْلِ^٢.

وَضَرَبَ بِدُرِّ الدُّوْلَةِ، الْخَادِمَ الْأَسْوَدَ مُتَوَلِّيَ الشُّرُطَتَيْنِ، سَحِيحَةً عِنْدَ الْجِيْشِ وَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ تُوقَدَ النَّارُ وَالْمَشَاعِلُ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ وَفِيهَا كَثِيرًا، وَخَضَرَ الرَّهْبَانُ وَالْقُشُوسُ بِالصُّلْبَانِ وَالثِّيَرَانِ، فَقَشَسُوا هُنَاكَ طَوِيلًا إِلَى أَنْ غَطَّسُوا^٣.

وقال ابنُ المأمُونِ فِي «تَارِيخِهِ» مِنْ حَوَادِثِ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةِ وَخَمْسِ مِائَةٍ، وَذَكَرَ الْغِطَاسَ: فَفَرَّقَ أَهْلَ الدُّوْلَةِ مَا جَزَتْ بِهِ الْعَادَةُ لِأَهْلِ الرُّسُومِ مِنَ الْأَتْرَاجِ وَالنَّارِجِ وَاللَّيْمُونِ الْمَرَاكِبِيِّ^٤، وَأَطْنَانَ الْقَصَبِ وَالثُّورِيِّ، بِحَسَبِ الرُّسُومِ الْمَقْرُورَةِ بِالذِّيَّانِ لِكُلِّ أَحَدٍ^٥.

الْحِجَّتَانِ - يُعْمَلُ فِي سَادِسِ شَهْرِ بَهْرَتَانِ، وَيُزْعَمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ خَجَنَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَهُوَ الثَّامِنُ مِنَ الْمِيلَادِ، وَالْقَبِطُ مِنَ دُونِ النَّصَارَى تَحْتَنِينَ^٦ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ^٧.

الْأَزْيَمُونَ - وَهُوَ عِنْدَهُمْ دُخُولُ الْمَسِيحِ الْهَيْكَلِ، وَيُزْعَمُونَ أَنَّ سَفْعَانَ الْكَاهِنِ دَخَلَ بِالْمَسِيحِ مَعَ أُمِّهِ [الْهَيْكَلِ]^٨ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَيُعْمَلُ فِي ثَامِنِ شَهْرِ أَمَشِيرِ^٩.

حَمِيمُ الْقَهْدِ - وَيُعْمَلُ قَبْلَ الْفِصْحِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَشُبُّهُمْ فِيهِ أَنْ يَمْلَأُوا إِنَاءً مِنْ مَاءٍ وَيُزْعَمُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُغَسِّلُ الْبَشْرَ بِهِ^{١٠} أَرْجُلَ سَائِرِ النَّصَارَى، وَيُزْعَمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ فَقَلَ هَذَا بِقَلَامَتِهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ كَمَا يُقْلَمُهُمُ التَّوَّاسِعُ، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْقَهْدَ إِلَّا يَتَفَرَّقُوا، وَأَنْ يَتَوَاضَعَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

(a) بولاق: النبل. (b) بولاق: الليمون في المراكب وفيها يلي ١١٨:٢. (c) بولاق: واحد. (d) بولاق: تخن. (e) بولاق: تخن. (f) زيادة من صبح الأعشى. (g) الأصل: للبرك به، بولاق: للبرك به والليت من ط.

^١ المسيحي: نصوص ضالمة ٣٠.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٦٣ وفيها يلي ٤٩٥:١.

^٣ القلقشندي: صبح الأعشى ٤٢٧:٢.

^٤ نفسه ٤٢٧:٢.

^٥ المسيحي: أخبار مصر ٧٠-٧١: المقريزي: اتعاط.

^٦ الحنفا ١١٦٣:٢ وفيها يلي ٤٩٤:١.

وعوام أهل مصر في وقتنا يقولون : خميس العَدَس ، من أجل أن النصارى تطبخ فيه العَدَس المَصْفَى^١ ، ويقول أهل الشام : خميس الأرز وخميس البيض ، ويقول أهل الأندلس : خميس إمبريل ، وإمبريل اسم شهر من شهورهم .

وكان في الدولة الفاطمية تُضْرَب في خميس العَدَس هذا خمس مائة دينار ، فتعمل خرايب تُفَرَّق في أهل الدولة بِرُشُوم مُقَرَّرَة^٢ ، كما ذُكِرَ في أخبار القصر من القاهرة عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب^٣ .

وأذكر كنا خميس العَدَس هذا في القاهرة ومصر وأعمالهما من مجلّة الموايس العظيمة ، فيأخ في أسواق القاهرة من البيض المَصْبُور عِدَّة ألوان ما يتجاوز حدّ الكثرة ، فيقاير به العبيد والصبيان والعَوَّغَاء ، ويُتَنَدَّب لذلك من جهة المحتسب من يزدهم في بعض الأحيان ، ويُهادي النصارى بعضهم بعضاً ، ويُهدون إلى المسلمين أنواع السمك المتنوع مع العَدَس المَصْفَى والبيض . وقد بطل ذلك لما حلّ بالناس ، وبقيت منه بَقِيَّة .

سَبْتُ الثَّور - وهو قبل الفصح يوم ، ويَزْعُمون أن الثور يظهر على قبر المسيح - يزعمهم - في هذا اليوم بكنيسة القمامة من القُدس ، فتشغل مصاييح الكنيسة كلها^٤ . وقد وقف أهل القمح والتفتيش على أن هذا من مجلّة مخاريق النصارى بصناعة يعملونها .

وكان يحضر هذا اليوم من مجلّة الموايس ، ويكون ثالث يوم من خميس العَدَس ، ومن توابعه . حدّ الحدود - وهو بعد الفصح بشمانية أيام ، فيعمل أول أحد بعد الفطر لأن الأحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يُجَلِّدون الآلات والأثاث واللباس ، ويُأخذون في المعاملات والأمور الدنيوية والمعاش^٥ .

عيد التجلي - يعمل في ثالث عشر شهر ميسرى ، يزعمون أن المسيح تجلّى لتلاميذه بعد ما رُفِع ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيلياء وموسى - عليهما السلام - فأحضّرهما إليهم بمصلى بيت المقدس ، ثم صعد إلى السماء وتركهم^٦ .

(أ) بولاق : مفردة .

^٤ نفسه ٢ : ٤٢٨ .

^٥ نفسه ٢ : ٤٢٨ .

^١ الفلشندي : صبح الأعي ٢ : ٤٢٧ .

^٢ فيما يلي ١ : ٤٥٠ .

^٣ الفلشندي : صبح الأعي ٢ : ٤٢٧ .

هذه الصليب - ويُعْمَل في اليوم السابع عشر من شهر ثوت، وهو من الأعياد المهدّنة، وسببه ظهور الصليب - برغمهم - على يد هيلانا أم قسطنطين^١، وله خبر طويل عندهم ملخصه ما أنت تراه .

ذكر قسطنطين^٢ - وقسطنطين هذا هو ابن قسطنش بن وليطوس بن ولطينوس بن دقيون بن كلوديش بن غايش بن أكتيان أغشت الأعظم الملقب قيصر، وهو أول من بُت دين النصرانية، وأثر بقطع الأوثان وهزم هياكلها وبنيان البيع، وآمن من الملوك بالمسيح . وكانت أمه هيلانة من مدينة الرها، فتشأ بها مع أمه وتعلم العلوم، ولم يزل في غاية من الطهر والسعادة، شاعنا منصورا على كل من حازته .

وكان في أول أمره على دين الجحوس، شديدًا على النصارى ماقتًا لدينهم، وكان سبب رجوعه عن ذلك إلى دين النصرانية أنه ابتلي بجذام ظهر عليه، فاعتنم لذلك عَمًا شديدًا، وجمع الحذاق من الأطباء، فانفقوا على أدوية دبروها له، وأوجبوا أن يشتتيع - بعد أخذ تلك الأدوية - في صهرج تملوء من دماء أطفال رُضع ساعة يسيل منهم .

فتقدم أثره بجمع جملة من أطفال الناس، وأثر بذبحهم في صهرج ليشتتيع في دمائهم وهي طرية، فجمعت الأطفال لذلك، وبرز ليضي فيهم ما تقدم به من ذبحهم، فسمع صجيج النساء اللاتي أخذ / أولادهن فرجتهن وأثر فدفع لكل واحدة ابنها، وقال : احتمال عِلتي أولى بي وأوجب من هلاك هذه العدة العظيمة من البشر . فانصرف النساء بأولادهن وقد سرزن سرورًا كثيرًا .

فلما صار من الليل إلى مضجعه، رأى في منامه شيخًا يقول له : إنك رجحت الأطفال وأنهاهم، ورأيت احتمال عِلتك أولى من ذبحهم، فقد رجحتك الله ووقيتك السلامة من عِلتك، فاهتت إلى رجل من أهل الإيمان يُدعى «شَلْبَشْتَر» قد فرّ خوفًا منك، وقف عند ما تأثر

وانظر كذلك البيروني : الآثار الباقية ٩٥ . وولد قسطنطين في

مدينة Naissos سنة ٢٧٣ م وحمل لقب أغسطس في ٢٥

يونية سنة ٣٠٦ م وأصبح اسمه Constantine I the Great

وتوفي في Nikomedia في ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ م (راجع،

The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford

(1991 I, pp. 448-500 .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٨ .

نشر عبد المجيد دياب هذه الفقرة في كتابه تاريخ

الأنباط المعروف بالقول الإمبري للعلامة المقريري ٢٥٨ -

٢٦٠ .

^٢ نقل المقريري ترجمة قسطنطين من الترجمة العربية

لكتاب «تاريخ العالم» لباولوس أوريوس (هروشيوش)،

به ، والتزم ما يخصك عليه تتم لك العافية . فانتبه مذعورا ، وبعت في طلب شلبشر الأشف ، فأني به إليه وهو يظن أنه يريد قتله ، لما عهده من غلظته على التصاري ومقته لدينهم ؛ فعندما رآه تلقاه بالبشر وأعلمه بما رآه في منامه ، فقص عليه دين النصرائية ، وكانت له معه أختار طويلا مذكرة عندهم . فبنت قسطنطين في جميع الأساقفة المتقين والمستيرين ، والتزم دين النصرائية ، وشفاة الله من الجذام ، فأيد الديانة ، وأعلن بالإيمان بدين المسيح .

وبينا هو في ذلك ، إذ توقع وثوب أهل رومة عليه وإيقاعهم به ، فخرج عنها وبني مدينة قسطنطينية ثانيا جليلا فخرت به ، وسكنها فصارت موضع تحت الملك من عهده^١ .

وقد كان التصاري ، من لدن زمان نيرون^(a) الملك الذي قتل [بيطر وبولس]^(b) الحواريين ومن بعده ممن ملك رومة ، في كل وقت يقتلون ويحبسون ويشردون بالنفي ، فلما سكن قسطنطين مدينة قسطنطينية ، جمع إلى نفسه أهل المسيح وقود^(c) وجوهمهم ، وأذل عبادة الأوثان . فشق ذلك على أهل رومة ، وخلعوا طاعته ، وقدموا عليهم ملكا ، فأهمه ذلك ، وموت له معهم عدة أخبار مذكرة في تاريخ رومة . ثم إنه خرج من قسطنطينية يريد رومة ، وقد اشتدوا لحربه ، فلما قاربهم أذعنوا له ، والتزموا طاعته ، فدخلها فأقام إلى أن رجع لحرب الفرس ، وخرج إليهم فقهرهم ، ودانت له أكثر ممالك الدنيا . فلما كان في عشرين سنة من دولته ، خرجت القوط^(d) على بعض أطرافه ، فغزاهم وأخرجهم عن بلاده .

ورأى في منامه كأنه بنودا شبه الصليب قد رفعت ، وقائلا يقول له : إن أردت أن تظفر بمن خالفك ، فاجعل هذه العلامات على جميع برك^٢ وشكلك^(e) . فلما انتبه أمر بتجهيز أمه

(a) بولاق : نيرون . (b) زيادة من أورويسوس . (c) بولاق : قوي . (d) بولاق : الفرس . (e) بولاق : برك وسكك ، والتصويب من الأصل وظ وتاريخ أورويسوس .

Runciman, S., *The Fall of Constantinople*, Cambridge 1965

^٢ راجع حول كلمة برك التي قرأها Griveau «بريكك» Casanova «بيرق» والاستخدامات المختلفة في المصادر لكلمة «برك» هامش^{١٤} صفحة ٢٣٨-٢٣٩ من الجزء الثالث من نشرة Wiet ، وانظر فيما تقدم ٢٢٣ .

^١ راجع عن تأسيس مدينة القسطنطينية Costantinople التي أصبحت بعد دخول السلطان العثماني محمد الفاتح إليها سنة ١٤٥٣م هي مدينة إستانبول الحالية وعاصمة الدولة العثمانية (The Oxford Dictionary of Byzantium I, pp. 508-12 ، وعن سقوط المدينة على يد السلطان محمد الفاتح انظر ،

هيلانة [Helana] إلى بيت المقدس في طلب آثار المسيح - عليه السلام - وبناء الكنائس وإقامة شرائع^١ النصرانية، فسارت إلى بيت المقدس، وبنت الكنائس^٢.

فَيَقَالُ إِنَّ الْأُسْتَفَّ مَقَارِيوسَ دَلَّهَا عَلَى الْحَشَبَةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ صُلِبَ عَلَيْهَا، وَقَدْ قَصَّ عَلَيْهَا مَا عَمِلَ بِهِ الْيَهُودُ، فَحَفَرَتْ، فَإِذَا قَبْرٌ وَثَلَاثُ خَشَبَاتٍ عَلَى شَكْلِ الصُّلْبِ، فَرَّعَمُوا أَنَّهُمْ أَلْقَوْا الثَّلَاثَ خَشَبَاتٍ عَلَى مَيِّتٍ، وَاجِدَةً بَعْدَ وَاجِدَةٍ، فَقَامَ حَيًّا عِنْدَمَا وُضِعَتْ عَلَيْهِ الْحَشَبَةُ الْتَالِفَةُ مِنْهَا. فَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، وَسَمَّوْهُ «عِيدَ الصُّلْبِ»، وَكَانَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ أَيْلُولِ وَالسَّابِعِ عَشَرَ مِنْ ثَوْتٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ وَلَادَةِ الْمَسِيحِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً. وَجَعَلَتْ هِيلَانَةُ لِحَشَبَاتِ الصُّلْبِ غُلَاقًا مِنْ ذَهَبٍ، وَبَنَتْ كَنِيسَةَ الْقُمَامَةِ بَيْتَ الْمَقْدَسِ عَلَى قَبْرِ الْمَسِيحِ بِزَعْمِهِمْ، وَكَانَتْ لَهَا مَعَ الْيَهُودِ أُخْبَارٌ كَثِيرَةٌ قَدْ ذُكِرَتْ عَنْهُمْ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ بِالصُّلْبِ مَعَهَا إِلَى أَيْنِهَا^٣.

وما زال قُسْطَنْطِينُ عَلَى تِمَالِكِ الرُّومِ إِلَى أَنْ مَاتَ بَعْدَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ، فَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِمَمَالِكِ الرُّومِ ابْنُهُ قُسْطَنْطِينُ [Constantius] الْأَصْغَرُ^٤.

وَقَدْ كَانَ لَعِيدِ الصُّلْبِ بِمِصْرَ مَرْسَمٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى بَنِي وَائِلٍ بِظَاهِرِ قُسْطَاطِ مِصْرَ، وَيَنْظَاهَرُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْمُنْكَرَاتِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَرَمَاتِ، وَيَجُودُ لَهُمْ فِيهِ مَا يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ.

(a) بولاق: شعائر.

١ عربية لكتاب يوسيبوس.

٢ حول هيلانة وقصة العثور على صليب الصليبات انظر Frolov, A., *Les reliquaires de la vraie Croix*, Paris 1965; *The Oxford Dictionary of Byzantium* II, 909, III, 2121-26: «قصة العثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٩)، ٥-٢١.

٣ أوروسيوس: تاريخ العالم ٤٦٠، ونهاية ما نشره عبد

المجيد دياب.

١ أوروسيوس: تاريخ العالم ٤٥٧-٤٦٠، وبعد ذلك في تاريخ أوروسيوس أن ما قامت به هيلانة في بيت المقدس وغيرها مع اليهود مدون في كتاب أوسابيوس Eusebius العام الوصف لقصة الهيبة وألمتها. والمقصود هو كتاب «التاريخ الكنسي» *Historia Ecclesiastica* ليوسيبوس القيصري Eusebius de Caesarea والذي يذكر فيه أبرز الحوادث التي جرت في تاريخ الكنيسة المسيحية حتى سنة ٣٢٤ م، والذي كتبه باليونانية.

رواشرح ثما ذكره القريزي بعد ذلك وما ذكره عن العناية المسيحية في آخر الكتاب أنه اعتمد فيه على ترجمة

فلما قَدِمَت الدَّوْلَةُ الفاطميَّةُ إلى ديار مصر وبَنَوُا القَاهِرَةَ واشتَوَطَنُوهَا ، وكانت خِلافةُ أمير المؤمنين العزيز بالله ، أَمَرَ في رابع شهر رجب في سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة - وهو يوم الصَّليب - فَمَنَعَ النَّاسَ من الخُرُوجِ إلى بني وإيل ، وَضَبَطَ الطُّرُقَ والدُّرُوبَ ^١.

ثم لما كان عَيدُ الصَّليب في اليوم الرَّابِعَ عَشَرَ من شَهْرِ رَجَب سنة اثنتين وثمانين وثلاث مائة خَرَجَ النَّاسُ فيه إلى بني وإيل ، وَجَزَوْا على عَادَتِهِمْ في الاجتماع واللَّهْوِ ^٢.

وفي صَفَر سنة اثنتين وأربع مائة ، قُرِئَ في سابعه سِجِلٌّ بالجامع العتيق وفي الطُّرُقَات ، كُتِبَ عن الحاكم بأمر الله ، يَشْتَمِلُ على مَنَعِ التَّصَارِي من الاجْتِمَاعِ على عَقْلِ عيد الصَّليب ، وَأَلَّا يَظْهَرُوا بِزِيَّتِهِمْ فيه ، وَلَا يَغْرَبُوا كَنَائِسَهُمْ ، وَأَن يَمْتَنِعُوا منها ^٣.

ثم بَطَلَ ذلك حتى لم يَكَدْ يُعْرِفُ اليوم بديار مصر أَلْبَنَةُ .

التَّوَرُوزُ^(٤) - وهو أوَّلُ الشَّئَةِ القِطِيَّةِ بمصر ، وهو أوَّلُ يوم من ثَوْت ، وسُنَّتُهُمْ فيه إشعال النَّيران والتَّراش بالماء ، وكانَ من مَوايِمَ لَهْوِ المَصرِيِّينَ قَدِيمًا وحَدِيثًا ^٤.

(ب) قال وَهَبٌ : بَرَدَتِ النَّارُ في اللَّيْلَةِ التي أَلْقَى فيها إبراهيم وفي صَبِيحَتِهَا على الأَرْضِ كُلِّهَا ، فلم يَنْتَفِعْ بها أَحَدٌ في الدُّنْيَا تلكَ اللَّيْلَةِ وذلكَ الصَّبَاح ، فمن أَجْلِ ذلكَ باتَ النَّاسُ على النَّارِ في تلكَ اللَّيْلَةِ التي رُمِيَ فيها إبراهيم - عليه السَّلام - وَوَجَّهُوا عليها وَتَبَخَّرُوا بها ، وَسَعَوْا تلكَ اللَّيْلَةَ نَيِّرُوزًا ، والتَّيِّرُوزُ في اللِّسَانِ السُّرْيَانِي ، العيد .

وسُيْلَ ابنُ عَبَّاسٍ عن التَّيِّرُوزِ : لِمَ اتَّخَذُوهُ عيدًا ؟ فقال : إِنَّهُ أوَّلُ السَّنَةِ المُسْتَأْنَفَةِ وَآخِرُ السَّنَةِ المُتَّقِطَةِ ، فَكَانُوا يَسْتَحْجِبُونَ أَن يَتَقَدَّمُوا فيه على مُلُوكِهِمْ بِالطُّرُوفِ والهِدَايَا ، فَاتَّخَذُوهُ الأَعَاجِمُ سُنَّةً ^(٥).

قال الحافظُ أبو القاسم علي بن/ عسَاكِر في «تاريخ دمشق» ، من طريق ابن عَبَّاس - رضي الله عنهما - قال : إِنَّ فِرْعَوْنَ لما قال لِلْمَلَأِ من قَوْمِهِ : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ غَلِيمٌ﴾ [الآية ٣٤ سورة الشعراء] ؛

(٤) بولاق : النيروز . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من ط .

^١ المقرئ : تماظ الحنفا ١ : ٢٧٢ .

^٢ نفسه ١ : ٢٧٦ .

العرب (الحواليقي : للمرب ٣٤٠) .

^٣ نفسه ٢ : ٨٩ .

قالوا له : ابعث إلى الشجرة ؛ فقال فِرْعَوْنُ لِمُوسَى : يا مُوسَى ، ﴿اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ [الآية ٥٨ سورة طه] فَتَجْتَمِعُ أَنْتَ وَهَارُونَ وَتَجْتَمِعُ الشَّجَرَةُ ؛ فقال مُوسَى : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ﴾ [الآية ٥٩ سورة طه] . قَالَ : ووافق ذلك يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم الثَّوروز .

- وفي رواية : أَنَّ الشَّجَرَةَ قالوا لِفِرْعَوْنَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ واعد الرجل ، فقال : قد واعدته يَوْمَ الزَّيْتَةِ وهو عيدكم الأكبر ، ووافق ذلك يوم السبت ، فَخَرَجَ النَّاسُ لَلَّذَلِكَ الْيَوْمِ .
 قَالَ : وَالثَّورُوزُ أَوَّلُ سَنَةِ الْفُرْسِ ، وهو الرابع عشر من آذار وفي شهر بَرْمَهات .
 وَيُقَالُ : أَوَّلُ مَنْ أَخَذَهُ بِجَمَشِيدٍ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَأَنَّهُ تَمَلَّكَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ، فَلَمَّا كَمَلَ مُلْكُهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ عَدُوٌّ ، اتَّخَذَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا ، وَسَمَّاهُ ثَوْرُوزًا فِي الْيَوْمِ الْجَدِيدِ ^١ .
 وَقِيلَ إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - أَوَّلُ مَنْ وَضَعَهُ ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ فِيهِ خَاتَمُهُ ^٢ .

وقيل : هو اليوم الذي شَفِيَ فِيهِ أَثَرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ : ﴿أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [الآية ٤٢ سورة ص] ، فَجِيلَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا ، وَسَمَّاهُ فِيهِ رَشُّ الْمَاءِ .

- وَيُقَالُ : كَانَ بِالشَّامِ سَيْطٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصَابَهُمُ الطَّاعُونُ ، فَخَرَجُوا إِلَى الْعِراقِ ، فَتَلَعَ مَلِكُ الْعَجَمِ خَبَرَهُمْ ، فَأَمَرَ أَنْ تُبْنَى عَلَيْهِمْ حَظِيرَةٌ يُجْعَلُونَ فِيهَا ، فَلَمَّا صَارُوا فِيهَا مَاتُوا ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ رَجُلًا . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ : أَرَأَيْتَ يَلَادَ كَذَا وَكَذَا ، فَحَارِبُهُمْ بَسِيطُ بَنِي فُلَانٍ ؛ فَقَالَ : بَارَبْتُ ، كَيْفَ أَحَارِبُ بِهِمْ وَقَدْ مَاتُوا ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِّي أَخْيِيهِمْ لَكَ .
 فَأَمَّطَرَهُمُ اللَّهُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فِي الْحَظِيرَةِ ، فَأَضْبَحُوا أَخْيَاءَهُمْ ، فَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْكُوفِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَخْيَاهُمْ﴾ [الآية ٢٤٣ سورة البقرة] . فَوُفِعَ أَمْرُهُمْ إِلَى مَلِكِ فَارِسَ ، فَقَالَ : تَبَرَّكُوا بِهِذَا الْيَوْمِ ، وَلِيَصُبَّ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ الْمَاءِ ، فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الثَّورُوزِ ، فَصَارَتْ سَنَةٌ إِلَى الْيَوْمِ .

^١ الفلستيني : صبح الأحمى ٢ : ٤١٨ ؛ وفيما يلي ^٢ أورد المقرئ هذا الخبر فيما يلي ٤٩٤ : ١ ونسبه إلى

الحافظ ابن عساكر .

وسئِلَ الخَلِيفَةُ المَأْمُونُ عَنْ رَشِّ المَاءِ فِي التُّورُوزِ ، فَقَالَ : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ ، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَجْدَبُوا - تَقُولُ مَاتَ فُلَانٌ هُزَالًا - فَمَيِّتُوا فِي هَذَا الْيَوْمِ بِرَشَّةٍ مِنْ مَطَرٍ فَعَاشُوا ، فَأَخْصَبَ بَلَدُهُمْ ، فَلَمَّا أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بِالْعَيْثِ - وَالْعَيْثُ بِسَمِيِّ الْحَيَا - جَعَلُوا صَبَّ المَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ شُئْنَةً يَمَيِّزُ كَوْنَ بِهَا إِلَى تَيَمُّنِنَا هَذَا ^١ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ، قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُرُوا مِنَ الطَّاعُونِ . وَقِيلَ : أَمَرُوا بِالْجِهَادِ ، فَحَاقُوا الْمَوْتَ بِالْقَتْلِ فِي الْجِهَادِ ، فَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنْ ذَلِكَ فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ لِيَعْرِفَهُمْ أَنَّهُ لَا يُنَجِّبُهُمْ مِنَ الْمَوْتِ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ عَلَى يَدِ خَزْقِيلَ أَحَدِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فِي خَيْبَرٍ طَوِيلٍ قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ خَفْزَةَ الْأَصْغَهَانِيُّ ^٢ فِي كِتَابِ «أَعْيَادِ الْفُرْسِ» : إِنَّ أَوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ التُّورُوزَ : التُّورُوزَ جَمَشِيدَ - وَيُقَالُ جَمَشَادَ - أَحَدُ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْأَوَّلِ .

وَمَعْنَى التُّورُوزِ الْيَوْمَ الْجَدِيدِ . وَالتُّورُوزُ عِنْدَ الْفُرْسِ يَكُونُ يَوْمَ الْاِغْتِدَالِ الرَّبِيعِيِّ ، كَمَا أَنَّ الْمَهْرَجَانَ أَوَّلَ الْاِغْتِدَالِ الْخَرِيفِيِّ .

وَيَزْعُمُونَ أَنَّ التُّورُوزَ أَقْدَمُ مِنَ الْمَهْرَجَانِ ، فَيَقُولُونَ : إِنَّ الْمَهْرَجَانَ كَانَ فِي أَيَّامِ أَفْرِيدُونَ ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَهُ لَمَّا قَتَلَ الصُّبْحَاكَ - وَهُوَ بِيوراشبَ - فَجَعَلَ يَوْمَ قَتْلِهِ عِيدًا سَمَّاهُ الْمَهْرَجَانَ ، وَكَانَ مُحْدُوهُ بَعْدَ التُّورُوزِ بِالْفَيْئِ سَنَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً ^٣ .

^١ انظر رواية مخالفة للقلقشندي عن سبب رش الماء (صبح الأعشى ٤١٩:٢) .
الوافي بالوفيات ٧٣:٢١) . بينما نسب ابن خلكان للمصاحب

إسماعيل بن عباد وزير البويهيين المشهور كاتباً في نفس الموضوع عنوانه «الأعياد وفضائل النوروز» (وفيات الأعيان ٢٣٠:١) .

^٢ بين النوروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوماً ، والمهرجان نسبة إلى أحد ملوك الفرس القدماء كان يسمى «مهر» ، وكانوا يسمون الشهور بأسماء الملوك فقيل «مهرماه» ومعنى «ماه» هو الشهر . وطال عمر هذا الملك واشتدت شوكة فلما مات في النصف من هذا الشهر وهو «مهرماه» سمي اليوم الذي مات فيه «مهرجان» وتفسيره : نفس مهر ذهبت . ويجعل أهل المروعات بالمرق وغيرها من مدن

^٢ أبو الحسن علي بن حمزة بن حمارة بن حمزة بن يسار ابن عثمان الأصغرهاني من أولاد يسار أخى أبي مسلم الخراساني . أحد أدباء أصغرهان المشهورين بالعلم والشعر ، توفي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م . من مصنفاته كتاب «الشعر» ، وكتاب «فقر البلاغة» يشتمل على الاختيار من شعر عامة الشعراء ، وكتاب «تلايد الشرف» في مناقير أصبهان وأشباهها . ولم يذكر له باقوت أو الصفدي - اللذين ترجماه له - كتاب «أعياد الفرس» الذي ينقل عنه هنا المقرئ . وفيما يلي ٤٩٤:١ . (معجم الأدباء ١٣:٢٠٤)

وقال ابنُ رِضْوَانٍ في ذِكْرِ مَنَاشِئِ بَنِي مَنَاقِشَ، أَخَذَ مُلُوكُ الْقِبْطِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الثُّرُوزَ بِمِصْرَ، فَكَانُوا يُقِيمُونَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ إِكْرَامًا لِلْكَوَاكِبِ^١.

وقال ابنُ رِضْوَانٍ: وَلَمَّا كَانَ الثَّيْلُ هُوَ السَّبَبُ الْأَعْظَمُ فِي عِمَارَةِ أَرْضِ مِصْرَ، رَأَى الْمِصْرِيُّونَ الْقَدَمَاءَ - وَخَاصَّةً الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ دِقْلِيدِيَانُوسِ الْمَلِكِ - أَنْ يَجْعَلُوا أَوَّلَ الشَّئَةِ فِي أَوَّلِ الْخَرِيفِ عِنْدَ اسْتِكْمَالِ الثَّيْلِ الْحَاجِجَةِ فِي الْأَمْرِ الْأَكْثَرِ، فَجَعَلُوا أَوَّلَ شَهْرِهِمْ ثَوْتٌ ثُمَّ بَاتَهُ ثُمَّ هَائُورٌ، وَعَلَى هَذَا الْوَلَاءِ بِحَسَبِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَرْتِيبِ هَذِهِ الشُّهُورِ^٢.

وقال ابنُ رُؤُلَاقٍ: وَفِي هَذِهِ الشَّئَةِ - يَعْنِي سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - مَنَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعِزُّ لَدِينِ اللَّهِ مِنْ وَقُودِ الثَّيْرَانِ لَيْلَةَ الثُّرُوزِ فِي السَّكَّكِ، وَمِنْ صَبِّ الْمَاءِ يَوْمَ الثُّرُوزِ^٣.

وقال فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ: وَفِي يَوْمِ الثُّرُوزِ، زَادَ اللَّعِبُ بِالْمَاءِ وَوَقُودُ الثَّيْرَانِ، وَطَافَ أَهْلُ الْأَشْوَاقِ وَعَمِلُوا فَيْلَةً^٤، وَخَرَجُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ بِلَعِبِهِمْ، وَلَعِبُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَظْهَرُوا الشَّجَاجَاتِ^٥ وَالْحَلِجِيَّ فِي الْأَشْوَاقِ. ثُمَّ أَمَرَ الْمُعِزُّ بِالتَّدَاءِ بِالْكَفِّ، وَأَلَّا تُوقَدَ نَارٌ وَلَا يُصَبَّ مَاءٌ، وَأُجِدَّ قَوْمٌ فَحْيِسُوا، وَأُجِدَّ قَوْمٌ فَطِيفَ بِهِمْ عَلَى الْجِمَالِ^٥.

وقال ابنُ الْمَأْمُونِ فِي «تَارِيخِهِ»: وَخَلَّ مَوْسِمُ الثُّرُوزِ فِي الْيَوْمِ الْتَّاسِعِ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةِ وَخَمْسِ مِائَةٍ، وَوَصَلَتْ الْكُشُوفَةُ الْخَفِيفَةُ بِالثُّرُوزِ مِنَ الطَّرَازِ وَتَغَرَّ الْإِسْكَندَرِيَّةُ، مَعَ مَا يَنْتُجِعُهَا مِنَ اللَّذَازَاتِ^٦ الْمَذْهَبَةِ وَالْحَرِيرِيِّ وَالسَّوَادِجِ، وَأُطْلِقَ جَمِيعُ مَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ مِنَ الْكُشُوفَاتِ الرَّجَالِيَّةِ وَالنِّسَائِيَّةِ، وَالْعَيْنِ وَالْوَرَقِ، وَجَمِيعِ الْأَصْنَافِ الْخَفِيفَةِ بِالمَوْسِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا بِتَقْصِيلِهَا وَأَسْمَاءِ أَزْجَائِهَا.

وَأَصْنَافُ الثُّرُوزِ: الْبَطِيخُ وَالزَّمَانُ، وَغَنَاقِيدُ الْمَوْزِ، وَأَفْرَادُ / الْبُشْرِ، وَأَقْفَاصُ الثَّغْرِ الْقَوْصِي،

(B) بولاق: فيه. (C) بولاق: الآلات.

^٢ ابن رِضْوَانٍ: دَفَعَ مِصْرَ الْأَهْدَانِ ١٤٢.

^٣ المقرئِي: اِتِّمَاعُ الْخَفَا ٢١٤:١ وَفِيهَا يَلِي ٤٩٣.

^٤ عَنْ الشَّجَاجَاتِ اِنْتَظَرُ فِيمَا تَقْدَمُ ٥٦٤ هـ^٢ وَفِيهَا يَلِي

٤٩٣:١.

^٥ المقرئِي: اِتِّمَاعُ الْخَفَا ٢٢٤:١ Serjeant, R.B.)
(Islamic Textiles pp. 158, 215).

^٦ اللَّذَازَاتُ جَر. لَذَازَاتُ، نَوْعٌ مِنَ الْخَرِيرِ الْأَحْمَرِ.

= الْمَجْمَعُ هَذَا الْيَوْمِ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ الشَّيْءِ فَطَعِرَ فِيهِ الْفَرَشُ وَالْآلَاتُ وَكَثِيرًا مِنَ الْمَلَابِسِ (المسعودي: مروج الذهب ٣٣٧:٢-٣٧٨)، وَفَارَنَ الْقَلَشْتَنِي: صَبَحَ الْأَعْيُ ٤٢٠:٢-٤٢٢.

^١ النويري: نَهَايَةُ الْأَرْبِ ٧١:١٥ (عن ابنِ وَصِيفِ شَاهٍ)؛ الْمَسْعُودِي: أَخْبَارُ الزَّمَانِ ١٧٧ وَفِيهَا أَنَّ الَّذِي يَدَأُ بِعَمَلِهِ أَشْمُونُ بْنُ قَبْطِيمٍ؛ وَانْتَظَرُ فِيمَا تَقْدَمُ ٣٧٦، ٦٤٥.

وأففاض السفّرجل، وبُكّل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ومن لحم الضأن ومن لحم البقر، من كلّ لَوْنٍ بُكْلَةً، مع خُبْزٍ بُز مَارِقٍ .

قَالَ : وَأَخْضَرَ كَاتِبُ الدُّفْرِ الْإِثْبَاتَ^(٨) بِمَا بَجَرَتْ بِهِ الْعَادَّةُ ، مِنْ إِطْلَاقِ الْعَيْنِ وَالْوَرِقِ وَالْكُشَوَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، فِي يَوْمِ الثُّورِوزِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، وَهُوَ : أَرْبَعَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ذَهَبًا ، وَخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فِضَّةً ، وَالْكُشَوَاتِ عِلَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ شَقِّ دَيْبِقِيَّةٍ مُذْهَبَاتٍ وَخَرِيرِيَّاتٍ ، وَمَعَاجِرَ وَغَصَائِبَ نِسَائِيَّاتٍ مُلَوَّنَاتٍ ، وَشَقِّ لَازِذٍ مُذْهَبٍ وَخَرِيرِيٍّ وَمُشَفَّعٍ ، وَفُوطٍ دَيْبِقِيَّةٍ خَرِيرِيَّةٍ . فَأَمَّا الْعَيْنُ وَالْوَرِقُ وَالْكُشَوَاتِ ، فَذَلِكَ لَا يَخْرُجُ عَنْ تَحْوِزَةِ الْقُصُورِ وَدَارِ الْوِزَارَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْأَصْحَابِ وَالْحَوَائِشِيِّ الْمُسْتَعْدَمِينَ وَرُؤَسَاءِ الْفُشَارِيَّاتِ وَتُبْعَارِيَّهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَمْراءِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ .

وَأَمَّا الْأَصْنَافُ مِنَ الْبَطِيخِ وَالرُّمَّانِ وَالْبُشْرِ وَالْمُوزِ وَالسَّفْرَجِلِ وَالْعِنَابِ وَالْهَرَائِسِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، فَيَشْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، وَيَشْرِكُهُمْ فِيهِ جَمِيعُ الْأَمْراءِ أَرْبَابِ الْأَطْوَاقِ وَالْأَقْصَابِ^(٩) ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَائِلِ وَالْأَغْيَانِ مِمَّنْ لَهُ جَاءَةٌ وَرَسْمٌ فِي الدَّوْلَةِ^١ .

وَقَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ عَشَرَ رَجَبٍ يَوْمَ الثُّورِوزِ الْقَيْطِي ، وَهُوَ مُشْتَهَلٌ ثَوْتُ ، وَثَوْتُ أَوَّلُ سَنَتِهِمْ .

وَقَدْ كَانَ بِمَصْرَ ، فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ وَالْدَّوْلَةِ الْخَالِيَةِ ، مِنْ مَوَاسِمِ بَطَالِيهِمْ ، وَمَوَاقِيتِ صَلَاحَاتِهِمْ ، فَكَانَتْ الْمُتَكَرَّرَاتُ ظَاهِرَةً فِيهِ ، وَالْفَوَاجِشُ صَرِيحَةً فِيهِ . وَيَتَوَكَّبُ فِيهِ أَمِيرُ مَوْسُومٍ بِأَمِيرِ الثُّورِوزِ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَى النَّاسِ فِي طَلَبِ رَشْمِ رُتَبِهِ ، وَيَرُوسِمُ عَلَى دُورِ الْأَكَابِرِ بِالْجُمُحِلِ الْكِبَارِ ، وَيَكْتُبُ مَنَاشِيرَ ، وَيُنَادِبُ مُرْسَمِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الطَّنْزِ^(١٠) ، وَيَقْنَعُ بِالْمَيْسُورِ مِنَ الْهِيَاثِ .

وَيَجْمَعُ الْمُؤَثَّنُونَ^(١١) وَالْفَاضِيَّاتُ تَحْتَ قَصْرِ اللُّؤْلُؤَةِ ، بِحَيْثُ يُشَاهِدُهُمُ الْخَلِيفَةُ وَبِأَيْدِيهِمُ الْمَلَاهِي ، وَتَرْتَفِعُ الْأَصْوَاتُ ، وَيُشْرَبُ الْخَمْرُ وَالْمَرْزُ شَرْبًا ظَاهِرًا مِنْهُمْ فِي الطَّرَفَاتِ ، وَيَتَرَّاشُ النَّاسُ بِالْمَاءِ ، وَبِالْمَاءِ وَالْخَمْرِ وَبِالْمَاءِ تَمْرُوجًا بِالْأَقْدَارِ .

وَإِنْ غَلِطَ مَسْتَوْرٌ وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ، لَقِيَهُ مَنْ يَرُشُّهُ وَيُفْسِدُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحْفِظُ بِحُرْمَتِهِ ، فَإِذَا أَنْ يَفْدِي

(٨) بولاق : الحسابات . (ب) بولاق : الأنصاف . (ج) بولاق : الطير . (د) بولاق : ويجمع المغنون .

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٦٥ وفيما يلي ٤٩٣ . ^٢ العُثْر : السحرة .

نَفْسَهُ وَإِذَا أَنْ يُفَضَّحَ . وَلَمْ يَجْرِ الْخَالُ عَلَى هَذَا ، وَلَكِنْ قَدْ رَشَّ الْمَاءُ فِي الْحَارَاتِ ، وَقَدْ أَحْيَا الْمُتَكَرَّرَاتِ فِي الدُّورِ أَرْبَابَ الْحَسَارَاتِ .

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِينَ مِائَةً : وَجَزَى الْأَمْرُ فِي التُّورُوزِ عَلَى الْعَادَةِ مِنْ رَشَّ الْمَاءِ ، وَاشْتَجَدَّ فِيهِ هَذَا الْعَامُ التَّرَاجُمُ بِالْبَيْضِ وَالتُّصَائُعِ بِالْأَلْطَاعِ ، وَانْقَطَعَ النَّاسُ عَنِ التُّصَرُوفِ ، وَمَنْ طَلَفَزَ بِهِ فِي الطَّرِيقِ رُشَّ بِمِائَةٍ نَجِيسَةٍ ، وَخَرِقَ بِهِ ^١ .

وَمَا زَالَ يَوْمُ التُّورُوزِ يُعْمَلُ فِيهِ مَا ذُكِرَ مِنَ التَّرَاشِ بِالْمَاءِ ، وَالتُّصَائُعِ بِالْجُلُودِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى أَنْ كَانَتْ أَغْوَامُ بَضْعٍ وَثَمَانِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، وَأَمْرُ الدَّوْلَةِ بِدِهَارِ مِصْرَ وَتَذْيِيرِهَا إِلَى الْأَمِيرِ الْكَبِيرِ يَزْقُوقُ ، قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ وَيَسْمَى بِالسُّلْطَانِ ، فَمَنْعَ مِنْ لَعِبِ التُّورُوزِ ، وَتَهْدُدَ مِنْ لَعِبِ بِالْعُقُوبَةِ . فَانْكَفَّ النَّاسُ عَنِ اللَّعْبِ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَصَارُوا يَحْمِلُونَ شِقًا مِنْ ذَلِكَ فِي الْخُلْجَانِ وَالْبِرْكِ وَنَحْوِهَا مِنْ مَوَاضِعِ التَّنَزُّهِ ، بَعْدَ مَا كَانَتْ أَشْوَاقُ الْقَاهِرَةِ تَتَعَطَّلُ فِي يَوْمِ التُّورُوزِ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَيَتَعَطَّلُ النَّاسُ فِيهِ مِنَ اللَّهْوِ وَاللُّعْبِ مَا يَخْرُجُونَ بِهِ ^(أ) عَنْ حَدِّ الْحَيَاءِ وَالْحَيْشَمَةِ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْفُجُورِ وَالْمُغْهَرِ ^(ب) .

وَقَلَّمَا انْقَضَى يَوْمُ تُّورُوزٍ ، إِلَّا وَقِيلَ فِيهِ قَلِيلٌ أَوْ أَكْثَرُ ، وَلَمْ يَبْقَ الْآنَ لِلنَّاسِ مِنَ الْفَرَاغِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ، وَلَا مِنَ الرَّفَقَةِ وَالْبَطَرِ مَا يُوجِبُ لَهُمْ عَمَلَهُ . وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ :

[البسيط]

كَيْفَ ابْتِهَاجُكَ بِالتُّورُوزِ يَا سَكْنِي وَكُلُّ مَا فِيهِ يَخْعِكُنِي وَأَخْعِكِيهِ
فَنَازَةِ كُلِّهِبِ النَّارِ فِي كِبْدِي وَتَارَةً كَسْوَالِي دَمْعَتِي فِيهِ
وَقَالَ آخَرُ :

[الرملي]

تَوَزَّرَ النَّاسُ وَتَوَزَّرَ ت وَلَكِنْ بِدُمُوعِي
وَذَكَّتْ نَارُهُمْ وَالنَّارُ سَارُ مَا بَيْنَ سُلُوعِي

٢٠

وَقَالَ آخَرُ :

[الطويل]

وَلَمَّا أَتَى التُّورُوزُ يَا غَايَةَ الْمُتَى وَأَنْتِ عَلَى الْإِغْرَاضِ وَالْهَجْرِ وَالْعُدَى
بَهَتْ نَارُ الشُّوقِ لَيْلًا إِلَى الْحَشَا فَتَوَزَّرْتُ صُبْحًا بِالدُّمُوعِ عَلَى الْخَدَى ^٢

(أ) ساقطة من بولاق . (ب) بولاق : المهود .

^١ انظر فيما يلي ١ : ٤٩٤ .

^٢ القرطبي : السلوك ١ : ١٣٦-١٣٧ وفيما يلي ١ : ٤٩٤ .

ذِكْرُ مَا يُؤْتِيهِ أَيَّامُ الشُّهُورِ الْفَيْطِيَّةِ مِنَ الْأَعْمَالِ فِي الزَّرَاعَاتِ

وَبِزَادَةِ الثَّلِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ عَلَى مَا نَقَلَهُ أَهْلُ مِصْرَ عَنْ قَدَمَاتِهِمْ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ

/اغْلَمْ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءَ اعْتَمَدُوا فِي تَأْرِيخِهِمُ السَّنَةَ الشَّمْسِيَّةَ - كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ - لِيَصِيرَ الزَّمَانُ مَحْفُوظًا، وَأَعْمَالُهُمْ وَاقِعَةً فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، لَا يَتَغَيَّرُ وَقْتُ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ بِتَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ أَلْبَتًى^١.

ثُوت [Tût] - بِالْقَيْطِيِّ هُوَ أَيْلُولُ، وَكَانَتْ عَادَةً مِصْرَ مِذَّ عَهْدِ فَرَاغَتِهَا، فِي اسْتِخْرَاجِ خَرَاجِهَا وَجِبَاةِ أَمْوَالِهَا، أَنَّهُ لَا يَسْتَحْتِمُ اسْتِيفَاءُ الْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا عِنْدَ تَمَامِ الْمَاءِ، وَافْتِرَاشِهِ عَلَى سَائِرِ أَرْضِهَا، وَيَتِمُّعُ لِنَتَائِمِهِ فِي شَهْرِ ثُوت.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَرُبَّمَا كَانَتْ زِيَادَةٌ عَنْ ذَلِكَ، أُطْلِقَ الْمَاءُ فِي جَمِيعِ نَوَاحِيهَا مِنْ تَرْعِهَا، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَرَجَّحُ فِي الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ حَتَّى يَفْرُغَ ثُوت.

وَفِي أَوَّلِهِ يَكُونُ يَوْمُ الثُّورِوزِ، وَرَابِعُهُ أَوَّلُ أَيْلُولُ، وَسَابِعُهُ يُلْقَطُ الزُّيْتُونُ، وَثَانِي عَشْرُهُ يَطْلَعُ الْفَجْجَرُ بِالْصَّرْفَةِ^٢.

وَسَابِعُ عَشْرُهُ عِيدُ الصَّلِيبِ، فَيُشْرَطُ الْبَلَسَانُ، وَيُسْتَخْرَجُ دُفْنُهُ، وَيُفْتَحُ مَا يَتَأَخَّرُ مِنَ الْأَبْهَرِ وَالشَّرْعِ، وَتُرْتَّبُ الْمُدَاسَّةُ لِحِفْظِ الْجُشُورِ.

وَفِي ثَامِنِ عَشْرِهِ تُنْقَلُ الشَّمْسُ إِلَى بُرْجِ الْمِيزَانِ، فَيَدْخُلُ قَصْلُ الْحَرِيفِ. وَفِي خَامِسِ عَشْرِهِ يَطْلَعُ الْفَجْجَرُ بِالْعَوَاءِ، وَيَكْثُرُ صِغَارُ الشَّمَكِ.

وَفِي هَذَا الشَّهْرِ يَحْتَمِ مَاءُ الثَّلِيلِ أَرْضِي مِصْرَ.

وَفِيهِ تُسَجَّلُ الثَّوَاخِي، وَتُسْتَرْفَعُ السَّجَلَاتُ وَالْقَوَانِينُ، وَتُطْلَقُ التَّقَاوِي مِنَ الْغِلَالِ لَتَحْضِيرِ الْأَرْضِ. وَفِيهِ يَذْرُكُ الزَّمَانُ وَالْبَشَرُ وَالرُّطْبُ وَالزُّيْتُونُ وَالْفُطُنُ وَالسُّفْرَجُلُ.

وَفِيهِ يَكُونُ هُبُوبُ رِيحِ الشَّمَالِ أَقْوَى مِنْ هُبُوبِ رِيحِ الْجَنُوبِ، وَهُبُوبُ الْعَبَا أَقْوَى مِنَ الدُّبُورِ.

صَحِحُ الْأَعْشَى ٣٨٣:٢ - ٣٩١، Cérès Wissa Wassef, ٢١١-٢١٢ البيروني: الآثار الباقية ٤٤٩ المسعودي: The Coptic Encyclopedia II, pp. 438-41

^٢ القلقشندي: صَحِحُ الْأَعْشَى ٣٥٢:٢.

^١ انظر حول الشهور القبطية: المقدسي: أحسن التقاسيم ٢١١-٢١٢ البيروني: الآثار الباقية ٤٤٩ المسعودي: مروج الذهب ٣٣٥:٢ - ٣٣٦ الخروزمي: منهاج ٦-٨ ابن مكي: قوانين الدواوين ٢٣٤-٢٥٧ القلقشندي:

وكان قداماء المصريين لا يَنْصَبُون فيه أساسًا وفيه يَكْثُر بمصر العَنْبُ الشَّتْوِي ، ويُبَدَّر الحَمْضَات .

بَابُهُ [Bābah] - في أوله يُحْصَد الأَرْزُ ، ويُزْرَع القُول والهِزِيم وسائر الحُبُوب التي لا تُشَقُّ لها الأرض .

وفي رابعه أول تشرين الأول .

وفي ثامنه طُلُوعُ القَجَر بِالسَّحَاب^١ ، وهو نهاية زيادة الثَّيْل وابتداء نُقْصِه ، وقد لا يتم الماء فيه ، فيعجز بعضُ الأرض عن أن يَرْكَبَهَا الماء ، فيكون من ذلك نُقْصُ الحَرَاج عن الكَمَال .

وفي تاسعه يكون مَجِيءُ الكَرَاكِي إلى أرض مصر ، وفي عاشره يُزْرَع الكَثَّان .

وفي ثاني عشره يكون ابتداء شَقِّ الأرض بِصَعِيد مصر ، لبَذْرِ القَشَح والشَّعِير .

وفي ثامن عشره تُنْقَل الشَّمْسُ إلى بُرْجِ العَقْرَب ، ويُقَطَّع الخَشَب .

وفي تاسع عشره يكون ابتداء نُقْصِ ماء الثَّيْل ، وَيَكْثُرُ البُغُوض .

وفي حادي عشره يَطْلُعُ القَجَرُ بِالعَقَر^٢ .

وفي هذا الشهر تُصْرَفُ المِائَةُ عن الأَرْضِ ، وَيَخْرُجُ المُرَارِعُونَ لِتَخْضِيرِ الأَرْضِ : فَيَبْدَأُونَ بِبَذْرِ زِرَاعَةِ القُرْط ، ثم بِزِرَاعَةِ العَلَّةِ البَثْرِيَةِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا .

وفيهِ يُشْتَخَرُ دُهْنُ الآسِ وَدُهْنُ الثَّيْلُوفَر ، وَيُنْذَرُ الثَّقَرُ وَالزُّيْبُ وَالشَّقْسَمُ وَالْقُلُقَاس .

وفيهِ يَكْثُرُ صِغَارُ السَّحَكِ وَيَقِلُّ كِبَاؤُهُ ، وَيَمْنَعُ الرَّايَ وَالْإِيرِمِيسَ مِنَ السَّمَطِ خَاصَّةً وَتَسْتَحْكَمُ حِلَاوَةُ الرِّمَّانِ ، وَيَكُونُ فِيهِ أَطْلَبُ مِنْهُ فِي سَائِرِ الشُّهُورِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا ، وَيَضَعُ الضَّأَنُ وَالْمَيْزَ وَالْبَقَرُ الْحَيَّيَّةَ .

وفيهِ يُمْلَحُ السَّحَكُ الْمَعْرُوفُ بِالْبُورِي ، وَيَهْزُلُ الضَّأَنُ وَالْمَيْزُ وَالْبَقَرُ وَلَا تَطْلُبُ لُحُومُهَا ، وَتُنْذَرُ الحَمْضَات .

وفيهِ يَجِبُ كِتَابَةُ التَّذَاكِيرِ بِالأَعْمَالِ القُرْصِيَّةِ . وفيهِ يُغْرَسُ المُنْثَوْرُ وَيَزْرَعُ السَّلْجَمُ .

هَاتُور [Hatur] - في خامسه يكون أولُ تشرين الثاني ، وَيَطْلُعُ القَجَرُ بِالزُّبَانَانِ^٣ في رابعه^٤ .

(a) بولاق : بالزبانان .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٣ .

^١ الفلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٣ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

وفي سادسه يُزْرَع الخُشخاش . وفي سابعه يُصْرَف ماء النّيل عن أراضي الكَثّان ، ويُدْر في النّصف منه ، ويُقد تمام شهر يُسْبَخ .

وفي ثامنه أو أنّ المطر المؤسسي ، وفي حادي عشره تُهْب ريح الجنوب ، وفي خامس عشره تَبْرَد المياء بمصر ، وفي سابع عشره يُطْلَع الفَجْرُ بالإكليل ^١ ، وفي ثامن عشره تُحَلّ الشّمس بُزْج القوس ، وفي تاسع عشره يُغْلَق البَخر المِلح ، وفي سابع عشره تُهْب الرّياح اللّوايح .

وفي هذا الشّهر يَنْبَس أَهْلُ مصر الصّوف من سابعه .
وفيه يُكْتَسَر ما يُحْتَاج إليه من قَصَب الشّكر بِرِشَم المعاصير ، وبِراح القَلّة في جميع ما يُحْتَاج إليه فيها ، ويُهْتَم بِعَلْف أَهْبارِها وجمالِها بعد بيع شارِفها وعاجِزها والثّقويض عنه بِغَيْرِه ، وإفراد الأثيان بِرِشَم وَقُود القُتود ، وتَرْتيب القَوامِصَة لِقَتَل الأباليج والقواديس ، والأَمْطار بِرِشَم القُتود والأعْسال .

وفيه يُدْرِك البَتْفِيسج والتّيلوفر والمُشْثور ، ومن البَقُولات الإشفاناخ والبَلّسان .
واختار قُدَماءُ المصريّين في هاتور نَعْصَب الأساسات ، وَزَرَع القَمَح . وَأَطْيَب جِعلان السّنة حَمْلَه وفيه يَكْثُر العِنَب الذي كان يُحْمَل من قوص .
يَكْهَك [Kiyahk] - أوْلُه الأربعينات بمصر ، ويُدْخَل الطّيْر وَكْرَه .

وفي سادسه بِشارة مَرْيَم بِحَمْل عيسى عليهما السّلام . وفي سابعه أوّل كانون الأوّل .
وفي عاشره آخِر اللَّيالي البَلْق ، وأوْلها أوّل هاتور . وفي حادي عشره أوّل اللَّيالي الشّود ، ويُدْخَل النّخل الأَخْجِرة .

وفي ثالث عشره يُطْلَع الفَجْرُ بالشّوْلَة ^٢ ، وتُظْهَر البِراغيث ، وَيَسْخَنُ باطِنُ الأرض .
وفي سادس عشره يَشْقُط وَرَقُ الشّجر .

وفي سابع عشره تُثَقَل الشّمس إلى بُزْج الجَدْي ، فيُدْخَل فَضْلُ الشّتاء ، وَيُزْرَع الهَلْيُون .
وفي حادي عشره يكون آخِر اللَّيالي البَلْق ، وفي ثاني عشره عيد البِشارة ، وفي ثالث عشره تُزْرَع الحِلْبَة والثّومس .

وفي سادس عشره يُطْلَع الفَجْرُ بالثّمايم ^٣ .

^٣ نفسه ٢: ٣٥٣ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٥٣ .

^٢ نفسه ٢: ٣٥٣ .

وفي ثامن عشره يبيض النعام ، وفي تاسع عشره الميلاد .

وفي هذا الشهر يُزْرَع الحيار بعد/ إغراق أرضه .

وفيه يتكامل بذُر القمح والشعير والبرسيم الحيراني .

وفيه يُسْتَخْرَج خراج البرسيم بدار الوجه القيلي ، وفيه تُرْتَب محارِس الطير .

وفيه كَثُر قَصَب الشكر واعتصاره ، واستيخدام الطباخين لطبخ القنود .

وفيه يكون إدراك التزجس والمحتمصات والقول الأخضر والكرونب والجزر والكراث الأبيض واللفت .

وفيه يقل هبوب ربح الشمال ، ويكثر هبوب ربح الجنوب .

وفيه تجود الجند ، ويكون أطيب منها في جميع الشهور التي يكون فيها .

وفي هذا الشهر أكثر محبوب الحوث ، ولا يُزْرَع بعده في شيء من أرض مصر غير السمسم والمقاني والقطن .

طوبة [Tūbah] - في ثالثة ابتدء زراعة الخيصر والجلبان والعَدَس .

وفي سادسه أول كانون الثاني .

وفي تاسعه يطلع الفجر بالبدنة ^١ ، وعاشره صوم الغطاس ، وحادي عشره الغطاس .

وفي ثاني عشره يشتد البرد ، وفي رابع عشره يرتفع الوباء بمصر ، ويُغْرَس الثفل .

وفي سابع عشره تحل الشمس أول بُزج الدلو ، ويكثر الندى ، ويكون ابتدء غرس الأشجار .

وفي العشرين منه يكون آخر الليالي السود ، وحادي عشره الليالي الخلق الثانية ، وفي ثاني

عشره يطلع الفجر يستعد الذابح ^٢ ، وفي ثالث عشره تهب الرياح الباردة .

وفي رابع عشره تُفْرَح بجوارح الطير . وفي خامس عشره يكون إنتاج الإبل المحمودة . وفي

سابع عشره يصفو ماء النيل .

وفي ثامن عشره يتكامل إدراك القوط .

وفي هذا الشهر تُقْلَم الكروم ، ويُظْلَف زرع القلة من اللسان وغيره ، ويُظْلَف زرع الكتان من

الفجل وغيره .

وفيه تُبرش الأراضي أول شكة يرشم الصيافي والمقائي والقطن والسنسم ، وينتهي بُرشها في أول أمشير .

وفيه تُسقى أرض القلقاس والقصب ، وتُشق الحُشور في آخره .

وفيه تُستخرج أراضي الحرس ، ويكثر القصب الرأس بعد إفرار ما يحتاج إليه من الزريعة ، وهو لكل قدان طين قيراط طيب قصب رأس .

وفيه يُهتَم بِمِجَازَةِ الشواقي ، وحفر الآبار ، وإتياع الأبقار .

وفيه يظهر اللوز الأخضر والنبق والهلون .

وفيه أيضا يكون هبوب ريح الجنوب أكثر من هبوب الشمال ، وهبوب الصبا أكثر من هبوب الدبور .

وفيه يكون الباقل الأخصر والجزر أطيب منهما في غيره .

وفيه يتناهى ماء النيل في صفائه ، ويُحزَن فلا يتغير في أوانيه ولو طال لبثه فيها .

وفيه تعلب لحوم الضأن أطيب منها في سائر الشهور .

وفيه ترتبط الحيوّل والبالغ على القُرط من أجل ربيعها .

وبطوبة يطالب الناس بافتتاح الحراج ، ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات عن جميع ما بأيديهم من المحلول والمفقود .

أمشير [Amshir] - في أوله تختلف الرياح ، وفي خامسه يُطلُع الفجر بسعد بلع^١ ، وفي سادسه يكون أول شباط .

وفي تاسعه يجري الماء في العود ، وحادي عشره أول جُمرة باردة ، وسادس عشره نخل الشمس بأول بُرج الحوت .

وفي سابع عشره يُخرج النخل من الأحجرة ، وفي ثامن عشره يُطلُع الفجر بسعد الشفود^٢ .

وفي العشرين منه ثاني جُمرة فاترة ، وفي ثالث عشره تُقَلَم الكروم ، وخامس عشره يُفْرَخ النخل .

وسابع عشره ثالث جُمرة حامية ، ويُوزَق الشجر وهو آخر غريبها ، وفي آخره يكون آخر الليالي البلق .

^١ القلقندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٤ .

وفي هذا الشهر يُقْلَع السَلْجَم ويُسْتَخْرَج خِرَاجُهُ ، وفيه يُنْتَقَى برش الصَّيَافِي ، وَتُبْرَسُ أَيْضًا نَالِث سَكَّة .

وفيهِ يُعْمَلُ مَقَاطِيعُ الجُسُور ، وَتُحَصَّح الأَرْضِي ، وَتُرَقَّد البَيْضُ فِي المَاعِلِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آخِرَهَا بَشْنَس .

وفيهِ يَكُونُ رِيحُ الشَّمَالِ أَكْثَرَ الرِّيحِ مُهَوَّبًا .
وفيهِ يُنْبَغِي أَنْ تُعْمَلَ أَوَانِي الخَزَفِ للمَاءِ لِتُسْتَعْمَلَ فِيهِ طُولَ السَّنَةِ ، فَإِنَّ مَا عُمِلَ فِيهِ مِنْ أَوَانِي الخَزَفِ يَبْرُدُ المَاءُ فِي الصَّيْفِ أَكْثَرَ مِنْ تَبْرِيدِ مَا يُعْمَلُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ .
وفيهِ يَتَكَامَلُ غَرْسُ الشَّجَرِ وَتَقْلِيمُ الكُرُومِ وفيهِ يُنْزِعُ الثُّبُقُ وَاللُّوزُ الْأَخْضَرُ وَيَكْثُرُ البَتْنَشِيجُ وَالْمُنْثُورُ .

وَيُقَالُ : أَمَشِيرُ يَقُولُ لِلزَّرْعِ سِيرُ ، وَيُلْحِقُ بِالطُّوِيلِ الْقَصِيرُ .
وفيهِ يَقِلُّ البَرْدُ ، وَيَهْبُ الهَوَاءُ الَّذِي فِيهِ سُخُونَةٌ مَا .
وفي أَمَشِيرٍ يُؤْخَذُ النَّاسُ فِيهِ بِإِتْمَامِ زَرْعِ الخِرَاجِ مِنَ السَّجَلَاتِ .
بَرَمَهَات [Baramhat] - أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْهُ يُطْلَعُ الفَجَرُ بِالْأَخْيَةِ ، وفي خَامِسِهِ يَعْحَضُنْ دُودَ القَزِّ ، وَسَادِسِهِ يُزْرَعُ الشَّنْفِيمُ .

وِثَانِي عَشْرَهُ يُقْلَعُ الكَثَانُ ، وَرَابِعَ عَشْرِهِ يَكُونُ أَوَّلُ الْأَعْجَازِ ، وَيَطْلَعُ الفَجَرُ بِالْفَرْعِ ١٥
الْمُقَدَّمُ ١ .

وفي سَادِسَ عَشْرِهِ تُفْتَحُ الحِمَاتُ أَعْيُنُهَا ، وفي سَابِعَ عَشْرِهِ تُثَقَّلُ الشُّنْسُ إِلَى بُرْجِ الحَمَلِ ، وَهُوَ أَوَّلُ فَضْلِ الرِّيحِ ، وَرَأْسُ سَنَةِ الجِنْدِ ، وَرَأْسُ سَنَةِ الْعَالَمِ .

وفي الْعِشْرِينَ مِنْهُ يَكُونُ آخِرُ الْأَعْجَازِ ، وَثَانِي عَشْرِهِ يَتَأَجُّ الحَيَلُ الْمُحْمُودَةُ ، وَثَالِثَ عَشْرِهِ يُظْهِرُ الذُّبَابُ الْأَزْرَقُ ، وَخَامِسَ عَشْرِهِ تَظْهَرُ هَوَامُ الْأَرْضِ ، وَسَابِعَ عَشْرِهِ يُطْلَعُ الفَجَرُ بِالْفَرْعِ الْمُؤَخَّرِ ٢٠ ،
وفي آخِرِهِ يَتَفَرَّقُ السَّحَابُ .

وفي هَذَا الشَّهْرِ تَجْرِي المَرَاكِبُ الشَّفَرِيَّةُ فِي البَحْرِ المِلْحِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ مِنَ المَغْرِبِ وَالزُّومِ ، وَيُهْتَمُّ فِيهِ بِتَجْرِيدِ الْأَجْنَادِ إِلَى الثُّغُورِ كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَدِمَاطِ وَتَيْسَ وَرَشِيدَ .
وفيهِ كَانَتْ تُجَهَّزُ الْأَسَاطِيلُ وَالمَرَاكِبُ الشُّوَانِي لِحِفْظِ الثُّغُورِ .

وفيه زَرْعُ الْمُقَاتِي والصَّيْفِي ، وتَذْرِكُ الْقَوْلُ والعَدَسُ ، ويُقْلَعُ الْكَثَّانُ ، وتُزْرَعُ أَقْصَابُ الشَّكْرِ فِي الْأَرْضِ الْمَبْرُورَةِ الْمُخْتَارَةِ لِدَلِكِ ، الْبَيْعَةِ الْعَهْدِ/ عَنْ الزَّرَاعَةِ ، وَيَأْخُذُ الْمُقَشَّرُونَ فِي تَنْظِيفِ الْأَرْضِ الْمَزْرُوعَةِ مِنَ الْقَشِّ فِي وَقْتِ الزَّرَاعَةِ ، وَيَأْخُذُ الْقَطَّاعُونَ فِي قَطْعِ الزَّرْبَةِ ، وَيَأْخُذُ الْمُرَارِعُونَ فِي زَمَنِ قَطْعِ الْقَصَبِ .

٥. وفيه يُؤْخَذُ فِي تَحْصِيلِ الثُّغْرُونَ ، وَحَقْلِهِ مِنْ وَادِي هَبِيبٍ إِلَى الشُّونَةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

وفيه يَكُونُ رِيحُ الشَّمَالِ أَكْثَرَ الرِّيَّاحِ هُبُوتًا .

وفيه تُزْهِرُ الْأَشْجَارُ ، وَيَنْقُذُ أَكْثَرَ ثِمَارِهَا .

وفيه يَكُونُ اللَّبَنُ الرَّائِبَ أَطْيَبَ مِنْهُ فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ الَّتِي يُعْمَلُ فِيهَا .

وفي بَرْمَهَاتٍ يُطَالَبُ النَّاسُ بِالزَّرْعِ الثَّانِي وَالثَّلْثِي مِنَ الْحَرَاجِ .

١٠. بِرْمُودَةَ [Baramudah] - فِي سَادِسَةِ أَوَّلِ نَيْسَانَ ، وَفِي عَاشِرَةِ يَطْلُعُ الْقَجَرُ بِالرُّشَاءِ ^١ ، وَفِي ثَانِي

عَشْرِهِ يُقْلَعُ الْفِجْلُ ، وَفِي سَابِعِ عَشْرِهِ تَحْلُ الشُّنْسُ أَوَّلُ بُرْجِ الثَّوَرِ .

وفي ثَالِثِ عَشْرِهِ يَطْلُعُ الْقَجَرُ بِالشُّرْطَيْنِ ^٢ ، وَهُوَ رَأْسُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْقَمَرِ ، وَفِي اثْنَيْدَافٍ

كَيْسَارِ الْقَوْلِ وَحَصَادِ الْقَمَحِ وَهُوَ يَخْتَامُ الزَّرْعَ .

وفي هَذَا الشَّهْرِ يُهْتَمُّ بِقَطْعِ خَشَبِ السَّنَطِ مِنَ الْحَرَاجِ الَّتِي كَانَ بِمِصْرَ فِي الْقَدِيمِ أَيَّامَ الدَّوْلَةِ

١٥. الْفَاطِمِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ ، وَيُجَبَّرُ إِلَى السَّوَاوِجِلِ لِتَيْسِيرِ حَمْلِهِ فِي زَمَنِ الثَّيْلِ إِلَى سَاحِلِ مِصْرَ ، لِيعْمَلَ

شَوَانِي وَأَخْطَابًا بِرُشْمِ الْوَقُودِ فِي الْمَطَابِخِ السُّلْطَانِيَّةِ .

وفيه يَكْثُرُ الْوَرْدُ ، وَيُزْرَعُ الْخِيَارُ شَتْرَ الْمُلُوحِيَّةِ وَالْبَازِئِجَانِ ، وَفِيهِ يُقَطَّفُ أَوَائِلُ عَمَلِ الثَّخْلِ ،

وَيَنْقَضُ بَرَزُ الْكَثَّانِ . وَأَحْسَنُ مَا يَكُونُ الْوَرْدُ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ زَمَانِهِ .

وفيه يَظْهَرُ الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الْحَيْضِ . وَفِيهِ تَقَعُ الْمِسَاحَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ ، وَيُطَالَبُ النَّاسُ

٢٠. بِإِغْلَاقِ نِصْفِ الْحَرَاجِ مِنْ سِجْلَاتِهِمْ ، وَيُخَصَّدُ بِذَرِي الزَّرْعِ .

بَشَنَسَ [Bashans] - فِي خَامِسَةِ تَكْثُرُ الْفَايَكَةُ . وَسَادِسَةِ أَوَّلِ أَمَارَ ، وَفِيهِ طُلُوعُ الْقَجَرِ بِالْبَطْنَيْنِ ^٣ .

وِثَامُهُ عِيدُ الشَّهِيدِ ، وَتَاسِعُهُ انْفِتَاحُ الْبَحْرِ الْمَالِحِ ، وَرَابِعُ عَشْرِهِ يُزْرَعُ الْأُرْزُ ، وَثَامَنُ عَشْرِهِ تَحْلُ

الشُّنْسُ أَوَّلُ بُرْجِ الْجُوزَاءِ ، وَفِيهِ يَطْوِبُ الْحَصَادُ .

وفي تَاسِعِ عَشْرِهِ يَطْلُعُ الْقَجَرُ بِالثَّرْمَا ^٢ ، وَفِيهِ زِرَاعَةُ الْأُرْزِ وَالسُّنْسِمِ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤ حيث أطلق عليه ^٢ نفسه ٢ : ٣٥١ . ^٣ نفسه ٢ : ٣٥١ .

ورابع عشره يكون عيد البَلَسَان بالمطرية ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ اليوم الذي دَخَلَتْ فيه مَرْيَمُ إلى مصر . وفي هذا الشهر يكون دِرَاسُ القَلَّة ، وهِدَارُ الكَتَّان ، وَتَقْصُ البُرِّ والثَّقَاوي والأَثْبَان وحملها . وفيه زِرَاعَةُ البَلَسَان وتَقْلِيْشُهُ وَسَقِيْهِ ، وتَكْرِيْمُ أَرْضِيهِ مِنْ بَثْوَنَةِ إلى آخر هاتُور ، واشْتِيْخَاجُ دُخْنِهِ بعد شَرْطِهِ في نصف توت ، وإن كَانَ في أَوَّلِهِ فهو أَصْلَحُ إلى آخِرِ هاتُور . وَصَلَحُ أَثْمَانِهِ أَثَامُ الثَّدْيِ ، ويُعْمِمْ في الثَّدْيِ سَنَةً كَامِلَةً إلى أَنْ يَشْرَبَ أَهْكَارَهُ وَأَوْسَاخَهُ . وَيُطْبِخُ الدُّهْنُ في الفَصْلِ الرُّبْعِي في شهر بَرْقَمَهَات ، فيَقْتَلُ لِكُلِّ زَنْطَلٍ مِصْرِيٍّ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا مِنْ مَائَةٍ ، فيَخْصُلُ مِنْهُ قَدْرُ عَشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الدُّهْنِ .

وفي هذا الشهر أَكْثَرُ مَا يَهْبُتُ مِنَ الرِّيحِ الشَّمَالِ^(٥) .

وفيه يُذْرِكُ الثَّقَاحُ القَايِسِي ، وَيَتَدَيُّ فِيهِ الثَّقَاحُ المِشْكِي والبَطِيخُ القَبْدَلِي ، ويُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا عَرِفَ بِمِصْرٍ عِنْدَمَا قَدِمَ إِلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ بَعْدَ الْمَائَتَيْنِ مِنْ سِنِي الْهَجْرَةِ ، فَتَسَبَّبَ إِلَيْهِ وَقِيلَ لَهُ القَبْدَلِي^١ .

وفيه أَيْضًا يَتَدَيُّ البَطِيخُ الحَوْفِي^(٦) والمِشْمَشُ والحَفُوحُ الزَهْرِي ، وَيُجْنَى الْوَرْدُ الْأَبْيَضُ .

وفيه تَقْرُرُ المِيسَاخَةُ ، وَيَطْلُبُ النَّاسُ بِمَا يُضَافُ إِلَى المِيسَاخَةِ مِنْ أَبْوَابٍ وَمُجُوهٍ مَالٍ - كَالصَّرْفِ وَالْجَهَنْدَةِ وَحَقِّ المِرَاعِي والقُرْطِ والكَتَّان - عَلَى رُشُومٍ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

وَيُسْتَخْرَجُ فِيهِ إِنْجَامُ الرُّبْعِ مِمَّا تَقْرُرُ عَلَيْهِ الْعُقُودُ والمِيسَاخَةُ ، وَيُطْلَقُ الْحَصَاذُ لِكُلِّ النَّاسِ .^{١٥} بِسَوْنَةِ [Ba'ûnah] - فِي ثَانِيهِ يَطْلُعُ الفَجْرُ بِالدَّيْرَانِ^٢ ، وَفِي خَامِسِهِ يَنْتَفُسُ الثَّيْلُ ، وَفِي تَاسِعِهِ أَوَّانُ قَطْفِ الثَّغْلِ .

وفِي حَادِي عَشْرِهِ تَهْبُتُ رِيَاغُ السَّمُومِ ، وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ عِيدُ مِيكَائِيلَ فَيُؤْخَذُ قَاعُ الثَّيْلِ ، وَفِي ثَالِثِ عَشْرِهِ يَشْتَدُّ الْحَرُّ ، وَفِي خَامِسِ عَشْرِهِ يَطْلُعُ الفَجْرُ بِالْهَقَّةِ^٣ .

وفِي عَشْرِهِ تَحُلُّ الشَّمْسُ أَوَّلُ بُرْجِ السَّرْطَانِ ، وَهُوَ أَوَّلُ فَضْلِ الصَّيْفِ .^{٢٠} وَفِي سَابِعِ عَشْرِهِ يَنَادِي عَلَى الثَّيْلِ بِمَا زَادَهُ مِنَ الْأَصَابِعِ . وَفِي ثَامِنِ عَشْرِهِ يَطْلُعُ الفَجْرُ بِالْهَقَّةِ^٤ .

(٥) بولاق : الشمالية . (٦) بولاق : الجربي .

^٣ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

^١ فيما تقدم ١١١ .

^٤ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٢ .

وفي هذا الشهر تُسَقَر المَرَائِبُ لإخضار الغلال والتبن والقنود والأعسال وغير ذلك، من الأعمال القوصية ونواحي الوجه البحري.

وفيه يُقَطَف عَسَل النحل، وتُحْرَص الكُروم، ويُسْتَخْرَج زكاتها.

وفيه يُنْدَى الكَثَان، ويُقَلَب أربعة أوجه في بقوثة وأيب.

وفيه زراعة الثيلة بالصعيد الأعلى، وتُحْصَد بعد مائة يوم، ثم تُتْرَك وتُحْصَد في كل مائة يوم حصدة، ويُحْصَل في أول كيهك وطوبة وأمشير وبرفها، ويُطْلَع في برمودة، وتُحْصَد في عشرة أيام من أيب، وتُقيم في الأرض الجيدة ثلاث سنين، وتُسْقَى كل عشرة أيام دَفْعَتَيْن، وثاني سنة ثلاث دَفْعَات، وثالث سنة أربع دَفْعَات.

وفي هذا الشهر يكوّن التبن الفيومي، والخوخ الزهري، والكُمثرى والقراضيا والقثاء والتلح والحضرم، ويتدّى إدراك الغضفر.

وفيه يَدْخُل بعض العنب، ويطبب الثوت الأسود، ويُقَطَف مجهور العسل فكون رباخه قليلة، والتبن يكون فيه أطيب منه في سائر الشهور، وفيه يُطْلَع النحل، وفيه يُسْتَخْرَج تمام نصف الحراج مما بقي بعد المساحة.

أيب [Abib] - في سابعه أول تموز، وفي عاشره آخر قَطْع الخشب، وفي حادي عشره يُطْلَع الفجبر بالذراع^١، وثاني عشره ابتداء تقطين الكَثَان.

وفي خامس عشره يُقَل مَاء الآبار، وتُذْرِك الفواكه، ويؤت الدود. وفي حادي/ عشره نَحَل الشمس أول بُرج الأسد، وتَذْهَب البراغيث، ويَزِيد باطن الأرض، وتَهْبِج أوجاع العين.

وفي خامس عشره يُطْلَع الفجبر بالثثرة^٢، وفي سادس عشره تُطْلَع الشغرى العبور اليمانية. وفي هذا الشهر أكثر ما يهْب من الرياح الشمال، ويكثر فيه العنب ويجود.

وفيه يطبب الثبن المقرون بمجيء العنب، ويتغير البطيخ العبدلي وتقل حلاوته، وتكثر الكُمثرى السكرية، ويطبب البلح.

وفيه يُقَطَف بقايا عسل النحل، وتَقْوَى زيادة ماء النيل فيقال: «في أيب يدب الماء ديب».

وفيه يُنْقَع الكَثَان بالميلات، ويُمَاع يزسم البذر يزسم زراعة القروط والكَثَان.

وفيه تُذْرَك ثمرة العنب، ويُحْصَد القوطم وفيه تُسْتَم ثلاثة أرباع الحراج.

مِشْرِى [Misra] - في سابعه يُطْلَع الفَجْرُ بالطَّرْفِ^١، وفي ثامنه أوَّل آب، وفي حادي عشره يجمع القُطْن، وفي رابع عشره يَحْتَمَى الماء ولا يَتَرَد، وفي سابع عشره اسْتِكْمَال الثَّمَار.

وفي عشره يُطْلَع الفَجْرُ بِالْجَبَّةِ^٢، وفي حادي عشره تَحُلُّ الشَّمْسُ بُرْج السُّتْبَلَةِ.

وفي ثالث عشره يَتَغَيَّر طَعْمُ الفَاكِهَةِ لِقَلْبَةِ ماء الثَّيْل على الأرض، وفي خامس عشره يكون آخِر السَّمُوم، وفي تاسع عشره يُطْلَع شَهْل بِمِصْر.

وفي هذا الشهر يَكُونُ وَفَاءُ الثَّيْل ستة عشر ذِرَاعًا في غَالِبِ السَّنِينَ، حَتَّى قِيلَ إِنْ لَمْ يُؤَفَّ الثَّيْل في مِشْرِى فَانْتَظِرْهُ في السَّنَةِ الأُخْرَى.

وفيه يَجْرِي ماءُ الثَّيْل في خَلِيج الإِسْكَندَرِيَّة وتُسَافِرُ فِيهِ المَرَاكِبُ بِالْغِلَالِ والبَهَارِ والشَّكْرِ وسَائِرِ

أَصْنَافِ المَتَاجِرِ وفيه يَكْثُرُ البَشَرُ. وَكَانُوا يَخْرُصُونَ الثَّخُلَ، وَيُخْرِجُونَ زَكَاةَ الثَّمَارِ في هذا الشهر، عِنْدَمَا كَانَتِ الزُّكُوتُ يَجْبِيهَا السُّلْطَانُ مِنَ الرِّعِيَّةِ.

وَأَكْثَرُ مَا يَهْبُ فِي هَذَا الشَّهْرِ رِيحُ الشَّمَالِ.

وفيه يَقْصِرُ قَيْطُ مِصْرِ الحَمَرِ، وَيُعْمَلُ الحَلَّاءُ مِنَ العِنَبِ وفيه يُذْرِكُ المَوْزُ، وَأَطْيَبُ مَا يَكُونُ المَوْزُ بِمِصْرِ فِي هَذَا الشَّهْرِ.

وفيهِ يُذْرِكُ اللَّيْمُونَ الثَّقَاحِي، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَصْنَافِ اللَّيْمُونَ بِأَرْضِ مِصْرَ لَيْمُونَ يُقَالُ لَهُ الثَّقَاحِي، يُؤْكَلُ بَنِيَّ شُكْرٍ لِقَلَّةِ جِمْعِهِ وَلَذَّةِ طَعْمِهِ. وفيه يَكُونُ ابْتِدَاءُ إِذْرَاكِ الوَثَانِ.

وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مِشْرِى، ابْتَدَأَتْ أَيَّامُ النَّسِيءِ، فَنِي أَوَّلُهَا ابْتِدَاءُ هَيْجِ الثَّعَامِ، وَفِي رَابِعِهَا يُطْلَعُ

الفَجْرُ بِالْحَرَتَانِ^٣.

وفي مِشْرِى يُثْلِقُ الفَلَّاحُونَ خَرَاجَ أَرْضِي زِرَاعَتِهِمْ، وَكَانُوا يُؤَخَّرُونَ البَقَايَا عَلَى دَقِّ الكَثَّانِ في مِشْرِى وَأَيْسَبَ، لِأَنَّ الكَثَّانَ يَهْلُ فِي ثَوْتٍ، وَيُذَقُّ فِي بَاتِه.

^١ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

^٢ نفسه ٢: ٣٥٢.

^٣ نفسه ٢: ٣٥٢.

ذكر تحويل السنة الحرجية البغدادية إلى السنة الهجرية العربية

وكيف عُمل ذلك في الملة الإسلامية^١

قد تَقَلَّدَ ، فيما سَلَفَ من هذا الكتاب ، التَّعْرِيفُ بالسَّنة الشَّمْسِيَّةِ والسَّنة القَمَرِيَّةِ ، وما لِلأُمَّمِ في كَيْسِ السَّنِينَ مِنَ الآرَاءِ . فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ ، تَحَوَّرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كَيْسِ السَّنِينَ خَشْيَةَ الْوُقُوعِ فِي النَّسِيءِ^٢ الَّذِي قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ : ﴿لَمَّا التَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آيَةُ ٣٧ سورة التوبة] .

ثُمَّ لَمَّا رَأَوْا تَدَاخُلَ السَّنِينَ القَمَرِيَّةِ فِي السَّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ ، أَشَقَقُوا عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً سَنَةً ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ الْإِزْدِلَافَ^٣ ، لِأَنَّ كُلَّ^٤ ثَلَاثِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً بِالتَّقْرِيبِ . وَسَأَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ ذَلِكَ مَا لَمْ أَرَهُ مُجْمَعًا .

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ^٥ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ^٦ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَضِدِ بِاللَّهِ أَبِي الْقَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ طَلْحَةَ الْمُؤَفَّقِ ابْنَ الْمُتَوَكِّلِ» وَمِنْهُ نَقَلْتُ : وَخَرَجَ أَمْرُ الْمُقْتَضِدِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ ، بِتَضْمِينِ الثُّورُوزِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ حَزْرَتَانِ ، رَافِقَةُ بِالرَّوْحِيَّةِ وَإِبْرَاهِيمُ بِالْإِزْفَانِيَّةِ .

وَقَالُوا : خَرَجَ التَّوْقِيعُ فِي الْمَحْرُومِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ ، بِإِنْشَاءِ الْكُتُبِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي التَّوَّاحِي وَالْأَمْنَصَارِ ، بِتَرْكِ اقْتِحَاحِ الْحَرَاجِ فِي الثُّورُوزِ الْفَارِسِيِّ الَّذِي يَقَعُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ صَفَرٍ ، وَأَنْ يُجْعَلَ مَا يُفْتَتَحُ مِنْ خَرَاجِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً تَخْلُو مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ حَزْرَتَانِ -

(a) يولاي : الإسلام . (b) يولاي : الإزدلاق . (c) يولاي : لكل . (d) في النسخ : أبو الحسن .

^١ يوجد بداية هذا الفصل في طيارة في الكرامة التي بخطط المقرئ في المخطوطة في مكتبة Lige.

^٢ انظر عن النسيء فيما يلي ٧٦٦-٧٦٩.

^٣ أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر طيفور الحنفي سنة ٣١٣هـ ، روى عن أبيه كتابه المصنف في أخبار بغداد ١٠: ١٣٤٨ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩: ١٣٤٩ Rosenthal, F., *Et art. Ibn abi Tahir Tayfur III*, (p. 715).

يُسمى هذا التوروز المُغتصدي - قَرَفِهَا لِأَهْلِ الْخَرَجِ ، ونظرًا لهم ^١.

وَتُسَمَّى التَّوْقِيعُ الْخَارِجُ فِي تَصْصِيرِ انْفِتَاحِ الْخَرَجِ فِي مُحْزَنَانِ :

«أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَوَّلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلتَّحَلُّ الَّذِي أَخْلَهُ بِهِ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، رَأَى أَنَّ مِنْ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ أَلَّا يُكَلِّفَهَا إِلَّا مَا بِهِ الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ لَهَا وَالشَّيْرَةُ الْقَاصِدَةُ ، وَأَنْ يَتَوَلَّى لَهَا صَلَاحُ أُمُورِهَا ، وَيَسْتَقْرَى الشَّيْرُ وَالْمُعَاتَلَاتُ الَّتِي كَانَتْ تُعَاتِلُ بِهَا ، وَيَقَرَّ مِنْهَا مَا أَوْجِبَ الْحَقُّ إِقْرَارَهُ ، وَيُرْدَلَ مَا أَوْجِبَ إِزَالَتُهُ ، غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لَهَا كَثِيرًا مَا يُحْقِطُهُ الْعَدْلُ ، وَلَا مُسْتَقِيلَ لَهَا قَلِيلًا مَا يُلْزِمُهُ إِيَّاهَا الْحُزْرُ .

وقد وَفَّقَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا يَرْجُو أَنْ يَكُونَ لِحَقِّ اللَّهِ فِيهَا قَاضِيًا ، وَلِتَصْصِيهَا مِنَ الْعَدْلِ مُوَازِيًا . وبِاللَّهِ يَسْتَمْتَعِينَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حِفْظِ مَا اسْتَرْعَاهُ مِنْهَا ، وَجِيَاطَلَةُ مَا قَلَّدَهُ مِنْ أُمُورِهَا ، وَهُوَ خَيْرٌ مُوَفَّقٍ وَمُعِينٌ .

وَأَنَّ أَبَا الْقَاسِمِ عبيدَ اللَّهِ رَفَعَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - فِيمَا أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، مِنْ رَدِّ التَّوْرُوزِ الَّذِي يُفْتَتَحُ بِهِ الْخَرَجُ بِالْعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ وَمَا يُتَّصِلُ بِهِمَا وَيَجْرِي مَجْرَاهُمَا ، مِنْ التَّوَقُّتِ/ الَّذِي صَارَ فِيهِ مِنَ الزَّمَانِ إِلَى التَّوَقُّتِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُتَقَدِّمًا ، مَعَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي مُسْتَقْبَلِ السَّنِينَ مِنَ الْكَيْسِ ، حَتَّى يَصِيرَ الْعَدْلُ عَامًا فِي الزَّمَانِ كُلِّهِ ، بَاقِيًا عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ وَمَرِّ الْأَيَّامِ - مُؤَامَرَةً أَمَرَ^(٨) أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَنْصِيحِهَا^(٩) لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ ، مَعَ مَا وَقَعَ بِهِ فِيهَا لِتَعْمِيلِهِ ، فَافْعَلْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَكُتِبَ يَوْمَ الْحَمِيسِ لثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ^(١٠) .

نُسَخَةُ الْمُؤَامَرَةِ^٢ :

«أَنْتَهَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، وَرَزَقَهَا إِثْمًا مِنْ

(٨) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بسجلها .

^٢ المؤامرة . انظر فيما تقدم ٣٤٥ هـ .^٢

^١ قارن مع البيروني : الآثار الباقية ٣٦ .

رَأْفَتِهِ وَحُشْنُ نَظَرِهِ ، وإِقَامَتِهِ عَلَيْهَا مِنْ عَذْلِهِ وَإِنصَافِهِ ، وَرَفْعِهِ عَنْهَا فِي خِلَافَتِهِ مِنْ الظُّلْمِ الشَّامِلِ مَا كَانَ الْأَقْصَى وَالْأَذْنَى ، وَالصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ ، وَالْمُسْلِمَ وَالذَّمِّيَّ فِيهِ سَوَاءٌ ، مَا خَرُوتُهُ مِنْ ثَقُلِ كُتُبِ الْخَرَاجِ عَنْ السَّنَةِ الَّتِي كَانَتْ تُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ سِنِي الْهَجْرَةِ ، إِلَى السَّنَةِ الَّتِي فِيهَا تُذْرِكُ الْعَلَاتُ وَيُسْتَخْرَجُ الْمَالُ .

وَأَنَّ ذَلِكَ مَا كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَهْلِ حَاوِلَهُ وَبَعْضُ الْمُتَعَلِّينِ اسْتَعْمَلَهُ ، مِنْ تَثْبِيتِ الْخَرَاجِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَمُطَابَقَتِهِمْ بِهِ قَبْلَ وَقْتِ الزَّرَاعَةِ ، وَإِغْنَاتِهِمْ^(a) بِذِكْرِ سَنَةِ مِنَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُنْسَبُ الْخَرَاجُ لِإِحْدَاهُمَا ، وَتَذْرِكُ الْعَلَاتُ وَيَقَعُ الْأَشْيُخْرَاجُ فِي الْأُخْرَى مِنْهُمَا ، فِي حِسَابِ شُهُورِ الْفُرْسِ الَّتِي عَلَيْهَا يَجْرِي الْقَتْلُ فِي الْخَرَاجِ بِالشَّوَادِ وَمَا يَلِيهِ ، وَالْأَهْوَاذِ وَفَارِسَ وَالْجَبَلِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِي الْمَشْرِقِ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهِ .

إِذَا كَانَ عَمَلُ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ جَزَى عَلَى حِسَابِ شُهُورِ الرُّومِ الْمُوَافِقَةِ لِلْأَزْمِنَةِ ، فَلَيْسَتْ تَخْتَلِفُ أَوْقَاتُهَا مَعَ الْكَبِيئَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهَا . وَالْقَتْلُ فِي خَرَاجِ مِصْرَ وَمَا وَالِهَا عَلَى شُهُورِ الْقِبْطِ الْمُوَافِقَةِ لِشُهُورِ الرُّومِ ، وَكَانَتْ مِنْ شُهُورِ الْفُرْسِ قَدْ خَالَفَتْ مَوَاقِعَهَا مِنَ الرُّمَانِ بِمَا تُرِكَ مِنْ الْكَبِيسِ ، مُنْذُ أَرَاكَ اللَّهُ مُلْكَ فَارِسَ ، وَقَفَّحَ لِلْمُسْلِمِينَ بِلَادَهُمْ ، فَصَارَ الثُّورُوزُ - الَّذِي كَانَ الْخَرَاجُ يُفْتَتَحُ فِيهِ بِالْعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ - قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَرِكِ الْكَبِيسِ شَهْرَيْنِ ، وَصَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِدْرَاكِ الْعَلَّةِ .

فَأَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - بِمَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى كُلِّ مَا عَادَ بِصَلَاحِ رَعِيَّتِهِ ، وَحُشْنًا لِلْأَنْشَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى إِغْنَاتِهَا^(b) - بِتَأْخِيرِ الثُّورُوزِ الَّذِي يَقَعُ فِي شُهُورِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ مِنْ سِنِي الْهَجْرَةِ ، عَنْ الْوَقْتِ الَّذِي يَتَّبِقُ فِيهِ أَيَّامُ سَنَةِ الْفُرْسِ - وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِإِحْدَى عَشْرَةِ تَخْلُو مِنْ صَفَرٍ - مِثْلَ عِدَّةِ أَيَّامِ الشَّهْرَيْنِ مِنْ شُهُورِ الْفُرْسِ الَّتِي تُرِكَ كَتَبُهَا وَهِيَ سِتُونَ يَوْمًا ، حَتَّى يَكُونَ نَوْرُوزُ السَّنَةِ وَاقِعًا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لثَلَاثَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ تَخْلُو مِنْ شَهَرٍ

(a) بولاق : وإغنيائهم . (b) بولاق : إغنيائهم .

ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وهو الحادي عشر من حَزْران ؛ وهو
يُتَّصَلُ بهما وَيَجْرِي مَجْزَاهُما ، وَيُنْسَبُ وَيُضَافُ إليهما ، وسائر أعمالهم ،
وما يُمَلِّه أَصْحَابُ الْحَيْتَابِ مِنَ التَّقْوِيَّاتِ وَجَمِيعِ الْأَعْمَالِ ، وما يَعِدُّهُ
الْقُرْسُ من شُهُورهم إلى شُهُوره الْكَبِيَّةِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ ، ثم يُكَبِّسُ بعد ذلك
في كُلِّ أَرْبَعِ سِنِينَ من سِنِي الْقُرْسِ ، وَلَا يَقَعُ تَفَاوُتٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا عَلَى مُرُورِ
الْأَيَّامِ .

وَلَيْكُنْ أَبَدًا وَاقِعًا فِي حَزْران ، وَغَيْرِ خَارِجٍ عَنْهُ ، وَأَنْ يُلْفَى ذِكْرُ كُلِّ سَنَةٍ
مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ تُنْسَبُ إِلَى الْخَرَجِ بِالْعِرَاقِ ، وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَسَائِرِ
التَّوْحَاكِ وَالْآفَاقِ ، إِذْ كَانَ مَقْدَارُ سِنِي أَيَّامِ الْهَجْرَةِ وَالسَّنَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَزْمِنَةِ
الَّتِي تَتَكَامَلُ فِيهَا الْقَلَاتُ .

وَأَنْ يَخْرُجَ التَّوْقِيعُ بِذَلِكَ ، لِنَشْأِ الْكُتُبِ بِهِ مِنْ دِيوانِ الرِّسَائِلِ إِلَى وِلَاةِ
الْمَعَاوِنِ وَالْأَحْكَامِ ، وَتُقْرَأَ عَلَى الْمَنَائِرِ ، وَيَحْمَلُ أَصْحَابُ الْمَعَاوِنِ الرِّعِيَّةِ عَلَيْهِ ،
وَتَأْخُذُهَا بِأَمْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسُنَّتُهُ الْحُكَّامُ فِي دِيوانِ مُحْكَمِهِمْ ،
لِيُعْتَمَلَ الضُّمْنَاءُ وَالْمُقَاطِعُونَ^(٥) ذَلِكَ عَلَى حَسَبِهِ ، وَاسْتَطْلَعَ رَأْيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
فِي ذَلِكَ ، فَرَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ مُرَفَّقًا^(٥) إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَانَتْ
نُسخَةُ التَّوْقِيعِ : يُنْقَدُ ذَلِكَ إِلَى شَاءَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَكُتِبَ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ لِسَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ .

قَالَ^١ : وَكَانَ السَّبَبُ فِي تَقَلُّبِ الْخَرَجِ إِلَى حَزْران فِي أَيَّامِ الْمُفْتَضِلِ ، مَا حَدَّثَنِي بِهِ أَبُو أَحْمَدَ
يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَحْيَى الْمُتَجَمِّعُ النَّدِيمُ^(٥) ، قَالَ : كُنْتُ أُحَدِّثُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْتَضِلَ ، فَذَكَرْتُ
خَبَرَ الْمُتَوَكِّلِ فِي تَأْخِيرِ التُّرُوزِ ، فَاسْتَحْسَنَهُ ، وَقَالَ لِي : كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنِي أَبِي ،

(a) الأصل وبولاق : لتمثيل الضمناء والمقاطعين . (b) بولاق : موق . (c) بولاق : القديم .

^١ ما زال الحديث لابن أبي طاهر طبروز .

^٢ أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن المنجم النديم ،

ناظم جماعة آخرهم الخليفة المكني وتوفي سنة ٥٣٠٠ هـ / (٢٠١) .

٩١٢ م (ابن النديم : الفهرست ١٦٠-١٦١ ؛ الخطيب

قال : دَخَلَ الْمُتَوَكِّلُ ، قبل تأخير الثُّرُوزِ بعضَ بَسَائِنِهِ الخاصَّةِ التي كانت في يَدَيَّ - وهو مُتَوَكِّلٌ عليَّ بِحَادِثِي ، ويتنظرُ إليَّ ما أُحْدِثُ في ذلك البُشْتَانِ - فَمَرَّ بِزُرْعٍ فَرَأَاهُ أَخْضَرَ ، فقال : يا علي ، إِنَّ الزُّرْعَ أَخْضَرَ بعد ما أَذْرَكَ ! وقد اسْتَأْمَرَنِي عبيدُ اللَّهِ بن يحيى^١ في اسْتِيفَتِاحِ الحَرَّاجِ ، فكيف كانت الفُرْسُ تَسْتَفْتَحُ الحَرَّاجَ في الثُّرُوزِ ، والزُّرْعُ لم يُذْرِكْ بعد ؟ قال : قُلْتُ له : ليس يَجْرِي الأَمْرُ اليومَ على ما كان يَجْرِي عليه في أَيَّامِ الفُرْسِ ، ولا الثُّرُوزِ في هذه الأَيَّامِ في وَفْتِهِ الذي كان في الأَيَّامِ ؛ قال : وَكَيْفَ ذاك ؟ قُلْتُ : لأنَّها كانت تُكْبَسُ في كُلِّ مائةٍ وعشرين سنةً شهرًا ، وكان الثُّرُوزُ إذا تَقَدَّمَ شهرًا ، وصارَ في خمسٍ من حَزْرِيَّانَ ، كَبِسَتْ ذلكَ الشهرَ ، فصارَ في خَمْسٍ من أيارَ ، وأَسْقَطَتْ شهرًا ورُدَّتْهُ إلى خمسٍ من حَزْرِيَّانَ ، فكان لا يتجاوزُ هذا .

فلَمَّا تَقَلَّدَ العِراقَ خَالِدُ بن عبد اللَّهِ القَسْرِيُّ ، وحَضَرَ الوُفْدَ الذي تُكْبَسُ فيه الفُرْسُ ، مَنَعَهَا من ذلك وقال : هذا من النَّسِيءِ الذي نَهَى اللَّهُ عنه فقال : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ ، وأنا لا أَطْلِقُهُ حتى اسْتَأْمَرَ فيه أميرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَبَدَّلُوا على ذلك مَالًا جَلِيلًا ، فامْتَنَعَ عليهم / من قبوله ، وَكَتَبَ إلى هِشَامِ ابن عبد الملك يُعَرِّفُهُ ذلكَ وَيَسْتَأْمِرُهُ ، ويُعْلِمُهُ أَنَّهُ من النَّسِيءِ الذي نَهَى اللَّهُ عنه ، فَأَمَرَ بِمَنَعِهِمْ من ذلك . فلَمَّا امْتَنَعُوا من الكَبَسِ ، تَقَدَّمَ الثُّرُوزُ تَقَدُّمًا شَدِيدًا حتى صارَ يَقَعُ في نَيْسَانَ والزُّرْعَ أَخْضَرَ ، فقال له الْمُتَوَكِّلُ : فاعْمَلْ لهذا يا عليَّ عَمَلًا تَوَدُّ الثُّرُوزُ فيه إلى وَفْتِهِ الذي كان يَقَعُ فيه في أَيَّامِ الفُرْسِ ، وعَرِّفْ بذلكَ عبيدَ اللَّهِ بن يحيى ، وأدِّ إليه رِسَالَةً مِنِّي في أنْ يَجْعَلَ اسْتِيفَتِاحَ الحَرَّاجِ فيه ؛ قال : فَصَبَرْتُ إلى أبي الحسن عبيد اللَّهِ بن يحيى ، وعَرَفْتُهُ ما جَرَى بيني وبين الْمُتَوَكِّلِ ، وأَدَّيْتُ إليه رِسَالَتَهُ ؛ فقال لي : يا أبا الحسن ، قد والله فَرَّجَتْ عَنِّي وعن الناسِ ، وعَمِلْتُ عَمَلًا كَثِيرًا يَغْضَمُ ثَوَابَكَ عليه ، وَكَسَبْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا وشُكْرًا ، فَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ ، فمثلُكَ مَنْ يُجَالِسُ الخُلَفَاءَ . وأَحَبُّ أنْ يَتَقَدَّمَ بِالْعَمَلِ الذي أَمَرَ به الْمُتَوَكِّلُ ، ويُقْبِلَهُ إِلَيَّ حتى أُجْزِيَ الأَمْرَ عليه ، وَأَتَقَدَّمَ في كُتُبِ الكُتُبِ باستِيفَتِاحِ الحَرَّاجِ .

قال : فَرَجَحْتُ وحَزَرْتُ الحِسابَ ، فَوَجَدْتُ الثُّرُوزَ لم يكن يتقدَّمُ في أَيَّامِ الفُرْسِ أَكْثَرَ من شهرٍ يتقدَّمُ من خَمْسٍ تَخْلُو من حَزْرِيَّانَ فيخْصِرُ في خمسة أَيَّامٍ تَخْلُو من أيارَ ، فتُكْبَسُ سَنَتُهَا وتَوَدُّهُ إلى خمسة أَيَّامٍ من حَزْرِيَّانَ .

^١ عبيد الله بن يحيى بن محاذان وزير المتوكل الوزيراء والكتاب ٢٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات العباسي المتوفى سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م (الجهشباري: ٤١٦-٤١٩).

وَأَتَقَدَّتهُ إِلَى عبيد الله بن يحيى ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْتَفْتَحَ الْحَرَّاجُ فِي خَمْسٍ مِنْ حَزْرَانَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ فِي أَنْ يُنْشَأَ كِتَابًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ يُنْفَذُ تُشَكُّتُهُ إِلَى التَّوَّاحِي ، فَعَمِلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ [الصُّوْلِي] ^١ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ فِي أَيْدِي النَّاسِ . قَالَ أَبُو أَحْمَدَ : فَقَالَ لِي الْمُغْتَضِبُ : يَا يَحْيَى ، هَذَا وَاللَّهِ فِعْلٌ حَسَنٌ ، وَيُنْتَهِي أَنْ يُعْتَلَ بِهِ . فَقُلْتُ : مَا أَحَدٌ أَوْلَى بِفِعْلِ الْحَسَنِ وَإِخْصَاءِ الشَّنِّ الشَّرِيفَةِ مِنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَمَّا جَمَعَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْحَاسِنِ ، وَوَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ . فَدَعَا بِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ^٢ ، وَقَالَ لَهُ : اسْتَمِعْ مِنْ يَحْيَى مَا يُخْبِرُكَ بِهِ ، وَأَقْضِ الْأَمْرَ فِي اسْتِفْتَاكِ الْحَرَّاجِ عَلَيْهِ . قَالَ : فَصَبْرُثُ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ إِلَى الدِّيَّوَانِ ، وَعَرَفْتُهُ الْخَبِيرَ ، فَأَحَبُّتُ تَأْخِيرَهُ عَنْ ذَلِكَ لَعَلَّا يَجْرِي الْأَمْرُ الْحَزْرِي الْأَوَّلُ بَعِينَهُ ، فَجَعَلَهُ فِي أَحَدِ عَشَرَ مِنْ حَزْرَانَ ، وَاسْتَأْمَرَ الْمُغْتَضِبُ فِي ذَلِكَ فَأَمَضَاهُ ^٣ .

١٠ قُلْتُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا أَتَشَدُّتُهُ لِلْمُغْتَضِبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى ^٤ :

[الرمز]

يَزُومُ تَوْرُوزُكَ يَزُومُ وَاجِدٌ لَا يَسْتَأْخِرُ
مِنْ حَزْرَانَ يُؤَافِي أَبَدًا فِي أَحَدِ عَشَرَ

قَالَ : وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ مَشَايِخِ الْكُتَّابِ ، قَالَ : كَانَتْ الْخُلَفَاءُ تُؤَخَّرُ التَّوْرُوزُ عَنْ وَقْتِهِ عَشْرِينَ يَوْمًا وَأَقَلَّ وَأَكْثَرَ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبِيلًا لِتَأْخِيرِ افْتِتَاحِ الْحَرَّاجِ عَلَى أَهْلِهِ .
١٥ فَأَمَّا ^٥ الْمَهْرَجَانُ فَلَمْ تَكُنْ تُؤَخَّرُهُ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمًا وَاحِدًا ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قَلَّمَهُ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمًا ، الْمُقْتَدِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَمَرَ الْمُغْتَضِبُ بِتَأْخِيرِ التَّوْرُوزِ عَنْ وَقْتِهِ سِتِّينَ يَوْمًا .

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : وأما .

^١ أبو إسحاق إبراهيم بن عباس بن محمد الصولي ، أحد الشعراء المشهورين والكتاب المذكورين للوحي سنة ٨٥٧/هـ (أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ١٠: ٤٣- ٦٨ بالقوت : معجم الأديباء ١٦٤: ١٩٨) الصلدي : الوافي بالوفيات ٢٤: ٢٨-٢٩ .
^٢ قارن أبا هلال العسكري : الأوائل ٢٧٠-٢٧٣ .
^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣: ٥٥-٥٧ .
^٤ انظر البيتين عند البيروني : الآثار الباقية ٣٣ .
^٥ أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وزير

وقال أبو الزهحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ومنه نقلت - [يعني]^(أ) ما ذكر ابن أبي طاهر - وزاد: وتقدت الكتب إلى الآفاق - يعني عن المتوكل - في محرم سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وقيل المتوكل ولم يتم له ما دبر.

واستمر الأمر حتى قام المعتضد فاحتذى ما فعله المتوكل في تأخير الثوروز، غير أنه نظر فإذا المتوكل أخذ ما بين سنته وبين أول تاريخ ملك^(ب) يزدجرد، فأخذ المعتضد ما بين سنته وبين السنة التي زال فيها ملك الفرس بهلاك يزدجرد، طئاً أن إهمالهم أمر الكبس من ذلك الوقت، فوجدته مائتي سنة وثلاثاً وأربعين سنة، حصتها من الأرباع ستون يوماً وكشتر، فزاد ذلك على الثوروز في سنته، وجعله ينتهي تلك الأيام - وهو [أول يوم]^(أ) من حُرودادماه في تلك السنة - وكان يوم الأربعاء، وثوابقه اليوم الحادي عشر من حزيران، ثم وضع الثوروز على شهور الزوم لتتكبس شهوره إذا كبتت الزوم شهورها^١.

وقال القاضي السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسن علي بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبي عمرو عثمان بن يوسف الخزومي في كتاب «المنهاج في علم الحراج»: والسنة الحراجية مركبة على حكم السنة الشمسية، لأن السنة الشمسية^٢ ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ورُبع يوم، ورُتب المصريون سنتهم على ذلك، ليكون آداء الحراج عند إفراخ الغلات من كل سنة. ووافقها السنة القبطية لأن أيام شهورها ثلاث مائة وستون يوماً، ويجمعها خمسة أيام النسيء ورُبع يوم بعد تقضي ميسرى، وفي كل أربع سنين تكون أيام النسيء ستة أيام ليشجير الكشر، ويُسَمون تلك السنة كبيسة، وفي كل ثلاث وثلاثين سنة تسقط سنة، فيحتاج إلى نقلها لأجل الفضل بين السنين الشمسية والسنين الهلالية، لأن السنة الشمسية ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ورُبع يوم، والسنة الهلالية ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوماً وكشتر.

(أ) زيادة من البيروني. (ب) ساقطة من بولاق.

^١ البيروني: الآثار الباقية ٣٢-٣٣، وواضح أن النسخة التي نقل عنها المقرئ تختلف عن النسخة التي وصلت إلينا، واعتمد البيروني في روايته على ما ذكره أبو بكر الصولي في كتاب «الأوراق» ووصفه حمزة بن الحسن الأصبهاني في رسالته
^٢ نجد بداية هذه الفقرة في نسخة المنهاج التي وصلت إلينا ثم يوجد بعد ذلك خرم في النسخة يمتد من ورقة ٥٠ر-١٠١ط (الخزومي: المنهاج ٨).

ولما كان كذلك احتجج إلى استعمال الثقل الذي تطابق به إحدى السنتين الأخرى .

وقد قال أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب^١، رحمه الله : عَهِدْتُ جِبَايَةَ أَقْوَالِ الْخَرَجِ فِي سِنِينَ ، قَبْلَ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتِينَ مِنْ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ / الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - تَجْرِي كُلُّ سَنَةٍ فِي السَّنَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ، بِسَبَبِ تَأْخِيرِ الشُّهُورِ الشَّعْبِيَّةِ عَنِ الشُّهُورِ الْقَمَرِيَّةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا وَزَيْعَ يَوْمٍ وَزِيَادَةِ الْكَشْرِ عَلَيْهِ ؛ فَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتِينَ ، كَانَ قَدْ انْقَضَى مِنَ السَّنِينَ الَّتِي قَبْلَهَا ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، أَوَّلُهُنَّ سَنَةُ ثَمَانَ وَمِائَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - وَاجْتَمَعَ مِنْ هَذَا الْمَتَأَخَّرِ فِيهَا أَيَّامُ سَنَةٍ شَعْبِيَّةٍ كَامِلَةٍ ، وَهِيَ ثَلَاثٌ مِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُونَ يَوْمًا وَزَيْعَ يَوْمٍ وَزِيَادَةُ الْكَشْرِ ، وَبِهَا إِفْرَاقُ غَلَّاتٍ وَثَمَارُ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ فِي صَفَرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ^٢ .

- ١٠ وَأَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - بِإِلْغَاءِ ذِكْرِ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، إِذْ كَانَتْ قَدْ انْقَضَتْ ، وَيُنَسَّبُ الْخَرَجُ إِلَى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ . فَجَزَتْ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ . إِلَى أَنْ انْقَضَتْ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، آخِرُهُنَّ انْقِضَاءُ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ كُتَّابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَعَبَّدِ عَلَى اللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ كَانَ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ ثُبُلَيْلٍ^٣ وَبَنِي الْقُرَاتِ ، وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا فِي دِيْوَانِ الْخَرَجِ وَالضَّرَائِعِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - وَلَا كَانَتْ أَشْنَانُهُمْ أَشْنَانًا بَلَغَتْ مَعْرِفَتَهُمْ مَعَهَا هَذَا الثَّقُلُ ، بَلْ كَانَ مَوْلَاهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْقُرَاتِ قَبْلَ هَذِهِ السَّنَةِ بِخَمْسِ سِنِينَ ، وَمَوْلَاهُ عَلِيُّ أَخِيهِ فِيهَا ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ ثُبُلَيْلٍ يَتَعَلَّمُ فِي مَجْلِسٍ لَمْ يَتَلَعَّ أَنْ يَنْتَسَخَ ؛ فَلَمَّا تَقَلَّدْتُ لِلنَّاصِرِ
- ١٥

جميع ما يحتاج إليه من استعمار واستدعاء وتوقيع (الخوازمي: مفاتيح العلوم ٣٨ وفيما تقدم ٣٤٥هـ) وانظر ترجمة علي بن الحسن عند ابن النديم: الفهرست ٤١٥٠: باقوت: معجم الأدباء ١٣: ١٥-١٨ .

^٢ الفلقشندي: صحيح الأعشى ١٣: ٥٧ .

^٣ أبو الصقر إسماعيل بن ثُبُلَيْل الكاتب الشيباني ، ولي الوزارة للمحمد علي الله سنة ٢٦٥هـ وعزل وأعيد إليها سنة ٢٧٢هـ ، وتوفي سنة ٢٧٨هـ (الصفدي: الوافي بالوفيات ٩٥: ٩٨) .

^١ أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب ، قال ابن النديم يلقب بأبن الماشطة ظلفاً ، كان في أيام المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) وله صناعة في الخراج وتقدم في الحساب ، أحد العالمين بأمرور الكتابة والخراج ، تقلد في أيام حامد بن العباس بن الفضل - وزير المقتدر - ديوان بيت المال . ومن تصانيفه كتاب «جواب المفتة» ، وكتاب «الخراج» ، وكتاب «تعليم نقض المؤامرات» - وهو الكتاب الذي ينقل عنه للقرنزي وكذلك معاصره الفلقشندي - والمؤامرات مفردها مؤامرة ، وهي أعمال تجمع فيها الأوامر الخارجة ويوقع السلطان في آخرها بإجازة ذلك ، وقد تعمل للمؤامرة في كل ديوان تجمع

للدين أبي أحمد طَلْحَةَ الْمُؤَقَّ - رحمه الله - أعمال الصَّيَاح بِقُزُوزٍ وَنَوَاحِيهَا لِسَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ - وَكَانَ مُقِيمًا بِأَذْرَبِيجَانَ ، وَخَلِيفَتُهُ بِالْجَبَلِ (أحمد بن محمد^١) جَرَادَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَحَمْدُ^٢ ابْنِ مُحَمَّدٍ كَاتِبِهِ - وَاخْتَجَّحْتُ إِلَى رَفْعِ جَمَاعَتِي إِلَيْهِ ، تَرَجَّمَتْهَا بِجَمَاعَةِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ الَّتِي أَذْرَكْتُ غَلَاثِمَهَا وَبِمَازِهَا فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَوَجِبَ الْإِفَاءُ ذِكْرُ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ؛ فَلَمَّا وَقَفًا عَلَى هَذِهِ التَّرْجُمَةِ أَتَكَرَّاهَا ، وَسَلَّالَنِي عَنْ الشُّبْبِ فِيهَا ، فَشَرَحْتُ لِهَمَّا ، وَأَكْثَدْتُ ذَلِكَ بِأَنْ عَرَفْتُهُمَا أَنِّي قَدْ اسْتَشْرَجْتُ حِسَابَ السَّنَيْنِ الشَّمْسِيَّةِ وَالسَّنَيْنِ الْقَمَرِيَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَعْدَمَا عَرَضْتُهُ عَلَى أَصْحَابِ التَّفْسِيرِ ، فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَثَرِ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوْكَدَ فِي لُطْفِ اسْتِخْرَاجِي ؛ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : ﴿وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [آيَةُ ٢٥ سورة الكهف] فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَرَفَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ، وَإِنَّمَا خَاطَبَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَبِيَّهُ ﷺ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَمَا تَعَرَّفَهُ مِنَ الْحِسَابِ ؛ فَمَعْنَى هَذِهِ التَّسْعِ أَنَّ الثَّلَاثَ مِائَةٍ كَانَتْ شَمْسِيَّةً بِحِسَابِ الْعَجَمِ وَمَنْ كَانَ لَا يَقْرِفُ السَّنَيْنِ الْقَمَرِيَّةِ ، فَإِذَا أُضِيفَ إِلَى الثَّلَاثِ مِائَةٍ الْقَمَرِيَّةِ زِيَادَةُ التَّسْعِ ، كَانَتْ سِنِينَ شَمْسِيَّةً صَحِيحَةً فَاسْتَحْسَنَاهُ ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ جَرَادَةُ مَعَ النَّاصِرِ لَدَيْنَ اللَّهِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَتَوَفَّى النَّاصِرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَتَقَلَّدَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ كِتَابَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ ، أَجْزَى لَهُ جَرَادَةَ ذِكْرُ هَذَا الثَّقُلِ ، وَشَرَحَ لَهُ سَبَبَهُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ ، وَطَعَنًا عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ غَيْبِ اللَّهِ فِي تَأْخِيرِهِ لِيَأْتِيَ .

فَلَمَّا وَقَفَ الْمُعْتَصِدُ عَلَى ذَلِكَ ، تَقَدَّمَ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ بِإِنْشَاءِ الْكُتُبِ بِثَقُلِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ إِلَى سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَكَانَ هَذَا الثَّقُلُ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ وُجُوبِهِ ؛ ثُمَّ مَقَصَّتِ السَّنُونَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ ، إِلَى أَنْ انْقَضَتْ الْآنَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً : أَوَّلَاهُنَّ السَّنَةُ الَّتِي كَانَ الثَّقُلُ وَجِبَ فِيهَا وَهِيَ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَآخِرَتُهُنَّ انْقِضَاءُ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، وَقَدْ تَهَيَّأَ إِذْرَاكَ الْغَلَّاتِ وَالشُّمَارِ فِي صُدْرِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَنَشَبَتْ إِلَيْهَا وَقَدْ عَمِلْتُ نُسخَةَ هَذَا الثَّقُلِ ، نَسَخْتُهَا تَحْتَ هَذَا الْمَوْضِعِ لِيُوقَفَ عَلَيْهَا^١ .

١-٢ (a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : أحمد .

وقد كان أصحاب الدواوين في أيام المتوكل، لما نقل سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سنة اثنين وأربعين ومائتين، بجها الجوالي والصدقات لستين إحدى واثنين وأربعين ومائتين في وقت واحد، لأن الجوالي بشرى رأى ومدينة السلام وقصب المدن^(١) المشهورة كانت تجبى على شهور الأهلة، وما كان من جماجم أهل القرى في الحراج والضباع والصدقات والمستغلات، كان تجبى على شهور الشمس.

وفي الثلاث^(٢) وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة، فالزم أهل الذمة خاصة بالجوالي، وزفها العمال في حساباتهم، فمن لم يوقعها ألزمه بجوالي السنة الزائدة، فأحفظ أنه اجتمع من ذلك ألوف ألوف^(٣) ذراهم، ثم جددت الكتب إلى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الأهلة، فجزى الأمر على ذلك^١.

- ١٠ قال القاضي أبو الحسن^٢: وقد كان الثقل أغفل في الديار المصرية، حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربع مائة الهلالية تجري مع سنة سبع وتسعين الحراجية، فتقلت سنة سبع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخميس مائة، هكذا رأيت في تعليقات أبي رحمه الله [قال]^(٤): وآخر ما تقلت السنة في وقتنا هذا سنة خمس وستين وخميس مائة إلى سنة سبع وستين وخميس مائة الهلالية، فتطابقت الشتان. وذلك أنني لما قلت للقاضي الفاضل أبي علي/ عبد الرحيم بن علي البيهاساني أنه قد آن نقل السنة، فأنشأ سيجلاً بتقليها نيسخ في^(٥) الدواوين، وحيل الأمر على حكمه. وما يرخ الملوك والوزراء يفتنون بنقل السنين في أحيانها^٣.

وقال أبو الحسن هلال بن المحسن الصائى^٤: حدثني أبو علي قال: لما أراد الوزير أبو محمد المهلبى نقل سنة خمس وثلاث مائة الهلالية، أمر أبا إسحاق والدي وغيره من كتابه في الحراج

(١) عند الفلقشندي: ومضافتهما. (ب) بولاق: ثلاث. (ج) ساقطة من بولاق. (د) زيادة من الفلقشندي. (ه) ساقطة من بولاق.

^١ الفلقشندي: صبح الأعشى ٥٧: ٥٨-٥٧. نقلًا عن كتاب المنهاج في صنعة الحراج للمخرومي
ساقط في النسخة الوحيدة من كتاب المنهاج للمخرومي. انظر المنهاج ٨-٩.
^٢ أي أبو الحسن علي بن عثمان المخرومي صاحب كتاب المنهاج.
^٣ الفلقشندي: صبح الأعشى ١٣: ٦٠، وهو جزء
^٤ أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الكاتب الصائى، كان أبوه وجده صابن، وأسلم هو وهو في سن الأربعين كان من كبار العلماء والأدباء وتوفي سنة =

والرؤسائل، بإنشاء كتاب عن المطيع لله في هذا المعنى؛ فكتب كل منهم، وكتب والذي الكتاب الموجود في رسائله، وعرضت النسخ على الوزير فاختره منها، وتقدم بأن يكتب إلى أصحاب الأطراف، وقال لأبي الفرج بن أبي هشام خليفته: اكتب إلى العمال بذلك كتباً مُحَقَّقة، وانسخ في أواخرها هذا الكتاب السلطاني؛ فعاظ أبا الفرج وقوم التفضيل والاختيار لكتاب والذي - وقد كان عميل نسخة أطرح في جملة ما أطرح - وكتب: «قد رأينا نقل سنة خمسين إلى إحدى وخمسين، فاعمل على ذلك». ولم ينسخ الكتاب السلطاني؛ وعرف الوزير ما كتب به أبو الفرج فقال له: لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطاني في آخر الكتب إلى العمال وإنهائه في الديوان؟ فأجاب جواباً غل فيهِ؛ فقال له: يا أبا الفرج ما تزكت ذلك إلا حسداً لأبي إسحاق، وهو والله في هذا القرن أكتب أهل زمانه^١، فأعد الآن الكتب، وانسخ الكتاب في أواخرها.

قال القاضي أبو الحسن^٢: وأنا أذكر بمشقة الله نسخة الكتاب الذي أشار إليه أبو الحسن علي ابن الحسن الكاتب، وكتاب أبي إسحاق وكتاب القاضي الفاضل، ليستبين للناس طريق نقل السنين الخراجية إلى السنين الهلالية. فإذا قازبت الموافقة وحسنت فيها المطابقة، فالكتاب الفاضلي أكثر تجازاً وأعظم إعجازاً، ولا يخفى على المتأمل قدر ما أورد فيه من البلاغة، كما لا يخفى على العارف قدر ما تضمنه كتاب الصائ من الصناعة.

نسخة الكتاب الذي أشار إليه أبو الحسن الكاتب:

«أما بعد»^٣، فإن أولى ما صرف إليه أمير المؤمنين عنايته، وأعمل فيه فكره ورويته، وشغل به تفقده ورعايته، أمر الفقيه الذي خصه الله به وألزمه جفقه وتوفيره، وحياطته وتكثيره، وجعله عماد الدين، وقوام أمر المسلمين، وفيما يصرف منه إلى أعطيات الأولياء والجنود؛ ومن يستعان به لتحصيل البيضة والذئب عن الحرم، وحج البيت، وجهاد العدو، وسد الثغور، وأمن السبل، وحقق الدماء، وإصلاح ذات البين. وأمير المؤمنين

(a) زيادة من القلشندي.

= ٤٤٨هـ. وهو صاحب كتاب التاريخ الذي ذلل به تاريخ الوزراء.

^١ نفسه ٥٩: ١٣ - ٦٠. على تاريخ ثابت بن سنان الصائ من سنة ٣٦٠ وحتى

٤٤٧هـ، وكتاب رسوم دار الخلافة ومحنة الأمراء في
^٢ أي القاضي علي بن عثمان الخزومي.

يسأل الله راغباً إليه ، ومتوكلاً عليه ، أن يُخسِن عَوْنَه على ما حَمَلَه منه ،
وَيُذَيِّمَ تَوْفِيقَه لما أَرْضَاهُ ، وإرشادَه إلى ما يَقْضِي عنه وله .

وقد نَظَر أميرُ المؤمنين فيما كان يجري عليه أمرُ جِباية هذا الفَنَاء في
خلافة آبائِهِ الراشدين فوجدَهُ على حَسَب ما كان يُدْرِك من الغَلَّات والثُّمار
في كل سنة أولاً وأولاً على مَجاري شُهور سِنِي الشمسِ في الثُّجُوم التي يَحُلُّ
مالُ كُلِّ صِنْف منها فيها ، ووجدَ شُهورَ السنة الشمسية تتأخَّر عن شُهور
السنة الهلالية أحدَ عَشَرَ يوماً ورُبْعاً وزيادةً عليه ، ويكونُ إدراكُ الغلات
والثُّمار في كل سنة بحسَب تأخُّرها .

فلا تَرَالُ السَّنُونُ تَقْضِي على ذلك سنةً بعد سنةٍ حتى تَقْضِي منها ثلاثٌ
وثلاثون سنةً وتكونُ عدَّة الأيام المتأخِّرة منها أيامَ سنةٍ شمسيةٍ كاملة ، وهي
ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ورُبْع يومٍ وزيادةً عليه ، فحينئذٍ يَتَهَيَّأ بِمَشِيئةِ
الله وقُدْرَتِهِ إدراكُ الغَلَّات التي تَجْرِي عليها الضَّرَائِبُ والطُّشُوقُ في استقبَالِ
المَحْرُومِ من سِنِي الأَهْلَةِ . ويجبُ مع ذلك إلغَاءُ ذِكرِ السنةِ الخارجِيةِ إذ كانت
قد انقَضَتْ ونَسَبَتْها إلى السنة التي أَدْرَكَتِ الغَلَّات والثُّمارُ فيها . وإنه وَجَدَ
ذلك قد كان وَقَعَ في أيام أمير المؤمنين المتوكِّل على الله - رحمة الله عليه -
عند انقِضاء ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، أَخِرْتُهُنَّ سنةً إحدى وأربعين ومائتين ،
فاستَفْتَيْتُ عن ذِكرها بِالغَايِهَا ونَسَبَتْها إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ؛ فَجَزَتْ
المُكَاتِبَاتُ والحُسْبَانَاتُ وسائِرُ الأَعْمَالِ بعد ذلك سنةً بعد سنةٍ إلى أن مَضَتْ
ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، أَخِرْتُهُنَّ انقِضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، ووجب
إِنْشَاءُ الكُتُبِ بِالْغَاءِ ذِكرَ سنة أربع وسبعين ومائتين ونَسَبَتْها إلى سنة خمس
وسبعين ومائتين . فَذَهَبَ ذلك على كُتَّابِ أمير المؤمنين الْمُقْتَدِرِ على الله
وتأخَّرَ الأمرُ أربع سنين إلى أن أَمَرَ أمير المؤمنين الْمُعْتَصِدُ بالله - رحمه الله -
في سنة سبع وسبعين ومائتين بِنَقْلِ خَرَجِ سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة
تسع وسبعين ومائتين ؛ فَجَرِيَ الأمرُ على ذلك إلى أن انقَضَتْ في هذا
الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً ؛ أولاهُنَّ السنة التي كان يجبُ نَقْلُهَا فيها ، وهي
سنة خمس وسبعين ومائتين ، وَأَخِرْتُهُنَّ انقِضاء شُهور خَرَجِ سنة سبع
وثلاث مائة ؛ ووجب افتتاحُ خَرَجِ ما تَجْرِي عليه الضَّرَائِبُ والطُّشُوقُ في
أولها وإنَّ من صَوَابِ التَّدْبِيرِ واستقامة الأَعْمَالِ ، واستعمالِ ما يَخْفُفُ على

الرعية معاملتها به نقل سنة الخراج لسنة سبع وثلاث مائة إلى سنة ثمان وثلاث مائة ، فرأى أمير المؤمنين - لما يلزمه نفسه ويؤاخذها به ، من العناية بهذا الفيء وحياطة أسبابه ، وإجرائها مجاريها ، وشلوك سبيل آيائه الراشدين رحمة الله عليهم فيها - أن يُكْتَبَ إليك وإلى سائر العُمَّال في النواحي بالعمل على ذلك ، وأن يكون ما يَصْدُرُ إليكم من الكُتُب وتُصَدِّرونه عنكم وتجري عليه أعمالكم ورُفُوعكم وحُشْبَانَاتُكُمْ وسائر مُنَاطَرَاتِكُمْ على هذا الثقل .

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين واعمل به مستشعرا فيه وفي كل ما تُخَصِّيه تقوى الله وطاعته ، ومستعملا عليه إقتات الأعوان وكُفَاتِهِمْ ، مُشْرِفا عليهم ومَقُوماً لهم ، واكتب بما يكون منك في ذلك ، إن شاء الله تعالى .

نُسَخَةُ كِتَابِ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّائِي :

«أما بقْدُ ، فإن أمير المؤمنين لا يزال مجتهدا في مصالح المسلمين ، وباعثا لهم على مَرَايِدِ الدُّنْيَا والدِّين ، ومَهَيِّجا لهم إلى أَحْسَنِ الاختيار فيما يُورِدُونَ وَيُصَدِّرون ، وَأَضْبَحَ الرَّأْيَ فيما يُعْرِمُونَ وَيَنْقُضُونَ ، فلا تَلَوُّحُ له خَلَّةٌ دَاخِلَةٌ عَلَى أُمُورِهِمْ إِلَّا سَدَّهَا وَتَلَافَاها وَلَا حَالٌ عَائِدَةٌ بِحِظِّ عَلَيْهِمْ إِلَّا اعْتَمَدَهَا وَأَتَاها وَلَا سُنَّةٌ عَادِلَةٌ إِلَّا أَخَذَهَا بِإِقَامَةِ رَشْمِهَا ، وإمضاء حُكْمِهَا ، والاقْتِدَاءِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْعَمَلِ بِهَا وَالِاتِّبَاعِ لَهَا ، وَإِذَا غَرَضَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَقْلَمُهُ الْخَاصَّةُ بِوُفُورِ أَلْبَابِهَا ، وَتَجَهُّلِ الْعَامَّةِ بِقُصُورِ أَفْهَامِهَا ، وَكَانَتْ أَوَامِرُهُ فِيهِ خَارِجَةً إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ مِنْ أَعْيَانِ رِجَالِهِ ، وَأَمَائِلِ عُمَّالِهِ ، الَّذِينَ يَكْتَفُونَ بِالْإِشَارَةِ ، وَيجْتَزِعُونَ بِتَبْيِيرِ الْإِبَانَةِ وَالْعَبَارَةِ ، لَمْ يَدْعُ أَنْ يُلْغَ مِنْ تَلْخِيصِ اللَّفْظِ وَابْتِصَاحِ الْمَعْنَى إِلَى الْخِذِّ الَّذِي يُلْجِقُ الْمَتَأَخَّرَ بِالْمُتَقَدِّمِ ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْمُتَقَلِّمِ ؛ وَلَا يَسِيحُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِيهَا بِمَعَامِلَاتِ الرَّعِيَةِ ، وَمِنْ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الظُّوَاهِرَ الْجَلِيَّةَ دُونَ الْبَوَاطِنِ الْخَفِيَّةِ ، وَلَا يَسْهَلُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ عَنْ الْعَادَاتِ الْمُتَكَرِّرَةِ ، إِلَى الرُّسُومِ الْمُتَغَيِّرَةِ ، لِيَكُونَ الْقَوْلُ بِالْمَشْرُوحِ لَمْ يَزُزْ فِي الْمَعْرِفَةِ مَذْكُرا ، وَلَمْ تَأْخُرْ فِيهَا مَبْصُرا ؛ وَلَأنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تُنْتَعِ هَذِهِ الطَّبَقَةُ مِنْ بَرْدِ

(٢) ساقطة من بولاق .

اليقين في صدورهما ، ولا أن يُقتصر على اللوحة الدالة في مخاطبة جمهورها ،
حتى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به وفقه ما دُعوا إليه
وصاروا فيه على كلمة سواء لا يعترضهم شك الشاكين ولا استيابة المستريين ،
اطمأنث قلوبهم ، وانشرح صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر
الاتفاق فيهم ، واستيقنوا أنهم مشوشون على استقامة من الميثاج ، ومحروشون
من جرائر الزيف والاعوجاج ؛ فكان الانقياد منهم وهم ذائون عالمون ، لا مقلدون
مُسَلِّمون ؛ وطائفون مختارون ، لا مُكرهون ولا مُجبرون .

وأمر المؤمنين يستمد الله تعالى في جميع أغراضه ومزاييه ، ومطالبه ومغائره ،
مادة من صنعه يقيف به على سنن الصلاح ، وتفتح له أبواب النجاح ، وتنهض بما
أهله لحمله من الأعباء التي لا يدعي الاستقلال بها إلا بتوقيفه وتعاونيه ، ولا يتوجه
فيها إلا ببدالاته وهدايته ، ويحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

وأمر المؤمنين يرى أن أولى الأقوال أن يكون سدادا ، وأحرى الأفعال أن
يكون رشادا ، ما وُجد له في السابق من حكم الله أصول وقواعد ، وفي
النص من كتابه آيات وشواهد ؛ وكان مُقضيًا بالأمة إلى قوام من دين وذنبا ،
ووفائي في آخره وأولى ، فذلك هو البناء الذي يثبت ويعلو ، والعرس الذي
ينبت ويزكو ، والسعي الذي تتجح مبادئه وهواذيه ، وتنبج عواقبه وتواليه ،
وتستدير شبله لسالكيه ، وتوردهم موارد السعود في مقاصدهم فيها ، غير
ضالين ولا عاقلين ، ولا متحرفين ولا زائلين .

وقد جعل الله - عز وجل - لعباده من هذه الأفلاك الدائره ، والمجموع
السائر ، فيما تتقلب عليه من اتصالي واختراق ، ويتعاقب عليها من اختلاف
واتفاق ، منافع تظهر في كزور الشهور والأعوام ، ومزور الليالي والأيام ،
وتناوب الضياء والظلام ، واعتدال المساكين والأوطان ، وتغاير الفصول
والأزمان ، ونشء الثبات والحيوان ، فما في نظام ذلك خلل ، ولا في صنعة
صانعه زلل ، بل هو مشوط بعضه ببعض ، ومحوط من كل ثلثة ونقش ،
قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَالْآبَةِ ۗ سوره
برس١ ، وقال جل من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى آجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ [آية ٢٩ سورة لقمان] ، وقال : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [آية ٣٨ سورة يس] . وقال عزت قدرته : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [آية ٣٩ سورة يس] . ففَضَّلَ الله تعالى في هذه الآيات بين الشمس والقمر ، وأنبأنا في الباهر من حِكْمِهِ ، والمُعْجَز من كَلِمِهِ ، أَنَّ لكلٍّ منهما طريقًا سَحَر فيها وطبيعة مجبِل عليها ، وأن كلَّ تلك المبابية والمخالفة في المَسِير ، تُؤدِّي إلى موافقة وملازمة في التدبير ؛ فمن هُنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ورُبُعمًا بالتقريب المعمول عليه ، وهي المدة التي تقطع الشمس فيها الفلك مرة واحدة ، ونقصت السنة الهلالية فصارت ثلاث مائة وأربعة وخمسين يومًا وكثيرًا ، وهي المدة التي يُجامع القمر فيها الشمس اثنتي عشرة مرة ، واحتيج إذا انساق هذا الفضل إلى استعمال الثقل الذي يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افرقتا ، ويُداني بينهما إذا توافقتا .

وما زالت الأُتُم السالفة تكسب زيادات السنين على اقتنان من طُوقها ومذاهبها ، وفي كتاب الله - عز وجل - شهادة بذلك إذ يقول في قصة أهل الكهف : ﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [آية ٢٥ سورة الكهف] . فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على تغريب التقريب .

فأما القُرُسُ فإنهم أجزوا معاملاتهم على السنة المعقَّلة التي شهورها اثنا عشر شهرًا ، وأيامها ثلاث مائة وستون يومًا ، ولَقَّبوا الشهور اثني عشر لقبًا ، وسَمَّوْا أيام الشهر منها ثلاثين اسمًا ، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة ، وسَمَّوْها المسترقة وكَسَبوا النوع في كل مائة وعشرين سنة شهرًا .

فلَمَّا انقضى مُلْكُهُمْ ، بطل في كَيْس هذا الربيع تدبيرُهُمْ ، وزال نُورُورُهُمْ عن شَتِّهِ ، وانفرج ما بينه وبين حقيقة وقَّهِ ، انفرجا هو زائد لا يقف ، ودائر لا ينقطع ، حتَّى إن موضوعهم فيه أن يقع في مدخل الصَّيْف وسيتهي إلى أن يقع في مدخل الشتاء ، ويتجاوز ذلك ، وكذلك موضوعهم في المهرجان أن يقع في مدخل الشتاء ، وسيتهي إلى أن يقع في مدخل الصَّيْف ويتجاوزهُ .

وأما الرُّومُ فكانوا اتقن منهم حِكْمَةً وأبعد نظرًا في عاقبة : لأنهم رَبُّوا شهور السنة على أرساد رصْدوها ، وأنواع عرْفوها ، وفَضُّوا الخمسة الأيام

الزائدة على الشهور، وساقوها معها على الدهور، وكبشوا الربيع في كل أربع سنين يوماً، ورسّموا أن يكون إلى شباط مضافاً فقرّبوا ما بقده غيرهم، وسهّلوا على الناس أن يقتنوا أترهم، لا جرم أن المقتصد بالله - صلوات الله عليه - على أصولهم بنى، ولخالهم احتذى في تصيره نؤزوزة اليوم الحادي عشر من حزيران، حتى سليم مما لحق النواير في سالف الأزمان، وتلاقوا الأمر في عجز بني الهلال عن بني الشمس، بأن يجزّوها بالكس، فكلما اجتمع من فضول بني الشمس ما يفي بتمام شهر جعلوا السنة الهلالية التي يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالاً، فربما تم الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين وربما تم في سنتين بحسب ما يوجب الحساب، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبداً لا يتباعداً ما بينهما.

وأما العرب فإن الله - جل وعز - فضّلها على الأتم الماضية، وورّثها ثمرات مساعيها المتعبة، وأجزى شهر صياها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل ملتها، وجزية أهل ذمتها، على السنة الهلالية، وتعبدها فيها برؤية الأهلة، إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة، وأعلامها لائحة، فيتكافأ في معرفة القرض ودخول الوقت الخاصّ منهم والعام، والناقض الفقه والنام، والأنى والذكر، وذو الصغر والكبر، فصاروا حيث لا يحبون في سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الأرض المسوحة، ويحبون في سنة الهلال الجوالي والصدقات والأرجاء والمقاطعات والمستغلات، وسائر ما يجري على المشاخرات، وحدث من العاقل والتدخل بين السنين ما لو استمر لقبح جداً، وازداد بقداً، إذ كانت الجباية الحراجية في السنة التي تنتهي إليها تُنسب في التسمية إلى ما قبلها فوجب مع هذا أن تُطرح تلك السنة وتُلغى، ويتجاوز إلى ما بعدها ويُخطى، ولم يجز لهم أن يقتدوا بمخالفيهم في كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر، لأنهم لو فعلوا ذلك لترحّرت الأشهر الحرم عن مواقعها، وانحرقت المنايلك عن حقائقها، ونقصت الحياة عن سني الأهلة القبطية يقشط ما استغرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تيم السنة، وأوجب الحساب المقرب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة

شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية ؛ فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلاً لا يتجاوز الشمسية ، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستشبهة مع تلك الثمن في دينهم . وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاث مائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلاث مائة الهلالية جمعاً بينهما ، ولزوماً لتلك السنة فيهما .

فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك ، وما تضمنته كتابه هذا إليك ، ومير الكتاب قبلك أن يحدثوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمال نواحيك ، ويخلدونه في الدواوين من دُكُورهم ووفُوعهم ، ويقررونه في دُروج الأموال ، وينظّمونه في الدفاتر والأعمال ، ويثرون عليه الجماعات والحسابات ، ويوزعون بكتبه من الوُورثامجات والبراعات ، وليكن المنسوب كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلاث مائة التي وقع النقل عنها مقدولاً به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل إليها ، وأتم في نفوس من بحضرتك من أصناف الجُند والرعية وأهل الملة والذمة أن هذا النقل لا يغير لهم رسماً ، ولا يلحق بهم ثلماً ، ولا يعود على قابضي العطاء بنقصان ما استحقوا قبضه ، ولا على مؤدي حق بيت المال بإغضاء عملاً وجب أدائه ، فإن قرائح أكبرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثر أن تزاح فيه العلة ، وتسد به منهم الخلّة ، إذ كان هذا الشأن لا يتجدد إلا في المدد الطوال التي في مثلها يُحتاج إلى تعريف الناشي ، وإذكار الناسي ، وأجبت بما يكون منك جواً يحسن موقعه لك ، إن شاء الله تعالى^١ .

وقال ابن المأمون^٢ في «تاريخه» من حوادث سنة إحدى وخمس مائة : وأول ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية إلى القرية ، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين ، فتحدث القائل أبو عبد الله محمد بن فاتك البصليجي مع الأفضل بن أمير الجيوش في ذلك ، فأجابته إليه وخرج أمره إلى

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٦٥ - ٧٠ .
^٢ وردت هذه الفقرة في الكراسة التي بخط المقرئ في مكتبة Liège بلجيكا ، وبدأها بالعبارة التالية : «الحمد لله . مختار من سيرة المأمون البطاحي» تأليف الأمير جمال الملك أبي علي موسى بن المأمون أبي عبد الله محمد بن فاتك بن مختار المعروف والده بابن البطاحي حفا الله عنه . في هذه السنة - يعني سنة ٥٠١ - فتح ديوان التحقيق تولاه ابن أبي اللث الثغراني وأضيف إليه ديوان المجلس . (فيما يلي ٤٠١ : ١) فأول ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية إلى القرية ... (ورقة ١٥٧) .

الشيخ أبي القاسم بن الصيرفي^١ بإنشاء سجل^٢ به «فتبيح نصه في ذواوين الأموال والحيوش وتخلد بعد ذلك في بيت المال^٣»، فأُنشأ ما نُسخته :

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحقُّ لله الذي اوتى أُمير المؤمنين أَمِينَهُ في أرضه وخليفته ، وألهمه أن يعلم بحسن / التذير عبيده وخليفته ، ووفقه لمصالح يستمد أسبابها ، ويفتح بحسن نظره أبوابها ، وأوزنه مقام آبابه الراشدين الذين اختصهم بشرف المعر ، وجعل اعتقاد ولائهم^٤ سبب النجاة في الحشر ، وعناهم بقوله : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آية ١٥٧ سورة الأعراف] ، وأعلى تناز سلطانه بمُدبّر أفلاك دولته ومُبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للمجد^٥ علماً وراية ، ووفّق على مصلحة البرية نظره ورأيه وأرشد بهديته الأبواب الحائرة ، وأذهب بمعدّته الأحكام الحائرة الشيد الأجل الأنفصل ، ونظم الثعوت بالدعاء للذي كمل تذييره بنظام الصلاح وتممه ، وسدّد تقريره الأمور في كل ما قصده وتممه ، وتنبّه^٦ في السياسة على ما أهمله من سبّقه وأغفله من تقدّمه ، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع شككلاً إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خللاً إلا أصلحه وبادر بتلافيه ، ولا مهملاً إلا اشتغله على ما يوافق الصواب ولا يُنافيه إيثاراً لِمِمارَةِ الأعمال وقصدًا لما

٢٨٠:١

(a-a) إضافة من كراسة المقرري المحفوظة في Liège . (b) بولاق : موالئهم . (c) بولاق : للجد . (d) بولاق :

ونه .

الرسائل وكتاب «الإشارة إلى من قال الوزارة وكتاب «الأفضليات» (راجع ، السلفي : معجم العقر ١٢٤٦ باقوت : معجم الأدهاء ١٥:٧٩-١٨١ ابن سعيد : النجوم الزاهرة ٢٥٢-٢٥٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٢٨:٢٢-٢٣٣ أمين قواد : مقدمة القانون في ديوان الرسائل ٢٠-٢٥ ، El Gamâl el-Dîn el-Shayyâh , (art. Ibn al-Sayrafî, pp. 956-57 .

^١ تاج الرئاسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي ، توفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ، كاتب ديوان الإنشاء منذ وزارة الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي ، ثم تولى رئاسة الديوان في أيام الخليفة الحافظ لدين الله وحى وفاته . وأغلب السجلات التي وصلت إلينا من عهد الخليفة الأمر بأحكام الله أنشأها ابن الصيرفي وهو لم يزل كاتباً في الديوان . ولابن الصيرفي من المؤلفات - التي وصلت إلينا - كتاب «القانون في ديوان

يَقْضِي بِتَوْفِيرِ الْأَمْوَالِ وَتَوْخِيًا لِمَا عَادَ بَضُرُوبِ الْإِسْتِقْلَالِ^(a)، وَاعْتِنَاءَ بِرِجَالِ الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَأَعْجَانِدِهَا، وَاهْتِمَامًا بِمَصَالِحِهِمُ الَّتِي ضَعُفَتْ قَوَائِمُهَا عَنْ ارْتِيَادِهَا، وَرِعَايَةً لِمَنْ صَمَّعَتْهُ أَقْطَارُ الْمَمْلَكَةِ مِنَ الرِّعَايَا، وَحِمْلًا لَهُمْ^(b) عَلَى أَغْدَلِ الشَّئْنِ وَأَفْضَلِ الْقَضَايَا.

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَعَانَهُ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ لِلْأُمَّةِ، وَادْخَرَهُ لِإِيْمَانِهِ مِنَ الْقَضَائِلِ الَّتِي صَفَّتْ بِهَا مَلَائِكَةُ الثَّقَمَةِ، وَوَفَّقَهُ لِمَا يَعُودُ عَلَى الْكَافَّةِ بِشُمُولِ الْإِنْتِفَاعِ، حَتَّى صَارَ اسْتِغْدَاءُ^(c) الْحُقُوقِ بِوَاجِبَاتِ الشَّرِيعَةِ الْوَاضِحَةِ الْأَدِلَّةِ، وَاسْتِيفَاؤُهَا بِمُقْتَضَى الْمَغْدَلَةِ فِيمَا يَجْرِي عَلَى أَحْكَامِ الْخِرَاجِ وَأَوْضَاعِ الْأَهْلَةِ، وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ الَّذِي مَيَّزَهُ بِالْحِكْمَةِ وَقَضَلَ الْخِطَابَ، وَيَرَى مَا اسْتَبْهَمَ مِنْ سُئُلِ الصُّوَابِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [الآية ٥ سورة يونس]، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ أَيْنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَافِيهِ فِيمَا أَغْضَلَ لِمَا عُذِمَ الْمُسَاعِدِ، وَوَاقِيهِ بِنَفْسِهِ لِمَا تَحَادَلَ الْكَفِّ وَالْمُسَاعِدِ، وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ دُرَرِيهِمَا الْعَالَمِينَ بِرِضَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ، وَالَّذِينَ ﴿يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيُوْقِدُونَ﴾ [الآية ١٨١ سورة الأعراف]، وَإِنْ أَوْلَى مَا أَوْلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا وَإِيْمَانًا مِنْ تَقَعُّدِهِ وَأَسْهَمَ لَهُ بِجُورًا وَافْرًا مِنْ كَرِيمِ تَعَهُدِهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ اهْتِمَامِهِ وَاخْتَصَصَهُ بِالْقِسْمِ الْأَجْزَلِ مِنْ اسْتِثْمَالَةِ أَمْرِ الْأَمْوَالِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى سَدِّ الْخَلَلِ، وَبِرِجَائِهَا يُشْتَدَّقُ مَا يَطْرُقُ مِنَ الْحَادِثِ الْجَمَلِ، وَيُوفِّرُهَا تَنْشِيبَ شُقُونِ الْمَمْلَكَةِ وَتَسْتَقِيمَ أَحْوَالِ الدَّوْلِ، وَبِاسْتِخْرَاجِهَا عَلَى مُحْكَمِ الْعَدْلِ الشَّامِلِ وَقَضِيَّةِ^(d) إِنْصَافِ الْمَاعِلِ تَكُونُ الْعِمَارَةُ الَّتِي هِيَ أَصْلُ زِيَادَتِهَا وَمَادَّةُ كَثَرَتِهَا وَغَرَاظَتِهَا، وَلَمَّا كَانَتْ جِبَائِثُهَا عَلَى مُحْكَمِينَ: أَحَدُهُمَا بِحِيَّةٍ هَلَالِيَا، وَذَلِكَ مَا لَا يَدْخُلُهُ عَارِضٌ وَلَا إِشْكَالٌ وَلَا إِنْهَامٌ وَلَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى إِبْضَاحٍ وَلَا إِنْهَامٍ، لِأَنَّ شَهْرَ الْهِلَالِ يَشْتَرِكُ فِي مَعْرِفَتِهَا الْمُبْرَزِ^(e) وَالْمُقَصَّرِ، وَيَسْتَوِي

(a) بولاق: الاستقلال. (b) الأصل: حملانهم. (c) بولاق: استبدال. (d) بولاق: وصية. (e) بولاق: الأمير.

في الفهم بها المتقدم في العلم والمتأخر ، إذ كان الناس إلفين لأزيمة متعبداتهم
 السنين مما يحفظ لهم نظام مرسومهم . والآخر بجيء خراجيًا ويثبت بنسبته
 إلى الخراج ، لأنها تضبط أوقات ما يجري ذلك لأجله من النيل المبارك
 والزراعة ، وتحفظ أحيانه دون السنة الهلالية وتحرس أوضاعه ، ولا يستقل
 بمعرفته إلا من باشره وعلم^(٥) موارد ومصادره ، فوجب أن يؤقر^(٦) على السنة
 الخراجية النظر ويفعل فيها ما تعظم به الفائدة ويحسن فيه الأثر ، ويعتمد في
 إيضاح أمرها وتقديم حكمها على ما تتحلى به التواريخ وتزمن به السيرة ،
 ويكون ذلك شاهدًا لمساعي الشهد الأجل الأفضل الذي لا يزال ساهرا ليله
 في حياة الهاجعين ، شاهرا سيفه في حماية الرايعين ، مطلقا للدولة بدور
 الشعادة وشموسها ، مذكلا لها صغب الحوادث ، وشموسها ناطقة تارة بأن
 أئمة هو راعيها قد فضل الله سائسها وأشدت مسوسها ، وهذا حين التبصر
 والإرشاد وأوان التبيين للغرض والمراد ، لتساوى العائمة والخاصة في عمله ،
 وتسهلهم الفائدة في معرفة حكمه ، وتحقق المنفعة لهم فيما يمتنع من تدخّل
 السنين واشتياكها^(٧) ، وتيقن المقلدة عليهم فيما يؤمن من المضار التي يحتاج
 إلى استدراكها . معلوم أن أيام السنة الخراجية - وهي السنة الشمسية -
 بخلاف السنة الهلالية ، لأن أيام السنة الخراجية من استقبال التوزوز إلى آخر
 النسيء ثلاث مائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، وأيام السنة الهلالية
 لاستقبال المحرم إلى آخر ذي الحجة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوما ،
 والخيلاف في كل سنة بالتقريب أحد عشر يوما ، وفي كل ثلاث وثلاثين
 سنة سنة واحدة على حكم التقديم^(٨) ، ويعتضيه ما تقدم من الترتيب . فإذا
 اتفق أن يكون أول الهلالية موافقا لمدخل السنة الخراجية وكانت ينسبتهما
 واحدة ، استمر اتفاق الشمسية فيهما وبقي ذلك جاريا عليهما ولم تزا
 متداخلتين لكونه مدخل الخراجية في أثناء شهور الهلالية إلى انقضاء ثلاث
 وثلاثين سنة ، فإذا انقضت هذه المدة بطلت المداخلة وغلت السنة / الهلالية

(a) بولاق : عرف . (b) بولاق : بقصر . (c) بولاق : استقبلها . (d) بولاق : التقريب .

من نَوُوز يكون فيها ، وبحكم ذلك بطل اتفاق التسمية ويكون التفاوت سنة واحدة لليلة المقدم ذكرها . ومن أين يستمر بينهما ائتلاف أو يقدم لهما اختلاف ؟ أم كيف يقتضد ذلك أخذ من البشر والله تعالى يقول : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [الآية ٤٠ سورة يس] فقد وُضِع دليلُ التَّباعِد بما جاءَ مَنصوصًا في الكتاب ، وظَهَرَ بُزْهَانُهُ بِمَا اقْتَضَاهُ مُوجِبُ الْحِسَاب ، فيحتاج بحكم ذلك إلى نُقْلِ السَّنَةِ بِالتَّسْمِيَةِ^(٨) إلى التي تليها لتكون موافقةً للهِلَالِيَةِ بِالتَّسْمِيَةِ^(ب) وجاريةً معها ، وفائدةُ الثَّقُلِ أَنْ لَا تَخْلُو السَّنَةُ الْهِلَالِيَةُ مِنْ مَالٍ خَاصٍّ يُنْسَبُ إِلَى السَّنَةِ الْمُوَافِقَةِ لَهَا ، لِأَنَّ وَاِجِبَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ عَلَى عِظَمِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَأَزْدَاقِ الْمُتَرَفِّقَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَوْضَاعِهَا ، جَارِيَةٌ عَلَى أَحْكَامِ الْهِلَالِيَّةِ غَيْرِ مَعْدُولٍ بِهَا عَنْ ذَلِكَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَالْحِفَظَةُ عَلَى ثَمَرَةِ ارْتِفَاعِهَا مَتَعَيِّنَةٌ وَمَنْفَعَةُ الْعِنَايَةِ بِمَا تَجْرِي عَلَيْهِ وَاضِحَةٌ مَبِينَةٌ .

وَلَمَّا أَهْلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَخَمْسَ مِائَةٍ وَدَخَلَتْ فِيهَا سَنَةٌ تَسْعٌ وَتَسْعِينَ وَأَرْبَعٌ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِسَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسَ مِائَةٍ الْهِلَالِيَّةِ ، كَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الثَّبَاتِ وَالْتِمَاضِ وَالتَّفَاوُتِ وَالتَّنَافُرِ بِحُكْمِ إِهْمَالِ الثَّقُلِ فِيمَا تَقَدَّمَ ، مَا صَارَتِ السَّنَةُ الْهِلَالِيَّةُ الْحَاضِرَةُ لَا يُجِبِي^(ج) خَرَاجَ مَا يُوَافِقُهَا فِيهَا وَلَا تُذَكِّرُ غَلَاثَ السَّنَةِ الْحُجْرِيَّ مَالِهَا عَلَيْهَا إِلَّا فِي السَّنَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، فَهِيَ تُسْتَهْلُ وَتَنْقُضِي وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَرَاجِيَّ ارْتِفَاعٌ ، وَالْأَعْمَالُ تَطْيِفُ بِالزَّرَاعَةِ وَلَا حِظٌّ لَهَا فِي ذَلِكَ وَلَا انْتِفَاعٌ ، وَهَذِهِ الْحَالُ فَالْمَصْرُوفَةُ^(د) بِهَا عَلَى بَيْتِ الْمَالِ غَيْرِ خَوَاصَّةٍ ، وَالْأَدِيَّةُ فِيهَا لِلرِّجَالِ الْمُقْطَعِينَ بِأَيْدِيهِ وَأَشْبَابَ تَحْيِفُهَا^(هـ) إِيَّاهُمْ مُسْتَعْرَةً ، وَلَا يَسِيئُهَا مِنْ وَقْعٍ لَهُ يَأْتِيهَا وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِزِيَادَاتٍ ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَجَّلُونَ الْاسْتِقْبَالَ وَيَتَأَجَّلُونَ الْاسْتِغْلَالَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُثَقِّلْ هَذِهِ السَّنَةُ الْخَرَاجِيَّةُ كَانَتْ مُتَدَاخِلَةً بَيْنَ سَنَتَيْنِ هِلَالِيَّةٍ وَهِيَ مُوَافِقَةٌ لْغَيْرِهَا ، وَمَالُهَا يَجْرِي عَلَى سَنَةِ تَجْرِي بَيْنَهُمَا ، لِأَنَّ مَدْخَلَهَا فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنَ الْهِجْرَمِ سَنَةٌ إِحْدَى وَخَمْسَ مِائَةٍ وَأَنْقِضَاؤُهَا

(a) بولاق : الشسية . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : يجي . (d) بولاق : المضرة . (e) بولاق : لحوقها .

في العشرين من المحرم سنة اثنتين وخمسة مائة، وهي مُتداخلة بين هاتين السنتين ومألهما يجري على سنة إحدى وخمسة مائة، والحال في ذلك لا ينتهي إلى أقيد، ولا يزال القصاد يتزايد طول الأبد.

وقد رأى أمير المؤمنين، وبالله توفيقه، ما خرج به أمره إلى السيد الأجل الأفضل، الذي نبه على هذا الأمر وكشف غامضه، وأزال بحسن توصله مُتنافيه وتناقضه، أن يُوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل مُضمتًا ما رآه وذُكره، مودعًا إنفاذ ما أحكمه وقرره من نقل سنة تسع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمسة مائة لتكون موافقة لها ويجري عليها مالها، ويكون ما يشتادونه من إقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جاريًا على نظام محروس ونطاق مُحيط غير مُحسوس، وشاهدًا بنصيب مؤقَّت^٥ غير منقوص، ويتضح ما أنهم إشكاله التسمية، ويحول الاشتكراه في اختلاف التسمية، ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسة مائة، ويُنسب إلى^٦ مال الخراج والمقاسمات وما يُشتغل ويُجنى من الإقطاعات بما كان جاريًا على ذكر سنة تسع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمسة مائة، وتجري الإضافة إليها مجرى ما يتربع من الهلالي فيها لتكون سنة إحدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها وعلى مال السنة الخراجية بما يُشرح من انتقالها، وكذلك نقل سنة تسع^٧ وتسعين وأربع مائة الخراجية الثابتة بالتسمية إلى سنة إحدى وخمسة مائة المُشار إليها ويكون مالها جاريًا عليها.

فليعتمد ذلك في الدواوين بالخصرة وفي سائر أعمال الدولة قاصيها ودانيها، وقريبها ودانيها^٨، ولتنبه كافة الكتاب والمستخدمين وجميع العمال والمتصرفين إلى اقتناء هذا السن وأتباعه، وليحذروا الخروج عن أحكامه المقررة وأوضاعه، وليبادروا إلى اقتتال المرسوم فيه وليحذروا من تجاوزه وتعديه، وليُنسخ في دواوين الأموال

(a) بولاق : موافى . (b) ساقطة من بولاق . (c) الأصل وظ : سبع . (d) بولاق : وفارسها وشامها .

والجُيُوش المَنْصُورَة وَلِيَحْلُدْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ^(٥).

وَكُتِبَ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِ مِائَةٍ^١.

وقال القاضي الفاضل في «متجددات» سنة سبع وستين وخمس مائة، ومن خطه نقلت: مستهل المحرم نسيخ منشور بنقل السنة الحراجية إلى السنة الهلالية، والمطابق بين اسمها لموافقة الشهور العربية للشهور القبطية، وخلو سنة سبع من نوروز، فنقلت سنة خمس وستين وخمس مائة الحراجية إلى هذه السنة؛ و^(ب) كان آخر نقل نقلته هذه السنة في الأيام^(ب) الأفضلية، فإن سنة ثمان وتسعين وأربع مائة وسنة سبع وتسعين الحراجيتين، نقلنا إلى سنة إحدى وخمس مائة^(٥).

وسبب هذا الانقراج بينهما زيادة عند السنة الشمسية على عدد الهلالية أحد عشر يوماً، وإغفال الثقل في سنة ثلاث وثلاثين في أيام الوزير الأفضل رضوان بن ولحشي، وانسحب ذيل هذه الزيادة وتداخل السنين بعضها في بعض، إلى أن صار التفاوت بينهما ستين في هذه السنة، فنقلت؛ وهو ائتيال لا تغدو^(د) الشمسية، ولا يتجاوز اللفظ، ولا يتقص / مالا لديوان ولا لمقطع، وإنما يقصد به إزالة الإلباس وحل الإشكال.

وقال القاضي أبو الحسن^(٥): ونسخة الكتاب الذي أنشأه القاضي الفاضل:

«خَرَجْتَ الْأَوَامِرَ الْمَلِكِيَّةَ النَّاصِرِيَّةَ - زَادَ اللَّهُ فِي عِلَائِهَا^(١) - بِإِذْنِ هَذَا الْمَشْهُورِ: إِنَّا نُؤَيِّرُ مِنْ مُحْسِنِ النَّظَرِ مَا يُؤَيِّرُ أَحْسَنَ الْحَبَرِ، وَلَا يُقْصِرُ هُنَا الْفِكْرُ عَمَّا يُحَلِّي السَّيْرَ وَيُجَلِّي الْغَيْرَ^(٢)، وَلَا تَزَالُ خَوَاطِرُنَا تَقْتَلِي فَتُطْلَعُ الدَّرَارِي، وَتَقُوضُ فَتُخْرِجُ الدَّرَرَ. وَإِنْ أَوْلَى مَا اسْتَجَدْتُ بِهِ الْبَصَائِرُ، وَخَرَسَتْ فِيهِ الْمَصَائِرُ، كُلُّ أَمْرٍ يُصَحِّحُ الْمَعَامَلَاتِ وَيُسَرِّحُهَا، وَيُطْلِقُ عُقُولَهُمْ مِنْ عُقُولِ الْإِشْكَالِ وَيُسَرِّحُهَا.

(٥) بولاق: بيوت المال المعمورة. (b-b) ساقطة من ظ. (c) بولاق: وعسمائة الحراجية. (d) بولاق: يمدى.

(c) بولاق: أبو الحسين. (٢) بولاق: إعلائها. (g) بولاق: تحلى به السير وتجلي به الغير.

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٣-٤٨؛ ودارن المقرئ: المقرئ: اتعاط الحنفا ٣: ٣٢٤.

اتعاط الحنفا ٣: ٤٠.

ولما وَجِبَ نُقِلَ السَّنةُ الحَرَّاجِيَّةُ والمُطَابَقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الهِلَالِيَّةِ ، لِانْفِرَاجِهما
سَتَيْنِ ومُوافَقَةِ الشُّهُورِ الحَرَّاجِيَّةِ والهِلَالِيَّةِ فِي هَذِهِ السَّنةِ مَطْلَعِ المُشْتَهَلَيْنِ ،
أَمَضَيْنَا هَذِهِ السَّنةَ الحَالِيَةَ فِي هَذِهِ السَّنةِ الآتِيَةِ ، وَاسْتَحَرْنَا اللهَ تَعَالَى فِي نُقْلِ
سَتَيْنِ خَمْسَ وَسِتِّ وَسَتِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ إِلَى سَنَةِ سَبْعٍ وَسَتِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ،
الَّتِي سُمِّيَتْ بِهَذَا النُّقْلِ هِلَالِيَّةً حَرَّاجِيَّةً ، نَفْيًا لِلْأُمُورِ المُشْتَبِهَةِ وَالشُّبُهَةِ
المُؤَوَّهَةِ ، وَتَرْجِيحًا لِسِنِّي الإِسْلَامِ عَنِ التُّكْيُسِ وَلِتَأْرِخِهِ عَنِ مُلَابَسَةِ التُّلَيْسِ ،
وَإِعْلَانًا بِالْوِفَاقِ الَّذِي اسْتَشْمَرْتَهُ آبَاؤُنَا^(a) وَبَنُوها ، وَإِعْلَانًا بِاتِّبَاعِنَا عَوَايِدَ^(b)
السَّالِفِ الَّتِي خَلَفُوهَا لِلخَلْفِ وَبَيَّوْهَا .

وَفِي ذَلِكَ مَا تُحَمَّدُ بِهِ الْعَوَائِدُ ، وَتَنْفَسِحُ بِهِ الْمَذَاهِبُ ، وَتَكْتَسِرُ بِهِ
الْمَطَالِبُ ، وَتَزُولُ بِهِ الإِشْكَالُ ، وَيُؤَمِّنُ بِهِ الْإِخْتِلَالُ ، وَيُنَحِّسُ بِهِ الْغَلَطُ فِي
الْحِسَابِ ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ السَّنِينَ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَنْسَابِ ، وَيَحْفَظُ عَلَى الْعُمْرِ^(c)
مُعَامَلَتَهُ وَيُبْعِدُ عَنِ التَّأْرِخِ مُعَامَلَتَهُ ، وَيُقَرِّبُ عَلَى الْكَاتِبِ مُحَاوَلَتَهُ ،
وَيُضَرِّفُ عَنِ نِعْمَةِ اللهِ هُجَّتَهُ كَوْنَهَا مُقَدِّمَةً فِي التَّسْنِيَةِ مُؤَخَّرَةً فِي التَّسْمِيَةِ ،
وَعَنِ مُعَامَلَةِ بَيْتِ الْمَالِ وَصُحْبَتِهِ^(d) كَوْنَهَا مَقْدُوقَةً بِالْمَطَّلِ وَقَدْ بَالِغَتْ فِي
التَّوْفِيَةِ ، لِأَنَّ مِنْ أَعْطَى فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَتِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ اسْتِحْقَاقَ سَنَةِ
خَمْسَ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ مَطَّلَ بِحُكْمِ الشَّمْعِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَنْجَزَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ .
فَتُوسَمُ هَذِهِ السَّنةُ الْمُبَارَكَةُ بِالهِلَالِيَّةِ الحَرَّاجِيَّةِ ، وَتُرَوَّعُ الْحُسْبَانَاتُ بِهَذَا
الْوَضْعِ ، وَيُعْمَلُ فِي التَّعْطِيرَاتِ وَالشُّجْعِيَلَاتِ عَلَى هَذَا . فَلْيُفْعَلْ فِي ذَلِكَ
مَا يَقْضِي بِازْتِجَاجِ هَذَا الْإِنْفِرَاجِ وَجَبَّ هَذَا الصُّدْعِ ، وَلْيُعْلَمَ فِي الدَّوَابِينِ
عِلْمُهُ ، وَلْيَتَفَقَّدَ فِيهَا حُكْمُهُ بَعْدَ ثُبُوتِهِ ، بِحَيْثُ^(e) يَثْبُتُ مِثْلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ
تَعَالَى .

(a) بولاق : آباؤنا . (b) بولاق : باتباع عناية بموائد . (c) الأصل رط : القمر ، وبولاق : القمر . (d) بولاق :
وصمة . (e) بولاق : إلى حيث .

وأما تأريخ العرب

فإنه لم يزل في الجاهلية والإسلام يُعَمَلُ بِشُهور الأَهْلَةِ، وعِدَّةُ شُهور السنة عندهم اثنا عشر شهراً، إلا أنهم اختلفوا في أسمائها.

فكانت العرب العاربة تُسمِّيها: ناثق، ونقيل، وطليق، وأسنح، وأنتح^١، وحلث، وكسح، وزاهر، ونؤط، وخؤف، وبغش، فناتق هو المحرم، ونقيل هو صفر... وهكذا ما بعده على سرد الشهور^٢.

وكانت تُمَوِّدُ تُسمِّيها: موجب، وموَجِر، ومورد، ومُنْزِم، ومُضْدِر، وهَوْبِر، وهَوْبِل، ومَوَهَاء، وذَمِير، ودَاير، وخَيْقَل، ومُشِيل. فموجب هو المحرم، وموَجِر صفر، إلا أنهم كانوا يَتَذَكَّرُونَ بِالشُّهور من ذَمِير وهو شهر رَمَضَانَ، فيكون أول شهور السنة عندهم^٣.

ثم كانت العرب تُسمِّيها بأسماء آخر، وهي: مؤَمِّر، وناجر، وخَوَّان، وصَوَّان، وحتتم، وزَبَاء، والأَصَم، وعاديل، وناتق، وواغل^٤، وهَوَّاع، ويَزَك^٥. ومَعْنَى المؤَمِّر أنه يَأْتِمُر بِكُلِّ شَيْءٍ مِمَّا تَأْتِي بِهِ السَّنَةُ مِنْ أَقْصِيَّتِهَا؛ وناجر من النَّجَر وهو شِدَّةُ الْحَرِّ؛ وخَوَّان «فَعَال» من الحَيَاة، وصَوَّان - بكسر الصاد وضمتها - «فُعَال» من الصِّيَانَةِ؛ والزَّبَاء الداهية العظيمة المتكاثفة، سُمِّيَ بذلك لكثرة القتال فيه؛ ومنهم من يقول: بعد صَوَّان الزَّبَاء، وبعد الزَّبَاء بَائِدَة، وبعد بَائِدَة الْأَصَم، ثم واغل، وباطل، وعاديل، ووَزَنَة، ويَزَك، فالبائِد من القتال، إذ كان فيه يَبِيدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، ويجرى المَقْلُ بذلك فقليل: «العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ بَيْنَ جُمَادَى وَرَجَبٍ»، وكانوا

(a) بولاق: وألح. (b) بولاق: ناثق وواغل.

^١ من هنا وحتى بداية الجزء الثاني غير موجود في نسخة الظاهرية التي رجعت أنها منقولة من مسودة المؤلف.

^٢ قارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٤٩-٣٥٠.

^٣ البهروني: الآثار الباقية ٦٩.

^٤ ذكرها التورني باسم: مؤمّر، ناجر، خَوَّان، صَوَّان.

(١٥٧:١).

يَسْتَعِجِلُونَ فِيهِ وَيَتَوَخَّوْنَ بُلُوغَ مَا [كَانَ لَهُمْ مِنْ] ^(a) النَّارِ وَالْغَارَاتِ قَبْلَ [دُخُولِ] ^(b) رَجَبٍ فَإِنَّهُ شَهْرٌ حَرَامٌ، وَيَقُولُونَ لَهُ «الْأَصَمُّ» لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُفُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ، فَلَا يُسْمَعُ فِيهِ صَوْتُ سِلَاحٍ، وَالْوَاغِلُ الدَّائِلُ عَلَى شَرَابٍ وَلَمْ يَذْغُوهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَهَجَّمُ عَلَى شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ يَكْثُرُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ شُرْبُهُمُ الْخَمْرِ، لِأَنَّ الَّذِي يَتْلُوهُ هِيَ شَهْرُ الْحَجِّ؛ وَنَاطِلٌ هُوَ مِثَالُ الْخَمْرِ، سُمِّيَ بِهِ لِإِفْرَاطِهِمْ فِيهِ فِي الشَّرْبِ، وَكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِمْ لَذَلِكَ الْمِثَالِ؛ وَأَمَّا الْعَادِلُ فَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَكَانُوا يَسْتَقِيلُونَ فِيهِ عَنِ الْبَاطِلِ؛ وَأَمَّا الرَّئِثَةُ ^(c) فَلِأَنَّ الْأَتْعَامَ كَانَتْ تَرِنُ ^(d) فِيهِ لِقُرْبِ النَّخْرِ، وَأَمَّا بُرْكَ فَهُوَ لِبُرُوكِ الْإِبِلِ إِذَا أُخْضِرَتْ ^(e) الْمَشْحَرُ ^(f).

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ الْحَرَمَ مُؤَمَّرًا، وَصَفَرُ نَاجِرٍ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ نَصَارَ، وَرَبِيعُ الْآخِرِ خَوَانٌ، وَجُمَادَى الْأُولَى حَمِينٌ، وَجُمَادَى الْآخِرَةُ الرَّئِثَةُ، وَرَجَبُ الْأَصَمِّ - وَهُوَ شَهْرٌ مُضَرٌّ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَصُومُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ تَمْتَنُّ فِيهِ وَتَمِيرُ أَهْلَهَا، وَكَانَ يَأْتُنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهِ، وَيَخْرُجُونَ إِلَى الْأَشْفَارِ وَلَا يَخَافُونَ - وَشَعْبَانُ عَادِلٌ، وَرَمَضَانُ نَاتِقٌ، وَشَوَّالٌ وَاعِلٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ هَوَاعٌ، وَذُو الْحِجَّةِ بُرْكَ، وَيُقَالُ فِيهِ أَيْضًا أَبْرُوكَ، وَكَانُوا يَسْمُونَهُ الْمَيْمُونُ.

ثُمَّ سَمَّيَتِ الْعَرَبُ أَشْهُرَهَا بِالْحَرَمِ، وَصَفَرُ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ، وَرَبِيعُ الْآخِرِ، وَجُمَادَى الْأُولَى، وَجُمَادَى الْآخِرَةِ، وَرَجَبُ، وَشَعْبَانُ وَرَمَضَانَ، وَشَوَّالُ، وَذِي الْقَعْدَةِ، وَذِي الْحِجَّةِ ^(g).

/وَاشْتَقُّوا أَسْمَاءَهَا مِنْ أُمُورٍ اتَّفَقَ وَقُوعُهَا عِنْدَ تَسْمِيَتِهَا: فَالْحَرَمُ كَانُوا يُخْرَمُونَ فِيهِ الْقِتَالُ، وَصَفَرُ كَانَتْ تُصَفَّرُ فِيهِ بَيُوتُهُمْ لَخُرُوجِهِمْ إِلَى الْعَزْوِ، وَشَهْرُ رَبِيعٍ كَانَا زَمَنَ الرَّبِيعِ، وَشَهْرُ جُمَادَى كَانَا يَجْمَدُ فِيهِمَا الْمَاءُ لَشِدَّةِ الْبَرْدِ، وَرَجَبُ الْوَسْطِ، وَشَعْبَانُ يَشْعُبُ فِيهِ الْقِتَالُ، وَرَمَضَانَ مِنَ الرَّمَضَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِيهِ الْقَيْطُ، وَشَوَّالُ تَشِيلُ فِيهِ الْإِبِلُ أَذْنَانَهَا، وَذُو الْقَعْدَةِ لِقُومِهِمْ فِي دُورِهِمْ، وَذُو الْحِجَّةِ لِأَنَّهُ شَهْرُ الْحَجِّ ^(h).

(a) زيادة من البيروني. (b) بولاق: الزباء. (c) بولاق: ترب. (d) بولاق: حضرت.

^١ نقلًا عن البيروني: الآثار الباقية ٦٠-٦١. ^٢ قرن مع المسعودي: مروج الذهب ٣٤٦:٢-٣٤٧.

^٣ نفسه ٦٠؛ الفلقشدي: صبح الأعشى ٣٧٣:٢ - البيروني: الآثار الباقية ٣٢٥.

٣٨٢، وبينها خلاف في رسم الكلمات.

وأنت إذا تأملت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أولاً، ثم اشتقاقها ثانياً، تبين لك أن بين التسميتين زماناً طويلاً، فإن صغرَ في أحدهما هو صميمُ الحزب^(١) وفي الآخر زمضان، ولا يمكن ذلك في وقت واحد أو وقتين متتارين.

وكانت العرب أولاً تستعمل هذه الشهور على نحو ما يستعمله أهل الإسلام، إما بطريق إلهي أو لأن العرب لم يكن لها ديانة بمراعاة حساب حركات الثورين، فاحتاجت إلى استعمال مبادئ الشهور لرواية الأهلّة، وجعلت زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين: فربما كان بعض الشهور ثامناً، أعني ثلاثين يوماً، وربما كان ناقصاً أعني تسعة وعشرين يوماً، وربما كانت أشهر متوالية ثامنة أكثرها أربعة وهذا نادر، وربما كانت أشهر متوالية ناقصة أكثرها ثلاثة.

وكان يقع حجج العرب في أزمئة السنة كلها، وهو أبداً عاشر ذي الحجة من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإذا انقضى موسم الحج تفرقت العرب طائفةً أماكنها، وأقام أهل مكة بها. فلم يزلوا على ذلك ذهاباً طويلاً إلى أن غيروا دين إبراهيم وإسماعيل، فأحبوا أن يتوسعوا في معيشتهم، ويجمعوا حججهم في وقت إدراك شغلهم من الأدم والجلود والثمار ونحوها، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة في أطيب الأزمنة وأخصبها، فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يقرب من عهد شمويل نبي بني إسرائيل، وعملوا النسيء قبل الهجرة بنحو مائتي سنة، وكان الذي يلي النسيء يقال له القلئس، يغني الشريف^١.

وقد اختلف في أول من أنسا الشهور منهم: فقيل القلئس هو عدي بن زيد، وقيل القلئس هو شريك بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، وأنه قال: أرى شهور الأهلّة ثلاث مائة وأربعة وخمسين يوماً، وأرى شهور العجم ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً. فبيننا وبينهم أخذ عشر يوماً، ففي كل ثلاث سنين ثلاثة وثلاثون يوماً، ففي كل ثلاث سنين شهر. وكان إذا جاءت ثلاث سنين قَدَّم الحج في ذي القعدة، فإذا جاءت ثلاث سنين أخر في المحرم. وكانت العرب إذا حجت قلّدت الإبل الثعال وألبستها الجلال وأشعرتها، فلا يتعرض لها أحد إلا تخفم.

(٥) بولاق: الحروب.

^١ في لسان العرب لابن منظور (٦٥: ٨) القلئس: البحر الغدير.

وكان النسيء^١ في بني كِنانة، ثم في بني ثَعْلَبَة بن مَالِك بن كِنانة، وكان الذي يلي ذلك منهم أبو ثُمَامَة المَالِكِي. ثم من^٢ بني فُقَيْم.

وبنو فُقَيْم هم الثَّعَالِبة، وهو مُنَسَّى الشُّهُور، وكان يقوم على باب الكَعْبَة فيقول: إِنَّ إِلَهَكُمْ الْعَزَّى قد أَنَسَات صَفَرَ الْأَوَّل، وكان تُحِلُّهُ عَامًا وَتُحَرِّمُهُ^٣ عَامًا، وكان أَتْبَاعُهُمْ على ذلك غَطَفَان وَهَوَازِن وَسَلِيم وَفَيْم.

وآخر الثَّعَالِبة مُجَنَادَة بن عَزُوف بن أُمَيَّة بن قَلْع بن عَبَاد بن حَذَيْفَة بن عَجْد بن فُقَيْم. وقيل الْقَلْعَس هو حَذَيْفَة بن عَجْد بن فُقَيْم بن عَدِيَّ بن عَامِر بن ثَعْلَبَة بن الْحَارِث بن مَالِك بن كِنانة، ثم تَوَارَث ذلك منه بَنُوهُ من بعده، حتى كان آخِرُهُمْ الذي قَامَ عَلَيْهِ الْإِسْلَام أبو ثُمَامَة مُجَنَادَة.

وكانت الْقَرْبُ إِذَا قَرَعَتْ من حَجَّجِهَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ، فَأَحَلَّ لَهُمْ من الشُّهُور وَحَرَّمَ، فَأَحَلُّوا مَا أَحَلَّ وَحَرَّمُوا مَا حَرَّمَ. وكان إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْسِيَ مِنْهَا شَيْئًا، أَحَلَّ الْحَرَّمَ فَأَحَلُّوه، وَحَرَّمَ مَكَانَهُ صَفَرَ فَحَرَّمُوهُ، لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ الْأَرْبَعَةِ [الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ]^٤.

فَإِذَا أَرَادُوا الْهَدْْيَ، اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَجَاب وَلَا أَعَاب فِي أَمْرِي، وَالْأَمْرُ لِمَا قَضَيْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَخَلَّلْتُ دِمَاءَ الْحَيَلَيْنِ مِنْ طَيِّئٍ وَخَنَقَم، فَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ - أَيِ ظَفِيرَتُمْ بِهِمْ - اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَخَلَّلْتُ أَحَدَ الصَّفَرَيْنِ: الصَّفَرَ الْأَوَّل، وَأَنَسَاتِ الْآخَرَ من العام المقبل. وَإِنَّمَا أَحَلَّ دَمَ طَيِّئٍ وَخَنَقَم، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُدُّونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ من بين جميع الْقَرْب.

وقيل أَوَّل من أَنَسَأَ سُرُرَهُ بن ثَعْلَبَة وَانْقَرَضَ، فَأَنَسَأَ من بعده ابن أخيه الْقَلْعَس، وَاسْمُهُ عَدِيَّ ابن عَامِر بن ثَعْلَبَة بن الْحَارِث بن كِنانة، ثم صار النسيء في وَلَدِهِ، وكان آخِرُهُمْ أبو ثُمَامَة

(a) بولاق: في. (b) بولاق: يحمله ... بحرمة. (c) الأصل: العدة الأربعة، والإضافة من سيرة ابن هشام مصدر النقل.

Moberg, A., *Et*² art. *Nās* VIII pp. ١١٠٦-٨٤
977-78.

^٢ نقلًا عن ابن هشام: السيرة النبوية ٤٥:١-٤٦ (النويري: نهاية الأرب ١: ١٦٦).

^١ انظر عن النسيء فيما تقدم ٧٠٨، ٧٤٠ وكذلك المسعودي: التنبيه والإشراف ٢١٧-٢١٨ البيروني: الآثار الباقية ١١-١٢، ٦٢-٦٣ ابن هشام: السيرة النبوية ٤٤:١-٤٧ (النويري: نهاية الأرب ١: ١٦٥-١٦٧ نلليو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى

مُجَنَّدَةٌ . وَقِيلَ أَخَذَ^(٥) عَوْفُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ قَلْعٍ ، عَنْ أَبِيهِ أُمَيَّةَ بْنِ قَلْعٍ ، عَنْ جَدِّهِ قَلْعِ بْنِ عُبَادٍ ، عَنْ جَدِّ أَبِيهِ عُبَادِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ جَدِّ جَدِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَادِ بْنِ قُتَيْبٍ .

وَكَانَ يُقَالُ لِحَدِيثَةِ الْقَلْعِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَسَبَ^(٦) الشُّهُورَ عَلَى الْقَرْبِ ، فَأَحْلَتْ مِنْهَا مَا أَحَلَّ ، وَحَرَّمَ^(٧) مَا حَرَّمَ .

• ثُمَّ كَانَ بَعْدَ عَوْفِ الْمَذْكُورِ وَلَدُهُ أَبُو ثَمَامَةَ مُجَنَّدَةٌ بْنُ عَوْفٍ ، وَعَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ ، وَكَانَ أَهْلَهُمْ ذِكْرًا وَأَطْوَلُهُمْ أَمَدًا ، يُقَالُ إِنَّهُ نَسَبَ^(٨) أَرْبَعِينَ سَنَةً .

وَلَهُمْ بِقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ قَيْسٍ جَذَلُ الطَّعَانِ يُفْتَخَرُ :

[الوافر]

وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ يَسْبِقْ بِوَيْرٍ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ يَمْلِكْ لِمَا
أَلَسْنَا النَّاسِيَيْنَ عَلَى مَعَدٍّ شُهُورَ الْحُلِّ لِنَجْعَلَهَا حَرَامًا
وَقَالَ^(٩) عُبَادُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَنْفِ الْكَلْبِ الصُّبَيْدَاوِيِّ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خَزِيمَةَ :

[الطويل]

/أَتَزْعُمُ أَنِّي مِنْ قُتَيْبٍ بْنِ مَالِكٍ لَعَنَرِي لَقَدْ غَيَّرْتَ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ
لَهُمْ نَاسِيٌ يَمْشُونَ تَحْتَ لِيَاثِهِ يُحِلُّ إِذَا شَاءَ الشُّهُورَ وَيُحَرِّمُ

وَقِيلَ كَانَتْ الْقَرْبُ تَكْبِسُ فِي كُلِّ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً بِسَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَكَانَتْ شُهُورُهُمْ ثَابِتَةً مَعَ الْأَزْمَةِ ، جَارِيَةً عَلَى سَنَةِ وَاحِدٍ ، لَا تَتَأَخَّرُ عَنْ أَوْقَاتِهَا وَلَا تَتَقَدَّمُ .

وَكَانَ النَّسِيءُ الْأَوَّلُ لِلْمَحْرَمِ ، فَسُمِّيَ صَفَرُ بِاسْمِهِ ، وَشَهْرُ رَيْبِ الْأَوَّلِ بِاسْمِ صَفَرٍ . ثُمَّ وَالُوا بَيْنَ أَشْهُاءِ الشُّهُورِ ، فَكَانَ النَّسِيءُ الثَّانِي بِصَفَرٍ فَسُمِّيَ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ بِصَفَرٍ أَيْضًا ، وَكَذَلِكَ حَتَّى دَارَ النَّسِيءُ فِي الشُّهُورِ الْإِثْنِي عَشَرَ وَعَادَ إِلَى الْمَحْرَمِ ، فَأَعَادُوا فِعْلَهُمُ الْأَوَّلُ .

وَكَبَانُوا يَمْدُونَ أَذْوَارَ النَّسِيءِ ، وَيَحْدُونَ بِهَا الْأَزْمَةَ فَيَقُولُونَ : قَدْ دَارَتْ السُّنُونَ ، مِنْ لَدُنْ زَمَانٍ كَذَا إِلَى زَمَانٍ كَذَا وَكَذَا ، ذَوْرَةٌ ؛ فَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ تَقَدُّمُ شَهْرٍ عَنْ فَضْلِهِ مِنَ الْقُصُولِ الْأَرْبَعَةِ ، لَمَّا يَجْتَمِعُ مِنْ كُسُورِ سَنَةِ الشُّنْسِ وَبَقِيَّةِ فَضْلِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَنَةِ الْقَمَرِ الَّذِي أَلْحَقُوهُ بِهَا ، كَبَسُوهَا كَبَسًا ثَانِيًا ، وَكَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ ذَلِكَ بِطُلُوعِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ وَشُقُوطِهَا ، حَتَّى هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَكَانَتْ نَوْبَةُ النَّسِيءِ بَلَغَتْ شُعْبَانَ ، فَسُمِّيَ مُحْرَمًا وَشَهْرَ رَمَضَانَ صَفَرًا .

(٥) ساقط من بولاق . (٦) بولاق : أنساب . (٧) فاحل ... وحرم . (٨) بولاق : قال آخر .

وقيل إن الناس الأول نسأ المحرم وجعله كجسأ ، وأخر المحرم إلى صفر ، وصفر إلى ربيع الأول ، وكذا بقية الشهور . فوقع لهم في تلك السنة عاشر المحرم ، وجعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرا ، ويُقَل الحَج بعد كل ثلاث سنين شهرا . فقصى على ذلك مائتان وعشر سنين ، وكان انقضاؤها سنة حجة الوداع .

- وكان وقوع الحج في السنة التاسعة من الهجرة عاشر ذي القعدة ، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بالناس .

ثم حج رسول الله ﷺ في السنة العاشرة حجة الوداع ، لوقوع الحج فيها عاشر ذي الحجة كما كان في عهد إبراهيم وإسماعيل ، ولذلك قال ﷺ في حجته هذه : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» ، يعني رجوع الحج والشهور إلى الوضع^١ .

١٠

وأنزل الله تعالى إبطال النسيء بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النِّسْيُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجِلُّونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا جِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ [آية ٣٧ سورة الفرقان] ، فبطل ما أخذته الجاهلية من النسيء ، واستمر وقوع الحج والصوم برؤية الأهلة ، والله الحمد .

- ١٠ وكانت العرب لها تواريخ معروفة عندها قد بادت ، فمما كانت تُؤرخ به أن كنانة أوتحت من موت كعب بن لؤي ، حتى كان عام الفيل أروخا^(١) به ، وهو عام مولد رسول الله ﷺ . وكان بين كعب بن لؤي والفيل خمس مائة وعشرون سنة ، وكان بين الفيل وبين الفجار أربعون سنة . ثم عدوا من الفجار إلى وفاة هشام بن المغيرة فكان ست سنين ، ثم عدوا من وفاة هشام بن المغيرة إلى بئان الكعبة فكان تسع سنين ، ثم كان بين بئانها وبين هجرة رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة .

٢٠

(١) بولاق : فلرخوا .

^١ انقلشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩٧ .

ثم وَفَّعَ التَّارِخُ مِنْ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَمَنْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ : جَمَعَ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - النَّاسَ فَسَأَلَهُمْ : مِنْ أَيِّ يَوْمٍ يُكْتَبُ التَّارِخُ ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : مِنْ يَوْمِ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَ أَرْضَ الشُّرَكِ ، فَفَعَلَهُ عُثْمَرُ ^١ .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ : أَخْطَأَ النَّاسُ فِي الْعَدَدِ ، مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِهِ وَلَا مِنْ وَفَاتِهِ ، إِنَّمَا عَدُّوا مِنْ مَقْدِمَةِ الْمَدِينَةِ ^٢ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ التَّارِخُ مِنَ السَّنَةِ الَّتِي قَدِمَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ^٣ .

وَقَالَ قُتَيْبَةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ كَانَ عِنْدَ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَامِلٌ جَاءَ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ لِعُثْمَرُ : أَمَا تُؤَرِّخُونَ ؟ تَكْتَبُونَ فِي سَنَةِ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَكَذَا . فَأَرَادَ عُثْمَرُ وَالنَّاسُ أَنْ يَكْتَبُوا مِنْ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالُوا مِنْ عِنْدِ وَفَاتِهِ ، ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ الْهِجْرَةِ . ثُمَّ قَالُوا : مِنْ أَيِّ شَهْرٍ ؟ فَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ رَمَضَانَ ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ فَقَالُوا مِنَ الْحَرَمِ ^٤ .

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : رُفِعَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَبٌّ وَمَحَلَةٌ شَعْبَانُ ، فَقَالَ : أَيُّ شَعْبَانَ هُوَ ؟ أَشَعْبَانُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَوِ الْآخِي ^٥ ؟ ثُمَّ جَمَعَ وَجُوهَ الصُّحَابَةِ فَقَالَ : إِنَّ الْأَمْوَالَ قَدْ كَثُرَتْ ، وَمَا قَسَمْنَا مِنْهَا غَيْرَ مُؤَقَّتٍ ، فَكَيْفَ التَّوَصُّلُ إِلَى مَا يُضْبَطُ بِهِ ذَلِكَ ؟ فَقَالُوا : يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ ذَلِكَ مِنْ رُسُومِ الْقُرُوسِ . فَعِنْدَهَا اسْتَحْضَرَ عُثْمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْهُؤُمُرَانَ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ : إِنَّ لَنَا جِسَابًا نَسْمِيهِ «مَاءَ رَوْزٍ» مَعْنَاهُ حِسَابُ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ؛ فَعَرَّبُوا الْكَلِمَةَ ، وَقَالُوا مُؤَرِّخٌ ، ثُمَّ جَعَلُوهُ اسْمَ التَّارِخِ وَاسْتَعْمَلُوهُ ^٦ . ثُمَّ طَلَبُوا وَقَفًا يَجْعَلُونَهُ أَوَّلًا لِلتَّارِخِ ذُوْلَةَ الْإِسْلَامِ ، فَأَتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَبْدَأُ مِنْ سَنَةِ الْهِجْرَةِ .

وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ تَصَرَّمَ مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ وَأَيَّامِهَا الْحَرَمِ وَصَفَرِ وَأَيَّامِ مِنْ رَجَبِ الْأَوَّلِ . فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى تَأْسِيسِ الْهِجْرَةِ ، رَجَعُوا الْقَهْقَرَى ثَمَانِيَةً وَسِتِينَ يَوْمًا ، وَجَعَلُوا التَّارِخَ مِنْ أَوَّلِ مُحَرَّمِ هَذِهِ السَّنَةِ . ثُمَّ أَحْصَوْا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فِي الْحَرَمِ إِلَى آخِرِ عُثْمَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَ عَشْرَ سِنِينَ وَشَهْرَيْنِ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢ : ٣٩١ .

^٥ نفسه ٢ : ٣٨٨ - ٣٨٩ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

^٦ انظر فيما تقدم ٧٠٠ .

^٣ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

وأما إذا/ حسب عظمه المقدس من الهجرة حقيقة، فيكون قد عاش ﷺ بعدها تسع سنين وأخذ عشر شهرا واثنين وعشرين يوما .
وكان بين مولده ﷺ ، وبين مولد المسيح - عليه السلام - خمس مائة وثمان وسبعون سنة ،
تتقص شهرين وثمانية أيام.

• وابتداء تأريخ الهجرة يوم الخميس أول شهر الله المحرم ، وبينه وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسة وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنين وعشرون يوما ، على ما عرفت من الخلاف في ذلك . وبينه وبين تأريخ الإسكتندر بن فيليبس المجدوني الرومي تسع مائة وإحدى وستون سنة قمرية وأربعة وخمسون يوما ، تكون من السنين الشفعية تسع مائة واثنين وثلاثين سنة ومائتين وتسعة وثمانين يوما ، عنها تسعة أشهر وتسعة عشر يوما . وبينه وبين تأريخ القبط ثلاث مائة وسبع وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يوما .

١٠ وقال ابن ما شاء الله^١ : إن انتقال المرأة^(a) من المثلثة الهوائية التي هي بُرج الجوزاء وذواتها^(b) ، إلى بُرج السرطان ومثلثته المائية التي كانت دَوْلَةُ الإسلام فيها ، عند تمام ستة آلاف وثلاث مائة وخمسة وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما من وقت القِران الأول الواقع في بدء التحرك - يعني خلق آدم عليه السلام - ، وأن القِران من هذه المثلثة وَقَعَ في أربع دَرَج ودقيقة واحدة من بُرج القفر ، وهو قِران المِلَّة الإسلامية .

٢٠ قال : وفي السنة الثانية من هذا القِران وُلِدَ رَسُولُ الله ﷺ ، وكان بين دخول الشمس بُرج الحمل في هذه السنة وبين أول يوم من سَنَةِ الهجرة ، سُتُون فارسية جَدُّهَا إحدى وخمسون سَنَةً وثلاثة أشهر وثمانية أيام وست عشرة ساعة ، وكان^(c) من وَقْت الطوفان إلى وَقْت قِران المِلَّة ثلاثة آلاف وتسع مائة واثنين عشرة سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما . وَزَعَمَت اليهودُ أَنَّ من آدم - عليه السلام - إلى سنة الهجرة أربعة آلاف واثنين وأربعين سنة وثلاثة أشهر . وَزَعَمَت النَّصَارَى أَنَّ بينهما خمسة آلاف وتسع مائة وتسعين سنة وثلاثة أشهر . وَزَعَمَت الجُوس - أعني الفُرس - أَنَّ بينهما أربعة آلاف ومائة واثنين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما . وقد عَرَفْتُ أَنَّ شُهورَ تأريخ الهجرة

(a) بولاق : المر . (b) بولاق : دولتها . (c) بولاق : فكان .

^١ عن ابن ما شاء الله انظر فيما تقدم ٧٠٣ .

قَمَرِيَّة ، وَأَيَّامُ كُلِّ سَنَةٍ مِنْهُ عِدَّتُهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ يَوْمًا وَخُمْسٌ وَشُدُسٌ يَوْمٌ .
 وَجَمِيعُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى رُؤْيَةِ الْهِلَالِ عِنْدَ جَمِيعِ فِرْقِ الْإِسْلَامِ ، مَا عَدَا الشَّيْبَةَ فَإِنَّ
 الْأَحْكَامَ مَبْنِيَّةٌ عِنْدَهُمْ عَلَى عَمَلِ شُهُورِ الشَّنَةِ بِالْحِسَابِ ، عَلَى مَا سَتَرَاهُ فِي ذِكْرِ الْقَاهِرَةِ وَخُلَفَائِهَا .
 ثُمَّ لَمَّا اخْتَنَجَ مُنْتَجَمُ الْإِسْلَامِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ مَا لَا يُدُّ مِنْهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَهْلَةِ وَسَخَتْ الْقِبْلَةُ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ ، بَنَوْا أَزْيَاجَهُمْ عَلَى التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ ، وَجَعَلُوا شُهُورَ الشَّنَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَهْرًا كَامِلًا وَشَهْرًا نَاقِصًا ،
 وَابْتَدَأُوا بِالْحَرَمِ اقْتِدَاءً بِالصُّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . فَجَعَلُوا الْحَرَمَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَصَفَّرَ تِسْعَةَ
 وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَزَيْعًا الْأَوَّلَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَزَيْعًا الْآخَرَ تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَجُمَادَى الْأُولَى
 ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَجُمَادَى الْآخِرَةَ تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَرَجَبٌ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَشَعْبَانٌ تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ
 يَوْمًا ، وَرَمَضَانٌ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَشَوَّالٌ تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَذَا الْقَعْدَةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَذَا الْحِجَّةِ
 تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا . وَزَادُوا مِنْ أَجْلِ كَثَرِ الْيَوْمِ ، الَّذِي هُوَ خُمْسٌ وَشُدُسٌ ، يَوْمًا فِي ذِي الْحِجَّةِ
 إِذَا صَارَ هَذَا الْكَثْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ ، فَيَكُونُ شَهْرُ ذِي الْحِجَّةِ فِي تِلْكَ الشَّنَةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ،
 وَيَسْلُكُونَ تِلْكَ الشَّنَةَ كَبِيشَةً ، وَيَصِيرُ عَدْدُهَا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، وَيَجْتَمِعُ فِي كُلِّ
 ثَلَاثِينَ مِنَ الْكَبِيشِ أَحَدُ عَشَرَ يَوْمًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا تَارِيخُ الْفَرَسِ وَيُعْرَفُ أَيْضًا بِـ«تَارِيخِ يَزْدَجَرْد» ، فَإِنَّهُ مِنْ ابْتِدَاءِ تَمَلُّكِ يَزْدَجَرْدَ بْنِ شَهْرِيَارِ
 ابْنِ كِشْرَى أَبَرْوِيز ، أَرِخَ بِهِ الْفَرَسُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَزْدَجَرْدَ قَامَ فِي الْمَمْلَكَةِ ، بَعْدَمَا تَبَدَّدَ تَمَلُّكُ فَارِسَ ،
 وَاشْتَقَلَى عَلَيْهِ النَّسَاءُ وَالْمُتَغَلَّبُونَ ، وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ مُلُوكِ فَارِسَ ، وَبَقِيَّتُهُ تَمَزَّقَ مُلْكُهُمْ ^١ .

وَأَوَّلُ هَذَا التَّارِيخِ يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ تَارِيخِ الْهَجْرَةِ تِسْعُ سِنِينَ وَثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةِ
 وَثَلَاثُونَ يَوْمًا ؛ وَأَيَّامُ سَنَةِ هَذَا التَّارِيخِ تَنْقُصُ عَنِ الشَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ رُبْعَ يَوْمٍ ، فَيَكُونُ فِي كُلِّ مِائَةٍ
 وَعَشْرِينَ سَنَةً شَهْرًا وَاحِدًا ، وَلَهُمْ فِي كَبِيشِ الشَّنَةِ آرَاءٌ لَيْسَ هَذَا مُوَضِغٌ لِمَوَادِّهَا . وَعَلَى هَذَا التَّارِيخِ
 يَتَعَمَّدُ فِي زَمَانِنَا أَهْلُ الْإِرَاقِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ ، وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^٢ .

^١ المالي وملوكها [في] كتاب «درر العقود الفريسة» في ترجمة
 منشا موسى ؛ وهو عبارة عن مذكرات كتبها المقرئ في
 نهاية مجلد الأصل المنقول عنه هذه النسخة لاستخدامها في
 مؤلفاته الأخرى تمامًا مثل ما جاء في نهاية الجزء الثالث من
 أصل المؤلف خاصًا بذكر أمراء العرب في بيروت ، مما ليس له
 علاقة بموضوع الخطط أو تاريخ مصر .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٣١ ؛ المسعودي : مروج
 الذهب ٣٤٣ : ٢ ؛ القلقشندي : صبح الأضنى ٢ : ٣٩٩ .

^٢ نهاية الجزء الرابع من نشرة Gaston Wiet ؛ وبعد
 ذلك في نسخة الأصل بابٌ لا علاقة له بسياق الموضوع أو
 بموضوع الكتاب ، عنوانه : «الخبر عن الحفصيين ملوك تونس»
 وبه «الخبر عن أجناس السودان» وآخرها : وقد ذكر أخبار